الهلال

يناير - فبراير ١٩٤٤





الهلال

الجزء الأول ـ السنة ٥٢

يناير وفبراير ١٩٤٤ ـ ٦ صفر ١٣٦٣

عنوان المكاتبات :

دار الهلال : مصر ـ البوستة العمومية

AL HILAL — Cairo, Egypt

(January - February 1944)

القصص

عدد خاص

قيمة الاشتراك

٥٠ قرشاً في مصر والسودان و ٧٥ قرشاً في الخارج أو ثمنها ٣ر٧٥ دولار ٥/١٥ جنيه انجليزي

Subscription Rates : Egypt and Sudan P.T. 50 — Other countries P.T. 75 or £-/15/5 or $3.75.

القصص

هذا هو الاسم الذى اخترناه لهذا العدد لنفتتح به السنة الثانية والخمسين . وقد شئنا أن يكون خاصاً بالقصة لننقل بها قراءنا من حوادث الحياة العادية ، وشؤون الصراع الحربي الدائم الذى طال أمده حتى ضاقت به النفوس ، إلى جو آخر تستريح فيه أعصابهم ، ويغذى خيالهم ، ويهدى اليهم طائفة من اللذة والمتعة

على أننا — كخطة الهلال — لم نبتعد عن الظروف الحاضرة ، وما يدور فيها من حوادث ، بل أردنا أن نصل الحاضر بالماضى ، ونمزج بين الماضى والحاضر ، فنقدم لقرائنا مجموعة مختارة من القصص الحديث والقصص القديم . وقد توخينا أن تكون منوعة بقدر ما سمح به المقام ، ففيها القصة العربية ، والقصة الرومانية ، والقصة المصرية ، والقصة الروسية ، والقصة الحربية ، وقد ازدان هذا العدد بطائفة من الصور والرسوم المتقنة ، فكان تحفة العام الجديد

واليك ما يحويه هذا العدد الممتاز

سُقوط رُوما

الصفحات الاولى من تاريخ الصراع بين الالمان والايطاليين

آذنت الشمس بالاشراق على الاكمة الرابية وسط السهل الفسيح ، حين وقفت الى جانبيها كتيبتان من الفرسان ، على رأس كل منهما قائد فى زى أجناده ، وفى طليعتها جماعة منها تحمل شعارها : فأما شعار احداهما فتمثال نسر صيغ من البرونز ، وأما شعار الاخرى فصورة مشوهة لرأس حيوان يشبه الثور . .



واقتيدت الأسيرة بالأصفاد وسط جمع من شبان روما وفتياتها مصفدين بالأغلال ، إلى حيث زج بهم فى معسكرات التيوتون

وقفت الكتيبتان متقابلتين عند سفح الاكمة التي أشرف عليها رجل محايد لا ينتمي الى أي منهما ، ونادى الرجل في كل من الجماعتين نداء بلغتها ، فتقدم قائداها ومع كل منهما عشرة من رجاله الاشداء ، حتى اذا التقيا تبادلا التحية وفي صوت أحدهما رنة من اللباقة والدماثة ، وفي صوت الآخر طنين من الخشونة والجفاف

من الرجلان ؟ انهما قيصر زعيم الرومان ، وأريوفستوس زعيم التيوتون

ومتى كان ذلك ؟ قبل الميلاد بثمان وخمسين سنة

فهل عرف الرجلان يومئذ أن الخصومة القائمة بينهما هي الصفحة الاولى من سجل حافل بالخصومة والصراع والحروب مدى ألفين من السنين ؟ . . ومن يدري فقد لا تكتب الصفحة الاخيرة من هذا السجل أبدا ، ما بقيت على الارض شعوب متنافرة ، وما بقي في يد الانسان سلاح قتال ، وما بقي أمر الناس الى قوم يرون أمجادهم لا تقام الا من الاجداث والاشلاء ؟

وهل عرف الرجلان يومئذ أن الحديث الذي سيدور بينهما فوق تلك الاكمة القائمة في أرض فرنسا ، هو نفس الحديث الذي سيدور بين أخلافهما أجيالا في اثر أجيال ؟ هل عرف أريوفستوس أن بعد ألفين من السنين سيقوم رجل من قومه فيعيد على سمع العالم ما قال في ذلك اليوم السحيق عن تفوق جنسه على سائر الاجناس وحقه في حكم العالم جميعا حكم السادة للعبيد ، وعن اغرائه خصمه بأن يشاطره وزر العدوان على الشعوب الضعيفة واقتسامها بينهما غدرا وتآمرا ، وعن بثه في صفوف عدوه من الدعاة والعيون من يوهنون قوته ، ويفلون عزمه ، ويضللون سعيه ، أملا في وعود خادعة ، أو رهبة من قوى غشوم ؟

سجل قيصر ما جرى بينه وبين خصمه أريوفستوس من الحديث في ذلك اليوم ، فاقرأ ما جرى :

قال قيصر : « يا أريوفستوس ، ان قبائلك الهائجة على حدود امبراطوريتنا أثارت ضروبا من الفتنة ، وأشاعت ألوانا من الفزع بين الرومان ، ومع هذا قابلنا هذه السيئات بالعرف والحسنى دهرا طويلا ، لم نشأ أن نلقى قبائلك بادىء الأمر بالعنف والقسوة ، بل سالمناها وهادناها وصبرنا على أذاها كثيرا . ثم حاولنا أن نستميلها ونستميلك الينا بتلك الهبات السخية التي أغدقناها عليك روما ، اذ اعترفت بك ملكا ، ومنحتك شرفا قلما منحته ، وهو اعتبارك صديقا للشعب الروماني . ولكن هذا كله لم يجد نفعا ، فهجرت موطنك وزحفت الى أرضنا ، نزلت أرض الغال وهي جزء من بلادنا ، وأسأت الامر في قبائل « الايدوى » وهي حليفتنا منذ عهد بعيد . فرجائي اليك يا أريوفستوس أن تبرح أرضنا بكتائبك الى شرق نهر الرين ، وأن تعيد الى قبائل « الايدوى » ما أخذته من أبنائها وبناتها من الاسرى والرهائن »



وغدت بلاسيديا جارية في معسكر القيوتون ، تطوف بدنان الخمر على جنودهم السكارى
العربدين الذين ليس لهم من الدين أو الخلق ما يردعهم عن المنكر أو يعدلهم من الفاحشة

فأجابه أريوفستوس في صوت أجش له دوى وطنين ، وفي عبارة خشنة فيها اثارة واستفزاز ، وبكلام أعده من قبل تبريرا لعمله ، واغراء لخصمه ان كان لينا ضعيفا ، وتهديدا له ان كان صلبا عنيدا . قال :

« انني لم أعبر الرين ولم أهبط أرض الغال من تلقاء نفسي . ان سكان الغال هم الذين استنجدوا بي لاخلصهم مما تنزلون بهم من العسف والأذى ، فاستمعت لندائهم واستجبت لرجائهم ، وتركت وطني وقومي وجئتهم منقذا ومخلصا . أليس من حقي أن أنقذهم وأخلصهم ، فان لي خطة في حكم الشعوب أشرف من خطتكم ، فيجب على أن اتخذها في حكم ما حولى من الشعوب المستضعفة على أمرها ؟

« وليس في وسع قبائل الغال أن تنكر انها هي التي دعتني اليها بمحض ارادتها . أما ان قامت اليوم تناوئني وتقاومني ، فلا بد أن يكون ذلك باثارتكم وتحريضكم اياها

« واني أرى شرفا عظيما في صداقتي للشعب الروماني . ولكن اذا اقتضتني هذه الصداقة تضحية حقوقي ومطالبي وأماني ، فاني أرفضها أشد الرفض ، وأنكرها كل الانكار

« ومع هذا فاني أعرض عليك عرضا : اتركني أفتح هذه البلاد وأسودها حرا طليقا ، أعنك بجنودي وسلاحي على الظفر في كل حرب تزمع اقامتها ، وعلى غلبة كل شعب تنوى اخضاعه . أما ان رفضت عرضي هذا السخي الكريم ، فاني أعدك عدوا يحق لي ويجب على حربه وكفاحه

« وبعد ، فتذكر يا قيصر أنني حين أقضي عليك في الحرب بالهزيمة ، سيقوم في روما جم من أقوى رجالها بأسا وأعظمهم شأنا ، فيولونى تأييدهم ومؤازرتهم . انني أعلم هذا علم اليقين ، أقضي به الى من بعثوا بهم الى من الرسل والعيون ، ليعرضوا صداقتهم اذا هزمتك وقضيت عليك . ولكنى أوثر صداقتك على صداقتهم ، فاقبل عرضي هذا وعد بجندك ودعني وقبائل الغال

« هذا قولي اليك يا قيصر ، ولك ان تختار .. »

ولما هم قيصر بأن يرد على كلام أريوفستوس جاءه من جنوده من ينبئه بأن سهام العدو وأحجاره أخذت تتساقط على معسكرهم ايذانا بأن رحى الحرب قد دارت . فلوى قيصر عنان جواده ، وعاد الى رجاله يقودهم الى القتال ، بل الى الدفاع . ودارت المعركة يومين عاد بعدهما أريوفستوس يقترح الاجتماع مع قيصر مرة أخرى ، منذرا بأن هذا هو اليوم الاخير من عهد السلام ، فاما أن يستجيب خصمه لرغبته ويذعن لارادته ، واما الحرب التي لا تبقى ولا تذر .. ورد قيصر على هذا بأن أوفد الى خصمه اثنين من ضباطه الشبان يبحثان معه الامر ، فلم يكن من أريوفستوس الا أن ألقى في أيديهما الحديد ، وعدهما عيونا جاءوا يسترقون الاخبار

أرأيت الى « توهرر » ما قبل الميلاد : يغزو قوما آمنين فى ديارهم بحجة أن من حقه ومن واجبه أن يحكمهم بطريقة أشرف من التى يحكمون بها ، ويغرى خصمه بأن يدع له هؤلاء القوم ضحية سهلة مقابل أن يعينه على اخضاع غيرهم من الاقوام المغلوبة على أمرها . ثم ينذر خصمه بأن له فى قومه « كويسلنج » يعرض عليه صداقته ومؤازرته ان هو قهر قومه وفتح وطنه وقضى على زعيمه . ثم يدير رحى القتال ويوقد نار الحرب وهو ما زال يتحدث الى خصمه حديث المهادنة ويعرض عليه شروط السلام !

ودارت المعركة بين الرجلين . وهزم أريوفستوس هزيمة منكرة ، فقدر بلوتارك عدد من قتل من التيوتون بثمانين ألف رجل . ولم ينج أريوفستوس الا بعد أن وقعت زوجتاه وابنته أسيرات فى أيدى أعدائه . وعبر الرين مسرعا فى قارب الى حيث انتهى أمره الى غير رجعة ، ولا يعرف التاريخ كيف ختم الزعيم التيوتونى أيامه الأخيرة بعد أن ظل عشرين سنة ذائع الصيت فى أرجاء العالم ، يبث فيها الفتنة ، ويشيع الخوف ، ويقيم المعارك ، ويغير على الآمنين ، ويلقى الوعود ليخلفها ، ويقدم العهود لينقضها .

حدث هذا منذ ألفين من السنين . أفرأيت شيئا تغير طوال هذه العصور سوى الأسماء؟

□

لم تكن هذه الموقعة التى ظفر فيها قيصر وانهزم أريوفستوس أول معركة ولا آخر معركة بين الرومان والتيوتون . فقبل ذلك بخمسين سنة ، فى سنة ١١٣ ق. م. روعت ايطاليا بأنباء رهيبة تركتها نهبا بين الظنون والمخاوف . فان الرومان الذين عاشوا جنوب جبال الألب دهورا طويلة ، آمنين مستقرين ، منصرفين الى حضارتهم يقيمون دعائمها بالتشريع والتنظيم ، والى امبراطوريتهم يوسعون جوانبها بالفتح والاستعمار ، أخذوا الآن يرون هذه الجبال الشاهقة لا ترد عنهم عادية التيوتون الذين تجمعوا وراءها فى جيش لجب رهيب ، وأخذوا يتأهبون لتسلق سفوحها ثم الانحدار من قممها الى حيث يقعون على سكان السهل وقوع الجوارح على فرائسها . وكانت الانباء مروعة مخيفة ، فقد وصفت هؤلاء الأقوام بأنهم شبه عراة من اللباس ، وبأن شعورهم بيضاء كشعور العجائز ، وبأن عددهم يبلغ مئات ومئات من الالوف ، وبأنهم لا يأتون ليحاربوا ثم يعودوا الى بلادهم ، بل يأتون ومعهم نساؤهم وأطفالهم ودوابهم وأمتعتهم . وكانت الانباء مروعة مخيفة حين علم الناس أن لهؤلاء القوم من أسلحة القتال ومن فنون الحرب ما لا عهد ولا قبل لهم به ، من سيوف مرهفة طويلة ، ومن دروع تغطى قامة الرجل كلها ، ومن أنهم يربطون جنودهم بعضا ببعض بحبال غليظة ، فتجعل منهم صفوفا متراصة لا ثغرة فيها ، ولا قبل لجندى بأن يتخلف عن مكانه فيها . على أن أروع ما نقلته هذه الانباء هو أن نساء هؤلاء القوم يسرن وراء الرجال ، يصحن صيحات مدوية منكرة تثير نخوتهم وتستفز حميتهم

وتدفع بهم الى الوغى فى حماسة وسعار . أما من يقع أسيرا فى أيدى هؤلاء الجنود فيدفع به الى أولئك النساء ليغمدن فيه المدى والخناجر ثم ليقطعن جسمه شلوا شلوا ، ثم ليأخذن جمجمته فيقرأن فى عظامها صفحة المستقبل ويتنبأن عن الغيب المجهول !

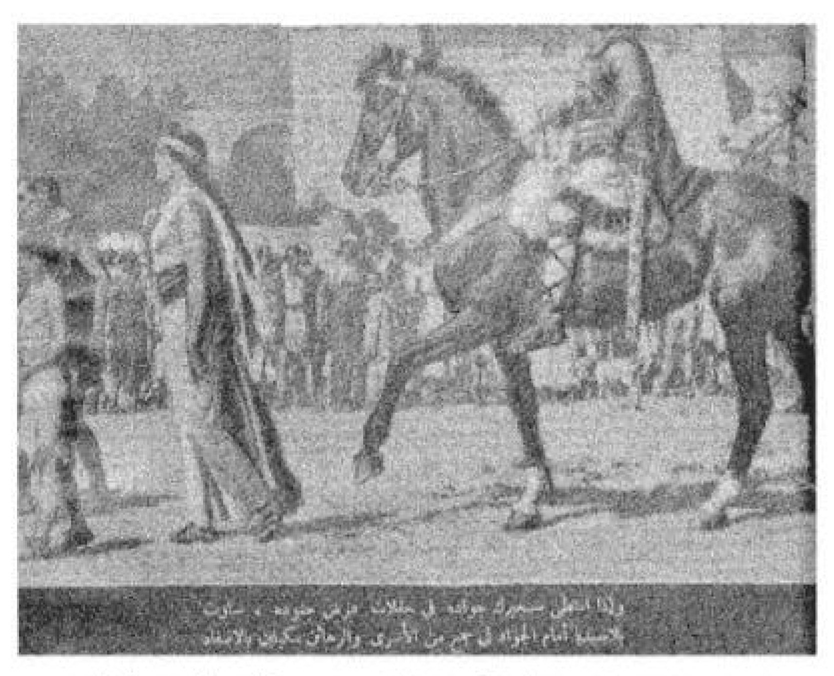
هذه هى قبائل التيوتون والكمبرى التى جاءت من شمال ألمانيا وشرقها ، مجتاحة الآفاق التى تترامى بين أنهار الفستولا والاودر والألب ، متجهة الى ما وراء الألب ، الى روما قلب العالم ومدينة الذخائر

ولكن ماريوس ، عم قيصر ، لاقى هذه القبائل وهزمها ، وردها مدحورة الى ما وراء الجبال . فهل انتهى أمرها ؟ كلا ، بل أعادت الكرة بعد خمسين سنة ، بل ظلت تعيدها جيلا اثر جيل ، حتى وقعت روما فى يدها

لماذا ترك هؤلاء القوم موطنهم وجاءوا يغزون أوطان الناس ؟ أضاقت بهم أرضهم فزحفوا الى الجنوب يلتمسون « مجالا حيويا » يرتعون فى فضائه الفسيح ؟ كلا ، ان آفاق موطنهم لم تضق بهم ذرعا ، ولكنهم أرادوا موطنا أخصب أرضا ، وأوفر خيرا ، وأرضى عيشا ، هم الذين ضاقوا بوطنهم ، ببرده القارس ، بنباته الضئيل ، بماشيته العجفاء ، بخمره المرة المذاق . وقد سمعوا فى أقاصيصهم أن الى الجنوب من تلك الجبال التى تتعالى الى السماء مغطاة بالادغال معممة بالثلوج هائمة بالذئاب والضوارى ، بلادا تشرق عليها الشمس أبدا ، فتزكو فيها الاشجار ، وتطيب الثمار ، وتسمن الانعام ، وتحلو خمرة الكروم . لا ، ليس هذا فحسب ، بل فيها تستريح الابدان من عناء الطبيعة الجاهدة ، فالطعام غذى شهى ، والشراب سائغ روى ، والارض بهما تسخو وتجود

لماذا يستأثر قوم دونهم بهذه الارض وبهذه الشمس وبهذه الخيرات؟ فليأخذوا لانفسهم هذا كله ، وليأخذوه بالسلاح ، وليعدوا أنفسهم ليكونوا قوم حرب وجلاد ، وليجعلوا ايطاليا غايتهم المرتجاة ، وروما هدفهم المنشود

وهكذا غدت قبائل التيوتون ولا هم لها ولا عمل الا الحرب ، اتخذوها عملا يمارسونه ، وغرضا يتقنونه ، ومجدا يباهون به سائر الاقوام . وتركوا فلاحة الارض ورعى الانعام لنسائهم ، أما رجالهم فلا يليق بهم الا حمل السلاح . انهم يقاتلون عاما ويستريحون عاما ، ولكنهم فى عام السلم لا يسمرون الا فى حلقات المبارزة يخضبونها بالدماء . انهم يزدرون كل من لا يلبس شكة الجندى ، ولا يقدرون الا من شجت السيوف والرماح وجهه ورأسه . وانهم لا يتغنون الا بأغانى الحرب ، ولا ينشدون الا أناشيد الفروسية ، فالحرب مهنتهم ، يتساوى فى ذلك شعراؤهم وقصاصوهم ومغنوهم ورجالهم جميعا . والصورة التى تتراءى لهم فى خيالهم هى صورة الفرسان الهائمين على جيادهم فى الفيافى والادغال ، ممتشقين السيوف مفوقين السهام ، وهم يهزجون بأناشيد



ولذا البطل [illegible] جواده فى حلبات [illegible] ، سارت
[illegible] أيام الجواد فى [illegible] من الأسرى [illegible]

الصراع والنضال . فهم على الجملة قوم خلقوا للحرب : حرب الهجوم لا حرب الدفاع، الحرب التى يثيرها المعتدى الباغى ، لا الحرب التى تفرض على الوادع والمهيض

وتنقضى سنون وقرون وتاريخ أوربا ليس الا سلسلة من المعارك المتصلة بين القوتين : الرومان والتيوتون . وتكون الغلبة لهؤلاء حينا وتكون لاولئك أغلب الاحيان . على أن الطريف فى هذه المعارك أنها صور مصغرة للحرب القائمة فى يومنا هذا . فتجد فى سيرة التيوتون فى ذلك التاريخ السحيق ما تجده اليوم فى سيرة خلفائهم الالمان . فالدافع الذى سير الالمان غربا الى فرنسا وشرقا الى روسيا ، لم يكن ضيق ألمانيا بهم ، بل كان ضيقهم هم بألمانيا . فأخذوا يلتمسون أرضا ، أو « مجالا حيويا » على حد تعبيرهم الحديث يعيشون فيه عيشة أرغد وأرخى . وهذا الذى يأتيه الالمان اليوم من أوزار وآثام فى الشعوب التى تقع تحت أيديهم قد أتى أجدادهم وأسلافهم مثله فى الشعب الرومانى حين ظفروا به ودخلوا عاصمته روما . وكذلك تلك الكارثة التى نزلت بالشعب الالمانى فى أواخر الحرب الماضية ، والتى توشك أن تحل به فى هذه الايام ـ كارثة تحطم الروح المعنوى ، وتمرد الشعب على قادته ، وشيوع الفرقة فى صفوفه وما تزال الحرب دائرة ـ هذه الكارثة ذاتها كانت تحل بالتيوتون فى أيامهم الغابرة ، فتضيع عليهم ثمرة النصر وقد أوشكوا ان يجنوها،

وتوردهم مورد الهزيمة وكانوا يبدون أنهم عنه بعيدون

فهذه المعركة التي دارت في غابة توتوبرج في السنة التاسعة بعد الميلاد تظهر جانبا من الروح الالماني . فقد أراد الامبراطور الروماني أوغسطوس أن يحذو حذو قيصر في تدعيم أركان الامبراطورية وبحصن حدودها . وكان همه منصرفا الى حدودها الشمالية حيث تهيم تلك القبائل التيوتونية متربصة بها الدوائر . فأخذ يسور تلك الحدود الممتدة من بحيرة جنيف الى البحر الاسود ليرد عادية التيوتون ، ويؤمن الرومان شرهم الوبيل . ولكنه أخطأ من ناحية أخرى ، فاتخذ في قصره عددا من شبان التيوتون وامرائهم جنودا وحراسا ، وأغدق عليهم من عطائه ما حسب أنه يكفل صدقهم واخلاصهم . وكان منهم شاب يدعى هرمان ، أو أرمنيوس في لغة الرومان ، فجعل هذا الشاب يسترق أخبار الجيش الروماني ، ويتعرف الى خططه وأساليبه ، وأسلحته وعتاده ، ليوقع به حين تحين له الفرصة . وكان يضمر الغدر والخيانة ويتظاهر بالصدق والولاء ، فلما زحف الجيش الى الشمال ليخمد فتنة قائمة ، غرر هرمان بقائد الجيش ووجهه الى غابة توتوبرج حيث أعد له كمينا من رجاله التيوتون ، فظهروا للجيش الروماني على حين غرة تحت جنح الظلام ، وأعملوا فيه سيوفهم وخناجرهم فأفنوا رجاله على بكرة أبيهم

لم تكن هذه معركة ، بل كانت مذبحة ، ولم يكن هرمان جنديا شريفا ، بل خائنا غادرا . ومع ذلك فما زال الالمان يعدون هرمان بطلا من ابطال تاريخهم ، يلتمسون في سيرته المثل والقدوة ، ويلقنونها على أولادهم وتلاميذهم فخرا يذكر ودرسا يحتذى

ولقى هرمان جزاءه ، وكان الجزاء من جنس العمل ، خسة وخيانة ، فان ابن عمه سيجستوس أراد أن يتقرب الى الرومان بأن يثأر لهم من هرمان . ولم يكن له من سبيل على هرمان ، غير أنه كان متزوجا من أخته . فماذا فعل ؟ قدم للرومان زوجته هذه انتقاما من أخيها هرمان . وكان الرومان حينذاك في طور من أطوار الانحلال الخلقي ، فأقروه على فعلته وكافأوه . وبينما كان سيجستوس في حفل من حفلات الرومان جالسا بين أشرافهم يعبث ويلهو ، كانت زوجته هذه تسير أمامه وأمام الجمع الحاشد ، مكبلة بالاغلال وقد تعلق بصدرها ابنها من سيجستوس ، وكانت وضعته وهي في غيابة السجن !

هذه قصة من قصص الخيانة المزدوجة التي تكررت في تاريخ القوم مرارا . فكثيرا ما انتصروا في الحرب بما أوتوا من أوزار الغدر ، وكثيرا ما ضيعوا ما كسبوا بأوزار الخيانة

□

ظلت هذه القبائل التيوتونية الهائمة في شمال الامبراطورية الرومانية تتربص بها الدوائر ، وتترقب اليوم الذي تعبر فيه جبال الألب الى روما . فلما أخذ ظهر العملاق

الروماني يتقوس وينحني تحت اعباء الشيخوخة الفانية ، أخذت أسراب التيوتون تتجمع وتتأهب لتثب وثبتها على روما العجوز

وكان امبراطور روما حينذاك ، هونوريوس ، غلاما غرا لاهيا . كان لا يدرك مدى هذه الاخطار الرهيبة التي تحف بالامبراطورية من كل جانب ، وتزحف اليها من كل طريق . وكان لا يدرك أنه يحيا وسط أتون من الدسائس والمكائد والمؤامرات يوشك أن تتقد ناره ويثور سعيره بين عشية وضحاها . وكان لا يدرك أن هؤلاء التيوتون وان لم يأخذوا بنصيب من الحضارة والسياسة أبرع الناس في بث العيون ونشر الدعاية



واقامة الفتن وبلبلة الافكار . وكان الى هـذا كله لا يدرك أن روما ، وقد أوهنها الترف المسرف والثراء الباهظ ، قد آن عليها أن تسلم الأمر لأقوام اتخذوا الحرب مهنتهم، والخشونة شعارهم ، والغلبة هدفهم ، وحكم الشعوب المستضعفة غايتهم القصوى . ومع هذا كله فان ذلك الشاب السادر اللاهي كان يتولى أمر امبراطورية تضم ايطاليا وفرنسا واسبانيا وأفريقيا ومصر وألبانيا واليونان

وهكذا آن للتيوتون أن يحققوا أملهم الذى جاهدوا وحاربوا له طويلا . آن لهم أن يضعوا أيديهم على روما وما فيها من كنوز تجمعت لها على مر الاجيال من تلك الاقاليم الغنية التى بسطت عليها سلطانها دهرا طويلا . فأجمعوا أمرهم على أن يزحفوا الى روما من أيسر الطرق المؤدية اليها . ولم يكد ينتهى القرن الرابع حتى هبطت جموعهم من مواطنها فى ألمانيا زاحفة الى سهول البلقان ووهادها . وعبر هؤلاء « البرابرة البيض » نهر الطونة فى جموع حاشدة تحت امرة قائدهم « ألرك » وهو قائد قوى المراس ، بارع القيادة ، مسرف القسوة . وزحفت هذه الجموع وعاثت فى تلك الآفاق ، تسبقها روايات عن قوتها الضخمة وقسوتها المنكرة ، فلا يملك الناس من أمرهم الا أن يفروا من قراهم وبيوتهم ، هائمين على وجوههم على غير قصد معروف ، تاركين لاولئك الجنود ديارهم يحرقونها ، وماشيتهم يذبحونها ، وأمتعتهم يحملون منها ما يريدون

وكان أول اقليم ذل تحت أقدام هؤلاء البرابرة اقليم اليونان ، حيث نزلوا به سهلا لا يلقون فيه جيشا يصدهم أو عدوا يناوئهم . فماذا فعلوا فيه ؟ يقول المؤرخ « جيبون » فى هذا : « لقد ذبحوا الرجال والشبان الذين هم فى سن تمكنهم من حمل السلاح وخوض القتال . وسبوا النساء والفتيات الجميلات ، وغنموا ما فى القرى من ماشية ومتاع ، ثم تركوا بيوتها نهبا للنار »

كانوا أرجالا من الجراد ، تهبط على الارض الغنية المزدهرة قليلا ، فلا تدعها الا قفرا يبابا . ولم يكونوا يحجمون عن العسف والفساد ولو خرج لهم الناس عن كل ما يملكون من متاع ومال . وقد مر بمدينة أثينا غداة أن تركها التيوتون أحد المؤرخين ، فكتب فى وصفها : « انها تشبه الفراء التى تكسو ماشية نهش كل ما فيها من لحم ، ودق كل ما فيها من عظم ، وسفح كل ما فيها من دم »

وأخذ ألرك طريقه الى « روما » وهو ينشر الرعب ويخلف الدمار أينما حل وأينما سار ، حتى هبط شمال ايطاليا سنة ٤٠٢ ، وتقدم فى سهول فينيسيا حتى وقف على أبواب ميلان ، حيث كان يقيم الامبراطور الشاب هونوريوس . ولم يكن ثمة ما يعنى الامبراطور الا أن ينجو بنفسه فلاذ بالفرار الى سويسرا ، حيث أقام فى احدى قلاعها . ولكن ميلان لم تعدم رجلا من أبنائها ينهض للدفاع عنها ، وهو القائد سيليتشو الذى قاوم التيوتون

طويلا ودحرهم فى معارك شتى . ولكن خصومه من بنى قومه تآمروا به وتألبوا عليه ، حتى أوقعوه فى حبائل ألرك ، فأزهقت روحه وهو لائذ بكنيسة اعتصم بها ومن بقى معه من جنوده . وكان قتل هذا القائد الحربى آخر عقبة فى طريق ألرك الى روما ، فتقدم اليها فى جيش بلغ زهاء خمسمائة ألف نسمة

وكانت أخت الامبراطور ، الاميرة بلاسيديا ، أثبت من أخيها جنانا ، وأحفل منه قلبا ، فلم تلذ بالفرار كما لاذ ، بل بقيت فى روما مع قومها تنتظر مصيرها المحتوم . وكانت المدينة مسورة بالاسوار المنيعة محصنة بالقلاع الشاهقة ، وقام جنودها على منافذها ومشارفها متأهبين للقاء الغزاة

ولم تكن أقدام التيوتون قد وطأت من قبل أرض روما الا أقدام من وقع منهم فى المعارك السابقة أسيرا . أما اليوم فهاهم على أبوابها يزمعون اقتحامها غزاة وأسيادا . ولم يكن لهم من قصد اذ يدخلونها الا أن ينهبوا ما فيها من كنوز وأموال ، وأن يسلبوا أهلها ما يملكون من متاع ، والا أن يشبعوا نهمهم ويرووا غلتهم من نسائها وفتياتها .. فهذا كل ما كانت تسع له العقلية التيوتونية : أما الشرائع الرومانية ، أما الاخلاق المسيحية ، أما الفنون والآداب والفلسفات ، فكل ذلك لا يعنيهم كثيرا أو قليلا ، وانما هم جياع ظلماء يريدون طعاما وخمرا ، انهم فى عسر وضيق ويريدون ذهبا وفضة ، انما هم جياع ظلماء يريدون أبدانا يهتصرونها شهوة ومتاعا ، بل تنكيلا وتعذيبا

وكان ألرك يعلم أن روما لم تتأهب للصمود طويلا ، فضرب عليها الحصار وحال دون وصول الطعام الى أهلها . وأقام وسط نهر التبر سدا فأغلق فى وجه المدينة هذا الباب الذى يصلها بما حولها . وأقام الى جوار المدينة معسكرات جنوده ، وانتظر استسلامها بعد قليل . واشتد الامر بسكان روما ، فثقلت عليهم وطأة الجوع والضيق ، وتفشى فيها الوباء وكثر بينهم الموتى ، وشاع فيهم اليأس والقنوط ، ولم يكن بد من التسليم والاذعان . فاجتمع مجلس الشيوخ فى المدينة ، وقرر ايفاد اثنين من رجاله الى ألرك يفاوضانه فى شروط الهدنة

وقدم الرسولان الى معسكر ألرك ، وأرادا أن يتظاهرا بأن فى وسع المدينة أن تصمد وتقاوم طويلا ، ليخففا من غلوائه فيما يفرضه من الشروط . فقالا له ان حصون المدينة ضخمة منيعة ، وأسوارها شاهقة سميكة ، فلا سبيل الى اقتحامها . فأجابهما فى سخرية قاسية : « كلما كانت كومة الهشيم كبيرة سرت فيها النار سريعا » . ثم أملى عليهما شروطه وهى أن يسلم اليه كل ما فى المدينة من الذهب والفضة والمال والجواهر ، وكل ما فيها من أثاث وصور وتماثيل ، وأن يطلق سراح كل من وقع فى يدها أسيرا من أبناء القبائل التى تسكن وراء نهر الطونة ، وطلب الى هذا كله مبلغا ضخما من المال تدفعه له فى كل عام

ولم يصدق الرسولان أذنيهما فيما سمعنا ، فسألاه فى صمت وخشوع : « وماذا يبقى لنا بعد هذا ؟ » . فقال : « حسبكم حياتكم أتركها لكم »

ولم يكن بد من الاذعان لهذه الشروط ، ولكن كان ثمة شرط أقسى من ذلك كله . فقد أبى ألرك أن يرفع الحصار عن المدينة الا بعد ان يضع يده على نفر من أبناء الاشراف وبناتهم ، يتخذهم رهائن ريثما تنفذ الشروط التى أملاها . وكان فى مقدمة هذه الرهائن أخت الامبراطور الاميرة بلاسيديا . وهى فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها ، بارعة الحسن فاتنة الجمال . ورضخ أهل روما وأذعنوا ، فاقتيدت الاميرة وسط جمع من شبان روما وفتياتها ، مصفدين بالاغلال ، الى حيث زج بهم فى معسكرات التيوتون

ودخل ألرك المدينة الخالدة ، فكان أول تيوتونى يضع قدمه فيها غازيا . على أنه كان على شىء من الشهامة والثقافة ، فتعلم من الرومان بعض أخلاقهم وعاداتهم ، تعلم منهم الاستحمام بالماء الساخن ، وتعلم منهم حلق اللحية بالموسى . وكذلك كسر حدة أتباعه المتبربرين الذين أرادوا ان يعملوا أيديهم فى كنوز المدينة، وخناجرهم فى رجالها ونسائها، وأحسن معاملة الاميرة بلاسيديا ، دون أن يطلق سراحها

ولما رفع الحصار عن المدينة وأبيح ارسال الطعام الى أهلها الجوعى ، دخلتها آلاف من العربات محملة بالطعام ثم خرجت منها محملة بما فى المدينة من روائع الآثار ونفائس الكنوز . بل ان كنوزها الاثرية المصوغة من الذهب صهرت وأذيبت لتوزع بين هؤلاء الجنود المتبربرين أجورا ورواتب لهم

ولما نال ألرك ما أراد ، وما كان يريد سوى كنوز روما وأموالها ، اقترح على الامبراطور هونوريوس عقد معاهدة تحالف . وكان الامبراطور يبتغى السلامة ويؤثر العافية بأى ثمن كان ، وكان لا يعنيه من أمر الدولة شىء لا يتصل بأهوائه ولذاته . حتى قيل ان أحد رجاله دخل عليه ذات يوم فزعا وقال : ان الجرمان استولوا على روما . فانتابت الامبراطور نوبة من الحزن العميق ، وقال وهو ينشج بالبكاء : لقد كانت سليمة منذ ساعات ! فلما دهش الرجل من هذا الكلام أوضح ما يريد بكلمة روما . فلم يلبث أن سرى عن الامبراطور ، اذ علم أن التى وقعت فى قبضة الجرمان هى روما عاصمة الامبراطورية ، وليست دجاجته المحبوبة التى كان يسميها « روما » !

ولما تم لالرك اخضاع ايطاليا شرع فى غزو صقلية لينتقل منها الى أفريقيا ومصر . ولكنه أصيب بحمى شديدة قضت عليه بعد أيام ، فدفن فى قبر فسيح يتسع له ولمجموعة كبيرة من الكنوز والاسلحة وضعت حول جدثه طبقا لعقائده الوثنية . وبعد أن دفن الميت ذبح كل من اشترك فى حفر القبر ورؤيته ، حتى لا يعرف أحد من الاحياء موضع القبر ، فتبقى كنوزه بمنأى عن يد اللصوص أبد الآبدين


ميدان القديس بطرس فى روما حين اجتاحت المدينة أسراب التيوتون

وخلف ألرك زوج ابنته القائد أتولفوس ، فتولى زعامة القبائل التيوتونية ، كما تولى مهمة استئناف فتح أقاليم الامبراطورية الرومانية . وكانت الأميرة بلاسيديا لا تزال ترسف فى أصفاد الأسر ، ففرض عليها أتولفوس الزواج ، بعد أن بثها حبه وهواه . ولم يحدث من قبل أن تزوجت أميرة رومانية من رجل متبربر ، ولكن بلاسيديا أحست ان أتولفوس يخلص لها الحب ، ورجت أن يفيد قومها من وراء زواجها خيرا ، فيحسن زوجها معاملتهم ويخفف من غلواء قومه فى علاقتهم بالرومان والواقع أن الأميرة أحست انها تحب هذا القائد ، فرضيت بالزواج ، ووافق أخوها الامبراطور ، خشية ورهبة . وتم الزواج فى حفل باذخ عظيم ، وأجلسها زوجها يومئذ على عرش أعلى من عرشه اظهارا لحبه وتقديره . وأهداها ليلة عرسها خمسين من أجمل وأروع شبان القبيلة وفتيانها وفى يد كل منهم صرتان ، احداهما ملأى بقطع الذهب ، والاخرى بقطع من الاحجار الكريمة النادرة . ولم تكن هذه الهدية على أى حال الا جزءا يسيرا مما ابتزه المتبربرون من ذخائر المدينة الخالدة

وعاشت بلاسيديا مع زوجها بضع سنين حافلة بالحب موشاة بالنعيم . وكان له من

زوجه السابقة خمسة أولاد ، ولكن هذا لم يمنعه من البكاء طويلا حين مات ولده من بلاسيديا بعد ولادته بساعات . ونسيت بلاسيديا في حياتها الجديدة الهانئة ما قاسته من قبل من ذل الاسر وهوان الرق . ولكن القدر كان يخبيء لها أمرا . فذهبت مع زوجها في رحلة الى اسبانيا . وكان قد قتل أحد أشرافها ، فنقم عليه تابع هذا الشريف ، وتربص به ذات يوم اذ كان في حظيرة خيوله ، وطعنه في ظهره بخنجر أرداه قتيلا

وخلفه سنجيرك ، وكان يكره بلاسيديا أشد الكره ، ويتهمها بأنها كانت تعطف زوجها على الرومان ، وكانت تبغضه في دينه الوثني وتحبب اليه المسيحية . فصب عليها جام غضبه وسوط عذابه . ولكنه أبقى على حياتها لا رفقا بها وشفقة عليها ، بل ليلعب بها لعبة ، الهر والفأر ، لعبة ظاهرها المداعبة ومن باطنها الارعاب المميت . وأية لذة يطمع فيها هذا المتبربر الهمجي أكثر من أن يعبث ويلهو كيف شاء بأجمل فتيات روما ، وابنة امبراطورها تيودوسيوس ، وأخت امبراطورها هونوريوس ، وزوجة زعيمه السابق أتولفوس ؟ وهكذا غدت بلاسيديا جارية في معسكر القوط ، تطوف بدنان الخمر على جنودهم السكارى المعربدين الذين ليس لهم من الدين أو الخلق ما يردعهم عن المنكر أو يخجلهم من الفاحشة . فاذا امتطى سنجيرك جواده في حفلات عرض جنوده ، سارت بلاسيديا أمام الجواد في جمع من الأسرى والرهائن مكبلين بالأصفاد

ولكن هذه المأساة لم تطل طويلا ، اذ قتل سنجيرك بعد اسبوع من قيامه على عرش القوط ، وخلفه « واليا » الذى أعتقها من الاسر مقابل ستمائة ألف وزن من القمح قدمتها روما افتداء لاميرتها الجميلة . وتزوجت بلاسيديا من أحد قواد روما ، ولكن الموت عاجله بعد ان ترك منها ولدين . وآوت بلاسيديا الى حياة الوحدة والعزلة تتأمل فيها تلك الاطوار الغريبة التي تقلبت فيها ، وتعجب مما كتبه القدر عليها من شتى الصروف والخطوب

وقيل يومئذ ان أخاها الامبراطور الغر المفتون أحبها حبا مريبا ، وذاعت اشاعات وأقاويل عن صلته المنكرة بأخته ، ولم تجد الاميرة منجاة من هذا العذاب الذي عانته طول حياتها الا أن تهجر روما وتلوذ بامبراطور بيزنطة حيث أمضت ما بقي من عمرها وسط عالم من الذكريات الأليمة





احسان لله

بقلم الأستاذ محمود تيمور بك

أدى « أبو المعاطى » فريضة الفجر فى المسجد ، على مألوف عادته فى تأدية الفرائض حاضرة ، ثم غادر بلدته « كوم الزهر » القائمة فى بقعة مشرفة على النيل شمال القاهرة . فما كاد يخرج من البلدة ، ويمضى فى الطريق العام ، حيث الدواب تروح وتجىء ، والسيارات العامة تنهب الارض ـ حتى كان أول شعاع من أشعة الشمس يحيى الكون تحية الصباح . وكان النسيم رطبا مشبعا بأنداء الفجر ، والحياة تبدأ انتعاشها البهيج ، والضوء فى بواكيره يختلج على صفحة النيل ، فتناجيه العصافير وهى تبرح أعشاشها تلتمس الرزق ناشطة . .

بيد أن ذلك الجمال الرائق الذى يبعث فى النفس الراحة والطمأنينة ، لم يظهر له أثر على وجه « أبى المعاطى » فقد وضح على سيماه طابع الهم والكآبة ، فهو يسير لا تعنيه سقسقة العصافير ، ولا مشى الدواب ، ولا جرجرة العربات . وانما يفكر فى شأنه وشأن المهمة التى كلفه أبوه أن يقضيها له فى القاهرة : عليه أن يقابل كاتب المحامى ، وأن يدفع اليه بعض الاوراق التى تخص قضية الارض المتنازع عليها بينه وبين أقاربه . كلفه ذلك أبوه ، وضن عليه بركوبة يمتطيها ليصل بها الى العاصمة ، فليس له الا أن يقطع المرحلة سعيا على القدمين ، ثم يرجع بعد قضاء هذه المهمة راجلا كما ذهب . وما كان ليعنى بهذا الامر لو أن حياته العامة هنيئة رغدة ، وأن له جوانب من معيشته تمنحه السرور والغبطة

استمر « أبو المعاطى » فى سيره ، وكلما فكر فى شىء تداعت أمامه مناظر حياته التاعسة

منذ نعومة أظفاره . انه شاب يافع يبلغ الثامنة عشرة من العمر ، حالفه سوء الطالع منذ شهد الضوء فى هذه الحياة ، فقد قضت أمه نحبها وهى تلده ، وفى اليوم التالى شبت حريق فى الدار كادت تأتى على كل ما فيها ، وكان العام الذى قضى فيه طفولته الاولى عام جدب عانت الاسرة فيه أسباب العسرة والضيق . فتشاءم الاب والاهل ، بل سائر من فى القرية، بهذا الوليد الذى اقترنت بمقدمه عوامل البؤس والاسى . ونشأ الغلام تحت سيطرة امرأة أبيه ، تغرى أباه بابغاضه ، والتقزز منه ، والتشدد معه . ولم يكن بالفتى الوسيم المشرق الطلعة ، الذلق اللسان ، يستجلب بشاشته القلوب ، ويسترعى بحلاوة لفظه الاسماع . وانما كان صموتا منطويا على نفسه ، بائن القماءة ، دميم الخلقة ، فظل موضع امتهان أبيه وامرأته يكلفانه أعمال الدار ، فيؤديها صاغرا لا ينبس . واذا جال فى القرية لم ير الا منفردا ليس له من صاحب ولا خدين . فان صادفه أحد العابثين فحاول مناوشته بسخرية لاذعة أو سباب جارح، تصامم عنه ، وأولاه اهمالا وعدم اكتراث، وهو يجيش فى وجدانه شعور الترفع والازدراء !

ولما بلغ مبلغ الفتوة انتهى اليه عبء الحقل كله ، فنهض به صابرا حمولا ، لا يلقى من ذويه على موفور جهده جزاء ولا شكورا . وما كان له الا يذعن ويستسلم لما أريد عليه ، وكيف يستطيع أن يرفع بصره الى أبيه متحديا اياه ، وهو يراه على الرغم من علو سنه جبار العزمة ، مهيب الكلمة ، وهل ينسى مرة أنه عمل على أن يدخر مبلغا من النقود فى مدى من الزمن مديد ، يبتغى أن يشترى به بعض ما تطمح اليه نفسه فى الاسواق . فنمى الى أبيه هذا الصنيع ، فاستدعاه اليه ، وطلب منه على الفور أن يخرج له ما عنده من المال، فهم الغلام أن يثور ، وأن يأبى الاستجابة لهذا الامر ، فهوى أبوه على صدغه بكف جبارة أخمدت الثورة فى مستهلها . وسرعان ما امتدت يد الغلام الى أبيه ، لا ليذود عن نفسه ، بل ليعطى أباه ما جمع من المال والآمال . . وترك الغلام والده مطأطىء الرأس ، يجر قدميه ، وقد تحيرت فى مآقيه الدموع . وفزع الى المسجد ، حيث أوى الى ركن فيه ، فأسلم رأسه الى ركبتيه ، واندفع ينشج ويذرف العبرات . وأنبهته سعلة عريضة ، فمال ببصره يتفقد من قدم المسجد ، فرأى الامام فى طريقه الى المحراب ، يتعثر فى خطواته المهدمة . فنهض اليه يقبل يمناه ، وكان يلقى أبدا فى رحابه أمنا ورفقا لا يأنسهما من سائر الناس ، فسأله الامام : ما خطبه ؟ فأخذ يسرد له ما وقع من أبيه ، فربت الامام ظهره ، وطيب خاطره ، قائلا :

ـ أباك ! أباك !.. أنت ومالك لابيك .. كن طيعا صبورا تغنم ثواب الله ..

ثم تحسس جيبه ، ومد يده الى « أبى المعاطى » وهو يقول :

ـ قد تجد يا بنى فى هذا المبلغ على ضآلته بعض مايعوضك مما فقدت.. وليكن قرضا..

فرد يد الشيخ فى أدب وتمنع ، وشكر له جميله ، وانصرف من المسجد أهدأ بالا ..

جد « أبو المعاطى » فى طريقه ، تتوارد هذه الذكريات على خاطره ، وبدأ يشعر بأشعة



الشمس تلفح وجهه ، والعرق يتصبب من جبينه . وصادف فى سيره قرية قام فيها سوق الأسبوع ، فجاز بها ينظر ما يعرض فيها من ألوان السلع ، واختلب نظره فوق كل شىء منظر الطعام ، فقد رصت بعض الصوانى عليها أشتات المأكول من أرز مطرز بأخلاط شهية جذابة ، ومشويات يفوح قتارها فيفغم الانف بأزكى الرائحة . فرجعت به الذاكرة الى أيام صباه الباكرة ، حينما شهد وليمة أعدها العمدة احتفالا بزواج حفيده ، فذاق مثل هذه الالوان ، وما فتىء منذ ذلك اليوم يجد طيبها فى فمه .. وأبطأت خطاه فى جوانب السوق ، اذ كان يمتع البصر بهذه المرائى التى فتنت لبه ، ويستنشق عبير تلك المطاعم التى تحلب لها ريقه . ثم انساق بقدميه ليبتعد عن هذه الناحية ، ولم يلبث أن أحس بجوعه ، فتلمس جيبه ليستخرج اللفة التى أعدتها له امرأة أبيه تحوى كسرا من الخبز اليابس ، وقطعة من الجبن القريش . وهم بأن يسكت جوعته بقضمة ، ولكنه تذكر أن هذا زاده كله فى رحلته الطويلة ، فعليه أن يحسن تدبيره حتى لا ينفد قبل انتهاء مهمته وأوبته

واسترعى نظره ضريح شاخص على الطريق ، لاحد أولياء الله . فمد الخطا اليه ، وما ان داناه حتى أمسك بشباكه ، وقرأ له الفاتحة ، ثم أخذ يتضرع ويبتهل ، ويمسح وجهه بيديه مرات .. وكان بجوار الضريح سائل مكفوف البصر يتلو بعض آى الذكر الحكيم ، واذا برجل ممتلط ركوبة مطهمة ، تدل سماته على اليسار والنعمة ، فأخرج كيسه المنسوج ، وأخذ منه قطعة من النقود دسها فى يد القارىء ، ولم يتنبه الى أن قطعة أخرى سقطت من الكيس ، ولكن « أبا المعاطى » لمحها على الارض فأسرع اليها ، وأخذ يقلبها بين أنامله فترة ، وكان القارىء قد عاد يرفع صوته بآى الذكر الحكيم ، فألفى « أبو المعاطى » نفسه يرفع عينه الى الضريح هنيهة ، ثم عدا فى طريق الرجل المحسن الماضى على مطيته ، فصاح به حتى استوقفه ، وناوله قطعة النقود التى سقطت منه ..

واستأنف « أبو المعاطى » سيره يغادر السوق ، وقد اشتدت وطأة الشمس عليه ، وأحس بالهم ينمو فى نفسه ، والمتاعب تتجمع على كتفيه ، وعاودته ذكرى قطعة النقود التى ردها الى صاحبها ، وتراءت لعينه صوانى الرز والشواء ، فتضاربت بين جوانحه مشاعر الأسف

والحيرة والقلق .. وانتحى ناحية على الجسر ، ووجد أن لا بد من أن يخرج زاده من جيبه، وأن يتناول منه مضغة ترد عنه السغب . وبينما هو جالس يأكل ، سمع هرير كلب على مقربة منه ، فحول اليه بصره ، فوجده يرقبه عن كثب فى خوف وحذر . وجعل الكلب يرسل اليه نظرات توسل واستجداء ، وهو يلوك لسانه بين فكيه ، فحدجه « أبو المعاطى » بنظرة نكراء ، وما عتم أن تناول حجرا قذفه به ، فانطلق الكلب يعوى فى ذلة المقهور ، وأقبل « أبو المعاطى » على طعامه يغمغم بالسباب !

ثم نهض يتابع سيره ، وقد بدأت الطريق تتشعب ، فانطلق يسأل هذا وذاك : أين السبيل الى القاهرة ؟

ودخل المدينة دخول الحائر الوجل ، وقد بدأ صخب الحياة يكتنفه ، فطفق يستدل على مقر كاتب المحامى فى حى « السيدة زينب » .. وشارف المسجد بعد جهد ومشقة ، وقد أخذ منه الاعياء كل مأخذ ، فأراد أن يريح جسمه بجلسة ، وأن يصلى ركعتين بجانب المقام . وبعد أن أدى فى المسجد الصلاة ، تعلق بأستار الضريح ينفض نفسه فى مناجاة وضراعة . ثم عدل الى الباب ، فرأى أناسا متفرقين يجلسون ، فاختار مكانا ظليلا رطبا جلس فيه ، وقد اعتزم أن يذهب الى كاتب المحامى بعد أن يستوفى قسطه من الراحة والتفرج . واستند الى الجدار ، فغفا غفوة لم يدر مداها ، وعند ما استفاق من نعسته وجد الحركة تشغل المسجد ، والارجل تكثر غادية رائحة . وبينما هو فى جلسته ، مسترسل فى تفكيره ، اذ أحس شخصا يقترب منه ، وشيئا يلقى فى حجره ، فرفع جفنيه ، وتطلع الى ذلك الشىء ، فاذا به قطعة مغرية من النقود ، فأمسك بها يقلبها ، وهو ينظر الى الذى ألقاها ، فهم أن يعيدها اليه ، ويخبره بأنه ليس بشحاذ ، ولم يكد يفعل حتى كان الرجل قد غاب فى زحمة السابلة ، فجعل يتفقده برهة دون أن يجده . ولمحت فى فكره على الاثر مناظر الصوانى عليها الرز المطرز والشويات الشهية . أليس هذا رزقا ساقه الله اليه ؟ أو ليس هو بركة « السيدة زينب » وسماحتها الكريمة ؟ وتلفت يمنة ويسرة ، فلم يجد أحدا يعيره التفاتة ، فأسرع بقطعة النقود يحفظها فى جيبه ، ورغب فى القيام ، ولكن هاجسا هجس فى خاطره أن استرح قليلا ، ففى الوقت مندوحة ، وليس مقر كاتب المحامى ببعيد . وفيما كان يسبح فى أخيلة شتى ، وجد امرءا فى منصرفه من المسجد ، أنيق البزة، وجيه الطلعة ، تحف به شمائل الطيبة . فتصدى له سائل كسيح يظلع على عكازته ، ومد له يمنه مستعطفا ، فنفحه الوجيه بقطعة من النقود ألهجت لسانه بالشكر والدعاء . فأحس « أبو المعاطى » على الثو بيده تمتد ، وكفه تنبسط . فوقع بصر الوجيه عليه ، فأخرج قطعة من النقود ، وألقى بها اليه ، فاختلج قلبه ، وأسبل أهدابه متناوما . وبعد هنيهة اختفى شبح ذلك الوجيه ، فجعل « أبو المعاطى » يضم قطعة النقود الى أختها الاولى، ثم استرسل يفكر : ماذا يأكل ؟ وأى الالوان يختار ؟ وتباينت تصوراته فى شهوات الغذاء !

ووجد نفسه يطيل الجلوس ، فهتف به هاتف : ألم يحن الوقت لان يهب الى كاتب

المحامى لينجز المهمة التى قدم من أجلها ؟ ولكن يده كانت على حالها مبسوطة الكف ، وعينيه كانتا مطبقتى الاجفان . وسمع اثنين يتحدثان على مقربة منه ، فيقولان : حقا انه لسائل جدير بالاحسان !.. وهبطت على يده فى الحال قطعة النقود ، فخطرت ببال «أبى المعاطى» صورة القارىء القاعد بجوار الضريح ، وهو فى جلسة الذلة والمهانة ، فتحركت فى قلبه أشياء من الانفة والعزة ، وتهيأ ليفارق مكانه ، فاذا امرأة عجوز تتوكأ على عصا تدنو منه ، وتضع فى يده على استحياء وصمت قطعة من النقود لها قيمتها ، وتهمس فى أذنه ملحة أن يسأل لها الله شفاء ابنتها التى أضنتها العلة ، فلم يتحرك فى مجلسه ، ولم يفتح عينيه لها ، واجتهد أن يقلص من قسمات وجهه ، تعبيرا عن معنى الابتهال الى الله ، وهو يهمهم بكلمات مضطربة لم يستبن منها حرف . وعادت العجوز أدراجها ، وهى تقول :

ـ الدعوة من خدام المقام هؤلاء ، ليس بينها وبين السماء حجاب !..

وامتدت جلسة « أبى المعاطى » ، وعمر جيبه بقطع النقود ، فما كاد الظلام يرخى سدوله ، حتى فترت الحركة ، وانقطع سيل الزوار ، فنهض يلم شعثه ، ويستقبل الطريق يتحسس النقود ويعدها مرة بعد مرة . وقد أدار فى ذهنه أن هذا المبلغ من المال يعدل كسب أيام معدودات فى الريف ، عاملا فيها على أديم الحقل فى وقدة القيظ ، مقاسيا ضروب المشقة والكد ، وها هو ذا قد يسره الله له وهو فى جلسته الهادئة الوادعة . أوليس هذا برهان رضا أسبغه الله عليه ؟ أوليست هذه رحمة ربانية تستوجب مزيدا من الحمد والشكران ؟ ورفع بصره الى السماء ، مبتهلا الى ولى النعم أن يديم عليه منته ، ثم مسح وجهه بيديه كلتيهما ..

وانساب يتصفح الحوانيت متشمما يبحث عن طعام ، ومثل أمام وجهة الزجاج على باب أحد المطاعم ، وقد فتنته من ورائها مناظر الشواء تطاير رائحته شهية مغرية . فأعاد راحته الى جيبه يتلمس النقود ، واشتبكت فى رأسه أسراب الامانى : لم لا تكون هذه الصرة نواة ثروة يشترى بها ثوبا أنيقا يجمله ، وقلنسوة تزهو على جبينه ؟ ألا يمسك رمقه ببقايا الزاد فى اللفيفة التى أعدت له ويحتفظ بما جمع ؟ وهنا ازدحمت على خياشيمه روائح الشواء فما هو الا أن اندفع نحو المطعم ، وملأ بطنه بما لذ وطاب حتى اكتفى ، ثم خرج يتجشأ نشوان ، وسار بخطوات أثقلتها التخمة ، وقد أحس الرغبة الملحة فى أن ينام ..

وما كاد ينعطف فى أحد الازقة المجاورة ، حتى ألفى زاوية مهجورة بجوار خربة قد تمدد فيها أحد الصبية المشردين ، فانتحى مكانا غير بعيد منه ، فمهده لرقاده ، متوسدا ذراعه . ولم ينس قبل أن يسلم للكرى مقلتيه أن يخرج نقوده ويعدها ، فرأى أن لم يبق منها الا فلول ، فقد مضى الاكثر الاغلب فيما حشا به بطنه من ألوان العشاء . فلبث يتأمل البقية الباقية ، ثم أحكم ربطها ، ووضعها فى قرارة جيبه ، وهام فى أحلامه ، معتزما

أن يقضى مهمته مع كاتب المحامى من غده ، ويبرح القاهرة الى بلدته ، مكتفيا بما راح له من عطية الله !..

ولما أهلت تباشير الصباح ، انبعث من مرقده ، فكان أول ما سنح لخاطره أن يتحسس ربطة نقوده ، فاطمأن الى سلامتها ، وبنى عزمه على أن يكون فى يومه قنوعا . فعرج على لفيفة الزاد التى جلبها من البلدة معه ، ففك وثاقها ، وبسط رقعتها أمامه ، وجعل يرنو اليها برهة . ومر برأس الزقاق بائع جوال ، يحمل صينية فطير ، وهو يصيح متغنيا بما ضمت من حلو لذيذ . فمد « أبو المعاطى » يده الى زاده ليتناول أول لقمة يتبلغ بها ، فاذا يده ترتد الى قرارة جيبه ، وتستخرج ربطة النقود . وسرعان ما استوقف بائع الفطير ، فابتاع منه واحدة ، والتهمها على الاثر . وما كاد البائع يضع الصينية فوق رأسه ، ويستأنف سيره منشدا مقطوعته فى الاشادة بالفطير الحلو اللذيذ ، حتى وثب اليه « أبو المعاطى » يبتاع فطيرة ثانية ، فثالثة ، فرابعة .. وألقى نظرة على ربطة النقود ، وقد حوت مما حوت : ما له وللنقود يتحسر على ما أضاع منها ؟ لقد تناول فطوره ، يحمد الله ومنه ، وهو قاصد مقر كاتب المحامى يقضى مهمته فى لحظات ، ثم يئوب الى بلده راضيا ..

وسار مجدا يدفع بمنكبيه الهواء ، فما ان قطع الزقاق ، ومال الى الطريق العام ، ووجد نفسه فى متجه المسجد ، حتى شعر بخطاه تتئد : أيليق أن يقرع أبواب البيوت فى ذلك الوقت الباكر ؟ وهل يجوز أن يذهب الى كاتب المحامى قبل أن يؤدى فريضة الصبح ؟ الى المصلى اذن ... ومضى الى المسجد حتى بلغ بابه ، فوقف يتأمل رواده بين ذهاب وأوبة . واسترعى انتباهه أنه وجد حواشى الباب وقد عشش فى كل ناحية منها سائل مستقر فى وكره ، كأنه مقامه الموروث .. وثنى طرفه الى الركن الذى كان يستريح فيه أمس حين قدومه القاهرة ، فرآه خاليا .. ها هى ذى الشمس قد سطع شعاعها منذ برهة ، ولم يعد لوقت الصلاة متسع ، فسواء عليه أن يصلى الصبح الآن أو بعد فترة . لا جناح عليه اذن فى أن يستمتع وقتا بنسيم الصباح البهيج فى ذلك الركن الظليل . فأفضى اليه ، واحتله فى طمأنينة وسكون . ومرت فترة لم يتحرك فى جلسته ، وقد أسبل جفنيه الا قليلا ، وتظاهر بالنعاس ، فسرت الى أذنه همسات مبهمة ، فألقى اليها سمعه وباله ، وأدار حوله النظر خلسة ، فاستبان له أن السائلين يتهامسون فى شأنه ، ويتغامزون به ، فأغضى ، ولم يبد لهم أنه فطن لشىء ..

وشرع رواد المسجد يتوافدون على أبوابه ، وأخذت قطع النقود تتهافت على يد « أبى المعاطى » ، فكان يلتقطها ويدسها فى جيبه عجولا .. ولاحظ أن من يمر به من المتصدقين يقف برهة يتفرس فيه ، ويتألم لما يبدو على وجهه من علائم البؤس والمسكنة . فأدرك أنه قد أوتى ملامح معبرة تستدر الاشفاق . وما كاد يفطن الى ذلك حتى ازدادت تلك الملامح وضاحة ، وصحبتها أنات وترنيمات تجتذب الانظار ..

وطالت الجلسة ، وتوافر المدد ، ورف على ذاكرة « أبى المعاطى » شأنه مع كاتب

المحامى ، ووعده أباه أن يعود الى البلدة فى يومه ، فاهتز فى جلسته ضجرا .. ليس بالامر المنكر أن يبقى بالقاهرة يوما على أن يعود لا محالة غدا ، أليس له بعد أن أمضى فى العمل المتواصل دهرا طويلا يكد ويجهد نفسه لمصلحة أبيه أن ينال حظا من المتعة يوما ؟ لقد اعتصر دمه فى سبيل منفعة الاسرة والقيام على مرافقها ، أفما آن له أن يستجم قليلا بعد طول الكد وفرط العناء ؟ وفوق ذلك لن تكون النقود التى جمعها من حقه وحده ، بل انه سيشرك فيها أباه . وهل يبلغ به الجحود أن ينسى نصيب أبيه مهما يكن من أمره معه ؟ أخلد « أبو المعاطى » الى هذه الفكرة ، واستقر فى جلسته ، يستنشق النسيم العليل فى الركن الظليل !..

وانطوى اليوم ، و « أبو المعاطى » فى مكانه بجوار المسجد تهبط عليه الحسنات ، فما هو الا أن يأخذها حسنة بعد حسنة ، ويودعها قرارة جيبه ، وهو هائم يتنقل بين التصورات والامانى .. وظل كذلك لا يستطيع براحا ، وحين أحس بالجوع فى بعض النهار ، تبلغ بشىء مما يطوف به باعة السوق . وما كان له أن يبارح مكانه والناس بين مقبل على المسجد ومنصرف عنه .. فلما آذنت الشمس بالمغيب ، أبصر بالسائلين المرابطين حول المسجد ينفرط عقدهم سائلا فى اثر سائل ، هذا يجر عكازته ليتحامل عليها ويظلع ، وذاك يحمل غرارته على كتفه ، وذلك يستدعى غلامه ليقوده . فقام « أبو المعاطى » يتمطى وهو يروض على السير أوصاله التى خدرها طول القعود ..

وتغلغل فى الطريق ، واخترق بعض الدروب ، فوافق سائلا ممن كانوا معه بباب المسجد يميط اللفائف التى شد بها يده الى عنقه ، وينزع الضمادة التى أدارها على عينيه ، ثم ينتقل مستقيم العود ، صحيح الجسد ، يشق حجاب الظلام بعينين تلتمعان .. ونفذ « أبو المعاطى » من الدرب الى الشارع ، وانتهت به قدماه الى مطعم ممتاز ، فملأ بطنه بما اشتهى ، وقضى ليله حيث قضى البارحة يهنأ بأعذب الاحلام ..

وفى رونق الصبح ، راع جماعة السائلين حيال باب المسجد أن « أبا المعاطى » قد شد يسراه بلفائف الى عنقه ، وتوكأ على عكازة غليظة ، وهو يدرج فى جهد واعياء .. ثم انتهى الى مكانه المختار ، فاحتله كسابق يومه ، وما كاد يستقر فى مجلسه ، حتى تعالى الحسيس حواليه ، وتراحت الهمهمة ، فتلفت فى خلسة ، فأبصر برفاقه يسددون اليه النظر وهم يتغامزون . ولم يطل به المقام حتى أخذت عينه قادما من السائلين لم يره من قبل ، وهو شيخ منتفخ الجثة ، مترهل الاكتاف ، ذو لحية شمطاء ، يضع على رأسه عمامة خضراء ، ويرتدى جبة تكاثرت فيها الرقاع مختلفة الالوان ، وتتدلى على صدره مسبحة طويلة ذات حبات غلاظ . وجعل الشيخ يتهادى نحو « أبى المعاطى » فكلما دنا منه لمعت على وجهه سيماء الدهشة والحنق . وما ان حاذاه حتى أخذ يصوب فيه النظر ويصعده ، واشتدت همهمة الرفاق ، وتقاربوا نحو القادم الشيخ يحيونه تحية احترام وتلطف ، وسمع « أبو المعاطى » ذلك الشيخ يسأله : — ما أتى بك هنا ؟

فأجابه : ـ أنبت أستريح بجوار بيت الله ، وضريح السيدة الطاهرة . .
ـ هذا مكانى . . فكيف ساغ لك أن تقتحمه ؟
ـ الساحة فسيحة لمن يريد الجلوس . .
ـ قلت لك هذا مكانى ، فعليك أن تتنحى عنه !
فنظر اليه « أبو المعاطى » نظرة متفرس ، وقال فى شيء من الازدراء :
ـ ومن أنت حتى تطلب الى أن أتنحى لك عن مكان أجلس فيه ؟
ـ قلت لك هذا مكانى ، وقد اتخذته لى مثابة منذ خمسة أعوام ، اذ ورثته عن عمى ، فكيف ساغ لك أن تنتهز فرصة تغيبى لتحتله دونى . وكان عليك قبل أن تنضم الى الرفاق أن تستأذننى . .
ـ أوحسبتنى مستجديا مثلكم ؟ انما أطلب الراحة والتبرك بمجاورة الضريح المطهر . .
ـ خل عنك هذا الهراء . . لم يسبق لاحد أن يأخذ فى هذه الساحة مكانا الا اذا أجزته وعينت له مجلسه لا يعدوه . .
فلم يبد « أبو المعاطى » حراكا ، بل لبث يقلب فيه البصر ، فشعر بقدم الشيخ تركله ، وهو يقول : ـ قلت لك تنح ، والا فالعاقبة وبال عليك !
وفى هذه اللحظة برز من المسجد رجل ، فرمى بقطعة من النقود فى حجر « أبى المعاطى » ومضى لطيته ، فما كان من الشيخ الا أن انقض على القطعة انقضاض الصقر ، ولم يشعر « أبو المعاطى » الا وهو يثب على الشيخ ، ويشد على يده ، وينتزع قطعة النقود . وفى لمح البرق ألفى نفسه مشتبكا معه فى عراك عنيف ، واستمر الصدام وقتا وهما يتواثبان ويتغالبان ، والرفاق حلقة حولهما يتفرجون . وما زال « أبو المعاطى » يستشعر يقظة السطوة تسرى فى أعضائه ، ونار الحمية تتلظى فى قلبه ، وقد استحال كله أعصابا نافرة ثائرة ، حتى وجد نفسه قد أخذ بخناق الشيخ وهو جاثم على صدره ، يكيل له الضربات بجمع يده . فتخاذل الشيخ ، وندت عنه صيحات الاستغاثة والاستنجاد . فنظر « أبو المعاطى » وهو آخذ برقبة الشيخ الى الرفاق حوله بعين متنمرة ، ووجه ينم عن الافتراس والحدة . فتصاغر الرفاق ، وتداخلتهم الخشية ، ولم يجرؤ أحد منهم على أن ينتصر للشيخ العميد . فلمح « أبو المعاطى » فى هيئتهم معنى التهيب له ، والرهبة منه ، فارتد الى فريسته يقلب فيها النظر ، فاطمأن الى أن الشيخ لم يعد بقادر على أن ينازله ، فتركه ملقى على الارض ، وعاد الى مكانه ، وجلس فيه جلسة التآمر والتفنخ . وهو يسوى من ثيابه ، ويمسح التراب عن وجهه . وبعد قليل نهض الشيخ كسير الخاطر ، مستكين النفس ، وانتبذ ناحية قصية يأمن فيها جانب ذلك الشيطان العنيد . . وتنفس « أبو المعاطى » تنفس الارتياح ، وتلمس هراوته ، فقرع بها الارض فى نشوة ، وقد برقت على فمه ابتسامة خبيثة ، وأخذ يرمق جمع الرفاق بعين ملؤها السيطرة والاستطالة . وتفرق الجمع فى سكون ، كل يسعى الى ركنه المختار . .

وعجب « أبو المعاطى » من نفسه : كيف استطاع أن يذل هذا الطاغية ، وأن يقهر ذلك البنيان الشامخ ، وأن يجعل رأسه فى مواطىء الاقدام ؟ ولكنه تذكر أطراف حوادث وقعت له فى الحقل ، فمرة كبح جماح ثور أفلت من محراثه ، ومرة أدار ساقية ثقيلة بقوة عضديه .. واتسعت ابتسامته ، حتى أضاءت جوانب محياه ، ولم يطل به المقام حتى أحس قدمين تدبان عن كثب منه ، فطأطأ رأسه ، وقلص قسمات وجهه كالضارع المتألم ، وتمتم بألفاظ حبيسة . فسقطت قطعة النقود فى كفه ، فأودعها من توه جيبه ، واستأنف تمتمته آمنا ..

وفى غداة اليوم التالى ، هب « أبو المعاطى » من نومه مبكرا ، وعجل الى مكانه من المسجد ، فما ان أشرف عليه من بعيد حتى لاحت له العمامة الخضراء تحتل موضعه المكين ، فاندفع مهرولا وقد شد على هراوته ، واذ قارب المكان وجد شيخ أمس متمكنا فى جلسته ، تحيط به شرذمة من أتباعه ، فاتجه « أبو المعاطى » اليه صامتا ، وما شعر الا أن امتدت يده فى قساوة وغلظة تأخذ بتلابيب الشيخ ، وتقصيه عن مكانه . ولكنه لم يكد يفعل ، حتى رأى الاتباع يتألبون عليه ، ويتقسمونه ضربا وجيعا ، ولكما شديدا . فأحس ثقل الوطأة عليه ، وتوقع الهزيمة توشك أن تحل به ، ولمت فى مخيلته حسنات النقود وهى تنهمر على حجره ، وتمثلت لخياشيمه روائح الشواء يطعمه نهبا ، فاذا الهراوة تستيقظ فى يده غضبى . وفى خطفة البرق راح يخبط بها فى الجمع خبط عشواء ، مشمرا فى متابعة الضرب ذات اليمين وذات الشمال . فما هو الا أن تقوض الجمع عنه ، وولوا فرارا منه ، غير مصيخين الى نداء الشيخ واستغاثته . وتقدم قزم من الاتباع الذين لم يكن لهم فى المعركة نصيب ، فتقرب من « أبى المعاطى » وتشبث بثيابه ، وهو يصيح :

ــ فليحمك الله .. ليس للامر الا أنت !..

وهنا تعالت صيحات تؤيد قول القزم ، وأبصر الصائحين يتدانون منه ، ويتلطفون به ، وينفضون الغبار عن جلبابه . فعاد « أبو المعاطى » يتخطر فى خطوات وئيدة الى مكانه المعهود ، واقتعده مزهوا منتفخ الصدر .. فأما ذو العمامة الخضراء ، فقد كان يرتد الى الناحية القصية التى لاذ بها أمس ، وارتمى فيها متكورا ينكمش بعضه فى بعض !..

وفى اليوم التالى ، تجلى « أبو المعاطى » قبالة المسجد ، وهو يضع على رأسه العمامة الخضراء الضخمة ، ويرتدى الجبة المتكاثرة الرقاع ، المختلفة الالوان . وعلى صدره المسبحة ذات الحبات المائة الغلاظ . وقد التف حوله الاتباع يحيونه تحية التودد والاكبار .. ثم جعل يتهادى فى مشيته ، حتى وصل الى مقعده الظليل ، فاطمأن فيه ..

وطاف برأس « الشيخ أبى المعاطى » طيف والده ، وهو يسائله عما فعل ، وعما ادخر من النقود ، فشعر بالهراوة تتحرك بين أنامله ، فدق بها الارض بضع دقات ، وقد كشر عن أنيابه ، وانبعثت من حلقه قهقهة شيطانية ساخرة ..

محمود تيمور

من قصص التاريخ الاسلامى

عبيد الله بن الحر

بقلم الأستاذ محمد فريد أبو حديد

تعالج هذه القصة فترة من أهم فترات التاريخ الاسلامى ، وبطلها عبيد الله بن الحر الجعفى فارس مشهور من فرسان العرب فى صدر الاسلام

كانت الكوفة مثل البصرة ، تضطرم وتفور ، لا يكاد يمر فيهما يوم بغير هبة من جانب ، بين حى من الأحياء وحى آخر من جيرانهم . قد انفرط العقد فى كل مكان ، وعادت صيحات القبائل الى ما كان عليه عهدها ، اذ الناس فوضى فى جاهليتهم ، من عز فيهم بز ، ومن غلب استلب . مات يزيد بن معاوية ، وتحركت الأطماع فى دولته من كل جانب ، وصاحت القبائل العراقية صيحات العصبية، هذه بكر بن وائل ، وهذه تميم ، وهذه الأزد ، كل منها يدعو لنفسه ، ويلتمس الحلفاء من القبائل التى كانت لها صديقة فى الجاهلية

وآثر ابن الحر أن يعتزل فى بيته فى هذه الفتن الجارفة ، عبيد الله بن الحر الجعفى ، الذى قضى عمره فى النضال مدى أربعين عاما ــ آثر أن يقيم فى بيته تباعدا عن تلك الفتنة العمياء . وما له وهذا النضال الجديد الذى أثاره طلاب الملك من كل جانب ، لقد شهد فى حياته صنوفا من العواصف منذ مقتل عثمان بن عفان ، وشارك فى كل المعامع التى ثارت بين الأحزاب ، ولكنه خرج من ذلك العراك الطويل بمرارة الخيبة ، بعد أن تكشفت له حقائق الناس مرة بعد مرة ، فعرف ما فى الحياة من نفاق وخداع ومن كذب ودناءة . كان قلبه

الفتى منذ أربعين عاما يتلو بالدعوة الى الحق ، ولا يبالى أن تسفك دماؤه فى نصرته ، ولا يرضى فى جهاده الا بأن يكون فى صدر الاخطار . ولكنه بعد هذه السنين الطويلة ، لم ير الا أن النضال كان دائما بين جموع من الناس تتدافع وتتنازع ، لا تبغى من وراء ذلك الا سلطان الحياة الدنيا . لم ير فى كل ما مر به الا نضالا على الحكم ، ونزاعا دمويا على السيادة . كان يسمع فى كل موطن من مواطن القتال صيحات الحق والعدل تتجاوب من كل جانب ، حتى اذا ما انجلى قتام الحرب وعاد السلام ، لم ير الا طمعا فى الاموال والزخارف ومفاتن الحياة . فما الذى يدفعه بعد ذلك كله الى خوض نضال جديد ، أو اقتحام فتنة جديدة ؟ ألم يشهد أيام القادسية وجلولاء ونهاوند اذ هو شاب فى جيوش الجهاد ؟

لقد مضى من المجاهدين من مضوا ، ولم يبق من بعدهم الا من يحرصون ومن يتنازعون على الغنائم . لم ير ابن الحر فى الكوفة ولا فى البصرة ولا فى الشام أو مصر سوى قبائل يثور بعضها ببعض ، تتنازع على اصطياد الرياسة والخلافة . فما أحراه أن يلزم داره ويباعد ما بينه وبين هذه الفتن المضطرمة

كان ابن الحر يريد أن يذوق شيئا من السلام الى جوار امرأته الحبيبة أم توبة ابنة عمه سلمى الجعفية ، التى تزوج منها وقد نيف على الستين ، وكانت فتاة فى بضع العشرين ، تملأ بيته بهاء كلما خطرت فيه بقوامها اللدن النحيل ، وتشيع فيه السلام كلما نظرت اليه عاطفة بعينيها السوداوين الواسعتين ، وتنسيه ضيق الحياة وضجيجها كلما حدثته حديثها العذب بصوتها الرخيم ، وتغمره اعجابا وحبا كلما ناجته فى أمر من الامور . فقد كانت أم توبة كلها روحا وذكاء وطهرا . كان لا يحس اذا جالسها بما يفرق بينهما من عدد السنين ، فان قلبه عاد معها فتيا ينبض ويخفق كما كان فى العشرين ، وكانت هى فى عقلها وحكمتها ونقاء نفسها لا تتضاءل عن مثل عقله وحكمته ونقاء نفسه فى موضعه من الستين

لم تستدرجه الانباء التى كانت تترامى اليه وهو معتكف فى داره ، ولم تغره الفتن المتعاقبة على أن يعود الى معامع النضال القاسية ، فسمع أن البصرة تضطرب ، وأن أميرها ابن زياد هرب لائذا بالشام . ثم سمع ان الشام تتنازعها الاهواء بين صبية بنى أمية من ولد يزيد بن معاوية وبين مروان بن الحكم شيخ قريش ، وسمع أن عبد الله بن الزبير يدعو الى نفسه ، ويبعث البعوث الى الامصار يستميل أهلها وشيوخها ، وينازع بنى أمية ملكهم كما كان ينازعهم فى عهد يزيد وأبيه معاوية . ولكنه سمع هذه الانباء عفوا ممن كان يزوره فى داره من أصحابه ، ومن أولئك الفتيان الذين كانوا لا يفتأون يلتفون حوله فى مجالسه ، وينظرون الى شيخوخته الباسلة الهادئة فى اعجاب يشبه التقديس

ولكنه كان لا يهتز الى شىء من تلك الانباء ، وبقى على عزلته بعد أن ذاق ما ذاق من مرارة الاخفاق ، وبعد أن تكشفت له الحقائق الجاهمة الشوهاء . فانه لم ير فى زعماء الامصار الا طلاب أسلاب

وماله وكل هذا النضال التافه الذى لا ينطوى على جهاد فى الحق ؟ أليس الاولى به أن يقضى ما بقى من حياته فى أمن ودعة فى جوار ابنة عمه الحبيبة ؟ أليس من حقه أن يذوق السلام فى شيخوخته بعد أن قضى العمر فى خوض المعارك الدامية ؟

كان ابن الحر يحس فى قلبه قشعريرة تشبه مس الحمى كلما تذكر الدماء التى أسالها فى حروبه . كان يبطش ويفتك لا يقف فى سبيله شىء ، ويحس أعظم السعادة كلما رأى الدماء تسيل على شفار سيفه المقوس الباتر . أما تتركه تلك الدماء حينا وادعا حتى يخرج من الدنيا نظيفا من دماء أخرى ؟

كان يتمنى لو استطاع أن يبعد عن تلك الفتن الثائرة ، ولكنه مع ذلك كان لا يملك نفسه من الهزة التى تعتريها كلما سمع أنباء الاضطراب ، اذ كانت نفسه تنازعه برغمه الى ضجة الميدان ، وان كانت قد ركنت الى السلام فى البيت التى ترينه أم توبه

ولكن مهما يكن من ابن الحر فى تقلب أهوائه بين الدعة والاضطراب ، فان الاحداث ما كانت لتدعه فى عزلته ، فقد كانت عيون أهل الكوفة تتطلع اليه كلما جد جديد من الكوارث

كانت ليلة من ليالى الصيف بعد ستة وستين عاما من الهجرة ، وكانت ليلة حارة من الليالى التى لا تكاد الانفاس فيها تنطلق ، والغبار الثائر فى الهواء ينعقد مع الابخرة فى ضباب كثيف لا يكاد المرء يتبين فيه من دونه على خطوات . وأحس ابن الحر ضيقا زعزعه فصعد الى سقف داره بالكوفة لكى يقضى الليلة تحت السماء مطلا على الصحراء ، لعل نسمة من صوب الشمال تزيح الضبابة الجاثمة ، فيستطيع أن يتنفس ملء صدره ، كما اعتاد أن يملأ صدره اذ كان يضرب فى فيافى اليمن قبل أن ينزل ذلك المصر . وكان كلما زاد به الضيق وضنت النسمات بهباتها ، تذكر الامنية التى كانت تتردد عليه بين حين وحين ، أن يعود بابنة عمه الى بعض وديان اليمن فيقيم فيه معها بعيدين عن تلك العاصمة المضطربة ـ تلك الامنية التى كانت تدفعه حينا فيهم بانفاذها ويكاد يلبى فيها هواه ، ثم لا يلبث أن يقعد وتفتر همته اذ تمسكه فى الكوفة أموال اعتقدها وضيعة من الارض فى الريف تملأ خزائنه بما تخرجه أرض العراق من خيرات

ثم طرق باب الدار واستأذن عليه قوم من أصحابه . فشعر بقبضة زادت أنفاسه ألما . فماذا يبغى الناس منه وقد اعتزلهم وباعد ما بينه وبينهم ؟ ولم لا يضطربون وحدهم ما شاءوا ويقتتلون على الحياة اذا أرادوا بعيدين عنه ، ويخلون بينه وبين عزلته التى اختارها ؟ لم يبق له من أرب فى نضالهم بعد أن باخت حماسته . وأصبح لا يعتقد فى صدق ولا فى عدل . انما هو جهاد الاطماع فى سبيل الغلبة ، وليس له من حرص على شىء من ذلك الجهاد السخيف

ولكن أصدقاءه جاءوا يستأذنون عليه ، وقد علم أنهم ممن لا يستطيع أن يتنكر لهم أو يردهم بالخيبة عن بابه . فهم من فتيانه الذين يجتمعون حوله ويتطلعون اليه . طالما عاهدهم

وعاهدوه وحالفهم وحالفوه على نصرة الحق اذا هدده الطغيان . وما كان يستطيع أن يتنكر لهم ، ولا أن يذيقهم مرارة الخيبة التي ذاق من قبل أمثالها

قام من مجلسه فاترا ولبس عباءة من الديباج الاصفر وخفا من جلد لين أحمر ولف على رأسه عمامة من ثوب يمنى ، ثم مس بعض الطيب ومسح به لحيته وكانت لا تزال سوداء تناثرت فيها شعرات بيضاء كأنها ندف من القطن علقت بها عفوا . ثم نزل متثاقلا حتى بلغ رحبة الدار ، وكان فيها مجلس للاضياف ، فوثب الفتيان منه وقوفا يرحبون به فى حرارة

كانوا جماعة لا تضمهم رابطة من عصبية ، بل جمع بينهم الحنق الذى يملأ قلوب الشباب مما يؤول اليه الامر الفاسد . رأوا كل يوم واثبا من ناحية يطلب الامر اذا وجد من حوله جماعة ينصرونه ، ولم يجدوا فى حيرتهم من يلجأون اليه غير صاحبهم الشيخ الباسل الذى طالما ذاكروه الحق ، وناظروه فى واجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر

ودار الحديث بين الجمع ، فلمح ابن الحر من قولهم ما جاءوا من أجله ، فجعل يردهم فى رفق ، ويرجعهم عن نفسه فى تجمل . وطالت بينهم المناظرة فعجب الفتيان كيف تقلب ابن الحر وتغير ، وكيف يقنع أن يقيم فى عقر داره وقد اشتعلت الفتنة ، وهو الرجل الذى بنى مجده فى معترك النضال . أيكون قد أثقله الغنى وداخله الجبن حرصا على الحياة؟ وتجرأ شاب منهم فقال له :

ـ أيجمل بك الاحتجاب يا أبا الاشرس وهذه الحال كما ترى ؟

فقال ابن الحر باسما : لقد أصبحت يا بن أخى لا أرى . .

فقال الشاب وقد أحس فى جوابه شيئا من الاستخفاف : ما عهدناك الا ذا بصر وبصيرة يا شيخ جعفى . .

فأطرق الشيخ لحظة وملك نفسه ثم قال :

ـ لقد علمت حسن رأيك يا جرير بن كريب ، ولكنى آثرت أن أعكف على صلاتى .

فقال جرير فى شىء من اللجاجة : ولقد عهدناك مصليا لم تمنعك الصلاة عن نصرة الحق

فلم يملك ابن الحر أن تبسم وقال فى دفعة : الحق ؟ أين الحق يا ولدى ؟

فتحرك القوم قلقين ، وقال أحدهم فى صوت أجش :

ـ أأنكرت الحق يا أبا الاشرس وقد طالما نصرته ؟

فعاد ابن الحر الى الاطراق ، وانعقدت على وجهه عبسة وقال بعد قليل :

ـ وكيف أنكر الحق وقد قضيت العمر أنصره ؟ الا انى قد رأيت الناس قد صار أمرهم الى فتنة عمياء . أما سمعتم عبد الله ابن عمر صاحب الرسول يقول : « انها فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ؟ » ألا ترى ذلك يا أخا الازد ؟

فقال الرجل معبسا : انها كلمة قالها ابن عمر ليدارى بها ضعفه ، وما أنت وابن عمر ؟

فتحرك ابن الحر فى شىء من الالم وقال :

ـ مهلا يا عمرو بن جندب ألم يكف هذا العالم من قد وثبوا به ؟ ألا يكفيك أن ترى فى الشام مروان ، وفى البصرة ابن الزبير ، وفى فارس ابن الازرق ، وفى خراسان ابن حازم ؟ أتريد أن نثب نحن كذلك على الكوفة فنزيد فى الفتنة عصبة أخرى ؟ وما الذى جد فى أمرنا حتى نتحدث عن هذا الامر ؟ لقد أسلمت الكوفة أمرها الى ابن الزبير ، وما نحن والبصرة الا جناحا هذا العراق . ان فى البصرة لقوما لا يقلون عنا عددا وليسوا دوننا شرفا ، قد أسلموا أمرهم الى ابن الزبير طائعين بعد أن ذاقوا مرارة الفتنة فيما بينهم. ألا تعرفون ما ذاقت البصرة من الويل اذ وثبت بكر بتميم ووثبت تميم بالازد ؟ ألا تذكرون ما حل بالبصرة من دمار وخراب ؟ أتحبون أن ينزل بهذا المصر ما نزل بأخيه من قبل ؟ هذا هو الاحنف بن قيس سيد تميم بالبصرة ، وهذا بكر بن وائل مع مالك من مسمع ، وهذه الازد مع ابن عمرو ، قد اتفقوا جميعا على أن ينجوا من الفرقة وبايعوا لابن الزبير . أتريدون أن تبعثوا الحرب جذعة فى الكوفة ؟

وكان ابن الحر يريد أن يستمر فى حجته ، لولا أن قاطعه أحد الفتيان صائحا :

ـ لقد صدقت يا بن الحر ـ انك لست ترى شيئا

فخجل الشيخ وعبس عبسة مظلمة ، والتفت الى الفتى غاضبا وقال :

ـ ألمثلى يقال هذا يا مجشر ؟ أما والله لولا علمى بما عندك من المودة لاجبتك جوابا لا ترضاه

فقال المجشر معتذرا : لم أقصد يا أبا الاشرس كل ما هم بنفسك . ولا أقصد الا أن أقول لك انه قد جد فى الامر جديد لا تعرفه . وقد كنا نحسبك قد سمعت بما كان

فسكن ابن الحر وقال هادئا : وما ذاك الذى استجد يا مجشر ؟

فقال الشاب فى حنق : خرج ابن أبى عبيد ـ المختار بن أبى عبيد الثقفى وهو من قد عرفت ـ وثار أتباعه اليوم فقتلوا الشرط ، وهرب الامير ابن مطيع عامل ابن الزبير

فوجم ابن الحر ، ونظر الى القوم فاتحا عينيه كأنه لا يصدق ما يسمع ، ثم قال فى شىء من العنف : أو قد تجرأ الرجل ؟

فاستمر المجشر قائلا : تجرأ منذ نصره ابراهيم بن الاشتر وحى همدان

فقال ابن الحر فى دفعه : ابن الاشتر ؟

وتحرك القوم فى قلق ، ونظروا الى الشيخ ينتظرون تتمة قوله ، وبعد حين قال :

ـ أما انها لغمرة .. كنت أعلم أن هذا الرجل لا بد موقد نارا فى يوم من الايام ، ولكنى ما كنت أحسب ابن الاشتر يطيعه ..

فصاح جرير : لقد عرف ابن ابى عبيد كيف يشتريه .

فهز ابن الحر رأسه وقال فى بطء : نعم انما هى صفقات بيع وشراء .. لقد كنت أعرف أن مثل ابن أبى عبيد لا يفوته أن ينتهز الفرص . ولا أظنه الا قد خرج مناديا بدم الحسين

فصاح الجمع قائلا : هى صيحتهم : يا لثارات الحسين !

فقال ابن الحر فى حنق : برىء الحسين منهم ! ان مثله من يفعل هذا . أشهد لقد سمعت الصادق يحكى عنه أنه ما كان يبغض فى الناس أكثر من بغضه عليا وولد على

فقال المجشر بصوته الاجش : وهذا هو اليوم يزعم أنه مرسل من قبل محمد بن على ليثأر لاخيه ، ويطالب بحق بيت النبى

فقال ابن الحر وكأنه فى حلم : ما أكثر ما يتستر الناس بالحق ليبلغوا الباطل . لقد طالما كان الحق مطية للباطل

وأخذ كل من الفتيان يصف ما علم من حال المدينة وما صارت اليه أمورها ، ثم صاح المجشر متحمسا :

ــ فنحن اليوم بين أمرين لا غنى لنا عن الاختيار بينهما : نقيم فى يد المختار الثقفى ، أو نخرج فننجو بقلوبنا وديننا

وشمل الجمع سكون مدة لحظات طويلة كانوا فيها ينتظرون جواب ابن الحر . كانوا ينظرون اليه ويرقبون حركات وجهه اذ هو مطرق واجم محمر الوجه . ويرهفون الاسماع لما ينطق به كأنما ينتظرون صوت القضاء . وكان ابن الحر فى اطراقه يفكر وتتقاذفه الخواطر وتتجاذبه الميول . أيخرج عن عزلته التى ركن اليها ، وأمل أن يبعد فيها عن الفتن ليذوق السلام فيما بقى له من أيام ؟ أم يتبع فتيانه ويعود الى المعامع القاسية مرة أخرى غضبا من أن يتولى الامر من ليس له بأهل ؟ ومن يكون له الامر من بعد اذا هو لم يقع فى يدى ابن أبى عبيد ؟ أيكون لابن الزبير الذى سمع ما سمع عن حرصه وفظاظته ؟ أم يكون لهذه الصبية من ولد يزيد بن معاوية ؟ أم لذلك الثعلب الشيخ مروان ابن الحكم ؟ أم يقع الامر لاحد هؤلاء الخوارج الذين ملأوا الارض صياحا ينادون بالحق وهم يفتكون ويعصفون بالحق ؟ لقد ذهب الذين كانوا أمناء على هذا الامر ، ولم يبق فى الارض من بعدهم الا هؤلاء الذين يشترون ويبيعون . لا . لا . فما هو فى شىء من أمرهم ، وليبق فى عزلته فيفوز بما يستطيع أن يفوز به من الامن والدعة حتى يلحق بالذاهبين الابرار

ورفع ابن الحر رأسه فى بطء وقال :

ــ أيها الشجعان ! لا أحسبكم تظنون بى الجبن عن خوض الحروب ، فلقد كنت كما تعلمون قرين الاخطار ، ولكنى رأيت هذا الامر قد صار الى منازعة الاطماع بعد أن ذهب الاوائل بالحق الى القبور . فاذا أنا اليوم قاتلت ، فلن يكون قتالى الا فى سبيل بعض من يريد شراء عرض من أعراض هذه الدنيا . ولن أبذل فى سبيل هؤلاء نقطة من دماء المسلمين . لا لن أكون فى مثل هذا أبدا

فعاد السكون لحظة أخرى طويلة ، وتردد الفتيان بم يجيبون ، وهم بين هيبة شيخهم

وحنقهم من تخذيله اياهم . ثم انفجروا غاضبين ، وجعل كل منهم يلقى اليه سهما من قوله ، وقام ابن الحر غاضبا مما جبهوه به ، وقال فى صوت متهدج : لقد بلغتم من عمكم فحسبكم !

فأحسوا عند ذلك الخجل مما قالوا وطأطأوا رؤوسهم ، وقاموا وهم يكتمون ما على ألسنتهم من ألفاظ الحنق ، ولكن المجشر التفت نحوه وهو منصرف وقال :

ــ أو تحسب يا أبا الاشرس أنك تقيم فى دارك آمنا ؟ والله لتعودن الينا اذا رأيت الطلب حثيثا فى آثارك . والله لن يتركك ابن أبى عبيد فى أمنك هذا . أقعد ما شئت فسوف يحتوشك الكلاب . ولئن عدت يوما الى ما ندعوك اليه الآن لتجدنا سراعا الى تلبية ندائك

ثم ذهبوا سراعا وهم صامتون ، وعاد ابن الحر الى مجلسه من ابنة عمه ، فأفضى اليها بما كان . وجعل يحدثها ويعيد عليها حجته التى رد بها الفتيان ، وكأنه أراد بذلك أن يسمع منها ما يقوى به نفسه ، اذ أخذ يشعر أنه قد خان الفتيان فيما عاهدهم من قبل عليه

ونظر الى سلمى ينتظر جوابها ويستوحى خاطرها ، فقالت وقد علمت ما يريد :

ــ أحسنت والله يا ابا الاشرس لو أن المختار يدعك وما أنت فيه . ولكن أكبر ظنى أن المجشر قد صدقك الوعيد . .

فاطرق ابن الحر حينا وكأنه زاجر بالطير قد تشاءم بالبارح ، وجعل يفكر فيما يكون ، ويكاد يرى حوادث المستقبل الجاهمة تمثل أمام عينيه . ولكنه كتم ما ثار فى نفسه من الهواجس ، ورفع رأسه وتكلف الابتسام ، وقال لامرأته فى قلة مبالاة :

ــ والله لو تعرضوا لى لما وجدونى كليلا . .

ثم انتقل معها بالحديث الى حيث كانا من قبل يتناجيان .

***

مر الصيف ومضى من بعده الشتاء ، وأقبل الربيع فى موكبه تهب فيه الريح رخاء ، وتسرح السحب البيضاء فى السماء الزرقاء ، يتخللها حاجب الشمس الوضاء والمرج فى حلته الخضراء ، والزهر يبسم للحياة الجديدة . وكان ابن الحر فى سبعمائة من فتيانه يقيمون بأرض السواد فيما يلى المدائن ، قد عسكروا هناك يستجمون بعد رحلة طويلة هبطوا فيها من الجبل لكى يأخذوا نصيبهم من أموال المسلمين قسرا

لقد صدق ما تنبأ به المجشر . ولم يستطع ابن الحر أن يقيم فى الكوفة آمنا فى عزلته . كان هناك فى مكانه الملحوظ لا يستطيع الا أن يكون موضع الأمل والخوف ، والا أن يكون مع قوم أو عليهم . كانت عزلته متهمة وكان زهده فى الأمر مستنكرا . بعث اليه أشراف الكوفة أن يشاركهم فى الائتمار على المختار ، فلم يجب ورضى أن يتعرض لحقدهم غير آبه لشىء من سوء ظنهم . ولكن المختار ظن به الظنون ، اذ لم يره فى الوافدين عليه أو

السائرين فى مواكبه . فأوفد اليه الرسل يدعوه اليه ، فرد الرسل معتذرا ولم يذهب اليه، ثم ألح عليه المختار ولج هو فى الاباء حتى ساء ظنه به وأطاع وساوسه فيه . ثم أتاه الفتيان يوما يحملون اليه نبأ ما يدبره المختار للايقاع به ، فلم يكن له بد من الخروج معهم وقال لهم : « لقد بين الصبح لذى عينين » . ثم غادر الوطن معهم ، وخلف ابنة عمه وراءه ، وأمسك قلبه أن يخونه عند الوداع

وبقى فى فتيانه يجوسون خلال سواد العراق ، قانعا أن يأخذ من أموال الدولة نصيبه ونصيب أصحابه ، فكان يترصد للقوافل التى تحمل المال من الريف الى الكوفة ، فيأخذ منها ما يراه حقه وحق أصحابه ، ويكتب لصاحب القافلة براءة بما أصابه من المال ، ثم يعد الى الجبل ليقيم فيه بمن معه أحرارا بمنجاة من الفتن

وكان يوما عاصفا من أيام ذلك الربيع وقد مالت الشمس الى الغرب ، وصبغت الأفق بألوان الشفق ، واضطرب الهواء ، يحز الوجوه ببقية من برد الشتاء — برد أصم يكاد من جفافه يشقق جلد الشفاه والأجفان

ونزل ابن الحر وفتيانه فى وهدة ملتفة الشجر عند المدائن، يكمنون فيها حتى لايبصرهم من يسير على الطريق الواضح . وأقاموا على مداخل الوهدة ربيئة تحرسهم من أرصاد العدو ، وجلسوا حول حفرة أوقدوا بها نارا وجعلوا يتذاكرون ما مر بهم من أحداث ذلك اليوم الملىء . فقد بدأوه بغارة على ضياع قوم من همدان ، ثم ختموه بغارة على قافلة أخذوا من مالها نصيبهم ، وكتبوا بما أصابوه منها براءة لصاحب القافلة على ما اعتادوه . وكانت رحالهم وأحمالهم مبعثرة فى أطراف الوهدة تتخلل الشجر ، وتغطى الساحات الفسيحة التى بين الدحال الملتفة ، بعضها قائم وبعضها ملقى على جانبه فى غير نظام ، تنبىء كلها أنها ألقيت على عجل ، وأن أصحابها لا ينوون الاقامة هناك الا قليلا . وبقى الجمع فى سمره حتى غابت الشمس ، فهبوا جميعا للصلاة يؤمهم ابن الحر ، وهم من ورائه فى صفوف تضيق وتتسع بما ينفسح لها من الفضاء بين الشجر حتى اذا ما انتهوا من الصلاة ذهبوا الى رحالهم يلتمسون عشاء أو يستريحون ، وبقى ابن الحر مائلا على النار مفكرا ، ينظر الى لهيبها ويرى فيه صورا ينسج منها خياله قصة بعد قصة ويحمله على أجنحته الى الكوفة والى داره التى خلف فيها أم توبة من ورائه . وكان بين حين وحين ينظر نحو الغرب قلقا يحاول أن يرى ما بين الشجر فى ضوء القمر ، ثم يعود الى اطراقه ويميل على النار يتأمل ما تخيله له من الصور . وكان القمر قد توسط السماء وأوشك أن ينحدر الى الغرب ، عند ما لاح له شبح راكب يسرع بين الأشجار ، فقام نحوه فى لهفة حتى لقيه وقلبه يخفق قلقا الى ما يحمل من الأنباء ، فنزل الراكب وسلم ، ثم سار الى جنبه صامتا كأنه يخشى أن يجهر بما يحمله . وبعد ريث قال فى صوت المواسى :

— لا يرعك ما حلت اليك يا أبا الأشرس . فشمر الى الحرب ولا تمهل

وكان هذا القول كافيا ليفهم ابن الحر كل ما يريد صاحبه أن يقوله ، وكأن نفسه المرهفة قد أوحت اليه بكل ما كان . وقص الرجل عليه قصة قصيرة اذكت فى قلبه نارا تتأجج . فصاح بصوت ترددت أصداؤه فى الليل الساجى : يا غوثاه !

ثم ارتمى على جذع نخلة ووضع رأسه بين يديه . فتحركت الاغطية فجأة فى جوانب الرحال المنثورة بين الشجر ، وتهاوى الفتيان الى شيخهم يترنحون من أثر النعاس حتى التفوا به وجعلوا يتساءلون عما أصابه . فقص عليهم الرسول قصته :

ــ انتهب المختار ضياع ابن الحر وأحرق داره ، وساق امرأته سلمى النبيلة الى السجن

وانحدر القمر الى الغرب وطلع الفجر، وكان ابن الحر وأتباعه سبعمائة فارس يمسحون بسنابك خيلهم عقود الندى الغزير المخيم على البساط الاخضر من عشب المرج عند مداخل الكوفة . ثم تسللوا من جبانة السبيع الى موضع السجن

كان الحراس قد هدأوا وغطوا رؤوسهم بالاكسية الصوفية الغليظة يستدفئون من البرد القارس ، ويصيبون من النوم اغفاءة فى السحر بعد أن تصرم الليل ، فأيقظتهم أصوات فتيان ابن الحر عند رؤوسهم يحطمون أبواب السجن ، وأفلت منهم من استطاع أن يهرب ، وما هى الا لحظات حتى كانت صيحات الفرسان تتردد فى سراديب السجن ، وانطلق ابن الحر يعدو فى تلافيف الحجرات والسيف مصلت فى يمينه وهو ينادى:«أم توبة! هذا ابن عمك أم توبة ! » فلما بلغ أقصى السجن سمع صوتا ضعيفا كأنه ينبعث من تحت أقدامه : « الى يا أبا الاشرس ! »

فاندفع كأنه الاسد الجريح نحو الباب المطاطىء الذى دونه فحطمه بدفعة من جسمه وطعن من رمحه ، ولم ينتظر حتى يجد آلة تعينه ، فاذا به يرى أمامه امرأته الحبيبة شبحا أصفر لا تكاد تقوى على الوقوف . فاحتملها بين يديه وعدا بها وهو صامت اللسان خافق القلب يمسك دموعه وهى تنازعه ، ويغالب اضطرابه ولا يكاد يغلبه ، حتى اذا بلغ رحبة السجن وجد أصحابه لا يزالون يضطربون ويحطمون ، فصاح بهم : « أطلقوا من تجدون فى حبس الطغاة . . »

ثم انتحى بابنة عمه ، فوضع عليها عباءته وفتح لها ذراعيه ، وقال لها : فداك دمى أيتها الحبيبة !

فاندفعت سلمى بين يديه باكية وهى تمغمغ قائلة : نعم فتى الفتيان !

فقال ابن الحر وقد انطلق لسانه : اطلعى على أيتها الحبيبة كما تطلع الشمس المشرقة ، لقد بدا لى السجن كأنه السماء الصافية عند ما نظرت اليك فيه فانجلت ظلمته واتسعت حجراته التى تضيق على الدبى ، فاذا بها كأنها العالم كله . انت لى كل ما فى هذا العالم يا بنت الاكرمين . ويل هؤلاء الطغاة ما أغلظ قلوبهم اذ امتدت أيديهم اليك ، فيا بؤسا لهم وسأشفى منهم الغليل

فقالت أم توبة تهدىء من ثورته : لا عليك يابن العم فقد أشفى الله بك ..

فضمها الى صدره كما تضم الحمامة فرخها الى جناحها ، وقال وهو يهدر فى ثورته :

ـ لقد كنت أنا المحبوس المعذب بحبسك . وكنت أنا المظلوم بظلمك . ووالله لأثيرنها عليهم نارا لا تطفأ وزلازل لا تبقى ولا تذر . ولأوقعن بهم وقائع لا تبرح حتى تدك صرحهم الخاوى الذى لا قوام له الا على مثل هذا الجرم الشنيع

وفيما هو فى ذلك سمع حوافر خيل مقبلة ، فعلم أن عدوه قد نذر به وأرسل فى طلبه ، فأسرع الى فرسه وصاح فى فتيانه : هلموا الى الجبابرة الأنذال ..

وسارع الفتيان اليه وركبوا من حوله وهو مردف حليلته من خلفه ، حتى خرجوا من السجن ، وكان صداما عنيفا

***

هدأ الليل وخيم الظلام فما تلوح فيه بارقة من النور ، وأغلق الناس أبوابهم عليهم ، ولم يبق الا العسس الذين يجوسون خلال الطرق على الخيل ، جردوا السيوف وأشرعوا الرماح ، يلتمسون من يكون قد حدث نفسه بوثبة أو اعتزم أن يهرب ناجيا من المدينة الصامتة . قد سكنت أنفاس الكوفة بعد أن كانت لا تستطيع الخمود وهدأت وهى التى لم يقو على كبح جماحها واذاعة الرعب فيها من قبل زياد ولا ابن زياد . كانت النجوم تلمع فوق الطرق الخالية الموحشة كما تلمع فوق المقابر المهجورة ، لا يبص شعاع من النور من باب مفتوح ، ولا يعلو صوت طفل فى دار حية ، كأن الموت قد نشر جناحيه على المصر كله ، وجعله خامد الأنفاس

وكان حميد بن مسلم يسير متسللا بين البيوت المظلمة ، ويندس فى منعرجات الطرق وهو يتلفت ويترقب اذ هو متجه نحو جبانة السبيع ، يرجو أن يبلغها قبل أن يدركه الصباح حتى ينجو بنفسه من هؤلاء الشرط ـ شرط المختار بن أبى عبيد ـ الذين لا تفتر لهم حركة فى ليل ولا فى نهار ، يسيرون فى كل مكان لا يكاد يخلو منهم طرف من أطراف المدينة ، يذيعون الرعب بطلعة وجوههم الجاهمة . ما كان حميد بن مسلم ليأمل فى النجاة من الموت لو رآه أحد هؤلاء ، ولهذا كان يسير كأنه أفعى تنساب من جحر الى جحر ، ولا تزال تتمثل له صورة صاحبيه المسكينين عبد الله وعبد الرحمن ابنى صلخب ، يراهما أمامه كلما انعطف فى طريق . كانا يسيران معه يبغيان النجاة من الكوفة ، ولكن سوء الحظ عثر بهما فرآهما بعض هؤلاء الشرط ، فما أقبل الليل عليهما حتى كانا جثتين معفرتين تكشران عن الأنياب على قارعة الطريق فى السوق . فكان يخيل الى حميد أنه يراهما وراءه يصرخان ويستنجدان به ، فيلتفت مذعورا الى ورائه ، ثم ينعطف فى أول درب يراه لعله يتخلص من الحاح هذه الصورة التى تتبعه أينما اتجه . وفيما كان حميد يسير فى ظلال البيوت وخياله يضطرب ، لاح له شبح فى آخر الدرب الذى دخله ، ورأى

الشبح يتجه نحوه فى حذر وتمهل . فوقف مضطربا وقلبه يخفق كأنه يريد أن ينخلع من صدره . ألا يكون هذا الشبح أحد هذا العسس الذى لا ينقطع دبيبه فى طرق المدينة ليلا ونهارا . فلزق بجدار بيت مهدم كان قريبا منه حتى يرى أين يتجه الشخص الذى بدا له . فرآه لا يزال يتجه نحوه كأنه يريده قصدا ، فوثب مسرعا حتى توارى وراء الجدار المتهدم ، وكتم أنفاسه المضطربة ، وجعل يدس بصره فى ثنايا اللبنات فى ذعر ، حتى اقترب الشخص منه ، فرآه رجلا يتسلل كاللص الهارب وهو يتلفت ويتحسس مواضع خطاه . فاطمأن بعض الاطمئنان ، ولكنه بقى حيث كان ، وكتم أنفاسه خشية أن يراه الرجل فيصيح صيحة فزع تنم عنهما جميعا . ثم رأى من خلال اللبنات أن الرجل ينظر الى الدار المهدمة كأنه يريد أن يدخل اليها . ثم رآه يسرع فيندس فى ثلمة منها ويتوارى وراء جدارها ، ثم رآه ينكمش ويندس حتى صار قريبا منه ، ثم أسرع الرجل فى اضطرابه وتعثر حتى اصطدم به قبل أن يستطيع أن يبعد عنه . وما كاد الرجل يحس الصدمة حتى التفت مذعورا وصاح صيحة مكتومة ، وحاول الارتداد من حيث أتى فوقع ، ورفع يديه فزعا لا يدرى من يكون ذلك الشيطان الذى خرج له من بطن الخربة . فعلم حميد أنه لا بد أحد هؤلاء المساكين الذين ينسحبون فى كل ليلة من الكوفة يريدون النجاة بأكبادهم من عسف الطاغية ابن أبى عبيد ، فأشار اليه بيده أن يهدأ ، ثم اقترب منه وقال له هامسا:

ـ لا تخف فما أنا الا مثلك . .

فتمالك الرجل نفسه ، ثم قام وهو يعرج من أثر السقطة حتى اقترب منه ورفع عن وجهه اللثام الذى يغطيه ، وقال هامسا كذلك : وأنت من تكون ؟

فصاح حميد وقد عرفه : سراقة بن مرداس ؟

فرد سراقة فى مثل صيحته : حميد بن مسلم ؟ خفض صوتك فان العسس عند منعرج الطريق

وقبع الاثنان فى مكمنهما حينا ، ثم مال سراقة الى الارض فوضع عليها أذنه يتسمع وقع الاقدام والحوافر ، ثم قام الى صاحبه فقال :

ـ لقد بعدوا . أبعدهم الله ! أسرع قبل أن يقترب منا سواهم . انهم مثل الدبى لاندرى من أين يأتون

وسارا فى حذر يترقبان ، فخرجا من الخربة وما زالا يتلمسان أضيق المسالك وأبعدها عن الاحياء العامرة ، حتى بلغا جبانة السبيع وقد انتصف الليل وظهر القمر نصفا من الشرق وأرسل لمة من نوره المحمر ، فلاحت لهما شواهد القبور الممتدة الى مدى البصر ، قبور جيل من الذين مضوا من أهل الكوفة ولم يشهدوا المصارع التى روعت مصرهم ، وكانت أشلاء القتلى لا تزال مبعثرة فى الوهدات ، أشلاء من لم يدفنوا بعد من قتلى الموقعة الاخيرة بين المختار وبين أشراف الكوفة الذين ثاروا به . فأسرع الرجلان يخرجان من

منظر تلك الصحراء الموحشة التي شهدت مصارع عشيرتهما وبنى عمومتهما في الثورة الخائبة

ولما بلغا الفضاء الأصفر الممتد وراء الجبانة أحسا شيئا من الأمن ، وشغلهما التفكير في مصيرهما عن تذكر المأساة التي هزت الكوفة منذ أيام . واتجها في سبيلهما نحو الجنوب ينظران الى الافق البعيد الآمن من مثل ما هما فيه . فهناك من وراء ذلك الافق ريف البصرة حيث يقيم ابن الزبير في جيوشه الكثيفة يتربص الفرص بالجبار ، وهناك من ورائه ابن الحر في فتيانه لا ينفأ يجوب أرض السواد ، ولا يجرؤ المختار على قتاله ، وهو في كل يوم يهبط الى جانب من اقليمه فيشفى نفسه من هدم بيته وسجن امرأته . وهناك أشراف الكوفة الذين نجوا بأنفسهم بعد أن خابت ثورتهم ، وهربوا سراعا قبل أن يبطش بهم العدو المخيف ، قد أقاموا الى جانب ابن الزبير يتحرقون للانتقام ممن شردهم وقتل عشائرهم وأذلهم ، فحكم في مصرهم العبيد والموالى ، يذيعون فيه الرعب ويسيلون الدماء ـ دماء سادتهم الأقدمين الذين كانوا من قبل لا يتجرأون على أن يملأوا منهم الأبصار . ولما أوغل سراقة وحميد في الصحراء وعادت اليهما النفس ، قال حميد :

ـ وكيف نجوت من القوم يا سراقة ؟ انه لعجيب من أمرك أن تنجو من المختار برأسك وقد رأيتك منذ حين مقيدا يسعى به شرطة الله الى السجن . .

فضحك سراقة ضحكة حقد وقال بصوت أجش :

ـ ألا انها لشرطة الشيطان ! ما أنجانى منهم الا ايمانى بنبيهم الخبيث

فقال حميد : وهل آمنت به ؟

قال سراقة : وشهدت له شهادة تنفعه عن حمقى همدان

فقال حميد ضاحكا : لقد كنت له وليا حميما . .

فقال سراقة : ما احتلت والله الا ابقاء على رأسى ودمى . لما أسرنى الأشقياء قلت ان الاجل قد دنا ولا بد لى من الاحتيال اذا أردت الحياة وتمثلت دمائى سائلة ورأسى المقطوع ملقى في حجر امرأتى ، فزدت حرصا على الحياة وجرأة على الحيلة . فقلت أكذب كذبة تنجينى من الموت ، وصحت مبادرا : أتظنون أيها القوم أنكم أسرتمونى ؟ لا والله ما أسرنى الا قوم على خيول بلقاء تطير بين السماء والارض . ما أسرنى الا الملائكة الذين أرسلهم الله ليحاربوا للمختار . فصاح الحمقى ايمانا ، وضحك بعضهم وكادوا يفطنون الى الخدعة . فجعلت أحلف لهم واجتهد في اليمين ـ ولا أذكر أنى اجتهدت من قبل في يمين مثلها ـ حتى صدقوا وآمنوا . فلما بلغ الخبيث قولى سره ورآه ينفعه ، فأمر بى ، فأحضرت الى مجلسه

فقال حميد : لتكون شاهدا على صدقه

فقال سراقة : وذهب بى الشرط الى المسجد ، وكان المختار جالسا عند المنبر ومن حوله أصحابه وأمامهم الكرسى المقدس . .

فقال حميد ضاحكا : كرسى جعدة بن هبيرة ؟

فقال سراقة : الكرسي المزيت . كان الديباج يستره كأنه جانب من الكعبة . ومن حوله السدنة يحفظونه من المس ، والحمقى من همدان يبتلون عنده ويتعبدون ويقولون كرسي الامام . .

فقال حميد : قبح الله جهلهم . ما كان الامام على يرضى بذلك لو كان ذلك كرسيه

فقال سراقة مستمرا : فجعل المختار يسألني ويحرضني على الكذب ، ولا أشك في أنه كان عالما بكذبي . فجعلت أعيد قولي على الملأ من أصحابه ، وأعدت يميني وبالغت في كذبي واخترعت الصور ، وجعلت أصف الملائكة الذين أسروني وملبسهم وأجنحتهم الفضية الشفافة . وكان وصفي جديرا بقصيدة مما يتقرب به الى الملوك

فقال حميد : ولعله أجازك على كذبتك ؟

فقال سراقة : والله لو رأيته وهو يهتز ويطرب كلما نطقت بكلمة ، لاعجبك ما ترى . حقا ان النفاق أحب قربان عند الطغاة . تقول لعله أجازني ؟ وهل كانت عندى جائزة أحب من رأسي ؟ ولكنك لم تخبرني ما الذى أخرجك أنت ؟

فقال حميد : أخرجتني الصيحة . ألا تعلم أنني كنت في جيش ابن زياد ؟

فقال سراقة : وخشيت أن تطالب بدم الحسين ؟

فقال حميد : كم من الدم يسفك باسمه وهو منه برىء . نعم أنها صيحتهم . يا لثارات الحسين !

ووقف حميد عن حديثه ، ونظر نحو الافق مليا ، ثم قال : ألا ترى هذا ؟

فنظر سراقة الى الافق ، وقال في جزع : انها خيل . . أما من مقبرة في هذا الفضاء نتوارى بها ؟

فقال حميد بعد أن حدق في الافق حينا :

ــ لا أظن شرطة الله تبلغ هذا الموضع . . أما سمعت أن ابن الحر هناك ؟ أنه لا يدع للمختار سلاما ، ولا يجرؤ الجبار على الخروج اليه . .

فقال سراقة : ومن أدراك أنه هناك ؟ . .

فقال حميد ولا يزال ناظرا الى الافق :

ــ أغلب ظني انها خيله . لقد كنت على موعد معهم . . أن أهرب لالقاهم هناك

فهدأ سراقة ، وسار مع صاحبه يتم له حديثه ويصف ما بقي من قصته . وكانت الشمس قد علت في السماء وأضاءت فضاء الصحراء ، وأعادت الى الرجلين ما ذهب الليل به من روعهما . فما زالا سائرين حتى انتهيا الى معسكر الفتيان

***

مضى على الكوفة عام في حكم المختار ، شهدت فيه المدينة مصارع أبنائها من الاشراف والابطال يفتك بهم الجبار واحدا بعد الآخر ، مستعينا بالعبيد الذين أطلقهم من رق

السادة ، وبالموالى الفرس الذين كانوا يتطلعون الى الحرية ، ويتحرقون للانتقام من أولئك الذين أذلوهم وأصغروا شأنهم فى بلادهم ، ثم ذهبت دولة المختار فجأة كأن لم تكن . كانت قائمة على الرمال ، فما هو الا أن صدمها ابن الزبير ومن معه من تميم وبكر والازد ، ومن انضم اليه من أشراف الكوفة ، حتى انهارت وتحطمت بين عشية وضحاها ، وكان ابن الحر وفتيانه فى طليعة الفرسان الذين دخلوا مصرهم وألحوا فى القتال على الطاغية حتى قتلوه ، واستسلم من معه من عبيد وموال ، وأصبح ابن الزبير سيد العراق بلا منازع

وطلع الربيع ليشهد ابن الحر مرة أخرى فى داره بالكوفة ، وقد أعاد بناءها وأرجع اليها رونقها ، ولكن الدار لم تكن على سابق عهدها ، اذ لم تكن فيها الزهرة البسامة التى كانت تزينها . لم تكن سلمى ابنة عمه هناك تملؤها حياة وبهجة وجمالا ، اذ أرسلها ابن الحر الى أهلها فى اليمن حتى لا تصل اليها أيدى الطغاة ، وتقذف بها فى السجن مرة أخرى . وماذا كان يتوقع ابن الحر من هؤلاء الذين أعانهم على بلوغ النصر وحيازة السلطان ؟ انه لم يجد المصعب خيرا من المختار ، ولم يكن ليحظى فى الدولة الجديدة بشىء فاته فى الدولة التى حطمها . وهل كان مثله ليجد الحظوة عند سلطان يطمع فى بسط يديه بكل ما شاء من عسف ؟ هل كان مثله ليتقرب الى أمير لا يحتمل أن يرى رجلا يرفع دونه رأسا أبيا أو يجهر برأى جرىء ؟

كان ابن الحر فى فناء داره واقفا ينظر الى فتيانه وهم يسرجون خيلهم ويلجمونها ويستعدون للركوب ، فما كانت الكوفة لمثله دارا ، كان اليوم من تلك الايام التى تبعث فيها الصحراء أنفاسها المحرقة فجأة فى أعقاب الشتاء ، فاذا بالحر اللافح يكاد يحرق الوجوه ، بعد أن كان الامس يلسعها ببرده القارس

ولجأ ابن الحر الى ظل شجرة ووقف ساهما وعلى وجهه المحمر وجوم وتعبيس ، كأن الشرر يتطاير من عينيه اللامعتين ، وكان حينا يعبث بلحيته السوداء التى لم يزدها الشيب بياضا بعد عام ملىء بالقتال المر والجهاد العنيف ، وحينا ينظر قلقا نحو أصحابه يستعجلهم للمسير . وكان قلبه يتقد ويضطرم بين أضلاعه ، كلما تذكر الحوادث التى تقلب فيها مدة هذا العام . كان عبد الله ابن الزبير فى الكوفة مثلما كان المختار ، أليس أخوه المصعب يطغى ويسفك الدماء ؟ ألم يقتل الالوف الذين استسلموا له فى القصر بعد أن هلك المختار ؟ أليس هو الذى قتل النساء والضعفاء ؟ ألم يقتل عمرة ابنة النعمان لانها لم تشهد على زوجها المختار بالكفر ، بل قالت فيه ما تقوله فى زوجها المرأة الوفية ؟ وما قتل النساء فى شؤون الرجال ؟ لقد صدق عمر بن أبى ربيعة اذ قال فيها :

ان من أعجب العجائب عندى   قتل بيضاء حرة عطبول
قتلت هكذا على غير جرم   ان لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا   وعلى المحصنات جر الذيول

كان قلب ابن الحر يغلى كالمرجل وهو واقف تحت الشجرة ينظر الى فرسانه ويستبطىء استعدادهم . وكان بين حين وحين ينطق بكلمة حانقة . فما الذى بعثه على أن يشارك فى اقامة هذه الدولة الجديدة ويعينها على الانتصار الذى انتهى الى تجديد العسف والبطش ؟ أما كان أولى به لو خرج مع فتيانه الى الارض الفسيحة وحدهم ، فيقيم معهم حيث تحلو لهم الاقامة بعيدين عن هذا العالم كله ، حتى تنقضى بقية أيامه ، ويدفنه أصحابه حيث يوافيه أجله فى بعض وديان الجبال التى شهدت اضطرابه ؟ كان يلوم نفسه أشد اللوم وهو يذكر ما آل اليه أمره مع المصعب ، فانه لم يجد عنده الا الحسد وسوء الظن ثم الظلم . نعم الظلم الفادح الذى كوفىء به على كل ما بذله مع فتيانه فى القتال الوعر . قذف به المصعب فى السجن، وهو الذى لولاه لم يجرؤ على أن يطأ أرض الكوفة، أيقذف به فى السجن المظلم الذى قذف المختار فيه ابنة عمه من قبل ؟ ان وسيلة الطغاة واحدة وان اختلفت الاسماء ، انها لذكرى أليمة كانت تطعن قلبه كلما عادت اليه ، وتوقد فيها النيران

وصاح عند ذلك بفتيانه يستعجلهم فى جفاء، ولكنهم كانوا لا يزالون يستعدون للرحيل. فعاد الى خواطره الحانقة وقد هجمت عليه وتزاحمت فى خياله . لقد كان أشد من السجن على نفسه أن المصعب لم يطلقه حتى بعث اليه يرجوه ويسأله العفو عما لم يرتكب من الاثم . سأله العفو لانه ضاق بالسجن، ولم تحتمله نفسه التى تعودت أن تجوب الآفاق. كان القتل نفسه أهون عليه من المقام فى ذلك السجن المظلم الضيق الذى لا يليق بالاحرار، كما لا يليق القفص الضيق مقاما للاسود . ولقد حاول أن يتدارك أمره بعد أن أفلت من يديه ، فبعث الى فتيانه وواعدهم أن يأتوا اليه ليخرجوه من السجن قسرا ، ولكن المصعب كان قد لبى رجاء شيوخ مذحج الذين بعثهم ابن الحر ، يتوسل بهم اليه ليطلقه ، فأصبح طليق المصعب وأسير كرمه . أيستطيع بعد ذلك أن يبقى فى الكوفة لكى يتذكر كل يوم أن المصعب من عليه ؟ ان فى ذلك اذلالا لكبريائه . أيستطيع أن يسير فى طرق الكوفة لكى تشير اليه الاصابع : هذا هو ابن الحر الذى انحنى وتحطم أنفه وذل ، فطلب العفو من ابن الزبير ؟ أيتحدث الناس عنه قائلين : انه يقيم فى الكوفة آمنا فى كنف الامير الكريم شاكرا له عفوه قانعا أن يفوز عنده بالسلام ؟

وطال على ابن الحر الانتظار وان كان لم ينتظر سوى سويعات . ولما ضاق صدره صاح فى حنق :

ــ ماذا دهاكم أيها الفتيان ؟ أين المجشر ؟ أين جرير بن كريب ؟ أين دلهم المرادى ؟ أين عمرو بن جندب ؟ ماذا يقعد بكم ؟ ويحكم !

فتصايح أصحابه من أركان الفناء يلبون نداءه ، وذهب فى قلقه يسير مسرعا يتنقل بين الفرسان يحرض هذا ويستعجل ذاك حتى بلغ فرسه ، فأخذ بعرفها ووثب فوق ظهرها عريا لا سرج عليها ، وصاح قائلا :

ـ من أراد التريث فليتخلف ورائى ..

ثم غمز الفرس فوثبت به كأنها ظبى جافل . ولما رأى أصحابه هذا ، تواثبوا سراعا حتى لحقوا به قبل أن يخرج من الدرب ، ولم يقف لحظة لينظر الى الوراء ، وماذا كان خلفه فى تلك الدار ؟ لم تكن ابنة عمه هناك حتى يردد اليها البصر قبل الفراق

ولما خرج من الكوفة نظر أول مرة الى خلفه ، ولم يملك قلبه من خفقة ، ولم يملك صدره من نفس عميق . هذه الكوفة وطنه يتركها وراءه وما يحسب أنه اليها يعود . وقال عند ذلك كأنه يعزى نفسه ويقويها على الرحيل :

لا كـوفة أمى ، ولا بصرة أبى   ولا أنا يثنينى عن الرحلة الكسل

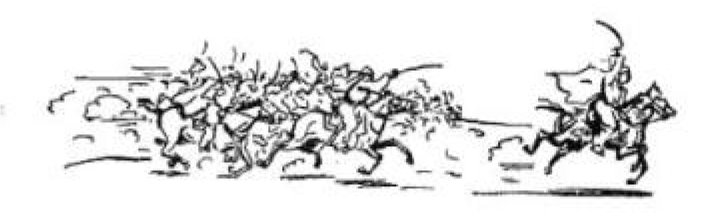
ثم همز الفرس مرة أخرى فانبعثت به طائرة ، وفتيانه من ورائه مثل سرب الطير اذا سارت فى الأسراب الصقور

ولما بلغ بهم السير حافة الريف وانطلقوا فى طريق المدائن ، أحس أن الضباب الذى كان يظلم صدره قد انجلى ، وتنفس نفسا عميقا آخر ، وعطف فرسه فأدار وجهها الى فتيانه الذين لحقوا به ، ورفع رمحه اليهم وصاح فى مرح : الى الفضاء الفسيح لنعيش كراما!

فرفعوا جميعا رماحهم وصاحوا : أو نموت كراما !

ثم همزوا الخيول ، فانطلقت بهم نحو المدائن والجبال

محمد فريد أبو حديد



فكاهة ساخرة فى فصل واحد للكاتب الروسى الكبير انطوان تشيكوف



الجلف

نقلها الى العربية

الأستاذ زكى طليمات

المدير الفنى للفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى

نماذج الادب الروسى فى المسرح العربى قليلة لا يتجاوز ما طالع الجمهور منها بوادى النيل عدد أصابع اليد الواحدة . وما أحسبنى مخطئا اذا قررت ان الفرق المصرية لم تقدم حتى اليوم غير ثلاث مسرحيات : اثنتين منها (لتولستوى) وهما «البعث» و «أنا كارنينه» وواحدة (لدستوفسكى) وهى « الجريمة والعقاب » . وهذا قليل من كثير ، اذ أن الادب الروسى غنى بنفائسه الفنية

وهذه هى مسرحية « الجلف » من تأليف (أنطوان تشيكوف) ثالث ثلاثة بين أنبغ كتاب الروس ، يؤلفون بحق قمما ثلاثا وسط سلسلة الراسخات من القمم السامقات فى عالم التأليف المسرحى عامة

والمقام لا يتسع للكشف عن مفاتن هذه المسرحية من حيث السياقة ولطف الحوار ، ومن حيث معالجتها الخالد من الحقائق النفسية ، ويكفى أن نشير الى أن المؤلف وضع أصبعه على حقيقة سرمدية فينا ، وهى أن الحقد والحب ــ وهما عاطفتان قويتان ــ انما هما طرفا انفعال نفسى عنيف يعصف بالقلب ، فاذا هو يتأرجح بينهما بحركة لا شعورية ، وسرعان ما يحب المرء ما يكره ويعود فيكره ما يحب ! وثمة ظاهرة أخرى تطالع المتأمل هذه المسرحية ، وهى أن بطليها يصدران فى أقوالهما وفعالهما بغير ما يختلج فى أعماق نفسيهما ، فكأن لكل منهما شخصيتين متناقضتين فى آن واحد . وازدواج الشخصية فى الكائن الانسانى أمر قرره علم النفس فى أحدث مراحله ، بعد أن فات زمن على وفاة تشيكوف مؤلف هذه المسرحية ، اذ لا يخفى أن العلامة النفسى (سيجموند فرويد) لم يطلع علينا بنظرياته فى ازدواج الشخصية البشرية وفى العقل الباطن والظاهر الا منذ عهد قريب

واهتداء تشيكوف الى هذه الحقيقة النفسية قبل أن يرسم العلم لها النظريات ويضع لها المعالم والحدود ، أمر يقيم الحجة على صدق بصيرة هذا الكاتب ، وعمق تنقيبه فى حنايا النفس ، واقتناص الشارد المقنع فيها . وهذا فضل كبير يضفى على مؤلفاته طابع الادب الرفيع ، الخالد بصدق ما فيه ، الادب الذى يخاطب الانسانية بأسرها متجاوزا فروق العقيدة واللغة والديار

شخوص المسرحية :

هيلينا بوبوف . . . . أرملة وسيمة فى مقتبل العمر من ذوات الأملاك بالريف

جريجورى سميرنوف . . فى نضوج الرجولة ومن ذوى الأملاك بالريف

لوكا . . . . خادم مدام بوبوف ، فى مهبط العمر

[تجرى الحادثة فى قرية بأحد أقاليم روسيا]

(يرفع الستار عن حجرة جلوس بمنزل السيدة بوبوف - تبدو السيدة المذكورة وهى تنشج بالبكاء ، وقد أدارت عينيها بين صورة فوتوغرافية وبين الخادم لوكا)

لوكا — ليس هذا من العقل فى شيء يا سيدتى . قصارى عنك هذا انك تفنين نفسك هنا . . روحى عنك وترفقى بنفسك ، فالدنيا ما زالت على عهدها خيرة بسامة ، والحياة ما برحت غلابة بمباهجها . تأملى . . لقد انطلق الطباخ والخادمة يجمعان ثمار (الشليك). كل حى ينشد المتعة حتى القطة فانها تعرف كيف تلهو ، كيف تستمتع . انها تنساب فى الحديقة لاقتناص الطير . أما أنت فلا تغادرين منزلك وكأنك راهبة فى دير وقد زهدت فى كل لذة وصدفت عن كل بهجة . هذا هو الواقع بعينه لو تأملت حالك . . انك لم تفارقى المنزل طيلة هذا العام

مدام بوبوف — ولن أفارقه . . ولماذا أفعل وقد انقطع ما بينى وبين الناس . ان زوجى مسجى فى قبره ، فلأبقين بدورى مخبأة بين هذه الجدران . كلانا فاقد الحس

لوكا — ها قد رجعنا الى كلام البائس المحزون . مات زوجك نيقولا ميهيليتش وهذه ارادة الله . وقد بكيته أحر بكاء وفى هذا الكفاية . ليس فى وسعك أن تقضى بقية حياتك فى لبس الحداد وذرف الدموع . ماتت زوجتى فبكيتها لشهر ويزيد ، ثم انتهى الامر . ما هذا ؟ ان الامر لا يستحق أن نفنى رثتينا نشيجا وبكاء . (يتنهد) نسيت جيرانك حتى أنك لا تستقبلين من يفد منهم علينا . انا نعيش كالعناكب ، نهرب من كل ضوء يدخل علينا . أردينى أصبحت مائدة شهية للجرذان لطول عهدها بالحبس . هل أقفرت الدنيا من خيار الناس حتى تغلق علينا الابواب؟ لا . . ان الحى يفيض بالاعيان وبالصحبة الفاضلة . عسكرت فى (ريبلوفر) فرقة من الجند . ما أجمل الضباط وهم يتطاوسون فى لباسهم الانيق الموشى ! انهم بهجة العين الحزينة . يحيون حفلة راقصة فى يوم الجمعة من كل أسبوع ، وتعزف موسيقاهم فى كل يوم . آه يا سيدتى العزيزة . انك ما زلت شابة مونقة كالزهرة فى أكمامها ، وليس لك الا أن تعيشى وتسعدى وتمرحى كما يحلو لك .

احذرى ، فان جمالك لن يدوم طيلة حياتك ، ولن تكونى كذلك بعد انقضاء عشرة أعوام ، وقد يحلو لك اذ ذاك أن تبهرى الضباط بمحاسنك ، ولكن الوقت يكون قد فات

مدام بوبوف ــ (فى عزم) أرجوك ألا تتحدث الى بمثل هذا أبدا .. أنت تعلم أن الحياة بعد موت زوجى اصبحت وليس لى فيها مذاق . قد يبدو لك أننى أعيش كسائر الخلق ، ولكن هذا وهم . أقسمت ألا أخلع ثياب الحداد عليه ما دمت حية . أفهمت ؟ فلعل روحه تدرك مبلغ حبى له . نعم ، أنت تعرف كل شىء . كان أحيانا يقسو على ، يخوننى ، ولكننى سأظل وفية حتى القبر ، لأريه كيف أحب وأخلص فى الحب

لوكا ــ خير لك من هذا الكلام أن تخرجى للنزهة فى الحديقة ، أو أن تأمرى بتطهيم أحد جواديك « طوبى » أو « جيانت » وشده الى العربة لتزورى جيرانك

مدام بوبوف ــ آه .. (تنتحب)

لوكا ــ سيدتى . سيدتى العزيزة ترفقى بنفسك وليكن الله فى عونك

مدام بوبوف ــ كان يحب « طوبى » ويؤثره على الجياد كلها ، وكان يسرجه فى العربة ليقودها بنفسه كلما ذهب الى زيارة بعض العائلات . ما كان أبهى منظر زوجى وهو منحن على اللجام بكل قوته . ألا تذكر ؟ توبى .. قدم له مزيدا من العلف اليوم

لوكا ــ حسن يا سيدتى

(يسمع دق جرس)

مدام بوبوف ــ من يكون القادم ؟ قل اننى لا أستقبل أحدا ..

لوكا ــ أمرك يا سيدتى (يخرج)

مدام بوبوف ــ (محدقة فى صورة فوتوغرافية لزوجها) سترى يا نيقولا الى أى مدى يبلغ حبى ويكون صفحى . لن يزول هذا الحب الا بزوال أنفاسى (تبتسم وسط دموعها) ولكن قل لى . ألا تشعر الآن بالخجل ؟ أنت ترى أننى ما برحت المرأة الوفية والزوجة المخلصة ، انقطعت عن العالم لأعيش بذكراك حتى يحتوينى القبر .. هذا فى حين أنك كنت ــ آه ألا تخجل الآن أيها الاحمق ــ كنت تخوننى وتؤذينى وتسومنى الاهمال

(يدخل لوكا مفزوعا)

لوكا ــ شخص يسأل عنك ويطلب مقابلتك ..

م . بوبوف ــ ألم تخبره بأننى منذ وفاة زوجى لا أقابل أحدا ؟

لوكا ــ أخبرته ، ولكنه أبى أن يصغى الى ، يقول انه جاء من أجل مسألة عاجلة ..

م . بوبوف ــ لن أقابل أحدا ..

لوكا ــ أفهمته هذا ، ولكنه .. زمجر وتوعدنى بالاقسام ودفعنى أمامه مقتحما الباب . هو الآن فى غرفة المائدة

م . بوبوف ــ (متضايقة) حسنا .. فليأت الى .. يا له من جلف ثقيل ..

(يخرج لوكا)

م. بوبوف ـ شدما أضجر وأشقى بهؤلاء الناس! ماذا يبتغون منى؟وعلام يقطعون على هدأة سفوى ؟ (تتنهد) لم يبق الا أن أنقطع فى دير بعيدة عنهم (مفكرة) نعم فى دير

(يدخل لوكا ومعه سميرنوف)

سميرنوف ـ (موجها الكلام الى الخادم لوكا وهو يجتاز عتبة الدار) يا لك من أحمق ولوع بالكلام والجلبة . أنت حمار (يرى مدام بوبوف فيتكلم فى أدب) سيدتى لى الشرف فى أن أقدم نفسى اليك .. أنا جريجورى ستيبانيتش سميرنوف من ذوى الاملاك ، وضابط متقاعد من فرقة المدفعية ، أجبرتنى الظروف على أن أزعجك بحضورى من أجل مسألة هامة لا تقبل التأجيل

م. بوبوف ـ (من غير أن تمد يدها اليه) ما عسى أن أفعله لك ؟

سميرنوف ـ زوجك المرحوم ـ الذى كان لى شرف معرفته ـ استدان منىمائتين وألف روبل بموجب صكين . ولما كنت مجبرا فى الغد على تسديد أقساط مالية الى البنك ، فأرجو أن تدفعى لى هذا المبلغ اليوم ..

م. بوبوف ـ ... مائتين وألف روبل ! لاى غرض استدان زوجى منك هذا المبلغ الكبير ؟!

سميرنوف ـ انها ثمن قرطم اشتراه منى لاجل علف الخيل

م. بوبوف ـ (متنهدة وناظرة الى الخادم) لا تنس أن تذكرنى بأنك قدمت مزيدا من العلف « لطوبى » ـ (يخرج لوكا) ـ (الى سميرنوف) ما دام زوجى مدينا لك فلا بد لى من سداد دينه . ولكن أرجو المعذرة اذا لم أستطع أن أدفع اليوم ما عليه . سيعود وكيل أعمالى بعد غد ، وسآمره أن يدفع لك ما تستحق . وفوق هذا فانه لم يمض على وفاة زوجى حتى اليوم سوى سبعة شهور بالتمام، وأرانى على حالة نفسية لا تحبب الى التحدث فى شؤون المال

سميرنوف ـ وأنا يروق لى أن أطلق رصاصة على رأسى اذا لم أستطع الدفع فى الغد لانهم يبيعون أملاكى

م. بوبوف ـ ستأخذ مالك بعد غد

سميرنوف ـ أريد مالى اليوم لا بعد غد

م. بوبوف ـ معذرة فأنا لا أستطيع الدفع اليوم

سميرنوف ـ وأنا لا أستطيع الانتظار الى بعد غد

م. بوبوف ـ وماذا أفعل ما دام المبلغ المطلوب ليس فى حوزتى

سميرنوف ـ اذن أنت عاجزة عن الدفع ؟

م. بوبوف ـ نعم عاجزة عن الدفع

سميرنوف ـ حسن . هذه هى كلمتك الاخيرة ؟

م. بوبوف ـ نعم ..

سميرنوف ـ الاخيرة ؟ أى لا سبيل الآن الى الدفع مطلقا

م. بوبوف ـ مطلقا

سميرنوف ـ لك وافر الشكر . وسأذكر لك هذا الجميل . (يهز كتفيه) أعجب كيف أحتمل كل هذا ساكتا .. مررت عند مجئ بالصراف فسألنى : « لماذا أراك حانقا يا جريجورى سميرنوف ؟ » خبرونى بالله كيف لا أحنق ولا أحزن وأنا فى أشد الحاجة الى المال . غادرت منزلى قبل طلوع فجر الامس وطفت على كل من يدين لى بمال . ولكن واحدا منهم لم يدفع لى دينه . وهأنا ذا بعد طوافى أعود منهوكا كالكلب المتعب . اضطررت الى أن أبيت ليلتى فى فندق حقير وصاحبنى فى حجرتى برميل من براميل (الفودكا) وأخيرا حضرت الى هنا بعد أن قطعت خمسين ميلا من منزلى ، وبى أمل أن أحصل على مالى ، ولكنى لم أحصل الا على اعتذارات وتمحلات . أتساءل كيف ما برحت مالكا روعى ؟

م. بوبوف ـ أعتقد أننى أوضحت جليا أنه متى عاد وكيل أعمالى من المدينة دفعت لك المبلغ المطلوب ..

سميرنوف ـ جئت لمقابلتك أنت لا لمقابلة وكيل أعمالك . الى الشيطان وكيلك هذا ـ عفوا على هذه اللهجة ـ مالى وله ؟

م. بوبوف ـ عفوا يا سيدى ، فأنا لم أعتد سماع هذه اللهجة النابية ، ولهذا لن أستمع الى ما تقول .. (تخرج مسرعة)

سميرنوف ـ ما العمل ؟ انها على حال نفسية عجيبة .. فى حين أنه قد انقضت سبعة شهور على وفاة زوجها .. مالى ولهذا ؟ لا أدفع ؟ أسألك ألبس على أن أدفع ؟ توفى زوجك ، وما زلت على حالة نفسية عجيبة ، وقد سافر وكيل أعمالك الى جهة ما ، الى جهنم ، ولكن خبرونى ماذا أفعل ؟ أأهرب من الدائنين راكبا متن الريح أم ماذا ؟ أنطح برأسى عرض الحائط ؟ طرقت باب « جروسديوف » فأخبرت أنه خرج . وقصدت «ايروسفتش» فاذا هو مختف لا أثر له وكدت أقذف «بكورزين» من النافذة بعد شجار عنيف ، « مازوتوف » صريع المرض ، وهذه السيدة على حالة نفسية .. امتنع كل هؤلاء الماكيد عن سداد ما عليهم .. والسبب فى هذا أننى أخذت باللين فى مطالبتهم ، اننى غر متخاذل فى المطالبة ، وبى رقة قلوب عجائز النساء ، ولكن صبرا . سأريكم ما فى وسعى عمله ، لن أدعهم مرة أخرى يجعلون منى أبلها ، لعنة الله عليهم . سأبقى هنا حتى تدفع . شد ما أحس الثورة فى أعصابى . أعضاء جسمى تنتفض من الغضب . أرانى أتنفس فى صعوبة .. أواه .. اننى حقا مريض .. (يصيح مناديا) ايه .. من هنا ؟

لوكا ـ (داخلا) ماذا تريد ؟

سميرنوف ـ على بشىء من الجعة أو بقدح ماء (يخرج لوكا) نعم يا له من منطق !! حاجتى الى المال دونها كل حاجة ، حتى لم يبق أمامى الا أن أشد عنقى الى حبل ، وهى

مع هذا لا تريد أن تدفع ، ولماذا ـ وأرجوك المعذرة ـ لانها لايروق لها أن تعالج شؤون المال. حقا انه لمنطق نسائي أصيل. من أجل هذا لم أحب ، ولا يروق لي أن أبادل امرأة حديثا ، وخير لي أن أجلس فوق برميل ملؤه البارود من أن أجلس الى حديث امرأة. ماذا دهاني ؟ أحس قشعريرة في كل جسمي ، شد ما أسلمتني هذه المخلوقة الانثى الى الانفعال، حقا انه يكفي أن أرى مخلوقة شاعرية كهذه على بعد حتى تصلب ساقاي غضبا ، يلوح لي انني أصيح : النجدة . .

لوكا ـ (يدخل لوكا ويقدم له قدح ماء) سيدتي متوعكة ولن تقابل أحدا . .

سميرنوف ـ أغرب عن وجهي . . (يخرج لوكا) انها متوعكة ولن تقابل أحدا . . . حسن جدا . . لا تكلفي نفسك مشقة المجيء . . سأبقى هنا حتى تدفعي لي نقودي . اذا مرضت أسبوعا فسأمكث هنا اسبوعا ، واذا لزمت الفراش عاما فسأبقى هنا عاما . سأسترد نقودي . لن يؤثر في لباس الحداد الذي ترتدينه ، ولن تهزني غمازات خديك يا حسناء. كلنا يعرف ما هذه الغمازات ؟ (يصيح من النافذة) سميون سرح الجياد فلن أسافر الآن، قل لهم في الاصطبل أن يقدموا للخيل علفا . أيها الاحمق لقد خلقت الجواد الايسر تعثر قدمه باللجام . (مفرطا في التعبير بقسمات وجهه) هذا حسن . . على غاية ما يرام . وسأريك يا سيدتي اذا كان كل شيء سيجري على غاية ما يرام (يترك النافذة) حر شديد ، وافلاس على أحسن ما يكون ، لم أمتع بالنوم ليلة البارحة ، ولن أمتع اليوم بغير سماع نحيب هذه الانثى ! رأسي يؤلمني . . أأتناول شيئا من الفودكا ؟ (ينادي) الى

لوكا ـ (داخلا) ماذا تريد ؟

سميرنوف ـ أحضر لي قدحا من الفودكا . (يخرج لوكا) أوه (متفحصا هندامه) في الحق انني ممشوق القوام . ولكنني أغبر ، ملوث الحذاء بالوحل ، ووجهي لم يغسل ، وشعري لم يمشط وسترتي ما زال يعلق بها التبن ! لا غرابة في أن تحسبني السيدة من قطاع الطريق . (يتثاءب) ليس من اللياقة أن أمثل في غرفة الجلوس وأنا على هذه الحال. ولكن لا حرج على . . لست ضيفا ، وانما أنا دائن يطالب بما له ، ولم توجد بعد ملابس رسمية يرتديها الدائنون

(يدخل لوكا)

لوكا ـ (مناولا اياه قدح الفودكا) تساق في حريتك الى مدى بعيد يا سيدي . .

سميرنوف ـ (غاضبا) ماذا تقول ؟!. .

لوكا ـ لا شيء . . أردت فقط . .

سميرنوف ـ من تخاطب ؟ اخرس

لوكا ـ (مديرا وجهه) انه لطاعون . . لقد دفعت به الينا ريح خبيثة (يخرج)

سميرنوف ـ آه . . شد ما أنا غاضب محنق ! لي رغبة في أن أحيل العالم كله بارودا متفجرا . أحس أن بي مرضا . . . (يصيح) هيا . . تعالوا . .

(تدخل مدام بوبوف مطرقة بنظراتها الى الارض)

م. بوبوف — سيدى ، فى وحدتى هذه مضى زمن طويل لم آلف فيه سماع أصوات الآدميين ، فلا أقدر ، والحالة هذه ، على احتمال الصخب والصراخ . لهذا أبتهل اليك ألا تعكر على السكون الذى يحيطنى ..

سميرنوف — ادفعى لى الدين ، أرحل ..

م. بوبوف — صارحتك بلغة أهل هذا البلد بأن ليس فى حوزتى الآن نقود. انتظر الى ما بعد غد ..

سميرنوف — وأنا بدورى صارحتك وبلغة أهل هذا البلد أيضا ، بأننى أريد نقودى اليوم وليس بعد غد . فاذا لم تدفعى لى اليوم فليس أمامى غير أن أشنق نفسى فى الغد

م. بوبوف — ولكن ما العمل وليس فى حوزتى ما تريد ؟ موقفك غاية فى الغرابة !

سميرنوف — اذن فأنت لا تريدين أن تدفعى فى الحال .. لا تريدين ؟

م. بوبوف — لا أستطيع أن أدفع !

سميرنوف — اذن لن أبرح مكانى حتى أحصل على نقودى (يجلس) ستدفعين لى بعد غد ؟ حسن جدا .. لن أفارق هذا المكان حتى مجيء ذلك اليوم (قافزا من مكانه) أسائلك أما على أن أدفع ديونى فى الغد ؟ أم تحسبين أننى ماجن هازل ؟

م. بوبوف — سيدى . اخفض من صوتك . لست فى اصطبل ..

سميرنوف — لم أسائلك فى شؤون الاصطبلات ، أسائلك أما على أن أدفع ديونى فى الغد أم لا ؟

بوبوف — يبدو لى أنك جاهل بما يجب أن تكون عليه فى محادثة السيدات ..

سميرنوف — الحق ما تقولين ، وأصارح به ...

م. بوبوف — لا شك فى هذا. فأنت فظ ليس لك حظ من النشأة الطيبة ، لن يعامل الرجال المهذبون ، هم لا يعاملون ، السيدات هذه المعاملة ..

سميرنوف — آه .. أمرك عجيب ! كيف تريدين اذن أن أخاطبك ؟ أباللغة الفرنسية وبأساليب أصحابها ؟ (غاضبا ومتكلما فى حزلقة) .. اليك اذن : « مدام أرجوك أن تستمعى الى . شد ما أنا سعيد لانك لا تريدين أن تدفعى ما عليك ، أستميحك المعذرة لاننى أزعجتك ! ما أشرق هذا النهار وما أبدع الجو اليوم ؟ شد ما يلائمك لبس الحداد ويبرز مفاتنك (ينحنى) »

م. بوبوف — كلامك جاف ثقيل ، وليس فيه شيء من الحذق والفكاهة ..

سميرنوف — (مقلدا اياها) كلامك جاف ثقيل وليس فيه شيء من الحذق والفكاهة . أنت جاهل بما يجب أن تكون عليه فى محادثة السيدات ! اسمعى يا سيدتى ، رأيت من النساء أكثر مما رأيت أنت من العصافير . تبارزت من أجل سواد عيونهن ثلاث مرات . هجرت اثنتى عشرة امرأة ، وهجرتنى تسع نساء فقط . أجل . مر بى زمن كنت فيه

حدثنا أبلها ، فكنت فى هواى العاطفة المشبوبة واللسان المعسول والادب الجم وما تفرضه اعتبارات له من امتحانات وتمسحات . أحببت وتعذبت فى حبى . سهرت الليالى الطوال اناجى طيف الحبيب وأشرئب بتأوهاتى صعدا نحو القمر . عصفت بقلبى نشوة اللقاء ومرارة الفراق .. كنت صاحب حب جامح وجنون وحيرة حتى أننى كنت أثرثر من غير وعى فى حقوق المرأة ، وأضعت نصف ثروتى من أجل هذا التوله والهيام . أما الآن فلا .. لا سبيل الى اقتناصى مهما نصبت لى الحبائل والفخاخ . حسبى ما لاقيت . العيون النجل ، العيون التى تفيض رغبة وجوى، الشفاه القرمزية ، طابع الحسن وغمازات الجمال ، ضوء القمر ، الهمسات والتمتمات المتصاعدة من أعماق القلب ، الانفاس المتعثرة خفرا فى انطلاقها .. كل هذه عرفتها وخبرتها ولم تعد تؤثر فى أو تنال منى ، ولا أدفع من أجل متعتها مليما واحدا يا سيدتى . واستثنى شخصك بالطبع من هذا الحكم الذى سأصدره ، فأقول ان النساء ـ صغارا كن أو كبارا ـ كلهن تصنع . وتأنق ، وثرثرة ، وكيد ، كلهن كاذبات الى أبعد ما فى أغوارهن ، تافهات حقيرات بلا شفقة ولا رحمة ، لهن منطق متمرد يبعث على الثورة ، وفى هذه الناحية (يضرب جبهته براحة يده) أقول ـ وأستميحك عذرا فى صراحتى ولا ضير عليك أن تستمعى الى فنى مقدور العصفور التافه أن يوحى بالشىء الكثير الى فيلسوف ناشىء ـ اذا وقع الرجل على احداهن خيل اليه أنه يطالع مخلوقا من نسج الخيال يتراءى فى غلالة شفافة ، فكأنه أمام كائن سماوى أو ربة من الربات ، فيغشاه فيض من الفرح والذهول . ولكن ما أن يختلس النظرة الفاحصة الى أعماق هذا المخلوق حتى يتكشف له عن تمساح عادى . (يهوى بقبضته على ظهر الكرسى فيطقطق الكرسى وينكسر) وأمر من هذا وأدهى ـ وهو ما يسلم النفس الى بعيد من الثورة ـ أن يظن هذا التمساح أن العاطفة الرقيقة المواسية هى أحسن وأروع ما ينطوى عليها قلبه ، فهى خاصيته وامتيازه الذى لا ينازعه فيه منازع ! ولكن لتحل اللعنة على ، بل وأرضى أن أعلق مشدودا الى هذا المسمار ورأسى مدلى الى اسفل ، اذا أتيتنى بامرأة فى وسعها أن تهب حبها لاحد ، اللهم الا أن يكون كلبهـا المدلل الذى يفترش حجرها ؟ كل ما تستطيعه المرأة فى حبها انما هو الشكوى والبكاء . يقع الرجل فى حبائل غرامها ، فبينما هو يرخص الغالى ويتعذب ، فان حبها كله لا يجد مظهرا لابداء صدقه وحرارته سوى اللهفة على أن تعقبه مجرجرة أذيال ثيابها ، محاولة أن تمتن قبضتها على عنقه حتى لا يفلت منها . من سوء الطالع يا سيدتى أن تكونى امرأة .. وهكذا فأنت تعرفين خلائق المرأة بالتأمل فى طبيعتك . اخبرينى صادقة مخلصة ، هل فى حياتك وقعت على امرأة واحدة تمثل الاخلاص والصدق والوفاء وعدم التحول ؟ لا لم تقع عينك عليها . العجائز والدميمات هن وحدهن المخلصات الصادقات الوفيات . وانه لايسر أن يقع المرء على قط ذى قرنين أو غراب حالك السواد ، من أن يصادف امرأة وفية ترعى العهود

بوبوف ـ والآن اسمح لى أن أسألك من تراه فى زعمك أشد انطواء على الاخلاص

والوفاء فى الحب ، الرجل أم المرأة ؟ ما أظنه الرجل !

سميرنوف ـ انه الرجل

م. بوبوف ـ الرجل ! (تضحك فى خبث وسخرية) تقول ان الرجل صادق فى حبه ذو وفاء فى عهده ! هذا شيء جديد لم أكن أدريه وأعترف بذلك ، (بحرارة) أسألك ما وجه الحق الذى يجيز لك أن تقرر ما تقول؟ الرجال صادقون أوفياء! اذا صح الكلام فى هذا ، فانى أقول لك ان من بين كل الرجال الذين أعرفهم والذين عرفتهم فى حياتى ، كان زوجى المرحوم أفضلهم وأخيرهم . . تولهت به ، أحببته بكل كيانى حبا لا تقدر عليه الا المرأة الشابة المتوقدة روحا وذهنا . منحته شبابى ، حياتى ، سعادتى ، ثروتى ، كان لى الهواء الذى أتنشقه لأحيا ، الصنم الذى أتعبده . .هذا الرجل ـ خير الرجال وأفضلهم ـ كان يخوننى فى كل خطوة وبغير ذرة من حياء ! وجدت بعد وفاته ـ بالطبع ـ درجا من أدراج مكتبه مليئا برسائل الغرام . وفى أثناء حياته ـ ويا للذكرى المؤلمة ـ كان يهجرنى أسابيع متوالية . كان لا يتحرج عن مغازلة النساء أمام عينى ولا يبالى بخديعتى ، ولا يهمه أن يبدد مالى ويسخر من عواطفى . . ولكننى على الرغم من كل هذا كنت أحبه ، وكنت أمينة على عهده . وهناك ما هو أكثر من هذا ، اننى ما زلت مخلصة وفية لذكراه حتى بعد موته . دفنت نفسى الى الابد بين جدران هذا المنزل ، ولن أخلع عليه لباس الحداد ما دمت حية

سميرنوف ـ (ضاحكا فى استخفاف وسخرية) لباس الحداد ؟ لست أدرى من تحسبيننى يا سيدتى، كأننى لا أعرف لماذا تتكرين فى ثياب الحداد هذه ، وتغلقين على نفسك الابواب؟ هذا ما تظنينه ! يلوح لى أنك تحسبين أن ما تفعلينه لغز تحيطه الاسرار ويغلفه الخيال ! ربما يمر بقصرك فارس شاب أو شاعر فى مقتبل العمر ويتطلع الى نوافذه فيحدث نفسه قائلا : « هنا تعيش المرأة الوفية ذات الاسرار ، التى من حبها لزوجها غلقت على نفسها الابواب بين هذه الجدران ! » أعرف كل هذه الحيل . .

م. بوبوف ـ (وقد احمر وجهها) ماذا تقول ؟ وكيف تجرؤ على مواجهتى بهذا الكلام !

سميرنوف ـ آه حقا دفنت نفسك حية كما تزعمين ، ولكنك لم تنس أن تجملى وجهك بالمساحيق . .

م. بوبوف ـ كيف تجرؤ على مخاطبتى بهذه اللهجة ؟!

سميرنوف ـ مهلا وأرجوك . لا تحتدى ولا تصيحى فى وجهى فما أنا بوكيل أعمالك . اسمحى لى أن أسمى الاشياء باسمائها . لست امرأة ، وقد درجت على أن أصارح الناس بما أعتقد . لهذا لا تصيحى وأرجوك

م. بوبوف ـ أنا لا أصيح ، وانما أنت الذى تصرخ وتصخب . خلنى وحدى .أرجوك

سميرنوف ـ اعطنى نقودى لانصرف

م. بوبوف ـ لن أعطيك . .

سميرنوف ـ بل ستعطيني اياها
م. بوبوف ـ لن أعطيك مليما واحدا اغاظة فيك ، وعليك أن تتركني في سلام . .
سميرنوف ـ لا داعي لهذا الشجار ، فاني لم أسعد بعد بأن أكون خطيبك أو زوجك (يجلس) لا أحب هذا
م. بوبوف ـ (تلهث غضبا) ماذا تفعل . . أتجلس ؟
سميرنوف ـ جلست بالفعل
م. بوبوف ـ أتوسل اليك أن تخرج
سميرنوف ـ اعطني نقودي (جانبا) ان الغضب يتملكني ؟!
م. بوبوف ـ أنا لا أحتمل مخاطبة السفهاء ، فكن رحيما بي واخرج من هنا (سكوت) ألا تخرج ؟ ألا تريد ؟
سميرنوف ـ لا . .
م. بوبوف ـ لا ؟
سميرنوف ـ لا . .
م. بوبوف ـ حسن (تدق الجرس فيدخل لوكا) . لوكا . . ادفع بهذا السيد الى الخارج . .
لوكا ـ (مقتربا من سميرنوف) تفضل يا سيدي بالخروج . ما دام قد طلب اليك ذلك فلا فائدة من بقائك هنا
سميرنوف ـ (هاجما عليه) أمسك لسانك . الى من توجه هذا الكلام ؟ سأهشمك أيها الوقح . .
لوكا ـ (واضعا يده على قلبه) يا للقديسين ! (يرتمي على مقعد) آه . أحس بالمرض ، اني مريض ، لا أقوى على التنفس . .
م. بوبوف ـ أين الخادم داشا ؟ داشا ! (منادية) داشا ، بلاجيا ، داشا (تدق الجرس)
لوكا ـ خرجوا جميعا لجني ثمار « الشليك » . لا يوجد أحد بالمنزل . اني مريض ، قليلا من الماء .
م. بوبوف ـ (الى سميرنوف) أرجو أن تخرج . .
سميرنوف ـ أرجو أن تكوني أكثر أدبا . .
م. بوبوف ـ (تضم قبضة يدها وتضرب الارض بقدمها) . أنت فظ ، جلف ثقيل ، أنت مشاغب دنيء ، أنت حيوان . .
سميرنوف ـ ماذا ، ماذا تقولين ؟
م. بوبوف ـ قلت انك جلف ، حيوان . .
سميرنوف ـ (مندفعا نحوها) اسمحي لي أن أسألك بأي حق تشتمينني . .
م. بوبوف ـ نعم أشتمك ، وأية غرابة في شتائمي هذه ، أتحسبني أخافك ؟

سميرنوف ـ وأنت أتظنين أن ما منى به جنسك من الضعف يبيح لك أن تتهالى على الناس بالشتائم من غير أن تلقى عقابا ؟ كذا ؟ انى أدعوك للمبارزة . .

لوكا ـ أدركني يا آلهي ، عونا أيها القديسون ؟! انى مريض ، قليلا من الماء . .

سميرنوف ـ الى بالغدارات . .

م. بوبوف ـ أتظن أيها الوقح أنك تخيفني حينما تلوح بقبضة يدك الغليظة وتخور كالثور ؟

سميرنوف ـ أقول انني أدعوك للمبارزة . لا أسمح لاحد أن يهينني ، ولا يهمني أن تكوني امرأة ، مخلوقة ضعيفة . .

م. بوبوف ـ (تغالبه لتطرحه على الارض) جلف . أنت جلف . جلف . .

سميرنوف ـ حان الوقت لان لا أعبأ بهذا التقليد المغرض الذى يقضى على الرجل وحده بأن يدفع ثمن الاهانة التى يكيلها لغيره . اذا كانت هناك مساواة فى الحقوق بين الرجل والمرأة فلتكن هذه المساواة فيما نحن بصدده . لعنة الله على الجميع . الى المبارزة

م. بوبوف ـ تريد المبارزة وبأى ثمن ؟

سميرنوف ـ أريدها فى الحال . .

م. بوبوف ـ فى الحال ! ليكن . بين مخلفات زوجي غدارات سأذهب لاحضارها فى التو والساعة (تهم مسرعة بالخروج ثم تلتفت اليه) أية لذة لى فى أن أودع رأسك الصلب قذيفة من رصاص غدارتي ! لتمحقك اللعنة (تخرج)

سميرنوف ـ سأطلق النار عليها كما أطلقه على فرخ من الطير . لست غلاما واهن القلب ، وما أنا بالجرو المتهالك عاطفة ، ولست ممن يأبهون لضعف النساء . .

لوكا ـ يا سيدى الكريم ، (راكعا على الارض) ترفق بى وارحم شيخوختي . تفضل بالخروج ، كدت تميتني خوفا ، وتريد فوق هذا أيضا أن تقاتل سيدتي فى مبارزة ؟

سميرنوف ـ (من غير أن يعيره اهتماما) المبارزة ! هذه المبارزة هى عين المساواة بين الرجل والمرأة ، هى تحرير المرأة من قيودها ، انها مبدأ المساواة بين الجنسين . وسأطلق النار عليها باسم هذا المبدأ . ولكن يا لها من امرأة ! (يقلدها) لتمحقك اللعنة . سأودع رأسك الصلب قذيفة من رصاص غدارتي . . أجل يا لها من امرأة ! كانت تتكلم متحمسة وهى متوردة الخدين براقة العينين . . لم تتوان عن تلبية دعوتي الى المبارزة ! بشرفى لم تقع عيني على مثيلة لها فى حياتي !

لوكا ـ تفضل يا سيدى بالرحيل . سأدعو الله لك فى صلواتي . .

سميرنوف ـ ليست امرأة ، وانما هى كائن آخر يشبه المرأة . أحب هذا ! انها المرأة الحقة . ليس فيها شىء من خور العاطفة . انها تتوهج وتشتعل وتنفجر مثل البارود ، وتنطلق كالسهام النارية ! يؤسفني أن أقتلها . .

لوكا ـ (باكيا) تفضل يا سيدى بالرحيل

سميرنوف ــ انها تروقني . حقا انني أودها ! وعلى الرغم من غمازات الحسن فى خديها فانني أحس بميل اليها ! حتى ديني فانني أتنازل عن المطالبة به . لم أعد حانقا عليها امرأة عجيبة !

(تدخل مدام بوبوف وبين يديها غدارات)

م. بوبوف ــ هاك الغدارات .. ولكن قبل أن تأخذ فى المبارزة أرجو أن تريني كيف أستعمل هذه الغدارات وأطلق النار عليك منها ، لم أدر قبل اليوم غدارة فى حياتي ..

لوكا ــ اللهم أكتب لنا السلامة وارحمنا . سأذهب لاستدعاء البستاني والحوذي . من أين حلت علينا هذه المصيبة ! (يخرج)

سميرنوف ــ (متفحصا الغدارات) ترين أمامك أصنافا من الغدارات ، ولكن ليس بينها ما جرى العرف باستعماله فى المبارزة .. توجد غدارات خاصة بهذا الغرض .. أحسنها ماركة (مورتيمار) ذات الكبسون . أما التي أمامك فكلها من ماركة (سميث ويسون) وتستعمل من غير الكبسون . انها لبديعة الصنع . يساوي الزوج منها تسعين روبل . والآن سأريك طريقة استعمالها . انظري يجب أولا أن ترفعي الغدارة هكذا . هكذا .. (جانبا) يا لهاتين العينين ! ما أجملهما ! انها لامرأة فتانة سلابة العقول ؟!

م. بوبوف ــ أرفعها هكذا ؟

سميرنوف ــ نعم .. هكذا .. ثم ترفعين الزناد .. ثم تصوبين هكذا .. لا . اطرحي رأسك الى الوراء قليلا . مدي ذراعك بكامل طوله .. نعم هكذا . بعد هذا اضغطي بهذا الأصبع على هذا الشيء الصغير .. هذا كل ما فى الامر . وأهم ما أنبهك اليه فيما نحن فيه الآن أن تكوني هادئة .. لا حدة ولا ارتباك .. وان تصوبي غدارتك فى غير عجلة .. اجتهدي ألا ترتعد يدك ..

م. بوبوف ــ حسن جدا . أرى أنه لا يليق بنا أن نتبارز فى احدى الغرف . لنخرج الى الحديقة ..

سميرنوف ــ هيا . غير انني أنبهك مقدما الى انني سأطلق رصاص غدارتي فى الهواء

م. بوبوف ــ آه هذا لا يحتمل ! ولماذا تطلق رصاص غدارتك فى الهواء ؟

سميرنوف ــ من أجل .. من أجل .. هذا أمر يعنيني وحدي ..

م. بوبوف ــ أراك تجبن . الخوف فى نظراتك . أليس كذلك ؟ لا يا سيدي لاتحاول الانسحاب . تفضل واتبعني . لن أرضى حتى أودع رصاصة غدارتي فى رأسك ، هذا الرأس الذي أكرهه كل الكره . هل أنت خائف ؟

سميرنوف ــ الحق ما تقولين ..

م. بوبوف ــ تكذب . قل لي لماذا تحجم عن مبارزتي ؟

سميرنوف ــ لاني .. لاني .. أحبك ..

م. بوبوف ــ (تضحك ساخرة) هو يحبنى . يجرؤ على المجاهرة بذلك (مشيرة الى الباب) يمكنك أن تخرج

سميرنوف ــ (يضع فى صمت القدارة فوق الطاولة ، ويأخذ قبعة ويسير ، ولكنه يقف عند ما يقترب من الباب. يحدق كل منهما فى الآخر لحظة ، ثم يدنو اليها فى حيرة وتردد) أما زلت حانقة على ؟ أنا أيضا أنفجر حنقا ، ولكن كيف السبيل الى الخلاص من هذا ؟ السبيل ــ وهو ما يأتى ــ أن أكشف لك عما بنفسى فى وضوح واخلاص (رافعا صوته) ليس ذنبى أننى أحبك ! (يهوى بقبضة يده على ظهر كرسى فيطقطق وينكسر) يا للعنة ! كل أثاث بيتك سهل الانكسار . أحبك ، أتفهمين ؟ أكاد أهواك .

م. بوبوف ــ أخرج . أكرهك . .

سميرنوف ــ تبارك الخلاق . . يا لها من امرأة ! لم تكتحل عيناى بمرآى مثيلة لها من قبل . لقد ضعت ، قضى على ، وقعت كما يقع الفأر فى المصيدة !

م. بوبوف ــ اخرج والا أطلقت النار عليك . .

سميرنوف ــ تطلقين النار! ليس فى وسعك أن تتصورى مقدار غبطة من يموت على مرأى من هاتين العينين الجميلتين ، وأية لذة يلقاها صريع رصاصة من مسدس تطلقها هاته اليد الصغيرة المخملية الملمس . أوشك ولعلى بك أن يكون خبالا . فكرى ثم اعتزمى فى الحال . اذا خرجت منها فلن نلتقى أبدا . هيا قررى أمرا . أنا رجل سرى ، كريم العنصر ، دخلى كل عام عشرة آلاف روبل . أجيد الرماية الى حد أن أصيب الهدف برصاصة أطلقها على فلس قذف به فى الهواء . أملك الكثير من جياد الخيل . . أترضين بى زوجا ؟

م. بوبوف ــ (غاضبة وقد لوحت بمسدسها فى الهواء) طلبت المبارزة ! اذن فهيا اليها

سميرنوف ــ بى خبال . لم أعد أستطيع أن أفهم (مناديا) من هناك ! على بقدح ماء . .

م. بوبوف ــ (صارخة) ما زلت أتحداك للمبارزة !

سميرنوف ــ بى خبال ! أتخبط فى هواك كالحدث الساذج ، بل كالاحمق المجنون . (يقبض على يديها فتصرخ متألمة) أهواك ! (يقع على ركبتيه) أهواك هوى لم أدره من قبل . هجرت اثنتى عشرة امرأة ، وهجرتنى تسع نساء ، ولكن لم أهم باحداهن هيامى بك . أكاد أبكى من فرط ما بى . فقدت كل صلابة فى نفسى . لم يعد بى جلد على المقاومة . هأنا ذا أرتمى على ركبتى الى الارض كالمخبول. أعرض عليك حبى عرضا وأناشدك أن تقبلينى زوجا لك ! انها لمعرة . انها لفضيحة ! انقضت خمس سنوات من غير أن يفيض قلبى بهوى ، وعاهدت أن لن أكون للحب أبدا ، وهأنا ذا أجدنى سليب اللب ، أتهالك جوى . أتقبلين الزواج بى . . نعم أم لا ؟ ألا ترضين ؟ حسن جدا ، فأنت لا ترضين ؟ (يهم واقفا ويسير مسرعا نحو الباب)

م. بوبوف ــ تمهل . .

سميرنوف ـ (يتمهل ثم يقف) ماذا ؟

م. بوبوف ـ لا شيء .. اذهب . ولكن تمهل . لا . اذهب . اذهب . أكرهك . آه لا ، لا تخرج . آه لو عرفت مقدار حنقي عليك (تلقى بالغدارة فوق الطاولة) يبست أصابعى من هول ما كنت معتزمة اتيانه (تخرج منديلها فى غضب) لماذا أنت واقف هنا ! اخرج . .

سميرنوف ـ الوداع . .

م. بوبوف ـ نعم . نعم . اخرج . (صارخة) الى أين أنت ذاهب ؟ تمهل . لا بل اخرج . شد ما أنا حانقة ! لا تقترب منى ! لا تقترب هكذا !

سميرنوف ـ (مقتربا منها) شد ما أنا حانق على نفسى ! أصبحت أتخبط فى حبى كما يفعل تلاميذ المدارس ، وكمت ، يا للعار (متحدثا فى عنف) أهواك عامدا كما لو كنت أجدنى مدفوعا الى هواك ! سأدفع ديونى فى الغد بعد بيع محصول القمح ، فقد بدأ موسم تكويم التبن ، وستكونين أنت فوق قمة أكوامه (يطوق خصرها بذراعه) لن أغفر لنفسى ما فعلت

م. بوبوف ـ اخرج . ارفع ذراعك من حول خصرى . أنا . . أكرهك . . أدعوك الى المبارزة (قبلة طويلة)

(يدخل لوكا وفى يده بلطة يتبعه البستانى حاملا جرافة ، والحوذى متسلحا بمذراة ، ورهط من العمال يحملون عصيا وقوائم خشبية)

لوكا ـ (وقد شاهدهما متعانقين) ما هذا ؟

(صمت)

م. بوبوف ـ (مخفضة من عينها) لوكا . . قل لهم فى الاصطبل ألا يعطوا اليوم الجواد (توبى) شيئا من العلف

« ستار »

زكى طليمات

ضريبة الحياة

قصة مصرية ترويها الآنسة ابنة الشاطىء

« ... عند ضمير الزمن ، أودع هذه الرسالة الفاجعة التى تروى مأساة جيل من الشهيدات ، ليؤديها الى بناتنا من بعدنا »

— ١ —

كان أول عهدى بها يوم نزحت الى المدينة أطلب العلم ، وكانت تشتغل بالتدريس فى المعهد الذى تقرر أن أعمل فيه ريثما أستكمل دراستى العالية ، وهو معهد فخم ، خصص لفتيات الطبقة الراقية التى تكره لبناتها أن يشغلن بدراسة تمهد للاحتراف ..

جاءت الى غرفتى فى جمع من رفيقاتها يرحبن (بالزميلة الجديدة) فلما طالعتهن بثيابى الريفية ومظهرى القروى الساذج ، نظر بعضهن الى بعض فى سخرية مكبوتة ، ثم مضين عنى يتضاحكن ، وتخلفت (زينب) عنهن ، وقد بدا عليها أنها تتألم لما بدر منهن

ودنت منى تسألنى فى رفق ان كنت قد مررت بالعاصمة قبل اليوم ، فلم أجبها ، ونظرت الى الافق البعيد ألتمس وراءه قريتى الحبيبة التى شيعتنى فى حزن وأسى ، وقد أحسست شيئا من الانس والاطمئنان حين نأى بى ذهولى عن القصر الذى نزلت فيه ، فرجعت أخطر بين صواحبى القرويات ، وهن يرمقن الثياب التى أعدت لرحلتى فى كثير من الدهشة والاكبار ، ويحدقن مبهورات فى مشط (الالماس) الذى يتوج شعرى ، والاساور الذهبية التى تزين معصمى ، ويلمسن بأيديهن ، المعطف الوردى الذى حاكته لى (أمى) من المخمل الغالى

***

ولازمتنى (زينب) فى تلك الفترة الاولى ، وكنت أضجر بصحبتها أول الامر ، لانى

كرهت أن أعرى جراحى أمامها ، وأشفقت أن تشهد النضال المر الذى كابدته وأنا أطوى فى أعماق نفسى ، شخصيتى القروية المألوفة ، وأنزع عنى ثيابها ، ثم أرتدى الاقنعة التى تقدمها المدينة للنازحين اليها من أبناء الريف . .

ولامر ما ، احتملت (زينب) اعراضى فى كثير من الدعة والرضى ، على أنى ما لبثت أن ارتحت اليها وألفت صحبتها ، اذ حببها الى أنها رأتنى قبل أن أتنكر فى زيى المستحدث ، فعندها وحدها ، ألبس صورتى الاولى ، واليها وحدها أستطيع أن أتحدث عن (القروية العزيزة) التى طويتها كارهة ، وأخفيتها وراء القناع !

— ٢ —

ونشأت بيننا ألفة قوية ، وثقت الايام والليالى عراها ، لقد كانت (زينب) غريبة مثلى ، نشأت فى بلدة من اقليم البحيرة ، من أسرة كريمة متواضعة ، لم تبل الحياة العصرية ولم تتعرض لاضوائها ، وكان أبوها الشيخ ، يتردد على العاصمة فى شؤون تجارته ، فصحبته ذات يوم حين رأت أفواج الفتيات يخرجن من دورهن ، ويندفعن الى المدارس مفتونات. وكانت المدارس فى ذلك العهد ، تنادى هؤلاء الفتيات الغريرات نداء حافلا بالاغراء ، فاذا لبين النداء غلقت من ورائهن الابواب ، وأخذت تعهدا كتابيا على أولياء أمورهن ، يلزمهن باحتراف التدريس اجباريا لبضع سنوات ، فمن أبت منهن ذلك ، دفعت للحكومة بضع مئات من الجنيهات . .

وكانت (زينب) طفلة غريرة حين أعد لها هذا القيد ، فلم تحفل بأمره كثيرا ، على أنها أحست وطأته يوم أرادت أن تنحرف عن هذا الطريق الذى دفعت اليه كرها ، وتعود الى بيتها . وكان الاحتراف على عهدها أمرا بغيضا تنكره كل أسرة كريمة قادرة على رعاية بناتها والانفاق عليهن . وانما تعلمت (زينب) استجابة لحركة التطور ، ورغبة فى أن يرتفع سعرها فى سوق الزواج ، وقد ارتفع بالفعل ، وتقدم لخطبتها مهندس شاب رحب به قومها ورأوه كفئا لها ، لكن الطريق سدت عليها ، وأجبرت على احتراف مهنة التعليم راضية أو كارهة ، وهكذا ضاعت فرصتها الاولى . .

***

لم تجزع (زينب) لما حدث ، اذ كانت لا تزال بعد فى مستهل شبابها وزهوة صباها ، وقد بدت حياة العمل لعينيها طريفة شائقة ، واستقر فى وهمها أنها أروع وأمتع من الحياة الزوجية التى تسكن اليها الأميات الجاهلات !

وكانت معذورة فى هذا الذى وهمت ، فقد جن جنون الناس من حولها بهذا البدع الجديد ، واستحدثت فى لغة الحياة على عهدها ألفاظ ضخمة مبهمة عن الاستعباد والثورة والحرية والمساواة ، ودوت فى أفق الوادى صيحات عاليات ، تحدث الفتاة العصرية عن

حقها فى حياة حديثة ، غير الحياة التى قنعت بها أمها وجدتها من قبل ، وصار هم المرأة الجديدة وفخرها ، أن تبرأ من شوائب ضعف الانثى ، (وتتشبه الرجال) !

وقد سمعت (زينب) ذلك كله ، وفتنت به ، واستجابت له ، فلم تضق بالقيد الرسمى الذى يحرم عليها الزواج ويجبرها على الاحتراف ، واستقبلت حياتها الجديدة راضية متهللة

— ٣ —

ودارت عجلة الايام ، وطوى الزمان فى جوفه عشرة أعوام ، أمضتها (زينب) فى حياة رتيبة مملة ، ترى كل عام وجوها جديدة ، ولكنها أبدا وجوه معلمات وتلميذات . وتنتقل كل عام الى مدرسة جديدة ، ولكنها أبدا حجرات الدراسة وعنابر النوم وقاعات الطعام ومكتب المعلمات ! تمضى يومها فى شرح الدروس، ومراقبة التلميذات فى فترات الاستراحة، حتى اذا حان المساء أوت الى فراشها كليلة متعبة ، وعلى شعرها ووجهها غبار أبيض من ذرات الطباشير المتناثرة ، وفى يديها آثار من المداد الاحمر ، وعلى ثيابها بقع المداد الأزرق ، وفوق كاهلها حمل ثقيل من كراسات التلميذات !

لقد ذهبت الايام الاولى بطرافة العمل ، ولذة الكفاح ، وخلفت لها السآمة والضجر والملال ، وأشاعت فى جوها ظلالا كثيفة من الكآبة والهمود والاعياء !

***

ولعلها كانت قادرة على احتمال مشقة العمل ، لو أعفيت من عنت الناظرات ، وكيد الزميلات . كان ضجرهن بالعمل ، مع اضطرارهن اليه وارتباطهن به ، يذهب برقة أنوثتهن ويفسد أعصابهن . وكلما تقدم بهن العمر ، وتضاءل أملهن فى الظفر بحقهن الفطرى فى الامومة ، زدن شراسة وخبالا ، ولم يكن لهن سبيل الى الانتقام من المجتمع الذى غرر بهن ، فكن يشتفين بالكيد لزميلاتهن ، يهدئن بذلك نار الحقد التى تأكل صدورهن ، كما أكلت الايام شبابهن

ولقد قاست (زينب) الهول من ذلك وأحست صدرها يضيق ويختنق ، لكنها لم تجد سبيلا الى الفرار . انها دفعت للحكومة الضريبة المقررة من سنوات شبابها ، فلا غرم عليها ان اعتزلت العمل ، ولكن العرف السائد كان يقضى عليها أن تبقى عاملة حتى تتزوج ، وهكذا حكم عليها أن تظل فى هذا الجو الخانق الى أن تسعفها (نجدة) من السماء ، فتسوق اليها الزوج الذى ينقذها ويمضى بها الى (البيت) !

وقد تشبثت زينب بأملها فى تلك النجدة، وغذته بما أبقت الحياة المتعبة من شبابها الهزيل، ولكن الامل أخذ يتضاءل رويدا رويدا ، كما أخذت شعلة الحياة فيها تخبو شيئا فشيئا ، وهى تحس ذلك ، وتدركه ، وتموت به موتا بطيئا . .

حتى افتقدت نفسها يوما ، فاذا بها قد أضاعتها . جف ماء الحياة فيها ، وذبلت نضرة شبابها ، وكل بصرها ، وعاجلتها شيخوخة مبكرة ، قبل أن تشرف على الثلاثين من عمرها!

كانت تحن بفطرتها الى البيت ، وتشتاق الى الامومة ، وتهفو الى حياة مستقرة كريمة في ظل زوج كريم ، فلما رأت شبابها يوأد ، وحياتها تنهار ، ثارت ثائرتها وعبأت كل قواها لتحارب الموت في نفسها ، لكن الداء كان قد تمكن منها ، فجن يأسها ، واندفعت في نوبة من الحقد والمرارة ، تمقت الناس والدنيا ، ولا تحتمل رؤية تلميذاتها الصغيرات ، لانهن ينكأن فيها جراحا ضمدها اليأس ، ويهجن أشواقها الخامدة المكبوتة ، الى الامومة والبيت !

وكانت زينب تنكر من نفسها هذا الانهيار التعس ، وتقارن بين أمسها ويومها فيدركها الرعب والاشمئزاز . وشهدتها الليالى الطويلات محزونة مسهدة ، تبكى تلك الانثى الكريمة الهادئة التي تحتضر فيها !

وفي هذه الفترة من حياتها عرفتها .

ولمحت عليها ظلال الالم الدفين ، والامل الخابي ، وآثار المعركة القاسية ، وقد أنكرتها أول الامر ، وأوجست منها خيفة ، لكنها تشبثت بي في الحاح غريب ، وما زالت بي حتى ألفتها ، ثم أحببتها

لقد رأت في وجهي صورة ماضيها الذي ولى وراح ، فتعلقت بي تلتمس النجاة من حاضرها الشقي التعس .. وكان ظهوري في أفقها منبها لفطرتها النائمة ، فقامت تحارب الشر الذي خالطها ، والشيطان الذي حل فيها ..

وجمعنا الجهاد المشترك !

كانت كلتانا تناضل من أجل فطرتها ، وكل الفرق بيننا أنها تحارب لتسترد ما أضاعت ، على حين أحارب لاحتفظ بما لم أضيع بعد !

وأعانت كل منا صاحبتها على الجهاد ..

فقد كان وجودي الى جانبها يستثير قواها ، ويثير شوقها الى ماضيها ، وكان وجودها الى جانبي ، يحذرني من مصيرها ، ويزيدني حرصا على سلامة فطرتي ..

وبذلت (زينب) نفسها للمعركة ، وأيدتها السماء في جهادها الرائع ، فبرئت من الشر ، وانتزعت نفسها من ركب الشيطان ، وحطمت حطام حياتها المنهارة في صبر ووداعة وألم نبيل ، ثم استأنفت العمل ، ووجهها يشرق بنور الاستشهاد .

— ٤ —

ثم كانت المعجزة !

عاد ابن عم لها كان يدرس الطب في الخارج ، وقد استهوته (زينب) في رقتها وضعفها ووداعتها ، وفتنه ذلك النور الشاحب الحزين الذي يشع من وجهها فيخدر أعصابه ويغمره بالامن والسلام ، وكانت حياته في أوربا قد زهدته في الصخب والضجيج ، وشاقته الى السكون والاستقرار

وتطوع الملأ من حوله (لخدمته) وتبرعوا بالنصح له ، فأنكروا عليه أن يرضى بهذه (العانس) الفقيرة ، وأمامه زهرات الطبقة الراقية ، يقدمن اليه الصبا والغنى ، ويعدنه بالرقى السريع . لكن (أحمد) تشبث بفتاته وأبقى عليها — لم يكن يجهل أنها جاوزت فجر الشباب ، لكنه وجد فى ذلك ما يروى ظمأه الى (الام) ، وكانت أمه قد تركته صبيا بعد موت أبيه ، ومضت تستأنف حياة جديدة ، مع زوج جديد . .

وقد رعته أم (زينب) واحتضنته فى صباه ، وبذلت له الحنان محضا صافيا، لكنها عجزت أن ترضى طفولته المحرومة ، فلم يكد يبلغ مبلغ الشباب حتى هجر وطنه ، ونزح الى الغرب ، ينسى فى ضجيجه همومه وأحزانه

***

دخل الحب حياة (زينب) فبدلها خلقا جديدا : أودع عينيها التائهتين ، بريقا عجيبا يتألق بحيويتها الطارئة ، ومس شفتيها الذابلتين ، فرد اليهما النضرة والحياة ، ومسح على وجهها الشاحب ، فأعاد اليه النور والاشراق ، وتسلل الى روحها ، فأزاح عنها ركام الجمود والموت ، ثم بعث الأمل يغزو قلبها ، ويطرد منه اليأس والظلام !

وراحت (زينب) تهيىء عشها والدنيا لا تسعها : دعت اليه أحلامها المشردة ، وأمانيها الخابيات ، وأنشأت تبنيه بأعصابها ودمها وقلبها ، حتى اذا أتمت بناءه ، نظرت اليه فتألقت فى عينيها دموع الفرح والغبطة ، ثم وقفت على بابه تنتظر ، وقد غفرت للزمن كل ما عانت من تشرد وضلال ، وما ذاقت من مرارة الحرمان !

— ٥ —

وفجأة ، ظهرت (أمه) فى الأفق . كانت مريضة تحتضر ، وقد بعثت الى ولدها لتملأ منه عينيها قبل أن يغلقهما الموت ، وتسمع كلمة المغفرة ، قبل أن تبرح الدنيا وتمضى الى وادى العدم !

فلبى (أحمد) نداءها ، وخف اليها مشوقا جازعا ، فلم تكد تراه حتى أجهشت بالبكاء ، ثم أوت الى صدره وهى تنتفض من فرط الحب والفرح والانفعال !

ولم تكن بحاجة الى أن تستغفر ، لقد غفر لها قبل أن تسأله المغفرة ، وكان شفيعها عنده الموت الماثل ، والامومة المحرومة . .

وكأنما أمسكها ولدها الى الحياة ، فبدأت تناضل لتبقى ، وهو الى جانبها يبذل لها من علمه وفنه وبره ، ما يعينها على النضال !

وجاءها يسعى ذات يوم ، مشرق الوجه متهلل الاسارير ، كانت قد اشتهت أن ترى عروسه لتباركها ، وها هى ذى الى جانبه ، فى جلوة عرسها ، تضحك للدنيا وتبتسم للحياة

وتريثا قليلا لدى الباب ، فلما أحست المريضة بهما دبت فى كيانها الذاوى قوة طارئة ، فتماسكت ، ونهضت من نومها ، وأشرق وجهها الشاحب بابتسامة عريضة هانئة . .



لكنها لم تكد ترى (زينب) وتسمع اسمها ، حتى انقبضت أساريرها بغتة ، ثم تهالكت فى فراشها وهى تردد فى استسلام يائس حزين :

ــ غفرانك يا بنى، انها أختك! أرضعتها من ثديى هذين أياما ثلاثة كاملة ، حين مات خالها . .

وذاب صوتها فى حشرجة الموت ثم غامت الدنيا، وأعولت الريح، وبكت السماء . .

وأصبح الصبح فاذا بأيدى الزمان قد مزقت الشمل ، وخنقت الامل ، وهدمت (العش) وبعثرت أنقاضه مع الريح.

لقد كان كل ما ذكرته الام المحتضرة صحيحا واقعا ، شهدت به أم (زينب) ، وأيدته الاسرة جميعا . .

حدثوا أن فاجعة ألمت بالبيت و (زينب) فى المهد ، غرق خالها وطفلاه فى اليم ، فى أصيل يوم من أيام العيد ، فعبث الحزن بأخته حتى أشفقوا على صغيرتها ، وبعثوا بها الى زوجة عمها ترضعها وترعاها ريثما تكشف الغمة ، وكانت هذه الزوجة حديثة عهد بالوضع ، فأعفاها ذلك من شهود المأتم الفاجع . .

وانجلت الغمرة ، وعادت الطفلة (زينب) الى أحضان أمها ، ولا يكاد أحد يعى ماحدث لها ، اللهم الا زوجة العم ، وقد مضت هذه الى بيت جديد وأسرة بعيدة ، ونسى الذى كان

— ٦ —

غادر أحمد اقليم البحيرة ، ومضى على عجل الى أقصى الصعيد ، كأنما يفر من لعنة تطارده ، وعادت (زينب) الى المدرسة ، والكراسات ، والتلميذات ، والزميلات . .

عادت هزيلة شاحبة ، كسيرة القلب بادية القنوط ، فاستقبلتها زميلاتها بابتسامات عابثة تقطر سخرية واشتفاء ، فوثبت الى جانبها أحييها من كيدهن المريض ، وسألتها أن تمضى معى الى غرفتها لتستريح

وقد أسلمت زينب نفسها ليدى ، وراحت معى تجر قدميها جرا ، حتى انتهت الى فراشها فارتمت عليه منهوكة تنشج نشيجا أليما خفت أن يمزقها ، ثم هدأت بعد حين هدوءا موجعا يشبه الموت . .

ولم يبق لها من علامات الحياة الا عينان تحدقان فى غير شيء ، وترسلان نظرات تائهة خرساء

وبدا عليها أن شيئا فيها قد مات ، فكانت تمضى ساعات طويلات جامدة صامتة كأنها جثة ، وعافت الطعام الا قليلا ، وأمسى نومها نوعا من الهمود المتعب المريض

***

وجدت فى حياتها بعد ذلك أحداث قاسيات : توفيت أخت لها شابة ، بحمى التيفود ، ولحق بها أبوها الشيخ بعد أشهر معدودات ، فظننت أن تلك اللطمة جديرة بأن تنبهها وتمسك عليها الحياة . .

كانت لا تفتأ تسألنى كل يوم : « فيم العيش وقد انطفأت فى الحياة ؟! » فلم أكن أدرى بم أجيب ، حتى اذا غال القدر أختها وأباها ، عرفت كيف أجيب . كان على (زينب) أن تعيش من أجل أمها الثكلى ، واخوتها الصغار . .

وسعينا لها عند أولى الامر فى وزارة المعارف ، فنقلت الى بلدتها لتسكن الى من بقى من أهلها ، وتنهض بعبئها الجديد

وقد صحبتها الى هناك ، وبقيت معها يوما وبعض يوم ، ثم تركتها وفى وهمى أنها قادرة على احتمال محنتها الكافرة . .

وتنائت بيننا الديار ، وتراخى العهد ، وأمست (زينب) ذكرى حزينة شاحبة ، تلم بى من حين الى حين ، فأكتب اليها دون أن أنتظر لجوابى ردا . .

***

حتى روعت ذات صباح بنعى (زينب)

نعتها الى (الاهرام) وأنا فى طريقى الى القرية ، فى مشرق يوم عرفات ، فكانت مباغتة أليمة مزقت قلبى وغلبت صبرى

ولم أكن أعلم أنها أصيبت آخر العمر بشلل نصفى ، أمسكها الى الفراش شهرا كاملا ، ثم أدركتها رحمة الله ، فأبرأها الموت من جراح الحياة . .

***

وسأل السائلون : ألا تعزين فى (زينب) ؟

قلت كلا ! فقد فات أوان العزاء ، انها ماتت من زمن بعيد ، وبقيت جثتها تتحرك فى عالمها المنهار ، حتى سكنت أخيرا وهيل عليها التراب . .

ابنة الشاطىء



الجبهة السوداء

قصة زعيم ألماني يقاوم هتلر

هذه قصة الوطني الالماني أوتو ستراسر الذي كان في يوم ما أحد المبرزين في ساحة الريخ الالماني الثالث ، والذي غدا اليوم شريدا في المنفى هائما بين شتى الاقطار . منذ سنوات وهو بمثابة سنان الرمح التي توجه بها الطعنات الى النظام الهتلري . وقد يغدو عما قريب زعيم ألمانيا الجديدة ، ألمانيا الحرة التي ستقوم على أنقاض ألمانيا الهتلرية . على انه ان أخفق دون بلوغ هذا الهدف ، فستبقى سيرة حياته خالدة بين سير العظماء ، بما فيها من جرأة قلب وصدق فراسة وصدق وطنية ، تستحق اكبار الرجال ، كما تستحق تخليد التاريخ

بدأت حياة أوتو ستراسر كما بدأت حياة أغلب أبناء أوربا الذين ولدوا حول نهاية القرن الماضي ومستهل القرن الحالي . أي بدأت حياته العامة يوم دارت رحى الحرب الماضية في سنة ١٩١٤ . ولم يكن عمر ستراسر يومئذ يتجاوز سبعة عشر عاما ، ولكنه التحق منذ بداية الحرب في الفرقة الرابعة من المدفعية الالمانية . وقد اذكى فيه خوض غمار الحرب روح الوطنية الالمانية ، كما أثار فيه عاطفة الاعجاب ببسالة الجندي الالماني . ولكنه الى جانب هذا شاهد وعاني من مساوىء الاتوقراطية الألمانية والعجرفة العسكرية ما لا يزال يذكره اسوأ الذكرى . ولا شك أن حديثه عن تجاربه تلك في غضون الحرب الماضية تزيد من حيرة كل أجنبي عن ألمانيا في أمر هذا الشعب

كان ستراسر جنديا ملء قلبه ، ولكنه مع هذا كان يحس المقت العميق لضباط الجيش الالماني . فقد كان شابا مثقفا ، وهم أبعد الناس عن الثقافة وأشد الناس ازدراء لها . انهم

يرون فى الثقافة عدوا للروح العسكرى ، أو على الاصح لروح العدوان التى تسير جيشهم وتوجه خطاهم . وكان فى كتيبته ، وعدد جنودها ثلاثمائة ، مائة وثمانون طالبا ، كانوا يعانون من عنت الضباط أكثر مما يعانى سائر الجنود . ويروى ستراسر فى صدد هذا القصة التالية :

« فى مساء أحد أيام السبت من شهر اكتوبر سنة ١٩١٤ ارتدينا أجمل ملابسنا تأهبا للسفر الى المدينة حيث نمضى يوم اجازة منحناه . واذا بأحد ضباط الصف يأمرنا أن نصطف ، ثم ينادى فينا : من منا يعرف الانجليزية أو الفرنسية ؟ فتقدم بعضنا وقد حسب أنه سيدعى لمهمة حربية تتطلب معرفة احدى اللغتين الاجنبيتين . وكنت أحد هؤلاء الذين تقدموا مستبشرين خيرا . واذا بهذا الضابط ينظر الينا شزرا ، ثم يقول : واذن فان على هؤلاء المثقفين الخائبين أن ينظفوا المعسكر هذه الليلة ، وعلى الباقين أن ينصرفوا الى اجازتهم .. هيا الى العمل أيها المثقفون ! »

ويقول ستراسر فى ختام هذه القصة : « منذ ذلك الحين وقلبى ينطوى على كره عميق للعسكرية التى تختلف كل الاختلاف عن الجندية » . نعم ، فالجندية هى حمل السلاح فى سبيل الدفاع عن رأى أو شرف أو وطن . أما العسكرية فهى حمل السلاح من باب الاحتراف والامتهان ، وحمله فى سبيل الهجوم والتعدى ، واعمال هذا السلاح فى الناس بلا تفرقة بين المذنب والبرىء !

وكانت حياة ستراسر فى الجندية حياة ممتازة . فحارب طوال سنى الحرب ، وجرح فى احدى معاركها جرحا خطيرا ، وكوفىء على ذلك بوسام الصليب الحديدى من الطبقة الاولى ورقى الى رتبة ضابط لانه طارد جماعة من الجند حتى تركوا مدفعهم فغنمه . وأحس فى فترة طويلة من الحرب زهو الجندى الذى يحارب فى جيش منتصر مظفر ، ولكن لما انقلب المد جزرا ، واستحال النصر هزيمة بدأ يقول : « لن أنسى ما حييت أول مرة رأيت فيها الجنود الامريكيين . كان ذلك فى يوم ٢٥ اغسطس سنة ١٩١٨ . وكانت كتيبتى تدافع عن معبر احدى القنوات فى فرنسا ، وكانت ترتد منذ أيام تحت ضغط عدو يتفوق علينا عددا وعدة وعتادا . ولم تكن بأيدينا الوسائل التى ننقل بها جرحانا ومرضانا، فضلا عن أن نضمدهم ونداويهم . وكنت فى مركز أمامى حين رأيت الامريكيين ، فرأيتهم صفا واحدا من الجنود المتلئين صحة وابتهاجا ، ينشدون أناشيد فتية مرحة ، وهم فى ملابس قشيبة تزينها قبعات وأحذية انيقة . نعم كانوا يسيرون كما كنا نسير فى صيف سنة ١٩١٤ حين دخلنا معمعة القتال واثقين من انفسنا مطمئنين الى أن النصر من نصيبنا !

« ولاول مرة ، حين رأيتهم ، أحسست الخوف من أن نخسر الحرب . اذ ماذا يجدينا نفعا من تساقط قنابلنا على هذه الصفوف التى لا أول لها ولا آخر من جنود يملأهم الأمل واليقين والابتهاج ؟ ان هذا التيار الدافق من الجنود كان زاخرا مندفعا الى حد خليق بأن يغرقنا فى لجه ويطوينا فى غماره

« وما من جندى ألمانى مرت به هذه التجربة القاسية ، فرأى بعينيه الفارق الكبير بين جنود جيشنا المتخاذل وقد أوهنهم الجوع والضنى فراحوا فى أسمالهم البالية يسيرون مترنحين ويتكلمون متذمرين ، وبين أولئك الشبان الامريكيين الذين يطعمون أوفى الطعام ويلبسون أبهى اللباس ، وقد توافر لهم من العدد والعتاد ومن الدربة والتمرين ما يملأ صدورهم يقينا بالنصر القريب ــ ما من جندى ألمانى شهد هذا بعينيه يمكنه أن يصدق تلك الدعوى الكاذبة الخرافية : دعوى هتلر بأن الجيش الالمانى طعن فى ظهره بخنجر اليهود»

***

وقفت رحى الحرب ورفعت راية السلام ، وجاءت على ألمانيا تلك المحنة القاسية : فأما رجالها فقد وجدوا الحياة من حولهم أطلالا وانقاضا ، دفن فيها من دفن من أبنائهم القتلى والجرحى والمرضى ، وضاع فيها ما ضاع مما ملكوا وادخروا طوال أيام الصبا والشباب . وأما شبانهم فقد سرحوا من الجيش الى حيث لا يجدون عملا يرتزقون منه فضلا عن أن يجدوا الحياة الآمنة الرتيبة

وكان أوتو ستراسر وسط هذه الفوضى الضاربة أطنابها يعانى مرضا عضالا سرى فى أطرافه منذ أيام الجندية . ولكنه بدأ يجاهد فى سبيل عيشه وفى سبيل مستقبله ، فراح يسعى جاهدا لينال درجة علمية من جامعة ميونيخ . وكان أكبر ما يهمه قوته اليومى ، فكان يدرس فى الجامعة من الصباح الباكر الى منتصف النهار، ثم يذهب الى دار الريشستاغ حيث وجد وظيفة بسيطة ، وظيفة كاتب مختزل ، بمرتب ضئيل ، فكان اذا انصرف من عمله هذا فى السادسة أو السابعة مساء ، تناول عشاءه على عجل ثم ذهب الى مدرسة يعلم فيها الشبان والعمال دروسا فى التاريخ الالمانى دون أن يتقاضى عليها أجرا . ويعود الى بيته بعد ذلك ليستأنف العمل فى دروس الجامعة الى ما بعد منتصف الليل . كل هذا وهو مريض يعانى شللا فى ساقيه ، حتى غدا لا يستطيع السير الا متوكئا على عكازتين

وكان مذهبه السياسى ، ولا يزال ، المذهب الاشتراكى . فقاده هذا المذهب الى حزب سياسى جديد قام وسط هذه الفوضى التى عمت الحياة الالمانية من جميع جنباتها ، وهو الحزب الوطنى الاشتراكى الذى أنشأه أدولف هتلر . وكان لاوتو أخ أكبر منه هو جريجور ستراسر ، وكان يؤمن ايمانا عميقا وثيقا فى وعود هتلر بأن يجعل من ألمانيا موطنا لشعب سعيد كريم ، ينال فيه كل ذى حق حقه ، ولا يضحى فيه بالضعاف قربانا للاقوياء المتهومين . فانضم جريجور الى هتلر وآزره بكل قواه وجوارحه

ومرت خمس سنوات منذ اليوم الذى انضم فيه أوتو ستراسر الى النازى الى اليوم الذى ألقى فيه على هتلر كلمة الوداع ، قائلا له فى وجهه : انك رجل مخادع ومحتال ، كاذب ومحتال . فقد تبين تغرير هتلر باتباعه ، وأيقن من انه خان الاشتراكية واتخذها ستارا لاهوائه ونزواته ، وأنه قد باع وعوده للناس باقامة النظام الاشتراكى لهذه الفئة التى

تسيطر على الصناعة وتمتلك المصارف وتضع أيديها على الاراضى والغابات، لفئة الرأسماليين مقابل ما أمدوه به من المال فى الخفاء

لقد أدرك أوتو ان سياسة هتلر ليست بالسياسة النظيفة الشريفة ، وان مذهب هتلر ليس بالمذهب الاشتراكى الصحيح ، فحاول ان يهدم الحزب النازى : حاول أن يبث فيه الالغام التى تنسفه وتقوضه . فأخذ يجمع حوله أعضاء الحزب الذين يؤمنون بالاشتراكية اكثر من ايمانهم بهتلر ، ويؤمنون بألمانيا اكثر من ايمانهم برجالها العسكريين والماليين ، وألف منهم « الجبهة السوداء » . وكان أنصاره هؤلاء يؤلفون جبهة وسط الحزب النازى ووسط الجيش الالمانى بل ووسط جماعة الجستابو ذاتها . وبذلك بدأ حربه على هتلر ، وهى حرب ما تزال دائرة الرحى متقدة النار . نعم انها لا تبدو للعيان لانها قائمة فى الخفاء ، ولكن قد يأتى اليوم الذى تبدى فيه هذه الحرب على مشهد من العالم جميعا ، فى صورة ثورة داخلية تعصف بهتلر وبالنازى عصفا ذريعا . « فالجبهة السوداء » تقوم الآن فى قلب ألمانيا متأهبة للعمل الحاسم يوم يقصم ظهر القوة العسكرية التى تسند الهتلرية ، وكأنها النار المطمورة تحت الرماد : لا يبدو لهيبها ولكنها مع هذا جمرة محرقة

***

فى مساء ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٣ كان أوتو ستراسر ذاهبا الى محطة برلين ليأخذ منها القطار الى بيته فى احدى ضواحى المدينة ، فرأى سحابة كثيفة من الدخان واللهيب تخيم فوق المدينة . فسأل سائق السيارة عن الامر ، فقال له : « ان النازى أحرقوا الريشستاغ » وعندئذ تبين أوتو مدى الخطر الذى يحف به ، فقد بدأ حقا عهد جديد من الحكم الارهابى الذى لا يتحرج من اراقة الدماء وازهاق الارواح مهما تكن زكية وبريئة . وأدرك ان منزله فى برلين لا بد أن يكون فى هذه الساعة قد أحيط برجال الجستابو تأهبا للقبض عليه متلبسا بجريمة التآمر على الفوهرر والحزب ، فعدل عن الذهاب الى بيته وأخذ طريقه الى مكان آخر فى أحد انحاء ألمانيا النائية ، وكان قد أعده من قبل ليكون مقرا لحركته السرية ، كما أعد لها أماكن أخرى كثيرة ليتنقل بينها كلما وقعت عين الجستابو على أحدها

ومنذ ذلك الحين بدأت سلسلة متصلة الحلقات من أعمال الاختفاء والمطاردة . ولكن ستراسر كان أدهى عقلا وأمهر حيلة من الجستابو ، فمع أنهم طاردوه فى كل مكان ، وتعقبوه فى كل قرية ، الا انهم لم يظفروا به أبدا . وحدث بينه وبين الجستابو من صور المطاردة ما لا تشهد مثله الا على الشاشة البيضاء فى الروايات البوليسية . فثمة تراه فى سيارته منطلقا بها انطلاق الريح ومن ورائه سيارة الجستابو ، وهو يتعرج بها من طريق الى طريق ، ويعلو بها الاكمات ويهبط بها الوهاد ، حتى يختفى عن الابصار فى أجمة كثيفة أو وسط بناء مهجور . وثمة تراه مختفيا فى زى شاب انيق عاشق من هؤلاء الشبان الذين يجرون وراء الفتيات ويضربون لهم مواعيد اللقاء فى القرى النائية ، فاذا رآه

الجستابو لم يدر بخلدهم أن هذا الشاب الأنيق السادر هو عدو هتلر اللدود

ولو أن الجستابو أمسكوا به لكان مصيره على التحقيق مصير أخيه جريجور الذى أبى أن يهجر ألمانيا بعد ان انفصل من هتلر عقب قيامه على الحكم وتوليه زمام السلطة . وقد حسب جريجور أن لا بأس عليه ما دام قد هجر السياسة وانصرف الى العمل فى احدى المؤسسات الكيمياوية فى برلين . ومرت عليه أيام شعر فيها أن لا خطر عليه وأن هتلر أسقطه من ذاكرته ، فأكب على عمله الجديد مبتعدا عن السياسة وكل من ينتمى اليها .

وعرف أوتو فيما بعد ما حدث لأخيه جريجور . عرفه من رجل كان معتقلا حينذاك فى هذا المعسكر الذى اعتقل فيه أخوه . فعرف ان أخاه كان مستلقيا ذات يوم على اريكة خشبية فى المعسكر حين دخل عليه هيدريش ، وهو الذى يلى همار فى صفوف الجستابو، ومعه رجل ثان غير معروف ، ووقفا بباب الحجرة التى حبس فيها جريجور ، واستلا مسدسيهما وأطلقاهما عليه . ففقز المسكين الى ركن فى الغرفة وهو يصرخ ويعوى ، ولكن نار المسدسين لاحقته الى هذه الزاوية فسقط الى الارض وما زال ينبض بالحياة . فتقدم اليه هيدريش وقذفه برصاصة فى عنقه كانت هى القاضية . وهيدريش هذا هو الذى لقى مثل هذه الميتة بعد سنوات ، حين اغتيل فى بوهيميا بيد نفر من أبنائها المجاهدين

***

اعتصم أوتو ستراسر بمدينة فينا التى حسبها بمأمن من عملاء النازى ، واستأنف حربه التى يمكن أن نسميها « حرب الرجل المفرد » . وبدأ هناك يكتب ويطبع جريدة لفضح أعمال هتلر ومشاريعه ، ويهرب منها الى أرض الريخ آلافا وآلافا من الاعداد . وكان هذا العمل فى بدايته يسيرا ، فقد كان فى النمسا جمع كبير ممن يخشون ان تمتد يد هتلر الى بلادهم فيذهب باستقلالها ويقضى على حرية بنيها . ولهذا أعانوا ستراسر فى تحرير الجريدة وطبعها وتهريبها . وكان اسم هذه الجريدة « المذيع الاسود » . وكان ينشر الى جانب الجريدة رسائل صغيرة تطبع على ورق رقيق ، ويسهل طيها فى كرات صغيرة من الجلد الرقيق . وكان رجاله يبتلعون هذه الكرات ليهربوا ما بداخلها الى أرض ألمانيا ، وقد بلغ ما هربوه منها فى احدى المرات خمسين ألف رسالة . وكان النازى لا يرهبون شيئا مثل هذه الرسائل التى كان الشعب يتلقفها متلهفا عليها ، لما تضمنته من اسرار لا يعرفها الا رجل مثل أوتو ستراسر كان الى جانب هتلر عددا من السنين ، وكان مطلعا على خططه واسراره ، هذا الى أنه لم يكن من الممكن اتهامه بما يتهم به سواه من المناوئين ، فلا هو شيوعى ، ولا هو يهودى ، وانما هو نازى تاب وأناب حين تبين طريق العسف والخديعة التى يسير فيها حزبه وزعيمه

ولكن يد الجستابو امتدت عبر الحدود الى النمسا وبدأ ستراسر يحس أصابعها تقترب منه . وفى ذات ليلة اقتحم جماعة من النازى بيته فى برلين ليختطفوه . ولكنه كان فى

تلك الليلة فى تشيكوسلوفاكيا حيث راح يبحث فيها عن مكان يتخذه مقرا لحركته اذا وقعت النمسا فى يد هتلر . وعلم بما حدث عند عودته الى فينا ، فأيقن أن لا مأمن له فيها ، ولاسيما أن كثيرا من رجال البوليس النمساوى كانوا يمالئون النازى ويتغاضون عن جرائم رجاله ، ويقدمون ذلك دليلا على صداقتهم التى يرجون من ورائها الغنم والكسب يوم تقع بلادهم تحت أقدام النازى . فلم يجد هتلر بدا من أن يهجر فينا الى براغ التى اتخذها مقرا لحركة « الجبهة السوداء » ، ومركزا لقيادة الحرب التى سميناها « حرب الرجل المفرد »

وكانت براغ آمن من فينا ، فليس من أهلها من يحب النازى أو يرغب فى أن تذل له بلاده ، ولم يكن من السهل على عملاء النازى ان يقارفوا جرائمهم بين هؤلاء القوم الذين يمقتونهم . ولهذا راح ستراسر يصدر جرائده ورسالاته التى يحارب بها هتلر ، وراح أنصاره يهربون هذه الجرائد والرسائل الى المانيا ، محتالين تارة ، مغامرين تارة أخرى ، معرضين حياتهم لاشد الاهوال . فمن الحيل التى لجأ اليها ستراسر أن طبع أغلفة خطابات تشبه تلك التى تستعملها الجمعية الطبية الالمانية ، وأرسل فيها خمسين ألف نسخة من جرائده ورسائله ، وترك الاغلفة مفتوحة لكيلا تثير شبهة عمال البريد ، وأرسل هذه الآلاف من الرسائل الى شتى انحاء ألمانيا ، فحملها اليها البريد الالمانى دون أن يفطن أحد من رجاله الى أنه يحمل فى يديه أقوى الاسلحة التى يحارب بها هتلر ويناهض . واتبع هذه الوسيلة مرة أخرى مستعملا أغلفة خطابات كتلك التى يستعملها اتحاد المحامين الالمان

وفى سنة ١٩٣٤ بدأ ستراسر أهم مراحل حربه على هتلر . وهى مرحلة تشبه القصة البوليسية وتشتمل على جميع عناصرها . ففيها نجد الفندق الريفى المهجور ، ونجد الفتاة الشقراء الفاتنة ، ونجد المسدس وطلقات الرصاص ، ونجد مغامرات الهروب فى السيارة المنطلقة . هذه هى قصة محطة الاذاعة اللاسلكية التى انشأها ستراسر فى احدى الفيافى

لم يقم ستراسر بهذا العمل العجيب بمفرده ، بل كان يعاونه رجل جرىء مخلص هو رودلف فورمس ، وهو أحد مهرة المهندسين اللاسلكيين الالمان . وقد رفعته مهارته الى مرتبة كبيرة فى محطة الاذاعة الالمانية ، ولكنه لم يكن يخفى كراهيته للنازى ، فاضطر الى أن يلوذ بالفرار الى خارج ألمانيا لينجو بحياته مما تهددها من خطر الموت . وقد قابل ستراسر فى براغ واتفقا على اثارة « حرب لاسلكية » على هتلر . وكانت العقبة التى تعترضهما قلة المال ، ولكن عددا من أنصار هتلر فى ألمانيا أرسل اليهما ما يريدان ، فبدأ الرجلان فى اقامة المحطة . وكان يجب أن تقام فى مكان قريب من الحدود الالمانية حتى يسهل ايصال صوتها الى سمع الشعب الالمانى ، وأن يكون هذا المكان بمأمن من السلطات التشيكية ومن أعين الجستابو على السواء . ووجدوا هذا المكان على مسيرة اربعين ميلا من براغ فى فندق ريفى تاه سماه صاحبه « فندق ما وراء التلال » . وكان الوقت اذ ذاك خريفا والفندق خاليا من الناس اذ قلما يهبط هذه المنطقة زائر فى هذا الفصل الذى يسكن فيه الناس منصرفين عن الرحلات

ظلت هذه المحطة قائمة بأمر الدعوة التي كرس ستراسر نفسه لابلاغها ، حتى عرف النازى بعد جهد عنيف أين مقرها . وفى ١٦ يناير سنة ١٩٣٥ ذهب ستراسر الى ذلك الفندق ورأى فورمس آخر مرة فى حياته . وكان معه بعضا من اسطوانات الجرامفون سجل عليها خطبا له لتذاع على الشعب الالمانى . وكانت هذه الاسطوانات تذاع ثلاث مرات فى كل يوم . وانبأه فورمس فى ذلك اليوم أن قد هبط الفندق رجل ألمانى وفتاة ، وانه يبدو أنهما حبيبين جاءا يمضيان وقتا جميلا بعيدا عن أعين الرقباء . وارتاب ستراسر فى الامر وساورته الخيفة ، ولكن فورمس قال له : كلا ، بل هما من الاناقة والرقة بحيث لا أشك فيهما ولا اتوجس منهما شرا . على أن فورمس أخفى عن صاحبه أمرا ، فقد جاءته هذه الفتاة الشقراء الفاتنة ذات يوم وقالت : انى أحب أن نأخذ صورة لنا معا ، لتكون لى ذكرى لهذه الايام الجميلة ، التى أرجو ان نحياها مرة أخرى عند ما أعود الى هذا الفندق عما قريب ، بعد ان نقضى أمرا لنا فى برلين . ولعل فورمس ارتاب فى الامر ، ولكن جمال الفتاة كان أقوى عليه من ريبته، فأخذت لهما صورة وقد لف يده حول خصرها

وفى اليوم التالى غادرت الفتاة وصاحبها الفندق . الى أين ؟ الى برلين لتعرض الصورة على رجال الجستابو ليتأكدوا من أن هذا الرجل هو خصمهم فورمس

وبعد أيام قليلة عاد الرجل والفتاة الى الفندق . وآوى الرجل الى فراشه عند ما أقبل المساء اذ كان يشكو من صداع ألم به فى اثناء رحلته . بينما بقيت الفتاة فى حجرة فورمس يتسامران بلعب الورق وشرب البيرة . فلما جن الليل اذ بباب غرفتهما يفتح واذا بالرجل ومعه آخر وفى يد كل منهما مسدس كبير . وانطلق الرصاص من المسدس فأصاب فورمس وأصاب الفتاة ، فارداهما قتيلين . واستيقظ صاحب الفندق وخادمه وأسرعا الى حيث انطلق الرصاص . فقادهما أحد الرجلين الى غرفة وأوصد دونهما بابها . وسمعا وهما فى محبسهما صوت سيارة تندفع مسرعة ، وقد غدا الفندق ساكنا صامتا لا صوت به ولا حراك . وكسرا باب الغرفة وذهبا الى حيث يقيم فورمس فوجداه جثة هامدة . أما السيارة فكانت تحمل الرجلين وتحمل جثث الفتاة

لماذا قتلت ؟ لعلها قتلت خطأ ، ولعل صاحبها كان يكرهها لامر ما فانتهز الفرصة وأطلق عليها الرصاص . وعاد الرجل الى الجستابو ظافرا . وكوفىء على ذلك ــ كما علم ستراسر ــ بعشرة آلاف مارك . ورقى الى رتبة أعلى فى هيئة الجستابو

أما محطة الاذاعة فنقلها بوليس براج الى أحد المتاحف حيث كانت ، الى ما قبل استيلاء هتلر على تشيكوسلوفاكيا ، من أهم معروضاته .. ألم تكن هذه المحطة الصغيرة بمثابة جيش عنيد يحارب هتلر ، فيقض مضجعه ويؤرق نومه ، ويعد الثورة التى تعصف به

هذه هى قصة أوتو ستراسر وقصة الجبهة السوداء التى أقامها حربا على هتلر . وهى ما تزال قائمة ، بل لعلها الآن أقوى وأضخم مما كانت فى يوم من الايام

(خلاصة كتاب للصحفى الانجليزى دوجلاس ريد)

لو جاء هتلر

قصة ملخصة : بقلم الأستاذ عبد الحميد عبد الغنى

ألف هذه القصة كاتبان انجليزيان هما دوجلاس براون وكريستوفر سيربل . وذلك فى الوقت العصيب الذى مر ببريطانيا عقب سقوط فرنسا . فقد أشفقت حينذاك بعض القلوب وتوجست شرا ، وبدا فى الافق أن ثمة من لا يرى فى الثبات والعناد جدوى ، ومن يؤثر المهادنة والمصالحة ومقابلة النازى فى منتصف الطريق . فكتبت هذه القصة لترى البريطانيين والعالم أجمع ماذا يحل بهم فى حاضرهم ومستقبلهم ان تمكنت منهم يد هتلر القاسية . فقوبلت القصة من الصحافة الانجليزية بكل تحية واعجاب ، واقترحت صحيفة « نيوستيتسمان » على وزارة الدعاية ان توزع القصة على الناس مجانا . والواقع ان ما تنطوى عليه القصة من وقائع وأحداث لا يختلف فى جوهره عما يقع فى كل بلد أنشب فيه النازى أظافره بطريقته المعهودة من خداع واغراء ، ومن تهديد وانذار ، ومن جماعات يبثها لنشر الفوضى ، ومن مواثيق يبرمها لينقضها ، ثم ما يعانيه البلد فى ظله من ارهاب الجستابو ، ومن الاستغلال الاقتصادى ، ومن الافساد المعنوى

كانت الخطبة التى ألقاها فى مدينة همبورج فى شهر يناير أهم حادث فى تاريخ حياته ، فأقامته سيدا مطلق الكلمة نافذ الامر فى نصف الدنيا بأسرها . سمعت هذه الخطبة فى بيتى مذاعة على الاثير ، فأبرقت الى جريدتى قائلا : ان الشعب البريطانى يعرف كيف يرد على هذه الشنشنة التى عرفناها منه ، وتعودنا أن نسمع منها كل مرة عبارات الوعد والوعيد ، وأساليب الاغراء والانذار . ولكنى لم أكن مصيبا كل الاصابة فيما ذكرته فى برقيتى ، فمنذ سمحت الحكومة بنشر الخطاب كاملا فى الصحف ، وأنا أسمع أفرادا من القوم فى الأندية والملاعب والمكاتب والطرقات يتهامسون بمثل هذه الكلمات : « بينى وبينك ان فى كلامه بعض الحق حين يقول دعوا الماضى بشؤونه وتعالوا نتعاون منذ اليوم معا » —

« لست أدرى اذا كان سيصدق فى وعده بأن يعامل التشكيين والبولنديين معاملة طيبة اذا تركناه حرا فى أمرهم دون تدخل منا » ـ « نعم ، لا بد ان يكون فى العالم متسع لبريطانيا وألمانيا معا » ـ « انه لا يريد أن ينتزع منا شيئا ، حتى مستعمرات ألمانيا السابقة لا يطالب بها » ـ « لا شك فى انه عظيم ومخلص ، فقد تنبه الى ان الخطر الحقيقى هو الخطر الاحمر ، وان العدو الحقيقى هو البولشفية المتعطشة للدماء » ـ « انها حرب لا معنى لها ، وانى لا أطيق التفكير فى أمر أولئك الاطفال الذين يموتون جوعا فى ألمانيا » .

هكذا كان يجرى التهامس بين القوم ، وهكذا كانت الروح السارية فى الجماعة . لم تكن هذه الروح فيما أعتقد منبعثة من خوف ملأ قلبهم أو جبن ثلم عزمهم ، بل من عاطفة انسانية رقيقة أثارتها وأذكتها حالة الضيق والقلق التى سادت الأفراد جميعا والطبقات جميعا فى خلال السنين الاخيرة . نعم ، ألم تركد سوق التجارة ، ألم تضق دائرة الصناعة ، فى ألمانيا وبريطانيا معا ؟ ألم يتعطل ملايين وملايين من العمال هنا وهناك سنين عددا ؟ ألم تتحطم الحياة العائلية الآمنة ، ألم يقاس الاطفال والنساء والشيوخ ، من جراء هذا الضيق الاقتصادى الشامل ؟ ثم ألم ترهق الاعصاب ارهاقا كاد يحطمها ويذهب بها طوال تلك السنين التى لم تهدأ فيها ثائرة الانذار والتهديد والارهاب ، والتى أريقت فيها الدماء فى كثير من الارجاء ، فى النمسا ، واسبانيا ، والحبشة ، ومنشوريا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وبولندة ؟ .. لماذا كل هذا ؟ لماذا يحدث هذا ، وهتلر لا يريد الا شيئا واحدا ، شيئا يريحنا ويريحهم ويريح العالم جميعا .. انه لا يريد الا « اطفاء النار » !

سمعت الحكومة هذا الهمس المتواتر ، ولكنها لم تعن به . لقد نزلت ساحة الحرب مرغمة كارهة ، لتفى بريطانيا بعهدها لحلفائها وأصدقائها ، ولتدفع عن نفسها وحريتها ما يتهددها من الاخطار ، وكانت فى ذلك معبرة عن ارادة الامة مستجيبة لرأيها القاطع . وما تحسب الحكومة ان الوضع قد تغير كثيرا أو قليلا ، فالعدو الذى يتهدد بريطانيا لم يضعف شيئا بل ازداد قوة وبأساء ، والخطر الذى يحف بها ما زال جاثما يتربص بها الدوائر ليثب عليها الوثبة القاضية . فلم يكن للحكومة بد من أن تدير أذنها عن هذا التهامس الذى بدأ يشيع فى القوم . ولكن ثمة جماعة أخرى كانت آذانها الى الارض تسمع كل همس مهما يكن خافتا ، فتحيله الى صوت ضخم عريض يظن سامعه أنه صوت الناس جميعا . تلك هى الجماعة التى كانت لا ترى فى الحرب الا ضرائب ثقيلة تبهظها ، وتشريعات حازمة تفوت عليها أغراضها ، ولا ترى فى السلم الا ميدانا فسيحا للاحتكار ، والمضاربة ، والتلاعب ، والتهرب من فريضة الضرائب . وفوق هذا وهذا فقد كانت ترى فى السلم طريقا الى تحطيم ذلك التحالف المعقود بين ألمانيا وروسيا ، وبذلك يقضى على ذلك الشبح الذى يؤرقهم بالليل ويضنيهم بالنهار ، شبح الشيوعية ! فلماذا لا تسعى هذه الجماعة الى تضخيم هذا الهمس الخافت واحالته الى صوت مدو أخاذ ، ولماذا لا تبث هذا الروح ، روح التخاذل والتهافت والانثلام فى الناس جميعا ؟ لماذا لا تقوم بحملة منظمة من الرسائل

تبعث بها الى رجال الحكومة ، وأعضاء البرلمان ، وكتاب الصحافة ، وبحملة منظمة من الاقاويل والاشاعات تسوقها الى الاندية والمجتمعات ، بل الى دور العلم والجامعات ؟ بل لماذا لا تتآمر هذه الجماعة مع نظرائها فى ألمانيا على عمل من أعمال الضغط الاقتصادى والمالى ، ولها من السيطرة على المصارف والبورصات ودوائر الاعمال ما يمكنها من هذا

على أنى أترك لغيرى من هم أوثق منى اتصالا بهذه الجماعة، وأكثر منى دراية بأساليبها ومؤامراتها ، ليصف الطرق التى اتخذتها فى تحويل النار التى كانت مؤصدة فى قلب كل بريطانى الى دخان يذروه الهواء ورماد تذهب به الريح . وشاعت هذه الروح فى القوم ، وسرت منهم الى الصحف ، وانتقلت أخيرا الى دار البرلمان . أكانت هناك رشى من المال ، ومما هو أسوأ من المال ، وراء نفر من رجال الصحافة ونفر من أعضاء البرلمان ؟ لست أدرى : ولكن عند ما عرض الامر على ممثلى الامة ، رأينا فيهم من يردد فى قاعة البرلمان ذلك الذى كان يتهامس به الناس فى الاندية والطرقات . رأينا فيهم من يقول : فلندع الماضى ولننظر الى المستقبل ، فلنحقن الدماء ولنصن الارواح ! بل سمعنا منهم من يقول : أكل هذه الحرب فى سبيل دانزيج ، التى لا يدرى ٩٩ ٪ من الشعب البريطانى موضعها فى الخريطة ! بل سمعنا من يقول : ان بريطانيا وألمانيا يجب ان تكونا يدا واحدة وقلبا واحدا ينشر السلم ويبث الحضارة فى ربوع العالم جميعا ! وفى وسط هذا الضجيج الغريب وقف رئيس الوزارة ، يقول تلك الكلمة التى غدت شعاره : « لا نريد حربا أنانية ، ولا نريد سلما مخزيا »

وتريث هتلر اسبوعا بعد هذا الحديث العجيب الذى دار فى قاعة البرلمان . ثم أذاع نداء استهله بهذه الكلمة : « هيا الى اقامة تعاون بريطانى ألمانى فى عالم ينادى بالسلام القائم على أسس العدالة » . ولست أذكر الآن ماذا كنت أشعر ، ولا ما كنت أقول ، خلال تلك الايام القليلة التى مضت بين اذاعة هذا النداء وبين يوم انعقاد مؤتمر «نورمبرج» لعقد الصلح بين ألمانيا وبريطانيا ، ولكنها على أى حال كانت أياما عصيبة على من كان يعلم عن بينة ويقين المصير الذى حل بهذا الشعب الذى عاش حرا سيدا أجيالا تلو أجيال ، فغدا منذ الساعة يسعى الى حيث ينتظره الغل الذى يصفده ، والضيق الذى يأزمه

وذهبت طائرا الى نورمبرج . ورأيت هناك ممثلينا الذين جاءوا يتعاونون مع عدوهم السابق فى اقامة عالم أمن سعيد ينعم فيه الناس بالحرية والعدالة . ورأيت الى جانبهم جماعة من الناس قبلهم يمثلون فرنسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندة وهولندة وبلجيكا واليونان ويوغوسلافيا ، وقد جاءوا ليمضوا الدستور الذى أنشأته ألمانيا لتطبيقه على تلك البلاد

وعدنا الى بريطانيا ، فكيف وجدنا أهلها ؟ وجدناهم يحمدون الله الذى لا يحمد على مكروه سواه . فقد زلزلت الارض زلزالها ومع ذلك بقى بيتهم قائما وسط الانقاض . ألم يزل بنك انجلترا مفتوح الابواب وحى « السيتى » مائجا بتجار الاموال ورجال الاعمال ؟ ثم ألم تزل ربوع انجلترا مخضرة بالزرع مزهرة بالثمر ، لم تخربها الجحافل

ولم تدمرها الطائرات ؟ ثم ألم يذع رئيس الوزارة ساعة عاد الى لندن رسالة يقول فيها : « فلننس الماضي ولننظر الى المستقبل . لقد أخذنا حربا أثانية وأقمنا سلما مشرفا . وسنوجه همنا الى اصلاح شؤوننا . سننشيء أعمالا تقضي على البطالة . وسنتعاون مع ألمانيا في ترويج التجارة . وسنكون أسعد مما كنا ، وان لم نكن أغنى .. » نعم ، وها هو الرواج يعود الى مدينة لندن ، فها هي فنادقها وملاهيها ومسارحها عامرة بأفواج وأفواج من الضباط الالمان ؟ أما هذه المظاهرات التي يقوم بها جماعات من الشبان والعمال الشيوعيين ، أما هذه المناوشات التي وقعت في أحياء اليهود في المدن الكبرى ، أما ما نقلته الصحف عن اضطرابات في أرجاء الهند ، فهذا أمر بسيط عبر عنه رئيس الوزارة بقوله : « انها فترة لا بد منها في أثناء الانتقال من عهد الى عهد » ! فلا بأس ولا خوف

أما أنا فقد وجدت مجالا متسعا لموافاة جريدتي في استراليا بكثير من الانباء . وكان أهمها بطبيعة الحال أنباء تسريح الجيش البريطاني . نعم ، فقد سرحوه ، أما الجيش الالماني فظل مجندا بملايينه ، بل ظلت مصانع الأسلحة والذخيرة في بريطانيا تعمل ليل نهار ، لتزيد في عدته وعتاده ، بينما انصرفهم حكومتنا الى ايجاد عمل لجنودنا المسرحين .

ومضت الايام بطيئة ثقيلة ، فلم أجد بأسا من ان اذهب وزوجتي وابنتاجوليا الى الريف نستريح قليلا . وذهبت الى ديفورد ونزلنا في بيت أسرة عرفناها منذ سنين . وهنالك في الريف سمعت فلسفة جديدة : لماذا لا نعيش في حقولنا نزرعها ونأكل منها ؟ ألا بد أن تكون لنا امبراطورية تكلفنا انشاء جيوش وأساطيل ؟ ان أهل دينمركة أسعد منا وأغنى مع أنهم لا يملكون أية مستعمرات !.. حقا انها فلسفة ، ولكنها للاسف فلسفة ناقصة مبتورة ، أحسب هؤلاء الناس أننا فقدنا امبراطوريتنا فحسب ، ألم يعلموا أننا فقدنا قبل كل شيء حريتنا ؟!

وأمضيت في الريف أياما وددت لو تطول ، فقد كان الريف على أي حال أهون أمرا من لندن التي يسودها القلق فتهيج فيها الاعصاب . ولكني صحوت ذات يوم على عنوان ضخم في الديلي اكسبريس يقول : « تهديد آخر بالحرب ــ ألمانيا تحشد جيوشها ــ خطبة تهديد ألقاها الفوهرر » . وكانت الاخبار غامضة مضطربة ، ولكنها تستدعي رجوعي فورا الى لندن لاوافي جريدتي بهذه الانباء الجديدة المثيرة التي تقول ان الفرق الالمانية المحشودة على ساحل هولندة تقدر بعشرين فرقة ، وان هتلر خطب أمس في اجتماع الحزب النازي في مدينة برسلاو ، فقال : « ان مشكلة المستعمرات يجب أن تحل ــ أن تحل هنا وفورا . أما أولئك الذين يتكلمون عن المؤتمرات والمفاوضات فانهم لا يعرفون الشعب الالماني ، هذا الشعب الذي لن يرجو ولن يتوسل مرة أخرى ، لكي يجلس الى مائدة خضراء في سبيل حقه المهضوم ، وفي سبيل كرامته المهدرة ، وفي سبيل مطالبه التي أضاعوها زمنا طويلا . انه يطالب بحقه بصوت يدوي في الآفاق دوي الرعد ، ويقصف في العالم قصف المدفع الرهيب . ولن تستطيع تلك العصابة اليهودية الدولية أن تنكر

هذا الصوت أو تقف فى وجه ألمانيا » . وثمة فقرة أخرى فى الخطاب يقول فيها : « ان القوة الالمانية الجوية هى أمضى سلاح وأرهب سلاح وجد فى يد شعب فى أى عهد من عهود التاريخ . انهم يفاخرون بقوة دفاعهم ، ولكن قل لهم ان طائرات الرايخ تستطيع فى ساعة واحدة ان تغطى السماء بآلافها فتحيل أية عاصمة تعادينا الى أطلال وأنقاض . أنذرهم ، فقد أزفت ساعتهم ، وانها لساعة رهيبة ، ان لم يرجعوا عن غيهم ، ان لم يثوبوا الى رشدهم ، ويجيبوا ألمانيا الى مطالبها . . »

ونشرت التايمز الخطاب ملخصا وعلقت عليه بلغتها الرصينة الرزينة ، فقالت : لا شك أنه خطاب خطير ، ولكن الحكومة البريطانية معنية بحل جميع المسائل التى خلقتها الحرب ، بما فيها مسألة المستعمرات . وعهدى بالتايمز ان وراء كلامها ما وراءه !

وقلت لزوجى لا بد أن أعود فورا الى لندن . وجئت العاصمة ألتمس الاخبار . فمن أين آتى بها ؟ أما المصادر المطلعة فى القارة فقد حيل بيننا وبينها وقطعت المواصلات بين أوربا وبريطانيا . وأما وزارة الخارجية فلا تعلم شيئا عن تلك الاخبار « المبالغ فيها » ، وهى لا ترغب فى أن تصور هذه الحالة فى صورة « أزمة سياسية » . وانعقد مجلس الوزراء فى المساء ، ولكنا لم نعلم شيئا عما دار فيه ، وان كنا سمعنا انه كان على اتصال دائم ببرلين .وجاءت أخبار أخرى بأن طائرة ألمانية رؤيت على الساحل الجنوبى الشرقى . وسمع الصحفيون الخبر فى دهشة بالغة ، فلعل هذه بداية حرب جوية خاطفة تثيرها ألمانيا على لندن ! . . أما فيما عدا ذلك فالناس فى حدس وتخمين ، وقلق واضطراب ، لم يكن ثمة منجى منه الا بأن أعود الى بيتى فى منتصف الليل لانام ، ان طاوعنى النوم . .

وفى الصباح الباكر أبلغتنا وزارة الخارجية أن ممثلى جميع الصحف مدعوون الى اجتماع هام فى قاعة لوكارنو فى الساعة التاسعة صباحا، وانه لا يسمح لهم الا بتسجيل بلاغ حكومة صاحب الجلالة الملك بشأن المباحثات التى جرت بينها وبين الحكومة الالمانية

واجتمعنا فى القاعة ، وفى الساعة التاسعة فتح الباب ودخل . . من ؟ ربنتروب يتبعه رئيس الوزارة فوزير الخارجية . وعرتنا الدهشة جميعا اذ رأينا ربنتروب وسطنا . كيف أتى ، ومتى ، ولماذا ؟ وعرفنا ان الطائرة التى رؤيت مساء أمس هى التى أقلته الى هنا . .

ووقف رئيس الوزارة وتريث قليلا وهو يجيل نظراته الواهنة فى جوانب القاعة ثم قال :

« دعوتكم الى هنا أيها السادة لتشهدوا ميثاقا تاريخيا يدعم السلام. فانى أعلم انه راجت فى الساعات الاخيرة اشاعات عن قيام الحرب مرة أخرى ، وعن تهديدات وجهت الى حكومتنا من احدى الدول الكبرى . ولكن هذه الاشاعات جاءت من مصادر لا علم لها بمجرى الامور . وأقرر هنا أن كل هذه الاشاعات لا نصيب لها من الصحة ، فمنذ أمضينا وثيقة الصلح فى نورمبرج فى الخريف الماضى ، وعلاقتنا بالحكومة الالمانية علاقة قائمة على نشدان المصلحة العامة ، وعلى تحقيق التعاون بين الدولتين فى سبيل اقامة عالم ينعم بالسلام

« وانى أقرر كذلك انه لا خوف من قيام الحرب فى عصرنا هذا مرة أخرى . فانى

سأضع الآن امضائى على ميثاق جديد مع الحكومة الالمانية يربط بريطانيا العظمى بالرايخ الالمانى برباط وثيق من التعاون الذى لا تنفصم عراه أبدا »

وسكت رئيس الوزارة قليلا ، فقد كانت تدوى فوق رؤوسنا أسراب من الطائرات .. الطائرات الالمانية التى جاءت تحيى هذا اليوم التاريخى الخالد ، بأن تحوم ساعة امضاء الميثاق فوق مدينة لندن وسائر المدن الانجليزية الكبرى . ولما انقطع دويها عاد الرئيس فقال : « هذا هو الميثاق .. ميثاق الصداقة والتعاون مع الرايخ الألمانى . وهو الذى يدعم تلك المعاهدة الشريفة التى عقدناها فى نورمبرج ، وقد قام على أساس عادل معقول قدمه الهر هتلر بالاتفاق التام مع حكومة صاحب الجلالة الملك . وأعتقد ان هذا الميثاق سيقابل بالارتياح والتأييد فى بريطانيا وألمانيا على السواء »

وأعقبه وزير الخارجية ، والابتسامة الماكرة لا تفارقه ، فقال : « هيا الآن الى مكاتبكم. فليس ثمة مجال للاسئلة . والامر متروك للبرلمان ليناقشه . وسيذيع رئيس الوزارة الليلة خطابا الى الشعب البريطانى »

وانصرفنا ، وسرت مع صديق لى من الصحفيين الامريكيين ، أخذ يتكلم ويهدر ويهذى كأنه محموم ، فيقول : « هذه بداية النهاية » ، « هذه وثيقة النصر الهتلرى » . ثم عاد يقول : « ولكنى لا أصدق أن الشعب البريطانى يجرد من حريته ومن كرامته لمجرد اجتماع ثلاثة اشخاص فى قاعة من قاعات وزارة الخارجية ، لا أصدق هذا . ولا أصدق أن امريكا ترضى بهذا » . وضحكت ضحكا عاليا حين سمعته يتكلم عن امريكا . أين بريطانيا وأين أمريكا ؟ ان بين بريطانيا وألمانيا عشرين ميلا ، وبينها وبين أمريكا ثلاثة آلاف ميل ! وشاهدت فى أثناء سيرنا أن وجوه الناس عادت الى هدوئها ، الى جمودها ، مرة أخرى ، وقد فارقها ما ساورها فى الأيام الأخيرة من القلق والحيرة . وذهبت الى بعض دور الصحف فرأيت كتاب المقالات منهمكين فى تدبيج موضوعات عن هذه « التجربة الجديدة فى ميدان السياسة الدولية » وعن « الفرص الجديدة المتاحة للشعب البريطانى فى عهد السلام » وعن « وسائل نشر المدنية الانجليزية عن طريق التعاون مع ألمانيا » ولم تكن اذاعة رئيس الوزارة فى المساء الا موضوعا انشائيا على هذا الغرار

وطلعت الصحف فى صباح اليوم التالى فكان فيها من الاخبار ما صرف الناس عما دبج فيها من المقالات . فقد احتفلت برلين أمس بامضاء الميثاق الجديد احتفالا عظيما ، وخطب هتلر خطابا شافيا حيا فيه الشعب الالمانى ولم ينس أن يثنى على الروح الطيب الذى وجده فى الشعب البريطانى وفى حكومته الرشيدة . ووجد القراء الى جانب ذلك برقيات عن الفرق الالمانية التى أبحرت من همبورج صباح أمس قاصدة الى افريقيا لتتسلم المستعمرات الالمانية السابقة

وذهبت الى مكتب البرق ، ودفعت اليه بما تجمع لدى من الانباء ليرسلها الى صحيفتى ، فقال لى موظف المكتب فى أدب ولباقة : « آسف يا صديقى ، فقد ألحق بالمكتب موظف

لمراجعة البرقيات الصحفية قبل ارسالها ، وهو شاب ظريف وأظنه سييسر لك العمل » اذن فهذا أول تغيير حقيقي في حياتنا ! وذهبت اليه فقال لي : « اني من وزارة الخارجية . وكل عملي أن ألقي نظرة على هذه البرقيات قبل ارسالها . وذلك تطبيقا لنص في المعاهدة التي عقدناها مع ألمانيا ، حتى لا تسيء الصحف الى حليفتنا قصدا أو عفوا » قلت متعجبا : اذن فقد فرضت الرقابة ؟ قال : « كلا ، كلا ، لا شيء من هذا القبيل . بل ان وزارة الخارجية تريد أن تمد الصحفيين بالاخبار الصحيحة ، وتصحيح ما قد يصل اليهم من أخبار كاذبة . وقد ألحق بكل مكتب للرسائل البرقية موظف للقيام بهذا العمل ، كما ألحق بكل جريدة موظف مثله » قلت له : « اني لا أريد ان أتعبك في مراجعة رسائلي ، وحسبي أن أكتب لك اقرارا مسجلا بأني أتحمل مسئولية كل ما أكتبه » . قال ، وقد بدا عليه شيء من الضيق : « انك لا تجد من يرسل لك هذه البرقيات الا اذا كانت ممضاة من مندوب وزارة الخارجية . هذا هو النظام الجديد » . ولم يكن ثمة بد من أن أقدم له برقياتي ، ولم يكن ثمة بد من أن أتبين أنه قد ولى عهد حرية الصحافة في بريطانيا

وكان أهم حادث في ذلك اليوم اجتماع مجلس العموم . وكنا نرقب هذا الاجتماع بصبر نافد لنرى ماذا يكون قراره . والرجل الانجليزي العادي يعلم أن هذا المجلس ، على عيوبه الكثيرة ، هو ملاذه الاخير ، فان سلطته لا يمكن أن يتحداها وزير أو تقاومها حكومة ، وقراره كفيل بأن ينقذ بريطانيا . وذهبت الى دار البرلمان

وبدأت الجلسة ، واعجبا ! انهم جاءوا يقررون مصير أمتهم ومصير امبراطوريتهم ، لا بل مصير كل فرد منهم ومصير ابنه وحفيده ، ومع ذلك ها هم يبدأون الجلسة كالعادة بأسئلة تافهة في أمور لا قيمة لها الآن . واذا بضجة في شرفة الزائرين . والتفت الناس ليروا ماذا حدث . فرأوا سفير ألمانيا قادما وحوله ستة من الضباط الالمان وجماعة من ذوي القمصان النازية . ودخل الشرفة فنهض من فيها من الوزراء المفوضين ، نهضوا في خشوع واستكانة ارتسمت على وجوههم جميعا،حتى على وجه صديقيه وزير ايطاليا ووزير اليابان. ولكنه لم يجلس بل رفع يده بالتحية النازية ، فرفعها من معه من الضباط والملحقين ، وهتفوا جميعا « هيل هتلر ! » . ولما انتهت الضجة طلب رئيس المجلس استئناف الاسئلة وكأنه لم يقع شيئا . ولكن عضوا من حزب العمال نهض غاضبا مزمجرا طالبا احتجاج المجلس على هذا العمل وترضيته باخراج السفير الالماني . . لم يكد الرجل ينطق بهذا الكلام حتى تعالت الاصوات من جوانب المجلس ومن شرفات الزائرين تطلب . . تطلب اخراج هذا العضو الذي لا يعرف الادب ولا اللياقة . . وساد السكون ، وجاء دور المسألة الكبرى . .

وقام سير جون نيكر وزير الخارجية . حقا انه رجل ذكي وداهية ، وتحدث وخطب، وحقا انه الرجل الذي يعرف كيف يخادع وينافق . لقد حاول أن يقنع الناس ، وكاد أن يقنعهم . . فقد أخذ الوزير في لباقة وبلاغة يسرد ما وقع منذ مؤتمر نورمبرج حتى وقع الميثاق الاخير . . وبدا أن أعضاء المجلس قد اقتنعوا ، وأن ثائرتهم قد هدأت . . واذا بصوت

مجلجل رنان ينبعث من أحد الجوانب قائلا :

« أريد أن أسأل : ألم يمض الميثاق الجديد تحت تأثير الأنباء القائلة بأن ألمانيا حشدت عشرين فرقة على ساحل هولندة لتغزو بها هذه الارض الخالدة ؟ ألم يمض الميثاق الجديد عقب خطبة ألقاها هتلر يقول فيها : ان آلاف الطائرات الالمانية على أهبة أن تحول أكبر مدن الارض في ساعة واحدة أطلالا وأنقاضا ؟ »

ووقف المجلس على قدمين يستمع الى هذا الصوت العجيب الاخاذ . صوت الاسد البريطاني ، ونستون تشرشل ! وتعالت أصوات من هنا وهناك تصيح ، يا للخيانة ! يا للغدر ، وتعالت أصوات أخرى بعضها من المجلس وأكثرها من شرفات الزائرين « أسكتوا الشاغبين ! » . ودامت الضجة طويلا ، وجلس تشرشل على مقعده وهو يزفر زفيرا غريبا ، وراح رئيس المجلس يدق الجرس تارة ويضرب المنضدة أخرى ، حتى سكتت العاصفة . واستأنف وزير الخارجية كلامه . ولست أدرى أكان الوزير يريد أن يقنع أعضاء البرلمان فحسب ، أم كان يريد قبل هذا أن يثبت للسفير الالمانى مقدرته وكفايته ، وكيف انه الرجل الذى يمكن الاعتماد عليه . . وراح يتحدث عن الوطنية الصادقة ، الوطنية التى لا تتمسك بأهداب الماضى الذى قضى فيه قضاء مبرما ، بل التى تفكر فى المستقبل وفق الظروف الجديدة . وانتهى الوزير من خطابه . وأحس أعضاء المجلس أنهم أمام الامر الواقع الذى لا يملكون فيه شيئا ، فانسحب من القاعة من انسحب ، وبقى فيها من بقى ، وانتهت الجلسة على عجل ، ووافق المجلس على الميثاق الجديد

ومضت على ذلك ثلاثة أيام ووزير الخارجية يظهر فى كل حفل وكل ناد مزهوا بانتصاره ، مستبشرا بمستقبله . ولكنه لم يحس بأن الارض تنفرج من تحت قدميه ، كما تنفرج من تحت أقدام قومه جميعا ، الا فى اليوم الرابع ، حين أقلعت عن الشاطىء البريطانى البارجة رينون ، تحمل . . تحمل التاج البريطانى ! نعم ، ان قليلا من الشعب من كان يدرك مدى الدور الخطير الذى يؤديه ملك بريطانيا فى حياة الامة ، أما اليوم وقد نفى هذا الملك نفسه من وطنه ، فقد أحس كل رجل وكل امرأة ، بل كل صبى وكل طفل ، أن قلب بريطانيا نزع من بين جنبيها ، وأن سحابة سوداء قاتمة قد غطت أفق البلاد ، فغدا حاضرها مظلما ظلمة مستقبلها

ولم تكتب الصحف عن هذا الامر كثيرا ولا قليلا ، وكل ما نشرته نبأ رحيل الملك ، ونبأ تأليف مجلس وصاية من ثلاثة أعضاء ، أرسل اليهم هتلر برقية يهنئهم فيها ويرجو أن يكون عهدهم « مستهل صفحة جديدة مجيدة من العلاقات البريطانية الالمانية فى سجل التاريخ النوردى الخالد »

لقد كان هذا اليوم عصيبا على أبناء بريطانيا جميعا . وأحس كل منهم ، سواء من ولد فى انجلترا أو فى كندا أو فى استراليا ، طعنة الخنجر المغمود فى صدره . وخرجت يومها أهيم فى طرق لندن والضيق متحجر على قلبى . وكنت فى غمرة من الذهول ، فلم ألتفت

طول الطريق يمنا أو يسارا . ثم أفقت مما أنا فيه . . أفقت لأرى بعينى أسوأ مما يجيش بخاطرى . رأيت جماعة من ذوى القمصان السوداء ، تهرول فى الطريق مائجة صارخة ، وبأيديها عصى ، وسكاكين ، وبنادق !

وأحسست حين ذلك الخجل مرة أخرى . خجلت من أنى ، وأنا أحد كتاب الصحافة ، لم ألق انتباها كبيرا الى تلك الحركة الفاشستية التى قامت فى انجلترا منذ سنوات ، وحسبتها أول الامر نوعا من الهذر والهزل لا بأس به وسط حياة السياسة الجادة العابسة ، لم أدرك ولم يدرك غيرى ، حين كان تلافى الخطر ميسورا ، ان هذه الحركة العابثة ان هى الا سم بطىء يسرى فى الجسم رويدا رويدا حتى يذويه ويسقمه ثم يأتى عليه جميعا . ولكن جوبلز كان أذكى منا وأدهى ، ألقى هذا السم فى بلدنا كما ألقاه فى النمسا وتشيكوسلوفاكيا والنرويج وبلجيكا وفرنسا ، وهو يعلم أن سيأتى اليوم الذى يتغلب فيه هذا السم على الجسم الذى يبدو صحيحا معافى . وكان لنا من تقاليد الحرية والتسامح ما يحول دون قضائنا على هذه الحركة بضربة واحدة . فتركناها ، وكنا لا نتوجس منها شرا ولا نتوقع لها نجاحا . ولكن ها هى الايام تخطىء رأينا ، وها هى جموع القمصان السوداء تهرول فى الطرقات صائحة صاخبة ، وبأيديها أدوات الشجار والمناوشة . . فالى أين تسير به ؟ الى اجتماع عقدوه فى أحد الميادين الكبرى ليخطبهم زعيمهم ، باتريك روسى ، ولم أجد بأسا أن أذهب الى هذا الاجتماع ، فوجدت أفواجا حاشدة من جماعات القمصان السوداء ، تحتل كل منها جانبا من جوانب المكان ، ومعها لواؤها يبين المدينة التى تنتمى اليها . ورأيتهم فى جلبة صاخبة من الهتاف والصياح ، وفى وسط هذا جماعات منهم تدق الطبول وتعزف الموسيقى وتنشد الاناشيد . وجاء روسى يحف به جمع من أعوانه ، وكان يفرعهم جميعا بقامته العالية ، ويمتاز عنهم بوسامين ألمانيين من الذهب : المدالية الحربية ووسام نورمبرج . وكنت قد قابلته من قبل وتحدثت اليه مليا . نعم ، انه لم يتلق من العلم شيئا مذكورا ، وان تاريخه الماضى مجهول مغمور ، وان ثمة شبهة تحيط به منذ كان على صلة ببعض الهيئات الاجنبية التى تبث الدعايات وتحيك المكائد . ولكن كل هذا لا يمنعنى من أن أشهد بأنه رجل ذو نفوذ وتأثير الى حد يحجب عن الناس ما أحسبه فيه من خداع ونفاق ، ويجعل سامعه ورائيه يؤمنان بصدقه فيما يقول واخلاصه فى دعواه . ولما سمعته فى ذلك الاجتماع خطيبا كان صوته منطلقا يبلغ القلب دون جهد وعناء ، وكان كلاما دافقا زاخرا يثير الحس ويستفز الشعور . لقد راح يتحدث الى سامعيه ، وجلهم من الجنود المسرحين ، عما يلقونه فى حياتهم الجديدة من عنت وعناء ، فأبواب العمل مغلقة فى وجوههم ، وأسباب الحياة تقطعت بهم فى هذه الايام ، والحكومة لا تلقى اليهم بالا ولا تقدر ما أسلفوا من تضحيات كبرى ، ثم أخذ يصور هذه الحالة فى صورة جريمة شائنة منكرة ، مبعثها هذا الفساد الذى تعيش فيه بريطانيا ، والذى يدب فى جميع نواحى الحياة فيها : فى دور الحكومة ، وفى دوائر الاعمال ، بل فى الحياة الخاصة ذاتها . وصور هذه الحياة فى صورة ضخمة متشابكة العناصر متداخلة

العوامل ، من العجز الفاضح ، والرشوة الفاحشة ، والفساد المستشرى : ولكن ما مصدر هذا الفساد ؟ مصدره هذه الجماعة المجرمة التى تسيطر على كل شىء فى البلد ، على الاداة الحكومية وعلى مرافق العمل وعلى سوق التجارة ، جماعة اليهود التى تملك بيدها زمام الصحافة والكتابة والفنون ، كما تملك زمام الأموال والاعمال والبورصة والمصارف .. واذن فلا خلاص لبريطانيا مما هى فيه من ذل وهوان ، ولا نجاة لشعبها مما يعانيه من أزمة وضيق ، ولا رجاء لها فى مستقبل تنعم فيه بالرخاء والسلام ، الا ان حملت بيدها الحازمة سيفا مرهفا فانزلته على رقاب هؤلاء اليهود المجرمين .. وعند ما ارتفع بحرارة الناس الى هذا المستوى ، ختم خطابه بتلك الجملة التى لا أنساها : « قفوا على أقدامكم . وسيروا فى أرجاء المدينة ، فأروا هؤلاء اليهود ، وأروا العالم بأسره ، انه ما زالت فينا دماء»

نعم ما زالت فى بريطانيا دماء ، وستبقى فيها دماء .. فها هى الافواج الحاشدة من ذوى القمصان السوداء تنصرف من الاجتماع مولية وجهها شطر ذلك الحى الذى يقيم فيه عدد كبير من اليهود ، منذ أعملت فيهم النازية سيفها ، فلاذوا بالفرار الى بريطانيا ، حين كانت مثوى اللاجئين ومثابة الاحرار ، يلتمسون فيها الامن والسلام

ودارت المعركة فى حى اليهود ، وكان رجال البوليس قلة لا تقوى على جموع المتظاهرين فدخلوا الدكاكين وحطموها ونهبوها ، وأخرجوا اليهود منها وضربوهم وآذوهم وتركوهم بين الحياة والموت ، وامتدت المعركة الى غير اليهود فحطموا كثيرا من السيارات العامة وضربوا ركابها ، ودخلوا بعض النوادى والمقاهى وحطموا أثاثها وزجاجها ، وأصيب عدد كبير من رجال البوليس ومن المتظاهرين اصابات شتى

ولكن المعركة لم تنته عند هذا الحد ، فقد كان بين المتظاهرين رجل ألمانى يدعى «ماير» فأصيب فى أثناء المناوشة بضربة من جندى انجليزى ألقته على الارض ، والظاهر أن الجندى قال له : « ارجع الى بلدك أيها الالمانى القذر » . فلما انتهت المعركة عاد مسرعا الى دار السفارة الالمانية وأبلغها ما جرى .. وفى الصباح كان السفير الالمانى فى دار وزارة الخارجية وكان يصحبه هذا الجمع من الضباط والملحقين الذين شهدتهم معه فى دار البرلمان ، ولكنهم كانوا فى هذه المرة مدججين بالسلاح ، ألم تكن البلد فى حال من الفوضى والاضطراب تبيح لهم حمل السلاح دفاعا عن أنفسهم ؟.. وطلب السفير من الحكومة البريطانية اعتذارا كاملا عما وقع لذلك الرجل الالمانى الذى منحه هتلر بيده وسام الصليب الحديدى والذى يعد من رجال النازى المحترمين . كما طلب أن تتخذ الحكومة اجراءا سريعا لعقاب جميع الموظفين ورجال الشرطة الذين اشتركوا فيما وقع للرجل الالمانى

كانت هذه أول مرة يلمس فيها رئيس الوزارة ضروب العسف النازى فى أحط مظاهره ، ولكنه كان رجلا طيبا لينا يريد تهدئة الامر من أى طريق . فما انصرف السفير حتى استدعى وزير الداخلية وطلب اليه أن يحقق فيما جرى وينزل العقاب بمن أهان الرجل الالمانى . وكان هذا الوزير يكره جماعة القمصان السوداء منذ عهد بعيد ، وكانوا هم

بدورهم يتخذونه هدفا لحملاتهم فى صحيفتهم « بريطانيا الحرة » . وكانوا يتهمونه بأنه من أصل يهودى ، وبأن له صلة بالاوساط اليهودية ، وهى تهمة كانوا يقذفون بها كل من لا يجاريهم فى طريقهم . فأبى الوزير ان يستجيب لطلب رئيس الوزارة فلم يكن بد من اقالته

واجتمع البرلمان ، وكان فى اجازة منذ اليوم الذى صدق فيه على الميثاق ، وتكلم رئيس الوزارة فقال : «انه يقدر كفاية الوزير ونزاهته ، ولكنه يأسف لان الوزير يريد أن يحصر نظره فى دائرة ضيقة لا تتناول الظروف السياسية التى تحيط بنا ، ولا يريد أن يقدر أن من واجبنا أن نحرص على صداقة حليفتنا الكبرى ألمانيا . ولهذا رأيت اقالته ، وأسندت وزارة الداخلية الى سير جون نيكر ليقوم بأعبائها الى جانب أعباء وزارة الخارجية ، وهذا أمر استثنائى ألجأتنى اليه الظروف »

وهم الاعضاء بالكلام ، واذا بسير نيكر يقدم ورقة الى رئيس الوزارة ، فيقرؤها ، ثم يلتفت الى الاعضاء قائلا : لقد قامت اضطرابات كثيرة وعنيفة فى كثير من أرجاء البلاد ، واذن فلا داعى للمناقشة الآن فى مسألة لم تنته بعد، بل ما زال لها ذيول وتوابع، وسأطلب الى مجلس الوصاية وقف المجلس فترة ما حتى يستتب الامر ويستطيع المجلس أن يستأنف عمله فى جو هادىء مستقر . وكان هذا هو ختام الحياة البرلمانية فى انجلترا . .

وآويت الى بيتى ذلك المساء مبكرا وأخذت استمع الى الراديو الالمانى . واذا بالاذاعة الموسيقية توقف ، واذا بالمذيع يقول : « بلاغ رسمى هام موجه الى الشعب الالمانى . ان الحكومة البريطانية تواجه الآن صعابا جمة بسبب الفوضى التى تثيرها العصابات اليهودية فى كثير من أنحاء البلاد . وقد طلبت الحكومة الى الفوهرر المعونة ، طبقا للمادة السادسة من شروط معاهدة الصداقة والتحالف المعقودة بين ألمانيا وبريطانيا ، ولما كانت رسالة هتلر قائمة على اقامة السلام والنظام ، فقد قرر أن يرسل عددا محدودا من رجال البوليس الخاص الى بريطانيا ليعاونوا فى اعادة السلام الى تلك البلاد » . ثم أعاد المذيع القاء هذا البيان مرة أخرى ، فسمعته وأنا من فرط الدهشة أكاد أكذب أذنى

ولست أدرى عدد الالمانيين الذين هبطوا أرض بريطانيا فى ذلك اليوم ، ولكنى رأيت جماعة منهم فى كل ميدان ، وعلى رأس كل طريق ، وأمام كل دار من الدور العامة . .

ولم يكن عدد الالمان فى بريطانيا مقصورا على هؤلاء الجنود الذين نزلوها ، بل اتخذت السفارة الالمانية عمارة من أضخم عمائر لندن مقرا لها ، وملأتها بمئات من موظفيها . تدخل هذه السفارة فتجد قسما للشؤون الدبلوماسية ، وآخر للمسائل الاقتصادية ، وثالثا للصحافة والدعاية ، ورابعا لجوازات السفر ، وخامسا للملحق العسكرى وضباطه ، وسادسا للسكرتارية ، وأقساما أخرى كثيرة سميت بحروف وأرقام لا أدرى مدلولها . وفى كل من هذه الاقسام عشرات من الموظفين ، يتمتعون جميعا بالحصانة الدبلوماسية ، ان كان ثمة داع لان يتحصن الالمان فى بريطانيا بمثل هذا الستار . .

وكان رجال السفارة من خيرة الشباب النازي : أناقة زي ، ووسامة مظهر ، ولباقة حديث . شهدت ذلك في الحفلات الباذخة التي كانت تقيمها السفارة كثيرا

وفي احدى الحفلات سألت أحد هؤلاء الموظفين ، وكنت لمست فيه روحا طيبا وعقلا مستنيرا وجانبا من التشابه الفكري بينه وبين الرجل الاوربي الذي صقلته المدنية وانتفت منه روح الغابة ـ سألته ضاحكا : ماذا يفعل هذا الجيش اللجب من موظفي السفارة ؟ وكان الرجل أدرك ما أريد ، ولمح في قولي شيئا من الريبة في أمرهم ، فقال : لا تظن بنا سوءا ، وكل ما في الامر أن الفوهرر قد يزور انجلترا عما قريب . .

يا للخبر الصحفي العجيب ! كيف جاءني هكذا عن طريق الصدفة العارضة ، وفي زلة لسان يسيرة . ولا شك أنني فرحت كل الفرح حين سمعت هذا الخبر ، الذي ساكون أول صحفي يذيعه ، وستكون صحيفتي أسبق صحف العالم الى ذكره . ولكن فرحتي لم تدم طويلا ، فما لبثت أن تخيلت ذلك القلم الازرق الملعون ، قلم الرقيب الذي وضعته وزارة الخارجية في مكتب البرق ، وتخيلته وقد مر على هذا الخبر فحذفه ، وكبته في صدري كبتا أليما ، اذ ليس آلم للصحفي أن يعرف خبرا مهما ولا يدري سبيلا الى اذاعته في الناس

وجاء يوم زيارة هتلر . . ودعينا نحن الصحفيين فيمن دعوا من أهل بريطانيا لانتظار الفوهرر في ميناء بليموث . . هذه هي البارجة الالمانية شارنهورست يرتفع عليها لواء الصليب المعقوف تقبل في مياه المانش ، ومن حولها عدد من البوارج والمدمرات البريطانية التي سيرتها الامبرالية البريطانية لتحيي البارجة الالمانية وراكبها العظيم . وها هي مئات القوارب البخارية تغدو وتروح في الميناء ، وقد ارتفعت فوق أكثرها راية الصليب المعقوف اذ كانت تقل جماعات من الضباط والموظفين الالمان الذين كثر عددهم في لندن في الايام الاخيرة . . وها هي جماعات من الالمان والبريطانيين على رصيف الميناء ، أرى منهم رئيس الوزارة مستر ايفانز ، ووزير الخارجية والداخلية سير نيكر ، وزعيم القمصان باتريك روسي ، وسواهم وسواهم ممن كنت أرى وجوههم في حفلات السفارة الالمانية

ورست الباخرة في الميناء ، وأطلقت مدافع الشاطىء تحية واجلالا . . ها هو هتلر كما رأيناه في صوره . . ها هي خصلات شعره تتهدل على جبهته ، ها هو شاربه الصغير ملصوق تحت أنفه ، ها هي نظراته المرسلة الساهمة ، ها هي حركاته القلقة العنيفة . . وهبط سلم البارجة الفسيح ، ومن ورائه الكتلة الضخمة البادنة التي تسمى جورنج ، والهيئة العنيفة المتصلبة التي تسمى ريبنتروب ، والمونوكل الذي يخفي عنا خبيئة ماكرة هي عين الدكتور شاخت ، والقامة القصيرة والساق العرجاء اللتان يتألف منهما جوبلز !

وتقدم رئيس الوزارة وصافح هتلر وقدم له باسم الحكومة البريطانية شكرها على هذه الزيارة الكريمة . وكان وزير الخارجية أكثر مهارة من رئيسه حين صافح هتلر ، فقد كانت انحناءته عجيبة حقا . . وركب هتلر والى جانبه رئيس الوزراء ، وركب أصحاب

هتلر والى جانب كل منهم وزير انجليزى .. وسار الموكب تحفه جماعات من راكبى الموتوسيكلات وسط صفين من الجنود الالمان المدججين بالسلاح .. الى أين هذا كله ؟ عند هذا يقف القلم ألما وحسرة !.. الى قصر بكنجهام الذى أصر السفير الالمانى ـ كما علمت فيما بعد ـ أن يكون مقر الفوهرر فى أثناء زيارته ، وأن يكون علم الصليب المعقوف مرفوعا عليه مدة اقامته ..

لست أريد أن أصف تلك الايام التى أمضاها هتلر فى لندن . فانى لم أشهد شيئا من الحفلات التى أقيمت له هنا وهناك ، والتى كان أبهاها بطبيعة الحال الحفلة التى أقامها مجلس الوصاية على العرش . ولم أكن من الصحفيين الذين رافقوه فى زياراته . ولكنى ذهبت لسبب لا أدريه ـ لعلها غريزة الصحفى التى تنبه أحيانا على غير وعى منه أن ثمة خبرا هاما ـ الى الحفل الذى أقامته جماعة القمصان السوداء فى أحد الميادين . ذهبت الى هناك فى فوج الصحفيين ، فرأيت هذه الجماعات بقمصانها وشاراتها وأعلامها مصطفة وسط الميدان وفى جوانبه . ورأيت المنصات المعدة لكبار المدعوين ، وقد حفلت بجماعات من رجال « السيتى » وجماعات من سيدات المجتمع المحدثات . ورأيت المنصة العالية التى أعدت للضيف الكبير .. وكانت هناك موسيقات تصدح ، وجماعات تنشد الاناشيد ، وجماعات يتعالى هتافها . وفى وسط هؤلاء وهؤلاء كنت أرى وجوها كوجوه أولئك الموظفين الالمان الذين رأيتهم كثيرا فى مكاتب السفارة الالمانية . وظهر هتلر فى المنصة ، والى جانبه « كونت دى مرسيا » رئيس مجلس الوصاية على العرش . وساد صمت عميق وسكون شامل . كان الرجلان لا يتحركان ولا يتكلمان ، وكأنما كانا جالسين فى قفص الاتهام . وليس فى المنصة سواهما الا أربعة من الحراس النازيين مدججين بالسلاح . وبدأت جماعات القمصان السوداء تتحرك متجهة صوب المنصة .. لست أدرى ماذا وقع قبل أن تقع أبصارنا على شاب شاحب هزيل يجرى نحو المنصة مهرولا وفى يده مسدس يطلقه على هتلر ، فاذا به يهتز على مقعده ، ثم ينهض مترنحا ، ثم يسقط الى الارض ، ولست أدرى ماذا حدث بعد ذلك سوى أنى سمعت بضع طلقات من الرصاص تنطلق من أولئك الحراس الواقفين على المنصة ، فتردى ذلك الشاب الهزيل ، جثة هامدة محترقة بالنار

وقفت جماعات القمصان السوداء فى مكانها لا تتقدم ولا تتأخر . ووقف الناس على أقدامهم محتبسة أنفاسهم مشرئبة أعناقهم الى المنصة .. وكانت فترة من الذهول العجيب الذى ملك على الناس أبصارهم ومشاعرهم ، حتى غدوا لا يرون شيئا ولا يحسون شيئا . وخلت المنصة بضع دقائق ، ثم عادت فامتلأت بذلك البدن الضخم الفارع ، بجورنج ، الذى وقف أمام الميكرفون وقرأ بلغة انجليزية سقيمة ورقة فى يده ، فقال :

« لقد وقعت جريمة منكرة . لقد أريد اغتيال الفوهرر . ولا نعرف مدى الخطر الذى لحق بزعيمنا . ولكن كرامة الشعب الالمانى تقضى باتخاذ اجراء حازم يعادل الجريمة الشنعاء . ولا بد أن يثار الشعب الالمانى ، واعتقد ان الشعب البريطانى يقره على هذا ،

وقع هذا فى اليوم التاسع من شهر يوليو ، وهو يوم لن ينسى فى تاريخ بريطانيا أبدا ، فهو اليوم الذى بدأ فيه عهد الارهاب .. هو اليوم الذى أذاع فيه الراديو الالمانى على ملأ العالم ، أن الجريمة المنكرة التى وقعت فى قلب لندن بيد أحد أفراد العصابة اليهودية المجرمة ، دليل قاطع على أن العناصر اليهودية تعبث فى الحياة البريطانية عبثا خطيرا لم تستطع الحكومة البريطانية أن تتلافى آثامه وأوزاره ، اما عجزا منها واما تآمرا مع اليهود، واذ كانت رسالة الفوهرر أن ينقذ العالم من براثن اليهودية ، فقد قررت الحكومة الالمانية فرض الحماية على بريطانيا ، واقامة « قوميسير » ألمانى عليها ، ريثما يصفو الجو من سحابه

وفى اليوم التالى أبلغ مندوبو الصحف بأنهم مدعوون الى قصر بكنجهام فى الساعة العاشرة صباحا لامر خطير ، واجتمعنا فى احدى الردهات واجمين جامدين . ودخل الدكتور شولتز مندوب وكالة الانباء الالمانية فى لندن ، وأعلن أنه تقرر تعيين « جواشيم فون ريبنتروب » قوميسيرا على بريطانيا طوال مدة الحماية التى فرضتها الحكومة الالمانية ريثما يستقر الامر ويستتب النظام ، وأنه سيتخذ قصر بكنجهام مقرا له . ودخل ريبنتروب يعقبه ثلاثة رجال لم أرهم من قبل ، وان كان يبدو عليهم أنهم ليسوا بالالمان

كان ريبنتروب يبدو فى هيئة ملوك العهود الغابرة حين كان لا يتوقع الناس أن يبتسم الملوك . ونظر الينا جميعا نظرة جادة عابسة لا تميز بين أحد وآخر ، بين من لا يعرفهم وبين من كان يمازحهم حين كان لا يزال سفيرا لبلاده لدى بلاط سانت جيمس ، وفى الوقت نفسه تاجرا ومهربا للخمور ! ووقف ريبنتروب وألقى علينا هذا البيان :

« فى سبيل الشعب البريطانى ، وفى سبيل الانسانية جماء ، قرر الفوهرر — الذى حفظته العناية الالهية من ذلك الاعتداء اليهودى الآثم — أن يقضى على العصابة اليهودية التى تعبث فى بريطانيا فسادا . وذلك يقتضى فرض الحماية الالمانية على بريطانيا ريثما يتم تطهيرها ، وستحكم بريطانيا فى خلال هذه الفترة التى أرجو ألا تطول ، بمقتضى مراسيم يصدرها قوميسير الرايخ . وقد تفضل الفوهرر فعهد الى بهذه المهمة الشاقة ، التى أرجو أن تقدر الصحافة صعابها ومهامها . فيجب أن تعلموا ان مستقبل هذه البلاد لا يقوم على أساس المناقشات والمجادلات السياسية العقيمة ، بل سيكون تعبيرا عن ارادة الفوهرر ونواياه الطيبة قبل الشعب البريطانى . وعلى ذلك فان ضروب الحدس والتخمين التى كانت تلجأ اليها الصحافة ، وعلى الاخص الصحافة الاجنبية ، قد انتهى أمرها . فعلى مندوبى الصحف هنا وفى الخارج ألا يستقوا أية معلومات الا من مصادرها المقررة

«ومنذ يوم ٩ يوليو ، يوم الجريمة النكرة على حياة الفوهرر ، تقرر نقل جميع السلطات فى هذا البلد وفيما يتبعه من الممتلكات والمستعمرات فيما وراء البحار ، الى القوميسير الالمانى

« وسيعاد تجنيد القوات البريطانية التى سبق تسريحها . ولكنها ستدمج مؤقتا فى قوات الرايخ المسلحة . وستوضع جميع المدارس والمعاهد والجامعات ، وجميع شركات السكك الحديدية ، وكذلك المصارف ، وغيرها من المنشآت العامة فى ملكية الدولة ، يستوى فى

ذلك ما كان منها ملكا للافراد أو للهيئات أو للمجالس المحلية . على أن هذا لا يمنع دون استدعاء بعض مديريها للاشراف عليها وفقا لما تقرره السلطة الحاكمة

« وستبقى المحاكم البريطانية قائمة للفصل فى القضايا المدنية فحسب . أما القضايا الجنائية وكذلك المشاكل التى تنشأ بين رعايا الدولة الالمانية ورعايا الدولة البريطانية ، فتنظر أمام محاكم خاصة تخضع للقانون العسكرى . وسيباح لرجال البوليس الخاص حق تفتيش المنازل والمكاتب . وسيكون من حق الحكومة مصادرة ما ترى من الاملاك والاموال طبقا للصالح العام . وستطبق هذه المصادرة مبدئيا على أملاك رجال الحكومة السابقة ، فقد ثبت أنهم استغلوا فرصة الحرب فى جمع أموال وأرباح فاحشة على حساب الشعب البريطانى

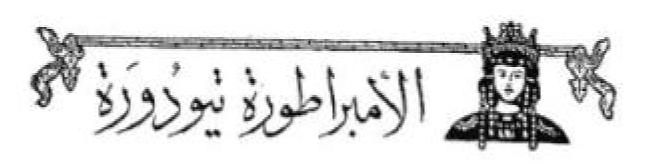
« وانى أرجو فى النهاية أن تكون هذه الاجراءات الحازمة مؤقتة بمدى قصير . وأرجو أن يأتى اليوم القريب الذى تتطهر فيه بريطانيا من اليهود ومن المشاغبين لتستأنف حياة التعاون مع الرايخ الالمانى ، فى سبيل نشر الحضارة النوردية »

وهم ريبنتروب بالانصراف ، ولكنه لمح من ورائه الرجال الثلاثة . فالتفت الينا ثانية وقال : « وقد تألف مجلس ثلاثى من هؤلاء السادة لمعاونتى فى هذه المهمة . ويسرنى أن أقدمهم لكم : مستر سميث ممثل أصحاب الاعمال ، ومستر تيرنر ممثل العمال ، ومستر نيوتون ممثل أصحاب المهن » . ثم انصرف ومن ورائه الرجال الثلاثة .. الثلاثة الذين صاروا يمثلون الشعب البريطانى الذى كان فى يوم ما سيدا رفيعا ، فلما سرت فيه روح الهزيمة ونزعة المصالحة ، لم يعد ثمة من يمثله سوى سميث ، وتيرنر ، ونيوتون !

فهل كان هناك ما يدعو صحفيا مثلى الى البقاء فى هذا البلد ؟ لقد جئتها لاوافى صحيفتى بالاخبار أستقيها من كل مصدر ، وأرويها بكل حرية ، وأعلق عليها بما يراه عقلى ويحسه ضميرى . أما الآن فقد تقرر ألا تذكر الا تلك الاخبار التى تمليها علينا «المصادر المقررة» أى تلك البلاغات الرسمية التى لا صلة لهـا بحقائق الامور ، ولا قيمة لهـا فى نظر الصحفى الصادق . ثم كيف السبيل الى الحياة فى هذا البلد الذى أخذ يعيش فى غمرة قاسية من حياة الارهاب ؟ وهل ثمة ما يعصمنى من معسكر الاعتقال الذى زج فيه من زج من قادة بريطانيا السابقين ، ومن كتابها ، وعلمائها ، وصحفييها ، وذوى الرأى فيها ؟ ألم يكن معسكر « جودالمنج » حيث يقيم فيه الآن فى غمرة من الآلم والحسرة أولئك الابطال السابقون ، ونستون تشرشل ، وانطونى ايدن ، ودف كوبر ، انذارا رهيبا لكل من تسول له نفسه أن يتحدث بعد اليوم عن الحق أو عن الحرية أو عن الكرامة ؟

اذن فلا معدى لى من أعود الى بلدى ، الى استراليا ، لعلى أستنشق ريح الحرية مرة أخرى ، فى ظلال ذلك البلد الذى مد يده الشابة الفتية الى يد امريكا القوية والعظيمة ، وعاهدها على أن يجاهد معها فى سبيل الحرية والكرامة ، فاما ظفرا بها وعاشا عيشة الكرام ، واما ماتا فى سبيلها موت الشهداء الابرار

تلخيص : عبد الحميد عبد الغنى



بقلم الأستاذ نقولا الحداد

حادث تاريخي عجيب

طفلة صغيرة في بيظنطيوم عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية في القرن السادس ، قذف بها الفقر والقدر الى حمأة التمثيل الهزل والتهتك فالدعارة فالفحش الفظيع . وما زالت تتقلب في لجج حوادث الدهر ، الى أن ارتقت الى العرش ، وشاركت زوجها الامبراطور في الحكم ، الى أن أصبحت الحاكمة المطلقة ، وفي ابان ثورة « نيقا » المشهورة ، أبت أن تهرب مع زوجها، بل بقيت في العرش حتى قمعت الثورة ..

فتنت الحكام والساسة والمفكرين بعقلها وحنكتها ودهائها وسياستها، وأخيرا في فضائلها ، كما فتنتهم بجمالها وسحر روحها الملائكية

هذه هي الامبراطورة تيودوره التي نقدم قصتها للقراء ..

\- ١ -

كان الامبراطور جستينوس Justinus أحد امبراطرة الامبراطورية الرومانية الشرقية . وكان عرشه في مدينة بيظنطيوم التي تسمى الآن استمبول

قبل أن كان جستينوس امبراطورا ، كان قائد الحرس الامبراطوري للامبراطور اناستاسيوس . وكان أميا وضعيف الارادة . فربى ابن أخيه جستنيان Justinian تربية حسنة ، ومنحه ثقافة عالية لكي يستعين به في الحكم ، لانه لم يرزق ولدا . وكانت زوجته يوفيميا Euphemia من عامة الناس . ولانها كانت عقيما ، لم تمل لجستنيان كثيرا غيرة منه

في ذات يوم، قالت الامبراطورة يوفيميا لزوجها الامبراطور : انى قلقة بسبب تصرفات

جستنيان الذى ربيته وعلمته كثيرا ، تأهيلا له لمشاركتك فى الحكم ، وللعرش أخيرا .

فقال الامبراطور : ماذا بدا منه ؟

ـ أما بلغ اليك أنه يعشق الآن امرأة عامية . ونحن نود أن نحافظ على مجد العرش

فضحك الامبراطور وقال : أنسيت يا يوفيميا أنك فلاحة الاصل ، وأنا كنت جنديا ؟

ـ لم أنس . ولكننا نحن حفظنا للعرش مجده وللملك أبهته . .

ـ وأظن جستنيان يستطيع ذلك يا عزيزتى . ولكن هل ينوى هو أن يتزوجها ؟

ـ أعرف أنه اذا تمادى فى عشرتها أصبحت خليلة له ، وأخيرا تصبح حليلة . واذا ظهر بعدئذ أن فيها عيوبا لا يمكن سترها ، فكيف نقى العرش من الهوان ؟

ـ لا توجسى من شىء . ان جستنيان لا يخرج من طاعتى . سأبحث معه فى هذا الشأن

اجتمع الامبراطور جوستينوس بابن أخيه الأمير جستنيان ، وسأله باسما :

ـ من هذه الغزالة التى تصيدت قلبك يا عزيزى جستنيان ؟

ـ هى فتاة من الشعب يا عماه ، جميلة حيية تقية، رأيتها خارجة من الكنيسة، واكتشفت أنها حائكة فى بيتها ، تعيش بخوف الله من عمل يديها . .

فتململ الامبراطور وقال : أليس الافضل يا بنى أن تنتقى لك زوجة من الاشراف لكيلا تعرض سمعتك لمضغة أفواه الناس وسلطان العرش للابتذال ؟

فقال جستنيان : ان سلطان الحب يا سيدى أقوى من سلطان العرش . فاذا اجتمع السلطانان استقوى الثانى بالاول . وقد قدمت يا مولاى البرهان على هذا بزواجك . هل كانت مولاتى الامبراطورة من رتبة الاشراف ؟

فتبرم الامبراطور اذ أفحمه ابن أخيه وقال :

ـ أرجو يا ابنى ألا تتمادى بحب هذه الفتاة الوضيعة قبل أن تتحقق ماضى حياتها ، وتتأكد أنه خلو من العيوب التى تحول قانونا دون زواجك منها . على أى حال ، أود أن تقاوم عنفوان شهواتك، وتصرف نظرك عن هذه الفتاة الوضيعة الى ابنة أحد الاشراف، كرئيس الحكومة أو وزير العدل أو رئيس الشيوخ . سنعقد حفلة فى القصر ، وندعو لها أسرات رجال الدولة وأشرافها ، لعلك تجد بينها الضالة المنشودة . .

وبسط الامبراطور يده، فتناولها جستنيان وقبلها باحترام،ومضى متألم النفس والقلب. وقد عرف من أين جاءت الضربة المؤلمة . .

***

عقدت الحفلة الموعودة . وحضرتها الاسرات الشريفة ، وتجلى جمال الاوانس فيها ، وانطلقت السهام الصائبة من العيون الساحرة ، ولكن لم يكن بينها سهم من سهام كيوبيد. ففشل مسعى جستينوس ويوفيميا

بعد الحفلة قال جستنيان لعمه الامبراطور : آتأسف أن أقول لجلالتك يا عماه أن تلك

السهام التي أعددت لم يصب سهم منها فؤادي ، ولا اقتلع السهم الذي اختاره الله لقلبي .
الفتاة تيودوره الحائكة هي منحة الله لي ، فأرجو ألا تحرمني هذه المنحة
وكانت الامبراطورة حاضرة فقالت : هل أنت واثق أنه ليس لهذه الفتاة ماض مشين ؟
ــ ليس لها ماض الا أنها فتاة وضيعة الاصل ، ولكن الضعة لا تعيب الشخص اذا كانت أخلاقه شريفة . فالفتاة لا عيب في شخصيتها ..
ــ أما كان أحرى بك أن تنتقي فتاة من هؤلاء الفتيات الشريفات اللواتي ظهرن في الحفلة كالاقمار ، ومزاياهن الحميدة ساطعة كضوء النهار ؟! ..
ــ لا أحسب تيودوره فتاتي دونهن شرفا . فهي وهن في دولة الاخلاق سواء . اذا قدمت لك وردتان ، أيمكنك أن تعرفي أيتهما من الحديقة الامبراطورية وأيتهما من الحقل البرى ؟ ..
ــ أجل . يمكنني أن أشم في تلك رائحة زكية عطرة ، وفي الاخرى سماد الحقل ..
ــ بل بالعكس يا مولاتي . بتلك تنشقين رائحة سماد الحديقة . وبالاخرى تشمين نسيم الطبيعة النقي . ان وساخة السباخ في الحديقة . وفساد الحياة في قصور الاشراف . في بساطة حياة الغوغاء نقاوة النفس والجسد
فقالت الامبراطورة متبرمة : اذن يجب أن تشق الستر وترى ما دونه من صلاح أو فساد . مهلا سأريك غرورك وغش فتاتك لعلك ترعوى ..
ــ اني في سن النضوج يا سيدتي الامبراطورة . فلا أنخدع بغش فتاة
ــ واذا ظهر فيها ما يحرمه القانون الارستوقراطي ..
ــ أتخلى عن ارستوقراطيتي وأعود الى العامية التي منها نشأت ارستوقراطية الاشراف
فقال الامبراطور منفعلا : لا . لا . يا جستنيان انك غصن في الدوحة الامبراطورية ، فلا أدعك تنقطع منها بتاتا . ليس لي غيرك حافظا للعرش في حياتي وبعد وفاتي ..
فقالت الامبراطورة: اذن يجب يا سيدي أن تمنع الحب أن يهصر هذا الغصن من الدوحة
وبعد أن فكر الامبراطور قليلا قال : أظن أن خير الوسائل أن نلجأ أخيرا الى مجلس الدولة الاعلى ، وتستفتيه في الامر اذا أعضل علينا . اتركاني أفكر .

ــ ٢ ــ

ما انقضت أسابيع حتى أصبحت الحالة حرجة والعقدة معضلة . اشتد جستنيان تعلقا بتيودورة . وصار اذا خير بينها وبين العرش ، فضلها عليه ، ونبذ العرش ، والامبراطورة ما زالت مصرة على قطع الصلة بين العاشقين . والا فلا كبير ضرر في ترك العرش الى رحمة المقادير ، لانه يصعب جدا عليها أن ترتقي الى جنبها امرأة عامية ، وتحل محلها بعدها
والامبراطور في ابان ارتباكه أتته يوفيميا بخبر مفاجىء زاده حيرة وارتباكا ، وقالت :
ــ لقد اكتشفت يا سيدي العزيز أن فتاة جستنيان المسماة تيودوره ابتدأت حياتها منذ

الحداثة بالتمثيل فى الهيبودروم (ملعب الخيل والحيوانات المختلفة والهزليات) ومن ثم استرسلت فى الدعارة والفجور . وتنقلت بين الغرب والشرق فى هذه الحرفة الوسخة ولذلك يستحيل عليك أن توافق على علاقة جستنيان بها ، لان قانون الدولة يحظر أن ترتقى الى قمة الدولة ممثلة . فكيف ترتقى اليها عاهرة ؟! . .

فبهت الامبراطور بهذا الخبر ، وقال : هل أنت واثقة من صحة هذا القول ؟

ــ كل الثقة لانى أقمت بعض العسس يتسقطون أخبار ماضى هذه الفتاة سرا . فأبلغنى كل منهم أخبارا فظيعة عن سيرتها الدنسة . وكلفت أحدهم أن يؤلف من تقاريرهم تقريرا عاما شاملا . وسأقرأه عليك وترى . .

ــ ندعو جستنيان ونطلعه على التقرير فلا بد أن يرعوى . .

ــ لقد أصبح جستنيان مختمرا بحبه للفتاة ، والحب يعمى ويصم . والغرض مرض . فلا يصدق تهمة لملاكه الشيطانى . فمن العبث مباحثته بهذا الشأن . الافضل أن نعقد مجلس الدولة الاعلى للاطلاع على التقرير واصدار حكمه فى هذه المشكلة

ففكر الامبراطور هنيهة ثم قال : هنا أمر لا بد من اعتباره يا عزيزتى . هل عندك شهود وبينات وأدلة تؤيد التقرير ؟ ألا يمكن أن يحتج جستنيان بأن التهم ملفقة ؟

ــ لا بد أن يصدر التقرير مشفوعا بالبينات ، ومتى سمعنا الاحتجاج سعينا الى البينات . لذلك لا أود أن يطلع جستنيان على التقرير أولا ، بل أود أن يفاجأ به وهو فى حضرة المجلس ، فيكون وقعه عليه شديدا ، وحكم المجلس يفحمه ويقنعه

***

انعقد المجلس من نخبة رجال الدولة : الامبراطور والامبراطورة ، ورئيس الحكومة ورئيس الشيوخ ووزير العدل ووزير المال والمطران اكليمندوس الذى كان اسمه العلمانى اريوبندوس Aeriobindus وهو نائب البطرك . وحضر جستنيان المجلس أيضا

فقال الامبراطور : أيها السادة لدينا قضية ذات شأن ، تقتضى مصلحة الدولة والامة أن يكون حكمكم فيها حرا صادقا حكيما . ان ابن أخى الامير جستنيان الذى تعلمون عطفى عليه ومحبتى له وآمالى فيه ، أصبح يهوى فتاة عامية لا تليق أن تكون نسيبة للسيادة الامبراطورية ، أولا : لوضاعتها الاجتماعية . وثانيا : لسوء سيرتها السابقة . ولاقناع الامير بأن مقامه ومصلحته يقضيان عليه بالتخلى عنها ، نتلو عليكم تقريرا صادقا عن حياة تلك الفتاة لكى تحكموا فى الامر ، ولى الامل أن الامير جستنيان متى اطلع على هذا التقرير ، ينبذ الفتاة من تلقاء نفسه من غير أن يكلفكم اصدار حكم

فقال الامير جستنيان : قد تمكن كتابة تقرير ضد كل شخص حتى ضد فخامة الوزير وقداسة البطرك . فالعبرة بالاثبات لا بتصنيف التقارير . .

فقال وزير العدل : حقا ما تقول يا سمو الامير . فلنسمع التقرير أولا ، فلعل التقرير

يؤيد نفسه بنفسه ، والا فنطلب الأثبات

فقال الامير : اذن . الفتاة الآن فى موقف اتهام خطير . فلا يجوز اتهامها والحكم عليها من غير تحقيق معها . هل حقق أحد معها ؟

فقالت الامبراطورة : لا تتنازل أن نكون فى موقف الخصومة مع فاجرة . نحن لا نحاكم الفتاة ولا نحكم عليها أى حكم . وانما نحن عليك نحكم ، ونوجب عليك بحق شرف الدولة وكرامتها ، وبحق مقام السيادة الامبراطورية أن تتركها بتاتا . .

فقال المطران اكليمندوس : اسمحى لى يا صاحبة الجلالة أن أقول بصراحة ان هذا المنطق القانونى غير سديد . هنا امرأة متهمة ، وشخص آخر غير متهم سيحكم عليه

فقالت الامبراطورة : نعم يحكم على شخص غير متهم بسبب صلته بامرأة متهمة . .

فقال المطران : لا بأس بهذا المنطق . ولكن الاتهام يقتضى أن يكون المتهم حاضرا ليسمع الشكوى ضده لعل له دفاعا عن نفسه . فاسمحوا لى أن أقترح استحضار الفتاة الى هنا لكى تسمع تهمتها . .

فقال وزير العدل : هذا حق أوافق عليه . .

فأدار الامبراطور نظره فى سائر الاعضاء كأنه يسألهم . فتصدت الامبراطورة وقالت :

ـ انى آنف أن تحضر الزانية للدفاع عن نفسها ، لاننا لا نقصد هنا أن نحاكمها .

فقال الامير جستنيان : عجبا تريدين يا مولاتى أن تحكمى علىّ بسبب تهم لا تسمحين بدفعها . فأين العدالة فى محاكمة كهذه ؟ ان دفاع الفتاة عن نفسها انما هو دفاع عنى اذا كان سيحكم علىّ بسبب علاقتى بها . واذن فحكمكم جائر لا يوافق عليه جلالة الامبراطور يجب أن تحضر الفتاة لكى تسمع الشكاوى ضدها ويسمح لها بالدفاع . .

فقال الامبراطور : هذا حق لا مراء فيه . يجب أن تحضر الفتاة ديتوتها . .

فأمن جميع الاعضاء على قول الامبراطور . وقال الامبراطور : هل يمكن احضارها حالا ؟

فقال الامير : هى الآن فى بهو الاستراحة الخارجى تنتظر ديتوتها . فنستدعيها

***

وكان الاعضاء يتهامسون عند ما دخل الحارس يقول : الفتاة يا صاحبى الجلالة

واسترعى أبصارهم شبح ملائكى أقبل من الباب وتقدم خطوتين وسجد واعتدل

وفى الحال تقدم المطران اليها وقال : انظرى فىّ يا فتاة

فالتفت اليه . فحملق فيها ثم قال : أما كنت منذ سنتين فى انطاكية ؟

ـ نعم كنت هناك

ـ انظرى فىّ . هل تذكرين أنك رأيتنى هناك ؟

ـ لن أنسى يا سيدى الموقر . .

وعاد المطران الى موضعه وهو لا يزال مدهوشا

فقالت الامبراطورة : اذن توقفنا الى شاهد صادق شهادته مقدسة

***

تيودوره فتاة فى نحو الرابعة والعشرين من العمر . رقيقة البدن دون معدل الابدان النسوية . متناسبة الطول والعرض ، معتدلة القوام . فى ثوب كتانى أبيض بسيط أنيق . وفى محياها جمال الوداعة الانسانية المتناهية فى البهاء . وفى مقلتيها جاذبية محسوسة تهتز لها عواطف نظارها . ما ان امتثلت حتى قرعت نواقيس القلوب فى الصدور . وقال الامبراطور بصوت خافت سمعته الامبراطورة ومن كان الى جنبها : « معذور جستنيان »

وكان جستنيان قد وقف أيضا . ثم أشار الى تيودوره والى كرسى وراءها . ثم انحنى لدى الامبراطور وقال : أتأذن يا صاحب الجلالة ؟

وقبل أن يأذن جلالته لها بالجلوس قالت الامبراطورة بنزق :

ــ ماذا تقول يا أمير ! أتريد أن تجلس مع الاشراف زانية متهمة ؟ لا . لن تجلس . الا تعلمين يا هذه فى حضرة من أنت ؟ اركعى . .

فركعت تيودوره صامتة مغضية البصر . ثم ناولت الامبراطورة رئيس الدولة قرطاسا عريضا وقالت : تفضل يا فخامة الرئيس اقرأ علينا هذا التقرير . .

ــ ٣ ــ

شرع الرئيس يقرأ والآذان مرهفة ، ولكن الابصار محدقة بالفتاة الجانية المغضية بصرها وأشعة البهاء تسطع من وجهها الطافح بشاشة على الرغم من رهبة المقام . . قرأ :

« كان منذ نحو ٢٤ سنة شخص يدعى أكاكيوس يقطن فى هذه العاصمة بيظنطيوم فى مدة حكم الامبراطور اناستاسيوس . وكان موظفا بوظيفة رعاية الحيوانات التى تعرض ألعابها فى ملعب الهيبودروم . فلما مات ترك أرملة وثلاث بنات هن كومتيو وتيودوره وأناستاسيا . وكانت كبراهن أناستاسيا فى السابعة من العمر . وكان للام الارملة ــ وهى قبرصية المولد ــ عاشق رامت أن يخلف زوجها فى الوظيفة لكى يستطيع الانفاق على بناتها . ولكن مدير الملعب أبى عليها ذلك . فما كان منها الا أن عرضت بناتها الثلاث لدى الجمهور المجتمع فى الهيبودروم لكى تستعطفه على حالتها وتثيره ضد مدير الملعب عسى أن يرضخ لطلبها . فنجحت حيلتها . وكانت تيودوره هذه فى الخامسة من العمر

« ولما صارت أناستاسيا ناهدا ألقتها أمها فى المسرح لكى تلعب الالعاب الهزلية الصامتة (بنتوميم) ومعها أختها تيودوره التى كانت فى ثوب قصير وأردان قصيرة أيضا . وما لبثت أناستاسيا أن صارت مومسا بحكم وظيفتها . وبقيت تصطحب أختها تيودوره فى مواطن خلاعتها ودعارتها . ولما كان الرجال يزورون أناستاسيا فى مخدعها فيما وراء الملعب ، كانت تيودوره تبقى فى الرحبة يداعبها عبيد أولئك الاسياد »

وهنا أشارت الامبراطورة الى الوزير أن يتوقف عن القراءة ، ووجهت الخطاب الى

تيودوره : ماذا تقولين يا فتاة فى هذا البيان ؟ هل كان ما سمعته حقيقيا ؟

فأجابت تيودوره على الفور بلا تردد ولا رهبة : نعم هو حقيقى بلا مبالغة . .

فبهت جميع رجال المجلس . واضطرب جستنيان مدهوشا وهمس : هل أنت خائفة أن تنكرى التهم الملفقة يا تيودوره ؟

فقالت بصوت مسموع : كلا . التهم غير ملفقة . .

فازداد جستنيان اضطرابا واحتدم غضبا ولم يعد يدرى ماذا يفعل . أيلطم تيودوره على خديها أم يخرج من المجلس مخزيا . تجلد وصبر . وعاد الوزير يقرأ :

« ولما صارت تيودوره كاعبا شرعت تظهر فى الملعب ممثلة رسمية كأختها . وما لبثت أن صارت مومسا أيضا . ولكن دعارتها أنها تذهب حيث تطلب . كانت حاذقة ذكية مجونية هزلية تضحك وتعجب . ولكنها لم تكن تعزف على آلة موسيقية ولا كانت بارعة فى الرقص وانما كانت تشترك مع الممثلين الهزليين فى تمثيلهم . وكانت تحسن اللعب على صهوات الخيل . ولم تستنكف أن تجلد جلدا يقتضيه التمثيل ، وأن تقبل القبلات المقرقعة المسموعة »

وعند ذلك قاطعت الامبراطورة القراءة قائلة : وهذا البيان ؟ أصادق يا فتاة ؟ أم فيه افتراء عليك ؟

فأجابت تيودوره : فيه كل الصدق يا ذات الجلالة وليس فيه افتراء . .

وعاد الوزير يقرأ :

« ونالت تيودوره حظوة عظيمة عند الرجال الشهوانيين ، فكانوا يتهافتون اليهـا ، ويسعون وراءها متنازعين رضاءها . فالابتسامة التى تفصح عن سطرين من الدر فى ثغرها والحركة الخليعة من بدنها العبل كانتا تثيران شبق الشبان . ولم يقع فى حبائل خلاعتها الفتيان فقط ، بل كانت خلاعتها تستهوى الكهول حتى الشيوخ والأحداث

« وكان القانون يوجب أن تمنطق حقويها بمنطقة لستر عورتها اذا لم يكن بد من أن تظهر على المسرح عارية . على أنها استنبطت طريقة تلذ للجمهور ، وهى أنها كانت تلصق على بدنها حبوب الحنطة،وتعرضه للاوز لتنقرها عن بدنها بأساليب تعجب المشاهدين»

وقالت الامبراطورة : أحقيقى أنك كنت تفعلين هكذا ؟

— نعم . نعم . .

ثم استمر الوزير يقرأ :

« وأخيرا عشقها هيكيبولس الصورى (من صور) فاصطحبها الى بانتابولس فى ليبيا فى شمالى افريقيا حيث تعين حاكما . ويقال انها كانت تمثل له خلاعات يستحى من ذكرها هنا . فتضرب عنها صفحا . ثم تخاصما فطردها وهجرته الى الاسكندرية . وهناك كانت مضطرة ان تسترزق فى الشوارع » .

فقالت الامبراطورة : قد منك نجسة دنسة . ألا تحاولين أن تبرئى نفسك من هذه التهم؟

فأجابت تيودوره : لا أكذب ولا أنكر الحقيقة يا مولاتى .

واستمر الوزير يقرأ :

« وكانت ابان ذهبت تعرف أنها تيودورة الفاحشة . وكان أفاضل الناس يتحاشونها مخافة أن تدنس سمعتهم بها كأنهم يتحاشون وباء . وكانت تنتقل من بلد الى بلد فى الشرق وهى تحمل معها سمعتها الدنسة . فكان الناس يهربون من طريقها، الى أن وصلت الى انطاكية . وهناك فى خلال عرض بضاعتها والترويج لها حاولت أن تستغوى قديسا من رجال الله فى الصحراء »

فصاحت الامبراطورة : ويحك يا فاجرة . ألى هذا الحد بلغت منك القحة

واستمر الوزير يقرأ :

« ولكنها لم تنجح فى اصطياد ذلك التقى الورع ، فعادت الى بيظنطيوم منهوكة من التمادى بفحشها » انتهى تاريخ ماضى الفتاة المسماة تيودوره الزانية »

وهنا قالت الامبراطورة : هل سمعت تاريخ حياتك أيتها الفتاة الساقطة ؟..

فقالت تيودوره بصوت عال واضح : نعم سمعت . ولكن ما سمعته ليس كل تاريخ حياتى الماضية يا سيدتى ..

ـ ماذا بعد هذا ؟ هل لفجورك بقية مكتومة . فافصحى عنها ما دمت لا تخجلين منها ..

ـ لقد سرك يا ذات الجلالة أنك وقفت الى شاهد عيان صادق وشهادته حق . فأرجو من جلالتك أن تأمريه بأن يسرد بقية التاريخ الذى لم يشمله هذا التقرير . أرجو من نيافتك يا سيدى المطران الموقر أن تقول الصدق الذى تصدقه جلالتها ، كيف رحلت أنا من انطاكية وعدت الى بيظنطيوم (١)

ـ ٤ ـ

لم يفه الامبراطور ورجال الدولة ببنت شفة فيما كانوا مصغين الى هذا التقرير المدهش، اذ كانوا ذاهلين لما فيه من فظاعة دعارة الفتاة ورجسها ومن جرأتها فى الموافقة على نص التقرير من غير اطراق ولا تهيب ، كأنها كانت تسمع تقريظا لسلوكها وثناء على تصرفها . وأما جستينيان فكان رأسه لا يزال بين كفيه ، ومرفقاه على ركبتيه كأنه كان يذوب خجلا . وأما الامبراطورة فكانت رافعة رأس الانتصار ، وهى تنظر الى جستينيان وفتاته باحتقار

ولكن لما طلبت تيودوره الى المطران اكليمندوس بشدة أن يتمم تاريخ حياتها بما يعلمه تغيرت الاوضاع وارتفعت الرؤوس ، واتجهت الانظار الى سيادة المطران . ماذا يمكن أن يقول المطران . وقد عرفوا منذ دخول الفتاة الى المجلس أنه عرفها يوم كانت فى انطاكية . وسدد جستينيان نظره الى المطران ماذا عسى أن يقول ..

(١) هذا التقرير الذى قرأه الوزير مأخوذ من كتاب « النساء الفاتنات » Facinating women من فصل الامبراطورة تيودوره طبق الاصل وهو الفصل الاول من الكتاب . وقد أدخل عليه كلام الامبراطورة وتيودوره ادخالا يقتضى الفن الروائى

وقف سيادة المطران وقال :

ـ قبل أن أجيء الى بيلنطيوم بدعوة من غبطة سيدى البطريرك جراسيموس كنت فى انطاكية . وكان سيدى بطريرك انطاكية قد ألف لجنة اكليريكية للعمل فى تطهير الابرشية من الدعارة بواسطة الوعظ والارشاد وحث النفوس على التوبة واحياء الضمائر

واسترسل المطران يقول : فى ذلك الحين انتشرت رائحة نتنة من اشاعة راجت سريعا ، وهى أن فتاة بيلنطية وفدت الى انطاكية بأرخص بضاعة من الدعارة والفحشاء . هى هذه الفتاة . فاستدعاها غبطة البطريرك ، وهى تظن أنها ستجد صيدا سمينا فى داره . فأقبلت عليه فى دلال لم ير مثله فى حياته ، ولا كان يخطر له أن بضاعة الدعارة تعرض هذا العرض فى الدنيا . على أن غبطته استنجد بنعمة الله لطرد الشيطان من قلب هذه الشقية . واستغاث بالروح القدس حتى تغلب على فجور هذه الفتاة المتهتكة التى لم تكن تظن أن فى العالم شيئا يقال له عفة أو طهارة

« ولكن شيطان الدنس خزى ، وحل محله نعمة الروح القدس فى قلب هذه المرأة التائبة . فسلمها البطريرك الىّ لكى أستمر فى وعظها وارشادها وتعليمها التعاليم المسيحية . فواظبت على ذلك حتى تبينت أنها تائبة حقيقة وصدقا لا مكرا . وتغيرت تغيرا تاما كأنها ولدت ولادة جديدة . لم تعد تلك الفتاة الفاجرة . .

« بعد عدة أسابيع اختفت من انطاكية فجأة . فخفت أن تكون قد هجرت المدينة الى بلد آخر لكى تعود الى دعارتها السابقة . فبحثت عنها فى كل ناحية الى أن علمت أنها هاجرت الى الغرب فى سفينة مرت بالمرفأ مصادفة . بعد ذلك لم أعد أعرف عنها شيئا . والآن أول مرة أراها بعد ذلك العهد . . . »

فقالت الامبراطورة : هل وثقت يا سيادة المطران من توبتها ؟

ـ وثقت كل الوثوق لانى كنت أراها كل يوم . ولم أعد أرى منها زيغا عن الصواب والعفة والطهارة . ولكى تستطيع أن تعيش سلمتها الى امرأة تغزل الخيوط وتحوك الغزل عسى أن تتعلم منها هذه الصناعة وتستعين بها على التعيش . وكانت المرأة مرتاحة الى عشرتها والى تقواها والى عملها . .

ـ من يدرى ماذا كان سلوكها هنا بعد رجوعها ؟

فقالت تيودورة على الفور : يدريه القسيس راعى كنيستنا حيث أقطن الى جنب داره

فقالت الامبراطورة : ان توبة عامين ان كانت صادقة لا تطرح فى البحر جبال الآثام التى تجمعت فى خمسة عشر عاما . كل دم المسيح لا يستطيع أن يطهرها من أدناسها . .

فقالت الفتاة : ان دم يسوع يا ذات الجلالة يطهر الاكوان كلها ان كانت كلها جبال آثام وبحار أدناس . .

ـ لا يهمنا طهرت أو لم تطهرى . ان هذا التقرير الذى هو سجل آثامك ، وقد زكيته بصراحة وبلا مراوغة بل بكل تأكيد ـ هذا التقرير لا يمحى من سجلات الامبراطورية .

والقانون الامبراطوری لا یغتفره . ولا یجیز اتصال فتاة مثلك سجلت على نفسها دعارتها بأمير محبوب للامبراطور . فأنت فى عرف هذا القانون أثيمة وخطاياك غير مغفورة . تستحقين الرجم لو كان الرجم فى قانوننا عقوبة للزانية . .

فانتفض جستنيان ووقف قائلا بصوت جهورى شديد : من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بنبل لا بحجر . .

فقالت الامبراطورة : ويك . لك أن تجعلها خليلة لك ، ولا يمكن أن تكون لك زوجة

فصاحت تيودوره : أتدفعيننى يا صاحبة الجلالة الى الزنا ثانية بعد أن تبت الى الله . لا أقبل أن أكون خليلة حتى ولا لملك . ان الله قد قبل توبتى فلن أخطىء بعد . أليس كذلك يا سيدى المطران ؟

فقال المطران : بلا شك . ان الله قبل توبتك وأعانك على تطهير نفسك يا بنيتى . .

ـ اذن . لا يهمنى أن تدينونى هنا الآن وأن تأبوا على توبتى . .

فقالت الامبراطورة ساخطة : توبتك لنفسك . وانما للامبراطورية ليست شيئا . كنت عاهرة فاجرة . ولا تزالين فى عرف الدولة كذلك . فلا يمكن أن يقبل اقترابك الى القصر

حينئذ وقفت تيودوره وقالت بحدة وبصوت عال غير موقرة المجلس :

ـ لا . لم أفهم . ولا أفهم من أقامكم ديانين للناس على آثامهم الشخصية . الدينونة لله وحده . فلا أعبأ بحكمكم . اذا كان لكم حق بدينونتى فلماذا لم تدينونى أيام كنت أخطىء ؟ وبأى حق تدينوننى الآن وأنا تائبة . .

وفيما كانت تتكلم كانت الامبراطورة تصيح بها : اركعى يا دنسة . اسجدى لهيئة الدولة . .

فصاحت تيودوره : للرب الهى وحده أسجد واياه وحده أعبد . ان هيئتكم هذه الجائرة مفتئتة على قضاء الله . لانكم تحكمون بالظلم فيما يحكم الله بالرحمة والمغفرة ، هل أنتم أعدل من الله أو أعرف منه بطهارة القلوب . كفى يا جلالة الامبراطورة عتوا وتمردا على شريعة الله . تجرمين من غفر الله لها وأعانها على التوبة . أتريدين أن تخلعى الله عن كرسى قضائه وتجلسى مكانه ؟

فصاحت بها الامبراطورة من شدة الغضب : صمتا يا فاجرة . ما نقصك الا أن تؤنبينى . قلت لك اركعى ، فاركعى والا . .

فارتمت تيودوره الى ما بين ذراعى المطران وهو لا يزال واقفا يضطرب من هذا النقاش الحاد الذى كان الحق فيه فى جانب الضعيفة وصاحت باكية :

ـ بربك يا سيدى المطران الموقر . خذنى الى الدير حيث أقف لدى الديان العادل . .

فقالت الامبراطورة مقاطعة : صمتا يا حشرة نجسة . تريدين ان تجعلى الدير ماخورا

فقال الامبراطور متجهما : حلما وتؤدة يا جلالة الامبراطورة . أرجو أن تدعى فرصة

لسائر رجال الدولة أن يتكلموا . وللفتاة الحق فى الدفاع عن نفسها . فلا أراها تشذ عن الصواب الا اذا أحرجتها . .

وما زالت الفتاة مسندة رأسها الى صدر المطران وهى تقول :

ـ نعم يا سيدى يا لسان الله ، خذنى الى الدير ، واعقد محكمة من رجال الكنيسة لكى يحاكمونى . وانقذنى من هذه المحكمة التى تنقض حكم الله . الله سامحنى . وهذه المحكمة تصب علىّ جام غضبها . .

وطفقت تدفع المطران لكى يخرج بها وهى تقول :

ـ الى الدير يا سيدى الى الدير ، حيث يحمينى مخلصى من هذه المحكمة التى تقتل بعدلها روح الرحمة . هناك اتمتع برحمة الله وبنعمته وبرضاه . هناك أبتعد عن مظالم هذا العالم وجور أنظمته . الى الدير . .

وتقدم اليها جستينيان وهو منفعل شديد الانفعال وصاح مشيرا الى صدره :

ـ هنا ديرك يا تيودوره . هنا تجدين نعمة الله التى غفرت لك . .

وأخذها بيده وجذبها وهى تقول : لا. لا. الى الدير . أكون فى حماية الكنيسة . .

عند ذلك قال المطران: أيسمح سيدى صاحب الجلالة وسيدتى صاحبة الجلالة ان أخرج من هذه الثورة النفسية ريثما تهدأ ؟ . .

نظر الامبراطور الى رجال الدولة كأنه يستشيرهم . فقال رئيس الشيوخ :

ـ حقا ان هذا المجلس أضحى مثار غضب الانفس . فلا نستطيع النقاش فيه . فيحسن اذن أن يأذن جلالة الامبراطور بانصراف سيادة المطران واصطحاب الفتاة الى حيث تشاء

فقال جلالته : أود أن أعلم رأى نيافة المطران قبل أن يخرج . .

فقال المطران : ماذا أقول يا مولاى والجو قد أصبح عاصفا . وميزان العقل اضطرب . أرى أن الحق فى جانب الضعيف، لهذه الهيئة الموقرة الاهلية التامة ان تضع الحق فى نصابه . ولمولاى أن يعتمد على حكمها العادل. تعالى يا فتاة الى الدير حيث تغمرك رحمة الله ومغفرته

وفيما هما خارجان وجستينيان معهما قال المطران همسا :

ـ أين عزة الملك ومجده وكرامته يصد هذه الامبراطورة عن هذا الابتذال فى الجدال

فقال جستنيان : أما هى فلاحة فى الاصل والشىء يعود الى أصله ؟

ـ ٥ ـ

وساد الصمت المجلس كالجو يسكن بعد انقضاء العاصفة . وأسندت الامبراطورة ظهرها الى كرسيها الفخم واهية القوى . والامبراطور ما زال فى وجومه الى أن قال :

ـ أظن أن المشكلة أهون مما ظننا . وأظن أن الفتاة نفسها قد حلتها بالذهاب الى الدير

فقالت الامبراطورة وهى تقشعر تأثرا : ألا ترى يا صاحب الجلالة أن الامير جستينيان سيخلق مشكلة ثانية . أما سمعته يقول للفتاة : « هنا ديرك » أى فى صدره . فليست هى

التي تثير شجونه الآن ، بل هو الذي يثير مطامعها . لذلك يجب اصدار حكم بفصلهما

فقال وزير العدل : حسب قانون الدولة الذي يمنع اقامة زيجة بين أمير من أهل البلاط وبين ممثلة ، أصبح الحكم معلوما وليس فيه لبس . فالاحرى أن يفصل بينهما

فقال رئيس الشيوخ : أجل الحكم معلوم ، ولكن ماذا تكون قيمته اذا أبى سمو الامير أن ينفصل عن الفتاة ؟

فقالت الامبراطورة : لا أفهم ما الذي فى هذه المرأة الساقطة يغرى الامير ؟

فقال رئيس الوزارة : هذا سؤال يصعب جدا الجواب عليه يا جلالة الامبراطورة ولكن يسهل جدا لو كنت أنت الامير نفسه ساعة من الزمن لانك حينئذ تنظرين بعين الرجل وتحسين بقلب الرجل ..

وكان رجال الدولة يتغامزون مبتسمين ، فكادت الامبراطورة تنشق غيرة وغيظا من هذا التلميح

فقال وزير العدل : ماذا يمنع أن نعتبر الفتاة ماتت منذ عامين حين كانت فى انطاكية ، وأنها ولدت ولادة ثانية على يد بطرك انطاكية ..

فقالت الامبراطورة : هذا خيال شعرى ، والدولة لا تشاد على الخيالات الشعرية

وكان الامبراطور يسمع النقاش متململا فقال :

ــ الحكم أصبح فى مقام الصادر . فدعوا مسألة التنفيذ الآن الى أن أفكر فيها ..

ــ ٦ ــ

نعود الى جستنيان والمطران والفتاة . فقد ذهبوا توا الى دار المطرانية . والفتاة فى حماية المطران وقد اعتقدت أنها انتصرت فى هذه المحاكمة على الرغم من ايحاسها من الامبراطورة التى كانت تتعمد تجريحها وخذلها . وجستنيان كان يرى العكس : يرى أن القضية خاسرة ، لان مجلس الدولة يعتمد على نص الدستور الذى يحرم على أمير من البلاط أن يتصل بممثلة ، فكيف بالحرى بعاهرة شهدت على نفسها ؟ وأما المطران فكان يحوك فى ضميره سياسات مختلفة ..

قال جستنيان لتيودورة : أهكذا فضحت نفسك وخيبت الآمال فيك . لماذا لم تدعى أن هذا التقرير مزور لاغراض ضدك وليس عندهم اثبات له

فقالت : لا يا سيدى . ليس التقرير مزورا . والتائب لله لا يكذب على الله والناس . لقد كنت مزمعة أن أروى لك أيها الامير مثل هذا التقرير قبل أن تتمادى فى العشرة لكيلا أخدعك فيها قد علمت آثامى ..

ــ وعلمت توبتك وقبلتها . واذا كان الله قد غفر لك فالاحرى أن أغفر انا أيضا ..

ــ ولكن بينى وبينك قانون الدولة يا سيدى ..

ــ اذا كان قانون الكنيسة مخالفا لقانون الدولة ومناقضا له ، فلا أعبأ بقانون الدولة .

ـ أجل . ولكن جلالتى الامبراطورين لا ينقضان قانون الدولة الذى هو أساس عرشها

ـ انى مستعد أن أخرج من حكم هذا القانون . ها قد خلعت عنى ثوب الامارة . فأنا الآن واحد من رعايا الامبراطور جستينوس العاديين ، الذين لا يطبق عليهم ذلك القانون

فقالت تيودوره بشدة : لا . لا يا سيدى الامير . لا أريد أن تخسر امارتك لاجلى

ـ وأنا لا أريد أن أخسرك يتانا . أنا ازاء خسارتين لا بد من احداهما ، فأختار أهونهما

فرمقته تيودوره بسحر عينين يصرع الفؤاد . وقالت :

لا يا عزيزى . لا تخسر عرشك ولا امتيازاته لاجل امرأة حقيرة خاطئة . أنصح لك أن تثوب الى رشدك وتعود الى العرش الذى ينتظرك قبل أن تصحو من سكرتك وتندم

من يصدق أن هذا الكلام صادر من قلب تيودوره . وهى منذ عرفت جستينيان صارت تحلم الاحلام البعيدة . ولكن هو الدلال يثير الغرام

فقال لها جستينيان : دعى يا حبيبتى عظتك كأنها كتابة على سطح الماء

ثم التفت جستينيان الى المطران اكليمندس وقال :

ـ ها نحن بين يديك يا سيدنا . قدمنا الى المذبح المقدس وارفع يديك فوق رأسينا بالبركة والاكليل . .

فابتسم المطران الوسيم الوجه وقال : صبرا يا عزيزى دع الامر لى الآن . فلى سياسة قد تجهلها وستعلمها بعدئذ . .

ـ وهل يمكن أن تساكننى تيودوره فى مدة المهلة . .

فوجفت تيودوره وقالت : لا تفسد توبتى يا سيدى . .

وقال المطران : دع تيودوره الآن تقيم فى الدير كما وعدت لكيلا تثلم توبتها ، ولكيلا يبقى للامبراطورة أقل سبب لافساد مسعاى . دع تيودوره فى رعايتى

ـ أتعنى أنك تقنع عمى الامبراطور بأن جستينيان الامير يقترن بفتاة عامية حقيرة

ـ سأقنعه بطريقة لا تعرفها . .

وقالت تيودوره : ان من استطاع أن يرفع الزانية الى السماء ، يمكنه أن يجعل الوضيعة رفيعة فى عينى الامبراطور

ففكر جستينيان هنيهة ثم قال بدموع : أستودعك يا حبة فؤادى فى الدير

وهنا قال المطران : سأرتب ترتيبا يسمح بأن تراها كل صباح

فهز جستينيان يد المطران . ثم خطف قبلة من وجنتها ومضى

ما استوعبت تيودوره كلام المطران حتى سبح فكرها فى جو من الآمال لا نهاية له

تنظر الى الماضى فترى الايام التى لم تر فيها من الشمس الا الشفق الأحمر ، فكان يتراءى لها رهيبا . ثم تنظر الى المستقبل فترى الشمس ساطعة حولها كيفما تلفتت

هل خطر لها فى الليل أو فى النهار حلم صيرورتها امبراطورة ؟ كلا البتة . ولكنها أصبحت الآن فى مدخل هذا الامل . أصبح القمر على قيد باع من يدها

- ٧ -

مضت أيام والامبراطور والامبراطورة يعلمان أن الفتاة تيودوره فى الدير كما قالت وكما أبلغهما المطران . وأما الامبراطورة فلم تكن مطمئنة لان جواسيسها أبلغوها أن تيودوره تجتمع بالامير فى دار المطرانية بعض الساعة من حين الى آخر . فغضت النظر عن هذا مكرهة

وأما الامير جستينيان فكان كل يوم يسأل المطران بقلق متى ينفذ وعده . فكان المطران يستمهله متحينا الفرصة المناسبة لمفاوضة الامبراطور لكى يضمن النجاح

وأما المطران فعلى الرغم من مقاومة الامبراطورة ووقوفها فى المسألة موقف الخصم العنيد ، كان يعتقد أن المهمة ليست صعبة كما تتراءى لهما ، لانه شعر فى الجلسة أن تيودوره حصلت على عطف الامبراطور القلبى

وأخيرا بعد أن ذاب العاشقان وجدا وجوى ، التمس المطران مقابلة الامبراطور . فسرعان ما استدعاه الامبراطور ، لانه كان يود أن يعرف أشياء عن غرام الامير والزانية التائبة من غير أن يطلب هذه المعرفة

سأل الامبراطور المطران باسما : كيف حال راهبتكم الجديدة يا صاحب النيافة ؟

فأجاب المطران : ليست تيودوره راهبة فى الدير يا صاحب الجلالة . وانما هى جعلت الدير ملجأ لها لكى تبتعد عن تقولات الناس وافتراءاتهم

— ولكن الامير جستينيان يجتمع بها فى دارك . والى متى هذا اللقاء العقيم ؟

— حاولت أن أقيم العثرات بينهما عسى أن يزهد الامير فيها . فاذا هو يزداد تولها . حتى صار يتمنى أن ينال الفتاة ولو خسر العرش

فقال الامبراطور مجفلا : طبعا لا أسمح . ولكن هل بلغ وجد الامير الى حد أن يجازف بالعرش لاجلها

— كذا يقول أحيانا . ولذلك أرى يا صاحب الجلالة أن تحل العقدة . ولا سيما لان شخصية الفتاة تكاد تكون خلوا من العيوب . ناهيك عن جمالها الفاتن ولطف عشرتها . وأما سلوكها فسلوك التقوى

وكان الامبراطور يسمع هذا الوصف باسما كأنه كان يستلذ سمعه . فقال :

— ان ما تصفها به الآن يا نيافة الحبر توسمته فيها من موقفها فى المجلس يوم تلاوة التقرير عنها عليها . واقتنعت بصدق توبتها من اعترافها بآثامها . لذلك لم تبق فى نظرى منحطة . بل ارتفعت عن رتبة العامة . لذلك لا ألوم ابن أخى كثيرا على شغفه بها

فاستبشر المطران خيرا من حديث الامبراطور ، وقال متجرئا :

— اذن ليس عسيرا على جلالتك أن توافق على اقتران الامير بها . .

— القانون لا يوافق . .

— ألا يوافق القانون على زواج الامير من عامية . .

تنبه الامبراطور الى أن زوجته يوفيميا عامية فلاحة ، فقال :
ـ يوافق اللهم الا اذا كانت لم تمارس التمثيل والدعارة
ـ ولكن يا مولاى أنت مقتنع بتوبتها . ومعنى التوبة فى الكنيسة محو الذنوب لان الله غفر
فضحك الامبراطور وقال : هذا شرع الكنيسة لا شرع الدولة
ـ أتجعل يا مولاى شرع الدولة فوق شرع الكنيسة ؟ شرع الدولة وضعه البشر ، وشرع الكنيسة وضعه الله . ولجلالة الامبراطور الحق فى أن ينقح نصوص الدستور بحيث تطابق قانون الكنيسة ، ولا سيما فيما يخص البلاط
ـ صواب ما تقول . ولكنى أستنكف أن يقال انى أتلاعب بقانون الدولة لغرض شخصى
ـ خطر لى خاطر يمهد السبيل للتعديل يا مولاى . . ترفع جلالتك الفتاة من درك الضعة الى مرتبة الشرف ، كما رفعها الله من الجحيم الى النعيم . .
فقهقه الامبراطور وقال : حيلة لطيفة . سأفكر فيها . مهلا برهة . أود أن أرى الامير والفتاة غدا هنا قبل الظهر
ـ يغتبطان عظيم الاغتباط يا مولاى بالمثول بين يدى جلالتكم

ـ ٨ ـ

كان الامير جستينيان وتيودوره ينتظران سيادة المطران على مثل جمر الغضا . فلما رأيا بشره يسطع أمامه اغتبطا عظيم الاغتباط . فقال الامير :
ـ لا أظن هذه البشاشة تغشنا يا سيدنا
فقال المطران : استعدا للامتثال لدى جلالته
فقالت تيودوره وهى تكاد تطير فرحا : لتقبيل يد الرضى . أليس كذلك ؟
فقال الامير : يد الرضى السخية . أنا أعلم أن عمى متى رضى منح بلا حساب
فقال المطران : وهل تطمع أنت بلا حساب ؟ ماذا تنتظر من جلالته ؟
ـ أن يأذن بزواجنا . .
وكان المطران ينظر فى مقلتى تيودوره اللتين كادتا تنبثقان من محجريهما جزلا . وقال لها ضاحكا مداعبا : يا ترى هل تستطيعين يا جلالة الامبراطورة المستقبلة أن تتحملى أعباء العرش بعد عمر الامبراطور الطويل ؟
فقالت : ما يفوت سيدى الامير من المعونة أتلقاه من سيادتك يا مولاى الحبر الكريم . ألم تعدنى أنك تكون حامى تيودوره مدى الحياة ؟
ـ لا أظنك تحتاجين الى حمايتى لان جلالة الامبراطور توسم فيك الكفاءة
فكادت تيودوره تنفجر مرحا وحبورا من هذه البشائر التى لم تحلم بها . أكان ممكنا أن يخطر ببالها أن تكون العاهرة يوما ما امبراطورة مهما تابت وندمت واتقت

***

فى الصباح التالى كان الامير جستنيان فى دار المطران ينتظر تيودوره قادمة من الكنيسة كعادتها لكى يتهيآ للذهاب مع المطران الى البلاط قبل الظهر . وكان كلما مضت دقيقة حسبها الامير ساعة حتى مل عد الدقائق واحتدم شوقه . حتى قارب الظهر . وكاد يفوت الموعد . وتيودوره لم تظهر . فقلقا أى قلق . .

أين هى ؟ لماذا تأخرت ؟

تيودوره أشد شغفا منهما بالمثول لدى صاحب الجلالة مشرقة بعد أن مثلت لديه مزدراة . تيودوره التى لا ريب أن سفن أفكارها الراقصة طربا تمخر فى بحر من الآمال المرحة والامانى المقبلة التى لا حدود لها ، تيودوره التى كانت تتوقع التاج هابطا عليها من سماء النعمة الالهية بعد أن تهبط تحت زحم الغضب والنقمة فى بحر آثامها . أتيودوره هذه تتخلف عن ميعاد الامتثال بين يدى الامبراطور ؟

لا بد أن حادثا فظيعا أعاقها . .

ركب الامير جواده ومضى الى الدير يسأل عنها . فقيل له انها ذهبت الى القداس كالعادة ولما تعد . الكنيسة الى جانب دار المطرانية . سأل المطران خادم الكنيسة وخدم الدار ، فلم ينبىء أحد عنها بشىء . . وأخيرا ؟

ركبا المركبة وذهبا ثانية الى الدير ، فقيل لهما انها لم تعد البتة . بحثت الرئيسة والراهبات عنها فلم يقفن لها على أثر . جزع جستنيان لغيابها . ثارت فى نفسه الظنون المفزعة لفقدها . أى نكبة نكبت بها ؟ وأى شر أصابها

قال المطران : يجب أن نذهب توا الى القصر لئلا يغضب جلالته اذا استبطأنا . وثمة نعرض على جلالته أمر اختفائها

فأسرعا الى القصر . والتمسا المثول . فاستقبلهما جلالته من غير أن يبدو منه استغراب لعدم وجود تيودوره معهما . ولكن المطران ما تمهل فى أن شكا الامر لجلالته : اننا يا مولاى افتقدنا الفتاة تيودوره عبدتكم منذ الصباح ، وبحثنا عنها فى كل مكان ظنناها فيه ، فلم نجد لها أثرا ، ولا سمعنا عنها خبرا

فقال الامبراطور باسما : أنا أخبركما أين هى . . هى فى دار الشحنة (البوليس) مقبوض عليها بتهمة الدعارة واللصوصية . .

فسقط فى يد الامير جستنيان واسودت الدنيا فى عينيه . وجعلت لجات الشوق والهيام تلاطم فؤاده ، وقال : تهمة مفتراة يا مولاى . .

وقال المطران : عجبا يا مولانا . هذا سفر قديم وقد محوناه . .

ـ لا بل هو سفر جديد فى هذا الصباح

فاكفهر وجه المطران وقال : أظن فى الامر دسيسة يا صاحب الجلالة . هل روى المبلغ لجلالتكم تفاصيل التهمة ؟

ـ لا . بل قيل لى ان تيودوره التائبة عادت الى دعارتها وجرائمها . وهي تحت التحقيق فى دائرة الشحنة . .

فقال الامير : لا أظن أن جلالتكم تعتمدون كل الاعتماد على الشرطة فى تحقيق تهمة الفتاة . اذ لا يعقل أنها وهي تطفر فرحا فى انتظار شرف الامتثال لدى جلالتكم تند عن الصواب لتطرح نفسها فى حمأة الشهوات

فضحك الامبراطور ثم قال : أجل. هذا لا يعقل . .

ـ اذا . ألا تتفضل جلالتكم باستقدامها مع هيئة التحقيق بين يديكم ؟ . .

ـ لقد صدر الامر بذلك قبل أن تدخلا الى هنا . .

***

. ما هي الا هنيهات حتى انبأ الحارس ان قائد الشرطه ونفرا من الناس معه ينتظرون خارجا أمر جلالته . فأمر بقائد الشرطة أن يدخل أولا . فدخل هـذا القائد وتلقاه الامبراطور بالسؤال :

ـ من اصطحبت ؟

ـ المتهمة المدعوة تيودوره . والرجل الذى اتهمها . والمرأة صاحبة البيت السرى

ـ أرسل الينا المتهمة وحدها أولا

خرج القائد ، ثم دخلت تيودوره وسجدت ، وبقيت جاثية . فتأملها الامبراطور باشا معجبا بحسن ملامحها ولطف تناسقها ، ثم قال : قفى يا فتاة . .

فوقفت ، فقال : اقعدى على الكرسى الذى وراءك . .

فقدم لها جستنيان الكرسى فقعدت بكل تحفظ واحترام وتوقير . وقال الامبراطور :

ـ أين كنت حين قبض الشرطى عليك ؟

ـ فى منزل لا أعرف عنه شيئا . .

ـ لماذا كنت هناك اذن ؟

ـ قابلتنى امرأة فى باب الكنيسة وسألتنى : « هل أنت تيودوره » فأجبت : « نعم » قالت : « ان أختك أناستاسيا تود أن تراك ولو دقيقتين » فقلت : « لا أعلم أن أختى هنا ولا أعرف أين هى » . فقالت : « جاءت أمس وسألت عنك وعلمت أنك فى الدير . فتود أن تراك بضع دقائق . فاتبعينى الى حيث هى » فتبعتها لكى أرى أختى لعلها فى حاجة ماسة الى ولعلى أستطيع أن أنفعها بشيء . تبعتها بكل سلامة نية واطمئنان مسافة غير طويلة الى أن دخلت بى الى منزل بسيط . وأجلستنى على مقعد . ثم قالت : « سأدعو أختك اليك . انتظرى هنا » . ودخلت فى باب آخر فى الغرفة وأقفلته . ومكثت وحدى أنتظر نحو عشر دقائق حتى كدت أرتاب فى أمر هذه المرأة . فناديتها . فلم ترنى وجهها . وانما دخل من الباب الاول فجأة شرطى ومعه رجل عتى . وقال الشرطى : « أين هى ؟ »

فقلت » وأنا أظن أنه يسأل عن ربة البيت : « دخلت الى هذه الغرفة » . فقال الرجل يشير الى : « بل هذه هي يا سيدى القائد . هي بعينها » . فقلت : « انى غريبة . أما صاحبة المنزل فقد دخلت الى هذه الغرفة » فأسر الرجل العتى قائلا : « بل هذه هي بعينها ، هي التي سرقت كيس نقودى . . » . فذعرت من هذه التهمة الباطلة وقلت : « انك غلطان يا هذا . أنا هنا منذ عشر دقائق فقط . أنظر فى جيدا » فقال : « نظرى لا يغشنى ، هي هي يا سيدى . هي نفس المرأة التى كنت معها . وهى . . » فصرخت به مذعورة : « ويحك يا منافق . لا أعرفك ولا تعرفنى ولا رأيتك قبل هذه الدقيقة ولم ترنى » فقال الشرطى : « هلمى معى يا هذه . والتحقيق يكشف الحقيقة فلا تخافى » فقلت : « سل يا سيدى صاحبة المنزل . أدعها الى هنا . هى التى دعتنى الى هنا لكى أقابل أختى » . وما كنت أدرى أن تلك المرأة شريكة فى المؤامرة . فقال الشرطى : « وأختك أيضا تقيم فى هذا الماخور » قلت : « صه . لا تتطاول بالكلام البذىء . ادع صاحبة المنزل حالا » قال : « سندعوها الى دار الشحنة . هلمى معنا الآن » قلت : « لن أذهب معكما لان عندى موعدا شريفا عظيم الشأن لا يمكن أن أتخلف عنه ولو بقطع عنقى » . قال : « هذا نفاق يتحله كل من يدعى الى دار الشحنة . هلمى معى » . وحملانى وأخرجانى رغم أنفى وأودعانى فى مركبة وذهبا بى الى دار الشحنة . وهناك فتشتنى امرأة فلم تجد معى نقودا البتة . وما زلت أنتظر التحقيق . والى الآن لم يحقق أحد معى . .

وكان الامبراطور مصغيا جيدا لهذه القصة الشنيعة . وهو يتميز غيظا فقال :

ـ تعنين أنك لم تشاهدى أختك فى ذلك المنزل . .

ـ كلا يا صاحب الجلالة . أختى ليست فى بيظنطيوم ولا أدرى شيئا عن مصيرها . .

ثم استدعى الامبراطور الشرطى والرجل والمرأة الاخرى كلا بنوبته واستجوب كلا منهم حتى تبين دسيستهم جميعا وارسلهم الى حيث يجب أن يكفروا عن شرهم

***

بعد خروجهم وجه الامبراطور الخطاب الى تيودوره :

ـ انى واثق بصدق كل كلمة قلتها . ولم يبق عندى ريب بأن فى الامر مكيدة . بمن تظنين؟

فترددت تيودوره وقالت : ان بعض الظن اثم يا مولاى . فأتوسل الى جلالتك أن تعفينى من ارتكاب هذا الاثم

فابتسم الامبراطور كأنه قرأ أفكارها ثم قال :

ـ لسوف ينجلى كل سر وكل شر . بعد أيام سأستدعيك يا سيادة المطران

ففهم المطران أن المقابلة انتهت ، وتقدم الى الامبراطور وقبل يده . ثم حذا حذوه الامير وتيودوره . وخرجوا خروج الظافرين

– ٩ –

ذهبوا توا الى دار المطران حيث يعقدون مؤتمراتهم ..

سأل المطران تيودوره نفس سؤال الامبراطور: من تظنين انه نصب هذه المكيدة يا بنتى؟

فقالت : من خصمى فى علاقتى مع الامير ؟ ومن أبلغ الحبر لجلالته ؟

فقال الامير : من غير الامبراطورة ؟ فهى التى شرعت تكيد مكايدها ضدى منذ علمت ان بينى وبين تيودوره حبا لم تذق هى مثله

فقال المطران : لقد أحسنت الاجابة على سؤال الامبراطور يا تيودوره . لانك لو لمحت الى الامبراطورة مهما كان التلميح بعيدا ، لخلقت مشكلة الله أعلم كيف يمكن حلها

فقالت : ألا تظنان أن الامبراطور اشتبه بالامبراطورة مختلقة هذه المكيدة الفظيعة ؟

فقال الامير : لا شك عندى بذلك ، ولا ريب أنه فهم من كلمتك ، ان بعض الظن اثم ، انك تشتبهين فى الامبراطورة . ان عمى على قلة علمه ذكى يفهم الافكار قبل الكلام ويرى النجوم من وراء الغيوم

فقال المطران : أصبحنا الآن نود أن نعلم كيف نسجت هذه المكيدة وسأسعى بوسائلى السرية الى معرفة نتيجة التحقيق اذا أبى جلالته أن يعلن ..

قال الامير : ودعنا الامبراطور بوعد منه أنه سيستدعيك يا سيدنا الحبر . لماذا يا ترى ؟

– ماذا يريد منى غير أن يبلغنى ارادته السنية بشأنكما ؟

– ماذا تكون ارادته السنية يا ترى ؟

فقالت تيودوره بدهاء : من يدرى أن تكون ارادته السنية ، نفى تيودوره الى انطاكية لكيلا يبقى وجودها فى بيظنطيوم موضوعا للمكايد التى تزعج القصر ..

فقال الامير ضاحكا مازحا : لا بأس . نؤسس امبراطورية فى انطاكية

فقال المطران مقهقها : ونحن ننقل انطاكية الى بيظنطيوم . أليس كذلك يا امبراطورة انطاكية

فقالت تيودوره : بأية قوة تنقلها يا سيادة الحبر . أبقوة الايمان الذى ينقل الجبال

فقال : به وبقوة الحب أيضا الذى يطير فوق البحار والجبال

– ١٠ –

وبعد أسبوع لبى سيادة المطران دعوة الامبراطور حسب وعده . فلما عاد من المقابلة وجد تيودوره فى داره تنتظر نتيجة المقابلة على أحر من الجمر . فلما رأته مقبلا ووجهه يطفح بشرا وحبورا أسرعت مرتمية على يده وهى تنضد عليها قبلات بعضها فوق بعض . فجذبها ودخل بها الى مكتبه حيث جلس وأجلسها الى جنبه وقال ممازحا مداعبا :

– مباركة أنت بين النساء أيتها الامبراطورة الجليلة

فانحنت مبتهجة القلب على يده تقبلها . فرفعها وقبل جبينها قبلة حارة وضمها الى

صدره . فرفعت نظرها اليه باسمة وقالت :
ـ لقد تبت عن هذا فى انطاكية أيها الحبر المقدس . فلماذا . .
فقال ولا تزال يدها فى يده :
ـ وفى انطاكية طالما تمنيته وتشوقته . ولكنى عصمت النفس عنه
فقالت وهى تبتسم متوردة : أجائز هذا يا مولاى ؟
فقال : أتنكرين علىّ تقبيل ايقونة العذراء ؟
ـ لماذا حاذرته فى انطاكية ؟
ـ لان لسانى كان يعظك بتجريمه . فكيف يجرأ قلبى على مناقضة لسانى ؟
ـ كيف يجرأ الآن ؟
ـ الآن اللسان صامت والكلام للقلب
ـ ماذا أصمت اللسان ؟
ـ لدى هذا الاقنوم السماوى يعلو صوت القلب على صوت اللسان
وضم رأسها الى صدره قائلا : ألا تسمعين ماذا يقول القلب ؟
ـ لا أسمع الا خفقا شديدا
ـ هذه لغة القلب ألا تفهمينها ؟
ـ كلا
ـ ويحى : اذن صرخة فى واد
ورفع يده عن رأسها ، فاعتدلت فى مجلسها ، ولكنها ما زالت باسمة وقالت :
ـ لا أفهم يا سيدى الحبر المحترم كيف يتناقض اللسان والقلب وهما فى جسد واحد وبقيادة عقل واحد ؟
ـ ولكنهما ليسا بقيادة غريزة واحدة
ـ ما هى غريزة اللسان وما هى غريزة القلب ؟
ـ غريزة اللسان اجتماعية نظمها الناس وغريزة القلب نظمها الله
ـ اذن . تعنى أن القلب يتكلم بلغة الله
ـ طبعا طبعا . فهمت لسان الله يا فيلسوفة . ولغة الله هى لغة الحب . والله محبة قال الرسول بولس . وبهذه اللغة يخاطب قلبك قلب سمو الامير جستنيان
ـ اذن الحب غير محرم
ـ من قال انه محرم ؟ الدعارة هى المحرمة يا بنتى . والدعارة ليست حبا . هى فحش حيوانى بهمى . الحب الالهى حب روحانى . فهل كنت تشعرين بحب كهذا قبل أن عرفت الامير جستنيان
ـ أبدا لم أشعر بشىء يقال له حب . الآن أشعر بحب روحانى للامير

***

ودخل الامير وهو يسمع الكلام الاخير . وربما كان المطران قد شعر بقدومه فساق الحديث الى موضوع حبهما دفعة لمظنة السوء من قبل الامير . وقال ردا لعبارة تيودوره الاخيرة : هنيئا لسمو الامير . .

فقال الامير : أراكما تتكلمان عن الحب

فقالت تيودوره : نعم . سيادة المطران يعلمني أن الحب الروحاني هو نعمة من الله كحبي لك

فقال الامير : أجل هكذا حبي لك روحاني سماوي ملائكي شعري. تولى عليه ما شئت وخطف من وجنتها قبلة حارة . فقال المطران ضاحكا ممازحا : ويحك . ما هذا حب روحاني . هذا التهام للثمرة الفجة . ألا تصبر الى أن تنضج الثمرة يا أمير

فقال الامير : لست ألتهم ثمرة بل أتنشق زهرة عطرة الى أن تنضج الثمرة . ولكن متى تنضج ياسيدنا. لقد ضاق ذرعنا اصطبارا . عسى أن تكونقد نضجت طبختك عند الامبراطور

ـ في طريق النضوج ان شاء الله . لا يمكن أن ينقضي أمر كلمح البرق يا سمو الامير . ما دام في كل أمر ارادات متعددة لا يمكن أن يتم عمل الا بتوافق هذه الارادات

فقال الامير متجهما : ارادات ؟ ارادات من يا سيدي ؟ الامر لجلالته وحده

ـ أنت متسرع ملحاح لجوج لانك عاشق وله شغوف. ولكن الامبراطور والامبراطورة ورجال الدولة ليسوا عشاقا في هذه المسألة ، بل هم سواس . مدبرون . قضاة . حكام

فضجر الامير وقال : لا أعلق سعادتي على حكمهم . لست أريد عرشا . بل أريد حبا

فانبرت تيودوره التي صار غرامها في العرش أقوى من عشقها للامير وقالت :

ـ حلما وتؤدة يا عزيزي . ألا تصبر فيكون لك الحب والعرش جميعا . الى الآن لم يقل لنا سيادته في أي مرحلة صار المشروع . مهلا وسمعا يا عزيزي

فقال المطران : لا يسمح جلالة الامبراطور بزواج الامير من امرأة عامية . .

فجفلت تيودوره اذ غشيت قلبها ظلماء الخيبة ، وقاطعت كلام المطران :

ـ ويلي ! لم تنفعني توبتي شيئا في هذا العالم . فالافضل أن أمضي الى حيث أجني ثمرة توبتي . ولكن جلالة الامبراطور قبل توبتي فلماذا يرفضها الآن ؟!. .

ـ جلالته قبلها كما قبلها الله . ولكن لو صرت قديسة لبقيت عامية ، أي لست من الاشراف

ـ سبحانك اللهم . جعلت من العامة أبرارا . ومن الاشراف أشرارا . لقد جعلت الابرار في السماء في رتبة واحدة . فلماذا تجعلهم على الارض متفاوتي الدرجات

وكان الامير يتميز غيظا وحنقا فقال : لم يجعلهم الله على الارض درجات ، بل هم جعلوا أنفسهم ، لانهم ليسوا أبرارا . أنا مثلك يا تيودوره أمضي الى حيث تنفع التوبة . تعالي نخرج من عالم الاشراف الاشرار الى عالم العامة الأبرار

فقال المطران : خفف عنك وهون عليك يا أمير . ليس النبل أو الشرف وقفا على كبراء الناس وخاصتهم . يمكن أن يرتفع العامة الى طبقة الخاصة فى النبل والشرف . ان معظم هؤلاء الكبراء كانوا فى الاصل من وضعاء العامة . فالارتقاء من تحت الى فوق سنة فى الطبيعة وفى سائر حركات الاكوان

فاشرأب عنق كل من الامير وتيودوره . وقال الأمير :

ــ كيف يمكن هذا ويوفيميا زوجة عمى فى الطريق ؟

ــ لا تأثير لها على ارادة عمك الحازمة

ــ اذن . هل تستطيع أنت أن تقنع عمى بأن تيودوره تسلك مسلك النبيلة الشريفة

ــ لقد أقنعته وتقرر الامر

فقال الأمير بلهفة : ما الامر الذى تقرر يا سيدنا

ــ قرر عمك أن يرقى تيودوره الى طبقة الاعيان لكى يتسنى لك أن تتزوجها . فهى منذ الآن أصبحت نبيلة . وفى مثل هذا اليوم من الاسبوع الآتى تعقد حفلة حافلة عظيمة فى القصر لكى تقدم النبيلة عقيلة رئيس الشيوخ النبيلة « تيودوره انجاليكا » ــ أى الملاك كما سماها جلالته ــ للامراء والاشراف والاعيان . هل يعجبكما هذا

فبهت جستينيان وتيودوره وقالت هذه :

ــ لماذا لم تقل هذه البشارة من أول الامر يا سيدنا ولا تلوع قلبينا بتعلات الآمال ؟!

ــ دخلت الى الدار وأنا أحييك امبراطورة . أما كفت هذه التحية بشارة ! لقد تقررت الحفلة بعد سبعة أيام . وعلى تيودوره أن تزور عقيلة رئيس الشيوخ لكى تتلقى منها التعليمات ، فقد أبلغها جلالته هذا الامر . وهى تفهمك ماذا يجب أن تلبسى وبأى الحلى تتحلين . أهم حلية رسمية هى الاكليل الذهبى المرصع

عند ذلك ارتمت تيودوره على المطران وقبلته مرارا ثم على الامير أيضا

ــ ١١ ــ

أوصت تيودوره أبرع خياطة لكى تخيط لها ثوبا من الكتان الناصع البياض حسب زى ذلك الزمان للحفلات الامبراطورية . واشترى لها الامير جستينيان عقدا مرصعا وخاتما وشنفين . هى أثمن وأجمل ما فى المدينة . وأوصى الجوهرى الصائغ فيلبس ــ من أمهر الصياغ ــ أن يصنع لها اكليلا نفيسا من الذهب الخالص ، وأن يجعل جبهته طويلة عريضة مزخرفة مرصعة بالحجارة الكريمة . وساومه على الثمن ٢٥٠ مثقالا من الذهب ، والمثقال درهم ونصف درهم . واشترط عليه أن يسلمه اياه يوم الخميس وهو يوم الحفلة . ثم نقده نصف الثمن بايصال على أن يدفع له النصف الآخر عند استلام الاكليل

***

فى صباح الخميس كان الثوب والحلى وسائر لوازم التبرج موجودة عند تيودوره الا الاكليل . فذهب جستنيان الى الجوهرى فيلبس يطالبه بالاكليل . فعرض فيلبس عليه اكليلا بديعا يأخذ جماله بالالباب ، وقال له : انه ينقصه قليل من الاتقان الفنى وسأتمه عاجلا

فقال الامير : انى أحتاج اليه بعد الظهر حتما

فقال فيلبس : سيكون عندك فى الساعة الثالثة بعد الظهر . اعطنى العنوان

فأعطاه الامير العنوان وقال : من يأتى به يأتى ايضا بايصال بقية الثمن . وأنا أعطيه ايصالا باستلامى الاكليل

فقال فيلبس : سآخذه بنفسى يا سيدى الامير

***

وكانت تيودوره فى ذلك اليوم منهمكة باعداد نفسها . فعندها المزينة والمبرجة والمطيبة بالطيوب الخ

وكذلك كان الامير مشغلا بتهيئة نفسه للحفلة . وفى الساعة الثالثة بعد الظهر كان فى مركبته أمام المنزل الجميل الذى أسكن فيه تيودوره . فترجل ودخله ، فاستقبلته تيودوره فى تبرجها البديع على أجمل صورة . فضمها الى صدره وأمطر خديها بردا من القبلات وقال : من لا يقول انك شمس المشرق والمغرب جميعا

ــ امرأة عمك تقول انى ظلمتهما

ــ ستذوب غيرة الليلة وتغيب شمسها أيضا

ــ هى تعتقد أنها أجمل جميلات بيظنطيوم

ــ طبعا ، لان عمى يقول لها هكذا . « والقرد فى عين أمه غزال »

ــ كما تقول أنت عنى كذلك

ــ لست وحدى أقول انك شمس المشرق . سترين الليلة كيف تطوقك الاحداق . أنظرى نفسك فى المرآة

ــ لقد ملتنى المرآة اليوم ..

ــ مهلا الى أن يأتى الاكليل البديع . وثم انظرى فتزداد المرآة ابتهاجا بما ينعكس عنها من بهاء

ــ أخاف أن يتأخر الجوهرى ..

ــ وعدنى أنه سيأتى بالاكليل فى هذه الساعة

ــ تأخر . ونحن يجب أن نكون عند عقيلة رئيس الشيوخ قبل الحفلة بساعتين

ــ لا أدرى لماذا تأخر ذلك النغل ..

ونظر الامير فى المزولة المائية وقال : فات ميعاده نصف ساعة . أذهب اليه . ان جاء فى غيابى فليتنظر هنا

ـ انى موجسة من تأخره يا عزيزى ..
ـ أسحق جمجمته . لقد نقدته نصف الثمن مقدما

***

انطلق جستنيان على جواده الذى كان يحفظه فى اسطبل المنزل تحت الطلب . وفى دقائق معدودة وصل الى دكان فيلبس الجوهرى وبادره بالسؤال : ألم تزل هنا يا هذا ؟

فقال الجوهرى مظهرا الاستغراب : أجل

وزعق به الامير : أما قلت أنك تكون عندى والاكليل بيدك الساعة الثالثة بعد الظهر ؟

ـ بلى . لكن رسولك أتانى منذ نصف ساعة وبيده بقية الثمن وايصالا باستلام الاكليل فأخذه

فصاح صيحة أخرى : ويحك ! من رسولى هذا ؟ لم أرسل لك رسلا يا أحمق

ـ مولاى هذا ايصال منك باستلام الاكليل ، وهذا خطاب بأن أسلم الاكليل لناقله

فنظر جستنيان فى الايصال والخطاب وقال : قد منك حارا . هل كنت تعرف خطى من قبل حتى تصدق أن هذا الخطاب وهذا الايصال من خطى وبامضائى . هل تعرف من لعب هذه الحيلة على غباوتك يا بهيم ؟

ـ ان الذى جاءنى بالرسالة والايصال شخص نبيل جليل يا سيدى . لا يظن أحد أنه يحاول الخديعة بأمر كهذا

ـ هل تعرفه ؟

ـ لا ..

ـ اذن كيف تعرف أنه نبيل لا لص ..

ـ اذا رأيته أعرفه

ـ وهل تريد أن أستعرض أمامك جميع أهل المدينة لكى تدلنى عليه من بينهم يا نغل

وقبض جستنيان على عنقه قائلا : الاكليل حالا والا خلعت رأسك عن جثتك ..

فصرخ الجوهرى قائلا : رحمة يا سيدى . لماذا لا تعود الى المنزل فتجد الرجل هناك . لعله رام أن يخدمك خدمة

فارعوى جستنيان قليلا وقال : ربما كان الامر كما تقول أيها المغفل . ولكن من هذا الذى يعلم أن لى اكليلا هنا ويدفع الثمن عنى ويأخذه الى ؟ ان سخفك هذا سيعرقلنى يا غبى . على أنى عائد . فان لم أجد الاكليل فى المنزل فتأكد أنى سأسحق رأسك

ومضى الامير على جواده كالبرق الخاطف . وما توارى حتى أقفل الجوهرى دكانه فزعا من غضب الامير

***

عاد جستنيان الى تيودوره . فلما رأت فى وجهه امارات الغضب فهمت أن الاكليل ليس معه . فسألها : هل جاء أحد بالاكليل ؟

ـ لا . كلا . البتة . .

ـ اذن أعود الى ذلك اللص لكى أسحق رأسه وأبقر بطنه . .

ـ كلا . مهلا . قل لى ماذا كان من أمره أولا . .

فروى لها حديث فيلبس بحروفه . فقالت :

ـ هى دسيسة لئيمة يا عزيزى . ليس عندنا متسع من الوقت لسحق الرؤوس الآن . يجب أن نفكر بوسيلة لتلافى هذا الموقف الحرج الآن

ـ خطر لى أن نستعير من احدى العقائل اكليلها ، ولكن ما من عقيلة تستغنى عن اكليلها الليلة ، لانهن كلهن يترقبن حفلة كهذه لكى يحضرنها . .

ـ لن أضع اكليلا على رأسى ليس ملكى

ـ رأيك اذن ؟

ـ ألا يمكن أن تجد عند جوهرى آخر اكليلا معدا للبيع ؟

ـ لا يصنع الصياغ هذه الاكاليل الا بطلب لانها ليست من الحلى التى يجوز لاية سيدة أن تستعملها . هى لمثل حالتك . هى للاميرات والنبيلات فقط

فتدفق الدم فى رأس كل منهما من شدة الغيظ . ثم قالت تيودوره : أذهب بلا اكليل

ـ ويحى ! ماذا يقول الجمع الذى ستظهرين فيه ؟

ـ نعلن أن مكيدة كيدت لنا فحرمتنى الاكليل . فيضطر جلاله الامبراطور أن يبحث عن سر المكيدة

ـ أظن، بل أرى أنه قبل ذلك يجب ان أذهب الى فيلبس فأسحق رأسه اذا لم يستحضر الاكليل حالا

وهم جستنيان أن يمتطى جواده ، واذا شخص اندفع من بين السابلة وأمسك بركابه قائلا : حضرتك سمو الامير جستنيان ؟

ـ نعم . ماذا ؟

ـ أرجو منك دقيقة فقط لامر يهمك .

ـ تفضل أدخل

واقتاده الامير الى رحبة المنزل . فقدم اليه الرجل علبة وفتحها فلمع منها اكليل أبدع من الاكليل الذى رآه صباحا عند فيلبس . فسرعان ما تلاشى غضبه وغمره الابتهاج وقال:

ـ ولكن هذا ليس الاكليل الذى اتفقنا عليه

فقال الرجل : هل فيه عيب يا سمو الامير ؟

ـ بالعكس هذا أبدع من ذاك . ماذا قال لك الجوهرى ؟

ـ لم يقل شيئا يا سيدى سوى أنه أوعز الى أن أطلب منك ايصالا باستلام الاكليل

ـ هل أعطاك ايصالا بقية الثمن ؟
ـ كلا البتة . هو يقول ان الثمن وصله كاملا
ـ عجبا . عجبا . من أرسلك يا هذا ؟
ـ الجوهرى المشهور جرمانوس
ـ جرمانوس ! هل أنت واثق أنه أرسلك بهذا الاكليل لى لا لسواى ؟ لعلك غلطان . .
ـ ألست يا سيدى سمو الامير جستينيان ؟ وهذا المنزل منزلك ؟
ـ بلى . ولكنى لم أقابل السيد جرمانوس الجوهرى قط . بل اتفقت مع فيلبس الصائغ المشهور . . .
فضحك الرجل وقال : متى كان فيلبس مشهورا . لعله اشتهر بأن كان تلميذا لجرمانوس
ـ من ساومه ودفع له الثمن ؟ هل تعرف ؟
ـ لا وانما رأيت عنده أمس رجلا جليلا يساومه . ولم أعلم ماذا كانت المساومة . ثم نقده كل الثمن توا
ـ يلوح لى انك تشتغل مع السيد جرمانوس . .
ـ نعم . معاونا له
ـ وهل صنعتم الاكليل اليوم فقط ؟
ـ أمس بعد الظهر صنعنا الهيكل . واليوم رصعه الأستاذ جرمانوس . .
ـ ألم يعد الى محلكم الرجل الذى أوصى عليه ؟ . .
ـ كلا . أعطى أمس عنوان سموكم للاستاذ جرمانوس ، ومضى ولم يعد
ـ هل اذا رأيته تعرفه ؟
ـ لا أظننى أضل عنه . .
ـ أشكر رسالتك . ماذ اتطلب منى الآن ؟
ـ ايصالا باستلام الاكليل . والسلام عليكم . .
فأعطاه ايصالا . فأخذه ومضى

وكانت تيودوره قد تناولت الاكليل ووضعته على رأسها ووقفت لدى المرآة تتأمل جمالها . فباغتها الامير من ورائها بأن أخذه عن رأسها قائلا : لا يستطيع هذا الاكليل أن يزيد هذا الجمال الملائكى جمالا . وانما هذا الاكليل أجمل جدا من اكليل فيلبس اللعين . ففى وسط جبهة هذا زمردة ليست فى وسط جبهة ذاك . وترصيع هذه الجبهة أجمل جدا . هل يمكن أن يكون فيلبس قد اشتراه من جرمانوس بدل الذى فقده لكى يتقى سحقى لجمجمته ؟

فضحكت تيودوره قائلة : هل فيلبس هذا ذو ثروة عظيمة حتى يفتدى عنقه بمبلغ من المال عظيم . انا الآن فى ليل حالك من الأسرار . هنا مكيدة من ناحية ، وترياقها من ناحية أخرى . سنبحث فى الامر بعدئذ

- ١٢ -

فى ذلك المساء كانت المشاعل المتوهجة تحيط بالقصر الامبراطورى ، والمصابيح الزيتية تأرجح فى أنحاء القصر . والشموع متقدة فى البهو تملأه ضياء وحرارة . والجوقة الموسيقية تصدح الالحان البيظنطية التى أخذت شهرة فى الشرق والغرب جميعا ، ولا تزال أم الموسيقات فى الشرق.

وكانت أزواج السيدات والسادة تتوافد الى ذلك البهو العظيم بأجمل ما كان فى ذلك الزمان من بدائع التبرج والتحلى . والبهو نفسه يفاخر تلك البدائع بما ازدان به من فاخر الرياش ونفيس الاوانى والادوات

قبل أن تغرب الشمس ، كان ذلك البهو العظيم الرحيب والافنية المحيطة به مكتظة بأمراء الامبراطورية وأميراتها ونبلائها ونبيلاتها وكبار الدولة وعقائلهم وبعض رجال الاكليروس

جمع يتماوج فى الرحاب كأنه لجج اليم وقد أثارتها رياح اللهو العواصف . وكانت الابصار تترامى على مدخل البهو ومخارجه تتبين القادمين ، والالسنة تتهامس عمن تكون النبيلة الجديدة ، وعن أصلها وفصلها . وما تداول المتهامسون الا أنها فتاة عامية حائكة كانت تتردد كثيرا الى الكنيسة ، وانها آية فى الجمال الجسمانى والروحانى . وقد عرفها الامير ولى العهد فى باب الكنيسة ، فوقعت فى قلبه موقع الروح المقدس فى النفس الصالحة . وندر من أشار الى ماضى سيرتها . لان دعارتها صارت نسيا منسيا

والامير جستينيان معروف عند معظم المدعوين بأنه رجل العلم والفضل والتقى ، فكانت الافكار تتجه اليه عسى أن يهتدى به الى النبيلة الجديدة . وكان كلما لاحت سيدة جميلة قال الواحد للآخر : أليست هذه اياها ؟

***

عند توارى الشمس وراء الافق ، صدحت الموسيقى باللحن الامبراطورى ايذانا بقدوم الامبراطورين . فدخلا من الباب الخلفى الذى يؤدى الى المنصة الرحبية المشرفة على رحبة البهو العظيم ، يتبعه بعض أمراء الدولة وكبراؤها وعقائلهم وبعض الوصيفات . وأخذ الامبراطور مكانه فى وسط المنصة والى يساره الامبراطورة ، فوصيفتها الكبرى ، والى يمينه الامير جستينيان ابن أخيه ، والى جانبيهما البقية

ولما انتهت الموسيقى من العزف ، ساد سكوت مطلق انتظارا للخطوة التالية من برنامج الحفلة وهى خطوة « التقديم » وصارت العيون تريش السهام الى متوسط البهو انتظارا للحادث العظيم المنتظر

وفى هنيهة ابرت سيدة جليلة تقود آنسة آية فى الجمال . فتهامس الجمع : ها هى تيودوره . ولكن ما لبثوا أن دهشهم نطق السيدة وهى عقيلة رئيس الحكومة :

« بأمر جلالة الامبراطور أقدم لكم أيها السادة والسيدات الآنسة ادينا Edith صوفيا نبيلة شرف هى ابنة اخت حضرة الوصيفة الكبرى النبيلة اغاثيا »

وضج الجمع بالهتاف للامبراطورين ، ثم للنبيلة الصغيرة ، بينما كانت السيدة والآنسة تحنيان انحناءات الاجلال والتعظيم للامبراطورين . وكان الجمهور كله مستغربا هذا التقديم غير المنتظر . هل غير الامير ولى العهد رأيه فعدل عن تيودوره الى ادينا ؟

وراحوا يتهامسون : « حقا انها جميلة . آية فى الجمال . ولكنها ليست تيودوره »

هذه مفاجأة لم تكن تيودوره تحسب حسابها ولا عقيلة رئيس الشيوخ كانت عالمة بها . ولا الامير جستنيان لاحت فى باله ، على الرغم من أن امرأة عمه الامبراطورة كانت تدله على ادينا عسى أن يحبها ، ولكن كانت كمن يدل السمكة على الشبكة

ما همد ضجيج الجمع وضوضاؤه حتى انبرت عقيلة رئيس الشيوخ تأخذ بيد تيودوره وصاحت بأعلى صوتها : « بأمر جلالة الامبراطور أقدم لكم أيها السادة والسيدات الآنسة تيودوره انجاليكا نبيلة شرف »

وانحنت الاثنتان انحناء الاحترام ، فدوى البهو بالتصفيق والهتاف للامبراطورين والسيدتين . وفى الحال قادت تيودوره عقيلة رئيس الشيوخ الى المنصة وصعدت معها ، وجثتا أمام كل من الامبراطورين . ثم تراجعتا ونزلتا عن المنصة الى ما بين الجمع . وعند ذلك عزفت الموسيقى اللحن البديع الخاص بالحفلات

وفى خلال ذلك لم تر ادينا صوفيا بدا من الصعود الى المنصة بغمزة من خالتها ، وانحنت لدى الامبراطورين ، وحذت عقيلة الرئيس حذوها

ولا ريب أن هذا الاقتداء المتأخر منهما بتيودوره ومقدمتها ظهر للجمهور باردا ، وانتقدوا همسا تقصير عقيلة رئيس الحكومة التى أغفلت هذا الادب الواجب ، وكانت فطنة تيودوره أسبق اليه

وكانوا يتطلعون الى تيودوره ليتبينوا جمالها . وهم يتهامسون بشأنه ، فتلك تقول : ليست فائقة الجمال ، وانما فى جمالها جاذبية غير اعتيادية . وذاك يقول : ربما كانت ادينا أجمل شكلا ولكن تيودوره أجذب للقلب

وفيما الموسيقى تعزف قدم السقاة للامبراطورين وغيرهما كؤوس الشراب . وعند ذلك وقف الامير جستنيان ورفع كأسه وأشار للموسيقى فسكتت ثم قال : « هذا نخب جلالة الامبراطور المعظم حامى حمى الامبراطورية ورافع منار مجدها . فليحيى جلالته » فهتف الجمهور مرددين الدعاء

وما لبثت تيودوره أن انبرت الى الوسط ورفعت يدها بكأسها . فسكت الجمع . فصاحت بملء صوتها : نخب جلالة الامبراطورة المعظمة المحبوبة .. فلتحى الامبراطورة فتلاها الجمهور بالهتاف . وتوالت بعد ذلك الانخاب من كل صوب وناحية

***

وفيما كان جستنيان يتمشى بين الجمهور يتبين الاصدقاء من الاعداء التقى بالنبيلة الجديدة ادينا صوفيا . فانحنى لها وحياها : أهنئك يا نبيلة ..

فقالت باسمة ملء ثغرها : شكرا يا سمو الامير . لا أظنك فوجئت باعلان تقديمي نبيلة

فقال ضاحكا : كلا البتة . ليس هذا بالامر الجديد عندي . فأنت نبيلة قبل أن تقدمك عقيلة الرئيس

ـ ولطفك هذا ليس بالامر الجديد عندي يا سمو الامير . فلطالما جنيت منه ثمارا شهية . أراك تبينني من قمة رأسي الى قدمي . فماذا يستوقف نظرك ؟!..

ـ أجل أرى فيك كما كنت أرى كل يوم جمالا يستوقف كل نظر . ولكني لم أر الانظار تطوقه مثل اليوم ..

فقهقهت وقالت : لان اليوم يوم العيون المحدقة والانظار المتراشقة

ـ أجل . وليس للعيون ملتقى غير هذا الجمال الذي يجتذب الانظار ويلتهم الابصار

ـ قل. ماذا في رأسي يجتذب الانظار ؟.. أراك لا تكف نظرك عنه ..

ـ أرى عليه اكليلا يتألق . ولولا هذا الرأس الغالي لكان الاكليل معدنا صادئا . بالله أنى لك هذا الاكليل البديع

فأجفلت ادينا وقالت : لماذا تخصني بهذا السؤال ؟ لماذا لا تسأل عقيلة رئيس الشيوخ وعقيلة وزير العدل وغيرهما ممن لهن أكاليل كهذا ؟!..

ـ اخصك بالسؤال لاني ساومت على هذا الاكليل بعينه ودفعت نصف ثمنه ولما طالبت الصائغ به قال ان شخصا آخر دفع بقية الثمن وأخذه ..

ـ أذنبي هذا يا سمو الامير ؟ هذا اكليل أنا دفعت ثمنه وأخذته ..

ـ كم دفعت ؟

فقالت ضاحكة محتدة : تفضل يا أمير خذه ولا تحرجني بالاسئلة ..

وقدمت رأسها اليه لكي يأخذه حتى صار رأسها على صدره . واذ ذاك ظهرت تيودوره الى جنبهما . فوضع يده على الاكليل الذي على رأس تيودوره وقال : لقد استغنيت عنه بهذا . أيهما أجمل ؟

فقالت ادينا وهي تتيه وترمق تيودوره : الحكم لك يا سمو الامير أيهما أجمل ؟

فقالت تيودوره : وهل تجعل قيمة لهذه الاكاليل الترابية يا سمو الامير ..

فقال : لا. بل القيمة للرؤوس التي تحتها ..

فقالت ادينا : اذن كم هو ثمن الرأس الذي تحت هذا الاكليل الجميل (وأشارت الى رأس تيودوره)

فأجاب الامير توا : ثمنه قلب من أغلى القلوب .. فكم يا ترى ثمن هذا الرأس الذي تحت هذا الاكليل المغتصب (وأشار الى رأس ادينا)

فانتفضت ادينا غاضبة وقالت : اذا كنت تعتقد يا سمو الامير أن هذا الاكليل مغتصب اغتصابا فتفضل خذه

ونزعته عن رأسها وقدمته اليه . فرده الى رأسها قائلا : معاذ الله أن يوضع على غير هذا الرأس الثمين . وانما الامر الذى يحيرنى وبسببه دخلنا فى هذا النقاش هو أنى أنا الذى أوصيت الصائغ عليه ودفعت له نصف ثمنه ، وأراه الآن يملكه شخص آخر غيرى

فقالت تيودوره وقد فهمت سر الجدال : ليس لك أن تسأل النبيلة ادينا هذا السؤال ، لانها لم تملك الاكليل الا بعد أن دفعت ثمنه كاملا فهو ملكها الحلال . وما غريمك الا ذلك الصائغ الذى ساومته عليه وأخذ بعض ثمنه ثم سلمه لغيرك

فقال : بكل أسف الصائغ فر من أمام فأسى التى تكسر جمجمته

فقالت ادينا : اذا لم تظفر بجمجمة الصائغ أفتطلب جمجمتى بدلها . هاكها . أين فأسك

وقدمت اليه رأسها ضاحكة ، فتناول رأسها بين كفيه وقال : هذه جمجمة تضرب بفأس الورد .

وافترقت عنهما فقالت تيودوره : هل بقى عندك شك بأن يد جلالة الامبراطورة فى هذه الالعوبة

- ١٣ -

عند ذلك أخذ جستنيان يد تيودوره وصعد بها الى المنصة حيث انحنيا لدى الامبراطور والامبراطورة . ثم جلس جستنيان فى مجلسه الى جنب عمه ، وجلست تيودوره الى جنبه متأخرة قليلا الى الوراء

عند ذلك وقفت الامبراطورة واستأذنت الامبراطور بحجة أنها تشكو صداعا وخرجت تتبعها وصيفتها . وكان من الباقين على المنصة رئيس الحكومة والمطران اكليمندوس

والتفت جلالته الى تيودوره وقال : لماذا تخلفت الى الوراء . تقدمى لكى نرى هذا المحيا الوضاء يا نبيلتنا العزيزة

فتقدمت الى جنب الامير تقول : أينما كنت يا مولاى أستمد النور من أشعة هذه الجلالة المنتشرة فى الآفاق

فتهلل وجه الامبراطور لهذا الجواب الشعرى وقال : عسى أن تكونى مغتبطة بهذه الحفلة

أى مجلس تترأسه جلالتكم يكون حفلة بهيجة تطفح فيها القلوب حبورا وتملأ العيون بهجة والنفوس سعادة

فتبسم الامبراطور ملء فمه وقال : عسى أن يكون سمو الامير جستنيان مسرورا أيضا

فالتفت الامير الى عمه وقال : وهل يستطيع جستنيان أن يخرج من دائرة نعم عمه التى تتدفق هناء وسعادة للنفوس

فقال الامبراطور : ولكني لا أراك مرحا كأن دودة هم تدب فى رأسك

فقال الامير مقهقها : الحقيقة أن سرورى يخالطه أثر خفيف من الامتعاض بسبب حادث حقير ولكنه يحير الالباب

فقال الامبراطور : عسى أن يكون الحادث عديم الاذى

ـ كلا البتة . بحماية مولاى الامبراطور لا أحسب حسابا لاذى . ساومت صائغا على اكليل ودفعت بعض الثمن وحان الميعاد ولم أستلم الاكليل . وبالبحث علمت أن يدا خفية اختلست الاكليل . فتأمل يا مولاى موقفنا الحرج ، ولم يبق أمامنا الا ساعة لحضور الحفلة

فقال الامبراطور مقهقها : لا بد من اعجوبة تخرجكم من هذا الموقف الحرج . .

فقال الامير وقد اشرأب عنقه نحو الامبراطور : أجل والاعجوبة حدثت

فحملق فيه الامبراطور وقال : أحقيقى ؟ كيف ذلك ؟ . .

ـ فاجأنا رسول يحمل علبة فيها اكليل أجمل وأثمن من الاكليل الذى ساومنا عليه . وكان هذا الرسول من قبل صائغ آخر غير الذى ساومته . وهو لا يعرف الشخص الذى أوصى عليه ودفع ثمنه كاملا . فأصبحت لا أدرى من اختلس ذاك ولا من أهدى هذا . فالاعجوبة حيرتنى أكثر من الخيبة

فقال الامبراطور ضاحكا : حقا ان تلك خيبة يأس وهذه أعجوبة فرج . ولعل سيادة المطران يستطيع أن يكتشف السرين

فقال المطران : لا خفى يا مولاى الا وسيعلن . سمو الامير يعرف الصائغ الذى ساومه فلا بد أن يعرف منه المختلس الذى سبب الخيبة . ومن الصائغ الذى صنعت الاعجوبة على يده يهتدى الى الذى فعل الاعجوبة

وقال الامير : والغريب أنى ظفرت بالمختلس فى هذه الحفلة

فحملق الامبراطور وقال : أحقيقى ؟ هل اللص فى الحفلة ؟

ـ أجل رأيت الاكليل نفسه على أحد رؤوسهن . .

ـ على رأس من رأيته ؟

ـ على رأس النبيلة ادينا صوفيا . .

ـ عجبا . لم أعلم بشىء من هذا . سأبحث المسألة . .

ـ أخاف يا مولاى أن أمورا أخرى تجرى فى القصر ولا تعرفها . يظهر أن الدنيا مملوءة دسائس ومكائد . .

ـ يسرنى يا عزيزى أن تعلم أنك كغيرك محاط دائما بمكايد ودسائس لكى تحذر الاعداء والاصدقاء . سترى يا بنى حولك محبين قد يحبونك كوالديك لانهم يبتغون نفعا من هذا الحب . فيصدقونك كل الصدق لكيلا تبقى لك شبهة فى اخلاصهم ، حتى اذا احتجب عنهم نفعك لهم انتهى حبهم ، وقد يتحول الى كره . وقد يتحولون الى خصوم

ثم نهض الامبراطور وانسحب فأصبحت الحفلة حرة من يشاء يبقى ومن يشاء يخرج

- ١٤ -

فى صباح اليوم التالى ذهب الامير جستينيان الى الجوهرى الصائغ فيلبس فوجد دكانه مقفلا . فقال فى نفسه : ان هذا اللص لا يزال هاربا من أمام غضبى . لا ريب انه خائف

ثم سأل عن دكان الجوهرى جرمانوس . فاذا هى فى نفس الحى وهو حى الصياغ . فاستقبله جرمانوس مرحبا فقال الأمير : هل أرسلت أمس اكليلا لمنزل الامير جستينيان ؟

ــ لا . .

ــ عجبا . اما صنعت اكليلا فاخرا وفى وسط جبهته زمردة جميلة فلمن ارسلته ؟

ــ لم أرسله لاحد . أوصى عليه شخص لا أعرفه ودفع الثمن . فصنعته وجاء واستلمه

ــ عجبا . اما قال لك ان الاكليل للامير جستينيان ؟

ــ لا

ــ غريب . أما أخذ منك ايصالا باستلام الثمن واعطاك ايصالا باستلام الاكليل ؟

ــ اعطانى وأخذ

ــ هل يمكن أن تتفضل وترينى الايصال لان الاكليل لى وأنا اعطيت ايصالا باستلامه . فاود أن أعرف اسم هذا الرجل الذى جاءنى بالاكليل وأخذ الايصال منى

ــ عفوا ومعذرة . مع الاحترام الكلى لحضرتك لا أعرف من أنت ؟

ففتح الامير حقيبة كانت معه واستخرج الاكليل وعرضه على الرجل ، وقال :

ــ أليس هذا هو الاكليل الذى صنعته ؟

ــ هو بعينه

ــ وأنا الامير جستينيان الذى قدم مجهول له هذا الاكليل

فانحنى جرمانوس انحناءة لائقة وقال : لقد تشرفت يا سمو الامير بهذه الزيارة الكريمة التى سيكون لها ذكرى عظيمة عندى . ها هو الايصال يا مولاى

وأخذ من بين أوراقه ورقة ودفعها الى الامير . فقرأها الامير » وكان الامضاء «اريوبندس» فقال كأنه يكلم نفسه « أريوبندس » ؟ من هو هذا ؟ ــ ثم خطر له خاطر . فسأل الصائغ :

ــ هل كاتب هذا الايصال اكليريكى ؟

ــ كلا يا مولاى . هو شخص عامى . .

ــ هل تعرف المطران اكليمندوس ؟

ــ رأيته عدة مرات فى الكنيسة . ولكن كاتب هذا الايصال ليس اياه ولا يشبهه . .

ــ شكرا جزيلا يا سيد جرمانوس . هل يمكن أن أعرف كم أخذت ثمن هذا الاكليل ؟

ــ ثلاثمائة مثقال . .

***

عاد الامير الى تيودوره فاستقبلته بابتسامة تشرح الصدر وقالت

ــ عما قليل سيكون مفتاح الأسرار هنا

ـ مفتاح الاسرار ؟ من ؟

ـ فيما كنت خارجة من الكنيسة فى هذا الصباح حيث كنت اشكر الله على النعم التى أنعم بها على ، اعترضنى الشخص الذى جاءنا بالاكليل أمس . وقال باشا : « عسى أن يكون الاكليل قد استرعى انظار الجمهور فى حفلة أمس يا حضرة النبيلة » فقلت : « كان بديعا جدا . اشكره لك . يود سمو الامير أن يراك » فقال : « انى تحت أمره » . فقلت : « هل يمكن أن تأتى الينا فى هذا الصباح » . قال : « بعد قليل أكون هناك »

***

بعد قليل جاء الرجل فاستقبلاه فى حجرة الاستقبال ، وهو رجل متوسط القامة والعمر بشوش الوجه صبوحه أنيق الملبس لطيف الروح . قال الامير باسما : هل اسم حضرتك السيد اريوبندس ؟

فقال الرجل ضاحكا : كلا يا سيدى اسمى بولس ؟

فقال الامير ممازحا : اذن . كذب وتزوير . .

ـ كيف ذلك يا سمو الامير ؟

ـ أمس قلت انك مرسل من قبل الجوهرى جرمانوس الى لتسليمى هذا الاكليل (وكان الاكليل بين يدى الامير) والجوهرى جرمانوس قال انك أوصيته عليه ونقدته ثمنه . ثم استلمته منه بايصال فيه امضاء اريوبندس . والآن تنكر هذا الاسم . أفليس هنا تزوير امضاء ثم كذب فى بلاغ أمس ؟

فقال الرجل ضاحكا : ان القصد الصالح اقتضى الكذب والتزوير يا سمو الامير . أما كنت وحضرة النبيلة أمس فى موقف حرج جدا . ولا تدريان كيف يأتى الفرج ! فلو أتى الفرج من مصدر صريح أفلا يحتمل أن ترفضاه

ـ ربما . .

ـ اذن . الكذب والتزوير سوغا قبولكما الفرج . .

ـ أود أن أفهم ما الذى حثك على تدارك الموقف الحرج وليس بيننا وبينك صلة سابقة

وقالت تيودوره : وأهم من هذا كيف عرفت موقفنا الحرج قبل حينه حتى توصى على الاكليل قبل ثلاثين ساعة ؟

فقال الرجل ولا يزال يبسم : أرجو أن تعفيانى من الاجابة عن السؤالين لان فى فمى ماء . وأرجو ان تأذنالى بالانصراف . .

وهم بالخروج ، وفى الحال نزع الامير خاتما صغيرا كان فى اصبعه وقدمه اليه قائلا : أرجو أن تحفظ هذا تذكارا صغيرا منى للتشكر . وأرجو أن تأخذ هذا الكيس أمانة للسيد اريوبندس

ونهض الامير وأودع ثلاثماية وخمسين مثقالا فى كيس ، وسلمه للرجل

- ١٥ -

فى المساء جاء المطران اكليمندوس فوجد تيودوره وحدها فى الصرح الصغير الذى أسكنها فيه جستنيان . فرحبت به ، فقال : ما جئت الا لكى أهنئك بنجاح حفلة أمس . فقد كنت الكوكب الذى كانت الابصار ترصده من كل ناحية فبهرها ضياؤه

فقالت مبالغة فى الابتسام : لا يقل فضلك يا سيدى الحبر فى اشعاع ذلك الكوكب عن فضل جلالة الامبراطور . جلالته خلق الكوكب ، وسيادتك خلقت أشعته

فقال مقهقها : هذه مبالغة شعرية ، وأعذب الشعر أكذبه

ـ لست مبالغة . لولا رعايتك المتابعة يا سيدى لظهر الكوكب خاسفا فى الحفلة . ولا أدرى كيف نكافئك

فبش المطران قليلا وقال : لا مطمع لى بأكثر من رضاك . .

ـ هذا تحصل عليه على أى حال . ليت رضاى ينفعك . .

ـ ينفع نفسى وقلبى كثيرا يا عزيزتى . وكلما استطعت خدمة لك ازدادت نفسى بهجة وحبورا . ترى متى يمكننى أن أمنى النفس ببهجة خدمة لك ذات قيمة ؟

فقالت ومقلتاها تضطربان فى مقلتيهما اضطراب الزئبق فى كف الأشل : المهمة التالية يا سيدى هى مهمة الزواج . الى الآن لم تحصل على تصريح رسمى من جلالته . .

ـ هذا أمر لا يصعب على قضاؤه ، لا يمانع جلالته ولكنه يقف أمام القانون حائرا

فقالت مكفهرة : ألا يستطيع الامبراطور أن ينقح القانون ؟

ـ ان فعل يثر عليه الامبراطورة . والامبراطورة تثير مجلس الشيوخ

ـ أعتقد أن الامبراطور الذى أخذ التاج بسيفه ، يستطيع أن ينقح القانون بكلمته . أرجو أن تبحث معه فى هذا الشأن

ـ قد لا يتعذر على جلالته تنقيح القانون المدنى ولكنه لا يستطيع تنقيح القانون الكنسى الذى هو بحماية قداسة البابا

ـ نستغنى عن القانون الكنسى

ـ من يكللكما ؟

ـ سيادتك

ـ أنا ؟ يحرمنى البابا من الكنيسة . ومعنى ذلك مقاطعة الامم النصرانية كلها لى ، واقفال الكنائس فى وجهى

ففكرت تيودوره هنيهة ثم قالت : انك يا سيدى تعقد المسألة . اذا كنت تودنى مودة حقيقية تحلها . .

ـ لست أودك فقط ، بل . . آه لو تعلمين . .

وقبض على يدها وجعل يقبلها : آه لو تعلمين ماذا فى هذا الفؤاد من الود

ووقف المطران تفاديا للتمادى وتأهبا للخروج . فوقفت . فضمها الى صدره . وقبل

شعرها . ومضى . وما صار فى رحبة الدار حتى التقى بالأمير جستنيان عائدا . فتصافحا مصافحة الود . وقال الامير : لا تذهب قبل أن نوفيك حقك من الشكر وان كنا لانستطيع ايفاءك حقك من الجزاء

وعاد المطران مع الامير الى حجرة الجلوس . وقال المطران : ان كان ثمة شكر واجب فهو لجلالة الامبراطور الذى منح تيودوره رتبة الشرف حتى أصبحت نبيلة لائقة أن تكون عقيلة سمو الامير

فقهقه الامير وقال : لا أرى أنه قد تغير شىء فى تيودوره اليوم . ليس فيها اليوم شىء جديد لم يكن فيها قبل أمس . لا تزال كما هى . كانت لائقة لان تكون عقيلة جستنيان ولا تزال

فقال المطران : ولكن التقاليد تقول ان تيودوره كانت عامية وضيعة . فرفعها جلالته الى درجة الشرف ، فصارت النبيلة تيودوره انجاليكا

ــ كانت نبيلة من غير أن يرفعها . وكثير من هؤلاء النبلاء والنبيلات على الرغم من ترقية جلالته لهم لا يزالون غير نبلاء . وكثير من السيدات الوضيعات نبيلات من غير أن يرقيهن جلالته . فهذه الترقية ضحك على الذقون يا سيدنا . .

قالت تيودوره : لا بأس اذا كان الضحك على ذقون الجمع يؤدى بنا الى الغاية التى ننشدها . فلنضحك

ــ فلنضحك اذا كان الامبراطور يبلغنا الى أمنيتنا . فهل من عقبة أخرى ؟

ــ أجل عقبة القانون المدنى . وهذه يذللها جلالته ، اذ يمكنه أن ينقح القانون . تبقى عقبة القانون الكنسى . .

فقال الامير : هذه عقبة لا نحسب حسابها فلا نتقيد بها . يجب أن نعقد قراننا عاجلا

ــ أما أنا فاحسب حسابها لئلا أعرض نفسى لحرمان البابا

فقالت تيودوره ضاحكة : لا يهمك حرمان البابا ، متى صرت أنا عقيلة الامير ، وصار الامير شريك الامبراطور فى الحكم . وثم . .

ــ ماذا تستطيعين أن تفعلى ؟

فقهقهت وقالت : أستطيع أن أجعلك بابا . .

فبغت المطران لهذه المفاجأة وقال : ان صولتك تقف عند هذا الحد يا عزيزتى

ونهض ومضى . وبعد خروجه وجدا كيس الثلاثمائة مثقال على المقعد حيث كان جالسا

- ١٦ -

ما مضت بضعة أسابيع حتى توفى الله الامبراطورة يوفيميا . وأصبح الامبراطور جستينوس بعد ذلك ضعيف الهمة . فضم اليه ابن أخيه جستنيان شريكا له فى الحكم

وما انقضت مدة طويلة حتى أصدر مرسوما بتنقيح القانون الخاص بزواج الأسرة

المالكة ، يسمح بزواج الامير جستينيان من تيودوره . وأوعز الى مجلس الشيوخ أن يوافق على هذا القانون ، فوافق

وما لبث أن عقد قران الامير على النبيلة تيودوره انجاليكا ببركة المطران اكليمندوس على الرغم من تحريم القانون الكنسي . ومنذ ذلك الحين صارت تيودوره تحضر مجلس الامبراطور السياسي الخاص . وكانت فى بعض الاحيان تطرح فى الحديث كلمة فيرتاح الامبراطور الى ملاحظتها

وبعد أن ماتت الامبراطورة يوفيميا صارت سيدات البلاط الوصيفات يعتزلن القصر من تلقاء أنفسهن الواحدة بعد الاخرى اباءة لنفوذ تيودوره عليهن

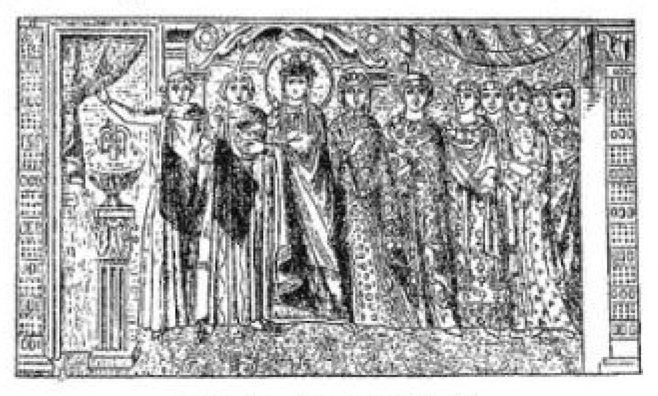
وبعد أربعة أشهر من زواج جستينيان وتيودوره ، توفى الامبراطور ، فتبوأ جستينيان العرش . وبطبيعة الحال كانت تيودوره الى جنبه فى الحكم

***

لا بد من لمحة الى حياة تيودوره بعد التوبة

لما عادت تيودوره من انطاكية الى بيظنطيوم وشرعت تشتغل بنسج الكتان ، لم يكتشفها أحد من عشاقها السابقين ، لانها تغيرت فى كل حال من أحوالها . تغيرت جسما وشكلا وعقلا وعفة ، لانها ودت أن ينسى ماضيها نسيانا تاما . ولعلها كانت تنوى أن تحظى بمحب يتزوجها لتعيش معه عيشة زوجية طاهرة سعيدة

وكان طالع نجمها أسعد طالع كسفت به شموس سائر الحسان . ففى ذلك الحين صادفها الامير جستينيان ووقع فى هواها . فأدركت أنها ظفرت بقلب يساوى جميع قلوب الامبراطورية قيمة . فاذا استطاعت أن تحتفظ به ، كانت تعادل جميع نساء الامبراطورية



الامبراطورة تيودوره تحف بها وصيفاتها

فمن ذلك الحين جعلت نفسها الطامحة تمنيها بالملك والسلطان والقوة . ومنذ ذلك الحين ظهر ذكاؤها الممتاز وبرزت مواهبها المتفوقة ، اذ شرعت تقبض لا على قلب جستنيان فقط بل على عقله وعواطفه أيضا ، بيد حكيمة صالحة . فمن ناحية واحدة عرفت من أين تؤكل الكتف . ومن ناحية أخرى عرفت كيف توجه هذه العلاقة الحية الى المصلحة المزدوجة : مصلحة العاشق ومصلحة المعشوق جميعا

لما رأت أنها ملكت عنان جستنيان روحا وقلبا ، كادت ترى صولجان الملك فى يدها — كل ذلك الدهاء القديم الذى كانت تستهوى به قلوب العشاق ، وجهته الى اجتذاب السلطة اليها . صارت مغرمة بالقوة والسؤدد والصولة وأبهة الملك . ولكى تظفر بجميع هذه الامور يجب أن تجعل جستنيان مسرورا راضيا

كذا جعلته . فتنته ، استعبدته حبا . جعلته يرتاح الى ذكائها وآرائها وسياستها

وضعت نصب عينيها أن تكون امبراطورة . فوجهت كل اهتمامها الى هذا الهدف . فصارت امبراطورة . .

من كان يصدق هذا ؟ هى كانت تصدق وتؤمل وتؤمن . والايمان أوصلها الى العرش

تيودوره التى كانت يهتف لها فى ملعب الهيبودروم كممثلة خليعة متهتكة ، كانت فى سنة ٥٢٣ م يحتفل بتتويجها ملكة فى كنيسة القديسة صوفيا . وبتكليلها على جستنيان ، ويهتف لها هتاف الفرح والسرور

كانت فى الرابعة والعشرين من العمر حينذاك ، أصغر من جستنيان بعشرين سنة

***

منذ صارت تيودوره امبراطورة ، شرعت تمارس الحكم فى دائرتها الصغيرة أولا . فكان أول أعمالها أنها جعلت تعطف على النساء الساقطات وتهتم بصيانتهن وانقاذهن من الفحش ومن الفاقة التى كانت تلجئهن الى ذلك . نظفت جميع شوارع بيظنطيوم من هؤلاء التاعسات . وأنشأت لهن ملجأ هنيئا فى الجانب الاسيوى من البوسفور حيث جمعت نحو ٥٠٠ امرأة

ومما يذكر من الحوادث بهذا الصدد ، أنه فى ذلك الحين وافت اليها اندروماكى زوجة الضابط فلابيانوس . وقالت : علمت يا مولاتى أنك طهرت المدينة من المومسات فنشكر لك هذه المحمدة . ولكن لم تزل هنا واحدة أهملتها جلالتك . .

فقالت تيودوره باهتمام : من هى ؟ أين هى ؟ . .

— اعذرينى يا مولاتى اذا قلت لك انها خليلة زوجى الضابط فلابيانوس . وقد أهملنى زوجى بسببها وازدرانى . وما أنا امرأة من العامة حتى يهون على الأمر . ان نسبى يتصل بالملك قسطنطين . والتحقيق يثبت لك الحقيقة يا مولاتى . .

— أرجو أن تعودى الى غدا فى مثل هذه الساعة . .

فى اليوم التالى لبى الضابط فلابانوس دعوة الامبراطورة وامتثل لديها ، واستقبلته بعبوسة وقالت : هل علمت أيها الضابط انى طهرت العاصمة من المومسات ، فلماذا تدنسها أنت باحتفاظك بخليلة من وراء زوجتك ؟ هل لك شكوى من زوجتك فنحاكمها ونعاقبها؟

ـ كلا يا مولاتى وانما ..

وهنا تردد ولم يعد يكمل الحديث فقالت : قابلتنى زوجتك أمس ، فرأيتها امرأة فاضلة طاهرة عفيفة لا يمكن أن تكون سببا لزيغانك عنها وتعلقك بأخرى ، فضلا عن أنها شريفة المحتد ..

ـ نعم يا مولاتى

ـ اذن . أريد أن تحترمها وتخلص لها وتهجر خليلتك ، وتبلغها أنها اذا كانت ترافق رجلا بغير زواج قانونى ، فانى أرسلها الى ملجأ المومسات عبر البوسفور

ثم صفقت فدخلت من باب آخر اندروماكى زوجة الضابط . فقالت لها : ها هو زوجك فلابانوس لا يريد بديلك حبيبة . تلاقيا أمامى ..

فقبلها وقبلته . ثم قالت تيودوره : أود أيها الضابط فلابانوس أن أسمع عنكما أخبار الامانة والاخلاص . فالجندى الذى يكون أمينا لزوجته يكون أمينا لامبراطورته وامبراطوره

ـ انى عبدكما الطائع الخاضع يا مولاتى . انى الجندى الذى يضحى بحياته لاجل امبراطوره وامبراطورته

ـ بارك الله فيك . أرجو ألا تنسى هذا الوعد أيها الضابط الشجاع

ـ هو أقدس عهد عندى يا مولاتى ..

واشتهرت بقساوتها على الرجال ، كأنها كانت تنتقم من هذا الجنس الذى كان يمتهنها فى عهدها الاول . فاذا قرب منها رجل مجرم متضرعا مستعطفا مسترحما كانت تمعن فى الانتقام منه

ولما استتب لها الامر ، صارت ذات حول وطول ، ولم تعد تسمح لاحد أن يتقدم اليها الا ساجدا على ركبتيه ومقبلا الارض بين يديها مهما كان مقامه عظيما

وكان الامبراطور جستنيان رجل علم وفن . يود التشاغل بالسياسة والنقاش بعلم اللاهوت . وكان يحسن النقش والزخرفة . فما لبث أن رأى نفسه لا يحسن ادارة الحكم الا اذا كانت تيودوره الى جنبه . ولهذا كانت تحضر دائما مجلس الدولة ، ويكون لها فيه كلام وآراء سديدة ..

عجبا .. أين كانت هذه الموهبة مخبأة ؟

سبحان الله . يخرج من الصخرة ماء

وكان الامبراطور جستنيان يلتفت فى سياسته الى الماضى بغية أن يعيد الامبراطورية الرومانية الى سابق مجدها واتساعها بعد أن تلاشى القسم الغربى منها أمام غزوات البربر الذين وفدوا من الشمال

أما تيودوره فكانت تنظر الى الشرق لكى توسع الامبراطورية على حسابه . ولهذا كانت تسترضى أهل الاطوليا وسوريا ومصر وما تطرف من الامبراطورية . ولذلك كانت تختلف أحيانا مع جستنيان ، ولكنه كان دائما ينقاد الى رأيها أخيرا

وكان هناك أشخاص يعرفون ان تيودوره تكرههم لانها كانت تشعر أنهم غير موالين لها . ومنهم جرمانوس ابن أخى الامبراطور . وسكرتير الدولة بريسكوس Briscus ويوحنا والى كبادوكيا . فكانت تحاذر من دسائسهم

وكان جميع رجال الدولة يتقدمون بمسائلهم اليها أولا ثم الى الامبراطور . ولكن القائد العظيم Belisarius بليسروس قائد الجيش الاعلى كان يشذ عن هذه القاعدة فلا يتقدم لها ، بل يتقدم للامبراطور وحده مباشرة . فكانت تتغيظ منه . على أنها توفقت الى وسيلة لطيفة جعلته ينقاد لها . وهى أن زوجته انطونيا كانت سيئة السلوك على الرغم من أنه كان يحبها حبا شديدا ، وكادت تهجره الى أحد عشاقها . فوفقت تيودوره بينهما ، وكسبت صداقته

وكان بليسروس هذا أمينا جدا لسيده الامبراطور ، ولكن الامبراطور كان يغار منه كلما عاد من حرب ظافرا . .

وكان الشخص الوحيد الذى يدخل اليها بلا استئذان هو تيوفورس من ميلين، اذ كان كاتب أسرارها ومعلم بنتها المجهولة الأب . وكانت تثق به كل الثقة

- ١٧ -

فى سنة ٥٣٦ م استوى البابا سلفريوس على الكرسى البابوى خلفا للبابا اغابيوس . وفيما كان منهمكا فى تنظيم أحوال منصبه الذى دفع ثمنا له للملك الجوتى تيودوس ، اذ كان الجوتيون الذى جاءوا من الشمال قد فتحوا رومه واستولوا على الامبراطورية الرومانية الغربية . حينئذ فوجىء بوفد اكليريكى من بيظنطية وهو لا يدرى مهمة هذا الوفد الذى كان مؤلفا من رئيسه الأسقف فيجيليوس وأربعة قسيسين

فاستقبلهم البابا بالاكرام اللائق ، واستمع لهم فى مكتبه الخاص ، فقدم له الاسقف الرسالة التالية التى زوده بها الامبراطوران جستنيان وتيودوره ، ففضها البابا وقرأها متجهما :

قداسة البابا سيلفريوس الكلى الطوبى

قد أوفدنا الى قداستك سيادة الاسقف فيجيليوس على رأس وفد من قبلنا . وقد أملينا على سيادته ما يجوز له أن يقوله

جستنيان وتيودوره

امبراطورا الشرق

ثم نظر البابا الى الاسقف والقسيسين متجهما وقال :

ــ الامبراطورة فى الامضاء أيضا ؟ ما شأنها ؟

ــ شأنها أنها عقيلة جلالة الامبراطور . وقد أشركها جلالته بالملك بموافقة مجلس الشيوخ

فقال البابا بنزق: ليست زوجته بل هي خليلته ، وكلاهما زان ، فكيف يشركها بالحكم؟

فقال الاسقف متئدا : بل تزوجها زواجا شرعيا يا سيدنا . .

ــ كيف يكون زواجهما شرعيا وقد حرمهما سلفى البابا اغابيوس وحرم المطران اكليمندوس الذى كللهما ؟

ــ ولكنهما لم يعبأ بهذا الحرم . .

ــ عجبا . والمطران اكليمندوس ؟ ألا يزال يمارس الطقوس الدينية ؟ وهل يدخل الكنيسة . وهل لا يزال الناس يخضعون لسلطته الدينية ؟ وماذا تريدون الآن من رأس الكنيسة (يعنى نفسه) ؟

ــ ان مهمتنا يا مولانا أن تصحب قداستك الى بيظنطيوم فى بارجة حربية جئنا بها خاصة اكراما لمقام قداستك المبجل

فانتفض البابا دهشة مقرونة بذعر وقال : أنا أصحبكم الى بيظنطيوم ؟ لماذا ؟

ــ لان جلالتى الامبراطورين يريدان ان يبحثا مع قداستك فى بعض مسائل جوهرية

فاشتد غيظ البابا وقال : بابا رومية لا يخرج منها بحال من الاحوال . يمكنكم أن تبسطوا المسائل لى وأنا أحكم فيها . ويمكن جلالته أن يرسل مع أى شخص المسائل التى يريدها وأنا أنظر فيها هنا . وأبدى له وجهة نظرى

ــ المسائل التى يريدان مباحثتك فيها خطيرة الشأن وتقتضى مشافهة قداستكم مباشرة

فهز البابا رأسه هزة رحوية وأكمد وجهه غيظا وقال : أظن جلالة الامبراطور يريد أن يبحث فى شرعية زواجه . فلكم أن تعودوا اليه وتبلغوه أن زواجه غير شرعى . قانون الكنيسة صريح . وهو أنه لا يجوز زواج الزانية لا للملوك ولا للعوام

فتململ الاسقف ثم قال : ليس لى أن أناقش قداستكم فى هذا الموضوع . يمكنكم أن تقنعوا جلالتى الامبراطورين بهذا الشأن شفهيا . وأما نحن فلسنا مفوضين أن ننقل رأى الحبر الاعظم فيه ، ونحن لا ندرى ان كان هذا هو غرض جلالتيهما من استدعائك

ــ أنتم أحرار . عودوا وأبلغوا جلالته كيف انتهت مهمتكم . .

ــ مهمتنا لم تنته يا سيدنا

ــ عجبا ! كيف تنتهى مهمتكم ؟

ــ بأن تتفضل بالذهاب معنا ونحن فى خدمتك . .

فحملق البابا فيه وقال : عجيب أن تصر على هذا الطلب ، وقد قلت لك ان بابا رومية لا يفارق رومية

ــ يفارقها يا سيدنا . .
ــ واذا كنت لا أمضى معكم فماذا يحدث ؟!. .
ــ مولاى . لا أود أن أقول ماذا يمكن أن يحدث . .
ــ ألا تعلم أن رومية الآن فى مملكة الملك القوطى تيودونس . وأن أخذى بالقوة من هنا لا يمكن الا بانتصار جلالة الامبراطور جستينيان على جلالة الملك تيودوس فى حرب شعواء لا أريدها البتة
ــ اذا كنت لا تريدها فيحسن أن تصحبنا
ــ تعنى أن جستينيان يحارب . .
ــ لا لزوم للحرب . يقضى الامر بلا حرب
فاستغرب البابا هذا القول وقال : كيف ينقضى وأنا لا أريد أن أرحل من هنا ؟
فاقترب الاسقف قليلا من البابا ، وقال بمثل الهمس : يسوءنى أن أقول لقداستكم ان اصراركم على الامتناع عن السفر الى بيظنطيوم يفضى الى مصير البابوية كما كان مصير الامبراطورية الضخمة
فوجف فؤاد البابا وقال : تعنى أنها انشطرت شطرين
ــ نعم وكذا يكون مصير البابوية . ينشطر الكرسى البابوى الى شطرين : الشطر الاكبر والاعظم يكون فى بيظنطيوم أو فى أورشليم . والشطر الاصغر يبقى فى رومية تحت رحمة القوط وهم غير مسيحيين . وأخيرا يتلاشى . .
فاسودت الدنيا فى عينى البابا سيلفريوس وارتعدت فرائصه . وبقى بضع دقائق مطرقا لا يتكلم . ثم رفع نظره وظهر وجهه مكمدا كأنه خلاسى . وقال بصوت خافت : أصدقنى الخبر اليقين يا عزيزى الاسقف .هل هناك حديث بموضوع شطر الكنيسة .وهل المسيحيون فى الشرق على استعداد لقبول هذا الانشقاق الفظيع الذى يكون كارثة على النصرانية
ــ لا بد انك تعلم يا سيدى أن المسيحيين فى الشرق أصبحوا فرقا مختلفى العقائد
ــ نعم أعلم أن بعضهم يعتقدون بطبيعة المسيح الواحدة . وقسما منهم يعتقدون بطبيعتيه اللاهوتية والناسوتية . ونحن نبذل الجهد فى أن نرد أولئك الضالين الى حظيرة الطبيعتين
ــ أجل يا مولاى . وتتوسلون الى هذه الغاية بوسيلة « الحرم » أى حرمان الضالين من التمتع بنعم الكنيسة ، وجعل كل ما يفعلونه دينيا غير قانونى ، وفيما تنشرون أحكامكم بالحرم على الضالين يسمح لهم الامبراطوران بممارسة طقوسهم الدينية حسب عقائدهم ، فهم راضون عن الامبراطورية الشرقية
فهز الحبر الاعظم رأسه هزة رحوية وقال :
ــ وهل يوافق أساقفة الشرق ومطارنته على هذا ؟
ــ يسرون به جدا ، اذ يصبح الكرسى الرسولى فى وسطهم يلوذون به ويلجأون اليه ،

ولا سيما اذا كانت الامبراطورية تؤيده . وحينئذ يصبح كرسى رومية صفرا

فوقف البابا منفعلا شديد الانفعال ، وجعل يمشى فى البهو من غير انتباه لنفسه ، ثم قال :

ـ هل تظن أن ذهابى الى بيظنطيوم يتدارك هذه الكارثة ؟

ـ لا يصعب على قداستك أن تتفاهم مع الامبراطورين

فنفخ البابا وتأفف وقال محتدا ساخطا : ما فتئت تقول « الامبراطورين » وأنا لا أعرف الا امبراطورا واحدا . فأرجو ان تجعل الاثنين فى واحد

ـ لا يا مولاى . اذا كنت لا تعترف بالامبراطورة فلا تذهب الى بيظنطيوم . ودع المقادير تجرى فى أعنتها . الامبراطورة قبل الامبراطور

ـ ويحك . أهكذا أصبحت الزانية سلطانة

ـ لا جدوى من التفكير فى الامر المحتوم يا سيدنا . لا تظن أن ملك الجوث يحارب لاجل الكرسى البابوى . فاقبل نصحى واستعد للسفر غدا . فالبارجة مستوفية جميع الوسائل لراحتك

***

واتفق بعد بضعة أيام أن القائد بليسيريوس الذى كان يحارب الجوثيين من قبل الامبراطورية الشرقية توفق الى احتلال رومه فى ذلك الحين ، أى حين كان ذلك الوفد البيظنطى لا يزال فى رومه ينتظر ذهاب البابا معه . والبابا لا يزال يتردد ويمانع ويعارض

ولما دخل بليسيريوس الى رومه لم يسع البابا سيلفريوس الا أن يقبله ويستقبله . ولكنه صار خائفا أن يضغط عليه ويرغمه على السفر الى بيظنطيوم

على ان القائد لم يلزمه بالسفر تلبية لرغبة الوفد . ولكنه لما علم ان بينه وبين ملك الجوث مكاتبات سرية لمؤامرة ضده خلعه خلعا . فاضطر البابا حينئذ أن يسافر الى بيظنطيوم لكى يتظلم للامبراطور جستنيان الذى يحارب القائد باسمه وله . وكان خلعه فى سنة ٥٣٧ اذ لم يكد يتم السنة الاولى فى كرسيه البابوى

- ١٨ -

دخل تيوفوروس كاتب السر الى الامبراطورة صباحا ، وهو الوحيد الذى يدخل بلا استئذان ، وقال لها : ان المطران اكليمندوس واقف يلتمس الامتثال الآن بالحاح

ـ دعه يدخل

وكانت تيودوره لا تزال بجلباب الصباح ولم تتبرج ولا تطرت بعد . ودخل المطران اكليمندوس ، وتقدم وركع أمامها ، وتناول يدها وقبلها مرارا ، فانهضته وأجلسته الى جنبها وقالت : ما رأيك بتوارد الخواطر ؟ لقد أصبحت اليوم وفى عزمى أن استدعيك لمقابلتى ، فاذا بك تأتى قبل أن أوفد اليك رسولى . .

ـ هذا غريب جدا يا مولاتي . لا بد من هاتف خفي بيننا يهتف في آذننا أو في قلبينا

فتبسمت تيودوره ملء ثغرها وقالت : وجدت لك وظيفة عظيمة الشأن . الكرسي الرسولي في رومه . .

فاجفل وقال : هذا أمر يشبه المستحيل ، لانه يقلب الدنيا رأسا على عقب

ـ وهو ما أريد أن أفعله . أريد أن أقلب الدنيا رأسا على عقب

ـ وأيم الحق تستطيعين . فان الدنيا كلها أصبحت لديك قلوبا متعبدة لك . فاذا منحتيني كرسي البابا هبط ذلك الكرسي وصارت أعاليه أسافله

ـ يستطيع اكليمندوس الداهية أن يرفعه قويا الى قمة رومه

ـ دون هذا الأمر موانع عديدة : أولا أن جميع الاحبار راضون عن البابا سيلفريوس . وثانيا اني محروم من الكنيسة منذ كان البابا اغابيوس رأسها كما تعلمين . .

فقاطعته قائلة : لهذا السبب أريد أن أجعلك حبرا أعظم لكيلا تبقى شرعية زواجي مطعونا فيها

ـ ولكن من يستطيع أن يخالف نظام الكنيسة وقانونها ؟

ـ من نظم ؟ ومن قنن ؟

ـ مجمع البطاركة والمطارنة الخلكيدوني

ـ في وسعنا أن تجعل مطارنة كثيرين من حزبنا يعقدون مجمعا بيظنطيا

ـ هذه مهمة شاقة جدا يا سيدتي ، تشطر الكنيسة شطرين

ـ لانضطر الى هذه المهمة اذا كنت أنت حبرا أعظم

ـ والحبر (البابا) سيلفريوس ؟ ماذا يكون من أمره ؟

ـ سيكون هنا قريبا للبحث معه . فان لم يوافق على تنقيح القانون أصبحت أنت خلفه

فوجف اكليمندوس وقال : هذا مستحيل يا سيدتي . لا أقدر أن أفارق بيظنطيوم يوما واحدا ، لاني لا أعيش ساعة اذا لم أمتع نظري بهذا الوجه الذي يطفح بشرا

فضحكت تيودوره وقالت : ألا تتوب عن هذا الغزل ، وأنت مطران تعبد الله وتزهد باللذات الدنيوية

فقال مستعطفا مسترحما : أما فهمت بعد أني لديك لا أكون المطران اكليمندوس ، بل يعود الى اسمي العلماني اريوبندوس Aereobindus كما كنت قبل أن أنتظم في سلك الكهنوت . وأريد أن أعود الى عهد حبي وغرامي القديم

فتنبهت تيودوره وقالت مراوغة : من كان ذلك الحبيب القاسي ؟

ـ كان اياك يا قاتلة قلب بلا ذنب

فاجفلت تيودوره وقالت : أنا ؟ لا علم لي بذلك . .

ـ طبعا نسيت لان الزمان نساك وغير كل شيء في وقتك . فلم تعودي تعرفينني . أما

أنا نعرفتك حالما ردك الله الى فى انطاكية . يوم عرفتك فى أول الصبا كنت أحد عشاقك الذين كثروا حين احتفلك هيكيبولس حاكم باتابولوس وأخذك الى ولايته فى شمال افريقيا . فما ذاق قلبى لذة هواك حتى استلبك ذاك الوغد من فؤادى . انقطع خيط رجائى . فلم أر بدا من معالجة داء شوقى القاتل الا بأن أتوب عن غرامى . وأى مكان أفضل للتوبة من الدير ؟ وقدر الله لى أن أنجح فى الرهبنة نجاحا سريعا حتى صرت أسقفا . ثم عاد الله فابتلانى بحبك يوم دفعك بطرك انطاكية الى يدى لكى أهذب نفسك وأطهر قلبك وأردك الى الكنيسة . وكنت حينئذ موغلا فى تقوى الله متورعا عن الهوى متعففا عن شهوات الجسد . فبينما كنت أقربك الى التقوى كنت أرانى متباعدا عن الزهد . وما صفا جوهرك وطهر عنصرك من أدناس الهوى حتى عاد فؤادى يتمرغ فى بركة الغرام . وفيما كان القلب يهم أن يحتويك كان الضمير يردعه . ولكن جذوة الحب طفقت تضطرم ، فبينما كان لهيبها يستعر فقدتك . افتقدتك فى انطاكية فما وجدتك . آه ندمت على وعظى اياك . أسفت لانى غيرت قلبك . لان ذلك التغيير الذى فعلته مواعظى فيك أبعدك عنى على الرغم من أنه قربك الى قلبى . ولكنى لما يئست من لقائى بك عدت ثانية الى توبتى ، وحمدت الله أنه أنقذنى من غرامى الثانى . وسرعان ما تبت عن هواك حتى وجدتك بين يدى هنا فى محكمة الدولة العليا . فعاد غرامى يتقد ثالثة بعد أن كاد يخبو . وهأنذا الآن أتقلب فى لظى من الشوق ، فابرده بنظرات من هذا الجمال الملائكى . فكيف أطيق الحياة فى رومه حيث أتين النور فلا أرى وجهك فيه ؟

وكانت تيودوره مصغية باسمة كأنها تستلذ حديث غرام لم تسمعه من رجل من قبل . فقالت : لا بأس . تشفى من هذا الغرام فى ذلك الكرسى الأعلى الذى تشرف فيه على الملائكة الاطهار

فنزق قائلا : بربك . لا أريد أن أشفى من غرامى . يلذ لى أن أشقى به . هل يضيرك هذا الغرام الشقى ؟

ــ بل يضيرك الغرام العقيم .

ــ انه أسر لنفسى من الشوق المحرق والحب المتهتك . فما أحصل عليه من ابتساماتك يكون غنيمة تغذى نفسى الجائعة الى هواك . بربك لا تبعدينى عنك . انى الآن اريوبندوس العلمانى ، فلماذا لا تجعلين لى وظيفة فى القصر فأخدمك خدمات قد لا يستطيعها وزير من وزرائك

فمدت اليه يدها الرخصة النضيرة فتناولها وجعل يقبلها مثنى وثلاث ورباع ويمرغ خديه عليها الى أن جذبتها من بين يديه وقالت : أهذا الذى جاء بك الى فى هذا الصباح ؟

ــ أجل هذا ما يجىء بى اليك كل دقيقة لو كان المجىء يتاح لى . وانما لست كل صباح أوفق الى سبب لكى آتى وأضم هذه اليد الكريمة الى صدرى . .

ــ ماذا كان السبب اليوم ؟

ـ فازدرد اكليمندوس لعابه كأنه يتردد فى أن يقول أو لا يقول . ثم تجرأ وقال :
ـ أتأسف يا مولاتى أنى مضطر بحكم اخلاصى فى خدمتك أن أقول أمرا قد لا يسرك فما هزها هذا الانذار البتة . وقالت : لا أتوقع أن أسمع دائما كل ما يسرنى من الناس
ـ هل بلغ الى علمك أن لجلالة الامبراطور خليلة الآن هى فى القصر الصغير بصفة كونها وصيفة فيه ؟
فتبسمت ملء ثغرها وقالت : كيف عرفت هذا ؟
ـ أتسألينني أنا كيف عرفت هذا ؟ عرفته كما عرفت مكيدة الاكليل الذهبى المرصع قبل حفلة « التقديم »
ـ تعنى أن لك جواسيس فى القصر الصغير أيضا ، فتعرف كل ما يحدث فيه ؟
ـ أعرف كل ما يحدث فى بيظنطيوم وغيرها . ويمكن جلالتك أن تعتمدى على فى تسقط الاخبار التى تهمك
ـ ثم ماذا عرفت من شؤون هذه الخليلة ؟
ـ أما يكفى أن تعرفى أن الامبراطور ليس مخلصا كل الاخلاص ؟
ـ احتظاء الامبراطور خليلة لا يثلم اخلاصه يا عزيزى . هذه نزوة لا تلبث أن تنطفىء . وأما الحب الروحانى فهو باق لى . .
ـ عجبا . عجبا . لا أفهم كيف يكون ذلك ؟
ـ لا تعجب . انكم أيها الرجال تحت سلطان شهواتكم وتعجزون عن أن تعصوها . .
ـ أو ليس للشهوة سلطان على النساء
فقالت ضاحكة : تخشى أن تقول ان ماضى حياتى يؤيد ان للشهوة سلطانا على النساء
ـ معاذ الله أن ألمع الى ماضى حياتك . فقد محى من سفر الديتونة . وانما أشير الى الخمسمائة زانية اللواتى جمعتهن من أسواق بيظنطيوم وجعلتهن ضيفاتك فى ملجأ خاص عبر البوسفور . أما كان للشهوات سلطان عليهن ؟
فقالت متحمسة : كلا البتة . وانما كان سلطان شهوات الرجال يجرد جيوش الغواية على عفافهن . وهن غير محصنات لا بازواج لهن ولا بكفافهن من العيش
فقال : لا أعتقد ان الرجل يتهجم على امرأة اذا لم يأنس منها ميلا . .
ـ أجل بل هو المتهجم على كل حال . ولا يأنس ميلا الا من المرأة التى دفعها اليه أحد الاسباب التى ذكرتها . فلا تدافع يا عزيزى عن جنسكم . وما الامبراطور الا واحد منكم . فهو الآن يشبع شهوة الجسد الى حين ، ومتى ارتوت هذه الشهوة ، عادت شهوة الروح . .
ـ اذا كان هذا التعليل يريح نفسك يا سيدتى فلتهنك هذه الفلسفة السعيدة . وانما فى حب الامبراطور الشهوانى شىء آخر لا تستطيعين الرضى به
ـ تعنى أن تلك الخليلة تبتغى أن تجلس على عرش الامبراطورية ؟

ـ انك يا سيدتي تسمعين خطرات الافكار وتنظرين خلجات القلوب وتحسين موجات الآمال . فلا بدع ان تفهمي ما الذي ترمي الخليلة اليه
ـ هل رأيتها يا محترم ؟
ـ رأيتها . وعذرت جلالته في هواها . .
فقهقهت تيودوره وقالت : هل حادثتها ؟ وهل عرفت من هي ؟
ـ أني لي هذا وهي في حوزة جلالته
ـ وانت تخشى أنها تصل الى العرش ؟
ـ لا . وانما هي تسعى اليه ، وقد تحدث شغبا في القصر بسعيها هذا
فضحكت تيودوره ملء فمها مقهقهة كعصفور مزقزق وقالت : اتبعني . .
ونهضت ودخلت في باب يتصل بمخدعها ، واكليمندوس يتبعها . ثم وقفت لدى ستار يحجب المخدع السري الآخر ، وأزاحت الستارة قليلا ، وهمست في أذنه : « أنظر » . وأشارت الى السرير . فنظر اكليمندوس . ثم ارتد ، وردت تيودوره الستارة . ورجعا الى الغرفة حيث كانا أولا . وقالت : ماذا رأيت ؟
ـ رأيت امرأة مضطجعة في السرير ووجها أبيض كوجه ميته . .
ـ هذه هي الخليلة ، ولكنها غير ميتة ، بل هي منهوكة من طول ليلها . ناقة . فهل تظن أن هذا الطراز من النساء يستهوى روح جستنيان ويشغله عن عرشه ؟ لا تخف على العرش أن تهزه هذه الحشرة . وأظن شهوته قد انطفأت بهذا التمثال البارد فنبذها
وكان المطران يسمع مبهوتا ثم قال : ما الذي جاء بها الى هنا ؟
ـ السكر والعربدة دفعاها من القصر الصغير ، فتلقيتها هنا تفاديا للثرثرة . هل عرفت اسمها ؟
ـ قيل ان اسمها صوفيا
ـ بل أسمها النبيلة ادينا صوفيا . هل نسيت حين اختلست الامبراطورة يوفيميا اكليل من عند الصائغ فيلبس لكى تضعه على رأسها وتحرج مركزى ؟ .. ولولا نجدتك لخاب قصدنا
فضحك المطران وقال : نجدتي ؟ ماذا كان شأني بها ؟
ـ يا الله . أتتجاهل . لقد عرفت دسيسة الامبراطورة وعرفت حيلتك في اكتشافها وسعيك في عمل الاكليل فلا أنسى خدمتك
ـ يا الله ! هذه النعسة كانت مزاحمتك في تلك الحفلة عادت مزاحمتك في هذا الحب . فكأنها تثأر منك
ـ لا . لم تقدم هي من تلقاء نفسها ، وانما رجلان وامرأة قوادون جاءوا بها الى جستنيان متاجرين بعرضها ولكى يلعبوا دورا فكاهيا بواسطتها . بعد ساعة من الزمان سيتولاهم الجلاد الدروبيكوس . وأما هذه المرأة المسكينة فيمكنك أن تتخذها لك أمة اذا أشفقت

أن أرسلها عبر البوسفور أو الى قعر البوسفور

ــ مولاتى انى أتشفع بهم جميعا . انهم جهلة لا يعلمون ماذا يفعلون ؟

ــ قد أعفو عن المرائين ، ولكن عن الرجلين لا أعفو . .

- ١٩ -

كان يوم صاخب بالمهام الجسام حين ورد الخبر الى الامبراطور ان القائد بليسيريوس احتل بجيشه رومه ، وأنه سيستمر فى الفتح حتى يطرد الجوث وملكهم من الامبراطورية الغربية . وفى ذلك الحين دخل الى تيودوره كاتب أسرارها وأبلغها أن الوفد الذى عاد من رومه ومعه البابا سيلفريوس ينتظر قبول الامتثال

فقالت له : قل للاسقف فيجليوس أن يدخل مع البابا بالخضوع الرسمى المعروف

بعد هنيهة دخل فيجيليوس وهو يقود البابا بيده ، وكانت الامبراطورة جالسة على عرشها الأنيق الفاخر . ثم جثا أمام العرش وقبل الارض . ووقف ينتظر أمرا بالجلوس. والتفت الى البابا فاذا به يخرج من البهو ، فنظر الى الامبراطورة فاذا هى تقول له:

ــ اتبعه واقنعه . .

تبع فيجيليوس البابا . واستوقفه فى الرحبة الخارجية وأمسك بساعده وقال : لماذا خرجت هكذا يا سيدى ؟

وكان البابا ينتفض من شدة الغيظ فقال : ما جئت لكى أقابل هذه الزانية . بل لكى أقابل الامبراطور . .

فهمس فيجيليوس : صه . صه . لا تدع أحدا يسمع ما تقول . لا يستطيع أحد أن يقابل جلالة الامبراطورَ من غير أن يقابل جلالة الامبراطورة أولا . .

ــ ويحك ! أالى هذا الدرك بلغ ذل الكهنوت فى الامبراطورية الشرقية ؟

ــ بل هذا شرف الكهنوت يا سيدى . تسجد للقوة لانك تعتمد على القوة المادية فى سلطتك الروحية . والا فيسقط كرسيك ويتحطم

ــ لقد أصبحت بلا كرسى من بعد ان خلعنى بليسيريوس قائدكم . فلماذا أسجد ؟

ــ تسجد لكى تسترد كرسيك . فانصح لك يا مولاى أن تدخل وتسجد مرة واحدة فقط ، وبعدها يكفى الانحناء .

فقال البابا متذمرا : خذنى الى مجلس الامبراطور . .

ــ لا طريق الى مجلسه غير هذا الباب. لا بد من رضاها أولا . .

فضجر سيلفريوس جدا وقال : لماذا لا يحضر الامْبراطور معها فأقابلهما معا ؟

ــ فكرة حسنة . سأقترح هذا الاقتراح . امهلنى .

فاذا بثيوفوروس خارج من البهو ومقبل عليهما . فقال : ان جلالة الامبراطور منتظر قداسة البابا

فامسك فجيليوس بيد البابا سيلفريوس ودخلا . وتقدم البابا اذ رأى جلالة الإمبراطور واقفا أمام عرشه الى جنب عرش الامبراطورة فانحنى لهما . فقالت الامبراطورة بصوت حازم : أما قيل لك كيف يدخلون فى البلاط الامبراطورى وكيف يمثلون ؟

فهبطت حرارة العنجهية ، وانحنى سيلفريوس انحناءة كاد يصل بها رأسه الى مستوى ركبتيه . وعند ذلك مد الامبراطور اليه يده ، فتقدم اليه سيلفريوس وصافحه ، وتقدم الى الامبراطورة وانحنى انحناءة منخفضة جدا . فبسطت تيودوره كفها الناعمة باسمة . فتناولها وقبلها قبلة ارتياح . وأشار الامبراطور له أن يجلس

ثم تكلم جستنيان : أتأسف يا سيادة البابا سيلفريوس أن قائد جيشنا بليسيريوس اضطر أن يقيلك من كرسى البابوية لسبب منك كما فهمت من تقريره الاخير . .

ـ لقد فسر القائد يا صاحب الجلالة مكاتبة دارت بينى وبين ملك الجوث بانها دسيسة ضده . والحقيقة أنى كتبت لذلك الملك أوصيه بأن يعامل المسيحيين الذين تحت حكمه بالحسنى

فقالت الامبراطورة : أجل فى الامر سوء تفاهم فلا يتعذر أيضاحه . هذه مسألة بسيطة تدبرها بسهولة . أو لا تعتقد يا قداسة البابا أن من الحكمة أن نجمع جميع نصارى الشرق والغرب فى حظيرة كنيسة واحدة ؟

ـ هذه أمنيتى العظمى

ـ اذن لماذا حرمت كنيسة رومه بعض الطوائف المسيحية فى الشرق . أليس الافضل أن يكون جميع النصارى على اختلاف عقائدهم فى حظيرة واحدة ، من أن يطرد بعضهم منها طردا لكى ينشئوا لانفسهم كنيسة مستقلة

ـ يجوز التساهل بكل شىء يا مولاتى الا فى العقائد الدينية

ـ من وضع هذه العقائد ؟

ـ المجمع الخلكيدونى المؤلف من كبار اللاهوتيين من المطارنة والاساقفة الذين استخلصوا هذه العقائد من الاناجيل ورسائل الرسل

ـ والذين خالفوا عقائد المجمع الخلكيدونى هم لاهوتيون أيضا ولهم آراء سديدة . فمخالفتهم لا تعتبر زندقة . .

وكان الامبراطور ساكتا يسمع الى أن قال : لذلك نقول يجب أن يعتبر الجميع مسيحيين ضمن دائرة الكنيسة . ولذلك أيضا يجب أن يلغى من كتاب قرارات المجمع الفصول الثلاثة المسماة « فصول الجدل » التى وردت فيها نقط الخلاف بين الطوائف المسيحية ولا سيما المختصة بالاحوال الشخصية

وهنا انتفض البابا سيلفريوس وقال والغضب باد على محياه : أظن أن جلالتكم استدعيتمونى لهذا الغرض

فقالت الامبراطورة : نعم (أولا) لالغاء هذه الفصول الثلاثة من كتاب المجمع

و (ثانيا) لالغاء الحروم – جمع حرم – التى نشرها سلفك البابا اغابيوس. و (ثالثا) تقرير أن عقد زواجنا شرعى . هذه مطالبنا بصراحة يا قداسة البابا

فاكمد وجه سيلفريوس غيظا . وقال : هذه المطالب من اختصاص المجمع . وسلطة المجمع فوق سلطتى . فاذا أصدرت قرارا جحده المجمع وخلعنى ، وحينئذ لا يذعن لى بطرك أو مطران أو أسقف أو قسيس بتاتا

فقال جستنيان : نمنع المجمع أن ينعقد . .

فتململ سيلفريوس وقال : تقدرون على أى شىء تشاءون ، ولكن هذا افتئات على الكنيسة وتدنيس لها لا أريده ولا أتجرأ عليه . .

فقالت تيودوره : هذا قرار الامبراطورية المحتوم . فاختر بين سلطة المجمع أو سلطة الامبراطورية . لديك شهر كامل تنظر فيه فى هذا الامر . .

ثم نادت كاتب سرها نيوفوروس وقالت له : أرشد قداسة البابا الى المنزل الخاص فى البلاط حيث يكون قداسته ضيفا مكرما

***

بعد خروج البابا سيلفريوس تفاوض الامبراطوران فقالت تيودوره : يظهر أن هذا البابا عنيد مغتر بسلطته الروحية . وقد فهمت من تقرير فجيليوس قبل أن يأتى به الى البلاط أنه كان مصرا على رفض المجيء . ولو لم يخلعه القائد بليسيريوس لما جاء الى هنا . فهو يريد أن تلغى حكم القائد وترده الى كرسيه . .

– أتريدين أن نهمله أو أن نحتفظ به هنا . .

– بل نؤذن له بالعودة الى رومه مزودا بتوصية بسيطة . ومتى وصل اليها وجد كرسيه قد ملأه خلفه فيجيليوس . لانى باحثته فى شروطنا فقبلها ، وتعهد أن يفعل ما لا يجرأ عليه سيلفريوس

***

لما عاد سيلفريوس الى رومه ، وجد فيجيليوس مستتبا فى الكرسى البابوى ولم يستطع أن يزحزحه منه . بل ان فيجيليوس نفاه الى بنداتاريا حيث قضى بقية حياته ذليلا حزينا

***

أما فيجيليوس فلم يستطع أن يبر بوعده للامبراطورين ، اذ وجد مقاومة من المطارنة وسائر الاكليروس . فاستدعته تيودوره . فأصدر منشورا حسب رغبتها فشجبه المجمع . فبقى فى بيظنطيوم شبه أسير (١)

(١) ان تحكم تيودوره بهذين البابا وين حادث تاريخى . اقرأ عنه فى دائرة المعارف البريطانية تحت اسميهما واسم تيودوره

- ٢٠ -

وافى المطران اكليمندوس أو اريوبندوس ملبيا دعوة تيودوره . ودخل الى حجرتها الخاصة فوجدها متكئة على مقعدها المستطيل غارقة فى مخمل من الدمقس وهى فى ثوب الصباح الارجوانى . وسجد أمامها ، وتقدم وتناول يدها التى بسطتها اليه وقبلها مرارا. فقالت باسمة : أما قلت لك أن تدخل الى حجرتى من غير سجود . أما استثنيتك من الممتثلين ؟ . .

فقال : لست أسجد بل أعبد . وما السجود الا رمز العبادة . .

فقالت ووجها النحيف يطفح بشرا وبهاء : ماذا أبقى المطران للرب من رموز العبادة

— اكليمندوس المطران الاكليريكى يسجد فى الكنيسة السجود الواجب لله . وسجود أريوبندوس العلمانى فى هذا الهيكل أمام معبودته لا ينقص شيئا من عبادته لله . فما لله لله. وما لتيودوره لتيودوره . هناك كنيسة لله وهنا كنيسة الحب المقدس

وأشارت الى جانب المقعد ليجلس . وقالت :

— قلت لى مرارا ان لك فرقة جواسيس . فماذا يقول لك جواسيسك عن سعايات فيجيليوس هنا ؟

— مسكين فيجيليوس . لا يخشى شره . ولا أمنية له الا اطلاق سراحه

— كيف أطلق سراحه وقد علمت أنه يجتمع بالأمير جرمانوس ابن اخى جستنيان. أفلا يمكن أن تكون بينهما مؤامرات سرية لخلع الأمبراطور واستواء جرمانوس على العرش

— وكذلك يفعل هونوريوس Honorius ابن اخى الأمبراطور اناستاسيوس السابق

— لماذا لم تقل لى ذلك اذن ؟

— لا تقطف الثمرة قبل أن تنضج يا سيدتى . لا أزال أبحث عمن يشترك مع هذا وذاك فى مؤامرة . وقد اكتشفت الى الآن من شركاء جرمانوس الوزير بريسكوس Briskus ويوحنا والى كبادوكيه

— لا بد أن يكون ثمة آخرون أيضا . وقد نمى الى أن بعض الاساقفة والقساوسة أصحابك هم من جملة المتآمرين . .

— نعم لقد كنت مزمعا أن أقدم لك تقريرا ضافيا متى تمت استعلاماتى

فتغيظت تيودوره وقالت : لماذا يتآمر هؤلاء الكهنة ؟ هل ينقصهم شىء ؟

— هل تتوقعين منى اخلاصا ؟

— منك وحدك أتوقعه

— اذن . خذى منى الخبر اليقين . اعلمى أنهم تنقصهم حرية الكهنوت

— هم أحرار

— أأحرار هم وأنت تستعبدين رؤساء الكنيسة الواحد بعد الآخر . أولا سيلفريوس.

ثم فيجيليوس . فهل تنتظرين أن يكون الكهنة والاساقفة والمطارنة مخلصين ؟ واذا كان هؤلاء يأتون المؤتمرين فالشعب كله يأتيهم ..

فكظمت تيودوره اضطرابها وهى أقدر انسان على كظم الاضطراب الداخلى وقالت باسمة : أتريد أن تقول ان الشعب أيضا شريك فى المؤامرات

ـ اتماض الشعب يتمخض بالمؤامرات ، لان الشعب كله يقاسى ، وهو ينتظر من يقول له : « انك مظلوم أيها الشعب » ، والمتآمرون يوحون اليه هذا القول المثير

فلم تتمالك تيودوره غيظها وقالت متجهمة : كأنك تقول لى : ان الشعب على أهبة أن يثور

ـ لا أخفى عنك يا مولاتى . انى أخشى ثورة الشعب .. الشعب يتذمر من اضطهادك رؤساء دينه . يتذمر من ظلم حاكمه ..

ـ بماذا ظلمه حاكمه ؟

ـ بتثقيل كاهله بالضرائب . وبفقد العدل فى قضائه

ـ أمن القضاء أيضا يشكو الشعب ؟

ـ نعم . كم من الرجال عوقبوا بقسوة ومن غير محاكمة . وكم منهم قضى عليهم لمجرد كرهك لهم بغير سبب قانونى ؟

فزفرت قائلة : كفى كفى يا مطران ..

ـ أما أذنت لى بأن أصدقك الخبر اليقين ؟ الخبر اليقين أقول . انى أحاذر أن أخدعك . الشعب الذى يتألم لا بد أن يقول : « آخ » ، والشعب الذى يقاسى هذه المظالم يكظم الى أن يهمس فى أذنه هامس « قم » ليقوم . فاذا كان صدقى يسوءك يا مولاتى فهو خير من أن يؤلمك سكوتى أو كتمانى أو كذبى ..

ـ تريد أن تقول أننا على أبواب ثورة ..

ـ اذا لم تتدارك الثورة فنحن على أبوابها

ـ وما الذى تراه الآن ؟

ـ أن تزيلى جميع أسباب العداء البادى من رجال الكهنوت ، ومن الشعب ، اذا كنت لا تشائين أن تعرينى اليك ..

ـ كلما رغبت أن أقربك الى أرى ظروفى تقضى بأن أقصيك عنى . فاشكر لك ياعزيزى المطران أخبارك الصادقة ، ونصائحك المخلصة ..

***

وما خرج المطران حتى دخل الامبراطور وجلس الى جنب تيودوره زوجته والهم باد على وجهه خلافا لتيودوره التى كانت تبتسم وتخفى ما فى نفسها من قلق . وقال :

ـ ماذا علمت من أخبار اكليمندوس ؟

ـ علمت مثل ما علمت من عسى . جرمانوس ابن أخيك وهونوريوس ابن أخى اناستاسيوس الامبراطور السابق يدبر كل منهما مؤامرة لاغتصاب العرش لنفسه . وكل منهما يجمع لنفسه حزبا من الاكليروس وذوى النفوذ من الشعب. وأنجحهما هونوريوس ولعل بطرس وزير المال ممالىء له . هل علمت أنت شيئا جديدا ؟

فتنهد جستنيان غير كاظم غمه وقال : أرى نارا تحت الرماد ، بل أشعر بهزات عنيفة تهز العرش من جراء بركان يجيش لكى يهيج ويقذف حمم الثورة . لقد جرنا على الشعب ولم نبال بامتعاضه ، فوقعنا تحت خطر فوضاه

ـ لا فائدة الآن من معاتبة أنفسنا على الماضى . يجب أن نستدعى معظم الجيوش الى العاصمة لتهديد الثوار قبل أن يتورطوا بثورتهم .

ـ وهل ينتظرنا الثوار حتى تلم شعث الجيوش . وهل نحن نثق باخلاص الجيوش جميعا . فهمت أن يوحنا قائد كبادوكيا شرع يجاهر بتمرده

ـ يجب أن نرسل فى الحال رسلا بأوامر رسمية الى قائد كل حامية وجيش أن يأتى بقسم كبير من جيشه ، ويترك القسم الباقى للمحافظة على الامن فى ناحيته . لو كان بليسيريوس قريبا منا لكنا نعتمد عليه كثيرا . .

ـ أصبحت أخشى من بليسيريوس أكثر من غيره لان انتصاراته جعلته شامخا . ويظهر أن ملك الجوث يطمعه بعرش رومه تحت سيادته

ـ أما أنا فلى ثقة ببليسيريوس أكثر من سائر القواد . وعلى الرغم من بعد المسافة بيننا وبينه يجب أن نوفد اليه أمرا نستقدمه به حالا سواء وثقنا أو لم نثق به . ونترك التوفيق للقدر . ونستطيع أن نعلل الجمهور بالآمال ما أمكننا . ويمكننا أن نستقدم قائد ادريانوبولس وقائد تراقيا بجيشيهما فهما أقرب الينا

ـ والحرس المحلى يكاد يفلت من يدنا لان بولس قائده قليل الاخلاص . أصبحت أوجس منه شرا

ـ أردت منذ عام أن أرسله الى بليسيريوس معوانا له ، وأن أنصب مساعده تيموتاووس مكانه لانه لى ثقة بتيموتاووس أكثر منه ، فأبيت على ذلك ، أما الآن فصار هذا الابدال متعذرا لان بولس يفهم الغرض منه فيعجل بالتمرد

- ٢١ -

بعد مدة قصيرة حم القضاء . وقربت الساعة . وادلهم الجو . واضطرب الهواء بدوى الضوضاء . وأبرقت الاسنة وارعدت الهتافات ، واختلط القال بالقيل فى الاندية والمسارح والشوارع والازقة وفى الطرق الخارجة من بيظنطيوم والداخلة اليها . وماجت السابلة فيها دخولا وخروجا . وسمعت قرقعة الحوافر وصليل السيوف وتصفيق الرماح

القيامة تقوم . ذلك يوم الحشر الدنيوى . لم يفد أحد من القواد بجنده . لم يرجع

أحد من الرسل . أصبحت الانباء متضاربة والبلاغات متناقضة . صارت أقوال العسس للتضليل أكثر منها للهداية

جل ما كان يرد من بلاغات المخبرين على الامبراطورين أن مسرح الهيبودروم العظيم يكيل الجماهير كيلا . يملأه فوج ويفرغ منه فوج والخطباء يتعاقبون على المنصة . والشعب المتهيج يصفق تارة ويهتف أخرى للزعيم ارسابيوس ، ثم للعاهل الموعود هونوريوس ، وأحيانا للامير جرمانوس

أوعز الامبراطوران الى قائد الحرس الامبراطورى بولس أن يكون على قدم الهجوم اذا دعى . ولكن القائد بولس اختفى ، والحرس مشتت فرقا هنا وهناك انذارا بالتمرد . ما خفف كابوس اليأس قليلا عن صدر جستنيان الا دخول تيموتاووس نائب القائد بولس الى مجلس الامبراطورين ، ليقدم للعاهلين طاعته مع كوكبة من الحرس ، نصفها من الفرسان. والقسم الاكبر من الحرس أختفى مع بولس. فانشرح صدر تيودوره قليلا

قد يستطيع تيموتاووس تسويف الكارثة ما أمكن ريثما يوافى من عناية الله بليساريوس ان تعطف ان يأتى . ولكن هيهات والشقة بعيدة . وقد تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن من رومه الى البوسفور . الامل بقواد ادريانوبولس وترافيا وسالونيكا ضعف تماما

كل هذا وتيودوره صامتة باسمة كأنها تستمد الوحى من روح الحكمة والقوة من يد القدر

انقضى يوم على ترادف البلاغات المخيبة للآمال

لم يظهر فى القصر من رجال الدولة الا رئيس الحكومة ووزير العدل ثم اختفيا . وتغيب وزير الحرب ووزير المال بدعوى المساعى لدى زعماء الثوار . لم يبق من البطانة الا النزر اليسير

فى اليوم التالى قرر الامبراطور الرحيل الى بعض الجزر ، وأمر بعض السفن أن تهيأ لهذا الغرض ، وجعلت الحاشية تجمع لوازم السفر وتنزلها الى بعض السفن

ورأى جستنيان أن يتوسل الى الشعب آخر توسل . فحمل الانجيل مفتوحا بين يديه، ومضى بين بعض حرسه الى الهيبودروم مستعطفا ، عسى أن يستحى الشعب منه ، فيسكن ثائره ، ويستمع لوعده بالاصلاح

ولكن جستنيان حمد الله أن مقابلة الشعب له اقتصرت على شتمه ولعنه ورشقه بالزبالة

***

عاد توا الى القصر يأمر بالرحيل. أما الامبراطورة فقالت له وللبطانة حوله قولا تسجل لها فى التاريخ كأعظم حكمة وأفصح شعر وأجمل بنت فكر :

« ان أولئك الذين حملوا التاج على رؤوسهم مرة يجب ألا يبقوا أحياء بعد فقده . أرجو ألا أرى بعينى ذلك اليوم

الذى لا أبجل فيه كملكة . أهرب أيها القيصر اذا شئت .
معك المال . والسفن راسية فى المرفأ تأهبا للرحيل . والبحر
حر طليق لديك . وأما أنا فأحب القول المأثور القديم : ان
البرفير والارجوان لاجمل كفن للانسان »

صدر فى ١٨ يناير سنة ٥٣٢ مسيحية

مضى جستنيان على مضض وخوف . وبقيت تيودوره وبعض بطانتها معها فى القصر تتلقى الزوبعة وحدها

***

قبل أن يقلع الاسطول من المرفأ ، طلب اكليمندوس الامتثال . فاستقبلته تيودوره وهى جالسة على عرشها . فجثا وقبل قدميها وقال : مولاتى . لا أريد البقاء حيا بعد هذه القيامة . امنحينى منصب الوزير الاول الآن ، لان وزيرك تهرب لكى يكسب رضى هونوروس . فان لم أقمع الثورة أهلك فيها قبل أن تهز العرش فى مكانه

فقالت باسمة : أصبح هذا الحلم فى خبر كان يا عزيزى . لم يعد أى منصب يجدى شيئا . الثورة التهبت ..

ــ أطفئها قبل ان تستعر ..

فقالت ضاحكة بهزء : لا يستطيع موقد النار أن يطفئها يا اكليمندوس

فارتعد اكليمندوس من هذا التصريح وقال : اذن تشكين بولائى

ــ لست أنا بل التاريخ يثبت هذا الشك

ــ اذن لا أمل فى اعتمادك على . على أنى أستطيع أن أسحب من الثورة المحرضين عليها اذا كان فى يدى المرسوم بالسلطة ..

ــ لا أعتمد على أحد غير نفسى يا هذا . فشكرا ..

فنهض اكليمندوس يائسا وخرج خائبا

***

صارت العقيدة ان تيودوره اختارت القضاء على حياتها اختيارا ، وقررت تكفين نفسها بالبرفير والارجوان ازدراء بالردى وحرصا على الكرامة والجبروت

وردت اليها الاخبار أن الشعب بدأ يزحف من الهيبودروم بموكب متى وصل أوله الى ميدان البلاط المقيم كانت أطرافه فى الشوارع وحول الهيبودروم

كان السعاة يعودون بأنباء الشؤم كل هنيهة وأخرى . أنبئت أن الموكب الرهيب صار فى ساحة كذا ، ثم فى شارع كذا الخ . وهى جالسة على عرشها . اعتقد نيوفوروس كاتب سرها أنها لا تريد أن تموت بين الغوغاء خارج القصر ، بل على عرشها وفى ابان جلالها

أملت على تيموثاووس قائد البقية الباقية من الحرس التعليمات التالية : ادخل بعض

أبطالك الى أروقة القصر . صف بقية المشاة وراء القصر . اجعل الفرسان حول جناحيه. هل تريد أنت وأبطالك أن تحيوا معي ؟

فحيا تيموتاووس التحية العسكرية وقال : وأن نموت قبلك . .

فقالت باسمة : بارك الله فيكم أيها البواسل . .

وكان تيموتاووس يكتسب شجاعة عظمى مما يراه من هدوئها وسكونها كأنها لا تحس بزلزال البركان المتفجر أمامها

قامت تيودوره وخرجت الى شرفة القصر الكبرى ورأت طلائع الهائجين من بعيد . ثم عادت الى عرشها واستدعت نيوفوروس وأمرته ألا يفارقها لكي ينقل تعليماتها

***

دخلت طلائع الموكب الى الساحة العظمى أمام القصر العظيم ، وطفقت الجماهير تتدفق اليه وتحتشد فيه . وزعماء الغوغاء يستغربون أن يروا فرسان الحرس الى جانبي القصر لا يتصدون لصد الحشد

ماذا يستطيع هذا الحرس الصغير أن يفعل لقاء هذا الجمع الغفير وهو مسلح بالسيوف والرماح والخناجر والعصي والحجارة . ما قوة العشرات على لقاء الالوف

اكتظت ساحة القصر بالجماهير ، ولا تزال الجماهير المزدحمة في الشوارع ومفارق الطرق من ورائها تدفعها الى الساحة من كل ناحية . وكان على جانبي المدرج أمام الباب العظيم بعض الجنود وقوفا منكسي السلاح لا يبدون أقل دليل على الدفاع . كذا كانت تعليمات تيودوره

وصل الحشد الى قاعدة المدرج . وما وقف الزعيم ارسانيوس على أول درجة حتى رأى يدا من ورائه تضع في يده ورقة مطوية . فنشرها وقرأ لنفسه :

« أيها الاسد الجدير بالزعامة . لا أعتقد أن نبل الاسد يسمح للذئاب والضباع والثعالب وبنات آوى والكلاب أن تنشب قبلك أنيابها بالنعجة . تستنكف هذه النعجة أن يمزقها أحد غير الاسد ، وهو الوحيد الجدير بأن يفرق لحمها ودمها وعظامها على أتباعه . الاسد القوي الجبار لا يضطر الى الغدر . ولذلك أرجو منه أن يأمر هذا الجمع أن يسمع الكلمة الاخيرة من ملكته قبل أن يمزقها تيودوره »

تجهم ارسانيوس وتوقف في الدرجة الثالثة ، وبسط ذراعيه مشيرا الى الجمع من ورائه أن يتوقف

عند ذلك بدت الامبراطورة في الرحبة أمام الباب العالي فوق المدرج وهي في ثوب أبيض أنيق ، ملاك بدا من القصر كما يبدو البدر من الافق

فلما رآها الجمع هاج وماج ، وكاد يندفع الى المدرج لولا أن ارسانيوس أدار وجهه الى الجمع وهو باسط يديه يشير بهما اليه أن يتريث ويسكن ويصمت

وتقدمت تيودوره خطوة خطوة بكل تمهل كأن البدر يسير في السماء رويدا . والحراس الواقفون على جانبي المدرج لا يتحركون كأنهم أصنام

بعد بضع دقائق صارت على رأس المدرج . وصار الشعب من وراء ارسانيوس صامتا تشرئب أعناقه لرؤية الملكة الجميلة . هل هي وجلة مذعورة ؟ لا . .

نزلت أول درجة وهي تبسط ذراعيها . فصمت الشعب صمتا تاما وسكنوا كأن على رؤوسهم الطير . أو كأن سحرا سطا على حواسهم . وكان تيوفوروس وراءها . فتناولت منه قرطاسا ملفوفا . واستمرت تنزل كل هنيهة درجة والقرطاس في يمناها وارسانيوس لا يكف عن الاشارة للشعب من ورائه أن يهدأ . ولكن الشعب لم يهدأ بأمر زعيمه ، بل أصبح نزول الملكة في المدرج أقوى من أمر الزعيم

ما نزلت الى أول النصف الاسفل من المدرج حتى صعد ارسانيوس اليها وانحنى وتناول القرطاس من يدها ، وأدار وجهه الى الجمع ، ورفع يده يعني الصمت التام . ثم نشر القرطاس وقرأ بصوت جهوري :

« أيها الشعب البيظنطي الباسل

« ها هي ملكتكم بين أيديكم . أضعف رجل فيكم يمكنه أن يمزقها أشلاء . فاذا شئتم أن تسمعوا نصيحتها الاخيرة قبل أن تمزقوها تمزيقا فاسمعوا :

« تشكون من ثقل الضرائب ، فاعلموا أن الضرائب التي تجبى منكم لا تنفق عبثا ، ولا تبذر تبذيرا . تنفق في اصلاح شؤونكم وفي تحصين الامبراطورية للدفاع عن كيانها ضد الغزاة البربر الذين يبتغون فتح مملكتكم واستعبادكم كما فعلوا في ايطاليا وروما

« تشكون من تعرض الدولة للعقائد الدينية . وليس للدولة غرض من هذا التعرض الا ضم جميع النصارى ضمن حظيرة الكنيسة لكي تكون أقوى وأوسع انتشارا

« فاذا كان لكم آراء في هذه الامور ، فألفوا لجنة من زعمائكم لتجتمع مع لجنة الدولة للبحث في هذه الامور وتقرير ما يتفق عليه عقلاء الامة

« فاذا أبيتم اقتراحي هذا فاقضوا ما تريدون أن تقضوا . فليس أحد من جنودي يقاومكم »

ولما انتهى ارسانيوس من التلاوة ، ضج الجمع ضجيجا مختلطا بين التهليل والغضب فرفع ارسانيوس يديه وقال : ننظر في هذا الاقتراح اليوم ، وغدا نقضي قضاءنا .

عند ذلك نزل تيوفوروس وقال للامبراطورة :

ـ ان القائد فلايانوس نائب قائد جيش ادريانوبولس قدم بجيشه

فأجابت بصوت عال ليسمعه ارسانيوس : ارسل رسولا اليه حالا يأمر مني ان يقف جيشه قبل أبواب المدينة . قل له ان يحاذر الهجوم بغير أمري .

عند ذلك أشار ارسانيوس للجمع أن ينصرف الى الغد . وجعلت تيودوره تتقهقر على المدرج رويدا حتى غابت في باب القصر غياب الشمس وراء الافق

- ٢٢ -

اجتمع زعماء الثورة ، وتباحثوا فى اقتراح الامبراطورة . فلم يوافقوا عليه ، لان أنصار هونوريوس كانوا يحرضون على خلع الامبراطورين والمناداة بهونوريوس امبراطورا وكان ارفضاض الجمع فى ذلك اليوم مهلة لتيودوره . فلما مثل القائد فلابيانوس بين يديها بشت له وشكرت ولاءه فقال : ان من يكون أمينا لزوجته يكون أمينا لمليكته . أما قلت هكذا يا ذات الجلالة يوم صالحتني مع زوجتي اندروماكي ؟

– لم أنس عهدك حينذاك . ولم أشك أنك تبر به . ولكن أين القائد مرتينوس ؟

– الحمد لله انه مريض يا مولاتي بحمى قاتلة . ولولا مرضه لكان أخون الخونة . اكتشفت أثناء مرضه بصفة كوني نائبه تعليمات سرية وردت اليه من حزب هونوريوس ، أن يعصى أمرك بالحضور الى العاصمة . ولولا اطلاعي على هذه التعليمات ، لما علمت أنه تلقى أوامر من جلالتك بالقدوم العاجل لانه كتمها عني . وبحثت عنها فوجدتها . وما ترددت فى أن سقت جيشي الى هنا ، وفى قيادتي أربعة آلاف من المشاة وخمسمائة من الفرسان . فماذا تأمرين ؟

– أكرر شكري لولائك . وأرجو أن توزع جنودك حسب فنك الحربي حول القصر، وفى المدينة لتهدئة الثورة بقدر ما يستطاع ، وأن تتجنب الاحتكاك بالجمهور ، لحقن الدماء ما أمكن ، لانى لا أعتقد أن جيشك يستطيع قمع الثورة . فلعل الصبر والمحاسنة أفيد لنا فى تلافيها أو مماطلتها الى أن يأتى الله أمرا كان مفعولا

***

فى اليوم التالى عاد الشعب يتجمع ويستأنف الثورات ، وتصرف فلابيانوس بكل حكمة فى الدفاع عن القصر . وفى اليومين التاليين لم يقحم الجمهور تهيبا لسلاح الجنود . ولكن فى اليوم الرابع حدثت مناوشة قتل فيها عدد من الجمهور وقليل من الجنود . وفى اليوم الخامس اندحر جيش فلابيانوس أمام الثوار ، فأحاط بالقصر يحمى ظهوره بجدرانه . وبصد الثوار . وصعد بعضه الى القصر لصد الهاجمين

اشتد ضغط الثوار حتى شرع بعضهم يتغلبون على الجنود الذين يحمون المدرج المريض . أطلت تيودوره من الباب العالى ووقفت على الرحبة عند رأس المدرج ، فاشتد هياج الشعب. فطفقت تحييه بيديها. ولكن الوحوش الضارية متى هاجت لا تردعا محاسنة فعادت تيودوره الى البهو الكبير وجلست على عرشها. وقاربت الشمس المغيب ، فجاءها القائد فلابيانوس وقال : اني راسم خطة لانقاذك من هؤلاء الضوارى . فى أول الليل يخف زحام هذا الحشد ، فتمتطين جوادا وتحرسك ثلة من الفرسان الى المرفأ حيث ترسو سفينة للفرار بك

فقالت تيودوره باسمة : شكرا . أبعد أن ذهب عدد من جيشك ضحية فى سبيل الدفاع

عنى ، تطلب الى أن أهرب ؟ لو هربت قبل نشوب الثورة لتفاديت سفك الدماء . أما الآن فيجب أن أموت مع جنودى الابطال . أريد أن أموت على هذا العرش

فى تلك الليلة أدخل فلابيانوس قسما من جنوده الى القصر ، اندمجوا مع حرس تيموثاووس القليلين . وكانت اندروماكى زوجة فلابيانوس فى حجرة الامبراطورة لخدمتها . وبذلت اندروماكى جهدها فى اقناع تيودوره أن تهرب فى غلس الليل . ولكن بلا جدوى . لان تيودوره صممت على الموت فى العرش اذا كان لا بد منه

فى الصباح التالى اشتد زحام الثوار حول القصر ، حتى كاد جيش فلابيانوس يبيد بعد أن قتل كثيرا من الثوار . وقبل الضحى دحرت زمرة من الثوار الجنود ، وقحمت الى داخل القصر . فانذر نيوفوروس الامبراطورة بأن الخطر بلغ أشده ، وأبلغها أن الجنود يحرسون الطريق الى الحجرة الخلفية السفلى لكى تختبىء فيها . وأنهم يدعون للثوار أن الامبراطورة خرجت من القصر من مساء أمس

فنهضت تيودوره . وبدل أن تخرج من الباب الخلفى لكى تنسل منه الى الطبقة السفلى ، قحمت الى باب البهو الرسمى ، واستقبلت الثوار الذين يناحرهم الحرس لكى يرتدوا ، وظهرت أمامهم فى تبرجها الانيق . وقالت بلهجة لطيفة : أملككم تطلبون ؟ ها هى تيودوره ملكتكم . فافعلوا بها ما تريدون . دعوهم أيها الحراس ولا تمنعوهم لانى لاجلهم أريد أن أعيش أو بأيديهم أريد أن أموت

ولا تدرى ماذا كانت القوة التى صدت أولئك الثوار وردتهم عن الدخول الى بهو العرش . ولكن كان الضغط من الخارج يشتد حتى لم يعد مناص من الاندفاع الى البهو الاكبر . عند ذلك هجم فلابيانوس على الامبراطورة وحملها بين ذراعيه ودخل بها الى البهو . ثم خرج بها من الباب الخلفى وأنزلها الى الحجرة السفلى وقال : غد أجلنا ساعات أو دقائق لعل النصر يأتى من غامض علم الله . لقد جمعت عددا من الجنود لكى يحموا الطريق الى البوسفور حيث هناك سفينة محروسة تنتظرك .

فابتسمت وقالت : أشكر اهتمامك عظيم الشكر . اذا كان النصر يأتى من غامض علم الله فيأتى ونحن فى قلب هذا القصر . هنا أحيا أو أموت .

عند ذلك دخل تيموثاووس قائد الحرس ، وقال : ان الثوار اخترقوا خط الحراس الذى يحمى الطريق الى البوسفور . يا أيها القائد فلابيانوس . فالافضل أن تختبىء جلالتها فى مكان خفى فى القصر . أين تيوفوروس يدلنا على مكان أمين

فقالت تيودوره : أفضل محل لى هو العرش . هناك أستقبل طالبى دمى . دعونى أصعد

عند ذلك شعروا أن المعارك أصبحت فى نفس حجرات القصر . يكاد الثوار يتم لهم احتلال القصر كله . .

فقال فلابيانوس : لا تخرجى من هنا يا مولاتى ، فنحن علينا الآن أن نشرف على الدفاع عن القصر ما استطعنا . .

بقيت تيودوره وحدها وهى تسمع صليل السيوف وتصفيق الرماح . وبعد حين خفت الصليل . قل التصفيق . هبط الضوضاء والجلبة . خرجت من الحجرة السفلى لكى تستكشف الحال . لم تر أحدا . صعدت الى البهو فرأت بعض الجنود ، فسألت : أين الثوار ؟

فقال جندى : لا تدرى ما الذى روعهم حتى ارتدوا . .

وما حز فى نفسها فى هذه الثورة الا ما رأت من القتلى والجرحى فى القصر . وخرجت الى الرحبة التى فوق الدرج فاذا الحشد يموج كالبحر المتلاطم وقد التحم فيه عدد كبير من الجنود والفرسان بعد أن هلك نصف جيش فلابيانوس . .

من أين جاءت هذه الجنود ؟

وقفت تتبين الحالة . واذا فارس يصعد بجواده على الدرج . واذا هى فى دهشتها ترى بليساريوس القائد العظيم يترجل عن جواده عند رأس الدرج . .

فقابلته بابتسامة كأنها أشعة الشمس فى الربيع وكأنها لم تكن فى قلق ولا فى جذع . مدت يدها الى بليساريوس فقبلها وقال : لعلك كنت فى يأس يا مولاتى ؟

ـ لا بل كنت مؤمنة بالعناية الالهية . وها هى العناية جاءتنى فى الدقيقة التى كاد اليأس فيها يحاول أن يدخل على . شكرا يا عزيزى بليساريوس . .

فقال : الثوار يخرجون الى خارج المدينة لان جيشى دخلها بعد أن فتك بهم فتكا ذريعا . منذ فجر اليوم ستكون المعارك خارج المدينة . لا أدرى متى تنتهى . ولكنى أدرى أمرا واحدا على كل حال .

ـ ماذا ؟ . .

ـ النصر لك . .

فانقضت تيودوره على بليساريوس وضمته وقبلته ، وقالت : لبس هذا النصر عن يدك بالخبر الجديد عندى على الرغم من جرى الرياح بما لم تشته سفنك

ـ اطمئنى فى قصرك ، سأقيم عليه حراسا داخله وخارجه يكونون آخر من يقتل من كتائبى العديدة . .

ثم قبل يدها ومضى

بعد عدة أيام انتهت المعارك فى المدينة وضواحيها وفى جميع البلاد المحيطة بها . وخمدت الثورة . ثم انطفأت نارها . ثم لجأ كل من الناس الى بيته ، واستأنف عمله

وقد ورد فى دائرة المعارف البريطانية فى المجلد العاشر فى نصف العمود الاول من الصفحة العاشرة : « ان الامة خسرت فى هذه الثورة المسماة ثورة (نيقا Neka) ثلاثين ألف نفس » . ولكن تيودوره التى كانت هدف الثورة لم تقتل ولم تخلع ، وبقيت على عرشها

وهنا نترك للقراء التساؤل : هل كانت تيودوره واثقة من قمع الثورة ، أم أنها أبت

أن تعيش بعد خسارة العرش كما قالت فى بلاغها التاريخى للامبراطور والبطانة
وان كان الامر الاول فعلام كانت تعتمد فى قمعها وقد علمت أن قوادها ورجال الدولة قد تخلوا عنها حتى بليساريوس قنطت من نجدته ؟

***

استتب الامر ، وعاد الامبراطور جستنيان الى عرشه مطمئنا ، وانتظم الحكم ، وتعين الحكام الجدد

قبض على كل من ثبت أن له ضلعا فى التحريض على الثورة . وفر كثير من المحرضين فرار اللصوص ، ومنهم هونوريوس المطالب بالعرش

حوكم المتهمون ، وكان من جملتهم ارسانيوس الزعيم والمطران اكليمندوس . حاكمتهم محكمة مؤلفة من بعض رجال الدولة فى بعض حجرات القصر الكبرى . ولم تطل محاكمتهم أكثر من بعض يوم . وحكمت المحكمة عليهم جميعا بالاعدام . .

وفيما كان رئيس المحكمة ينطق بالحكم ، ظهرت تيودوره من الباب اليسرى من الوراء . فلما سمع المتهمون الحكم ورأوا الامبراطورة خروا سجدا رهبة ووجلا .

فتقدمت تيودوره الى جنب رئيس المحكمة وقالت بصوت عال فصيح :

« العدالة استوفت حقها . ولكن للامبراطورة حق الرحمة والعفو

يا رب اغفر لهؤلاء المجرمين لانهم لم يعلموا ماذا كانوا يفعلون »

***

على أثر ذلك استدعت اكليمندوس الى حجرتها وقالت له وهو ساجد لديها : « لطالما علمتنى أن تقوى الله تفضى الى سعادة السماء . وأن العشق يؤدى الى التهلكة . وأنا الآن فى توبتى أعلمك أن العشق الشهوانى يثير النفوس الحيوانية ، وان تقوى الله ترفع النفس الى سماء النعيم . أبقيت على حياتك جزاء لك على خدماتك ، ولكى تبقى لك فرصة للتوبة وتقوى الله ، ولكى يكون لك النعيم أخيرا خير جزاء . فاعتكف بعد الآن فى ديرك يا سيدى المطران ، وتب الى الله . .

« قل لهونوريوس ان الصيد فى جبل طوروس أهنأ له من الجلوس على عرش بيظنطيوم

« وقل لسائر المجرمين الذين عفونا عنهم ان عكوفهم على آلات صناعاتهم خير لهم من أن يكونوا آلات شر فى أيدى الاشرار »

وخرجت تيودوره من باب ، وخرج اكليمندوس من باب آخر ، وهو لا يصدق أنه باق فى قيد الحياة

توفيت تيودوره سنة ٥٤٧ مسيحية

نقولا الحداد



الجزء الثاني ـ السنة ٥١

أول مايو ١٩٤٣ ـ ٢٦ ربيع الثاني ١٣٦٢

عنوان المكاتبات :

دار الهلال : مصر ـ البوستة العمومية

AL HILAL — Cairo, Egypt

(May 1943)

قيمة الاشتراك

٥٠ قرشاً في مصر والسودان

٧٥ « في الخارج أو عنها ٣٫٧٥ دولار

٠/١٥/٥ جنيه انجليزي

Subscription Rates : Egypt and Sudan P.T. 50. — Other countries P.T. 75 or £-/15/5 or $3.75.



ملك العراق

زار مصر لأول مرة الملك فيصل الثاني ملك العراق ، وهــذه صورة جلالته في المفوضية العراقية بمصر ، وترى عن يساره ويمينه باقتا الزهور اللتان أهدتهما الملكة فريدة ملكة مصر يوم زيارة جلالتها للملكة عالية ملكة العراق والملكة نفيسة جدة جلالته وقرينة المغفور له الملك علي . وقد أهدى هــذه الصورة جلالته الى « مجلة الهلال » وقد وقع عليها بإمضائه

هل يتجه العالم نحو ثقافة إنسانية *

للدكتور بهي الدين بركات باشا

وزير المعارف ورئيس مجلس النواب الأسبق

ليس فينا من لا يستمع الى الراديو يوميا ، بل منا من يتتبعون أخباره في الداخل والخارج عدة مرات كل يوم ، فهل فكرنا في مدى ما أدخلته تلك الآلة الصغيرة أعني عدة الراديو من تطور جسيم في حالة العالم بما أزالت من حدود بين الأمم المختلفة ، وما خلقت من اتصال سريع بين الناس ، وبما سهلت من انبثاث الآراء بين سكان هذا العالم

نحن اليوم نجلس في غرفتنا ، فنحرك تلك الآلة الصغيرة ، فنسمع لندن وباريس ونيويورك وموسكو وبرلين في ساعة واحدة ، ونطلع على ما تذيعه كل منها من الاخبار وما تعلق به من الآراء على المواقع الحربية وتطورات الحرب ساعة فساعة ، وكثيرا مانسمع خطبة سياسية هامة في المساء ونسمع التعليق عليها من الجانب المناصر أو الجانب المعادى في نفس الليلة أو في اليوم التالى على الاكثر ، فالعالم جميعه أصبح سوقا مشتركة يدلى كل برأيه ويؤيده بحججه ويناصره بكل ما يعتقده ، محبذا لفكره ، من غير أن تقف دون ذلك حدود سياسية أو غيرها ، فلقد رأينا الدول الكبيرة نفسها تحرص على أن تصل أفكارها وآراؤها ومذاهبها الى جميع بلاد العالم ، فهى لا تقتصر على محطة اذاعة واحدة ولا تكتفى بالاذاعة بلغة واحدة ، بل تذيع بعشرات اللغات حتى لا يبقى شخص في العالم المتمدن دون أن تكون له فرصة الاستماع الى تلك الاذاعات بلغته هو

تصوروا تلك الحالة ، ثم قارنوها بما كانت عليه في الحرب الماضية ، حيث كان الاتصال مقصورا على التلغرافات التى تصل الى كل مملكة بقدر محدود ، اذ كان الاتصال مقصورا على البلاد التى يكون لها فيها وكلاء يوافونها بالاخبار . ليس من شك أن من يضع هذه التطورات نصب عينيه يرى أن تقييد الافكار أو الحجر عليها أصبح ضربا من المحال ، فاذا كانت المطبعة قد أتت بالعجائب وقلبت العالم في القرون الوسطى بما سهلت من اتصال الافكار ، فماذا يكون مقدار أثر الراديو في عهدنا الحاضر ، لا شك أن هذا الاتصال الروحى الذى وجد بين جميع أجزاء العالم على أثر هذا الاكتشاف العجيب ، سيكون له أثر شامل لا أحسبنى مبالغا اذا قلت انه الحجر الاول في سبيل توحيد العالم

فاذا ما نحن تركنا الراديو جانبا ، وفكرنا في مدى أثر السينما علينا حيث نرى الآلاف بل عشرات الآلاف من الناس في مصر وحدها يذهبون كل يوم ليروا ما تخرجه امريكا

---

* ألقى هذه المحاضرة القيمة الدكتور بهي الدين بركات باشا في قاعة يورت التذكارية وقد اختص الهلال بنشرها

وغيرها مما يجعل الناس فى جميع أقطار المعمورة يطلعون على سبل معيشة كل بلد من البلاد أدركنا الى أى حد بلغ ترابط العالم بعضه ببعض

ولقد فطر الناس على حب التقليد ، لذلك نراها بعد أن كنا فى الاجيال الماضية نحرص فى كل بلد على عادات معينة وطرق من الزى خاصة حتى أن كل اقليم كان ينفرد بطابع خاص يميزه عن سواه ، وكان يحرص على المحافظة على هذا الطابع ، ويعتبره تراثا يجب المحافظة عليه ، تراثا الآن يقلد بعضنا بعضا فى اللباس وفى المآكل وفى طريقة المشى وفى المعيشة ، بل وفى طرق الزينة وقص الشارب وتقليم الاظافر وكيفية السلام ، الى غير ذلك من أنواع التجمل وتفاصيل الحياة التى لم تكن تسنح الفرصة لمعرفتها ، فضلا عن تقليدها الا للنزر اليسير من الناس الذين آتاهم الله سعة فى الرزق وصحة يستطيعون معها أن يجوبوا أنحاء العالم مع ما كان فى السفر من مشاق ومجازفات لا يمكن أن يضطلع بها الا النزر اليسير من الناس ، وحق لى بعد ذلك أن أشير الى ما حدث من تطور جسيم بسبب سهولة المواصلات ، فلقد كانت المسافات بين قطر وقطر تجعل الناس بعيدين بعضهم عن بعض فى الافكار وفى الآراء وفى فهم الحياة ، فجاء البخار وانطوت معه المسافات الشاسعة وتعارف الناس بعضهم ببعض ، ولكن أين هذا مما نرى اليوم وقد ملكنا الهواء ، فاقترب ما كان بعيدا ، فرأينا رئيس الوزارة الانجليزية وقد جاوز السبعين يطير الى كازبلانكا من انجلترا ، كما رأينا الرئيس روزفلت يطير اليها من الولايات المتحدة ليتفاوضا فى شؤون الحرب ويدبرا ميدان القتال بين المئين من الملايين ، ولعمرى ألسنا نرى العالم جميعه وقد انقلب الى معسكرين عظيمين، فمعسكر الديمقراطيات وفيه أميركا والامبراطورية البريطانية والى جانبهما روسيا الشيوعية ، والى الجانب الآخر الدولتان اللتان تمثلان الاوتوقراطية والى جانبهما اليابان زعيمة الجنس الاصفر ، وأين هذا مما كنا نشهده أو نسمع به منذ جيل واحد من الزمان بل منذ عشر سنين فقط

اننا لا نزال نذكر أن الولايات المتحدة كانت دائما حريصة على أن تبتعد عن سياسة العالم القديم ، حريصة على أن تتركه وشأنه يدبر علاقات ممالكه بما يراه كل منها ، حتى اذا وقعت الحرب الماضية وطال أمدها وتوجست أميركا خشية من مصيرها رأينا الجيوش الاميركية تعبر البحار لنصرة فرنسا وبريطانيا ونصرة مبادىء ولسن الاربعة عشر ، حتى اذا ما انتهت الحرب ورأينا ساعة السلم قد أذنت بمؤتمر الصلح ، رأينا اميركا تصر على أن لا يزيد اشتراكها فيه على وجود عضو مشاهد فحسب دون أن تأخذ نصيبا مباشرا فى مؤتمر السلام . وعند ذاك رأينا الاميركيين يطعنون على سياسة الاشتراك مع أوربا ، ويؤكدون بكل الوسائل أنه لن يكون لاميركا فى المستقبل تدخل فى المشاكل الاوربية

ولكن هذه الحرب لم تلبث أن هددت مصير أوربا بل العالم القديم بأجمعه ، حتى رأينا اميركا تنسى كل سياستها التقليدية وتعود الى الحرب على وجه أهم مما كانت عليه فى الحرب الماضية فجيوشها ليست فى فرنسا وحدها ، بل انها تحارب فى الشرق الاقصى وفى

استراليا وفى جزر الفلبين وفى شرق افريقيا وفى البحر الاحمر ، بل انها وصلت الى مصر وهى من الناحية الاخرى تحتل مراكش والجزائر ، حتى لم تعد فى الحرب مجرد عون لاوربا المقتحمة ولا للامبراطورية البريطانية وحدها ، ولكنها محارب أصلى تضرب بعنف وشجاعة وتتلقى الضربات بصبر وبسالة

ذلك هو الحال اليوم فى العالم وهو ليس مقصورا على اميركا ، بل ان ما نراه من السياسة الروسية ومن السياسة نحو روسيا لاعجب بكثير مما نشاهده بالنسبة للسياسة الاميركية ، فروسيا عند ما اعتنقت المبادىء الشيوعية قاطعها العالم بأجمعه ، ورأى فى عملها خروجا على المبادىء الانسانية وفوضى ووحشية لا يصح لمن كان يحرص على وطنه ويحترم مبادىء الشرف أن يتعامل مع أهلها أو أن يتصل بهم حتى لمجرد الدراسة ، ولقد ظل الحال على ذلك أعواما وأعواما حتى رأينا فى مصر قانونا يصدر بجواز حرمان كل من يدرس فى روسيا أو يقيم فيها من الجنسية المصرية حفظا للامن العام وحرصا على سلامة البلاد من انتشار الافكار المخالفة لمبادىء الانسانية والمدنية

كان ذلك منذ عشر سنين فقط قبل اعلان الحرب سنة ١٩٣٩ ، والآن ماذا نرى ، لقد صارت روسيا جنبا الى جنب مع بريطانيا واميركا ، وأصبحت حليفة معهما ، كما أصبحت شريكة فى الرأى لهما ، بل سيكون لرأيها مقامه فى تنظيم العالم بعد الحرب

لست أنا الذى أقول هذا ، بل ان هذا هو قول عاهل انجلترا المستر تشرشل حيث جاء فى خطابه الاخير منذ عشرة أيام عن رعاية الامم الصغيرة قوله : « والآن ما شأن العدد الكبير من الامم الصغيرة التى لا بد من صيانة حقوقها ومصالحها ، انه ينبغى أن يكون هناك الى جانب الدول الكبرى عدد من مجموعات الدويلات أو اتحاداتها على أن يعبر ممثلوها المختارون عن أغراضها وأمانيها . وعندى ان هذا كله سيكون منسجما مع المصالح العليا الدائمة لبريطانيا والولايات المتحدة وروسيا . ومن الثابت أن هذه الامنية لا يمكن أن تحقق الا برضاء هذه الدول الثلاث الخالص واتفاقها التام »

فهل عرفتم مدى التطور العظيم الذى حدث فى الافكار وفى الآراء ثم تصورتم بعد ذلك ما يمكن أن تكون عليه الحال اذا ما وضعت الحرب أوزارها ألا يكون المحتم عند ذاك أن يكون الاتصال الادبى والاقتصادى والسياسى كاملا بين هذه الدول الثلاث وهل يمكن اذا ما تم هذا الاتصال وأصبح التبادل الاقتصادى تاما بين تلك البلاد الا أن تتقارب النظم الاجتماعية وتتم الخطوة الاولى وهى خطوة واسعة جدا فى سبيل توحيد النظم بين تلك الدول المتناقضة المذاهب والمتباينة الاجناس . وهلا يؤذن ذلك بتوحيد الشعوب واندماجها بعضها فى بعض أو على الاقل تقاربها وتفاهمها وعملها مشتركة بعضها مع بعض ، والا فخبرونى كيف يمكن أن نتصور بعد ما نشاهده اليوم أن أحدا يجرؤ أن تحدثه نفسه بوضع روسيا فى عزلة من العالم أو أن أمريكا يقبل أن يكون دوره فى العالم مقصورا على أن يشترك معه فى يوم الكريهة ، فاذا ما جاء يوم السلم ابتعد عنه وعن الاشتراك معه فى

نظمه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية

وهل اذا نحن اتجهنا ببصرنا نحو ألمانيا النازية وقد شادت مذهبها بل نظمها الاجتماعية على أساس تفوق الجنس الآرى وسيادته على ما عداه من الاجناس ، ثم رأينا كيف أن اليابان كانت سبب انقاذها فى العام الماضى من انكسارها فى الحرب ، هل هى تستطيع بعد ذلك أن تتمسك ضد الجنس الاصفر بنظرية هذه السيادة ، أم انها لا بد معاملة له على قدم المساواة التامة ؟

انى لألمح فى المستقبل القريب زوال الحواجز الصناعية لمنع الاتصال بين الشعوب والأمم ، فسيكون عالمنا بأجمعه ميدانا واسعا جدا لتبادل الافكار والآراء وتجربة النظم المختلفة فيه على تباعدها عن بعضها ، ومن ذلك ستتقارب الافكار وتتناسق الآراء وتتحد الجهود فى سبيل سعادة البشر ، فان لم تتمخض هذه الحرب عن ذلك فستتلوها حرب تكون أوسع وأعنف جهادا وأقدر على صهر الشعوب والامم حتى تصل الى تلك الغاية . أما بقاء شعب أو أكثر أو ابقاؤه فى عزلة عن باقى الشعوب فقد أصبح أمرا مستحيلا ، وقد علمنا التاريخ الحديث أن العالم يسير فى طريق الوحدة أو ما فى حكمها كجامعة أمم متحدة ، فكما أن الدول الحاضرة تكونت على آثار نظم القبائل والاقطاعات ، فكذلك ستتكون الانظمة الجديدة على أساس تقوض الانظمة الحاضرة

بل اننا اذا نحن تركنا ما يحتمل حدوثه من التقرب بين أنصار كل فريق من المتحاربين ونظرنا الى ما يحتمل حدوثه بين فريقى المتحاربين أنفسهم على ضوء ما حدث من التقارب بين الشرق والغرب ابان الحروب الصليبية وبعدها ، وما تدعو اليه الحرب من تقليد فى الانظمة وتقليد فى الاسلحة وتقليد فى المناورات الحربية وتقليد فى طرق الفتك والتدمير ، وجدنا ان كل ذلك سيكون مدعاة لان يسود العالم علم واحد وأن تنتظم الجهود فى اتجاه مشترك

لا تظنوا أنى ألمح من ذلك عهدا قريبا تسود فيه العدالة والرحمة وتتعاون جميع الشعوب الانسانية فى سبيل مصلحة المجموع ، كلا بل انى لا أزال أرى أمامنا مواقع دامية يسود فيها الظلم وتتحكم فيها القوة المجردة وتضطهد فيها شعوب وتظلم أمم ، ولكنى أرى برغم كل ذلك أننا فى سبيل تناسق وتوحيد بين العالم أجمع سيكون الثمن غاليا وستكون الضحايا كثيرة وعديدة ، وستنشأ الانظمة الجديدة بحيث يبقى للقوى امتيازه بل جبروته ، ولكن الاقوياء أو من سيظلون أقوياء سيتحدون حتما أو يشتبكون اشتباكا يتغلب فيه من يتغلب فينفذ آراءه ويخدم الوحدة سواء أراد هو أم لم يرد

لعل بعضكم يظننى ابتعدت عن موضوع الثقافة وتكلمت فى تطور سياسى ليس داخلا فى معرفة ما اذا كان العالم يتجه نحو ثقافة انسانية أو لا ، ولكن مهلا ، ودعونا نقف لحظة لنعرف ما هى الثقافة ، فلقد تفاوتت فى تفسيرها الآراء تفاوتا شاسعا ، فأستاذنا الكبير أحمد لطفى السيد باشا يقول فى ختام محاضرته فى هذه الجامعة : « يجب على الامة فى تربية أبنائها أن تكون غايتها الانسان المثقف ووسيلتها الى ذلك تثقيف ملكات الفرد الطبيعية

ملكات الجسم والعقل والنفس بأن يقوم بمقتضيات حفظ الذات وحفظ النوع بالاعتدال التام ، ثم بواجب الصدق الذى يسبب له الاقناع بكرامته وواجب السخاء الشخصى بأن لا يقتر ولا يسرف بل ينفق بالمعروف وواجب كرامته من حيث هو انسان ، فيرفض أن يكون تبعا لغيره فى غير الحدود المفروضة عليه من جهة كونه عضوا فى جمعية مدنية لها قوانين مرعية الأداء ، وواجب محاسبة نفسه على كل ما يخطر له من فكر أو يلفظ من قول أو يأتى من عمل ، وضابط ذلك كلمة افلاطون المعروفة : « تعرف نفسك بنفسك أى تعرفها بالدرس الدائم لحلها وسبر غورها فى أعمق طياتها . ثم ينبغى أن يؤخذ الناشىء بتثقيف ملكات عقله بأن يتعلم ما هو ميسر له من العلوم والفنون . قال كنت : « من ليس مثقفا فهو بهيمة ومن ليس مؤدبا فهو متوحش »

فاذا نحن أخذنا بهذا التفسير ، لم يبق عمل فى حياة الانسان لا يكون داخلا على نحو أو آخر فى معنى الثقافة ، وعلى ذلك تكون كل العلاقات بين الناس سواء أكانت اجتماعية أم سياسية أم اقتصادية أم أدبية أم تشريعية أم روحية داخلة فى معنى الثقافة ، ويكون كل تقارب فى أى ناحية من تلك النواحى بين شعب وآخر أو بين فرد وفرد مما ينطبق عليه هذا الحكم ، بل نحن لا نكون مبالغين اذا ما قلنا ان الاتحادات الرياضية والمسابقات الاولمبية نوع من التثقف ، ففى تنظيمها بين الدول المختلفة اتجاه جلى نحو ثقافة عالمية

كذلك يمكننا ان نقول أن مؤتمرات الاديان التى كانت تعقد بين الفينة والفينة للتقريب بينها والتفاهم بين الناس ، وسعى بعضها للتوحيد وازالة الفوارق ، هو اتجاه واضح صريح نحو توحيد الثقافة فى العالم

وما نقوله عن مؤتمرات الاديان ينطبق بذاته على المؤتمرات التعليمية والمؤتمرات التشريعية بل المؤتمرات الطبية ، فانها جميعها انما ترمى الى الوصول الى تكوين رأى عام عالمى للسير عليه فى التربية وفى التعليم وفى طرق معاملة المجرمين والمرضى وفى صيانة الحقوق الادبية للكتاب والمؤلفين ، وفى الوصول الى أجدى طرق العلاج . كل ذلك كان موجودا وهو اليوم أقوى أثرا وأسرع مما كان عليه قبل الحرب الحاضرة ، أى منذ ثلاث سنوات أو أربع

أنظر الى انجلترا وكيف أنها وسط هذا الضجيج الهائل وتلك المجزرة البشرية التى لم يشهد التاريخ بما يماثلها هولا ، كيف انها وسط كل ذلك تبحث مشروعا لتحسين حالة العمال وضمان العيش لكل شيخ وكل عاطل عن العمل ، ثم انظر الى اميركا وهى بعد أسابيع قليلة من تقديم مشروع بيفردج تنسج على نفس المنوال وتتبع نفس الخطة ، فواجب الحكومة يحتم عليها ، أن تكفل لكل مواطن حقه فى الحصول على عمل ، وحقه فى الحصول على دخل يتناسب مع احترامه لنفسه حينما يعجز عن العمل . ولو لم توجد مثل هذه الكفالة الاجتماعية والاقتصادية لما أصبحت هناك أية ضمانة للحرية . ولا شك أن كل جهودنا (هكذا تقول اللجنة الاميركية) لاقامة الحياة والحرية والسعى الى الرخاء ، ستذهب عبثا ما لم تعتمد على أساس وطيد من التأمين الاجتماعى والاقتصادى »

أرأيتم كيف أن العالم اليوم صار يتقارب من بعضه ، بل كيف ان الاثير جعل كل الشعوب تطلع على ما يجرى خارج بلادها فلا تلبث واحدة منها أن تقوم بنظام جديد حتى ترى هذا النظام موضع بحث وتمحيص فى البلاد الاخرى ، بل ربما كان هناك مباراة بين الامم فى أيها تسبق الأخرى، أليس ذلك هو المقصود بقولنا ان العالم يتجه نحو ثقافة عالية

قد يقول البعض اننا توسعنا توسعا كبيرا فى تفسير معنى الثقافة ، وان الحقيقة ان الثقافة ان صح التعبير بها على الملكات العقلية والروحية ، فهى لن تنطبق على تثقيف ملكات الجسم مثلا ، ولقد عرفها الأستاذ محمد سعيد مظهر فى عدد يناير سنة ١٩٤٠ من « الهلال » حيث قال : « فالرجل المثقف غير الرجل المتعلم ، فهو أكثر مرونة فى العقل وأوسع مجالا فى الحديث وأكبر مدى فى المعلومات ، وله شخصية قوية محبوبة ورأى بارز فى المجتمع وأثر كبير فى الامور العامة ، وهو لا يكون كذلك الا اذا ألم بطرف من الادب والفن واتصل بأمور الحياة العامة ، وعرف ما يجرى فى بلده وفى العالم من الاحداث الهامة ، وعرف لغة أخرى غير لغته ، وتتبع النهضة العلمية الحديثة وتيار الفكر فى الشرق والغرب الى جانب علومه التى تخصص فيها . على أن لا تبقى هذه الطوائف من المعلومات منعزلة مستقلة بعضها عن بعض ، فيصبح عقله مخزنا كبيرا به غرف غير متصلة . . وانما هو يؤلف بينها فى مجموعات منتظمة واحدة للعلوم وثانية للمعلومات العامة وأخرى للتاريخ والاجتماع وهكذا على قدر تنوع معلوماته . ثم يربط هذه المعلومات بعضها ببعض فتصبح كلها مجموعة واحدة كبرى أو دولة علمية يشد بعضها أزر بعض ويستفيد كل فرع منها من باقى الفروع بحيث اذا تكلم فى الدين عرج على الفلسفة والمنطق واستعان بالتاريخ للاستقصاء والمقابلة وبالعلوم للبحث والتمحيص فتدور معلوماته كلها حول محور واحد يتدرج فيه الى الغرض الاسمى من التعليم والتثقيف . وهو دراسة طرائق التفكير الصحيحة ومناهج البحث ومعالجة الامور بالحكمة والنظر فيها نظرا سديدا وكسب العادات العقلية المنظمة » . . هكذا عرف الثقافة استاذ أشرف هنا وفى العراق على اختبار درجة الثقافة العامة . وهو تعريف ان سهل أن يكون وصفا لاشخاص بذاتهم فانه لا يكاد يحصر الاتجاه الذى يمكن أن يتعرف به الانسان المعنى المقصود من لفظ الثقافة فهى فى عرفه ترجع الى توسيع المدارك العامة وتنظيم المعلومات الفنية والادبية والعلمية وهضم علومها جميعا لدرجة تمكن الشخص من أن يكون ذا رأى ومذهب فى الحياة ، بل انه يذهب الى أبعد من ذلك ، فهو يعتبر الشخصية القوية المحبوبة شرطا من شروط الرجل المثقف

ولعلى لا أكون مبالغا اذا قلت أن تلك الصفات على أهميتها وفائدتها فى الحياة لا تتوفر جميعها الا نادرا فى شخص واحد ، لذلك أرانى أميل الى تعريف الاتجاه الثقافى بأنه الاتجاه الفكرى والروحى ، فهل نحن آخذون فى سبيل اتجاه عالمى من هذا القبيل

ان جميع ما قدمت من الملاحظات والآراء يجعلنا نجيب عن هذا السؤال بالايجاب ، ولكنا من الناحية الاخرى اذا ما رجعنا الى تحليل تفاصيل الحياة ومسارك المجتمع الذى

تعيش فيه ، وجدنا الامر على خلاف ذلك تماما ، فان أقصى ما يرد بالخاطر أن تتسع المملكة اتساعا يجعلها أضعاف ما هى عليه اليوم ، حتى لا يبقى فى العالم الا عدد محدود من الدول، فهل هذا يحل الاشكال ، كلا فمصر دولة واحدة ، ونظامها السياسى واحد وتشريعها واحد ، ودين أغلبيتها العظمى واحد ، ولغتها واحدة ، وطقوس أفراحها ومآتمها واحدة، ولكن هيا بنا نفحص قليلا أفكار الناس وآرائهم ، اذن لرأينا بونا شاسعا وتناقضا عظيما وعراكا مستمرا بين مذهب ومذهب وبين رأى ورأى

هذا يدافع عن السفور ويراه حقا طبيعيا تتمتع به المرأة ، ويرى أنه السبيل الوحيد لرقية المجتمع ، لان المرأة التى لا تختلط بالناس ولا تعرف الحياة لا يمكن أن تكون أما صالحة ولا ربة بيت نافعة ، وهذا يطعن على السفور ويرى فيه مخالفة للدين وتقليدا أعمى للاوربيين ، ويعتقد أن السفور عار وسبة للمدنية

وهذا يرى وجوب تقليد أوربا فى نظمها وطرق معيشتها ، بل وفى المآكل والمشرب . والآخر يرى أن لا شأن لنا بغير بلادنا ، فنحن شرقيون وهم غربيون ، وسبيلنا الى النجاح أن نحرص على تقاليدنا وقواعد ديننا ، وان نستقل فى أمورنا عن سوانا

وهذا يرى أن يكون هدف مصر الاسمى أن تكون قطعة من أوربا ، وذاك يراها جزءا من البلاد العربية يجب عليها أن تحافظ عليها وتتفانى فى الاخلاص لها وتجعلها هدفها الاسمى الذى تسعى اليه وتعمل على تحقيقه مهما كانت الظروف والدوافع

هذا فى مصر وهى شعب واحد ولغة واحدة ونظام واحد ، فاذا ما حولنا نظرنا الى فرنسا مثلا قبل الحرب ، وجدنا عوامل خلاف متأصلة فى شعبها برغم وجود الاتحاد فى اللغة والنظام والدين ، ففيها من كانوا يسعون الى بسط النظم الشيوعية بكل تعاليمها حتى وصلوا الى أن يجعلوا لهم عددا محترما من النواب يتصلون علنا بموسكو ويعملون بتعاليمها فى أشد الازمات حرجا فى بلادهم ، كما كان فيها من كانوا يرون ويدعون الى نظام الملكية ويطالبون باعادتها ويعلنون افلاس الحكم النيابى

كذلك كان فى فرنسا دعاة أشداء أقوياء يناصرون الديمقراطيات ويرونها المثل الاعلى للانسانية ، وازاءهم كنا نرى دعاة الدكتاتورية والنظم الفاشية أو النازية

وغير هؤلاء وهؤلاء كنا نرى كتابا ومفكرين يدعون الى الفكرة الدينية ، وغيرهم يعلنون حربا لا هوادة فيها على الاديان والشرائع السماوية وكتب الله ورسله

ونحن اذا ما اتجهنا ببصرنا الى غير مصر وفرنسا ، ونظرنا الى الامم المتعددة الشعوب واللغات والدين ، لوجدنا خلافات أشد غورا وأبعد أثرا وأعمق فى نتائجها وفيما تتمخض عنه من حرب داخلية وقودها الحقد والعداوة والجهل ، فهل منا من يستطيع أن ينسى ما وقع وما يقع فى كثير من البلاد باسم النعرة الجنسية ، أو هل نسينا الحروب الاهلية فى مختلف أنحاء العالم وعلى ممر الدهور بين السود والبيض . أفلا نزال نشاهد الى اليوم فى بلاد تزعم أنها وصلت الى أقصى درجات الحرية والرقى تفريقا بين الشعوب ،

فأجناس بذاتها لا يجوز لها الدخول فى بعض المحال العامة لانها مقصورة على غيرهم

لست أود أن استطرد فى هذا الحديث لانه مؤلم مرير ، ومن شأنه أن يثير ذكريات ليس من الصالح اثارتها أو تحريكها ، ولكننا أردنا فقط ان نشير الى أن الشعوب والامم لا يزال بينها وبين بعضها فوارق أساسية تقتضى أجيالا وأجيالا فى سبيل تذليلها ، واننا لم نصل بعد فى هذه الناحية الى درجة يمكن الاغتباط بها أو الرضى عنها ، فاتحاد الثقافة لا يزال بعيدا بل أبعد مما تتصورون ، فاذا قلت اننا فى طريق بناء اتحاد عالمى ، فانما نظرت فقط الى تطورات العالم مدى الدهور ، وأردت أن أقول ان اتجاه التطور الحديث من شأنه أن يساعد على وضع حجر جديد فى أساس العالم الجديد ، أما الوصول الى تحقيق الغاية فأمامه طريق طويل وطويل جدا ، بل ومحفوف بأشد المخاطر والاهوال

هاتان هما الناحيتان اللتان يمكن النظر منهما الى تطور العالم نحو ثقافة عالمية ، ولكن قد يرد بالخاطر أن المقصود بثقافة انسانية فى هذا المقال ليس الثقافة العامة ، بمعنى انها تعم جميع الاجناس ، بل المقصود هو الثقـافة الانسانية ، أى التى تبنى على الانسانية الرحيمة ، وفى هذا أيضا نجد العالم يتطور نحو المبدأ الانسانى ، فما نراه فى البلاد الراقية من عناية بالمرضى ومن مكافحة للامراض ومن رعاية للطفولة ومن رحمة بالشيخوخة ومن اعانة للعاطلين ومن تأمين للعمال ومن ملاجىء لاعالة المحتاجين واغاثة المصابين ، كل تلك أعمال انسانية تتبارى الامم الراقية فى السبق اليها والتوسع منها لا فى بلادها فحسب ، بل خارج بلادها أيضا ، فالعالم فى سبيل التدرج الى أمثلة عليا كريمة فى هذه الناحية ، وما على الباحث الا أن يقرأ المشروع الانجليزى أو المشروع الاميركى اللذين أشرنا اليهما ليعرف كيف تتضامن الانسانية وتكافح لضمان الرخاء والسعادة لجميع أبناء الامة يستوى فى ذلك غنيهم وفقيرهم ، جاهلهم وعالمهم ، صحيحهم وعليلهم ، شيبهم وشبانهم ، فهم جميعا أبناء الوطن ، وهم جميعا جديرون برعايته وحنانه وعطفه

ولكنا نرى من نافذة أخرى أهوال حرب هائلة تزهق فيها الارواح بلا حساب ، فالفتك والتدمير والتخريب والتقتيل وايقاع الاذى على الاطفال والشيوخ وعلى المدنيين الآمنين فضلا عن المحاربين ، بعض سلاحها ، فنحن اذا ما نظرنا الى تلك الصفحة وجدنا البشرية بأكملها وهى لا تزال فى دور الفطرة الوحشى ، ونحن لا نزال أبعد ما نكون عن تحقيق المبادىء الانسانية الرحيمة

ونحن اذن حيثما قلبنا وجوهنا وجدنا لتطورنا الثقافى وجهين متقابلين : أحدهما ضاحك باسم يجذبنا الى السعادة والرقى ، والآخر عابس محزن ينذرنا بما ينتظرنا من مصاعب وأهوال . وانى لارجو أن يعمل الجيل القادم على أن يتغلب جانب الخير على جانب الشر ، وأن يساعد كل منا مهما قل نصيبه فى العمل على أن تكون جهوده فى هذا المعترك العالمى موجهة الى تحقيق ثقافة انسانية رحيمة تؤلف بين القلوب ، وتعلى كلمة الحق والعدل ، والله يهدينا سواء السبيل

الصراع حول مضيق صقلية

بقلم الدكتور محمد عوض محمد
أستاذ الجغرافيا في كلية الآداب

لو أنك سألت انسانا أن ينبئك بما يعرفه عما بالبحر الابيض المتوسط من مضيق ذي خطر عظيم ، لاجابك بسرد أسماء عديدة قبل أن يخطر له مضيق صقلية . سيحدثك عن مضيق جبل طارق الذي يصل البحر المتوسط بالمحيط الاطلسي ، ويفصل ما بين مراكش واسبانيا . أو يحدثك عن الدردنيل والبسفور ، وما ثار حولهما من نزاع وصراع على مر القرون . أو يذكر لك مضيق مسينا بين صقلية وايطاليا ، ذلك الطريق الذي كانت تخشاه السفن وتتحاماه بسبب تياراته الحائلة وعواصفه الهوجاء . بل لعله يذكر مضايق أخرى مثل مضيق كرش بين جزيرة القرم وبلاد القوقاز ، أو مضيق بونيفاسيو بين جزيرتي كرسيكا وسردينيا . يذكر هذا كله قبل أن تحدثه نفسه بذكر مضيق صقلية . ولا بد للمرء أن يردد ذكر الاحداث الجليلة التي دارت حول هذا المضيق ، في العصور القديمة والحديثة قبل أن يدرك أكثر الناس ما لهذا المضيق من الخطر العظيم

لقد سبق لكاتب هذه السطور أن عالج في « الهلال » وصف المضايق بوجه عام ، وما لها من أثر في تاريخ الدول . ونود اليوم أن نركز بحثنا في مضيق صقلية وحده ، الذي يدور حوله اليوم صراع هائل يذكرنا بما كان في العصور القديمة بين روما وقرطاجنة

مضايق البحر الابيض في الحرب الماضية

في البحر المتوسط ثلاثة مضايق لعلها متساوية في الخطر : الدردنيل والبسفور في الشرق وجبل طارق في الغرب ، ومضيق صقلية في الوسط . وليس من الضروري في كل نزاع عالمي أن يدور صراع عنيف حول هذه المضايق جميعا . بل الامر في هذا مرجعه الى الحرب والى الوجهات التي تتجه اليها أحداثها . ففي الحرب الماضية دار صراع عنيف من أجل السيطرة على الدردنيل والبسفور . ولو ان الحلفاء نجحوا في اقتحامهما ، لقصروا أمد الحرب ، وتغيرت نتائجها تغيرا خطيرا . أما في هذه الحرب فان تركيا المحايدة تسيطر على هذه المضايق ، ويسود الامن والسلام شواطئها . ولكن الحال لن تلبث أن تتبدل اذا حاولت دول المحور أو دولة بلغاريا ان تشن الحرب على تركيا ، وتخرجها من حيادها

وفي الحرب الماضية كانت فرنسا وايطاليا حليفتين — وهما الدولتان المسيطرتان على سواحل مضيق صقلية — فظلت طوال الحرب تنعم بنصيب وافر من الامن . كذلك يسود

السلام الى حد بعيد شواطىء مضيق جبل طارق . ولكن المانيا اذا أرادت ان تقتحم أرض اسبانيا ، وان تهاجم الحلفاء فى مراكش ، فان هذا الامن لا يلبث ان يزول

وانما تبرز أسماء هذه المضايق فى الوجود ، وتتطاير انباؤها فى الآفاق ، حين تشتعل فى جوانبها النيران ، وتصطرع من حولها الجحافل ، ويبسط عليها عقاب الحرب أجنحته ، وينشب فيها أظفاره . هنالك يذكر من لم يكن يذكر ان هنالك بحارا ، دقيقة فى مساحتها جليلة فى خطرها ، يستطيع من يسيطر عليها ان يتحكم فى طرق الملاحة والتموين ، وأن يثب فوقها من بر الى بر ومن قارة الى قارة

من أجل مضيق صقلية

وفى الصيف الماضى — فى شهر تموز — فى الوقت الذى كانت قوات المحور واقفة فيه على أبواب مصر ، تهدد باقتحام هذا القطر الامين . وان تجتازه الى الارض المقدسة ، وبلاد الشام وسهول الفرات ودجلة ، بل الى ايران والهند . كانت القيادة العليا للدول المتحدة تدبر الوسائل لارسال جيش جرار الى بلاد المغرب ، وقد استطاعت أن ترسل هذا الجيش فى تشرين الثانى ، وأن تحتل بسرعة أرض مراكش والجزائر وأن تبلغ الاطراف الغربية من تونس ، فهال دولتى المحور ان يسيطر الحلفاء بهذه السرعة على تونس ، والسواحل الجنوبية من مضيق صقلية . فبادروا بحشد جيش عظيم فى افريقية ، وأخذوا يدافعون دفاع المستميت عن أرض تونس ، علهم أن يرجئوا — ان لم يستطيعوا فى النهاية أن يمنعوا — تسلط الدول المتحدة على الطرف الجنوبى من ذلك المضيق الخطير

فاذا كنا طالعنا ما دار من معارك حول خط مارث ، وفى ميدان قفصه والقيروان ، وما جرى من زحف الجيوش ، وحقول الالغام التى تلقى فى طريقها ، فلنذكر أن هذا القتال العنيف ، بأسلحته المختلفة ، وفنونه المتعددة ، انما يدور كله من أجل شىء واحد وهو « مضيق صقلية » ، فان السيطرة على السواحل الجنوبية وحدها ، يضمن للدول المتحدة تأمين الملاحة فى البحر المتوسط الى حد كبير . وتأمين جزيرة مالطة وتموينها بحيث تستطيع أن تؤدى وظيفتها كاملة فى هذه الحرب ، ويقرب مطارات الحلفاء بحيث تهدد قواتها الجوية ايطاليا وصقلية وسردينيا بالويل والدمار ، بل بالغزو والحرب ، من البر والبحر والجو ، ولعل المبتكرات الحديثة قد زادت ولم تنقص من خطر هذا المضيق بأن جعلت عبوره أيسر . وخلق الطيران وسيلة لاجتياز هذه الشقة بحيث أصبح المضيق اليوم أكثر ضيقا وأقل سعة مما كان فى عهد النزاع بين قرطاجنة وروما . أو بين العرب والروم

أخطر مضايق البحر الأبيض

لست أدرى لماذا لا أكاد أفكر فى مضيق صقلية ، حتى يصوره الوهم لعينى فى صورة وحش هائل ، أو تنين بشع ، أو غول ضخم ، أو مارد من الجن ، قابع تحت سطح الماء ،

ناشبا مخالبه فى طرق البوغاز . فاغرا فما واسعا بأنياب وأضراس من جهنم ، يلتهم مئات الاساطيل ، فيمضغها مضغا ، ويطحنها طحنا ، ومئات الألوف من الارواح ، فيرسلها الى جوف مظلم واسع ، لا يمتلىء ولا يعرف الشبع . ولا يزداد على الايام الا شرها ونهما . كان فيما مضى يتناول فرائسه من سطح اليم ، ومن شواطىء تونس وصقلية وايطاليا ومالطة ، من البحر حينا ومن البر أحيانا ، واليوم يقتنصها من الجو ايضا ، من بين السحب ومن مسارب الطير

ولم لا يكون فى جوف هذا البوغاز مارد من جن جهنم ؟ ولقد رأينا البراكين تثور من جوفه وتقذف بنيرانها وحممها ورمادها ، فتكون جزرا مثل «بنتلاريه» و«لنوزا» و«لميدوزا» ، بل لقد ثارت البراكين فى عصر حديث جدا فى جوف هذا البوغاز ، ففى القرن التاسع عشر كانت الثورانات البركانية العنيفة تزعزع القاع ، وتثير الموج ، وترسل الحمم الى سطح الماء ، حتى كونت من مقذوفاتها المتراكمة ما بين صقلية وبنتلاريا ، جزيرة صغيرة لم تلبث ان اختفت وغاصت تحت سطح الماء *

ان مضيق صقلية أكبر مضايق البحر المتوسط اتساعا ، اذ تبلغ سعته فى اضيق جزء منه مائة وأربعين كيلومترا . بينما مضيق جبل طارق لا يزيد على أربعة عشر كيلومترا . والبسفور والدردنيل لا يزيد اتساع كل منهما فى أضيق جزء على الالف متر . ولهذا السبب وحده قد ينسى كثير من الناس أن بوغاز صقلية مضيق بالمعنى المعروف أو يتوهمون انه قليل الخطر لهذا السبب ، ولكن خطر المضايق لا يقاس بمقدار ضيقها ، بل بموقعها وبالاقطار التى تحيط بها ، والبحار التى تصل بينها ، وطرق الملاحة التى تجتازها

ومهما يكن الحال فى العصور الحديثة ، فان بوغاز صقلية كان من غير شك أخطر المضايق فى البحر المتوسط كله ، فى العصور القديمة .. فى ذلك الوقت كان البحر المتوسط هو الميدان الاكبر للنشاط العالمى ، وكانت الاقطار التى تحيط به هى مهد الحضارة ، وميادين الثروة . وأقدم طرق الملاحة البحرية نشأ ونما بين سواحله وجزره . والتجارة بين الاقطار المحيطة به هى أقدم مظهر للتجارة والمبادلة المنظمة بين الدول .

فى وسط هذا البحر تمتد شبه جزيرة ايطاليا ، وجزيرة صقلية ، نحو الجنوب بحيث تقترب اقترابا شديدا من شواطىء افريقية . وبهذا ينقسم البحر المتوسط شطرين ، شرقى وغربى يفصل بينهما طريق ضيق هو الذى أطلق عليه الجغرافيون اسم مضيق صقلية . تشرف عليه سواحل صقلية من الشمال ، وسواحل تونس من الجنوب ، ونحن فى غنى عن أن نسهب فى وصف هذا الطريق الضيق ، وما له من جليل الخطر فى السيطرة على طرق الملاحة وثروة الامم . فان حوادث التاريخ نفسه التى سنجملها هنا هى خير معبر عن جليل خطره وعظيم شأنه

---

* حدث هذا فى عام ١٩٣١ ، وقد أطلق على الجزيرة اسماء كثيرة اشهرها اسم جزيرة فردناندیا ، ولم تلبث على سطح الماء سوى بضعة اشهر ، ثم زالت من الوجود

مضيق صقلية بين حوادث التاريخ

كان أول الشعوب التجارية فى البحر المتوسط الشعب الفونيقى . وكانت نشأته فى شمال جزيرة العرب ، ثم نزحت جموعه الى سواحل الشام منذ أربعة آلاف من السنين . وبعد قليل من الزمن أخذت الموانىء الفونيقية تظهر على تلك السواحل، وأخذ الفونيقيون يبنون الأساطيل ، ويجوبون البحر المتوسط ، يبيعون ويشترون ، ويجمعون الثروات

وقد ظل نشاط الفونيقيين أول الأمر مقصورا على القسم الشرقى من البحر المتوسط . ولكنهم ما برحوا ينتشرون ، ويطوفون اقطارا جديدة ، حتى نزلوا سواحل افريقية الشمالية . وأخذوا فى مبادلة السلع مع السكان الاصليين . وبقيت منهم جماعات على شواطىء المغرب ، وازدادت هذه الجماعات على مدى الزمن حتى أصبحت بمثابة مستعمرات دائمة امتزجت تماما بسكان البلاد ، وأصبحت بلاد المغرب وطنها الثانى . وفى حدود عام ٨١٣ قبل الميلاد ، اتفق أن هاجرت أميرة فونيقية تدعى ديدو ، من بلدة صور الى أرض تونس ، فابتاعت قطعة من الارض على ذلك الخليج الهادىء ، خليج تونس ، ثم قامت بتشييد مدينة قرطاجنة (ومعناها بالفونيقية المدينة الجديدة) على تلك الارض

وهكذا أسست الاميرة ديدو دولة فونيقية جديدة فى بلاد المغرب عاصمتها قرطاجنة ذات الموقع الجغرافى الممتاز ، الذى تستطيع منه أن تسيطر بأساطيلها على طرق الملاحة ، وأن تجمع المتاجر والثروة ، حتى أصبحت فونيقيا الجديدة أجل شأنا من فونيقيا القديمة وباتت قرطاجنة نفسها من أعظم — ان لم تكن أعظم — المدن فى عصرها ، وقد قدر الكتاب أن سكانها تجاوزوا المليون من الانفس ، ولئن كان هذا التقدير لا يخلو من الغلو ، فان آثار المدينة تدل من غير شك ، على أنها كانت عظيمة الحجم ، كبيرة الثروة ، كما كانت محصنة تحصينا هائلا ، ومحاطة بأسوار منيعة لا يقل سمكها عن عشرة أمتار

وما أشد حاجة قرطاجنة الى الحصون المنيعة والاسوار الضخمة ، وهى التى تنعم بموقع جغرافى عزيز ، وتنطوى خزائنها على ثروات عظيمة ، لم تلبث العيون أن تطلعت اليها ، والايدى أن امتدت لاختطافها

ولم تكد أقدام الفونيقيين أن تثبت فى افريقية حتى أخذوا يكملون سيطرتهم على مضيق صقلية ، والأقطار المحيطة به ، فنزلوا مالطة واستولوا عليها ، واحتلوا سردينيا وانتشروا فيها ، ثم أخذوا بالتدريج يحتلون جزيرة صقلية ويؤسسون المستعمرات فى انحائها . وقد ظلوا زمنا يقرب من الثلاثة القرون ، وهم سادة الموقف لا ينازعهم فى سلطانهم منازع ، ولا تعترض توسعهم وانتشارهم أمة أو دولة ذات خطر . ولكنهم لم يكادوا أن يتموا احتلال شطر كبير من جزيرة صقلية حتى اصطدموا بأول خصم عنيد ، وهو المستعمرات اليونانية . فلقد أخذ اليونان فى القرن السادس والخامس قبل الميلاد ينتشرون فى جهات كثيرة من البحر المتوسط ، ومن أهم المستعمرات التى أنشأوها وعمروها اقليم صقلية

الشمالى الشرقى ، ولم يكن بد من أن ينشأ صراع عنيف بين اليونان وقرطاجنة من أجل السيطرة على صقلية . ودارت بين الفريقين حروب طويلة ، كانت سجالا بين القوتين ، ولكن الفوز بوجه عام كان فى جانب الفونيقيين اذ استطاعوا ان يحتفظوا بجزيرة سردينيا كلها ، وبالجزء الاكبر من صقلية

بيد أن هذا الصراع القديم على سيادة المضيق لم يلبث أن اتخذ شكلا أشد عنفا وأكبر جرما ، فى القرن الثالث قبل الميلاد ، حين بسطت روما رايتهـا على النصف الشرقى (اليونان) من صقلية ، وظهر فى الميدان خصم جديد عنيد لم يلبث أن قام يناوىء قرطاجنة وينازعها السيطرة على هـذا المضيق الخطير ، ثم دارت تلك الحرب الشعواء ، التى دامت زهاء المائة عام ، والتى لم يكن بد من أن يفنى فيها أحد الفريقين

ينقسم النزاع بين قرطاجنة وروما الى ثلاث حروب متتالية . ولكنها فى الحقيقة حرب واحدة طويلة تتخللها فترات الاستعداد لاستئناف الصراع . وقد بدأت هذه الحرب دورتها الاولى عام ٢٦٤ قبل الميلاد ، ودامت الى عام ٢٤١ ، كان الميدان الاكبر فيها جزيرة صقلية وقد تعاقبت تلك السنون الثلاث والعشرون ، والقتال لا يزيد الا احتداما ، وكلا الخصمين عنيف عنيد ، وكانت الاقدار تتلاعب بالفريقين ، فيميل النصر حينا الى جانب ، ثم لا يلبث ان يتحول الى الجانب الآخر ، ولكنه لم يكن فى أية حال نصرا حاسما قاطعا . وقد انتهت الحرب فى النهاية لا بسبب نصر باهر أحرزه أحد الفريقين ، بل لان الاعياء قد نال منهما جميعا . وقد فقدت قرطاجنة فى هذه الحرب تفوقها البحرى ، كما فقدت ممتلكاتها فى صقلية ، بل واضطرت لان تغرم مبلغا من المال

ولا نزاع فى أن قرطاجنة قد خسرت الجولة الاولى ، ولكنها لم تكن خسارة فادحة . وقد ظهر بين قوادها فى نهاية الحرب جندى بارع وهو هملكار بركا ، وقد أشرب قلبه بغض روما والرومان ، وأحرز عليهم انتصارات ذات شأن فى البر ، ولكنها لم تغن كثيرا بعد فقد القرطاجنيين للتفوق البحرى ، فى ميدان يوشك البحر فيه أن يكون أجل خطرا وأبعد أثرا من البر

ولم تكد تنتهى الجولة الاولى حتى أخذ كلا الفريقين يستعد للجولة الثانية . . ومن الغريب أننا نرى قادة قرطاجنة لا ينصرفون الى انشاء أسطول جديد واستعادة السيادة البحرية بل نرى قائدها الاكبر هملكار بركا يغزو اسبانيا ، ويستولى على جزء كبير منها، لكى يعوض بذلك فقد صقلية من جهة ، ولكى يدبر وسيلة لغزو روما بطريق البر من جهة أخرى

وقد مات هملكار بركا فى اسبانيا بعد أن وطد حكم قرطاجنة فيها ، ثم خلفه أخوه هزدروبال ، ثم ابنه هنبال الجندى العظيم ، الذى لم يعرف الرومان خصما أشد منه من قبل ولا من بعد

لقد صحب هنبال أباه الى اسبانيا ، حيث تعلم منه فنون الحرب ، وقيادة الجيوش ،

وحيث تعلم منه أيضا بغض روما ، والنقمة عليها . فلم يكد يتولى رئاسة الجيش ، حتى أخذ يعد حملته الشهيرة على روما ، ولم يكن قد تجاوز السادسة والعشرين من العمر ، وكانت خطته تقضى بأن يزحف من اسبانيا الى روما عن طريق جنوب فرنسا وجبال الالب ، وقد نفذ هذه الخطة ببراعة هائلة ، ودهاء حربى منقطع النظير

بدأ هنبال زحفه الشهير فى ربيع عام ٢١٨ قبل الميلاد ، وأخذ ينقل جيوشه ببراعة فائقة ، بحيث استحال على القوات الرومانية أن تعترض مسيره فى فرنسا الجنوبية . أو تحول دون اختراقه جبال الالب ، فاستطاع أن يخترقها فى صيف ذلك العام ، وفوجئت الجيوش الرومانية فى سهل لماردیا ، فاضطرت الى التقهقر جنوب نهر البو والى اخلاء ايطاليا الشمالية كلها

والتقى بهم هنبال فى العام التالى ، وأخذ يوقع بهم الهزيمة تلو الهزيمة ، حتى انتهى به الأمر الى سحق الجيش الرومانى سحقا تاما فى معركة كانى الشهيرة فى جنوب ايطاليا . عام ٢١٦ ، تلك المعركة التى لا تزال موضع دراسة طلاب الفنون العسكرية الى وقتنا هذا

بعد هذا النصر الباهر كان الطريق مفتوحا أمامه الى روما . وقد لام كثير من المؤرخين هنبال لانه لم ينتهز الفرصة ، ولم يتقدم لمحاصرة العاصمة .. ولكن لعل فى هذا اللوم كثيرا من الاسراف ، فلقد كانت روما محصنة تحصينا شديدا ، ولم يكن بد لهنبال من أن ينتظر حتى يأتيه جيش الامداد بقيادة أخيه هزدروبال . فاضطر للانتظار ، واتبع الرومان نحوه خطة قتال جديدة ، أوهنوا بها قواته عاما بعد عام ، وهى تجنب المعارك الكبيرة ، والاكتفاء بما يشبه حرب العصابات

ولعل الغلطة الحقيقية التى ارتكبها هنبال هى انه أقدم على هذا الزحف الهائل دون أن تكون له السيادة على البحر . وقد استطاع الرومان بفضل تفوقهم البحرى أن يغيروا على أسبانيا ، وأن يمنعوا هزدروبال من أن يذهب لامداد أخيه . ثم استطاعوا فى النهاية أن يهاجموا افريقية ، وأن يهددوا قرطاجنة نفسها .. فاضطر هنبال الى العودة الى وطنه للدفاع عنه . ولكن الجيش الذى جمعه على عجل لم يستطع الوقوف أمام القائد الرومانى سيبيو فانهزم فى معركة زاما عام ٢٠٢ قبل الميلاد . ونصح هنبال حكومته بأن تطلب الصلح . وانتهت الحرب الفونيقية الثانية بفقد قرطاجنة ما بقى لها من اسطولها ، وجميع ممتلكاتها فى صقلية وسردينيا واسبانيا

وعادت الثروة والرخاء الى قرطاجنة رغم هزيمتها . فلم تطق روما ان تراها ، وقد عاد نجمها الساطع الى الظهور ، فشنت عليها الحرب الفونيقية الثالثة (١٤٩-١٤٦ ق. م) ، وأقيم الحصار الشديد ثلاثة أعوام على مدينة قرطاجنة ، الى أن غلب السكان على أمرهم ، وهلك اكثرهم فى اثناء الحصار ، وبيع من بقى منهم حيا فى أسواق الرقيق ، وأحرقت مدينة قرطاجنة ودمرت تدميرا . وزالت دولة الفونيقيين فى شمال افريقية ، وحلت محلها ولاية افريقية الرومانية

فى ظل الدولة الرومانية بنيت مدينة قرطاجنة من جديد ، وخيم الهدوء والسلم زمانا على مضيق صقلية . ولكن لم يكد الضعف يتسرب الى روما، وتغير عليها الشعوب البربرية فى القرن الخامس الميلادى، حتى تمزقت الدولة ، وكانت افريقية من نصيب شعب الفندال. وكان الفندال شعبا قوام حياته النهب والقرصنة ، وقد اختار السواحل الجنوبية من مضيق صقلية ، مجالا يغير منه على السفن والجزر المجاورة ، وظل يمارس هذه الحياة مائة وعشرين عاما . وفى منتصف القرن السادس رأت الدولة البيزنطية أن هذا المضيق لا ينبغى أن يترك فى مثل هذه الفوضى ، فأرسلت جيشا واسطولا ضخما ، وأجلى الفندال عن افريقية ، وانتظم الحكم فيها فترة من الزمن . وكان للبيزنطيين أيضا النفوذ الاكبر فى جزيرة صقلية ، فملكوا بذلك جانبى المضيق

لعل الحرب بين روما وقرطاجنة أضخم مظهرا فى التاريخ كله للنزاع على مضيق صقلية . ولكن العصور الوسطى والحديثة لم تخل من مظاهر هذا التطاحن ، وفى العهد العربى باتت افريقية قطرا عربيا يتكلم العربية ويدين بالاسلام . وكان العرب شعبا بريا فى أول الامر ، وكان التوسع العربى متجها نحو البر ينتقل من قطر الى قطر ، حتى وصل مضيق جبل طارق ، فلم يكن بحاجة الى قوة بحرية كبيرة لاختراقه ، وتم له الاستيلاء على الاندلس ولا شك فى أن الاستيلاء على بلاد المغرب واسبانيا قد استدعى بناء السفن والاساطيل . وليس بغريب والحالة هذه ان نرى التطاحن على بوغاز صقلية يظهر للوجود مرة أخرى فى القرن العاشر الميلادى . وكانت تونس اذ ذاك تحت حكم بنى الاغلب ، فأرسلوا سفنهم وجيشهم الى صقلية ، فاستولوا عليها بل عبروا أيضا مضيق مسينا الى الطرف الجنوبى من ايطاليا . وكذلك استولوا على جزيرة مالطة ، وتمت لهم السيطرة على المضيق الخطير زهاء قرن من الزمان ، وظلت صقلية خاضعة للحكم العربى الاسلامى أول عهد الفاطميين أيضا ، الى ان سطا عليها النرمانديون وتولوا الحكم فيها . ولم يكفهم هذا بل حاولوا أن يسيطروا على السواحل الافريقية فترة من الزمن . ولكنهم لم يلبثوا أن أجلوا عنها

ومن أعجب العجائب فى قصص الطموح الى الاستيلاء على مضيق صقلية ما حدث فى القرن الثالث عشر ، فى أثناء الحروب الصليبية . فان لويس التاسع ملك فرنسا ، الذى بذل معظم جهوده فى حروب مع الدول الاسلامية ، لم تردعه هزيمته وأسره فى القطر المصرى ، بل جرد حملة أخرى وأغار على سواحل افريقية ، وقد قضى فى هذه المحاولة نحبه ، وهلك معظم جيشه

النزاع على المضيق فى العصور الحديثة

ونستطيع الآن أن ننتقل الى العصور الحديثة لكى نرى الصراع على المضيق يستفحل خطبه مرة أخرى ، وأول شىء تصادفه أن بريطانيا تنبه الى ما لهذا المضيق من خطر

كبير فى ملاحة البحر المتوسط ، وهى الدولة البحرية الاولى . ولكنها لا تحاول الاستيلاء على سواحله فى صقلية أو افريقية ، بل تكتفى بأن تحتل جزيرة مالطه ، ذات المرفأ الطبيعى البديع ، وأن تجعل منها قاعدة بحرية هامة . وذلك فى نهاية القرن الثامن عشر ، فى أثناء حربها مع نابليون . ولكن نزول البريطانيين مالطة لم يثر نزاعا ولا قلقا ولا اضطرابا . لان السواحل الجنوبية من مضيق صقلية كانت خاضعة لحكم العثمانيين . وفى الجانب الشمالى لم يكن لدولة ايطاليا وجود

وانما يتجدد الصراع حول مضيق صقلية فى وضوح وجلاء ، فى الثلث الاخير من القرن الماضى ، فقد تكونت مملكة ايطاليا بعد لأى . ولم تكد تظهر فى الوجود حتى أخذت تمد عينيها باحثة عن مجال للتوسع الاستعمارى . ولم تكن حكومتها بحاجة الى تفكير طويل ، لكى ترى أن قطر تونس أول ثمرة يحق لها أن تتطلع لاقتطافها ، ناهيك أن القطر قريب جدا من صقلية . وليس بين دول أوربا دولة تعادل ايطاليا فى قربها من تونس ، أو لها من الصلات التاريخية بها ما لايطاليا

ولكن ايطاليا الناشئة كانت تعوزها القوة الحربية والاقتصادية ، بل ان وحدتها الجديدة لم تكن بعد شديدة التماسك ، ولهذا فشلت فى الصراع من اجل افريقية ، واستطاعت فرنسا أن تبسط حمايتها على تونس من غير كبير عناء كما استطاعت أن تتجاهل ما قد يثور فى نفس حكومة ايطاليا من حقد سياسى عظيم . وأرادت الدول أن ترضى ايطاليا فسمحت لها باحتلال طرابلس وبرقه ، ولكن نفس ايطاليا لم ترض عن فقد تونس ، ولم تعز عنها ، واحتدم النزاع حولها مرة أخرى فى العهد الفاشى ، ولا شك فى أن هذا الضغن القديم مما دفع بالحكومة الايطالية الى أحضان النازيين الحديدية

***

واليوم يشتعل اللهيب مرة أخرى ، تجدد بحدتها وشدتها عهود روما وقرطاجنة

فهل التاريخ يعيد نفسه ؟

وأى الفريقين روما وأيهما قرطاجنة ؟

ان التاريخ قلما يعيد نفسه حرفا بحرف . ولكن الصراع القديم على المضيق يعود الى الظهور ، فى صورة أشد عنفا وفظاعة مما كان عليه فى أى عصر من العصور . ووراء الاستيلاء على المضيق اليوم كما كانت الحالة فى العصور القديمة . نتائج بعيدة المدى ، وأمور جليلة الخطر

والحال اليوم كما كانت فى النزاع بين قرطاجنة وروما ، فان النصر فى هذا الميدان رهين بالتفوق البحرى ، مضافا اليه فى عصرنا هذا التفوق الجوى

محمد عوض محمد

ماذا فعلت الهندسة بالعالم

وماذا تفعل فى المستقبل ؟

بقلم عبد القوى احمد باشا

قبل الحرب الماضية بسنوات قليلة ، كان أستاذنا فى المعهد الهندسى بالجيزة يتلقى من شقيقه المهندس بأركان حرب الجيش الفرنسى رسائل فى أحدث ما وصلت اليه النظريات الهندسية . وفى يوم ما ، أخبرنا استاذنا الفرنسى أنه وصل اليه من شقيقه ما يدل على أن الالمان وفقوا الى مدفع يقذف قنبلته على بعد ٧٠ كيلو ، ثم أخذ أستاذنا المسكين يشرح لنا فى محاضرتين ما وصل اليه بعد مراسلات متعددة مع شقيقه ـ من أن هذا الاختراع خيال لايمكن تحقيقه من الوجهة العلمية والعملية . رحم الله أستاذى وغفر له ، فاننا بالرغم مما قال عشنا ورأينا كم من أحلام اليوم تصبح حقائق الغد ، وكم من خيال صار أمرا واقعا حقا

لا أستطيع أن أهجم على الغد من غير وقفة قصيرة على أطلال الامس وبناء اليوم ، لنرى كم فعلت الهندسة ، والى أى مدى وصلت بالعالم فى السنوات الاخيرة . ونظرة خاطفة للهندسة بفروعها العديدة وألوانها المتباينة وأشكالها المختلفة ومعاملها ومصانعها المنبثة فى أقطار الارض ، لتدل أوضح الدلالة على أنها أصل ما وصلنا اليه ، وسبب ما حصلنا عليه من خير وبركة وصلاح واصلاح وتقدم نحو الكمال عند البعض ، أو من شر ونقمة وفساد وبعد عن المثل العليا عند البعض الآخر ، أو هى الاثنان فى هذا وذاك اذ لا عمران بدون الخير والشر يسيران جنبا لجنب كما يقولون

يذهب بعض الناس الى أن للهندسة يدا فيما نحن فيه من شقاء ، فلولاها لاحتفظ الرجل بخلقه القويم القديم ، وعف عن ضرب المرأة والطفل والشيخ بقنابل المدافع البعيدة المرمى أو بقذوفات الطائرات ، ولولاها لما كانت البطالة من يوم أن أحل المهندس الحصان البخارى مكان أربعين رجلا . ولولاها ولولاها .. وماذا على المهندس لو رد ردا عمليا أو بالحرى ردا سلبيا فقفل المصنع والمعمل وأمسك عن امداد العالم بنتاج فكره وبحثه وعمله ، وقال أما والهندسة عاجزة عن اختراع قانون رياضى للاخلاق ، وليس فى مقدورها صنع ماكينة أخلاقية ترتفع بالانسان الى مستوى الانسانية العالى ، وما دام أمر الناس ومقدراتهم فى يد طائفة من السياسيين المحترفين ، وما دام أمر البرلمانات لحفنة من خطباء المحامين ، وما دام حكم الناس لغير الفنيين ، فلا هندسة ولا معامل ولا مصانع .

وحسبكم ما وصلت اليه الهندسة ، ولا مناص من وقفة طويلة أو قصيرة حتى تصل الاخلاق الى الحد الذى تمشى فيه مع الهندسة جنبا لجنب

كم يكون جميلا من المهندس لو رفع صوته قائلا للناس : « ان الحرب من طبيعة البشر» أكذوبة كبيرة أضفى عليها القدم والتكرار مسحة القول الحق ، وما هى من الحق فى شىء» لولا عجز الساسة من جهة ، واستغلال الحروب لمآرب وضيعة وصغيرة من جهة أخرى

قل لهم ان الوطنية أفق ضيق ومجال غير حيوى ، أما الملاذ الحق فهو الانسانية تتسع لكل جنس ولون ودين ، وينضوى تحت لوائها العالم بأفراده وجماعاته وأممه الصغيرة والكبيرة على حد سواء

قل لهم فى دائرة الحب المتبادل انك مستعد لتعمل فى سبيل الخير والجمال ، وان فى معامل البحث وفى دنيا الهندسة مئات من النظريات التى ستستحيل الى عمليات تنعمون بها اذا ما وضعت الحرب أوزارها ، حتى اذا ما أتت سنة ٢٠٠٠ ، وجدتم أن خيال اليوم صار حقيقة الغد ، أذكر لهم على سبيل التمثيل :

ان الهندسة – فى سبيل الوحدة العالمية وتوزيع بركاتها على الناس جميعا – تعمل جاهدة على اقامة محطة توليد كهربائية واحدة فى وسط أحد المحيطات لتقذف الالكترونات فى أجواء العالم المختلفة على أن يكون فى كل بلد من بلاد العالم محطة استقبال لجمع هذه الالكترونات واعادة توزيعها فى شكل تيار كهربائى يستعمل فى جميع مرافق الحياة

كذلك وصلت الهندسة الى تحقيق أمر يبدو غريبا هو الآخر ، ذلك هو تسيير قطار بسرعة تصل لمائة وخمسين كيلو فى الساعة بدون استعمال أى قوة من القوى المعروفة فى الهندسة التطبيقية اليوم ، فلا فحم ولا مازوت ولا كهرباء تولد بالمحطات المختلفة . وقد عطلت الحرب اتمام العمل ، وحسبك أن تعرف أن القطار النموذجى احتاج فى أول سيره الى عشر بطاريات لتدفعه مسافة الميل الاول ، وبعد هذا الميل الاول تولت عملية الدفع ملفات من السلك ركبت بطريقة خاصة لتقطع خطوط المجال المغناطيسى الارضى « Magnetic Meridian » فتتولد عند ذلك قوة دافعة كهربائية (Electro Motive Force) تتولى تسيير القطار ، والانتفاع بقوة الارض المغناطيسية باب جديد ولجته الهندسة فى بلاد السويد وأوصدته الحرب الحاضرة

والآن – والحرب قائمة – تجاهد الهندسة فى تمكين الشعب الالمانى من رؤية هتلر وجورنج وجوبلز وغيرهم وهم يخطبون عن طريق التلفزيون ، وسيكون لهذا الاختراع شأن خطير فى المستقبل القريب ، وعلى الاخص فى حروب الغد ، وليس التمكن من رؤية تحركات الجيوش على أبعاد شاسعة بالخيال المستحيل التحقيق . وككل نتاج الهندسة سيكون نعمة ونقمة ، ويجمع بين الخير والشر على السواء

أليس فى اعتماد العالم على محطة قوى واحدة لاستعمالها فى كافة أغراضهم المنزلية والصناعية ومواجهة كل من وزيرى خارجية مصر وبريطانيا بواسطة التليفزيون على بعد

آلاف الاميال ، وتمكينهما من ترجمة ما يدل عليه وجه كل منهما عند الخطاب ، أليس فى هذا وأمثاله تقريب مادى لا بد يلازمه تقارب معنوى وتعاون عالمى وتضامن على فعل الخير . أرجو أن تحقق الهندسة هذا الحلم أو بعض هذا الحلم . ولئن لم تفعل فلنتواضع ولنرجع الى مصر لنراها فى سنة ٢٠٠٠ مكتفية : بكهربة أسوان وغير أسوان من مساقط طبيعية وصناعية على مجرى النيل ، بعد اذ كادت تنجح هندسة الكهرباء فى تقليل الضائع من القوى عند نقلها على مسافات شاسعة . وسيرخص سعر الوحدة الى حد تستطيع معه السيدة فى شمال الدلتا من استخدام الكهرباء لعملية الطبخ والغسيل ، والرجل فى ادارة الطلمبة لرى أو صرف الارض

وسترتبط مصر بالخرطوم بطريق زراعى لا يقل عرضه عن ٥٠ مترا يساير النيل فى أغلب مراحله ، وستلعب الطيارات دورا هاما فى نقل الركاب خصوصا بين القاهرة وجميع عواصم البلاد العربية الشقيقة ، وستكون اللوريات والسيارات الفردية والمشتركة من الكثرة والرخص بحيث تصبح معها السكك الحديدية من المودات القديمة . وفى سبيل الوصول بسرعة اللورى الى مائة ميل فى الساعة ، والسيارة الى ضعف هذه المسافة ، تجرى المباحث على قدم وساق

وستتجه مصر الى الصناعة اتجاها جديا ، على انها بالرغم مما ظهر وسيظهر قريبا فيها من مواد خام ، ستظل معتمدة على الخارج فى استيراد الكثير من المواد التى تلزم لصناعتها

هذا وستقطع الهندسة شوطا كبيرا فى سبيل النيل وضبطه والانتفاع بأكبر كمية من مياهه ، باتمام مشروع السدود وزيادة عدد القناطر واللجم التى تكبح جماحه ، وتخضعه اخضاعا تاما لأغراض العمران من رى وملاحة وكهرباء

ستكون مصر سباقة كعادتها الى الانتفاع بكل ما تصل اليه الهندسة من مبتكرات جديدة، وبالرغم من هذا أخشى أن تأتى سنة ٢٠٠٠ والقرية المصرية على حالها والبرك لم تردم ، ومياه الشرب لم تعمم . وكل ما أرجو الا يصح ما أخشاه ، وأن تتوالى على مصر حكومات على غير ما نرى ، وأن يتولى أمورنا خيارنا ، وأن يكون من أبنائنا وأحفادنا من يجيد فن الحكم والادارة خيرا منا ، ولئن صح أن أولاد العمى هم عادة مبصرون ، كان لنا أن نرجو خيرا

وبعد فانى أطمع فى كرم مجلة « الهلال » اذ رأتنى أخلط عملا صالحا بآخر سيىء ، وأشير الى الحرب وعلاقتها بالهندسة ، ذلك لاننا نعيش فى زمن طغت الحرب فيه على الافكار والاعصاب ، بل حتى ليخيل الى أننى لا زلت أسمع دوى القنابل يوم الاغارات الكبرى بالاسكندرية والسويس والاسماعيلية فى صيف سنة ١٩٤١ وكم كنت أود أن أقف عند حدود الهندسة فى العالم المدنى ، ولكن أبت الحرب الا أن تجرنى الى ميدانها

عبد القوى أحمد

مشروع بيفريدج هو ، كما وصفه بحق معالى الأستاذ عبد الحميد عبد الحق ، أهم حادث اجتماعى فى القرن العشرين ، وقد أتيح لنا الاطلاع على إحدى النسخ القليلة التى وصلت الى مصر ، ونستخلص منها المعلومات الآتية التى هى خلاصة موجزة لهذا المشروع

نظرة فى مشروع بيفريدج

ألفت الحكومة البريطانية فى شهر يونية سنة ١٩٤١ لجنة برياسة السير وليم بيفريدج من ممثلى عدة وزارات ومصالح ، وجعلت مهمتها : « استعراض الانظمة القومية القائمة والخاصة بالتأمين الاجتماعى والخدمات المتصلة به ، بما فى ذلك اعانات العمال ، ووضع التعديلات التى ترى لزوما لها »

وقد قامت اللجنة منذ تأليفها بالبحث فى نظم الخدمات الاجتماعية والتأمين الاجتماعى السائدة فى انجلترا فى مدى الخمس والاربعين سنة الاخيرة ، أى منذ صدور قانون اعانات العمال فى سنة ١٨٩٧ . وبحثت فى التعديل الذى أدخل على هذا القانون فى سنة ١٩٠٦ فجعله يشمل العمال فى جميع الحرف والصناعات بعد أن كان مقصورا على صناعات معينة . وبحثت فى نظام التأمين الصحى الاجبارى الذى شرع فى سنة ١٩١٢ ، ثم فى التأمين ضد البطالة الذى بدأ سنة ١٩١٢ فى بعض الصناعات وصار يشمل الصناعات كلها منذ سنة ١٩٢٠ . كذلك رجعت اللجنة الى قانون المعاشات الصادر فى سنة ١٩٠٨ ، والذى قررّ منح العمال عند بلوغهم سن السبعين معاشات بدون دفع مقابل سابق منهم بشرط ثبوت عوزهم . ثم رجعت الى قانون المعاشات الثانى الصادر فى سنة ١٩٢٥ الذى قرر منح معاشات لمن يبلغون سن الكبر وللارامل واليتامى بشرط أن يكون العمال المنتفعون هم أو عائلاتهم من بعد قد دفعوا من قبل أقساطا معينة لتلك المعاشات . كذلك استعرضت اللجنة قانون البطالة الصادر فى سنة ١٩٣٤ الذى جاء بنظام تأمين ضد التعطل

وبالاجمال رجعت اللجنة الى جميع القوانين والانظمة القائمة فى انجلترا — وكذلك فى الدول الأجنبية — والخاصة بالتأمين الاجتماعى واعانة الفقراء وبالخدمات الاجتماعية عموما

وسرعان ما اتضح للجنة أن تلك النظم تشوبها عيوب كثيرة ، فهى من جهة قد شرعت قطعة قطعة فصارت محتاجة الى التوحيد فى نظام واحد تشرف عليه جهة مسئولة واحدة ، وهى من جهة أخرى لا تفى لسواد الشعب بمستوى المعيشة الراقى الذى قدرت اللجنة أنه المستوى الضرورى الذى يجب أن يسود فى انجلترا . وللوصول الى معرفة هذا المستوى درست اللجنة أحوال عائلات العمال والمستخدمين فى مختلف المدن الصناعية وعائلات الزراع فى الريف وانتفعت بدراسات سابقة لهيئات وجميعات شتى

وبعد كل ذلك البحث وهذه الدراسة قدمت اللجنة تقريرها الى الحكومة فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤٢ ، باسم رئيس اللجنة السير وليم بيفريدج، الذى أصبح وحده مسئولا عن كل ما جاء بذلك التقرير ، لان من أعضاء اللجنة موظفين يمثلون وزارات مختلفة ، فهم لا يستطيعون أن يتحملوا مسئولية الآراء التى تضمنها التقرير ولا أن يربطوا بها وزاراتهم التى هى جزء من الحكومة

قواعد المشروع

قام مشروع بيفريدج على القواعد الآتية :

اولا – الابتداء من أنظمة الخدمة الاجتماعية القائمة والتأمين الاجتماعي الموجود والانتفاع بالخبرة المكتسبة فى هذا المجال ، ولكن مع ادخال تعديلات جوهرية وزيادة قيمة الاعانات التى تمنح للمتعطلين والعاجزين عن الكسب وايجاد أنواع جديدة من الاعانات والهبات لم يكن للبلاد عهد بها من قبل

ثانيا – ان نظام التأمين الاجتماعى الموحد كما جاء فى التقرير ليس الا جزءا من أجزاء سياسة اجتماعية شاملة يجب أن توضع وترمى الى مكافحة الشرور الخمسة التى تعترض طريق الانسانية ، وقد حددها بيفريدج بأنها : الفقر والمرض والجهل والتعطل والقذارة

ثالثا – ان الشعب البريطانى يكره المنح والهبات ، ويفضل عليها أنظمة التأمين التى يساهم الافراد فيها بأموالهم قدر استطاعتهم ، ومن ثم قام المشروع على دفع اشتراكات للتأمين الاجتماعى يشترك فيها العمال وأرباب الاعمال والدولة

رابعا – المساواة بين أفراد الشعب المؤمن عليهم ضد كوارث الدهر ، سواء من حيث قيمة الاشتراكات التى يدفعونها أو من حيث قيم الاعانات التى يحصلون عليها ، فالاولى لا ينظر فيها الى تفاوت الدخل بينهم ، والثانية لا يبحث فيها عن موارد التى يستحقونها ومبلغهم من العوز

خامسا – احتاط المشروع كيلا تكون الاعانات التى تدفع باعثة على التواكل . ومن وجوه ذلك الاحتياط ما يأتى :

١ – لا تصرف اعانة للعامل الذى تطول عطلته الا اذا قبل أن يحضر كل يوم الى مركز من مراكز التدريب لكى يتعلم صناعة أو حرفة جديدة اذا لم يبق مجال فى عمله السابق

٢ – العمال الذين أصابهم عجز يقعدهم عن العمل – يدربون على عمل جديد يلائم حالتهم الجديدة ، حتى يمكنهم أن يرتزقوا من كدهم

٣ – اذا استحق الرجل معاش التقاعد عند بلوغ سن الخامسة والستين أو استحقت المرأة ذلك المعاش عند بلوغ سن الستين ، فان المشروع يغرى كلا منهما بمواصلة العمل اذا استطاع ، وذلك بزيادة الاعانة التى سوف تمنح له بعد ذلك

سادسا ـ تبسيط نظام التأمين الاجتماعي تحت اشراف وزارة جديدة تسمى (وزارة الضمان الاجتماعي) ، وتوحيد مالية ذلك النظام في صندوق واحد تذهب اليه كل الموارد الخاصة بالمشروع ، وتنفق منه كافة الاعانات والهبات. مع ايجاد بطاقات تدل على الشخص ومهنته ودفع اشتراكات اسبوعية بطريقة سهلة منظمة

سابعا ـ شمول التأمين جميع طوائف الشعب تقريبا حتى تقدر نسبة الذين يتناولهم بما لا يقل عن ٩٨ ./. من مجموع الامة . وقد قسم المشروع الشعب البريطاني لهذه الغاية الى ست طبقات أو طوائف :

١ ـ العمال والمستخدمون أي الاجراء الذين يعملون بموجب عقود مع أصحاب الاعمال

٢ ـ الاشخاص الذين يشتغلون لحسابهم مثل أصحاب الاعمال وأرباب الحرف والمهن وأصحاب الحوانيت والمتاجر ، وجميعهم يؤمن عليهم ويدفعون أقساطا للتأمين مثل الطائفة الاولى غير أنهم لا يتناولون اعانة بطالة أو عجز عن العمل

٣ ـ ربات المنازل أي النساء المتزوجات اللاتي في سن العمل . فاذا كانت الزوجة تشتغل بعمل تتناول منه أجرا فانها يمكنها أن تساهم في التأمين الاجتماعي وأن تنتفع باعانة التعطل أو العجز عن العمل . واذا لم تكن تساهم في التأمين عن نفسها فانها مع ذلك يمكنها أن تتمتع بكافة الاعانات المقررة للعامل وزوجته معا

٤ ـ الاشخاص ذوو الموارد الخاصة الذين لا يزاولون أعمالا مربحة أو يتناولون عليها أجورا . وأي فرد لا يمكن أن يدخل في الفئات الثلاث الاولى يدخل في هذه الفئة الرابعة . وهذه الفئة تدفع اشتراكات التأمين مثل غيرها من الفئات ، غير أن أفرادها لا يتناولون بالبداهة اعانة تعطل أو عجز

٥ ـ الاطفال أي الاشخاص الذين تقل أعمارهم عن ١٦ سنة ، وهؤلاء ينتفعون فقط بالتأمين ولا يساهمون فيه بدفع أقساط

٦ ـ الشيوخ المتقاعدون أي الاشخاص الذين تخطوا سن الكد والعمل ، وهي الخامسة والستون للرجل والستون للمرأة

مكافحة العوز بالاعانات والهبات

الغاية الرئيسية ، بل الغاية الوحيدة ، من مشروع بفريدج ، هي مكافحة العوز في أي مظهر من مظاهره ، وسواء كان سببه التعطل عن العمل ، أو المرض ، أو العجز ، أو الكبر ، أو كثرة العيال ، أو نكبات الدهر مثل الوفاة أو الترمل . وقد رأت اللجنة أن المرض من أكبر أسباب الفقر والحاجة ، فوضعت نظاما يكفل لجميع المواطنين وسائل العلاج بدون مقابل ، سواء كان العلاج بالمستشفيات أو غيرها ، وسواء كان لامراض عادية أو لغيرها ، أو لعمليات جراحية ، أو (تركيبات) صناعية للاسنان أو الاعضاء الخ .

فاذا صرفنا النظر عن توفير أسباب العلاج بكافة أنواعه بدون مقابل ـ ومعلوم أن

العلاج يستنفد جزءا كبيرا من دخل كل فرد وايراد كل أسرة ـ فانا نشير فيما يلى الى أنواع الاعانات والهبات التى تضمنها المشروع ، وبعضها كان مقررا من قبل ، ولكن المشروع زاد من قيمتها أو ضاعفها فى الواقع ، والبعض الآخر عبارة عن اعانات وهبات جديدة لم تكن تصرف من قبل ، ولكن المشروع قدر ضرورتها لكى يضمن لكل فرد (عيشة الكفاف) أى المستوى الضرورى للحياة الراقية

الاعانات :

١ ـ اعانة تعطل عن العمل : مقدارها (للرجل ذى الزوجة والولدين) ٥٦ شلنا فى الاسبوع ، دون تقيد بمدة محدودة ودون التحرى عن موارد الشخص المعان . ويشترط على العامل المتعطل أن يقدم نفسه الى مركز من مراكز التدريب ليتعلم صناعة جديدة اذا طالت مدة بطالته

٢ ـ اعانة عجز عن العمل (فى غير الصناعة) : مقدارها مثل الاعانة السابقة ، وهى أيضا لا تتقيد بمدة معينة ولا يتحرى فيها عن موارد الشخص المعان ، ويتدرب العاجز على عمل جديد ليكتسب منه

٣ ـ اعانة عجز عن العمل فى الصناعة : مقدارها ٥٦ شلنا فى الاسبوع لمدة ١٣ اسبوعا ثم صرف معاش يوازى ثلثى الاجر أو المرتب السابق بشرط أن لا يقل عن ذلك الحد ولا يزيد على ٧٦ شلنا فى الاسبوع

٤ ـ اعانة الكبر أو الشيخوخة : (عند بلوغ الرجل سن الـ ٦٥ والمرأة سن الـ ٦٠) ومقدارها ٤٠ شلنا فى الاسبوع ، (مع اضافة شلنين فى الاسبوع عن كل سنة يقضيها الشخص فى العمل بعد بلوغ سن التقاعد المذكورة)

٥ ـ اعانة الترمل : ومقدارها ٤٠ شلنا فى الاسبوع على أن تحصل الارملة على ٥٢ شلنا فى الاسبوع لمدة الـ ١٣ اسبوعا التالية لوفاة زوجها ، وتخفض الاعانة بعد ذلك الى ٤٠ شلنا مع تخفيضها عن هذا الحد بنسبة الايراد الخاص الذى قد يوجد للارملة

٦ ـ اعانة الاطفال : قدرت اعانات للاطفال بمعدل ٨ شلنات اسبوعيا عن كل طفل بعد الطفل الاول للعائلة

وقد قدرت هذه الاعانات كلها بعد فحص دقيق لتكاليف الحياة من مأكل وملبس ومسكن وغير ذلك من الضروريات التى يتكون منها مستوى المعيشة اللائقة ، وقدرت الارقام على أساس الاسعار التى كانت سائدة قبل الحرب فى سنة ١٩٣٩ مع اضافة ٢٥ ./. اليها تقديرا لما ستكون عليه الارقام القياسية للمعيشة بعد انتهاء الحرب

الهبات :

فضلا عن جميع تلك الاعانات ، وعن العلاج المجانى لجميع الامراض ، قرر المشروع منح الهبات الآتية :

١ ـ هبة عند الزواج تصل الى ١٠ جنيهات طبقا لعدد أقساط التأمين المدفوعة

٢ ـ هبة عند الوضع قدرها ٤ جنيهات

٣ ـ هبة عند الوفاة لسد تكاليف الجنازة ومقدارها ٢٠ جنيها عن الشخص البالغ ، و١٥ جنيها عن الغلام أو الفتاة من سن ١٠ الى ٢٠ سنة ، و١٠ جنيهات عن كل طفل يموت بين الثالثة والتاسعة من عمره ، و٦ جنيهات عن كل طفل يقل عمره عن ٣ سنوات

٤ ـ هبة تقدر طبقا للوائح ، وتمنح لارملة العامل الذى يموت بسبب اصابة فى الصناعة وذلك اضافة الى مصاريف الجنازة السابق بيانها (وقدرها ٢٠ جنيها للشخص البالغ)

الاشتراكات

يقوم المشروع على مساهمة العمال والمستخدمين المؤمن عليهم مع أصحاب الاعمال والدولة فى دفع الجزء الاكبر من تكاليفه ، ونورد فيما يلى بيانا عن أقساط التأمين الاسبوعية التى يجب أن يدفعها كل فرد من أفراد الطائفتين الاوليين :

	الذكور		الاناث	
	الشخص المؤمن	صاحب العمل	الشخص المؤمن	صاحب العمل
القسم الاول				
٢١ سنة فما فوق	٤ شلن ٣ بنس	٣ شلن ٣ بنس	٣ شلن ٦ بنس	٢ شلن ٦ بنس
١٨ ـ ٢٠ سنة	٣ » ٦ »	٢ » ٩ »	٣ » —	٢ » —
١٦ ـ ١٧ سنة	٢ » ٦ »	٢ » ٦ »	٢ » —	٢ » —
القسم الثانى				
٢١ سنة فما فوق	٤ » ٣ »	—	٣ » ٩ بنس	—
١٨ ـ ٢٠ سنة	٣ » ٦ »	—	٣ » —	—
١٦ ـ ١٧ سنة	٢ » —	—	٢ » —	—
القسم الرابع				
٢١ سنة فما فوق	٣ » ٩ بنس	—	٣ » —	—
١٨ ـ ٢٠ سنة	٣ » —	—	٢ » ٦ بنس	—
١٦ ـ ١٧ سنة	١ » ٦ بنس	—	١ » ٦ »	—

ويلاحظ فى هذه الاشتراكات أنها قليلة بالنسبة الى الاعانات والهبات والفوائد الاخرى التى يجنيها المؤمن عليهم فى مقابلها ، وأنها ليست فادحة بالنسبة لمستوى الاجور والمرتبات السائد فى انجلترا

ميزانية التأمين الاجتماعى

قدرت نفقات المشروع فى سنة ١٩٤٥ - التى يبدأ فيها نفاذه كما أملت اللجنة - بمبلغ ٦٩٧ مليونا من الجنيهات تدفع منها الدولة ٣٥١ مليونا (بما فيها ما تدفعه السلطات المحلية للمستشفيات والخدمات الاجتماعية) ويدفع المؤمن عليهم ١٩٤ مليونا ، ويدفع أرباب الاعمال ١٣٧ مليونا . والباقى وقدره ١٥ مليونا من موارد أخرى (وخصوصا فوائد المال) ، على أن هذه التقديرات تزيد بعد عشرين سنة فتبلغ جملة المصروفات فى سنة ١٩٦٥ : ٨٥٨ مليونا ، تدفع منها الدولة (والسلطات المحلية) ٥١٩ مليونا ، والمؤمن عليهم ١٩٢ مليونا ، وأصحاب الأعمال ١٣٢ مليونا

وتشمل المصروفات فى سنة ١٩٤٥ ما يأتى :

١٢٦ مليونا من الجنيهات للمعاشات ، و٣٩ مليونا لاعانات الارامل والاوصياء ، و١١٠ ملايين للمتعطلين عن العمل ، و٥٧ مليونا للعاجزين عن العمل فى غير الصناعة ، و١٥ مليونا للعاجزين عن العمل فى الصناعة ، و٧ ملايين هبات للوضع ، ومليونا لاعانات الزواج ، و٤ ملايين لدفن الموتى ، و١١٠ ملايين لاعانات الاطفال ، وغير ذلك مما يبلغ مجموعه ٦٩٧ مليونا من الجنيهات

ويلاحظ أن هذا المبلغ على ضخامته ليس جديدا كله ، فقد اعتادت انجلترا أن تنفق الملايين كل سنة فى الخدمات الاجتماعية المختلفة ، وقد بلغت قيمة ما صرفته فى هذا السبيل فى سنة ١٩٣٩ : ٣٤٢ مليونا من الجنيهات ، والمقدر أن يرتفع هذا الرقم الى ٤٣٢ مليونا فى سنة ١٩٤٥ اذا سارت الأمور فى مجراها وبدون تنفيذ هذا المشروع الجديد

خاتمة

ختم السير بيفريدج تقريره بالرد على أولئك الذين تساءلوا كيف يوضع مثل هذا المشروع فى وقت الحرب الذى يجب أن تتجه فيه الجهود كلها نحو النصر وحده ؟ فأورد حججا مفحمة وكلمات يصح أن تؤثر

من ذلك قوله : « لا شك فى عزم الشعب البريطانى ، مهما ضيقت عليه الحرب ، فى أن لا يعيش كلية للحرب وحدها وفى أن لا يترك العناية بما سيأتى بعدها ، فان ذلك يتفق مع طبيعة الديموقراطيات والروح الذى تحارب به والغرض الذى تحارب من أجله . فانها لا تحارب الآن لغرض الحرب ، ولا لكسب مستعمرات ، ولا بقصد الانتقام ، بل تحارب من أجل السلم . فاذا كانت الدول الديموقراطية المتحدة تقدر أن تبدى الآن من القوة والشجاعة والخيال ما يتفق ورغباتها الظاهرة ، واذا كانت تقدر أن تضع الخطط للسلم فى خلال الحرب ، فانها سوف تحوز انتصارين هما فى الواقع وحدة لا تتجزأ »

وحي الخمسين

بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد

وحي الخمسين هو وحي فضيلة المال المحسوب والنفقة المقدرة ، أو هو وحي المالك الحالي لا يعتمد على الاستعارة ولا يقوى على الاسراف فى انتظار التعويض من الوارد الجديد

من كلمات فكتور هيجو — على ما أذكر — ان الخمسين شيخوخة الشباب ، ولكنها شباب الشيخوخة !

وفى هذه الكلمة حقيقة أكثر من مجازها ، على خلاف كلمات هيجو التى يكثر فيها المجاز وتقل الحقيقة ، ذهابا مع الجرس أو ايثارا لمحاسن التشبيه

فذو الخمسين شاب بين الذين نيفوا على السبعين أو الثمانين ، يشعر بهذا كما يشعرون به وان لم يقصدوه ويتعمدوه . فاذا اجتمع مجلس من المجالس التى يختار لها الاعضاء ممن جاوزوا الاربعين ، كبعض المجالس النيابية وبعض المجامع العلمية والادبية ، رأيتهم يتصرفون فى التقديم والتأخير والايثار بالراحة والرعاية تصرف الابناء والآباء فى الادب والمعاملة وهم دون ذلك فى السن بكثير ، ورأيت أبناء الخمسين وربما بدرت منهم «شيطنة» التلاميذ فى معاملة الاساتذة الذين يوقرونهم ويحبونهم ، ولا يخلونهم من فلتات الشيطنة مع ذاك !

ولا حاجة بنا الى اطالة التذكير بتلك الحقيقة الخالدة التى لا ينبغى أن تنسى فى مقام ، ونعنى بها أن المسألة اعتبارية اضافية فى جميع الاعمار والعلاقات ، فما يصدق على الخمسين عند فريق من الناس قد يصدق على الاربعين عند غيرهم وعلى الستين عند آخرين . فانما الكلام فى هذه الامور على الاجمال ، ولا يتأتى أن يساق الكلام فيها على التفصيل لكل فرد من الناس على حدة

***

ومن الصور التى كانت شائعة فى أوائل القرن الحاضر — ولا نرى الآن كثيرا — صورة العمر الانسانى وأدواره من السنة الاولى الى المائة . فندر دكان حلاق دخلت اليه قبل ثلاثين سنة الا كانت فيه هذه الصورة التى كان لكل زائر وقفة عندها يتبين منها مكانه من الدرج الصاعد أو الدرج الهابط . وربما كان التفات الشيوخ اليها أكثر من التفات الصبية والشبان ، لان الصبية والشبان واثقون من المكان فى حاضرهم وبعد زمن طويل ، أو

طويل على ما يحسبون ، ولكن الشيوخ لا يثقون من مكانهم على هذه الدرجات الا الى حين ، فهم دائمو التلفت اليه ، مخافة أن يضيع !

فى تلك الصورة طفل مولود فى مهده ، ثم ولد فى العاشرة يعدو وراء طوقه ، ثم شاب فى العشرين يصاحب فتاة فى مثل عمره أو دون عمره بقليل ، ثم رجل فى الثلاثين معه امرأة تقاربه سنا وبينهما طفل أو طفلان ، ثم كهل فى الاربعين تمت له مظاهر السمت والقوة والقوام ، ثم يرتقى على قمة الدرج فى أوسطه شيخ فى الخمسين قد أدار ظهره الى الدرج الصاعد وقد أدركه بعض الانحناء ، واستقبل بوجهه الدرج الهابط وقد تزايد انحناء الهابطين عليه درجة بعد درجة ، أو دركة بعد دركة ، حتى انتهوا الى كرسى كمهد الطفل فى سنته الاولى ، يجلس عليه شيخ فان فى المائة قد نكس رأسه لا يلتفت الى أمام ولا وراء

تمثيل حسن لادوار العمر الانسانى على كل درجة من درجاته ، مع استحضار الفوارق النسبية بين انسان وانسان

ويصح على هذا التصوير أن تكون الخمسون أعلى الذروة فى درجات العمر كله ، قبلها الصعود وبعدها الهبوط ، وهى بينهما فى مكان الاعتدال والاستواء

ومن المحقق أو الراجح فى جميع الاعمار ، أن الخمسين نهاية الكسب أو التحصيل من الحياة ، ليس بعدها ما يأخذه الانسان من الدنيا ويضيفه الى تكوين عقله وجسمه ، ولكنه لا يزال بعدها يعطى الكثير ويفقد الكثير ، ايذانا بفقد كل شىء يأخذه التراب من التراب

اذا قيل على هذا التعبير ان الثلاثين سن التحصيل ، وان الاربعين سن الجمع والثروة ، فالذى يقال فى الخمسين انها سن التصفية و « عمل الحساب » ليعرف الانسان نصيبه من الربح ونصيبه من الخسارة

وهى من ثم سن اغتناء وليست بسن افتقار ، واذا جاز لى أن أقيس على نفسى فهى لا تقل غنى عن الاربعين ، وقد تفوقها غنى من وجوه

تفوقها غنى لان التدبير فيها أفضل لا لان الثروة فيها أعظم ، أو تفوقها غنى لان الحساب فيها أضبط لا لان الثروة فيها تزداد على التوالى كلما ازدادت السنون ، اذ هى فى الواقع كما أسلفنا تكف عن الازدياد فى جملة المكاسب من خيرات الحياة

فالرجل الذى ضبط حسابه ــ بعد التصفية الكاملة ــ قد يستفيد من مائة دينار ما ليس يستفيده غيره من مائتين قبل ضبط الحساب

والرجل الذى عرف ما له وما عليه يعرف على التحقيق أين يضع ما له وأين يمسك عن الانفاق ، وتلك معرفة لا يحيط بها الرجل الذى عنده المال الكثير ، ولكنه قد ينفق من ديون ويكف عن النفقة من الملك المضمون

هذه هى فضيلة الخمسين على أدوار العمر السابقة : فضيلة المال المحسوب والنفقة

المقدورة ، والثروة التى لا تزيد يوما بعد يوم ولكنها لا تضيع فى غير طائل ، ولا تذهب فى غير المفيد

ووحى الخمسين هو وحى هذه الفضيلة ، أو هو وحى الملك الخالص لا يعتمد على الاستعارة ولا يقوى على الاسراف فى انتظار التعويض من الوارد الجديد

اذ الوارد الجديد قليل

واذا جاء الوارد الجديد فقلما يتسع الوقت لتصريفه واعادة تثميره ، وقلما يكون له موضع الا أن يضاف الى ما قبله ، كل باب الى بابه وكل نظير الى نظيره

وحى الغنى المحسوب ، وليس هو بوحى الغنى بغير حساب ، أو هو وحى التدبير وليس هو بوحى التجميع والازدياد

ذلك هو وحى الخمسين الذى يرتقى الى ذروة السلم ، ثم يقف حيث لا يطول الوقوف

***

ومن أمثلة كثيرة بين أصحاب الوحى — وأصحاب الوحى هنا هم المنتجون فى عالم الذوق والتفكير — نرى أن ثمرات الخمسين بين الفلاسفة والشعراء وأرباب الفنون تضارع خير الثمرات فى سائر الاعمار

ولا يبدو هذا عجيبا فى الكلام على الفلسفة والمذاهب الفكرية ، لان الفلسفة حكمة والحكمة مقرونة فى الاذهان بالشيخوخة وتقدم العمر وزيادة التجربة والروية

ولكنه يبدو عجيبا حين نتكلم عن الشعر والفنون ، لان الشعر والفنون جمال والجمال مقرون فى الاذهان بالشباب وضحوة العمر ، وقد يكون مقرونا الى حد كبير بالغرارة وقلة النصيب من التجربة والروية

وهنا وهم يجب الالتفات اليه

اذ يجب التفريق بين الجمال وتقدير الجمال ، ويجب التفريق بين تقدير الجمال والتعبير عن تقديره

ومهما يختلف المختلفون فى جمال الشباب وجمال كل عمر من الاعمار فالحقيقة التى لا خلاف فيها أن تقدير الجمال لا ينتهى بانتهاء الشباب ، وأن القدرة على التعبير لا تنقص بنقصان الشباب ، بل لعلها تزيد

ومهما يقل القائلون عن استطاعة المتعة بالحياة ، فالحقيقة التى ليس فيها قولان أن المعدة التى تهضم أعسر المأكولات ليست هى المعدة التى تتذوق أحسن المأكولات ، لان الخبز والملح لذيذان عند من يهضم ويستخلص من الطعام القليل أكثر ما فيه من غذاء ، ولكن الاختيار الانيق انما يكون لمن لا مناص له من الاختيار ، فلا يستهويه الا ما كمل أو قارب الكمال

فاذا كانت الاعمار الاولى أوفر حظا من متعة الحياة ، فالاعمار التالية أوفر حظا من

التمييز بينها والشعور بمزاياها والعرفان بما لكل منها من قيمة وحظوة

وهذه هي الحقيقة التي تزيل الوهم العارض الذي أشرنا اليه ، وهو الوهم الذي يلقى في روعنا أن وحى الاربعين أو وحى الخمسين لا يوحى جمالا لان الجمال مقرون بالشباب

ان جمال الجوهرة غير تقويم الجوهرة ، وغير تمييز الجوهرة ، وغير السرور بالجوهرة لمن يقتنيها ، وهذا هو بعينه ما يقال عن جوهرة الحياة فيما شئت من الاعمار وما شئت من الاقدار

ولو اتسع المجال لاتينا هنا بالامثلة من عشرات الدواوين الشعرية وعشرات التحف الفنية ، وقابلنا بين ما تنتج منها في الثلاثين وما تنتج في الاربعين أو الخمسين أو الستين ، فاننا لخليقون أن نعلم بالمقابلة والمضاهاة أن المزايا تتعادل وتتفاضل ، فلا تنحصر المزايا كلها ولا الفضائل كلها في عهد من عهود الحياة ، ولا تزال لكل سن فضيلة تعوضها فضيلة مثلها في سن أخرى . فاذا وفرت حاسة الشعور في بواكيره فقد تقابلها المعرفة بأنواع الشعور بعد فوات البواكير ، أو تقابلها القدرة على التمييز والالتفات الى الفروق ، أو تقابلها تصفية تأخذ الخلاصة بعد أن تجمع لديها الكثير من الازواد

وفي الشرق تبكر الشيخوخة أحيانا كما يبكر الشباب ، فيسرع الذبول كما تسرع النضارة ، ويكثر النبوغ قبل الاوان كما يكثر الجمود قبل الاوان ، ويندر بين أدبائنا من أتى بالفلق بعد الخمسين كما أفلق أناس من أدباء الغرب الذين جاوزوا السبعين أو الثمانين ، ولكننا اذا رجعنا الى أدبائنا الذين بلغوا تلك السن ألفينا لهم حسنات يعيشون بها في عالم الخلود يقرنها الناقد بأجمل حسناتهم المأثورة في أيامهم الاولى ، وكلها ذات سمة واحدة لا تعدوها ، وهي سمة الثروة المملوكة والكنز المحسوب

عباس محمود العقاد



الشيب والشباب

بقلم الأستاذ ابرهيم عبد القادر المازنى

ركبت الترام ذات يوم ، وأنا أحمد الله الذى هيأ لى موضع قدم فيه ، وأسندت ظهرى الى باب لا يزال الذى خلفه من الناحية الاخرى يرتمي عليه فيرجه — وذاك أهون ما يعانيه راكب الترام فى أيامنا هذه — واذا بشاب ينهض عن مقعده ويقول لى « تفضل ! » فتفضلت ، وأنا أحسب أنه بلغ حيث يريد ، ثم تبينت انه انما تخلى لى عن مقعده اكراما لشيبى ، فأكبرت أدبه ، وأثنيت عليه بما هو أهله ، ولكني رددته الى مجلسه وقلت له : « هذا تفعله مع السيدات رحمة بضعفهن »

ومنذ بضعة أيام اندسست بين الواقفين الملتحمين فى الترام ، فما راعني الا فتاة لو رآها مهيار لما احتاج أن يقول :

آه على الرقة فى خدودها لو أنها تسرى الى فؤادها

تقف وتقول لى : « « تفضل » وتتناول ذراعي لتعينني على القعود ، فسألتها ، بعد أن شكرتها : « هل أنت نازلة ؟ » قالت : « لا » ، ولكنك كبير» قلت : « صحيح ، ولكني لست محطما ، ولا قليل الذوق ، فتفضلى ، مشكورة ، وعودى الى مكانك » قالت : « مستحيل ! ثم ان رجلك . . . »

وأمسكت ، وأشارت الى ساقى المهيضة

فقلت : « يا فتاتي ان أدبك جميل ، وكل شكر لك قليل ، ولكني أستطيع أن احتمل عناء الوقوف بلا مشقة ، على هذه الساق التى اكسبتنى عطفك ، ولكني لا أستطيع أن أطيق وقوفك وأنا قاعد ، فاسمحى لى أن أكون مثلك حسن الادب »

فأبت — وأبيت — كل الاباء ، فلم أجد مخرجا من هذا المأزق الا ترك الترام !

وحدثت نفسى ، وأنا واقف أنتظر تراما آخر ، ان هذا الشيب الذى اشتعل رأسى به ، فضيحة ، وقد أصارنى ، كما يقول ابن الرومى ، متحسرا :

أصبحت شيخا له سمت ، وأبهة يدعوني البيض عما ، تارة ، وأبا

فماذا أصنع ؟ هل أحلق رأسى بالموسى كل صباح ، كما أحلق لحيتى وشاربى ، لأخفى هذا الذى يخيل الى الفتيات أنى كبرت وشخت ووهن منى العظم ؟ وانه لادب أن يوقر الصغير الكبير ، ولكنه لا يخف على النفس أن يقال للمرء انه أسن وصار خرعا وهشا يلمس بحذر ورفق لئلا يتفكك ويتناثر

وأذكرني هذا الذي لقيته من عطف الفتاة ، والفتى قبلها ، انه يصعب أن تجد في غير أدب العرب ما تجده فيه من كثرة القول في الشيب ، وقد أكثر العرب — ولا أقول أسرفوا — من ذكر الشيب في شعرهم ، والتلهف على الشباب ، والتحسر على ذهابه ، وما من شاعر — غير الذين ضاع شعرهم أو معظمه — الا وقد بكى شبابه صادقا مخلصا ، أو متكلفا مقلدا ، وحزن لما وخطت به لمته من بياض بغيض ، ونظير هذا في غير الادب العربي عزيز

وأحسب أن القول في الشباب والمشيب كان في أول الامر طبيعيا ، وكان الشعراء فيه جادين مخلصين ، وصادرين عن فطرة سليمة ، ثم صار الامر تقليدا ، خرج الى العبث على أيدى المتأخرين ، وذلك أن العرب في بداوتهم كانوا يحيون حياة كفاح — كفاح في سبيل الوجود ، وفي سبيل الرزق ، وفي سبيل البقاء ، وكفاح — ضمنا — من أجل المرأة التي هي أداة لحفظ النوع — فكانت الحاجة الى القوة والمنة ، ومتانة الاسر ، وشدة المراس والبأس أعظم ما يشعرون به من حاجة ، وزمن الشباب هو زمن هذه القوة التي لا غنى عنها بعربي في صحرائه القاحلة ، والمشيب هو نذير الشيخوخة التي تفتر فيها القوة وتسترق المنة ، وهو المؤذن بالعجز والهمود ثم الفناء ، والمحل وقلة الخير ينميان الروح الفردية ، لان كل امرىء يبيت معنيا بنفسه ، وحسبه من السعى أن يكفيها حاجتها . واذا كان ذكر المشيب والشباب قد اقترن في الشعر بذكر المرأة فان هذا أيضا طبيعي ، فان المرأة في مثل هذه الحياة الخشنة القاسية تؤثر الرجل القوى ، وتحب أن تشعر باقتداره وصولته وسطوته ، وما زالت المرأة كذلك الى الآن وان كانت الحضارة قد رققت من الرجل وقلمت من أظافره ، وقوت مظاهر الارادة في المرأة وأكسبتها حظا من الاستقلال والحرية ، غير أنها ما انفكت في أعمق أعماق سريرتها تعجبها وتروعها القوة ، وان كرهت الخشونة ونفرت منها ، فمعقول من العربي أن يبكى شبابه ويتحسر عليه ويقول ، كما قال مطيع بن اياس في الشباب المولى :

كان اذا نمت قال قم ، فاذا قمت، سما بي لاعظم الرتب
وكان أنسي ، اذا فزعت له وكان حصني في شدة الكرب

أو كما قال طريح بن اسماعيل :

ذهب الشباب وصرت كالحلق الذى الا تعاجله المنية يهمد

ومن آيات الفطنة — الناقصة — الى دورة الحياة في الطبيعة والانسان قول نصر بن سعد الانصارى :

لو شاء ربى رد الشباب على المرء كما رد خضرة الشجر
وزاد بعد النقصان بهجته عن طول عمر زيادة القمر

وأقول انها فطنة ناقصة لانها لا تتجاوز الظاهر . ذلك أن أوراق الشجر التى تذبل

وتجف وتسقط لا تعود خضراء بعد اذ هي صفراء ، وانما ينبت غيرها ، كما يذوى الانسان الفرد ويذهب، ويجيء غيره من نسله ، والشجرة تشبه الجماعة من الناس، والذى يتفرع عليها من الاغصان كالاسر ،وأوراقها كالافراد ، ولا بقاء لورق أو لافراد ، وقد يدرك الاسر الفناء ، ولكن الجماعة تبقى بما يتعاقب من أجيالها

وخيل الى وأنا أفكر فى المشيب ــ وأحسبنى غير مخطىء جدا ــ أن الشيب يثقل على النفس فى الجماعة الانسانية التى تكون فيها المرأة قليلة التعويل على نفسها كثيرة الاعتماد على الرجل فى حياتها ، دائمة التطلع اليه ، وانتظار رأيه وعمله قبل أن يكون لها هى رأى أو عمل ، وفى مثل هذه الجماعة لا يسع الرجل الا أن يجعل باله الى رأى المرأة فيه ومبلغ ثقتها به ، واطمئنانها اليه ، ومن هنا يكربه ويشق عليه من مظاهر التحول ما يشى بانحطاط القوة وذهاب الفتوة والاشفاء على العجز ، وعسى أن أكون مخطئا ، فما أظن الا أن هذا هكذا فى كل جماعة من الناس بالغة ما بلغت المرأة فيها من الحرية والاستقلال

***

وقد قال لى أحدهم ، وأنا أغادر الترام الذى أبت الفتاة الكريمة الا أن تؤثرنى بمقعدها فيه وتدعه لى : « يا شيخ أخجلتها ! »

قلت : « آسف ! ولكنى أشعر كأنها لطمتنى على وجهى ، فأمسكت بكفها اتقاء للطمة أخرى »

وكان هذا هو شعورى الحقيقى ــ ان عطفها على كان لطمة لى . فما يدور بخلدى قط أنى أستحق الرعاية والترفق من أجل هذا الشيب الذى لا أباليه ولا أعنى بستره أو تمويهه ، لانى لا أحس من جرائه ضعفا أو فتورا ، فجاءت هذه الحسناء العطوف فعرفتنى لماذا تكره المرأة أن تذكر سنها ! فما زلنا تتعلم وان كنا قد شبنا !

كلا ! سأصلح سيارتى التى أهملتها ، فتغنى عن الترام وأتقى العطف من الحسان ذوات الشعر الدجوجى والخدود التفاحية والشفاه الحمر

ابرهيم عبد القادر المازنى

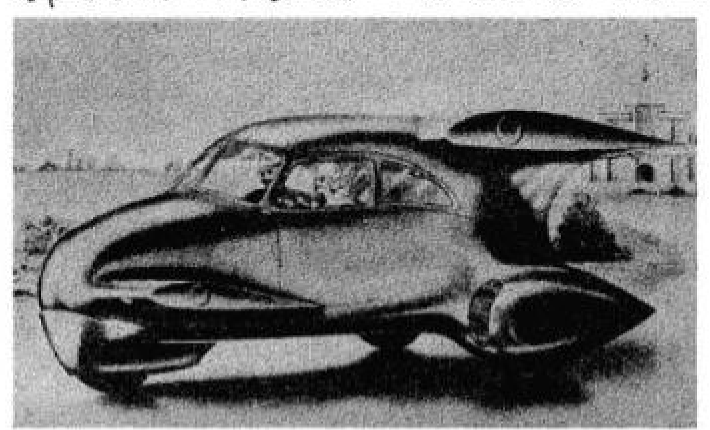


العالم بعد الحرب

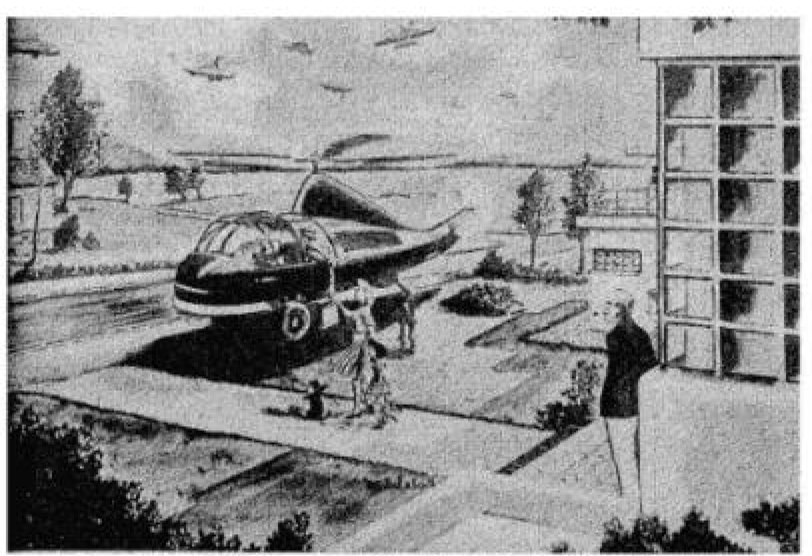
ينصرف جهود العلم والصناعة فى هذه الأيام الى شؤون الحرب وحدها ، توافيها بما تتطلب من سلاح وذخيرة ومؤونة وما يلزم الجندى من طعام ودواء ومسكن ، وما تقتضيه حركات الجيوش من وسائل النقل وسبل المواصلات . ولكن هذه الجهود ستتحول غداة أن تضع الحرب وزرها من ساحة القتال الى ساحة السلام ، كي تجعل حياة الانسان أوفر راحة وأكثر متعة وأيسر سبيلا مما هى عليه فى هذه الآونة

ولسنا فى مجال التنبؤ والافتراض عما ستكون عليه صورة العالم بعد الحرب القائمة ، ولا فى صور الحديث عما يجب أن يكون عليه عالم المستقبل تحقيقاً لفكرة « المدينة الفاضلة » التى حلم بها الفلاسفة منذ القدم — وانما نبنى تصورنا لمرافق الحياة ومظاهر العالم المستقبلة على ما جد فى السنين الأخيرة من أسباب الارتقاء فى مناحى العلم والصناعة ، مما بدأ يؤتى نتائجه فى كل ما يهم الانسان من المسكن والأكل والملبس ، ووسائل المواصلات فى البر والهواء والماء ، ووسائل التسلية والتثقيف ، ووسائل الطب والصحة والتمريض ، وما الى ذلك من مرافق العيش

وفيما يلى صور تمثل مشاهد الحياة القادمة ، كما يتخيلها أحد الكتاب الذين يتتبعون التطور العلمى والصناعى فى وقت الحرب ، ويقدرون تطبيق هذا التطور فى مناحى الحياة المختلفة بعد أن ينشر السلم لواءه



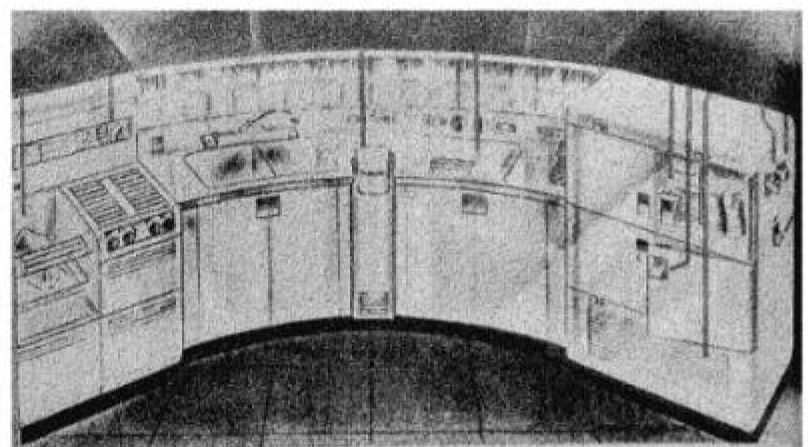
ستكون سيارة المستقبل بيضاوية الشكل ، دقيقة فى مقدمها منبعجة فى مؤخرها ، ذلك أن « محركها » سيكون فى المؤخرة فلا يشكو سائق السيارة من صوت أو غاز ينبعث منها . وسيكون لها أجنحة كأجنحة الطائرة ، تنشرها إذا انطلقت فى طريق فسيح متسع ، كما تستطيع أن ترتفع بها الى الجو . ولن تكون مقاعد السيارة ثابتة فى مكانها ، بل متحركة ، فيستطيع ركابها أن يجلسوا متجهين أية وجهة يريدون . وسيتوافر فى داخل السيارة كثير من أسباب الراحة المختلفة ، ولن ينقصها ضوء الشمس وأشعتها التى ستنفذ من سطحها المصنوع من الزجاج الذى لا يكسر . ولن يحتاج راكب السيارة الى فتح نوافذها واغلاقها كثيراً ، فسيكون فى داخلها جهاز بسيط لتكييف الهواء . وسيدخل اللاسلكى فى صناعة السيارات كما دخل فى صناعة الطائرات ، فيكون فيها جهاز يعين السائق على تجنب ما يتعرض له من حوادث الصدام



تعتمد عامة الناس في المدن الكبرى في تنقلها على الترام والأومنيبوس . ولكن التطور العظيم في صناعة الطائرات ، سيخرج طرازاً من الطائرات يتخذه الناس في مواصلاتهم في داخل المدن ، ذلك أنها ستكون طائرات صغيرة الحجم بجيسر اقتناؤها ، ويسهل وضعها في « جراج » صغير . وهي ترتفع وتهبط في خط عمودي ، فلا تتطلب مطاراً واسع المساحة ، ويمكن أن يكون هذا المطار هو سطح البيت الذي يسكنه صاحب الطائرة



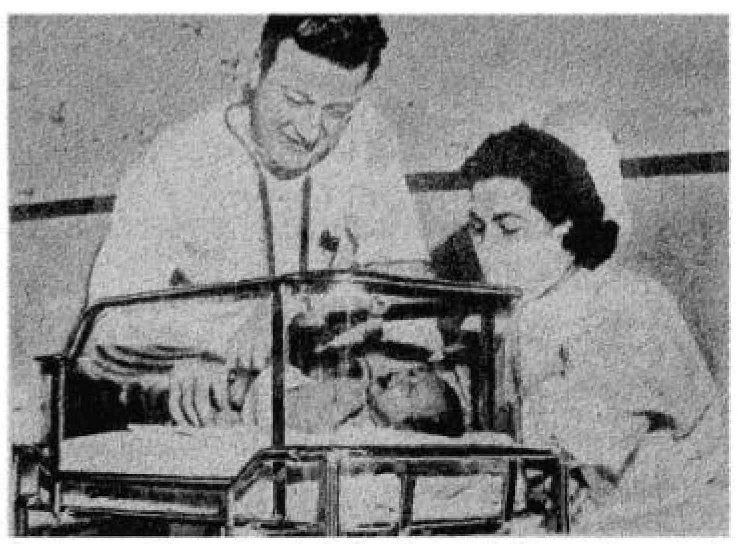
وسيرى سكان المدن في المستقبل طائرات ضخمة تقف فوق أسطح منازلهم وأبراج مبانيهم ، لتستقبل ركابها الذين سيعتمدون في تنقلهم من شارع الى شارع على وسائل النقل الجوى . وستكون هذه الطائرات من ثلاث طبقات ، وتستطيع أن تحمل مئات من الركاب . وسيكون أجرها منخفضاً لا يزيد عن أجر الترام والسيارة الآن . ولا شك أن من أمتع مشاهد المستقبل رؤية الناس في بلد كالقاهرة وقد صعدوا مآذن المساجد ليتصلوا منها بالطائرات التي تجرى في السماء لتنقل الناس من حي الى حي



وسيشهد العالم تغييراً كبيراً في بناء البيوت ، فلم يبق البيت حجراً أو حجراً ، ولن يكون للاسمنت ماله الآن من الأهمية ، بل ستحل المعادن محله ، وتصنع أجزاء البيت جملة ، فيصير كل من السقف، والأرض، والجدران قطعاً متماسكاً بعضها إلى بعض فيتكون منها البيت دفعة واحدة . فاذا انتقلنا إلى داخل البيت وجدنا المستقبل يطالعنا بصورة عجيبة عن مطبخ البيت . فأفرانه جميعاً من الزجاج ، والطهي لا يعتمد على البترول أو الغاز بل على الكهرباء وحدها . وستكون هناك أجهزة بسيطة التركيب رخيصة الثمن لتطهير الآنية وتعقيمها إتقاء للامراض . ولن تتولى ربة البيت غسل الآنية بيدها ، بل ستكون هناك الأجهزة الآلية التي تقوم بهذه المهمة . ولن تكون الأبواب من خشب أو صلب ، بل من الزجاج أو الباغة ، مما يسهل تنظيفها . وسيكون في وسع الأسرة البسيطة أن تقتني أجهزة لتكييف الهواء ، حين تصير رخيصة الثمن سهلة التركيب



ومن أهم ما عني به العلماء في وقت الحرب مسألة الطعام ، فأسفرت جهودهم عن كشف ألوان جديدة لم تكن معروفة من قبل ، وكذلك عن تغيير كبير فيما يعرفه الناس عن القيمة الغذائية لبعض المواد . فهناك فواكه وخضروات تعود إلى نضرتها حين كانت مزروعة في الأرض إذا هي غمست في سائل معين بضع دقائق . وهناك أنواع من الطماطم والبطيخ لا بذور لها . وهناك طرائق جديدة في طهي اللحم وحفظه تزيد من قيمته الغذائية فضلا عما تكسبه من لذة جديدة . وهذه الجهود وأمثالها ستحدث في المستقبل ثورة في مائدة الطعام ، تزيد من إقبال السيدة على عملها المنزلي ، وتزيد من إقبال الرجل على بيته وزوجه



ولعل ما يصيب علم الطب من الارتقاء فى وقت الحرب أكثر مما يصيب أى فرع آخر من فروع العلم . وقد توفق الطب فى هذه السنين الحديثة الى التخلص فى داخل البيت من غبار الجو وما يحمل من جراثيم الأمراض ، ولهذا لن تعانى الانسانية فى المستقبل ما عانت من الأوبئة الخطيرة التى تهدد العالم فى أثناء الحروب وأعقابها . وسيشهد كل فرع من فروع الصحة العامة ألواناً من الرقى ، فهذا الطفل ينام فى المستشفى وسط صندوق من الزجاج يحميه من كل ما قد يتلوث به الهواء من الجراثيم ، وفى الوقت ذاته يمكن الطبيب أن يراقبه مراقبة دقيقة وأن يجهزه داخل صندوق وكل ما يلزمه من دواء أو علاج



هذه البذلة الأنيقة ليست مصنوعة من الصوف أو الحرير ، بل من نوع معين من الورق ستتخذ منه أكثر ملابس المستقبل ، وهى لهذا بذلة رخيصة الثمن جداً ، فى وسع الانسان أن يلبسها بضعة أيام ثم يلقى بها . ولن تتكلف حياكتها كثيراً ، لأن مثل هذه البذل لن تصنع بالأيدى ، بل بالآلات الضخمة التى تنتج الآلاف منها فى ساعات قليلة . وسيشهد العالم تغيراً عظيماً فى الملابس ، فلن تكون هناك ملابس للشتاء وأخرى للصيف ، بل يكفى أن « تسخن » الملابس العادية تدفئة الجسم فى فصل الشتاء ، وقد بدىء فعلا فى صناعة مثل هذه الملابس للطيارين ، فتسخن لهم بالكهرباء قبل صعودهم الى طبقات الجو الباردة ، وكذلك عرف العالم فى سنيه الأخيرة أنواعاً من المنسوجات تستخرج من الفحم ومن اللبن ، وسوف يكون لهذا الكشف أثر كبير فى خفض أثمان المنسوجات للطبقات الفقيرة

مكانة مصر في بناء تعاون عالمي *

للدكتور محمود عزمي

إن مصر لمستطيعة أن تسهم في بناء تعاون عالمي أوسع مساهمة . فهي بنيلها ، وخصب تربتها ، وأخذها بالوسائل العلمية في التنظيم الزراعي ، لقادرة على أن توسع من مساحتها المزرعة ، وهي بما في جوفها من معادن منتشرة في صعيدها ، وفي سينائها ، وبما في شمسها من قوة ، لمستطيعة أن تسهم بانتاجها الصناعي مساهمة تزيد من قدرها عدم تقيدها بما تفرضه التقاليد الصناعية في البلاد الأخرى

ان نتائج الحرب لا تزال في عالم الغيب ، وستظل فيه بعيدة عن حظائر الحقائق وميادين الجزم ، الى أن تقف رحى الحرب بالفعل ، والى أن تقرر قواعد السلم بالواقع ، والى أن تقف الرحى وتقرر القواعد ، فلن يكون أمام الباحث غير أبواب الحدس يطرقها ، ومنافذ الافتراض يتلمسها ، ولن يكون حدسه وافتراضه الا مضافين الى معلومات ساعتها التي قد تجيء الحوادث المتداعية بمفاجآت تنقضها وتقلب أقضيتها رأسا على عقب

نتائج هذه الحرب

ويلوح لي في دائرة هذه الحدود أو في حدود هذه الدائرة ، أن هناك لنتائج هذه الحرب ثلاثة افتراضات : انتصارا حاسما للمحور . وتقابلا للمتحاربين بمصالحة في منتصف الطريق . وانتصارا حاسما للأمم المتحدة . ومقتضى على الافتراض الاول بأن يستبعد في هذا البحث ، ذلك أن موضوع المحاضرة يستند الى اعتبار جوهري هو اعتبار التعاون الذي يقوم كيان العالم بعد الحرب على أساسه . وأنا من الذين يعلمون أن المحور ان انتصر ، فانما ستفرض ألمانيا النظام على العالم كله فرضا . تصدر هي في سبيله الاوامر « سيدة » وينفذها سائر الناس تبعا لا رأي لهم ولا ارادة ، بل عبيدا بعضهم تحت بعض درجات

ويبقى الافتراضان الآخران : افتراض تقابل المتحاربين للمصالحة في منتصف الطريق . وافتراض انتصار الأمم المتحدة . والتحقق جائز على كليهما

فمستر تشرشل تلوح فقرات من خطبته الأخيرة بأخذ الحرب على مرحلتين . مرحلة تصفى فيها الأمور مع ألمانيا ، ثم مرحلة تتفرغ فيها بريطانيا العظمى واميركا والصين

---

* خلاصة محاضرة ألقيت في قاعة يورت التذكارية بالجامعة الأميركية بالقاهرة

لليابان . وبعض الاشتراكيين من أعضاء البرلمان الانجليزى يتولاهم شىء من القلق ، فيتوجهون الى رئيس الوزارة بسؤال « لكى تطمئن قلوبهم » على استمرار التضامن مع روسيا حتى النصر المشترك النهائى الحاسم . واذاعات قد تكون عليها مسحة الايحاء ، تنشر فكرة اقصاء هتلر عن الحكم ، والتقدم بطلب صلح منفرد مع بريطانيا العظمى واميركا تفرغا لمقاتلة « البلشفيين » أعداء الجنس البشرى جميعا ، كما تنشر اشاعة توسيط ألمانيا نفسها بلغاريا فى سبيل صلح منفرد مع روسيا ، تفرغا للقضاء على « البورجوازيين البرلمانيين » أعداء ألمانيا وروسيا على السواء . والرئيس روزفلت يحذر من الوقوع فى أشراك تلك الاذاعات ، ويقرر أن «عددا من الاميركيين ــ قليلا لحسن الحظ ــ وضع مصلحته الشخصية فوق مصلحة الوطن » .

وكل أولئك من القرائن على احتمال تحقيق الافتراض الثانى ، يقابلها من ناحية أخرى مجهود جبار تبذله روسيا فى سبيل الانتاج الصناعى الحربى ، الى جانب ما يتجلى فى أبنائها من بسالة وتضحية ، وفى قوادها من عبقرية وفن وسعى حثيث تنشط له اميركا وبريطانيا العظمى ، الى اعداد الهجوم وتوحيد القيادات فى المغرب وفى الشرق الاقصى ، وقرار فى مؤتمر « الدار البيضاء » بأن لا هدنة الا اذا استسلم المحور بلا شرط ولا قيد . واعلان مستر تشرشل فى بيانه الاخير بمجلس العموم التصميم على المضى فى الحرب الى النهاية ، وتأكيد الرئيس روزفلت فى خطابه الى الشعب الاميركى منذ أيام العزم على القتال الى اليوم « الذى تسير فيه قوات الأمم المتحدة ظافرة فى شوارع برلين وروما وطوكيو » وكل هذه من دلائل احتمال تحقق الافتراض الثالث

يجوز اذن أن يتحقق فرض من هذين الفرضين، ويجوز اذن أن يحتمل بحثنا للحرب فى ذاتها احدى نتيجتين متصلتين باعتبار التعاون الذى يقوم عليه كيان العالم بعد الحرب ــ مصالحة فى منتصف الطريق ، أو نصرا حاسما للأمم المتحدة

الكيان العالمى . . إذا حدث صلح أو إذا انتصر الحلفاء

ترى ــ وهذا هو العنصر الثانى من عناصر البحث الاربعة ــ ترى ماذا سيكون الكيان العالمى المترتب على نتائج الحرب فى كل حالة من هاتين الحالتين ؟

هنا أيضا نلجأ الى الحدس ، ولكنه هذه المرة حدس مستند الى وقائع من المواقف والاتجاهات . والواقع أنه منذ وقعت الحرب ، بل منذ انفرط عقد اجتماعات ميونيخ فى سبتمبر سنة ١٩٣٨ ، اتجهت آراء السياسيين والمفكرين والصحفيين الى التفكير فى معالجة الشؤون العالمية ، واقامتها على غير القواعد التى سادت العلاقات الدولية على أثر صلح فرساى وفى كنف عصبة الأمم ، ولم يكن لقيام الحرب واستمرارها وتقلباتها الا أن دفعت بهؤلاء السياسيين والمفكرين والصحفيين الى زيادة نشاطهم فى سبيل التفكير والمعالجة . فزخرت المكتبات بالمؤلفات ، وعمرت الصحف بالمقالات ، ودوى فى الاجتماعات.

بالتصريحات ، وصدرت عن المؤتمرات القرارات تتم عن عميق البحث ودقيق التفكير ، وتكشف عن صحيح النيات وأكيد الرغبات. وانما أشير حين أذكر هذا كله الى ما أخرجته قرائح أساتذة الجامعات وعالمى المفكرين وكبار الصحفيين ورؤساء الدول والحكومات ، ولا أقصد طبعا ما تخرجه الدعايات

فماذا تضمنته تلك المؤلفات والمقالات والتصريحات ، بل ماذا نستذكره نحن مما قرأنا من تلك المؤلفات والمقالات والتصريحات متصلا بموضوع هذا البحث ، وماذا نستخلص مما نستذكر اتجاهات فى سبيل تكييف الكيان العالمى بعد الحرب

فى مؤلفات « كول » الاستاذ بجامعة اكسفورد ، والاستاذ « لاسكى » بجامعة لندن ، وكتب الاجتماعى العالمى « ويلز » عن « النظام الجديد » بعد الحرب ، تقرير بأن عهد « القوميات » التى تمخضت عنها الحرب العالمية الاخيرة قد انقضى ، وأن نظرية «الاستقلال» قد بليت وأن مدرك الدول الصغيرة قد انتهى دوره ، وأنه لن يكون هناك غير ما يسمونه « Super nations » تسود الواحدة منها أمة كبيرة ، وتنتظم الواحدة منها أمما صغيرة . وانما بعد الحرب سيطلع على العالم بقيام خمس من نوع هذه الدول الضخمة هن : الولايات المتحدة ، وجماعة الامم البريطانية ، وألمانيا ، وروسيا ، واليابان . تتقاسمن العالم وتتوازعن مواده الاولية ، ولا تقوم دولة أخرى الا فى نطاق واحدة منهن . وراح الاستاذ « كول » فى هذا المضمار يعالج بعض التفصيل ، ويقول ان الدولة الالمانية العليا ينبغى أن تنتظم أوربا الوسطى والبلقان ، وأن روسيا العليا يجب أن تنتظم جزءا من الصين والهند مع ايران وافغانستان ، وأن من شأن انجلترا العليا أن تنتظم أوربا الغربية بلجيكا وفرنسا واسبانيا والبرتغال . ويقول الصحفى النمساوى « أوسكار بول » فيما يقول فى كتابه القيم « مناجاة ما تحت الارض فى أوربا » ان الهوة أصبحت سحيقة بين عقليات حكومات الدول المحتلة القائمة فى لندن ، وعقليات أهل هذه الدول التى تفاعلت مع طرق حكم النازيين وارهابهم ، بحيث أضحت تطالب بالانتقام من ألمانيا انتقاما لا يمكن أن يقف عند حد ، وبحيث أضحت تطالب بنظام للاجتماع أقرب الى الشيوعية منه الى النظام الذى كانوا يرضونه يوم كان أعضاء حكومات لندن يتولون أمورهم قبل الحرب

ويدعو الاستاذان « كول ولاسكى » والاجتماعى « ويلز » والصحفى « اوسكار بول » وسائر من يعرضون فى كتاباتهم لمشاكل الاجتماع فيما بعد الحرب ، الى ضرورة التطور نحو اليسار وتقبل التعاليم الاشتراكية بمحض الاختيار ، قبل أن يجترف العالم تيارها ، فتفرض عليها فرضا . فيسارع الرئيس روزفلت فيعلن فى الناس « حرياته الاربع » ويدعو سائر الدول المتحالفة مع الولايات المتحدة الى جعل هذه الحريات نبراسها الاول . ويظهر فى انجلترا مشروع « بفردج » لضمان « الأمان الاجتماعى » للجميع ، فيعقب مجلس العموم على رأى الحكومة فيه بمناقشة عنيفة تبين خلالها اختلاف النظر بين المحافظين والعمال ، والحاح المحافظين على تأمين تجارة الصادرات قبل تأمين جميع العمال . ويوقع

الرئيسان روزفلت وتشرشل ميثاق الاطلنطي بضمانه قواعد النظام الجديد لما بعد الحرب، ويدعوان الدول المتحالفة الى الانضمام اليه ، فتقبل عليه ويبلغ عددها احدى وثلاثين غير الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى

ميثاق الاطلنطي

ويقع في يدنا منذ ثلاثة أيام أيضا النص الكامل للخطاب المستر « سمنر ويلز » وكيل وزارة خارجية الولايات المتحدة وأقرب رجال هذه الوزارة الى الرئيس روزفلت في الواقع ، ألقاه في نيويورك لمناسبة افتتاح ما سموه « شهر الامم المتحدة » وعرض فيه لميثاق الاطلنطي هذا قصد ايضاحه لمن يجدون فيه شيئا من الغموض فقال فيما قال : ان المادة الثامنة من الميثاق قد أكدت للناس « انه في دنيا المستقبل ستحافظ الامم المحبة للسلم على السلام ، كما ينظم القانون المهيمن على كل جماعة بشرية قوة بوليسية للمحافظة على النظام. ولقد اشترط بجلاء ، أنه ما دام لا يمكن الاحتفاظ بالسلم في المستقبل اذا ظلت الامم التي تهدد أو يمكن أن تهدد بالعدوان خارج تخومها ، تستخدم السلاح على الارض وفي الجو والبحر ، فان الدول الموقعة على الميثاق تعتقد بغية الاستقرار لنظام سلامة دولية يبنى على أساس أوسع وأدوم ، أنه من الضروري أن ينزع سلاح مثل تلك الامم »

ومضى مستر سمنر ويلز يقول : « وفي المادتين الثانية والثالثة من الميثاق أوضحت الاسس الضرورية للمحافظة على الحرية الشخصية والديمقراطية في المجتمع الدولي . لقد أعطى التأكيد بأن الامم المتحدة ترغب أن لا ترى تغييرات اقليمية لا تتفق والرغبات التي عبرت عنها بحرية الشعوب ذات الشأن ، وانها تحترم حق كل الشعوب في اختيار شكل الحكومة التي ستعيش هذه الشعوب في ظلها ، وانهـا ترغب في أن ترى حقوق السيادة ، والحكم الذاتي وقد أعيدت لتلك الشعوب التي حرمت منها بالقوة » ثم راح يضيف « وفي المادتين الرابعة والخامسة أعطيت شعوب العالم العهد بأن الامم المتحدة ستؤيد تمتع كل الدول بحق الوصلة على قدم المساواة لتجارة العالم ومواده الاولية التي تحتاج اليها لرخائها الاقتصادي ، وذلك قصد أن يضمن للجميع مستويات عمل محسنة مع التقدم الاقتصادي والامن الاجتماعي . وأخيرا فان شعوب الارض قد أعطيت الوعد العظيم بأن السلم الذي سيترتب على هذه الحرب ، سيضمن أن يعيش الناس في كل بقاع الارض أعمارهم أبرياء من الخوف ومن العوز »

وهنا يعقب وكيل الخارجية الاميركية بقوله : « ولكن المبادىء والاهداف تبقى لسوء الحظ كلمات وآمالا نبيلة ما لم تترجم الى حقائق . وهذه الترجمة الى الحقيقة الواقعة هي أشق مراحل الواجب أمامنا . ومنذ ٢٥ عاما وضعنا كذلك نصب أعيننا صورة عقلية لعالم حر يسوده السلام والعدل واللياقة الدولية . ولكن لان هذه الصورة العقلية التي هدفت

اليها البشرية قرابة نهاية الحرب الماضية لم تترجم الى الحقيقة ، فان العالم اليوم ينصهر فى هذا السعير الاكبر »

ويهبط الهابطون من سماء هذه الآمال الى أرض الواقع ، فيعلن مستر تشرشل فى مجلس العموم يوما أنه لم يتول الحكم ليصفى الامبراطورية . وللفظ الامبراطورية الآن عند الانجليز معنى غير الذى كان يقصد به منذ خمسين أو ثلاثين سنة ، اذ يعبر به فى الاصطلاح الحديث عن المستعمرات وحدها دون « الدومنيون » ويذيع وزير الدولة فى الشرق الاوسط منذ أيام ، فيذكر المستعمرات بلفظها الصريح ، ويقول : ان بريطانيا العظمى تسير بها على سنة التدرج . ويضيف ان بعضها عبء مالى على ميزانية الدولة البريطانية. ويفشر أول أمس ان وزارة الانتاج البريطانية أصدرت بلاغا قالت فيه : « ان مكتبا اميركيا بريطانيا مشتركا يدير مسألة المواد الاولية فى شمال افريقيا لترسل منها الفسفات والحديد الخام الى الجهات التى تكون فى حاجة اليها ، ولتخصص المواد الاخرى كالمنجنيز والنحاس للولايات المتحدة » . ويذكر قراء هذا البلاغ أن اميركا لا تحتل شمال افريقيا وحدها بل غربيها واقليم الكنغو واريتريا أيضا

ثم ينهض ستالين من ناحيته ، فيعلن أنه لا يريد سوءا بالشعب الالمانى ، اذ هو صديق جميع الشعوب كشعوب ، وهو ينظر اليها كلها على قدم المساواة ، ولا يعترف لبعضها بامتياز على البعض الآخر . ويؤمن على قوله وزير خارجية الصين لمناسبة اعلان الاتفاق بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى على الغاء الامتيازات الاجنبية فى بلاده بعد الحرب ، فيصرح بأن روسيا الحديثة كانت هى أولى الدول التى ألغت امتيازاتها هناك ، وانها ألغت هذه الامتيازات من تلقاء نفسها دون مطالبة الصين بها ، لانها نزلت بذلك عند مبدأ من مبادىء نظامها

ترى بعد هذا كله وعلى ضوء هذا كله ، ماذا يكون حدسنا للكيان العالمى المترتب على نتائج الحرب فى كل حالة من حالتى المصالحة فى منتصف الطريق والنصر الحاسم للأمم المتحدة

أغلب الظن عندنا أن حالة المصالحة فى منتصف الطريق ستعود بالعالم الى نظامه الدولى التقليدى ، نظام الدول العظمى الخمس ، ونظام التوازن بين هذه الدول العظمى الخمس . تكون الولايات المتحدة وجماعة الأمم البريطانية وألمانيا وروسيا واليابان هى تلك الدول ، وتكون لكل واحدة منهن مناطق نفوذ . ويكون المحيط الهادى منطقة النفوذ اليابانى ، والصين قسمة فى النفوذ بين اليابان وروسيا ، وهما لم تتحاربا فى النزاع القائم ، وايران وافغانستان منطقتى نفوذ روسى فى الشرق ، وبلغاريا ورومانيا فى البلقان ودول البلطيق جمهوريات داخل الاتحاد السوفيتى . وأوربا الوسطى كلها منطقة نفوذ ألمانى تتبعها بلجيكا والالزاس ، وتكون افريقيا منطقة نفوذ بريطانى اميركى ، كما تكون سائر بلاد العربية فى آسيا مع تفاهم بين الجميع على توزيع المواد الاولية . وتبقى كل من اليابان وروسيا

وألمانيا بمعزل عن الآخرين . وتظل روسيا قلقة من ناحية اليابان ، واليابان قلقة من ناحية روسيا ، وتمضى روسيا حذرة من ألمانيا ، وألمانيا حذرة من روسيا ، وتحكم الاواصر بين الدولتين الانجلوسكسونيتين ، وقد اقتربت ثانيتهما من الاولى من حيث النظر الى الاستعمار الدولى . فعدلت الولايات المتحدة عن موقفها التقليدى ، وهو موقف الاقتصار على ضمان الاسواق لمنتجاتها الصناعية ، وأخذت بسياسة بريطانيا العظمى المقررة ، وهى سياسة الاستيلاء على أماكن المواد الاولية وتناولها بالحكم . وأما فرنسا واسبانيا فتتذبذبان بين ظروف الضغط من جانب ألمانيا ، وضروريات الحاجة الى الانجلوسكسونيين . وينجم عن ذلك كله أن الحالة لا تكون حالة استقرار ، بل تكون حالة تأهب لحرب طاحنة جديدة

أما حالة النصر الحاسم للامم المتحدة ، فيذهب حدسنا المستند الى ما قدمنا من وقائع ، الى أن كيان العالم الذى ينشأ عنها سيكون مستندا الى نظام ولايات متحدة عالمية ، تنعم كل واحدة منها بهنائها الداخلى ، وتخضع نشاطها الخارجى راضية الى اعتبار التضامن مع سائر الولايات ، ساهمة بذلك فى هناء البشرية ورخائها جميعا ، ومنظمة علاقاتها الاقتصادية والاجتماعية مع الغير عن طريق مؤسسة عالمية تمثل فيها شعوب الارض كافة ، وتترك للشعوب حرية اختيار الجماعات التى تود لمصلحتها ولهناء الانسانية أن تحكم أواصر تلك العلاقات معها

وبينما تكون الانظمة السياسية والاجتماعية فى حالة المصالحة فى منتصف الطريق على تباينها الحاضر . ديموقراطية عند الانجلوسكسونيين ، بروسية فى ألمانيا ، شيوعية فى روسيا، يابانية فى اليابان ، فان الاشتراكية هى التى يغلب أن تعم العالم فى حالة النصر الحاسم للامم المتحدة

ذلك أن الحالة الاولى ستكون ان هى وقعت نتيجة مزدوجة لرغبة الالمان فى ألا تحل بهم كارثة الانهيار العسكرى من ناحية ، ولتخوف المحافظين البريطانيين والاميركيين من تفشى جرثومة البلشفية بأوربا كلها عن طريق دخول الجيوش الروسية فى الاراضى الالمانية من ناحية ثانية . أما الحالة الاخرى فستكون نتيجة لانتصارات هذه الجيوش الروسية وجرفها التيار الاجتماعى فى العالم الى اليسار ، وهو تيار يتضخم كل يوم باعتبارات الاعجاب ببطولة الروس ومتانة الطريق التى يسيرون عليها

منزلة مصر من الكيان العالمى

ونصل الآن الى العنصر الثالث من عناصر البحث ، اذ نعرض لمنزلة مصر من الكيان العالمى الذى يترتب على نتائج الحرب . فما هى مصر ؟ والام تطمح فى العالم الدولى ؟ وما تفاعلها وتفاعل مطامعها مع كيان العالم فى كل من الحالتين اللتين ينجمان عن نتيجة الحرب ؟

أما مصر فهى هذه الدولة النيلية المطلة على البحر المتوسط وعلى البحر الاحمر ، المتوسطة

بلادا تنفق وإياها فى اعتبارات اللغة والدين الغالب والاجتماع المتفاعل خلال التاريخ ، وهى الى هذا ملتقى قارات ثلاث ، وواسطة عقد ما يصطلح على تسميته الشرق والغرب

وهى على قدمها بالحضارة ، حديثة عهد بالتقدم العصرى ، زراعية تواقة الى الصيرورة الصناعية . ثقافتها خليط بين تراث الماضى وقشور الحاضر ، مظاهرها متراوحة بين الدينية الرسمية والمدنية الواقعية ، فيها جامعتان أخذت أنظمتهما عن أوسع الانظمة الجامعية فى العالم ، وفيها أمية متفشية هائلة . بعض أفرادها تبلغ ثروتهم درجة كبيرة ، وكثرتها الساحقة تجر أذيال الفاقة والحرمان . هى مستقلة ، واستقلالها مقيد بأثقل أنواع القيود . مرتبطة ببريطانيا العظمى بمعاهدة تحرص عليها وتطالب بتعديلها ، وتلتمس لنفسها مساواة مع سائر الدول غير المقيدة . تحلم بتزعم اخوات وشقيقات ، ولا تكلف نفسها مؤونة تعرف حالات هذه الاخوات والشقيقات على وجهها الصحيح . تتقدم لهن بالمعاونة ، ولا تعرف نوع المعاونة المجدية تبذلها ، ومحل السخرية عند الشقيقات تقبض يدها عنها ، بل لا تسائل نفسها هل هذه الشقيقات راضيات بتزعمها أو هن فى الحقيقة منه نافرات

مزيج عجب من المتناقضات فى الكينونة ، والرغبة فى الصيرورة ، لعل أحسن ما يصوره موقفها من الحرب القائمة والصلح المنتظر ، محايدة قاطعة علاقاتها بدول أحد الطرفين المتحاربين ، محالفة غير ذات علاقات بكبرى حليفات الحليفة ، غير محاربة متقبلة فى أراضيها جيوش المتحاربين ، بل هى ميدان قتال فعلى ومحل غارات مستمرة . تريد تجنيب نفسها ويلات الحرب ، وتريد أن يكون لها نصيب من مغانم الحرب . تطالب بمقعد فى مؤتمر الصلح ، فيراد أن تكتفى بأخذه حين تتناول المفاوضات مسائل تتصل بها وتتصل بها مباشرة

هذه هى مصر ، وتلك هى مطامعها ، فأين تنزل بها فى الحظيرة الدولية المترتبة على نتائج الحرب القائمة

أما اذا كانت الحظيرة هى حظيرة المصالحة فى منتصف الطريق ، فسيكون مكان مصر فيها داخل « الدائرة المرنة » التى تشمل مناطق النفوذ البريطانى المرتبطة بنوع من الرباط مع مناطق النفوذ الامريكى ، بحكم ما يقوم بين الوحدتين الكبيرتين البريطانية والامريكية من وثيق العلاقات . وأغلب الظن عندى أنه لن يكون لمصر فى تلك الحالة نصيب وافر فى الشؤون العربية ، فامريكا القوية ستكون صاحبة الكلمة فى بلاد المغرب ، ما عدا طرابلس التى ستكون مرتبطة بمعاهدة تحالف وصداقة مع بريطانيا العظمى القوية ، كما ستستمر مصر ويستمر العراق ، وكما ستكون بلاد الشام مع فرنسا أو مع انجلترا . وطبيعى الا يود بل الا يفكر القوى فى أن يكون اتصاله بمناطق نفوذه عن طريق الغير . وطبيعى الا يرضى القوى تكتل مناطق نفوذه حتى لا تكون وحدة تقدر يوما ما من الايام على الافلات من قبضة يده . أما فلسطين فتظل قائمة فى حدود « الكتاب الابيض » تتسع وتضيق تحت ضغط الحوادث المحلية ، وبالتفاهم بين الدولتين الكبيرتين بريطانيا العظمى وأمريكا ، وستحلان بالنسبة لها محل عصبة الأمم وعهدى انتدابها . ويبعد فى الأفق ما كان قد ذكر

على ألسنة الرجال الرسميين حين كانت حاجتهم ماسة الى ذكره من وحدة عربية أو اتحاد عربي . ويكتفى بقيام اتفاقات جمركية وتجارية ، ومعاونات ثقافية بين الدول العربية

وقد يكون هناك تعديل فى بعض نصوص المعاهدة المصرية الانجليزية ، وقد يصل الى تقرير جلاء الجنود البريطانيين عن الاراضى المصرية وقت السلم ، وتقبلها فيها أيام الحرب وعند خطر الحرب ، أو عند مجرد خشية الحرب والرغبة فى الاستعداد بمقابلة طوارىء الحرب ، أو ما الى ذلك مما يجيد الخبراء التفنن فى صيغه وعباراته ، كما قد يصل الى البت فى أمر السودان واستقرار نوع علاقاته بمصر ، وعلاقة مصر بالنيل كله وبحيراته كلها ، لكن مع بقاء مصر دائما فى حظيرة العلاقات البريطانية ، وعن طريق معاهدات مصرية انجليزية ، وخضوع النشاط الدولى المصرى لاعتبارات هذه المعاهدات

أما اذا كانت النتيجة المترتبة على الحرب هى حالة النصر الحاسم للأمم المتحدة ، فاحسب أن النظرة الى الاحداث ستكون غير النظرة ، وأن جو المفاوضات سيكون غير الجو ، واعتبارات البشرية غير الاعتبارات ، وكرامة الانسان غير الكرامة ، ومساواة الأمم غير المساواة ، وطبيعة العلاقات بين الدول غير الطبيعة

وأغلب الظن عندى أن مصر فى هذه الحالة لن تكون بمعزل عن التيارات العالمية ، ولن تحرم من أن يكون لها صوتها فى تكييف الدنيا الجديدة ، ومن أن تكون لها « مكانتها فى بناء العالم بعد الحرب »

نصيب مصر من تدعيم النظام العالمى الجديد

ولكن ما نصيب مصر من تدعيم النظام العالمى الجديد ، وكيف تساهم مصر فى التعاون المنشود بعد الحرب ؟

لكى نجيب عن هذا السؤال يجب أن نستحضر فى أذهاننا أن العوامل الاقتصادية والاجتماعية ستتقدم العوامل السياسية ، وأنها هى التى سترشح لها اعتبارات التعاون فى العالم الجديد جميعا . ويجب أن نستحضر أن العوامل الاقتصادية فى العالم الجديد ستتصل على الغالب بأزمات الانتاج ، وأن العوامل الاجتماعية ستتصل على الغالب أيضا بأزمات التوزيع ، وبعبارة أخرى ان العالم من الناحية الاقتصادية سيظل فى مرحلة الانتاج الاولى، فى حين أن المشاكل الاجتماعية سترجع الى مستوى الفرد المتضامن تضامنا أكيدا مع عدالة طرائق موارد الهناء ووسائل النعيم . واذا كان التوزيع على النحو الذى تقدمه يمكن تصوره تصورا محليا ، فان الانتاج على الاعتبار الذى نذكره لا يمكن الا أن يكون عالميا بفعل التحويل وبفعل النقل الى أمكنة التحويل . بل ان للتوزيع نفسه اعتبارا عالميا ، اذ هناء الفرد سيتصل بقدرته على الانتاج من حيث الصحة ، ومن حيث المعرفة ، ومن حيث الاطمئنان فى حالات المرض والعجز عن العمل

وان مصر لستطيعة أن تساهم فى ذلك كله أوسع مساهمة ، فهى بنيلها وخصب تربتها

وأخذها بالوسائل العلمية فى التنظيم الزراعى ، لقادرة على أن توسع من مساحتها المنزرعة وأن تزيد من غلة وحداتها الزراعية ، وتقلل من مجهود عمالها الزراعيين ، وأن تقيم الى جانب انتاجها الزراعى انتاجا صناعيا زراعيا لا تقل قيمة مساهمتها به عن قيمة مساهمتها بالانتاج الزراعى البحت . وهى بما فى جوفها من معادن منتشرة فى صعيدها وفى سينائها وبما فى شمسها من قوة لمستطيعة أن تساهم بانتاجها الصناعى مساهمة يزيد من قدرها عدم تقيدها بما تفرضه التقاليد الصناعية فى البلاد الصناعية من عوائق كثيرا ما تحول دون التجارب الجزئية التى قد يترتب على نجاحها قفز بالانتاج الصناعى وبنظام الحياة الاجتماعية كلية . وهى بموقعها الجغرافى لمستطيعة أن تساهم فى تداول المنتجات بما تقيمه فى بعض جوانبها من مناطق حرة تنزل فيها البضائع ، وتوجه منها الى أواسط افريقيا والى بلاد المشرق فى آسيا والى جنوب أوربا ، وكذلك تستطيع بما تمهد من مهابط أن تكون محطة جوية عالمية تلتقى فيها طائرات أوربا وآسيا وافريقيا واميركا نفسها أيضا . وانها لتستطيع بقناتها أن تساهم مساهمة عالمية فى تقصير المسافات وتأمين النقل البحرى وانقاص تكاليفه بين مختلف القارات . وكذلك بما تستطيع أن تنشئه من شبكة طرق داخلية تربط غرب افريقيا وجنوبها بغرب آسيا ، وشرق أوربا وجنوبها

وهى بحكم منزلتها فى البلاد العربية لقادرة على أن تعاون العالم عن طريق أخذ هذه البلاد عنها ما تحدث من اتجاهات وتخرج من تعاليم ، أو ما تقتبس عن الغير من هذه وتلك فى ميادين الثقافة والتشريع والاصلاح الاجتماعى ، بل ان منزلتها هذه لتمتد من بلاد العربية الخالصة الى بلاد وجماعات أخرى تتصل بها اتصالا روحيا عن طريق أزهرها فى البلاد الاسلامية والجماعات الاسلامية ، وعن طريق كنيستها فى بلاد الحبشة وما اليها . وان مصر لمستطيعة أن تساهم فى هناءة العالم — والعلاقة بين بعض أجزائه وبعضها الآخر قد أصبحت هى علاقة الاوانى المتصلة — تستطيع مصر أن تساهم فى هناءة العالم بما ترفع عن أبنائها أنفسهم من غشاوة الامية والجهل ومصائب الجوع والفقر وويلات المرض والموت المبكر . بل انها لتستطيع أن تزيد من دائرة مساهمتها فى هذا المضمار الصحى والثقافى والاجتماعى بما يكون لها من بعثات الى أواسط افريقيا وشرقها ، والى شبه جزيرة العرب وسائر البلاد العربية جميعا

بهذا وبمثله تستطيع مصر أن تساهم فى حقل العالمية الجديدة بعد الحرب . وقد يختلف حظها من المساهمة باختلاف الحالة التى تترتب على نتائج الحرب ، فاذا كانت هى حالة المصالحة فى منتصف الطريق فسيكون هذا الحظ مقصورا بحكم الظروف على التعاون المحدود فى دائرة علاقاتها بالدولتين البريطانية والاميركية ، وسيكون هذا الحظ وفيرا فى حالة النصر الحاسم للحلفاء ، اذ سيكون التعاون فيها عالميا حقا

محمود عزمى

رأى انجليزى فى القصة المصرية

للكاتب الانجليزى كولين بالى

مشكلة اللغة

يؤدى بحث الادب العربى الحديث ، بقلم رجل اتخذ من الادب الانجليزى مادة تفكيره وأساس تقديره ، الى كثير من المزايا . فان أول ما يصادفنى ويلفتنى فى هذا الادب الحديث، ما يحيط به من الجو « الكلاسيكى » الذى لا يكاد يلتفت اليه القارىء المصرى ، وقد ألف ما فى هذا الجو من أدوات وأساليب ، فيمر بها دون أن تسترعى نظره وتستدعى انتباهه. أما القارىء الانجليزى فخليق بأن يلحظها ويتنبه اليها ، اذ تبدو اليه غير مألوفة ، بل قد تتراءى له غريبة شاذة.

وأنا أشير بهذا الى مسألة اللغة . فان مما يدهش الرجل الانجليزى الى حد بعيد أن يجد الشعوب التى تتكلم اللغة العربية تعنى بأمر اللغة عناية مسرفة . فنقد كتاب حديث فى انجلترا ينصب على ما فيه من آراء فلسفية ، أو ما فيه من حقائق نفسية ، أو على طريقة تكوينه وتأليفه ، ولن تجد هذا النقد دائرا على لغة الكتاب الا فى الدوائر التى تعنى بأمر اللغة فى ذاتها . أما فى مصر وفى جميع دوائرها المثقفة فان أقسى ما يوجه من نقد أى كتاب ، وأبلغ ما يقال فى تقريظه ، يقوم على مدى ما فى لغة هذا الكتاب من « الصحة » و « البلاغة ».

والقارىء والناقد الاجنبيان خليقان بأن يريا ما فى هذا من خطأ ومن خطر . فانى وان كنت أوافق على ما يقال فى صدد الدفاع عن « اللغة الفصحى » من انها ضرورة من ضرورات الوحدة الاسلامية ، الا اننى أتساءل : كم من المصريين يعارض « اللغة العامية » حرصا على هذه الوحدة الاسلامية ؟ أليس من الحق أن يقال ان مرجع هذه المعارضة فى أغلب أمرها الى رغبة قوية فى الحفاظ على التقاليد ، وفى انكار كل تجديد وتغيير ؟

ان اللغة ليست جمادا ساكنا ، بل هى حى نام ، فيجب ان يلائم بينها وبين ضرورات التعبير التى تتغير بتغير العصور والبيئات . وأظن انه ما من أحد يريد ان يكون الاسلوب السائد فى الادب هو أسلوب المجلات الشعبية المبتذلة ، ولكن الاسراف فى التمسك بالاساليب اللغوية العتيقة سيؤدى حتما الى تغلب هذا الاسلوب المبتذل التافه . ذلك أن التعليم فى مصر لم يعد امتيازا تحتكره الطبقة الغنية التى يتوافر لها كثير من وقت الفراغ ، بل أخذ يغمر جميع الطبقات حتى غدا المتعلم المصرى الحديث هو هذا الفرد الذى لا يجد

من شواغله فراغا طويلا يعنى فيه بأمر الدقة والفصاحة فى مفردات اللغة وتراكيبها . فاذا لم تستطع ان تمد هذا المتعلم بغذاء أدبى يجمع بين الجودة والسهولة ، فلا بد انه سينصرف الى تلك المجلات الشعبية المبتذلة ، مدخرا تفكيره الجدى لينفقه فى نواح غير ناحية الادب

ومن الخطأ أن يظن أن تيسير اللغة الحديثة سيؤدى الى أن تفقد الآداب القديمة قيمتها ؛ فان « تشوسر » ما زال نبعا فياضا من ينابيع الوحى فى الادب الانجليزى ، مع أنه يشق على الانجليزى العادى أن يقرأه ويفهمه

وثمة سبب آخر أراه من أسباب مقاومة اللغة العامية ، وهو ما أميل الى تسميته « بالاحياء القوطى » . وقد كان هذا الروح سائدا فى انجلترا فى أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، وكان أبرز مظاهره تبدو فى فن العمارة ، وقد بدا كذلك فى فن الادب . وكان فى كلا الفنين عائقا فى طريق التعبير الفنى الحر ، الذى يلائم روح العصر والبيئة . فكانت بيوت الريف تقام على هيئة الكنائس ، وكانت الكتب تنشأ على غرار من الكتابة لم يعرف من قبل ، ولم يكن لهذا من أثر سوى موت هذه الآثار التى تكلف منشئوها أن يكسبوها ثوب القدم . فاذا نظرت اليوم الى مؤلفات «شارل لامب» لوجدت ماذا نقرأ منها وماذا نترك : « فصول اليا » التى كتبت بلغة سهلة سلسة ، أم دراماته الشعرية القوطية « جون ودفيل » التى تعمد أن يثقلها بالالفاظ والتراكيب العتيقة ؟

وقد ظهر فى مصر هذا « الروح القوطى » فى فن العمارة . فاذهب الى طريق الاهرام تر تلك « الفيلات » التى أنشئت على طراز المعابد المصرية القديمة . أو انظر الى تلك العمارات « المراكشية » القائمة أمام فندق « شبرد » تتبين هذا الاتجاه الى اتخاذ الاساليب القديمة بدون داع سوى ايثار الاشياء القديمة ولو كانت زائفة لا تجدى

وهذا الروح فى فن الادب هو العامل القوى فى مقاومة اللغة العامية فى الوقت الحاضر . فمن الشائع أن يقال عن الدكتور طه حسين بك انه « كلاسيكى » ، ولكن أليس الادنى الى الصواب أن يقال عنه انه « قوطى » ؟ فمع أن من واجب الاجنبى أن يتكلم فى أمر الاسلوب بحذر وتهيب ، الا أننى أزعم أنى وجدت فى « دعاء الكروان » مثلا أن الكاتب يستخدم الاساليب والنماذج « الكلاسيكية » لذاتها ، لا لما تعبر عنه من أثر حقيقى ، وهذا هو ما أعنيه حين أتكلم عن « الروح القوطى »

وأرى أن من العدل أن يقال ان هذا الاستغراق فى أحضان الماضى ضعف وخطأ ، فمع أن جذور الحركة الادبية الحديثة فى مصر نبتت من الماضى ، الا أن الشجرة لا تفقد جمالها وقيمتها لان جذورها مختبئة تحت الثرى

وهذا الرأى يصح على الاخص فى هذه المحاولات التى تبذل لالباس « القصة » المصرية ثوبا قديما . فان هذا دليل واضح على هذا الروح الذى يؤثر القديم لقدمه فحسب ، اذا ذكرنا أن عصور الادب العربى القديم لم تنتج فن « القصة » فكيف نصبغ القصة الحديثة بصبغة قديمة ؟

عوامل ضعف القصة المصرية

وقد حفلت الصحف المصرية ببحث طويل فى مسألة القصة المصرية . وكانت ثمة كمية من النقد فى الواقع أكثر مما هناك من « المادة » التى يدور عليها النقد . على أنه لم يكن من ذلك بد ، اذ كان أكثر هذا النقد يدور حول عدم وجود القصة المصرية ويتلمس الأسباب التى أدت الى ذلك

ويمكن ان نلخص الاسباب التى قيلت فى عدم قيام القصة المصرية فيما يلى :

١ ــ السبب النفسى : وهو القول بأنه ليس فى مصر مجال للعواطف التى يقوم عليها موضوع القصة . وقد قال بذلك الدكتور هيكل باشا الذى أكد أن العلائق القائمة الآن فى المجتمع المصرى بين الجنسين من شأنها أن تحل اللذات الجسمية محل اللذات العاطفية . على أن هذا القول قد غدا الآن أقل صحة مما كان حين كتب الدكتور هيكل باشا قصة « زينب »

٢ ــ السبب الاجتماعى : وهو القول بأن مركز المرأة المصرية يعد عائقا فى سبيل قيام القصة الصحيحة . والقائلون بذلك يقيمون رأيهم على أن المرأة قد لعبت دورا كبيرا فى آداب الغرب ، فخروجها فى مصر من حظيرة الحياة الاجتماعية لا بد وأن يضعف من قوة الانتاج الادبى ، ولكنى أرى أن هذا الرأى وان استحق كثيرا من التقدير الا اننا يجب ألا نعده عاملا حاسما . فان تأثير المرأة فى الادب الغربى لم يكن على الدوام تأثيرا طيبا ، كما أنه على كل حال تأثير مبالغ فى عمقه ومداه . هذا الى أن هذا العامل يفقد الآن قوته شيئا فشيئا ، لان هناك من العوامل الاجتماعية ما هو أهم وأقوى من المرأة

٣ ــ السبب الاقتصادى : فان قلة عدد الجمهور القارىء من شأنها أن تثبط الكاتب الذى يريد أن يكرس نفسه للكتابة ويعتمد فى حياته على شق قلمه . ولكنى أرى هنا أن عامل « اللغة » عظيم الاهمية ، فان الجمهور الذى يستطيع أن يقرأ كتابا سهل اللغة بسيط الاسلوب ، جمهور كبير يمكن الاعتماد عليه

٤ ــ السبب السياسى : فان استغراق الكتاب فى ميدان السياسة أدى الى ضعف انتاجهم الادبى ضعفا نسبيا . فالكاتب الذى يملك ما يؤهله لان يكون قصصيا يرى أن الكتابة القصصية لن تجديه ، من المال والجاه ، مثل ما تجديه الصحافة السياسية

على أنى أرى أن الباحثين أغفلوا عاملا أحسبه أهم العوامل فى ضعف القصة المصرية ، وأعنى أن جزءا كبيرا من الجمهور القارىء ، أو الجمهور الذى يمكن حمله على القراءة ، يحيا حياة « مزدحمة » لا تترك له فراغا طويلا لقراءة « الرواية » ، وتحمله مكرها على أن يؤثر عليها المقال القصير والقصة الصغيرة . والواقع أن « الرواية » نشأت فى انجلترا على

هذا المقعد المريح الى جانب المدفأة الجميلة ، حيث يقضى الرجل الانجليزى والمرأة الانجليزية شطرا طويلا من يومهما ، فيتيسر لهما أن يفرغا لقراءة الرواية الطويلة

نظرة فى بعض القصص المصرية

أنتقل بعد عرض هذه الاسباب الى كلمة وجيزة عن بعض القصص المصرية الحديثة وأول ما أذكر فى هذا الصدد قصة « زينب » للدكتور هيكل باشا ، لانها أسبق القصص المصرية فى تاريخ ظهورها . ولا شك أن ليس من العدل توجيه نقد قاس الى أول تجربة فى هذا الفن الجديد . ولكن فى وسع المرء أن يقول ان نقطة الضعف فى الكتاب هى الموضوع الذى يتناوله وليست القصة التى يرويها . ومع أنه يوجه عنايته الى مناظر القصة ، الا أن القارىء يشعر أنه يصف الريف المصرى فحسب ، دون أن يجهد فى تفسيره وتعليله . هذا الى أن القصة ينقصها البحث السيكلوجى العميق

وقد استطاع المازنى أن يكون أكثر تمكنا من شخصيات قصصه ، ولكن قصته « ابرهيم الكاتب » قصة غريبة فى جوها ، رغم ان المازنى يقول ان القصة المصرية يجب أن تكون مصرية فى روحها وتكوينها ، ولهذا فان قصته هذه رغم براعتها وجودتها وفكاهتها ، يجب أن يقال انها قد فشلت كقصة مصرية

والدكتور طه حسين شخصية كبيرة فى كثير من ميادين الكتابة ، ولكنى أظن أنه لم يكن موفقا فى فن الرواية . ومن الغريب أنه كاد أن ينشىء رواية ناجحة كاملة بكتابه « الايام » مع أنه ليس قصة بل ترجمة لشطر من حياته ، وقد كان أسلوبه السلس الواضح ملائما كل الملاءمة لموضوع الكتاب . أما أعماله القصصية الاخرى فيبدو لى انها قد أخفقت ، وذلك لما يوليه من العناية الفائقة للغة فى ذاتها . أما قصته « الحب الضائع » فتبدو فيها آثار قوية للثقافة الفرنسية ، ولهذا يصح أن ينطبق عليها ما قلته عن قصة « ابرهيم الكاتب » من انها ليست رواية مصرية . ويمكن أن يقال ان عمله الاساسى فى هذا الميدان الادبى هو قصته المصرية « دعاء الكروان » ، ولكن فى هذه القصة تقوم مشكلة الاسلوب ، ويتبدى هذا « الروح القوطى » الذى أشرت اليه ، مما يؤدى به الى شىء من الزخرف الذى كان فى وسعه أن يتجنبه ويتفاداه . فما من فتاة بدوية تصف حياتها بمثل هذه اللغة المنمقة

قارن بين ما جاء فى « الايام » من حديث عن شعور الفتى الريفى الذى هبط المدينة الكبيرة حين يقول المؤلف : « فهو يسكن بيتا غريبا يسلك اليه طريقا غريبة أيضا . ينحرف اليها نحو اليمين اذا عاد من الازهر ، فيدخل من باب يفتح اثناء النهار ويغلق فى الليل ، وتفتح فى وسطه فجوة ضيقة بعد أن يصلى العشاء . فاذا تجاوز هذا الباب أحس عن يمينه حرا خفيفا يبلغ صفحة وجهه اليمنى ودخانا خفيفا يداعب خياشيمه ، وأحس من شماله صوتا غريبا يبلغ سمعه ويثير فى نفسه شيئا من العجب . وقد ظل أياما يسمع هذا الصوت اذا عاد من الأزهر مصبحا واذا عاد ممسيا وينكره ويستحيى أن يسأل عنه »

قارن هذا بشعور الفتاة البدوية حين تهبط المدينة فى « دعاء الكروان » اذ يقول الكاتب:
« والخطوب تنقل بهن من قرية الى قرية ومن ضيعة الى ضيعة ، يلقين بعض اللين هنا ويلقين بعض الشدة هنالك ، ولا تستقر بهن الارض فى أى حال حتى ينتهين الى المدينة الواسعة ذات الاطراف البعيدة والسكان الكثيرين ، والتى تشقها الطريق الحديدية تصفين، ويمضى فيها هذا الشىء المروع المخيف الغريب الذى يبعث فى الجو شررا ونارا وصوتا ضخما عريضا وصفيرا عاليا نحيفا ، والذى يسمونه القطار الذى يركبه الناس يستعينون به على أسفارهم كما يستعين أهل البادية والريف بالابل حينا ، وبالحمير حينا آخر »

يمكن أن يقال ان أجنبيا مثلى يؤثر الاسلوب السهل البسيط لانه أيسر عليه فهما ، وقد يكون هذا صحيحا ، ولكن مع هذا أرى ان مقارنة هاتين القطعتين احداهما بالاخرى دليل واضح على أن طه حسين شديد العناية بأسلوبه ، يسرف فى تنميقه وتجويده . وهنا أعود الى ما سبق أن قلته وهو أن الجمهور القارىء الذى يزداد عدده يوما فيوما لا يتيسر له من الوقت ما يخصصه لتفهم هذه الاساليب التى يجد فيها صعوبة وعسرا

وأخيرا أصل الى « توفيق الحكيم » الذى أراه الكاتب الوحيد الذى بلغ الدرجة المرضية كل الرضى فى فن القصة فى مصر ، وان كان قد أخفق فى قصته الحديثة « حمار الحكيم » التى لا تزيد عن أن تكون سلسلة من الفصول والصور الممتعة لا يربط بعضها ببعض سوى وحدة « الراوى » فيها

أما قصة « يوميات نائب فى الارياف » فهى صورة دقيقة للحياة الريفية وما فيها من نماذج شخصية ، وهى الى ذلك مطعمة بالفكاهة الرقيقة . ولكن تنقصها مع هذا صفة « المركزية » مما ينقص من قيمتها كرواية حقيقية

ولكن هذه الانتقادات لا يمكن أن توجه الى أحسن آثاره ، وأعنى قصة « عودة الروح» التى أزعم انها أحسن رواية كتبت فى مصر . وموضوعها ، وهو النزاع بين الصبى « محسن » والبيئة التى نشأ فيها ، مشكلة خطيرة حقا فى هذا البلد ، وقد أبرزها المؤلف بما أضاف اليها من ملاحظات سيكلوجية دقيقة . وان الرواية فى جملتها ، من حيث موضوعها الحيوى ، ومن حيث جوها الصوفى الغامض ، ومن حيث تعمقها فى تناول الاشخاص ، كفيلة بأن تحملنا على أن نقول ان الرواية المصرية الصحيحة قد نضجت فعلا

وقد أمكن لهذه القصة أن تجيب عن هذه المسألة الكبرى ، وهى كيف يمكن أن تكتب قصص الحب فى ظل المجتمع المصرى القائم ؟ وكانت اجابة القصة هى أن مسائل الحب ليست كما يزعم الناس بذات أهمية كبرى فى فن الرواية . والواقع ان جوهر الرواية الجيدة هو « الصراع » وقد استطاع الكتاب « الشميون » فى انجلترا أن يثبتوا أن الجنس والحب ليسا هما الصورة الوحيدة من صور « الصراع » التى تتخذ مادة للقصة ، بل ثمة فى المجتمع من عوامل الصراع ودواعيه ما يمكن الكاتب من انشاء قصته

(خلاصة محاضرة ألقاها ت . ج . كولين بال فى المعهد البريطانى بالقاهرة)

الأنجليز

رجال تجارة أم رجال مبادئ ؟

للأستاذ جلبرت مورى

حينما قال نابليون ان الانجليز « شعب من أصحاب الدكاكين » كان يعنى أنه ليس شعبا محاربا ، يؤثر الجندية على سائر الاعمال ، ويعلى الجندى على غيره من الافراد . وهذا قول حق ، فلم يكن الجيش — منذ عهد كرومويل — قوة سياسية تسود الحياة الانجليزية وتتولى أمر الشعب الانجليزى ، هذا الشعب الذى يملك أهم المصالح التجارية وأكبر الاساطيل التجارية ، مما يحمله على أن يوجه أعظم همه الى شؤون التجارة يرعاها ويحميها وينميها . ومع هذا كله ، فانك اذا عرضت تاريخ انجلترا منذ بداية القرن التاسع عشر الى وقتنا هذا ، شق عليك أن تجد فيه فترة ما سادت فيها طبقة التجار غيرها من الطبقات ، أو كان لها فيها نفوذ بارز مشهود

ثقافة السياسى الانجليزى

لقد كانت الطبقة السائدة الحاكمة هى طبقة أوكسفورد وكمبردج ، وليست طبقة برمنجهام ومنشستر وحى الاعمال فى لندن . ولم يكن ساسة انجلترا ووزراؤها طوال هذه الأجيال جميعها رجال أموال وأعمال ، بل رجال أدب كلاسيكى وفلسفة اغريقية . كانوا جميعا من أبناء هذا « التقليد الارستوقراطى » الذى يتطلب من رجل السياسة أن يكون ممن درسوا أعظم الآثار التى أنتجها العقل الانسانى فى الادب والشعر والفلسفة ، وممن راضوا عقولهم على أن تفكر على نسق ما فى هذه الآثار الخالدة من آراء وأفكار ، بل هذا « التقليد » الذى ينفر من أن يكل أمر السياسة الى من انحصرت دراستهم فى كتب السياسة والقانون ، ولم يتدربوا الا على فن البيع والشراء وما فيه من مساومة وتحايل

ويروى أن أحد أعضاء مجلس العموم سأل زميلا له : « ما السر فى أن « جلادستون » يتفوق دائما على بعض أقرانه فى بحث مسائل درسوها خيرا مما درسها ، وعالجوها أكثر مما عالجها ؟ » . فأجابه زميله : « ان مرجع هذا الى أن جلادستون يمضى وقت فراغه فى قراءة هوميرس وافلاطون ودانتى والانجيل ، بينما يصرفه هؤلاء فى قراءة الكتب الرسمية والاسانيد القانونية والقوائم الاحصائية . . وما الى ذلك مما يمدهم بالحقائق والوقائع اللازمة

فى بحث ما يعرض لهم من المسائل ، ولكنه فى الوقت ذاته يحصر أفق تفكيرهم فى هذا النطاق الضيق ، ويحرم أذهانهم من كل غذاء آخر يوسع دائرتها وينمى ملكاتها . أما جلادستون فلا يملأ ذهنه بهذه الارقام والوقائع التى يمكنه الحصول عليها متى شاء ، بل يؤثر أن يملأه بأقوال الشعراء والادباء وأفكار الحكماء والفلاسفة ، فاذا تكلم كانت هذه الاقوال الثمينة حلاء رائعا لكلامه ، واذا واجه مشكلة سياسية كانت هذه الافكار العميقة والمبادىء الخالدة مادة بحثه وتفكيره فيما يواجه »

هذا هو « تقليد » الحياة السياسية والتفكير السياسى فى انجلترا : تغذية ذهن رجل السياسة بالآداب والفلسفات القديمة الخالدة ، ورياضته على أن يفكر وينجه وفق ما تمثله من آراء ومبادىء لا تتغير بتغير الظروف والملابسات . وفى هذا يقول « بيرك » فيلسوف السياسة الانجليزية فى القرن الثامن عشر ، انه يجب على السياسى حين يختار حلا من الحلول لمشكلة سياسية ، ألا يفكر فى قيمة هذا الحل فى اليوم الحاضر أو فى الغد القريب ، بل يجب أن يفكر فى قيمته بعد أن تمر عشرات السنين . ولا يتيسر هذا الا اذا أقام « حله » على أساس من المبادىء والافكار الخالدة التى لا تبلى جدتها ولا تزول قيمتها بمرور الايام ، على نقيض ما اذا أقامه على أساس من التفكير العملى الذى يركز همه ويحصر جهده فى الكسب التجارى العاجل أو الظفر السياسى المباشر

والواقع اننا اذا عرضنا تاريخ انجلترا فى ضوء هذا « التقليد » أمكن أن نفهم كثيرا من أحداثه ووقائعه . فكثيرا ما كانت السياسة الانجليزية تبدو قصيرة النظر سطحية التفكير، فاذا مرت الايام وتتابعت الاحداث ثبت أنها على النقيض من ذلك ، كانت تنظر نظرة عميقة نافذة تكشف عما وراء الظواهر من حقائق . وليس مرجع هذا الى أن الساسة الانجليز أذكى وأبرع من سائر الساسة ، بل لان ثقافتهم تقوم على أساس من « المبادىء الخالدة » اكتسبوها من الآداب والفلسفات الاغريقية واللاتينية ، بينما يركز الآخرون درسهم فى كتب الفقه والقانون والسياسة التى تتغير نظرياتها كلما تغيرت البيئات والاجيال

فى ضوء هذا التقليد يمكن أن نفهم لماذا عارض « لورد شاتام » فى محاربة المستعمرات الامريكية التى ثارت بالحكم الانجليزى وقامت تريد الاستقلال عنه ، وأن نفهم لماذا أبت بريطانيا ، حينما كانت لها السيادة المطلقة على جميع البحار بلا منازع ، أن تستولى على ما كان للدول الاوربية الضعيفة من مستعمرات وأملاك فى آسيا وافريقية وامريكا . وان ندرك لماذا أعاد جلادستون جزر الايونيان الى أمها اليونان ، مع أن اسطول بريطانيا فى أشد الحاجة الى هذه الجزر تأمينا وتيسيرا لمواصلاته فى البحر الابيض المتوسط . وأن تتبين قيمة المبدأ الذى وضعه ماكولى حين نادى بأن يكون القصد من الحكم البريطانى فى الهند تمكين هذا الشعب من أن يحكم نفسه بنفسه يوما ما ، مناقضا بذلك كل ما سارت عليه الدول المستعمرة قديما وحديثا

هذه بعض أحداث التاريخ الانجليزى ، التى كانت تبدو أول الامر دليلا على قصر

النظر وضآلة التفكير فى السياسة ، ولكن الايام والوقائع أثبتت صحة ما ذهب اليه الساسة الانجليز ، وكأنما كانوا يستشفون ما وراء القشرة من اللباب . ولست أزعم أن بعد النظر هذا نتيجة مباشرة لدراسة الادب الاغريقى أو تعلم الاجرومية اللاتينية ، ولكنى أرى ان مرجعه الى حد بعيد الى أن السياسى الانجليزى لا يقصر حياته وتفكيره على « اللحظة الراهنة » بل يفسح لهما مجالا فيما مضى من أدوار التاريخ

والواقع أن السياسى الذى يشرف على شؤون امبراطورية مقسمة الارجاء عظيمة القوى مرهوبة النفوذ ، عرضة لان تساوره أفكار الشر والسطوة والعدوان ، ما لم يكن معدا اعداد السياسى الانجليزى بهذه المثل العليا والمبادىء العظيمة التى خلقتها أعلام التاريخ

أثر الانجيل فى الشعب الانجليزى

ومن الغريب أن هذا التقليد ــ تقليد التشبع بالآداب والفلسفات الاغريقية واللاتينية ــ لا يقتصر على رجال السياسة وأعلام التفكير وحدهم ، بل هو شائع فى سائر طبقات الشعب الانجليزى بوجه عام ، والشعب الاسكتلندى بوجه خاص . فالاسكتلنديون عامة على درجة عالية من الثقافة ، وليس من الغريب أن تجد فى جبال اسكوتلنده راعيا يحمل العصا التى يهش بها على غنمه بيد ، ويحمل انجيلا باللغة اللاتينية بيده الاخرى . أما الطبقة العاملة فى انجلترا فانى أشك فى انها على حظ كبير من الثقافة القديمة أو الحديثة ، أو من الثقافة العلمية أو الادبية ، ولكنها مع ذلك تلذ كثيرا الادب الرفيع بأسلوبه الجزل ولغته الوقورة ومثله العالية . ومرجع هذا فيما أرى هو هذا « الانجيل الانجليزى » الذى كتب فى أبلغ وأجمل عبارة انجليزية ، والذى يعد القوت الفكرى لعامة الشعب الانجليزى

وان المرء ليعجب كيف تيسر « لجون برايت » أن يصوغ خطبه الجزلة البليغة الرفيعة ، مع أنه لم يصب من الثقافة القديمة الا قسطا يسيرا . ولكنه لما سئل فى ذلك أجاب أن مرجع هذا الى الانجيل الانجليزى . ولا شك أن هذا الاسلوب الرصين الخلاب هو سر تمكن « برايت » من قلب الشعب الانجليزى ، الذى راضته قراءة الانجيل واستماعه ، على حب العبارة الرصينة والاسلوب الرفيع

ولا شك أن اقبال الانجليز على دراسة الاغريقية واللاتينية ، وما فيهما من آثار أدبية وشعرية وفلسفية ، يعد أمرا غريبا فى شعب لا يحسب فى عداد الشعوب اللاتينية ، فالجنس الانجليزى خليط من كثير من الاجناس ولكن العنصر الغالب فيه على الجملة هو العنصر النوردى ، وثلثا اللغة الانجليزية من أصل نوردى وليس من اللاتينية أكثر من ثلثها الباقى . ومع هذا كله فالادب الانجليزى ، وعلى الاخص فى آثاره الكبرى ونماذجه العالية ، مستمد من الآداب اللاتينية والاغريقية . وليس للشاعرين النورديين «بيوولف» و « كادمون » فى الادب الانجليزى أثر يذكر الى جانب الاثر الذى خلفه هوميروس شاعر

اليونان وفرجيل شاعر الرومان . بل ان تعليمنا الجامعى يعنى بالآداب الاغريقية واللاتينية أكثر مما يعنى به أى تعليم جامعى فى أوربا

الانجليز يونان العصر الحديث

وأرى انه يمكن أن يقال اننا فى شؤوننا الداخلية نسير على نسق اليونان ، وفى شؤون امبراطوريتنا نتبع أثر الرومان

ففى أمورنا الداخلية تقوم الحياة الانجليزية ــ وعلى الاخص حياة هذه الطبقة قليلة العدد عظيمة النفوذ التى تخرجها جامعاتنا القديمة فى ايتون وهارو وكمبردج واكسفورد ــ على أساس الثقافة الاغريقية التى تعتمد على دعامتين : الموسيقى والالعاب الرياضية

فالشعب الانجليزى جميعه يلعب الالعاب الرياضية ، من كريكت وتنس وكرة قدم وما الى ذلك ، ويرى فيها أمرا لا غنى عنه . ولكنا ــ كالاغريق ــ لا نمارس هذه الالعاب كما يمارسها المحترفون ، ولا ننظر اليها النظرة الجادة العابسة التى ينظرها هؤلاء المحترفون بل نلعبها لذاتها ــ لما فيها من لذة ومتعة ورياضة . وكذلك كان يفعل الاغريق : يلعبونها دون أن يحترفوها

ونحن كالاغريق كذلك : أبناء جزيرة ، ورجال بحار ، يقضون شطرا من حياتهم على ظهر السفن يجوبون بها أرجاء العالم تجارا ، ومحاربين ، وسائحين

وقد تبدو هذه الصفات المشتركة بين الانجليز والاغريق صفات عارضة لا تتعدى المظهر ولا تجاوزه الى الصميم ، ولكن ثمة صفات أخرى أكثر دلالة على تشابه الشعبين فى حقيقة الامر . وهذه هى صفات الحرية ، والتسامح ، وطاعة القانون عن رضى ورغبة . فان هذه المميزات التى تميز الحياة الانجليزية فى الوقت الحاضر هى التى ميزت الحياة الاغريقية فى العصر القديم

انهما يختلفان فيما دعاهما الى الاخذ بالحرية وايثارها . فالاغريق أقاموا حياتهم على أساس الحرية لان تكوين المجتمع الاغريقى كان يفرض هذه الحرية فرضا . أما الحرية الانجليزية فترجع ، فيما أرى ، الى هذه العزلة التى تعيش فيها انجلترا آمنة من الغزو والعدوان . فالدول الاوربية الكبرى لم تستمتع بهذا الامن يوما ما ، بل هى تعيش دائما متعرضة للخطر مستهدفة للخطوب ، وهى لهذا شعوب محاربة تأهبا للدفاع عن نفسها ضد أعدائها المسلحين الذين يعيشون على هذه الخطوط الوهمية التى تسمى بالحدود السياسية . ومتى كان الشعب شعبا محاربا كان كذلك شعبا معتديا ، لان الحرب لا يمكن أن تكون دفاعا مستمرا ، بل لا بد أن تكون من حين الى حين هجوما وعدوانا . وهى الى جانب ذلك تخضع لحكومات سيئة الظن فى رعاياها ، لان ظروف الحرب تضطرها أن تضيف الى أملاكها مناطق يسكنها أقوام من أعدائها ، فمن الطبيعى أن يسوء رأيها فى هؤلاء الاقوام ، وأن تأخذهم دائما بالعسف والبغى

أما نحن الانجليز فقد أحاطنا هذا البحر المبارك بسياج أمننا من العدو الغازى ، فعشنا بمنأى عن هذه الظروف التى أكرهت دول أوربا الكبرى على أن تقف من جيرانها موقف العداء ، ومن رعاياها موقف الريبة والسطوة

ان حياتنا العامة بريئة من « الخوف » . فما من سياسى أو وزير يخاف أن يترك مقعد الحكم فيكون هدفا للعدوان أو فريسة للاضطهاد . وما من حكومة تخشى أن يتآمر عليها معارضوها مع أعداء الدولة أو يلجأوا فى مقاومتها الى وسائل العنف والثورة

ويترتب على ذلك أننا لا نخشى حرية الكلام ، وما يتفرع عنها من حرية الصحافة وحرية الاجتماع . وفى هذا نجد أكبر وجوه الشبه بين الانجليز والاغريق . فقد كان المنادى فى اثينا ينادى : « فليقف كل من يرغب فى الكلام وليتكلم » . وكذلك الامر فى انجلترا ، فليقف كل من يرغب فى الكلام على منبر من منابر هايد بارك ، وليقل كل ما يروق له فى الحكومة ، والدستور ، ودين الدولة ، وما شاء من الامور . وسوف يجد أمامه جما من المستمعين يتنقلون فى أرجاء الحديقة من خطيب الى خطيب ، يقفون عند من يروقهم كلامه وينصرفون عمن لا ترضيهم أقواله ، دون أن يفكر أحد منهم فى أن يمنع خطيبا من ابداء ما يعن له من الرأى . . وليس هناك من رجال البوليس سوى واحد أو اثنين مهمتهما أن يمنعا أى مستمع تهيج أعصابه من أن يحول بين الخطيب وما يريد أن يقول

ولكن هل ستبقى هذه الحال الطيبة قائمة أبدا ؟ أم هل ستؤدى هذه الحرب القاسية التى أثرت فى حريتنا وتحيفتها من جميع الجوانب ، والتى ملأت حياتنا الآمنة بكثير من المخاوف والخطوب ، والتى نزلت من غير شك بمستوى ثقافتنا وقد ركزنا جهدنا وفكرنا فى أمور القتال واسبابه ــ هل ستؤدى هذه الحرب الى تقويض هذا الاساس الذى قامت عليه حياتنا العامة وحياتنا السياسية أجيالا تلو أجيال ، وهو جعل الافكار والمبادىء الخالدة التى تضمنتها المبادىء والفلسفات القديمة ، محور تفكيرنا ومجال سعينا ، بغض النظر عن الربح المادى العاجل والظفر السياسى المباشر ؟

عسير علينا أن نجيب عن هذا السؤال ، فان أثر الحرب قوى عنيف ، ولكن ما نحسب حربا فى بضع سنين تقتلع شجرة نبتت منذ أجيال وتأصلت جذورها فى الاعماق . ولهذا فانى أعتقد أننا سنظل حافظين على ثقافتنا التقليدية ، أى الثقافة التى لا تعنى بالنظريات والارقام والوقائع ، قدر ما تعنى بالمثل العليا والمبادىء الخالدة

أعتقد أن الانجليز سيبقون « هواة » ، بينما سيبقى الالمان « محترفين » . والهاوى تعنيه المتعة ، بينما لا تعنى المحترف سوى المنفعة

ولعل خير ما قيل فى هذه المقابلة ما قاله رجل ألمانى وهو : ستبقون أيها الانجليز أغبياء. وسنبقى نحن الالمان بعيدين من أن نكون رجالا أفاضل

(مترجمة بتصرف عن الاستاذ جلبرت مورى فى سلسلة « بريطانيا اليوم »)

شكوانا من المرأة

بقلم الدكتور أمير بقطر

لمن نشكو ، والخصومة بيننا أشد ايلاما من الحب ، وأقدم عهدا من التاريخ ؟ ولمن نحتكم ، وقد أدخلت الشيطان شريكا فى الدعوى ؟ ألم تطردى من الجنة ، فزعمت أن الحية أغوتك ؟ وأنى للرجل أن يقوى على المرأة والحية والشيطان فى آن واحد ؟ ألم تكونى أنت أول من أصلى قلوبنا بنار الحب ، وأنت تعلمين أنه أقوى من الموت ، وأقسى من الهاوية ؟ فلم جنيت علينا ولم نجن على أحد ؟

أحببناك أما ، فاختطفتك المنية ، ونحن لا نزال فى ربيع الحياة . وأحببناك طفلة ، فما لبثت أن بلغت سن الحلم قبلنا ، وأسدل أهلوك ستارا كثيفا بيننا ، تمسكا بالتقاليد ، لذنب لم نقترفه . وأحببناك أختا شقيقة ، ففرق الزواج بيننا وبينك . وأحببناك فتاة ، وعقلك كامل النمو ، وجسمك ريان فينان ، فقلت المداعبة فى هذه المرحلة من العمر غير بريئة ، والله يعلم أننا كنا أنقياء الثوب ، ناصعى الصحيفة . وأحببناك زوجا ، وفمك عقيق كالمهجة يتلظى ، وفؤادك بالحب يعيش ويتغذى ، فلم تلبثى أن خبت فيك نار الحب ، وانطفأ لهيبه ، وكأن الالفة تفضى الى الاستخفاف . وهل صدق الشاعر بيرون حينما قال ان الفرق بين حب الخليلة وحب الزوجة أن الاول أطول عمرا من الثانى ؟ وأحببناك ابنة ، فملأ حبك القلب والجوانح ، ولكن سرعان ما رغبت عنا ، وولعت بفتى لا يمت اليك أو الينا بصلة

أحببناك فتيانا ، والعود لين والغصن رطيب ، فقلت علام الهوى وأنتم لم تنضجوا للزواج بعد ؟ وأحببناك شبانا فى ريعان الصبا ، فقلت أنى لهذا المرتب الضئيل أن يقوم بأجرة الخياط والحلاق ، وثمن الفراء والحرير والبنزين ، ومطالب القرن العشرين ؟ ثم انصرفنا للعمل بغير هوادة ، وأحببناك رجالا فى مراكز يحسدنا عليها سوانا ، فاذا بك فى أحضان الغير . وأخيرا أحببناك زوجا لهذا الغير ، حفظا للعهود ، فقلت هنا تنقطع كل صلة ، وتصمت بيننا كل عاطفة . وحبذا المثل الاعلى يا سيدتى، لولا انك أقسمت لنا يوم أرسلت من محاجرك أول دمعة من دموع الحب ، انك للعهد حافظة ! وحبذا الاخلاص الزوجية ، يا سيدتى ، لولا أنك أسررت الينا يوم دوت فى آذاننا زفرات الوداع وصيحات الفرقة ، أنك على الولاء باقية ، كيفما كانت الأقدار !

قلنا لك انك مادية ، حتى فى وجدانك وحبك ، فى بكائك وابتسامك ، فعتبت علينا وبكيت ، وأنكرت علينا القول ، لانك كعادتك لم تفهمى ما نقول . ولكن لعمرى ، ألست ترغبين فى الرجل ليرغب هو فيك ، فى حين أن الرجل ، لا يرغب فيك الا لأجلك؟

ألست تحبين الرجل الا كما يحب الصياد سلاحه ؟ الا تسعين اليه ، الا كما يسعى المرء الى من يدفع عنه الأذى ، ويحميه من عاديات الزمن ، فى حين أن الرجل انما يحبك ويسعى اليك ، لانك أنت أنت المرأة وكفى ؟ الا تتنقلين بين عشية وضحاها ، من حبيب الى زوج، كما تتنقل الفراشة ، من زهرة وارفة شهية للنظر ، الى ثمرة يانعة دانية القطوف ؟ ألا ينتقل الحب معك كالسلعة فى الاسواق ، أو كالحقيبة يوم الرحيل ، فى حين أن الرجل يبيت معذبا يتلوى من الألم طويلا قبل أن تتم الصفقة ؟ ان مثلك يا سيدتى مثل العالم الرياضى الذى لا يؤمن الا بالارقام ، أما الرجل فمثله مثل الشاعر والمصور والمثال ، ينشد من وجدانك أروع القصائد ، ويرسم لوجهك أبدع الصور ، وينحت لقوامك أجمل التماثيل. انك يا سيدتى تدينين بفلسفة « البراجماتزم » الحديثة التى لا تحب العلم الا لانه وسيلة لغاية ، فى حين أن الرجل يدين بفلسفة « الايديالزم » القديمة ، التى تحب العلم لذاته . ولا أخالك الا تدركين أن « العلم » فى الحالة الاولى كناية عن الرجل ، وفى الثانية كناية عنك يا سيدتى

ستنكرين علينا بالطبع هذا ، ولكن عودى بالله الى الماضى هنيهة . كم قلت لنا معاذ الله أن أنقض لك عهدا ، وأبى الله ألا أرعى لك ذمة ! فلم تلبثى أن نقضت العهود وكسرت المواثيق ، وكأن شيئا من هذا لم يكن ! وكم ألفت بيننا وبينك وحدة الهوى ، فلم تلبثى أن لويت عنا العذار بأهون سبيل ، وما كنت أحسب ان ذاكرتك بالغة من النسيان ما بلغت ! ألا تذكرين أعواما كاملة ، كانت تضطرم فيها العواطف اضطراما ، وتتوق فيها النفوس للنفوس ، وتقترب القلوب من القلوب ، فكان الناس يقولون ان عقولنا قد خالطها عارض من عوارض الجن ؟ أتذكرين أعواما لبسنا فيها لاجلك الخلقان من الثياب ، بعد أن برحت بنا الفاقة ، واشتدت بنا ضائقة العيش ، وفى طرفة عين ، أقبل عريس يتبختر ويتهادى ، فأوسعت للقائه الخطى بغير استئذان ، وكأننا متاع مهمل ، لا وجود لنا ؟ ان للرجل يا سيدتى كرامة يبقى عليها أكثر مما يبقى على صداقة المحبين ، وان نسى ذلك فى كثير من الاحايين ؟

والآن وقد تم لك ما تريدين ، من حرية وعمل وزوج وولد ، فما بالك تبطرين ؟ اذا ما اتهمك زوجك فى عمله ، فلم يرك الا نادرا عتبت عليه ، وبثت وراءه العيون والجواسيس ، وداخلك الشك فى علاقته بالمرضى من النساء اذا كان طبيبا ، وبالمتقاضين منهن اذا كان محاميا ، وبالسكرتيرة اذا كان من رجال الاعمال ، واذا ما زهد فى الاندية والقهوات وموائد اللعب وقضى أوقات الفراغ فى البيت ، قلت انه كالعجوز الشمطاء لا يبارح الدار . واذا حاول أن يخفف عنك العبء فى تربية الذرية أو ادارة شؤون الخدم ، قلت انه يتدخل فيما لا يعنيه . واذا تخلى عن هذا وذاك ، قلت يترك الحبل على الغارب . واذا منعك عن العمل وكسب الرزق حبا فى راحتك ، أو غيرة عليك من رؤسائك ، قلت محافظ يريد حبسى . واذا لم يمانع فى احتفاظك بوظيفتك ، فانك تصولين وتطولين

وتفاخرين ، أو تلهين عنه بزملائك من الرجال ، أو زميلاتك من النساء . واذا ما تألم من ذلك وتأفف ، ثم كبت الألم ساكتا ، تهينه بالصد والاعراض . فاذا استعطفك تأبين وتمنعين فيحار بين هذا وذاك

***

شاهدت قبيل هذه الحرب منظرا فى مدينة البندقية لا يزال ماثلا فى مخيلتى ، وقد مثلت فيه عاطفة المرأة أحسن تمثيل . كان ذلك قرب الاصيل ، وقد تدفقت الجماهير من حمامات ليدو الشهيرة ، واكتظت بهم احدى مئات القناطر البديعة التى تربط شوارع المدينة بعضها ببعض ، كان ذلك أمام فندق دانيلى التاريخى . وفى وسط ذلك الجمع الحاشد ، بملابسه المزركشة البديعة وأجسامه أنصاف العارية ، وقد كستها شمس الادرياتيك لونا نحاسيا يفيض حمرة وجمالا ، وقفت الجماهير فجأة ، وانتقلت العيون من عبادة الجسم الى عبادة الروح . ذلك أن صبية لا تكاد تبين ، تناهز الرابعة من عمرها ، لمحت راهبة حسناء من راهبات الدير ، فانطلقت نحوها كالسهم ، ودست وجهها فى ثيابها الكهنوتية تطلب البركة ، فمدت اليها الراهبة صليبها الذهبى المعلق فى صدرها ، فقبلته الصبية طويلا وجيلا ، فى خشوع وتعبد بين اعجاب الشجعان من الفتيان ، وانعاظ الحسان من الفتيات . .

كم تستطيعين يا سيدتى أن تستأثرى بالقلوب وتلعبى بالافئدة ، حتى فى أشد الاوقات بعدا عن اللعب والاستئثار ! ناعمة أنت فى الظاهر ، قاسية عنيفة فى الداخل . كم غزوت السويداء فى بكائك ، أكثر مما سلبت العقول فى ابتسامك ! ألست باكية أجمل منك ضاحكة؟ كم من رجل طلب يدك ثملا بدموعك ، وهى أعذب من الشراب ، وأشد فعلا من الراح ، فدخل منزل الزوجية معصوب العينين ، فلما أن أزيل الحجاب ، كان أول ما وقع نظره عليه ، ابتسامة صفراء ! أنت فى كثير من الاحايين ممثلة خير منك طبيعية واقعية ، وخيال أكثر منك حقيقة ! فهل صدق بلزاك فى نصحه لكل رجل ألا يقدم على الزواج قبل أن يشرح امرأة تشريحا ؟

***

توجعين وتشكين جور الرجال ، ولكن ألم تخلقى لألم الحيض والحمل والولادة ؟ ألا تسعين اليه بالفطرة ؟ كذلك تكرهين وتحبين فى آن واحد كالمصاب بمرض عصبى ، ولعل عذرك فى ذلك أنك كالطفل الذى لم تنوع عواطفه ولم تنضج بعد ، فهى مزيج من القسوة والحنان ، والعنف والرقة ، والخوف والاطمئنان « ambivalent » فلا غرابة اذا قال البعض ان للمرأة وجها بلا قلب . بيد أن هذه الشخصية المزدوجة هى التى تغرى الرجل فيحب ، وهى التى تفتح عينيه بعد ذلك فيكره ، والحب كما تعلمين يتسلل الى قلبى الرجل والمرأة خلسة ، ولكنه يخرج على مرأى منهما ومسمع . وعبثا يحاول الرجل أن يدرك نواياك ، طالما كان سلاحك ذاك الطرف الغضيض الذى أدركت سره فأوغلت فيه . فبينما يترقرق الحياء فى وجهك كالطل على ورقات الورد هنا ، اذا بك

تغامرين كالرواد هناك ، وبينما تشربين معه القهوة منعنعة نهارا ، اذا بك تحتسين مع سواه الخمر مشعشعة ليلا . والرجل الطيب القلب بين هذه التثالية فيك حائر . فأينما قلب الطرف ، ألفى في كل جارحة فيك صفة ، وعبارة مشتركة ، تحتمل كل المعاني . واذا ما أسر اليك أمرا ، فلا مفر من اذاعته على أسلاك البرق أو على أمواج الاثير ، وذلك لان الاسرار عندك اما أن تكون تافهة فلا تستحق كتمانها ، أو خطيرة فيعز عليك ألا تنتفع بها الانسانية

***

ولسنا ندري لم خصتك الطبيعة بمزايا ، حرمت علينا نحن الرجال ؟ ألسنا أشد تعرضا للامراض والعيوب الجسمانية منك لاسباب بيولوجية، سبق تفصيلها على صفحات الهلال [1] أو لا تحاملين على الذكور من أبنائك وأحفادك ، فتورثينهم هذه العلل دون الاناث ؟ ألا يزيد عدد الاطفال الذكور الذين يموتون في خلال السنة الاولى من أعمارهم عن الاناث بمقدار ٢٠ ./. ؟ ألا يزيد عدد النساء عن الرجال في سن النضوج بمقدار ١٥ ./. ؟ ألا يبلغ عدد النساء في العالم فوق سن الستين ضعف عدد الرجال ؟ ألم يكف الطبيعة هذا التحيز ، حتى كتب القتل والقتال علينا ، وما عليكن الا جر الذيول ؟ ألم يكفك كل هذا يا سيدتي ، حتى أرغمتنا على الوقوف لك اجلالا ، وتقبيل يديك في المجتمعات اذا كنت سيدة ، أو الانحناء اليك اذا كنت آنسة ، واحلالك المكان الاول دخولا وخروجا ، وقعودا وجلوسا ؟

وهذه الامراض العصبية والقلبية من نيورستانيا وملانخوليا وهستريا قلقية وتحولية وغيرها وغيرها ، ألا يقول لنا العلماء ان الاصل في أكثرها المشاكل الجنسية ، وأنت مصدرها ؟ ألا يقول لنا آخرون ان المال أصل الكثير من هذه العلل؟ ولم نعتز نحن الرجال المساكين بالمال والكرامة والرجولة ؟ ولمن رولز رويس ، وبكارد ، وكاديلاك ؟ لك قبل كل شيء يا سيدتي ؟ يقولون في اميركا ان السيارة الفخمة لا تتحرك الا بالماء والهواء والزيت والبنزين والمرأة . أتنكرين ذلك ؟ ويقول الحكماء ان الذهب يختبر بالنار ، والمرأة تختبر بالذهب ، والرجل يختبر بالمرأة . ألست اذن أقوى من الرجل والذهب والنار ، وأشد فعلا من الماء والهواء والزيت والبنزين مجتمعة ؟ وحتى علماء الاجتماع لم يفتهم ان يتحيزوا للمرأة ، فزعم بعضهم أن أربعة أخماس السعادة الزوجية مصدرها المرأة، وأربعة أخماس التعاسة الزوجية مصدرها الرجل . فلا عجب يا سيدتي اذا استأثرت بالسلطة ، وعدت تطالبين بالمساواة ؟ ألست أنت سيدة البيت دون الرجل ؟ ألا يحس الرجل أنه غريب في منزل أخيه ، وأنه أحد أفراد الاسرة في منزل أخته ؟

***

(١) انظر مقالنا « أنت وأنا » في عدد ابريل سنة ١٩٤١

وقد بلغ من تساهل الرجال انهم ينحون على بعضهم باللائمة اذا ما تطلعوا اليك وأنت تستلقين على رمال الشاطىء كالصليب المعقوف ، وتختالين تيها فى ثوب يمكن أن تقول عنه تساهلا أنك ترتدينه ، فتبدين كالصورة العارية التى يتخذها تجار الملابس الملاصقة للجلد اعلانا لسلعهم . ان ثيابك المسرفة المستهترة لا تزيد شعرة على جمالك ، وانما تجعل العيون تتجه اليك ولا تعجب بك . كما أن « الكريم » وما على شاكلتها من العقاقير لا تطرى من بشرتك ، طالما كانت نفسك خشنة أنانية . ان البساطة والعظمة شىء واحد ، والحشمة والجمال مرادفان لمعنى واحد . فاذا كنت هادئة وادعة حيية ، نظر اليك الرجل كما ينظر الى الفراشة وهى تنحنى على الزهرة لتقبيلها ، وكف عن أن يتبادل واياك هتفات الاستنكار ، أو يتراشق بنظرات الاستهتار . واذكرى أنك اذا أسرفت فى كبريائك ، قد ينتقم منك الرجل ، يوم ينشب الدهر أظفاره ، فيدب فيك الكبر ، ويوم يستنزف الزمن الحياة من شعرك فيبيض أو يفقد لمعانه ، ويعمل العمر الجشع فى أسنانك فتنخر ، فى حين أن الرجل يكون بعد شديد البأس ، تسرى فى عروقه بقية لا بأس بها من دم الشباب

***

وأخيرا سيدتى أرجو المعذرة اذا قسوت عليك اليوم ، فقد أسرفت فى العطف عليك بالامس . لقد عمدت فى هذا المقال تصفية حساب بيننا طال عهده ، وأردت أن أبين لك أقصى ما يستطيع أعداؤك من الرجال أن يلصقوه بك من التهم ، التى أحرى بهم ان ينسبوها لانفسهم . ولا أخفى عليك أنى كتبت هذه الرسالة اليك فى يوم الانقلاب الربيعى (٢١ مارس) ، وهو يوم تكثر فيه الاعاصير والعواصف ، كما تثور فيه الذكريات والعواطف . واعلمى أن الشكوى من المرأة ستبقى ما بقيت الطبيعة البشرية ، وأن التوتر بين الجنسين سيظل هو هو ، ما ظلت العاطفة الانسانية ، وأن النضال بين القلب والقلب سيدوم ما غرد طير ، وفتح زهر . واليوم الذى يعيش فيه الرجل والمرأة بسلام هو اليوم الذى تقول فيه على الحضارة والعلم والمدنية السلام . فالفنون الجميلة والشعر والموسيقى والاختراع والعلم وأشد ما نعتز به من طيبات الحياة ، انما يعزى الى ما توحينه أنت الينا من خيال وابتكار وحب وجمال . فعفوا يا سيدتى ، ولا تأخذى ما قلت فيك بحرفيته ، فانى أحبك ، لان لنا ، نحن معشر الرجال ، من بين جنسك أمهات وشقيقات ، وعمات وخالات ، وحبيبات صادقات !

فلمن نشكو يا سيدتى ، وأنت الخصم والحكم ؟؟

أمير بقطر

عبد العزيز البشرى

بقلم الأستاذ طاهر الطناحي

قضى فى الخامس والعشرين من مارس الماضى أديب عربى كبير ، عرفته اللغة العربية وأهلها وقراؤها منذ ثلاثين سنة كاتبا مبدعا ، وفنانا ممتازا بأسلوبه الرشيق ، وعباراته الجزلة ، وعواطفه الجائشة ودعاباته الفنية البارعة

وليس فى الشرق العربى من الادباء والمتأدبين ، ومن العلماء والمتعلمين من لا يقدر الشيخ عبد العزيز البشرى ، ويعجب بأدبه وظرفه . وقد نشأ أول ما نشأ فى بيئة دينية صرفة ، قضت تقاليدها أن يعيش فى شبابه أديبا مستورا لا يعرفه الا خلصاؤه والخاصة من الادباء . ولا يكتب أكثر ما يكتب الا بلا امضاء . فقد كان والده الشيخ سليم البشرى شيخ الازهر وشيخ الاسلام ، وأراد هو أن يحرص على الوقار التقليدى لعلماء الدين ، ورجال الشرع فمكث حينا بعيدا — أو كالبعيد — عن الجمهور ، ثم مرق من الخمول الى الشهرة ، وأبت عليه فطرته الا ان يكون فنانا معروفا ، والا أن يعيش فى البيئة التى خلق لها ، وان يتحرر من الوظائف الدينية الى الوظائف الفنية مما يلائم ميله وطبعه

البشرى الموظف ورأيه فى الوظيفة

لم يكتب عبد العزيز البشرى تاريخ حياته ، ولكننى كنت اجالسه يوما حينما تقلد وظيفة ادارة المطبوعات فسألته عن نشأته والوظائف التى تقلدها فأجابنى بما يلى :

« دخلت (الكتاب) لحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة على نحو ما كان لداتى فى ذلك الحين ، فمكثت فيه مدة ليست طويلة حفظت فيها القرآن الكريم . ثم انتقلت منه الى مدرسة ابتدائية ، ولكن والدى أبى الا أن ادخل الازهر ، وان ادرس علوم الدين ، وكان وقتئذ شيخ الاسلام لاول مرة له ، وبينما كنت فى الازهر تعلقت بالادب وأحببته فكنت انصرف كثيرا لقراءته ، ثم أخذت أكتب فى جرائد المؤيد ، واللواء ، والظاهر . ثم تخرجت سنة ١٩١١ فعينت سكرتيرا بوزارة الاوقاف . وبعد سنتين عينني المرحوم احمد حشمت باشا محررا فنيا بوزارة المعارف . وفى هذا الوقت ندبنى سكرتيرا عاما للجنة الاصطلاحات العربية . وكان من أعضاء هذه اللجنة اسماعيل باشا حسنين ، ومستر روب ، وحفنى بك ناصف ، واحمد زكى باشا

« ولما تحول حشمت باشا الى الاوقاف كرهت البقاء فى وزارة المعارف ، ورضيت التحول الى القضاء الشرعى ، فعينت قاضيا بالمحاكم الشرعية ، حتى سنة ١٩٢٢ فنقلت مفتشا

بالمجالس الحسبية . وبعد قليل ندبنى المرحوم عبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزارة فى ذلك الحين لأكون سكرتيرا للجنة وضع الدستور مع بعض رجال القانون

« وفى أواخر هذه السنة عينت مفتشا بوزارة الحقانية (العدل) . ولم ألبث فى هذا المنصب شهورا حتى تغيرت الحال السياسية ، وتألفت وزارة نسيم باشا الاولى ولم يمض عليها ساعات حتى صدر أمر وزير الحقانية بندبى الى عضو عامل بمجلس حسبى اسيوط ، فبقيت هناك حتى استقالت الوزارة وعدت قاضيا بالمحاكم الشرعية . ولما تولى على ماهر باشا وزارة المعارف لاول مرة عهد الى أنا والاستاذ احمد بك أمين عميد كلية الحقوق وقتئذ فى وضع كتاب التربية الوطنية للمدارس الثانوية ثم نقلت الى وزارة المعارف عضوا بالمكتب الفنى . ولما تولى على الشمسى باشا الوزارة ألغى هذا المكتب واتخذنى سكرتيرا برلمانيا له ، وبقيت كذلك الى أن عينت وكيلا لادارة المطبوعات »

وقد مكث البشرى فى هذه الادارة مدة ثم اعيد الى وزارة المعارف . ثم لم يلبث أن أحيل الى المعاش . ولما أنشىء المجمع اللغوى عاد مراقبا عاما له الى أن توفى . وعلى الرغم من أنه عاش موظفا ، فقد كان يكره الوظيفة ويمقتها ، وينقدها نقدا لاذعا ومن ذلك قوله :

« فن الوظيفة ، هذا شرح الله صدرك ، وأطال عمرك ، ورفع فى المناصب قدرك ، فن واسع الأطراف ، رحب الأكناف ، موصول الأصول ، مفصل الفصول ، مقعد القواعد ، مبسط الامثلة والشواهد لا يحذقه الفتى الا بعد الجهد وشدة المطاولة وسهر الليالى فى التفكير والتدبير ، وتمرين الاعضاء فى كيفية القعود والقيام ، والسكوت والكلام ، والدخول والخروج ، والهبوط والعروج ، والتشييع والاستقبال ، والخشوع والاستبسال ، والانقباض والتبسط ، والرضا والتسخط ، وارهاف الأنف حتى يشم الريح على أميال ، ويدرك مدى تحول الجو من حال الى حال

« ومن أولى مزايا هذا الفن الجليل تخليد الوظيفة للفنان على الزمان ، ولو عصفت أحداث السياسة بلداته جميعا . ومنها الوثب فى الدرجات مثنى وثلاث ورباع وخماس وسداس وسباع

« وانى لاعرف طائفة من هؤلاء الفنانين مهد لهم الفن الدرج كله ، فتناولوه وثابا فى كل وزارات عدلى ، وثروت ، ونسيم ، ويحيى ، وسعد ، وزيور ، وعدلى ، وثروت ، والنحاس ، ومحمد محمود ، حتى بلغوا القنة بدقة الفن وحده ناعمين بثقة الجميع ، ولا ايمان لهم بواحد من الجميع » !

فى المرآة

قدمت أن البشرى فى الشطر الاول من حياته ، بل فى معظم حياته كان يتوارى من الجمهور ، وكان يؤثر الحجاب على السفور ، يدفعه الى ذلك تربيته الدينية ، وبيئته الأزهرى

الوفور . ولكن هناك دافعا آخر الى هذه الحال التى لزمها طويلا ، وقد أفصح عنها فى بعض كتاباته واعتذاره عن طبع مؤلفاته بقوله :

« وان عادة لزمتنى من يوم ضبطت القلم ألا أحرص على حفظ شىء من آثاره المنشورة فى الصحف ، فاذا وقع لى شىء من ذلك أسرعت الى اتلافه تمزيقا أو تحريقا . وسبيل هذه العادة الى اننى أول ما عالجت الكتابة ، وتعلقت بصنعة القلم كنت أدرك تمام الادراك اننى ناشىء لا أجيد البيان ، فاذا كانت لى طبيعة فلن تتهيأ لى الاجادة الا بعد شدة معاناة ، وطول تمرين ، وظللت على هذا دهرا ، وأنا فى ارتقاب الاحسن مما يثبت للانظار »

اذن فهو انما يود الا يجمع مقالاته وألا يظهر اسمه الا بجانب ما يراه قد بلغ المكانة العليا من الاجادة . وسار على هذه الطريقة زمنا حتى انه لما كتب مقالات « فى المرآة » فى جريدة السياسة الاسبوعية ، لم يمض واحدة منها على ما فيها من فصاحة فى التعبير ، وبلاغة فى التحليل ، وقد يكون ذلك لاعتبارات سياسية دفعته اليها قيود الوظيفة ، ولكنه لم يعن بجمعها فى كتاب يقدمه للجمهور . ولولا انه قد استحثه أحد اصدقائه فى جمع هذه المقالات ، بل لولا ان هذا الصديق قام على طبعها ما ظهر كتاب « فى المرآة »

ويحفل هذا الكتاب بثلاثين من صور رجال مصر فى العصر الحديث ممن عاشوا بين سنة ١٩٢٤ وسنة ١٩٢٧ . وقد كتبها لمناسبات سياسية . ومما قاله عن سعد باشا :

« ملء السمع ، ملء البصر ، لو حاول بكل جهده الا يكون رجلا عظيما ما استطاع . وهيهات لامرىء أن يملك عن نفسه ما شاء لها الله . وقد سوى الله له هذه العظمة من يوم مدرجه ، فكان طالبا عظيما ، وكان مدرها عظيما ، وكان قاضيا عظيما ، ثم تناهت اليه زعامة أمة ، فهو ملء السهل والجبل . . »

وقال فيما قال عن عدلى يكن باشا : « اسمر اللون فى شحوب الا ان ما يخالط سمرته من صفرة حلو مستعذب . يمتاز بقليل من الطول ، وكثير من العرض . فهو بعيد ما بين الكتفين حتى لتعرفه موليا كما تعرفه مقبلا ، مستوى معارف الوجه ، حديد البصر . اذا قدر لك ان يحدق فيك شعرت ان نظره لا يستقر على سطحك ، بل انه ليتغلغل فى اطوائك ، ويصل من نفسك الى كل ما تضن به على الابتذال . وادع ساكن ، تتجلجل الدنيا من حوله ، وهو ثابت ثبات الهرم الاكبر . . »

وهكذا مما يمتلىء به هذا الكتاب من صور هؤلاء الرجال التى يزجيها اليك فى اسلوب أخاذ ، وتحليل دقيق ، واختلاف فى المزايا والاوصاف حتى ليصور لك كلا منهم كأنك تراه شكلا ، ونفسا ، وروحا

البشرى المجدد والأدب القومى

لقد ترى فى هذه الصور التى كتبها فى المرآة تجديدا فى الاسلوب ، وتجديدا فى التفكير ، على الرغم مما يبدو فى اطوائها من ألوان الادب القديم . وقد تناول البشرى

ألوانا أخرى من الكتابة دلت على سعة أفقه ، فقد كتب فى الادب وتطوره ، وحاجته الى التجديد ، وكتب عن رسالة الادب ، ووصف بعض المخترعات الحديثة فأبدع كل الابداع وتناول تراجم بعض رجال الجيل ، فكان من أدق المعاصرين فى ترجمة الشخصيات البارزة . وكتب فى الفن والمتفنين وفى كثير من الموضوعات الادبية والاجتماعية ، واذاع فى الراديو عددا من المحاضرات الطريفة ، فكان فى ذلك كله الاديب المجدد ، والاديب صاحب الرأى الذى يقف موقف المتبصر المتزن الذى لا يتعصب ولا يتطرف ، ولا ينال منه التفريط أو الافراط

وقد كان يدعو الى أن يكون لمصر أدب قومى ، ولكنه عربى الشكل والصورة ، ويحبذ التجديد فى الادب والاخذ عن الآداب الاجنبية ، ويرى انه لا غناء لنا عن ذلك ، فانه مما يهذب عاقلتنا ويفسح فى ملكاتنا ، ويرهف من احساسنا ، ويهدينا الى كثير من الاغراض . على انه يرى ان الاخذ عن هذه الآداب لا يجدى ولا يؤدى الغرض المراد من مطالعه والاصابة منه الا اذا هذبنا ما نأخذ ، ولونا من صورته حتى يتسق وطباعنا ، ويوائم مألوف عاداتنا ، ويستقيم لاذواقنا مع صوغه فى نظام من البلاغة العربية محكم التنضيد . وبهذا نزيد من ثروة الادب العربى

الأديب البشرى وفن النكتة

وقد امتاز رحمه الله بخفة الروح ، وعذوبة النفس ، وميله الى المفاكهة والمداعبة ، ورواية النكتة . وهى فى أصدق وضعها نوع من الادب وفن من فنونه ، لانها تحتاج الى الذكاء اللماح ، والتصوير المبدع ، والبديهة الحاضرة والخاطر السريع . وتقوم النكتة فى أصل معناها على مخالفة القياس العرفى ، أو القياس المنطقى ، ونقض الخيال العادى

ولكن البشرى يعرف النكتة — على العموم — بانها ضرب من التصوير الكاريكاتورى أو على الاصح ان التصوير الكاريكاتورى ضرب من النكتة لان صاحب هذه يملك ما لا يملك المصور من الاسترسال فى التصوير والتخييل بالاشتقاق والتوليد ، فلا يزال يقلب الصور ويلونها ، ويخرجها واحدة بعد أخرى فى اشكال وأوضاع مختلفة حتى يأتى على جميع المعانى التى يحتملها المقام

وكان يرى ان هذا الفن هبة واستعداد ، وان الرجل الذى أوتى هذه الهبة يلحظ الانحراف مهما دق فى اخلاق المرء أو فى خلقه أو فى بعض عمله أو حديثه ، أو فى أى شىء من الاشياء ، فسرعان ما يسوى له بخياله صورة مكبرة مهما تبعد فى شكلها عن الاصل فهى متصلة به بسبب أو باسباب . وقد يخلق المنكت الحديث خلقا ، ولكنه انما يترجم به عن حال من يتندر عليه . ولقد تجىء النكتة فى صورة جواب مسكت استنادا الى حال واقعة ، أو تأتى فى شكل ملاحظة لطيفة . ولقد تجىء بالاشتقاق اللفظى ، أو من تحريف اللفظ عن جهته كما روى عن المرحوم محمد البابلى انه سمع المغنى يقول : « أهل

السماح الملاح دول فين أراضيهم ؟ » فأجاب من فوره : « فى البنك العقارى » !!

وقد تقع النكتة بالمقابلة والطباق ، فقد اخترع رجل طريقة سهلة لترويق الماء ، وكان محمد البابلى يستثقل ظله ، فقال :

ــ بقى يا اخوانا . الراجل ده يروق الميه ، ويعكر دمنا !..

بعض أفاكيه البشرى ومداعباته

ولفقيد الأدب عبد العزيز البشرى أفاكيه ومداعبات تناقلها الكثيرون عنه وعن حافظ ابرهيم أو عنهما مع المرحوم محمد البابلى . وقد كان الثلاثة أصدقاء غير ان بعضها مدخول عليهم ، وهى مشهورة غير انى أروى للقراء بعض ما سمعته منه مما لا يعرفه الكثيرون ، فقد حدثنى ذات يوم انه كان واقفا ينتظر الترام فى الزمالك ، فامتد الانتظار به ، حتى تبرم بوقوفه . وبينما هو على هذه الحال اذا بسيارة فخمة يسوقها شاب وبجانبه فتاة ، فأشار رحمه الله اليهما ، فوقفت السيارة ، فتقدم منهما ، وقال :

ــ لازمش لحضرتكم عذول ؟!..

فضحك الشاب والفتاة ، وانطلقا بسيارتهما مع الريح تاركين العذول يحرقه الانتظار

وروى البشرى انه كان فى الترام ، فقابله لحاد (تربى) يعرفه ، فسلم عليه ، واقبل يحييه بما جرت به عادة الناس ، فقال له (التربى) فى رد التحية : « احنا والله يا استاذ فى الخدمة » فقال له البشرى : « الله يحفظك » فأجاب التربى من فوره : « ربنا لا يحرمنا منك » !!..

وقد تولى كتابة أحاديث رمضان فى السياسة الاسبوعية ، وفى جريدة المصرى ، فكان لا يكد اذهان الصائمين بالبحوث الفقهية ، ولا بالمواعظ المنبرية ، بل كان فى الكثير يعمد الى الترفيه عنهم بموضوع اجتماعى فى أسلوب طريف ، يعرض فيه بعض مشاهداته وتجاربه النادرة ، ونظراته السديدة . وكانت له طريقة فى النقد اللاذع يسوقه فى مداعبات وغمزات فكاهية صائبة . ومن ذلك ما كتبه بعنوان : « شعراؤنا والندابات » وقد أخذ على بعضهم مواقفهم الكثيرة فى المآتم والافراح حتى لم يبق لهم فى الشعر الا هذه المواقف ومن ذلك قوله :

« الحمد لله . لقد أصبح عندنا « طقم » شعراء لا يقل استعدادا ولا سرعة اجابة فى المهمات عن « موسيقى حسب الله » تمشى فى الزفف كما تمشى فى الجنائز ، وتعزف دائما على حسب الاحوال بالمطرب والمحزن من الالحان

« أمسى طقم الشعراء من ضرورات الحياة عندنا ، يخف للدعوة ، وينشط للشعر هناء لكل معرس ، وترحيبا بكل قادم ، وتكريما لكل مولع بالظهور ، ورثاء لكل ميت ، ولا يبعد أن تتسع غدا هذه المهنة فيحل شعراؤنا محل جماعة « شوبش » فى صبيحة العرس ، و « صلوا عليه سعيد » فى موكب « المطاهر » !

« ولعل شعراءنا المجيدين يتخذون لهم محلا مختارا حتى يكونوا تحت طلب « الزبون » فى كل وقت . فلا يتعبوا أصحاب الافراح ، ولا أهل الموتى فى التماسهم وطول البحث عنهم .. ولقد أصبح وجه الشبه شديدا بين طائفة من شعرائنا وطائفة الندابات فى مصر . وهل جاءك ايها القارىء نبأ السيدات : « حطبة » و « حنطورة » و « أم امام » و «بتبت» و « دجدجة » ؟

« انهن لا ينقصن عن شعرائنا بديهة ولا حضور قول ، واكثرهن كذلك تشتغل نائحة فى المآتم ، وعالمة فى الافراح .. والشىء بالشىء يذكر ، فلقد اتصل بنا ممن لا يشك فى روايته ان المحلات التجارية الكبرى رأت ان تتخذ من الندابات أحسن ركلام عند من يشترين المناحات من السيدات . لذلك تراهن ينتهزن الفرصة فى موت احدى العذارى ، فيقلن فيما يندبن مثلا :

(يالى ماالحقتيش تتهنى يا حلوه . يالى ماالحقتيش تتمتعى يا عروسه . يالى ماالحقشى أبوك يفرح بك يا شبه ويجهزك من محل فلان ..

(يالى ماوعتيش لما يشتريلك الطقم اللاكيه الى على الشمال والواحد داخل يا حلوه

(يالى خطفك الخطاف قبل « الاوكازيون » الى فيه الحاجه هناك بتراب الفلوس يا عروسة !)

« وما يدرينا فلعل تجارنا واصلون غدا الى أن يؤجروا بعض شعرائنا ليصنعوا لهم ركلاما عن بضائعهم وموداتهم فى حفلات الاربعين ، فينشدوا مثلا :

« ولقد تخرمك المنية قبلما تهنا بما جلبوا اليك وأطنبوا »
« لجهاز عرسك كل غال قيم جادوا به فمفضض ومذهب »
« من عند سمعان الشهير وبعضه من شيكوريل أعز ما يتطلب »

ومن هذا الباب كثير مما حوى غمزا ونقدا وفكاهة مثل : « التعاقيل والمتطافلون » ، و « الباعة المتجولون » ، و « الشحاذون » ، و « الى الحكومة » ، و « اقتصاد سياسى » الخ

وقد توخى فى ذلك كله التهذيب الخلقى ، والتوجيه القومى الى رقى الأمة واصلاح ما فسد من حياتها الادبية والاجتماعية ، على أنه فى كل ما غمز به ، ونقد فيه نواحى الحياة العامة لم يتناول عرضا شخصيا ، ولم يمس فردا فى نفسه أو أهله ، بل نأى عن ذلك وعاش طول حياته مكرما لنفسه ولغيره ، محبوبا من الجميع . ومع أنه قسا على بعض الطوائف كالشعراء فى هذا المقال الا انه استغفرهم وأقر بفضلهم ، وأعلن أنه ينتقد حالا من الحالات يراها فى قومه ، فيعمد الى نقدها واصلاحها وهو ما يجب أن يكون هدف الاديب ورسالته فى العصر الحديث

طاهر الطناحى

جنكيز خان

القائد الذى ابتكر فنون الحرب الحديثة

قال الجنرال دوجلاس ماك آرثر : « لو أزيلت من صحائف التاريخ جميع المعارك الحربية ، فيما عدا معارك جنكيز خان ، لظل فى وسع الجندى الحديث أن يجد منجما خصيبا يستخرج منه كل ما يريد أن يعرفه فى تكوين الجيوش وخوض الحروب وكسب المعارك »

فلا يمكن للجندى ، فى نظر ماك آرثر ، أن يتعلم حرفته بمجرد التدريب والممارسة . ومع أن أدوات القتال تتغير من عصر الى عصر ، الا أن للحرب قواعد وأصولا لا تتغير ولا تبلى . وهذه هى المبادىء التى يجب أن يرجع الجندى الى كتب التاريخ وأسانيده ليعرفها ويدرسها . وسوف يجدها على أكمل ما تكون دقة ووفاء فى سيرة جنكيز خان الذى عاش منذ سبعة قرون

فقد كون جنكيز خان بالحرب والغزو أعظم امبراطورية شهدها التاريخ ، اذ كانت أطرافها تترامى من شواطىء المحيط الهادىء الى أواسط أوربا ، مشتملة على أكثر ماكان يعرف من أرض العالم ، وعلى أكثر من نصف سكان المعمورة حينذاك

وقد انتهى أمر نابليون بالهزيمة ، أما جنكيز خان فلم يخسر معركة واحدة

ولم يمت جنكيز خان الا شيخا مسنا ، وقد بلغت انتصاراته الحربية ذروتها ، كما بلغت امبراطوريته أقصى سعتها وأوج مجدها

وكان قيصر والاسكندر مدينين لاسلافهما الذين أورثوهما العروش وكونوا لهما الجيوش ومهدوا أمامهما طرق الفتح والانتصار . أما جنكيز خان فأنشأ عرشه بنفسه ، وبنى جيشه بيده ، ولم يكن لاسلافه عليه يد ما

وكانت جيوش أعدائه تتفوق دائما على جيوشه فى عدد جنودها ، فلم يتيسر له أن ينزل الى ساحة الحرب أكثر من مائتى ألف جندى ، ولكنه استطاع بهذه القوة الصغيرة أن يحطم ويقوض امبراطوريات حاشدة بملايين الافراد . فهو على الارجح أعظم جنود التاريخ نجاحا

ومعنى كلمة جنكيز خان « الحاكم الاعظم » . وهو اسم اختاره لنفسه ، أما الاسم الذى أطلقه عليه أبوه فهو « تيمو جان »

كيف نشأ جنكيز خان

وقد مات عنه أبوه ، بسم دسه له أعداؤه ، وما زال ابنه فى سن الثالثة عشرة . ولكنه كان حينئذ مكتمل البنية شديد المراس ، يقضى يوما كاملا على متن جواده ، ويجيد تفويق السهام ولقاء المنازلين . وكان الى هذا قوى الروح عارم الارادة ، فحزم أمره على أن يخلف أباه فى رئاسة قبيلته الصغيرة التى كانت تهيم فى مراعى آسيا وهضابها ، ولكن رجال القبيلة أبوا أن يسلموا قيادهم لهذا الفتى الناشىء ، أما القبائل الاخرى فتوجست منه شرا وأخذت تكيد وتدبر له أمرا ، وراح رجالها يتعقبونه فى تلك الفيافى كأنما يطاردون صيدا ، حتى اذا وقع فى أيديهم ذات مرة لم يسفكوا دمه ، بل وضعوا على عنقه نيرا ثقيلا من الخشب وثبتوا فيه معصميه حتى لا يملك فكاكا منه ولا حراكا ، وأقاموا عليه حراسا يمنعونه من الفرار فيهلك فى الصقيع تعذيبا وتنكيلا . ولكن لما جن الليل نهض الفتى بما يثقله من النير ، وراح يضرب به من يلقى من الحراس فيرديهم قتلى ، حتى تيسر له الفرار وما زال النير مثبتا على عنقه الى أن صادف صيادا فرفعه عنه وفك عنه الوثاق

وهكذا أمضى الفتى حياته الاولى هائما فى الفلوات ، يتألب عليه أهله ويكيد له عدوه ، دون أن يفت هذا فى عضده أو يرجعه عما عزم عليه أمره ، وهو أن يتولى زمام قبيلته أولا ، ثم يثأر من قتلة أبيه ثانيا ، ثم يقيم نفسه حاكما على آفاق الارض وأهليها

وقد أمكنه فى سن العشرين أن يؤلف حوله أهل قبيلته يشدون أزره ويأتمرون بأمره . ثم أخذ يحارب تارة ، ويتآمر تارة ، ليجمع من حوله القبائل الاخرى . ولم يبال فى هذا أن يسفح دم أى شخص يناوئه ويعاديه ، أو يطمع فى أن يشاركه السلطان الذى أراد الانفراد به وحده

ومضت السنون وهو ماض فى توطيد حكمه وملكه حتى دانت له فى سن الخمسين جميع قبائل آسيا الوسطى ، وأقام لملكه عاصمة فى وسط سهول منغوليا هى مدينة « كراكوم » التى كانت تعرف باسم « مدينة الرمال السوداء » ، وهى ملتقى طرق القوافل وسوق رائجة لعروض التجارة فى هذه الآفاق

وكان جنكيز خان فى هذه السن رجلا صلب العود قوى الاجلاد ، يتدثر بفراء الغنم وجلود الماعز ، ولا يخفى من هذا الغطاء الخشن وجهه الناحل الصلب ، فعليه كساء من الشعر ، لا تظهر منه سوى عينيه البراقتين فى محجريهما الضيقين ، وقد احمرت حوافهما من كثرة ما ينفذ اليهما من غبار تلك الفيافى السوداء ، وما كان يتكلم الا قليلا ، ولا تخرج كلماته الا بعد صمت طويل وترو عميق ، وكأن وراء كل كلمة من كلماته أمرا يدبره أو مكيدة يحيكها !

وهكذا صار جنكيز خان فى الخمسين من عمره سيد آسيا غير منازع ، تدين له جميع قبائلها بالطاعة ، ولا تجرؤ احداها على أن تعصى له أمرا . ولكن لو وفق أحد خصومه

فأصابه حينئذ بسهم يرديه قتيلا لما عرفنا الآن من أمره شيئا ، ولذهب فى غمار التاريخ منسيا مجهولا ، ذلك أن أعظم أعماله وأمجد فتوحه ما قام به بعد ذلك فى الاعوام الستة عشرة الاخيرة من حياته . فقد امكنه فى هذه السنين ان يوجه القوة الحربية الهائلة التى كونها وأعدها الى فتح العالم المعروف حينذاك

فالى الشرق من ملكه تترامى أقاليم الصين التى كانت تقسم حينذاك امبراطوريتين : كين فى الشمال وسنج فى الجنوب . فسير جنكيز خان فرسانه وأجناده ، فشقوا طريقهم فى سور الصين الكبير ، وانسابوا منه هائمين فى أرجاء الصين، حتى احتلوا عاصمته الشمالية « بكنج » فلاذ الامبراطور بالفرار ، وكان النصر حاسما مؤزرا .

وبعد ذلك بثلاث سنوات اتجه جنكيز خان الى الغرب حيث تترامى الاقاليم الاسلامية، فلم تنقض شهور قلائل حتى وقعت « سمرقند » فى قبضته وفر سلطانها هاربا

وأخذت جيوشه بعد ذلك تهيم غازية فاتحة فى الهند جنوبا ، وفى بلاد الاسلام غربا ، ثم تصعد شمالا فتنفذ الى قلب روسيا ووسط أوربا ، وهى فى هذا كله لا تعرف معنى للهزيمة أو الوقوف . فما السر فى هذه القوة الخارقة ، وما السر فى هذا النصر المطرد المؤزر ؟

عناصر نجاح جنكيزخان

لعل مرجع هذا الى ما وهبه جنكيز خان من قوة العزم وشدة الارادة ، وما امتاز به من حيوية الجسم والعقل ، ومن صرامة فى حكمه وقضائه . ولكن السبب الحقيقى يرجع الى ما ابتكره جنكيز خان فى فن الحرب من طرائق وأساليب فوقته على أعدائه الذين يفوقونه عددا وعدة

كان جنكيز خان أول من حشد الشعب بأسره فى سبيل الحرب ، أى أنه ابتكر منذ سبعمائة سنة هذه « الحرب الشاملة » التى لا تدور رحاها فى جبهة القتال فحسب ، بل فى الجبهة « المدنية » كذلك . وان المرء ليجد كثيرا من وجوه الشبه بين هذا الفن الحربى الذى ابتكره جنكيز خان وبين الفن الحربى الذى تقوم عليه الحرب الحديثة ، حتى ليمكن أن يعد هذا الجندى المغولى استاذا لمن تدوى باسمائهم آذان العالم فى الوقت الحاضر من قواد الجيوش

ففى جبهة القتال كان فنه الحربى يعتمد على « الجواد » الذى وجد فيه خير أدوات القتال اذ لا يكل من السير والعدو ، ومن الكر والفر ، وفى وسعه أن يظل فى ساحة القتال ثلاثة أيام متواصلة لا يقتات بشىء الا بما تنبش عنه حوافره فى الثلوج والصخور من الحشائش الجافة . وكذلك درب فرسانه خير تدريب ، حتى صاروا يظلون على صهوات جيادهم الايام دون اعياء ، ويروحون خصاما أياما متتالية لا يذوقون سوى جرعات من الماء

وكان كل جندى من جنوده يحمل قوسين ، أحدهما عند ما يكون راكبا جواده ،

والآخر عند ما يترجل على قدميه . وكان للقوسين ثلاثة أنواع من السهوم ، ما بين طويل وقصير ووسط بين الاثنين ، ولكل منها عمله حسبما يكون العدو قريبا أو بعيدا

وكان الجندى يحمل معه جراية من اللبن المجفف يتناول منها قوته اليومى فى ساحة القتال ، كى لا يثقل الجيش بحمل مؤونة الجنود ، وكى يستطيع الجندى أن يواصل منازلة عدوه أياما دون ان ينقطع لتناول الطعام

وكذلك كان يحمل الجندى ما يلزمه من الاقواس والسهام فى حقيبة صغيرة من الجلد، يستطيع أن ينفخ فيها ، فاذا بها قارب يعبر عليه ما يعترضه من مجارى الماء !

وقد قسم جنكيز خان جيشه وحدات متفاوتة العدد ، فمنها ما يتألف من عشرة جنود ، ومنها ما يشتمل على مائة جندى ، ومنها وحدات كبيرة فى كل منها ألف جندى . وكانت هناك الى جانب الفرق المحاربة فرق من الجنود المساعدة ، أى من المهندسين والاخصائيين الذين يعدون أدوات القتال ، وأدوات الحصار ، وما يلزم فى هذا وذاك من متاريس وحواجز . وكان الشعب من وراء ذلك يكرس كل همه وجهده فى امداد الجيش بما يلزمه من مؤونة وذخيرة ، ويفرض على نفسه التقتير والحرمان

أما « التكتيك » الذى ابتكره جنكيز خان فكان آية فى دقته واحكامه ، فكان يقسم جيشه خمسة أقسام ، يفصل بين كل وما يليه مسافة طويلة ، وتتقدمها كتائب الهجوم المفاجىء ، وهى مسلحة بأفتك الاسلحة من سيوف ورماح ، أما قاذفو السهام فكانوا فى مؤخرة الجيوش حيث يرسلون سهامهم من فوق الرؤوس الى حيث تصيب الاعداء فى مقاتلهم . ويمكن أن تشبه فرقة قاذفى السهام فى الحرب الحديثة بفرق المدفعية التى تقوم فى مؤخرة الجيش ، بينما تقف فرق الدبابات فى المقدمة لتشق طريقها وسط صفوف الاعداء ، وكذلك كان يفعل جنكيز خان ، فاذا ما تهاوت السهام على العدو فأوقعت الفوضى فى صفوفه ، أسرعت كتائب الهجوم الامامية فشقت طريقها وأعملت سيوفها ورماحها

وقد كان التعاون بين فرق جنكيز خان وثيقا دقيقا ، ولم تكن تتصل بعضها ببعض بالنداء والصياح كما كان الشأن فى الجيوش القديمة ، بل كانت تستعمل أعلاما بيضاء وسوداء تلوح بها وفق ما تعارفت عليه

وبالرغم من قلة عدد جيوش جنكيز خان عن عدد جيوش أعدائه ، الا انه استطاع أن يظهر عليهم فى جميع ما خاض من المعارك ، وذلك بمقدرته على ايقاع الرعب والفوضى فى صفوفهم مما يكرههم على التفرق والتشتت ، بينما يكون جيشه موحد القوى مركز الاتجاه . وكان جنكيز خان فضلا عن هذا أستاذا فى الخدعة والحيلة ، فما كان يضرب بتاتا حيث يتوقع العدو ضربته ، بل يوجهها دائما الى المواقع التى أغفلها عدوه استهانة بشأنها

ولا شك أن من عوامل انتصاره السرعة الفائقة التى كانت ديدنه فى تسيير جنوده ، فقد كانت سرعة جيشه عادة ضعف سرعة جيوش أعدائه . وما كانت المعاقل الحصينة

لتؤخر زحفه ، بل كان يقنع بحصارها حتى تستسلم فيما بعد ، موجها سائر جيشه الى تعقب العدو ومطاردته دون هوادة وابطاء

فالجواد الذى اعتمد عليه جنكيز خان ، والفرسان الذين أعدهم للقتال منذ نعومة أظفارهم ، وأدوات القتال التى أعد بها جنوده ، والطرائق التى ابتكرها فى تقسيم الجيش وتوزيع العمل على كتائبه ، والسرعة التى كان ينقل بها جيشه من ساحة الى ساحة ، والخدع التى برع فيها توهينا لقوى أعدائه وتركيزا لقوى جنوده ـ هذه هى العناصر التى حققت له انتصاراته الساحقة

ولكن لا ننس أنه كسب كثيرا من معاركه قبل أن يخوض غمارها ، فقد برع فى استعمال « الكلمات » مثلما برع فى استعمال أدوات القتال . والحق ان هذا البربرى الذى ما كان يعرف القراءة والكتابة كان نابغة من نوابغ الدعاية

الطابور الخامس وسلاح الدعاية

لقد ابتكر هذا الرجل « الطابور الخامس » . وكان مؤلفا من قوافل التجار التى كان يرسلها الى الاقاليم المجاورة ، حيث تبث دعايته وتؤلف له فيها الأنصار والمؤيدين . وكان اذا أراد أن يهاجم اقليما درس شعبه دراسة وافية ، وتعرف الى ما فيه من عناصر التذمر والتمرد ، ليستعين بها فى تشتيت كلمة الشعب وتمهيد طريق الغلبة عليه

ذكر مؤرخوه أنه عند ما أراد أن يغزو بلاد الاسلام ، علم ان ثمة نفورا بين السلطان وأمه التى كانت تنازع ابنها بعض أمور الحكم والسيادة ، فأرسل اليها يمنيها بالوعود والامانى ، ويوسع شقة الخلاف بينها وبين ابنها ، فلما دخلت جيوشه تلك الاقاليم وجدتها فى حرب أهلية يسرت له النصر العاجل الحاسم

وعند ما أراد مهاجمة الصين اكتشف عيونه أن وزير الحربية يختلس من أموال الدولة فأذاعوا الخبر وساقوا فيه القصص والروايات ، فلم تلبث أن قامت فى الصين أزمة سياسية عنيفة استأثرت بتفكير الخاصة والعامة ، بينما كان جنوده يهاجمون البلد ويزحفون فيها زحفا موفقا

وكان لجنكيز خان فى كل بلد « كويزلنج » يخون وطنه التماسا لرضى الفاتح الغازى . وكان يتألف هؤلاء الخونة برشى من الأموال والمناصب يشترى بها أوطانهم

وكذلك اتخذ الدعاية سلاحا يوقع به الرعب فى قلوب أعدائه . فكان أعوانه يخبرون فى البلد الذى يريد أن يفتحه أن لا فائدة من القتال والمقاومة ، وانه مقضى عليه بالهزيمة والاندحار ، وان خير سياسة هى الاستسلام والتسليم ، مذكرين الناس بما لقى من سبقوهم الى المقاومة من ضروب الاذلال والتعذيب . وكانت الصيحة التى تسبق جيوش جنكيز خان تتلخص فى هذه الجملة : « اما أن تسلموا واما أن تبادوا » . فاذا خدعت هذه الكلمة أعداءه فسلموا ، أعمل فيهم سوط عذابه حتى يبيدهم !

وكما كانت الدعاية سلاحه فى اضعاف قوة أعدائه ، كانت سلاحه فى بناء القوة المعنوية فى رجاله . وقد أمكنه بالدعاية ان يجعل الناس ينظرون الى مهنة الجندى نظرة التمجيد والتعظيم ، ويرون أن واجبهم أن يعملوا ويجهدوا ليمكنوا هذا الجندى من البقاء فى ساحة القتال الاعوام الطوال ، موفور المؤونة مكتمل السلاح والذخيرة

وكذلك علم جنكيز خان قومه أنهم سلالة جنس أرقى واسمى من سائر الاجناس ، فمن حقهم ، بل من واجبهم ، أن يحكموا جميع الشعوب والاقوام

ولم يتحرج جنكيز خان عن شر ضروب القسوة والعذاب ينزلها بأعدائه جميعا ، فاذا قاومته مدينة من المدن أشعل فيها النيران حتى اذا وقعت فى يده أطاحت سيوف رجاله رؤوس كل من فيها من رجال ونساء وأطفال . وما كان يترك مدينة من المدن حتى يفنى أهلها ، فكان يبقى فى كل مدينة بعضا من رجاله ليفتكوا بمن اختبأ من أهلها ، وكان هؤلاء يرسلون نفرا منهم يصيحون فى أرجائها أن العدو قد تركها ، فخرج الناس الى الطرق آمنين ، فاذا برجاله ينقضون عليهم ويعملون فيهم سيوفهم وخناجرهم . وكان من دأبهم أن يقطعوا رؤوس الناس حتى لا ينجو منهم من يتظاهر بالموت . وقد ذكر مؤرخوه أن رجاله ذبحوا فى مدينة واحدة خمسمائة ألف نسمة ما بين رجل وامرأة وطفل

وظل جنكيز خان فى حروبه وغزواته حتى مات فى أثناء احداها فى سنة ١٢٢٧ وله من العمر ستة وستون عاما

ولكن ما من شك فى أن الفن الحربى الذى ابتكره جنكيز خان سواء فى ساحة القتال أو فى اعداد الجيش والشعب ، أو فى تحطيم قوى العدو « سيظل ـ كما يقول الجنرال ماك آرثر ـ صالحا للعمل والاهتداء به فى جهدنا الحاضر فى انشاء جيش كفء ، كما كان صالحا منذ سبعة قرون خلت ، وذلك بعد تنقيته مما علق به من المذابح المروعة والبربرية الباطشة » . واذا عرفنا أن ليس فى اللغة الانجليزية سوى ترجمتين أو ثلاث لحياة جنكيز خان ، بينما فى الالمانية خمس دراسات متصلة بفنونه ومعاركه الحربية ، أمكننا أن ندرك الى أى حد أفاد الالمان من هذا الجندى الكبير

(خلاصة مقال بقلم ادوين مولر فى صحيفة اميركان ليجيون)



ستتمرد المرأة المصرية على الدنيا التي بناها الرجال ، وتصر على أن تشترك في بناء العالم من جديد . . وسيراها القرن الحادي والعشرون قد فتحت بابين موصدين اليوم أمامنا : أما الأول ، فهو باب الأزهر . وأما الثاني فهو باب البرلمان

نساؤنا في آخر القرن العشرين

بقلم الآنسة ابنة الشاطىء

لم يخطر هذا الموضوع على بالي قبل أن تقترحه على مجلة الهلال الغراء : لقد كنت من بين أفراد الطليعة الضاربة في تيه الانتقال ، فشغلتنا أهوال التيه عن التفكير في الامس كيف كان ، والغد كيف يكون ، حتى اذا أتممنا الرحلة ووصلنا الى آخر الشوط ، وقفنا نصغي الى أنين الضحايا ممن تخلفن عن الركب وسقطن صريعات فوق الصخور والاشواك والرمال ، فأمست أشلاؤهن معالم هادية في الطريق المظلم الوعر ، وغدا حطامهن جسرا آدميا نحيبا تعبر عليه المرأة المصرية من الجهالة العمياء الى نور العلم والعرفان

وعسير على من سمع هذه الاشلاء النائحة ، ورأى ذلك الحطام المنهار ، أن تشوقه رؤى الغد ، ويطيب له الحديث عن التفكير في المستقبل ، اللهم الا أن يعصمه جمود الحس ، وتتهيأ له نعمة النسيان ، وهيهات ! . .

فليكن حديثي اليوم مرثية للشهيدات المجهولات ، وتحية لأشلائهن الممزقة ، وحطامهن المنهار !

□□

نساؤنا بعد نصف قرن من الزمان

ماذا يكون من أمرهن ، والى أين تنتهي بهن هذه السنون الطويلات ؟!

انها رحلة مطوية في ضمير الغيب ، يشق السير فيها بغير دليل ، فليكن لنا دليل من ماضينا القريب ، ولنعد الى الوراء نصف قرن ، لنرى ما فعلت بنا الايام ، في هذه الحقبة من الزمان

نحن الآن في عام ١٩٠٠ على التحديد ، وقد توقفت عجلة الحياة في مصر برهة ، لان أهلها وقفوا يتفرجون على فتاة مصرية واحدة ، نالت الشهادة الابتدائية في ذلك العام ، لاول مرة في تاريخ البلاد

ونشر « المؤيد » في تلك المناسبة ، قصيدة للتلميذة النابغة ، تفخر فيها بأنها « ساوت الرجال في التعليم »

وتمضي سنوات معدودات ، فنسمع « الشيخ عبد الكريم سلمان ـ رئيس تفتيش المحاكم الشرعية في ذلك الحين » يسجل ظاهرة أخرى غريبة ، اذ يروى عن شيخ مسن أنه ذهب ـ وهو شاب ـ الى احدى الأسواق ، فعجب اذ رأى امرأة في السوق ، « وما عهدها من قبل ذلك النهار الا قعيدة البيت » ولما قص على أبيه القصص ، قال له أبوه : « يا ولدى لا تعجب ، فانا قربنا من آخر الزمان ! »

□□

على أعقاب هذا الجيل ، جاء جيلنا الذى أيقظ دعوة « قاسم أمين » الثائرة ، وغذى النار الخابية باللحم والدم !

ومن أبناء هؤلاء الرجال والنساء ، تألفت مواكب الفتيات المتعلمات اللاتى تضيق بهن المدارس اليوم

ومن تلك الامية السائدة ، بدأنا رحلتنا الشاقة ، فاندفعت جوعنا في سرعة هوجاء ، تقتحم المدارس الاولية والابتدائية والثانوية ، حتى أدركت أبواب الجامعة ، فاقتحمتها ألوف منا ، وبدأت الطلائع تستبق في ميدان الدراسة الجامعية العليا

وتجاوزنا ـ في هذا العمر القصير ـ حدود الحجاب وجدران الخدور ، وأسوار التقاليد، الى آفاق الدنيا وميادين العمل ، حتى غدت الواحدة منا يباح لها السفر ـ وحدها ـ الى أوربا وأمريكا ، والشام والعراق ، حرة طليقة سافرة ، وقد كانت أمها تشكو الحرمان من زيارة آلها وذويها ومن أداء فريضة الحج

كل ذلك فعلته المرأة المصرية في النصف الاول من القرن العشرين ، فماذا تراها فاعلة حين يصل بها الزمن الى آخر القرن ، وان العام الواحد من أعوام عده ليعدل قرنا كاملا من قرون ماضية ؟!

□□

قافلتنا اليوم متعبة ، قد أثخنتها الجراح ونال منها الاعياء ، لكنها لا تملك ـ مع هذا ـ أن تنكص على عقبها وتعود أدراجها وتستقبل من أمرها ما استدبرت ، لان ما بينها وبين ماضيها قد انقطع ، ولن ترضى أن تعود من حيث جاءت ، الى وادى الظلمات ، عبر التيه المخوف

بل ليس في طاقتها أن تكف عن السير أو تقف لتستريح ، لانها تنزلق في المنحدر الوعر ، والزمن يمضى بها غير مكترث بما تعانيه

ويرى الاكثرون أن ما بقى من هذا القرن ، كفيل بتهدئة سورة الانفعالات الحادة التى كابدتها المرأة الجديدة ، والتيارات العنيفة التى تعرضت لها في عصر الانقلاب

لكنى من أقلية محدودة العدد ، تستبعد أن يشهد الجيل المقبل خاتمة الصراع ، وأن تستقبل نساؤنا القرن الحادى والعشرين ، وقد اطمأن بهن المكان في العالم الجديد ، ونعمن بالراحة والاستقرار

ويدفعنا الى ذلك الاستبعاد أمران :

أحدهما من طبيعة الانقلاب الحاضر ، والآخر من طبيعة هذا الغد القريب الذى تندفع نحوه جماعة النساء ، اثر حركتها الجامحة فى جيلنا هذا

لقد كان الانقلاب عنيفا عاتيا طاغيا ، زادته السرعة والاندفاع والطفرة والجموح ، عنفا وعتوا وطغيانا ، فمن البعيد جدا أن تزول آثاره وتهدأ سورته فى قطعة من الزمان ، هى بطبيعتها أبعد الأوقات عن الهدوء المحتمل والاستقرار المظنون ، لأنها ـ فى ذاتها ـ ستكون عهد ثورة جامحة وانقلاب خطير فى تاريخ البشرية ، حيث تشهد نتائج النضال الهائل الرهيب ، الذى يحتدم اليوم بين أعنف قوى شهدها الانسان فى ماضيه الطويل

أسمع من وراء السحب ، نذر عاصفة هوجاء . .

وألمح على أفقنا البعيد ، ثورة عاتية صماء . .

ولن ندرك نحن هذه الثورة ، لكنى أحس بوادرها تضطرم وتضطرب فى كياننا . فمنا من تنكر هذا المنهج الضال الذى ارتجله الرجل لحركة الخروج ، والاسلوب الشاذ الذى اصطنعه فى معاملتنا بعد أن تميزت شخصيتنا ونضج كياننا

أليس من الغريب انه علمنا كل شىء ، الا ما يمس حياتنا فى الصميم ؟

علمنا الطب والفلسفة والصيدلة ، ولم يعلمنا بناء الأسرة !

وحدثنا عن ألغاز الرياضيات وأسرار الطبيعة والكيمياء ، ولم يحدثنا بكلمة واحدة عن شخصية الانثى كما رسمتها السنن الطبيعية ، والأوضاع الانسانية ، والحدود الشرعية!

وفتح أمامنا أبواب معاهد الطيران والتجارة والتمثيل ، وأغلق دوننا أبواب المعاهد الدينية ، وانه ليعلم أننا فى بلاد شرقية اسلامية ، يستقل الدين فيها ، برسم نظام الأسرة ووضع حدودها ! ويفصل « القاضى الشرعى » بين أفرادها فى أمور الزوجية والبنوة والحضانة والنفقة والميراث

ثم ، أليس من الغريب أن ينكر الرجل اليوم أمرنا ، بعد أن استجبنا لما أراد ؟ وأن يحاول ردنا الى مكان أمهاتنا وجداتنا ، وقد انقطعت بيننا وبينهن السبل ، وهو هو الذى دعا ووجه وحرك وأراد !

ألا لا يحسبن الرجال أن المرأة سوف تسكت على هذا ، وتترك مصيرها ، معلقا بكلمة تخرج من أفواههم ، وتدع ابنتها ـ من بعدها ـ تعثر فى ذلك الضلال ، وتواجه تلك الاعاصير والأنواء

□□

بيننا وبين القرن الحادى والعشرين ، حقبة طويلة من الزمان ، تقطعها الحياة فى مرحلتين ويمر بها جيلان متعاقبان

والمرأة فى الجيل الاول ، هى التى تعانى آثار الاخطاء الكبيرة التى لابست الحركة الحاضرة ، وتتعرض لأزمة نفسية قاسية عصبية

ثم تأتى ابنتها من بعدها ، فتعلن الثورة ، وتشعل النار . .

ستثور فى امرأة الجيل المقبل ، فطرتها الموروثة وتحاول أن تنأى بها عن صخب العمل، وغبار المعترك ، وضجة الميدان ، مدفوعة الى ذلك بقوة قاهرة من ميراثها العصبى والنفسى، الذى انحدر اليها من أمهاتها ، على مر الحقب والدهور

لكن هذه الفطرة الثائرة ، سوف تصطدم فى كيان المرأة ، بعقلها الحديث ، وشخصيتها الجديدة التى تنأى بها عن الجمود والتعطل ، وتهفو الى الحركة والنضال ، مدفوعة بقوة غالبة من ثروتها المستحدثة التى كسبتها فى عصر النور والعرفان !

وسيكون كيان المرأة ، ميدان هذا الصراع : بين فطرتها السليمة البارثة ، وعقلها الناضج الممتاز . . بين ميراثها النفسى والعصبى القديم ، وثروتها العقلية الجديدة

ويطول النضال حتى يستغرق الجيل الآتى كله ، ثم تكون الغلبة أخيرا للعقل ، وتلك هى كلمة الزمن وحكم التطور . .

يومئذ تندفع المرأة ، فى أواخر القرن العشرين بقوتها الطارئة ، فى ثورة عاصفة ، تشعل نارها بيدها الناعمة ، وتذكى لهيبها بالاعصاب والدماء !

وسوف تبدأ هذه الثورة ، بالخروج على الدنيا التى استقل الرجال ببنائها يوم كانوا وحدهم فى الميدان ، ثم يريدون اليوم أن يفرضوها على المرأة الجديدة ، التى خرجت وتعلمت وعانت وتميزت وطمحت !

ستتمرد المرأة على الدنيا التى بناها الرجال ، وتصر على أن تشترك فى بناء العالم من جديد

وستنتزع منهم زمام القيادة فى الحركة النسائية ، لانها ستسمع فى مهدها قصة الرحلة العمياء ، والسباق المرتجل ، والانوثة الحائرة المضيعة ، والرجولة التى كشفتها المعركة ! حتى اذا بلغت أشدها ، اندفعت ـ ثائرة متهورة ـ تثأر لامها وتحمى بناتها ، وتنتزع الزمام من أيدى الرجال ، لتجنبهن الاشواك والصخور ، وترسم لهن منهجا واضح الحدود ، بين المعالم متميز الاهداف

وهى لن تتردد ـ فى سبيل هذا ـ فى دفع أى ثمن ، وخوض أية معركة ، واقتحام أى ميدان . .

ستمضى فى الطريق الوعر الى النهاية ، وسيراها القرن الحادى والعشرون قد فتحت مغلقين موصدين اليوم أمامنا

أما الاول فهو باب الازهر ، تدخله عنوة ولو كره الرجال ، لتفقه الحدود الشرعية وتنتفع بها ، وتفسرها تفسيرا تراعى فيه مصلحتها كما فعل الرجل من قديم الزمان

وأما الثانى فهو باب البرلمان ، تدخله اثر معركة رهيبة تستشهد فيها الاثنى ، لتشترك فى توجيه الحياة الحديثة ، وبناء العالم من جديد

ويومئذ قد يثور الرجال ويسخطون وينكرون ، ويحاول نفر منهم أن يرد (المرأة الى رشدها) ويوقظ فطرتها الثائة

ولكن الزمن سوف يمضى بها غير مكترث بصياح الصائحين وسخط الساخطين ، وثورة الثائرين !

ولن تبرأ هذه الحركة العنيفة من الاخطاء ، ولن ينجو أهلها من فداحة التضحية وهول الاستشهاد ، فان المرأة سوف تتهور فى اندفاعها ، وتغلو فى مطالبها ، ثم يأخذها غرور الشخصية الجديدة فيفسدها على الرجل ، ويفسد عليها الحياة

انها ستنكر عليه انه لم يتفوق على أبيه وجده ، بقدر ما تفوقت هى على أمها وجدتها ، وانه لم يحقق فى نفسه معجزة شبيهة بتلك التى حققتها هى فى نفسها ، فى قرن واحد من الزمان

ولعل خطيئته الكبرى أنه لم يثب الى السماء السابعة ، حين شارفت هى سماءه الاولى

وأخيرا تفتقد ــ الرجل ــ فى دنياها ، وتتمثل فطرتها صورة رائعة له ، تبدو لها فى عالم المثل ، وتسعى اليها من أعماق العصور الغابرة ، وتتسلل الى كيانها فى أحلام اليقظة ورؤى المنام

ويا ويلها من هذه المحنة !

ويا ويل الرجل منها !..

ذلك هو طابع الثورة ، فى آخر القرن العشرين ..

ضحاياها من الرجال والنساء ، وأخطاؤها يشقى بها الفريقان على السواء ..

ان ثورة الأمس قد أشعلها الرجال ، وصلى بحرها النساء وحدهن ..

وغدا تدور الايام ، فتشعل النساء النار ، ويصلاها الرجال والنساء جميعا ..

وعزاء المرأة الوحيد ، انها تستشهد هذه المرة فى سبيل هدف تعرفه ، وتمضى الى ثورتها بارادتها وقد كانت بالأمس ، تدفع الى النار معصوبة العينين !

ابنة الشاطىء



طريقة التحليل النفسي الحديث في معالجة الأمراض العصبية ، أظهرت قيمة الاعتراف وأوضحت أهميته ، وساعدت الانسان على أن يعرف نفسه

الاعتراف والمعترفون

بقلم الأستاذ علي أدهم

يجد كل انسان راحة مستطابة ، ويستشعر متعة خالصة اذا تحدث عما يغشى نفسه من احساسات ملحة ، وما يعالج من خوالج شتى ، ووصف ما يضطرب في خاطره من افكار وما يهجس به من هواجس ، وكأن النفس تنفى بذلك همومها ، وتتخفف من اعبائها ، أو كأنها تحاول ان تقذف حممها وتبعثر شجونها لتفسح المكان وتخلى الطريق لتأثرات لا عهد لها بها ، وتجارب جديدة ، وتيارات طريفة ، ولكن كثيرا ما يحدث ان لا تجد احدى النفوس سبيلا الى التخلص مما ادها ، ولا تملك الاعراب عما خالجها ، والافضاء بما في نفسها ، وامثال هؤلاء الناس يستهدفون للامراض العصبية والعلل النفسية ، واعراض هذه الامراض البارزة هي اعراضهم عن قبول التأثرات الجديدة ، ومحاولتهم الاكتفاء باجترار احاسيسهم المؤلمة والتغذى بما يتادهم من خواطر وأوهام ، وكل علة مستعصية مزمنة من علل النفس مردها في النهاية الى سر من الاسرار غائر في اعماق الضمير ، متغلغل في ثنايا الفؤاد ، مغيب في ظلام اللاوعى ، وابو تمام يقول :

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد

وكذلك طول اقامة الاسرار في اغوار النفس مخلق لديباجتيها ، هادم لاعصابها ، مضيع لسعادتها وأمنها ، جلوب اليها الفشل من معادنه ، بل قد تتمخض مثل هذه الحياة عن فاجعة مؤثرة ، أو مأساة مروعة ، وفي افضاء النفس بما يكظها ويملأ شعابها لون من التجديد ، وضرب من التهوية والتصفية ، وابتعاث للنشاط وتحريك للشهية ، ولعل أكبر عزاء للشعراء والكتاب وسائر الفنانين هو انهم يستطيعون الى حد كبير ان يرسلوا انفسهم على سجيتها ، ويرخوا لها العنان في التحدث عن آلامهم وآمالهم ، والبوح بما يجول في خواطرهم ويطوف باخلادهم ، وتصوير ما يلم بهم من احاسيس ، وما يعرض لهم من ازمات ، فترتاح بذلك نفوسهم ، وتخف وطأة احزانهم ، وتنجلى همومهم ، وهم يجدون صعوبة ، ويلقون عنتا في محاولة رسم عواطفهم ، ووصف وجداناتهم وصفا دقيقا صادقا ، ولكن كلما راضوا تلك الصعوبة واستعلوا على ما يتصداهم من الحوائل والعقبات استروحت نفوسهم وهدأت خواطرهم ، وليس اشقى من النفس المغلقة المنطوية على احزانها العاكفة

على همومها ، والتى لا تجد متنفسا للشكوى ، ولا منفذا للاعتراف

وفى حياة الاطفال الصغار تبدو العوامل الخفية المعقدة التى تعمل وتؤثر فى حياة الرجال الكبار واضحة جلية ، ونفوس الأطفال مرآة مجلوة نستطيع ان نتبين فيها الكثير من ملامح الانسانية وصفاتها ، والاطفال لا يتقنون المداراة ولم ترغمهم الحياة بعد على مصانعة الظروف واخفاء الاحاسيس ، فهم لا يستطيعون ان يحتفظوا بسر ولا ان يكتموا أمرا ، وليس فى طوقهم ان يلتزموا الصمت ، ويتصنعوا الوقار والاتزان ، فاذا جهلوا شيئا سألوا عنه ، واستفسروا حقيقته ولم يتعمدوا اخفاء جهلهم وادعاء العلم والاستئثار بذخائر المعرفة كأن المطلوب من كل فرد أن يكون موسوعة حافلة متحركة ، ويعرض الاطفال عن هذا الضرب من النفاق واللون المضحك من الادعاء ، وهم كذلك أحكم من أن يحتفظوا بسر يرهق اعصابهم ، وينغص عليهم متعة تجديد الاحساس ، والترفيه عن النفس ، اما الرجال فانهم يأبون الا أن يحملوا الأسرار المضنية التى تحطم الاعصاب ، وتكرب النفس ، والسر عند الاطفال عبء لا يصبر عليه ، ولا يمكن احتماله ، فهم لا يستودعون سرا الا اذاعوه وضعف احتمالهم عن الاحتفاظ به وهذا هو سر مرحهم الدائم، وبشاشتهم المتصلة، وصفاء نفوسهم ، ونضارة حياتهم

والواقع أن الكبار مثل الأطفال يضنيهم احتمال الاسرار ، ويزعجهم ، ويقض مضاجعهم ، ويثقل على نفوسهم ، ويسرهم ان يتخلصوا منه على أى وجه من الوجوه وبأية صورة من الصور ، فاذا لم يبوحوا بالسر مباشرة ، ولم يقولوه صراحة بلا مواربة ولا لف ولا دوران التمسوا لذلك اسلوبا خفيا ، وطريقا معوجا ، واسلوبا رمزيا ، وركنوا الى الايماء والاشارة ، والتلويح والكناية ، مما لا تخفى دلالته على البصير بدخائل النفس ، والعالم بما تخفى الضمائر ، وقد روى أحد علماء النفس ان امرأة ارتكبت الخطيئة ، وعادت بعد ذلك على نفسها باللائمة ، وبكتها ضميرها ، واشتد ندمها ، ولكنها لم تستطع الاعتراف بجريمها فكانت لا تنى تغسل يديها فى مناسبة وغير مناسبة ، فقد استولت عليها فكرة انها قذرة ملوثة ، وانها غير طاهرة الذيل ، فهدتها فطرتها الى اسلوب من الاعتراف الرمزى غير المباشر التماسا لراحة النفس ، وتهدئة للضمير ، ولكنه اسلوب لا يفهمه الا الراسخون فى العلم ، وكانت هذه السيدة عند ما يوجه اليها السؤال عن سبب غسل يديها تقول : « لان يدى ملوثة » ومثل هذا الاعتراف الرمزى كثير الحدوث متنوع الرموز ، وهو نوع من المساومة وعقد الهدنة بين الدوافع النفسية المتعادية ، والخواطر المحتربة ، ولا يعادل بطبيعة الحال اطلاق النفس على فطرتها ، والتخلص المباشر من سيطرة الأسرار ، واعباء الاحساسات الباطنة المستخفية

ويقول الذين عاشوا طويلا بين جدران السجون ان شر ما كانوا يلقونه فى السجن هو عدم استطاعتهم نفض اسرارهم ، والتحدث عما خالجهم من احساسات ، وأكثر الرحالة الذين طافوا بالعالم ، وجابوا الاقطار ، كانوا يعقدون الصداقات ويتعرفون الى الناس فى

مختلف الجهات لحاجتهم الماسة الى أوعية يستودعونها احاسيسهم ، ومضمر أسرارهم ، وثمرات تجاربهم ومشاهداتهم ، وحاجتنا الشديدة الى الاصدقاء الاصفياء الذين نألفهم ونستريح اليهم ونستشيرهم فى مشكلاتنا ونشاطرهم مسراتنا واحزاننا سببها هذه الرغبة القابضة على زمام نفوسنا ، الغالبة على طباعنا ، ولقد كان رجل مثل الخليفة العظيم هرون الرشيد فى أوج سلطانه ، وعنفوان مجده وعزته يشعر بحاجته الى صديق يخلطه بنفسه ، ويقاسمه ملكه ، ويفضى اليه بدخائله ومسكنات ضميره ، ولقد أصاب فى بادىء أمره هذا الصديق فى وزيره جعفر البرمكى ، وبدا له بعد ذلك ان هذه الثقة فى غير مكانها فتغير قلبه وساءت حالته النفسية ، ومأساة حياة البرامكة هى نفسها مأساة حياة الرشيد ، وانهيار ثقته فى الحب والصداقة والنفس الانسانية قاطبة

وغشيان المجتمعات ، وارتياد الاندية سببه رغبتنا فى فتح مغاليق قلوبنا ، والتخلص من أسرارنا ، فالاحاديث المتبادلة فى أمثال هذه الاجتماعات تلطف من شجوننا وتذود الملل عن نفوسنا ، والاحاديث المستطابة والمناجاة المستعذبة هى ألوان مختلفة وصور متعددة للاعتراف ، والاطفال فى ذلك اسعد منا حالا ، وأقدر على التفلت من ازمائهم ، فهم سرعان ما يبدون ما فى نفوسهم لاول قادم ، اما نحن الكبار فلا بد لنا من مراعاة المعايير الاخلاقية، والموازين الاجتماعية ، وتقدير ما يليق وما لا يليق قبل ان نشمل انسانا بثقتنا ، ونختصه باسرارنا ، وحتى بعد ان تتوثق بيننا وبين الناس العلاقات ، وتتصل الاسباب ، فاننا فى الحقيقة لا نفضى اليهم الا بالاسرار الطافية فوق سطح نفوسنا ، أما اسرارنا العميقة ودخائلنا الدفينة فاننا نحتفظ بها فى الاعماق والاغوار ، فاذا ما استثارتنا ثائرة واهتاجت نفوسنا هائجة فهناك يبرز المخبأ ، وينكشف المستور ، وتتكسر الحواجز ، وتتداعى الاسوار ، وينطلق التيار زاخرا هادرا ، مكتسحا كل شىء ، غير مبق على شىء

وقد لاحظ علماء النفس المحدثون ان الانتحار يكثر فى الامم البروتستانتية ويقل فى الامم الكاثوليكية ، وعللوا ذلك بمسألة الاعتراف عند الكاثوليك ، فهى بركة من البركات ونعمة من النعم

وطريقة التحليل النفسى الحديث فى معالجة الامراض العصبية التى وضع أساسها العلامة فرويد اظهرت قيمة الاعتراف ، واوضحت أهميته ، وساعدت الانسان على أن يعرف نفسه ، وان يلقى ببصره فى ظلماتها الدامسة وسراديبها الخفية ، بل يسرت مناجاة الانسان لنفسه وتحليله لعواطفه الخاصة ، وكل انسان له أسراره التى يخفيها حتى عن نفسه ، وليس فى مقدور كل انسان ان يعرف كيف يجلو تلك الاسرار ، ويفتش عنها فى ثنايا الفؤاد ، ومعظم الامراض العصبية سببها ما سماه فرويد « الكبت » ، ومصدر هذا الكبت الرغبة فى تناسى الاحاسيس المؤلمة والافكار الممضة ، ولكنه تناس غير تام ، لان جزءا من الفكرة المقموعة يحتال ويتخفى ويتخذ صورا رمزية ، أو يبدو فى شكل مرض عصبى ،

وفى هذه الحالة يستعمل الطبيب النفسى فنه وتجربته ، ويعلم المريض كيف يعرف نفسه عن طريق الاعتراف

وقد عرف جيتى كبير شعراء الالمان قيمة الاعتراف، وقدر مدى تأثيره فى علاج الامراض العصبية ، وقد روى انه شفى احدى السيدات من اضطراب عصبى انتابها بأن حملها على ان تصف اخطاءها ونقائصها فى تفصيل دقيق ، واسهاب مستوعب ، وقال انه بهذا الاسلوب مكنها من ان تلقى بهمومها فى قاع البحر ، وتسترد صفوها ، وبشاشتها ، والذى يعترف باخطائه وآثامه سرعان ما ينفى وجودها ويكسر اغلالها وقيودها

والادب فى لبه وصميمه قائم على الاعتراف بأساليب مختلفة وطرائق متباينة ، ففيه الاعترافات الصريحة المباشرة مثل اعترافات روسو واعترافات تولستوى وهينى والفرد دى ميسيه ، وهناك التراجم الذاتية مثل ترجمة المؤرخ جيبون لنفسه وترجمة استيوارت مل لحياته ، وهناك كتب التأملات والذكريات واليوميات مثل خواطر بسكال ، وتأملات مرقس اوريلياس ، ويوميات اميل ، ورسائل اوبرمان ، وخواطر موريس ليجران ، وكبار الروائيين يتحدثون الينا عن انفسهم ويصفون لنا تجارب حياتهم خلال تحدثهم عن شخصياتهم الروائية ، وعوالمهم المتخيلة ، وقد وصف لنا تولستوى فى روايته العظيمة عن « الحرب والسلام » أباه وأمه والكثيرين من افراد أسرته كما وصف لنا جوانب مختلفة من شخصيته فى سائر رواياته ، ومن المعروف الآن انه فى روايته « كريتزر سوناتا » انما يصف لنا نفسه فى فترة من فترات علاقاته بزوجته وما طغى على نفسه من الغيرة المؤلمة لنشوء صداقة بينها وبين شاب موسيقار مما نغص عليه حياته وأثار همه

وفى الادب المصرى الحديث أثران بارزان هما فى الحقيقة نوع من الاعتراف ، وهما كتابا الايام للدكتور طه حسين وسارة للاستاذ عباس محمود العقاد ، وقد أراد الدكتور طه ان يتخلص من المشاعر المؤلمة التى ألمت به فى صدر حياته فلم يجد خيرا من تسجيلها تسجيلا فنيا واستطاع بذلك ان يتغلب عليها ويصرعها ، وواضح ان شخصية همام فى رواية سارة هى نفسها شخصية الاستاذ العقاد بميوله العارمة ، وعزيمته الماضية ، وعقليته النافذة الغلابة ، وقد كتب العقاد روايته ليعالج علاجا فنيا ازمة نفسية رجت نفسه وزلزلت كيانه، وفى هذا النوع من الايضاح والتكشيف مسلاة للقلب ، وتقوية للنفس

والاعتراف هو حجر الزاوية فى مذاهب التحليل النفسى الحديثة ، واثره فى الاداب والفنون جدير بأن يبوئه مكانا مرموقا ويوليه عناية خاصة

على أدهم

من مجموعة شريف صبري باشا

التصوير الإسلامية

بقلم الأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

الأمين المساعد بدار الآثار العربية

يخطىء الذين يعتقدون أن الفنون الجميلة على هامش الحياة وليست فى صميمها، إذ لم يعد هناك شك فى أن لها قيمة معنوية ومادية إن غاب إدراكها عمن ينظرون اليها نظرة سطحية ، فهى واضحة أشد الوضوح لمن نفذوا الى صميمها وأحسوا بمدى تأثيرها فى الحياة ، ويكفى أن نذكر أن العناية بها هى الفارق بين الانسان والحيوان ، والميزة الواضحة التى تسمو بها حياتنا عن حياة البهائم ، وأن الذى لا يعنى بها يحرم نفسه من لذة ليس الى إنكارها من سبيل ، ولا يستطيع أن يحسن ما يزاوله من الأعمال إن كان ممن يشتغلون بأيديهم

ولئن كانت العناية بهذه الفنون أمراً واجباً على كل انسان ، فان اقتناء التحف الجميلة أمر لا تتسع له ثروة كل فرد ، ولذلك عنيت الحكومات الراقية بانشاء المتاحف لتوفر لسواد الشعب أسباب الدراسة والاستفادة ، وإذا جاز لنا أن نستعير من علماء الفقه الاسلامى بعض اصطلاحاتهم، لقلنا إن العناية بالفنون الجميلة فرض عين واجب على كل فرد يرى فى نفسه أنه انسان حقاً ، وأما جمع التحف واقتناؤها ، ففرض كفاية تؤديه الحكومات عن شعوبها ، ويؤديه معها من أفراد الأمة من تتسع ثروتهم لذلك

وحضرة صاحب المقام الرفيع شريف صبرى باشا من أولئك الذين أدوا ويؤدون هذا الفرض على أحسن وجه وأتمه . فقد عنى رفعته بجمع طائفة قيمة من التحف الاسلامية المختلفة ، أهمها وأغناها مجموعة التصاوير الاسلامية

موقف الاسلام والمسلمين من التصوير

ولقد يخيل للكثيرين أن التصوير من النواحى الفنية التى لم يعن بها المسلمون . ولكن الواقع بخلاف ذلك . وخير دليل على هذا هو هذه المجموعة النفيسة التى اتخذناها موضوعاً للبحث فى هذه الكلمة

ولعله من المفيد أن نمهد لهذا البحث بكلمة موجزة نلخص فيها موقف الاسلام والمسلمين من التصوير . أما القرآن الكريم فقد حرم الصور المجسمة أو التماثيل التى تتخذ للعبادة ، يقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . والأنصاب هى الاصنام التى كانت تعبد من دون الله كما ذهب الى ذلك المفسرون. وأما كتب السنة فقد تناولت هذا الموضوع بشىء من التفصيل ، إذ ورد بصدده نحو مائة وسبعين حديثاً ، طائفة منها تنص على لعن المصور ، وطائفة تمنع بيع الصور ، وطائفة تذكر أن أصحاب الصور يوم القيامة يعذبون ، وطائفة تبين إثم من يصنع الصور ، وطائفة تحظر استعمال ثوب فيه تصاوير ، وطائفة تشير الى أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة ، وطائفة أباحت تصوير ما ليس فيه روح ، وطائفة رخصت فى التصوير على الفرش وما أشبهها . ويجمع رجال الدين من شيعة وسنيين على حرمة الصور المجسمة ــ التماثيل ــ ما لم تكن صغيرة تتخذ لعباً للاطفال أو ناقصة الخلقة لا تستطيع أن تعيش ان قدر ونفخت فيها الروح . أما الصور المسطحة فهم حيالها فريقان : فريق يرى حرمتها وفريق يرى إباحتها

ويشك المستشرقون فى صحة الاحاديث التى تنص على حرمة التصوير ، ويرون أنها مكذوبة على النبي صلوات الله عليه ، وضعت تحت تأثير اليهود الذين أسلموا ، أو بدافع الخوف من الصور باعتبارها من أدوات السحر ، أو ترغيباً فى التقشف وتحذيراً من الترف . ويرون تبعاً لذلك أن النبي لم يكره الصور ولم ينه عنها ، وأن هذه الكراهية لم تنشأ إلا بعد وفاته بنحو قرن ونصف قرن عند ما بدىء فى جمع الاحاديث وتدوينها

أما علماء الآثار فقد انقسموا قسمين : قسم يتابع المستشرقين فيما ذهبوا اليه من عدم تحريم التصوير ، ويسندون رأيهم هذا بوجود الصور على النقود التى كان يتعامل بها المسلمون قبل الدولة الأموية وعلى السكة التى ضربها الأمويون والعباسيون وعلى الأبنية التى خلفوها من بعدهم . وقسم يرى أن التصوير مكروه فى الاسلام ، وهذه الكراهية ترجع الى عصر النبى ، ومبعثها الخوف من عودة المسلمين الى الوثنية

وسواء صحت جميع الأحاديث التى تروى فى هذا الصدد أو صح بعضها ولم يصح البعض الآخر ، وسواء كان المستشرقون ومن تابعهم من علماء الآثار على حق فيما ذهبوا اليه أو أخطأهم التوفيق فيه ، فالامر الذى لا مجال للشك فيه هو أن المسلمين عرفوا تصوير الأحياء وزاولوه وغزوا به جميع فروع الفن الاسلامى من مخطوطات وأخشاب ، وعمارة وزجاج ، ومعادن وعاج ، وخزف ومنسوجات . ولم تتجل عبقريتهم الفنية فى هذه الناحية بقدر ما تجلت فى المخطوطات ، فقد شغف المصورون المسلمون بتزيين كتب العلم والدين والأدب والتاريخ بصور تفسر بعض ما تتضمنه من بحوث وحوادث

أهمية مجموعة رفعة شريف صبرى باشا

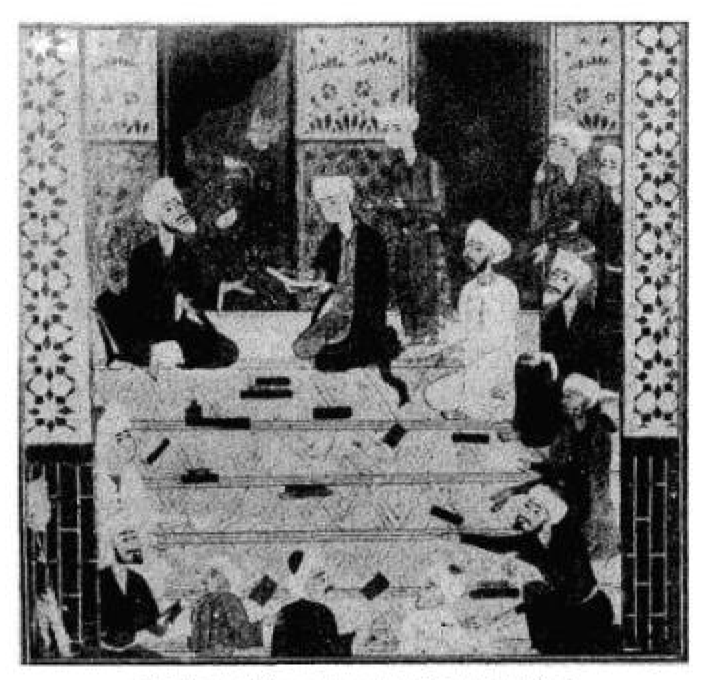
ومجموعة رفعة شريف صبرى باشا تلخص لنا موضوع الصور الاسلامية الصغيرة أحسن تلخيص سواء فيما يتعلق بالمدرسة التى صورتها ، أو فيما تتضمنه الصورة ، أو الزمن الذى عملت فيه ولا يكاد ينقصها إلا القليل لتصل الى درجة الكمال ، ففيها صور إيرانية وصور هندية وصور تركية كما أنها تتناول معظم الموضوعات المختلفة التى عنى بها المصورون من المسلمين ، وتمثل عصور التصوير المختلفة إذ ترجع الى الفترة الواقعة بين القرن الثامن الهجري والقرن الثانى عشر (١٤ – ١٨ م)

ودراسة تلك المجموعة الثمينة دراسة وافية تشبع رغبة علماء الآثار وتنقع غلة رجال الفن أمر يضيق عنه المجال ، ولذلك سنكتفى بأن نقدم لها صورة مجملة إن رضى عنها القارىء العادى فلن يأباها الذين اختصوا بتأريخ الفن الاسلامي وبالبحث فيه

الصور التاريخية والأدبية

وتعتبر « الشاهنامه » أو « كتاب الملوك » — الذى وضعه فى أواخر القرن الرابع الهجرى الشاعر الايرانى العظيم أبو القاسم الفردوسى وضمنه أساطير الفرس وتاريخهم منذ أقدم العصور حتى الفتح الاسلامى — من أهم الكتب عند الايرانيين ، يعنون به عناية فائقة يستوى فيها أفراد الشعب على اختلاف طبقاتهم ، ولذلك كانت قصائده بما تضمنته من قصص شيق تمتزج فيه الخرافة بالتاريخ ، مبعث الوحى للفنانين الذين ترجموها الى صور جميلة ، نفاذة الى القلوب ، أخاذة للنفوس تزخر مجموعة صبرى باشا منها بعدد ليس بالقليل ، ففيها صور تمثل المبارزة والقتال ، والصيد والطعان ، وتمثل الملوك والأبطال ، من افريدون وزال ، ورستم واسفنديار ، والاسكندر وبهرام . ولعل أروع هذه الصور تلك التى نرى فيها الاسكندر الأكبر وهو يستمع الى الوصايا الأخيرة لدارا ملك الفرس الذى أتي برأسه على فخذ الاسكندر يعالج سكرات الموت وقد وقف بالقرب منه حارساه الخائنان اللذان طعناه فى ظهره غيلة أثناء تقهقره أمام جيوش الاسكندر ، وقد ظنا أنهما بهذا الغدر ينالان حظوة لدى ذلك الفاتح العظيم ، ولكنه خيب ظنهما وأذاقهما الموت جزاء وفاقاً على سوء صنيعهما

وللشاعر الايرانى « نظامي الكنجوى » منظومات خمس تتضمن « قصة مجنون ليلى » و « قصة الصور السبع » و « قصة خسرو وشيرين » و « كنز الأسرار » و « مغامرات الاسكندر » . ولهذه القصائد فى إيران شهرة واسعة ، ولها عند الايرانيين مكانة سامية دفعت بالفنانين منهم الى أن يستمدوا وحيهم مما تضمنته ، بل ان المصورين الأتراك قد استلهموا قصصها



صورة إيرانية من القرن الحادى عشر الهجرى (١٧ م) تمثل الشيخ نجم الدين كبرا جالساً وسط مريديه ، وقد وقف أحدهم يقرأ فى كتاب

وحوادثها فى صورهم . وفى مجموعة رفعة صبرى باشا طائفة من هذه السور بين إيرانية وتركية تجمع الى طرافة الموضوع جمال الرسم وسحر اللون ودقة التصميم

أما قصة مجنون ليلى فلسنا فى حاجة الى تلخيصها ، ويمكن أن نشير الى تلك الصور الرائعة التى نرى فيها ليلى والمجنون فى « الكتاب » يتعلمان معاً ، ونرى فيها المجنون وهو يطوف بالكعبة ، ونرى ليلى وقد ذهبت الى حبيبها حيث يقيم فى الصحراء وسط الحيوانات التى يبدو عليها أنها تشفق على ذلك العاشق البائس الذى شفه الوجد وبراه الجوى

وأما قصة « الصور السبع » فلا مفر من تلخيصها ليستقيم لنا فهم الصور المتصلة بها ، فهى تتعلق بملك الفرس بهرام جور إذ كان والده يزدجرد - أحد ملوك الدولة الساسانية - سيء الخلق ، وعندما رزق بابنه بهرام ، أشار عليه المنجمون بتنشئته بعيداً عنه كى لا يتخلق بأخلاقه ، فعهد به الى النعمان بن المنذر ملك الحيرة فأحسن تربيته . وبينما كان بهرام يتجول ذات يوم فى قصر الخورنق الذى كان يعيش فيه ، إذ وجد غرفة مغلقة لم يلجها أحد من قبل ، ففتحها ،

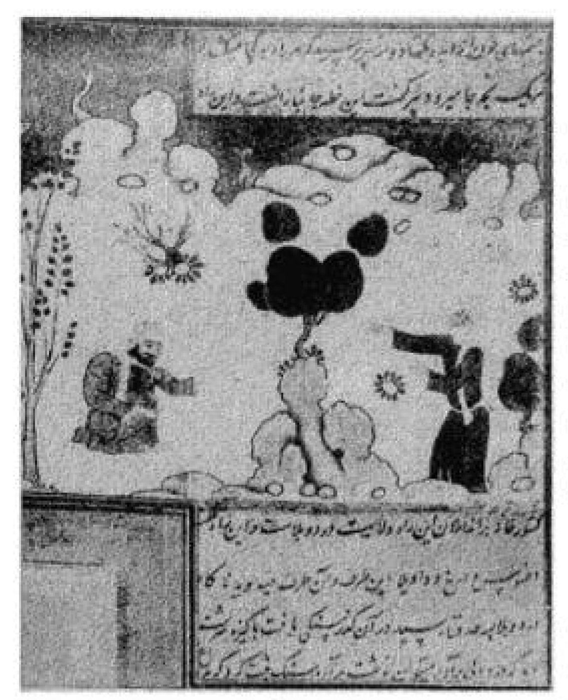
فاذا به يرى صوراً سبعاً تمثل أميرات سبعاً : هندية ومغربية وترية وصقلية وخوارزمية وصينية ورومية ، وكن جميعاً رائعات الحسن بارعات الجمال ، فتملكن عليه قلبه وعقله ، وما كاد يتولى عرش ايران حتى سعى للتزوج منهن جميعاً ، ونجح فى ذلك ، وشيد لهن قصراً به سبع قباب تختلف كل قبة عن الأخرى فى لون جدرانها وأثاثها ، فالقبة السوداء للهندية ، والصفراء للمغربية ، والفضية للترية ، والحمراء للصقلية ، والزرقاء للخوارزمية ، والبيضاء للرومية ، والتى فى لون خشب الصندل للصينية ، وقسم أيام الأسبوع بينهن ، فخص كل واحدة يوم معين . والصور التى تتصل بهذه القصة أربع فقط تمثل الأميرة الهندية والرومية والخوارزمية والصقلية



صورة إيرانية من القرن العاشر الهجرى (١٦ م) تمثل ليلى تزور المجنون فى الصحراء

وتدور حوادث قصة «خسرو وشيرين» حول كسرى الثانى ابن كسرى أنو شروان المشهور ، إذ يسمع بجمال شيرين ابنة ملك أرمينيا ، ويحتال فى ارسال صورته اليها فتحبه من كل قلبها ، وتهرب الى ايران للقائه ، ولكنه يكون قد خرج الى أرمينيا ليسبقها الى هذا اللقاء ، ويتلاقيان بعد متاعب جمة ، ويتهم خسرو باغتيال أبيه ويسعى لاسترداد ملكه ولكنه يفشل ، فيلتجئ الى جوار حبيبته يرشف واياها شهد الغرام ، ويشتد به الهوى ، وتضطرم بين جوانحه نيران الهوى ، فيتقدم الى شيرين لتطفىء ظمأه اليها ، ولكنها تصده عنها وتؤنبه على فشله فى استرداد ملكه ، فيخجل خسرو من نفسه ، ويغادر أرمينيا هائماً على وجهه ، وتشاء الظروف أن يسترد ملكه وأن يتزوج بابنة ملك الروم وأن يرزق منها بولد ، ويشتد الغرام بشيرين فتسافر الى ايران لتكون على مقربة من حبيبها دون أن تعكر عليه صفو حياته العائلية ، ويراها الحفار فرهاد فيهيم بجمالها ، ويعلم خسرو بذلك فتملكه الغيرة ، ويبعث الى الحفار من يخبره كذباً أن شيرين قد

ماتت ، ويصدق الحفار ذلك فينتحر وتحزن عليه شيرين ، وتموت زوجة خسرو ، ويتزوج بشيرين وينعمان معاً بعيشة راضية هانئة بعد طول الفراق ، ولكن ابن خسرو يكون قد بلغ مبلغ الرجال ، ويرى زوجة أبيه فيجن بها ، ويدفعه الشيطان الى قتل أبيه ليستأثر بالملك والملكة ، كما يدفع الوفاء بشيرين الى الانتحار . والصور التي توضح هذه القصة معظمها من المدرسة التركية



صورة إيرانية من القرن الحادي عشر الهجري (١٧م) تمثل صوفيين يتقابلان

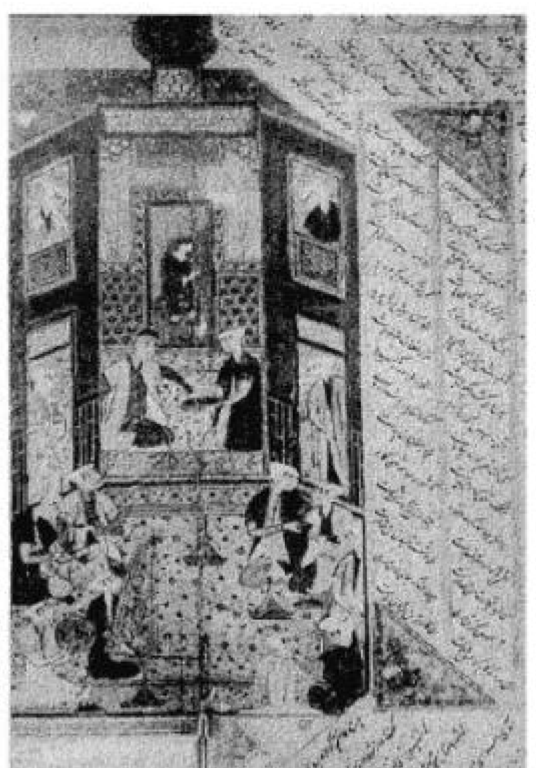
الصور الدينية

وطبيعي أن تكون الصور الدينية معدومة أو نادرة في الفن الاسلامي نظراً لما أحاط بموضوع التصوير ومزاولته من لبس وشكوك ولكن رفعة شريف باشا قد وفق برغم ذلك الى الحصول على طائفة قيمة من الصور المتعلقة بالقصص الديني وبالتصوف . اثنان منها يمثلان قصة الاسراء والمعراج ، إحداهما ايرانية والاخرى تركية ، ثم صورة ايرانية تمثل بساط الريح الذي منحه الله لسليمان عليه السلام ، وصور تركية تمثل إحداها اسرافيل وهو ينفخ في الصور ، وتمثل أخرى إشفاق الملائكة من اقتراب يوم النشور . وهناك صور عدة تعطينا فكرة جلية عن حياة رجال التصوف وعن أزيائهم ومجالسهم

الصور الاجتماعية

وتزخر هذه المجموعة بصور كثيرة تمثل الحياة الاجتماعية في شتى نواحيها : فهناك مناظر في الهواء الطلق تجلو علينا صوراً طبيعية ترتاح العين لجمالها الرائع ، وتسر النفس بألوانها الساحرة ، فيها الأزهار الباسمة ، والأشجار الباسقة ، والجبال الشاهقة ، والأنهار الجارية ، والسماء الصافية ، والسحب المتراكمة . وبين أحضان هذه الطبيعة الجميلة نرى الصيد والمصارعة والولائم الحافلة . كما

أن هناك مناظر داخلية تصور القصور بأثاثها الفاخر وجدرانها المزركشة نشاهد تحت سقفها مجالس الأنس والشراب ومناظر الشبان والشواب هذا يقرأ فى كتاب ، وهذه تتزين فى المرآة ، وهذا يمط شفتيه وهذه تسبح فى الخيال ، وهذا متكىء على سيفه وهذه تفتح ذراعيها لاستقبال طفلها ، وهذان عاشقان على موعد ، وهؤلاء جماعة يشتغلون ببناء مسجد ، الى غير ذلك من المناظر التى يضيق المجال عن سردها جميعاً . على أن الذى يستحق الاشارة هو تلك الصور المختلفة التى تمثل لنا بعض الشخصيات البارزة



صورة إيرانية من القرن العاشر الهجرى (١٦م) تمثل بهرام جور مع الأميرة الهندية (من قصة الصور السبع)

* * *

وهكذا تجلو علينا مجموعة رفعة شريف صبرى باشا كثيراً من النواحى المختلفة للتصوير عند المسلمين ، كما أنها تمكننا من دراسة الأدوار المختلفة التى تقلب فيها هذا الفن ، ففيها صور إيرانية بلغت الذروة من الاتقان والجمال ، وفيها صور هبطت عن هذا المستوى وتسربت اليها التأثيرات الأوربية وفيها صور تركية وهندية متأثرة بالتقاليد الايرانية فى التصوير . ولا ينبغى أن ننسى أن لهذه الصور الجميلة مزايا ليس لانكارها من سبيل ، ذلك أنها تعطينا فكرة واضحة عن حياة المسلمين الخاصة وعن أزيائهم وعن طرق قتالهم وعاداتهم ، وليس هناك من شك فى أنها كنز عظيم يجد فيه رجال الآثار نبراساً يهتدون به فى تمييز التحف وتأريخها لا سيما الطنافس الايرانية ، ويجد فيه المؤرخون مادة غنية بالمعلومات ، ويجد فيه الرجل العادى مجالا يتخفف فيه من كده وسعيه فى هذا العصر المادى ، ويعيش ساعة من زمن ينعم فيها بالغبطة والجمال

محمد عبد العزيز مرزوق



هؤلاء الأطفال الضاحكون الأصحاء كان مفروضا عليهم أن يمضوا حياتهم مرضى تعساء لولا هذه الممرضة الاسترالية كيني التي عالجتهم بطريقتها الخاصة في علاج شلل الأطفال

شلل الاطفال : هل يمكن علاجه فى دقائق

شلل الاطفال ليس مقصورا على الاطفال كما قد يفهم من أسمائه ، بل يصيب الانسان فى أية سن ، وان كان البالغون أقل من الصغار ، ولا سيما فى سنتيهما الاوليين ، تعرضا للاصابة منه

وهو ينشأ من ميكروب يصيب الجهاز العصبى الرئيسى ، ويؤدى الى التهاب المادة السنجابية فى النخاع الشوكى . ومدة حضانته فى الغالب سبعة أيام ، تظهر بعدها اعراض المرض فجأة ، وهى الحمى والصداع وتلبك المعدة والامعاء مدة يومين أو ثلاثة، ثم يبدأ المريض يفقد توازنه وترتعش عضلاته عند التحرك ، ويتيبس عنقه وعموده الفقرى ، ويصاب بالحول والازدواج النظر ، وبعدها يأتى دور الشلل فى عضلات الحركة . على انه قد يحدث فجأة فى بعض الحالات ، وقد تكون الاصابة به خفيفة الحدة قصيرة المدة ، ولا تصحبها الاعراض العصبية التى ذكرنا . وتحدث الوفاة من هذا المرض اذا ما أصيبت عضلات التنفس بالشلل

وميكروب المرض ينتقل الى المخ بطريق عصب الشم ، وقد تأتى العدوى من تناول غذاء لبنى موبوء . وفيتامين يخفف من حدة الميكروب وقد يكسب الجسم مناعة من المرض . ولا يصاب المرء به سوى مرة واحدة فى حياته ، كما أن المصل المأخوذ ممن شفوا من هذا المرض ينفع فى علاج المصابين به



[illegible] دروسها في علاج مرض الأطفال على بعض الطبيبات والممرضات الأمريكيات ، وتدريبهن على مزاولة طريقتها العجيبة في علاج المرض

وأكثر الأقوام تعرضا لشلل الأطفال هم سكان كندا والولايات المتحدة الأمريكية . والقراء يعرفون أن الرئيس روزفلت أصيب به في سن الأربعين ، وكانت قصته في كفاح هذا المرض والتغلب عليه من أروع قصص حياة هذا الرجل المكافح الموفق

وقد جد في هذه الأيام أمر جديد في علاج شلل الأطفال . فان ممرضة استرالية تدعى «اليزابث كيني» توفقت الى علاج ناجع لهذا المرض ، اذ تعالج العضلات المصابة بالشلل بيديها علاجا يكاد يكون سحرا . فقد نجحت في شفاء بعض المرضى في لحظة لا تتجاوز دقيقتين . على ان علاجها في بعض الحالات الحادة يستغرق عدة أيام أو عدة أسابيع

وقد رأت كلية الطب بجامعة نيويورك أن تستقدم هذه الممرضة لتدرس للاطباء والممرضات والاطباء طريقتها في علاج العضلات المشلولة ، وهي الطريقة التي ظلت تمارسها أربعين سنة منذ كانت في الخامسة عشرة من عمرها حين أصيب أخوها بشلل الأطفال . وتقول مسز كيني اني لا ألجأ الى الايحاء النفسي ، ولا الى عملية التدليك المعروفة ، بل الى دراسة العضلة المشلولة في ضوء المعارف التي اكتسبتها من تجاربي ، وأستطيع ان أقول ان العلم لم يعن بعد العناية الكافية بدراسة وظائف العضلات ، وهذا هو السر في عجزه عن مقاومة شلل الأطفال . وقد نظمت الجامعة مقررا خاصا لدراسة هذه الطريقة التي ابتكرتها الممرضة الاسترالية ، ومدة الدراسة عامان ، وحذت كثير من الكليات والمستشفيات حذو جامعة نيويورك ، فأمكن بذلك علاج أكثر من خمسمائة حالة من حالات شلل الأطفال في الولايات المتحدة وحدها

طغيان القصة

بقلم الأستاذ عبد الرحمن صدقي

الحاجة الى القصص أصيلة فى الانسان ، مركوزة فى طبيعته الاجتماعية . حتى أن الصور البدائية الاولى التى خلت من المأثورات المدونة ، لم تعدم مجالها القصصى فيما خلفه الصيادون الاولون من الحكاية عن حياة الطرد والقنص بطريق التصوير على جدران المغاور والكهوف ، وحتى أن المتأمل لمخلفات هؤلاء البدائيين التى تمثل صيد الحيوان أو جنى العسل من خلايا النحل أو مجامعهم التى تضم أفرادا شتى من الذكور والاناث ـ ليلمس فى رسومهم مختلف العواطف التى أوحتها ، والمعانى التى قصدوا اليها ، فلو شاء لأداها عنهم قصة مبسوطة السرد مكتوبة

ولعل أقوى شاهد على حاجة النفس الى القصص ، ماكان له من أثر قوى وفعل سحرى فى نفس طاغية ألف ليلة وليلة الملك شهريار . فهنا حيث لم يفلح الصبا والجمال فى عطف فؤاده ، ولم تشفع الدموع فى استدرار رحمته ، وأعيا الزمن نفسه تسكين غضبه وموجدته ، عمدت شهرزاد الى هذه الحاجة القصصية التى تعرف سرها ، وجربت فى هذا الطاغية سحرها ، فتجلت على يديها المعجزة ، وتفتحت بفضلها تلكم النفس المغلقة

هذا عن القصص بمعناه العام وروحه البسيطة الاولية

القصة كما يعرفها أهل الغرب

وأما القصة كما يعرفها أهل الغرب ، فهى فن حديث العهد ، لا ينيف عمره على القرنين الا قليلا . واذا قسنا بدأها الى بدء الشعر والفلسفة والتاريخ ، فانه يصح لنا أن نسميها وليدة اليوم . ولكن هذه الفسيلة الوليدة ما كادت تخرج شطأها حتى استغلظ غرسها واستطال ، وتشعبت أفنانها وتأشبت ، ومهما يكن من تفاوت فى اطراد نموها ، فانه لم يمض عليها قرن واحد حتى زحمت ما حولها من الدوح المعرق القديم ، وأشرفت على الغاب كله بشماريخها الفارعة وأغصانها الشمواء

والقصة بالمعنى الحديث ليست مجرد الحكاية عما جرى . ولكنها ابراز بطريق الحكاية للشخصيات أو أطوار الجماعات ، أو تصوير جيل من الاجيال ، أو تحليل لما يضطرب من عواطف وشهوات فى النفس ، وما يتداول بين الانسان والبيئة من تفاعل وتأثير متبادل ، وما الى ذلك من المعانى . ومهما يكن من محاولة بعض مؤلفى القصة المحدثين أن يستقلوا بالقصة عن الحكاية ، فانه لا مندوحة من عنصر الحكاية فيها . وانما قصاراهم أن يذهبوا الى

أبعد ما يستطاع فى تبسيط هذا العنصر والتهوين من شأنه . وللمؤلف القصصى بعد ذلك أن يجعل مجال القصة حيثما شاء ، فيتخذه فى حاضر العصر ، أو يرجع به الى غابر الدهر ، أو يبادر به آفاق المستقبل . بل من المؤلفين من يعدو مجاله الحياة الطبيعية دون أن يعدو مع ذلك حدود فنه

ويختلف بدء القصة فى أمة عنه فى أمة أخرى . فلقد عرفت الصين فى عهودها الاولى قصص المعارك الدامية ، على حين اشتهر عند العرب ما هو أقرب الى النوادر المرحة والاهاجى اللاذعة ، فضلا عن قصص الاسفار العجيبة النائية . ولقد كان الغالب فى ابان عهد النهضة على القصة الايطالية موضوعات ثلاثة : غيرة الازواج وخيانة النساء وفجور القساوسة ، على حين كان الغالب فى اسبانيا قصة الفروسية أو ما يسمونهم بالفرسان الجوالين من طلاب المجد والمغامرة

وأخذت البواكير من القصة الاولى تتخطى الحدود القائمة بين الامم ، وتترجم من لغة الى أخرى ، وتنتشر بين ناس غير ناسها ، وتمد عروقها فى كل تربة ، حتى ذاعت ألوانها المعروفة . ثم لم تلبث أن تشابكت وتداخلت ، ثم ما زالت مع تغير الاحوال وتداول الدول وتجدد الملابسات تتطور وتتعدد وتتنوع ، حتى أصبحت لا حد لها ولا نهاية لافقها

أغراض القصة العصرية

ولقد وسعت القصة جميع الاغراض ، وطرقت كل سبيل لارضاء مختلف المشارب والاذواق . فمن قصص المغامرات التى يهتز لها الصغار وأشباههم من الكبار ، الى القصة العاطفية التى توافق هوى الفتيان والفتيات وتخفق لها قلوبهم وتمتزج بأحلامهم . ومن القصة التى تعنى بوصف ظاهر الحياة ومجال الطبيعة ، الى القصص التى تتغلغل الى مسارب النفوس فتحلل كل خلجة الى عناصرها وبواعثها . وكما أن هنالك القصة التاريخية التى تبعث الماضى فتنفث الحياة فى رجالاته وتعيد بناء حضاراته ، فثمة كذلك القصة المغرضة التى تدعو الى رأى وتتوخى الاقناع بفكرة . وأخيرا هناك القصة الاجتماعية التى تربط الانسان بما حوله ، وهى تظهرنا عليه فى وسطه المهنى جزءا مندمجا فى طبقته ، وعضوا فى جسم مجتمعه ، بل كثيرا ما يتجاوز موضعها تصوير الفرد الى تصوير المجتمع كله

والسبب فى ذيوع القصة هو هذا الذى رأيناه من مرونة نطاقها ومطاوعة قالبها . فلا صورة من صور الشعر والتفكير الا قبلتها ، ولا فن من فنون الكتابة ولا مذهب من مذاهب القول الا اتفسحت له . ونذكر هنا على سبيل المثال ، انه الى عهد الروائى الفرنسى « بلزاك » كان أبلغ ما يثنى به الناس على القاص أنه صاحب خيال ، فلما أن تغيرت الاحوال وتقدم العلم معتمدا على الملاحظة والتجربة ، وأصبح الخيال منظورا اليه كأنه بقية من بقايا الجاهلية ، وأصبح المدح به يكاد أن يكون قدحا ، لم يقف القاص جامدا ولم تختم القصة حياتها ، بل تطورت وتحولت ناحية المنهج العلمى . فاذا القاصون يستمدون أقل الاعتماد

على الخيال ، واذا جل اعتمادهم ـ ان لم يكن كله ـ على قوة الملاحظة والتحليل . فهم حريصون على جمع الشواهد الحية وتدوين الملاحظات ، حتى اذا استوفوا بحث الموضوع وراجعوا فيه كل مرجع ، واستخبروا عنه المصادر أجمع ، شرعوا يكتبون قصتهم على أساس ما جمعوه عن مشاهدة وتجربة ودراسة ، بعد تصنيفه على مقتضى منطق الحادثة المروية وبما يناسب وحياة أشخاصها الاحياء المنقولين

وهكذا سارت القصة وتسير في فحواها وقالبها من طور الى طور ، متأثرة بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية ، وما تستحدثه الحركات العلمية والفنية حتى ما كان متعلقا بطرائق الاخراج السنمائية

والحق أن النجاح الذي أصابته القصة كان سريعا وانتشارها ذريعا ، حتى ليزعج المفكرين ويثير مخاوفهم في كثير من الاحايين . وأول ما يذكرونه في هذا المعرض أن أكثر المتوفرين على مطالعة القصة هم الشباب من الجنسين ، القصة التي يعرضها عليهم المؤلفون هي بطبيعة الحال القصة التي يطلبونها في هذه السن . أعني القصة الغرامية . فهم ينصرفون عما سواها ، ويقبلون عليها في نهم ـ سواء أكانت في صورة العشق الحسي المتوقد ، أو من نوع الحب المثالي المتسامي . والشباب في يقظة حسه وسذاجة نفسه منجذب الى الاثنين معا . والقارىء لاكثر هذه القصص لا يتصور لاشخاصها عملا ولا هما غير التغزل والصبابة ، ولا يتمثل للحياة حركة غير الدافع الجنسي والحافز التناسلي . مع أنا حين ننظر في أنفسنا وفيما حولنا لا يسعنا الا أن نقرر أن الحب في سائر صوره العاطفية والخيالية والحسية ـ المكبوتة منها والمقضية ـ شاغل كثير من الشواغل ، أو هو أقوى الشواغل ، ولكنه ليس الشاغل الوحيد

ولا نحسب النقاد يقصدون الى محاربة القصة الغرامية والقضاء عليها لانها غرامية ، فانه ليس الى ذلك من سبيل . ولكنهم ونحن معهم نريدها غير رخيصة . فلا يعمد اليها المؤلفون الهابا لحواس الشباب وارضاء لسذاجتهم ليس غير ، ولانها لا تكلفهم الا تسمية زوج من ذكر وأنثى والقول بانهما يتحابان ، ثم يضرب الدهر بينهما فيفترقان ، أو يحسن اليهما فيلتقيان . ثم اذا هم أرادوها قصة مركبة معقدة ، زادوا على الاثنين ثالثا ـ ذكرا أو أنثى ـ لتكون الخيانة والقتل وما الى ذلك

ان قصة كهذه ـ غرامية كانت أو غير غرامية ـ لا يمكن أن تكون لها أية قيمة فنية ، الا اذا طالعتنا بصورة كاملة للرجل والمرأة في حياتهما الطبيعية ، وما كان لهما من نشأة وما حولهما من بيئة ، وما يصدر عنهما من الآثار ويرد عليهما من مؤثرات ، وما في نفسيهما من الدوافع الخاصة الخفية وما يشملها من أحكام القوى الكونية . وبالجملة أن يورد المؤلف الحادث والعرض موردا يشعرنا من ورائه بالمعنى والجوهر ، علما منه بأنه لا شأن للجزئيات الا بمقدار دلالتها على الكليات ، على أن يكون هذا كله أو بعضه في تضاعيف القصة ومدلولها دون منطوقها ، ومن غير أن تفقد القصة صفتها من حيث هي قصة

القصة فى مصر

ولقد غزت القصة بلادنا فى أوائل هذا القرن عن طريق المترجمين لها . وكانوا ينظرون فيها الى التسلية واللهو البرىء ، ويختارونها لذلك مليئة بالمفاجآة وغرائب المصادفة . فلما انتعشت الدراسة الادبية على أثر نهضة التعليم وانتشار المجلات ، اتجهوا الى ترجمة القصة البليغة بخيالها الرائع ونفحتها الشعرية وسموها العاطفى . وأما القصص المثلى من طراز غير هذه جميعا ، كآثار جبارى القصص الروسى « دوستيفسكى » بما فيه من صدق الاحساس بالمأساة ، و « تولستوى » بما أوتى من الاحاطة وصحة النظرة للحياة ، وأمثالهما من الروسيين وغير الروسيين ، فالذى ترجم للعربية منها نزر قليل ، ولا يزال ما ترجم قليل الحظوة عند القارئين

ومنذ سنوات بدأ عهد التأليف فى القصة . وكان مقصورا على الشباب . ومؤلفو القصة عندنا وعند غيرنا من الشباب كثيرون ، وعيبهم أنهم يكتبون باكرا وسريعا . كما أنه يغيب عن معظمهم أن أعلام القصة الذين يقرأون لهم ويتمدحون بهم ، هم أحيانا أقل الناس مطالعة للقصص ، وأنهم لا يستمدون مادتهم منها ، بل من دراسة الفلسفات والتواريخ ، والمباحث البيولوجية والنفسية ، وما يختص بنشأة الانسان وبداوته ، وسير الحضارة ونظم الاجتماع وغيرها ، فضلا عما يفيدونه من المشاهدة والتجاريب . ولسنا نريد بهذا أن نغمط المؤلفين الشبان حقهم ونبخس فضلهم ، فانهم فى الحق قد طرقوا فيما طرقوا أبوابا طريفة من النقد الاجتماعى تتعلق بحياة الشعب وحكام الاقاليم وعقلية الشبوات وحياة الدواوين وما شاكل ذلك . وأكبر الظن أنهم لو عالجوها بعد ادامة الدرس واستكمال أداة الفن لضمنوا لانفسهم الخلود بين أعلام هذا النوع من القصة، فلعلهم فاعلون

ومن حسن الحظ ـ حظ القصة ـ أن نزل الى ميدانها بعض شيوخ الادب ممن لهم فيها اطلاع واسع . وهم لا تعوزهم رهافة الحس ولطف الخيال ، ويزيدون على مؤلفى الشباب ما اجتمع لهم من تجربة للحياة ومعرفة بالناس ، ودراسات مستفيضة فى سائر الفنون والعلوم ، فضلا عما استوفوه من القوة البيانية

ولكننا نحتفظ لانفسنا الحق مع ذلك فى كلمة نضيفها ، ولا نجد فيها اساءة للقصة . وهى أنه لو كان من شأن القصة صرف رجالات الفكر عندنا عن بحوثهم الجدية الاخرى، لتملكنا لذلك أشد الأسف ، ولاضطغناها على القصة ، وحسبناها عليها لا لها ، ولم نجد فيها مهما بلغوا بها عزاء عما فاتنا . ولكنهم بحمد الله يرون فى القصة ما نراه ، من أنها لون من ألوان الادب لا يصح أن يطغى على غيره ، بل لا يستطيع أن يحيا بنفسه مستغنيا عما عداه

عبد الرحمن صدقى

عِصْمَتْ اينونو

بمناسبة إعادة انتخابه لرياسة الجمهورية التركية

إن الترك الآن ومنذ مؤتمر لوزان فى معركة السلام والتمدن . وبلادهم تتسع لأضعاف عددهم . وهى غنية فى زرعها ، وضرعها ، وبترولها المخبوء . وأمنيتهم الكبرى أن يسالم الغرب المتعصب الجشع ويعفيهم الشرق من عبء المسئولية الباهظة التى كانوا يتحملونها فى زمان الخلافة . وهم مستعدون للحرب ، أجل . ولكن استعدادهم للسلم أكبر

ولست من الغلظة وتكران الجميل بحيث أقول إن وفاة زعيمهم أتاتورك كانت فألا حسناً لهم قبيل اشتعال الحرب العظمى الثانية . ولكنى أكاد أهم بهذا القول ، ومعذرتى لذكرى هذا البطل العظيم الذى لم يكد يجف قلمى من سيرته الفذة . .

إن كمال أتاتورك ربيب الثورة والقتال لم يكن يصلح رباناً للسفينة التركية فى هذا الخضم المائج من البشرية الثائرة . إنه سريع التأثر . سريع الوثوب . والذئب الأغبر كان لا بد سيكشر عن أنيابه لهذا الفريق أو ذاك . أذكر مرة أنه قرأ خطبة لموسولينى فيها تعريض وتهديد .. فاستدعى سفير إيطاليا فى أنقرة ، واستبدل له بثيابه الملكية ثياباً عسكرية ، وقال له : اذهب وقل لزعيمك إن الترك سيلبسون عدة الحرب فى الحال . .

رجل السلام بعد رجل الحرب

وخليفة أتاتورك — عصمت إينونو — هو أيضاً ربيب ثورة وربيب قتال ، ولكنه من طينة أخرى غير طينة زعيمه ، أو غير نار زعيمه إن شئت

عصمت الذى التقى بزعيمه فى ميدان الحرب لأول مرة فى جبهة القوقاز فى عام ١٩١٦ حيث كان رئيس أركان حرب ، فلم يكد يعمل معه حتى شغف به حباً وإعجاباً ، واشتعلت فى قلبه هذه الجذوة التى سرعان ما اتقدت وشملت الترك جميعاً عند ما آذن مؤتمر الصلح بتقسيم تركيا وتمزيقها ، وآذنت الوطنية التركية بالانفجار . .

أجل هذه الجذوة هى التى أرقته فى ليل ٢٠ مارس سنة ١٩٢٠ . . فقد اعتزم وهو فى استانبول اللحاق برئيسه السابق الذى تسامع الوطنيون بأنه نادى بالثورة فى الأناضول . . ولم لا نقول إنه كان مع الزعيم على سابق ميعاد . .

هذه الجذوة هي التي جعلته يتنكر في ثياب عادية ، ويعبر البسفور سراً في قارب صغير ، وينزل الى البر في الأناضول ، ويظل يجتاز التلال ويتخذ خشية القبض عليه ، وتتمزق ثيابه وتحفى قدماه ، حتى يبلغ أنقرة . .

وهناك في أنقرة ، في مدرسة الزراعة ، كان مصطفى كمال ، الذئب الأغبر ، جالساً وحده ، وقد اتخذ دار المدرسة مقراً للقيادة

وعلى حين غرة ينفتح الباب عليه ، ويرتمى عصمت في أحضانه ، فيتعانق الرجلان عناقاً حاراً طويلا !

عصمت يكمل أتاتورك

أجل . تعانق الرجلان طويلا . فكلاهما يحب الآخر ويثق فيه ثقة لا حد لها . ولم يكد يفرق بينهما بعد ذلك إلا اختلاف بسيط في وجهات النظر

وسيرة عصمت بعد ذلك هي سيرة زعيمه مصطفى كمال ، وتاريخه هو الى حد كبير تاريخ حرب الاستقلال ، ثم ما سميته حرب السلام والتمدن

فهاهو ذا عصمت ينضم الى الثورة ، ويعاون كمالا في مراحلها الأولى . ويراه في قوته يتحدى الاحتلال ويتحدى إرادة الخليفة ، ثم يرى جيوش الحركة الوطنية وهي تتألف ، ويراها وهي تذوب أمام جيش الخليفة وفتواه بمروق مصطفى كمال وإباحة دمه . . ويرى أعضاء المجلس الوطنى الكبير وهم يتراوحون قوة وضعفاً أمام ضغط الانجليز وإغراء الخليفة . وأخيراً يتلقى معه ومع أنصاره ضربات اليونان الأولى ، ثم يكيل لها ضربة ماحقة في معركة « اينونو » التاريخية . « اينونو » اللقب الذى يحمله عصمت منذ ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٣٤ « كهدية » إعجاب وتقدير من المجلس الوطنى الكبير في أنقرة

وبعد الظفر في حرب الاستقلال يضع كمال ثقته في صديقه الحميم ، ويوفده الى لوزان على رأس وفد المفاوضة التركى . وهناك تذوب كبرياء كيرزون رئيس الوفد الانجليزى في ابتسامة عصمت الدبلوماسية الآسرة ، ويتحدث مريدوه في إعجاب بهذا « الصمم » الذى تصنعه ليتغاضى عما لا يروقه من الأقوال وليتهيأ للرد على ما يروقه منها ، وليلقى دشاً بارداً على تهديدات كيرزون بطلبه اعادتها أكثر من مرة .. ويطرح رئيس الوفد الروسى « رغبة » ملحة في وجوب جعل تركيا مطلقة التصرف في المضايق .. فتلتمع عينا عصمت ذكاء ويلمح ما في هذا العرض من خداع ينصبها الدهاء الروسى لتركيا التى أنهكتها الحرب العظمى ثم حرب الاستقلال . فيصم دون تلك الرغبة أذنيه ، ويفاجىء العالم كله ، ويصدم المشاعر التركية نفسها بموافقته على فكرة اللورد كيرزون بجعل المضايق حرة للجميع ، وبنزع الاستحكامات من شطآنها

ويفشل مؤتمر لوزان الأول . وترتفع أصوات معارضي عصمت بنقده وتجريحه . ولكن صديقه الأكبر يوفده الى مؤتمر لوزان الثاني الذي انعقد في ١٧ أبريل سنة ١٩٢٣ برغم هذه المعارضة ، وهناك يلتقي عصمت بالسير هوراس رمبولد الذي كان ألين من كيرزون عريكة وأقل كبرياء ، فتنجح المفاوضات ، وتكتب تركيا وثيقة استقلالها التي سطرتها بدماء مئات الألوف من شهدائها

وبعد لوزان يرأس عصمت الوزارة التركية حتى قبيل وفاة أتاتورك . وفي كل هذه الاصلاحات السريعة الحاسمة التي اشتهر بها كمال يظل عصمت صديقه الوفي المتفاني في خدمته ، ويكمل بهدوء طبعه وحنكته ولين جانبه العظمة السلبية من سيرة زعيمه

وبسرعة أدهشت العالم كله ، يتغير وجه كل شيء في تركيا تقريباً باعلان الجمهورية ونبذ التقاليد القديمة . وتلبس تركيا ثوباً جديداً في السياسة ، في الأخذ بجوهر الدين دون الخزعبلات والأوهام ، في الاجتماع ، في التفكير ، في الزي نفسه .. ويتدفق أتاتورك بعبقريته الثائرة العنيفة ، فيترجم رئيس وزرائه هذه الثورة بأسلوبه الهادىء الرصين ، ويصوغها في القالب العملي المكين

وثمة أشياء ينفرد بها عصمت دون زعيمه . كالسكك الحديدية التي أسرف في مدها إسرافاً أضحك منه معارضيه ومنتقدي سياسته . ولطالما أخذوا عليه مده السكك الحديدية في خطوط لا تكاد توجد فيها حركة تجارية ولا يكاد يسافر منها أو اليها أحد . . ولكن عصمت كان بعيد النظر . كان يتطلع في حذر الى اليوم الذي تقوم فيه الحرب العظمى الثانية . ويرى بعين البصيرة أهمية هذه الخطوط الجديدة في نقل الجنود والذخائر شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً . ويذكر في فزع ما قاست تركيا من أهوال في حروبها الماضية ، وكيف كانت تضطر لنقل الجيوش سيراً على الأقدام ، والذخائر في عربات تجرها الثيران بحبال من الليف .. وقد حققت هذه الحرب نظريته ، وأصبح أشد معارضيه انتقاداً يعترف له باليد التي أسداها الى البلاد

خليفة كمال أتاتورك

وعلى حين غرة يسمع الناس أن بين عصمت وزعيمه خلافا شديداً ، تعقبه استقالة من رياسة الوزارة في عام ١٩٣٧

ولكن ماذا نجم بينهما من سوء التفاهم ؟

هذا ما لا يعرفه أحد على وجه التدقيق . وإن يكن للوشايات التي أثرت في أعصاب أتاتورك المريض أثرها الذي لا ينكر أما الصداقة بين الرجلين فلم تنفصم عراها أبداً

تشهد بذلك الصلات التي استمرت حتى جاد أتاتورك بالنفس الاخير . وكل متصل بتركيا يعلم جيداً أن عصمت كان في الشهرين الأخيرين من حياة أتاتورك هو الحاكم الفعلي في تركيا . فلما

انقضت أيام « أبى الترك » كان كل شىء مهيأ فى عالمى الجيش والسياسة لتنصيب عصمت رئيساً للجمهورية باجماع مطلق من المجلس الوطنى الكبير

ولقد كان لعصمت معارضوه الذين لعبوا دورهم فى إبعاده من الوزارة . ولقد فوجىء هؤلاء المعارضون بما حدث مفاجأة مرعبة ، وخافوا مغبة وشاياتهم وأكاذيبهم . ولكن عصمت من شيمته الصفح ، والصفح عند المقدرة . وقد بلغ من رحابة صفحه أنه نصب أكبر معارضيه ـ وهو فتحى أوكيار ـ وزيراً للعدل . واستهل رياسته بالعفو عن عدد كبير ممن كان أتاتورك قد وضعهم فى « القائمة السوداء » ، فعادوا الى أوطانهم شاكرين له هذه المنة . عادوا ليخدموا بلادهم من جديد . وارتفع النقاب الكثيف الذى كان قد حجب طائفة من أئمة الكتابة فى تركيا ، فعدنا نقرأ كتابات حسين جاهد يالشين وغيره من أفذاذ الكتاب

ولكن هل معنى ذلك أن عصمت نبذ سياسة أتاتورك الحديدية وإصلاحاته الجوهرية ؟

لا . . إنه لم ينبذها . ولكنه يوطد دعائمها ويعمق جذورها

إن عهد زعيم « أبى الترك » كان ثورة إصلاحية كبرى . وخليفة الزعيم عهده عهد استقرار وتدعيم . ولقد جمح الترك بعض الجموح شأن كل ثورة سريعة جامحة . وعلى عصمت الآن أن يجذب الأعنة ويكبح من هذا الجموح . .

وهذا الكبح مفتاح النجاح الثورى . فكل ثورة لا تجد من يكبح جماحها سرعان ما ترتطم بما يحطمها وينهب بأعمالها الجيدة . وما كم ثورات التاريخ الكبرى لم تصل دائماً الى أهدافها لأن أفراسها الجامحة لم تجد من يجذب لها الأعنة فى الوقت المناسب

***

وأخيراً . . ها هو ذا عصمت إينونو . المحارب الربعة الأشيب الثقيل السمع الذى يصمت طويلا ويتكلم قليلا ، فاذا تكلم فبصوت خافت هادىء رصين

عصمت الذى عرك الدهر وشهد مصارع الأمم وويلات الحروب . وعاصر أنور وأشباهه ممن كانوا يزجون الى الحرب ارغاء لمجرد إرضاء شهوة القتال .. ورأى كيف انهارت سلطنة آل عثمان وانطوت أحلام غليوم الامبراطورية . .

عصمت الفيلسوف ، الانسانى ، الذى يؤثر أن يرى مشروعاً هندسياً يوصل المياه الى ولاية من ولايات الاناضول فتخضر تربتها وتؤتى ثمارها وتحمر وجنات أبنائها وبناتها شبعاً ورياً وصحة ونشاطاً وتعلو أصواتهم بالشدو والأناشيد ، على رؤية فيلق تركى يرتمى فى أتون الحرب ، وسماع كلمة ثناء فى استعلاء من فم غليوم حليف الأمس مثلا . .

ما جدوى هذه الكلمة ؟ وهل هى تسمن أو تغنى من جوع !

ديوان المحاسبة

فى عهد محمد على باشا الكبير

بقلم

الأستاذ محمد محمد توفيق

ديوان المحاسبة الجديد ليس بدعاً فى مصر ، وإنما هو بعث لديوان تفتيش الحسابات الذى أنشأه محمد على الكبير ، وكون رئيسه الحالى فى مقام الوزير ليس بدعاً كذلك

حينما أنشىء ديوان المحاسبة الجديد فى مصر ، تناوله بعض الكتاب بالبحث ، وحاولوا أن يوجدوا صلة بين مهمته الجديدة وما عرف فى التاريخ الاسلامى عامة — وتاريخ مصر الاسلامى خاصة — بالحسبة . ووضع أحد حضرات موظفى الديوان كتابا فى هذا المعنى. مع أن الحسبة فى النظام الاسلامى شىء ، ومهمة ديوان المحاسبة شىء آخر . ولم يسبق فى تاريخ مصر أن عرفت هذه البلاد « ديوان المحاسبة » بمعناه الحديث الا فى عهد محمد على الكبير كما سنفصل ذلك قليل

ولسنا هنا بصدد شرح نظام الحسبة فى الاسلام ، فان تفاصيله واردة فى معظم كتب التاريخ الاسلامى والنظم الاسلامية ، كما أن فيه مؤلفا — أو عدة مؤلفات — وضعت لبحثه من الناحية الفقهية الاسلامية علاوة على عملية الحسبة ذاتها . انما نكتفى هنا بالقول ان الحسبة الاسلامية كانت نظاما لا دخل له فى مالية الدولة من حيث هى ايرادات ومصروفات، أو أصول وخصوم كما يقول رجال المال . ولا دخل لها فى الخراج الذى كان أكبر مصادر الايراد فى مصر الاسلامية ، والذى عرف فى العهد العثمانى المملوكى « بالميرى » . وانما جعلت للاشراف على الاسواق والمعاملات التجارية بين الافراد والجماعات ، واتخذت لتقنين الاشياء وتسعيرها وضبط موازينها وتحديد أنواعها بالضبط ومسمياتها وما يجب توافره فيها من شرائط صناعية أو تجارية . ولم يكن للمحتسب الذى وكلت اليه الحسبة اشراف مالى على الدولة ، ولا كان له قط توجيه أو ارشاد . انما هو عامل من العمال للاشراف على الاسواق كما أسلفنا

وقد قل شأن الحسبة وضاق نطاق نفوذ المحتسب فى مصر العثمانية ، وانتفى الشرط الاول فى هذا العامل — اعنى لزوم كونه متفقها فى الدين عالما بالنظم الاسلامية . وعهد فى الحسبة الى فرقة «جاوشان» احدى فرق العسكر العثمانية المعروفة فى التاريخ «بالاوجاقات» حتى ولى أمر مصر محمد على الكبير ، فالغى وظيفة المحتسب نهائيا فى سنة ١٢٥٣ هـ ، وأحال أعماله التفتيشية والزجرية على الديوان الخديوى الذى كان بمثابة وزارة الداخلية

أما مهمة ديوان المحاسبة بمعناها الحديث ، أو بالمعنى الذى كان مصطلحا عليه فى مراجعة الحسابات بوزارة المالية قبيل انشائه ، فلا أثر لها فيما قرأنا من كتب أو وثائق فى تاريخ مصر قبل عهد محمد على الكبير، اللهم الا عمليات المراجعة العادية على الحسابات التى تتلمس شيئا من آثارها فى ديوان الروزنامة فى مصر العثمانية ، ولا يبعد انها كانت قائمة فى الدواوين المالية قبل ذلك

محمد على ينشىء ديواناً للمحاسبة

كان ديوان المالية فى أوائل عهد محمد على ما يزال يعرف بالديوان الدفترى ويتبعه ديوان الروزنامة على ما نعهد فى العصر العثمانى المملوكى قبله . وكانت للوالى من قديم « خزينة » خاصة لايراداته تعرف بالخزينة الخديوية . فلما لمس محمد على مثالب النظم القديمة وبخاصة النظم المالية ، وألغى نظام الالتزام فى تحصيل الأموال الاميرية ، وسع من اختصاصات خزينة الخديوية وعمل على أن ينقل اليها اختصاصات الروزنامة شيئا فشيئا ، حتى حلت محلها وجعلت قلما من أقلام الديوان الخديوى . وفى سنة ١٢٥٠ هـ أنشأ للمرة الأولى « ديوان الايرادات » الذى كان أصل وزارة المالية الآن . وبعد ذلك بثلاث سنوات (فى سنة ١٢٥٣ هـ) قسم ديوان الايرادات الى ديوانين : أحدهما لايرادات مديريات القطر والسودان والحجاز وكريت ، والآخر لايرادات القاهرة والاسكندرية والجمارك وما اليها . وفى سنة ١٢٦٠ هـ اندمج الديوانان فيما عرف بديوان المالية [1]

الى جانب الخزينة الخديوية ، أو ديوان الايرادات ثم ديوان المالية كما سميت بعد ذلك ــ أنشأ محمد على ، بما عرف عنه من عبقرية لم تقف عند مجرد الحرب أو السياسة بل شملت فيما شملت شؤون المال ــ ديوانا آخر عرف « بديوان تفتيش الحسابات » . والديوان فى ذلك العهد مرادف للوزارة الآن

هذا الديوان لم نعثر له على تاريخ انشاء فيما فحصنا من وثائق تركية وعربية فى كل من سراى عابدين ودار المحفوظات المصرية . بيد أننا نستنتج من الاشارة اليه فى التنظيم الادارى الشامل الذى عرف « بالسياستنامه » والذى كان أول محاولة فى عهد محمد على لدعم النظم الادارية على أسس حديثة ، أنه كان قائما قبل سنة ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧ م) . والاشارة اليه صريحة فى أنه « ديوان » مستقل عن سائر دواوين الدولة . فلم يكن اذن « مراجعة للحسابات » ملحقة بديوان المالية كما كان الشأن قبيل انشاء ديوان المحاسبة الجديد فى عصرنا الحاضر

---

(١) هذا البيان مجمل . ولمن شاء التوسع فيه مطالعة كتاب « Sommaire des Archives Turques du Caire » : J. Deny, و « سياستنامة » سنة ١٢٥٣ هـ طبع مطبعة بولاق فى السنة المذكورة . ووثائق دار المحفوظات بالقلعة وسراى عابدين العامرة .

وفى الاشارة الى النظم الاوربية فى مقدمة « السياستنامه » دليل على أن فكرة هذا الديوان مأخوذة عن نظم الغرب التى كان محمد على وثيق الاتصال بهـا عن طريق مستشاريه وأصدقائه من قناصل الدول الاوربية ومن مفكرى الاجانب . بيد أن محمد على كان حريصا جدا على ألا يطبق النظم الغربية فى مصر بحذافيرها وقبل ادخال التعديل عليها أو دراسة مدى صلاحيتها للبيئة المصرية ، و « السياستنامة » السالفة الذكر تنص على أن ما يتناسب مع احدى الممالك قد لا يفيد مملكة أخرى ، وأن ثمة فارقا كبيرا بين ما يمكن أن تهضمه مصر من نظم الغرب وبين ما هضمت مختلف الدول الغربية من هذه النظم[1]

فمحمد على اذن حريص على الافادة من النظم الاوربية . ولكنه أحرص على ملاءمتها لمصر ، وبيئة مصر ، وأحوط من أن يتورط فى نقل نظم مستحدثة الى بلاده نقلا حرفيا قبل التأكد من صلاحيتها لمصر من الوجهة العملية

مهمة ديوان تفتيش الحسابات

و « السياستنامة » المذكورة تشرح مهمة ديوان تفتيش الحسابات فى أكثر من موضع . فتنص على انه : « لما كانت الاصول الجارية بجميع الممالك أن دواوين العموم يقدموا (هكذا) حساباتهم بأواخر السنة الى تفتيش الحسابات مع الاوامر والرجع والسندات ويصير به مناظرة دفاتر الشطب واليومية بالدقة الكلية والمراجعة على السندات والاوامر والرجع حكم الاصول المرعية ، وبعد تحقيق حقيقة ضبط وعدم ضبط الحسابات ، يجرى تسليم الدفاتر مع كافة السندات الى الدفترخانه . فالديوان المذكور (يقصد ديوان تفتيش الحسابات المصرى) صاير تقديم جامعة اليه فقط بآخر السنة ، وهكذا ترسل كشوفات ودفاتر اجمالية الى ديوان المعاونة شهرى (المعية السنية) ، والدفاتر الحاوية اصول المفردات ترسل الى الدفترخانة بغير تحقيق . فلهذا لم يمكن الوقوف على الحقيقة ان كانت الحسابات مضبوطة وخالية عن السقامة أم لا »[2]

فهذا شرح موجز بأسلوب ذاك العصر لمهمة الديوان الحسابية

---

(١) نورد فيما يلى فقرات مما ورد فى السياستنامة (النسخة العربية) ص ٢-٣ عن هذا الاحتياط المعقول بنصه دون تصويب لما فيه من طرافة : « ان الممالك المختلفة الكائنة بأوربا موجود لكل منها قوانين متفرقة بحسب طبيعة واخلاق ودرجة ترتيب اهاليها ، وجارى اجراء حكم امورهم الملكية على مقتضاها . غير انه لما كان عدم توافق قانون مملكة الى اخرى شيئا معلوما ، صار اجراء اى قانون من قوانين الممالك المذكورة بعينه فى هذه الأقاليم شيئا معدوما .. وحيث ان الحكومات التى على الاستقلالية والجمهورية وغيرها اساس اصولها واحد ، فاذا صار رعاية تلك الاصول بهذا الطرف ايضا لا بد ان ينتج منها حسن سلوك المصالح الخيرية مع الفوائد الكثيرة . انما الجارى ان حينما يصير المرام بتبديل اصول ملكية تكون جارية بمملكة ، أولا يلزم تحقيق محذوراتها . ثانيا وجود اسباب تكون موجبة لازالتها . وبالموازنة عنها يصير اظهار مضرتها ومنفعتها . وعند تحقيق منافعها يعطى صورة اليها كما يوافقها .. الخ » (٢) السياستنامه ص ٤-٥

أما مهمته من حيث هي إشراف مالي عام وتوجيه حسن للسياسة المالية للدولة ، فيبدو جليا من الفقرة التالية : « وأيضا بالتوجه من ديوان تفتيش الحسابات الى الدواوين في بعض الأوقات لأجل المناظرة والملاحظة لم يعلم ان كانت الحسابات بالضبط الشافي والسندات موجودة وموافقة للاصول المرغوبة أم لا »

فكأن ثمة موظفين يتوجهون من الديوان الى سائر الدواوين الاخرى (وهي وزارات ذلك العهد) لاجل المناظرة والملاحظة ، أي للمناقشة في الشؤون المالية وابداء الملاحظات التي تكفل حسن توجيه السياسة المالية للدولة كما يرى ديوان تفتيش الحسابات

وهل مهمة ديوان المحاسبة الجديد الا مثل ذلك ؟

وشرح البند الخامس والعشرون من الفصل الثاني من السياستنامة مهمة هؤلاء المفتشين فيما يلي : « المفتشون عليهم ان يتمموا واجبات وظيفتهم كما هو لازم عليهم ، ويلاحظوا المشتروات والمبيوعات والمشاغيل والمعدلات بغاية الضبط والدقة الواجبة ، ويجرون تفتيش المصالح التابعة لتفتيشهم طبق المبرهن بلايحة التفتيش ، مع جرد خزن الصيارف بغتة ، والبحث عن لزوم الاصناف والموجودات والمواشي التي بالمصالح ، وتوزيع الغير لازم على محلات لزومه ، والتأكيد على المديرين (مديري الدواوين الذين هم بمثابة الوزراء الآن) وكافة النظار (أي مديري المصالح) والخدمة على الاجراء كما هو محرر وتتميم خدمتهم . ويلاحظوا اشغالهم وحركاتهم ان كانت بالاستقامة في حق المصلحة أم لا . وكذلك ينبغي ان المشكلات والدعاوى التي تتقدم الى المفتشين لا يؤخرون نهوها وحلها على الوجه اللازم بحضور من يلزم حضورهم . ويعرضوا عن كل ما يلزم اعراضه بأوقاته اولا بأول »

***

كل هذا يدل على ان ديوان المحاسبة الجديد ليس بدعا في مصر وانما هو بعث لديوان تفتيش الحسابات الذي أنشأه محمد علي الكبير من قبل

وكون رئيسه الحالي في مقام الوزير ليس بدعا كذلك ، فان ديوان تفتيش الحسابات كان « ديوانا » ، والوزارات على عهد محمد علي كانت تنعت بالدواوين ، وهذا يضعه في صف سائر وزارات ذلك العهد ، ويضع رئيسه في مقام الوزير

ومهمة ديوان المحاسبة لا تكاد تختلف عن مهمة ديوان تفتيش الحسابات ، الا في الوضع البرلماني الذي هو من المستحدثات في مصر ، فان عهد محمد علي الكبير لم يعرف بالنظام النيابي

انما المهم هو ان ديوان المحاسبة لا يمت الى « الحسبة » في النظم الاسلامية بسبب ، اللهم الا في التشابه اللفظي

محمد محمد توفيق

ماجستير في التاريخ

أعظم قواد التاريخ

للمارشال ويفل

طالعنا قراء « الهلال » فى العدد الماضى بمقال الناقد الحربى الانجليزى المشهور « ليدل هارت » فى « العبقرية الحربية » . وقد أثار هذا المقال كثيراً من البحث والنقد بين من يعنون بالفن الحربى والتاريخ العسكرى . وكان ممن شاركوا فى بحث هذا الموضوع قائد بريطانيا الأكبر « المارشال ويفل » بمقال مسهب فى جريدة التايمز ، نقدمه ملخصاً

تثير بحوث « ليدل هارت » اهتمام المفكر الحربى دائما ، وكثيرا ما تصدمه وتربكه بما فيها من جدة وطرافة . ولهذا فانى أريد أن أناقشه فيما كتب عن « العبقرية الحربية » وان لم يكن لى الا قسط يسير مما له من العلم بالتاريخ الحربى ، فضلا عن أنه لا تتيسر لى فسحة من الوقت أرجع فيها الى الكتب الحربية لأجدد ما يتعلق منها بذاكرتى التى علاها الصدأ . ذلك أن هذا المقال حملنى على أن أعاود التفكير فى موضوع القيادة والقواد ، الذى سبق أن تناولته فى بعض المحاضرات والمقالات (١)

« العبقرية » كلمة مضللة

العبقرية كلمة متعبة ، بل كلمة مضللة ، اذا اتخذناها فى الحديث عن فن الحرب ، بما تدل عليه من معنى شائع ، أى انها الموهبة الطبيعية التى تمكن الانسان من النجاح بفضل الوحى والالهام ، لا عن طريق الدراسة والتفكير

ذلك أن القواد العظام ، على نقيض الشعراء العظام ، لا يولدون بل يصنعون . ولن يصلوا الى المرتبة العليا فى فن القيادة الا بواسطة الدراسة المتصلة والتفكير الدقيق ، وان كان من اللازم أن يحوزوا ، فضلا عن هذا ، بعض المواهب الطبيعية ، مثل : القدرة على السرعة فى تقرير الامور تقريرا حاسما ، وعلى السداد والاصابة فيما يصدرونه من الاحكام ، والشجاعة فى مواجهة الاحداث وعلاج المواقف ، الى جانب الخشونة والصلابة التى أخشى أن تصبح من الصفات النادرة بسبب ما تركه فينا الحضارة من آثار النعومة

وأرى فى بحث هذا الموضوع أن أبدأ بوضع « المقاييس » التى يمكن أن نقيس بها عبقرية القائد ، ثم نعرض طائفة من القواد المشهورين فى التاريخ لنرى مدى توافر هذه

---

(١) للمارشال ويفل رسالة عن « القيادة والقواد » تضم محاضرات ألقاها فى هذا الموضوع فى جامعة كمبردج ، وقد طالع «الهلال» قراءه فى أحد أعداده الماضية بخلاصة احدى هذه المحاضرات التى قامت وزارة الدفاع الوطنى بترجمتها كلها الى اللغة العربية فى كتيب صغير

الاقيسة فيهم . وبهذا نسير على عكس الخطة التى اتبعها ليدل هارت حين رأى ان أيسر طريق لتبين سمات العبقرية وتحديد معالمها فى الميدان الحربى ، ان يجمع طائفة القواد المشهورين ويختبر عناصر عظمتهم ويتعرف الى مختلف مؤهلاتهم ، ثم يستنتج من ذلك شروط العبقرية ودلائلها وأوصافها

ثم يجب ألا نطبق هذه « المقاييس » الا على القائد الذى تتوافر فيه الشروط التاليه : أن يكون قد تولى قيادة جيوش كبيرة ، وكان مستقلا فى قيادته لها تمام الاستقلال ، وخاض أكثر من معركة واحده ، وكان فى بعض معاركه مهاجما وفى بعضها مدافعا . فاذا توافرت هذه الشروط فى تاريخ القائد ، أمكن أن ندرسه فى ضوء ما سنضع من مقاييس

وهذه المقاييس ، أو المؤهلات ، خمسة :

١ ــ مقدرته فى اعداد الجيوش وتقديمها لساحة القتال وهو ما يعرف « بالاستراتيجى »

٢ ــ مهارته فى ادارة المعركة أى ما يعرف « بالتاكتيك »

٣ ــ قدرته على جعل علاقته بحكومته ، وبحلفائها ، علاقة وثيقة

٤ ــ كفاءته فى تدريب جنوده ، أو فى الاشراف على هذا التدريب

٥ ــ همته ونشاطه خارج ميدان الحرب ، وفى معمعة القتال كذلك

والآن لنبحث هذه المقاييس فى شىء من التفصيل

يرى ليدل هارت أن ضخامة الجيوش الحديثة ، واتساع ما تقاتل فيه من الميادين ، من شأنه ان يجعل فن اعداد الجيش أكثر أهمية من فن ادارة المعركة . ولكنى لا أوافقه على هذا الرأى ، وأعتقد ان أخطر واجبات القائد وأشقها ليس تقديم الجيوش اللازمة للقتال فى صورة مرضية ، بل ادارة هذه الجيوش وتوجيهها الى حيث تظفر بالنصر . والواقع أن « الاستراتيجى » يقوم على قواعد وأصول معروفة ، أما « التاكتيك » فيتطلب فى غالب الامر الابتكار والتجديد ، وان كان هذا لا ينفى أن بعض القواد ابتكروا فى طرق اعداد جيوشهم وتقديمها لساحة القتال ، وكان هذا هو السر فى نصرهم

على أنه يمكن أن تشبه الحرب بلعبة البريدج : فاعداد الورق مثل اعداد الجيش ، أما طريقة ادارة الورق فمثل ادارة الجيش . والعمل الاول أيسر من العمل الثانى ، لان له فى الغالب قواعده التى يمكن دراستها ومعرفتها . وعلى العمل الثانى تتوقف النتيجه الاخيرة ، ولهذا وجب أن نعده أكثر أهمية

ولا شك أن القائد الذى يبتكر أسلوبا جديدا فى ادارة الجيش والمعركة يتفوق على سواه فى مجال الشهرة والعبقرية الحربية . وقد قام هذا الفن ــ فن الاستراتيجى ــ منذ القدم على ثلاثة عناصر : عنصر تحريك الجيوش . وعنصر العدة الحربية . وعنصر توجيه الضربات . ولكن الدور الذى يلعبه كل من هذه العناصر يختلف بحسب عصور التاريخ وما ابتكر فيها من وسائل القتال وأدواته . فكلما جد فيها جديد أمكن لقائد الجيش ، أو لمشيريه من الضباط أو المدنيين ، أن يعدل فى مدى الدور الذى يؤديه كل عنصر من

العناصر الثلاثة ، وبذلك يضمن التفوق على خصمه اذا هو لم يجار ما يحدث من أدوات القتال من تغيير وتجديد

أما عن علاقة القائد بحكومته وحلفائها ، فقد يبدو أن ليس من الانصاف أن نقيس مقدرة رجل الحرب بهذا المقياس الذى هو من خصائص رجل السياسة . ولكن الواقع أن هذه العلاقة من أهم العوامل فى ادارة الحرب ، فان القائد الذى يعجز عن الظفر بثقة حكومته كى يحملها على تنفيذ ما يراه من الخطط وتجنب ما ينكره منها ، أو الذى يسىء العلاقة بينه وبين حلفاء حكومته ، خليق بأن يخسر الحرب ولو توافرت له جميع أسباب النصر ، فمن الحق أن تعد مقدرته فى هذا السبيل مقياسا من مقاييس كفاءته

والتاريخ الحربى حافل بكثير من الامثلة على أن مقدرة القائد فى تدريب جيوشه تدريبا سديدا قد تكون السبب فى انتصاره على عدو يفوقه عددا وعدة . ولهذا فان القائد الذى يوفق الى تدريب جنوده على الوجه الذى يلائم المعركة التى سيخوضها ، جدير بأن يصيب من التقدير مثلما يصيبه القائد المظفر فى ساحة الحرب

أما المقياس الاخير ، أى همة القائد ونشاطه ، فهو فى الواقع أهم اسباب النجاح ، لانه مصدر العناصر والمؤهلات الاخرى ، ولا يمكن أن تجد فى صفحات التاريخ قائدا عظيما كان ينقصه هذا العنصر الفعال

من هم القواد العباقرة ؟

ننتقل بعد هذا الى عرض أسماء البارزين من قواد التاريخ ، وقد عدد ليدل هارت نفرا كبيرا منهم ، الا أننى لا أريد أن أناقشه فى بعضهم لانى لا أعرف عن صفاتهم وأعمالهم ما يؤهلنى الآن للحكم عليهم حكما رشيدا ، ولا شك أن جوستاف ادولف السويدى ، وجونزالو القرطبى ، وتورين الفرنسى ، وغيرهم ، من أعلام القواد ، ولكنى كدت أنسى حروبهم ومعاركهم ، فليس من الحكمة ان أتحدث عنها الآن . وكذلك الامر فيما يتعلق بجنكيز خان وسابوتاى ، فلست أريد الحديث عنهما برغم أنهما خاضا حروبا واسعة الميادين ظفرا فيها بانتصارات باهرة حاسمة وحققا فيها نتائج تاريخية خطيرة ، وذلك لانى لا أعلم كثيرا عما اتخذا من أساليب الحرب ووسائل القتال

انما أريد أن أحصر كلامى فى أولئك القواد الذين لا شك فى عظمتهم ومقدرتهم ، والذين يمكن أن نسميهم القواد « الكلاسيك » لان كفاءتهم فوق كل جدل وانتقاد ، ولان سمعتهم ما تزال تزداد على مر الايام ذيوعا وانتشارا ، وهم : هانيبال ، شيبيو افريكانوس ، الاسكندر المقدونى ، يوليوس قيصر ، بليزاريوس ، فردريك البروسى ، كرومويل ، مارلبرو ، نابليون ، ولنجتون ، لى الامريكى ، فون مولتكة ، فوش ، لدندورف . فلنذكر عن كل منهم كلمة وجيزة نعرض فيها كفاءاتهم على أساس « المقاييس » التى ذكرناها آنفا:

هانيبال : يجب أن يوضع هانيبال فى المقدمة من القواد العظام سواء نظرنا اليه من وجهة مقدرته على اعداد الجيوش ، أو من وجهة كفاءته فى ادارة المعركة . وان انتصاره فى معركة « كاني » ليعد نموذجا ومثالا يقتدى به فى أعظم الشعوب الحربية الحديثة . ولاشك انه كان الى جانب ذلك قديرا فى فن تدريب الجنود على القتال ، فانه يبدو أن أهل قرطاجنة الذين سار بهم من نصر الى نصر لم يكونوا جنودا بالفطرة ، بل بالتدريب والاعداد

أما هزيمته فى النهاية فترجع الى أن حكومته خانته وحطمته ، ومن العسير أن تتبين الآن مدى مسئوليته عن سوء العلاقة بينه وبين حكومته . ولكن هذه الهزيمة التى حلت به فى صورة مروعة أليمة لا تنقص شيئا من عبقريته الحربية التى مكنته من أن يخوض معارك مظفرة عددا من السنين ضد قوات تفوقه عددا وفى ظروف شاقة عصيبة

على أن من العسير تقدير عظمة هانيبال تقديرا صحيحا ونحن نجهل كثيرا من ظروفه ومعداته ، فمن يدرى ماذا كان يحدث لو أتيح له بعد معركة « كاني » خمسون فيلا أخر ؟ فلربما دخل يومئذ روما وتغير وجه التاريخ تغيرا كاملا !

شيبيو افريكانوس : وقد اعتبره ليدل هارت أعظم من نابليون ، وهو فى الحق جدير بأن يقدر كل التقدير ، وان كان خصمه هانيبال قد استأثر دونه بالشهرة الدائمة والصيت الخالد ، برغم أن الخطة الحربية التى لجأ اليها افريكانوس ، وهى تجنب لقاء العدو وجها لوجه ، وايثاره أن ينال ويتحيف من أطرافه وحواشيه ما يوهن قوته شيئا فشيئا — هذه الخطة الماكرة هى التى ختمت جميع انتصارات هانيبال بهزيمته المروعة . ولهذا فانى أرى أن افريكانوس يجب أن يكون على الاقل قرين هانيبال ، وأن يقف معه جنبا الى جنب فى صف القادة العظام

يوليوس قيصر : وفى تاريخ الرومان نفر من القواد العظام ، فالى جانب شيبيو افريكانوس يجب أن نذكر يوليوس قيصر وان كان أقل من زميله — من الناحية الحربية الصرفة — ذيوع صيت . وقد خاض معاركه الاولى ضد القبائل المتبربرة التى كانت تغير على الدولة الرومانية وتتربص بها الدوائر لتثل عرشها وتحطم مجدها . أما معاركه الاخيرة فكانت ضد مواطنيه أنفسهم الذين لم يكونوا دائما مخلصين فى تأييده ومؤازرته

وقد ترك قيصر تقارير حربية طويلة جافة ، ولكنى أرى برغم ما خاض من معارك كثيرة بين هجوم ودفاع أنه أقل قدرا من هانيبال وافريكانوس

الاسكندر الاكبر : فى هذا القائد تجسمت مواهب المغامرة والجرأة التى يمتاز بها الشباب . وقد ورث عن أبيه فيليب قوة حربية كبيرة مدربة ، كما كان سيد نفسه فلم تكن ثمة حكومة يستأذنها أو يستشيرها ، ولهذا وجد طريقه الى المجد سهلا ميسرا . ولا شك أن الاسكندر بفتوحاته التى اجتاح بها آفاق المعمورة حينذاك ، ثم بموته فى سن الشباب ، يعد فى الفلك الحربى كالنيزك الذى هوى متألقا ملتهبا فى الفضاء . فيجب أن يوضع فى مكانه

الرفيع وسط نجوم الحرب اللامعة ، الخالدة ، فى كبد السماء

بلزاريوس : انى اشعر بكثير من الاعجاب بهذا القائد الذى لم يظفر بكثير من الشهرة الواسعة ، فانه يبدو لى أنه يملك من الخيال الخصب ومن القدرة على الابتكار أكثر مما يملك أى قائد عظيم قرأت عنه . وقد كان يبتكر دائما من الوسائل ما يمكنه من قهر خصمه وبلوغ هدفه ، وهى وسائل تدل على انه تفوق على جميع أعدائه بالذكاء والدهاء . وكان الى جانب هذا محاربا جريئا مقداما ، كما كان عظيما فى تدريب جنوده واعداد كتائبه

وقد خدم سيده الامبراطور جستنيان بذمة واخلاص ، وكان جزاؤه على ذلك نكرا وشرا . وكذلك كان مخلصا لخلفاء حكومته وقد وثق علاقته بهم فنجح فى كسب ثقتهم به . وقد كان رجلا نبيلا فى معاملة من يهزم أو يؤسر من خصومه . فهو قائد عظيم من جميع الجوانب

فردريك الاكبر : أما وقد رأيت ان اتجاوز عن جنكيز خان وسابوتاى وغيرهما من قواد العصور الوسطى ، لقلة معارفى عنهم ، فانى اقفز قفزة كبيرة تنقلنى من العصر القديم الى العصر الحديث ، حيث أجد فى مطلعه فردريك الاكبر الذى تتمثل فيه التقاليد العسكرية البروسية ، المعروفة بصرامتها من ناحية ، وبكفايتها من ناحية أخرى

ويشبه فردريك الاسكندر من وجهة أنه ورث جيشا كبير العدد موفور العدة كامل التدريب ، فكان فضله محصورا فيما ابتكره من خطط جديدة فى توجيه هذا الجيش وادارة ما خاض من المعارك ، وان كان قد اقتبس بعض هذه الخطط من القواد الرومان القدماء

وكان كالاسكندر فى أنه بدأ حروبه بالاغارة على جيرانه ليأخذ منهم قطعا من الارض يضيفها الى ملكه ، ولكنه كان يختلف عن الاسكندر اختلافا بينا : ففى الاسكندر تمثل الشباب الجرىء ، المغامر ، المندفع ، أما فى فردريك فتمثل الروح البروسى الباطش ، العنيد ، المتزن

وقد صارت السياسة التى سار عليها ، وهى ايثار الهجوم مهما كلف من ضحايا أو مهما كانت الظروف والصعاب ، تقليدا يسير عليه الشعب الالمانى فى كل ما يخوض من حروب

كروموبل : لا شك أن الرجل الذى لم يحترف الجندية الا فى سن الاربعين ، والذى يجد فى نفسه حينذاك مقدرة على قيادة جيش كبير ، يستحق أن يعد قائدا كبيرا . وقد استطاع كروموبل فى هذه السن أن يكون جيشا من أنصاره ، وأن يدربهم تدريبا كاملا، وأن يبث فيهم روح العزم والحماسة ، ولكنى لا أرى فى فنه الحربى شيئا مبتكرا أو ممتازا . وقد كاد أن يهزم فى « دونبار » هزيمة منكرة لم ينقذه منها الا حسن الحظ حين وقع عدوه « لزلى » فى كثير من الاخطاء الحربية الفنية . ولهذا فانى أرى ان كروموبل لن يجد مكانا فى القائمة التى تضم اسماء القواد العباقرة . ولعل السبب فى ذلك انه لم تتح له الفرصة

التى يظهر فيها ملكاته الحربية فى ميدان أفسح مدى وحرب أطول أمدا

مارلبرو : أظن انه لا جدال فى أن مارلبرو هو أعظم قائد حربى أنجبه الجنس البريطانى ، وان فى تاريخه ما يؤهله لان يعتبر أوفر قواد بريطانيا نصيبا من المواهب الحربية

فقد كان عظيما فى اعداد جيوشه ، قدر ما كان عظيما فى ادارة معاركه . وهو وان لم يبتكر شيئا كثيرا فى « التاكتيك » الحربى الا أن حركات جيوشه فى ساحة القتال كانت تدل دائما على أنه وهب النشاط ، والجرأة ، والحاسة الممتازة

وكان الى جانب ذلك بارعا فى علاقته بحكومته ، فاستطاع أن يقنعها بأن تواصل حربا لم يكن يرجى فيها النصر أول الامر ، وأن تمده بما يلزمه من جند وعتاد . وما من أحد سواه كان يستطيع أن يبدى ما أبدى من صبر وحذق فى علاقته بحلفائه الهولنديين المتعبين

نابليون : والآن نأتى الى نابليون الذى لا يتردد كثيرون فى أن يضعوه فى الذروة العليا بين جميع قواد التاريخ . أما أنا فلا استطيع ان ارتفع به الى حيث اقرنه بمارلبرو ، فانه وان كان سيدا عظيما من ناحية اعداد الجيوش « الاستراتيجى » ، الا انه لم يبلغ من ناحية ادارة المعارك « التاكتيك » هذه الدرجة الرفيعة . وقد يبدو هذا الحكم غريبا ، ولكنى اعتقد ان دراسة معاركه دراسة بعيدة عن التأثر باسمه الخفاق تؤدى الى ارتضاء هذا الحكم

ففى معاركه الاولى فى ايطاليا لم يتخذ من الصبر ما كان خليقا أن يتيح له من الظفر ما لم يتح له الا عن طريق الجرأة والمغامرة . ثم انه لم يكن يستفيد شيئا من أعمال المناورة والمراوغة ، بل كان يدفع جنوده الى ساحة القتال من أقصر طريق

وقد هزم فى معركة « مارنجو » بسبب اندفاعه ومغامرته ، ولم ينقذه من الهزيمة الا وصول « ديزيه » فى الوقت الملائم . وكان من الممكن أن تتحول بعض معاركه مجازر مروعة لو كان خصومه اكفأ وأدهى مما كانوا . أما معاركه الاخيرة فى ليبزج وواترلو فلم يبد فيها من الفن الحربى شىء يذكر . ومعركة اوسترلتز التى تذكر على انها مثال للمعركة التى وجهت فيها الضربة المضادة الحاسمة ، لم تبلغ فى براعتها ما بلغته معركة سلامنكا التى أعدها سيدة معارك ولنجتون

وقد كان نابليون فى أكثر معاركه يستفيد من أخطاء عدوه ، أكثر مما يبدى من البراعة فى ادارة المعركة . وربما كنت مخطئا فى أحكامى هذه ، ولكنى أقرر اننى لا استطيع أن أعد نابليون عظيما فى فن ادارة المعارك

ولم يكن نابليون دبلوماسيا فى معاملة حلفائه ، فكانت الفرق الاجنبية تنتهز أول فرصة لتهجره وتخلى بينه وبين عدوه . كما انه لم يعن العناية اللازمة بتدريب جنوده . ولكن نشاطه الشخصى كان كفيلا بأن يغطى جميع هذه العيوب

وقد كان نابليون فى معظم حياته الحربية سيد نفسه ، غير مسئول أمام حكومة ما ،

وعند ما كان فى يده أمره مسئولا أمام حكومته كان يضرب بأوامرها عرض الحائط

ويلاحظ أنه هو القائد الوحيد من بين القواد العظام الذى تدرب فى سلاح المدفعية ، ولعل هذا هو السر فى أنه كان دائما يسىء توجيه فرق الفرسان والمشاة فى ساحة القتال ، مؤثرا أن يعتمد فى قهر عدوه على المدفع أولا . أو لعل مرجع حكمى هذا الى أنى رجل من المشاة انحيز لهم وأغار من رجال المدفعية

ولنجتون : من الممكن أن يعتبر « أصح » القواد العظام جميعا . كان رجلا شديد الثقة بنفسه ، شديد الاتزان فى حكمه . والى هذا يرجع نجاحه أكثر مما يرجع الى ذكائه أو براعته . وقد كان سيدا فى فن الدفاع ، وضربته المضادة فى « سلامنكا » أعجوبة حربية ، على أنه كان يبدى كثيرا من الجرأة والاقدام عند ما تتاح له فرصة الهجوم . وقد كانت علاقاته بحكومته وحلفائها دليلا على سداد تفكيره وعلى حاسته العملية . وفى رأيى أن أعظم قائدين فى التاريخ هما ولنجتون وبليزاريوس

لى : يمكن أن يعد « لى » الذى طغى اسمه على اسماء جميع قواد الحرب الاهلية الامريكية أكثر الشخصيات الحربية جاذبية ودنوا الى القلوب . وهذه هى نقطة الضعف فيه التى انتهت به الى الهزيمة . فقد كان « جنتلمانا » وهو يمارس عملا يتطلب الخشونة والصرامة . ولو تذرع « لى » بشىء من الحزم والشدة لكان خليقا بفنه الحربى البديع أن يقهر خصومه ويكسب الحرب

مولتكة : هو مفكر حربى أكثر من قائد جيش . وقد كان بارعا فى ادارة معاركه وان لم يكن قديرا فى اعداد جيوشه

فوش : أعتقد أن ليس فى قواد الحرب الحديثة من يبلغ الصف الاول من صفوف القواد العظام . فان فوش قد ارتكب أخطاء كثيرة ، ولكنه كان يعود فيصلحها فى النهاية، بفضل ما أوتى من روح قوى غلاب كان هو السر فى انتصاره

لدوندورف : وكذلك لدوندورف الذى لا يرقى الى المرتبة العليا برغم ما أوتى من مهارة ومن معرفة واسعة بفن الحرب . والواقع أن أعظم شعب حربى فى القرن الماضى ، وربما كان فى جميع عصور التاريخ (وما أسوأ الحرب من عمل !) لم يستطع أن ينجب فى عهده الاخير قائدا فذا ، بل قنع بأن ينجب رجالا من أمثال هندنبورج وهتلر يشرفون على شؤون القتال ، بينما يدور من وراء ظهورهم الجهاز الحربى الالمانى الذى أعد اعدادا دقيقا ، فاذا تعرض هذا الجهاز لخطر ما ، تعطل وتوقف دون أن يجد القائد العبقرى الذى يحركه !

هذه كلمة وجيزة عن أشهر قواد التاريخ أكتبها فى ساعة أو ساعتين أختلسهما من وقتى فى ادارة ما ألقى على من عمل حربى، وفيها كثير من الاحكام التى تثير النقد والشك، وعذرى فى ذلك أنى كتبتها فى عجلة لا تتيح لى أن أرجع الى المراجع المعتمدة

رأى علمى فى تفسير الأحلام

لماذا نحلم ؟

تنقسم الحياة الانسانية بين أمرين نقيضين : اليقظة والنوم ، وتكون فى بعض الحالات وسطا بين هذين الامرين

فعند ما نكون نياما ـ والنوم يستغرق ثلث حياتنا ـ فانا لا نعى شيئا مما يحدث لنا . أى أن هذا الذى نسميه « الوعى » ينعدم ، أو يغفو على الأقل ، فى أثناء النوم . ولكن هذه الناحية السلبية تقابلها ناحية ايجابية ، هى التأثير الفسيولوجى للنوم ، فان الجسم ، فى خلال الفترة التى ينامها ، يستعيد نشاطه ويستزيد من حيويته

يمكن إذن أن نقول ان حالة اليقظة تنتج مواد سامة تضعف الجسم وتهدمه ، بينما يحدث عكس هذا فى حالة النوم التى تنتج ما يعيد الى الجسم نشاطه وقوته

وأكثر أجزاء الجسم تأثرا بما يصيبه فى اليقظة من خور وهمود ، وما يصيبه فى النوم من قوة ونشاط ، هو المخ . وهناك أعضاء أخرى تتأثر بهذا ، ولكنها أقل تأثرا من المخ ، فهو أكثر الاعضاء حساسية

الفرق بين الحلم واليقظة

وبين هاتين النهايتين ـ اليقظة من ناحية والنوم من ناحية أخرى ـ توجد حالة ثالثة هى حالة الحلم . ولهذه الحالة قوانين تختلف عن القوانين التى تحكم الحالتين الاخريين . فمن وجوه هذا الاختلاف ما يتعلق « بالوقت » ، فان قيمته فى حالة اليقظة أو حالة النوم تختلف اختلافا تاما عن قيمته فى حالة الحلم . فسقوط شىء ما لا يستغرق فى الواقع سوى بضع ثوان ، ولكنه فى حالة الحلم يؤلف قصة كبيرة ، تستغرق حوادثها وقتا طويلا ، وتنتهى فى ختامها بسقوط هذا الشىء

فما هى المدة التى استغرقتها هذه القصة التى يراها الحالم ؟ أهى تستغرق فى الحلم الوقت الذى يلزم لها فى حال اليقظة ؟ كلا انها لا تدوم فى الحلم أكثر من هذه الثوانى التى استغرقها ذلك الشىء فى أثناء سقوطه . فكأن الحلم « صورة مركبة » تبدو فيها مرة واحدة الحوادث المتتالية التى انتهت بسقوط هذا الشىء

اذا عرفنا هذا ، أمكننا أن نعرف حقيقة بعض الاحلام التى تبدو غريبة محيرة . فهذا نائم يرى فى الحلم أن ثمة حريقا اتقد فى البيت الذى ينام فيه ، وأن ألسنة الحريق أخذت

تعلو وتمتد هنا وهناك حتى كادت تلتهمه ، فيهب من نومه خائفا مفزوعا .. فاذا به يرى المصباح الموضوع الى جانبه وقد سقط منذ لحظات الى الارض وبدأ ما انسكب من بتروله يحترق ويشتعل

انه لا بد أن يقول انه تنبأ فى أثناء حلمه بسقوط هذا المصباح ، وأنه بفضل هذه النبوءة استطاع ان يخمد النار قبل أن تمتد ألسنتها وتلتهم البيت كله . أى أنه سيقول ان الحلم كان سابقا لوقوع المصباح . ولكن هذا خطأ ، والصحيح أن المصباح سقط أولا ، ثم حدث الحلم بعد ذلك . ولكن هذا الحادث الصغير ، أى سقوط المصباح ، تراءى له فى الحلم فى صورة قصة طويلة مفصلة ، فيها لهب ونيران ، وفيها بيت يحترق وأناس يصرخون ، وما الى ذلك من صور الحريق

والمسألة كلها ترجع الى أن « للوقت » فى اليقظة قيمة تختلف عن قيمته فى الحلم . فالحريق الذى يستغرق فى اليقظة بضع ساعات لا يلزمه فى الحلم سوى ثوان أو دقائق

الأحلام ثلاثة أنواع

وهناك أنواع كثيرة من الاحلام ، الا أن أهمها هذه الانواع الثلاثة :

١ ــ أحلام ترجع الى ما سبق أن رآه الانسان فى اليقظة

٢ ــ وأحلام ترجع الى الحالة العضوية لجسم الانسان

٣ ــ وأحلام تتعلق بنوع من « الوعى » يختلف عن هذا « الوعى » الذى نعرفه ، وهى التى يمكن ان نسميها « أحلام النبوءة »

والنوع الاول يشمل هذه الاحلام التى نرى فيها صورا غامضة مضطربة لما مر بنا من مشاهد وحوادث وقعت ، فى غالب الامر ، فى النهار السابق لليلة الحلم مباشرة . ولا يجد المرء بطبيعة الحال مشقة فى تفسير هذا النوع من الاحلام

أما « الاحلام العضوية » فتحتاج فى تفسيرها الى شىء من العلم ، لمعرفة الصلة بين الصورة التى يراها النائم وبين حالة بعض أعضاء جسمه . فرؤية الثعابين والافاعى فى الحلم تنشأ من حالة اضطراب الامعاء

وكثيرا ما يرى النائم نفسه داخل كهف مزين بمناظر خلابة وصور غريبة ، فمتى يحدث هذا ؟ عند ما يكون النائم مصابا بصداع أو دوار !

فلكل حلم من هذه الاحلام « مفتاح » اذا عرفه الانسان سهل عليه تأويل الحلم تأويلا صحيحا . فرؤية سور حديدى انتزعت بعض قضبانه ، والتوى أو تهشم بعضها الآخر ، ليس له من معنى سوى أن النائم يعانى ألما فى أسنانه . وقد لا يأتيه هذا الألم الا بعد أن ينام ، فاذا استيقظ بعد رؤية هذا الحلم أحس بهذا الألم ، فظن أن الألم نتيجة الحلم

الذى رأى ، مع أن العكس هو الصحيح ، وهو أن الحلم لم يقع الا بعد ان نزل الألم بالاسنان

وقد يرى الحالم مرجلا يغلى بالماء الفائر ، فيستيقظ من نومه وقد ارتفعت درجة حرارته نتيجة اصابته بالحمى . أى ان هذا الحلم كان نتيجة مرض حل بالنائم

وهكذا يمكن تفسير مئات الاحلام على وجهها الصحيح ، متى عرفنا « مفتاحها » الذى يبين الصلة بين أمراض الجسم وأوجاعه وبين ما يتراءى للنائم من صور الاحلام

أما الاحلام التنبؤية فهى التى يحار العالم فى تعليلها . ولكن من العبث والخطأ انكارها ، فان الادلة على صحتها كثيرة جدا . وأكثرنا يعرف أشخاصا تتراءى لهم هذه الاحلام التى تنبىء عن أمور تقع بعد الحلم بساعات أو أيام أو سنين . وأكثر هذه الاحلام وقوعا ما يتعلق منها بموت بعض من نحبهم من الاقارب أو الاصدقاء . ومثلها الاحلام المتعلقة بالحوادث ، وبالمرض ، وباقبال الحظ وادباره

وأكثر الناس رؤية لهذا النوع من الاحلام هم طائفة البحارة ، والرحالة ، وعمال المناجم ، ومن اليهم ممن يتعرضون فى حياتهم لكثير من الاخطار والاحداث ، التى يتغلبون عليها بطريق الجرأة والمهارة حينا ، وبطريق المصادفة والتوفيق حينا آخر . ذلك أن هذه القدرة على اتقاء الخطر ، أو هذا التوفيق الى النجاة منه ، لا يلعبان دورهما فى اليقظة وحدها ، بل قد يؤديانه فى حالة الحلم أيضا . واذن فممكن أن نقول ان هذا البحار الذى تعود لقاء الاخطار ومصادفة الخطوب فى كل ساعة من ساعات حياته ، تنشأ فيه ملكة تنبؤه عما سيقع فى المستقبل من كوارث وأحداث . وبهذه الملكة يستشف فى حلمه بعض الوقائع المستقبلة

ولكن هل من تأويل علمى لهذه الاحلام التنبؤية ؟ الواقع أن حدوثها معناه ان ما نعرفه عن طبيعة « الوقت » ليس هو كل شىء فى الوجود . فنحن الى الآن لا نعرف الا الاشياء التى مضى « وقت وقوعها » ، أما هذه الاحلام فتدل على أن هناك أشياء فى حكم «الوقوع» وان لم يحن بعد وقت وقوعها . وليس فى الوسع ايضاح هذه المسألة لانها تتعلق بالعالم الروحى الذى لم يستطع العلم حتى الآن أن ينفذ اليه لتعرف ظواهره واستكناه قوانينه

الأحلام والمسألة الجنسية

وقد عالج فرويد وأتباعه فى بحوثهم فى التحليل النفسى « الاحلام العضوية » وحدها ، فزعموا أن جميع الاحلام ترجع الى الرغبات الجنسية . وهذا اسراف فى الحكم ، اذ الواقع ان المسألة الجنسية لا تتناول الا النوع الثانى من الاحلام التى تتعلق بحالة الجسم وما يعانيه من دوافع ورغائب

ومن هذا القبيل نوع غريب من الاحلام يرى فيه الانسان أنه يقابل نفسه . فالعادة

فى الحلم أن يقابل الرجل المرأة ، وان تقابل المرأة الرجل . أما فى هذا النوع فان الحالم يرى أنه يقابل نفسه ، كما ترى الحالمة أنها تقابل نفسها . فما تعليل ذلك ؟

يجب أن نذكر أن فى كل رجل كمية من « الانوثة » ، وفى كل امرأة كمية من « الذكورة » ، ولكن هذه الكمية ليس لها تأثير عضوى فى حالة الشخص الطبيعى ، بل لا يتعدى تأثيرها الناحية النفسية . ونحن وان كنا لا نتبين فى أنفسنا وجود هذا العنصر الغريب علينا ، الا أنه يؤدى دوره فى بعض عواطفنا وميولنا . وهذا هو مرجع هذه الاحلام التى نقابل فيها أنفسنا ، لاننا فى الواقع نقابل « الجنس الآخر » المختبىء فينا

وأكثر الناس تعرضا لهذه الاحلام هم طائفة الفنانين ، ومن اليهم من ذوى الخيال المرهف والحس الدقيق ، لان « الجنس الآخر » أقوى فيهم منه فى سائر الأفراد العاديين

هل للاحلام فائدة ؟

وكثيرا ما يسائلنى أحدهم : هل لما نرى من الاحلام أية فائدة ؟ فأجيب على هذا بأن الحالة العادية تؤدى الى أن يقضى الانسان فترة النوم مستغرقا فيه لا يعى شيئا مما يحدث لنا ، ولا يرى شيئا من الرؤى والاحلام

ولكن للاحلام مع هذا فائدتها ، فيجب أن نذكر أن كثيرا من آثار الفن لا يؤخذ من عالم اليقظة بل من عالم الحلم . وقد ذكر الموسيقى مندلسون أنه رأى نفسه فى الحلم ممسكا بكمانه يعزف عليه لحنا من الموسيقى ، فاستيقظ من نومه متذكرا هذا اللحن بجميع أنغامه وتوقيعاته ، فأمسك أداته الموسيقية وعزفه ، فاذا به من أعظم ما أنتج من ألحان

وليست فائدة الاحلام مقصورة على الشعراء ، والموسيقيين وأضرابهم من الفنانين ، بل يجب أن نذكر جان دارك لنرى كيف يكون الحلم فى بعض الاحيان بالغ الاثر فى حياتنا . فان ما رأته هذه الفتاة من انها تقود جيش فرنسا ، وتطرد عدوها من أرضها ، وتتوج ولى عهدها ملكا عليها – هذا الحلم كان أقوى دافع لها على أن تفعل ما فعلت ، فنقلت ما تراءى لها حلما الى عالم الحقيقة

وانى أعتقد بعد هذا أن عالم الاحلام جدير بأن يبحث بحثا علميا واسعا ، لان كل ما قام به رجال التحليل النفسى فى هذا السبيل لا يتعدى أطرافه وحواشيه . وأقول ان هذا البحث يجب أن يقوم به علماء يؤمنون بأن الى جانب هذا العالم المادى ، عالما روحيا ، له قوانينه وله مظاهره . ولست أدرى ما سوف تتمخض عنه مثل هذه الدراسة من نتائج ، ولكنى واثق من أنها ستخرج للعالم طبا جديدا وعلم نفس جديدا

(من مقال للدكتور يوجين كوليسكو فى مجلة ورلد دايجست)

قصة للفيلسوف الفرنسى فولتير

حكمة الانسان

خطر لمنون ذات يوم أن يكون رجلا حكيما . وهذا خاطر كثيرا ما يدور بأخلاد بعض الاغبياء . . فقال فى نفسه : ان خير وسيلة لبلوغ هذه الغاية هى الابتعاد عن نزوات الهوى ، وهذا مرام ليس أيسر ولا أقرب من ادراكه . وليكن أول همى أن أبتعد عن هوى النساء . فاذا وقع بصرى على غادة ذات حسن ودلال قلت لنفسى هذا الحسن عرض سوف يزول : هذه الوجنات المتوردة سوف تزوى ، تلك العيون الفاتنة سوف تذبل ، هذا الصدر الناهد سوف يضمر ، هذا الشعر الداعج سوف يسقط أو يشيب وكل ما على هو أن أنظر اليها فى الحاضر بعين المستقبل ، ولا شك ان عقلها الصغير سوف لا يتغلب على عقلى

ولأكن زاهد النفس على الدوام ، فلا تخلبنى مباهج الحياة، ولا تغرينى نفسى بالشراب الشهى والمجالس الصاخبة . . وما على الا أن أفكر فى الاثر السيء الذى تجره هذه المآثم على الجسم والنفس . من ثقل فى الرأس ، ومرض فى المعدة ، الى ضياع للعقل والصحة والوقت . ولن أتناول من الطعام الا ما يقيم أودى ، فتظل صحتى سليمة قوية ، وأفكارى ناضجة نقية . وكل هذا سهل بسيط لا يصعب مناله

قال ممنون : ويجب على أن أفكر فى حالتى المالية . . ان حاجاتى يسيرة وأموالى فى حرز حريز بمصرف المدينة . وان ما لدى من المال يكفينى مؤونة الناس أجمعين . وتلك سعادة ما بعدها سعادة . سوف لا أجرى وراء مجد فان أو مظهر زائل : فلا أحقد على انسان ولا يحقد على انسان . وهذا مطلب يسير كذلك

واستمر ممنون فى خياله هذا فقال : ان لى أصدقاء ، ولا أرى ما يدعونى الى فقدهم ما داموا لا يضمرون لى شرا ، سوف لا أمسهم بسوء ولا يمسوننى بسوء . وهذا أمر لا يكلفنى مشقة

وما كاد ينتهى من وضع حكمته فى هذا البرنامج الصغير وهو مضطجع على فراشه ، حتى قام فأطل من النافذة ، فاذا امرأتان تسيران فى ظلال الأشجار المجاورة لمنزله . احداهما عجوز صامتة المعالم كأنها لا تفكر فى شيء على الاطلاق . أما الثانية ففتاة صغيرة ، جميلة المحيا تبدو عليها مظاهر الفكر والقلق ، وكانت تبكى وتتأوه . فاسترعت نظر صاحبنا الفيلسوف ، واهتزت لها مشاعره ، لا لحسنها وجمالها ، فهو على يقين بأنه لم يكن

بالغا من الضعف هذا المبلغ ، ولكنه رثى لشقوتها ويأسها .. وسرعان ما خرج الى هذه الفتاة وفى خلده انه سيزودها بحكمته ويسرى عنها بنصائحه ، وما كاد يلتقى بها حتى انبرت تقص عليه مأساتها المؤلمة ، فى لهجة عذبة صريحة تأخذ بمجامع القلوب . أخذت تروى له شيئا عن عمها (الذى لا وجود له) كيف قسا عليها وكيف أساء اليها فاستولى منها بمكره ودهائه على أموال لا تملكهـا ، حتى غدت ترتجف خوفا وفرقا من سطوته وجبروته ، ثم قالت والدمع ينهمر من عينيها : اننى أستشف من نفسك يا سيدى ذلك الرجل الذى تحسن مشورته وتنفع نصيحته ، فلو تفضلت فرافقتنى الى المنزل لتنظر بعض سوالحى ، فانك ولا شك ستنقذنى من ورطتى ، وتنتشلنى من وهدتى . فرافقها ممنون ولم يتردد ، وفى نيته أن ينظر فى أمرها بتعقل واخلاص ، ويبذل اليها النصيحة الطيبة

صحبته هذه الفتاة اليائسة الى حجرة تضوع أرجاؤها بالعطور ، وأجلسته على أريكة كبيرة وثيرة فى أدب ولباقة .. ثم جلست اليه وجها لوجه . وانبرت تتحدث اليه وعيناها الى الارض . وكانت تنحدر على وجنتيها بين الفينة والفينة دمعة متألقة . فاذا ما ارتفعت تانك العينان التقتا بنظرات ممنون الحكيم . وكان صوتها الجميل يرتجف بالعواطف كلما التقت عيناها بعينيه . فأخذ ممنونا شعور رقيق بعث فى نفسه الرغبة الصادقة فى أن يساعد هذه الفتاة الكريمة المنكودة الحظ . فلما طال الحديث وارتفعت حرارته ، تغير الوضع شيئا فشيئا ، فلم يعد أحدهما يجلس أمام الآخر . وكان ممنون فى هذه اللحظات يقدم اليها تلك النصائح اللينة اللطيفة . حتى تحول مجرى الحديث ، فلم يعد يدور حول الصوالح والنصائح ، وأفلت العنان من يد المتحادثين

عند هذه اللحظة دخل العم المزعوم ، وكان مدججا بالسلاح من رأسه الى قدمه ، فهدد بادىء الامر بقتل ممنون وكذلك ابنة أخيه ــ كما هو منتظر فى مثل هذه الحال ــ ولكنه عاد فأبقى على حياتهما بعد التوسل والبكاء ، على أن يدفعا اليه مبلغا من المال ، فقدم اليه ممنون كل ما يحمل من النقود ، ونجا من الموت بهذا الثمن الرخيص

عاد ممنون الى منزله يجر أذيال الخيبة والخجل ، فوجد رسالة من بعض الاصدقاء المخلصين يدعونه الى الغداء . قال فى نفسه اذا بقيت هنا وحيدا فى عقر دارى فسوف تتراكم على الهموم والافكار فتحرمنى شهوة الطعام ، ومن ثم يدب الى جسمى السقم والانحلال ، فخير لى أن ألبى هذه الدعوة ، لعلى أجد فى تناول الطعام مع هذه الرفقة السعيدة ما يسرى عن نفسى وينسينى تلك الغباوة التى وقعت فيها هذا الصباح ..

قبل ممنون الدعوة . وقد أدرك أصدقاؤه أنه يرزح تحت عبء ثقيل من الهموم ، فقدموا اليه بعض الشراب لعله يذهب عن نفسه بعض الاشجان . ففكر قليلا ثم قال فى نفسه : ان قليلا من الخمر يصلح الجسم وينعش الروح . فتناول من بنت الحان ما ذهب برشده ، فلما انتهى هو وأصدقاؤه من تناول الطعام والشراب دعوه الى لعب النرد . فقال فى نفسه : ان اللعب مع هؤلاء الرفاق الاوفياء متعة شريفة ، فلعب حتى خسر كل ما معه

من النقود ، ثم لعب ولعب حتى خسرها أضعافا مضاعفة . وثار جدال حول اللعب أدى الى شجار وغضب ، فضربه أحد أصدقائه المخلصين بصندوق النرد فى رأسه ، فأطفأ سراج عينيه

وعاد ممنون الحكيم الى منزله ثملا مفلسا ، فاقدا احدى عينيه !

وما كاد يصل الى فراشه حتى استسلم الى رقاد عميق . فلما أفاق من رقاده وانجلت عن رأسه غيوم الخمر ، أرسل خادمه الى المصرف ليحضر اليه بعض النقود ، يسد منها دينه لاخوانه الأوفياء ، فعاد اليه الخادم يحمل نبأ افلاس المصرف ، وضياع مئات الأسر فى مهاوى البؤس والشقاء

ذهب ممنون الى المحكمة ساخطا متبرما ، على عينه عصابة وفى يده شكاية ، لعله يجد لدى العدالة مخرجا من هذا المأزق الذى أوقعه فيه افلاس المصرف . فلما دخل حجرة الانتظار لقى عددا من السيدات ذوات الدل والجمال ، يرفلن فى الدمقس ويتخايلن فى الفراء ، فنظرت اليه احداهن شذرا ، وكانت تعرفه بعض المعرفة ، ثم قالت : أو . ما هذا المنظر ! ونظرت اليه أخرى كانت تعرفه أكثر من الاولى ، وقالت : عم مساء يا سيد ممنون . انني لسعيدة بأن أراك عرضا فى هذا المكان . لماذا فقدت عينك يا سيد ممنون ؟ ومرت ولم تنتظر الجواب . فلم يسع ممنون الا أن يأوى الى ركن يختفى فيه حتى تحين اللحظة التى يتقدم فيها الى الحاكم ويرتمى عند قدميه . فلما جاء دوره ومثل أمام الحاكم قبل الارض ثلاث مرات ثم قدم اليه شكواه . . تقبلها منه قبولا حسنا ، ثم ناولها الى أحد رجاله ليقدمها اليه مشفوعة بمذكرة من عنده . فدنا هذا الرجل من ممنون وانتحى به جانبا ثم قال له بتلك اللهجة التى يملها الزهو والغضب : يا لك من أعور نزق ، كيف تجرؤ على دخول هذا المكان ، وكيف تتخطانى وتتقدم الى الحاكم بهذه الشكوى . ان هذا المصرف قد أفلس افلاسا شريفا لا تشوبه شائبة ، وقد كفلته بحمايتى ، وان الذى يديره هو ابن أخت وصيفة من وصيفات زوجتى . عليك يا صديقى أن تسحب هذه الدعوى ، اذا أردت أن تحتفظ بعينك الاخرى . .

وهكذا عاد ممنون الذى كان قد أجمع أمره فى الصباح على ان يبتعد عن النساء ، ويزهد فى مباهج الحياة ، ويتجنب خصومات الافراد بله الرجال الرسميين ، وقد وقع فى حبائل غادة حسناء سلبته ما معه من النقود ، وعاقر الخمر ، وقامر ، وشاجر وفقد احدى عينيه ، وتقدم الى المحكمة وعبث به وبشكواه . . ولما يمس المساء !

وذهب الى داره والأسى ملء فؤاده ، والدهشة تستولى على خواطره وافكاره . فما كاد يتخطى عتبة الباب حتى رأى مندوب المحكمة ، ينقل أثاث بيته ومتاعه بأمر دائنيه . فجلس فى ظل شجرة قريبة ، واذا به يرى تلك السيدة التى لعبت دورها فى الصباح تسير مع عمها ، وما كاد يقع نظرها على ممنون بعينه المعصوبة ، وحاله المريب ، حتى انفجرت بالضحك والسخرية

ولما أرخى الليل سدوله ، رقد ممنون على كثيب من القش على مقربة من جدران داره . فأخذته سنة من النوم . وقد بلغ به الجهد وأخذت أنفاسه حتى الغم والألم .. فرأى فى رقاده طيفا سماويا عجيبا

كان هذا الطيف يضىء بنور متألق وهاج ، له ستة أجنحة ولا رأس له ولا ذيل ولا قدمان ، وليس يشبهه شىء فى الارض على الاطلاق

سأله ممنون : « من أنت ؟ » فأجاب الطيف : « أنا الملك الساهر على حياتك » . قال ممنون : « اذن أعد الى عينى وصحتى ومالى وحكمتى » وأخذ يقص عليه كيف فقد كل هذا فى يوم واحد

قال الطيف : « ان هذه الاحداث لا وجود لها فى العالم الذى نعيش فيه »

صاح ممنون : « ما أجمل هذا المكان الذى تسكنون فيه ! أليس عندكم أوغاد يغررون برجل مسكين ؟ أليس عندكم أصدقاء يأخذون نقود صديقهم ويطفئون نور عينه ؟ أليس عندكم افلاس ؟ أليس عندكم حاشية يعبثون بحقوق الناس ؟ »

قال ساكن الكوكب : « كلا ، ليس لدينا شىء من ذلك . اننا لا تغرر بنا النساء ، لاننا ليس لدينا نساء ، ولا تمتلىء بطوننا بالطعام والشراب لاننا لا نأكل ولا نشرب على الاطلاق ، واننا لا نعرف الافلاس لاننا لا نعرف الذهب ولا الفضة ولا وجود لهما بيننا . ولن يستطيع أحدنا أن يطفىء عين أخيه ، فأجسادنا بطبيعتها ليست من الجوهر الذى خلقت منه أجسادكم . ولا يستطيع أحد أن يتلاعب بحقوقنا لان الكل سواء فى كوكبنا الصغير »

قال ممنون : « يا الهى ! وكيف تقضون وقتكم بغير نساء ولا طعام ؟ »

قال الطيف : « اننا نقضى أوقاتنا فى مراقبة العوالم التى يناط بنا أمرها . ولقد أتيت الى هذا المكان لاهبك شيئا من التعزية والسلوان »

فتلوه ممنون ثم قال : « ويحك ! ولماذا لم تجىء أمس لتنقذنى من غباوتى ؟ »

فأجابه الطيف السماوى : « لقد كنت فى شغل شاغل بأخيك الاكبر . انه أحوج منك الى العطف ، لقد فقد صاحب العظمة والجلالة سلطان الهند الذى كنت أتولى الخدمة فى بلاطه ، عينيه الاثنتين ، فى مؤامرة عاجلة ، وقد كبل بالاصفاد والاغلال ثم ألقى به فى مغارة بعيدة »

قال ممنون : « وما نفع الملك الحارس للأسرة التى يتكفل بها ، اذا كان أحد أفرادها يفقد عينيه ويلقى به فى مغارة ، وأخوه ينطفىء سراج عينه ويرقد على كثيب من القش؟ »

فأجابه الطيف : « لقد تغيرت وتغيرت حالك يا صديقى ، انك لن تعيش الا بعين واحدة ــ هذا أمر لا شك فيه ــ ولكنك سوف تعيش سعيدا ما دمت لا تفكر فى أن تظل حكيما على الدوام »

صاح ممنون متوجعا : « اذن هذا مطلب لا يستطاع ؟ »

ـ أجل كما لا يستطيع الانسان أن يكون أربا ، وأن يكون قويا وقادرا وسعيدا على الدوام . نحن أنفسنا أبعد من أن نصل الى هذه الغاية . كل هذا لا وجود له الا فى عالم واحد . أما فى العوالم الاخرى التى تشغل هذا الفضاء ، وعددها مائة ألف مليون ، فالامور تختلف فى كل منها عن الآخر . فالعالم الثانى أقل حكمة وسعادة من العالم الاول ، والعالم الثالث أقل من الثانى ، وهكذا حتى تصل الى العالم الاخير فتجد كل انسان فيه جد مجنون !

قال ممنون : « اذن فعالمنا الارضى هو عالم المجانين ، الذى أتشرف بأن اسمع منك نبأه الآن »

قال الطيف : « قد يكون ذلك »

قال ممنون : « اذن فهؤلاء الشعراء والفلاسفة الذين قالوا : ان الحياة تسير نحو الخير ، كانوا جد مخطئين »

قال الفيلسوف من علو : « انهم على صواب ما داموا يضعون نظام هذا الكون الكبير موضع التقدير »

صاح ممنون : « لا أصدق هذا حتى تعيد الى عينى التى فقدتها »

ترجمة : محمد طاهر الجبلاوى

ألمان يقولون

الألمان خطرون ، فليس من المستبعد عليهم فى أى وقت أن يخرجوا من جيوبهم قصيدة من الشعر ، أو يأخذوا فى بحث مشكلة فلسفية « هنريك هاينى »

اكتشفت بين الألمان المثل الذى يقول : ليس الذهب وحده هو البراق .. بل الجلد كذلك « نيتشه »

الهى ! رحمتك بوطنى الذى أعمته الآلام وأفسدته السيئات
الهى ! علم هذا الوطن كيف يسالم العالم وكيف يسالم نفسه ! « توماس مان »

انى اشعر بأننى أحسن الناس .. لانى أريد أفضل شىء للشعب الألمانى !
« هتلر فى سنة ١٩٢٤ »

وا أسفاه ! اننا لا نقدر الحق أى تقدير ، واننا ندعى أن كل من توجه اليه ضرباتنا يجب أن يكونوا مجرمين ، ويجب عليهم أن يقروا بجرمهم « فردريك فون شيى »

نحن لم نخرج من طور البربرية الا حديثا ، فما زالت فنوننا فى قماط الطفولة . أما الفرنسيون فقد قطعوا شوطا فى طريق الحضارة ، وهم يسبقوننا بقرن كامل من الزمان ، كما أنهم يتفوقون علينا فى كل أمر من أمور الحياة « فردريك الاكبر »

مونتجومرى

أو «مونتى الصغير» كما ينعته اصدقاؤه

رجل قصير . بسيط فى طعامه . فى ملبسه . فى مظهره العام . برز فجأة الى الصف الاول بين القواد الانجليز ، فأثبت جدارة وبسالة يستأهلان التقدير

عجيب أمر هذا الشعب البريطانى . ينعته نابليون بأنه أمة من التجار ، فيبرز من بين صفوفه من يقهر نابليون العظيم . ويدعى الالمان فى كبرياء انه لا ينجب القواد ، واذا بريطانيا تنجب القواد . والاعجب من هذا أنها تأتى بهم مغمورين مجهولين حتى ليقول القائلون : ما هذا الموتنجومرى مثلا . واذا بموتنجومرى هذا بطل على الطريقة الانجليزية، لا يغامر فيما لا جدوى فيه ، ويستعد حتى لا يترك لغريمه بصيصا من أمل ، ثم يهجم فاذا هو منتصر ، ويظل متابعا هجومه حتى يقضى على غريمه قضاء نهائيا

ويقف روميل من فوق الجبال ليخطب فى جيشه المغامر ، فيقول : ان لم تردوا الانجليز عنكم فان أيامكم فى تونس معدودة . . فيخاطب موتنجومرى جيشه فى (برود) انجليزى غريب : هلم تثبت لرومل أن ما قاله صدق ، وأن أيامه فى تونس معدودة . .

منطق لطيف . ولا غرو فالجنرال برنارد لو موتنجومرى قائد الجيش الثامن الذى لا يتكلم الا قليلا ، يجيد هذا النوع من الدعابة . موتنجومرى الذى ينعته أصدقاؤه بمونتى الصغير . . والذى يعرف أركان حربه دون غيرهم كم هو جاف ، عبوس ، قوى الارادة لا يثنيه عما وطد العزم عليه شىء

ثم هو يداعب غريمه مداعبات أخرى كثيرة . فيقول مثلا : انى شهدت دانكرك من قبل . وان لى مع الالمان فى تونس حسابا قديما . . كالقط الذى يداعب الفأر وهو بين مخالبه ، ويجد فى ذلك لذة وفتحا للشهية . .

العبرة بتطبيق الخطط الحربية

ولقد كانت مهمة موتنجومرى شاقة عند ما عهد اليه فى قيادة الجيش الثامن وجىء به من انجلترا ليطبق الخطط الجديدة فى حرب الصحراء . وأمام من ؟ أمام الفيلدمارشال اروين روميل الداهية الذى خبر الصحراء خبرة استاذ جيولوجى قبل الحرب العظمى الثانية ، ووفد الى مصر ليحاضر فى جغرافية الصحراء ، فلما تولى قيادة « فيلق افريقيا » والجيش الايطالى فى طرابلس ملأ الصحراء ووادى النيل رعبا وعلما من مهارته ، وكاد يضع الحلفاء فى مأزق حرج

ووضعت الخطة الحربية لقهر روميل باشراف الجنرال هارولد. د. ل. ج. الكسندر القائد الاعلى للقوات البريطانية فى الشرق الاوسط . وعهد الى مونتجومرى فى تنفيذها ، فماذا صنع ؟

عكف مونتجومرى على درس الخطة والاحاطة بما استجد من فنون حرب الصحراء زهاء شهرين . ثم ضرب ضربته القاصمة عند العلمين ، وخدع روميل تلك الخدعة التى طال التحدث عنها لفرط براعتها ، ثم وقف فى جنوده يقول : انه نصر تام عظيم .. فى الوقت الذى كان زملاؤه فيه يقولون انهم ما يزالون فى بدء المعركة

هنا تتجلى حنكة القائد الموهوب . فان المعركة قد تكون فى أولها. ولكن القائد الموهوب يعرف ان كانت ضربته الاولى قاصمة أم ليست كذلك . وقد أدرك مونتجومرى أن غريمه تلقى الضربة القاصمة . وان ما سيتلو ذلك هو من قبيل العناد واظهار البطولة فى الصبر الى النهاية . وقد كانت الحال على ما شهد وظن . وظل روميل يترنح من ضربة العلمين ، ويبذل المستحيل ليبقى على كيان جيشه ، ولكن كل شىء كان قد انتهى والسكين ذبحته هناك عند (عنق الزجاجة)

والمناورات التى قام بها مونتجومرى فى خط العلمين ، والتى حيرت روميل فى أمره وجعلته يتخبط فى دفاعه ، لم تكن ضمن الخطة التى وضعها الجنرال الكسندر . انها من بنات أفكار مونتجومرى . ومثيلاتها كثيرات . فالعبرة ــ كما يعرف رجال الحرب ــ ليست دائما بوضع الخطط الحربية ، وانما بالحنكة والدهاء فى تطبيقها

ثم اليك مثلا هذا (الجيب) الكبير الذى ألقى به روميل (طعما) لمونتجومرى بين تل العيصى وسيدى عبد الرحمن ، هذا الجيب حاول روميل أن يغرى به مونتجومرى على القتال حتى يفلت هو بجيشه الى طرابلس .. ولو أن قائدا عاديا لقيه فى طريقه لانشغل بقتاله ، ولافلت الصيد الحقيقى منه . ولكن مونتجومرى لم يكن هذا القائد العادى . انه يعرف مكان صيده . ويفرق بين الصيد السمين و (الطعم) الذى يحمله الشص .. الصيد السمين هو روميل وفيلقه .. ما فى ذلك شك !

ما هذا المونتجومرى ؟

أجل. ما هذا المونتجومرى الذى جىء به من عالم النسيان فى جنوب انجلترا ليقهر روميل مارشال الصحراء الافريقية وأحد الدهاة الافذاذ فى قائمة القواد الالمانيين البواسل ؟

ان تقارير ادارة المخابرات السرية الالمانية تنعته بالتهور . وأصدقاؤه ينعتونه بالبساطة والتدين . والضباط الذين تحت قيادته يقولون انه يبعث فيهم أحيانا الخوف الشديد . فهو يطالبهم ــ وخاصة ضباط أركان الحرب منهم ــ بالطاعة العمياء ، والدقة التى لا تعرف الخطأ ، والنظام فى أشد قوالبه صرامة ، النظام فى التفكير ، فى نمط المعيشة ، فى القتال .

ولا يذكرون أنه ابتسم لهم مرة ، أو زعم أن ما صنعوه كان أكثر من الواجب المطلوب منهم

وهو يختار أركان حربه بنفسه ، ويمتحنهم قبل الحاقهم بخدمته . ويدرس التقارير عنهم فى كل شىء . رشحوا له مرة أحد الضباط وأثنوا على شجاعته وذكائه . فأمر باستدعائه الى خيمته . ولم يكد الضابط يلقى التحية العسكرية حتى بادره مونتجومرى بقوله : انك ضابط، كفء . ما فى ذلك شك . ولكنك لست كفئا لى ! اذهب لشأنك

عسكرى (محترف) بكل معانى الكلمة . يعيش فى الجيش ، وللجيش ، ولا يسمح لنفسه بالتفكير الا فى الجيش

هو الآن فى السادسة والخمسين من عمره . والناس يحسبونه أسن من ذلك . وخاصة عند النظر فى عينيه اللتين تبدو عليهما آثار التعب . ولكن ضباطه يعرفون جيدا أنه لايعرف التعب

خمس وثلاثون سنة من هذه السنين الست والخمسين قضاها فى الجيش العامل منذ تخرج فى كلية ساندهرست الحربية . ونال فى الحرب العظمى الماضية وساما خطيرا علاوة على صليب الاستحقاق الفرنسى . وذكر فى التقارير الحربية أكثر من مرة . والشىء الوحيد الذى تمتع به من لهو الشباب هو الرياضة العنيفة وخاصة لعبة (الرجبى) . أما (النشاط الاجتماعى) الذى يعرفه شباب الجيش ، والذى يحفل عادة بالشراب والغزل ، فلم يعرفه مونتجومرى قط ، بل هو يشمئز منه أشد الاشمئزاز ويراه حطة فى الخلق العسكرى

ولقد دهش أصدقاؤه وعارفو طباعه عند ما فاجأهم بزواجه فى عام ١٩٢٧ . لقد كان اذ ذاك فى الأربعين من عمره . وهى سن متقدمة للزواج . وكثيرا ما قالوا عنه بعد زياراتهم له فى منزله انه يديره « بسلطة فارس من فرسان القرون الوسطى »

ولما رزق بمولود ذكر درس مشكلة ميلاده كأنها مسألة تعرض على هيئة اركان الحرب . وأخذ يصدر « أوامره اليومية » فى مسائل تغذيته وتنشئته .. ولما سئل عن حاجته الى مولود آخر قال : ان وقته لا يتسع لأكثر من مشكلة واحدة

وتوفيت زوجته عقب مرض قصير . فاختفى عن المجتمع الذى كان يعيش فيه عاما كاملا ليخفى حزنه عن عارفيه

لا يدخن . ولا يشرب الخمر . ولا يعرف للهواية معنى . فقد ورث عن أبيه الذى كان أسقفا فى تسمانيا الاستقامة والجد والرصانة ، وعن التقاليد الاسبرطية أخذ الخشونة والرجولة الجافية

وعند ما هم بمغادرة مركز قيادته فى جنوب انجلترا ليتولى قيادة الجيش الثامن فى مصر ، جمع ضباطه وقال لهم مودعا : أيها السادة . ان من عادتى أن أتلو فى الانجيل كل يوم . فعسى ألا تهملوا تلاوته

لا يسمح حتى بالسعال

ومونتجومرى يبدو على أنه فى الدروس التى يلقيها على ضباط أركان حربه . فهو فى هذه الدروس يقف أمامهم فى صلابة واستعلاء ، ويبدى من فنون الحرب ما شاءت له مواهبه ودراسته وتجاربه ، ويعالج المسائل المعقدة بتفكيره المركز المنظم الهادىء ، فلا يحتاج لاختلاس النظر الى ما أعد من شىء مكتوب

وأول ما يجابه ضباطه بمجرد دخول حجرته أو خيمته لوحة كتب عليها : ممنوع التدخين . ويشرع القائد فى درسه أو عرضه الحربى بمثل هذه الكلمات : أنا لا أسمح بالسعال أثناء محاضرتى . من أجل ذلك أمنحكم دقيقتين للسعال قبل الشروع فى الكلام . . فاذا ما انتهت الدقيقتان شرع يتكلم ، حتى يقطع فى الكلام مرحلة طويلة ، تعقبها دقيقتان أخريان « للسعال » مرة أخرى . . والويل للذى يتجاسر على السعال فى غير هاتين الدقيقتين . . ان مونتجومرى يقصيه عن هيئة أركان حربه فى الحال !

قد يقال : وما شأن السعال فى الكفاءة العسكرية ؟ وهب أن الضابط اضطر الى السعال فى غير هذه الهدنة القصيرة . . ولكن مونتجومرى لا يسمح بالسعال وكفى ، وهى نزعة (اسبرطية) لها مثيلاتها عند جميع القواد

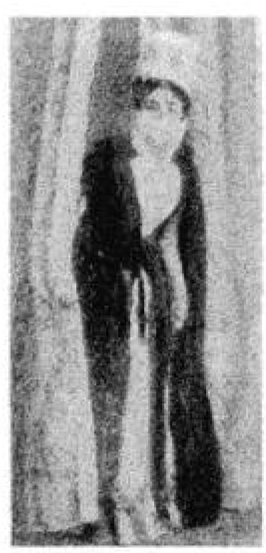
والشىء الوحيد الذى يأخذه مونتجومرى باليسير من الدعابة والمرح قبعاته الكثيرة . . وهو يسأل محدثه أكثر من مرة : ما رأيك فى قبعتى هذه ؟ وفى الميدان يحب أن يضع فوق رأسه قبعة استرالية كبيرة ، أو « بيريه » كالتى يلبسها العمال

وهو رياضى عنيف . ويأمر ضباطه وجنوده بالرياضة . أصدر وهو فى انجلترا أمرا بأن يجرى الضباط — ومنهم المسنون — مرة فى الصباح كل اسبوع مسافة ستة كيلومترات وكان هو يجرى فى طليعتهم

ولقد كانت متابعته لجيوش روميل المتقهقرة فى الصحراء (رياضة) عنيفة من هذا القبيل



الاتحاد النسائى فى ٢٠ عاماً



السيدة هدى شعراوى فى الحبرة والبرقع

احتفل الاتحاد النسائى المصرى بالعيد العشرين لتأسيسه . وبهذه المناسبة نذكر أن النهضة العلمية للمرأة المصرية ترجع الى عهد محمد على الكبير ، فهو الذى شجع تعليم الفتاة ، وأنشأ لها مدرسة باسم مدرسة القابلات ، ونهج نهجه الخديو اسماعيل ، وعنى بتعليم الفتاة بأن أنشأ لهذا الغرض « المدرسة السنية »

وتطورت النهضة النسائية ، واتخذت لوناً جديداً عند ما قام قاسم أمين يدعو الى تحرير المرأة المصرية . وكان أن تألفت أول جمعية للسيدات فى سنة ١٩٠٩ ، وهى جمعية الرقى الأدبى ، ألفتها هدى هانم شعراوى

وقد ساهمت المرأة المصرية فى الحركة الوطنية ، مساهمة فعالة لها أثرها وخطرها ، ومن ثم أخذت المرأة تتدرج فى خوض ميدان الحياة

وما جاءت سنة ١٩٢٣ ، حتى ألفت السيدة هدى شعراوى « الاتحاد النسائى » واشتركت فى مؤتمر الاتحاد النسائى الدولى الذى عقد فى ذلك العام فى روما ، وفى المؤتمرات التى عقدت بعد ذلك على توالى السنين

وقد صاحب التوفيق اتحادنا النسائى منذ تأسس حتى الآن ، ونجح فى تحقيق كثير من برنامجه . ولا يزال يوالى جهوده فى مختلف نواحى النشاط النسائى ، لتحقيق أهدافه السامية ، ورفع شأن المجتمع المصرى



صورة أعضاء وفد الاتحاد المصرى لحضور مؤتمر الاتحاد النسائى الدولى فى سنة ١٩٢٣ ، ونرى هدى هانم الثانية من اليمين ، وخلفها وقفت الآنسة حواء ادريس ، والواقفة الى اليسار السيدة سيزا نبراوى

الطيران الحربى فى ربع قرن

من أبرز مشاهد الحرب القائمة أن لا غنى للجيش البرى عن السلاح الجوى ، فاذا أراد الجنود أن يزحفوا ويتقدموا سبقتهم أسراب الطائرات تقذف أهداف العدو ، فتحطم مواصلاته ، وتقوض معاقله ، وتشتت كتائبه ، وإذا أرادوا أن ينسحبوا ويتراجعوا غطتهم سحائب من الطائرات تدفع عنهم خطر طائرات العدو.

وهذه الصلة الوثيقة بين الجيش البرى وسلاح الطيران من أهم وجوه الخلاف بين الحرب الكبرى الثانية والحرب الكبرى الأولى . فعند ما قامت هذه فى سنة ١٩١٤ لم يكن فى بريطانيا سوى عشرات قليلة من الطائرات الضعيفة ، موزعة بين وحدات الجيش والأسطول ، إذ كانت بريطانيا لا تنشىء فى الشهر أكثر من خمسين طائرة . فلما تبين رجال الحرب فى بريطانيا أهمية الطائرة فى القتال . أنشأوا فى أول أبريل سنة ١٩١٨ السلاح الجوى الملكى ، الذى كان يشتمل حينذاك على ألفين وخمسمائة طائرة

وقد احتفل هذا السلاح فى أول أبريل سنة ١٩٤٣ بانقضاء خمسة وعشرين عاماً على إنشائه ، وشهد فى هذه الفترة نمواً هائلا فى عدد طائراته ورجاله ، فبلغ عدد طائراته فى هذا اليوم ٢٢ر٦٤٧ طائرة ، وعدد رجاله ثلاثمائة ألف رجل

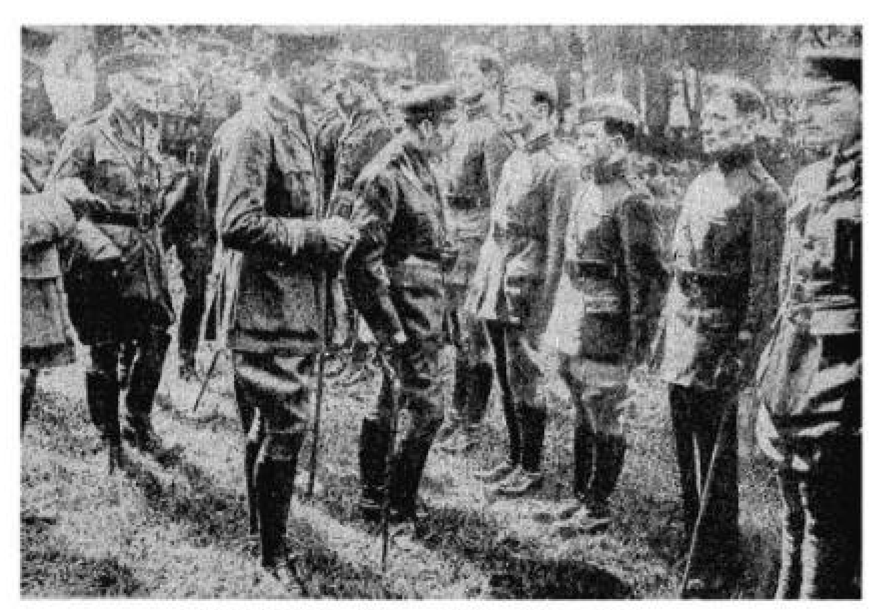
وقصة السلاح الجوى البريطانى طوال ربع القرن الماضى قصة تقدم مستمر وارتقاء مطرد

ففى سنة ١٩٣١ فازت بريطانيا بكأس شنيدر للطيران ، عند ما أدخلت فى طائراتها محركات رولزرويس. وفى سنة ١٩٣٣ بدأت فى صناعة طائرات مسلحة بثمانية مدافع متراليوز . أما أهم طرازين فى الطائرات البريطانية الحالية ، أى طراز سبتفير وطراز هاريكين ، فلم ينشأ إلا فى سنة ١٩٣٦ — أى قبل «ميونيخ» — التى هددت فيها ألمانيا بحرب بريطانيا وحلفائها واجتياحهم جميعاً — بسنتين اثنتين ، ومع ذلك فان هذه الطائرات هى التى أنقذت بريطانيا من الغزو فى سنة ١٩٤٠ . وقد ذكر الخبراء الحربيون بعد انتهاء معركة بريطانيا أن خطة ألمانيا كانت ترمى إلى تحطيم السلاح الجوى البريطانى ، فاذا تم لها ذلك أمكنها أن تسير سفنها وزوارقها محملة بالجنود والسلاح الى الساحل الانجليزى ، ذلك أن الأسطول البريطانى سيعجز حتماً عن الدفاع إذا لم يكن

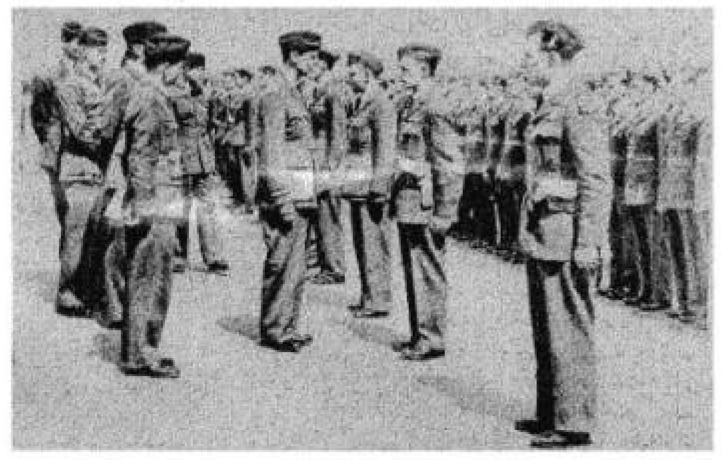
فى الحرب الماضية ، ألحقت بسلاح الطيران الملكى البريطانى فتيات من المتطوعات . وهذه صورة فريق منهن . .



واليوم نشهد كذلك متطوعات فى سلاح الطيران الملكى البريطانى ، والفارق بين هؤلاء وهؤلاء ، تطور الأزياء وانسجامها على القوام وكثرة المتطوعات الحاليات

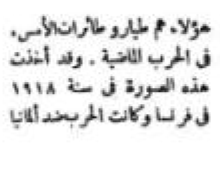


وفي الحرب الماضية ، زار الملك جورج الخامس وحدات سلاح الطيران
الملكي البريطاني ، وكانت هذه الزيارة في ٦ أغسطس سنة ١٩١٨



.. وكرت الأعوام ، وفي يونيو سنة ١٩٤٠ ، زار الملك جورج الحالي سلاح الطيران الملكي البريطاني ،
وتحدث إلى الطيارين الذين ما هم إلا أبناء لأولئك الطيارين الذين حاربوا ألمانيا في سنة ١٩١٤





هؤلاء هم طيارو طائرات الأمس، في الحرب الماضية . وقد أخذت هذه الصورة في سنة ١٩١٨ في فرنسا وكانت الحرب ضد ألمانيا



ما أبعد الفارق بين طيارات الأمس واليوم ، فهذه الطائرة الانجليزية من أحدث وأقوى ما أخرجت المصانع البريطانية ، وهي من نوع « سبيتفاير » وهؤلاء هم طياروها. والحرب اليوم كما كانت بالأمس ، ضد ألمانيا

هناك الطائرات التي تؤيده وتحميه . ولكن كفاءة السلاح الجوى البريطاني، سواء من ناحية قوة طائراته أو من ناحية تدريب رجاله ، هي التي أفسدت على ألمانيا خطتها في غزو بريطانيا ، وبالتالي خطتها في ميدان الحرب عامة

ولا شك أن انتصارات البريطانيين الحاسمة في ميدان افريقية ترجع الى حد بعيد الى هذه المؤازرة القوية التي قدمها السلاح الجوى الى الجيش البرى

ولا شك أن بريطانيا وان كانت قد تباطأت في التأهب للحرب قبل أن تقوم قيامتها ، إلا أنها ما أن نزلت الى ميدانها حتى أن تعوض ما فاتها بالاسراع في إنتاج السلاح وتدريب الجنود ، ويبدو هذا واضحاً في أمر السلاح الجوى البريطاني ، ، إذ عرفنا أن هذه الآلاف من الطائرات التي تطير اليوم فوق أوربا فتحطم مصانعها وتدك قواعدها ، والتي تدوى في سماء أفريقيا فتحقق للحلفاء نصراً في أثر نصر ، والتي تحمى سفنها الجوالة في بحار العالم ساشحنة بالمؤونة والذخيرة والسلاح ، هذه الآلاف من الطائرات لم تكن في سنة ١٩٣٨ تجاوز الألفين إلا بقليل ، وكان منها في بريطانيا ١٧٥٠ طائرة ، وفي سائر أرجاء الأمبراطورية ٤١٨ طائرة

العِلْمُ والعالَمُ

من تقاليد الحرب البحرية الاغراق لا التسليم

وقعت في الحرب الماضية ثلاث معارك بحرية كبرى، في كورونيل،وجزر فوكلند،وجوتلند، وقد فقدت بريطانيا في هذه المعارك ست عشرة سفينة ، وخسرت المانيا خمس عشرة سفينة منها ثلاث بوارج كبيرة . وجميع هذه السفن قد اغرقت ، فضلا عن سفن أخرى اعطبت عطبا شديدا . ولم ينج من بحارتها سوى بضع مئات بينما قتل اكثر من اثنى عشر ألف رجل وجرح زهاء ألف ومائتى رجل .. ومع هذا كله فلم تؤسر سفينة واحدة

ذلك ان من التقاليد الجديدة في المعارك البحرية الا تسلم السفينة مهما احيط بها من جميع الجوانب ، ومهما كانت قوة السفن التى تحاربها . ولكن هذه التقاليد لم تكن معروفة في المعارك البحرية القديمة ، ففي عهد نلسون مثلا كان عدد السفن المأسورة اكثر من عدد السفن المغرقة . ولم يكن ربان السفينة حينذاك يرى عارا أو بأسا في ان يسلم لعدوه اذا رأى ان لا فائدة من المقاومة ، بل كثيرا ماكان الربان الضعيف يستسلم وما زال امامه متسع للمقاومة والكفاح

ففي معركة نلسون الكبرى ، معركة الطرف الاغر التى حققت لبريطانيا السيادة البحرية الى يومنا هذا ، لم يغرق من سفن فرنسا سفينة واحدة ، بينما أسر عشرون منها ــ وكان عددها جميعا ثلاثا وثلاثين ــ ان تسلم للسفن البريطانية على ان البحارة البريطانيين عادوا فدمروا واحرقوا بعض هذه السفن المأسورة حين بدا في اثناء المعركة ان الفرنسيين قد يتغلبون عليهم ويستردون منهم سفنهم

وفي معركة رأس « سانت فنسنت » التى دارت في سنة ١٧٩٧ أسر الاسطول البريطاني المؤلف من خمس عشرة سفينة سبعا وعشرين سفينة اسبانية . ولم يكن نلسون حينذاك سوى ربان احدى السفن ، ولكن سفينته وحدها أسرت سفينتين اسبانيتين . وفي نفس هذه السنة دارت معركة بين البريطانيين والهولنديين وكان أسطول كل منهما يتألف من ست عشرة سفينة ، ومع ذلك فقد أسر تسع من سفن الهولنديين ، بما فيها سفينة القائد العام.

وكذلك كان الامر في معركة الارمادا التى دارت بين اسطول اليزابث ملكة بريطانيا واسطول فيليب الثانى ملك اسبانيا . ففي هذه المعركة الكبرى لم تغرق سفينة واحدة ، بينما أسر ثلاث وعشرون سفينة استرجع الاسبان اكثرها نتيجة بعض اخطاء ارتكبها البحارة البريطانيون . ولكن الطبيعة كانت في جانب بريطانيا ، فهبت عواصف هوجاء اغرقت نصف الاسطول الاسباني

وما يحدث للسفن الحربية يحدث للسفن التجارية . فلا يعرف في هذه الحرب القائمة أو في الحرب الماضية ان سفنا تجارية أسرت ،بينما لا يمر يوم واحد لا يبتلع فيه البحر كثيرا من هذه السفن المحملة بالمؤونة وعروض التجارة . اما في الحروب الماضية فكان أسر هذه السفن أمرا مألوفا ، ففي سنة ١٧٨١ ، في اثناء

الحروب النابليونية ، كان اسطول بريطاني مؤلف من واحد وسبعين سفينة يسير متجها الى جزر الهند الشرقية ، فأسرت منه السفن الفرنسية ثلاثا وستين ! ويمكن ان تسمى المعارك البحرية التى حدثت بين نابليون ونلسن «معارك أسر السفن التجارية» ، فالقائد «كمبنفلت» أسر بسفنه الاثنتى عشرة قافلة فرنسية مؤلفة من تسع عشرة سفينة يحميها اسطول حربى من واحدة وعشرين سفينة . واسطول القائد «بينج» وحده أسر ثلاثمائة سفينة فرنسية . وهكذا كان أسر السفن مألوفا وميسورا ، حتى ان الباخرة الاسبانية «هرميون» سلمت لبعض السفن البريطانية التى لاقتها دون ان تطلق عليها قنبلة واحدة ، وكان ذلك فى أول يوم خرجت فيه الى البحر

فما السبب فى ذلك ، ما السبب فى ان البحارة القدماء كانوا لا يستحيون من التسليم، وفى أن البحارة المعاصرين يؤثرون الغرق على الأسر ؟ . ليس مرجع ذلك الى ان المحدثين اشجع قلبا واصلب عودا من القدماء ، بل لان السفن القديمة كانت تصنع من الخشب لا من الحديد . ومن الغريب ان الخشب أقدر على المقاومة من الحديد الذى ينفجر عند ما يصطدم به «طوربيد» أو تلقى عليه قنبلة ثقيلة . ولهذا فان العدو يؤثر اغراق السفينة لانه أيسر واسهل بينما كان فى الماضى يلقى مشقة كبيرة فى اغراقها فيعمد للاحاطة بها حتى تكف عن القتال وتستسلم

هذا الى ان السفن القديمة كانت تعتمد فى سيرها على الشراع والريح ، بعكس السفن الحديثة التى يسيرها ربانها الى أية جهة يشاء ، ولهذا يسهل عليه ان ينجو من عدوه على عكس سلفه الذى كان اذا أحيط به لم يجد مناصا الا ان يسلم

وقد كان القواد والبحارة يكافأون بالمال ، لا بالالقاب وحدها كما هو الحال الآن ، اذا خرجوا من معركة بحرية ظافرين بعدد من السفن الأسورة . ومن امثلة ذلك ما وقع فى معركة هافانا فى سنة ١٧٦٢ التى أسر فيها البريطانيون اثنتى عشرة سفينة اسبانية ، «فكوفىء» قائد الاسطول بمبلغ ١٢٢٫٦٩٧ جنيه وعشر شلنات وستة بنسات . وكوفىء كل بحار بثلاثة جنيهات واربعة عشر شلنا وتسعة وثلاثة ارباع البنس

أول «بالون»

فى أوربا وفى مصر

أكثر الناس يذكر ان اول محاولة للطيران هى التى قام بها الاخوان الفرنسيان «رايت» فى اول القرن الحالى . ولكن الواقع ان هذين الاخوين سبقهما الى الطيران اخوان فرنسيان آخران ، هما جوزيف واتين مونتجولفير ، اللذان اخترعا فى سنة ١٧٨٣ اول بالون . وقد طار هذا البالون فى حفلة من الحفلات الباذخة التى كان يقيمها لويس الرابع عشر ، وكان ركاب البالون .. نعجة وبطة وديكا !

وكان هذا البالون مجرد حقيبة من الجلد الرقيق مملوءة بالدخان ، وملحقا بها مكان للركاب . وقد أثارت هذه المحاولة اعجاب الباريسيين ، فأقبل بعض اثرياء فرنسا وسيداتها على الاخوين يطلبون اليهما صنع بالونات لهم ليرتفعوا بها فى الجو بضع دقائق . وتم صنع هذه البالونات واقيمت حفلات شتى فى باريس وغيرها من مدن فرنسا ، شوهدت فيها هذه البالونات مرتفعة فى الهواء برهة وجيزة من الوقت

وذاعت هذه البالونات واصبحت من المشاهد المألوفة فى الحفلات الفرنسية الكبرى ، فلما جاء نابليون الى مصر أراد العالم الكيميائى الميكانيكى المشهور «كونتى» ان يرى المصريين كيف يستطيع الفرنسيون ان يطيروا فى الهواء ، وقد كان دأب الفرنسيين ان يلقوا فى روع أهل البلاد انهم بلغوا من العلم والحضارة ما يخولهم

حتى حكم مصر والسيطرة على أهلها . ويروى الجبرتى قصة هذه المحاولة فيقول :

« وفى عشرين جمادى الثانية سنة ١٢١٣ (يوافق ٢٩ نوفمبر ١٧٩٨) كتبوا عدة أوراق مطبوعة والصقوها بالاسواق مضمونها انه فى يوم الجمعة حادى عشرينه قصدنا ان نطير مركبا ببركة (ميدان) الازبكية فى الهواء بحيلة فرنساوية . فكثر لغط الناس فى هذا كعادتهم ، فلما كان ذلك اليوم قبل العصر تجمع الناس والكثير من الافرنج ليروا تلك العجيبة وكنت بجملتهم فرأيت قماشا على هيئة ألوية على عمود قائم وهو ملون احمر وابيض وازرق على مثال دائرة الغربال وفى وسطه مسرجة بها فتيلة مغموسة ببعض الادهان وتلك المسرجة مصلوبة بسلوك من حديد منها الى الدائرة وهى مشدودة ببكر واحبال ، واطراف الاحبال بأيدى اناس قائمين بأسطحة البيوت القريبة منها فلما كان بعد العصر بنحو ساعة أوقدوا تلك الفتيلة فصعد دخانها الى ذلك القماش وملأه فانتفخ فصار مثل الكرة ، وطلب الدخان الصعود الى مركزه ، فلم يجد منفذا ، فجذبها معه الى العلو ، فجذبوها بتلك الاحبال مساعدة لها حتى ارتفعت عن الارض ، فقطعوا تلك الاحبال ، فصعدت الى الجو مع الهواء ، فمشت هنيهة لطيفة ثم سقطت طارتها بالفتيلة وسقط ايضا ذلك القماش وتناثر منها أوراق كثيرة من نسخ الاوراق المبصومة فلما حصل لها ذلك انكسف طبعهم لسقوطها ولم يتبين صحة ما قالوه من انها على هيئة مركب تسير فى الهواء بحكمة مصنوعة ، ويجلس فيها انفار من الناس ، ويسافرون فيها الى البلاد البعيدة لكشف الاخبار وارسال المراسلات ، بل ظهر انها مثل الطيارة التى يعملها الفراشون فى المواسم والافراح »

هذه هى قصة اول بالونطار فى سماء مصر . أما أول طائرة بالمعنى الحديث فهى التى صنعها المخترع الفرنسى بيلاتر دى روزيير فى سنة ١٨٤٨ ، وقد ارتفع بها الى الجو مدة اربع دقائق ونصف دقيقة

أعمال التدمير

وكيف يمارسها « الطابور الخامس »

عانت امريكا فى الحرب الماضية كثيرا من اعمال التدمير التى كان يقوم بها عيون ألمانيا ومؤيدوها المنبثون فى انحاء البلاد . وكان الموكلون بهذه الاعمال الرهيبة قد دربوا تدريبا علميا على وسائل التخريب باستعمال المفرقعات الكيمياوية أو باشعال الحرائق المروعة ، حتى ليقال ان ما خسرته الولايات المتحدة الامريكية فى داخل بلادها نتيجة اعمال هؤلاء المدمرين اكثر مما خسرته فى ميدان الحرب ذاته . ونذكر مثلا واحدا على خطورة هذه الاعمال ، وهو ما حدث فى نيوجيرسى سنة ١٩١٦ ، فقد وقع انفجار هائل فى عدة مخازن وقطارات مملوءة بالسلاح والذخيرة ، تقدر قيمتها بخمسة ملايين من الجنيهات . ومع ان عدد القتلى فى هذا الحادث لم يتجاوز ثلاثة أفراد ، الا ان عدد الجرحى كان كثيرا ، كما كانت الخسائر المادية باهظة جدا . ويكفى ان تعلم ان الزجاج الذى تحطم فى « مانهتان » وحدها قدر ثمنه بثلاثمائة ألف جنيه

ومع ان جميع بلاد العالم تعانى فى اثناء الحرب كثيرا من حوادث التدمير هذه ، الا ان نصيب امريكا منها أكثر من نصيب سائر الدول ، لان هذا الشعب يتألف من مجموعة من العناصر المتعادية المتحاربة . وحسبنا ان نعلم ان من سكان الولايات المتحدة ما يقرب من عشرين مليون نسمة ينحدرون من عنصر ألماني ، وخمسة أو ستة ملايين من سلالة ايطالية . وان عدد الايطاليين فى مدينة نيويورك وحدها اكثر من عدد سكان روما ذاتها . ومع ان اكثر هؤلاء قد نسوا وطنهم الاول وصاروا لايعرفون

لهم وطنا غير امريكا ، ومع ان منهم عددا كبيرا يناوىء نظم الحكم الاستبدادية التي اقامتها الفاشستية والنازية في ايطاليا والمانيا — الا ان منهم من تربطه بوطنه الاول روابط الشعور والعاطفة ، أو روابط المصلحة والغرض ، فلا يتوانون عن القيام بمقاومة اعمال الانتاج والتسلح في امريكا التي تعد المورد الاول للحلفاء للعتاد والذخيرة

ولهذا تعنى امريكا عناية خاصة بمقاومة أعمال التدمير هذه . وقد وكلت أمر هذه المقاومة الى رجل من اشهر رجال الحكومة الامريكية وهو « ادجار هوفر » مدير مكتب البحوث الجنائية ، الذي اشتهر أمره في مقاومة عصابات اللصوص والمهربين الذين عاثوا في ارجاء امريكا دهرا طويلا . وقد أصدر هوفر بحثا تناول فيه الوسائل التي يلجأ اليها هؤلاء المدمرون ، واهمها وسيلة الانفجار ووسيلة الحريق . واكثر حوادث الانفجار تقع في السفن المحملة بالجنود والسلاح والمؤونة المرسلة الى ميادين الحرب . وهو يحدث عن قنابل معينة توضع في السفينة اثناء تعبئتها ، ولا تنفجر الا عند ما تبتعد السفينة عن الشاطىء وتصير في عرض المحيط . ومعامل العلماء جادة في ابتكار الانواع الفتاكة من هذه القنابل ، وفي اجادة صنعها بحيث تكون صغيرة الحجم يسهل حملها ودسها ، اما حوادث الحريق فتقع عادة في مصانع الانتاج الحربي ، ويقوم بها نفر من العمال الذين تسخرهم رشى الاعداء ووعودهم

وقد نصح هوفر في بحثه رجال الصناعة وربابنة السفن بأن يتحفظوا في اختيار المهندسين والعمال الذين يوكل اليهم أمر ادارة الآلات والاشراف عليها . فيتحققوا من تاريخهم وماضيهم ، ويبعدوا عنهم الاشخاص الذين قد تستهويهم أموال العدو أو تعطفهم عليه ميولهم الخاصة . كما نصح بأن يكون في كل مصنع مكتب خاص للتحري عن سيرة عماله ومديريه في الخارج ، وعمن يتصلون بهم من المعارف والاصدقاء ، وهكذا نرى ان الحرب الحديثة حرب معقدة جدا ، وان الدولة التي تريد كسبها لا يمكن ان تركز جهدها في ميدان الحرب ، وتنسى ميدانا أهم منه وهو « الميدان المدني » في دور الصناعة والانتاج ، بل وفي دور السكنى ذاتها

أحسن عمل للعصبيين

« من الممكن والميسور ان يوجه العصبي الى ان يكون سياسيا او مصلحا »

هذا هو رأي الدكتور جولد هملر استاذ علم الاجتماع في جامعة ستانفورد بأمريكا . وهو لا يعني ان من يريد أن يشتغل في السياسة أو الاصلاح يجب ان يكون عصبيا ، والا أصابه الاخفاق وأخطأه التوفيق . بل يعني ان الاعصاب المتهيجة كثيرا ما تساعد صاحبها على النجاح في هذين الميدانين ، رغم ما هو معروف من ان السياسي يجب ان يكون هادئا رزينا ، يظهر غير ما يبطن ، ويبتسم عند ما يجب ان يقطب وان المصلح يجب ان يكون التفكير رائده في عمله ، وان يكون عقله اشد تأثيرا فيه من عاطفته

وقد بنى الاستاذ رأيه هذا على دراسة شاملة في آلاف من الاندية الاجتماعية ، والهيئات السياسية ، ومجامع السيدات ، ونقابات العمال وما الى ذلك من الجماعات ، بقصد تعرف حالة أعضائها الخلقية والعصبية ، وتبين مقدار ملاءمتهم لما يزاولون من العمل ومدى نجاحهم فيه

وهو يقول ان الاشخاص الذين يشعرون بعجزهم عن الهدوء والاستكانة في أمورهم الخاصة وعن مجاراة الناس في الشؤون العامة ، بسبب عنف أعصابهم وتهيجها ، يتجهون غالبا الى احتراف السياسة العامة ، او القيام بعمل من أعمال الاصلاح الاجتماعي ، وكثيرا ما يوفقون الى بلوغ الغاية في هذين السبيلين



هزيمة فرنسا فى نظر كاتب انجليزى

خرجت الحرب بكثير من الكتاب من دائرة الادب الى دائرة السياسة . فما يجوز للكتاب ــ وهم قادة الناس ان اعوزهم القادة ــ ان يعتزلوا الدنيا فى ابراجهم ، بينما الحرب تتمخض عن احداث ونتائج لا بد ان تمس كل شعب ، وكل فرد ، فى صميم حياته ــ وتمس قبل ذلك كله الحياة الفكرية فاما تزجيها الى الامام واما تلقى بها الى الوراء

من هؤلاء الكتاب سومرست موم ــ أو موجهام كما اعتاد بعض كتابنا ان يكتبوه ــ كان متفرغا فيما مضى لادب القصة وما يتصل به ، ولكنه خرج أخيرا بكتاب عن هزيمة فرنسا التى شهدها بعينيه ، وتحدث فيها الى الساسة والقادة والى الجمهرة والعامة ، فتنبأ بها فى صورة قاطعة ، حتى ليقول : « ليس عجيبا ان تهزم فرنسا ، وانما كان يعد عجيبا حقا الا تهزم »

يبسط موم حال الشعب الفرنسى قبل الحرب بسطا واضحا . فالضباط الشبان كانوا يعودون من الميدان الى باريس أو الى مدنهم فى اجازات متصلة وهم يتساءلون ــ لا فى همس بل فى العلن ــ عما يحاربون فى سبيله ، انهم سيكونون تحت حكم هتلر كما هم الآن ، فكل ما يريدونه ان يعيشوا فى هدوء مطمئنين الى أعمالهم ومصالحهم وهذا ما سيكون عليه الامر ان جاء هتلر ــ اما الامبراطورية ، اما البحرية فلا بأس عليهما ، فان فرنسا شعب عظيم ولا يمكن ان يقهر روحه ! هذه هى الروح التى سرت فى فرنسا ، فتمثلت فى صورة هزيمة يوم ان نزل جيشها الى الميدان

أما اصحاب الاموال والمصانع فكانوا يخشون « العمال » أكثر مما يخشون « الالمان » بل كانوا من صميم انفسهم يريدون الالمان ليصدوا عنهم ما تخيلوه من اشباح الشيوعية

اما كبار الضباط فكان الغرور يملأ جوانحهم لان الجهل كان يعشش فى رؤوسهم . وعند ما أراد الضباط البولنديون ان يفهموهم معنى الحرب الخاطفة التى كانت سبب هزيمة جيشهم ، وعندما أرادوا أن يعلموهم الوسائل الكفيلة بصد هذه الحرب . وردها فى نحور الالمان ــ قوبلوا من القواد الفرنسيين باعراض كله ازدراء .

اما صغار الضباط فما كانوا يدرون شيئا من الحرب الحديثة وما حدث فيها من تطور عظيم بين سنة ١٩١٨ وسنة ١٩٣٨

اما الشعب فلم يكن يجهل السياسة جهلا تاما فحسب ، بل كان مرتابا فى حكومته ، متشككا فى جدوى الحرب ، شاعرا بأن الامر لا يعنيه كثيرا .. وكان كل فرد يعتقد ان حكومة فرنسا قائمة على اساس من الرشوة

ولم يعف موم فى كتابه اى رجل مما يستحقه من العقاب . فتحدث عن خليلة رينو ، مدام دى بورت ، التى وضعت أصبعها فى شؤون الوزارة فاكرهت رينو على ان يجعل من بودوان وزيرا للخارجية ، وأوهنت عزيمته عند ما اجتاح الجيش الالمانى أرض فرنسا

ولكن موم مؤمن بأن فرنسا قد افادت من هذه الهزيمة ، أفادة بعثتها بعثا جديدا سرى روحه فى قلوب آلاف وآلاف من الفرنسيين .

وهو فوق هذا متفائل بالمستقبل ، واثق بأن الديموقراطية ستنتصر نصرا ساحقا ، وانها ستحقق الآمال المعلقة عليها — وهى الا يكون الشعب من طبقتين ، احداهما مسرفة فى الغنى والاخرى مسرفة فى الفقر . ثم هو يقول : « ان الديموقراطية تعتمد على فضائل الفرد ، فحيثما يكون الفرد — سا يكون مصير الديموقراطية الى الاخفاق »

الريخ الرابع

على انقاض الريخ الثالث

ذاع اسم « روشننج » فى أرجاء العالم خلال السنين الاخيرة ذيوعا كبيرا ، فان كتابه «هتلر يتكلم » — أو « هتلر قال لى » — قد ترجم الى أكثر اللغات فأقبل عليه العامة والساسة على السواء يقرأون آمال هتلر وبرامجه ، وهم بين مصدق ومكذب ، حتى جاءت أحداث هذه الحرب تثبت كثيرا مما أورده روشننج — وان كنا نلاحظ انه كثيرا ما يتكلم بلغة يتخللها الغموض والابهام مما يجعلها مطاطة تتسع لكل تأويل وتفسير ، كأنها — مع المغالاة — لغة العرافين التى يمكن تفسيرها على شتى الوجوه !

على ان هذه الشهرة التى نالها روشننج اسدلت عليه ستارا من الغموض الذى يكاد يبلغ حد الخرافة . بل ان من الناس من يصدق ما أذاعه بعض الكتاب الالمان من ان روشننج شخصية خرافية ابتكرها خصوم ألمانيا لينطقوها بأقوال لم تصدر عن هتلر يوما ما . ولكنى أكتب هذا وبين يدى صورة فوتوغرافية لروشننج الذى لم يكن من قبل نزوله الى ميدان الكتابة والتأليف شخصا مغمورا ، بل كان رئيسا لمجلس شيوخ دانزج ، فمكنه هذا المركز من ان يتصل بهتلر اتصالا وثيقا وأن ينفذ الى ما يدور بخلده من آمال جسام وبرامج ضخمة ، وان ينفذ الى ما وراء السطح والمظهر من مبادىء وحقائق

وقد نشط هذا الرجل الى التأليف فى الفترة الاخيرة فأخرج من الكتب ما يجاوز أصابع اليد وكان آخرها كتابه « الثورة المحافظة » الذى خصه بأمرين : الاول عما دعاه الى مؤازرة هتلر فى بداية الامر وعما كان يدور فى اذهان الالمان حينذاك من مبادىء لا غبار عليها ، حتى اذا جاءت العصبة الملتفة حول هتلر تفسد هذه المبادىء وتتحول بها الى وسائل للتقتيل والتدمير انفض من حوله وتبرأ من النازية — والثانى عن المنهاج الذى يضعه لاصلاح أمر ألمانيا التى أفسدتها النازية وبالتالى اصلاح شأن أوربا التى يسودها هتلر بوسائل القتال والارهاب

يقول روشننج : « تسألوننى لماذا كنت نازيا؟ ذلك ان النازية حركة شعبية فلا بد للمرء من أن يتدخل فيها ، ويحاول توجيهها ، حتى تسلك طريقا سويا . وانى أعطيكم «كتالوجا» بالآمال التى كنا نريد تحقيقها عن طريق الحركة النازية التى نصرناها » . وهنا يعود روشننج الى غموضه وابهامه حين يقول ان هذه الآمال هى : « التقليد بدلا من التحرير . التطور بدلا من الثورة . الحكومة الذاتية مكان الحكومة البيروقراطية . التوسع والشمول مكان التركز والانحصار . التفاوت والاختلاف بدلا من التماثل والتشابه . الاتجاه الذاتى بدلا من التوجيه الحكومى . الفردية بدلا من المجموع . الملكية بدلا من الاعتماد على دخل تمنحه الدولة . المبدأ المسيحى بدلا من ثقافة التحرير » . ولسنا نحمل هذا الغموض الغريب الا على ان الرجل اما انه لم يكن مخلصا واما كان مخدوعا . فهو يقول انه لم يدر بخلدهم ان حملة هتلر على السامية يمكن ان تصير أمرا جديا يوما ما ، انما هى ضرب من الدعاية والاثارة ريثما يتولى الحكم ويثوب الى التؤدة والاتزان ، بدليل ان هتلر كان يقول هذا الكلام نفسه على الماسون مع انى كنت ماسونيا ، فلم يجد بأسا من مؤازرته لان هذه

الظاهر يمكن التغلب عليها والقاؤها بعد ان تؤتي ثمرتها

هذا تحليل روشننج لتأييده للنازية ، وقد يكون مخلصا ، وقد يكون وصوليا ، أراد ان يركب الحصان السابق حتى يبلغ به الى حيث يريد ، شأنه في ذلك شأن فون هجنبرج وفون باين

على انه في الجزء الثاني من الكتاب يبدو اكثر وضوحا لانه اكثر اخلاصا . فهو لا يخفي انه لا يؤمن بالديموقراطية ايمانا كاملا ، وان كان يقيم الآن في قلعة الديموقراطية ــ انجلترا ــ ليناهض منها خصومها وعداتها ــ وانما ما زال يجنح الى شيء من الحكم المطلق . وهو يرى ان ثمة ثورة متسعة النطاق خطيرة الآثار تشب منذ سنين في أوربا ، وتنتشر منها الى سائر القارات ، وهي تتمثل في حركات يبدو منها التناقض والتصادم ولكنها متجمعة كلها في اتجاه واحد يراد به تغيير الحياة الاجتماعية القائمة ، تتمثل هذه الثورة في الاشتراكية الماركسية من ناحية ، وفي الفاشستية والنازية من ناحية وفي البولشفية الشيوعية من ناحية . ولكن صالح الانسانية يقضي بوقف هذا التيار الجارف ، باخماد جميع هذه الحركات الثورية . ولا يكون ذلك الا عن طريق الثورة ، الثورة المحافظة ، الثورة الكبرى التي تقضي على جميع الثورات . ولكن ما هذه الثورة ؟ « انها هي التي تقيم ديموقراطية مسيحية على غرار جمهورية ويمار الالمانية »

ونظرته الى الشعب الالماني تمتاز بالفهم والادراك . فهو يعلم يقينا ان الالمان غير الانجليز والامريكيين . فاذا صلحت الديموقراطية المطلقة لهؤلاء ، فان الالمان في حاجة الى ديموقراطية تجد منها زعامة ــ ولكنها زعامة متزنة رزينة لا زعامة مسرفة هوجاء

البحر الابيض المتوسط

لاميل لودفيج

هذا كتاب ثان يكتبه اميل لودفيج عن البحر الابيض المتوسط ، فمنذ سنوات أصدر كتابا شعريا رائعا عن مشاهد هذا البحر ، تحدث فيه عن الحضارة العريقة في مدن ايطاليا ، والجلال التليد في جبال الاولمب ، والاسواق الحاشدة في أحياء الاستانة ، والحياة الجديدة في تل أبيب ، وما الى ذلك من مرافق الحياة على شواطيء هذا البحر الخالد خلود التاريخ . ولكنه اليوم يكتب عن البحر الابيض المتوسط كتابة المؤرخ المبدع ، أو على الاصح ، كتابة « منشيء السير » الفنن . فكما تصور « النيل » بطلا من ابطال التاريخ ، له ماض وحياة ، وله آثار واعمال ، فكذلك تصور في كتابه الجديد « البحر الابيض » بطلا عاش آلاف السنين ، وكتب الجزء الاكبر من سفر الحضارة ، فراح يقص على قرائه سيرة هذا البطل منذ جرت فيه سفن الفينيقيين الى ان عامت في جوانبه وحلقت في سمائه سفائن الحرب وطائراتها

يبدأ الكتاب بتمهيد لا علاقة له بالتاريخ يصف فيه سمات هذا البحر الذي تخيله انسانا . وهذه هي الطريقة التي اتبعها لودفيج في انشاء بعض « سيره » اذ يبدأ بوصف سمات المترجم وملامحه ، ليستنبط منها صورة لعقله ومزاجه . ويبلغ اسلوب لودفيج الشعري في هذا الفصل مايجعله شبيها بسمات هذا البحر الرائعة ومشاهده الخلابة

ثم يعرض تاريخ البحر عصرا فعصرا . وهو في هذا يبتكر فنا جديدا في كتابة التاريخ ، فهو لا يعرض ما جرى على شواطئه من الاحداث والوقائع ، ولا ما قام في ارجائها من الآثار والاعمال ، وانما هو يعرض الشعوب التي عاشت

على جوانبه ، مصطدمة بعضها ببعض ، ومتعاونة بعضها مع بعض ، مخللا هذه الشعوب الى طبقاتها المتنازعة المتصارعة ، كأنما كل طبقة منها تمثل نزعة من نزعات الانسان التى توجه الى اليمين تارة والى اليسار أخرى

وهو فى اثناء هذا العرض يتحدث عن العوامل التى اثرت فى تاريخ الانسان وكونت حضارته ، حتى اذا وصل الى العصر الحاضر ، تحدث فى زهاء مائة صفحة عن سياسة العالم فى السنين الاخيرة ، وما أدت اليه من جعل هذا البحر الذى كان العامل الاول فى بدء حضارة العالم وتدعيمها الى مسرح رهيب من مسارح القتال ٠

ونرى فى هذا الفصل ان لودفيج خرج عن رأيه السابق فى موسولينى ٠ فطالما مجد هذا الرجل واثنى على اخلاقه وصفاته ، واشاد بأعماله وسياسته ، ولكنه هنا ينكر رأيه السابق الذى اثبتت الاحداث الاخيرة خطأه ، ويبين كيف ان النظام الديكتاتورى يجرف اصحابه برغم أنوفهم الى مهاوى الخطأ والاخفاق

ويهم قراء العربية من هذا الكتاب بوجه خاص ما كتبه عن « قوة الاسلام ووحدته » ، فقد أكد لودفيج فى كتابه ان العالم الاسلامى حقق من ضروب الاتحاد الوثيق ما لم يستطع العالم المسيحى ان يحقق مثله ٠ وهو يرى ان الفرقة البسيطة التى حدثت بين العرب والترك فى اثناء الحرب الماضية وفى اعقابها لا يمكن ان تؤثر فى هذه الوحدة الوثيقة التى جمعت بين الشعوب المسلمين ألف عام

الحركة الثقافية فى روسيا

نورد هنا بعض أرقام عن تطور الحركة الثقافية فى روسيا خلال السنين الثلاثين الاخيرة :

	سنة ١٩٤٠	سنة ١٩١٣
نسخة من الجرائد اليومية	٣٨ر٠٠٠ر٠٠٠	٢ر٧٠٠ر٠٠٠
نسخة من الكتب	٧٠١ر٠٠٠ر٠٠٠	٨٦ر٧٠٠ر٠٠٠
جامعة وكلية	٧١٦	٧١
طالب جامعى	٧٠٠ر٠٠٠	١١٢ر٠٠٠
تلميذ ابتدائى وثانوى	٣٥ر٠٠٠ر٠٠٠	٧ر٨٠٠ر٠٠٠
تلميذ فى المدارس الفنية	٩٥١ر٩٠٠	٣٥ر٨٠٠
مسرحا	٩٥ر٦٢٦	٢٢٢
ناديا	٨٢٥	١٥٣
مكتبة	٧٠ر٠٠٠	١٢ر٦٠٠

ولا غرابة فى هذا اذا ذكرنا ان روسيا تنفق على الشؤون الثقافية والاجتماعية سنويا ٤٨ ألف مليون روبل ، أى ما يقرب من ربع ميزانية الدولة التى بلغت فى سنة ١٩٤١ حوالى ٢١٦ ألف مليون روبل ، وكذلك اذا ذكرنا ان الجيوش الروسية الضخمة ، ومصانعها الحربية الهائلة ، ومعداتها المختلفة من مدافع ودبابات وسيارات وطائرات وذخائر لا تزيد نفقاتها كثيرا عن نفقات الشؤون الثقافية والاجتماعية اذ تبلغ نفقاتها سنويا حوالى ٧١ ألف مليون روبل

الكتب الجديدة

الاتجاهات الحديثة فى التربية

للاستاذ محمد عطية الابراشى

مكتبة ومطبعة عيسى البابى الحلبى
عدد صفحاته ٣٩٢

تحدثنا فى العدد الماضى من « الهلال » عن كتاب أصدره الاستاذ محمد عطية الابراشى فى « روح التربية والتعليم » ضمنه مجموعة من أحدث الآراء والنظريات التى يمكن الانتفاع بها فى مسائل التربية والتعليم ، ويسهل تطبيقها فى مدارسنا المصرية . ويسرنا ان نحيى فى هذا العدد نشاط الاستاذ ومجهوده مرة أخرى ، اذ اصدر كتابا جديدا عن « الاتجاهات الحديثة فى التربية » ضمنه خلاصة دراسة وافية لشؤون التربية : النظرية والتجريبية والعملية

وقد قيل ان هذا العصر هو عصر التربية ، فان التجارب التى تدور فى هذا الميدان ليست أقل ، فى مقدارها ولا فى أهميتها ، من التجارب التى تدور فى أى ميدان من ميادين العلم والنشاط . بل لقد قيل ان امريكا ليست الا معملا من معامل التربية ، تخرج كل يوم نظريات ومبادىء جديدة فى تنشئة الطفل وتربيته وتعليمه وان هذا الجهد العظيم الذى يتوافر عليه آلاف من كتاب امريكا ومفكريها ومدرسيها هو السر فى قوة هذا الشعب العظيم وبروزه فى جميع مرافق الحياة

ومع هذا كله فان المؤلفات العربية فى مسائل التعليم والتربية قليلة جدا ، لا تفى بحاجة المدرسين وبقية الادباء . ولهذا نرى ان الاستاذ الابراشى يسد بمؤلفاته هذه حاجة ماسة الى انشاء ابنائنا وتلاميذنا على أحدث المثل فى التربية والتعليم ، اذ هو يتخير من هذه المثل والاتجاهات ما يلائم حياتنا التعليمية

فمن الموضوعات التى عالجها هذا الكتاب فى شرح وافاضة : التعليم الفردى ، وطرق استذكار الدروس ، وتنظيم أوقات الفراغ ، والمناهج الدراسية واختيار المواد ، والعقوبة المدرسية ، والمكتبات والمتاحف المدرسية ، والمؤتمرات التعليمية ، والحكم الذاتى فى المدرسة والنظام المدرسى ، ثم طرق الادارة المدرسية

وهو يعقد الى جانب ذلك ثلاثة فصول طوال يشرح فيها طرق « منتسورى » و « دكرولى » و « دلتون » شرحا دقيقا مستفيضا ، مبينا بالامثلة والوقائع ، مما يدل على ثقافة عميقة ، ونظرة سديدة ، فى شؤون التعليم التى درسها ومارسها طويلا

اسكندر الأكبر

للاستاذ عزيز خانكى بك

المطبعة المصرية . عدد صفحاته ٦٤٨

كتاب « اسكندر الاكبر » هو المؤلف الثلاثون من مؤلفات الاستاذ عزيز خانكى بك التى تناولت كثيرا من البحوث القانونية والمالية والتاريخية والاجتماعية ، فى صورة تجمع بين دقة البحث وسعة الاطلاع وحسن العرض والبيان

وموضوع هذا الكتاب ممتع شائق . فقد قيل ان الاسكندر هو أكمل انسان عرفه التاريخ ، ففيه اجتمع جمال الجسم وتألق العقل ووضوح الشعور . وان كان ثمة من الكتاب من انكر عليه ذلك ، مثل الكاتب الانجليزى ويلز الذى صوره فى كتابه عن تاريخ العالم صورة قبيحة تبدو فيها النزوات الجامحة والشهوات المريضة على ان حياته الحافلة بالحروب التى اجتاحت العالم

المعروف حينذاك ، وبالاعمال التي خلدت آثارها ونتائجها على مر الدهور ، والتي انتهت في ريعانها كأنها الشهاب الثاقب الذي تألق في كبد السماء ثم هوى محترقا في الفضاء — هذه الحياة تلذ قراءتها وتفيد دراستها الى أبعد مدى

وقد وفق المؤلف في عرض هذه الحياة عرضا جميلا ، فتحدث عن والد الاسكندر فيليب ، وعن استاذه ارسطو ، ثم حروبه في فارس وسورية ومصر والهند ، وبعد ان فصل الحديث في غزواته الحربية تحدث عن فتوحاته العلمية وما كان لها من أثر عظيم في حضارة العصر القديم ، ثم تحدث عن وفاته وانقراض أسرته وانحلال امبراطوريته

والكتاب الى هذا كله مطبوع طبعا جيدا ، ومحلى بكثير من الصور

روزفلت

للاستاذ فؤاد صروف

مطبعة المعارف · عدد صفحاته ٢٤٢ صفحة

الاستاذ فؤاد صروف في مقدمة كتابنا الذين أجادوا انشاء « السير » ، فقد ترجم لكثير من العلماء والمخترعين والرحالة والمكتشفين ، فجمع فيما كتب بين الفائدة يجنيها القارىء من حياة هؤلاء الاعلام وآثارهم ، وبين المتعة يلمسها القارىء فيما امتازت به هذه الكتابة من طرافة والمام · وكذلك ترجم الاستاذ لاثنين من زعماء العالم السياسيين هما تشرشل وروزفلت ، فكان في ترجمته لهما لا يقنع بأن يقدم لقارئه حياة الرجل وما حفلت به من أعمال وآثار ، بل يطوى في ثنايا الترجمة دراسة وافية لكثير من مشاكل العالم في السياسة والاجتماع والاقتصاد

ففي هذا الكتاب الثمين الذي أصدره عن الرئيس روزفلت ، تقرأ تاريخ حياة الرجل مدروسة دراسة سيكلوجية دقيقة ، فيتحدث عن سلالته واسلافه ويقرر أثر الوراثة في صفاته ، ويتحدث عن زوجته وزواجه ويقدر اثر الاسرة في حياته ، ثم ينتقل الى الحديث عن الشطر الاول من حياة روزفلت السياسية حيث شارك في سياسة امريكا ابان الحرب الماضية ، فتعرف منه شيئا كثيرا عن سياسة ولسن وعصبة الامم التي انشأها واعتزال امريكا شؤون العالم حينذاك

ثم يتحدث بعد ذلك عن مرض روزفلت وآثاره التي تبدت حينما عاد الى الحياة العامة رئيسا للولايات المتحدة

ويعقد الفصل الرابع من الكتاب على « نظام التوزيع الجديد » ، وما يتضمنه من مبادىء وقواعد تعد في مقدمة ما شهده العالم الحديث من ضروب الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي

أما الفصل الاخير فهو عن سياسة امريكا الخارجية وما تتخذه من قاعدة سياسة الجار الطيب ، ثم كيف تحولت هذه القاعدة فخرجت بأمريكا من سياسة العزلة الى سياسة الاقراض والتأجير ، ثم الى الحرب · ويختم كتابه بهذا البرنامج الذي تعده امريكا للمستقبل ، كي تجعل الحياة القادمة آمن وأرخى من الحياة الغابرة

صوت باريس

للدكتور طه حسين بك

مطبعة المعارف · عدد صفحاته ١٩٨

قدم الدكتور طه حسين بك لقراء العربية هذه القصص التمثيلية التي يتخيرها من آثار كبار أدباء المسرح الفرنسي ، ولخصها وناقشها بأسلوبه الرقيق · وقد طالع له قراء « الهلال » منذ سنين طائفة من هذه القصص التي كان يتخيرها من روائع الادب الفرنسي الحديث ، فتبينوا ما كان يأخذ نفسه به في تقديمها ، من عرض دقيق شائق لحوادثها واشخاصها ، ومن ايضاح ممتع لما ترمى اليه من العبرة والمغزى

وهذا الكتاب الجديد هو مجموعة من هذه القصص التمثيلية والروائية التي تخيرها الدكتور طه حسين عن بعض نوابغ الادب الفرنسي المعاصر ليقدم لقراء العربية ومتأدبيها نماذج من هذا اللون الادبي الذي ما نزال فيه في دور الناشيء الساذج ، برغم انه هو اللون الذي يغمر الادب الغربي جميعه ويحجب عن العين سائر ألوانه الاخرى ، ثم هو تخير من هذه النماذج احفلها بالدراسة النفسية أو الدراسة الاجتماعية ، فيهييء لقارئها ان يفيد شيئا كثيرا الى جانب ما يشعر به من المتعة

المنقذة وحفلة شاى

للاستاذ محمود تيمور

دار الكتب الاهلية . عدد صفحاته ١٥١

يضم هذا الكتاب مسرحيتين للقصصي الكبير الاستاذ محمود تيمور ، أولاهما وهي المنقذة مسرحية تاريخية تدور حوادثها في عصر المماليك وقلابتهما ، وهي حفلة شاى ، مسرحية اجتماعية تتناول بعض شؤون المجتمع المصرى

وقد عالج الاستاذ تيمور ألوانا شتى من الادب ، كان في بعضها رائدا مبتكرا ، وكان في بعضها مبدعا مجيدا . وقد أجاد كتابة القصة المصرية القصيرة اجادة تدعو الى الاعجاب والتقدير ، سواء في فنها واسلوبها ، أو في موضوعها ومرماها . وكذلك ساهم في الادب المسرحي بما انشأ من تمثيليات تاريخية واجتماعية كتب بعضها بالعامية وبعضها باللغة العربية . ذلك انه انصرف الى تغذية الادب المصرى بهذه الالوان المختلفة من الاقاصيص والروايات والمسرحيات ، التي يمكن ان تمد نماذج طيبة يقتدى بها الجيل الناشيء من ادبائنا القصصيين ، لما تحفل به من آراء اجتماعية ، ومن دراسة نفسية ، وما تمتاز به من بساطة وسهولة في التأليف والعبارة

وكتابه هذا مصدر بمقدمة وجيزة عن «حيرة الاديب» ، أبان فيها ما يعترض الاديب المصرى المعاصر من ألوان الحيرة والتردد حين ينشيء أدبه في وقت لم تتعين فيه اهداف الادب ولما تتوحد لغته . فيقول ان حول الاديب المصرى «مذاهب شتى يجرب منها ما يقلقه الارق ، حتى اذا تبين له خلاف ما ظن ، عاد الى مذهب كان يأباه . وهو لا يدرى : ايقتصر على التراث العربى ، يغترف منه ويطبع الكلام على غراره أم يقبل على الجديد المستحدث من ألوان الادب في الغرب ؟ وتراه يؤثر في كتابته الفصحى مرة ، ويعطف على اللغة الدارجة مرة ، ويتوسط في الامر فيخلط بينهما مرة ثالثة »

على ان الاديب الذى يتجشم نفسه مؤونة انشاء شتى ضروب الادب ، ومؤونة اتخاذ شتى أساليب الكتابة ، جدير حقا بأن يظفر من قراء العربية جميعا بما هو أهله من الثناء والتقدير

أوراق

للاستاذ منير العجلاني

مطبعة القبس بدمشق . عدد صفحاته ١٨٨

هذه مجموعة مقالات وخطب في السياسة والادب والاجتماع انشأها الاستاذ منير العجلاني وزير الشؤون الاجتماعية السورية

وتجمع هذه الفصول والخطب صفة واحدة : هي صفة الرجل العربى المؤمن بوطنه الاصغر سورية ، ووطنه الاكبر العالم العربى . فكل ما يكتب وما يخطب نداء الى قومه عامة . والى الشباب منهم خاصة ، ان ينهضوا ويتحدوا ليحققوا لهذا الوطن العربى آماله في الوحدة والمحبة

يبدأ الكتاب بمقال عنوانه « من نحن » يوجه فيه الكلام الشعرى الصادق الى الشباب كي يؤدوا واجبهم قبل وطنهم فينشئوا كل شيء ، ويحولوا كل شيء ، ويتخذوا لانفسهم هذا

الشمار : « اليوم لا يباح لرجل ان ينام »

ثم يرثى فى « عبراته » بعض زعماء العرب وشهدائهم مثل غازى ملك العراق ، وابراهيم هنانو ، وشهداء بيروت

ثم ينتقل الى الادب والنقد فيتحدث فيهما حديث الرجل الذى وعى الادبين العربى والفرنسى جيدا ، فيبحث فى الشعر الرمزى ، وفن القصة، والرواية والفلسفة ، وشوقى والعروبة ، وشيلى وجوستاف كان والبير سامان ، ويقدم للقارىء ثلاثا من قصصه جيدة الاسلوب رفيعة المغزى . ويلى ذلك بعض خطبه ومحاضراته التى القاها فى بعض المناسبات الوطنية والاجتماعية المهمة

ومن أمتع ما فى الكتاب هذه الاحاديث التى عقدها ، أو تخيلها ، مع الملك فيصل وسعد زغلول وفوزى الغزى وتيودو هرزل ، وفيها يعرض مشاكل البلاد العربية عرضا جميلا

ويختم الكتاب بصور لبعض رجال العرب البارزين ، ثم عدة فصول قيمة فى مسائل القومية العربية ، فيدعو الى وحدة الشعب العربى الكبير ويفند ما يقال انكارا لهذه الوحدة

واسلوب الكتاب اسلوب شعرى رقيق ، فيه حماسة المؤمن بقوله ، وحرارة المخلص لوطنه

المصادر عن رى العراق

للدكتور احمد سوسة

مطبعة الحكومة ببغداد · عدد صفحاته ٢٠٠

« شعرت وأنا أمارس دراسة شؤون الرى فى العراق بالحاجة الملحة الى سجل يضم كافة المصادر التى تتعلق بأمور الرى (أى ببيليوغرافى حول الموضوع) ..

« وقد سلكت فى ترتيب المراجع على الشكل الآتى مراعيا فى تنظيمها التسلسل الزمنى :

١ ــ القسم الاول ــ ويحتوى على التقارير والنشرات العامة عن شؤون رى العراق

٢ ــ القسم الثانى ــ ويحتوى على نشرات دائرة الرى الفنية

٣ ــ القسم الثالث ــ ويحتوى على مذكرات مجلسى النواب والاعيان حول مشروع التكارات

٤ ــ القسم الرابع ــ ويشتمل على تأليف الرحالة والباحثين وغيرهما من المراجع العامة

٥ ــ القسم الخامس ويشتمل على المراجع التاريخية والجغرافية »

هذا ما ذكره المؤلف فى مقدمة كتابه الذى يدل ولا شك على ان صاحبه قد بذل جهدا كبيرا فى جمع ما يتعلق بشؤون الرى من تقارير ، وترتيبها وتبويبها ، مضيفا اليها ما حصل عليه من تجارب ومعارف خاصة فى اثناء عمله بدائرة الرى سنين طويلة

والخلاصة ان هذا الكتاب هو أحد المؤلفات التى يشم الانسان منها « رائحة العرق » الذى بذل فى جمع اسانيده وتلخيص تقاريره وترتيب أبوابه

أحاديث تاريخية

بقلم « بنت بطوطة »

مطبعة حلبى بدمنهور عدد صفحاته ١٩٤

يتألف هذا الكتاب من سبعة أحاديث تتناول نواحى شتى فى التاريخ الاسلامى

وكاتبة هذا الكتاب التى استعارت لنفسها اسم « بنت بطوطة » ، تعالج هذه الموضوعات معالجة يمتزج فيها التحقيق التاريخى بالاتجاه الأدبى ، فجاءت فصول كتابها اشبه بالقصص التاريخية

وقد كتب على غلاف الكتاب ما يفهم منه ان الكتاب ألف بالفرنسية وقام بترجمته الى العربية « د . ن . » ومع ان اسلوب المترجم سهل وجزل الا اننا نأخذ عليه انه لم يصدر الكتاب بكلمة تعرف منها مؤلفة الكتاب ، ولم يذيله بفهرس

بين الهلال وقرائه

كتاب الشعر لارسطو

(بغداد — العراق) قارىء

هل ترجم كتاب الشعر لارسطو الى اللغة العربية ؟

(الهلال) كتب الدكتور طه حسين بمقدمة لكتاب نقد النثر لقدامة بن جعفر تحدث فيها عن أثر اليونان فى البيان العربى . فذكر ما كان لكتابى « الخطابة » و « الشعر » لارسطو من أثر فى أقوال النقاد والادباء العرب

ويقول فى هذه المقدمة ان كتاب الشعر هذا ترجمه يونس بن متى فى القرن الرابع ، ولكن أحدا لم يفهمه على الاطلاق . اما الكتاب الذى فهمه النقاد العرب وطبقوا بعض نظرياته فى الادب فهو كتاب « الخطابة » وعلى الاخص القسم الخاص منه « بالعبارة »

وقد تناول ابن رشد ، ثم ابن سينا ، فيما بعد شرح هذين الكتابين . ولكن ابن رشد — كما يقول الدكتور طه — لم يفهم معانى ارسطو فحرفها جهد استطاعته . « قد نسأل انفسنا ونحن نقرأ ابن رشد عن سبب هذا التحريف ، أهو قصور الفيلسوف القرطبى ، أم فساد ترجمة « الخطابة » و « الشعر » .. لا شك ان ابن رشد لم يفهم على أقل تقدير كتاب الخطابة لان ترجمة هذا الكتاب صحيحة بقدر الامكان ومن المستطاع قراءة مقدار صالح منها ، على ما فى ذلك من المشقة ، فى نسخة من ترجمة « الارغانون » مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس تحت رقم ٢٣٤٦ مخطوطات شرقية .. هذه الترجمة بعيدة جدا عن ان توصف بالتحريف والسقم ، وان كانت منقولة عن ترجمة سريانية

اما ابن رشد فقد « فهم كتاب الخطابة فهما لا بأس به وقد حلله فى « الشفاء » تحليلا دقيقا وشديد القرب من الاصل » . على ان ابن سينا لم يجد فهم كتاب الشعر « وكثيرا ما يكون تحليله مجرد لغو لا معنى له ، فالتراجيدى عنده هى المديح ، والكوميدى هى الهجاء ، والملحمة هى الادب . اما الامثال والاعلام والملاحظات الدقيقة التى يلاحظها ارسطاطاليس على ما يتميز به كل نوع من انواع الشعر فابن سينا يخلط بينها خلطا شنيعا »

ويمكن للقارىء العربى ان يجد ملخصا وافيا لكتاب الشعر فى كتاب « قواعد النقد الادبى » الذى ترجمه الدكتور محمد عوض محمد عن ابركرمبى استاذ الادب الانجليزى بجامعة لندن ، فقد خص أحد فصول الكتاب بشرح آراء ارسطو فى الشعر ، وهى — فى جملتها — اصح ما كتب فى هذا الموضوع من مبادىء عامة

تاريخ الفأر

(اسيوط — مصر) ف . خ .

هل نشأت الفئران فى منطقة معينة انتشرت منها الى سائر المناطق ، أم هل وجد الفأر فى جميع قارات العالم مرة واحدة ؟ وما هى اكثر المناطق تعرضا لاخطار الامراض التى ينشرها هذا الحيوان ؟

(الهلال) لا توجد الآن منطقة على سطح الارض خالية من الفئران ، سوى المناطق القطبية التى لا تستطيع ان تعيش وسط ثلوجها . ولكن اوربا لم تعرف هذا الحيوان الا فى عصر متأخر ، أى منذ سبعة قرون فى اثناء الحروب الصليبية حيث حملت سفن الصليبيين هذا الحيوان الى

أوربا . ويقول بعض المؤرخين ان هذا هو أسوأ نتائج الحروب الصليبية ، اذا عرفنا النتائج الخطيرة التى ترتبت على انسياب الفئران الى أوربا ، ومنها الى سائر ارجاء العالم . وقد وضع الكاتب الفرنسى « البرت كولنات » كتابا عنوانه « الاوبئة والتاريخ » وفيه تحدث عن وباء الطاعون الذى نشره الفأر فى اوربا عدة مرات: فى العصور الوسطى ، ثم فى القرن السادس عشر ، ثم فى اثناء حروب الثلاثين سنة ، ثم فى القرن السابع عشر

ويقول فى هذا الكتاب ان الفأر الذى انساب من الشرق الادنى خلال الحروب الصليبية اسود اللون ، ولكن هناك فأرا اشد منه خطرا هو الفأر البنى ، الذى تسلل الى أوربا فى القرن الثامن عشر ، وافدا من منغوليا أو من آسيا الوسطى . ويقال انه زحف على أوربا عابرا نهر الفولجا اثر الزلازل التى وقعت فى تلك المناطق فى سنة ١٧٢٧ . وقد عاث هذا الفأر فى كل ركن من اركان قارة أوربا ، ثم عبر فى سنة ١٧٧٠ على ظهر احدى السفن الذاهبة الى امريكا حيث انتشرت اسرابه فى قارتيها انتشارا مريعا

وفى وسع الفأر ان يتأقلم وفق كل مناخ ويعيش على كل طعام . وفراء الفأر خير مأوى للبراغيث التى تنقل أخطر وباء وهو الطاعون . ولهذا فقد خرب الفأر كثيرا من مناطق أوربا بما نشره بين أهلها من اوبئة فتاكة . بل لقد لعب هذا الحيوان الضئيل دورا خطيرا فى الحروب التى نشبت بين شعوب أوربا طول العصور الوسطى وفى مستهل العصور الحديثة ، فقد كان نصر أحدهما مرهونا باصابة غريمه بأحد هذه الاوبئة التى تنشرها الفئران . ويمكن ان يقال ان كل ما اصاب انجلترا وفرنسا والنمسا واسبانيا من الانتصارات والهزائم فى حروبها المتصلة كان مرجعه الى الفئران وما نشرت بين أهليها او بين اعدائها من أوبئة

جيش الخلاص

(الخرطوم — السودان)

ما هو جيش الخلاص ؟ ومن يتألف ؟

(الهلال) جيش الخلاص هيئة كبيرة تعنى بمسائل الاصلاح الاجتماعى ، وقد انشأه قسيس انجليزى يدعى « بوث » من جماعة من اعوانه ومريديه خلع عليهم القاب الجنود والضباط وأقام نفسه عليهم « جنرالا » . وبثهم فى مدن انجلترا وقراها يجوبون احياءها الفقيرة ويختلطون بعمالها وفلاحيها ، ليحضوهم على الحياة الفاضلة وترك الخمر والميسر ، وأخذ النفس بالعفة والطهارة ، وتدعيم الحياة الزوجية

وقد لاقوا فى سبيل دعوتهم هذه كثيرا من الضر والاذى ، فكان السكيرون والقامرون ومن تؤجرهم مصانع الخمر واندية الميسر يعتدون عليهم بالضرب والايذاء ، وكانت بعض المحاكم تنتصر لهؤلاء المعتدين على جنود جيش الخلاص بدعوى حماية الحرية الشخصية . وقد اضطر بوث ان ينشىء مستشفى خاصا يعالج فيه رجاله مما يصيبهم به الناس من الجراح والكسور

وقد صمد بوث لهذا العناء الى أن كثر جنوده ومؤيدوه ، واتسع نطاق أعماله ، حتى صار يتألف الآن من ستة وعشرين ألف جندى وضابط تنتشر كتائبهم فى ثمانية وخمسين قطرا

ويصدر الجيش مائة وثلاثين صحيفة ، ويلقى محاضراته ومواعظه بأربع وسبعين لغة ، ويعقد فى كل اسبوع اكثر من اربعين ألف اجتماع فى شتى انحاء العالم

وقد أنشأ مئات البيوت والملاجىء لايواء الاطفال المشردين والعجزة والمسنين ، ولرعاية الامهات الفقيرات ، ولاسكان من لفظتهم السجون مشردين منبوذين

وهو يملك فضلا عن ذلك عددا كبيرا من المصانع والمزارع والبنوك وهيئات التأمين ، وهيئات الهاجرة ، والمستشفيات والمصحات


الهلال
عدد خاص
قصص البطولة والوطنية
مايو ـ يونيو ١٩٤٣



الجزء الثالث ـ السنة ٥١

أول يوليه ١٩٤٣ ـ ٢٨ جماد الثانى ١٣٦٢

عنوان المكاتبات :
دار الهلال : مصر ـ البوستة العمومية

AL HILAL — Cairo, Egypt
(July 1943)

هذا العدد

هذه مجموعة من القصص التاريخى ، كلها موضوع ، وليس فيها ما هو مترجم أو ملخص أو مقتبس عن أى كاتب أجنبى . وقد توخى مؤلفها الأستاذ ابراهيم المصرى فى وضعها المزج بين الحقيقة والخيال ، بين مادة التاريخ ومادة الفن ، بحيث تتوافر فيها قبل كل شىء عناصر القصة أى روعة الموضوع وحبكة الحوادث مقترنة ببلاغة الأداء وعمق التحاليل والدقة فى رسم العواطف والشخصيات

ولقد أردنا بها الاشادة بروح البطولة وتمجيد عاطفة الوطنية وتقديس فكرة الحرية ، فى أمثلة صادقة حية ، تدل أبلغ الدلالة على ما يمكن أن تصل اليه عبقرية الانسان متى تفوق على ذاته وسيطر على ميوله وغرائزه واستل من قلبه جرثومة الأنانية

وحسبنا من هذه القصص أن تستنهض عزائم شبابنا ، وتغريهم بحب العظمة ، وتوحى إليهم فضائل الحياة الكبرى ، أى الايمان والعمل والتضحية

« الهلال »

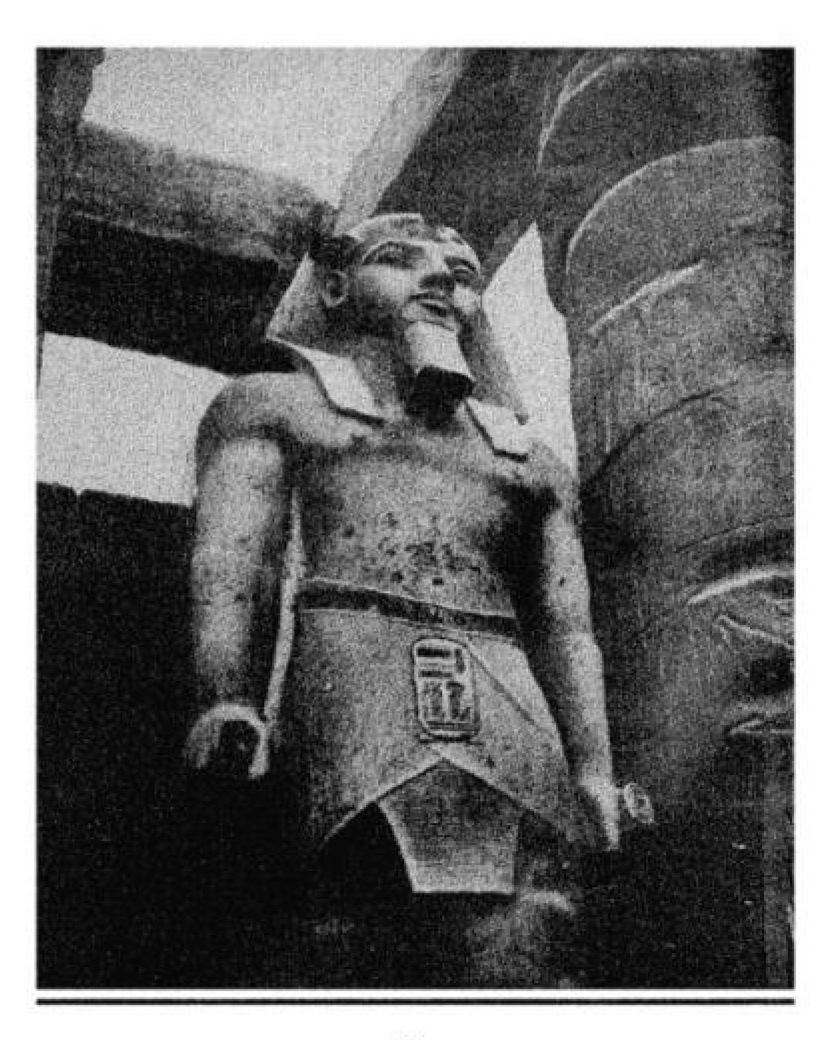
قيمة الاشتراك

٥٠ قرشاً فى مصر والسودان ـ ٧٥ قرشاً فى الخارج أو عنها ٣٫٧٥ دولار ـ ١٥/٥ جنيه انجليزى

Subscription Rates: Egypt and Sudan P.T. 50. - Other countries P.T. 75 or £-/15/5 or $3.75



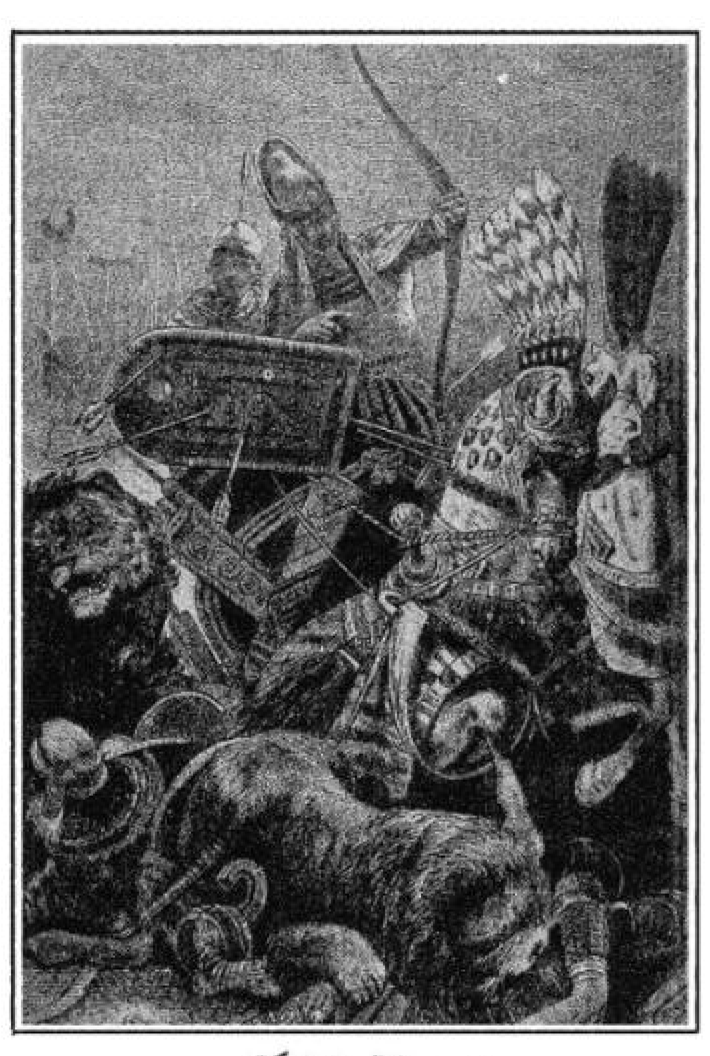
قصص البطولة الوطنية
تأليف
ابراهيم المصري



رمسيس الثانى

تمثال فى أحد معابد الأقصر ، لرمسيس الثانى الذى شن حرباً على الحثيين وانتصر عليهم

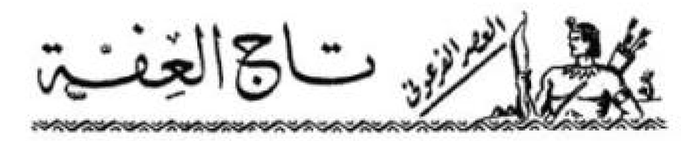
[أنظر قصة تاج الفراعنة ص ٣٠٢]



رمسيس الثانى فى المعركة

صورة نادرة لرمسيس الثانى أثناء معركة قادش التى انتصر فيها على الحثيين

[أنظر قصة تاج الفراعنة ص ٣٠٧]



تقع حوادث هذه القصة فى عهد رمسيس الثانى أثناء الحرب المشهورة التى شنها على الحثيين وغيرهم من قبائل غرب آسيا ، إذ اجتمعوا وتعاهدوا ليخرجوا المصريين من تخومهم ، وكانت عاصمتهم قادش الواقعة على نهر العاصى ، وقد انتصر رمسيس عليهم ، وخلد هذا الانتصار الشاعر بنتاوور فى ملحمته الذائعة الصيت

كانت الحياة فى طيبة هادئة ناعمة . وكانت البيوت عالية النوافذ منخفضة الابواب متلاصقة يواجه بعضها بعضا ، وينفذ اليها أصحابها من أروقة طويلة مظلمة . أما الشوارع فكان معظمها أشبه بدروب ضيقة تفضى الى ساحات واسعة ، يتخير الشعب احداها ، ويقيم فيها سوقا كبيرة فى يوم معين من كل أسبوع

وكان اليوم يوم السوق ، والجماهير متألبة حول باعة الخراف والاوز والحمير والعجول، وباعة الخبز والخضر والفاكهة والحلوى ، وباعة الاقمشة والحلى والعطور ، وهم جالسون القرفصاء بجوار البيوت ، يعرضون بضاعتهم وينادون عليها بأبهى النعوت وأجل الصفات

وكان بعض أفراد الجمهور يحملون عقودا من زجاج ، أو مراوح ذات مقابض من خشب ، أو أساور أو أقراط أو أحذية أو منافخ ، يحاولون استبدالها بمواد غذائية أو بطيور أو عطور

وكان الحر شديدا والجو خانقا والعرق يتصبب على الجباه ، وجماعات المشترين من رجال ونساء وصبيان تختلط بالباعة وتندس بين الماشية وتمرق بين الطيور، وتصيح وتساوم وتقبل العرض ثم ترفض ثم تقبل آخر الامر فى امتعاض وأسف وتسليم

وأجمل ما كان يلاحظ على تلك الجماهير ، أنها كانت رزينة مبتهجة ، جادة هازلة ، يقظة مستهترة ، واعية وغير مكترثة ، تساوم وهى تضحك ، تشترى أو تقايض وهى تمزح ، تؤدى واجب الحياة اليومى وهى تراشق بمختلف النكات الطريفة المستعذبة

ولم تكن أفرادها لتشعر بوطأة الحر أو تتأفف منه ، أو تتبرم بالزحام ، أو تضيق ذرعا بالتراب يثيره الصبيان والماشية ، فتنعقد سحائبه فى جو الساحة ، تأخذ بالمخانق وتكاد تعمى الابصار

والحق ان الزحمة كانت جميلة ، والمعروضات مغرية ، والصخب منعش منشط ، والمساومة لذة لا تعدلها غير لذة الحصول على الشىء بأبخس الاثمان وبعد جهاد طويل

ففى هذه السوق المصطخبة المائجة ، وبين هذا الجمع المختلط العاصف ، المنصرف الى شؤونه ، الباحث عن قوت يومه واسبوعه ، كانت « توريت » تشق طريقها فى تحفظ واتئاد ، خفيفة الخطى ، لينة الحركات ، تنساب فى مشيها انسيابا ، وقد أضفت على بدنها غلالة طويلة سوداء ، وسترت وجهها بقناع كثيف ، وحملت بين يديها حمامتين بيضاوين ، كأنما هى تنوى حقا أن تبيعهما فى السوق

واخترقت صفوف الناس فى عزم ورفق ، وظلت تمشى وقلبها يخفق ، وفكرها موزع مشتت ، وبصرها يرقب الجماهير ، وسمعها يلتقط أجزاء من أحاديثهم ونكاتهم ، والاغراض التى من أجلها يصيحون ويساومون

ولم يكن البيع والشراء ليلهيهم جميعا عن الحدث الاكبر الذى استفاضت أنباؤه ، وأصبح شاغل القوم فى المدينة ، فالبعض منهم كانوا بعد ان يتموا صفقاتهم ، يجتمعون ويؤلفون شبه حلقات صغيرة ، وينهمكون فى معالجة ذلك الحدث العظيم

كانوا يصرخون ، ويراجع الواحد منهم الآخر ، ويخطئه ، ثم يؤمن على كلامه ، ثم يعود فيخطئه ، مستمسكا برأيه ، ذائدا عنه فى جلد وعناد واصرار

ومدار أحاديثهم فى تلك الحلقات الصغيرة المتفرقة ، كانت الحرب الهائلة التى شنها فرعون المجيد ، فرعون الألهى ، رمسيس الثانى ، فى العام الخامس من اعتلائه العرش ، على قبائل الحثيين ، التى انحدرت من سوريا والتى استفحل أمرها ، وأصبحت تهدد البلاد بخطر الغزو فجيوش فرعون التقت بجموع تلك القبائل البربرية فى أحد سهول مدينة « قادش » — فى الشمال الشرقى من طرابلس الشام — وهناك دارت بين الفريقين معركة عنيفة كاد يتم فيها النصر لفرعون . ولكن فريقا من البدو المرتزقة أتباع أمير الحيثاس ، أوهموه أنهم قد انتفضوا على أميرهم المستبد ، وآثروا الانضواء تحت لواء مصر ، فلما وثق فرعون النبيل بهم ، وأمنهم على حياتهم ، واستمع لهم ، وأخذ بخطتهم فى القتال ، أوقعوه فى كمين ، فأبصر فجأة نفسه محاطا بالحثيين من كل صوب ، يقاتلهم وحده ، وقد دب الذعر فى قلوب جنوده فلاذوا بالفرار

فقوة فرعون الالهية كانت مدار الحديث ومظاهر قدرته الخارقة على أن يقاتل وحده الالوف ، كانت مثار الجدل . ففريق كان يزعم أن نظرة من فرعون تكفى لاصابة أعدائه بغتة بداء الشلل ، وآخر كان يرى أن أنفاس فرعون وحدها كفيلة باحراق وجوه الحثيين ، وثالث كان يؤكد أن فرعون بشر مثلنا وان كان من سلالة الآلهة ، وانه لا بد ان يقاتل كبشر وان كان لا بد ان ينتصر فى النهاية كاله

ولم يكن أحد منهم ليتشكك لحظة فى قدرة فرعون أو يسمح لنفسه بالبحث فى غير مظاهر هذه القدرة . وكانوا جميعا يؤمنون ايمانا عميقا راسخا متأصلا ، بأن فرعون سيثبت فى وجه أعدائه ، وسيظل يقاتلهم منفردا حتى يبدد جموعهم ، فترتد الشجاعة الى جيشه ، فيحمل الكل حملة صادقة ، ويبيدوا آخر جموع الحثيين

وكانت نوزيت كلما سمعت اسم فرعون اهتز بدنها رهبة وثقة وعزة ، وتجاوبت فى نفسها أصداء هذا الايمان الشعبى بالنصر ، وازدادت تعلقا بهؤلاء الفقراء التاعسين الذين اشتهرت بحبهم والعطف عليهم والاحسان اليهم وفتح أبواب قصرها لهم ولاولادهم فى المواسم والاعياد يأكلون ويشربون ويمرحون ، على الرغم من ارادة زوجها البغيض اليهم ، لفرط ما طبع عليه من حرص وبخل وغطرسة وترفع

وفيما هى تسير ، أخذت عيناها من خلال ضباب برقعها مشهد شجار نشب بين رجلين ، أحدهما طاعن فى السن والآخر شاب ، فتباطأت فى مشيتها ، وملكها الفضول وجعلت تنصت لما يقولان

صاح الشاب وهو جالس القرفصاء يجمع فى حجره شيئا من الخضر والفاكهة كان قد ابتاعها فى السوق ويلف عليها طرف جلبابه ثم يعقد هذا الطرف حول حزام تتعلق به :

ــ يجب أن ترقب ابنتك يا عمى . لقد أبصرتها بعينى رأسى تخرج ليلا فى صحبة جارنا (حابى) . .

فامتقع وجه الشيخ ، وقال وهو ينهض كمن يهم بالوثوب :

ــ صه . واياك أن تجرى اسمها على لسانك ، أنت غلام لانك غيور . ومهما فعلت فلن تنالها ، وسأزوجها بحابى

فاستضحك الفتى ثم قال :

ــ ولكنها قد تقتل قبل أن تقترن به !

فانقض عليه الشيخ وأمسك بتلابيبه ، ولكن الشاب دفعه عنه فى قوة مترفقة ، وقال بلهجة الساخر المحذر :

ــ لا تدعها تخرج ليلا فى صحبة حابى . . ألم يبلغك النبأ ؟

فتطلع اليه الشيخ وأجاب وهو يكبح نفسه :

ــ أى نبأ ؟

فأجال الشاب طرفه فيمن حوله ، وقال متهكما :

– يقول أى با؟.. كأنه لا يعيش فى مصر !.. ألا فاسمع اذن . اننا فى حرب ، وكما يؤدى فرعون وجنودنا فى ساحة القتال واجب الوطن ، فينبغى أن تؤدى نساؤنا للمجاهدين واجب العفة . ولقد أصدر الكهنة بالامس أمرا خطيرا يسرى لمدة ثلاثة أيام ، ويراد به تقوية الروح المعنوية فى الجيش قبيل اشتباكه فى المعركة الفاصلة ، أمرا يحتم على كل مصرى يثبت على زوجة أو شقيقة أو بنت جندى أو موظف كبير جريمة الزنا ، أن يسلمها الى السلطات كى تضرب بالنبال بعد عرضها على الجماهير ووصمها هى وأسرتها بالعار . أما العظماء فقد أحل لهم الكهنة – منعا للفضيحة – قتل الزانية بأنفسهم على أن يقدموا ما يثبت ادانتها ، والا استهدفوا لطائلة العقاب ، فاحذر يا عم بتيو وراقب ابنتك ، فشقيقها جندى ، ومن واجبها أن تؤدى له واجب الشرف والعفة كما يؤدى هو للوطن واجب التضحية والموت

فصرخ الشيخ بتيو :

– ان ابنتى لاعف وأطهر من نوريت نفسها !..

فانتفضت نوريت وسرت فى بدنها قشعريرة ، ومضت تحث الخطى وقلبها يخفق . اشتد احساسها بذلك القلق الخفى الذى استولى عليها صباح اليوم . تملكها نفس الجزع المبهم ، ونفس الاضطراب الغامض ، ونفس الاستشعار المخيف الذى لا تكاد تطرده حتى يكر عليها ويجثم على صدرها كهم ثقيل

ولجت بها رغبة الراحة والخلاص ، فانطلقت تعدو حتى غادرت ساحة السوق ، ثم تغلغلت فى الدروب الضيقة ، واجتازت بعض الشوارع الفسيحة وعرجت على أطراف المدينة ، وهناك فى ضاحية ساكنة هادئة ، لاح أمامها خيال البيت الذى كانت تقصده

وكان بيتا موحشا مهجورا منفردا وسط حديقة تكاثفت فيها ظلال الاشجار ، فمشت اليه بخطى ثابتة ، وطرقت الباب مرة ثم ثلاث مرات ، ففتح بعد لحظة من الداخل ، ومرقت منه نوريت مروق السهم

***

قالت نوريت للعراف خونسو :

– رأيت ليلة أمس حلما أزعجنى وأخافنى .. رأيت كأنى أسبح فى بحر متلاطم الامواج ، وكان حولى طائفة من النسور تحلق فى الجو ثم تنقض على ثم تبتعد عنى ، وتستحيل فجأة الى عصافير لا أكاد ألمسها حتى تفر منى وتنقلب الى نسور .. ثم رأيت كأن تمساحا ، تمساحا هائلا ، خرج بغتة من جوف الماء واقترب منى ، فذعرت ودفعته عنى ، ولكن النسور أحاطت بى فاضطربت ولم أعد أدرى الى أين أتجه ، وبالرغم منى اندفعت نحو التمساح ففغر فاه الفظيع وابتلع ذراعى فصرخت ، ثم ابتلع شيئا فشيئا جسمى كله ، فظللت أصرخ وأبكى وأنا أتقلب فى أحشائه وأتخبط تائهة مذعورة كأنى فى ليل بهيم . وفيما هو يفترسنى ، خيل الى أنى ألمح من خلال أحشائه المظلمة وجه ايزيس مقبلا على ،

ففرحت وأيقنت من نجاتى ، ولكن سرعان ما ابتعد الوجه عنى ، وتقلصت معارفه واختفت وغابت فى الظلمات الحالكة . فاستفقت مصدوعة منزعجة مهمومة ، وهرعت توا اليك . فأستحلفك بكل عزيز لديك يا أبت ، أن تفسر لى هذا الحلم الفظيع . فأنت قد تلقيت أفانين السحر فى بيوت العلم والحكمة المشمولة برعاية الاله (تحوت) ، وأنت الذى فى وسعك أن تفهم لغة العصافير ، وترى الاسماك والوحوش فى أعماق البحر ، وتتسلط على الجبال والمياه ، وتودع فى نفسى المضطربة روح السكينة والاطمئنان

وكان العراف خونسو يحدق اليها وهو متربع على دكة صغيرة ، مشعث الشعر جاحظ العينين براق البصر ضامر هزيل جامد تكسو عظامه البارزة قشرة من الجلد الباهت ، كأن الزمن قد لاكه بين فكى السنين ، وكأن المعرفة قد حنطته فاحالته الى مومياء لا تنبض بالحياة الا من عينيها اللامعتين الملتهبتين

. فلما صمتت نوريت ، لم يتكلم الساحر على الفور ، بل طفق برهة طويلة يتفرس فيها وينعم النظر فى قسماتها ، ثم مد أصابعه المعروقة المخشوشنة ولمس جبهتها العالية ، وعينيها السوداوين الجميلتين ، وخدها المكتنز الناضر ، وفمها الدقيق الصغير ، وجعل يهمهم ويعزم ويتلو صيغا مبهمة ، وهو يمر بأصابعه على حرير وجهها ، وهى ترتعش وتحبس أنفاسها ولا تجسر على رفع البصر اليه

وأحست بعد لحظة فتورا غريبا يدب فى مفاصلها ، وثقلا عجيبا يحط على رأسها ، ورغبة فى النوم لا تقاوم تنبعث من مقلتى العراف وتستقر فيها وتغمض عينيها المختلجتين بالرغم منها

وراحت فى سبات عميق وهى لا تدرى ، ثم انفتحت أجفانها بغتة كأوراق الزهر ، ثم رفت كالاجنحة ، فأبصرت العراف أمامها جامدا ، فلم تضطرب ، واستأنست بالظلمة المحيطة بها ، ولم تستطع أن تدرك كيف نامت وكيف صحت ، وخيل اليها أن ليلة الامس قد اتصلت باليوم ، وأنها ما تزال تحلم ولكن بأشياء جديدة جميلة أشاعت فى نفسها بعض الراحة والهدوء

وقبل أن تهم بالكلام ، انطلق من فم خونسو صوت رفيع حاد ، ثم تلا الصوت شبه أنين ، ثم قال الساحر متأملا أصابعه وهى تنعقد فى بطء وتتشابك :

ـ النسور التى رأيتها يا مولاتى هى الشهوات .. شهوات رجل يحوم حوالیك ويرغب فيك ويتمثل أمامك فى صورة تمساح .. أما العصافير فهى التوسل وهى الرجاء وهى الأمل ، أملك فى أن يثوب هذا الرجل الى رشده وأن يرد عنك عادية شهواته .. وأما خيال ايزيس المباركة فهو رمز لرجل آخر.. رجل طيب ونبيل.. رجل يحبك وتحبينه، رجل سيصبح عما قريب ضحية وقربانا !..

فقالت نوريت وهى ترتعد : سيموت ؟

فأجاب العراف وهو يشيح بوجهه :

ـ الموت والحياة بيد الله . كل ما أعرف أنه سيتألم
فصاحت نوريت : والآخر ؟
فقال خونسو بعد لحظة :
ـ احذرى الآخر ، فهو غادر لئيم . تجنبى الاتصال به . لا تقربيه اليك . ولكن . . ولكن ما الفائدة يا ابنتى . . ان حظك مرصود فى لوح القدر ، ومهما حاولت نوريت فلن تفلت مما كتب لها
فحملقت فيه مذعورة ، وقالت :
ـ ما تزال عندى قارورة السم البطىء التى ابتعتها منك يوم أن كان المرض على وشك أن يفتك بزوجى . لو ضاقت بى الحياة فسأشرب ما فيها وأموت بعد أيام فلا يفطن أحد لانتحارى . فلا تشفق على ونبئنى ما الذى سيحل بى ؟
فأجاب فى صوت أجش :
ـ أرى حولك دماء . . دماء كثيرة . . وأرى عنقك ، عنقك التى أصبحت مضرب الامثال ، أراها فى صورة تاج رائع البهاء يسبح فى بركة من الدم !
فصرخت نوريت وهى تتشبث بالعراف :
ـ لا أفهمك يا أبت . . صرح . . أبن . . ان الغازك لاشد حلوكة من ظلمة حلمى !
فهز خونسو رأسه وقال وهو يخفى اضطرابه :
ـ لا أعرف غير ما قلت . . سأجاهد من أجلك . . سأستخدم كل ما لدى فى سبيلك . . سأسخر علمى وفنى وكل ما أعرف لانقاذك ، وليفعل (تحوت) بعد ذلك ما يشاء :
وانحنى على نفسه ودس يده فى أحد جيوبه ، وأخرج عدة تماثيل صغيرة صنعت على شكل أعمدة قدمها لنوريت واستطرد :
ـ خذى هذه التمائم . هذا عمود صغير أخضر يضمن لحامله الشباب والجمال . وهذا آخر أبيض اللون يكفل لصاحبه النجاة من شتى المآزق ، وهذا ثالث ذهبى اللون يمد فى عمر حامله ويهبه السعادة والبقاء . فخذيها واحتفظى بها كحدقة عينك الثمينة ، واذا أصابك مكروه فضعيها على صدرك وانطقى بهذه الرقية الفعالة : « اخرج يا سم الشر ولتسقط رأسك الى أسفل ، فالمعبود حورس يأمرك ويبصق عليك » هذا كل ما عندى . على أنى أنصحك فوق ذلك أن تنقشى اسمك على جعران . فان من يفعل هذا يضمن لنفسه الحياة الابدية
فقالت نوريت وهى تضم التمائم الى صدرها وتكاد من فرط القلق والخوف تبكى على نفسها :
ـ أتظن أنى سأموت يا أبت ؟
فاكفهر وجه خونسو واكتفى بأن قال :
ـ اذهبى فى حراسة حورس ، واعلمى أنك أحب النساء الى قلبه الكريم

فألقت نوريت الى الساحر بكيس نقودها ، وقبلت يده فى شكر وخشوع ، ثم أخفت التمائم فى جيب صدارها ، وأسدلت النقاب على وجهها ، وخرجت مسلوبة الحول مشتركة اللب ، شاعرة بأن الراحة قد غادرت نفسها الى الابد !

***

وسارت على غير هدى تضرب فى طرقات لا تعرفها ولم تطأها قط قدماها . وكانت كأنها تخشى العودة الى قصرها ، وكأن هاتفا يهيب بها أن اغنمى هذه الفرصة واستمتعى بهذه اللحظات واملأى عينيك من نور الدنيا ، ولا تستعجلى العودة ما استطعت الى ذلك سبيلا . .

وبينا هى تسير اذ بها تبصر نفسها فى مدينة الاموات وترى ثلاثة رجال يرقصون بجوار مقبرة وبالقرب منهم رابع يصفق بيديه تصفيقا توقع عليه حركات الرقص ، وعلى مسافة قصيرة جما من النساء يرقصن أيضا وقد وقفت بجوارهن امرأتان تصفقان

وكانت ضفائر الراقصات طويلة تنتهى بشبه كرة تهتز أثناء رقصهن اهتزازا يؤدى الى تماوج الضفائر حول أجسامهن تماوجا ساحرا غريبا

أما الرجال فكانوا يرقصون رقصا فاتنا رائعا يحاكى ليونة الماء ، واضطرام النار ، ووحشية الاسد ، وغضب الفهد ، واصطفاق أغصان الشجر ، ويمثل مختلف ألوان الحياة أصدق تمثيل وأبلغه . فأثر هذا المنظر فى نفس نوريت وغمغمت :

ــ لقد قدموا الهبات المادية لفقيدهم . وها هم يرقصون لادخال السرور على نفسه . ترى من ذا الذى سوف يعنى بالرقص أمام قبرى لو مت اليوم أو غدا ؟ . .

وتحولت ومضت فى الطريق العام وقد أيقظها الخوف ونبهتها فكرة الموت ، وبدل أن تقصيها عن بيتها دفعت بها اليه ، كما يدفع القدر بالمسافر على الرغم منه الى طريق الهاوية

واجتازت ساحة السوق ، واخترقت الدروب الضيقة ، وبدأت تسير فى الشوارع المنبسطة الممهدة المفضية الى قصرها . وعندئذ استضاء عقلها ، وذكرت ما قاله العراف ، فجعلت تفكر وتحدث نفسها وهى ترتجف : « تاج عفتى يسبح فى بركة من الدم ! . . » هذا ما قاله العراف ! . . ولكن لماذا ؟ . . أقدر على بعد جهادى الطويل أن أنقض آخر الامر عهدى لزوجى وألوث هيكل جسمى وأتردى فى هوة الفضيحة والاثم ؟ . . لقد عشت طوال السنوات الاربع التى قضاها زوجى طريح الفراش مريضا ، وفية له مخلصة لواجبى ، بتولا عذراء ، لم أفكر فى نفسى ولم أحفل بوقد الشباب يسرى فى عروقى ، ولا بريح الاغراء تهب من كل صوب على ! . . آثرت كبرياء العفة فى ظل الواجب على سعادة الحب فى ظل الخيانة . ولقد أشفق على فرعون نفسه ، فأراد ان يحلنى من يمينى ، أن يطلقنى من زوجى ، ولكنى رفضت ومضيت فى تضحيتى ، فأحبنى الشعب وأكبرنى وأصبحت فى مصر كلها مضرب المثل فى العفة حتى للعذارى . . احتملت الألم . احتملت

العذاب . عذاب الحياة مع زوج هرم مريض شحيح ، ألقانى والدى بين ذراعيه لانه اشتهانى ، ولان شهوة وزير فرعون لا يمكن أن ترد .. امرأة الوزير !.. هذا ما كان يحلم به والدى وهذا ما رضخت له على مضض . ومع ذلك أخلصت .. تفانيت فى الاخلاص حرصا على كبريائى وقطعا لالسنة حسادى من نساء البلاط اللائى كن يتربصن بى ويرتبن فى قدرتى على مواصلة الحياة عفيفة فى صحبة رجل كزوجى .. ولكن القلب لا يموت اذا مات البدن ، بل ان موت البدن ليصب الحياة كلها فى شغاف القلب . ولقد تجمعت حياتى فى سويداء قلبى فأحببت .. أحببت رجلا غير زوجى . أحببت « آنى » . أحببته وعذبته . أدنيته وأبعدته . قربته وحرمته . لم أكن له . لم أخن عهدى . خلعت على حبه قداسة طهرى . جعلت من حبه ملاذى وملجأى ، فما زاده هذا الحب العلوى الا جنونا ، وما زادنى الا عفة وعذابا وحسرة . فكيف استحل المراق لعينه أن ترى تاج عفتى يسبح فى بركة من الدم ؟.. لن أسلم .. لن أبذل شيئا منى لـ « آنى » . وسأظل به حتى أستل من جسمه جرثومة الشهوة ، فيصبح بدنه ميتا كبدنى ، ولا أعود أرى منه ومنى غير روحين تحلقان معا فى سماء واحدة .. ولكن « سوكتى » .. شقيق « امنبت » .. شقيق زوجى .. هو التمساح .. هو الذى يريد بى شرا .. هو الغادر اللئيم .. لقد حاول اغرائى وانتهاك بيت أخيه ، ولكن عفتى أيأسته ، فلما أحس منى حبا لآنى ، اعتقد أنى فرطت فى عرضى ، وأنى أخدع وأخاتل ، فاستنكر كيف أوثر الغريب عليه ، وعاد ينصب شباكه حولى .. نعم .. غير أنى لا أخشاه .. هو الآن هناك .. فى ساحة الحرب .. فى حاشية فرعون مع شقيقه زوجى .. أما آنى فهنا .. بالقرب منى لم يغادر طيبه .. كان يتمنى اللحاق بالجيش تأدية لواجبه وتخلصا من عذاب حبى ، ولكن فرعون أعفاه من الجندية ليظل فى منصبه رئيسا للبلاط ، مشرفا على شؤون الدولة. فهو اذن هنا .. بجوارى .. ولسوف أراه بعد حين . سيزورنى كعادته كل يوم فى نفس الوقت وفى نفس اللحظة ، وسيدق قلبى دقاته العنيفة ، فأفتح عينى ، واذا بى أراه ماثلا أمامى .. نعم أخاف ، ومم أرتعد هكذا ؟.. انه معى .. انه سندى ونصيرى .. انه وجه ايزيس الذى رأيته فى الحلم يبتسم مقبلا على !.. لا . لن أدع القلق يستولى على نفسى . ان روحى صافية وضميرى مطمئن ، ولقد صهرت الكبرياء والعفة وارادة الحب النقى عقلى وبدنى وقلبى ، فجردتها من كل شائبة ، وأحالتها جوهرا من فضيلة وضياء .. لن أخاف !.. »

وكانت هذه الخواطر تتراكض فى ذهن نوريت وهى تسير مسرعة الخطى ضامة باحدى يديها التمائم الى صدرها ، وممسكة بالاخرى طرف قناعها خشية أن يعبث به الهواء ، فيتبين المارة طلعة وجهها

فلما استقرت خيالاتها على صورة آنى ، وزايلها الخوف والقلق بعض الشىء وارتدت اليها شجاعتها ، أحست بنفسها خفيفة رشيقة شبه مجنحة ، وخيل اليها انها لا تمشى بل

تب أو تطير ، فطفقت تضحك وتستغرب كيف عن لها أن تضحك ، وتخاطب صورة آني وتداعبه ، وتحرك يدها في الهواء كأنها تمر بها على محياه الذى انبثق فجأة من فسحة خيالها ، وتمثل أمامها نابضا بالحب والحرارة والحياة

ولازمها آني ، وأبى الا أن يقطع معها الطريق ، ففرحت به وأنست لقربه ، وجاذبته أطراف الحديث مستندة الى ذراعه تختال فى مشيتها اختيال المرأة التياهة المحسودة ، التى ظفرت على رغم الجميع برجل أحلامها

ولم تكد تشرف على حيها وتلمح باب قصرها ونوافذه حتى طارت عن خيالها الرؤيا ، وانجابت عن ذهنها السحب ، وباغتها شعور عميق بالوحدة انقبض له صدرها ، فتوقفت برهة ، وتطلعت الى القصر ، وخشيت أن تدخل

أحست قوة غريبة تعترض طريقها وتدفعها الى الوراء

سمعت شبه صوت يناديها ويحذرها ، ويدعوها الى التقهقر والفرار

فتلفتت تبحث عن آني ، فلم تجد غير الوحدة والصمت ، فهلع فؤادها وأوشكت أن تصرخ ، ولكن الوحدة نفسها طمأنتها ، والصمت الشامل أودع فى صدرها سكينته ، فابتسمت ساخرة من خوفها ، ساخرة من خيالاتها، ساخرة من طفولة روحها، ثم تشجعت وجرت قدميها جرا ، وصعدت درجات القصر

ولكنها ما أن اجتازت البهو الكبير وفتحت باب مخدعها المطل على الحديقة حتى تراجعت وقد اتسعت حدقتاها دهشا ورعبا ، اذ أبصرت « سوكي » شقيق زوجها جالسا على حافة فراشها يبتسم ، وينظر اليها نظرات ملؤها الشهوة والشماتة والغدر

***

تمالكت نفسها وصاحت فيه مستنكرة :

ـ متى عدت وكيف دخلت هنا ؟

فانفرجت شفتاه الغليظتان عن ضحكة كبيرة وقال :

ـ من أين أنت قادمة ؟

ثم طوى ذراعيه على صدره وهز رأسه وأردف :

ـ من عند آني ولا ريب . .

ولمعت عيناه المستديرتان الحادتان ، والتهبتها نظراته، فارتعشت كبرياء وسخطا، وأشارت بيدها نحو الباب ، وقالت فى هدوء متوعد : « اخرج ! »

فتمايل على نفسه ، ووضع ساقا فوق أخرى ، وقال وهو يقهقه :

ـ ما جئت لأخرج يا نوريت . . كم أنت ساحرة وجميلة ! . . لمن ارتديت هذا الجلباب الاسود وحجبت وجهك بقناع وخرجت هكذا متخفية كاحدى بنات الشعب ؟ . . لا . . أعتذر اليك . . لا أعتقد أنك كنت على موعد من آني . . أنت مثال الطهر والعفة والوفاء

يا نوريت ، ولا بد أنك ارتديت هذه الثياب اظهارا لحزنك على فراق زوجك .. لا بد أنك قادمة من الهيكل حيث كنت تصلين من أجله وتبتهلين الى الآلهة كي تعجل بعودته سالما ..

ومضى يقهقه وهو يتطرح فى الفراش ويخالسها النظر وهى ترتعد وتحدق الى عينيه النهمتين وأنفه الأفطس ، وقد ملكها الاشمئزاز ، وضاعفت سخريته الهادئة الواثقة شعورها العميق بالخوف

وأحس بها حائرة تائهة ترقب حركاته وتنتفض ، وتتلفت كأنما تبحث عن نفسها ، فأغراه اضطرابها ، ونهض فصرخت وهى تراجع :

ـ ماذا تريد منى ؟

وهمت بدفع الباب لتفر ، ولكنه أمسك بذراعها وحال بينها وبين الخروج ، وأوصد الباب فى رفق ، ثم قال وقد عبس وجهه فجأة وتقطب حاجباه والتوت شفتاه الغليظتان وتمثلت فيهما قسوته الكامنة :

ـ ابقى مكانك ولا تتحركى . واحذرى أن تصرخى أو تستغيثى !

وهمس فى أذنها وهو يبتسم :

ـ يا نوريت الجميلة أنت لى !

فدفعته عنها فى عنف وعينها المحملقة مثبتة فيه ، ونظرتها المذهولة تلحظه وترقب حركاته وتهيأ لاتقائها ، فأثاره هذا الاباء ، وأوغر صدره حقدا على غريمه ، فصاح :

ـ ليس آنى بأفضل منى ، وكما كنت له فيجب أن تكونى لى

فقالت وقد أضفى عليها الشموخ حلة من مجد وجلال :

ـ لم أكن لآنى ، ولست الا الزوجة الوفية لاخيك . ولن أدعك تلوث فراشه ما دام فى نفس يتردد !

فضحك وقال فى حنق مكظوم :

ـ ما أروع الوفاء الزوجى يتخذ ستارا للنفاق

ثم دنا منها وتفرس فيها لحظة طويلة وهى شاخصة اليه تتفحصه وترتجف

ثم انحنى عليها وقال فى صوت خافت غائر وعيناه متشبثتان بها وفمه العريض يصب الكلمات كاللهب فى أذنيها :

ـ تركت حاشية فرعون وأسرعت الى مصر لأراك .. اصطنعت المرض ، فأذن لى شقيقى بالرحيل .. غادرت ساحة القتال من أجلك .. ولقد بلغت طيبة منذ ساعة فقط ، وأردت أن أفاجئك ، فتسللت من باب الحديقة الخلفى دون أن يشعر بى أحد ، وتسلقت السور العالى ، وهبطت من هذه النافذة الى مخدعك .. لم أضيع لحظة واحدة . كان جوادى ينهب بى الارض وكنت أكاد أطير من فرط الفرح .. اقتنصت الفرصة النادرة التى حبانى بها القدر .. جئت اليك واثقا هذه المرة بحظى .. أتعلمين لماذا ؟.. لانى وجدت فى الامر

الاخير الذى أصدره الكهنة ، بابا للفرج أستطيع النفاذ منه توا الى هيكل سعادتى . .

فصوبت اليه نوريت نظرة متوقدة ، ولكنها لم تفهم . فابتسم عاضا على شفتيه ثم استطرد بصوت أجش مروع :

ــ شعارنا اليوم هو العفة لنسائنا ، وفاء لحق جنودنا علينا والهابا لروح التضحية فى نفوسهم قبيل اشتباكهم فى المعركة الفاصلة . ولقد أحل الكهنة للشعب تسليم المرأة الزانية الى السلطات وأحلوا للنبلاء قتلها . فان تمنعت على يا نوريت وأبيت أن تكونى لى ، قتلتك الآن دون رحمة ، ثم أعلنت فى الملأ أنى فاجأتك بين أحضان آتى !.. لن يرتاب فى أحد .. سيصدقنى الجميع .. وزير فرعون هو أخى وأنت زوجته ، وأنا القيم عليك فى غيبته ، ومن حقى أن أذود عن شرفه وشرفى .. فتخيرى الآن . اما بذل نفسك واما الموت لك ولآتى .. الموت فى حمأة العار .. الموت فى غمرة الفضيحة .. ستموتين وتموت معك شهرتك .. سمعتك .. قدوة العفة التى طالما اعتززت بها .. وسيلعنك الشعب غدا بعد أن كان يباركك ويقدسك . سيلعنك ولا يرى فيك الزانية فقط بل الخائنة ، الخائنة التى آثرت الشهوة على الواجب ، والحب على الوطن !

فجمد الدم فى عروق نوريت . تاهت عن نفسها واستطار فؤادها جزعا ورعبا . أحست كأن طوقا من حديد يضرب حولها ، وكأن جميع المسالك قد سدت فى وجهها ، وكأن سورا هائلا ينهض أمامها ، لو حاولت اقتحامه فلا بد أن تخور وتتحطم . فصرخت مرتمية عند قدمى سوكتى : ارحمنى !

فنظر اليها قرير النفس شامتا ، وقال وهو يشفى غليله من ضعفها :

ــ أورحمتنى بالامس ؟..

فجثت أمامه مبسوطة الذراعين شارعة العينين وقالت وهى تتوسل اليه وتقبل قدميه وتبكى :

ــ لا تلوثنى يا سوكتى .. أنا امرأة أخيك .. أنا شرف أسرتك .. أنا التى أصبحت بعذابى .. باحتمالى .. بصبرى .. بتضحياتى ، رمزا لمجد نساء بلادك .. لا تضيع جهادى .. لا تلقى بى من القمة التى بلغتها بحرمانى ودمى !

فقال وهو يتأملها ذليلة رخيصة متكسرة عند قدميه :

ــ فى يدك انقاذ نفسك وانقاذ آتى . لن تفقدى سمعتك .. لن تفقدى احترام الناس

فهتفت : وكيف أعيش وقد فقدت احترامى لنفسى ؟

فقال فى هدوء : اذن فاقبلى الموت مع العار ..

فاختلجت نوريت ، وعندئذ فقط ذكرت عبارات العراف كلمة بكلمة ، وذكرت حلمها الفظيع ، وهالها كيف تحقق الحلم بمثل هذه السرعة ، فلاذت بالتمائم وضمتها الى صدرها فى لهفة وعنف ، ولكنها نسيت الرقية السحرية الفعالة ، فخارت قواها وتملكها اليأس ، وغشى بصرها ضباب كثيف . ومن خلال أفكارها المتضاربة وخيالاتها المضطرمة ، تمثلت

والدها الشيخ ، مؤدب ابن فرعون ، مطرودا من البلاط ، وأمها محقرة منبوذة جلل شيبها العار ، وأفراد أسرتها وقد اضطهدهم الشعب يفرون من طيبه ويتشردون . تمثلت الجماهير وهي تلعنها ، وحبيبها آني يتهم ظلما وعدوانا ويموت من أجلها وهو أيضا يلعنها . تمثلت استحالتها في نظر الناس من مثل مقدس للعفة الى مثل مروع للرذيلة والاثم . تمثلت نفسها رمزا حياخالدا لروح الشر والافساد، افساد نساء بلادها وصرفهن عن الواجب وتحريضهن على خيانة أزواجهن المجاهدين ، خيانة تعد في هذا الظرف العصيب أبشع وأبغض جريمة في حق الوطن

كل هذه الرؤى التمعت في ذهنها ثم استقرت شيئا فشيئا في فسحة خيالها ، فصرفتها عن نفسها وجردتها من كبريائها وأعدمت فيها حب الذات وهيأتها للبطولة والتضحية ، فنظرت الى سوكني وهو واقف يتأملها ونية القتل تبرق في حدقتيه ، وأبت أن تموت وتكفن بالعار ، فرفعت رأسها وتطلعت الى رقعة السماء الزرقاء البادية من النافذة، وغمغمت تصلي: « أيها الاله العظيم ، سيد جميع الآلهة ، آمون رع ، الازلي الحق ، الواحد ، الخالق كل شيء . أنت يا من أوجدت العشب للحيوان وثمر الاشجار للانسان ، ويسرت للاسماك قوتها في البحور وهيأت للطير غذاءه . أنت يا حمى الضعيف من القوى ، يا من تمجده الوحوش الضارية في فيافي الصحراء ، كن مع عبدتك نوريت كما كانت معك منذ أودعت فيها روح الفرح والألم والحياة ! »

ولما أتمت صلاتها شعرت كأن نورا يملأ قلبها ، وكأن ماء الهيا ساطعا ينسكب عليها ويطهرها ، وكأن قوة خارقة قد تمشت في أعضائها وصلبتها ، فنهضت ومشت الى الرجل صفراء الوجه ، هامدة التقاطيع ، مغمضة العينين ، ذاهلة عن نفسها وعن العالم

وفي تلك اللحظة ، في تلك اللحظة الرهيبة المشئومة ، خيل لنوريت أنها تعيش في نفس الحلم الذي رأته بالامس فصرخت . صرخت من أعماق قلبها صرخة واحدة مدوية عند ما رأت رأي العين صورة التمساح وهو يفترسها

***

وثابت نوريت الى رشدها ، فألفت نفسها في المخدع وحيدة ، والصمت يكتنفها ، وأثاث غرفتها قائم حولها ، جامد في أماكنه ، معرض عنها ، شاهد عليها ، فلم تعرفه ولم يعرفها ، وأحست كأنها قد أصبحت غريبة عن كل شيء ، وكأن كل شيء يمجها ويلفظها . حتى الاشياء ، الاشياء التي كانت تحبها وتسر اليها في نجوى أنوثتها دخيلة نفسها ، مرآتها ، أثوابها ، حليها ، عطورها ، شعرت بها الآن تنفصل عنها وتصبح محرمة عليها ، فلم تطق المكث في المخدع ، وخرجت شبه ملتاثة الى البهو الكبير

ونظرت الى أشعة الشمس الغاربة ، وأيقنت من أن موعد قدوم آني قد أزف، فانهمرت الدموع على خديها ، وعصف بها اليأس والذل والحسرة والجنون ، وجعلت يداها تتقطعان

ثوبها وتنهشان بدنها كأنما هي تريد أن تتخلص منه أو تقتلع من أحشائه جرثومة الخزى والعار

وسقطت على الارض متهالكة ، وعقلها يفكر بالرغم منها . يفكر فى هول ما يجب عليها أن تفعل ، وهول ما يجب أن تحمل ، وهول ما يجب أن تناسى

وتجلى لها آنى بوجهه الصبوح ، وعينيه العسليتين ، وفمه القرمزى ، وابتسامته المعذبة، وسمرته الفاتنة المشربة بالحمرة المتقدة اتقاد الجمر ، فمزقتها الشفقة وفاضت من عينيها الدموع غزيرة متداركة

وكما كان يحدث عادة اذ تخاطب الروح اختها فتصت ، ويهفو الفكر الى قرينه فيلمسه ، وينادى القلب حبيبه فيلبى النداء ، سمعت نوريت طرقا خفيفا على الباب ، فأسرعت وفتحت لآنى وهى تغض من أبصارها وترتجف

وقبل أن يجلس الشاب ، وقبل أن يعرب عن دهشته لاضطرابها ، وغرابة هيئتها ، ومظهر الألم والحيرة الذى قابلته به ، صاحت فيه وهى تحجب وجهها بكلتا يديها :

ــ آنى ، لقد لوثنى سوكنى ولم أعد جديرة بالحياة !

وقصت عليه ما وقع وهى تزفر وتنشج وأعضاؤها تنتفض تقززا ورعبا ، وهو جالس بجوارها ينصت اليها بجمع كيانه مفغور الفم ، زائغ البصر ، قد عقد الذهول لسانه ، وجثمت على صدره فظاعة الحادث وسحقته سحقا

ولما أتمت نوريت قصتها ، صعدت نفسا مستطيلا ، ثم حدقت الى آنى وقالت وقد جف دمعها وتألقت عيناها عزة واباء وعزما ماضيا :

ــ أما وقد أنقذت سمعتى وشرف بيتى ، وحفظت منى لبلادى صورة نقية تقتدى بها النساء على مر الدهور ، فينبغى أن أموت يا آنى ، لانى لا أستطيع الحياة وهذا الرجس فى دمى !

فهتف الشاب وهو لم يزل فى ذهوله يحاول أن يجمع شتات فكره : ماذا تقولين ؟

فاستطردت وقد امتزج فى صوتها العزم القاطع بلوعة الحنان العميق :

ــ يجب أن أموت يا آنى ، والا فكيف أستطيع أن أحبك ؟ . . كيف أستطيع أن أكون خليقة بك . . كيف أستطيع أن أمحو من بدنى هذا الدنس ، وأحتفظ بتقديرك لى وتقديرى لنفسى ؟ . . لو عشت فلن أجسر على رفع البصر اليك يا آنى ! . . ستنسى تضحيتى وتذكر عارى كلما رأيتنى فتكرهنى وتتعذب ! . . لا . . لا أريد أن تعذبك حياتى ! . . أريد ان أنقذك بموتى ! . . أريد وقد كنت لسواك على الرغم منى ، أن أقتص من نفسى بنفسى لترتد الى كرامتى المسلوبة ، فيزداد حبك لى وتمجيدك لذكراى ! . . لا . . لا تبك يا آنى . . لا تبك يا حبيبى المسكين . . صدق ما قاله العراف ، أنت قربان وضحية ! . . كان حبى وبالا عليك . لم أجلب فى حياتك غير الهم والشقاء . لم تعرف السعادة خالصة بقربى . . وأسفاه ، لقد اختارنى القدر لاسعاد من أكره واشقاء من أحب . فأنا ، أنا

أيضا قربان وضحية . فلا تمزق فؤادي وارحم ساعة وداعنا ، وكن عند خيالى العظيم منك وتشجع وشجعنى !

وكانت تتكلم وهو ينظر اليها من خلال دموعه نظرة الملتاث ، ولا يستطيع أن يفهم أو يصدق . ماذا ؟ .. أيظل تاعسا فى حبها كل هذه السنوات ، محروما منها ، ممتثلا لارادتها ، متبتلا من أجلها ، ثم يفوز بها رجل غيره فيقضى على فضيلتها ويعدمها بعد ذلك الحياة ؟ .. ماذا فعل آنى ليحتمل كل هذا ؟ ماذا جنى ؟ .. انه أحب وأخلص وعف وأطاع . لم يرغب فى شىء . لم يطمع فى شىء . لم يطمع الا فى دوام هذه النعمة . فى بقاء هذا الهيكل نقيا من كل شائبة ، خالصا من كل دنس . ولكن ها هوذا الهيكل يستباح والجبال يشوه ، فلا أقل اذن من أن تبقى معالمه ويظل أثر الحياة نابضا فيه . أجل . ينبغى أن تعيش نوريت . ينبغى أن يراها ويسمع صوتها ويملأ قلبه ودمه كل يوم من فيض حبها ، والا فكيف يستطيع هو الآخر أن يعيش؟ .. سيرضى بحظه .. سيستسلم لقضائه . سيحبها ولو ملوثة .. وعند ما تتاح له الفرصة العظيمة ، فرصة الانتقام من غريمه والقضاء عليه ، فسينسى ، سينسى كل ما وقع وترتد نوريت فى نظره طاهرة كما كانت ، ويسعد بحبها ولو فى ظل التبتل والحرمان

واستولت عليه هذه الفكرة ، فقال وصوته يرتجف كراهية وحقدا :

ــ سوكى هو الذى يجب أن يموت ! سأقتله وأقتل معه الماضى ، فتعود حياتنا كما كانت ويهدأ قلبك وقلبى

فصاحت نوريت وهى ممسكة بذراعه تهزه فى عنف وذعر :

ــ اياك أن تفعل . لو قتلته فستقتل أنت أيضا لا محالة . انه يعرف ، يعرف أنك تحبنى . ولقد قال لى قبل أن يثب من نافذة مخدعى ويخرج ، انه لو أصيب بسوء ، فلن يثأر أصدقاؤه الا منك أنت ! .. ما تزال كلماته ترن فى أذنى ! .. ستقتل يا آنى لو حاولت الاقتصاص منه ، وأنا .. أنا لا أريد أن تموت !

واتقدت عيناها وأردفت :

ــ أريد أن تحرص على حياتك اذا كنت تريد أن تحرص على سمعتى ! لو قتلت سوكى ثم قتلت أنت ، فسأفتضح ولا ريب أنا ، وينكشف أمام الملأ عارى ، وتذهب تضحيتى هباء .. هذا ما هددنى به الوغد قبل رحيله ، فيجب أن تعدل عن الثأر منه حبا بى . يجب أن يعيش سوكى لتعيش فى قلوب الناس ذكرى نوريت !

نفد صبر آنى وصرخ : كيف تطلبين الى أن أرضى بموتك ثم أرضى بحياتى ثم أرضى بالعفو عن المجرم الاثيم ؟ .. أية امرأة أنت ، وأى حب هذا الذى تزعمين ؟ ...

فنظرت اليه نظرة تفطر لها قلبه ، وقالت :

ــ لو لم أكن أحبك لقضيت على نفسى دون أن أعترف لك بشىء . ولقد اعترفت لانى أحبك . خشيت لو كتمت عنك ما وقع أن تعلم بعد موتى أن ذلك الوغد قد ظفر بى ،

فتعتقد أنى ضعفت وخنتك وانتحرت ندما على خيانتى ، فاسقط من عينيك فتكرهنى وتلعننى . لقد اعترفت كى لا أدع للشبهة طريقا تنفذ منه يوما الى نفسك .. اعترفت من فرط حبى لانقذ هذا الحب فى قلبك .. وما اعتزمت أن أضحى بنفسى الا لاصون شخصى فى نظرك ، أبرهن لك على أنى لم أتغير ، وأنى أوثر أن أموت على أن أحمل وصمة العار، وأؤثر أن أقضى على أن أحبك وأنا ملوثة . فأى شىء أبلغ فى الدلالة على صدق حبى وعلى اخلاصى لسيرتى من تأهبى للموت راضية مبتهجة يا آنى ؟.. فاذا كنت حقا تحبنى واذا كنت حقا الرجل الذى أحببت ، فينبغى أن تعدل عن الثأر وتصفح عن المجرم ، وتسلم بأن موتى هو الطريق الوحيد لانقاذ نفسى وانقاذ حبنا !

فصاح آنى وهو باسط ذراعيه وصوته اليائس المتهدج يفرغ فى نظراته المتوسلة عصارة أمله العظيم :

ــ اذن لنمت معا يا نوريت !.. لست بأقل منك كبرياء وقوة . لست بأقل منك قدرة على التفوق على نفسى . لقد احتملت فى سبيلك الألم والحرمان وفى وسعى أن أطاول قوتك وأذهب فى التضحية مبتهجا الى حد الموت . فخذينى يا نوريت . خذينى الى العالم الآخر معك !..

فطوقت رأسه بذراعها وانحنت عليه وقالت وهى تتأمل ضوء عينيه الصليتين ، ولمعة فمه القرمزى ، وبؤس ابتساماته المعذبة :

ــ انت يجب ان تعيش يا آنى ! أريد أن تعيش لتذكرنى ، لتفكر فى ، لتحبنى أيضا ، لتحبنى أكثر .. أريد أن تقدم الهبات لجثتى .. أريد أن تكون أنت من يعنى بجمع الراقصين حول قبرى كى افكر فيك كلما أدخلوا السرور على نفسى !

وجذبته من يده وهو فى غمرة ذهوله ، واقتادته الى أقصى البهو حيث كان ينهض على قاعدة من مرمر تمثال كبير للاله حورس وأردفت :

ــ أقسم أمام المعبود حورس رب الصلاح والتقوى ، أنك ستعيش من أجلى ولا تفكر أبدا فى وضع حد بنفسك لحياتك . أما اذا امتنعت عن القسم ، فلن أنتحر أنا . سأعيش مجللة بعارى ، ولكنى لن أراك ولن أعرفك ، ولن تطأ قدمك عتبة هذا البيت بعد اليوم . فاختر بين كراهيتى وموتك . اقض على نفسك ان شئت أن تتبعك كراهيتى ولعنتى

وانتظرت قراره وهى ترتجف . ولما أبصرها ثابتة عازمة ، ولمح فى عينيها المشتعلتين بريقا حادا يوشك لو أثارها أن يصبح بريق سخط ، تهاوى على نفسه وأطرق برأسه وآثر أن يسلمها للموت على أن يبقيها حية وهى تكرهه . فغمغم : « أقسم ! »

فأشرق وجهها وتهلل . ولاول مرة منذ أحبها عانقته ، وطبعت على جبينه الملتهب قبلة وقبل أن يفيق ، وخشية أن يطغى عليهما سلطان الحواس القاهر وتجتاحهما على الرغم منهما عاصفة الوداع ، دفعته فى رفق نحو الباب وقالت :

ــ اذهب يا حبيبى وعش واذكرنى !

ثم عادت زائغة البصر فارغة الروح خاوية العقل الا من فكرتها ، ومشت الى مخدعها في بطء ذاهل كما يمشي النائم . ولكن هزة عنيفة عرتها بغتة فتوقفت ، وطرق مسمعها صوت هائل أشبه بهدير البحر ، فاضطرم فؤادها ، وأسرعت الى الشرفة ففتحتها

ولم تكد تطل منها حتى قوبلت بموجة هتاف طاغية ردتها الى الوراء مذعورة

أبصرت الجماهير وقد غص بهـا الشارع الضيق تحمل علما كبيرا ذا هلال وثلاث نجوم ، وتتقدم كالموج الزاخر ، متطلعة برؤوسها مشرئبة بأعناقها ملوحة بأذرعها ، تهتف بين زغردة النساء وصياحهن هتافا يشق عنان السماء :

ـ الحياة الخالدة لفرعون !.. الحياة الخالدة لنوريت !..

فأدركت نوريت أن فرعون قد قهر الحثيين ، وأن الجمهور قد جاء يحييها محتفلا بالنبأ العظيم . فاستندت الى حافة الشرفة ورفعت ذراعها ولوحت بها ترد التحية وقد اغرورقت عيناها بالدموع

وظلت واقفة تلوح بذراعها وصدرها ملتهب وقلبها متوثب ودمعها يسيل ، حتى اختفت الجماهير وخيم على الشارع الصمت

وعندئذ أوصدت الشرفة ، ثم تنفست طويلا ، ثم اتجهت صوب مخدعها بقدم ثابتة

وهنالك ، في تلك الحجرة المشئومة التي شاهدت ذلها وعارها ، فتحت باب طاقة صغيرة في الحائط ، وأخرجت منها قارورة السم البطيء التي كانت قد ابتاعتها من العراف ، وغمغمت :

ـ آمون يحبني . لقد انقذت نفسي ، وأنقذت آني ورأيت النصر !

ورفعت القارورة الى شفتيها ، وجرعت ما فيها عن آخره



القصص اليوناني
بطولة العذراء هستيا

تمثل هذه القصة روح البطولة والوطنية التي كانت مستولية على الشعب اليوناني أثناء حرب الاستقلال ضد الفرس وملكهم داريوس . وقد تولى قيادة هذه الحرب ثلاثة من عباقرة قواد اليونان وهم : ملتيادس وتمستكلس وأرستيديس ، وانتهت بفوز اليونان في ماراثون ، وهي ميناء على الشط الشرقي وعلى بعد عشرين ميلا من أثينا .

ابتسم الكهل « هرمس » ابتسامة رقيقة ، وقال وهو ينظر بعينيه المستديرتين الزرقاوين الى ضيفه « شالكاس » :

ـ انى لاستغرب كيف تكون فيلسوفا ثم تتعلق بأشياء عارضة لا يلبث أن يأتى عليها الزمن . في رأيي أن من كان مثلك يجب أن ينظر الى أحداث هذا العالم كما ينظر الرجل العادي الى اختلاف فصول السنة ..

فضحك شالكاس والتفت الى زميله « أوريون » وقال له : وما رأيك أنت في هذا اللون من التفكير الذى أصبح يستعذبه صديقنا هرمس ويشيد به ويدعو اليه ؟

فأطرق أوريون لحظة ، ثم رفع رأسه الصغير ، فبدا وجهه الذى نقره الجدري ، عابسا متجهما محتقنا ، أشد دمامة مما هو عليه . وحاول أن يتكلم ولكن أعصابه المتوترة تغلبت عليه وضاعفت انفعاله ، فلم يستطع الا أن يرسل شبه صيحات مخنوقة مبهمة

ورمقه الفيلسوف بنظرة مشفقة ، ثم تحول الى صاحب الدار وقال :

ـ أنت تأخذ على يا هرمس اهتمامي بشؤون وطني ، وترى من واجبي كمفكر أن أظل بمعزل عن السياسة ، وأن أعيش في عالمي الخيالي المغلق . ولكنك تنسى أن بلادى هي مادة فكرى ، وأن المجتمع الذى يكتنفني هو الذى يغذى عقلي وقلبي ، وأن الارض التي تحملني هي التي توحي الى مختلف الافكار والعواطف . فكيف تريدني على أن أنفض يدى

منها ، ولا أحفل بكفاحها المقدس ضد أعدائها ، ولا أساهم فى هذا الكفاح بكل ما أوتيت من قوة الفكر والبيان . انك بذلك تساعد على افناء المادة التى أعيش منها ، وتصيرنى أنا نفسى الى عدم

فقال هرمس وهو يشيح بوجهه كي لا تقع عيناه على وجه أوريون المشوه :

ـ ولكنك كلما تعلقت ببلادك ، انطويت على نفسك ، وضاق أفق تفكيرك ، وآثرت مصلحة اليونان العارضة على خير الانسانية الباقى

فعقد الفيلسوف أصابعه الضامرة على بطنه المكور ، وقال ولم يفارقه هدوؤه :

ـ الحرية التى أنشدها لبلادى هى القوة التى لا بد أن تتوافر لى أولا ، كى أستطيع فى دائرتى المتواضعة تحقيق الخير والحرية للانسانية كلها

فندت عن أوريون صرخة أعرب بها عن اعجابه باستاذه . ولكن هرمس لم يعبأ به واستطرد :

ـ واذا كانت القوى غير متكافئة ؟ . . اذا كانت جيوشنا لن تستطيع الثبات أبدا أمام جحافل الفرس ، أفلا يكون من الخير لنا أن نستعيض عن الحرب بالسياسة ، وأن نخدع أولئك القوم ونتقرب اليهم ، عسى أن تنفع الحيلة حيث أخفقت الحرب ؟

وهنا صاح الفيلسوف بالرغم منه :

ـ ولكن الحرب لم تنته بعد . وليس معنى انكسارنا فى المعركة الاولى أن الفشل مقضى به علينا

فقال هرمس وهو يبتسم ويربت له على كتفه :

ـ لا . . لا يا صديقى شالكاس . . أنت لم تعد فيلسوفا بالمرة . . ان عواطفك الوطنية تطغى عليك وتؤثر فى تفكيرك ، وانك الآن لتفضل هزيمة بلادك وخرابها على استخدام عقلك وذكائك وحنكتك لانقاذها

فقطب شالكاس حاجبيه ، وقال وهو يطيل النظر الى مضيفه :

ـ لا أنت ولا أنا سنصبح شيئا مذكورا اذا ما فقدت البلاد معركة استقلالها ضد جيوش داريوس ! . . وانه لمن البدهى أن الحكمة والفلسفة والفنون والشرائع لن تزهر فى أمة من العبيد . والواقع أنى عند ما أكافح من أجل حرية بلادى ، انما أذود فى نفس الوقت عن حرية فكرى ، أى عن تطور الفكر البشرى اطلاقا . لهذا السبب أنا من أنصار الحرب ، ومن أنصارها حتى النهاية !

فأسبل هرمس عينيه المستديرتين الضيقتين ، وأخفى غيظه جهده ، وتظاهر بالتبسط والتسليم ، ومضى الفيلسوف يفكر وهو يدير ابهاميه على بعضهما بحركة عصبية سريعة ، وانطلق أوريون يضحك بلا مسوغ ضحكات مزعجة متقطعة ، وقد تهدل لحم خديه وارتعش أنفه الأفطس ، وبرزت من خلال شفتيه الغليظتين أسنانه الحادة السوداء

وفى فجأة وزايلته نوبة الفرح ، وارتد وجهه ساكنا كئيبا حزينا ، فلاح عليه ضوء غريب من جمال لم يلحظه ، ولم يبتهج له غير الفيلسوف شالكاس

وقال صاحب الدار بعد فترة :

ـ لقد أنذرتكم وأنذرت سواكم وما أنا بعد بمسئول اذا حلت الكارثة !

وهنا انتفض الرجل الساكن الدميم ، واستطاع بعد جهد أن يقول : أية كارثة ؟!..

وتلفت يمينا ويسارا كأنه يشهد الملأ على ما سيقول ، وأردف :

ـ نحن سنكسب هذه الحرب !.. سنكسبها !.. سنكسبها !..

وطفق يضحك كمعتوه وهو يهز جسمه هزا متواليا كأنما هو يرقص على نغمات موسيقى النصر ، ثم صمت مرة أخرى وأربد وجهه وعاودته كآبته ، فانتحى ناحية من الغرفة تبع فيها وظل يحدق باهتمام الى قدميه

وهنا لم يتمالك الفيلسوف نفسه ، فانفجر هو الآخر بالضحك وقال :

ـ ما أمتع حياتى معك يا أوريون !.. ان تقلباتك الغريبة تسحرنى وتفتننى !.. أنت تمثل الحياة الكبرى . كل ما فيها ينعكس عليك . وكل ما سوف يأتى به القدر يستشعر به قلبك وتفيض آثاره على محياك . وما دمت مؤمنا بالنصر ، فأنا مؤمن به أيضا . فلا تكتئب ولا تحزن . ان « هستيا » تقدرك وتثق بالهامات بصيرتك ، وتعتقد نفس اعتقادك ولو كره والدها .. فنحن ثلاثة : هى وأنت وأنا ، ولسوف نتغلب بعون الآلهة على ضعف هرمس وشكوكه

فتافل أوريون هرمس ومال نحو أستاذه ، وهمس فى أذنه متوسلا وهو يرتجف :

ـ لا تنصرف .. ابق قليلا .. أريد أن أراها فى حلتها المقدسة البيضاء قبل أن تذهب الى المعبد ..

فطمأنه الفيلسوف بنظرة معنوية ، ثم تحول الى مضيفه وقال :

ـ لا بد أن سيكون احتفال هذه السنة رائعا ؟..

فأجاب هرمس وهو منصرف الى تفكيره :

ـ ماذا تقول ؟.. نعم .. أجمل العذارى من أرقى بيوتات اليونان اشتركن فى حياكة ثوب الالاهة « بالاس » الذى سنكسو به اليوم تمثالها . سيكون الموكب كما ألفتموه عظيما ولكن رهطا كبيرا من ضباط الجيش سيشترك فيه هذا العام ، كما سترتل « ميرا » لأول مرة ، يصحبها جمع كبير من الفتيات ذوات الجمال الرائع والصوت الرخيم

فهتف أوريون وهو يصفق :

ـ سيكون عيد « بالاس » بشير النصر !

ثم اتجه بغتة نحو هرمس وركع أمامه نصف ركعة ثم تشجع وقال فى احترام عميق :

آمل وأنت رئيس كهنة معبد الالاهة « بالاس اثينا » ألا ترفع اليها اليوم صلواتك وأنت فى شك من انتصار أبنائها !..

فرمقه هرمس بنظرة احتقار ، ثم قال فى صرامة وشموخ :

ــ ان سلامة نيتى تثبت لها طهارة قلبى !

وكان الفيلسوف يحدق اليه وهو ينطق بهذه العبارة ، فلما التقت عيناهما اضطرب هرمس واكفهر وجهه ، ولم يستطع الا أن يطرق . وفى تلك اللحظة سمع صوت عذب يقول : هأنذا يا والدى !

وتلفت الكل ، واذا بهستيا الجميلة واقفة بباب مخدعها تبتسم لهم ، وترفل مبتهجة فى حلة العيد المقدسة البيضاء

***

وصاح الفيلسوف وهو يتأملها معجبا بها !

ــ كم أنت جميلة يا هستيا !

فازدهرت الفتاة لهذا الاطراء وتألقت عيناها الزرقاوان ، وانسكب على كيانها كله ضوء من الزهو الفاتن البرىء ، ولكنها قالت فى وداعة ورقة :

ــ سترى فى الموكب فتيات أجمل منى بكثير يا استاذى العزيز . .

فلوح الفيلسوف بيده وقال : أنت أجملهن جميعا !

فأمالت هستيا رأسها على كتفها بحركة لطيفة ، وقالت وقد ارتعشت جدائل شعرها المصفف حول رأسها كتاج من ذهب :

ــ لقد علمتنى التواضع يا أستاذى ، فحذار أن تلقى فى نفسى بذور الكبرياء . .

فقال هرمس وهو ينظر الى ابنته نظرة ملؤها الاعتزاز :

ــ يحق لك أن تفخرى يا ابنتى ، فالكبر من شيم الجمال

وأردف مداعبا وهو يبتسم :

ــ آه لو رآك خطيبك كرونوس على هذه الصورة ، اذن لازداد جنونا بك !

فنضت الفتاة من بصرها حياء ، وقالت فى خفر ودل :

ــ ألا تنفك تذكر هذا الموضوع يا أبت ؟. .

فقال الفيلسوف وهو يحك صلعته :

ــ هذا أحب موضوع الى الفتيات يا هستيا . .

فتضرجت وجنتاها وشاع الخجل والاضطراب فى صوتها وقالت وهى تلقى على شالكاس نظرة عتاب :

ــ أنت أيضا يا أستاذى ؟!. . انى أغفر لك لانى أحبك ، ولكن عدنى بألا تطرق هذا الموضوع ثانيا . .

فقهقه الفيلسوف وقال :

ــ اذا امتنعت عن الكلام فيه ، فلن تعدمى وسيلة لاثارته بنفسك . .

فضج الوالد بالضحك ، وتململت هستيا ، وتحولت عنهما الى أوريون ، ولكنها ما كادت

تدنو منه وتنظر اليه حتى انقبض محياها ، وخنق الأشمئزاز الكلمات فى صدرها بالرغم منها
وكان أوريون قابعا فى زاويته رافعا رأسه اليها يتأملها بنظرات ملؤها العبادة والتقديس فلما اقتربت منه وأحس منها ذلك النفور الطبيعى الذى لا حيلة لها فيه ، طوى رأسه على صدره كى يخفى وجهه الدميم ، وأرسل أنة قصيرة ، وانكمش ولم يتحرك
وبعاطفة انسانية نبيلة غالبت احساسها ، وقالت وهى تجتهد فى تعويد نفسها النظر اليه:
ـ ألا ترى أن من واجبى ألا أخطر اليوم على بالى أية فكرة تتعلق بشخصى ؟.. كل عذراء فى بلاد اليونان ـ ولا سيما أنا ابنة الكاهن الاعظم ـ يجب أن تتجه اليوم بعقلها وقلبها الى المعبودة « بالاس » كى تعجل بعقد أكاليل النصر على هامات أبطالنا !
فهز الفيلسوف رأسه ، وتعمد أن يقول كى يحرج هرمس :
ـ ما أعجب أن تناقض البنت آراء والدها !
فتطلعت هستيا الى أستاذها وقالت فى دهشة : ما معنى هذا ؟
فأجاب على الفور :
ـ والدك يرى أن النصر على الفرس ضرب من المحال ، وانه أولى بنا ، وأجدى لصالحنا أن نتفق معهم ونلقى السلاح ..
فبهتت هستيا ، ثم امتقع لونها وتبدلت فى لحظة . تغضن جبينها وارتسمت عليه صرامة مهيبة . اتقدت عيناها واتسعتا وقدح منهما بريق الغضب والاستنكار . زايلها كل خفر وكل حياء وكل رقة . تقلص منها جمال العذارى ، وأغدق عليها السخط جمالا آخر أشد تأثيرا وأوقع فتنة . فمشت الى والدها كامرأة راشدة كاملة ، وقالت بصوت جاف جهير :
ـ أصحيح ما قاله شالكاس يا أبت ؟
فاضطرب هرمس ، وأجاب متلعثما وهو يرشق الفيلسوف بنظرة حانقة :
ـ هذه فكرة عرضت لى .. ليست من الأهمية بحيث ..
فقاطعته هستيا منفعلة :
ـ بل هى من الخطورة بمكان عظيم !.. ولو تسربت منك أنت رئيس الكهنة ، وتغلغلت فى أوساط الشعب فى أيام المحنة هذه التى تجتازها ، فمن ذا الذى يضمن أن تظل الأمة متماسكة أمام عدوها فى حرب هى بالنسبة لها حرب حياة أو موت ؟!..
وصمتت فترة ثم صرخت :
ـ أنتم تعلمون شدة حبى لخطيبى كرونوس ، ولكنى برغم هذا الحب أوثر أن يقتل فى ساحة الحرب على أن يعود الى حيا وفى صدره خيبة الهزيمة .. الموت .. حب الموت يا والدى .. انكار الحياة .. الزهد فيها .. التحرر من مباهجها .. التغلب على سلطانها باحتقار هذا السلطان .. تلك هى المبادىء التى أخذتها عن أستاذى شالكاس ، والتى أعلم علم اليقين أن فيها سعادة وطنى كما كانت فيها حتى اليوم سعادتى !
وكانت تتكلم وأريون شاخص اليها ، يتأمل وجهها الملتهب ، وعينيها القاسيتين، وشفتها

القرمزية السفلى وهى ترتجف ، واشاراتها القاطعة ، وحركاتها الفياضة بالاباء والعزة ، وقد غفر لها من صميم قلبه نفورها العميق منه ، لفرط ما شاهد من اخلاصها وصدق وطنيتها

وفجأة وقعت أبصارها عليه فلم تحولها ، بل اتجهت نحوه وأمسكت بذراعه ، وتقدمت به الى حيث كان يجلس والدها واستطردت :

ـ ماذا قدمنا نحن للوطن ؟ . . لا شيء ! . . أما هذا الرجل الضعيف الذى لم يستطع أن يقدم للوطن حياته ، فقد وهب خزينة الجيش كل ثروته ! . . يجب أن نقتدى به . وان أعوزتنا روح التضحية ، فلا أقل من أن نصمت وندع اليونان تقاتل موحدة مرتاحة مرتاحة الضمير !

ورنت بطرفها الى أوريون وربتت على كتفه ، فتفتح قلب الرجل المنبوذ الدميم ، وابتهجت روحه وانحدرت دمعة على خده المشوه الباهت

وأحست هسنتيا أنها قد أسرفت فى القسوة على والدها ، فاندفعت نحوه وطوقته بذراعيها ، ومضت تبتسم وتقول بصوتها الناعم وقد عاودتها فتنة العذارى الرقيقات المستضعفات :

ـ سامحنى يا أبت ! . . ما قصدت الاساءة اليك . . لتنصب على لعنة الالاهة « بالاس » فى يوم عيدها العظيم لو كان قد خامرنى أى شك فى وطنيتك . . اعف عنى . . ابتسم لى كعادتك . . انس ما بدر منى ، ولا تمتنع ، وهات يدك . .

وتناولت يد والدها وقبلتها فى خشوع ، ثم التفت الى أستاذها ، وقالت وقد تغاضت عن أوريون كعادتها ، وأهملته كأن لم يعد له وجود :

ـ ألا ترى أنى بوصفى ابنة الكاهن الاعظم يجب أن أحمل الآنية المقدسة وأتقدم موكب العذارى ؟

فأجاب الفيلسوف :

ـ يكون منك أروع وأجمل وأنت ابنة كاهن معبد الالاهة التى سنحتفل اليوم بعيدها ، أن تضربى المثل الصالح فى التواضع ، وأن تقدمى عليك أترابك وتسيرى فى مؤخرة الموكب . .

فأحنت هسنتيا رأسها وقالت :

ـ لك ما تريد يا استاذى . وسأظل فى المؤخرة وأنت بجانبى . .

ولم تكد تتم عبارتها حتى سمعت خارج البيت حركة وأصواتا مشفوعة بلجب كبير ، فصاحت هسنتيا وقد غمر الفرح وجهها :

ـ جاءت العذارى ، وأزف الموعد . .

فهتف أوريون : هيا بنا ! . .

ونهض هرمس عابسا متجهما ، وتبعته هستيا متأبطة ذراع أستاذها ، وسار أوريون خلفهم بخطى التابع القانع السعيد ، وخرجوا جميعا متجهين نحو المعبد

***

احتشدت الجماهير فى الاكروبول (١) حول البارتنون معبد الالاهة بالاس اثينا . وكان المعبد مقسما الى مناطق ثلاث : المنطقة الاولى رحبة فسيحة أعدت فى الجهة الشرقية لتلقى القرابين والنذور . والمنطقة الثانية رحبة أيضا أقيمت فى الجهة الغربية لحفظ كنوز الالاهة ومجوهراتها . أما المنطقة الثالثة فكانت تبرز فى الوسط ، وينهض فيها على قاعدة عظيمة تمثال الالاهة نفسها

وكانت الجماهير ومعظمها من أبناء الشعب الفقراء البائسين المرضى تتجمع عند أبواب البارتون فى انتظار الموكب وبدء الصلاة

فالمقعدون والكسحان والعميان والمشلولون ، والامهات الحاملات أطفالهن المرضى ، والشيوخ الذين أعيتهم مكافحة الهرم ، والمصابون بداء الصرع ، والارامل الحزينات ، والمطلقات المنبوذات ، والنساء العقيمات اللواتى يتمنين الحمل ويشتهين الامومة ،كل أولئك كانوا يتزاحمون بالمناكب نحو المعبد ومن خلفهم طوائف المتفرجين من أبناء الطبقة الوسطى أو أرهاط الشباب العابث الماجن من أبناء الطبقات المموَّلة ، جاءوا لامتاع نفوسهم بحفلات العيد والاشتراك فى الرقص مع الغوانى ، والاستماع لترتيل المغنية « ميرا » ومشاهدة موكب العذارى

أما الرجال والنساء الذين أرسلوا الى الحرب أبناءهم أو أزواجهم أو اخوتهم ، والذين فقدوا البعض منهم فى ميدان القتال ، فقد كانوا فى المقدمة متجمعين حول بعضهم البعض يتنسمون أنباء القتال ، ويواسون المرضى ، ويبتهلون الى الالاهة بالاس أن تستعجل يوم الخلاص والنصر

ولم يكن ليلفت النظر فى هذه الجموع سوى الغوانى المحترفات بائعات الهوى . فقد كن يبرزن من بين الجماهير بأرديتهن الزاهية ، وضحكاتهن العالية ، ونكاتهن الصارخة ، ووجوههن الوقحة المطلية بالمساحيق ، وكن يتحرشن بالشباب الاثرياء ، ويبادلنهم مختلف النكات ، ويعقدن معهم أواصر الصداقة ، ويضربن لهم مواعيد الغرام

وكانت الاحاديث تدور حول المرضى والحرب والحب ، وكان الفرح بالعيد يخفف من وطأة المرض ، والأمل العميق بالنصر يحجب كوارث الحروب ، ومشهد العذارى المنتظر يؤجج فى النفوس عاطفة الحب

وفجأة ترامت الى الآذان أنغام موسيقية بعيدة ، فاضطربت الجماهير واختلطت ، ومال

(١) الاكروبول قلعة أقيمت فى اثينا فوق صخرة عالية شيدت عليها معابد مختلفة منها معبد بالاس

البعض منها على البعض الآخر كالامواج ، وارتفع صراخها وهتافها مبهما غامضا كهدير حيوان هائل خراف

وتقدم الموكب شيئا فشيئا ، وأفسح له الشعب الطريق . ولم يكد يبدو هرمس ومن خلفه الكهنة يتبعهم خدم الهيكل حتى استولى على الناس شبه جنون فاندفعوا نحو الكاهن الاعظم ، وداس كبيرهم صغيرهم وولولت النساء ، وبكت الاطفال ، ولم ينعم غير نفر قليل بلثم رداء هرمس خادم الالاهة بالاس

وفي أقل من لحظة تبدلت نفسية الجماهير، وخمدت أصواتها ، وقر فيها النظام، واحتواها الصمت

تراجع الناس واصطفوا خاشعين ، وأعناقهم مشرئبة ، وعيونهم ثابتة تحدق في لهفة ونشوة الى موكب العذارى

وكن عشرا من أجمل وأفتن بنات اثينا ، يسرن متئدات شامخات ، صارمات الوجوه في جلال مهيب ، تائهات العيون في ورع قدسي ، ملتهبات الخدود في فرح مختجز عميق ، يحملن في كبر واعتزاز ثوب الالاهة الجديد الذي حاكته أناملهن وزركشنه ووشت مختلف أطرافه ورسمت عليه صورا رائعة من شتى العظائم التي قامت بها الالاهة ، ونقشت فيه أسماء الابطال الذين استشهدوا وماتوا في سبيل الوطن

وجثت الجماهير عند مرور الموكب ، وأحنت رؤوسها أمام الثوب الذي كان يتألق ويسطع تحت أشعة الشمس ، متموجا من خلالها ، سابحا فيها ، أشبه بقارب صغير من ذهب ، يرمز الى النجاة ، ويتجه في هدوء نحو شاطىء السلام

وارتفعت غمغمة كبيرة تعالى بعدها الهتاف :

ـ المجد لبالاس اثينا !..

فارتعشت يد هستيا وهي تحمل طرف الثوب المقدس وضمت شفتيها لئلا تبكي من فرط التأثر ، واستطردت السير وئيدة الخطى صافية العينين مشرقة الوجه ممشوقة القد لينة الاعضاء ، تكلأها عين الفيلسوف أستاذها ، وتنهب حسنها الباهر الابصار

ومر ضباط الجيش وكبار رجال الحكومة ، وتبعتهم فرق الموسيقى ، وجماعة الشعراء والادباء ورجال الفن يحيطون بالمغنية « ميرا » وقد ارتدت ثوبا أبيض طرزت عليه زهرات حمراء ، وأرخت شعرها الاسود الرائع على كتفيها ، وتمنطقت بحزام من ذهب . فما ان عرفها الجمهور حتى صاح : ميرا !.. ميرا !..

فابتسمت ولوحت للهاتفين بذراعها ، كأنما هي تعدهم بسماع ما لم يسمعوا في حياتهم من أشجى التراتيل وأبهج الانغام

وجعل الموكب يختفي ويغيب في جوف المعبد على مهل . ثم تدفقت في أثره الجماهير متسابقة متدافعة ، ثم هدأت الساحة الكبيرة بعض الشيء ، وتخلف فيها ذلك النفر من الشباب الاثرياء في صحبة بنات الهوى اللواتي جلسن على الارض ، وجعلن يجاذبن

أصدقاءهن الحديث ، ويداعبنهم ، ويمرحن ويضحكن فى انتظار نهاية الصلاة ، وبدء أفراح الشعب

وكان آخر من دخل الهيكل هو أوريون الرجل الدميم الشوذ الذى لم تستطع أن تنظر اليه عين ، والذى لم يكن له بين كل هذا الجمع أى صديق

***

اخترق أوريون الجماهير وتسلل بين أعمدة المعبد ، حتى وقع اختياره على زاوية يمكن أن يلمح منها الآونة بعد الاخرى وجه حبيبته هستيا . وكان هرمس وحوله الكهنة يرتمون وهم ينزعون فى بطء وحرص عن الالاهة بالاس ثوبها القديم ، ويتناولون الثوب الجديد من أيدى العذارى ، ويخلعونه على التمثال

وظلوا يرتلون والشعب صامت ، ثم تنحوا فجأة عن التمثال كأنما هم يقدمون الالاهة هبة للجماهير

ولاحت اذ ذاك « بالاس اثينا » تتلألأ فى ثوبها الرائع ، منتصبة على قاعدة تمثالها ، عزيزة مرهوبة وقد تمنطقت بحزام وعلت رأسها خوذة يزينها رسم أبيالهول ذو المخلبين، وحمى صدرها درع نقشت عليه صور بعض الافاعى ، وقبضت يدها اليسرى على رمح أسند الى الدرع ، وحملت يدها اليمنى شارة النصر المجنح

عندئذ دبت الحياة فى الجماهير وجاشت واصطخبت ، فارتفعت الاذرع ، وامتدت أكف الضراعة نحو الالاهة ، وفتح الكاهن الاعظم باب الحجرات الشرقية حيث تراكمت القرابين والنذور التى قدمها الشعب بالأمس ، فضج الناس بالفرح ، واتقدت حماستهم ، وجعلوا يرددون : المجد لبالاس اثينا ! . .

وقبل أن تفتر حميتهم ، توسطت المغنية « ميرا » بهو المعبد وتقدمت صوب الهيكل ، ووقفت تجاه تمثال الالاهة ، ثم جثت ، ثم نهضت ، ثم رفعت ذراعيها وأنشأت ترتل بصوتها الحار الجميل ، وهى شاخصة الى عينى الالاهة ، والجمهور يتبعها النظر ، وقد بدأت صيحاته تخفت ويحل محلها سكون خاشع رهيب

وغنت ميرا تمدح بالاس وتمجدها :

آلام الناس تطرح عند قدميك
أمراضهم تزول بنظرة منك
قلوبهم الواجفة تهفو اليك
أصواتهم تشق عنان السماء
فتعطفى علينا يا عذراء
وامنحينا الشفاء !

فارتفعت الاذرع ورددت الجماهير : « امنحينا الشفاء ! »

ومضت ميرا فى انشادها وكأنها فى غيبوبة :

ندالك يتساقط على الأزهار
ونورك ينسكب فى قلبها
وفيضك يا عذراء يحيى براعمها
فامنحينا الحياة
فلسنا أقل تمجيدا لك من الازهار !
امنحينا الحياة !

لقد أخرجت من بطن الارض شجر التين
وتعالى فى حماك شجر الزيتون
ووهبتنا رحمتك كل فاكهة وكل ثمر
فامنحينا خيرات النفس يا عذراء !
فلسنا أقل تمجيدا لك من الارض !

ـ امنحينا خيرات النفس !

الحكمة شعارك والعقل قوتك
الفصاحة لسانك والفنون زينتك
الرقى ايمانك والحضارة قبلتك
فامنحينا النور يا عذراء
وقوى قلوبنا !

فرددت الجماهير فى حماسة : « امنحينا النور !.. »
وجلجل صوت ميرا واستطردت :

يا بعيدة النظر ، يا سيدة الروية
يا بنت العقل وحارسة المدنية
يا ذات العيون اللامعة والنفس الأبية
يا درع الوطن ، يا عذراء ، انقذينا
وامنحينا نعمة الخلاص والحرية !

فرددت الجماهير فى جنون : « امنحينا نعمة الخلاص والحرية ! »
وحلق صوت ميرا ودوى كالرعد القاصف :

يا راعية الابطال يا عاقلة
يا الاهة الحكمة والشجاعة يا باسلة
يا عبقرية السيف والقلب والفكر
ياروح الكفاح الاقدس ومجد هذا العصر

امنحينا الثبات يا عذراء
وجودي علينا بالنصر !

فماجت الجماهير واختلطت ، وتصاعدت صرخاتها واشقت حناجرها وهي تردد : « جودى علينا بالنصر ! »

ثم صمتت ميرا ، وانحنت تقبل قدمى الالاهة ، ثم تراجعت فتلقاها الشعراء والفنانون وأحاطوا بها وجعلوا يلثمون أطراف ردائها ، بيناكانت الموسيقى تعزف ، والجماهير تهلل ، والعذارى ينثرن الورود على الالاهة فتتساقط كالنجوم وتنحدر على قاعدة التمثال حيث كان يزدحم عليها المصلون ويتبادرون فى أيهم يفوز بواحدة منها

وبعد أن أتم الكهنة الشعائر الدينية ، وتحولوا فى اتجاه رئيسهم وانحنوا لتحيته ، أدرك الجمهور أن الحفلة قد انتهت ، وأن من واجبه أن ينصرف ويترك الكاهن الاعظم وحده فى الهيكل ، يرفع صلاة الشكر الجامعة للالاهة بالاس

وبدأ المصلون يمرون بالتمثال وهم يلمسونه ويقبلون أيديهم متبركين . ثم اندفعت جموعهم نحو الخارج وفترت حركتهم فى المعبد ، ولم يعد باقيا فيه غير العذارى اللواتى شاءت التقاليد أن يمكثن لحظة أيضا فى صحبة رئيس الكهنة ليقسمن بين يديه اليمين الكبرى ، ويتلقين منه البركة جزاء ما قدمن من عمل عظيم

واصطفت الفتيات فى نصف دائرة تجاه الهيكل ، ووقف هرمس على الدرجة الثانية لقاعدة التمثال ، ثم طوى ذراعيه على صدره وقال :

– يا أطهر وأنقى عذارى اليونان . تعلمن أن الكهنة لم يعهدوا اليكن بحياكة ثوب الالاهة العذراء بالاس الا ليكون الاقتداء بفضائلها رائدكن منذ الساعة ، وحتى بعد أن تغادرن بيوت آبائكن الى دور بعولتكن . فلتتقدم اذن كل واحدة منكن ولتقسم أمام الالاهة أنها ستحتفظ بنفسها طاهرة من كل خيانة وكل نميمة وكل رذيلة وكل دنس . واعلمن أن من تحنث بيمينها لا بد أن تحق عليها لعنة بالاس !

فرفعن جميعا أبصارهن نحو الالاهة ومددن أذرعهن ، وقلن فى صوت واحد :

– نقسم أن نقتدى بالالاهة بالاس !

فاستدار هرمس وتمتم أمام التمثال بعض الصلوات ، ثم تحول وبارك العذارى ، فانحنين لتحيته بعد أن قبلن قدمى الالاهة ، ثم انصرفن الواحدة بعد الاخرى ، متئدات ساكنات ، قريرات النفس ، ناعمات البال ، وقد امتلأت قلوبهن راحة وصفاء وطهرا

ولما اطمأن الكاهن الاعظم الى انه قد أصبح وحده فى المعبد ، قبل التمثال ثلاث مرات ، ثم جثا أمامه وشرع يتلو صلاة الشكر الطويلة الجامعة

وكان قد خطر لهستيا أن تتخلف ريثما يفرغ والدها من صلاته فيعودان الى البيت معا ، ولكنها ذكرت أن الفيلسوف أستاذها لا بد أن يكون فى انتظارها خارج المعبد ، وأن من واجبها ألا تدعه ينتظر ، فاتجهت نحو الباب ، ولكنها لم تكد توسط الرحبة الكبيرة المؤدية

الى الخارج ، حتى جمدت فى مكانها ، ثم انفرجت شفتاها عن ابتسامة ذاهلة ، واستضاء وجهها كأنما قد صب عليه فجأة سيل من نور

أبصرت خلف أحد أعمدة المعبد شابا تعرفه حق المعرفة ، يشير اليها بالصمت ويدعوها للدنو منه

تقدمت وهى ترتعد ، فجذبها من يدها ، وسار بها الى أقصى المعبد حيث ينهض عمود ضخم أخفاهما عن الابصار . وهناك ضمها فى حنان الى صدره ، فأقصته عنها فى رفق وهى تغمغم :

ــ كيف جئت ؟ .. انها لمعجزة ! .. أأنت فى اجازة ؟ وهل .. هل نحن منتصرون ؟

فحاول الشاب أن يجيب ، ولكنها تأبطت ذراعه وآثرت أن تخرج به من المعبد ، غير أنه ردها بحركة وقال فى همس :

ــ أستاذك ينتظر بالباب ، ولا أريد أن ألتقى به .. يجب أن أتحدث اليك .. اليك وحدك .. الآن .. لدينا متسع من الوقت .. ابقى مكانك .. لا تتحركى .. اصغى الى

وكان شابا وضىء الطلعة ، سبط القوام ، مدمج الاعضاء ، بادى عظام الوجه فى رجولة أخاذة . وكان يتكلم وهو يرتجف ، ويعض شفته الدقيقة السفلى ، ولا ينفك يرشق هستيا بنظرات حادة متقطعة وجلة ، كأنما هو يخشى التحديق اليها مواجهة

وكانت هى تتطلع اليه وقلبها يخفق وأبصارها تحوم حول ملامح وجهه وتقتنص من حركاتها ما يمكن أن يميط لها اللثام عن دخيلة نفسه

وقالت بعد فترة :

ــ انت مضطرب .. لم إرك أبدا على هذه الصورة .. ماذا ؟ .. هل بدأت المعركة الثانية ؟ .. وهل هزم جيشنا ؟ .. تكلم .. أسرع ..

فقال وهو يجاهد لينظر اليها :

ــ كلا .. لم نهزم ولا أعتقد أننا سوف نهزم مهما حدث ..

وصعد نفسا مستطيلا واستطرد :

ــ تعلمين ان ميناء « مرتون » تبعد نحو عشرين ميلا من اثينا . فلما نزلت جيوش داريوس ونصبت خيامها فى سهل مرتون الفسيح ، نظم قائدنا « ملتيادس » جيوشنا بحيث قوى جناحيها وترك قلبها ضعيفا ، فانطلت الحيلة على الفرس ، وحملوا بمجموع رجالهم على قواتنا المرابطة فى القلب فدحروها وأحرزوا النجاح فى الدور الاول من المعركة ..

فعاجلته هستيا بصيحات مخنوق : والآن .. الآن .. ماذا حدث ؟ ..

فأجاب كرونوس وقد استولى عليه بغتة جمود غريب :

ــ سيبدأ الدور الثانى من المعركة بعد أيام . وستحمل قواتنا على العدو بجناحيها القويين وستدور على قلب جيشه فتمعن الطعن فيه الى أن تلقى به فى البحر

فاختلجت هستيا وندت عنها صرخة : اذن هو النصر ؟! ..

فدفعها لتصمت ، ثم سكن لحظة واظلم جبينه الوضاح ، وانطفأت شعلة عينيه الجميلتين وعاد يخالس هستيا النظر ويقول متفاديا التحديق اليها :

ـ أعتقد أنه محقق . وكذلك يعتقد قائدنا . ولكنه مع ذلك يخشى الهزيمة .. يخشى الهزيمة هنا لا فى ساحة القتال !

فحملقت اليه هستيا وقالت : صرح .. لا أفهمك ..

فقال وهو يطأطىء رأسه ويلحظ بعينيه مدخل المعبد :

ـ هيباس .. هيباس اليونانى الخائن الذى نفته اثينا فاتصل بداريوس وحرضه على قتالنا كى يقيمه بعد النصر ملكا على عرش اليونان .. هيباس هذا ، ما يزال يملك فى اثينا قوة خفية .. أنصارا ذوى مكانة ونفوذ .. يعدون العدة للقيام بثورة داخلية فى اللحظة التى يبدأ فيها الجيش معركة الاستقلال الفاصلة

وصمت هنيهة وهو يلهث ثم قال :

ـ ان الشعب اليوم يلهو وسيظل غارقا فى اللهو أياما ، فلن ينتبه ولن يحفل .. ستندلع نار الثورة خلال أيام العيد . هذا ما أضمره أنصار هيباس ، وهذا ما دبره زعيمهم !

فهلع قلب الفتاة ، وقالت وهى تحتضن خطيبها الشاب وقد عيل صبرها :

ـ ولكن أنت ؟.. أنت ؟.. ماذا جئت تفعل ؟..

فأجاب كالمنسحق وهو ما يزال مطرقا :

ـ جئت لأقضى على حياة هذا الزعيم !

وأردف وهو ينتفض حنقا :

ـ جئت لأقتل لا لاحارب أنا الجندى !.. تلك هى ارادة القائد !.. المتآمرون يجب أن يقضى عليهم فى أسرع وقت .. ما ان بلغه النبأ وعرف أسماءهم حتى اختارنى ونفرا من الضباط لتأدية هذه المهمة المشئومة ..

فقالت هستيا فى هدوء مروع : اذن يجب أن تقتل الرجل !

فلم يتكلم بل رفع رأسه وثبت نظره فى عينى هستيا ، ثم امسك بكتفيها بغتة وادارها فى عنف الى حيث كان يبدو والدها منطويا على نفسه مقوس الظهر مستغرقا فى الصلاة ، وقال فى مثل هدوئها المروع : واذا كان هذا هو الذى يجب أن أقتله ؟!..

فجحظت عيناها وفغرت فاها كبلهاء وتمتمت : من ؟.. أبى ؟..

فأجاب وهو يطيل التحديق اليها محاولا الهبوط الى أبعد أغوار نفسها :

ـ هو بعينه رئيس كهنة بالاس وأقدس شخصية فى الدولة !

فتلاحقت أنفاس الفتاة وأحست كأن هوة سحيقة احتفرت تحت قدميها وكأن دوارا يطوح بها ، فتعلقت بالشاب وقالت بصوت لا يكاد يسمع :

ـ وهل القائد متأكد أن أبى هو زعيم المتآمرين ؟

فأجاب :

ـ وزعيم طائفة من كبار رجال الجيش أيضا !.. لقد وقعت فى يدى القائد أوراق سرية اطلعنا عليها .. أوراق تثبت ادانه والدك بصورة لا تقبل الشك !.. ولقد شرع القائد فى تطهير الجيش وأصر على أن يطهر المؤخرة أيضا قبل الدخول فى المعركة الفاصلة !

فهزت الفتاة رأسها ولم تنبس بكلمة . رنت فى مسمعها تلك العبارات الغريبة التى صدرت اليوم فى البيت عن والدها . ذكرتها كلمة بكلمة وحرفا بحرف . ذكرتها وقلبها يتمزق أنفة وألما ، وذكرت موقف أستاذها وثورتها على أبيها واشادتها بوطنية صديقهم المشوه الدميم .. فشعرت بالعار يغمرها ، ولم تستطع أن تتصور كيف يكون والدها الكاهن الاعظم ثم يخون ، وكيف تكون هى ابنة هذا الكاهن ثم تغض الطرف عن الخيانة وتتسمح بالنفاق يتستر خلف شعائر الدين ، وتحنث باليمين الكبرى ، يمين النزاهة والاستقامة ، التى أقسمتها الساعة أمام الالاهة بالاس !

وحانت منها التفاتة ، فلمحت والدها ينهض ثم يسجد ثم يمعن فى صلواته ، فتصاعدت من صدرها موجة اشمئزاز أخذت بخنقها ، وزايلتها رقة العذارى ، وعادت نفس المرأة الصارمة القاسية التى كانت تعترض اليوم والدها وتحاسبه حسابا عسيرا . وقالت وقد تغضن جبينها واتقدت عيناها :

ـ كرونوس يجب أن تؤدى واجبك !

فذعر الشاب وغمغم : ماذا تقولين ؟..

فمضت تتكلم متشنجة الاعضاء ، وارادتها تقاوم ضعفها ، وعقلها مصوب نحو فكرتها الثابتة ، تأبى التحول عنها ولو لحظة خشية أن تعصف بها عواطفها الطبيعية فتصرعها :

ـ أنت جندى وواجبك أن تطيع سواء فى ساحة القتال أم هنا !.. لو تهاونت وتشبت الثورة ، تضعضع جيشنا وتدفقت علينا قوات داريوس ! فانظر الى واجبك فقط !.. لاتفكر فى أنه والدى !.. لم يعد لى والد !.. كنت بقيمة الام فأصبحت بقيمة الاب ، ولست منذ الساعة الا ابنة للالاهة بالاس !.: لقد أقسمت أن أقتدى بها ، ولن أحنث بيمينى !.. فلا تفكر فى كامرأة .. اطردنى من ذهنك .. اقصنى عن خيالك .. اقتلنى فى قلبك الى حين ، لتستطيع أن تقتل المجرم وأنت ثابت مطمئن !

فسرت فى بدن الشاب رعدة ، وقال وقد تهدج صوته وأوشك الدمع أن يطفر من عينيه:

ـ حسبنا .. حسبنا .. كيف تطلبين الى أن أرتكب هذا الجرم ؟.. كيف يمكن لرجل يحبك أصدق الحب أن يسعى لشقائك وهو لا يتمنى على القدر الا أن يجعل منك أسعد امرأة ؟.. لا .. لا أستطيع .. هذا ليس فى طاقة مخلوق !.. ان وطنيتك تحرضنى اليوم على قتل والدك ، ولكن عاطفة البنوة ستثور فى نفسك غدا ، وتعدنى مسئولا عما ارتكبت يداى !.. أنت فى حماستك لا تفكرى فى المستقبل .. ولكن المستقبل هو كل ما لنا .. وأنا أراه .. أراه فى هذه الساعة وألمسه وأعيش فيه .. أجل أعيش فيه وأعلم علم اليقين أنه سيكون الفراغ .. سيكون العدم .. سيكون مقبرة حبنا العظيم !.. آه

يا هستيا .. لو طعنت والدك ، فالطعنة سترتد وتصيبني في الصميم !.. سوف تكرهينني يا هستيا .. أنا .. أنا .. سأكون موضع نقمتك وبغضك .. فارحميني .. أشفقي على نفسك وعلى !..

فقالت في مجالدة وعناد :

ـ سأتزوجك . وسيزداد حبي لك كلما ذكرت أنك أنكرت حبك وقمت بواجبك !

فضمها الى صدره في عنف ، وصاح بها يصب الكلمات في مسمعها كأنما يود أن يحرك فيها عوامل الانانية التي تملأ قلوب جميع العشاق :

ـ أنت شابة ، ومن حقك أن تكوني سعيدة .. وما من قوة في الارض تستطيع أن تطلب من امرأة أكثر مما يمكن أن تعطي .. وليس في وسعك يا هستيا ولا من حقك أن تهبي الوطن حياة رجل أنت نفسك مدينة له بالحياة !.. على أن للوطن رجاله ، وأنا على ثقة من أنهم سينقذونه .. وحتى لو نشبت الثورة فلن تؤثر في نتيجة المعركة .. في مقدور جيشنا أن يقمع الثورة ويربح المعركة !..

فقالت وقد تقطب جبينها وجفت لهجتها وشاع فيها الغضب :

ـ ما أدراك ؟.. وكيف تستحل تقدير الامور وفق مصلحتك ؟.. ألست تحبني ؟.. اذن اصدع بأمري ونفذ واجبك ولا تبك على والدي أكثر مني !..

فتشبث بها وتحشرج صوته ، وقال وهو يحبس دموعه جهده :

ـ انما أبكي عليك وعلى !.. لا .. محال .. لا أستطيع .. لن تخدعني حماستك الطارئة .. لن أنزلق .. لن أطيعك .. لن أشقيك .. لن أجلب على نفسي سخطك الابدي !..

وألصق خده بخدها وجعل يميل بها كأنه يهدهدها وأردف :

ـ الحياة أمامنا يا حبيبتي فلماذا نضيعها ؟.. السعادة بين أيدينا يا صغيرتي فلماذا نفقدها ؟ الحب يدعونا يا هستيا فلنلب النداء !.. لنذهب .. لنتركهم .. لنفر .. لنفر الى قبرص اليوم .. الليلة .. لقد أعددت عدتي .. معي نقود ولي هناك أصدقاء .. فاستمعي لنصحي قبل فوات الوقت ، واعلمي أني أحبك أضعاف ما تحبينني ، لاني ارتضيت خيانة بلادي في سبيل حبك وانقاذ والدك !

وكان يتكلم وهي تتأمله ، وصدرها يعلو ويهبط ، وجسمها يبتعد عنه ويرتد شيئا فشيئا ، وعينها الصارمة ترقبه وتبحث فيه عن الرجل الذي كان منذ لحظة أمير أحلامها

ولم يكد يتم عبارته الاخيرة حتى كانت قد باعدت بينه وبينها تماما ، ثم قالت في بطء وهي تتكلف الهدوء ، وقد ازدرت في قرارة نفسها عاطفة الحب ، لانها أدركت لاول مرة كيف يستحيل المعبود تحت سلطانها الى عبد ، وكيف ينقلب الرجل فيصبح والطفل أوفر شجاعة منه :

ـ ما أشد حبك لى يا كرونوس . .

واستطردت وهى تبتسم : انما كنت أمتحن هذا الحب . .

ثم عانقته عناق اليأس ، وقالت ضاحكة :

ـ أعرف انى لن أتغلب عليك . . أعرف أن الحق فى جانبك . .

فأشرق وجهه وصدقها . . فكرهته لسذاجته بعد أن كانت قد ازدرته لضعفه ، وأرادت ان تخلو بنفسها وتتخلص منه ، فغمغمت :

ـ اذهب . . اذهب الآن . . تجنب الباب العمومى واخرج من هنا . . من باب حجرة النذور . . يجب ألا يراك أحد . . أتسمع . . يجب ألا يراك أحد انصرف . . سأنتظرك فى بيتى . . سيقضى والدى السهرة فى صحبة أستاذى عند الشاعر اكيون . سأكون رهن اشارتك ! . .

وجذبته من ذراعه وهو فى غفلة الفرح ، وتسللت به بين الاعمدة الى حجرة النذور ولما بلغا الباب استوقفته لحظة ، وقبل أن يعانقها عانقته هى وقبلته ، فزهاه الفرح وأعماه ، وأبى الا أن تستبقيه برهة أخرى ، ولكنها دفعته عنها فى رفق فأطاع ، وانصرف وهى تشيعه بنظرة هامدة ملؤها الاسى والحسرة والاحتقار

***

وأجالت الطرف فى رحبات المعبد ، واستقر بصرها على والدها وهو ما يزال يصلى . فاستغربت كيف يستطيع أن يصلى ونية الغدر والخيانة تملأ نفسه

وأهاجها منه هذا الخشوع وهذا التقى وهذا الاطمئنان العجيب . وأدركت ان ضميره لا يؤنبه ، وانه قد خان بلاده عن عقيدة لا عن مصلحة ، فزاد سخطها عليه لخروجه عن الاجماع وجرأته على تحدى ارادة الشعب

وفى مثل لمح البرق تصورت نشوب الثورة ، وهزيمة الجيش ، ودخول الفرس بلادها غزاة فاتحين ، فضمت شفتيها غلا وحنقا ، وهالها كيف يمكن أن يقع كل هذا بواسطة هذا الرجل ، كما هالها ما ينتظرها على يده من عار

وتغلغل سكون المعبد فى أطواء نفسها ، وأسلمها يجمع عواطفها الى فكرتها الثابتة ، فابتهجت بوحدتها وأحست الامن يغريها ويدفعها ويهيب بها ألا تضيع هذه الفرصة الفريدة التى حباها القدر بها

وتقدمت بضع خطوات وهى لا تدرى على وجه التحقيق ماذا يجب أن تفعل . واذ ذاك وقع بصرها بالرغم منها على تمثال الالاهة فحدقت اليه ، ولبثت هكذا جامدة شاخصة تتضرع وتبتهل وتنتظر هبوط الوحى

وغابت عن صوابها فترة ، وشعرت كأنها تتحلل من كل أثر جسمانى وكأن روحها تندمج فى روح الالاهة وتفنى فيها ، فعاودت التضرع والابتهال ، ثم دبت فيها الحياة فجأة ،



وتألقت عيناها ، وتحرك بدنها على دهش منها ، وكرت راجعة الى حجرة النذور تدفعها وتحرسها قوة مجهولة لا قبل لها بمقاومتها

وجعلت تنقل أبصارها فى أنحاء الحجرة ، ونداء الالاهة يتبعها ، وصداه يرن فى أذنها ، ويفعم قلبها حرارة وايمانا وعزما

وكانت القرابين من فاكهة وطيور ولحوم ماتزال فى الحجرة لم يوزعها الكهنة بعد على الفقراء وكانت الجدران مزدانة بأساور وأقراط من فضة وذهب ، وتماثيل صغيرة لبالاس ، وبسيوف وخناجر مرصعة المقابض بالاحجار الكريمة ، وكلها نذور جمعت فى هذا المكان اعترافا بجميل الالاهة وتمجيدا لمعجزاتها. فرفعت هستيا ذراعها واختطفت أحد الخناجر ، ومشت بخطى ثابتة الى الهيكل مدفوعة بنفس القوة ونفس العزم ونفس الايمان

ولما أوشكت على الدنو من الهيكل ، خلعت نعليها وسارت على أطراف قدميها وهى لا تنفك ترقب حركات والدها . وعند ما ألفته أمامها ساجدا يصلى محنى الرأس محدودب الظهر بارز العنق ، أغراها سكونه وعجزه ، فحبست أنفاسها جهدها ، وقبل أن تضعف وتتردد ، وقبل أن ينتبه ويلتفت ، طعنته فى عنقه بملء قوتها ، فالتفت الرجل وعرفها ، فصرخ والدم يتدفق من فمه : انت يا هستيا ؟!..

ثم نهض وهو يتلوى ، ثم حاول أن ينتزع الخنجر من عنقه ، ثم خانته قواه فسقط على الارض ، وجعل يزحف نحو ابنته ، مشرئب العنق اليها ، متعلقا باطراف ثوبها ، ملتمسا منها المعونة والرحمة . ولكنها ابتعدت عنه وأشاحت بوجهها ، وظلت فى هدوئها الوحشى ، جامدة ذاهلة حالمة ، تحدق الى تمثال الالاهة بالاس

ولما انتهى الصراع وخفت الصوت ثم تلاشى ، تنفست هستيا وألقت على جثة والدها نظرة ، ثم استجمعت قواها ، واستدارت ، وخرجت من المعبد مسرعة

***

وكان الفيلسوف جالسا مع صديقه أوريون على مقعد من حجر فى طرف من أطراف الميدان المحيط بالمعبد ، وحوله رهط من الفنانين والشعراء وبائعات الهوى ، يتبارون فى انشاد القصائد الوطنية والغزلية ، ويتناقشون فى شتى الموضوعات الادبية والفلسفية ، ويتحدثون عن العقل والنفس والخلود ، ثم يؤلفون شبه حلقة تتوسطها بنات الهوى راقصات على نغم لين متماوج يعزفه أحد الفنانين على قيثار

وكان البعض من أولئك الغوانى يستملحن مداعبة أوريون ، رغم دمامته ، ويعرضن عليه الزواج منه ، ويتفكهن بسؤاله عن غرامياته ، ولا ينفرن من وجهه المنقر بالجدرى ، غير انه عند ما كان يخدع بعواطفهن ويشتهى من احداهن قبلة ، كن يتنكرن على القور له ، ويدفعنه بعيدا كالكرة ، ثم يوسعنه لكما وركلا ، ثم ينهلن عليه بالنكات الصارخة والمغامز المنكرة وهن يقهقهن غير حافلات بصيحات الفيلسوف وقد أشفق منهن على صديقه المشوه المسكين العاثر الحظ

ولم يكن فى قلوبهن ولا فى قلوب رفاقهن الشعراء والادباء والفنانين ، أى احساس بالرحمة نحو كل ما هو دميم . كانوا يكرهون الدمامة ويرون فيها صورة الشر وكانوا يعبدون الجمال ويرون فيه رمز الخير ، وكان الفيلسوف ينعى عليهم هذا الضرب من التفكير ، ولا يفتأ يقول لهم ان الجمال الحسى شىء رائع ، ولكنه لا يؤدى وحده الى أى كمال ، أما الجمال المعنوى حتى ولو اقترن بالدمامة فهو الشعلة السرية المرتعشة ، وهو القوة الخالقة المستورة الهادية الى كل كمال

ولكن القوم كانوا شبابا ، وكانوا أصحاء ، وكانوا يتطلعون نحو مثل أعلى هو اقتران ذينك اللونين من الجمال ، فعبثا حاول الفيلسوف اقناعهم بأن الامثلة العليا نادرة التحقيق ، وان الحياة لا تمنح فى الغالب الا جزءا منها ، وأن الكمال المنشود وان كان قبلة العقل الا أن الرحمة هى قبلة الروح . أجل . يحاول اقناعهم عبثا ، ولم يستطع انقاذ صديقه المسكين منهم فكان يرنو اليه بنظرة آسفة طيبة ويقول له وهو يربت على كتفه :

ــ احتمل .. احتمل يا صديقى .. كل شىء فى الحياة يجب أن تدفع ثمنه .. أنت تتمتع بمجالسة الحسان والفنانين وهم يلهون على حساب دمامتك .. ولكن الرابح فى الحقيقة هو أنت ، لانك تتألم ، ولان الألم يجعلك أقوى وأنبل منهم جميعا !

وفيما هو يتكلم ، والغوانى يرقصن ، والفنان يعزف ، وأوريون يفكر فى حظه ويحتمل كما نصح له أستاذه ، اذا بهسنيا مقبلة عليهم ، تمشى وكأنها ثملة ، وبصرها شارد ، وغلالتها البيضاء وقد لفحها النسيم ترفرف من خلفها كجناح طائر هوى على الأرض مثخنا بالجراح

ما ان لمحها الصديقان حتى استأذنا وتبعاها ، فأحست آخر الامر وجودهما بالقرب منها كما يحس المريض الناقه عودته فجأة الى عالم الاحياء ، فاستندت الى ذراع أستاذها ، وسار الجميع بخطى متثاقلة ، والفيلسوف لا يجسر على الكلام ، وأوريون محترم صمت

هستيا ، ومتوهم أن الشعائر المقدسة التى قامت بها الساعة هى التى ما تزال تخلع عليها هذا السكون وهذا الجلال

ويرم الفيلسوف بالصمت الطويل ، وأوشك أن يتكلم ، وكاد أوريون ينفس عن صدره بابداء بعض الملاحظات القاسية يثار بها من الادباء والغوانى الذين عبثوا به ، ولكن هيبة الفتاة عقدت لسانيهما فآثرا السكوت والانتظار ريثما يصلوا الى البيت

وهكذا كانوا يسيرون كمن دفنوا عزيزا لديهم . وكانت هستيا كأنها هى المنكوبة ، لم تجد غير صديقين شيعا فقيدها ثم عادا معها لا يجسران حتى على العزاء

ولما دخلوا البيت ، وأبصر الفيلسوف وصديقه ، الضابط كرونوس جالسا فى البهو الكبير ، تراجعا مذهولين ، واكتأب أوريون واكفهر وجهه ، ونهض الضابط ممتعضا مستنكرا عودة هستيا فى صحبة هذين الغريبين

وهم أوريون بالانسحاب واقتدى به أستاذه ، ولكن هستيا أشارت اليهما بالجلوس ، ثم ارتمت على مقعد وطلبت كوب ماء

وكان الصمت ما يزال مخيما عليهم عاصفا ثقيلا خانقا ، بحيث لم يكن واحد منهم ليجرؤ على تمزيقه والتفوه بكلمة . والواقع أن الخوف كان قد بدأ يدب فى قلوبهم ، ومظهر هستيا السلبى كان قد بدأ يثير أعصابهم ويذهب بهم فى تأويله كل مذهب

وحتى الضابط استغرب من هستيا هذا الجمود الفاجع بعد الابتهاج الذى ودعته به فى الهيكل ، ونسبه الى القرار الخطير الذى اتفقا عليه ، فأراد أن يساعدها على صرف صديقيها ظنا منه أنها تورطت فى العودة معهما الى البيت وأنها تتوق الى الانفراد به ، فقال وهو يحنو عليها بنظرته ويبتسم :

ــ يلوح لى أنك راغبة فى الراحة يا هستيا بعد عناء هذا اليوم . .

فالتفتت اليه ثم رشقته بنظرة حادة أذهلته . وعادت الى صمتها ، تحاوره وتروضه وتحاول أن تذلله وتطوعه . وأخيرا وبعد جهد شاق استنفد قواها ، وأحال محياها الناضر الجميل ضامرا شاحبا هامد الحيوية خاوى النضارة كوجوه المصروعين بعد أن تبرح بهم نوبة الصرع الفاتكة ، قالت فى هدوء مخاطبة أستاذها محدقة الى عينيه الذكيتين :

ــ اعلم أن أبى قد مات . وأنى قتلته الساعة فى الهيكل !

فنظر الفيلسوف اليها ، ثم أحال بصره فيمن حوله ، ثم جمد الجميع فى أماكنهم وتطلعوا اليها مبهوتين ، ولكنها أردفت بصوت لا لون له :

ــ كان أبى خائنا لبلاده ، وكان قد صدر أمر القائد الى كرونوس بقتله ، ولقد أحجم كرونوس ، فقتلته أنا !

وأسبلت أجفانها وتنهدت ، ثم استطردت تقص ما حدث بعبارات متقطعة وقد بدأ صوتها يعلو ووجهها الشاحب يلتهب . ولما أتمت قصتها توقفت هنيهة ، ثم أمسكت بيد أستاذها وجعلت تهزها فى عنف وتردد وهى محملقة فيه :

ـ أريد حكمك .. أريد حكمك .. هل أنت راض عما فعلت ؟

فلم يجب الفيلسوف على الفور ، بل نظر اليها طويلا ثم قال : هل أنت سعيدة ؟..

فصرخت : كل السعادة !

فقال : ولم أنت سعيدة ؟

فأجابت : لانى شاعرة تمام الشعور أنى أنقذت بلادى وشرف أسرتى !

فأحنى الفيلسوف رأسه وقال : اذن فقد أصبت يا بنيتى ، ولانت فى نظرى أقدس مخلوق !

ولم يكد ينطق بهذه العبارة حتى كان أوريون قد جثا عند قدمى هستيا وطفق يقبلهما فى حرارة وهو يهتف :

ـ أنت روح بالاس !.. أنت روح بالاس !..

فطوقت هستيا ظهر الرجل الدميم ، ثم انهضته فى رفق وقالت له وهى تتأمل وجهه ، كأنها تروض نفسها على النظر اليه والائتناس به :

ـ من استاذى تعلمت الحكمة والقوة ، ولكن الوطنية والتضحية تعلمتهما منك أنت يا أوريون !

فأطرق كرونوس تحت وقع الاهانة واصفر لونه ، ولكنه لم يستطع كظم غيظه وأشار الى أوريون باحتقار وهو يقول فى لهجة نابية شاعت فيها وقاحة وغلظة جماعة المرتزقة من الجنود :

ـ أمن أمثال هذا الرجل أصبحت تتعلمين الوطنية ؟..

فامتقع وجه الرجل الدميم ، أما هستيا فقد لمعت عيناها ولم تجب ، بل نهضت لساعتها وطوقت أوريون بذراعها للمرة الثانية ، ثم تقدمت به نحو كرونوس ، وقالت بصوت جهير لمن كان بالأمس خطيبها وحبيبها :

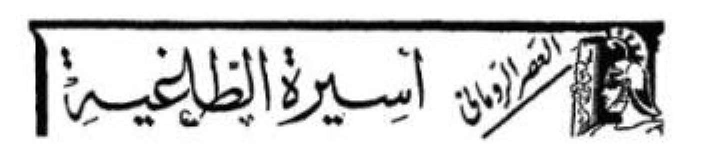
ـ هذا الرجل هو زوجى !

وتناولت الوجه البشع المشوه بين يديها ، وانحنت عليه فى عطف خالص عميق ، وطبعت على فمه المجعد قبلة

فبهت كرونوس وأومض محيا الفيلسوف وارتسمت على شفتيه ابتسامة راضية متهكمة

***

ولم تنشب الثورة بعد مقتل الزعيم ورفاقه . وانتصر اليونان فى المعركة بعد أيام وألقوا بعدوهم فى البحر . وأدرك الناس قيمة التضحية التى بذلتها هستيا ، فكرمها القائد ملتيادس بأن جعل منها أول عذراء يونانية يحتفل بزفافها فى حرم هيكل الالاهة بالاس أثينا !



طيطس هو ابن فسبازيان الأمبراطور الروماني ، وقد حاصر أيام حكم والده مدينة أورشليم وهدمها بعد أن دافع عنها سكانها دفاعاً لم يشهد التاريخ له مثيلا . وهذه القصة ترسم واقعة الحب المشهورة التي جرت بين طيطس وبين الأميرة اليهودية بيرينيس قبل أن يصبح طيطس امبراطوراً

قال لوسيوس وهو يرسل بصره الى الافق البعيد وقد لاحت على وجهه أمارات الجد والاهتمام :

— إن حديثك ليلقي الرعب في نفسي . . ما كنت لأتصور أن رجلا مثلك تحوته نفسه ، فيفضي بدخيلة قلبه الى روماني يبغضه أشد البغض ، ويعتقد اعتقاداً راسخاً أنه ألد أعداء بلاده !

فنهض سمعان وجمع أطراف ردائه الفضفاض . وضمها الى صدره ، ثم ألقى على الروماني نظرة ملؤها الحقد الدفين ، وقال وفي صوته الأجش نبرة غريبة تمتزج فيها الكراهية بالدهاء :

— أتريد ان أصارحك يا لوسيوس بكل ما يجول في صدري ؟ اسمع إذن . . انك وان تكن من أخلص أصدقائي ، فليس في وسعي ان أكتمك الحقيقة التي تتحدث بها ألسنة اليهود جميعاً . . نحن شعب يؤمن بإله واحد وأنتم كفرة تعبدون الحجارة والطين .. لقد سامنا حكامكم شر ألوان الذلة والهوان . انتزعتم أملاكنا واستلبتم خيراتنا واستبحتم أعراض نسائنا ووليتم علينا حثالات حكامكم وعباقرة المستبدين منكم ، فما ازددنا إلا بغضاً لكم ، وما ازددتم إلا كبرياء وغطرسة وعتواً . . فكيف تطلبون الينا بعد هذا أن نمنحكم قلوبنا وعواطفنا وإخلاصنا ، وان نذود عن

امبراطوريتكم بدماء أبنائنا ؟ .. أورشليم هي المدينة الخالدة بنت الايمان العميق، وسندافع عنها بكل ما أوتينا من قوة ، وبكل ما أودعه الله في صدورنا من حرارة وثقة بالمستقبل .. على انى ياصديقي لوسيوس أحترمك وأحبك بصفتك الشخصية لا بصفة كونك من كبار تجار الرومان وأحد كبار أصحاب النفوذ في روما . . أعذرني على ما بدالك منى ، واعلم أن اليهودي لا يقل وطنية عن الروماني ، وأنه يستطيع أن يجمع بين حبه لبلاده وبين تقديره لصداقة رجل يعتبر من ألد أعداء اليهودية

قال سمعان هذه العبارات وهو يرمق لوسيوس بعينيه الصغيرتين الحادتين . ولما أتم كلامه عاد فجلس على مقعده الصغير ، وظل يداعب بيده اليسرى حبات سبحته بينما كانت أصابع يده اليمنى تعبث بشعر لحيته الغزير الابيض

وحانت منه التفاتة ، فأبصر صديقين له يخترقان جمهور السابلة ، ويتقدمان نحو حانوت مجاور لحانوته ، فهم بالنهوض ثانية ، ولكن لوسيوس جذبه من طرف ردائه وقال : دع أصدقاءك الآن .. ليس من الحكمة أن تعقد المؤامرات في حانوتك ، وأن تثير على روما ثائرة أصدقائك .. الكل يعلم أنك أنت الرأس المدبر ، وانك أنت صاحب السيطرة على أهل هذا الحي بأسره . . نصيحتى لك أن تكف عما أنت آخذ فيه ، والا فقد تجرك وطنيتك الرعناء الى مالا تحمد عقباه .. لا تظن أنى قد أشى بك يوماً ، فأنت صديق ، وللصداقة حرمتها المقدسة ، ولكن لا تنس أن العيون والأرصاد قد بثت حولى أيضاً ، وأنهم لو علموا بأنى أكثر من زيارتى لك فالنتيجة المحتومة القاء القبض على وعليك أنت أيضاً !

فهتف سمعان :

— السجن ! . . لا يمكنك أن تتصور مقدار السعادة التى يمكن أن أشعر بها لو أنهم ألقوا بي في غياهب السجون من أجل قيامى بواجبي المفروض على في سبيل وطنى ! . . أنتم الرومان تحبون الحياة وتنشدون الفرح وتسعون وراء اللذائذ وتستمرئون حلاوة العيش في ظل الأمن والدعة .. قلوبكم تحجرت ونفوسكم مرضت وعقولكم تبلدت ، وما عدتم تحفلون بغير النعيم الذى أغدقته الفتوحات عليكم . .

أصبحتم وقد ختمت الانانية على أبصاركم أشباه رجال لا يأبه الفرد منكم لشيء ، ولا يحيا إلا لخدمة أهله وعشيرته وثروته ، كأن الدنيا قد جمعت في محيطه المحدود ، وكأن العالم يجب أن يستحيل الى متعة كبيرة تقدم اليه وحده .. هذا أنتم ! .. وتلك هى الحال التى انتهيتم اليها بفضل تنازعكم وانقسام البعض منكم على البعض الآخر وإفراطكم في اللذائذ والشهوات . . أنتم رجال الفرح أما نحن . . نحن اليهود فأبناء الألم . . الألم الشديد . . الألم القاسى . . نحن نستعذب الألم ونطلبه ونهرع اليه ونستمد منه قوة التضحية وقوة الخلاص . .

وكلما أمعنتم في اضطهادنا وكلما ازددنا شعوراً بالألم والعذاب ، أدركنا معنى الحياة واشتد إحساسنا بقيمتها وهفت نفوسنا الى ذلك الضوء الساطع ، الضوء العظيم ، الضوء المنقذ ، ضوء الاستقلال والحرية !

وصمت سمعان وهو يلهث ، ولكن لوسيوس عاجله بقوله :

— احذر ! . . . احذر ياصديق ! . . . إن روما لا تقاوم وطيطس لا يمكن أن يهزم ! . . . ما يجدى الايمان إزاء القوة ، وما تنفع حرارة الصدور إزاء النار المهلكة ! . . . ربما . . . ربما كان ما قلته صحيحاً . . . بل أنا أعتقد صحته ، وإن كان من واجبي ألا أصارحك بذلك . . . أجل . الامبراطورية تحتضر ... معاول الهدم تنهال عليها من كل صوب . . . أعداؤها والفتون لها بالرصاد . . . المسيحية وحدها توشك أن تجهز عليها . . . ولكن احذر . . . احذر التفاؤل ولا تستسلم لتيار الأمل ، فالحياة قد تتمشى في أوصال المحتضر ، وقد يصحو صحوة أخيرة ينجز فيها من العظائم ما لم يستطع أن يحققه وهو في عنفوان القوة وشرخ الشباب ! . . .

فصاح سمعان وقد اتقدت عيناه :

— متى أشرف المريض على الاحتضار فأقل صدمة تكفل القضاء عليه . ونحن واثقون من أنفسنا ومن نشوة التضحية العامرة بها قلوبنا . ومهما حاول طيطس فستلحق به أكبر هزيمة عرفها التاريخ . أما لو قدر الله وفاز علينا ودخل أورشليم وافتتحها عنوة واقتداراً ، فسيشهد العالم أننا رجالا ونساء ، شيوخاً وأطفالا آثرنا الموت جميعاً على حياة مهينة ذليلة هي والعبودية سواء ! . . .

فابتسم لوسيوس ابتسامة الرجل المعتز بنفسه الواثق بعظمة أمته الفخور بنبل عنصره ، وقال وقد انحنى على صديقه وجعل يربت في رفق على كتفه :

— لو أصغيت إليّ . . . لو طاوعتني . . . لجعلت منك أكبر تجار هذا الحي . . . أين هي ثروتك ؟ . . . ماذا جمعت حتى اليوم ؟ . . . لقد بلغت الستين من عمرك وما زلت في حاجة الى هذا الحانوت حيث تبيع أثواباً رثة مستعملة يتصدق بها عليك بعض الأغنياء من أبناء جلدتك . . . عبثاً حاولت أن أهديك الى السبيل السوى . . . الى طريق المجد والثروة . . . فعد الى رشدك وتحرر من أوهامك ، ودع التآمر على روما والرومانيين ، وكن عملياً كأبناء جنسك . . . كن بصيراً بالعواقب قبل فوات الوقت . . . كن عاقلا وحكيما . . . سيهاجمكم طيطس ! . . سيدمر مدينتكم الخالدة ! . . فدع وطنك للقدر واتبعني . . . اتبعني الى روما . . . أما اذا كان ذلك فوق طاقتك فلا أقل من أن تصمت وتنفض يدك من أصدقائك وتغلق هذا الحانوت وتقبع في دارك . . . ولو فعلت . . . لو فعلت فأنا الكفيل بجعلك بين عشية وضحاها من أغنى أغنياء اليهودية ! . . هذه فرصة يا صديق ، فاغتنمها ! . . الحرب على الأبواب وأنتم هالكون لا محالة ، فاستمع لنصحى

ودع الحمق من أهلك وأهلي يقتتلون ما شاء لهم الغباء المركب في الطبع البشرى ... نصيحتى اليك أن تتبعني ... فكر ... فكر ملياً ... فلن يكون لك في غد أي أمل !

فالتمعت حدقتا سمعان ولمع فيهما بريق غريب ، بريق العناد المروع الكامن في نفس كل وطنى متعصب لوطنه الى حد الهوس والجنون ، وقال في صوت غائر رهيب :

— أتعتقد أنى أقيم لحياتى التافهة العابرة وزناً ؟ أنا لا أنشد غير الحياة لبلادى والموت المجيد لشخصى ! لقد كان في وسعى أن أستغل صداقتك بعد أن أنقذت حياة ابنتك ، ولكنى فضلت أن أظل بائساً وفقيراً على أن أتقاضى منك ثمناً على محض قيامى بواجب انسانى بسيط !

فأبرقت أسارير لوسيوس ، وطوق صديقه بذراعه وقال في لهجة تنم عن الصدق الخالص وعرفان الجميل :

— لولاك لفقدت ابنتى الوحيدة المعبودة ليديا . لولاك لانتهك حرمتها ذلك النبيل الرومانى الذى اختطفها من دارى وحاول اغتصابها . لولاك لحرمت من نور حياتى وبهجة شيخوختى . أنت أنقذت ابنتى . أنت بجرأتك وقوة ساعدك صارعت الرومانى الشاب وقهرته وسهلت لابنتى سبيل الفرار . فاستمع لى.... دعنى أرد اليك جميلا بجميل ... يؤلمنى أن أراك مهدداً في حياتك ... أريد أن أنقذك كما أنقذت ابنتى ... لن أشعر باكتمال سعادتى إلا يوم أن تشاركنى أنت فيها ويوم أعلم أنى استطعت أن أجعلك رجلا آمناً سعيداً

فهز سمعان رأسه وقال في هدوء :

— قلت لك إن السعادة الشخصية لا تهمنى ... سواء لدى السعادة والشقاء ... من أنا ؟ . . لا شيء . .

لست بالشيء المذكور . . أنا رقم بين أرقام . . أنا نبتة وضيعة في أرض نباتها مشئوم . . لا ينمو ولا يثمر ولا يؤتى غير المرض والموت ! . . لأن يد الفارس لا تتعهد الغرس ، لأن يد الفارس مجرمة وملعونة ، لأن يد الفارس لم تجد بعد من يقطعها ، ولكنها ستجد . . .

وهنا أرسل سمعان صرخة مدوية وأردف :

— بل لقد وجدت . . لقد وجدت من يقطعها !

فبهت لوسيوس وحملق في صديقه وقال في دهشة :

— ماذا تعنى لم أفهمك !

فقهقه سمعان قهقهة طويلة واستطرد وهو يعد حبات سبحته :

— في كل مرة غلب فيها اسرائيل على أمره أنقذته امرأة ! . . وفي هذه المرة ستنقذه أيضاً امرأة ...

فطأطأ لوسيوس رأسه وفكر قليلا ، ثم قال في همس :

— ومن تكون هذه المرأة ؟

فابتسم الشيخ سمعان وأجاب :

— هذه أسرارنا ولا يمكن أن أفضى بها الى انسان ولو كان أنت يا لوسيوس ! أما أن انزل على رأيك وأهجر بلادى فى الساعة التى هى أحوج ما تكون الى خدماتى ، فتلك خيانة صارخة يا صديق ، واسرائيل لا يمكن أن يخون !

وكانا يتحدثان وجمهور السابلة مزدحم أمام الحانوت ، ذلك الجمهور الذى يتقاطر على أورشليم من مختلف أنحاء الأمبراطورية ، ذلك الجمهور المتباين الأشكال والأجناس والأزياء والاديان ، ذلك الجمهور الذى يعج به الشارع الضيق وتختلط لهجاته وتتضارب وتتمازج فى صورة عجيبة تثير الضحك والدهشة والاستغراب

وكان الشيخ سمعان يتكلم ولوسيوس ينصت اليه وقد لاحت خلفهما أكوام الثياب الرثة مكدسة فوق الرفوف فى جوف الحانوت ، والعباءات والقفاطين تتدلى من السقف أشبه بجثث رجال شنقوا بعد أن قطعت رؤوسهم ، والغلام يوسف صبى الحانوت يغدو ويروح متنقلا فى زواياه ، يرسل الآونة بعد الأخرى نغمات خفيفة رقيقة من أنشودة دينية كان قد بدأ يتعلمها على يد الشيخ سمعان

ونهض الرومانى وهم بالانصراف ، فانعكست عليه أشعة الشمس الغاربة ، فبدا مديد القامة عريض المنكبين مفتول الساعد رائع الجمال بوجهه البيضاوى وجبهته العالية وأنفه المستقيم وذقنه البارزة بعض الشىء ، حيث تكمن الارادة ويستقر العزم الهادىء العنيد

ونهض الشيخ سمعان أيضاً ، وصافح صديقه ، فتجلت فى الواحد منهما صورة الشموخ المطمئن وفى الآخر رمز العناد الواثق الجبار

وقال لوسيوس وهو يهز يد صديقه فى حرارة :

— لست مسئولا عما يمكن أن يحدث لك فى غد . . لقد أرضيت ضميرى وقمت بواجبى وأريت لك سبيل النجاة . فأنت الآن وشأنك

فأرسل سمعان ضحكة عصبية وقال :

— خير لى أن أموت فى أرض آبائى من أن أعيش فى روما ملطخاً بالعار !

وما ان انصرف لوسيوس وغاب عن الأبصار فى غمرة الجمهور ، حتى لوح الشيخ سمعان لغلامه يوسف وأصدر اليه الأمر باغلاق الحانوت ، فنفر الصبى الى أكداس البضائع وشرع ينظمها ويرتبها ويقرها فى مواضعها وهو لا ينفك يغنى بصوته العذب الحنون الذى طالما أشجى سيده وأعاد اليه ذكريات حداثته أيام كان يرتل هو الآخر فى الكنيس بصوت لا يقل عذوبة عن صوت غلامه يوسف

وكانت الشمس تميل نحو المغيب ، والجو فاتراً ، والنسيم عليلا وحركة الجمهور تتضاءل وتخفت شيئاً فشيئاً كقوة هائلة غير منظورة أخذت تنطوى على نفسها وتنكمش وترحف منسابة من الشارع الى حيث لا يدرى أحد الى أين يمكن أن تربض وتستقر

وفجأة غامت السماء، وتلبد الأفق وهبط الليل وأغلق معظم الحوانيت ، وشاعت فى الشارع الضيق هدأة مباغتة . فتلفت الشيخ سمعان حوله وارتدى قفطانه الأسود الجديد ثم أوصد حانوته وصرف الغلام

ولما ألفى نفسه وحيداً تلفت حوله مرة أخرى واتأد لحظة ، ثم صعد نفساً مستطيلا ، ثم جمع الى بطنه أطراف قفطانه كمن يتحفز للوثوب ، ثم سعل ومشط لحيته بأصابعه ، وانسل يخطى وئيدة تحت جنح الظلام

* * *

كان أبطال الاستقلال اليهودى فى ذلك العصر ثلاثة : رجل يدعى يوحنا جيسكالا وآخر يعرف باسم اليعازر وثالث أطلق عليه الشعب اسم شمعون بن جيورا

وكان الأول يسيطر برجاله على المنطقة الخارجية من هيكل أورشليم وعلى سفوح جبل موريا. وكان قد عهد الى أتباع الزعيم الثانى بالدفاع عن الهيكل نفسه ، أما الزعيم الثالث فكان يتسلط بأعوانه على جبل صهيون

وكانت كل آمال اليهود معقودة على هؤلاء الرجال الثلاثة ، ولا سيما على الأول الذى اشتهر بحنكته ودهائه ومرونته السياسية وعبقرية رجاله فى شتى فنون القتال.

ولم يكن فى العالم شخص يقدسه الشيخ سمعان بعد الله إلا الزعيم جيسكالا ، وكان يصدع لأوامره ويتلق منه مبادىء الثورة ويبذل قصاراه فى نشرها بين طبقات العامة ، تلك الطبقات التى ضاقت ذرعاً بالحكم الرومانى ، والتى احتملت على يد الرومان مختلف ضروب العسف والتى استشعرت اليوم أن فى نية القائد الرومانى طيطس أن يغزو بجحافله مدينتها المقدسة ، وأن يدمر أعظم وأقدس شىء لديها ألا وهو هيكل أورشليم

فالى الزعيم جيسكالا اتجه الشيخ سمعان بعد أن عرج فى طريقه على بيوت نفر من أصدقائه واتفادهم معه

وكان الزعيم يقطن منزلا صغيراً كائناً فى ضواحى المنطقة الخارجية من الهيكل . وكان رجلا قصير القامة ملىء البدن متزن الحركة والاشارة ، تنبعث من عينيه الواسعتين نظرات صارمة تفيض بالجلال والهيبة

وكان يمتاز بثباته العجيب وهدوئه الخارق وضبطه التام لأعصابه عندما تعرض عليه مشكلات السياسة ، كما كان يمتاز بسرعة الذكاء وسرعة التقرير والفصل عند ما تعترضه مشكلات الحرب

للفذة فشخصيته الفــذة جمعت بين نبوغ السياسى ونبوغ القائد الحربى . ولذا كان يعجب به أنصاره ومريدوه أشد الاعجـاب ، وكان يتقبل اعجابهم فى بساطة رائعة لا يستخفه المجـد ، ولا يتطرق إلى نفسه الكبيرة أيسر شعور بالعزة الفارغة والزهو الباطل

وكان على علم تام بخطط العدو وحركاته وخفى مقاصده بفضل شبكة من جواسيسه المخلصين ، أحكم تنظيمها ومد أطرافها فى جميع بقاع اليهودية

فلما دخل عليه الشيخ سمعان تراجع مبهوتاً ، ووقف وقد انعقد لسانه وتملكه شبه ذهول شاهد الزعيم جالساً على كرسى من خشب فى حجرة عارية ، وبالقرب منه امرأة ساحرة الجمال ممددة على مقعد مستطيل ، عرف فيها الفور المليكة اليهودية بيرينيس

ونهض جيسكالا لاستقبال الشيخ سمعان وعانقه عناقاً حاراً وأومأ اليه بالجلوس ، فتقدم الشيخ الى المليكة وانحنى أمامها وقبل فى خشوع واحترام طرف ردائها الأزرق البسيط ، ثم جلس على قطعة من الحصير ألقيت فى زاوية الحجرة وتربع ولم يجسر على البدء بالكلام

وكانت بيرينيس ، أرملة بوليمون ملك كيليكيا ، قد اعتدلت فى جلستها واتجهت بصفحة وجهها نحو الشيخ سمعان . وفى تلك اللحظة فقط رآها لأول مرة عن كثب ، وأمكنه أن يتفرس فيها ويتأمل تقاطيعها ويتملى من جمالها الباهر الفتان

كانت امرأة فى عنفوان أنوثتها ، غضة كالثمرة الناضجة ، بضة الاهاب ، ناصعة البشرة ، ذات وجه مستدير ، وشعر مجعد فاحم ، وعينين سوداوين براقتين ، وأنف دقيق ، وفم صغير ، وشفتين حمراوين ممتلئتين تلطف حدة الشهوة المنبعثة منهما شبه ابتسامة بعيدة خفيفة تحوم أبداً حول هذا الوجه الكامل الساحر الضياء

هذه الابتسامة كانت سر فتنتها ، وكان ليس فى مقدور إنسان بالغاً ما بلغ من الذكاء أن يدرك على وجه التحقيق ما اذا كانت هذه المرأة سعيدة أم شقية ، فرحة أم غاضبة ، عاشقة أم خالية ، ملك أم شيطان

كانت ابتسامتها تغلق على الناظرين باب نفسها ، وكانت تفطن لهذا ، فتحرص أشد الحرص على سر فتنتها ولا تبدو أبداً متجهمة أو مستاءة أو مكتئبة

آمال شعب بأسره كانت معلقة على استعداده للتضحية والموت وعلى هذه الأنثى !

ولقد وفدت الى أورشليم بعد أن ترامى الى سمعها النبأ الهائل ، وعلمت بما يضمره القدر لأهلها وذويها على يد القائد طيطس

كيف يمكن أن تبقى فى مملكتها ، وترتع هانئة فى نعيمها ، وتصم أذنيها عن سماع صرخات اسرائيل شعبها ، ولا تتقدم هى الأخرى يوم الجهاد لتشترك فى التضحية والفداء ؟

جاءت ولم يعلم بمقدمها أحد ما خلا الزعيم وبعض أعوانه والشيخ سمعان . وها هى ذى جالسة

جلسة المرأة الخاضعة المطيعة ، وقد أنكرت نفسها ونسيت أو تناست أنها ملكة وأسلمت قيادها للزعيم دون ما اعتراض أو تبرم

وزادها هذا الخضوع الاختيارى جمالا ، وأكسبها روعة الفدائيين المؤمنين ، ومثل فيها أمام أنظار الشيخ سمعان صورة أستير، لا بل صورة يهوديت قاتلة هولوفرن ومنقذة شعب بنى اسرائيل

وتصاعد صوت جيسكالا مخترقاً حرمة الصمت :

— هل أنت متأهب يا سمعان ؟

فتطلع اليه الشيخ ولمعت عيناه وأجاب :

— كل التأهب ! . . رجالى على استعداد .. الأحياء الفقيرة بأسرها تنتظر اشارة منك . . رجالها مدربون على حمل السلاح .. نساؤها وشيوخها ، وغلمانها ، وأطفالها ، عازمون على اتلاف المنشآت العامة واشعال الحرائق فى أى جهة تريد !

فهز جيسكالا رأسه ثم قال وهو يقطب حاجبيه وينظر أمامه نظرة ثابتة كأنما هو يقيس هول ما سوف يحمل من مسئوليات :

— اعلم يا سمعان أن طيطس سيهاجمنا صباح الغد !

فأرسل الشيخ صرخة ونهض وهم بالكلام ، ولكن جيسكالا استطرد فقال :

— جاءنى النبأ ظهر اليوم ، ولذلك أرسلت فى طلبك ، ستلق أورشليم بعد ساعات أهوال الخراب والدمار، ولكنها ستكتب لنفسها صفحات مجد تظل أبد الدهر خالدة خلود أمتنا على هذه الأرض ، فهيىء رجالك للعمل وبث فيهم روح التضامن والولاء والزم حانوتك غداً منذ الفجر وانتظر هناك أوامرى !

وقبل أن يجيب الشيخ سمعان بكلمة تحول عنه الزعيم والتفت الى بيرينيس . وبنفس اللهجة الآمرة والاشارة الحاسمة قال :

— أما أنت فواجبك أن تلزمى هذا المكان ولا تغادرى قط هذه الحجرة . واذا شاء الله وانتصرنا فلن أصبح فى حاجة اليك وسأردك سالمة الى بلادك وعرشك . أما اذا تنكر لنا الحظ وكتبت علينا الهزيمة ، فابق أنت أيضاً حيث أنت .. لا تبرحى هذا المكان .. ومتى وقعت أسيرة فى يد طيطس فعندئذ يبدأ دورك ، دور تنفيذ العدالة وتحقيق الانتقام !

وهنا لاحت دلائل الدهشة على محيا الشيخ سمعان وقال بالرغم منه :

— ولكن فى وسعها أن تسرع منذ الآن الى مركز القيادة الرومانية ، ولعلها تستطيع إغراء طيطس ، فتجنب البلاد ويلات الحرب

ولم يكد يتفوه بهذه العبارة حتى ندم ، لأن جيسكالا تقدم اليه وأمسك بذراعه وجعل يهزها هزاً عنيفاً ، وهو يقول وقد جحظت عيناه وأرعد صوته وفارقه وقاره :

— ليس من الكرامة ولا من الثقة بالنفس أن ترسل الى طيطس امرأة قبل أن نقاتله . قد يأخذ المرأة ومع ذلك يشهر الحرب . فنكون قد فقدنا الكرامة، واستهدفنا للحرب بروح معنوية واهية فقدت شعورها بالشرف وحبها الواجب للواجب نفسه ! .. كلا ! .. سنقاتل لأن واجبنا أن نقاتل فاذا ما تكسر السيف حلت محله السياسة ، تلك هي عقيدتي ، فإياك أن تضعف أو يخونك صبرك فتنفث في رجالك أمثال هذه السموم !

فطأطأ الشيخ سمعان رأسه ولم ينبس بكلمة

وكانت بيرنيس تستمع للحديث وهي صامتة ، وأصابعها الدقيقة الحادة الأظافر تعبث بحبات عقد أبيض زينت به جيدها . وفجأة انبعث صوتها حاراً رخيا سلساً كالنور شادياً كالجدول الرقراق :

— وكيف هو طيطس هذا ؟ . . بلغني انه وافر الاحساس رقيق القلب . . ألم تره أبداً يا جيسكالا ؟

فأجاب الزعيم في هدوء : أبداً !

واستطرد بعد لحظة وكأنه يوقع كلماته على دقات قلبه :

— أخشى على الله ألا نصبح في حاجة اليك يا بيرنيس . ومع ذلك اعلمي أن القائد متى خرج من المعركة استحال في لحظة الى انسان . والانسان ينهض على قوة واحدة هي العقل . ولكنه يصارع أبداً قوتين هما القلب والجسم . ففي وسعك لو تحطمت آمالنا أن تسلبي القلب من طيطس تمهيداً للقضاء على الجسم !

فلم تكد تسمع بيرنيس هذه العبارة حتى وثبت من مكانها بخفة عجيبة غابت فيها رخاوة أعضائها ، واندفعت نحو جيسكالا برشاقة كرشاقة الفهد أو الهر النمر ، وقالت بصوت أجش يمج حقداً وكراهية ويصفر كفحيح الأفعى :

— لو وقع طيطس في قبضتي فسيموت قبل أن يعرف لذة امتلاكي !

ودارت على نفسها كأنها ترقص وتستوثق من مرونة عضلاتها ، ثم أردفت وهي تضحك :

— أولى بكم أن تثأروا منه بأنفسكم لأني أشفق عليه مني !

واتجهت الى حيث المصباح الزيتي الخافت القائم على منضدة صغيرة في زاوية من الحجرة ، وجعلت تلاعب النار وتتلهى بالنفخ عليها مما جعل الضوء يتلألأ حولها ويلقي على الجدران ظلالا رهيبة متراقصة

وفي تلك اللحظة فتح الباب ودخل منه الزعيمان اليعازر وشمعون بن جيورا خياها الشيخ سمعان ، وأحس أن من واجبه أن ينصرف ، فاستأذن من جيسكالا ودنا من بيرنيس فانحنى أمامها ورفع طرف ردائها وقبله ، ولكنها لم تتحرك ولم تلتفت ولم تحفل به ولا بمقدم الزعيمين ،

وظلت مكانها جامدة ساهمة حالمة تفكر وهى تحدق الى النار !

* * *

وكان ذلك فى الأسبوع الأول من شهر مارس فى العام السبعين بعد الميلاد . وكانت أعياد الفصح قد بدأت وتوافد اليهود على أورشليم من كل صوب ليؤدوا شعائرهم الدينية فى المدينة المقدسة

ولاح فجر ذلك اليوم الربيعى الجميل ، بنفسجياً ساطعاً . فالسماء كانت مصحية والنسيم رطباً ندياً يملأ النفس صفاء وغبطة ويشيع فيها حب المرح وحب الحياة

وعند ما بزغت أشعة الشمس شرعت جيوش طيطس فى محاصرة أسوار المدينة ونصب مجانيقها والتقدم بها نحو هذه الأسوار

وطفق الرومان يقذفون الأسوار بالحجارة الكبيرة ليحدثوا فيها ثغرة يمكن النفاذ منها الى قلب المدينة

وتجمع أنصار جيسكالا وأعوان اليعاذر ورجال شمعون بن جيورا وتسربوا من أقبية خفية وسراديب غير منظورة واندفعوا فجأة خارج الاسوار وانقضوا على الآلات المهلكة مستبسلين غير هيابين وجعلوا يدمرونها وهم يصيحون ويجأرون وينشدون أناشيد دينية تستنهض عزائمهم وتضاعف حماستهم وتلهب فى صدورهم روح البطولة والايمان والاستشهاد

واتفق أن طيطس خرج فى شرذمة من جنوده يتفحص الأسوار ويرقب سير المعركة ، فما ان أحس اليهود وجوده بالقرب منهم حتى أطبقوا عليه وأعملوا سيوفهم فى صدر جنوده وكاد هو نفسه يقع فى أسرهم لولا أن تداركه حرسه الخاص وشقوا له طريق النجاة

هذا الحادث أثار حمية اليهود ، كما قوى الرومان فأصلحوا فى الحال مجانيقهم وشددوا الحصار على المدينة ، وعادوا يقذفون أسوارها بالأحجار

واشتد القتال وانهالت طلقات المجانيق ، فكانت الاحجار تتساقط على اليهود كوابل المطر فتهشم البعض منهم وتسحق البعض الآخر وهم فى أماكنهم ثابتون يكرون على المجانيق ويقصون الرومان عنها ويبذلون قصارى الجهد فى تحطيمها غير آبهين بأنات جرحاهم وصرخات صرعاهم وجثث موتاهم وقد تكدست حولهم مغبرة دميمة شوهاء تفيض عيونها بالرعب وتنضح أشلاؤها بالدماء

واستحالت الحرب الى سلسلة معارك دموية هائلة ودام الحصار طويلا واستغرق نحو خمسة أشهر ، وتمكن طيطس فى خلالها من إحداث ثغرة فى السور الخارجى تدفق منها عسكره الى المدينة ، غير أن اليهود وقد عقدوا العزم على الدفاع عن أنفسهم حتى النهاية ، كانوا يباغتون جند الرومان فى الأسواق ويوسعونهم ضرباً وتنكيلا ويحولون بينهم وبين السيطرة على أى حى من أحياء أورشليم

وحفرت الخنادق فى الشوارع ، وأقيمت المتاريس وأصبح كل بيت حصناً وكل زقاق مخبأ وكل فرد مقاتلا ذكراً كان أم أنثى

ونفد الطعام من جراء الحصار ولاح فى البلاد شبح الجوع ، وأمعن الرومان فى طغيانهم ، وأمعن اليهود فى كفاحهم ، وكان اذا دب اليأس فى نفس واحد منهم وأراد التسليم قتلوه وطرحوا جثته طعمة للرومان

وافتن جيسكالا فى إظهار كوامن عبقريته ، فأوعز الى نفر من رجاله بالخروج ليلا واحتفار هوة عميقة وراء الأسوار الباقية التى لم يتمكن طيطس من هدمها ، وإقامة أعمدة خشبية كبيرة فى وسط الهوة ثم تغطيتها بالرمل والطين

فلما زحفت جيوش طيطس ونقلت مجانيقها واقتربت من الهوة ، كان رجال جيسكالا قد سبقوها واحتفروا نفقاً طويلا تسللوا منه الى حيث الأعمدة الخشبية وأضرموا فيها النار فتراخت الارض بغتة ومادت وسقطت المجانيق فى الهوة والتهمتها النيران

هذه المقاومة الباسلة أوغرت صدور الرومان حقداً على اليهود وضاعفت من طغيانهم ، فأطلقوا الحجارة على الهيكل برغم إرادة طيطس وهاجموه عشر ساعات متوالية وأشعلوا النار فى قدس الأقداس فتكدست الجثث حول المذبح وسال الدم على درجات الهيكل أنهاراً وأمعن مشاة الرومان فى تقتيل النساء والأولاد الذين كانوا قد احتموا فى الهيكل وطلبوا الخلاص فى بيت الله

وجن جنون طيطس ، فشرع فى هدم المدينة هدماً منظماً ونهب رجاله خزائن أورشليم واستولوا على أوانى الهيكل المقدسة ، وتم للقائد الرومانى النصر على أشلاء نحو مليون يهودى ذادوا عن حياضهم ذود الجبابرة وجاهدوا وماتوا مستشهدين فى سبيل الفوز بنعمة العدالة والحرية

ووقع الزعيم شمعون بن جيورا أسيراً فى قبضة الرومان وكاد يلقى اليعازر نفس المصير ، ولكنه استطاع أن يلوذ بالفرار ويقتحم بهو الهيكل فى غفلة من الرومان ، وهناك على خرائب قدس الأقداس وفوق درجات الهيكل المحطمة ، استل خنجره وأغمده فى عنقه قبل أن يتمكن الأعداء من القبض عليه . أما جيسكالا فقد اختفى ، وعبثاً حاول الرومان البحث عنه ، وأما الشيخ سمعان فقد أسرع الى بيرينيس بعد إحراق الهيكل وأنبأها بالختام الفاجع ، وأنهى اليها أن الرومان جادون فى إثرها ، وأقسم أن يعاونها فى الأخذ بالثأر والا يتخلى عنها مهما حدث

وكانت بيرينيس قد قضت خمسة أشهر الحصار فى نفس البيت الذى أمرها جيسكالا بالبقاء فيه ، فلما دخل عليها سمعان ونظرت اليه أيقنت من الكارثة ، فلم تصرخ ولم تضطرب ولم يبد على محياها الجميل أى انفعال ، بل نهضت لفورها واستأذنت الشيخ وانطلقت نحو مخدعها فارتدت ثوباً رائعاً من الحرير الاحمر زينته بورود كبيرة بيضاء وكانت قد أعدته لهذه الساعة ، ثم عمدت الى مرآتها

فمشطت شعرها وألهبت فتنة وجهها بمختلف المساحيق وتطييت وتعطرت ثم خرجت تتهادى وتخطر أمام الشيخ سمان

وفى تلك اللحظة سمعت ضجة كبيرة عند مدخل البيت ، فأجفل سمان وانتفضت بيرنيس ولكنها ضمت شفتيها وكبحت جماح أعصابها وتقدمت بخطى متزنة ثابتة مرفوعة الرأس شامخة الأنف متأهبة لتأدية واجبها هى أيضاً

وعندئذ فتح الباب فى رفق وتراجعت بيرنيس اذ أبصرت نفسها تجاه طيطس وجهاً لوجه !

* * *

كانت الليلة رائعة البهاء ، لطيفة النسمات عميقة الصمت ، وكان القمر يتقلب بين السحب أشبه بكرة كبيرة من فضة تتقاذفها الأمواج ، وكانت روما غارقة فى سباتها ، راقدة رقدة هادئة قريرة يستمتع سكانها بشتى الأحلام اللذيذة التى أشاعتها فى نفوسهم نشوة النصر

ولم تكن الجماهير الرومانية قد شاهدت أعياداً عظيمة كهذه الاعياد ، فالجيش الظافر عرضه الامبراطور فسبازيان وحيته الاسرة الامبراطورية كلها ، وحفلات المصارعة تعددت وتعاقبت فى رواء مستحدث أخاذ ، وحفلات السباق تبارى فيها معظم الكبراء ، وليالى الصفو والمرح نظمتها الحكومة بنفسها فى الحدائق العامة . وأغدقت فيها على الشعب المختبل المشدوه مختلف ألوان المتعة والسرور

ومن نافذة القصر الذى أودعت فيه بيرنيس أسيرة مع الشيخ سمان ، رأت بعينيها ، وقلبها يتمزق لوعة وحسرة أفراح هذا الشعب المتوحش البربرى الذى اجتاح بلاد أجدادها وأذل قومها واقتادها مسلوبة الحول أسيرة ترسف فى أغلال الضعة والهوان

لم تعرف الكراهية الصادقة الآخذة بتلابيب كل عاطفة من عواطف النفس الا فى تلك الساعات !

استحوذ عليها الحقد . تملك من كل جارحة فيها . غمر قلبها . أضرم فيها أبشع غرائز أنوثتها . أحالها الى عنصر هائل جامع من عناصر القسوة والشر

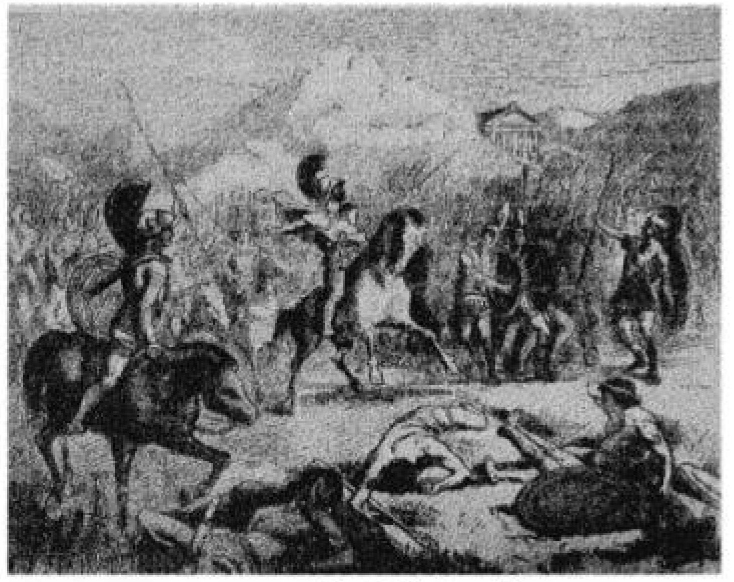
وكان القمر يصب أشعته عليها وهى مستلقية على أريكة عالية قوائمها من الذهب الخالص ، تكسوها الطنافس وتنتثر منها الاغطية الحريرية الزرقاء وتتبعثر عليها عدة وسائد صغيرة مختلفة الألوان محشوة بريش النعام ومحلاة بالمخمل وشيت عليه أزاهر وأطيار بخيوط من فضة وأسلاك من ذهب

والقت نظرة عابرة على الشيخ سمان القابع عند قدميها ، ثم تحولت الى النافذة وأجالت بصرها فى سماء المدينة النائمة . وقالت فجأة وهى تتأمل نفسها معجبة بحركات أعضائها المتسقة المشوقة وكيف تنقبض وتنبسط وتتلوى فى ضوء القمر :



قواد حرب استقلال اليونان ضد الفرس

[أنظر قصة بطولة العذراء حسنا صفحة ٣٢٣]



الجيش اليوناني يخوض غمار الحرب ...

[أنظر قصة بطولة العذراء حسنا صفحة ٣٢٣]

بين طيطس ووالده

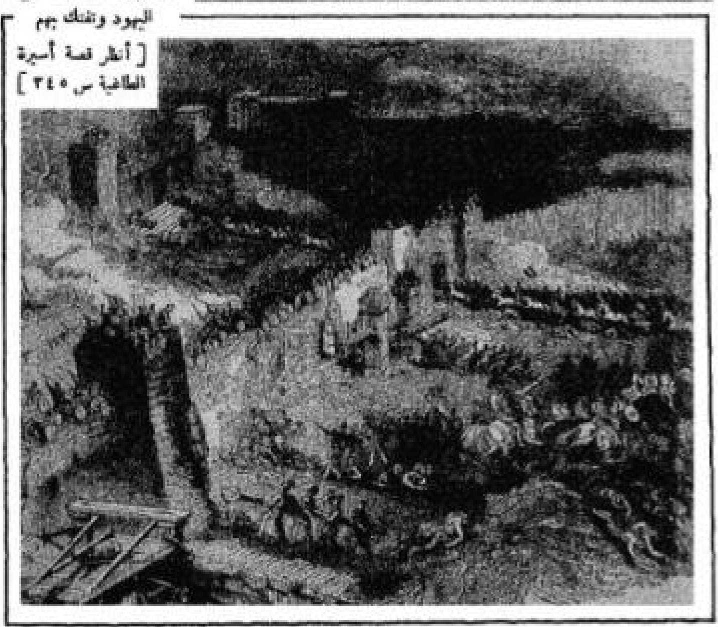
موقف عتاب بين الأمبراطور فسبازيان وولده طيطس الذى قاد الجيوش الرومانية التى حاصرت مدينة أورشليم

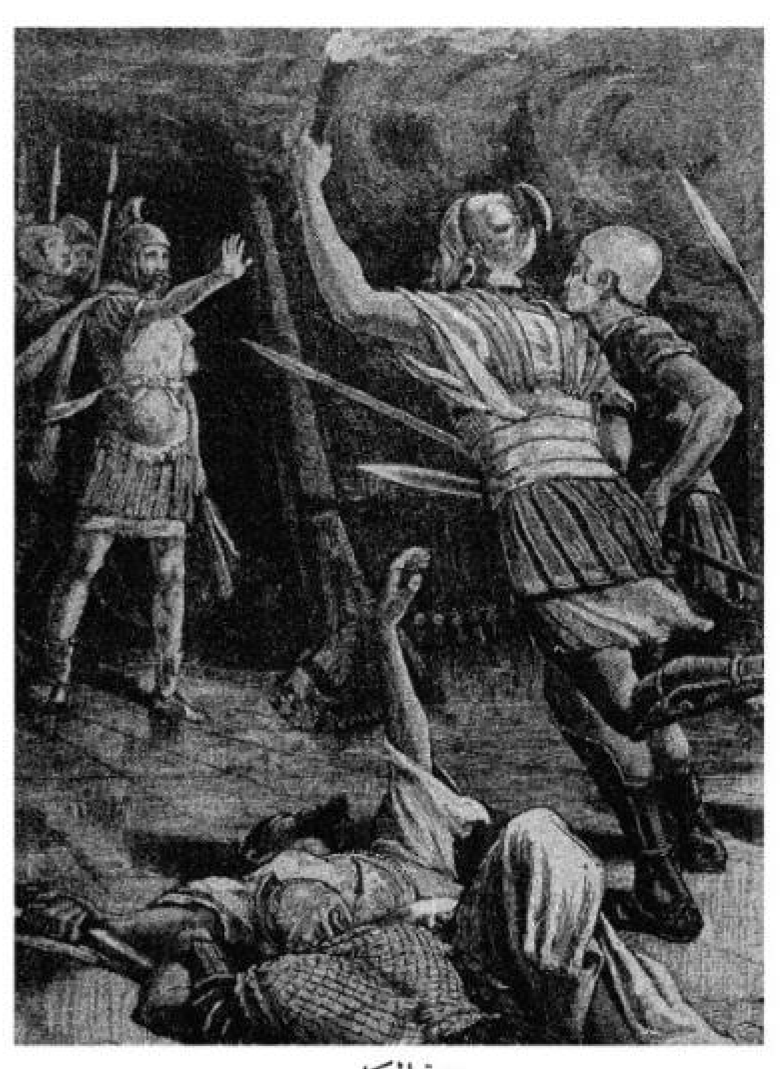


حصار الرومانيين لأورشليم

. . . وشدد الرومان الحصار على المدينة ، واشتد القتال ، وانهالت طلقات المجانيق ، فكانت الأحجار تتساقط على اليهود وتفتك بهم

[أنظر قصة أسيرة الطاغية ص ٣٤٥]





حرق الهيكل

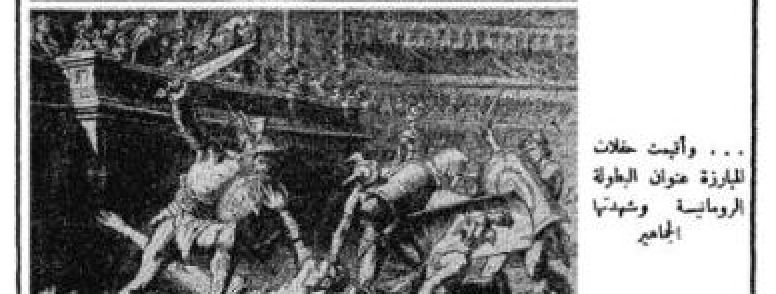
. . . واقتحم الرومان الهيكل ، وأشعلوا النار في قدس الأقداس . .

[انظر قصة أسيرة الطاغية ص ٢٤٥]



واحتفل الرومان بسقوط أورشليم ، وأقاموا الأعياد العظيمة الرائعة أياماً متتالية ...

... فحددت حفلات المصارعة فى رواء أخاذ



... وأقيمت حفلات المبارزة عنوان البطولة الرومانيـة وشهدتها الجماهير



... وأقيمت حفلات السباق ، وتبارى فيها معظم الكبراء

[أنظر قصة أسيرة الطاغية ص ٣٤٥]

— هل سمعت شيئاً يا سمعان ؟ . .

فرفع الشيخ رأسه وأجاب :

— ذلك وقع خطى الحرس . وما أظن طيطس قد أقبل بعد

وجمع أطراف قفطانه وزحف اليها وصدره يعلو ويهبط ولحيته البيضاء ترتعش والبغض يبرق في عينيه ويغلى في مخارج صوته وغمغم : الليلة ؟

فشدت قبضتها على مروحة كبيرة كانت بجانبها وضربت بها الارض ، وأجابت في صرخات مخنوقة متقطعة :

— الليلة نعم وليكن ما يكون ! عشرة أيام وأنا أنتظر . أعربت مراراً للحرس عن رغبتي في رؤيته ، ولكنه أرسل يعتذر ، ثم وعد بالمجيء أمس فأخلف ثم أوفد ظهر اليوم رسولا يعلن قدومه هذه الليلة ! وهأنذا أنتظر . أنتظر وملء نفسي الثقة بنفسي ! لم أضيع الوقت . أعددت عدتي . قضيت الساعات في مخدعي أمام مرآتي . طوعت محاسني لارادتي . جربت على نفسي أفانين سحري . رضت حركاتي وإشاراتي ونظراتي على تأدية أبلغ ما يمكن أن تؤديه أنثى تصدت لاغراء ذكر ! أصبح جسمي أتوناً معداً لكي تحترق فيه رجولة طيطس . وعند ما تذوب رجولته وينهار أمامي صرح عزته ويخضع ويعنو لسلطاني عليه ، سأعرف كيف أتحين الفرصة وأضربه الضربة التي تصيبه في الصميم ! وسأقتل أنا ولا شك يا سمعان ! سأموت ! لن أحب أبداً ولن أكون أبداً محبوبة ! لن أستمتع برؤية جمال وجهي وجمال بدني وطلعة هذه الدنيا !

وتجهم محياها بغتة ومرت سحابة على جبينها الناصع وأردفت :

— أواثق أنت يا سمعان من أن الروح خالدة ؟

فتطلع اليها مستنكراً وأجاب :

— وهل في هذا شك . الله أبدي وأرواحنا من كلة الله وهي أبدية مثله ، تنعم برؤياه إن كانت صالحة ، وتحرم منه إن كانت طالحة ثم تصلى عذاب النار

فارتجفت بيرينيس وقالت بلهفة وهي تحدق الى الشيخ :

وهل سأرى الله بعد موتي يا سمعان ؟

فأجابها وهو يطأطىء رأسه إجلالا للذكرى :

— كل من مات في سبيل الله تغفر له ذنوبه ويرى أحبابه ويرى الله ! فافتدي بضحايانا وثقي منذ الآن بخلود روحك ورؤية الله لأنك بقبولك التضحية والموت من أجل شعب الله جعلت نفسك في هذه الساعة خادمة الله !

فرددت وكأنها في غيبوبة : « خادمة الله ! »

وأغمضت عينيها وأمالت رأسها وسبحت في شبه حلم فاسترخاء محياها وأشرقت ابتسامتها

وصعدت زفرة فرح كأنها ترى النعيم وترى فيه الله وأحبابها . ثم فتحت عينيها وصوبتهما بالرغم منها نحو النافذة ، وفجأة تولتها رعدة ، فصاحت وهى تومىء باصبع مرتعشة الى الخارج :

— أنظر . أنظر يا سمعان . الشبح ! هناك . دائماً هو . دائماً أراه . فى كل ليلة . شبح أفاق أو متسول لا ينفك يحوم حول القصر فى كل مساء حالما يطلع القمر . . ها هو .. أنظر . .

ولم يكد ينهض سمعان ويطل حتى كان الشبح قد اختفى ، فتململت بيرينيس وقالت :

— أؤكد لك انى رأيته . . إنى لأتشاءم . . إنى لأتشاءم من هذه الرؤيا ! ! . . اغلق . . اغلق النافذة حالا !

وأسرعت قبله فأوصدتها بنفسها . ولما أحست أن القلق قد بدأ يستولى عليها ويتغلغل فيها كخمر خبيثة غادرة ، صرخت فى الشيخ سمعان :

— أنشد . . أنشد لى نشيد أورشليم !

فتألق وجه الشيخ وشرع يغنى وقد أضفت عليه حماسة ايمانه حلة من جمال وشباب

وكانت بيرينيس تنصت وقلبها يدق ودماؤها تتقد . كان فى كل كلمة من كلمات النشيد صرخة ، وفى كل عبارة هزة ، وفى كل مقطوعة وثبة . وكانت القوة الجارفة تتدفق من الأنغام كالسيل فما كاد الشيخ سمعان يأتى على آخرها حتى شعرت بيرينيس فى دهش منها ان القلق الطارىء الغريب قد زايلها ، وأن كل شىء فيها أصبح عزماً وقوة ، وأنها لو ثأرت لقومها ثم ألقى بها بين مخالب السباع فستدخل ساحة الموت كما لم يدخلها أى نصرانى شهيد !

أحس منها سمعان هذا العزم القاطع ، فتهلل محياه وجثا عند قدميها وقال :

— لقد رافقتك الى هنا كتابعك وخادمك ، وعشت معك هذه الايام كالكلب الامين ، فاذناً .. إذناً يا مليكتى بأن يحل بى ما سوف يحل بك وأن تقبلينى على الدوام بجانبك ، أعذب فى رفقتك وأموت وأنا رافع بصرى اليك ! عدينى .. عدينى بهذا !

فمغمغمت وهى جامدة :

— لن أتخلى عنك .. سنموت سوياً يا سمعان ! .. أما اذا شاءت العناية و ..

وقطبت جبينها ولم تتم عبارتها لانها لمحت فى ضوء القمر وجه القائد الرومانى . لمحت عدوها الذى تنتظره محمولا على محفته ومقبلا نحو القصر

وعندئذ مزقت حجاب الصمت أصوات دوت كالرعد القاصف هاتفة : «الموت لبرينيس !»

ففتحت المرأة النافذة بيد محمومة فأبصرت فى الميدان الفسيح أطياف رجال برزوا فجأة من ههنا وهناك يلفهم ضوء القمر الضبابى وتقدموا صوب المحفة ورفعوا أذرعهم ولوحوا بها فى وجه طيطس وجعلوا يرددون هتافهم غير حافلين

ورأت حرس القصر يندفع ويخرق المجتمعين وينهال عليهم ضرباً بعصيه الغليظة ، ولمحت

الشبح .. الشبح الذى طالعها منذ لحظة يندس بين المتظاهرين ويروغ من ضربة شديدة كادت تشج رأسه وتقضى عليه

وفى أقل من بضع دقائق ساد السكون وخيم الصمت واختفى المتظاهرون وعاد الميدان قفراً موحشاً كأن لم يحدث أى شيء

هذه الصرخات ، صرخات الحقد عليها . والخوف منها ، المنطلقة من صدور عامة الرومان ، ضاعفت بغضها ، وشددت عزمتها ، فأشارت الى الشيخ سمعان بالانصراف ، ثم تناولت مرآتها الصغيرة فألقت عليها نظرة ، ولما اطمأنت ارتدت اليها ابتسامتها فتمددت على الأريكة واعتمدت رأسها بذراعيها ومضت تحدق إلى الباب وهى تلهث وتنتظر . .

***

ودخل طيطس ، ولكنه لم يكد يخطو خطوة حتى وقف مبهوراً

فأرسلت بيرنيس ضحكة قصيرة وتقلبت فى فراشها فماجت هى والأغطية الحريرية فى شبه نهر من الضوء الفضى الوهاج . وتقدم اليها طيطس على مهل وانحنى أمامها وجلس على الفراش عند قدميها ولم يتكلم

وانقضت فترة ، ثم التفت اليها القائد الرومانى وقال وهو يبتسم ابتسامة عريضة صريحة فيها من دلائل الرقة والطيبة والبساطة ما أدهش بيرنيس :

— أعتذر الى جلالتك عما تفوه به أولئك الأوغاد . إنهم من المرتزقة المأجورين لخصومى . وكل ما أتمنى ألا يلحقنى منك بعض ما تضمرينه من كراهية لهم

وطوح بطرف مئزره الأبيض على كتفه ، ووضع ساقاً فوق أخرى واستطرد بصوت ناعم لطيف بعد أن تناول وسادة التى بها فى حجره واحتضنها بكلتا يديه :

— أشهد الآلهة على أنى ما كنت أود إحراق هيكلكم وتدمير مدينتكم ، ولكن هو شعبكم العنيد الذى أراد هذا ! لقد ثار على الحكام الذين ولتهم عليه روما ونشر الذعر والفوضى وعبث بكل قانون ونظام وأوشك أن يزعزع صرح الامبراطورية . ولقد كان من واجبى أن أعاقب العصاة فعاقبت . وأنت ملكة وفى وسعك أن تفهمينى وتقدرى موقفى !

فرشقته بيرنيس بنظرة وقالت وهى تجاهد لتحتفظ بظل ابتسامتها :

— لا أفهم كيف تسمى الاحرار الذائدين عن بلادهم عصاة

فقال فى هدوء :

— كل من لا يقبل عدل روما يعتبر عاصياً !

فاستوت بيرنيس على فراشها وطوت ذراعيها على صدرها وقالت وقد تبدت امرأة أخرى صارمة عاقلة مفكرة ، واختفت ابتسامتها :

— بأى حق تريدون أن تفرضوا عدلكم على الناس ؟

فرفع طيطس بصره اليها وطرب لهذه العبارة كما يطرب الرجل لفكرة راجحة يجرى بها لسان طفل . وهم بالضحك ، ولكن صرامة المرأة ألزمته حد الجد

فأجاب فى تؤدة :

— القوة هى التى تفرض العدل . هذا حقها لأنها لم تصبح فى الحقيقة قوة الا بعد أن جمعت وركزت فى يدها جوهر الحضارة . فهى تمنح هذه الحضارة للضعيف خدمة له ، فان لم يتقبلها راضياً فرضت عليه بالسيف فرضاً . ذلك هو ناموس الحياة منذ الأزل !

فارتجفت بيرنيس وقالت وهى تلوى يديها :

— إذا فرض العدل على الضعفاء فرضاً تحول عن غايته وانتهى الى مصلحة الاقوياء ! المبدأ عندنا أن يتفوق القوى على نفسه ، أن يتسامى بقوته وسلطانه ، أن يحترم قوته ، أن يأخذ بيد الضعيف كى يقر الضعيف العدل فى دائرته بنفسه ، وهكذا يكون العدل ثمرة الحرية لا وليد الاستبداد

وهنا لم يستطع طيطس صبراً فانفجر ضاحكا وهو يتأملها وقد راعته منها حدة ذكائها وسمو منطقها ، واستملح فى قرارة نفسه كيف استحال هذا الوعد القرامى الى مباراة فى النقاش السياسى ، وأراد أن يستمر ويكايدها فقال وهو لا ينفك يضحك :

— لو ترك الأمر لكم معشر الشرقيين لجعلتم من الناس أخوة وقضيتم على كل فارق وكل امتياز أوجدته القوة لخدمة الحضارة . أليس كذلك ؟

فهتفت بيرنيس وصوتها يهدر :

— ما هى حضارتكم ؟ ... طبقة من السادة استحوذت على كل شىء ، وطبقة متوسطة ترهب الأولى وتداهنها ، وشعب بائس تلقون اليه فتات المائدة ، ثم عبيد أرقاء يكدحون من أجلكم جميعاً ويموتون ضربا بالسياط . كيف ... كيف يمكن أن ترضى بهذا يا طيطس ؟ ... كيف يمكن أن تحقق مثل هذه الحضارة فكرة العدل وهى لا تعرف معنى المساواة ؟!

فاضطرب القائد الرومانى وأحس أنه أحرج وود لو يحول مجرى الحديث ولكنه قال :

— أعرف مبادئكم أنتم معشر اليهود والنصارى . أنتم نظريون خياليون متصوفون ، أما نحن فأبناء الحقيقة والواقع . أنتم تؤمنون بالانسان ، أما نحن فلا يمكن أن نؤمن إلا بالدولة التى تصنع الانسان . أنتم تقولون إن الانسان هو الذى يستطيع خدمة أخيه الانسان ، أما نحن فنقول إن الانسان لا شىء .. ان الفرد لا شىء .. ان الدولة هى كل شىء لا الانسان ، وإنها يجب أن تنمو وتعظم وتسود لتستطيع آخر الامر خدمة الانسان

فقالت بيرنيس على الفور :

— كيف يمكن للدولة أن تخدم الانسان بعد أن تكون قد قتلته ؟ .. لا .. لا .. إنها بذلك تخدم نفسها .. تخدم السادة من أغنيائها وحكامها .. تخدمك أنت يا طيطس .. كيف لا تفهم هذا .. ثم كيف لا تشعر أن حضارتكم .. الحضارة التى أوجدها تقديسكم لفكرة الدولة .. ستنهار .. ستنهار عما قريب ؟!

فغمغم الرومانى القائد بعد لحظة على الرغم منه وكأنه يخاطب نفسه :

— أشعر بذلك تمام الشعور .. فوثبت بيرينيس من مكانها وطوقت القائد بذراعيها وألصقت خدها بخده وصاحت وقد اندفق الدم إلى قلبها فالتمعت عيناها والتهب خداها وتجلت فى صوتها إرادة جبارة عاتية :

— دعها تنهار ! .. لا تمد يداً لخلاصها ! .. دعها تنهار وانظر أمامك .. إلى المستقبل المجيد الذى ينتظرك .. ستكون فى الغد امبراطوراً .. وسيكون فى مقدورك إنشاء عالم جديد خليق بعبقريتك .. عالم لا يكون مجدنا فيه أن نجعل من الغنى نبيلا ومن النبيل حاكما ومن الحاكم غطريفا ومن السادة وحوشاً ، بل نجعل أنا وأنت من العبد الوضيع انسانا ! .. فالى الرحمة والمساواة والعدل والسلام والحرية أدعوك .. إلى بناء هذا العالم الجديد أدعوك يا طيطس فأنت طيب وعادل وكريم ولقد شاهدتك بعينى رأسى .. شاهدتك تبكى وجنودك يذبحون أطفالنا فى شوارع أورشليم .. ومنذ تلك اللحظة ، آمنت بقلبك ! .. منذ تلك اللحظة خنت أهلى وعشيرتى وأحببتك !

وكانت ترمقه بنظرات جانبية فاحصة لترى مبلغ تأثيرها عليه وهى تحتضنه وتصب فيه حرارة إيمانها وفيض حيويتها ودفء بدنها الناضر وعطره الفياح . أما هو فكان يتأمل شفتيها الحراوين المتلئتين وصدرها الناضج وأنفها الدقيق وخفق أهدابها الطويلة على عينيها السوداوين ، ويحاول جهده ملاحقة ابتسامتها علَّه يكتنه سرها وهى تنبثق تارة على الوجه الجميل ، ثم تختفى ثم تلمع فى فتنة غامضة تثير الفضول وتستفز الحواس

ولما صمتت جعل يحدق لحظة الى أساورها الذهبية الملتفة كالأراقم حول معصميها ثم قال فى سكون وحزم :

— بيرينيس عند ما التقينا فى أورشليم أحببتك لأول وهلة . وأنا رجل عسكرى أكره المبالغات والتعقيدات النفسية ، ومتى أحببت أسلمت كيانى وملكت من أحب زمام قلبى . ولست أعلم إذا كنت قد صدقت الساعة فى قولك إنك أحببتنى . ولكنى بكل بساطة أعرض عليك أن نتزوج ونتحاب ونعيش سعداء .. الشعب الرومانى يحقد عليك لأنك عدوته ، وسوف يحقد علىَّ متى تزوجتك ، ولكن الأحقاد تموت مع الزمن ، وسآخذك ولن أحفل بأحد . أما أن تحاولى التدخل فى حياتى العامة وتبديل معتقدى السياسى وإثارتى على نظام بلادى ، فهذا ما لن أرضاه

أبداً . أبداً . ولو فقدتك الى الأبد ! أنت عاشقة كما تزعمين فلماذا تجتهدين فى الظهور بمظهر البشرة ؟ أى دخل للحب فى السياسة ولم هذا الخلط بين الفكر والعاطفة ؟ . خذى قلبي ولكن لا تطمعى فى امتلاكه على حساب بلادى ؟

وا كفهر وجهه بغتة ثم أردف بصوت جاف :

— هذا انتقام ! نعم هذا انتقام هائل من بلادى تستخدمينى يا بيرنيس أداة له ! . أنت تحاولين التغرير بى . أنت تطمعين فى تسخير حبي لمصلحة قومك . أنت تريدين الاستعانة بى على إقامة دولة يهودية على أنقاض امبراطورية الرومان

فصاحت : بل دولة عالية أساسها العدل الصحيح

فقال : العدل الصحيح لا ينبع إلا من روما

فعضت المرأة على شفتيها وغاظها أن تصطدم لأول مرة بارادة أقوى من ارادتها ، ولكنها لم تفقد الأمل ، واستنجدت لفورها بسحر أنوثتها فقالت وهي تتأوه وتتمطى وتدنى منها وجه طيطس وتحاول أن تذيب عزمته بأن تطبع على فمه قبلة :

— كم سيصبح حبنا عظيماً لو اقترن بغرض عظيم !

فقطب الرجل حاجبيه ودفع المرأة عنه فى عنف ونهض وقد تصلبت عضلاته وشاع الغضب فى صوته ، وبدا وجهه المنبسط الرقيق منقبضاً شاحباً قاسياً كوجه القائد الظافر المتوحش الذى أبصرته وهالها فى أورشليم ، وقال وهو يرعد :

— غداً . غداً صباحاً تبرحين هذا القصر الى حيث تشائين !

واستدار وتحول نحو الباب فجن جنون المرأة واستهولت كيف تفشل على هذه الصورة مثل هذا الفشل الذريع ، فقفزت من فراشها وقد ملأ البغض قلبها وأفعمته نية القتل وأخذ الثأر ، ولحقت بالرجل وتعلقت بأطراف مئزره وصاحت به :

— لا تنصرف يا طيطس . لا تنصرف . أيهون عليك طردى ؟ ألم تقل إنك تحبني ؟ الى أين . الى أين أذهب الآن ؟ !

فتوقف الرجل كالمذهول ، ثم التفت اليها . وعندئذ وقع ما ليس فى الحسبان . أطرق طيطس هنيهة ثم هم بالافلات منها ثم لبث فى مكانه وتضامت تقاطيع وجهه واختلج اختلاجا عنيفاً وبكى . فبهتت بيرنيس وتراجعت خطوة ثم أحست على دهش منها شيئاً جديداً ، شيئاً عميقاً ، شيئاً كامناً هاجعاً لم تفطن اليه ولم تفهمه ولم تحسه قط ، تحرك فى نفسها وأرخى أعصابها وسيرها بالرغم منها ، فدنت من الرجل وضمته فى رفق الى صدرها وأسندت رأسه الى كتفها ولبثت تستمع اليه هكذا وهو يجاهد نفسه ويغالب دموعه ويقول من صميم فؤاده :

— وأنا ؟ أنا ؟ الى أين أذهب بعدك يا بيرنيس ؟! انى لأتعس مخلوق ! لو اقترنت بك جلبت

على سخط مليكى ودست بقدمى على إرادة مواطنى ، وسعيت من أجلك لهدم الأمبراطورية ووصمت نفسى بالخيانة والعار ، واستهدفت معك لخطر النفى أو الموت . ولو انفصلت عنك ثم أعطيت ملك الارض طراً فسأظل فى وحدتى تعساً مسكيناً شقياً كأفقر ما يمكن أن يكون رجل وأنكد ما يمكن أن يكون انسان ! فدعينى . دعينى أذهب . الحرية خير لك من حياة منغصة فى صحبة رجل قد تصبحين معه أنت الأميرة العظيمة شريدة طريدة جوابة آفاق !

وظل يبكى فى غير خجل ولا استحياء ، وهى شاخصة اليه فى ذهول وقد بدأت تأسرها اللذة الكبرى ، لذة الشعور بأنها حقاً محبوبة وأن حبها قد استبد بعقل جبار وقلب بطل . بيد أن فكرة الواجب سرعان ما أزعجتها وعكرت عليها صفو لذتها ، فحز فى صدرها أن تدع هذه اللذة تفلت منها ، ولا تستطيع الاستمتاع بتبادلها ، وأن تكون لشؤم طالعها مجبرة على نبذها وعلى تمزيق القلب الذى يقدمه لها

ولم تكن تنتظر كل هذا الحب . لم تكن تتوقع كل هذا النبل . بل لم تكن تتوقع لا حباً ولا نبلا ولا أى مظهر فيه مسحة من معنى السمو

كانت تتوقع غطرسة وعتواً ، واستباحة وبطشاً ، وقسوة واغتصاباً ، وغلظة وشهوة . فسحرتها لذة الرقة ، وبهرتها روعة الصدق ، وفتن كبرياءها عمق هذا الألم الذى أحدثه حبها فى نفس رجل كان حتى الأمس القريب جلاد شعبها

ومن دموع طيطس ، ومن صرخاته اليائسة ، ومن صدق ألمه ، ومن تخبطه ولوعته وأساه وفرط عذابه ، استفاق فى بيرينيس إحساس بالشفقة حاولت عبثاً أن تخنقه

أشفقت عليه . لم تستطع أن تتصور كيف يمكن أن تقتله . لم تستطع أن تتخيل كيف يمكن أن تزهق روحاً يحبها وعقلا يفكر فيها ولساناً يلهج باسمها

وغلبتها الحيرة وأصابها الفتور وغشيتها برودة الاحجام ، واندلع من صدرها لهيب غير ذلك الذى كانت ترعاه وتتعهده . ومن الشفقة انساقت الى الطيبة ، ومن الطيبة الى العطف ، ومن العطف الى الحنان . فقالت بصوت متهدج رخيم استغربت هى نفسها وقعه فى سمعها :

— لا تبك !.. انت رجل !.. يعز على أن أراك تبكى !..

فاحتضنها وجعل يقبل يديها وذراعيها ووجهها قبلات حارة تائهة محمومة وهو يردد كعتوه :

— لا أريد أن أشقيك .. لا أريد أن أفقدك .. الشعب يحقد عليك ولو بقيت معى فقد يتحين فرصة لقتلك . وأنا لا أريد .. لا أريد أن أفقدك . والخير لى ألف مرة أن أعيش كيت فى روما وأنا بعيد عنك وأنت حية من أن أقترن بك وأرتجف فى كل لحظة على حياتك !.. دعينى .. دعينى أذهب .. لا أريد أن أمتلك بدنك .. لاحق لى فيه .. لم أستحق حبك .. لست جديراً بك .. لو كان فى وسعى ابقاؤك هنا .. معى .. لعرفت بفضل صبرى وألمى واخلاصى كيف

أرع حبك وكيف أفوز بك مختارة ، وكيف أنعم بقربك عن جدارة واستحقاق

فليحفظ كلانا اذن بهذه الساعة النقية العابرة التي لم تلوثها أجسادنا . احتفظي بها .. لقد التمستك عليها فهي كنز حياتي .. احتفظي بها وفكري في ان شئت وهبي نفسك غداً الرحيل !

وكان الصدق والنبل يشعان من عباراته ويأخذان بلب بيرينيس ، وهي واقفة بالباب تحول بينه وبين الخروج ، وهو مستند الى قاعدة تمثال كبير الزهرة وقد أخذت أساريره تنطلق شيئاً فشيئاً وتنبسط ، وتسترد ما فقدت من لطف وبشاشة ورزانة وهدوء

وكان يبدو بوجهه الغض وخديه الكتنزين وابتسامته الساذجة الصريحة وصدره العريض وذراعيه المفتولتين ، أشبه بعملاق يحمل رأس طفل . فازدادت بيرينيس شعوراً بطغيان القوة التي تجذبها اليه . كبر عليها أن تكون أسيرة في يده ثم يطلقها ، أن يشتهيها ثم يعف عنها ، أن يحبها ثم يخنق حبه حرصاً على حياتها ، أن يتفوق عليها نبلا وشهامة وعظمة ، فثارت عزة نفسها وأرادت أن تقابله شهامة بشهامة ونبلا بنبل ..

وتغلبت عليها عوامل الزهو والخيلاء . وسحرتها الانفعالات العنيفة الصادقة . وأثر عليها وأبهجها وأضعفها منظر الرجولة الذليلة ، ولم تدر أن الحب يخدعها ، وأن عدواه قد أصابتها ، وأن آلام رجل عاشق قد أهاجت كبرياءها وأفقدتها صوابها وصرفتها عن الواجب المقدس الذي كرست له نفسها

ولأن طيطس كان أول روماني عرفته احترم امرأة ضعيفة وعف عنها ، اعتقدت اعتقاداً طارئاً عجيباً ، أن هذه العفة لا يمكن أن تكون قد صدرت إلا عن روح اصطفتها العناية الربانية وتفتحت بغتة على نور الله . فاشتد ابتهاجها ، وأيقنت أنه قد آمن واهتدى من حيث لا يدري ، وأن حبها سيرده من عبادة الأوثان الى عبادة الله . وهكذا ضاعف خيالها الديني سلطان الرجل عليها ، فلانت واستسلمت ونسيت كل شيء ، ولم تعد تفكر إلا في تقدير الرجل ومكافأته على حبه والظهور عليه بعظمة تفوق عظمته وتخلد في قلبه ذكراها الى الأبد

جذبته في تمايل ورفق الى فراشها وأجلسته بجانبها . وفجأة وقد قر قرارها وغمرت الظلمة عقلها وختمت على أبصارها فلم تعد ترى غير وجهه ولم تعد تفكر إلا في حياته ، أشارت الى القلادة الكبيرة المزدان بها نحرها حيث يكمن شبه قلب من ذهب يتدلى منه سهم صغير ، ثم ضغطت على القلب فانفتح فانتزعت منه دبوساً أسود لوحت به في وجه طيطس وقالت بصوت أجش وهي تقدمه اليه : « بهذا كنت سأقتلك ! »

فنظر القائد اليها من خلال أهدابه وغمغم :

— بيرينيس . كم كنت أود أن نظل عدوين !

فألقت من النافذة بالدبوس المسمم ، وضمت طيطس الى صدرها . وفي سكرة الهوى الطائشة

العمياء ، فى لجب الحب وإعصاره الجارف ، فى حمى اليأس العميق ، فى حنق الأمل المظلم المفقود ، تناولت رأس حبيبها وألصقت شفتيها على فمه وقبلته قبلة طويلة أودعتها كل غرامها ويأسها

وقبل أن يفيق الرجل من نشوته تملصت منه ودفعته عنها وقالت وهى تنهض وقد شردت نظراتها:

— اذهب . . يجب ألا تبقى هنا !

وأردفت وهى تنشب أظافرها فى وجهها :

— أعلمت الآن الى أى حد أصبحت أحبك ؟ ! اذهب والا زادنى وجودك جبناً وضعفاً ! سأبرح روما الى بلادى صباح الغد !

فنهض طيطس متهالكا منسحقاً ، وفى خضوع وتسليم ، عانقها بالرغم منها العناق الأخير ، ثم انحنى وقبل منبت نهديها حيث يكمن القلب الصغير اللهبى ، ثم استجمع قواه واندفع نحو الباب وخرج لا يلوى على شىء

* * *

ولما ألفت نفسها فى الحجرة وحيدة يكتنفها الضوء القاتم الرهيب ، أفاقت من سباتها ورأت رأى العين هول جريمتها ، فجعلت تمض شفتيها وتلطم وجهها وتمزق ثوبها وتضرب صدرها بقبضتيها وتبكى فى حنق وحسرة وجنون بكاء من أفقد نفسه بنفسه كل شىء ولم يعد يستحق فى هذا العالم أى شىء

وفيما هى تزفر وتنشج وتروح فى الحجرة وتغدو تائهة مرتاعة مخبولة ، إذا بالباب ينفتح على مهل ويتسلل منه رجل . فصرخت برنيس وهى تتراجع وقد اتسعت حدقتاها رعباً : «جيسكالا !»

ثم تمتمت وهى ترتعد وقد لمحت الشيخ سمعان يدخل من الباب الجانبى ويقف جامداً مذهولا :

— أكنت أنت ؟ .. أكنت أنت الشبح ؟

فأجاب جيسكالا وهو يحدق اليها :

— نعم هو أنا ! . . كنت أحوم حواليك لأعرف ما اذا كنت ستقومين بواجبك أم لا ؟

فظلت ترتعد من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، ولكنه لم يحفل باضطرابها واستطرد :

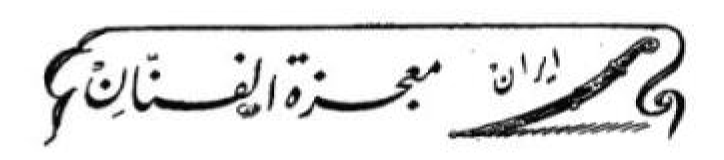
— والآن وقد رأيت الحرس يغادرون القصر ويتبعون طيطس ، تملكتنى الدهشة فصعدت حالا لأعرف جلية الأمر .. فماذا حدث .. أجيبى !

جثت عند قدميه وكشفت عن صدرها ، ثم رفعت اليه ذراعيها وصاحت فى ضراعة وابتهال:

— اقتلنى ! . . اقتلنى يا جيسكالا ! لقد أحببت طيطس وخنت اسرائيل !

فصرخ الشيخ سمعان وحجب وجهه بكلتا يديه

أما جيسكالا فلم ينطق بكلمة ، بل تقدم فى هدوء ، وألقى على المرأة نظرة هائلة . ثم أمسك بشعرها وطرحها على الارض ، واستل خنجره وأغمده فى صدرها !



تقع حوادث هذه القصة فى عهد عصر الملك ارتبان الرابع آخر ملوك أسرة الأرزاس التى حكمت إيران زمناً طويلا . وقد ثار الشعب على هذا الملك بقيادة الضابط أردشير وخلعه وأنشأ الأسرة الساسانية وهى إرانية صميمة كان عصرها عصراً ذهبياً رائعاً

نشر على لوح من خشب ، قطعة القماش المربعة الكبيرة ، ثم تراجع خطوة ، وجعل يتأملها وأصابع يده الضامرة تعبث بطرف لحيته الكثة البيضاء

وكان قد رسم على القماش زهورا حمراء وطيورا سوداء مذهبة الاجنحة وفرسانا يتقاتلون وعذارى نائحات فاتنات وشيوخا برح بهم التعب فتساقطوا على الارض متهالكين

وكان قد شرع أول الامر فى رسم حديقة غناء ، ثم عن له أن يصور فى الحديقة تشوب معركة صغيرة بين جمع من الفرسان ، ثم جمع به خياله فاستحالت الحديقة الى غابة والمعركة الصغيرة الى حرب طاحنة اشتركت فيها أمة بأسرها

وعجب من نفسه كيف يفكر فى شىء ثم يصدر فى عمله عن شىء آخر . والواقع أنه أراد أن يلهو . أراد أن يقتل الوقت فقط . أراد أن يتخلص من همومه وأحزانه . أراد أن يدفن عقله وقلبه فى فنه ، كما كان يدفن آلامه العميقة وأمراضه المستعصية فى كؤوس يملأها من عصير العنب الخالص ويظل يجرع منها حتى يرتوى

ولكنه بالامس لفرط ما أحس الألم ، استرسل فى التخيل وأمعن فى التفكير وتاه عقله عن الدنيا ، فبدل أن يرسم الصورة التى كان مثلها فى ذهنه ، رسم عالما رائعا خلابا يزخر بالقوة والحياة

ونظر الى قطعة القماش نظرة فاحصة ، واستفاقت فيه شخصية الفنان

لم يقنع بما رسم . لم يطرب لما رأى

لمح فى منظر الطيور نقصا صارخا ، وفى حركات الفرسان فتورا باديا ، وفى تموجات هياكل العذارى رقة صناعية نابية ، وفى تهالك الشيوخ رخاوة أنثوية مزرية

لمح كل هذا بنظرة الفنان المتطلع الى أكمل جمال ممكن . فى حين أن الرسم كان مع ذلك جميلا ، بل كان آية فى الابداع لن يلبث متى اكتملت حواشيه وانسجمت ألوانه واتسقت خطوطه ، أن يصبح طرفة فنية نادرة المثال

وتناول بهزاد ريشته وأكب على عمله وهو عابس الوجه مقطب الجبين متململ متبرم مستاء

وفيما هو يصلح من شكل زهرة ويصبها فى الضوء المناسب لموقعها من مجموع المنظر ، انبسط محياه فجأة ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة رقيقة ساخرة

سخر من نفسه كيف أنه كان بالامس قانعا برسم حديقة متواضعة ، فلما التهبت عبقريته بالرغم منه ، أصبح اليوم والكمال نفسه لا يرضيه

وأخذ فى رسم جمهور الشعب المقاتل ، وطوائف الاعداء الثائبة ، وجثث المهزومين والقتلى تبعثر تحت أقدام الجياد

وكان لفنه دقة فى الاشكال ، فى بروز فى التقاطيع ، وتلاؤم فى الالوان ، وسطوع فى الضوء ، وبساطة فى الاداء ، وسحر غريب فى ابداع الاشياء والاشخاص كدمى متراصة أو عرائس متساندة فيها حياة عميقة بعيدة على الرغم من ضآلة أحجامها ومظهر الطفولة الشائع فيها

وكان بهزاد أول فنان ايرانى تطور بفن الرسم من الزخرفة الى التعبير ، من الخطوط الملتوية المتعرجة المنسجمة التى تطرب العين الى الشخوص الدقيقة الحية التى تطرب العين والفكر على السواء

فالرسوم التى كان يقصد بها الى الزينة والتجميل لم تكن ترضيه ، أما الرسوم التى تؤدى عاطفة أو توحى بفكرة أو تخلق جوا انسانيا معينا فهى التى انصرفت اليها عبقريته طوال أيام شبابه حتى استطاع تحقيقها فى شيخوخته ، ولقد قدر فيه مواطنوه هذه العبقرية ، فاشتهر وذاع صيته وتنافس الكبراء فى اقتناء صوره ، وتوجه الشعب أميرا لفن الرسم فى جميع بلاد ايران

وكان مما حبب الجماهير فى فنه ، تلك الروح القومية الاصيلة ، وذلك الاحساس الايرانى الصميم النابع من شعور الامة الحى ، بأنها خليقة بالمجد حقيقة بالمطالم ، جديرة بأن تنفض عن كاهلها عبء الاستبداد الذى فرضه عليها الملوك البارتيون الاجانب

والحق ان بهزاد كان فى رسومه رجع صدى العواطف المتأججة فى صدور أبناء وطنه كان مثلهم ثائرا على حكم الملك البارتى « ارتابان » ، متمردا على أسرة الارزاس البارتية

التي سامت بلاده مختلف ضروب الذل ، توافا الى التحرر منها واقامة دولة جديدة ، يتولى الحكم فيها ملك يخرج من الشعب ويؤكد سلطة الامة

وهذه الروح ، روح الثورة والتحرر ، كان يبذل الفنان قصاراه فى تمثيل عناصرها المتباينة وألوانها المتنوعة فى الصورة التي يرسمها الآن والتي فاضت منه على غير وعى ، لفرط ما كانت العواطف الوطنية مستولية عليه

ولكنه مع ذلك كان مضطربا قلقا ، ترتجف يده وتغشى بصره المتوقد سحابة هم دفين

كان يحاول طرد الوساوس عن ذهنه ، والانصراف الى عمله ، والفناء فى فرح الابتكار والابداع والخلق . بل هو فى الحقيقة لم يهرع الى الصورة الا ابتغاء الراحة ، ولم ينزع خياله بالرغم منه الى رسم موضوع خطير عظيم ، الا لانه فى قرارة نفسه كان يحس ألما شديدا ، وكان يجاهد لينسى هذا الألم فى الفن . ولو سويعات ساعات معدودات

وكان يلوح عليه وهو يرسم أنه يفكر . يفكر فى شيء آخر لا يمت الى الصورة بصلة .

وهذا الفكر كان يدنيه من عمله ويقصيه عنه فى نفس الوقت ، مضاعفا ألمه ، مودعا فى أصابعه شبه فتور وشلل ، وفى عينيه شبه ظلمة تتشوش أمامه الظلال والاضواء والالوان

ولبث يرسم غير حافل ، بيد أنه خشى آخر الامر من نفسه على عمله ، خاف أن يشوه اضطرابه جمال وحيه . أحس أن ارادة الحياة أقوى من ارادة الفن ، وأن سلطان الالم أقوى من سلطان الجمال ، فتنهد وألقى بفرشاته جانبا وصفق فدخلت جاريته حاملة وعاء كبيرا وابريق ماء . فغسل يديه ، ثم أمر الفتاة باغلاق جميع أبواب البيت ، ثم ألقى على كتفيه عباءته الخضراء وخرج

***

وظل يمشى فى شوارع مدينة « كرمان » مستغرقا فى التفكير ، يتطوح كالشارب الثمل ، والناس تحييه ، والشباب يفسحون له الطريق ، والعظماء ينحنون له باحترام ، والنساء يتبعنه النظر معجبات ، ويتبرك البعض منهن بلثم أطراف عباءته

ولما أشرف على الحانة التي يجتمع فيها أصدقاؤه ومريدوه ، خرج اليه الكل وأحاطوا به واستفسروه عن آخر أنباء الثورة وتوسلوا اليه أن يبقى معهم ، ولكنه حياهم بتحفظ لم يعهدوه فيه ، وخاطبهم بلهجة متكلفة أدهشتهم ، ثم تملص منهم فى أدب ولطف فشيعوه بعبارات الثناء مقرونة بخالص الاعجاب والود

وكان وهو يمشى لا ينفك يرقب وجوه المارة ، ويلحظ حركاتهم وسكناتهم ، ويطبع فى أطواء خياله ابتساماتهم وضحكاتهم ، وهو مع ذلك بعيد كل البعد عنهم ، كان طبيعة الفنان فيه تأبى السكون والرقاد تحت ضغط الحوادث بالغة ما بلغت من الخطورة والعنف

وانه ليعرج فى طريقه على زقاق مهجور ، واذا به يسمع من طرفه القصى ولولة نساء وصياح أطفال ، ثم يبصر جنازة فتاة فى مستهل العمر ، يحثو أبوها التراب على رأسه ، ويكاد يقطع صدره الصراخ والنحيب ، فتطير بهزاد ، وخيل اليه أن القدر يخاطبه من

خلال صوت الأب المسكين ، فتقدم اليه ، وتفرس فيه لحظة ، وتولته رعدة لم يستطع كبحها
لمح شبها غريبا بين تقاطيع وجهه هو وبين سمات هذا الرجل . شبها أدهشه وأحنقه
وأثار فى فؤاده رعبا مازجته الشفقة . فغض من أبصاره ، وتحول ومضى فى طريقه متوكئا
على عصاه حاملا حديثه جارا همه ، يتنكب الشوارع الفسيحة ويود لو استطاع أن يطير
فيبلغ فى مثل لمح الطرف منزل ابنته

***

كانت « امسترس » مضطجعة على أريكتها فى قصرها العظيم ، وحولها جواريها ينادمنها
أو يرقصن الرقصات الشعبية المحببة اليها ، أو ينشدن لها بعض مقطعات من نظم الشاعر
« ارسيبيس » أو يسمعنها أغانى العشق والجوى

وكانت متبرمة متضجرة تتقلب على فراشها ، ونظراتها مصوبة الى جاريتها الصغيرة
« أتوسا » تلحظ ابتساماتها الناعسة الفاترة تترقرق فى سكون حالم على وجهها الجميل

ولم تشأ « أتوسا » فى ذلك اليوم أن تغنى ، لان سيدها رب الدار كان متغيبا ولان
امسترس كانت حزينة تفكر فيه ولا تدرى متى يعود

وكانت الشمس ترسل أشعتها من خلال قضبان النوافذ الحديدية ، وتلقى على وجوه
الجاريات بدرات من لؤلؤ يضاعف تألقها بريق أثوابهن الموشاة بخيوط من فضة وذهب

وكاد النوم يأخذ بمعاقد أجفان امسترس سأما وضجرا ، فعادت تطلب الى أتوسا أن
تغنى ، فاطرقت الفتاة مترددة ولكنها أذعنت آخر الامر على مضض ، فأمالت رأسها
واتكأت على الاريكة وأشارت الى زميلاتها ان يبدأن

وامتلأ جو القصر فجأة بنغمات المزمار واصطفاق الدفوف ورنين الصنوج ، وأنشدت
أتوسا والانغام تتدفق من فمها الصغير كسيل يجرف كل ما يعترضه :

الساعات تمر ثم تعود
وكذا الاعوام تمر ثم تعود
وشباب الزمن كالمطر يهطل علينا
ويحجب الحب الذى ان مر لا يعود!

فتأوهت امسترس وفاض الدمع من عينيها ، فكفت أتوسا عن الغناء ، وسكنت حركات
الجوارى ، وشاع الصمت فى القصر وزايلته الحياة

وبكت أتوسا لبكاء سيدتها ، فسرت امسترس لهذه المجاملة ، وانحنت وطوقت عنق
الفتاة وطبعت على خدها المورد قبلة

وتضجرت ربة القصر من الغناء ، فأومأت بأصبعها تدعو الجوارى الى الرقص ، فنهضن
لفورهن وأحطن بواحدة منهن شرعت ترقص وهن يرددن بعض حركاتها فى رشاقة
تزيدها أنغام الآلات فتنة واغراء

وفى تلك اللحظة فتح الباب وظهر بهزاد على عتبته ، فجمدت الابدان المتمايلة ثم انحنت

جميعا أمام الضيف ، ثم تقهقرت وانسابت وغابت ظلالها فى الابواب

وقبل أن يتقدم الشيخ ، خفت استرس لاستقباله ، وقبلت يده باحترام ، وأجلسته على الاريكة وتربعت هى أمامه على الارض فرحة بقدومه مبتهجة لزيارته . وتريثت كى يبدأ والدها الحديث ، ولكنه لم يتكلم ، فنظرت اليه وخفق قلبها

رأته شاحب اللون مكمد الوجه شارد اللب زائغ البصر ، فقالت وهى تحدق اليه :

ـ ما بك يا أبى ؟

فوضع عصاته بجواره ونضا عنه عباءته الخضراء ، وقال دون أن ينظر اليها :

ـ أتعلمين يا استرس الى أين ذهب زوجك ؟

فأجابت متجاهلة :

ـ قال لى انه على موعد من « أردشير » وانه قد يتغيب الليلة ثم يعود ظهر الغد

فضم بهزاد شفتيه ثم فتحهما وتنهد وقال وهو يضع يديه فى رفق على كتفى ابنته :

ـ وقد لا يعود الى هذه المدينة أبدا !..

فصرخت استرس فى رعب مصطنع : « ماذا تقول ؟! »

فتحامل بهزاد على نفسه ونهض عن الاريكة وجمع حوله أطراف ثوبه الفضفاض ، وتربع فوق وسادة على الارض بجوار ابنته وقال :

ـ ان اردشير هنا . فى مدينتنا . فى كرمان . وزوجك لم يذهب اليه . زوجك ليس هنا و..

فقاطعته كمن نفد صبرها :

ـ ولكن أين هو اذن ؟

فنكس بهزاد رأسه وأجاب : فى مدينة « هرمز » عند الملك ارتابان !

ففغرت المرأة فاها كبلهاء وتمتمت : « أسافر الى هرمز ؟ »

ثم أردفت بعد قليل وهى تشيح بوجهها :

ـ ولكن ألم ينضم زوجى الى الثوار ؟ ألم ينضم اليكم ؟ ألم يقسم يمين الطاعة لاردشير؟ فكيف يغادر الآن كرمان مركز الثورة ويلحق بالملك ارتابان فى هرمز ؟..

فابتسم الشيخ ابتسامة حزينة وأجاب :

ـ كان الملك ارتابان قد عين زوجك « باردس » رئيسا لبيت المال قبل ان تندلع الثورة فلما اضطرمت نارها وفر ارتابان الى مدينة هرمز واستقر فيها وتهيأ هناك للمقاومة والكفاح ، أرسل الى زوجك يعرض عليه منصب الوزير الاول ان هو كف عن تأييد اردشير ، واستطاع بالقوة أو بالحيلة ان يسرق تاج الملك ويحمله الى ارتابان فى هرمز

فتمتمت استرس ، كأن الدهشة قد عقدت لسانها : « وهل سرق التاج ؟ »

فصاح بهزاد وقد لمعت عيناه استنكارا وسخطا :

ـ وسرق أيضا ما هو أغلى من التاج !

فتطلعت اليه استرس وقالت وهى ترتجف : « ماذا ؟ »
فأجاب بهزاد لاهثا :
ـ سرق كتاب النور ، كتاب الحكمة الكبرى . كتاب ايران الخالد . كتاب زرادشت المقدس ، ينبوع ديننا ومهبط وحينا !
فصاحت استرس وهى تضرب وجهها بكفيها : « زوجى فعل هذا ؟ .. »
فاستطرد الشيخ :
ـ تعلمين أن الثوار عند ما هاجموا بقيادة اردشير قصر ارتابان استولوا على التاج وعلى الكتاب المقدس وسلموهما لاردشير الذى طلب الى زوجك ان يخفيهما عنده ويحرس عليهما حرصه على عينيه ، حتى تحين الساعة التى يقضى فيها بالموت على ارتابان فيؤول التاج والكتاب الى خليفته اردشير
فالتاج والكتاب عادا الآن فى قبضة عدونا . فاذا قدر لنا وزحفنا الى هرمز وقاتلنا ارتابان وانتصرنا عليه ، فقد لا نعثر على التاج والكتاب ، وعندئذ يتعذر علينا أن نستميل جماهير الشعب المؤمنة المحافظة ، وأن نقيم أردشير على العرش وننقذ البلاد من حكم البارتيين واستبدادهم
فقالت استرس :
ـ ولكن لا زوجى ولا ارتابان نفسه يجسر على اتلاف التاج أو الكتاب المقدس ، لعنة الله تحق عليه فى الحال ، فيشوه المرض وجهه ويموت جميع أولاده فى عام واحد
فقال بهزاد :
ـ أعرف ذلك . لن يجسر أحد منهما على اتلاف التاج أو الكتاب ، ولكن زوجك قد يخفيهما بأمر ارتابان ، فيؤخر نجاحنا ريثما يعود سيده فيجمع رجاله ويستأنف قتالا قد نخرج منه بالهزيمة والفشل
فارتسمت دلائل القلق والحيرة على وجه استرس ، وأسبلت أجفانها الطويلة كى لا ترى نظرة والدها وغمغمت : « والآن ؟ .. »
فنهض الشيخ ونصب قامته وقال وقد أضفت عليه حماسته حلة رائعة من شباب :
ـ ان أولئك البارتيين الذين تحكموا فينا قرونا طويلة،هم أرهاط من البرابرة انحدروا الينا من شمال غرب آسيا .. من الاورال .. وكانوا يحيون مع النمور حياة بدائية متوحشة . انهم قوم غلاظ الاكباد ، يمجدون القوة الغاشمة ، ويستبيحون حق الضعيف ، ويتهالكون على الملذات ، ويفاخرون بالقسوة .. لا أثر فيهم من خصائص عقلنا الايرانى المتحضر المتزن الذكى ، ولا من مميزات عبقريتنا الانسانية ، ولا من طابع خيالنا المتوقد ، ولا من صفاتنا الخلقية الدمثة الرقيقة الجامعة بين القوة والاعتدال وبين الشجاعة والتسامح .
فهم برابرة ونحن متحضرون ، هم نفايات قبائل همجية ونحن شعب مهذب الغرائز مصقول الطباع خالص الاهواء والميول من شوائب التطرف ، عريق فى حب الجمال والمدل

والحرية . ولقد ظلوا كل تلك القرون بمعزل عنا . لم يندمجوا فينا . لم يصبحوا منا . بل على النقيض أذلوا الشعب واستعبدوه وساموه شتى ضروب الخسف والهوان

ولقد شاءت العناية الالهية أن ينهض اليوم رجل من صميم ايران . ضابط ايرانى هو اردشير ابن ساسان ، محب لقومه ، مخلص لبلاده ، عامل بنبوغه وبأسه على تحرير شعبه من سيادة البارتيين ممثلة فى شخص الملك ارتابان . فواجبنا والحالة هذه أن نلتف حوله ، أن ننضوى تحت لوائه ، أن نذود عنه ، أن نساهم بعقولنا وقلوبنا ودمائنا فى الجهود الجبارة التى يبذلها كيما نصبح أمة خليقة بتحقيق ما يختلج فى صدور أبنائها من عظائم

وها هو ذا أردشير بعد أن أضرم نار الثورة فى كرمان ودحر الملك البارتى واضطره للفرار الى هرمز ، يوشك أن يزحف بجموعه صوب تلك المدينة كى يقضى على ارتابان ويستولى على العرش ويتم رسالته كى تبدأ رسالة ايران !..

فكيف نستطيع اذن وقد أصبح النصر على ملقى النظر منا ، أن نتهاون فى الضرب على أيدى المارقين ، وأن نغض الطرف عن جرم فظيع قد يزعزع صرح الحرية الذى شرعنا فى بنيانه على أنقاض حياتنا كأفراد زائلين ؟..

وأردف بهزاد صارخا :

ـ الا أن زوجك يا امسترس قد أجرم مرتين ، فهو خائن وسارق وهو وصمة وخطر ، وصمة عار لنا وخطر مروع على البلاد . ولقد جئت اليك يا ابنتى بعد أن استوثقت من جريمة زوجك ، بعد أن كشف عنها ليلة أمس الشاعر ارسيتيس وأنبأ بها الزعيم اردشير وذاع أمرها بين أعضاء المجلس الثورى كله .. لم أذق طعم النوم ليلة أمس . حاولت هذا الصباح أن أقتل همى فى فنى . أن أتناسى معرتى بضع ساعات ريثما تستيقظين . ولكنى لم أرسم شيئا . لم أخلق شيئا . لم أستطع ابداع شىء ، بل كدت أشوه ما أبدعت

ولقد خطر لى أن أؤدى الواجب بنفسى . أن أنصرف عنك . الا أصارحك بالحقيقة الا أعتمد فى شىء عليك . ولكنى فكرت . فكرت فى أنه زوجك ، وأنك صاحبة الحق عليه قبلى ، فجئت ، جئت لاراك ، لاتحدث اليك . لادرى هل انت يا امسترس خليقة بالانتساب الى أبيك والى هذه الارض الطاهرة التى حملتك !

فامتقع وجه المرأة وتمكن منها الذهول ، فبدت كأنها لم تفهم . ثم بسطت يديها فى ذل وابتئاس وقالت :

ـ وماذا تطلب الى أن أفعل ؟

فقطب بهزاد حاجبيه الكثيفين وأجاب :

ـ هو زوجك ومن واجبك أنت الاقتصاص منه ! لقد فر الى هرمز فعليك أن تلحقى به . اليوم . بل الساعة . وهناك ينبغى أن تتوسلى بدهائك وجمالك لمعرفة المكان الذى أخفى فيه باردس التاج والكتاب . ومتى تم لك ذلك اتصلى على الفور بالقائد سمردس واطلعيه على جلية الامر ، فهو من أنصارنا وهو عين اردشير فى بلاط ارتابان . ثم ..

فطلعت استرس الى أبيها وتشبثت به وقالت وهى ترتعد : « ثم ماذا ؟ . . »
فأجاب بصوت قاطع كسكين : « ثم اقتل المجرم دون رحمة ! »
فصاحت : « اقتل باردس ؟ . . بيدى ؟ . . »
فأجاب الشيخ فى هدوء : « أعتقد أن هذا هو واجبك ! »
فلبثت لحظة مشدوهة مندلعه العينين ، ثم انفجرت عواطفها فى صرخات متقطعة مهشمة مفزعه :
ـ لن أسافر . أبدا . لا استطيع . لن أقتل . أنا ؟ محال ! انه ليس زوجى فقط . انه حبيبى . انه عشيقى . انه كل شىء لى . لم أعرف رجلا سواه . لقد تزوجته وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى . أخذنى طفلة فربانى . كنت يتيمة الام فحبانى عطف الوالدة وحنانها . انه زوجى وأمى وأبى . لا أب لى سواه . وأما أنت فلو انك كنت حقا والدى لما جئت الى هنا تطلب الى أن أقضى بنفسى على نعمى . وفى سبيل أى شىء ؟ . . فى سبيل أوهام . . خيالات . . الوطن ؟ وطنى ؟ انى أحبه . ولكن ممثلا فى زوجى . وحيث يكون الحب هناك الوطن . ولو تشرد زوجى وهام على وجهه الى أقصى العالم فسأتبعه . نعم . سأسافر . ولكن لانقذه منكم . لاخرج به من ايران . وماذا يهمنى . أرض الله واسعة . أرض الله مأوى الجميع . وكل أرض تقبلنى هى وطنى ، وكل أرض تنبت الحب وطن !
وصمتت والشرر يقدح من عينيها ، فنظر اليها بهزاد نظرة ملؤها الأسف المر وقال :
ـ هذا عزمك ؟
فأجابت :
« ـ سأسافر الليلة ، بعد مغرب الشمس . واذا أنبأتهم بشىء ، اذا جد رجالكم فى طلبى اذا وقعت فى أيديهم ، فاعلم أنك لن ترانى الا جثة هامدة . فانبئهم بعزمى ان شئت . . اقتل ابنتك ان شئت . . هذا ما سيجلبه عليك اخلاصك الاعمى لاردشير !
فأحنى بهزاد رأسه وارتسمت على وجهه ابتسامة لم تلمح استرس مقدار الحسرة التى شاعت فيها ، ولا مقدار العزة التى فاضت منها ، ولا مبلغ العزم اليائس الذى سرعان ما نكرها وأحالها الى ضحكة باردة غريبة أزعجت المرأة وأدهشتها
وتقلصت الضحكة على شفتى بهزاد وارتدت ابتسامة ، ولكن ملؤها الاقتناع والتسليم . فعجبت له استرس ، كيف لم يغضب . . وكيف لم يسخط . . وكيف لم يثر . وقالت :
ـ أظنك بدأت تراجع نفسك وتقدر استحالة ما تطلبه منى ؟
ففرك الشيخ كفيه وأمال رأسه مفكرا ، وأجاب :
ـ يلوح لى أنى كنت مخطئا
فهتفت : « أليس كذلك ؟ »
فقال مؤمنا على كلامها :

ـ كان يجب أن أدع المجلس الثورى نفسه يقضى فى هذا الامر ، فمرجع المسائل السياسية اليه لا الينا

فهزت كتفيها غير حافلة وقالت :

ـ دع المجلس يقرر ما يشاء . ما أنت الا عضو فيه . وكان خيرا لك ألا تدخله أبدا . أنت فنان . أنت رجل خيال وعاطفة وشعر ، فمالك وللسياسة التى تلتهم جزءا ثمينا من فكرك ووقتك ، كان أحق به فنك العظيم الباقى

فقال وهو مطرق : « الحق معك »

وأشاح بوجهه ، فتمنت لو استطاعت أن ترى لمعة عينيه . وهجس فى فؤادها أنه غير صادق وأنه يخدعها . واستشعر منها بهزاد هذا الاحساس ، فصوب اليها بصره ، وقاوم فى شجاعة نظراتها الحادة ، وظل هادئا ثابتا مستسلما حتى أجبرها على أن تغض أبصارها وترى فيه الشخصية الجديدة التى أراد أن يتقمصها

وأثر فيها جموده واستخفافه ، وأوشكت أن تعتقد أنه انما جاء لا ليستعديها على زوجها، بل ليمتحن حبها له

واختلطت أمامها الصور ، وتضاربت فى ذهنها الافكار ولم تفهم . بل لقد أسأمها أن والدها قد أيقظ عقلها من سباته ، واضطرها الى التفكير ، وأجهدها ، فسايرته مرتاحة ، وأمنت بدورها على لهجته المستسلمة ، واقتنعت بأنها أقنعته ، ولم تعلق أية أهمية على السرعة التى نزل بها عن مطالبه

واحتضنته بغتة ، وقالت وهى تلاطف وجهه بأناملها :

ـ لا تذهب الى المجلس الآن .. ابق هنا .. امكث معى .. بجوارى .. سأعد معدات السفر وسأرحل الليلة .. ومتى غادرت كرمان وسألوك عنى ، تنصل ، اصطنع الدهشة . قل لهم انك لم ترنى وانك تجهل كل شىء عنى . .

فرماها بنظرة فاحصة وقال : « أوعزمت على السفر حقا ؟ »

فأجابت فى حزم :

ـ هذه الليلة . وسأصحب معى جاريتى الصغيرة اتوسا

فلم يعترض . ولكنه عاد فنصب قامته ولاحت على وجهه مخايل العزة ، وقال بلهجة الرجل الحريص على استقلاله الذى لا يحتمل أيسر اعتداء على حريته :

ـ لن أستطيع البقاء معك الآن يا أمسترس . أشعر بحاجة لاستئناف عملى الفنى . ومتى استبد بى هذا الشعور فلا شىء يمكن أن يثنينى عن ارواله . تلك نزعة فى أقوى من ارادتى . فدعينى أذهب وانطلقى أنت الى زوجك وليحرسك الله

وأدنى رأسها من شفتيه وقبلها فى جبينها قبلة أبوية خالصة ، ثم تلفع بعباءته الخضراء وتناول عصاه التى يتوكأ عليها ، ثم توقف لحظة والتفت وألقى على ابنته نظرة ، ثم اتجه

صوب الباب منكس الهامة مقوس الظهر ، لا تأخذ منه العين غير قدمين هزيلتين تحملان كومة من عظام

***

ولم يكد بهزاد يغادر قصر ابنه ويرى الشارع والشمس الضاحكة وجمهور السابلة يروح ويغدو ، حتى تنفس ملء رئتيه وتحسس موضع الجيب من قميصه ، وأخرج ورقة زرقاء مطوية لفها فى منديله وعقده عليها ، ثم دس المنديل فى جيب آخر بعيد الغور ، وتمنطق عليه بحزامه الاحمر ، ويمم وجهه شطر الحانة التى يختلف اليها أصدقاؤه ومريدوه .

وسار مشتعل العينين وئيد الخطى يلفح النسيم لحيته الطويلة البيضاء ، وترفرف حوله أطراف عباءته الخضراء الزاهية ، فتكسبه مظهرا رائعا خلابا يجمع بين الوقار والسحر ، ويلفت اليه الانظار

وعرفه الناس كالعادة ، فكانوا يتهامسون ويفسحون له الطريق . واستوقفه بعض النسوة وقبلن يديه ومرغن وجوه أطفالهن فى ثنايا عباءته . والتقى به نفر من الكهنة ، فانحنوا أمامه حتى الارض كأنه رب من الارباب . وشاهده جمع من شباب الوطنيين ، فلوحوا امامه بأذرعهم وحيوه هاتفين

أما هو فكان مشغولا عن الجماهير بنفسه . كان مستغرقا فى التأمل والتفكير ، كان يسير وركبتاه لا تقويان على حمله . كان ينظر فى بعض الاحيان الى هؤلاء الناس نظرة حب وشفقة وأسف عميق مشوب بالقلق والخوف . وكان يخاطب نفسه ويناجي ربه قائلا :

– يا « اهورا مازداو »[1] الكلى الحكمة . يا « اورمازد » العظيم فاطر السماوات والارض . أنت يا من خلقت العالم وأودعت فيه روحين يتطاحنان أبدا : روح الحياة والخصب والسعادة وروح الموت والدمار والشقاء . أنت يا من جعلت نور الشمس رمزا لضياء الروح وجمال الخير ، وظلمة الليل رمزا لسواد النفس وقبح الشر . أنت يا من أشفقت علينا فبثثت حولنا من فيض نعمتك قديسين وآلهة يرشدوننا اليك ويتلون بيننا فضائلك . أنت يا مبدع الاله « ميترا » واسطة العقد بينك وبين الناس . ويا خالق « اتار » اله النار المحيية ، ويا فاطر « اناهيتا » الربة القادرة على اقصاء الموت ، أنت أيها الكلى الحكمة ، قونى واشدد أزرى وخذ بيد شيخوختى وضعفى وهبنى من لدنك شجاعة الاصفياء الخالدين كى أقهر الشر فى نفسى وأسحق أرواح الاثم والرذيلة وأصرع شياطين الظلام ولا سيما « ناسو » أخبثهم وأمكرهم وأشدهم قدرة على الاغراء .. هبنى قوة احتمال الالم . اجعلنى صالحا فى أفكارى ، صالحا فى أقوالى ، صالحا فى أعمالى .. اجمع حوالى قديسيك وآلهتك فأنا أحوج ما أكون اليهم فى هذا اليوم الرهيب . قونى . أناشدك حبك العميق لبنى الانسان أن تهبنى مرة أخرى قوة احتمال الألم ، كى أصبح جديرا

(١) هو الرب الاعلى فى مذهب زرادشت الذى كان يدين به الفرس فى ذلك العصر

بالتطلع اليك ، خليقا بالاقتداء بك ، مستحقا بعد موتى الخلود فى فردوسك ، فى «جارودمانا» هيكل الالحان !.. لا تصرف بوجهك عنى ، لا تحبب الى الضعف لئلا أحب نفسى وأنكر الفضيلة فتلقف الزبانية روحى فى جهنم «موطن الكذب» حيث أحرم منك وتغشى الظلمة قلبى فلا أستطيع أن أراك !..

وتنبه بهزاد فجأة فاذا به أمام نفس البيت الذى فقد صاحبه ابنته وشيعها اليوم الى مقرها الاخير ، فانقبض قلبه وحث الخطى ، ثم عاد يناجى ربه ونفسه ويقول :

ـ أنت يا « اورمازد » لن تتخلى عنى . وكما تسرع لنجدتى وتقف خلفى وقد عقل وأصابعى بسيل من روحك عند ما أنكب على عملى الفنى ، كذلك ساراك وستكون معى عند ما أقدم الآن على التضحية بنفسى . قد أموت ، ولكننى لا أريد أن أموت يا «اورمازد» قبل أن أؤدى واجبى !.. اما أنا واما ابنتى !.. ولقد آثرت استرس الحب على الواجب فينبغى أن أوثر أنا الواجب على كل شىء ! أنا متأهب .. ولقد أعددت عدتى وحسبت حساب ما وقع .. يجب أن أعرف أين أخفى باردس زوج ابنتى كتاب نبيك «زرادشت» وتاج ايران أحب جوهرة فى الدنيا اليك .. ويجب أن أقتل باردس لانه سارق ومارق ومجرم فى حقك وحق الوطن .. هذه ارادة اردشير . ولقد خيرنى بين أن أنفذ العدل بنفسى ، أو أكل المهمة الى ابنتى . فاما وقد رفضت فينبغى أن أتقدم أنا .. أنا الانسان الوحيد الذى فى مقدوره أن يوحى الثقة الى باردس ويغرر به ويخدعه وينتزع منه سر المكان الذى أخفى فيه التاج والكتاب .. نعم . سأكذب .. سأخدع .. ستكون هذه أول مرة فى حياتى أتقمص فيها شخصية غير شخصيتى ، وأتخذ لسانا غير لسانى وقلبا غريبا عن قلبى . فهبنى يا الهى القوة على احتمال الألم وارحمنى لانك عليم بذات نفسى . لا تهلكنى .. لا تتخل عنى .. لانك لو تركتنى فقد أموت وان كان اردشير قد وعد بأن يأمر رجاله بالسهر على حياتى .. لا .. اشعر بأنك معى ، وسأمضى فى طريق العذاب حتى آخره !

ومضى لا يلوى على شىء وقد تشددت عزيمته ، وتصلبت اعضاؤه ، وسرت فى بدنه الواهن ارادة لا تقاوم

ولما بلغ الخان ، استقبله أصدقاؤه بالهتاف والتهليل ، وأحاطوه بشتى ضروب التجلة والاكرام ، وأجلسوه فى صدر المكان ، وتباروا فى أيهم يحظى بلثم يديه أو بسط الطنافس تحت قدميه أو خلع عباءته أو حمل عصاه أو امتاعه بكأس من عصير العنب الخالص الذى لم يكن يقدم سواه فى تلك الحانة المشهور صاحبها وروادها بكراهية الخمر والعزوف عنها

وجلس بهزاد صامتا وجعل ينقل الطرف فى الحاضرين حتى وقعت عيناه على الفتى القصير القامة الاسود العينين الذى كان يبحث عنه ، فصعد نفسا مستطيلا ثم أومأ اليه ايماءة معنوية ، فقام الفتى من فوره وتسلل الى الخارج دون أن يشعر به أحد

وانقضت فترات طويلة فى التحدث عن الثورة ومستقبل البلاد ومبلغ القوى التى أعدها

الملك ارتابان فى هرمز وموعد زحف اردشير الى تلك المدينة ، ونظام جيش الثورة وعدد رجاله وقيمة أسلحتهم . وكان بهزاد يجيب عن الأسئلة التى توجه اليه بعبارات مقتضبة تنتهى دائما بهذه الجملة :

– الزحف مستحيل قبل أن يستولى رجالنا على التاج والكتاب

وكان فى الآونة بعد الاخرى يتنفس بضجر ويهز كتفيه كالمستخف اليائس ويتمتم :

– ارتابان رجل ذكى .. رجل قوى ..

فيصمت أصدقاؤه ويتلفتون الى بعضهم البعض ثم يحدقون اليه مبهوتين ، غير انه كان بالرغم من ذلك لا يلبث ان يستأنف الحديث فى موضوع آخر حتى يعود الى الكلام عن الملك ارتابان بشىء من الاعجاب الخفى المستور وبلهجة غامضة جديدة لا عهد لاحد بها

وهكذا شعر الجميع أن شيئا فى بهزاد قد تغير ولكن أحدا منهم لم يرتب فى عواطفه ولم يشك فى اخلاصه لانه كان حتى تلك اللحظة فوق جميع الريب والشبهات

ولما عاد الفتى الاسود الشعر ، القصير القامة ، وتبادل وبهزاد نفس النظرة المعنوية ، ثم انصرف للمرة الثانية مسرعا كأن عليه واجبا مستعجلا يجب أن يؤديه . أعرب الشيخ لرفاقه عن رغبته فى الرياضة ، فخرج الجميع من الحانة، وبدل أن يسلكوا طريق الضواحى أشار عليهم بهزاد بالاتجاه صوب الطريق العام

وكانت الشمس ملتهبة ، والحر شديدا ، وفى السماء بعض السحب الضالة المشردة ، فتاقلت خطوات بهزاد وجعل يتأمل جمال السحب وترامت أبصاره الى الأفق البعيد ، فلمح طائرا يتسنم غارب ربوة عالية ثم يحلق فى الأفق صعدا ويختفى ، فعرته هزة كبرياء وضم قبضته على عصاه، وأحس أن قوة خارقة قد استقرت فى نفسه ، فتوقف عن السير وتفرس فيمن حوله

وفجأة برقت عيناه وصاح محتدا كمن أطال التفكير فى أمر ، ثم اهتدى الى حقيقته :

– كلا .. ان الظلم أحب الى من الفوضى وليس شك فى أن ارتابان يظلم الشعب ، ولكنه على الأقل يعرف كيف يحكم ويقر النظام فى المملكة . أما اردشير فحديث العهد بالحكم ، ولو ألقيت اليه غدا مقاليد السلطة فسوف يضطرب ولا ريب حبل الا من فى البلاد وتعم الفوضى ..

فنظر اليه أصدقاؤه مصعوقين . ولكنه استطرد :

– لقد فكرت طويلا وانتهيت الى نتيجة اطمأن اليها ضميرى . يجب أن يحل المجلس الثورى ويجب أن نعدل عن فكرة مواصلة القتال . ان ارتابان قوى وسوف يقهرنا . والحكمة أن نستدرجه للتفاهم مع زعمائنا الآن لا أن نقاتله فنستهدف لخطر الهزيمة وتعرض لانتقام الشعب

فظل أصدقاء بهزاد يتطلعون اليه وهم فى شك مما يسمعون ، لا يصدقون آذانهم ولا يصدقون عيونهم ولا يستطيعون أن يتصوروا أن الرجل الذى يذم الآن معتقداتهم بمثل

هذا الكلام هو نفس الرجل الذى كان علما عليها بالامس ، يذود عنها بقلبه ولسانه ويبذل فى سبيل تحقيقها كل مرتخص وغال

وخيل لبعضهم أن الخرف قد خالط عقل الشيخ . واعتقد البعض الآخر انه قد جن . ولكن بهزاد استأنف حديثه فى منطق محكم وأسلوب بليغ أقنع الجميع أنه يتكلم عن وعى لا عن جنون . فقطبت جباههم وشحبت وجوههم وارتسمت عليها علائم الصرامة التى سرعان ما شابها الاستنكار والحنق والسخط

ولما ألفوه يمعن فى تجريح أردشير ، ويسرف فى الثناء على أرتابان ، ويوغل فى الدعوة الى الهزيمة ، انطلقوا يصيحون فى وجهه ويخطئونه ويعاملونه معاملة الند ، ويحاسبونه على كل فكرة وكل كلمة وكل اشارة

واحتدم نقاشهم وتعالت صيحاتهم وغص الطريق بالناس ، فلم يحفل بهزاد ولم يتطرق الى نفسه الخور ، بل كان على النقيض ، ثابتا راسخا يرد على هذا ويحاول أن يفحم ذاك ويجبه الجميع ويتحداهم فى صلابة غريبة واصرار عجيب

وزاد عناده سخطهم ، وتطور السخط الى حقد ، واستحال الحقد فى صدورهم الى رغبة فى المعاقبة والتنكيل . فأسرع واحد منهم واختطف مقعدا من أحد الحوانيت واعتلاه وصاح بالجمهور :

ـ ان بهزاد يسب أردشير .. بهزاد يطلب عقد الصلح مع أرتابان .. بهزاد يدعو الى الهزيمة .. عاقبوا الخائن !.. اقتصوا من المجرم !..

وهبط الرجل الى الارض واندس بين الجماهير ، فاضطربت وتمايلت واصطفقت كموج البحر ، واندفعت نحو بهزاد

وأحس الشيخ كأن نطاقا من حديد ضرب حوله ، وكأن أسوارا من الاجسام الآدمية قامت بغتة فى وجهه ، وكأن الف ذراع توشك أن تنقض عليه وتمزقه تمزيقا ، فحجب رأسه بيده اليسرى ، وهز بالاخرى عصاه بالرغم منه فظن البعض أنه يهم بالدفاع عن نفسه فاستنكروا هذه الاشارة ، واشتد سخطهم فجرده أحدهم من العصا ولوح بها فوق رأسه ثم انهال بها ضربا عليه

وفى تلك اللحظة أقبل الشرطة الذين تلقوا الامر من أردشير وشرعوا يفرقون الناس ويقصونهم عن الشيخ ويفسحون له الطريق ، ولكن الجموع كانت قد أصابها شبه سعر فتملصت من الشرطة وغافلتهم ، وتدفقت على بهزاد فى صفين متراصين يحاولان الاطباق عليه

وتقدم الشيخ فى طريق العذاب ، مشعث الشعر ، جاحظ العينين ، ممزق الثياب ، ينزف من رأسه الدم . فبدأوا يضحكون لمنظره ، ويقهقهون لهيئته ، ويسخرون من شيبه ويتهددونه بالرجم ، ويتوعدونه باحراق داره والقاء صوره ورسومه طعمة للنار

ولما سار أيضا بضع خطوات بصقوا فى وجهه وسبوه فى عرضه ، وألقوا عليه حفنات من تراب

ولما أبصروه ذاهلا ، مذعورا ، يتلفت كالحيوان المطارد حانا خطاه فى طلب النجاة ، عز عليهم أن يفلت منهم فاشتد عجيجهم ، واقتحموا الحاجز الذى أقامه الشرطة ، وجذبوا بهزاد من أطراف عباءته ، وضربوه بقبضاتهم وركلوه بأرجلهم فترنح الشيخ وتهاوى وانهار على الارض

وعندئذ التحم رجال الشرطة بالشعب ، فثارت ثائرة الجماهير ، وطغى عليها شبه جنون وأبت الا أن تقتل بهزاد ، فشرعت تجمع الحجارة من الشارع وتقذف بها رجال الشرطة وتصوبها على الشيخ الصريع

واختلط الحابل بالنابل ، وكادت جموع الشعب تفتك بالشرطة وبهزاد ، ولكن فرقة من الفرسان أقبلت فجأة ، وشقت زحمة الجماهير وشطرتها أجزاء ، وبعثرتها فدب الرعب فى قلوب الناس ، وتفرقوا حانقين متوعدين

وفى تلك اللحظة ، وقبل أن تجلو الجماهير عن الشارع ، ويرتد اليه النظام ، شوهدت أمسترس محلولة الشعر زائغة العينين ، تعدو كممتوهة وتخترق نطاق الجند ، وتلقى بنفسها على أبيها الذى كان أشبه بجثة فارقتها الحياة

***

فتح بهزاد عينيه ، فأبصر نفسه فى مخدع ابنته مسجى على فراشها ، وهى واقفة بجواره ترنو اليه بنظرة تفيض حبا وشفقة ، وبالقرب منها جاريتها الصغيرة أنوسا تدثره بالاغطية وتبتسم له

وتذكر ما وقع وتمثلت له أشباح أصدقائه والوجوه المتشنجة الحانقة التى أبغضته والأفواه الملتوية القاسية التى لعنته ، والشاب الذى اجترأ وضربه ، ورجال الشرطة والنساء والغلمان والشيوخ ، وكل ذلك الجمهور الصاخب المختبل ، فسرت فى بدنه قشعريرة باردة وخيل اليه أن جموع الساخطين المستنكرين تزحف اليه ، وتضيق عليه الخناق ، وتوشك أن تفترسه ، فأرسل صيحة رعب وجزع ، ثم لمح وجه ابنته واستقرت عينه على ابتسامة أنوسا الرقيقة الناضرة ، فتنفس وهدأ وترقرقت من عينيه الدموع

ولما شاهدته أمسترس يبكى ، أحست كأن فؤادها يذوب حزنا عليه ، فجلست على الفراش بجواره ، وأسندت رأسه الى ذراعها وطفقت تهدهده وتناغيه وتطيب خاطره ، كأنها أم وكأنه طفلها

وروعه هذا التدليل ، وخشى أن يكون قد أصيب اصابات بالغة ، يقتضى الشفاء منها وقتا طويلا ، فتحسس أعضاءه ثم لمس رأسه المعصوب ، ثم استجمع قواه واستوى على الفراش ، فألفى نفسه سليما الا من تعب شديد ما زال يرهقه

وكان من عادته أن يقاوم التعب بالحركة فحاول التخلص من أسترس ، وترك الفراش فتشبثت به وهي تصرخ ، ولكنه أقصاها عنه في رفق ونهض ، وجعل يروح في الغرفة ويغدو شادا أعضاءه مروضا عضلاته ، مكافحا ضعفه ، مطمئنا الى أن عين الله الساهرة لم تصرف عنه ، والى أنه لم يزل حتى الساعة على قيد الحياة

وتذكر الورقة المطوية الزرقاء ، فاضطرب وتحسس جيبه الكبير ، فألفاها قابعة في غوره ، فأضاء وجهه ، وزايلت تقاطيعه مسحة الخور والألم

وكانت أسترس تنظر اليه مشفقة عليه ، معجبة بحيويته ، أما أتوسا فقد صفقت فرحا بسلامته ، وأسرعت تنقل النبأ السار الى الجوارى والخدم

ولما تربع بهزاد على احدى الوسائد الملقاة على الارض ، ارتمت استرس على أخرى بجواره ، واحتضنته بذراعيها وقالت وهي تحدق فيه :

ـ أدركت الآن مبلغ حبك لى .. حبك العظيم لابنتك الوحيدة .. لقد أنكرت نفسك ومعتقداتك واستهدفت لخطر الموت من أجلى .. لم تشأ أن تكون في جانب ، وابنتك وزوجها في جانب آخر .. لم تشأ أن تكون الا حيث تكون ابنتك وقرينها .. لم تشأ البقاء عضوا في المجلس الثورى الذى قد يحكم غدا على ابنتك وزوجها .. هذه تضحية منك أعلم مبلغ ما أورثته لك من أسى وعذاب

فنظر اليها نظرته المملوءة بالاسف وعجب لها ، كيف تكون امرأة وتكون جميلة ثم لا تكون ذكية . وأدرك أن حبها لقرينها هو الذى أعماها ، وألقى في روعها أن تضحية والدها ، انما كانت في سبيلها هي ..

وقبل أن يهم بالكلام عاجلته بقولها :

ـ ولكنك أردت شيئا وأورمازد الكلى الحكمة أراد شيئا آخر ..

فتفرس فيها مندهشا ولم يفهم . فاستطردت :

ـ بالامس عند ما حملتك الى هنا أصابنى نفس ما أصابك . لحقت بى الجماهير .. بصقوا في وجهى .. ركلونى بأقدامهم .. مزقوا ثوبى .. كان الرجال يصيحون : هذه ابنة الخائن ! وكانت النساء تجأر : اقتلوا البغى عشيقة ارتابان !.. وهنا .. هنا في بيتى أبصرت الوجوه تشيح عنى .. لمحت أثر الاحتقار في عيون عبيدى .. رأيت ابتسامة الزراية تلمع على شفاه جوارى .. الكل اعتقدوا أنى أغريتك بالتمرد على أردشير لانى بعت نفسى لارتابان !.. وحتى أتوسا ، أتوسا التى لم تتغير والتى كانت برغم الجميع تؤمن بى وتثق بعفتى ، كنت أحس ان اسرافها في الثقة والاخلاص دليل منكر على أنها تشفق على وتبذل قصاراها في أن تنفر لى زلتى !.. أجل .. أصبحت في نظر الجميع بغيا استخدمها زوجها لاطماعه ، واستخدمت هي والدها لتحقيق تلك الاطماع !.. ما شعرت أبدا بمثل ما شعرت به أمس ! أنا الزوجة الوفية ، استباحوا تمزيق عرضى ، ومرغوا سمعتى في الاوحال .. وسمونى بميسم الخزى الابدى .. لوثونى بالعار ، عار الزنا وعار المروق .

ولقد أحسست ، نعم يا والدى ، خامرنى احساس طارىء مستحوذ عنيف ، أنى أحببت زوجي أكثر مما يجب ، وأنى أطعته أكثر مما يجب ، وأن هناك أشياء أثمن منه ، كان ينبغى أن أفضلها عليه وأدفعه بحبى الى الحرص عليها !.. شعرت بكل هذا وبما هو أفظع منه .. شعرت بأن حبى قادنى الى الهاوية ، فتحرك فى نفسى عامل غريب ، عامل بهت له وجزعت ، عامل النفور من زوجي .. بل عامل الكراهية له والحقد عليه ..

أجل . لقد استفاق ضميرى ولمست أمس مبلغ الاذى الذى أحدثه حبى وأطماع زوجي لنفسى وبلادى ، فكرهت نفسى وكرهت زوجي ولما بصرت بك أنت أيضا تنتقض وتتمرد وتخون من أجلى .. من أجل سعادتى .. اسودت الدنيا فى عينى وكرهت أن تكون أنت أبى !..

وكان ينعم النظر فيها وهى تتكلم موجسا خيفة منها ، مرتابا فى أن تكون قد نصبت له شركا تحاول ايقاعه فيه

وبعد أن كان يظنها امرأة ساذجة بسيطة ناقصة الذكاء ، بات يعتقد أنها داهية تصطنع العواطف التى تروقه وتمثل أمامه دورا وتستدرجه بانقلابها الفجائى ، كى تستبطن دخيلة نفسه وتقف على حقيقة سره خدمة لزوجها وانقاذا له مما يراد به . فازداد استمساكا بموقفه واصرارا على عزمه وقال :

ـ اذا كنت يا أمسترس قد تغيرت فأنا أيضا قد تغيرت .. واذا كنت قد أصبحت تحت تأثير كرامتك المنتهكة مخلصة لاردشير ، فأنا أصبحت تحت تأثير العقل والحكمة والحرص على مصلحة البلاد مخلصا للملك ارتابان ..

فرشقته بنظرة حادة وقالت : « أيتم هذه السرعة يتبدل رجل مثلك ؟ »

فأجاب :

ـ قد تكون سرعة التقدير دليلا على صدق الايمان . ولو لم أكن صادقا فى معتقدى الجديد لما تحديت الجماهير وعرضت نفسى لخطر الموت ..

فضمت أمسترس أهدابها وقالت :

ـ اذن فأنت تؤمن حقا بأن من مصلحة البلاد أن يفوز أرتابان ؟

فأجاب وهو ثابت جامد : « هذا هو الآن رأيى »

فصاحت وقد لمعت عيناها الخضراوان :

ـ كيف تنسى ما قلته بالامس ؟ لقد كنت تتقد وطنية وتلتهب حماسة وتشتعل غيرة فى الدفاع عن أردشير وتدعونى الى الاخذ برأيك والسير معك . فأين ذهب اخلاصك لوطنك ؟ أين ذهب وفاؤك لاسرة ساسان ؟ أين ذهبت أحلامك فى تحرير بلادك من حكم الطاغية الدخيل ؟.. الا أن العجب ليستحوذ على وأكاد اتهمك اما بالخداع واما بالجنون ! أتأتى الى بالامس موقدا فى نفسى شعلة الوطنية ، مضرما فى قلبى هوى الحرية ، مستثيرا كيانى ضد الجور والظلم ، موغرا صدرى حقدا على قرينى ، فلما استشعر نبل آرائك وأتق

بصدق وطنيتك وأصبح فى صفك ، ثأتى اليوم فتنقض أقوالك ، وتنكر تعاليمك ، وتذهب فى المروق الى أبعد مما كان قد ذهب فيه خصومك ؟ .. كلا يا والدى .. لا أستطيع أن أصدق .. لا أستطيع أن أتصور .. لقد كنت بالامس أتمنى امرأة عند ما كنا خصمين فلا تبتعد اليوم عنى .. لا تنفصل عن ابنتك .. ردها اليك ورد حلمك القديم الى نفسك. أنت أردت أن تشرك ابنتك فى تأدية واجب عظيم ، وها هى أمامك ، ها هى عند ظنك بها ، ها هى لا تتردد فى قطع رباط الحب ، لا تتردد فى تضحية زوجها ، والسير معك !

فنهض بهزاد وقال وقد تقبضت عضلات وجهه :

ــ لن تؤثر فى أقوالك . أنت وشأنك فيما أصبحت تعتقدين . أما أنا فراحل .. يجب أن أغادر هذه المدينة .. يجب أن ألبى نداء ما بت أعتقد أنه الواجب فألحق بالملك أرتابان

وخطا خطوة نحو الباب فوثبت اليه وقطعت عليه الطريق وصاحت : « لن تخرج ! »

ثم تقدمت اليه واردفت وصوتها يدوى :

ــ لن أدعك تخدم أعداء بلادك . لن أدع أرتابان يفيد من ذكائك ورجاحة عقلك . لن أجلب على عارا فوق عار . لن أفقد والدى بعد أن فقدت زوجى ، لن أطعن فى كرامتى مرتين . سأنقذك من نفسك وأنقذ وطنى من زوجى ومنك

ودفعته الى الوراء فى حزم مترفق ثم قالت :

ــ ستظل هنا !.. لن تخرج من هنا !.. لن تسافر !..

ثم ضحكت ضحكة وحشية وأردفت :

ــ أنت أسيرى ومكانك أصبح هنا !

وكان بهزاد ينظر اليها حائرا مشدوها . كانت عينه تجاهد لتأخذ منها ، ولو لمحة عابرة تنم عن الدهاء ونية الغدر . كان يتفحص وجهها ، ويتفرس فى عينيها ، ويرصد حركاتها، ويزن كلماتها ، ويقيس على نغم الصراحة والصدق رنين صوتها . ولم يسعه الا أن يسلم بأنها صادقة ، فأراد أن يقسو عليها ويمتحنها للمرة الاخيرة فقال فى سكون :

ــ اريد أن أخرج . طريقا يا أمسترس ودعينى أنقذ حياة زوجك !

فصرخت :

ــ حياته وموته فى يدى لا فى يدك أنت . ولقد عزمت أن أقضى عليه كى لا يقال انى قد بعت عرشى لاحقق مطامعه ، وأخون وطنى .. كبريائى أصبحت أقوى من حبى .. احساسى العميق بالعار قتل الحب والرحمة فى نفسى .. لن يعيش باردس وهذا أجدر به وبى . ولو انتصر فسيؤكد انتصاره عارى . لا . لن يقال ان زوجى اشترى مجده بأن ألقى بامرأته بين ذراعى أرتابان .. لن أقوى على الحياة معه ، وهذه الوصمة فى جبينى . أولى بى أن أضحيه انقاذا لبلادى من العبودية ، وانقاذا له نفسه من حياة العار

وكانت أمسترس فى حماستها الصادقة وفى ثورتها لكرامتها المنتهكة رائعة الفتنة والجمال كانت القوة المنبعثة منها والارادة المتأججة فيها ، والعبارات المتدفقة من شفتيها كسيل

من نار ، تحدث ضربا من التناقض الساحر بين نفسها المتزنة الشامخة ، وبين جسمها الرقيق الضئيل . وكانت بقامتها القصيرة ووجهها البيضاوى الصغير وأنفها الدقيق وفمها الشبيه بحبة عنب شهية ، تبدو فى نظر والدها صورة حية نابضة لعذراء من عذارى الطاهرات اللواتى افتن فى رسمهن على لوحته يذكين حمية الرجال ، ويقاتلن مع الفرسان والابطال ، فى سبيل مجد بلادهن ، فامتلأ صدره خيلاء وزهوا ، وعقل لسانه فرط الاعجاب بابنته ، فلبث ينظر اليها مبهوتا قرير القلب ناعم البال ، شاعرا بالسعادة المطلقة الكبرى ، سعادة الوالد الذى يرى نفسه ممثلا فى ولده أصدق تمثيل وأبلغه

ولما فاض به الاعجاب والفخر ، اعجاب الفنان بالصورة الجميلة وفخر الاب بابنته الخليقة به ، تحرك وهم بالكلام ، هم بكشف الستار عن حقيقة موقفه ، ولكن أمسترس استطردت فى نشوة اندفاعها :

ـ أنا لا أحتجزك هنا يا أبى لانى أخشى أن يعجل سفرك الى هرمز انتصار أرتابان ، أو نجاة زوجى . كلا . انما أمنعك من السفر لانى لا أريد أن تثبت عليك الخيانة نهائيا على زوجى ، يكفيك ما ألحقته بنفسك من عار سأتكلف أشق الجهود لاطهرك منه فى نظر الشعب ، أجل . انى أحول بينك وبين الرحيل الى هرمز انقاذا للبقية الباقية من سمعتك وكرامتى ، أما أن تعتقد أن وجودك هناك قد يخدم قضية أرتابان وقد يؤدى الى نجاة زوجى . فهذا منك وهم ، هذا فى حكم المحال ، لان النصر أصبح لنا . أتسمع ؟ الشعلة فى أيدينا .. بل فى يدى أنا !..

وجذبته من ذراعه وصاحت : « تعال .. تعال أنظر .. »

واتجهت صوب خزانة قائمة فى احدى زوايا مخدعها وفتحت بابها ورددت : « أنظر .. »

فحملق بهزاد فى جوف الخزانة وصعق ، ثم تلألأت عيناه فرحا جنونيا ، وسقط جاثيا على ركبتيه ، اذ أبصر التاج والكتاب المقدس !..

وكانت أمسترس واقفة تتأمله وتبتسم وقد انصبت من النافذة أشعة الشمس فسطعت جواهر التاج وتوهجت وأرسلت أضواءها المنعكسة على محيا بهزاد

وقالت أمسترس وهى توصد خزانتها على كنزها :

ـ هذا هو المكان الذى أخفى فيه باردس تاج الملك وكتاب الدين . أخفاهما عندى .. فى مخدعى .. ائتمننى عليهما ليقينه أن كائنا من كان لن يستطيع دخول مخدعى ، ولن يفطن الى وجود هذا الكنز فى حرم امرأة .. ولقد أبقى التاج والكتاب هنا ، فى كرمان ، ثقة منه بالعودة اليها ظافرا حيث يتوج أرتابان مرة أخرى فى نفس المدينة التى تعد مركز الثورة ومعقل أردشير ..

وصمتت لحظة وهى تلهث ثم أردفت شامخة متحدية :

ـ ماذا يمكنك أن تفعل الآن ؟ الشعلة فى أيدينا .. القوة الروحية أصبحت لنا .. لاردشير .. وسوف يعرف كيف يستنهض بها الهمم ويشحذ العزائم ويبدأ فى ظلها

الزحف المنتظر على جيوش أرتابان

وسكن جأشها ثم دنت من والدها وقالت مشيرة الى الخارج :

ـ انصرف اذا شئت .. ارحل الى هرمز .. العناية الالهية شاءت أن تكون معنا والنصر قد كتب منذ الساعة لنا ، ولن تصيب من انضمامك الفعلى الى أعدائنا الا لعنة أمتك وبغض ابنتك . انصرف اذا شئت !

وفى تلك اللحظة دخلت أتوسا مهرولة وقالت :

ـ مولاتى ، ثلاثة من رجال الشرطة يسألون عن سيدى الكبير

فقال بهزاد :

ـ لينتظروا فى الفناء الداخلى . رحبى بهم وأكرمى وفادتهم وسألحق بك

وخرجت أتوسا فالتفتت أمسترس الى أبيها وقالت وهى ترتعد :

ـ جاءوا للقبض عليك .. كنت أتوقع ذلك .. كنت واثقة ..

ثم تصورت نفسها وحيدة منبوذة لا أمل ولا عزاء ، لا والد ولا زوج ، فتملكها اليأس والذعر وأحاطت والدها بذراعيها وصاحت :

ـ لن يأخذوك منى .. لم يعد لى سواك .. لن تذهب .. أشفق على .. أنا امرأة وتأدية الواجب لا يمكن وحدها أن تسعدنى .. بى حاجة الى العطف ، الى الحنان . ولقد ضحيت بحب الزوج فلا أقل من أن يبقى لى حنان الوالد .. ثب الى رشدك وانكر منزعك الجديد واشفق على نفسك وعلى .. ستعاقب فوق ما عوقبت . سيحقرونك أيضا ..

فأحس بهزاد وهو بين ذراعى ابنته سعادة عميقة كسعادة مجاهد كافح وحده ثم التقى بأخ له فى الجهاد ، بعد طول العناء والصبر ، فالتصق بها ، وتشربت روحه دفء الامن والطمأنينة المنبعث منها ، فأحنى رأسه على كتفها ، ورفع اليها عينيه المتعبتين الصافيتين وغمغم : « أنا الذى عذبت نفسى ! »

ثم فك أزرار جلبابه وكشف عن قميصه الابيض وأخرج من جيبه الورقة المطوية الزرقاء وناولها لابنته وقال : « اقرئى »

ولم تكد تلقى على الورقة نظرة حتى بهتت وعقد الدهش لسانها ثم طغى عليها الفرح فصرخت :

ـ أكنت اذن على اتفاق مع أردشير ؟!

فأجاب :

ـ وهذا هو الاذن منه باجتياز الحدود . أجل كنا متفقين وكنت قد عزمت بالامس فى حالة رفضك أن أسافر وحدى الى هرمز لتأدية الواجب بدلا منك .. ولقد أمر أردشير رجاله بالسهر على بيتى ، وعلى حياتى فحالوا بين الجماهير وبين قتلى واحراق دارى . وها هم الآن أقبلوا لا لالقاء القبض على كما توهمت بل ليسهلوا لى سبيل السفر ، ويحمونى من سخط الجماهير

فقالت أسترس وقد أخذ منها العجب مأخذه :

ـ ولكن لم لم ترحل خفية ؟.. لم ظهرت أمام الناس بمظهر الخائن ؟.. لم عرضت نفسك لغضب الجماهير ؟..

فرمقها بنظرة حزينة طويلة وأجاب :

ـ لأنى أردت أن يثق زوجك بإخلاصى لارتابان . أردت ألا أدع للشك مجالا فى نفسه ، أردت أن أكسب ثقته لانتزع سره وأعرف قبل القضاء عليه أين أخفى التاج والكتاب . أردت أن يعتقد أن انقلابى كان من الصدق بحيث جاهرت به على رؤوس الأشهاد واستهنت فى سبيله بحياتى . ولقد أرسلنا الى زوجك من بلغه النبأ وقص عليه قصتى . ولو أنى أذهب اليه الآن فسيرحب ولا ريب بمقدمى ، ويعترف لى بكل شيء

فصاحت أسترس وهى تغمره بالقبلات :

ـ اذن فلماذا احتملت يا أبى كل ذلك العذاب ؟!..

فقال :

ـ من أجل بلادى لا من أجلك أنت كما توهمت يا استرس .. كان لا بد أن أحقر وأهان وأضرب وأرى الموت كى تتم الخديعة فعلها !..ولقد مضيت ولم أحفل لا بكبريائى ولا بسمعتى ولا بضعفى فبوركت على شجاعتى بأن رأيت المعجزة وربحت كل شيء .. رمز بلادى وكتاب دينى وقلب ابنتى ! فالى العمل الآن يا استرس..الى الحرية المكفولة والنصر المحقق !.. احتفظى بكنزك الثمين ريثما يصل أردشير وتسلمه من يدك !.. انه ينتظر ويود أن يعلم ماذا حل بى . سأذهب اليه وأطلعه على الحقيقة ثم أنصح له بالزحف منذ الغد الى هرمز

فتشبثت به أسترس وقالت بلهفة وهى تعانقه :

ـ أفى نيتك اللحاق بالجيش الى هرمز أم أنك ستبقى هنا ؟

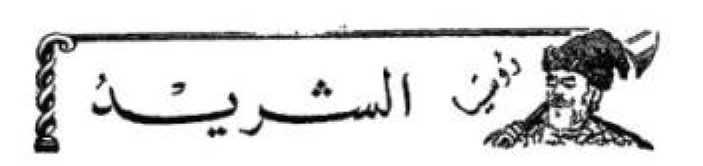
فتطلع اليها مبتسما وقال :

ـ سأعود الى عملى فقد انتهت بينكم مهمتى .. سأبقى لأتم تلك الصورة التى بدأتها . الصورة التى أصبحت خلاصة فنى .. صفوة جهودى.. العمل الذى سأرصد عليه حياتى

وتملكه فجأة عقل الفنان وروحه ، فتألقت عيناه وشرد بصره ، وأردف وقد نسى كل شيء ولم يعد يرى غير خياله :

ـ الظل .. الظل هو كل شيء لا الضوء .. الظل يجب أن يلقى على الغذارى .. والضوء على الأبطال .. على الأبطال فقط ..

ولم يلتفت الى أسترس ولم يقبلها ولم يحيها ، بل أسرع وألقى على كتفه عباءته الممزقة ، ثم توكأ على عصا جديدة كانت قد جاءته بها أتوسا ، وخرج مرفوع الرأس منصوب القامة خفيف الخطى ، وابنته تتبعه النظر ، وقد تهلل وجهها وملأ نفسها الدهشة والاعجاب والحب



تمثل هذه القصة روح الاخلاص والوفاء التى كانت مستولية على مشاعر الروس نحو مليكهم العظيم بطرس الأكبر مؤسس روسيا الحديثة ، والرجل الذى قرب مسافة الخلف بين بلاده وبين حضارة أوربا ، فنقل إليهـا العلوم والفنون ، وقام فيها بحركة إصلاح ثورية جنية فى مختلف شؤون الادارة والسياسة والاجتماع

« .. لا .. لا .. ذلك لن يكون .. يا لها من ليلة رهيبة !.. كان الحب صادقا فى عينيها النجلاوين ، ولـكن نظرتها ؟.. لست مطمئنا لنظرتهـا ولا لضحكتها الخفيفة العابثة التى يشوبها فى بعض الاحيان تهكم خفى !.. أين أنا ؟.. وماذا أفعل هنا ؟.. هذا هو الشارع الضيق الذى تعارفنا فيه ، وهذا هو بيتها !.. لقد قادتنى قدماى الى هنا بالرغم منى !.. ما أشد حبى لها !.. عيناها سر غامض أودع فى كلمتين .. فمها ساحر النثوء لا يكاد يهم بالكلام حتى يحجم .. محياها أرق من صفحة الماء وأفتن من ضوء الربيع وأبهى من الشمس فى مطلع النهار .. جسمها اللدن لا يتحرك بل يتلوى ، ولا يتلوى الا ليثب ويرقص .. نفسها مبهمة مخيفة كأعماق البحر .. ما هذا الهدوء المخيم على منزلها ؟.. أين والدها الشيخ الذى كان يحجبنى ؟.. نعم . لقد مات .. وماتت والدتها أيضا وبقيت هى وحدها على قيد الحياة لتشقينى !..

أكان يجب أن تفكر فى بعـد كل ذلك الهجر الطويل ؟.. كنت قد بدأت أنساها وأغفر لها خيانتها ، وأروض نفسى على القناعة بالسعادة الروحية يسبغها على تأدية واجبى للقيصر وحبى العظيم له ، وايمانى بأن الاخلاص لشخصه ومبادئه هو السبيل الاوحد لانقاذ روسيا من البربرية التى تتردى فيها ورفعها الى مصاف أكبر دول أوربا !.. لا .. لن

أتحول عن اخلاصي للقيصر !.. بطرس الاكبر بطل الاصلاح ورب التجديد ، بطرس الباسل ، بطرس الصخرة ، الصخرة التي يصطدم بها الرجعيون كل يوم فلا تزداد الا صلابة وشموخا ولا يزدادون الا حنقا وضعفا !.. يا لروسيا الجديدة التي تفتح للحياة مشرئبة العنق اليه متطلعة القلب نحوه !.. ألم يجعل من هذه الغابة الوحشية حديقة مترامية الأطراف منسقة الاشجار يانعة بكل زهر ونبات ؟.. انظر .. انظر حولك يا بوريس بافلوفتش ، يا ابن العهد الغابر ، يا وليد الاستبداد والذل .. اخرج من هنا.. تحرر من مؤثرات هذا الشارع الضيق..انفذ عقلك وقلبك ورئتيك واخرج..ما هذا؟.. انه لنور ساطع لا يجسر على التحديق اليه غير الاقوياء !.. انظر يا بوريس .. الشوارع نظيفة .. الأمن مستتب .. النساء اللواتي كن محجبات في البيوت يرسفن في أغلال العبودية ويحيين لشهوة الرجل ، أخرجهن القيصر من أجحارهن ورد اليهن نعمة الحياة والحرية !.. الشبان .. هؤلاء الشبان .. انظر كيف يضحكون مبتهجين ولا يسيرون محزونين فرادى كما كانوا بالامس !.. كل فرد منهم يتأبط ذراع فتاة .. فتاة كان لا يستطيع أن يراها ولا يستطيع أن يحبها ولا يملك حق الحرية الشخصية في التزوج منها ! هذا الحق أيضا رده اليه القيصر غير حافل بتخرصات الآباء ولا بزمجرة رجال الكنيسة ولا بتهديدات النبلاء العاطلين أشباح الجيل القديم !..ثم انظر أيضا..هناك.. من هؤلاء الرجال الاغراب الشقر الشعور المديدو القامات العابسون المتأنقون ؟.. هم مهندسون .. مهندسون أجانب جاء بهم القيصر لتدريبنا على انشاء أول أسطول لروسيا !.. وهذا .. هذا المخلوق الذي يحث خطاه ويضرب الارض بعصاه ذات المقبض الذهبي .. أتعرفه ؟ أليس هو ذلك الارستقراطي المترف الذي كان يقضي حياته في الصيد والقنص ، والذي أجبره القيصر على الخروج من عزلته العقيمة والانخراط في سلك الموظفين خدمة للحكومة والدولة ؟.. ثم .. ثم قف قليلا .. وارفع الرأس عاليا .. واسمع دوي تلك الطبول .. ها هم .. ها هم يتقدمون في شكاتهم اللامعة ، ناهضي الصدور متزني الخطى ، يسير في طليعتهم ضابط روسي شاب وفي مؤخرتهم ضابط منظم أجنبي !.. هـذا هو جيشنا !.. هذا معقد آمالنا !..هذا ثمرة غرس قيصرنا !.. الادارة. الجيش. الاسطول. الحريات الشخصية . كل جديد وعظيم نحن مدينون به اليه !.. فكيف .. كيف أنسى هذا ؟.. كيف ينهض في قرارة نفسي شيطان يريد أن يعميني عن رؤية كل هذا ؟.. كيف أتردد في تأدية واجبي ؟.. كيف لا أبتر في سبيل القيصر جميع أعضائي ولا سيما قلبي ؟.. الريح بدأت تعصف .. الناس يهرولون الى منازلهم .. كلهم يطلب الملاذ والمأوى .. لا ملاذ لي .. أعود ؟.. أكر راجعا الى حيث أراها ثانية ؟.. لماذا أنا اليوم جاف الذهن متبلد العقل مصدوع ؟.. لا أدري !.. كأني أعلم ولا أعلم ما أريد !.. كأن قوة مجهولة تغشاني وتسيرني هكذا على غير هدى !.. الطبول تدق !.. لا أريد ان اسمع شيئا !.. فلأفر من هنا .. لماذا لجأت الي يا كاترين ؟.. تعلمين أني أحبك حبا لم

تخمد خيانتك جذوته !.. لا . على النقيض .. أنت خدعتنى .. كنا قد تعاهدنا على الزواج ففررت بى وفضلت على ذلك النبيل الشريف السرى عدو مليكى ورئيس حرس البلاط الامبراطورى .. لم تقتل خيانتك حبى ، بل أحالته الى بغض ، وهذا البغض نفسه ألهب الحب وأحاله الى جنون !.. نعم ، أغلب ظنى أن المطر لن يسقط اليوم .. الشمس تكافح السحب .. يا لقوة السحب وتفانيها فى التساند والتجمع ومحاولة خنق الشمس !..

« ولكن لماذا لجأت الى أنا يا كاترين ؟.. أصحيح أنك تحبيننى ؟ أصحيح أنك قد ندمت ؟.. رباه ، ألن تسكت هذه الطبول ؟.. ماذا أفعل ؟.. ماذا تريدين أن أفعل ، وكيف تطلبين الى المستحيل وتعلقين فوزى بك على تحقيق المستحيل ؟.. ان بطرس الاكبر لم يسجن شقيقته الاميرة صوفيا فى الدير الا لانها كانت تتآمر مع رجال الحرس الامبراطورى على خلعه .. ولقد عادت الى التآمر وهى فى الدير سجينة وبطرس متغيب عن البلاد ، فنشبت من جديد ثورة الحرس الرجعية ، فلما علم بها المليك عاد على جناح السرعة من هولندا حيث كان يدرس صناعة بناء البوارج ثم قمع الثورة بنفسه ، ثم ألغى فرقة الحرس بعد أن قتل بيده رئيسها زوجك يا كاترين !..

« أجل .. كان بطرس جلادا لا تنفذ الرحمة الى قلبه !.. كان جلاد نفر من الرجعيين أما زوجك وأنصاره فقد كانوا جلادى شعب بأسره !.. وأنت .. أنت .. آه يا كاترين. أنت التى كنت رسول الاميرة صوفيا الى زوجك !.. أنت التى تلقيت الارشادات ونقلت الاوامر ووثقت الصلات وأحكمت العمل وأشرفت على التنفيذ !.. وكل هذا لتصبح صوفيا الملكة وزوجك الملك الفعلى وأنت سيدة بلاط روسيا !.. أنت المرأة الضعيفة المنحدرة من الشعب أردت أن تتحدى الجبار !.. ان طموحك أقوى من عقلك ورغباتك أضعف من ذكائك !.. لقد تحديت الجبار وهو يعد العدة ليبلغ أوج مجده .. تحديته وهو يبحث لبلاده عن منفذ على بحر البلطيق بعد أن فاز لها بميناء على البحر الاسود .. تحديته وأضرمت حوله نار الثورة وهو معتزم اثارة حرب هائلة ضد ملك السويد .. ولكنه بغريزته المتوقدة التى لا تخفى عليها خافية ، أدرك أن عدوه الخطر المدبر هو أنت ، فلم يكد يقتل زوجك حتى جد فى طلبك ، ففررت الى الدير ولذت بالاميرة صوفيا ، ولكنه لم يبال وطلب منها رأسك !.. يا لهول ما أقدمت عليه يا كاترين !.. لا قدرة لى على تصور ما ينتظرك .. أين أصبحت أنا وفى أى طريق أسير ؟.. هذا الشيخ المتهدم يخالسنى النظر عن بعد وكأنه يتبعنى !.. ماذا يبدو على ؟.. أفى سحنتى شىء قد تغير ؟ أتراه يعرف عنى شيئا ؟.. لأنطلق من هنا .. لا .. لم يعد يتبعنى .. ما هذا الشارع ؟.. لم أسر فيه أبدا .. بلى . مرة واحدة .. أنا أرتجف .. أسنانى تصطك .. ماذا أرى ؟ ما هذا التجمهر ؟.. آه . أنت يا كاترين .. أنت دائما وأبدا !.. كل هذا الجمع قد احتشد بسببك .. حتى جدران الحوانيت يلمع عليها اسمك !.. أجل . هذه هى النشرات التى ألصقها رجالى بأمرى والتى أعد فيها بمكافآت لمن يرشد عنك وأتوعد بالموت



آية فنية للفنان بهزاد ، وهي تمثل زوجة تيمور لنك مرسومة بالألوان الطبيعية على المناء

[أنظر قصة «معجزة الفنان» ص ٢٧٠]

نساء إيرانيات ... لوحة فنية من مجموعة دار الكتب المصرية

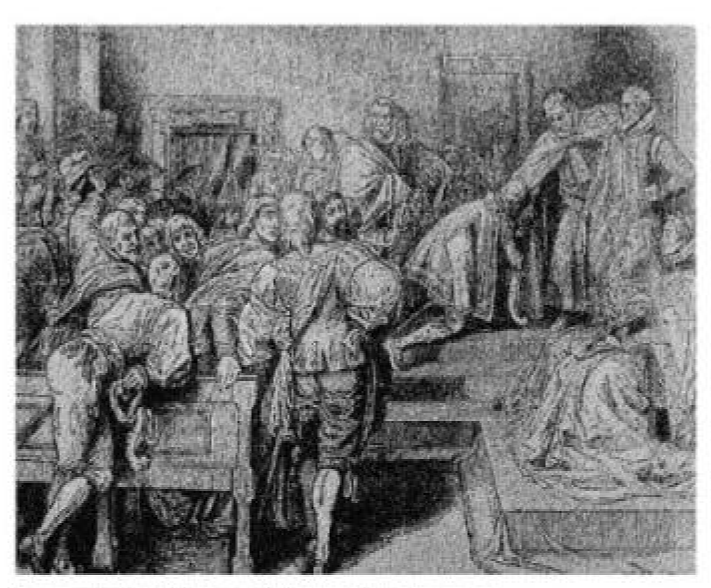
[أنظر قصة «معجزة الفنان» ص ٢٧٠]



بطرس الأكبر

الذى أسس روسيا ، والذى قرب مسافة الخلف بين بلاده وبين حضارة أوربا

[أنظر قصة الجريدة ص ٣٩٠]



شارلكان

صورة نادرة لشارلكان
فى أوج مجده مع حاشيته

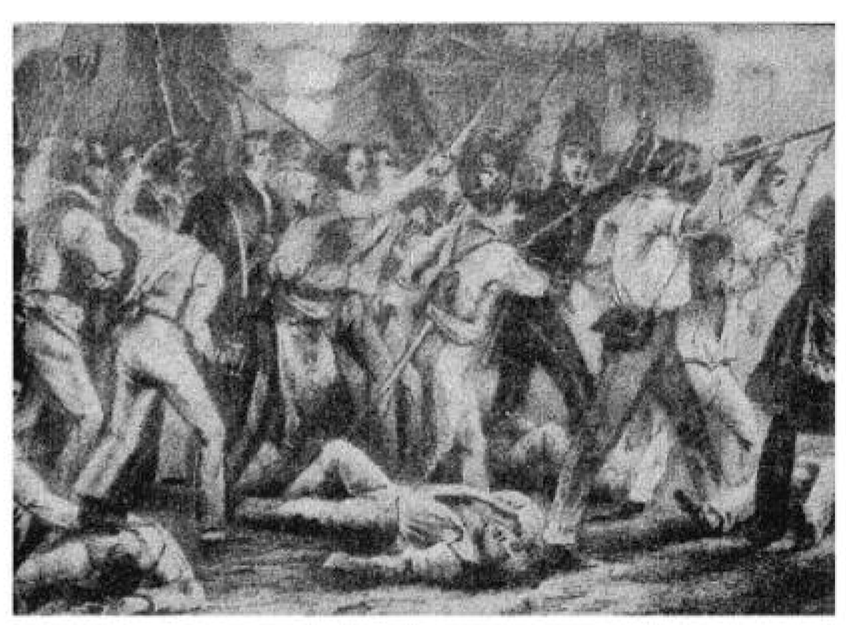
[أنظر قصة آخر أيام
شرلكان ص ٤٠٣]



الجمال الاسبانى

امرأة أسبانية تمثل الجمال الاسبانى
التى من أجله ترك شرلكان الملك
ودخل الدير ... للرسام جويا

[أنظر قصة آخر أيام
شرلكان ص ٤٠٣]

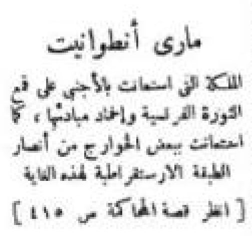


فى إبان الثورة الفرنسية

صورة تاريخية للشعب الفرنسى يحمل السلاح ويسير فى الطرقات فى إبان الثورة الفرنسية . .

[أنظر قصة المحاكمة ص ٤١٥]





مارى أنطوانيت

الملكة التى استعانت بالأجنبى على قمع الثورة الفرنسية وإخماد مبادئها ، كما استعانت ببعض الخوارج من أنصار الطبقة الأرستقراطية لهذه الغاية

[انظر قصة المحاكمة ص ٤١٥]

من يخفيك فى داره أو يعاونك على الفرار .. أنا فعلت هذا ؟.. أنا نفسى !.. الكل يعلم الآن أنك فررت من الدير أيضا .. الكل يبحث عنك .. رجالى يتعقبونك .. أنت طلبة الجميع ومحط فكر الجميع وأنت فى هذه الساعة عندى !.. فى بيتى !.. نعم أنت هناك ، وان كان خيالى لايستطيع أن يتصور أنك هناك !.. لقد آويتك !.. تحديت الجبار أنا أيضا !.. تحديته مثلك أنا أخلص أتباعه !.. أنا الذى آمنت به واعتنقت مبادئه وأيدت ملكه وأحبطت مكائد أعدائه وسقتهم اليه صاغرين !.. أنا عينه اليقظى وفكره الواعى وحذره العميق ، أنا رئيس جواسيسه أنزلك فى بيتى يا كاترين وأخفيك فى مخدع نومى وأقيم ابنى الوحيد حارسا عليك وأهدده بالموت لو كشف عن سرك لأى انسان ؟!.. احتجبت الشمس !.. لم أعد أسمع دق الطبول !.. كيف أقدمت على هذا ؟.. انى لا أنقذك وحدك يا كاترين ، بل أنقذ معك فلول الحرس الرجعيين الثائرين أعداء مليكى الذين أفلتوا من قبضته بعد المذبحة ولاذوا هم أيضا بالفرار فى أمكنة معينة لا يعرفها سواك يا كاترين !.. فالقيصر يبحث عنكم جميعا ولا سيما عنك أنت . ولن يقر له قرار حتى يبطش بكم . ولو أحجم أو تهاون أو أغضى فقد تنشب الثورة مرة أخرى . قد يظهر الثوار من جديد فيؤلبون الاشراف والقساوسة على القيصر ويحبطون مجهودنا الحربى ضد ملك السويد ، فينهار سلطان بطرس الأكبر ، وينهار صرح الاصلاح العظيم الذى شيدناه بعقولنا وقلوبنا ودمائنا نحن أعوان قيصر وخدامه المخلصون !..

« فأنا ، أنا الذى يجب أن ألقى القبض عليك ، أحاول انقاذك يا كاترين !.. أنا الذى يجب أن أقوم بواجبى ، وأذود عن وطنى ، وأنصر فى هذا الوقت العصيب مليكى ، وأحمى حركة الاصلاح التى هى دينى ومعتقدى ، أسهل سبل الفرار لاعداء بلادى وأعبث بثقة مليكى ، وأشترك فى احباط مجهود الحرب ، وأخون من أجلك يا كاترين كل أمثلتى العليا !.. ولكن كيف .. كيف أسلمك للموت يا حبيبتى ؟.. كيف أفقدك بعد أن ربحتك ، بعد أن أفقت من عذابى فأبصرتك حرة ، أمامى ، فى بيتى ، لى ؟.. أتسعين الى بنفسك ثم أغدر بك ؟.. أأحبك ثم أكون قاتلك ؟.. أنا ، أنا الذى جنيت على نفسى !.. ليتنى أبقيتك حيث كنت فتاة من الشعب فقيرة بنت صانع قبعات !.. ليتنى لم أرشد الاميرة صوفيا اليك !.. ليتنى لم أجعلك فى قصرها أولى الوصيفات !.. هناك خدعتنى .. هناك جحدت فضلى .. وبدل أن تلبى نداء حبى أعرضت عنى واقترنت بذلك النبيل الذى قضى فريسة أطماعه مخلفا لك نفس الكبرياء ونفس العناد ونفس الاطماع !.. الصمت يكتنفنى .. الشارع يقفر من السابلة .. أصبح مظلما موحشا كقلبى !.. ترى أيسقط المطر ؟.. ان هذه الكنيسة لرائعة الجمال !.. ان قبتها المزخرفة التى يعلوها الصليب لتشبه عن بعد تمام الشبه ذلك التاج الذهبى الذى يلبسه البطريرك أثناء تأدية القداس فى الاعياد الكبرى .. ترى أوجدت القبة قبل التاج أم التاج قبل القبة ؟.. هل يتيح لى القدر أن أتزوج كاترين فى كنيسة جميلة مثل هذه ؟.. انها تحبنى . أصبحت تحبنى !

هكذا قالت وأكدت وأقسمت .. يخيل الى أنك حقا تحبينني يا كاترين !.. ألم تقولى انك برمت بالدنيا وودعت أطماعك ولم يعد لك فى العالم غير حبى ؟.. أهذا حقيقة أم أن قلبى هو الذى يريد أن تكون هى الحقيقة ؟.. كيف أصدقك .. كيف أصدقك يا كاترين ؟.. أريد أن أصدقك والا فلن يكون فى وسعى أن أعيش !.. هذه فرصة حياتى ولن أدعها تفلت منى !.. لم أعرف السعادة أبدا قرب امرأة !.. لم أعرف سواك أنت التى كنت لغيرى !.. ثمانى عشرة سنة قضيتها برفقة زوجة لم أحبها ولم تفهمنى ، فلما توفيت أحسست كأن روحى أطلقت من عقالها ، وكأن فكرى الموزع المشتت عاد فتركز فيك وانقطع لعبادتك !.. وحتى ابنى .. حتى ابنى الوحيد لم يظفر بكل حبى !.. أنت يا كاترين غريزته فى قلبى وهو يعرف ذلك ويعطف عليك لانى صارحته بكل شىء فأدرك مبلغ عذابى وأشفق على !.. والآن ، أأخون بلادى وواجبى ومليكى وأتبعك أم أفشى سرك وأسلمك بيدى الى الجلاد ، أم أقتلك بنفسى ، أم أقتلك وأنتحر ؟ يا لاغرائك المذيب يا كاترين الفاتنة !.. يا لنظرتك البائسة المتوسلة الفاترة التى تخمد الهمة وتنيم الارادة وترقد الاعصاب وتسمم الفكر !.. بل يا لقوتك الهائلة عند ما تثور نفسك ويثور حبك المجنون للحياة !.. ماذا تريدين منى ؟.. تريدين أن نفر معا .. الى حيث لا يتمكن منا أحد .. الى حيث لا يعلم بوجودنا أحد .. الى حيث نتحاب ونسعد ونعيش دون أن يعكر صفونا أحد !.. هذه رغبتك !.. هذه ارادتك !.. هذا ما ينشده حبك العظيم لى !.. ولقد حملت معك الكثير من مال زوجك وجئت أيضا بمجوهراتك وحليك وجمعت فى يدك ثروة قدمتها الى أنا الرجل الدائم الارتباك ، الدائم العوز . أنا الرجل الذى لم يدخر قط مالا والذى يتأرجح أبدا بين العسر واليسر . أنا عاشق المائدة الخضراء وعبد الميسر والانسان الضعيف التواق الى جمع ثروة ما أزال أركض خلفها وما تزال تفر منى !.. المرأة والمال ، الحب والرخاء ، نعيم الروح ونعيم الدنيا ، كل هذه المباهج قدمتها الى ، فهل أرضى ، هل أذعن ، هل أنسى ، هل أتدهور ، هل أخون ؟ فى مقدورى أن أقربك وأنقذك وأنقذ حبنا ، فهل أفعل ؟.. أين هو الخلاص ؟.. أين هو الخلاص ؟.. لا . لا يا بوريس . اياك وفكرة الانتحار !.. لو انتحرت قضيت على نفسك وعلى من تحب على السواء !.. اذن ؟.. اذن ؟.. أأدخل الكنيسة ؟.. أأصلى ؟ لا قدرة لى على النظر الى الله !.. بدأ المطر يتساقط .. لن أذهب اليوم الى عملى ولن أعود الساعة الى البيت !.. يجب أن أظل وحيدا .. أتأمل . أفكر . ابحث .. السحب تتلبد وتتجمع كأنها توشك أن تطبق على .. من هذا الرجل ؟.. هو بعينه !.. الشيخ المتهدم .. ماذا يريد منى ؟ لا شىء . لقد اختفى .. الى أين أذهب ؟.. هناك .. ذلك المنزل المهجور .. نعم .. نعم .. ما أحلى هذه الطراوه !.. لاجلس هنا .. على هذا الدرج البارد .. المطر ينهمر .. الريح تعصف .. الرعد يدوى .. ما أعذب الامن وما أغلى الطمأنينة !.. هدوءا يا بوريس وتنفس !.. ولكن ما هذا ؟.. أصبح كيانى

تها مقسما لقوى غير منظورة تحيط بى وتتقاذفنى !.. ما أشبهنى بخلية النحل !.. ماذا أسمع ؟.. من أنت ؟.. من تكون ؟..

العقل – على رسلك يا صاحبي .. علام كل هذا الاضطراب ؟.. أنت أبله غر !.. لا تنتحر ولا تقتل . اذهب من فورك الى البيت واجتهد فى أن تخدع المرأة !.. ألم تخدعك هى من قبل ؟.. جردها من مالها واستول على هذا المال ثم اذهب بها الى مكان قصى ثم ارشد رجالك اليها . وهكذا تنقذ حياتك وتفوز بالمال ولا تخون واجبك . هذا هو صوت المصلحة فانصت اليه ولا تكن غبيا !..

الملك الابيض – بوريس ، لا تهدم فى لحظة ما بنيت فى سنين ! سوف تكره نفسك لو فعلت وسوف تكره المرأة التى فى سبيلها خنت !.. عاقبها فهى تستوجب العقاب ، واعلم أن هناك أشياء أثمن بكثير من المصلحة ، أشياء يجب أن تقدسها ولو لبثنا فقراء محرومين ، أشياء بدونها تفقد الحياة قيمتها ، ويفقد الانسان حقه فى الاعتزاز بأنه انسان !

بوريس – وهل أنا الآن انسان ؟.. لقد ضقت ذرعا بسعادة الواجب الضيقة المظلمة التى تطوينى على نفسى وتغلق دونى أبواب العالم !

الحواس – أنت على حق ، وسنفتح نحن أمامك هذه الابواب : انظر .. انظر الى كاترين مقبلة عليك ترفل فى حلتها الجديدة وتقبلك قبلة الهوى والوفاء .. أنتما فى مدينة بعيدة .. فى مكان مجهول .. فى حرم الحب الرائع .. الرياش حولك ساحرة والطعام فاخر والشراب معتق مجيد .. كل ما تشتهيه يتحقق .. كل ما تطلبه تناله .. المال بين يديك .. وهى هى تتلوى وجدا وهياما بين ذراعيك .. فاحتفظ بها .. احتفظ بها يا أحمق ولا تبتئل للواجب وكن جسورا فما فاز باللذة الا الجسور

الملك الاسود – تعجبنى من « الحواس » عبارة « التبتل للواجب » . يبدو لى أنها على شىء من العمق..

الحواس – أليس كذلك ؟..

الملك الاسود – .. وان كنت لا أستطيع أن أعتقد أن البلاهة قد بلغت بصديقنا بوريس الى حد أن يكون مخلصا فى اتخاذ تلك العبارة الجوفاء شعارا لحياته ..

بوريس – لا .. ليست جوفاء أيها الملك الاسود . كثيرون غيرى ممن هم أعظم منى لا يعيشون الا منها ولها

الملك الاسود – أخلق بها أن تكون شعارا لاولئك العبيد المكفوفى البصر الذين يكدحون لسواهم وما هم مصيبون من مادية الحياة الا الفتات !.. كلا . أنت يا بوريس سيد لا عبد!

الملك الابيض – ماذا تقول ؟.. كف عن الرجل .. لا تشوش فى ذهنه الافكار والخيالات .. لن تتغلب عليه وأنا حى .. اسمع يا بوريس . ان السيد الحقيقى لا يتمتع فقط بل يخدم . وعلى قدر ما يتمتع يجب أن يخدم . فاذا كان الملك الاسود يريدك على

أن تكون سيدا ، فكن سيدا أصيلا يملك حق التمتع ، لانه يعرف عند الاقتضاء كيف يؤدى الواجب وكيف يخدم الآخرين

بوريس ـ هذا كلام طيب أشعر أنى مرتاح اليه . . هو ذاك . السيد لا يملك حق التمتع الا اذا خدم ! . .

الملك الاسود محتدا ـ ولكنه لا يستطيع أن يخدم الا اذا كان يتمتع ! . . وأنت يا بوريس ما دمت لم تتمتع بكاترين فلا يمكن أن تخدم سواك أبدا ! . . وهب أنك لم تفر معها ، هب أنك أديت واجبك وقضيت عليها ، أتظن أنك بعد ذلك لن تخون ؟ . . أنت واهم . . ستخون . . ستخون كل شيء . . ستخون بلادك ومبادئك ونفسك . . ستفر من نفسك ان لم تسرع بالفرار مع كاترين ! . .

بوريس متطلعا اليه وهو يرتعد ـ ما معنى ما تقول ؟ . .

الملك الاسود ـ ستنتحر ! والانتحار يكون منك ولا شك خيانة . . خيانة عظمى لقيصر الذى هو اليوم فى أشد حاجة اليك

الملك الابيض ـ لن يعدم قيصر رجالا تخدمه ! . . واذا مات بوريس فسيموت راضيا عن نفسه لانه أدى واجبه

الملك الاسود متهكما ـ اذن فالموت هو ما تنصح به لصاحبك ؟ . . يا لك من أحمق أنت أيضا أيها الملك الابيض البارد ! . . انظر الى بوريس . . لقد أرعبته . . حرام عليك . . انه لا يريد أن يموت . . كان من الممكن أن يقبل فكرة الموت لو كان قد تمتع . ولكنه لم يتمتع بكاترين . . لم يفز بها حتى الساعة . . لم تشأ أن تكون له الا بعد أن تستوثق من عزمه على الفرار معها . . ثلاثة أيام وهى فى بيته تقاوم وتأبى التسليم الا بعد أن تتأكد . . فالرأى عندى ، الرأى الحكيم . .

العقل ـ قل . . تكلم . .

الحواس ـ كلنا آذان صاغية

بوريس ـ أسرع بالله وتكلم

الملك الاسود ـ الرأى عندى أن يرجع بوريس الى البيت ويحتال على المرأة ملقيا فى روعها أنه سيفر معها الى أقصى العالمين . ثم يبذل جهده حتى يمتلكها . ومتى فاز بها واستمتع وأرضى حواسه ، فسيجد فى نفسه الشجاعة للتضحية بها والتضحية بنفسه ان شاء . وهكذا يؤدى الواجب ثم يموت بعد أن يكون على الاقل قد تمتع ! . .

بوريس صائحا ـ لك الله من عبقرى ! ما أجملك برغم كونك أسود !

الملك الاسود ـ كثيرون غيرك قالوا لى مثل هذا الكلام . .

الملك الابيض صارخا ـ احذر يا بوريس ! انه يخدعك ! لو عرفت لذة امتلاك من تحب فلن تسلاها ولن تكون تضحياتك الا فى سبيل هذه اللذة وحدها !

بوريس متحمسا ـ كلا . . كلا . . سأمتلكها ثم أبلغ عنها . . سأمتلكها ثم أنفذ واجبى

الملك الابيض ـ لن تستطيع !.. انه يخدعك .. تبصر .. ترو ..

الملك الاسود لغريمه وهو يبتسم ـ لا تتعب نفسك . أنت تقدم لصاحبتنا الجمال البارد أما أنا فأقدم له الجمال الحار !.. انهض .. انهض يا بوريس وسر ..

الملك الابيض ممزقا ثوبه ـ أتتبعه ؟

بوريس ـ ذلك حظي وليس منه مفر !

الملك الابيض ـ سوف تندم !

بوريس ـ أين أنا ؟.. نعم . هذا هو الطريق .. من هنا .. سأراها .. ابني يحرص عليها حرصه على حياتي .. السماء لم تعد تمطر .. هذا قال حسن .. الغيوم تتبدد .. وها هي الشمس .. تبدو ثم تختفي .. سوف تشرق .. لا بد أن تشرق .. لك الله من عبقري أيها الملك الاسود الجميل !.. هذه هي الكنيسة .. وهذا هو الشارع الضيق .. بيتها .. بيتها .. لا .. لم يعد يتبعني أحد .. ان الملك الابيض لمتوه ! كان يطلب الى أن أذهب من فوري الى رجالي وأصدر اليهم أمري بالقبض عليها .. أسلمها للموت ثم أنتحر وأنا لم أنعم بها ولو مبقات لحظة !.. تبا له من أحمق مأفون !.. ستكون لي !.. سأحظى بها !.. من هنا .. من هنا الى البيت .. هذا الطريق هادىء ومعبد .. أقرب الطرق .. ما أظمأني اليها !.. ما أشوقني لرؤيتها !.. يا لفرحي !.. ألمح الباب الحديدي والسياج العالي والنوافذ الكبيرة .. هأنذا .. قلبي يدق .. أريد أن أصعد الدرج في قفزة واحدة .. ان ابني ايفان لمتهور ، لم يغلق الباب الداخلي .. أين هو ؟.. ايفان !.. ايفان !.. كاترين !.. ايفان !.. هذه الغرفة خالية !.. كاترين لا أرى أحدا !.. ايفان !.. أين هما ؟.. كيف هذا ؟.. لا أحد في البيت !.. رباه ! أين ذهبت ؟.. أين ابني ؟.. أين هي ؟.. وحدي ؟.. كيف يمكن ؟.. ماذا حدث ؟.. أكاد أفقد عقلي !.. ما هذا ؟.. ما الذي أراه على هذه المنضدة ؟.. كيس نقود .. نقود .. ثم .. ثم ورقة . ورقة بيضاء .. ماذا ؟.. ماذا أقرأ ؟ : « اغفر لي يا والدي اني أحببت كاترين وهي أيضا أحبتني !.. ولقد فررنا معا وتركنا لك هذا المال !.. فاكتم سرنا ان أردت الحياة لولدك . لو أفشيت هذا السر قضيت على ابنك وحبيبتك على السواء . سامحني فأنا شاب وهذا الحب أصبح كل حياتي . أما أنت فطالما تمتعت وطالما سعدت ، وفي وسعك أن تعيش بالذكرى . ولسوف تجد ولا ريب في جهادك الوطني ما يعوضك عما فقدت . أنا أعرف أنك لو بحثت عنا فستعثر علينا . أعرف أنك لو تعقبتنا وقعنا لا محالة بين يديك . ولكنك لو فعلت أنكرت أبوتك وقتلت في لوثة الغيرة العمياء ابنك الوحيد . فلا تقتلني يا أبي . لا تقتل ولدك . لا تحرمني نعمة الحب . لا تسلط على أنانية شيخوختك . أنت منحتني الحياة فلا تأخذها مني والا مت وأنا ألعنك ! » آه .. لا أرى شيئا .. الظلمة تعمي بصري .. ولدي .. ولدي يفعل ذلك ؟.. يخونني ؟ يغدر بي ؟.. يفر معها ؟.. أغرته الفاجرة وسحرته واقتادته !.. سلبته مني !.. كيف

وثقت به ؟.. كيف أمنته على قلبى ؟.. كيف لم أتوقع منه ذلك ؟.. يا لكبرياء الشيخ وزهوه وخيلائه واعتداده بنفسه متى أحب !.. الشباب سحقنى !.. الشباب قهرنى !.. الشباب الظافر سخر من عجزى وفى غلظة قسوته احتفر لى منذ الآن قبرى !.. يا للطعنة الصادقة النجلاء !.. لم أعد أحتمل. لا قوة لى. أنا خجل من رجولتى المتهكة !.. ألمى يخنقنى.. الحسرة تمزقنى.. الغيرة تأكلنى.. عض شفتيك يا بوريس وابك ! ابك ما شاء لك الحنق !.. لقد خدعاك واحتقراك ولم يضنا عليك بالمال الذى تحب !.. ما أجدرك بأن تظل الى الابد مثل الخديعة المروع الحى !.. ابك !.. ابك !..

الملك الابيض فى رفق ـ ألم أقل لك ؟..

بوريس متفجرا ـ وماذا تريد الآن منى ؟..

الملك الاسود ـ أعتقد أنه خير لك فى هذه اللحظة أن تنتحر !..

بوريس بملء حقده ويأسه ـ لا.. لن أطيعك.. بوركت الخديعة أيها الملك الاسود فقد ردت الى القوة !.. سأجد فى أثرهما حتى أعثر عليهما !.. واذا كانت الغادرة تعتقد أن حرصى على حياة ولدى سيحميها منى فهى واهمة !.. لم يعد لى ولد !.. لن أرحمها ولن أرحمه !.. سأعيش لارى مصرعهما ، ثم أعيش سعيدا واضعا نصب عينى صورة هذا المصرع المزدوج ، متخذا منه حافزا كان ينقصنى لمواصلة الحياة والجهاد بهمة تطاول تلك الهمة الجبارة التى يمتاز بها مليكى !.. هذا عزمى !

الملك الاسود ـ هلا تتحول عنه بعد اليوم ؟

بوريس ـ كيف أتحول والخديعة فى دمى ؟..

الملك الاسود ـ اذن فسأدعك تنعم بلذة الانتقام وتأدية الواجب. سأدعك تنعم بلذة قتل حبيبتك وولدك. ولكنى مقابل تمتعك بهذه اللذة العظيمة ، سأجردك من شىء ثمين تعرفه.. من أثمن شىء لديك بعد حبك وبعد ولدك..

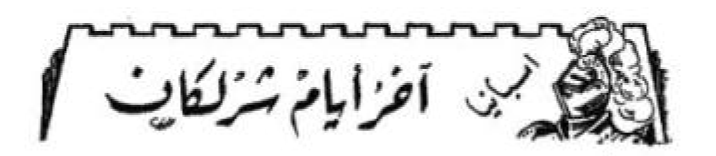
بوريس ناظرا اليه فى رعب ـ وما هو ؟..

الملك الاسود مقهقها ـ ألم تعرفه بعد ؟.. (ويلتفت الى العقل الصامت المتنبه المرتعد) غدا أيها العقل تغادر بوريس وتتبعنى..

بوريس فى لهفة المذعور ـ لا تأخذه منى. انه الحياة !

الملك الابيض ـ لا تحزن.. الجنون أقوى من الحياة !

(يرسل بوريس صرخة ويقع مغشيا عليه)



حدث فى أواخر عهد الأمبراطور شارلكان ان سئمت نفس هذا العاهل العظيم مفاتن الدنيا الباطلة فانقطع للصلاة والعبادة فى أحد الأديرة . وهذه القصة تمثل مأساة تصور المؤلف أنها وقعت لشارلكان ليرسم حالة نفسية تقترن فيها نزعة التجرد بجاذبية الحب

كان دير القديس « جيرونيمو دى يوست » فى ضاحية بلدة « استرامادورا » التابعة لاقليم كاسيرس باسبانيا ، ساكنا كعادته فى ذلك اليوم الربيعى الجميل ولم تكن هناك الا حركة خفيفة تمشى فى أروقته وتبدو آثارها غير المألوفة فى وجوه الرهبان المبتهجة وفى عيونهم المتألقة وفى همساتهم ، واقبال البعض منهم على فروض التأمل والتعبد فى لهفة شديدة وحرارة مضاعفة ، كمن يطلب الى الله تحقيق أمل عظيم أو اظهار معجزة رائعة

وكانت أروقة الدير فسيحة ينصب فيها ضوء النهار من خلال الاعمدة التى تحمل القباب العالية ، ويرسل اليها النسيم رائحة زكية تتصاعد من الحديقة الغناء المحيطة بالدير

ولم تكن تسمع غير زقزقة العصافير وحفيف أوراق الشجر ووقع خطى الرهبان

والحق أن الرهبان فى غدواتهم وروحاتهم كانوا كأنهم يحبسون أنفاسهم ، ويخنقون أصواتهم ، ويلمسون الارض بأقدامهم لمسا ، ويتجنبون احداث أية حركة عنيفة وان كانت نفوسهم التى غمرها الفرح قد أبت الا أن ينشطوا ويرفعوا عقائرهم ويتهللوا ، معربين عن سرورهم الخالص بما أحرزوه من نصر فى ذلك اليوم العظيم

وكان رئيس الدير يغدو ويروح فى الرواق الطويل المطل على الحديقة ، حاملا كتاب

الصلاة ، يطالع فيه ونظراته الطيبة الصافية تبتسم للرهبان كأنها تشجعهم على المرح والتبسط والاسترسال فى الحديث

فلما أبصروا ابتسامة التجاوز والتسامح تلمع على شفتى الرئيس الدقيقتين الصارمتين ، أشرقت وجوههم ونشطت حركاتهم وأخذوا يجتمعون فى شبه حلقات

وتقدموا بالرغم منهم جماعات صغيرة ، واحتدم النقاش فيما بينهم ، وانقلب حديث البعض منهم الى صياح ، واستغرقهم الفرح فلم يشعروا انهم قد أصبحوا فى نهاية الرواق بجوار نافذة الحجرة الصغيرة التى شغلت أفكارهم والتى كانوا يتحدثون عنها وعن الرجل الذى هبط عليهم أمس فجأة والذى يعيش الآن فيها . .

واقتربوا من الحجرة ، فلحق بهم الرئيس ، ولكنهم كانوا قد كروا راجعين اليه ثم أحاطوا به وطفقوا يهنئونه ويهنئون أنفسهم وهم يرددون : تلك معجزة ! . . تلك معجزة !

وانفضوا من حوله ثم تسربوا فرادى واتجهوا ثانية صوب النافذة ، يدفعهم الحرص على ذخيرتهم الغالية الى التأكد مرة أخرى أنها فى حوزتهم . بيد أنهم سرعان ما تراجعوا وانفتحت فى أيديهم كتب الصلاة ، وانسابوا فى الرواق الطويل وهم يغافلون رئيسهم ويتلفتون عسى أن تقع أبصارهم ولو على لمحة من وجه صاحب اليد التى فتحت النافذة بغتة ، وألقت فى قلوبهم شعورا بالهيبة ممزوجا بالقلق والخوف

وتقبض محيا الرئيس وعاودته صرامته ، فساد الصمت فى الرواق واستقر النظام ، وعندئذ شوهدت ذراع تبرز من النافذة ثم تنطوى وتتكىء على حافتها ، ثم أطل وجه مكفهر داكن حزين عرف فيه الجميع وجه العاهل شرلكان !

***

كانت الغرفة عارية الا من صليب صغير ثبت على الحائط وغرس فيه غصن من شجر الزيتون ، وصورة كبيرة للبابا ، وأخرى للقديس جيرنومو مؤسس الرهبنة . وكان يرى الناظر فى الزاوية اليمنى القريبة من النافذة مكتبا كبيرا تناثرت عليه بعض كتب يتوسطها تمثال صغير للمسيح ، وبجوار المكتب منضدة تحمل زهرية عالية من زجاج بنفسجى اللون ملئت بورود بيضاء ، وعلى أرض الغرفة سجادة حمراء يزيد فى توهجها البلاط الابيض النظيف اللامع

أما الزاوية اليسرى فكانت تنتهى بباب مفتوح يؤدى الى حجرة ثانية رحبة ، أقيم فى صدرها هيكل تحفه الازهار وينهض عليه تمثال كبير للعذراء تحتضن المسيح الطفل ، بين تمثال للقديس يوسف حاملا غصنا من الزنبق وآخر لنفس القديس جيرونومو مؤسس الرهبنة

وكان يبدو أمام الهيكل « مركع » خشبى أعد للصلاة ، وبالقرب منه مقعد بسيط أعد للكاهن المختار لتلقى سر الاعتراف . ففى هذه الغرفة الصغيرة كان يقضى العاهل شرلكان

سجادة نهاره ، وفى الحجرة الكبيرة كان يستمع للقداس جاثيا على المركع تجاه الهيكل ، وعلى المركع الخشبى كان يعترف للكاهن بخطاياه . أما الليل فكان يقضيه فى الطابق الاعلى فى غرفة منعزلة لا تحتوى الا على سرير ضيق مستطيل يعلوه الصليب المغروس بين أضلاعه غصن الزيتون

وها هو ذا شرلكان امبراطور ألمانيا بالامس وملك اسبانيا ، جالس الى المكتب معتمد رأسه بذراعه ، يسرح الطرف فى أنحاء الغرفة العارية ، ويمد بصره الزائغ الى حيث الهيكل المحلى بالازهار

لم يعد له فى الدنيا غير هذه المساحة المحدودة من الارض .. هنا يجب أن تهدأ نفسه وتستقر أحلامه وينتهى أفق حياته .. فى هذه الرقعة النائية الساكنة يجب أن يعيش ، ومن هذا الجو الحالم الخانق المذيب يجب أن يتغذى .. هو أراد ذلك ، وهو الذى هبط الدير فى طلب التجرد والعزلة ، ولكن الرغبة شىء ، والثبات عليها شىء آخر . الثبات مستحيل التحقيق بدون حب ، فعليه أن يروض النفس والعقل اذن على حب التجرد وحب العزلة أسوة بجميع من شاهدهم من الرهبان ، فهل يستطيع ؟ .. هل فى مقدوره انكار ماضيه وتوديع حاضره ؟ .. أمن أثار فى غضون ثلاثين سنة أكثر من عشر حروب توج معظمها بالنصر ، يرضى بمثل هذا الختام الهامد لحياته ؟ .. أمن هزم الترك وكسر شوكة بربروسه ودوخ فرنسوا الاول واقتاده أسيرا ، يستطيع أن يسل من نفسه دعوة الدنيا ويعيش فى ظلمة العدم بلا طمع ولا مجد كمن يشهد موته بعينيه وهو معطش ؟ .. لماذا دخل الدير وماذا دعاه ؟ .. لا شىء .. مجرد احساس .. احساس طارىء قوى

أحس فى مثل وقع الصاعقة أن كل شىء ما خلا الله باطل وقبض ريح ، كما يحس بعض العشاق فى مثل وقع الصاعقة أيضا ان كل شىء ما خلا حبهم لامرأة معينة باطل

زالت الغشاوة عن عينيه فجأة ، وسقط أمامه حجاب العالم . رأى فراغ المجد وعبث الحروب وعقم النصر وكذب المظاهر

رأى الانسان على حقيقته لا يبنى الا ليهدم ، ولا يهدم الا ليبنى لمحض لذة شيطانية يستمرئها فى الهدم والبناء على السواء

استهول ما جمعته المقادير فى يده من سلطان ، واستنكر كيف يحق له وهو فرد أن يملك مثل هذا السلطان

استسلم لاحلام الهدوء وصور الفناء تضرمها فى عقله وخياله تلك النار التى اندلعت فى فؤاده بغتة وأحالته والعالم الى هباء

لقد قطع أمس صلته بالدنيا ، وبعد أن نزل لاخيه الامير فرديناند عن تاج ألمانيا الامبراطورى ، ولابنه فيليب الثانى عن عرش اسبانيا ومستعمراتها فى امريكا ، وعن هولندا وايطاليا أيضا ، ودع أصدقاءه ومحبيه وغادر قصره بمفرده ويمم وجهه شطر هذا الدير .. دخل الدير متعبا من كل شىء ، زاهدا فى كل شىء ، معتقدا فى ذات نفسه أن الله قد

دعاه اليه . ولكن هل هو قد لبى نداء الله فقط ، أم أن هذا النداء قد اختلط بصوت آخر ظل يطارده حتى دفع به على الرغم منه الى هذا المكان ؟ . .

ارتجف شرلكان ، وأجال الطرف حوله مرة أخرى ، وتمثلت أمامه مأساته المزدوجة :

هو صادق فى زهده مخلص فى تجرده . ينشد من اعماق قلبه الراحة والصفاء . لكن هذه العزلة التى لم يألفها أحس أنها تضنيه وتعذبه

وهو الى جانب صدقه واخلاصه فى الاتجاه بجمع كيانه الى الله ، يشعر تمام الشعور أنه انما دخل الدير لا لينقطع للصلاة والتأمل فقط ولا ليعبد الله وحده ، بل ليفر أيضا من سحر مخلوق سيطر عليه واستبد به وساقه مختارا الى ارتكاب جريمة ما يزال يرتعد كلما تصورها ! . .

فاحساسه الشديد بان اخلاصه لله ليس اخلاصا بريئا ، وأن حبه لله قد يكون فى جوهره محض رغبة خفية فى الفرار من حب بشرى دنس محرم ، هذا الاحساس مقترنا بالعزلة المروعة التى لا تنفك تبعث فى ذهنه صور الماضى المحبب البغيض ، هو الذى كان يضاعف عذابه ويملأ نفسه حنقا على نفسه وحظه

أجل . ينبغى له الآن أن يروض مشاعره على احتمال أشباح العزلة ، ينبغى له أن يروض عقله وبدنه على مختلف ضروب التكفير . ينبغى له أن يروض قلبه على حب الله وحده ونسيان كل ما عداه . ولكن هل يستطيع ؟ . .

انه حديث عهد بحياة الدير ، حديث عهد بحياة التجرد . وها هو ذا الصمت يثير أعصابه ، وها هى ذى العزلة تستثير عواطفه وتستفز ذكرياته وتملأ الفضاء حوله بشتى الاشباح والرؤى

أشباح وأصوات يراها ويسمعها . . انه يسمع . . يسمع صوتا طالما ازعجه وأقض مضجعه ، صوتا يترامى اليه من أعماق الدهور ، من أبعد أغوار الزمن ، من بين ثنايا التوراة التى لا يفتأ يطالعها ، صوت النبى ناثان يقص على الملك داود هذه القصة :

« كان باحدى المدن رجلان أحدهما غنى والآخر فقير . وكان للغنى عدد كبير من النعاج ولم يكن للفقير سوى نعجة واحدة رباها مع أولاده وأطعمها من خبزه وأشربها من كأسه وأرقدها على صدره وأحبها كابنته

« وحدث أن غريبا نزل ضيفا على الغنى ، فلم يشأ الغنى أن يذبح احدى نعاجه ويطعم الضيف منها ، بل أخذ نعجة الفقير وذبحها وقدمها لضيفه . . »

هذه القصة الصغيرة كانت ترن فى مسمع شرلكان وهو فى وحدته . وكان يذكر ما جاء فى التوراة من أن الملك داود صاح بالنبى ناثان عند سماعها :

ــ هذا الرجل الغنى يستحق الموت !

فقال له النبى :

ــ أنت هذا الرجل . ولن تفلت من عقاب الله !

هو ذاك .. النعاج الكثيرة كانت نساء داود .. والرجل الفقير كان الملازم اليهودى « اوريا » .. والنعجة العزيزة الجميلة كانت « بتشابه » زوجة الملازم .. وأما الضيف الغريب فهو شهوة داود .. ولقد اشتهى داود تلك المرأة ولم تكفه نساؤه ، فارسل زوجها فى مهمة ليقتل ثم استولى على المرأة بعد أن ارتكب الجريمة !

وما فعله داود بالامس هو عين ما فعله شرلكان اليوم !

كان داود ملكا وكان شرلكان أعظم من ملك ، ولكنه لم يعف ولم يقنع

لقد هام شرلكان حبا بدونيا ماريا زوجة أحد ضباطه ، فلما عادت الحرب فنشبت بينه وبين فرانسوا الاول وغزا مقاطعات البروفانس وبيكارديا ، أرسل الضابط فى مهمة زعم أنها عسكرية ، ثم أوعز بقتله سرا فى الطريق . وهكذا فاز بالمرأة ، ولكن على جثة الزوج !

فاز بها ثم استفاق ضميره فابغضها . بيد أن البغض علمه كيف يحبها ، فاشتد تعلقا بها وزاده الألم والندم ولها وشغفا

كان يهجرها ثم لا يلبث أن يعود اليها . كان يقصيها تارة وتارة يقربها . كان يحب فيها الثمن الغالى الذى دفعه لامتلاكها !

وكان حبها أقوى وأعنف حب أصابه لانه كان ثمرة جريمة لم يرتكبها الا بعد أن تمنعت عليه المرأة فأطاعها وهو ذليل

فشعوره العميق بالذلة كان يلهب كبرياءه ويدفعه لاستعادة كرامته . واحساسه بتأنيب الضمير كان ينزع به الى التحرر والخلاص ، وميله الطارىء الى الزهد كان يسوقه الى الفرار لا من الدنيا فقط ، بل من الحب ومن الجريمة ، ومن المرأة التى أذاقته طعم الحب فهونت عليه الجريمة

ولقد ودع الجميع بالامس قبل أن يذهب الى الدير ، ولكنه لم يودعها . لم يرسل فى طلبها . لم ينبئها بعزمه الاخير . أراد أن يرحل دون أن يراها ، وكان يخشى لو أبصرها أن يضعف

ولقد جرى فى روعه لحظة أن يذهب اليها ويصارحها بعزمه ويجرب أمامها قواه ، ولكن مجرد التماع هذه الفكرة فى ذهنه أوشك أن يثبط عزيمته ويفضى به الى التردد والاحجام

وهذا التردد ، هذا الضعف ، هذا الاحجام عن الذهاب اليها بالامس هو الذى كان يسومه اليوم مر العذاب

كان يشعر أنه ما يزال يحبها وانه لن يتطهر ولن يصفو ولن يحب الله حقا الا متى تمكن من اخماد جذوة حبها . فلكى يحس القدرة على المضى فى هذا الجهاد ، جاء شرلكان الى هنا . ولكنه حتى الساعة لم يدرك تماما خطر ما أقدم عليه . لم يدرك بعد أن عليه

أن يعتكف ويصلي ، أن يبتهل ويكبت ، أن يشقى ويحتمل ، كل يوم وكل ساعة ، الى أن يلفظ النفس الأخير

وكان قد عكف منذ الفجر عقب سماع القداس فى الهيكل الصغير ، على مطالعة بعض صفحات من كتاب « منهج التقوى » للقديس « اينياس دى لويولا » وكتاب « المجموعة اللاهوتية » للقديس « توماس الاكوينى » . وكان قد أخذ منه التعب فجعل يعبث بلحيته المستديرة النافرة وينقل بصره الشارد من الحديقة الى الغرفة وهو كالمأخوذ

وبعد أن طوى الكتابين ، نهض متثاقلا واتكأ على حافة النافذة ، وطفق يرقب الرهبان مستغربا هدوءهم مندهشا لصبرهم متعجبا لبشاشتهم ، حاسـدا اياهم على نعمة الصفاء وموهبة الاحتمال

وسطعت الشمس ، فانصبت عليه أشعتها ، فاستبان الرهبان وجهه وحيوه باجلال وهم يمرون بالرواق صامتين وكتب الصلاة مفتحة فى أيديهم

وكان شرلكان اذ ذاك فى نحو الخامسة والخمسين من عمره ضامر الوجـه منقبض التقاطيع منتفخ الجفنين بارز العينين ذا أنف أقنى وفم صغير وشفتين دقيقتين ، يعلوهما شارب رفيع وتحيط بهما لحية مستديرة نافرة

لم يكن جميلا ولكنه كان مهيبا . وكانت هيبته المنبعثة من ذكاء عينيه الوقادتين وعزة أنفه الأقنى وصرامة شفتيه الدقيقتين هى سر جماله . على أن هذا الجمال برغم كونه جمال سلطان وقوة ، كان فى نفس الوقت جمالا ذا لمحة انسانية واضحة تتجلى فى غضون الجبين وتعب الجفنين وسهوم العينين وشرودهما الحالم عند التأمل والتفكير

ولبث شرلكان لحظة وهو يتأمل رقص أغصان الشجيرات تحط عليها العصافير ، وتقزز الماء ينبثق متضاحكا من النافورة وينصب خيوطا من فضة فى الحوض الكبير القائم فى وسط الحديقة ، ثم نفد صبره فانثنى الى المكتب ، ثم جلس وهم بمعاودة المطالعة . ولكنه نهض ثانية ثم وقف برهة يفكر ، ثم راح يطوف بالغرفة مصدوع الرأس منقبض الصدر ، لا يدرى كيف يمكنه أن يتنفس فى هذا المحيط الضيق الخانق

ولمح فى منطلق بصره تمثال العذراء بثوبها الازرق وقدميها اللتين تسحقان الأفعى ، فمشى الى حيث باب حجرة الهيكل ودخل الحجرة وارتقى على المركع وغمغم وهو يطمر وجهه بين راحتيه : « لم أودعها !.. كان يجب أن أراها !.. »

وظل فى غيبوبته ، ثم رفع عينيه الى العذراء يلتمس منها الرحمة . فاصغت اليه وحنت عليه وكلمته .. ولكن بصيرته كانت لم تزل عمياء ، وأذنه صماء ، ونفسه مغلقة ، فلم يبصر ولم يسمع

لم يسمع غير صوته وهو يغمغم نفس العبارة : « لم أودعها !.. كان يجب أن أراها !»

وبرحت به الحسرة ، واهتاجته الذكريات ، وأحنقته العزلة ، وأثاره الصمت وضيق المكان ، فغادر حجرة الهيكل ، وعاد فاتكأ على حافة النافذة ناظرا بقسوة الى الرهبان كأنه

يقم عليهم هذا الصفاء الذى لم يعرف سبيلا الى قلبه بعد

وفجأة ، اهتز هزة عنيفة ثم وضع يده على قلبه، ثم جمد وتصبب جبينه بالعرق. اختلجت أهدابه واتسعت حدقتاه ورأى . .

رأى على عتبة باب الحديقة وتحت قوس من الازهار ، دونيا ماريا تستأذن الراهب بواب الدير بالدخول وتتقدم بخطى وئيدة ورأسها مرفوع وعيناها ذاهلتان ، وتتجه برفقة الراهب الى حجرة الانتظار الكائنة فى طرف قصى من الحديقة تحت الجناح المنفصل الذى يقيم فيه الرجل الذى جاءت لتراه

***

وكان لا يسمح بدخول امرأة الى الدير أبدا ، ولكن شرلكان لم يكن راهبا وكان أكبر شخصية فى الدولة لجأت الى الدير لتقوم ببعض رياضات روحية قد ينتهى أجلها فى أى وقت ، كما أنها قد تدوم حتى وفاة صاحبها . فشارلكان كان حرا فى استقبال من يشاء فى جناحه الخاص الذى لم يكن يصل بينه وبين الدير غير ذلك الرواق الطويل المطل على الحديقة

فلما أعلنه بواب الدير بقدوم سيدة تطلب أن تراه ، أشار اليه بأن يدعها تدخل ، ثم أسرع الى حجرة الهيكل وجاء بالمقعد الخشبى ووضعه تجاه المكتب وانتظر

وبعد لحظة لاحت دونيا ماريا بالباب متشحة بالسواد ، ولكنها لم تكد تدخل حتى توقفت

هالها منظر الغرفة العارية والوجه الشاحب الذى طالعها به شرلكان ، فصاحت :

ـ أنت هنا ؟ . . فى هذا المكان ؟ . .

وكانت امرأة فى نحو الثلاثين من عمرها طويلة القامة مليئة البدن راسخة القدم على الارض ، ذات كتفين عريضين وذراعين عبلتين وصدر مكتنز ومظهر قوة بدنية يتنافى ورقة وجهها النحيل ، وضنى خديها الغائرين ، وسحر عينيها السوداوين الكبيرتين اللتين تكاد شعلتهما أن تلتهم الوجه التهاما

كان الضعف باديا فى معارف وجهها والقوة ممثلة فى أجزاء جسمها . وكان فيها مزيج من الأنوثة والرجولة هو الذى افتتن به شرلكان

ونظر اليها من كان بالامس سيد أوربا ، وجاشت فى نفسه الحسرة ، فلم يستطع الكلام وأطرق ، وجاهد ثم قال بصوت منخفض أجش :

ـ يعز على أنى لم أودعك . . كان يجب أن أراك ، ولكنى خشيت أن أضعف !

فمدت رأسها واهتزت جدائل شعرها الفاحم وقالت :

ـ كيف فعلت هذا ؟ . .

وأردفت ويدها على صدرها : « كيف كتمته عنى ؟ . . »

فأجاب وهو يحدق الى أصابعها المتفرجة كأوراق الزهر :

ـ لم يعد فى مقدورى أن أعيش بقربك . .

وسقط على المقعد الذى كان قد أعده لها ، وبسط راحتيه ، وقال فى بؤس لا حد له :

ـ ضميرى يبكتنى ! . .

ثم رفع بصره اليها وألقى هذه العبارة فى بطء :

ـ كانت يقظة ضميرى عظيمة يا ماريا بقدر عظمة تمنى بك !

وعاد فأطرق ثم استطرد بصوت كأنه خارج من ظلمات كهف :

ـ الجريمة ضاعفت الشهوة ، والشهوة ضاعفت الجريمة وسممت حبنا . . ألم تشعرى بذلك يا ماريا ؟

فأجابت وعيناها تتقدان :

ـ لا . . بل شعرت أنك سعيد ، وكان هذا حسبى !

وخطت خطوة فارتج بدنها الوطيد وأردفت :

ـ لم أحبك يا شارل قدر ما أحببتك بعد الجريمة !

فانتفض وقال :

ـ وهذا الاحساس بالذات هو الذى أيقظنى

فقطبت حاجبيها وقالت ولم تحفل :

ـ أتلومنى على حب أذكيته بالجريمة أنت نفسك ؟ . .

فغمغم ورأسه يرتعش :

ـ لم أكن أدرى . . لم أكن أتصور . .

وفجأة أمسك بيديها ثم نهض وقال وهو يحملق فيها :

ـ عودى من حيث أتيت يا ماريا !

فلبثت شاخصة اليه كأنها لم تسمع ، فهز يدها فى عنف وردد : عودى من حيث أتيت !

فلم تتحرك ، وقالت فى هدوء وهى لا تنفك تتفرس فيه :

ـ أنا أعرفك . أنت لا تنشد غير اللذة ، اللذة الطريفة الغريبة . سعيت وراء لذة الحب فلما ارتويت منها وأسأمتك ، غذيتها بالجريمة لتقرنها بلذة الألم والتكفير . . أنت ملك حتى فى نزواتك . ولكنك ستعود الى الحب المجرد بعد أن تزهد فى الحب المشبع بالعذاب

فصاح : « لن أعود ! . . أنت واهمة ! . . ما جئت الى هنا كى أنعم بلذة شاذة ، وانما جئت مودعا جميع اللذات . . لقد حلت نعمة الله على ! . . ألم تشهدى البرق أبدا وهو يضرب الشجرة بالصاعقة فيحرقها ؟ . . هكذا احترقت حياتى ، حياة المجد والحب ، تحت ضربة النور الالاهى العاتية ! . . لم يعد فى الدنيا ما يستوقفنى ! . . التكفير عن جريمتى هو احدى غاياتى ، ولكن هبة نفسى المطلقة لله هى قبلتى ! . . أنا هنا يا ماريا لان الله هو الذى دعانى ! »

فاضطرمت شعلة عينيها وقالت وهى تلهث :

ـ اذن فقد وجدت العزاء فى الله ؟

فأجاب منكسا رأسه : هو ذاك !..

فابتسمت نصف ابتسامة مرة ، وقالت وهى تلوى شفتيها ألما وحنقا :

ـ وأنا ، أين أجد الآن عزائى ؟.. لم يعد لى زوج وليس لى ولد ، فاذا فقدتك أنت فأين أجد العزاء ؟..

وشرق جفناها بالدموع ، وترامت عيناها كحقين بعثرت منهما لآلىء ، فتمزق فؤاد شرلكان وقاوم نفسه مخافة أن يتأثر ويرحم

ورددت ماريا فى شبه نواح : أين أجد العزاء ؟

فتمتم : فى الله اذا شئت . فهو يسع كل حب ويعزى عن كل ألم

فصرخت : حبى هو كل شىء عندى . ولن أستطيع أن أجد العزاء الا فيه !

فصوب اليها من خلال أهدابه نظرة قاسية وقال :

ـ أنسيت انك شجعتنى على الجريمة يا ماريا ؟.. أنت أيضا يجب أن تكفرى !

فقالت وقد جف دمعها :

ـ شجعتك على الجريمة لاعيش معك ، لا لادفن نفسى حية وأنا بعيدة عنك . أنا لا أريد ان أعاقب نفسى لانى لا أشعر أنى أذنبت . اخلاصى لك قد طهرنى !

فحجب عينيه بيده استفظاعا وقال :

ـ عواطفك الوحشية هذه هى التى ردتنى الى صوابى . ليتك كنت أقل حبا وأقل فرحا .. ليتك أظهرت الندم ولو .. ولو تمويها ..

وأردف فى صرخة : ولو انك فعلت، لماكان فى مقدورنا مع ذلك أن نقتل شبح الرجل، بعد أن قتلنا منه اللحم والعظم .. عند ما كان زوجك حيا لم أفطن لحظة لوجوده . لم أكن أحسب له أى حساب . فلما زينت لى الحب خالصا من كل قيد ، ناعما فى بحبوحة الراحة ، مطمئنا فى جو الاثرة والانانية ، محفوفا بفتنة الحرية ، فاقدمت على القتل ، وضحت صورة الرجل أمامى واكتسب لفوره أهمية مروعة عندى .. أصبح وهو قتيل أوفر ألف مرة حياة ونشاطا وقوة مما كان وهو حى .. أصبح غريمى .. وأصبحت أغار منه .. كنت أجده بيننا .. دائما بيننا .. فى أفكارنا .. فى عواطفنا .. فى فراشنا .. وكانى لم أقتله الا لأهبه بنفسى حق امتلاكك وحبك ! هذا فظيع !.. لقد اجتاح شخصى واستقر منى فى الصميم . وبدل أن أتخلص منه استعبدنى وغزانى . لا .. لن أستطيع الافلات منه !

فقالت وهى تتعلق به وتضرم فيه حتى ارادتها :

ـ حبى قادر على كل شىء !

فمرق منها برفق وقال :

ـ الا على الماضى ! وماضى الانسان لن يموت الا اذا مات جسمه أو تجددت روحه . ولقد جئت الى هنا كى أموت يا ماريا . أموت عن الدنيا . أموت عن حبى ومجدى وآمالى وأبعث فى حياة جديدة لا تمت الى الماضى بصلة .. فدعينى يا ماريا .. دعينى واذهبى .. لك أنت الحياة .. كل الحياة .. انسنى .. حبى .. تمتعى .. تزوجى .. ألوف من الشباب يشتهون قبلة منك .. أما أنا فقد هرمت .. هرمت على يد الحب يا ماريا بدل أن أجدد شبابى !.. فما نفعك منى يا بنيتى ؟.. اذهبى .. اذهبى ..

وأقصاها عنه ثم أدناها ثم ردها ثانية وهو كالمخبول ، ثم قال منعما النظر فيها وصوته يتهدج ، وحسرته تكاد تخنقه :

ـ لن أراك بعد الآن يا ماريا ؟!.. لن أراك ؟!.. آه . ما أشد ما كنت أود أن أقدمك لله هدية شكر وفرح !.. يا ويلى !.. يا بهجة روح جعلت منها فريسة جسد !.. يا اناء ماء نقى صببت فيه قطرات سم !.. يا وردتى .. يا وردة سرية .. يا بيتا من ذهب .. يا نجمة الصبح .. يا شفاء المرضى .. لماذا شوه حبى الدنس براءة محاسنك يا من كنت بالامس فى عفة مجدك الزوجى سلطانة حتى على العذارى ؟.. يا ويلى من الله يا ماريا !.. أنت زهرة نزعتها بيدى من حديقة النور وكنت أتمنى لو استطعت غرسها من جديد تحت أشعة الشمس ! يا أسفى عليك يا ماريا . يا أسف الملائكة عليك يا ماريا . اذهبى ..

وكان يعض شفتيه حابسا دموعه وهو يتأمل صرح بدنها الرائع ، وبهاء فتوتها الساحر ، وقوس ردفها الثقيل ، وهزة ثديها الناهد . وكان يشعر أنه يشتهيها ، ويتصور فى نفس الوقت أن جسمها قد تجرد من كل مفاتن الشهوة وأصبح رمزا لقوة العفة وجمالها الذى لا ينال

ولم تحفل بكلماته ، بل أحست وقع نظراته ، فاختلجت ودب فيها الأمل ، فانحنت عليه وقالت وهى تلفح وجهه بحرارة أنفاسها :

ـ أنت تحبنى !.. ما زلت تحبنى ! أنت تفر الى الله من حبك . أنت تكذب على الله ! أنت لا تحبه وحده .. عزلتك مملوءة بى !.. ستحب الله فى أنا !.. لن تحبه وحده أبدا !.. فعلام هذا النفاق ؟ عد الى قوتك .. عد الى الحياة .. حسبك أنك كفرت عن ذنبك بالنزول عن عرشك .. حسبك هذا وتعال .. تعال معى .. لن تكون حياتك هنا الا محض نفاق وعذاب !

فدفعها عنه ، ثم ثبت نظره فيها وقال فى بطء ارتعدت له فرائصها :

ـ انى أكرهك يا ماريا ، فكيف تريدين أن أتبعك ؟

فتثلجت أعضاؤها ، وشمرت فجأة كأن الموت يحتويها . ولم يكن فيها شىء حى غير عينيها اللتين كانتا عبثا تدوران وتحاولان البحث عن عينيه وهو يلوى بوجهه ويقول :

ـ لم أعد أحبك لانى لم أعد أحب نفسى التى كانت بالامس تحبك .. أنت متعلقة بهذه النفس ، أما أنا فقد قضيت عليها .. ومع ذلك فأنا انسان ، أريد أن أستنقذ من

الماضي ولو بعض الحطام . أريد أن أبعث من الماضي ما هو خليق بأن يصبح مستقبلا باهر الضياء . أريد أن أحب .. أن أكون محبوبا .. أريد أن أحبك يا ماريا بنفسي الجديدة ، كما أتمنى من صميم فؤادي المكلوم لو أنك أحببتني بنفس جديدة أنت أيضا .. ولكن أنى لي ذلك يا ماريا . لي قدرة على شخصي ، بيد أني عاجز أمامك كطفل . لقد اندمجت فيك وفنيت، ومع ذلك أشعر أنك غريبة عنى ، منفصلة عن عالمي، لا أستطيع تبديل جوهر نفسك كأنى لم أحظ بك أبدا ، وكأنك لم تكوني لي !.. يا لسراب الحب الخادع !.. يا لتقارب الاجساد وتناكر الارواح !.. ما حيلتي فيما لست قادرا على ضمه الى صدري وتغذيته بإيماني وابداعه بعقلي وارادتي ؟!.. كلا .. محال !.. ان روحك القديم لن يموت . الزانية والقاتلة لم تزل حية فيك . الخطيئة ترتع في بدنك . الشهوة تفيض من عينيك . الرذيلة تكمن في قلبك . تحدى الله يملأ صوتك . الكبرياء تمج كفرا من لسانك ، الشيطان يجثم على صدرك . لم تحل نعمة الله عليك بعد ، ولذلك لا أستطيع مهما حاولت ، ان أحبك !.. لا أستطيع وسأتعذب .. سأتعذب هنا أضعاف ما تتصورين. سأتعذب ليأسي من أني لم أستطع خلاص نفسك كي أحبك في الله الحب الوحيد العظيم الباقي !.. فيا أسفي عليك يا ماريا .. لم يعد في مقدوري أن أراك أنت التي كنت في عيني ملء الدنيا !.. اذهبي

وضاق ذرعا بألمه فانفجر بالبكاء . بكى ومع دموعه انهارت رجولته، وتلاشت عظمته ، واختفى مجده ، وزالت معالم شخصيته ، وبعد أن كان جبارا يشد فتح العالم ، استحال الى انسان لا يمكن أن يقتنع بحب الله نفسه الا اذا اقترن بحب امرأة

ونظرت اليه دونيا ماريا طويلا ، وتمزق فؤادها شفقة عليه

رأته محنى الظهر ، شاحب الوجه ، منطفىء العينين ، غائر الخدين معتصر القوى . فايقنت أنه لا يحبها فقط ، بل يحبها الى حد الجنون ، الى حد الامل العجيب في ادماجها في حب ربه ، بحيث لو خاب هذا الامل فلن تكون حياته في الدير الا حلقة من عذاب

أيقنت أن بطولة جديدة حلت فيه ، وأنه سيظل يصوم ويصلي ويعذب جسده المسكين حتى يبدل نفس حبيبته ويطهرها ويقدمها لله هدية شكر وفرح كما قال . ولبثت تحدق اليه وهي تفكر

وكان قد حان موعد رياضة الصباح الروحية التي يعقبها عادة انشاد التراتيل وتلاوة المزامير ، وكان الرهبان قد غادروا الرواق الى كنيسة الدير وساد الصمت في الحديقة ، ولم تعد تسمع غير زقزقة العصافير مختلطة بحفيف الاشجار وهبات النسيم

فأجالت دونيا ماريا البصر حولها ، وملك قلبها هذا السكون الذي لم تعرفه أبدا أثر فيها وروعها . سحرها وأخافها . نزل عليها بعد العاصفة بردا وسلاما ، فاضطربت ودهشت ، وتذوقت لذة غريبة لا عهد لها بها . شعرت بجاذبية الراحة التي يحسها الانسان في المقابر ، وتصل في لحظة بينه وبين الابد

فارتعشت وثابت ، ولوحت بيدها تطرد هذا التأثير . ولكنها لم تكد تلتفت وتأخذ عيناها صور الحب والتضحية والبطولة والعذاب ممثلة فى وجه شرلكان مليكها وحبيبها وسيد ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، حتى غمرت الشفقة قلبها وجددت عزيمتها ، فدنت منه ، وفى حنو عميق وارادة لا تقاوم ، وقد تصلبت أعضاؤها ولمع بصرها ، أراقت من فمها هذه العبارة كأنما هى تريق معها حياتها :

ـ شارل . سأدخل دير سانتا لوتشيا غدا !..

فنظر اليها مبهوتا ، ثم صاح وقد فاض محياه بالفرح والنور : ماذا تقولين ؟

فرددت عبارتها بنفس القوة ونفس الهدوء

فتأملها لحظة ، فألفاها مكفهرة الوجه جامدة التقاطيع مستسلمة متواكلة منسحقة ، ولكن ثابتة عازمة متأهبة ، فزايله ابتهاجه ، وأدرك الحقيقة المروعة المرة ..

أدرك أنه لم يبدل من نفسها شيئا . أدرك أن صوت روحه لم يبلغ مسمعها ، وأن دعوة الله لم تنفذ الى قلبها

أدرك أنها من أجله فقط ، من أجل سعادته ، من أجل حبه ، وفى سبيل ارضائه ، تباريه فى البطولة ، وتقدم على تضحية تفوق تضحيته ، وتختار لحياتها نفس المصير

وبالرغم من أنه أدرك كل هذا ، وعلم علم اليقين أنها سوف تضحى أكثر منه ، وتبذل أكثر منه ، وتعذب أكثر منه ، فقد أبى أن يحلها من كلمتها ، أبى أن يثنيها عن عزمها ، أبى أن يرحمها

وقبل أن تستفيق وتنتبه وتراجع نفسها ، أمسك بيدها واقتادها فى قسوة وحشية الى حجرة الهيكل ، وطلب اليها أن تؤكد عزمها أمام العذراء بقسم . فأطاعته وهى فى شبه حلم . ورفعت ذراعها المرتعشة وغمغمت :

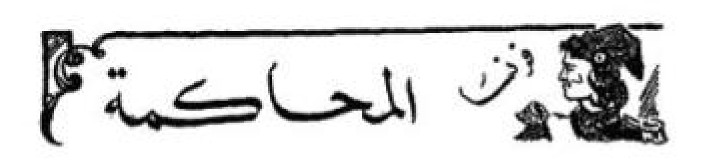
ـ أقسم أمام العذراء أن أدخل الدير غدا !

ووقفت ذاهلة تنتظر . فلم يتحرك . فنظرت اليه ونظر اليها وارتجف كلاهما ، ولم يجسر أحد منهما على أن يقبل الآخر قبلة الوداع

فضمت دونيا ماريا طرفى معطفها الأسود الى صدرها ، وأحنت رأسها تحيى العذراء ، ثم استدارت وخرجت فى هدوء

وعندئذ تصاعد فى الجو الساكن صوت راهب يتلو أحد مزامير الملك داود . وترامى الصوت وشاع فى الحجرة يقول : « .. أما أنا فمثل شجرة زيتون خضراء فى بيت الله . توكلت على رحمته الى الدهر والابد . أحمدك الى الدهر يا الله لانك فعلت ، وانتظر اسمك لانك تستجيب دعاء الاتقياء .. »

فلما سمع شرلكان هذا الكلام ، أيقن أن الله قد رضى عما فعل ، وانه سوف ينقذ روح ماريا ، فزايله الندم على قسوته ، وخر ساجدا وقبل الارض !..



تدور حوادث هذه القصة إبان الثورة الفرنسية وسقوط الباستيل وهى تمثل الروح الوطنية الملتهبة التى كانت متملكة من قلوب الثوار فى كفاحهم ضد الملكة مارى انطوانيت التى استعانت بالأجنبى على قمع الثورة وإخماد مبادئها كما استعانت ببعض الخوارج من أنصار الطبقة الارستقراطية لتحقيق الغاية نفسها . ويعلم القارىء كيف كان مصير مارى انطوانيت على أيدى رجال الثورة

كانت الريح تعصف فى الخارج ، والمطر يهطل ، والرعد يدحرج أثقاله فى السماء ، والظلمة الحالكة تجلل باريس الراقدة ، والبرق يلمع لمعانا يلقى الذعر فى القلوب

وكانت مدام « ارماس جودار » جالسة وحدها فى احدى غرف دارها ، تمد قدميها نحو المصطلى ، وتتأمل النار وهى تستحيل شيئا فشيئا الى رماد ..

ولم يكن فى البيت معها الا الخادم هنريت ، والبستانى العجوز لوسيان

وكانت الغرفة فاخرة الأثاث مزدانة ببعض صور أبطال الثورة الفرنسية ، وفى زاوية منها ينهض تمثال « دانتون » على قاعدة طويلة من المرمر الخالص ، وفى زاوية أخرى مرآة كبيرة ينعكس فيها محيا ربة الدار

وربة الدار هذه كانت امرأة فى الحلقة الرابعة من عمرها ، سمراء اللون ، فاحمة الشعر ، ذات عينين كحيلتين غمرهما الأسى ، وجبهة ناصعة عالية ، وفم دقيق نائىء بعض الشىء يبدو فى شكل قلب صغير يائس حزين ، وذقن مستديرة جميلة يكمن فيها طابع حسن يأخذ بالالباب

وكان أروع ما في هذه المرأة سواد عينيها وشعرها ، فقد كان يلقى على جسمها النحيل ظلا من الرهبة ، يوحي بما في أخلاقها من استقامة ، وبما في طباعها من نبل

على أن نظرتها المنطفئة الهامدة ، كان يشع منها الوقت بعد الآخر بريق ينم عن تلك القسوة الدفينة المتصفة بها شخصيات الغالبية العظمى من السيدات الفضليات ، أولئك اللواتي قل أن يتسامحن في كل ما يتعلق بالشرف ، وقل أن يغتفرن للرجال والنساء سلوكا شاذا يخرج بهم عن دائرة القواعد الاخلاقية التي اصطلح عليها المجتمع

وكانت أرمانس تحدق الى النار وتتأمل .. تتأمل فيما انتهت اليه حياتها ، وفي الكارثة التي أصابتها ، وفي بيتها الذي أصبح قفرا موحشا ، وفي نفسها التي حرمت فجأة نعمة الالفة البيتية وفقدت بين يوم وليلة مختلف الكنوز التي كانت تفيض بها عليها عاطفة الحب المتبادل المشترك

وطافت بها الذكريات وعادت بخيالها الى الماضي . فتمثلت زوجها المسيو جودار بوجهه البسام الصبوح ، وعينيه الناعستين الحالمتين ، ودماثة طبعه ، وكريم سجاياه ، وحرصه الشديد على راحتها ، ووفائه العظيم لها ، وحبه الصادق العميق الذي لن يعوض أبدا

وكان أعجب وأبقى ما استقر في خيالها منه ، ايمانه القوي بالله ، وتعلقه بالدين ، وقيامه اليومي بالواجبات التي تفرضها الكنيسة ، واقتران هذه التقوى في نفسه بعواطف وطنية ملتهبة واخلاص لمبادىء الثورة وتعاليمها نادر المثال

والواقع ان هذا التوفيق بين تعاليم الثورة وتعاليم الكنيسة ، كان مثار السخرية في ذلك العهد . فمعظم أقطاب الثورة كانوا أعداء الكنيسة ومعظم كبار رجال العصر كانوا ملحدين لا يؤمنون بغير العقل ولا يدينون بغير الفضائل التي تصدر عن الانسان لا خوفا من عقاب أو رغبة في ثواب بل خدمة للانسان نفسه وتمجيدا للفضيلة ذاتها . بيد ان هذه النزعة لم تكن لتحول بينهم وبين الاستمتاع بمباهج الحياة ولا سيما دانتون الذي لم يعرف الحرمان والذي اشتهر بقدرة خارقة على التمتع دونها قدرته على الخطابة واثارة جماهير الشعب

أما « برتران جودار » زوج أرمانس فكان يسرف في اتباع نظرية الحرمان اسرافا طالما لامته عليه زوجه . كان مولعا بالزهد ، مغرما بالتقشف ، كلفا بالبساطة في المأكل والملبس ، يعتقد اعتقادا راسخا أن اذلال الجسد فيه حياة للروح وانه يمكن الانسان في نفس الوقت من الانصراف الى تحقيق عظائم الامور . وكانت هذه الظاهرة على ما فيها من غلو تخلب لب ارمانس ، وتضاعف اعجابها بزوجها ، وحبها له ، واطمئنانها على مستقبلها البيتي وسعادتها الزوجية

ولقد كانت تتمنى أن يكون لها ولد منه . ولكن القدر أبى الا أن يحرمها متعة الامومة ، ويشركها بالرغم منها في حياة الحرمان ، ويتجه بحبها كله نحو زوجها

والحق أن الغيرة من امرأة أخيها لم تتطرق الى قلبها أبدا . لم تحسد « ايفون » على

سعادتها الكاملة ، على أن لها خمسة أبناء أشبه بالزهرات النامية يملأن قلبها فرحا وأملا ويملأن بيتها بهجة وسرورا

كلا .. لم تحسدها وان كانت فى بعض الاحيان تأخذ عليها اهتمامها الشديد بزينتها ، وشيئا من الخفة والطيش فى أخلاقها ، وأثرا من الخلاعة خلفته فيها والدتها التى كانت تعمل فى مستهل شبابها راقصة فى أحد مسارح باريس

فالخصب كان يميز ايفون وكذلك الجمال أما ارماس فكانت الزوجة العاقر والمرأة التى لم تخلق لالهاب شهوات الرجال . ومع ذلك فقد كانت سعيدة ، سعيدة باخلاص زوجها ، سعيدة بحبهما ، سعيدة بالصفاء الرائع الذى لم تشبه شائبة والذى غمر حياتها الزوجية مدى عشر سنوات

ويا ليتها ظلت عاقرا وظل زوجها على قيد الحياة . ولكن الحظ غدر بها ، ولم يمنحها ذلك القسط من السعادة الا ليسلبه منها ، وها هى ذى جالسة الى المصطلى تحدق الى النار والرماد وتعرض مخلفات ماضيها ، وتذكر زوجها المعبود الذى توفى أمس فقط بداء القلب وخلفها بين شقيقها وامرأته وأبنائه ، وكلهم شباب أصحاء سعداء ، وحيدة ذليلة لا يمكن أن تلوذ الا بالماضى ، ولا يمكن أن تعيش الا فى عالم الذكرى

وازدحمت فى ذهنها الخيالات ، وتضاربت الاحلام والرؤى ، فأجالت الطرف حولها تبحث فى أرجاء الدار عن تلك الحياة الطيبة الرحيمة التى كانت تغشاها منذ ساعات ..

لقد انصرف المعزون الواحد تلو الآخر ، وكذلك انصرف شقيقها وزوجه وأبناؤه ، فلم تعد تبصر وجها شفيقا ، ولم تعد تسمع كلمة رقيقة ، ولم تعد تدرى هل ما زالت ربة بيتها ، أم أن طوائف المعزين قد غادرته كى تغادره هى أيضا بدورها

أجل .. أحست كأن لم يعد لها بيت بعد أن أصبحت وليس لها رجل .. فنهضت ، نهضت بالرغم منها ، نهضت والوحدة تدفعها ، والحنان يجذبها ، والحسرة تستثيرها ، نهضت تبحث عن الرجل .. نهضت تنشد لمحة منه ، نظرة من محياه ، صوتا من قلبه ، ابتسامة من عينيه !.. أرادت أن تستعيد حياتهما ولو بالوهم ، أن تجددها ولو لحظات ، أن تبعث تلك الألفة الزوجية من مرقدها ، أن تروض النفس منذ اليوم على الحياة فيها ، أن تغالب الموت وتخضعه وتقهره

دخلت مخدع زوجها وجعلت تتحسس ملابسه وتبكى . ثم تناولت صورته وأوسعتها ضما وتقبيلا. ثم مضت تناجيها وتخاطبها. ثم لج بها الألم فاضطجعت على فراشه ودثرت نفسها بأغطيته . ثم هبت مرتاعة مذعورة وقد خيل اليها أن عقلها ينحدر شيئا فشيئا الى هاوية سوداء لا قرار لها

ولم تغادر المخدع الا لتدخل حجرة العمل . هناك حيث المكتب الكبير بأوراقه المكدسة وحيث المكتبة رصت على رفوفها المجلدات الثمينة يعلوها الغبار ، وحيث المقعد الذى كان يجلس عليه زوجها ، مجوفا خاويا جامدا ، يشكو فراغه وكأنه يتشوق لعودة صاحبه

نظرت الى المقعد وانهمرت من عينيها الدموع . وبخطى حذرة خفيفة دارت حول المكتب ، ثم جلست على المقعد ، ثم طوت ذراعيها وشرد بصرها فى الفضاء الضيق المظلم

وانقضت فترة زاد فيها شعور ارمانس بالوحدة ، وخوفها منها ، فمدت أصابعها تقلب الاوراق وتعبث بها وتفتحها ثم تطويها ثم ترتبها على ذات النسق الذى كان يتبعه زوجها

وفجأة خالجتها نفس الرغبة فى بعث الصلات الحميمة التى كانت تربطها بفقيدها ، فارادت أن تعيش فى صحبة فكره ، أن ترى أوراقه الخاصة ، أن تنبش رسائله ، أن تفتح أدراج هذا المكتب الذى لم تلمسه أبدا يداها ، والذى باغت الموت زوجها فلم يغلقه كعادته

ودست يدها فى جوف الدرج الكبير فأخرجت منه بعض قطع مالية وبطاقات وقوائم حساب وصورة من مقال لكاميل ديمولان وعدة نسخ من خطب مختارة لميرابو ودانتون . ثم فتحت الأدراج الصغيرة الجانبية فلم تجد فيها غير خواطر عن السياسة العامة مدونة فى مفكرات جيب . وكانت تبحث فى الحقيقة عن مجموعة الرسائل الغالية العزيزة التى كان يحرص عليها زوجها والتى تبادلاها أيام كانا خطيبين . وعند ما وصلت الى الدرج الاخير البعيد عن الابصار وأرادت فتحه ألفته مغلقا ، فافتر ثغرها الحزين عن ابتسامة ملؤها الحب وعرفان الجميل ، فلم تتمهل ولم تفكر فى البحث عن المفتاح ، بل نزعت الدرج الاعلى ، ولشد ما بهتت اذ أبصرت رزمة من ورق أزرق معقود حولها شريط من حرير أحمر ، مطروحة فى أقصى الدرج تفوح منها رائحة زكية

فمدت ارمانس يدها وأصابعها ترتعش وقلبها يدق . ولم تكد تقطع الشريط الحريرى وتلقى على الاوراق نظرة ، حتى جحظت عيناها وأحست كأن قلبها قد اخترقته طعنة سكين ، ثم تداعت أعصابها وخارت قواها ، فارتمت على المكتب تجأر بالبكاء وقد تحطم كل شىء لديها ، كل ما بقى لها ، وأيقنت أن معبودها ، أن زوجها الصادق المخلص الوفى ، زوجها المؤمن الورع التقى ، كان منافقا مرائيا خداعا ، وكان منذ ثلاثة أعوام عشيق إمرأة أخيها مدام ايفون !..

***

وهذا بعض ما قرأته أرمانس فى رسائل ايفون لعشيقها :

« لم أخلق للأمومة يا برتران وانما خلقت للحب. ان أولادى عبء ثقيل على . أنا أحبهم ولكنى أشعر أن واجبى نحوهم يضطرنى الى التضحية بنفسى فى سبيلهم . وهذه التضحية لا قدرة لى عليها . فأنا أريد أن أعيش . اريد أن أتمتع . أريد حقى فى الحب والحياة . ولو أنى لم أصادفك لذبلت كوردة حرمت شعاع الشمس »

« كيف تزوجت امرأتك يا برتران ، وكيف يمكنك أن تعيش معها ، وكيف يتسنى لرجل نابغ مثلك أن يحقق نبوغه ويؤكد شخصيته بجوار امرأة كارمانس ؟.. انها مخلوق راكد شائع ، مخلوق جامد الذهن ، ضيق أفق الخيال ، لا يشجع على شىء ولا يمكن أن يوحى بشىء .. كلما تصورت حياتك معها تمزق فؤادى أسفا عليك وحسرة . الواقع

أنك ضحيتها كما أني أنا ضحية شقيقها. كلانا يتألم ، وكلانا فى حاجة الى صاحبه ليعيش، فتعال يا برتران ، تعال انقذ نفسك وأنقذنى .. »

« يا لها من ليلة تلك التى قضيناها معا فى وكرنا البعيد الجميل .. لقد تمنيت على الله أن اموت بين أحضانك ولا أرجع أبدا لزوجى .. أنت وحدك الرجل الذى هدانى الى نفسى ، وأرشدنى الى سر قلبى ، وكشف لى عن معنى وجودى فى هذا العالم .. لولاك لرسبت روحى فى الفروض البيتية البغيضة ، وتعفنت فى الواجبات الاجتماعية المقوتة . لولاك لاصبحت فريسة زوج أكرهه وعدة أولاد أتبرم بهم وان كنت أحبهم . أتبرم بهم لانهم أرهقوا بدنى ، وهدوا قواى ، وأوشكوا أن يمتصوا منى البقية الباقية من عصارة شباب أريد أن تكون وقفا عليك .. »

وهنا قلبت ارمانس عدة رسائل أخرى وطالعت منها بضعة أسطر ، ثم مضت تقرأ فى الرسائل الاخيرة التى لم يمض على كتابتها أكثر من أيام . قرأت فى شبه حمى وقد بدأ يشتد اهتمامها ويحل فى نفسها الذعر محل الكراهية والبغض والازدراء :

« لا .. لا يا برتران .. انك وان كنت عضوا فى الجمعية التشريعية ، ومن كبار محامى فرنسا ، ومن أعظم أنصار الثورة ومبادئها ، الا أنك رجل مستقل الفكر ، حر الرأى ، لا يمكن أن تؤثر فيك عواطف الدهماء ونزوات الجماهير الساذجة الطائشة .. وانى لاستغرب كيف يتبع رجل مثلك أشباه رجال من أولئك اليعاقبة المتطرفين دعاة الثورات الهدامة وألد أعداء ملكتنا المحبوبة مارى انطوانيت .. تقولون انها ملكة أجنبية وانها تؤيد سلطان القساوسة والاشراف على حساب الشعب .. ولكن هذا محض خيال . هذه من دعايات « بريسون » و « فرنيود » و « كوندورسيه » و « دانتون » .. ان ابنة عمى جوزفين من وصيفات الملكة ولقد قدمتنى اليها فعرفتها عن كثب ، وأدركت مبلغ ما ينطوى عليه قلبها النبيل من حب وعطف على شعب فرنسا .. الا انكم لمخطئون ولا سيما أنت .. فعد الى رشدك ولذ ببصيرتك وعقلك ودع فريق الوطنيين المتهوسين ، واخدم ما يستحق أن يخدم .. ان الطبقة الارستقراطية هى التى كونت فرنسا ، فواجبك أن تخدم هذه الطبقة دون سواها . هذه الطبقة التى تركزت فيها وحدها عظمة فرنسا .. »

وقرأت ارمانس أيضا وقد تضاعف اهتمامها واستحوذ عليها السخط والاستنكار :

« نحن الآن يا برتران فى مفترق الطرق ، وأنا أريد أن أربحك لقضيتنا .. أريد أن تكون منا .. أريد أن تستخدم نفوذك فى الدفاع عن سياستنا .. ان أوربا بأسرها تقاومك وتقاوم اخوانك وتقاوم الثورة .. أوربا بأسرها أصبحت حليفة الارستقراطيين ، ولسوف تخف جيوش النمسا وبروسيا لنصرتهم ، فيتأيد النظام ، وتنقذ فرنسا ولو على يد الاجنبى ..

« فانبذ اخوانك .. انفصل عن اليعاقبة قبل فوات الوقت .. أستحلفك بحبنا أن تنفصل عنهم ، وتفكر فى المستقبل المجيد الذى ينتظرك لو أسرعت .. »

« قضى الامر يا برتران ونحن فى حرب مع النمسا وبروسيا . وانى أصارحك بأن الملكة أرسلت الى العدو الخطط التى وضعها قوادها . ولكن الغاية تبرر الواسطة ، وغايتنا نحن هى القضاء على الثورة . . أما الأنباء الأخيرة التى تريد أن تعرفها فاليك هى : اقتحم الشعب قصر التويلرى ولكن القائد البروسى برنسويك سينقذنا . لقد توغلت جيوشه فى أرض فرنسا ووصل البيان الذى يهدد فيه ثوار باريس . . فأنا أتوسل اليك . . ألتمس منك أن تقابل دانتون وتقنعه بالعدول عن القاء أية خطبة مهيجة فى الجمعية التشريعية . . يجب ألا تنجح حركة التجنيد الشعبى الذى يقودها دانتون وصحبه . . يجب أن يتقهقر القائد الفرنسى ديموريز الى باريس ، وينبغى ألا ترسل النجدات الى زميله القائد كيلرمان . هذا هو مفتاح النصر . . فقابل دانتون . . أقنعه بأية وسيلة . . منه بمختلف الوعود . . سيكون له ما يشاء على شرط أن يساهم ولو من طرف خفى فى نجاح الجيوش النمساوية البروسية وفتح الطريق أمامها نحو باريس . . »

« آه يا برتران . أنت لا تحبنى . . ميولك الثورية أقوى من عقلك ومن حبك لى . . لم تفعل شيئا . . لم تستطع الاقدام على أى شىء . . لقد ألقى دانتون خطابه النارى ودعا الشعب الى التجنيد وشرع فى تفتيش المنازل كما بلغنى ، وألقى القبض على مئات من القساوسة والارستقراطيين . ومع ذلك فكل شىء لم يضع ، وفى وسعنا أن نجاهد ونعمل . . ان جيوش برنسويك تتقدم صوب باريس ولقد اجتازت غابات الارجون وعما قريب تصل الى قلب العاصمة . . ان من يستولى على اللورين ولونجوى ثم يحاصر فردان لا يمكن أن يهزم . . أجل لن يهزم برنسويك ولا فائدة من القتال . . قل لهم هذا . . عارض حركة التجنيد . . لا تخش روبسبيير ومارا وأذنابهما . . أكرر عليك انه ينبغى ألا ترسل النجدات لا الى القائد ديموريز ولا الى زميله كيلرمان . . ما يزال فى الوقت متسع . . فى وسعك أن تخدمنا لو شئت . . آه كم سأحبك لو طاوعتنى ! . . ستكون بطل فكرى وقلبى وسأجعلك بعد القضاء على الثورة فى المركز الجدير بك . . الملكة تحبك وتقدرك ومنصب الوزارة قاب قوسين منك . فاستمع لنصحى واصغ لصوت حبى ، واعلم أن ليست العبرة فى أن أكون عاشقة ، بل فى أن يتعشقنى من هو أهل لى ! »

« تقول فى رسالتك الاخيرة ان على أنقاض سجن الباستيل الذى احتله الشعب الثائر ستنهض فرنسا أقوى مما كانت فى أى زمن ، وسيشع منها نور العدل والمساواة والحرية فيضىء الطريق الى عالم مثالى جديد . وأنا أقول لك ان تاريخ الحضارات بأسرها هو تاريخ الجهود الجبارة التى قامت بها الطبقات الارستقراطية . هذه هى الحقيقة التى يتعامى عنها اخوانك . فجماهير الشعب فى أية أمة تهدم ولا تبنى ، ولهذا كان من واجب الارستقراطية أن تقودها وتهديها سواء السبيل . لا . لا يا برتران . . لن يتفوق الشعب على غرائزه أبدا . . لن تستطيع الامة أن تكون هى الحكومة . . فحرر نفسك من تلك السموم التى نفثتها فى عقلك مطالعاتك لكتب « روسو » و « فولتير » و « ديدرو » وأضرابهم ، وتأكد ،

أن شعب باريس وان كان قد استولى على الباستيل واتخذ من هذا العمل رمزا لسيادته في المستقبل ، الا أننا نحن سنسترد عما قريب ما فقدنا ، وعلى أنقاض الرمز الخيالي الذي تعتزون به ، سنقيم الباستيل أقوى وأروع مما كان وسنزج فيه أفواج الخونة منكم ، وسنجعل منه الرمز الحقيقي لحضارة عرفت كيف تدافع عن نفسها وكيف تثبت أمام فوضى الدهماء .. فعجل .. عجل بانقاذ حياتك يا صديقي ، والا فلن يستطيع حبي بالغا ما بلغ من القوة أن يمد لك حبل النجاة !.. »

اكتفت ارمانس في تلك الساعة بما قرأت . هالتها كل هذه الاسرار التي لم تكن تتوقع أن يكشف لها القدر عنها في لحظة . بهرتها الحقيقة ، وأمضها الألم ، وملكها الاستنكار والقلق والرعب ، فغمغمت بين أسنانها : « غادرة وخائنة !.. غادرة وخائنة !.. »

وأردفت كأنها تخاطب شخصا : « وتجسر أيضا على تهديد عشيقها !.. نعم .. الى هذا المصير انتهى حبها !.. كانت تهدده !.. كانت تهدده لانها لم تعد تحبه .. لان تعصبها الارستقراطي قتل حبها !.. »

وابرقت عينا ارمانس وهتفت بكبرياء : « أما هو فلم يكن على الاقل خائنا !.. لقد خان زوجه ولكنه أخلص للثورة وأخلص لوطنه . أما هي فقد خانت الزوج وخانت الصديقة وخانت الوطن ! »

وجمعت الرسائل وألقت بها حيث كانت ، ثم نهضت وجعلت تذرع الغرفة جيئة وذهابا مطرقة الرأس ، تفكر وتلوي يديها وتزفر ..

ماذا يجب عليها أن تفعل الآن ؟..

لقد سلبتها تلك المرأة كل شيء حتى الذكرى !.. لوثت الماضي وسممت الحاضر وأعدمت المستقبل !.. قضت عليها بوحدة الروح بعد وحدة الجسد ، وجردتها من كل أمل في التعلق حتى بطيف !..

ومع ذلك فالطيف ما يزال محتلا خيال ارمانس . لقد كان زوجها ولقد كانت تحبه ، فهل في مقدورها أن تعيش بدونه وان كانت قد أصبحت في صميم نفسها تكرهه ؟.. الا أن هذا الكره بعينه ليبعثه حيا أمامها ، ويذكرها على الدوام به ، ويلهب حبها القديم له ، ويملأ فراغ وحدتها ، ويمتعها ببعض الراحة وبعض السعادة على الرغم من كل شيء

أجل . لن تغفر ارمانس لزوجها نفاقه وخداعه ، ولكنها لن تستطيع في نفس الوقت أن تجعل من قلبها مقبرة لحبها ، وأن تحاسب الميت على جريمته وهو كل حياتها

تمشي بها الضعف في طريق الغفران . ولفرط ما كانت تحب وتشعر أن الحرص على ذكرى من تحب هو بالنسبة لها مسألة حياة أو موت ، راحت تنحي على نفسها باللائمة وتنسب الى ذاتها التهاون والتقصير ، وتردد أنها ربما كانت هي المسئولة عن فقدانها حب زوجها والتجائه الى أحضان امرأة أخرى ..

أجل . كان لا بد لها أن تصفح لتعيش . ولكن كيف يمكن أن تصفح عن تلك المرأة

التى لم تحترم ولم تقدس أى شىء ، لا وشائج القربى ، ولا فروض الزوجية ، ولا واجبات الامومة ، ولا حق الوطن !

وتمثلتها فى رفقة زوجها فيما سمته وكرهما الجميل ، فانتفض بدنها اشمئزازا وحنقا ، وأحست عاطفة الغيرة لاول مرة ، وامتلأ صدرها بالبغضاء والحقد .. وهى .. هى التى لم تعرف الشر أبدا ولم تلحق أى أذى بأى مخلوق ، شعرت الآن برغبة جارفة فى الثأر من غريمتها ، فى التشهير بها وتعذيبها ما استطاعت الى ذلك سبيلا

وكانت مدفوعة حتى الساعة بفكرة الانتقام لنفسها فقط . ولكن كيف تنتقم ، وهل من حقها أن تنتقم ؟.. كيف يمكن أن تصارح شقيقها بجريمة امرأته ؟.. كيف يهون عليها أن تسلبه راحته وتشقيه ؟.. كيف تقبل أن تلوث أما فى نظر أبنائهـا ؟.. لو فعلت لاصبحت أعرق فى الشر والاجرام من المجرمة نفسها !..

غير أن القسوة ، القسوة العاتية الباطشة ، قسوة الدفاع عن الفكر والمبدأ ، سرعان ما تغلبت عليها عند ما ذكرت خيانة ايفون لمعتقدات الاسرة ، واشادتها فى رسائلها بطبقة الارستقراطيين ، وانضمامها الى معسكرهم ، وعدائها للثوار ، وسعيها الواضح لافساد أخلاقهم بغية القضاء على الثورة

هذا ما لم تستطع ارماس غض الطرف عنه . لقد كان والدها تلميذا للفيلسوف الثورى كوندورسيه ، وكان زوجها فى الجمعية التشريعية لسان الثورة الناطق بعد دانتون ، وكانت هى وما تزال تحيا فى أسرة أشربتها مبادىء الثورة وعلمتها كيف تؤثر الموت على الخيانة وكيف لا تتردد فى التبليغ عن الخونة حتى ولو كانوا من أقرب وأعز الناس اليها !..

ألم يقتص زوجها من ابن خاله المارق وأسلمه دون رحمة الى دانتون ؟.. ألم يبلغ شقيقها نفسه عن ابن عمهما الذى ارتشى واستخدمته الملكة الاجنبية لمفاوضة امبراطور النمسا ؟.. هذا ما أقدمت عليه أسرتها بالامس عند ما كانت فرنسا فى مأمن من خطر الغزو ، أما اليوم فكيف يمكن أن تقف مكتوفة الايدى حيال امرأة تخرج على هذه الاسرة وتنكر تقاليدها ، وتهدد حياة أفرادها ، وتجللها بالعار ، وتسعى من طرف خفى لقتل الثورة بتأييد العدو الذى يوشك أن يجتاح البلاد ؟..

ان حياة شقيق ارماس وشرفه أصبحا الآن فى خطر . حياته وشرفه ومستقبل أبنائه أيضا . ومجرد شبهة تحوم حول زوجه تكفى للقضاء عليهم جميعا . أجل . ان مصلحتهم ومصلحة الوطن مشتركة فالذى يحميهم يحمى الوطن ، والذى يستر الخيانة يقضى عليهم ، ويساهم فى قمع الثورة واذلال الوطن !

لقد جاوزت المسألة شخص ارماس واتصلت بحق الوطن عليها وحق أسرتها فى الشرف والكرامة ، ولم تعد ايفون فى نظرها امرأة تستحق العقاب لانها سلبت منها زوجها بل أصبحت مخلوقة خطرة طموحا يجب التخلص منها ومن أمثالها فى هذه الساعة العصيبة التى تجتازها البلاد ، والتى يتوقف على التغلب عليها مستقبل الثورة

وسواء أكانت ارماس قد مزجت فى حكمها على غريمتها بين عواطفها الشخصية وواجبها الوطنى أم لا ، فالواقع أن فكرة الاقتصاص من الخائنة كانت أشد تأثيرا عليها من فكرة الانتقام لنفسها. وتلك كانت النزعة السائدة فى ذلك العصر . فانكار الذات كان قبلة أنصار الثورة . والتضحية بالعواطف الشخصية كان مبعث فخارهم ، وتقديمهم المصلحة العامة على كل شىء كان سر قوتهم ونجاحهم

لذلك تركز تفكير ارماس فى هول الخيانة وفى وجوب الاقتصاص من ايفون لهذه الخيانة وما يمكن أن تجره من كوارث ، اقترن فيها الدفاع عن المصلحة العامة بالدفاع عن مستقبل الأسرة

ولم تكد ارماس تطمئن لهذا الضرب من التفكير حتى اشتدت عزيمتها ، وزاد فى قسوتها تذكرها حياة الترف الصارخة التى ترتع فيها ايفون . . أجل . . من أين لها كل هذا المال الذى تنفقه على زينتها وتبتاع به أغلى الاثواب والحلى ، وتستر فى ضوئه الوهاج بدء كهولتها ؟ . .

أمن زوجها الطبيب العاكف على عمله ، المشدود الى خمسة أبناء ، والذى لم يكن قط من الموسرين . أم من عشيقها الذى لم يجمع فى حياته غير ثروة متواضعة خلفها لامرأته ؟ كلا . . منطق الحوادث والظواهر يؤكد أن ايفون تتقاضى من الملكة الاجنبية مرتبا معينا جزاء خيانتها ! . . تبيع الوطن بالمال وتنفق على زينتها ! . . تأخذ من الشعب لتخون وتستمتع ! . . ولقد أعمت زوجها الساذج ، وأعمت أولادها الطيبين ، وأعمت عشيقها المدله ، وختمت على أبصار الجميع !

لا . . لن تشترك أرماس فى جريمة كهذه ! لن تخطر على بالها لحظة محاولة اخفاء معالمها ! يجب أن تعمل ! . . يجب أن تتكلم . . يجب أن يعرف شقيقها كل شىء !

وعلى هذه النية استطاعت الزوجة المنكودة أن تنام بضع ساعات ممددة على المقعد المستطيل فى نفس الحجرة التى شاهدت منذ لحظات انهيار مثلها الأعلى ! . .

***

كان جاستون مونكلار شقيق أرماس رجلا فى نحو الستين من عمره بسيط القلب ، سليم الطوية ، ينحصر ذكاؤه فى مهنته . ولم يكن فى صباه جيلا ومع ذلك فقد عشقته ايفون دى بروبل واقترنت به لانه أنقذها من داء السل وهى فتاة . غير أنها ما كادت تتزوجه وتقضى معه زهاء عام حتى أحست بغلطتها ، وأدركت أنها تهورت وأن من المستحيل عليها تجديد حياتها . ولما أعقبت منه الابن الاول وأردفته بالثانى والثالث وازداد شعورها بالقيد الزوجى يغلها ويحول بينها وبين التمتع بملذات الشباب ، تبدلت أخلاقها وشاعت فيها العصبية والغلظة ، فآثر زوجها الانصراف التام الى مهنته ، وترك امرأته حرة فى تصرفاتها على التعرض لمسلكها والاصطدام اليومى بها وخلق منازعات يتبة تزعجه

وتستفز غضب امرأته ، وتعرقل أعماله وتنفر منه مرضاه

وكانت ايفون تعتز بأصلها الارستقراطي ، وأسرة والدها النبيلة ، وذلك النفر من أقاربها الذي استطاع الاتصال ببلاط الملكة ماري انطوانيت . بيد أنها كانت تحرص الحرص كله على تجنب الخوض في السياسة أمام قرينها يقينا منها أن هذا الزوج الطيب المطواع لا بد ينقلب وحشا ضاريا لو مست مبادئه أو أشعرته ولو بكلمة أو اشارة أو غمزة أنها تتمنى النصر لطبقتها ، والهزيمة للثورة ورجالها

فجاستون كان ضعيفا حيال المرأة ، ولكنه كان مثال القوة والعناد في كل ما يتعلق بمبادئه . ولقد غرس هذه المبادىء في نفوس أبنائه ، وان كان لم يقدر على بذر بذورها في عقل ابنه الثالث روبير

وكان روبير هذا فتى قوى الشكيمة ، صلب الارادة ، مستقل الشخصية ، وافر الذكاء ، يميل الى الثورة وتعاليمها بعض الميل ، ولكنه لا ينفك ينتقد هذه التعاليم ، غير حافل باعتراضات اخوته وسخط والده

على أن روبير كان الابن الوحيد الذي يفهم والدته حق الفهم ويدرك تمام الادراك مبلغ تعلقها بطبقتها وكرهها للثورة . ولذلك كان يتبرم بها أكثر من اخوته وأبيه ، لان أفكاره ومبادئه كانت أشد حقدا على الارستقراطيين وأبعد في طلب الحرية من مبادىء الثورة التي يدين بها والده واخوته

غير أن روبير برغم ذكائه المتقد لم يستطع تبين العلاقة التي كانت تربط والدته بزوج عمته ، فظل يجهلها كالآخرين وان كان قد لاحظ في سلوك أمه شيئا خفيا مريبا طالما أذهله وحيره

فلما كان الصباح الباكر ودخلت أرماس بيت شقيقها المجاور لبيتها ، ألفت جاستون جالسا الى المائدة يتناول وحده طعام الافطار ويتأهب للخروج كعادته قبل أن تستيقظ امرأته وأبناؤه

ولم تعرف الاخت كيف تبدأ الحديث ، واستغرب الرجل منها مجيئها في هذه الساعة ، وجعل يلاطفها ويواسيها وينسب زيارتها الى شعورها المرير بالوحدة وحاجتها الى الاهل والاصدقاء

وعز على أرماس ان تسدد الطعنة الى قلب أحب الناس اليها ، والى الشخص العزيز الوحيد الذي بقي لها في هذه الدنيا ، فاضطربت وتلعثمت وراجعت نفسها وأوشكت أن تعدل عما عزمت وتهم بالعودة الى منزلها ، ولكن الرجل لاحظ اضطرابها الشديد واستفسرها عن علته ، وما زال بها حتى أتعبها وأنهك أعصابها ، فضاقت ذرعا بسرها وتاقت الى المصارحة والخلاص ، فالقت بين يديه بمجموعة الرسائل وهي ترتعش وتبكي

وتصفح الزوج المخدوع بعض خطابات ولبث واجما يحدق الى الوريقات الزرقاء محني الظهر متداعي الجسم كأن هما ثقيلا أناخ عليه بغتة وسحقه

لم يفكر أبدا فى امكان حدوث شىء مثل هذا .. لم يكن متأهبا قط لمثل هذه الصدمة .. فوجىء بها كمن يفاجأ بنبأ حريق شب فى داره .. لم يفهم أول الامر ولم يقتنع وظل يقرأ .. ظل يقرأ وهو يخالس الابواب النظر خشية أن تستفيق امرأته أو أحد أبنائه .. وفجأة مرت بخياله صور أولاده الخمسة ، فاختلج وأبعد الاوراق عنه ، وانهمرت من عينيه دموع غزيرة صامتة

وعند ما رفع رأسه وأبصر شقيقته ، أشاح بوجهه ولم يتكلم ، فغمغمت ارمانس وهى تحتضنه :

ـ لا تحقد على يا جاستون .. ان قلبى ليتمزق .. ما كنت أود أن أفعل هذا .. ما كنت أود أبدا !.. ولكنى لم أستطع السكوت لانى لم افكر فى نفسى .. أقسم لك أنى لم أفكر فى نفسى .. أبدا .. لم أفكر فى انتقام يسعدنى ويشفيك .. انما جئت مدفوعة بعاملين : استنكارى لمسلك امرأة تخون عقائدنا وهى منا ، وخوفى عليك وعلى أبنائك من نتائج هذه الخيانة . فأنا أضع الامر بين يديك .. ولو رأيت أن من واجبك وفى مقدورك حرصا على مصلحة أولادك أن تخفى كل شىء وتتجاوز وتصفح ، فأنا مستعدة للصفح أيضا ، متأهبة للصمت والنسيان والغفران !..

فنهض جاستون كمن يقيم جسما ليس له ، وتسمع لحظة ، ثم غلق الابواب فى رفق ، وعاد فتهالك على مقعده بينما كانت يداه الضامرتان المرتجفتان تجمعان الرسائل وتدسانها فى جيوب سترته

وانقضت فترة وأرمانس تتبعه النظر وتعض شفتيها ندما وشفقة

كان الرجل يتألم . كان زائغ البصر يجتهد فى لم شتات فكره . كانت الحيرة تتملكه . كان كأنه يتلمس مستقرا ما ينفك يحاوره ويفلت منه . وأخيرا قال وهو يتخبط :

ـ أنا .. أنا .. لا شىء .. هى .. هى .. أيضا لا شىء .. ولكن أبنائى ؟ ألوث فى نظرهم صورة أمهم ؟.. محال !.. ولكن الخطر .. الخطر يهددنا .. قد تمعن امرأتى فى غيها .. قد تلقى شباكها على رجل آخر من زعماء الثورة ، وقد تتسرب أنباؤها الى دانتون . فماذا يحدث لنا ؟.. السجن .. العذاب .. العار .. أنا ؟.. أنا أصبح أيضا خائنا ؟.. أنا الذى يلفت عن ابن عمى بنفسى أحجم الآن عن تأدية واجبى لان المجرم الآن هو امرأتى ؟..

وصاح وهو يبسط يديه كمن يستجدى المعونة والرحمة :

ـ ولكن لى خمسة أولاد !.. كيف أنزع من قلوبهم احترام الام وحبها وتقديسها ؟.. هل يجوز لى ذلك ؟.. هل أملك مثل هذا الحق ؟.. ان تلك المرأة أمهم أكثر مما هى زوجتى ! ولكن . لا .. لن أستهدف لحقدهم على مدى الحياة !.. أريد أن أحتفظ بحبهم واحترامهم !.. لا .. لا أريد أن أفقد أولادى .. لا أريد أن أفقد أولادى !..

وندت عنه صرخة وحشية محت من وجهه المتقنع كل معانى التسامح والطيبة :

ـ هذا هو واجبى !

فصاحت أرماندس : ماذا تنوى أن تفعل ؟

فلم يجبها بل انطلق من فوره وفتح أحد الابواب واختفى . فجمدت أرماندس وخالها أنها لم تتكلم ولم تتحرك ولم تحاول اللحاق به . وأحست برودة عجيبة تسرى فى بدنها وتثقل أعضاءها وتخمد نشاطها وتتركها عاجزة مستسلمة بالرغم منها لحكم القدر

وعاد جاستون بعد برهة طويلة وقال وهو يشير اليها أن تتبعه :

ـ لن تستيقظ ايفون الا فى الساعة التاسعة كعادتها .. لدينا متسع من الوقت !..

وجذبها من يدها ، فتبعته بخطى آلية وهى تائهة فى همودها ، ضائعة فى غفوتها ، تستغرب من نفسها كيف لا تصحو ، وكيف لا تعارض ، وكيف لم تعد تقدر فى هذه اللحظة حتى على التفكير

***

كان الصمت ثقيل الوطأة كثيفا يضغط على القلوب ويحبس الانفاس . وكان الخمسة الشبان أبناء جاستون جالسين الواحد قرب الآخر بعضهم مطرق برأسه لا يجسر على النظر الى أبيه ، والبعض شارد البصر مهموم يحس فى قرارة نفسه بضيق خانق ولا يدرى لماذا هو قد أحرج على هذه الصورة ، ولماذا ينبغى أن يحمل فجأة أكبر المسئوليات

وكانت الحقائق الحميمة ، الحقائق الوضيعة الباعثة على الاشمئزاز ، الحقائق التى كشفت لهم عنها الرسائل والخاصة بعلاقات أمهم بزوج عمتهم ، قد أخجلتهم وأذلت نفوسهم وحقرت فى عيونهم شخصيتى والدهم ووالدتهم على السواء

أحس الخمسة أنهم كانوا هم أيضا مخدوعين ، فاشتدت نقمتهم على عمتهم ولم يغفروا لها أنها كانت السبب فى افساد جو حياتهم وفى وقوفهم من والدتهم هذا الموقف المروع الفظيع

لم يستطع واحد منهم حتى الابن الاصغر فرانسوا أن يبدى عطفه على والده أو على عمته بكلمة . كان الصغار يشعرون أن الكبار ضعاف أدنياء لم يعرفوا واجبهم ولم يحرصوا على شرفهم ولم يفكروا الا فى أنفسهم ولم يأبهوا أبدا للصغار

بيد أن الجريمة ، الجريمة الزوجية التى اقترفتها والدتهم والتى ألحقت العار بهم جميعا ، سرعان ما توارت فى أطواء مخيلاتهم وحلت محلها جريمة الخيانة الوطنية التى جاوزت أشخاصهم وأصابت مستقبل الثورة ومستقبل البلاد

انهم نشأوا مع الثورة ، واشتركوا فى مظاهرات الشعب ، واستمعوا لخطب دانتون ، وهللوا لاقتحام الباستيل ، وكان فخرهم الجهاد ، وشعارهم الاخلاص ، وعقيدتهم الحرية ، فكيف لا يغلبون الساعة فى نفوسهم فكرة الثأر لمبادئهم المنتهكة على فكرة الثأر لعرضهم المسلوب ؟

ومع ذلك فالتيار لم يجرفهم جميعا . وقد ظل البعض منهم مالكا حواسه محتفظا باتزانه مبقيا على عواطفه الانسانية مستقلا فى نظرته الى الامور . على أن الكل كانوا سواء فى الألم والحزن والحيرة والضيق .لان المجرمة أمهم ، ولان مستقبل حياتهم أصبح متوقفا على ما سوف يعتزمون . المستقبل !.. مستقبلهم ، حديث القوم عنهم ، نظرة الناس اليهم ونظرتهم الى أنفسهم ، رغبتهم فى أن تظل رؤوسهم مرفوعة ، ايمانهم بقدسية الواجب ، تعصبهم لمبادىء الثورة ، شعورهم بالخطر الذى يهدد البلاد .. كل هذه العوامل كانت تسيطر على الغالبية منهم ولا سيما على الابن الاكبر أوكاف صورة جاستون المصغرة ورجع صدى أبيه فى كل شىء

وها هو ذا أوكاف وقد أفاق من أثر الصدمة ، يتحرك فى مقعده ، ويجيل فى المجتمعين بصره ، ثم تستقر عينه القاسية على أبيه تدعوه للكلام

ولما أحس الوالد الممزق القلب أن العاصفة الاولى قد هدأت ، وأن الاعصاب المتوترة قد سكنت وقرت ، وأن عقول أبنائه قد تهيأت للموازنة والتفكير ، قال :

ــ انا دعوتكم وأنتم رجال للنظر فى أمر لا حق لى أن أقطع فيه بنفسى !.. ولو أنى كنت قد تصرفت وحدى لما استحق شخصى منكم غير اللعنات !.. المجرمة هى زوجتى ، ولكنها أيضا والدتكم ، وليس لى أن أدينها وحدى !.. البينة أمامكم ، فاتخذوا منى هاديا لكم فقط ، واحكموا بما تمليه عليكم ضمائركم !..

وصمت ثم أردف بقوة لم يألفها فيه أولاده من قبل :

ــ أريد حكما سريعا وقاطعا . أريد أن أستريح . فاما عقاب عاجل واما صفح يسدل ستار النسيان على كل شىء !

وكان الابناء الخمسة يستمعون لابيهم وأنظارهم متجهة صوب أرماس . ولكنها لم تسعفهم بكلمة ولبثت جامدة كتمثال

وأخيرا قال الابن الاكبر اوكاف وشفتاه ترتجفان والالفاظ تتباطأ وتتعثر كأنما هى تخشى الانطلاق من فمه المريض :

ــ يا والدى .. اعذرنا .. ان موقفنا رهيب .. لا تحملنا ما ليس فى طاقتنا ان نحمل. أقض فى الامر بنفسك .. أنت رب الاسرة .. كان فى وسعك أن تصفح لو أردت . ولكنك وقد جمعتنا وأطلعتنا على ما كان يجب أن نجهل ، فهذا منك دليل على أنك ترغب فى العقاب ، والا لما بحثت عمن يؤيدك ..

فصاح الابن الاصغر فرنسوا ، وكان فتى نحيلا شاحب اللون ، ضيق الكتفين ، واسع العينين غائرهما ، تؤثره أمه بالحنان والعطف لشعورها بأنه مهدد بالداء الذى كان سيقضى عليها فى صباها :

ــ ان أوكاف المحامى يداور بدل أن يصارح .. بفرض يا والدى انك ترغب فى

العقاب لانه هو نفسه يرغب فيه !.. انه يقيمك بلا تبصر .. يتمنى أن يصبح فى نظرك بطلا ولو كان ذلك على جثة أمنا !..

فنهض هنرى الابن الثانى ، وكان شابا مفتول الساعد قوى العضل متقدا حماسة وطنيه قد التحق أخيرا بجيش الثورة ، وقال فى جبروت المتعصبين وهو يلوح بذراعه :

ـ نحن لا نعرف فى حق الوطن أبوة أو أمومة . ومتى أذنب واحد منا فقد خرج علينا . ولقد اقترفت تلك المرأة ذنبين ، فان لم يشأ والدى أن يثأر منها لنفسه فهو حر . أما الوطن فلا يعرف الغفران ، لانه لا يستطيع أن يقر الضعف !

فصرخ الابن الاصغر فرنسوا :

ـ لا تفقدوا عقولكم ! لم تطلب الثورة منكم أن تكونوا آلهة . واذا أنكرتم انسانيتكم استحالت الثورة بين أيديكم الى مجرد سعر أصيبت به وحوش !

فتطلع اليه الابن الرابع موريس وكان ملازما فى الجيش ومن أقرب المقربين الى دانتون وكيلرمان ، وقال فى صوت بارد متزن ألقى الرعب فى القلوب :

ـ وكيف تضمن أن روبسبيير لن يعلم ذات يوم بخيانة والدتك . وهل فى وسعك أن تتصور ما يمكن أن يصيبنا جميعا لو علم ؟.. لا .. أنا لا أضحى نفسى ولا أضحيكم ولا أخون مبدئى فى سبيل امرأة علمت الآن أنها لم تكن أما ولا زوجة ولا مواطنة !

فارتعدت فرائص فرنسوا وقال وهو كالمخبول يستعطف ويتوسل ويلتمس نجدة من واحد منهم :

ـ ولكنها والدتكم !.. ارحموها .. فى استطاعتكم اتلاف هذه الاوراق.. فى مقدوركم كتمان هذا السر .. لم يعرف به أحد حتى الساعة .. عاقبوها بأنفسكم .. نكلوا بها ما شئتم .. ولكن لا تبلغوا عنها .. لا تسلموها للثوار !..

فقال الابن الأكبر :

ـ حتى لو لم تقع عليها أية شبهة ، فيجب أن تعاقب . يجب أن نعاقب ممن يعنيهم الامر .. ان نية الخيانة هى الخيانة بعينها !

فصاح فرنسوا : ما أنتم الا وحوش !..

والتفت الى أخيه روبير وأردف :

ـ وأنت ؟.. أراض أنت عما تسمع ؟.. أتستحل لنفسك أن تقضى مثلهم على والدتك؟

وكان الابن الثالث روبير يتم النظر فيهم جميعا ، ويتفحصهم واحدا فواحدا ، ويهز رأسه هز اليائس القانط . فلما استفسره فرنسوا عن رأيه ، اعتدل فى جلسته ورفع سبابته الغليظة كعادته عند ما يبدأ فى القاء درس على تلاميذه فى معهد الفنون الجميلة وقال فى هدوء :

ـ سأكون صادقا وصريحا. وعندى أن الصراحة فضيلة ينشدها الكل ويكرهها الكل.. ومع ذلك فهى قد تغزو القلوب كالرحمة . ولكن صاحبها يعيش على الدوام فى صحراء .

وأنا شاب عشت حتى الآن فى صحراء لأنى لا أعبد ما تعبدون ولا أؤمن بما تؤمنون

وقطب حاجبيه الكثيفين وأردف بصوت واضح المخارج خشن النبرات مليء التحدى :

ـ أنا لا أؤمن بالثورة !.. لا أثق بتعاليمها ولا أعتقد أن هذه التعاليم ستفضى آخر الامر الى خلاص مجموع الشعب البائس وتحرره من ربقة الكبراء أصحاب السلطة بحيث تحقق العدالة الاجتماعية الكاملة وتأيد المساواة على وجهها الانسانى الصحيح . ان هذه الثورة ليست من عمل الشعب ، بل من عمل الطبقة المتوسطة . ولسوف تنتصر هذه الطبقة ثم تنمو وتتضخم ، ثم تبرز منها طبقة أخرى . طبقة من كبار أصحاب المال تستبد بالطبقة المتوسطة نفسها وبمجموع الشعب أيضا. فأنتم تهدمون سلطة الارستقراطية لتقيموا بدلا منها سلطة رأس المال . ورأس المال سوف يبطش بالشعب

فقال موريس وهو يرعد : أنت من دعاة الهزيمة !

فلم يحفل به روبير واستطرد :

ـ هذه هى عقيدتى . فاستنادا اليها لا يسعنى أن أحكم على والدتى لأنها خانت الثورة . أما خيانتها لأبى فهى التى تستحق العقاب . فأقصوها عن باريس ان شئتم وجردوها من وسائل الترف ، ولتقضى بقية حياتها فى الريف معى أو مع فرنسوا . على أن أقسى عقاب ينزل بها هو شعورها بأنها فقدت احترام أبنائها !..

لقد صارحتكم برأيى .ولكن اعلموا أنه لو طاب لوالدى أن يركب رأسه فاسلم والدتى الى الثوار ، مستعذبا الحقد ، مستمرئا التشفى ، تاركا عقله فريسة للشذوذ المستولى على عواطفه ، فهو لن يفقد امرأته وحدها . بل سيفقدنى أنا أيضا ..

فصرخ فرنسوا وقد أبرقت أساريره : وأنا أتبعك يا روبير !

وانسلخ عنهم وذهب فوقف بجوار أخيه متشبثا به ، فنظر اليهما الوالد نظرة طويلة . نظرة خيبة وأسى وازدراء ، ثم اتسعت حدقتاه وتعاقبت أنفاسه وتحول عن الجميع مخفيا المعركة التى تدور فى نفسه ، ولكنه لم يلبث أن نصب قامته ، ثم أقبل على أبنائه الثلاثة المؤيدين له ، وقال وهو يلهث : « احملوا هذه الرسائل الى دانتون ! »

والتفت الى روبير وفرنسوا ، وقال : « ولتغادرا أنتما البيت فى أقرب وقت ! »

وسقط على مقعده واضعا رأسه بين يديه . وفى تلك اللحظة سمع طرق على الباب ، فوجم الكل ، ثم انقضت فترة ، ثم فتح الباب ودخلت ايفون

وكانت بقميص نومها الابيض ، محلولة الشعر ، عارية الصدر ، ناهدة الثديين ، يتماوج بدنها من تحت غلالتها ، وتتألق نضرة النوم الطويل فى خديها الموردين، وعينيها الوضاءتين

ولكنها لم تكد تدخل الغرفة وتبصر أولادها وزوجها مجتمعين وترى ارمانس منكمشة هامدة وتلمح الوريقات الزرقاء مفتحة ومنثرة على المنضدة ، حتى بهتت وخفق قلبها

ولما لم يخاطبها أحد وأحست الجميع مرتبكين حائرين يتفادون النظر اليها ، تقدمت خطوة ، وحدقت الى أرمانس ، ثم صوبت أبصارها الى الرسائل ، فعرفت خطها

ارتاعت وانعقد لسانها ، ولم تدر ماذا يجب أن تفعل . أيجب أن تبقى أم تخرج ؟ أيجب أن تتكلم أم تصمت ؟ ولو تكلمت فماذا عساها أن تقول ؟!..

فظلت واقفة ووجهها محتقن وصدغاها يطنان ، بيد أن احساسها بانفضاح أمرها على هذه الصورة وأنها قد أصبحت أسيرة قوم لن يرحموها أكثر مما يرحمها القدر لو ألقيت فى حظيرة ذئاب ، هذا الاحساس أيقظها وردها الى صوابها وأثار فيها ما انطبعت عليه نفسها من عظمة وكبرياء ، فدارت بعينيها تفتش على الأقل عينى ابنها الصغير ، فالتقت أبصارهما ، وعندئذ لم يستطع فرانسوا كتمان عواطفه، فارتمى على صدرها وانفجر بالبكاء وهو يردد : « أماه !.. أماه !.. لقد حكموا عليك !.. انهم وحوش .. . »

فاحتضنت ولدها وجعلت تتحسسه وتقبله وتمر بيدها على شعره ووجهه ، دون أن تتكلم

وفى وسط السكون الشامل ، فى وسط الصمت المظلم الزافر ، تقدمت ايفون نحو زوجها ، ثم تنفست ، ثم رفعت رأسها الباهى وسمرت خدها الأسيل وقالت فى شموخ وعزة :

ـ لقد أحببت سواك لانك قط لم تحبنى !.. هذا ما يجب أن يفهمه أولادى !.. لم تحبنى لا أنا ولا هم !.. لم تحب غير مهنتك ومبادئك !.. ولقد أبغضت أنا هذه المبادىء منذ اليوم الذى فيه أبغضتك !.. فلا تكلف نفسك عناء القضاء على ولا تنتظر أن أطلب منك الرحمة !

وتراجعت بضع خطوات ثم أردفت بصوت أجش :

ـ سأذهب من فورى وأسلم نفسى لا الى دانتون فهو شبه انسان. ولكن الى « لجنة الرقابة » الى السفاح « مارا » !

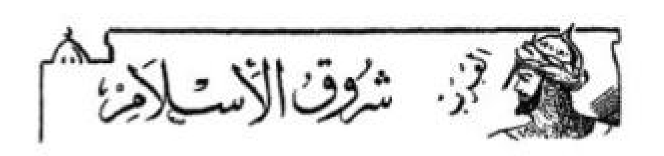
فأمسك بها ابنها ودوى صوته الممزق الابح يقول :

ـ لن تذهبى !.. لا أريد أن تذهبى !..

فمر على وجهها ظل ابتسامة وقالت فى ضجر وتعب : « يا صغيرى العزيز ، حياتى هنا أصبحت مستحيلة . لو منعتنى اليوم فلن تستطيع أن تمنعنى غدا . الوداع ! »

ولم تقبله . ولم تنظر الى أحد . واتجهت بخطى ثابتة نحو الباب ، يتبعها فرنسوا وهو ينشج ويصرخ ، وروبير وهو يبكى فى سهوم واستسلام

ولما اختفوا لمعت عينا أرمانس ، وعلى دهش منها خيل اليها أن ذهولها يتبدد شيئا فشيئا وأن الهمود يزايلها والحياة تدب فيها . ثم أحست احساسا بعيدا خفيا انها مطمئنة وانها راضية . فأرادت أن تتحرك ، أن تعمل شيئا ، فنهضت وتنقلت فى الغرفة كأنها فى بيتها مبتهجة بأن تكون الشخص الوحيد الحى بين جمع من المسلوبين المأخوذين . ثم انحنت على شقيقها وشعرت بأنه أصبح لها وحدها . أصبح فى مكان الزوج والحبيب والشقيق ، فطوقته بذراعيها ولاطفت وجهه بأناملها وقبلته فى جبينه قبلة باردة خرساء ، وقد بدأت تتعزى وتستمرىء لاول مرة فى حياتها لذة الانتقام والانانية والشر !



بعد أن قبض الله اليه الرسول صلى عليه وسلم حدث أن ارتدت عن الاسلام عدة قبائل . فادعى بعض زعمائها النبوة أمثال طليحة بن خويلد الأسدى وسجاح بنت الحارث التغلبي ومسيلمة الحنيفي الكذاب ، فلما رأى الخليفة أبو بكر انهم تمردوا وحبسوا عنه الزكاة ، سير اليهم جيشاً قوياً بقيادة البطل خالد بن الوليد . وتقع حوادث هذه القصة أثناء الحرب التي نشبت بين خالد وبين طليحة الأسدى

كانت هند بنت زياد متربعة فى زاوية من خدرها تجدل ضفائرها الطويلة السوداء وتفكر وتبكى . وكان صاحب الدار الحارث بن الريان قد خرج يتسقط أنباء الحرب . ووالده المريض الشيخ عامر لم يستفق بعد . فاستأنست هند بوحدتها ، ولطفت دموعها من حر آلامها ، فجفت مآقيها ، واستبد بها الفكر ، وشاع فى نفسها هم عميق مازجه البغض والحنق والرعب

وكان الصباح فى صحراء نجد رائع الجمال ، ندى الهواء ، بليلا ، وأولى أشعات الشمس توشك أن تنبثق . فتطلعت هند من خيمتها الى الطاقة الصغيرة المفتوحة ، ورمقت صفحة السماء بنظرة ، وتقبلت لمسات الهواء العليل ، فجاشت عواطفها ، وفاضت مقلتاها بالدموع

عزت عليها نفسها ، وأحست أن هذا الجمال ليس لها . أحست أنها محرومة من كل شىء ، محرومة من رؤية النهار الساطع كما تشتهى . محرومة من الحياة ولو لحظة فى ضوء الشمس ، محرومة من السير فى الأرض مرحا . محرومة من نعمة الحنان ، ونعمة الحب ، ونعمة الحرية

ويا ليتها ظلت هكذا الى الابد محرومة ، يا ليتها ظلت هكذا الى الابد بائسة شقية سجينة، يا ليتها حرمت جميع مباهج العالم ولم تفقد شعورها بالطمأنينة والدعة . هذا الشعور الذى كان يلهب عواطفها ، ويزين أمامها المستقبل ، ويعدها بقوة الاحتمال والصبر ريثما يعود من الحرب ابن عمها وحبيبها همام بن الحسين

وتمثله فى نشوة حلمها فتى كالرمح ، أغر الطلعة ، واضح السنة ، أزهر اللون ، مليح القسمة ، مشرق الجبين ، يملك الطرف حسنه ، ويملأ العين نضرته ، ويفتن القلب لحظه الفاتر وخده الاسيل ، كأنما هو أنثى قد انسكب عليها فيض من رجولة أحالها بطلا فى صورة ملك كريم ! . .

ولكن أين هو همام ؟ . . وكيف تصل اليه وكيف تسمعه صوتها ، وكيف تستصرخه المعونة والنجدة ؟ . .

انه بعيد عنها ، وعينه لم تعد ترعاها ، وساعده القوى لم يعد يحميها ، وشجاعته الخارقة لم تعد ملاذها وملجأها ساعة الشدة والألم

أيمكن أن تفقده ؟ . .

أيمكن أن يباعد القدر الغاشم بينهما ، ويحتفر هوة سحيقة يتردى فيها حبهما العظيم ؟

كلا هذا محال . فالأمل ما يزال يلمع أمامها كنور يتراءى من خلال السحب ، والسعادة ما تزال تتألق أمام عينيها كمصباح تلفح الريح ضوءه ، فما يزداد الا بريقا وتوهجا

ان خيالها لأقوى من الحقيقة ، وصبرها أقوى من الزمن ، وطهارتها الاصيلة أقوى وأصلب من عاديات الدهر

سوف تنعم بزواجها من همام كما نعمت جارتها الصغيرة زينب بنت رباح ، بزواجها هى الاخرى من ابن عمها خطاب بن مازن

لقد زفت زينب الى عريسها بعد أن جلتها المواشط ، وقدم لها زوجها الجلوة وشاحا من أغلى الحرير ، وضربت لهما قبة جعل العريس ينثر منها على الحاضرين كعكا شائقا وخيصا رائقا وتمرا شهيا

وكانت النساء تزغرد ، والرجال تهلل وتصيح عند ما أرسل قميص الميت فى نفس الليلة الى بيت والد زينب

ولقد رأت هند القميص ، وشهدت على طهارة زينب ، ثم غادرت العرس وقد استنهض الفرح عزائمها ، وأذكت سعادة زينب فى نفسها شعلة الكفاح والأمل

وها هى ذى الآن تفكر فى العرس وترتجف . تفكر فيه ، وتفكر فى الوغد الزنيم ، فى الحارث بن الريان صاحب الدار التى تأويها والرجل الذى سامها الخسف والهوان ، وظل بها يتوعدها بالموت ، ويحرمها الطعام والشراب ، ويفرض عليها الجوع والمسغبة ، منتهزا فرصة ضعفها كى يعتدى عليها وهى محرمة عليه ، ووديعة مقدسة بين يديه

محرمة عليه لانها رضيعته تغذى من لبن أمها ، وأصبحت كأنما هى أخت له . ومع ذلك

فلم يعف عنها ، لم يعف عنها كأخت ولم يصنها كوديعة

ألم يأتمنه عليها والدها زياد بن مرة قبل خروجه الى قتال خالد بن الوليد فى صحبة طليحة بن خويلد الأسدى وأنصاره ممن ارتدوا عن الاسلام وادعوا النبوة عقب وفاة الرسول ؟

أجل ، كان زياد والدها يرى فى الحارث أخا لها ، ويعتقد فيه المروءة والنخوة ، ويحبه أخلص الحب ، وينزله من نفسه منزلة الابن والصديق . فلما قبض الله اليه أمها ، ووسوس الشيطان لابيها أن يرتد عن الاسلام ويلحق بالمارقين أتباع طليحة الاسدى ، دخل زياد ذات يوم على الحارث وقال له : « أنت ابنى وهذه أختك . فخذها وديعة عندك . صن عرضها لانه عرضك . وان قدر لى أن أموت فزوجها بمن هو كفء لها . وآوثر أن يكون بعلها ابن عمها الهمام بن الحسين لو ارتد عن الاسلام يوما » .

ولم يكد يمضى شهر واحد حتى حنث الحارث بن الريان بيمينه عند ما جاءه النبأ بمقتل والدها زياد بن مرة ، ولقد جاءه النبأ ليلة أمس فبات مؤرق العين منهوب النفس ملتاثا ، وفى فجر اليوم وقبل أن يستفيق والده الشيخ ، وقبل أن تستيقظ هند اقتحم عليها خدرها وأعلنها بمقتل والدها ، ثم شهر فى وجهها خنجره ، وصارحها بأنها قد أصبحت تحت رحمته ، وأن لا مفر لها من الاختيار بين الموت أو التسليم

وكان الجوع يقطع أحشاءها ، ودوار الرعب يطوح بهـا . ومع ذلك فقد ناضلت وكافحت ، وبدل أن تخور وتستسلم ، استمدت من ضعفها قوة ، وتحدت الموت شامخة ، وأفلتت من بين براثن الوحش ، وأحست لاول مرة فى حياتها لذة البطولة والظفر

وها هو ذا الوحش أمامهـا ، ما تزال تراه . ها هو ذا بعينيه البراقتين تدوران فى محجريهما خبثا ومكرا . ها هو ذا بأنفه الحاد ، وعنقه الغلباء ، وعضله المكتنز ، وشفته الغليظة المرتعشة حقدا وكمدا

لشدما تكرهه . لشد ما تكره ذلك الرجل الخاثر النفس ، الكثيف الروح ، الميت القلب ، ممجد الأوثان ، مقدس الانصاب ، عابد الجمل الأسود ، عدو الله ورسوله والمؤمنين . لقد حاول أن يلوث فى شخصها الصورة النقية التى يحرص عليها اسلامها . حاول أن يثار لكفره من الاسلام فيها ، ويثار منها لحقده على ابن عمها وحبيبها ، ويثار منها فوق هذا لعلمه أنها انما تحب هماما لا لانه جميل فقط ولا لانه شجاع فحسب ، بل لانه انتفض على والده الكافر وانتفض على عمه المرتد ، وظل ثابتا مثلها على اسلامه ، وانخرط فى جيش ابن الوليد يحارب المرتدين فى سبيل الله

فالحارث بن الريان ، الحارث المشهور بكفره وجبنه وغدره ، لم يشأ أن يلحق بجيش طليحة الاسدى ومالك بن نويرة وأضرابهما من أعداء المسلمين ، بل اكتفى بأن منحهم بعض المال ، ثم قبع فى بيته ، فى صميم نجد ، بمعزل عن ساحة الوغى ، يقاتل امرأة ، ويعذب امرأة ، ويحاول أن يثار لحقده وكفره وجبنه من امرأة !

ختمت الشهوة على بصره . أعماه حقده وكفره . لم يشعر بأى وازع من خلق أو ضمير ، فى حين أنه يعيش وبالقرب منه وهج النور ، بالقرب منه رحمة الاسلام وحنانه ، بالقرب منه والده الشيخ عامر الريان الذى شاهد رسول الله وأسلم على يديه ، فبوركت حياته وكان من الخالدين

آه ، ليت والد هند كان كوالد الحارث مسلما ، اذن لزوجها ابن عمها همام ولما وقعت اليوم بين براثن الوحش . ولكن والدها كان هو الآخر عابد أنصاب ، وكان يكره هماما لاسلامه ، ولكن عدل الله نفذ فيه ، وها هو يقتل جزاء عدوانه على المسلمين .

فعدل الله لا بد أن يصيب الحارث فى غد كما أصاب والدها بالامس . ولكن هى ، ماذا يجب عليها الآن أن تفعل ، والى أين تذهب وبمن تستجير ؟ . .

والدها قد قتل ، وحبيبها انخرط فى جيش ابن الوليد ، وعمها فى جيش طليحة ، وهى فى هذه الدار أسيرة الكافر ، ضربت عليها الذلة وقضى عليها باحتمال الهوان

ماذا تفعل ؟ . . أتصدف عن كل طعام وشراب ؟ أتقتل نفسها ؟ . . ولكن الله حرم قتل النفس ، وهى لن تكفر بنعمته تعالى ولن تعصاه

اذن فلتصبر ولتقاوم . وحسبها الله الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، المنتقم الجبار ، الذى يأخذ ويعطى ، ويحرم ويجزل ، ويلهم الصبر عباده الاقوياء

أجل . ستصبر وتجاهد وتنتظر . تنتظر مقدم حبيبها . ومتى عاد . متى رجع من الحرب منصورا سالما — وهو لا بد راجع ولا بد منصور كما تعتقد وتؤمن وتستشعر فى صميم نفسها — فستكاشفه بكل شىء ، وتطلعه على الحقيقة ، وتميط اللثام عن وجه الحارث

أجل ستصبر وتنتظر . ولكنها ستقاوم ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، ولن تكون للحارث

ستقتلع من صدرها حب الحياة . ستستأصل من نفسها جرثومة الضعف . ولخير لها ألف مرة أن تموت من أن تشعر بكيانها كله يمزق ويفترس بين ذراعى ذلك الوحش

ولكن ضعف الطبيعة هو الذى تخشاه . تخشى نوبة الضعف الفجائى . غفوة التعب الطارىء . رخاوة العصب المباغتة . تخشى أن تخور قواها فجأة ، وأن تفقد صوابها على الرغم منها ، فيمثل بها الوغد وهى صريعة لا تعى

اذن فعليها أن تصرخ ، أن تستغيث ، أن تستنجد بوالد الحارث ، بالشيخ عامر الريان ، بالرجل الطيب الصالح النبيل ، الذى أحبها كابنته وتعهدها كغرسه وايقظ روحها على النور وهداها هى وحبيبها ، هى وابن عمها همام ، الى بركة الدين ونعمة الاسلام

ولقد حاولت اليوم أن تناديه ، أن تستصرخه المعونة والرحمة ، ولكن الحارث أقسم لو استجارت بوالده أن يقتله على مشهد منها ، فأشفقت هند على الشيخ المسكين

ولكنها لن تذعن وتستسلم مهما حدث . لن تعنو ولن تخضع

لن تكافح وحدها وستلوذ بالشيخ عامر وتعترف له بكل شىء !

من لها سواه ؟ . . من غيره فى هذا البيت يستطيع أن يحميها ويرد عنها عادية الوغد

أجل . الشيخ مريض ، وهو قابع فى حجرته يتقلب على فراش الألم ويئن من فرط الأوجاع . لم ير شيئا . لم يحس بشىء . لم يشعر بما قد عانته هند فى بيته طوال هذا الشهر من مختلف ضروب العسف والهوان . كان منصرفا الى نفسه ، رازحا تحت عبء مرضه ، لم يفطن لآلام هند ولم يشعر بأغراض ولده ، ولم تجرؤ هند على مصارحته ، خشية أن يعصف به الداء فيرديه ، وخشية أن يذهب الحنق بلب الحارث فيورد والده لو ثار مورد التهلكة

ولكن هندا لن تستعدى الوالد على الولد . لن تعجل بموت الشيخ الكريم الطيب لن تكون السبب فى ازهاق ذلك الروح الطاهر الذى أحبها واصطفاها وانتزعها من ظلمة الجاهلية وقدمها للاسلام غرسا ناضرا ونبتا زكيا

ستعترف للشيخ لا لينتقم لها فهو مريض وضعيف ، بل ليعاونها على الفرار والنجاة . . قد تفتق له الحيلة سبيلا للخلاص . . قد يجد لها مخرجا مما تعانى . . قد ينقذها من الحياة فى حمأة الرذيلة كما قد أنقذها من الحياة فى حمأة الكفر ؟ . .

أليس هو الذى كان يغافل ابنه ويغافل والدها ويلتقى بها وبابن عمها همام فى دار خالتها المؤمنة عائشة بنت الربيع ، ثم يجلسهما بين يديه ويعلمهما فى حرارة ورفق أصول الدين ؟ نعم . لقد أنقذها بالأمس وسوف ينقذها غدا

لقد بوركت نفسه . لقد بوركت حواسه . لقد بوركت عيناه

انه رأى المصطفى بهجة الدنيا ، رسول الله عليه الصلاة والسلام !

وعند ما فكرت هند فى الرسول ، ولاح لها فى شبه هالة نورانية محياه الابلج الاغر الصبوح ، هدأت عاصفة عقلها ، واتسق تفكيرها ، وغمرها الصفاء فجأة ، وأحست كأن يدا كريمة شفيقة تمر على جبينها ، فانتعشت وزايلها الخوف واشتد عزمها ، فنهضت من فورها واتجهت بخطى خفيفة صوب الغرفة الثانية التى يرقد فيها الشيخ عامر الريان

***

كان الشيخ منبطحا على فراشه أصفر الوجه مندلع العينين يتصبب العرق على جبينه ، وصدره يعلو ويهبط والسعال يكاد يخنقه . كانت قد فاجأته نوبة حادة من نوبات الربو ، وكانت تساوره الحمى ، فاتخذ الوضع الذى يريحه وانبطح متكئا على مرفقيه . فلما دخلت هند حيته قائلة : « عم صباحا يا عماه »

فلم يجبها . فلبثت واقفة تنظر اليه وهو ملقى فى هذه الغرفة العارية على هذا السرير الضيق المصنوع من جريد النخل ، وتقطعت نياط قلبها حزنا عليه ، وثارت كوامن سخطها على الحارث الذى استبد به الحقد والكفر ، فأعرض عن العناية بأبيه المسلم ، وترك الشيخ المريض فى هذه الغرفة ، يعيش وحيدا معذبا ، يصارع الداء ولا طبيب ولا دواء

وتحرك الشيخ بعد لحظة وغمغم : « أهلا بقرة عينى . أهلا بالحبيبة هند »

وطفق يسعل سعالا متقطعا جافا وهو يخالسها النظر ويجاهد ليستطيع أن يتكلم وانفرجت شفتاه بعد عناء فقال : « هل الحارث هنا ؟ »

فأجابت : خرج يتسقط أنباء الحرب

فقال وهو يتفرس فيها : ما بك يا ابنتي ؟ .. أنت اليوم على غير عادتك ..

فأشاحت بوجهها ولم تجب

فاستطرد وهو ما يزال ينعم النظر فيها :

ــ أنت ضامرة هزيلة . وجهك شاحب ، وخداك غائران وحول عينيك الجميلتين هالة زرقاء مخيفة .. لقد تبدلت يا هند منذ دخلت هذه الدار . فما بك . صارحيني

فأطرقت برأسها وقالت : « هو الفراق يا عماه ! .. »

فحدق اليها الشيخ يستبطن دخيلة نفسها وقال وهو يمسح العرق عن جبينه بكم جلبابه:

ــ ولكن همامًا لم يكن هنا وكنت برغم ذلك ناضرة كالوردة مشرقة كالصباح جذلانة كالعصفور .. لا يا هند . أنت مؤمنة . ولا يمكن أن يحزنك على هذه الصورة فراق همام . ولو أنهم جاءوا الساعة ينعونه اليك فيقيني أن الهم لن يتطرق الى نفسك ، علما منك أنه مات مستشهدا فى سبيل الله

فهتفت هند من أعماق قلبها : « حبذا لو يموت فى سبيل الله ! »

فابتسم الشيخ وقال :

ــ أرأيت ؟ .. ليس هذا ما يحزنك .. اذن فصارحيني . ما الذى أحالك هكذا ؟ .. أنت مكروبة ، أنت مرتاعة ، أنت مهزولة . مظهرك ينم عن الخوف والجزع . والله ان وجهك ليشبه وجه مريض أكرهوه على الصوم . فلا تكتمى همك عنى وتكلمى . أنا أرقبك من أمد وأحس فيك شيئا يتغير . ولطالما وددت أن أكاشفك باضطرابى ولكن انطواءك على نفسك كان يردنى ويعقل لسانى . أما اليوم فينبغى أن أخاطبك وينبغى أن تفتحى لى مغاليق صدرك . لم أرك أبدا مذعورة ملتاعة كما أنت اليوم . فهل أصابك مكروه هنا ؟ .. هل اساء اليك ولدى ؟ .. هل أغلظ لك القول ؟ .. هل قصر فى واجبه نحوك ؟ .. أجيبى يا هند ، فالحيرة تقض مضجعى ، وخوفى عليك يضاعف ألمى

وأجهده الحديث الطويل فتعاقبت أنفاسه وتحشرج صدره وعاوده السعال ، فانبطح ثانية وظل يسعل ويلهث حتى تخاذلت قواه فسقط رأسه على الوسادة من فرط التعب

ولم تكن هند لتتوقع منه أن يكون بصيرا الى هذا الحد بما يدور حوله

لم تكن تتوقع أن تراه وهو طريح الفراش ، مشغولا بها عن مرضه ، يفكر فيها ، ويهتم بها ، ويوجس خيفة من ابنه عليها . كانت قد جاءت لتصارحه يقينا منها أنه لا يعلم، فاذا بها حيال رجل مشرق البصيرة يبدأها الكلام ويلح فى السؤال ويكاد يستبين ويعلم

هذا الحدس الصادق أحرجها ، فاضطربت وآثرت أن تتئد وتتريث ، وقالت وهى تنحنى على الشيخ مقدمة له الكوبة التى ما تزال فيها بقية من شراب ورق الجوافة والجميز:

ـ اشرب يا عماه فهذا ينفعك .. هذا يشفى السعال .. اشرب ولا تفكر فى .. أنا .. أنا مرتاحة هنا .. ما دمت أنت بقربى !..

ترفع رأسه ودبت فيه الحياة فجأة، فأقصى الكوبة عنه وتحامل على نفسه جهده واستوى على فراشه ملتمع العينين ثم قال وهو يهدر :

ـ لست مطمئنة هنا يا هند ولا مرتاحة !.. الشيطان وسوس لولدى أن يحنث بيمينه . ولدى ينغص عليك عيشك . يشتهيك . يتربص بك . يحوم حواليك . ولقد رأيت فى عينيه بريق الشهوة ورأيت فى عينيك صرخة الذعر . لم أخف عنه استنكارى وسخطى . لم أكتم غضبى . ناديته أول من أمس وحذرته وقلت له : «لقد استنسرت يا حارث وأنت أضعف من البغاث ، لقد استحوذ عليك حقد الكفرة الاشقياء فنكلت بوالدك وأذللته وحرمته الطبيب والدواء وطرحته فى هذه الغرفة منبوذا يعالج سكرات الموت . فانتقم من والدك المسلم ما شئت . اثأر لكفرك منى فأنا رجل ودعت الحياة وعفوت عنك . ولكن لا تثأر من امرأة . لا تحنث بيمينك . لا تلطخ بيتى بعار الخيانة بعد أن وصمته بعار الكفر ، فاياك أن تمس الوديعة بأذى . اياك واستباحة البكر التى ائتمنوك عليها والتى هى أختك ورضيعتك . واعلم أنك لو عبثت بها ، فينبغى لك أن تقتلنى اذا لم تشأ أن أكون أنا قاتلك ! »

وكان يتكلم وهو يرتجف ، والغضب يدوى فى صوته ، والعزم يتقد فى عينيه ، والسعال يقطع عباراته ويهشمها ويضاعف أثر العزم والسخط المنبعث منه، وأيقنت أنها لو اعترفت فسيجن جنون الشيخ وسيحاول ولا ريب أن يقتص من ولده فيقتل بسببها شر قتلة وتصورت الوالد تجاه الولد

وتمثلت كفاحا هائلا يثيره الشيخ من أجلها . ورأته رأى العين يسقط مخضبا بدمه صريعا ، فاختلجت أوصالها يأسا وذعرا وقر قرارها على الصمت والكتمان

آثرت أن تعول على نفسها . ألا تعتمد بعد الله الا على نفسها . أن تجاهد بمفردها . أن تلوذ بسحر جمالها ، بدهاء أنوثتها . أن تخدع الحارث وتحتال عليه ولا تمكنه منها . أن تصده كأنما هى تدنيه . أن تعرض عنه كأنما هى تقبل . أن تتمنع كأنما هى قد ترضى وتستسلم ، حتى يطمئن لها ، وينزل على ارادتها ، ويتوق الى الظفر بها طائعة مختارة ، فتكون قد ربحت وقتا ثمينا تستخدمه فى اعداد العدة لفرارها

وكانت تفكر والشيخ لا ينفك يلحظها . فلما طال صمتها قال ملاطفا رأسها بأنامله ، مثبتا عينيه فى عينيها :

ـ صارحينى ولا تخشى من الحارث على . ان عرضك يا هند لالف مرة أغلى من حياتى . ولخير لى ان أموت ذائدا عنك أو منتقما لك من أن أعيش أيامى المعدودة كارها نفسى رازحا تحت عارى . فاذا كنت حقا تحبين الشيخ الذى أدبك وهداك فاتقذيه وتكلمى

وخفت صوته وهمس : « هل حاول الوغد أن يقضى منك مأرب سوء ؟ »

فصرخت هند :

ـ ما هذا القول يا عماه ؟ .. ان الحارث يكرهنى كما يكرهك ويكره كل مؤمنة ومؤمن . ولكنه لم يمسسني . وهل هو يقدر وأنت هنا ؟ هل هو يستطيع وفى صدرى نفس يتردد ؟

وقبل أن يطالبها بقسم ، عولت ان تكذب لتطمئنه وتنقذه . فاستجمعت قواها ، واستغفرت الله ، واشهدته على نيتها الطيبة وقالت :

ـ أقسم بالله العظيم أن الحارث لم يحاول استباحة عرضى ولم يرهقنى أبدا

فرشقها الشيخ عامر بنظرة وخالجه شعور مبهم غامض بأنها تكذب . ولكنه لم يلح عليها وأدار رأسه صوب الحائط وقد استقر فى ذهنه هو الآخر أن يعتمد على الله وعلى نفسه فى معرفة الحقيقة

ولما أبصرته يتحول عنها ويكف عن الكلام ، عز عليها غضبه واعراضه ، فنهضت وجلست على السرير بجواره ، وقالت بصوت متهدج محاولة جهدها اخفاء همها ولوعتها :

ـ والله يا عماه ، ان سر عذابى هو حزنى عليك وطول فراق همام .. لقد انقطعت أخباره عنا فما ندرى أميت هو اليوم أم حى .. فلا تسلم نفسك للخيال .. لا تدع الوساوس تستولى عليك ولا تنصرف عنى وانظر الى .. أنا بنت قلبك وروحك وايمانك فلا تعرض عنى يا عماه وانظر الى ..

فاستدار ثانية ونظر اليها وملء قلبه الرحمة بها والشفقة عليها

فلكى تحول مجرى تفكيره ، وتبدد ظنونه ، وتنعشه ، وتسرى عنه ، وتلطف عليه وقع الداء . ولكى تتشجع هى أيضا ، وتتقوى ، ويشتد عزمها على المضى فى الكفاح . أيقظت الروح المجيدة التى يقدسانها سويا . أذكت النار المباركة المشتعلة فى صدريهما اشتعالا أبديا قالت وهى تبتسم للشيخ ابتسامة متوسلة وتطوق عنقه بذراعها :

ـ حدثنى .. حدثنى عن الرسول يا عماه .. زدنى عنه حديثا وبه معرفة وبدعوته ايمانا وبشخصه الكريم حبا .. لقد نعمت برؤيته يا عماه فحدثنى عنه أيضا .. ما أحوجنى اليوم الى هذا الحديث يا عماه ! ..

فاستضاء محيا الشيخ بغتة وتألق وانبسطت تقاطيعه وازدهر عليه الابتسام كأنما قد سرى فيه سحر ساحر ، فابتهجت هند ، وتركت السرير ، وتربعت على الارض

وتربع الشيخ على فراشه ، وسعل طويلا ليستريح ويتمكن من الكلام . ثم شبك أصابعه ، وأحنى رأسه على كتفه ، وانتصت حدقتاه ، ونظر الى النور البعيد ، الى أعماق حلمه الرائع ، وهو يشعر أنه ليس بأقل من هند حاجة الى التحدث اليوم عن رسول الله ، ثم قال فى صوت هادىء ، عذب المخارج ، رقيق النبرات :

ـ كان عليه الصلاة والسلام ..

فغمغمت هند : « عليه الصلاة والسلام »

ـ كان عليه الصلاة والسلام أرأف الناس وأعدل الناس وأحلم الناس . لم تمس يده امرأة لا يملك عصمة زواجها أو تكون ذات محرم منه

كان عليه الصلاة والسلام . . .

فرددت هند : « عليه الصلاة والسلام »

ـ كان أسخى الناس وأكرمهم ، لا يبيت عنده دينا ولا درهم . وان بقى شيء ولم يجد من يعطيه له وفاجأه الليل لم يأو الى منزله حتى يبرأ منه الى من يحتاج اليه . كان عليه الصلاة والسلام . .

فتمتمت هند : « عليه الصلاة والسلام »

ـ كان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم مهنة أهله ويقطع معهن اللحم كأنه واحد منهم

كان عليه الصلاة والسلام يؤاكل الفقراء والمساكين ويجالسهم ، ويكرم أهل الفضل فى أخلاقهم ، ويتألف أهل الشرف بالاحسان اليهم . كان عليه الصلاة والسلام يضحك من غير قهقهة ولا ينكر اللعب المباح ، وكانت الاصوات ترفع عليه بالكلام الجاف فيصبر ولا يؤاخذ.

وكان عليه الصلاة والسلام لا يستكبر عن اجابة الأمة والمسكين وكان أحب الطعام اليه ما كثرت عليه الايدى . وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع ويكتم ذلك عن أصحابه حملا للمشقة عنهم

كان عليه الصلاة والسلام أشد الناس تواضعا وأسكتهم من غير كبر وأبلغهم فى غير تطويل ، لا يهوله شيء من أمر الدنيا مهما عظم

كان عليه الصلاة والسلام يعود المرضى ويشهد الجنائز ويتفقد أصحابه اذا انقطعوا عن مجلسه

كان عليه الصلاة والسلام لا يحتقر مسكينا لفقره ولا يهاب ملكا لملكه ويدعو هذا وذاك الى الله عز وجل

وكان الشيخ يتكلم وهند مشرئبة العنق اليه ، تنهل حديثه بعينيها وأذنيها وشغاف قلبها . فلما أتم بعض ما استوضحه خياله مما لا يزال ثابتا فى ذهنه من صور الرسول ، أربد محياه فجأة وصاح :

ـ هذا هو المصطفى الذى ينازعه النبوة أمثال طليحة بن خويلد الاسدى ومسيلمة الحنيفى الكذاب . . وحتى سجاح . . حتى سجاح ابنة الحارث التغلبى ، تدعى النبوة هى أيضا وتجرؤ على حق رسول الله . ولكن الحق واحد يا هند كما ان الشمس واحدة. وكما اهتدى خالد بن الوليد الى الاسلام فأصبح سيفه القاطع ، كذلك سيهتدى مالك وطليحة وسجاح ومسيلمة ان طوعا وان كرها . وعندى أن خالدا رجل نفاذ البصر والبصيرة راجح العقل غير منهدم العزيمة ولا من المتواكلين ، فالله سيستعجل له النصر

فيفوز على المرتدين فوزا مبينا . هذا شعورى ، بل هو شعور ابنى الحارث أيضا ولو أظهر غير ما بطن ومضى يصعر خديه كبرا وغرورا

فتطلعت اليه هند وقالت : « أتظن الحارث يتوقع النصر لابن الوليد ؟ »

فأجاب الشيخ هازا رأسه :

ـ بل هو فى صميم نفسه يثق بذلك . يثق به وان كان لا يتمناه . وأما هذه الثقة فهو لا يعرف مأتاها . لا يدرى سر شعوره العميق بأن النصر سيحالفنا . ولقد جاءنى أول من أمس يحدثنى عن سير القتال ، مكفهر الوجه مضطربا ، فأيقنت أنه آمن بوشك انتصارنا . بيد أنه كان يجادل ويكابر مسترسلا فى غيه ، مخفيا دهشته وقلقه فلما أمعن فى مناوأتى ليشفى غليله منى ويستر خوفه على أصحابه ويقصى عن ذهنه شبح الهزيمة الذى كان يراه ويستشعر مقدمه ، ثار ثائرى فاستمنت عليه بالله وجابهته بقوله تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » . فلم يكد يسمع الآية الكريمة حتى انعقد لسانه واصفر وجهه وتولته رعدة . ثم غادرنى وانصرف مطرق الرأس محنى الظهر كأن كلمة الله قد حقت عليه وسحقته

هذا المنظر يا هند أشعرنى بأن الحارث لم يكن مضطربا لخوفه على أصحابه فحسب ، بل لخوفه على نفسه أيضا من قصاص عادل ينزل به جزاء له على فعلة شنعاء ارتكبها أو هو عازم على ارتكابها . ولذلك فكرت فيك يا هند . فكرت فى أنه قد يكون عقد النية على استباحتك برغم اليمين التى أقسمها لوالدك

فعادت هند تنكر وتقسم ، وتستغرب وتستنكر ، وتصطنع فى بساطة تامة مظاهر الدهش والاباء . فرماها الشيخ بنظرة جانبية وقال : « لآخر مرة أطلب اليك أن تصارحينى »

فقطبت حاجبيها وخفقت فى صدرها لوعة أساها ، وقالت :

ـ قلت لك يا عماه انك واهم وان ما تفكر فيه محض خيال

فأيقن الشيخ أنه لن يقوى عليها ، وتظاهر بالاطمئنان ، ومد يده الى الارض وأخذ الكوبة ثم رفعها الى شفتيه وجعل يرتشف منها فى بطء

وقبل أن يأتى على آخرها فاجأه السعال ، فناولها لهند ، وطفق يسعل ويلهث وانهكه التعب فتمدد على الفراش وهو يغمغم :

ـ ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين

وأغمض عينه وسكنت حركته ، فخيل الى هند أنه سينام . فنهضت ودثرته بمنطانه ووقفت لحظة تتأمل الصفاء الرائع المنسكب عليه

وفجأة شعرت بالوحدة تحبط بها من كل صوب . أحست نفسها كما كانت وحيدة موحدة . ألفت نفسها بمفردها تجاه الحارث . تمثلت وجهه المحتقن ، وشفته المتلجلجة ،

وعينه الضاريتين ، وما سيطلب منها وما سيقسرها ولا ريب عليه ان فشلت فى تنفيذ خطتها. وعجزت عن استمالته اليها ورده عنها بالمكر والحيلة ريثما تمد المدة للفرار . فاختلجت أعضاؤها وتصاعدت من صدرها موجة يأس وجزع ، ولكنها لاذت بالله وبالروح المجيدة التى تقدسها . ذكرت الرسول صلى الله عليه وسلم وكيف كان لا يهاب الملوك ولا يهمه من أمر الدنيا شىء مهما عظم ، فهدأ قلبها ، واشتد عزمها

وانسلت حتى الباب ورفعت الستار فى رفق ثم أرخته خلفها ، دون أن تشعر بأن الشيخ نائم يقظان وأن عينه الساهرة ترعاها وترقبها . .

***

كان بيت الحارث خيمة كبيرة صنعت من الصوف تنهض على أعمدة ثلاثة وتنقسم الى غرف تفصل بينها أستار . وكانت الغرف المضروبة فى مقدم الدار معدة للرجال والضيوف والغرباء ، وأما الغرفة الثانية الواقعة فى مؤخر الدار فكانت الخدر مسكن النساء

فلما تركت هند غرفة الشيخ اجتازت عدة غرف حتى وصلت الى خدرها . وهناك انطرحت على الأرض فوق بساط من جلد الماعز ، ومضت تفكر فى كيف تحتال على الحارث وتروغ منه وتغادر هذه الدار الى غير عودة

وكان من المستحيل عليها أن تفر نهارا والخيام المضروبة حولها تعج بالناس . وكان أخوف ما تخافه لو انسلت من خيمتها ليلا ميممة وجهها شطر بيت خالتها المؤمنة عائشة بنت الربيع ، أن يحس بها القاسم بن غوث ، حارس الخيمة ، فتفتضح وينكشف أمرها

ولكن القاسم بن غوث رجل فقير ، يرعى الابل طوال نهاره ويحرس الخيمة فى الليل مقابل النزر اليسير من المال يتصدق به عليه الحارث . ففى مقدورها اذن أن تجرب ، أن تحاول ، أن تستدرج القاسم وتلوح له بالنضار ، وتمنحه من حليها وأقراطها وأساورها ما شاء على شرط أن يغض الطرف عنها ويعاونها على الفرار الى بيت خالتها ، الى ذلك البيت الذى أبى والدها أن يودعها فيه لان صاحبته مؤمنة مسلمة

وملكتها هذه الفكرة وعقدت النية على تنفيذها عند ما يجن الليل

وفى غفلة عنها وعلى دهش منها ، ودون ما سبب واضح يعلمشها ، تطرق تفكيرها الى اليوم الرهيب الذى شهدت فيه وفاة أمها

سمعت كأن أصواتا حولها تصيح : « واحرباه ! » ورأت ، رأت رأى العين ، أقاربها يمشون خلف الجنازة حفاة ، والنساء وقد حللن شعورهن ينثرن ملطخات الرؤوس بالرماد

ثم سمعت النائحات يندبن الفقيدة ويذكرن محاسنها . ثم خيل اليها وقد طاش حلمها وأخذ منها الدهش مأخذه ، انها ترى النائحات بعد تشييع الجنازة ، جالسات فى بيتها يأكلن وقد نهضت فى وسطهن أمها . . أمها بعينها ، تندب فتاة . . فتاة لم تعرفها هند ولم تسمع باسمها قط . فكفت عن الاكل وتاه عقلها ولم تستطع أن تفهم لماذا هى فكرت فى

أمها ، وكيف تموت أمها ثم تبعث ، ومن هو ذلك الميت الذى يندبه ميت ؟ . .
وانها لمستغرقة فى أحلامها واذا بها تشعر بالخيمة ترتج ، وتلمح ستار الغرفة يرفع ، وتبصر الحارث بن الريان داخلا عليها مقطب الجبين عابس الوجه

***

كان الحارث فتى سبط القوام صلب العضل متين العصب عريض المنكبين مكتنز اللحم ، له عينان صغيرتان حادتان ، وشارب رفيع قد تهدل طرفاه ، وشفتان غليظتان ، وذقن مستديرة ، ومظهر ينم عن قوة طاغية غاشمة

بيد أن هذه القوة لم تكن خلقا أصيلا فيه . فطبعه كان لا ينفك يتأرجح بين الشدة واللين ، بين الشجاعة والجبن ، بين الرقة والغلظة ، بين الهزل والجد ، بين الاهتمام وعدم الاكتراث ، بين الرغبة الشديدة فى اللهو والقصف ، والميل الفجائى الى العزلة والسهوم

فنزواته الطارئة هى التى كانت تتحكم فيه ، وأهواؤه العارضة هى التى كانت تملى عليه أقواله وأفعاله ، وتسوقه فى بعض الاحيان الى ارتكاب أمور لا يكاد يفكر فى نتائجها حتى يدهش كيف صدرت عنه ثم يعود فيرتكبها بنفس الاعتداد ونفس المجانة

والواقع أن القسوة كانت تفتنه ، والبطش يسحره ، وغلظة القلب تستهويه ، وكل مظاهر القوة الغاشمة تذهب بلبه ، وتستر جبنه فى عين نفسه ، وتلقى فى روعه أنه شجاع

ومع ذلك فهو لم يكن خلوا من صفات الخير . كان فيه شيء كثير من فضائل النخوة والمروءة والكرم ، ولكن طبعه المتلون كان مستبدا به ، واستسلامه لدوافع الساعة كان يلذه ، وتفاخره بالكفر كان يلهب كبرياءه ، ومباهاته بمظهر القوة كان يختم على بصره

وكان لم يزل واقفا بباب الخدر ، ملقيا على كتفه عباءته المنسوجة من شعر الابل ، مغطى الرأس بكوفيته . لافا عليها عصائب من غزل الصوف المبروم ، ممنطقا بحزام من جلد يبرز منه مقبض خنجره

وكانت هند قد نهضت متراجعة الى أقصى الغرفة وهى تخالسه النظر وترتجف

ولم تكن قد رأته أبدا على هذه الصورة ، شارد البصر ، متجهم الوجه ، منهوب الفكر ، فازداد احساسها بالقلق والخوف . ولكن اضطرابه الواضح خفض من تأثير منظره عليها ، وأشاع فى نفسها بعض الاطمئنان ، ورد اليها شجاعتها وعزمها

وجلس الحارث القرفصاء ، واضعا مرفقيه على فخذيه ، مسندا رأسه الى قبضتيه ، وجعل يتأمل الفتاة ثم قال :

ــ ما أحلاك يا هند وما أشهاك . ما رأيت فتاة مثلك . ملساء القدمين ، رخصة الكفين ، ناهدة الثديين ، وضاءة البشرة ، كحلاء العينين . ان جبهتك الناصعة لمرآة مصقولة ، وشعرك عناقيد جلاها الوابل ، وانفك كحد السيف ، وفمك كخاتم لذيذ المبسم ، ورقبتك بيضاء كالفضة ، وذراعك كالجدول الرقراق . أنت دمية يا هند وأنا عابدك

وأحنى رأسه على صدره كأن وقرا قد أناخ عليه ، فاستغربت منه هند هذه الرقة التى لم تألفها ، وظلت تنظر اليه تستطلع طلعه ، وتحاول أن تتبين فيه صورة الوحش الذى كانه منذ ساعات . ولكنها رأت رجلا آخر ، مخلوقا منكسرا ، ذليلا مهينا ، يعصف به الهوى ويكاد فرط العشق يرديه مورد الحبال . فتضامت أسنانها بغضا وحقدا ، والتمعت عيناها شماتة وظفرا ، وأيقنت أن عشقه سوف يمكنها منه ، ويطوعه لارادتها

وعاد يقول رافعا اليها بصره الشارد :

ـ يمين الحق يا هند ما عذبتك الا لانى أحبك . وما آلمتك الا لاكون آسى جراحك . وما اجترأت عليك الا لارد عنى عادية موت داهم أو جنون . انى لاراك يا هند أينما سرت وحيثما حللت . أراك فى جلال النخيل ، فى طيران الحمام ، فى قفز الظباء ، فى تموجات شعاع القمر ، فى نفسى ، فرفقا يا هند بى ، وعطفا من لدنك على ، وصفحا عن الكافر الآثم الذى يحبك ويلثم خاشعا موطىء قدميك

فقالت هند مذهولة : « أنادم أنت عما حاولت ؟ »

فأجاب محدقا اليها : « أنا نادم على ذنبى ولكنى غير نادم على رغبتى .. »

وركبه شيطانه بغتة فأردف فى عنف ذاكرا صدها واعراضها ، شافيا غليله منها :

ـ لاهصرن عودك يا هند ، واقطفن ثمرتك ، ستكونين لى قبل أن تكونى لأى رجل !

وارتد مستضعفا شاكيا واستطرد :

ـ لقد برح بى هواك فبرمت بامرأتى وطلقتها من أجلك . آثرت الحياة وحيدا لانقطع لعشقك . أذللت والدى لانه يحرم على حبك ولانه باسلامه أقرب اليك منى .. لقد رضعنا يا هند من ثدى واحد ، وغذانا حشا امرأة واحدة ، فكلانا أعد للآخر ، ولا قوة فى الارض يمكن أن تفصل بيننا .. أنت لى وأنا أحق بك من سواى ، ولكنى يا هند لا أود قسرك على ما تكرهين . لا أود انتهاك حرمة نفسك . لا أود اغتصابك . كفانى ما أحمل من ألم وان كانت لذة الحب التى أنعم بها تخفف من عبء ألمى . انما أنشد اللذة الخالصة بقربك . أريد يا هند أن تكونى زوجتى !

فتفرست فيه مرتاعة ثم قالت بعد لحظة تسايره وتستميله وتطيب خاطره :

ـ يعجبنى منك يا حارث وقد ندمت أن أراك تسلك سبيل الشرف والاستقامة . ووالله ما كان ليخطر على بالى أنى قد أسمع مثل هذا الكلام منك . وعندى يا حارث أن النخوة لم تفارق طبعك ، وأن الشهامة لم تزل سليقة فيك ، وأنك محوت بكرم أخلاقك أثر فعلتك

فازدهى وتهلل وجهه وقال :

ـ كنت على يقين من حسن تقديرك . وفى وسعى الآن أن أصارحك بكل شىء

فاختلجت وتطلعت اليه وقالت : « أى شىء ؟.. »

فأطرق مقطبا ما بين عينيه ، وتقلص بشره وغاضت بشاشته ، وأجاب فى صوت أجش :

ـ يبدو أن النصر سيعقد للمسلمين وأن ابن الوليد على وشك أن يهزم قبائل أسد

وطيء وغطفان وكل من ناصر طليحة الاسدى ..

فكادت هند ترسل صرخة فرح ولكنها تمالكت نفسها وانصتت الى الحارث وهو يردف :

ــ كنت أسقط الآن أنباء القتال . فبلغني أن ابن الوليد طوق في « بزاخة » (١) فلول جيوشنا ، وأنه لا يفتأ يتعقبها في غير هوادة ، وأننا بين عشية وضحاها قد نلفى أنفسنا تجاه عسكر المسلمين فاما نفر واما نموت واما نقع في الاسر ..

وازداد وجه الحارث جهامة واكفهرارا وأثاره الحنق والغيظ فصاح :

ــ ولكن مالك بن نويرة لم يمت . هو اليوم معقد الأمل . لم يقاتل بعد . لم يزل في البطاح يتأهب لملاقاة خالد . وكذلك مسيلمة يعد العدة في اليمامة وحوله ما يربى على الاربعين ألف رجل . ولقد أقسم مسيلمة ليلحون أعداءنا لحو العصا ويتركن عودهم يتصوح في الشمس حتى يذبل . على أنى برغم ما سمعت عن هزيمة طليحة ما زلت أعتقد أن جيشه قد يفلت من الشرك . وقد ينجو هو نفسه من مخالب ابن الوليد ثم يرتد عليه منصورا ظافرا . ومع ذلك فالاجدر بي أن أتيقظ وأتنبه وأحسب حساب الهزيمة المطلقة وأكون على استعداد . الحكمة تقتضيني الحذر . والحرص على حياتك وحياتي يستوجب منى العمل السريع قبل فوات الوقت ...

فقالت هند في لهفة : « وماذا تنوى ؟ »

فصوب اليها عينيه المتقدتين وأجاب في هدوء وعزم : « يجب أن نفر هذا المساء سويا ! »

فصرخت : « ماذا تقول ؟ »

فردد وهو يتفحصها :

ــ سنفر هذا المساء سويا !.. سنرحل الى مكان أمين .. سنتزوج هناك ونعيش سعيدين .. فهيىء نفسك لمغادرة هذه الدار واقضى حوائجي منذ الساعة ..

فقالت وقد ملكها الذعر : « ووالدك ؟.. والدك الشيخ ؟.. »

فأجاب : « سيبقى هنا فهو مسلم ولا خوف منهم عليه »

فأظلمت الدنيا في عين هند ، وروعها غدر القدر بها ، وسرعة انهيار آمالها ، والفشل الفجائي الذريع الذي أصابها ، فالتاثت وجن جنونها ، ولم تعد تأبه لشيء أو تنتظر شيئا أو تعلق الأمل على شيء . فصاحت نافضة عنها غبار الذل والمسكنة . طارحة ثوب اللين والمداهنة ، ظاهرة على حقيقتها ، نافثة بغضها ، مجاهرة بعقيدتها واسلامها :

ــ أنا مسلمة أيضا ولن أتبع كافرا ما حييت ! لن أتبعك . واذا كنت تحبني فاعلم أني أبغضك وألعن والدي المرتد الذي سلمني اليك . لقد بت استحي من وجهي لانك رأيته ، واكره جمالي لانك نظرته ، وآنف من هذا البيت لانك تعيش فيه . الا أني لابغضك . أبغضك بكل جوارحي . وسأظل على بغضي ما دام في عرق ينبض !

فبسط يده مستجديا متوسلا وقال : « رحماك يا هند .. »

(١) بزاخة من أعمال نجد

فاندفعت تقول وهي لا تعي :

ـ لن أكون امرأتك ولو أعطيت ملك الدنيا . ولن استضعف ولن يخور عزمي لو حدثتك نفسك أن تقضي مني وطرا . سأصرخ ، سأملأ الدنيا صياحا . سأغرز أسناني في عنقك . سأنشب أظافري فيك . سأقتلك يا حارث أو أقتل نفسي

فقال بصوت دامع متهدج وقد بهت لثورتها وأخذ بجمالها المتمرد ، وضاعفت حماستها حبه لها وتشبثه بها :

ـ لن أمسك بسوء يا هند فارحميني . اشفقي علي ولا تبذيني . هو حبك الذي أضلني وأعماني ، فغضي الطرف عن ذنبي وتجاوزي

وتقلصت شفتاه وترجرجت في عينيه الدموع واستطرد :

ـ لن أعيش يا هند بعدك . لن تهنأ لي الحياة بدونك فلا تقضي علي وأنا بعد في ميعة العمر أنشد الحياة لاحبك . ليس الشر من طبعي كما تزعمين . ليست الغلظة من خلالي كما توهمين . ليس الغدر في دمي كما تعتقدين . واني وان كنت أكفر بربك وأخالفك في معتقدك وأعبد ما كان يعبده آبائي وآباؤك ، الا أني يا هند أكون أصفى الناس نفسا ، وأنقاهم سريرة ، وأخلصهم طوية وقلبا ، عند ما أراك وأسمعك وألقي قيادي مختارا الى حبك . فلا تبذيني يا هند واشفقي علي

فنظرت اليه شامخة والتهب كبرياؤها وزهاها ضعفه . وبالرغم منها اعتزمت أن تغامر ، أن تستفزه حتى أن يقتلها فتموت ولكن طاهرة الذيل شهيدة عفافها . فتقدمت اليه وقالت وعيناها تتألقان :

ـ ما هكذا تكون الرجال يا حارث . وهمام لم يعودني أن يكون في حبه منخوب القلب ، هش المكسر ، رخو العود ، ذليلا !

فانتفض ولوح بذراعه ولكنها لم تعبأ به وأردفت مسوقة بنشوة مغامرتها الكبرى :

ـ هو الرجل ! هو الفتى الثبت الجنان ، الجريء الصدر ، الصادق البأس . أنبل من رأيت فطرة ، وأطيب من شاهدت عنصرا ، وأخلص من عرفت جوهرا . هو الذي أحبه ولن أحب على الابد سواه !

فاختلج الحارث كالجواد يلهبه السوط ، ثم جمحت عيناه ، وتاه عقله ، واستحوذت عليه غرائز البطش الكامنة فيه ، فانقض على هند وأمسك بها وصاح والحقد يخنقه والغيرة تأكل قلبه : « أتذكرينه بمشهد مني ؟ اخسئي يا فاجرة ! »

ودفعها في عنف فهوت عند قدميه ، فتشبث بذراعها وطفق يجرها الى حيث الفراش ، ويقول وقد علا الزبد شدقيه :

ـ ان دمي ليندفق الى قلبي استنكارا وبغضا . أهذا ما تقابلين به احساني ؟ ما أنت امرأة . ان أنت الا ذئبة صلفة تستمريء مخلب الذئب اذ يصفعها وتعفر رأسها في الثرى لتلقى لطماته قريرة منتشية . لسوف أكسر شكيمتك واسحق رأسك سحقي الجرو

الحقير . لقد أبديت الصريح عن الرغوة وجاهرت بحبك ومقتك دون خشية . ولكن على قدر حبك لهمام وكرهك لى ، على قدر رحمتك به وقسوتك على ، سيكون حرمانك منه وتمتعى بك ، وسآخذك .. سآخذك الساعة .. الآن .. سأنقع منك غلتى

وهم بها فأفلتت منه فكر عليها واجتذبها ، فصرخت : « لن تمسنى ! »

ثم صرخت أيضا : « أغثنى يا رسول الله ! »

وغرزت أسنانها فى عنقه ، وأنشبت أظافرها فى وجهه ، وجمعت قدميها ودفعت بهما فى صدره ، وظلت تكافح مصوبة أبصارها الى الخنجر البارز من حزام الحارث ، تحاول اختطافه وطعنه به أو طعن نفسها . ولكنه فطن لفكرتها ، فانتزع الخنجر وألقاه بعيدا ، ثم لطمها بقبضته وشدها اليه ، فأفلتت منه ثانية وتمكنت من العدو صوب الباب . وعندئذ رفع ستار الغرفة ودوى فى أرجائها صوت هائل يقول : « يا عدو الله !.. »

فالتفت الحارث كالمخبول ، فأبصر والده الشيخ وعيناه تقدحان شررا ، يلوح بسكين فى يده ، ثم ينقض عليه ويطعنه بها ، فصرخ ، ثم وثب الى الارض ، ودار على نفسه ، وانتزع السكين التى كانت يد الشيخ المرتجفة لم تستطع اغمادها الا فى كتفه

وكبر عليه أن يجرؤ والده على اعتراض مشيئته ، أن يحرمه من لذته ، أن يفسد عليه المسلمة . وخيل اليه أنها مكيدة دبرت له وأن بين الاثنين تفاهما على قتله ، فثار دمه وتقطعت نفسه غيظا وحنقا ، وارتفعت يده بالسكين ثم هوت بها على صدر والده

ولما أبصرت هند الشيخ عامر يتهاوى ويسقط مضرجا بدمه ، طاش صوابها ، فعدت الى الخارج وهى تصرخ : الى !.. النجدة !.. على القاتل !..

فجن الحارث وغاب عن رشده ، فلحق بها وأمسكها من شعرها ، وفى رعدة الحنق والخبال ، فى نشوة الفتك والبطش ، فى ثورة الحقد والتشفى ، انهال عليها بالسكين طعنا وهو لا يعى . وظل يطعنها فتختلج فيمعن فى طعنها حتى أثخنها بالجراح ، ورآها عند قدميه سابحة فى دمائها

ورفت أهداب الشهيدة وغمغمت : الله .. محمد !..

ثم أغمضت عينيها ولفظت النفس الاخير

وعندئذ استفاض الصمت حول الحارث ، فلم يدر أين هو ولا ماذا فعل . ولبث مستغرقا فى جموده ، ذاهلا عن نفسه ، الى أن أفاق شيئا فشيئا من سباته ، وحدق الى الجثتين ..

ارتعدت فرائصه ولم يصدق أنه قتل ! لا .. هو لم يقتل !.. غيره فعل هذا !.. غيره سفك الدم البرىء !.. غيره كان الناحر السفاح !.. ومع ذلك فلا غيره هنا !.. لا غيره وسط هذا الظلام الحالك !.. بلى ، هو الذى قتل !.. قتل وأعدم وأفنى كل شىء .. والده وحبه ونفسه ، دمه وقلبه وحياته !.. أممكن هذا ؟.. أفى الامكان تصور هذا الفراغ ؟!.. يا لهول الصمت والفراغ يكتنفان نفس الحارث !.. الى أين يذهب الحارث الآن ؟.. لقد نسى والده ونسى العالم ونسى نفسه ، وها هو ذا يرتمى على جثة حبيبته ،

ها هو ذا يصرخ ويبكي ، ها هو ذا يتلوى ويجأر :

ـ شلت يمنى يا هند يا حبيبتي !.. يا أنقى النساء عرضا ، وأطهرهن ذيلا ، وأعفهن يدا ولسانا . يا بيضة الخدر القاصرة الطرف العزوف عن الفحشاء. يا من قرأت فى وجهك نسخة الحسن . يا دمية القصور التى استوقد حبها ضلوعى وانحل هولها جسمى وسوف يبرى فراقها منى العظام ، أين أنت ؟!..اواه !..اواه عليك يا هند ويا لنكد طالعى بعدك!

وشق ثيابه كالنساء ، وحثا التراب على رأسه ، ولطم خديه ، وظل ينتحب

وفجأة وهو فى غمرة ألمه ، فاقد الوعى ، معتصر القلب، خاوى الروح ، يتخبط كشريد يبحث عن مأوى ، أو كغريق يتلمس حطاما ، أو كأعمى ينشد ولو لمحة من نور ، اذا به ينتفض وينكمش ، ويخيل اليه كأن كل شيء قد ماج حوله وكأن الارض فى الخارج قد زلزل زلزالها وأخرجت أثقالها . وأرهف أذنيه فسمع

سمع أصواتا تقصف كالرعد ، وتهدر كالموج ، وتصفر كالريح ، وتومض كالأمل وتهتف : « الله أكبر .. الله أكبر .. حى على الصلاة .. حى على الفلاح .. الله أكبر »

فرفع رأسه الى الطاقة الصغيرة المفتوحة وحدق الى السماء ، وأدرك أن ابن الوليد قد انتصر . واذ ذاك أحس كأن نورا وهاجا يخطف بصره ، وكأن شعلة رائعة تدنو منه ، وكأن قوة غير منظورة أقبلت عليه تملأ من نفسه فراغها الأليم

وجلجلت فى قلبه الآية الكريمة التى صبها والده بالامس فى روحه وأبقاها حية هناك :

« واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »

فارتعش الحارث وكاد يخر صعقا

واشتدت الجلبة ، واختلط الهتاف ، وطرقت مسمعه أصوات جياد تصهل ، وصيحات فرسان ترجل ، فلم يلتفت ولم يتحرك ولبث مشدوها يحدق الى السماء

وبغتة اهتزت الخيمة حوله اهتزازا عنيفا ، وسمع صوتا يعرفه يردد فى فناء الدار مناديا:

ـ هند .. يا هند ..

وصوتا آخر قويا جهيرا لا يعرفه يقول :

ـ أين الشيخ عامر بن الريان زينة نجد وفخرها ؟..

فالتفت واذا بجمع من الرجال يقتحم الغرفة ، ويتدفق عليه ، ويحيط به . واذا بهمام عدوه بالامس وغريمه ، همام الناعس الحظ مثله ، يشق الزحمة ويدنو منه ثم يتراجع ويقف حيال الجثتين جامدا مروعا مذهولا

وفجأة صرخ همام وقد أخذه الرعب وطارت نفسه شعاعا :

ـ قتلت هند وقتل الشيخ عامر !.. يا للكافر السفاح !..

وانحنى فالتقط السكين ثم انقض على الحارث وأمسك بخناقه واجتذبه الى مؤخرة الجمع حيث كان يقف الرجل الجهير الصوت ساكنا مراقبا ، وقال وهو يزفر :

ـ ثوبه ملطخ بالدم وها هى السكين التى قتل بها !

فقال الحارث وقد عرف وجه خالد بن الوليد :

ـ طلبت الفرار منكم فلما اعترضني الشيخ والفتاة فقدت رشدى فقتلت !

فجاش فى صدر همام مرجل حسرته وصاح :

ـ قتلتها يا عدو الله وقتلت والدك !.. حرمتني منها !.. سلبتني الى الابد راحتي !.. ما أنت بشر ، ان أنت الا شيطان رجيم . ووالله لو ترك الأمر لى لولغت فى دمك ثم قطعتك اربا !..

واتجه صوب خالد وأردف وهو يزأر :

ـ يا ابن الوليد ، البينة أمامك والمجرم قد اعترف فاقض بالعدل واثأر للشهيدين ولى !

وكان خالد بقامته المديدة ، ومنكبيه العريضين ، وعضلاته المفتولة ، ووجهه الذى لوحته آثار الجدرى ، واقفا يتأمل المشهد ، ساكنا وقورا مهيبا . فلما سمع كلام همام تقدم نحو الجثتين فى بطء وقال :

ـ ان قضاء الله لا مستقدم له ولا مستأخر . ولكل شىء ميقات مرصود فى لوحه . رحمك الله أيا شيخ عامر ، ورحمك الله أيا هند بنت زياد ، وأجزل لكما المغفرة !

ثم التفت الى رجاله وأمر : أضربوا عنق الرجل !

فأحاط الرجال بالحارث وشدوا ذراعيه الى ظهره وشرعوا يوثقون يديه ، وقبل أن يهم أحدهم بضرب عنقه صاح بهم وعيناه تلمعان :

ـ رويدكم أقل كلمة أو كلمتين

وتحول نحو خالد وأردف :

ـ لك يا ابن الوليد أن تضرب عنقى فقد أجرمت وحق على القصاص . ولكنى استحلفك بالله ألا ما تركتنى أبحث عن كفارة لذنبى . لقد استضاء عقلى وأشرقت روحى وأيقظنى اجرامى من سبات كفرى . فخذنى معك . خذنى بين رجالك فى مقدمة الصفوف ، ودعنى أموت ، دعنى أموت مقاتلا فى سبيل الله فقد آمنت واهتديت !

ورفع رأسه وغمغم : أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله !...

فصرخ همام :

ـ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . ليس الله بحاجة الى أمثالك . اضربوا عنق الرجل !

فلوح خالد بذراعه وقال :

ـ كلا يا همام ، لا تذهبن بك ثورة الحقد فتنسى ان ربك غفور رحيم « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا »

وأشار الى الحارث وقال فى هدوء :

ـ حلوا وثاقه وليلحق الرجل بالجيش فى المقدمة كما أراد !



الجزء الرابع ـ السنة ٥١

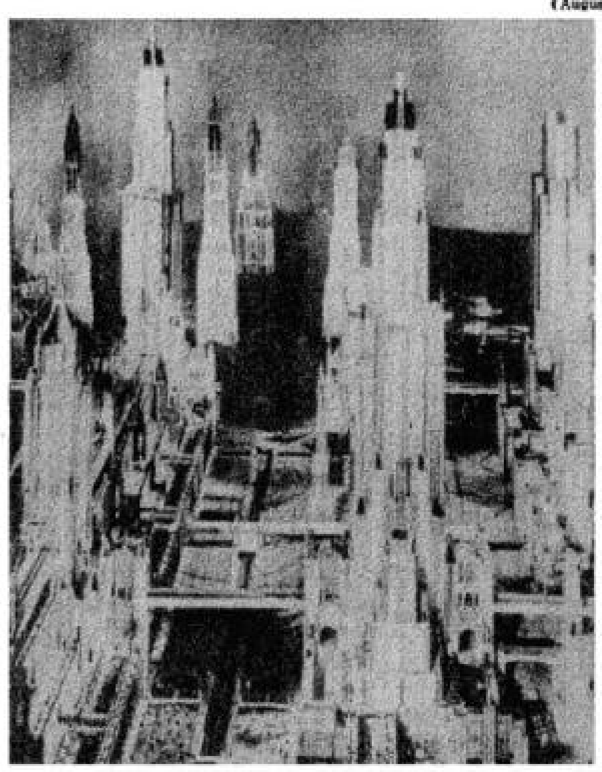
أول اكتوبر ١٩٤٣ ـ ٢ شوال ١٣٦٢

عنوان المكاتبات :

دار الهلال : مصر ـ البوستة العمومية

AL HILAL — Cairo, Egypt

(August 1943)

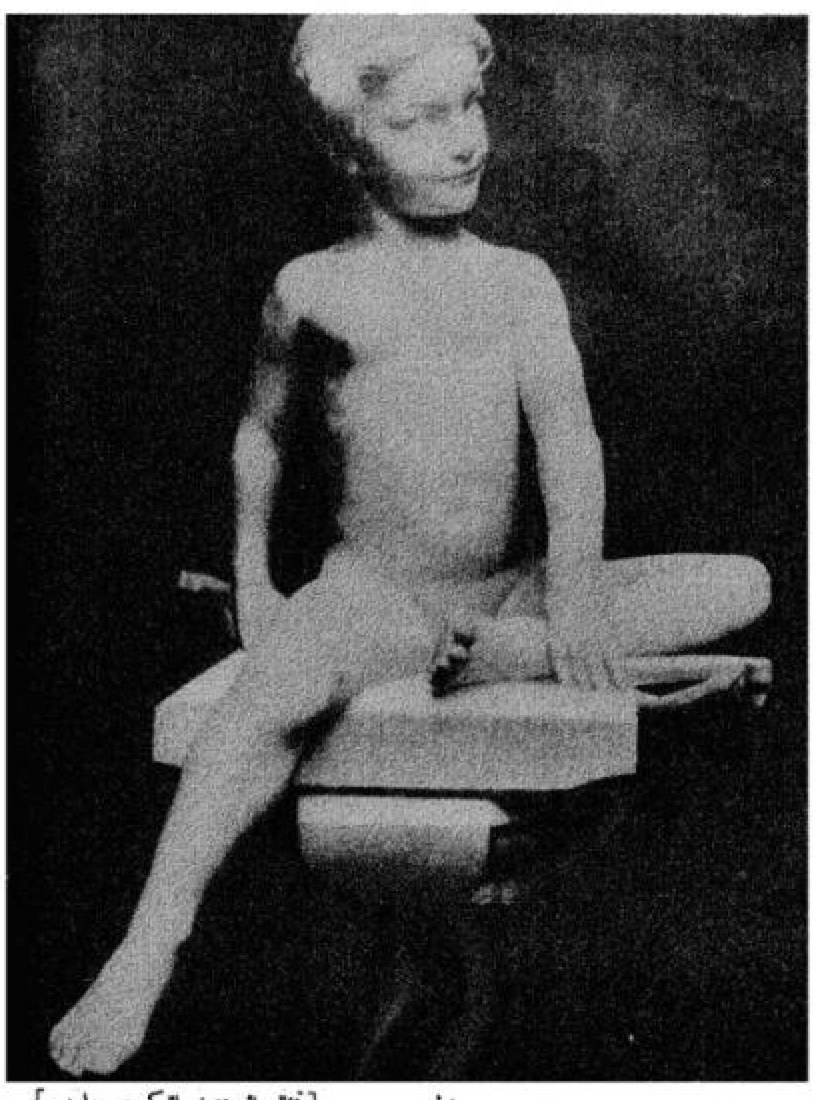


مدينة المستقبل

هل تصبح المدن سنة ٢٠٠٠ م كهذه المدينة التي يتخيلها رجال السينما

قيمة الاشتراك

٥٠ قرشاً في مصر والسودان ـ ٧٥ قرشاً في الخارج أو ثمنها ٣٫٧٥ دولار ـ ١٥/٥ جنيه انجليزى



[تمثال رائع بمتحف اللوكسمبرج بباريس]

الحب

هل يتاح للحب أن ينتصر سنة ٢٠٠٠ ، ويربط الشعوب بوشيجة الإخاء والتعاون والسلام ، فتزول الأنانية والحقد والكراهية ، وتتلاشى الحروب

مصر والعالم سنة ٢٠٠٠

تنبؤات في السياسة والعلم والفن والاجتماع

لمنشىء الهلال ، وطائفة من رجال مصر المعروفين

عثرنا في أوراق منشىء الهلال على مذكرات كتبها في سنة ١٩٠٠ وتنبأ فيها بما سيكون عليه العالم ومصر حينما تحل سنة ٢٠٠٠ الميلادية ، وما قد يجد في خلال القرن العشرين من مخترعات وفنون وعلوم ، وما سيقوم فيه من نظم وأوضاع . وقد رأينا أن نشرك في هذا البحث طائفة من خيرة رجال مصر المعروفين في السياسة والعلم والفن والاجتماع

تنبؤات جرجي زيدان

يقرر كثير من المفكرين السياسيين أن عهد الدول الصغيرة انقضى ، وأن المستقبل سيشهد نظام « تكتل الدول » الذي يجمع الدول الصغيرة المتقاربة في أجناسها وأصولها وأوضاعها في « كتلة » كبيرة . وفي هذا يتنبأ منشىء الهلال ويقول :

* ينقسم العالم المتمدين بعد مائة سنة ، حسب الأجناس ، دولا قليلة . فدولة اللاتين تضم فرنسا وأسبانيا وايطاليا . ودولة الجرمان تضم العناصر الألمانية المبعثرة في أوربا . ودولة الروس وتنضوي تحتها الأجناس السلافية في أوربا ، وتكون الصين واليابان دولة واحدة ، وهكذا ..

▭

في بداية هذا القرن كانت الجمهورية راسخة الدعائم في فرنسا ، والامبراطورية موطدة الأقدام في ألمانيا .. ولكن منشىء الهلال تنبأ حينئذ بزوال الجمهورية الفرنسية والامبراطورية الألمانية فقال :

* تنقلب جمهورية فرنسا وتصير ملكية ، وقد تصير امبراطورية وتصير ألمانيا جمهورية بسبب انتشار الاشتراكية فيها

وكذلك الولايات المتحدة الامريكية تنقلب من الجمهورية الى الملكية

▭

لم تكن فكرة الوحدة العربية منذ أربعين سنة قد خطرت لأحد من كتاب البلاد العربية أو زعمائها ، فقد كانت كل دولة عربية فى شغل وهم بأمورها الخاصة ، ولكن بصيرة جرجى زيدان أبانت له أن هذه الدول الشتاتة المتباعدة ستتقارب وتتكتل يوما ما فقال :

- تتم الجامعة العربية بين الشعوب العربية ، فتتحد مصر والشام والعراق وتكون دولة عربية . ولكنها قد لا تصل الى هنا فى القرن العشرين ، بل فى القرن الذى يليه

▭

مصر ، كيف يكون أمرها سنة ٢٠٠٠ ؟ . هذا بعض ما رآه فيها منشىء الهلال من الأنظمة والمنشآت التى تم تحقيقها فى النصف الأول من القرن العشرين :

- حكومة مصر نيابية ومجلس نوابها يمثل كل ما فيها من الملل والمذاهب
- الازهر يدرس جميع العلوم العصرية واللغة الانجليزية
- للسيدات ناد اسمه نادى قاسم أمين
- السفر بين مصر والاسكندرية بالطائرة ، وبين مصر وأوربا بالبالون
- فى القاهرة مستشفى للراديوم يعالج فيه مرض السرطان
- تبنى المساكن على الطراز الفرعونى ، وتقوم بجوار الاهرام « فيلا » من هذا الطراز تعرف « بفيلا » فرعون
- تكثر الواحات فى صحارى مصر ، مثل واحة « هليوبوليس »
- تقوم فى مصر مصارف « بنوك » وطنية ويقبل المسلمون على التعامل معها
- تقوم فى هليوبوليس جامعة تدرس فيها جميع العلوم ويحاضر فيها أساتذة من جميع الاجناس
- تستقل سورية كما تستقل مصر وتنشأ بينهما سكة حديدية

فهل يتم فى النصف الثانى من القرن العشرين تحقيق ما فى نبوءات جرجى بك زيدان عن نواحى النشاط ومرافق الحياة فى مصر ؟ ؟

- يبلغ عدد سكان مصر خمسة وعشرين مليون نسمة
- الدكتور محمد يبحث عن ميكروب الفرح وميكروب الحزن
- الدكتور مصطفى يجرى عملية نقل أعضاء الجسم البشرى من شخص الى آخر
- الدكتور ابراهيم يبحث فى أعصاب النبات وقوته العاقلة
- تصدر فى مصر مجلة خاصة بالعلوم باللغتين العربية والانجليزية
- وتصدر جريدة عربية يعرف المشترك فيها أخبارها لا بقراءتها بل بطريق التليفون
- يجلس المرء فى بيته مع زائريه ، ويشاهد ويسمع التمثيل بالسينماتوغراف الناطق

• يسافر الناس من الاسكندرية الى رأس الرجاء الصالح بالسكة الحديدية الكهربائية ومن القاهرة الى طوكيو باليابان
• تنشأ فى الخرطوم جامعة مصرية وكذلك مستشفى للبحث فى أمراض السودان
• عثروا فى أرض اليمن على آثار مدنية قديمة متصلة بمدنية الفراعنة
• أنشىء فى القاهرة مجمع علمى أطلق عليه اسم « مجمع البحث عن مفاخر الشرق القديم »

▭

إذا تذكرنا ما كانت عليه صورة الحياة ومتجه التفكير فى بداية القرن الحالى ، أدركنا كيف كان منشىء الهلال صادق الحس نافذ البصيرة ، حين رسم صورة المستقبل المحبوب فأخرجها قريبة مما عليه الحال ، أو مما يجرى فيه التفكير ، فى هذه الأيام...

الزواج : بالتراضى بين الزوج والزوجة . وبعقد مدنى يجوز إلغاؤه . ويجب على الشاب والفتاة أن يقدما عند الزواج شهادة طبية تثبت خلوهما من المرض ، ولا يتم الزواج دون تقديم هذه الشهادات . وتنشىء الحكومة مكتباً خاصاً لفحص الشبان والفتيات مرة فى كل سنة ، وتقيد نتيجة الفحص فى سجلات الحكومة ، حتى يعرف الطبيب عند اعطاء الشهادة الامراض التى تعرضوا لها

الحكومة : تتولى كل الاعمال العامة على المبدأ الاشتراكى . ويدفع كل انسان مبلغاً ينفق منه على المصلحة العامة

المدارس : يتعلم فيها التلاميذ كافة العلوم حتى الطب والقانون ، وان لم يكن القصد تخريجهم أطباء أو قانونيين

المرأة : حرة تخرج فى الاسواق ، وتتعلم ، وتتوظف ، وتتاجر ، وتحارب كالرجل

اللغة : لغة عامة للعالم كله

النقود : مثل اللغة ، ستكون نقوداً دولية

البريد : طوابع البريد دولية . وتكون الرسائل مثل أسطوانات الفونغراف ، فيسمع المرء صوت صاحب الرسالة

الملابس : كساء بسيط واسع . صندل فى الرجل وقبعة على الرأس للوقاية من الشمس . ويختارون فى الالوان ما يوافق الفصول والنهار والليل

المساكن : تقام فى الهواء الطلق . وهى بسيطة التركيب قليلة الاثاث . وتغرس حولها الاشجار ذات الزهور والثمار النافعة للصحة . فى كل بيت غرفة للتليفون باللاسلك . ويمكن

بواسطته محادثة الناس ورؤيتهم كذلك . مطبخ البيت ومغسله يداران بالكهرباء

الطعام : الرجوع الى الطبيعة ، أى الاكثار من أكل الخضر والفاكهة والتقليل من تناول اللحم

الرياضة : لا بد من الرياضة البدنية مدة معينة فى كل يوم . ويعمل الانسان نصف النهار ، ويقضى نصفه الثانى فى النزهة والقراءة

التجارة : تمتلك دكاكين التجارة جمعيات تعاونية ، يشترك فيها كل رجل وكل امرأة بسهم أو عدة أسهم . وتتصل هذه الحوانيت بالمنازل بواسطة تليفون بلاسلك

الانارة : تنار المدن بالمصابيح الكهربائية ، وذلك على نفقة الحكومة أما البيوت فتنار بالكهرباء على نفقة سكانها

معاملة المجرمين : بالتطبيب فى المستشفيات لا بالحبس فى السجون

الطب : يعدل الاطباء عن العقاقير الا قليلا . ويكشفون عن العلل الداخلية بأشعة رنتجن ، فيرون الاعضاء والاحشاء واضحة وكل ما يصيبها ظاهر . وتجرى العمليات الجراحية بكل يسر وسهولة . ويجريها الناس فى منازلهم بعضاً لبعض . أما طبيب العائلة فيتق مرتبه محسوباً طالما لم يكن فى العائلة مريض ، فاذا أصاب أحد أفرادها المرض انقطع مرتبه حتى يشفى المريض

الميكروبات : اكتشفوا لكل مرض جسمى أونفسى ميكروباً . فللفرح ميكروب ، وللحزن ميكروب ، وللذكاء والغباوة ، والاخلاص واللؤم ، والنشاط والكسل لكل منها ميكروب . ووجدوا لكل مرض مصلا شافياً ، حتى أمراض النفس مثل الحب والبغض ، وجدوا لكل مصلا يعالجها ويشفيها

العلم : يبحث العلماء عن وسيلة لاطالة الحياة باستبدال الأعضاء التى هزلت أو شاخت بأعضاء أخرى قوية أو شابة . وقد رضى أحد العلماء بأن يضحى بنفسه ليجرى عليه زملاؤه عملية إبدال الأعضاء . وبنى تضحيته هذه على أنه لا بد من مكافأة فى الدنيا الأخرى ، وأن هذه الدنيا لم تخلق عبثاً

الأدب : يقبل الناس على قراءة رواية بطلها مكتشف جديد لمادة تطيل الحياة ، استخرجت بواسطة أشعة الراديوم ووجدوا لها تأثيراً على الأحياء ، فصنعوا منها مصلا سموه « مصل الحياة »

الملاهى : تقام خارج المدن وعلى نفقة الحكومة . وتتقاضى الحكومة مقابل ذلك من كل فرد ضريبة سنوية تبيح له التفرج على جميع أنواع الملاهى

الطائرات : تبنى طائرات ضخمة كالبيوت ، فيسكن فيها الانسان وهى رابضة على الأرض ،

وتطير به عند الحاجة حاملة جميع أفراد أسرته ومن يريد من الأصدقاء ، فضلا عما تحمله من معدات للنزل والسكن . وفى هذه الطائرات أجهزة التليفون والتلغراف بلا سلك ، والمرآة السحرية التى يرى فيها الراكب المشاهد البعيدة

وتخترع مادة ترمى بها الطيارة من بعد ، فتوقفها عن السير تمنع فرارها بالمحاربين . . .

الرياح والشمس : فرغ الفحم من الدنيا فاستخدموا حرارة الشمس بدلامنه ، وكذلك استخدموا الرياح فى توليد القوى المحركة

هذا ماتنبأ به المرحوم جرجى بك زيدان منذ ٣٠ عاماً ، وقد تحقق بعضه ، وبقى البعض الآخر ، وقد يتحقق كما تنبأ سنة ٢٠٠٠

***

وإليك نبوءات بعض رجالنا وكتابنا المعروفين ، وقد تناول كل منهم جانباً من الحياة العامة :

أنظمة الحكم

تنبؤات محمد على علوبة باشا

ستتسع أنظمة الديمقراطية إلى الدرجة التى بها تتحقق اللامركزية فى أقاليم كل أمة

اذا جاز لنا التنبؤ بما ستكون عليه حال الحكومات حينذاك ، كان لزاما علينا أن ننظر الى الماضى والحاضر لنستشف منهما ما عسى أن يكون فى المستقبل ، على أن الامر فى منتهى الصعوبة ، فهناك فرق عظيم بين ما يجب أن يكون وبين ما نتوقع أن يكون عليه الامر فى سنة ٢٠٠٠

والذى يمكننا أن نتوقعه ، هو أن الانسان قد ارتقى فى عقله وثقافته ، ونشعر أن الحرية وكرامة الانسان متلازمتان مع تعليمه وتهذيبه . وبما أن الانسان فى الوقت الحاضر قد ارتقى وأحس بضرورة حريته وكرامته ، فانا نتوقع أن ينتشر هذا العلم والتهذيب بفضل سرعة تبادل المنافع بين الامم وتنظيمها وشيوع المؤلفات والاخبار العامة بين أفراد الناس . وفى هذا قال حسن فى نمو فكرة الحرية والكرامة ، وبالتالى فى منع الاستبداد ، ونمو فكرة الديمقراطية . وينجم عن هذا أن ترسخ فكرة الحياة الدستورية البرلمانية فى الامم ، وأن تهذب حتى تحقق الحرية الكاملة لافراد كل شعب ، وأن تتسع أنظمة الديمقراطية الى الدرجة التى بها تتحقق اللامركزية فى أقاليم كل أمة ، وأن يكون كل اقليم مكلفا بشؤونه

الخاصة وألا يطلب من الدولة الا ما كان متعلقا بالشؤون العامة كحفظ الامن فى الخارج مع الارشاد والمراقبة فيما تقوم به أقاليم كل مملكة

هذا الى أن العالم يسير الآن بخطى واسعة فى سبيل العلم والاختراع ، مما ينجم عنه ايجاد وسائل الرفاهية وراحة الانسان فى حله وترحاله ، وابتكار الادوية التى تقى الانسان من أمراض لا زالت مستعصية أو تشفيه من هذه الامراض . . فاذا تم ذلك كما نتوقعه كانت الحياة فى كافة مناحيها فردوسا للجنس البشرى . كانت الحياة عيشا هنيئا ، وصحة قوية فى العقل والبدن ، وتهذيبا وتثقيفا وادارة حكيمة غير مركزة ، قائمة على حرية الفرد وكرامته

انما يجب ألا ننسى مفاجآت قد تكدر صفو هذا الرجاء . لا ننسى أن ارتقاء الانسان فى تلك المناحى التى نتوقعها ونرجوها ، قد يدعو الى كثرة عدد ساكنى الارض وتنوع حاجياتهم وكثرة مطالبهم ، فيزداد ويتضاعف سكان الارض على نحو قد يتعذر معه ارضاء مطالبنا . والارض شحيحة ان كانت واسعة الارجاء من زمن مديد ، وتكفى لتغذيتهم وتبادل المنافع فيما بينهم ، فانها قد تضيق يوما ما عن أن تؤدى هذه المطالب وتنضب ينابيعها المختلفة بعد أن تكون غير قادرة على أن تمد الناس بأسباب الرزق وخيراتها الكاملة ، فقد يقل الفحم فى ناحية ما ، وينضب البترول من ناحية ما ويتلاشى الحديد فى بقعة ما . . وقد تقل المحاصيل عن أن تغذى الكثرة من الناس ، فتدب فى بعضهم روح الغيرة وفكرة الاعتداء فتنشب الحروب للرزق والقوت ، بل للحياة . والانسان مهما ارتقى وتهذب وسعى الى العدل والاخاء ، فان الحيوانية لا زالت كامنة فيه ، وعند الحاجة يرجع الى حالته الاولى من الفتك والقتل والنهب والتخريب

ولطالما سعى المفكرون والحكماء والفلاسفة فى منع هذه الحروب والتذكير بوجوب ارتقاء الانسانية وبعدها عن الاعتداء وبراءتها عن الوحشية . . ولكن الانسان هو الانسان، ولم يثبت لنا التاريخ فى أى زمن من الازمان ان الانسانية قد بعدت عن هذه الوحشية التى يسمونها ضرورة للبقاء أو للمجد . ومتى كانت فكرة الحروب قائمة بين الناس من يوم الخليقة الى الآن ، وأصبح من العسير بل من المستحيل منعها ، فانا نخشى أن تتكرر هذه الحروب وأن يساعد العلم على شدة الفتك والتخريب

فاذا وقعت كوارث وقامت حروب فى المستقبل بين أمم الارض، قوامها العلم والاختراع، انقلب نظام العالم وفنيت شعوبه وتخربت بقاعه فينقلب النظام الاجتماعى والادبى بنظام لا نعرف كنهه الآن وقد يكون ديكتاتوريا ، أو استبداديا فظيعا ، أو عبودية أمم بأسرها تحت أقدام الظافرين . فاذا قامت هذه الفوضى ، وقام التقتيل والتخريب ، وانحطت المروءة ، وضعفت الاخلاق الكريمة ، لم يصبح للمنطق مجال ولا للتنبؤ مجال ، ولا تسير الامور نظام مستقر ، وأصبح الظلم والقوة قاعدة بين الامم ، فتتلاشى الآمال فى تحقيق

الديمقراطية وتحقيق العدل ، ويرجع الناس بعد ذلك الى همجية تنقلب فيها الارض من فردوس الى جحيم

فعلى المسئولين فى توجيه الانسانية البشرية ، أن يقودوها الى ما فيه خيرها ورقيها ورفاهتها . وأن يحسنوا قواعد العدل وتطبيقها بين الاقوياء والضعفاء . وبغير هذا لا يكون للانسانية وجود وينقطع كل أمل فيما نرجوه لرفعتها عن طريق العدل والضمير الانسانى السليم

حياتنا الاجتماعية

تنبؤات محمد العشماوى بك

المستشار الملكى لوزارة الشؤون الاجتماعية ووزارة الاشغال

فى سنة ٢٠٠٠ ستزول الأمية تماماً ، وسنحتفل بتشييع جنازة آخر أمى احتفالا قومياً رائعاً

اذا أردنا أن نتعرف الحياة المصرية فى نواحيها الاجتماعية فى سنة ٢٠٠٠ وجب أن نتعرف نوع المجتمع الذى رسمته البلاد وعملت لتحقيقه ، وما اتخذت لذلك من وسائل ، وما رصدت له من أموال ، وما وقفت عليه من جهود . ويخيل الى أن برنامجا مقررا للوصول للمجتمع المثالى لم يوضع للآن . صحيح أن الرغبة فى الاصلاح قد قويت والدعوة اليه قد ارتفعت من كل جانب ، وان بعض مشكلاتنا الاجتماعية الكبرى قد فكر فى الاخذ بأسباب علاجها ، ولكنا لا نزال فى دور البداية أو طور التفكير ، فلم نضع خطة ثابتة وليدة دراسة شاملة . ولا تزال مشروعاتنا فى الاصلاح الاجتماعى مرتجلة ، وجهودنا متفرقة . ولذلك أخشى أن يأتى عام ٢٠٠٠ ولم نتقدم كثيرا فى الوصول الى الاهداف الاجتماعية السامية . فنصف قرن ليست شيئا مذكورا فى حياة الامم . واذا جرى التطور فيه بخطوات بطيئة ، بعد المدى بيننا وبين غاياتنا فى الاصلاح الاجتماعى بما يتجاوز سنة ٢٠٠٠ بكثير

على أنى أعتقد أنه سيكون للحرب وكوارثها ومعضلاتها ، ما يحفز الامة المصرية — متأثرة بالتيار الجارف الذى ينتظر أن يجتاح العالم عقب انتهاء الحرب — الى أن تقيم أسس مجتمع سليم يصمد للاحداث ويتمشى مع هذا التطور العنيف . فان صح اعتقادى ، ولم ينسنا هدوء السلم ضجيج الحرب ، أمكننا أن نصل فى النصف قرن المقبل الى نتائج بعيدة المدى فى حياة المجتمع المصرى . وأخصها تحقيق العدالة الاجتماعية فى أروع صورها

مثابرة بمبدأ التضامن والتكافل العام . فلا تكون الاغلبية الساحقة من الامة فى فقر مدقع وجهل شامل ومرض قاتل ، والمئات أو الالوف القليلة فى ترف من الحياة ، والمعرفة ، والصحة ، والغنى ، بل تتقارب الفوارق بين الطبقات لتحقق التوازن الاجتماعى ويتناسب الانتاج القومى مع عدد السكان ، فيتوافر للفرد مورد من الرزق يتناسب مع حياة انسانية كريمة ، ويمكنه أن يأخذ من الحياة بمقوماتها

كما أنتظر فى سنة ٢٠٠٠ أن تزول الامية تماما وأن نحتفل بتشييع جنازة آخر أمى احتفالا قوميا رائعا ، وأن يكون التعليم العام ميسرا للجميع وبالمجان ، فحاجتنا للتعليم كحاجتنا للماء والهواء . وأن تقوم الاسرة على أساس مكين من التضامن ، فيحد من فوضى الطلاق وتعدد الزوجات ، بحيث تصبح هذه الرخصة مقصورة على مواجهة ضرورة اجتماعية لا وليدة المتعة والهوى العابث

وأشغل ما يشغلنى مصير المرأة المصرية وحالتها فى سنة ٢٠٠٠ ، فما تزال الى اليوم على مفترق الطرق ، قطعت شوطا بعيدا فى الثقافة وأصبحت عنصرا فعالا فى الحياة المصرية الاجتماعية . ولكن أغلب الظن أنها لم تنته الى رأى فى رسالتها فى الحياة . فقد بدأت تطالب بالمساواة ، والمساواة فى الامور العامة حق من حقوقها ، وحقها فى المعرفة العليا لا مرية فيه . وبقى نوع الميدان الذى يجب أن تعمل فيه .. واعتقادى أنه لن يأتى عام ٢٠٠٠ الا وقد تبين للمرأة المصرية ان مزاحمة الرجل فى ميدانه أمر لا ينفعها ولا يشرفها ولا ينفع البلاد ، وأنه خير لها أن تعتصم بملكها غير منازعة فيه ، وأن تعمل فى ميدانها على تربية الجيل ، فذلك ما يرفعها الى مرتبة الخلود

حياتنا الاقتصادية

تنبؤات عبد الله بك أباظة

السكرتير العام لوزارة التجارة والصناعة

نحن الآن فى سنة ٢٠٠٠ وقد أنارت الكهرباء المولدة من خزان أسوان جميع المساكن النظيفة التى يقطنها العمال فى المدن والقرى الصناعية المنتشرة على جانبى النيل

بلغ عدد سكان مصر فى سنة ١٩٣٧ حوالى ١٦ مليون نسمة ، ولما كان متوسط الزيادة السنوية قد بلغ فى الثلاثين سنة الاخيرة ١٫٢ ٪ ، فانه ينتظر أن يكون عدد السكان فى سنة ٢٠٠٠ حوالى ٢٧ مليونا

واذا كانت مساحة الاراضى الزراعية لا تزيد فى الوقت الحاضر على ستة ملايين من الأفدنة تقريبا ، ولا ينتظر أن تزيد فى سنة ٢٠٠٠ على ثمانية ملايين فدان ، فان متوسط نصيب الفرد من مساحة الاراضى المنزرعة سيهبط من حوالى التسعة قراريط كما هو الآن الى الستة فقط . ومن ذلك يتبين مقدار تفاهة ما يصيب الفرد من غلة الارض ، مهما قيل فى امكان الزيادة فى خصوبتها وانتاجها ، أو فى المساحة المنزرعة منها . ويدعو ذلك حتما الى وجوب تنمية موارد البلاد صناعيا وتجاريا ، والى استخراج ما فى أرض مصر من الكنوز ، وما فى بحارها من ثروة مائية

نحن الآن فى سنة ٢٠٠٠ ، وقد أنارت الكهرباء المولدة من خزان اسوان جميع المساكن النظيفة التى يقطنها العمال فى المدن والقرى الصناعية المنتشرة على جانبى النيل ، الذى يحف به « كورنيش » معبد جميل ممتد على شاطئه ، تتفرع منه طرق كثيرة تشق سبيلها وسط الصحراء الشرقية ، منسابة الى الموانىء الكثيرة المنشأة على ساحل البحر الاحمر ، وفى كل منها صناعة بحرية راقية ، وقد اكتظت مرافئها بمئات من سفن الصيد المصرية ، وسفن النقل التى بناها صناعنا المصريون ، والحركة على أشدها فى هذه الثغور . فهذه بضائع تشحن لفيضها عن حاجتنا ، وتلك مواد أولية تفرغ لتنقل الى مصانعنا ، حيث تحول الى مواد مصنوعة تنتفع بها محليا ، ونصدر الزائد منها لبلاد الشرق الاوسط

أما حركة استغلال الكنوز المعدنية المدفونة فى صحارينا فقائمة على قدم وساق ، ومناجمنا تخرج أطنان الحديد والالمنيوم والكروم والقصدير وغيرها وغيرها . والمصانع تحول هذه وتخلق منها الكثير مما نحتاج اليه . وقد نشطت مصانع السماد والمواد الكيماوية والاسلحة والذخيرة والآلات الميكانيكية والسيارات والطائرات وصناعات الجرائيت والخزف والفخار وغيرها ، وكلها تستمد قوتها من كهرباء خزان اسوان بتكاليف قليلة

وقد أصبحنا لا نرى القطرات الحديدية والدخان يتصاعد منها ، لانها تسير بالكهرباء ناهبة الارض نهبا قادمة من السودان غادية اليه ، بعد أن تم مد الخط الحديدى بين الشلال ووادى حلفا . وكان من أثر ذلك أن استفادت صناعتنا وتجارتنا الى حد كبير ، فنقل الينا من السودان الكثير من المواد الخام التى تنقصنا ونشأت بسبب ذلك صناعات لها أهميتها كحفظ اللحوم والفواكه ودبغ الجلود وصنع الورق وغيرها ، فضلا عن استغلال الغابات السودانية بما فيها من مواد وأخشاب

.. وها هى ذى الطائرات تملأ الجو فى كل مكان ، وقد أصبح لنا أسطول تجارى جوى وبحرى كبير ، يربطنا بالحجاز واليمن والهند وشرقى الاردن وفلسطين والشام والعراق وغيرها ، ويعزز التبادل التجارى بيننا وبينها ويروج لانتاجنا الصناعى الغزير

لقد أصبحت جميع هذه المرافق المالية والتجارية والصناعية فى أيدينا نحن المصريين ، ولا بأس من أن يعاوننا مستشارون من الاجانب فى بعض الاحوال . وقد ارتفع مستوى المعيشة عندنا بسبب ما تنعم به من رخاء ، وزادت أجور العمال وسما مستواهم الاجتماعى

والثقافى والصحى ، ولم نعد نرى ما كانوا يسمونه « الجهل » منذ سنوات ! وأصبح كل فدان من المناطق الصناعية يقوم عليه مصنع يحوى آلاف العمال الذين انتقلوا من حياة الفلاحين الفطرية الفقيرة ، الى حياة عمالية راقية ينعمون فيها بالطعام الدسم المنظم ، والكساء النظيف والماء المصفى ، والصحة والعافية ، وقد زالت عنهم الامية فصاروا كلهم يقرأون ويكتبون ، ويفهمون حقوقهم وواجباتهم ، ويكونون شعبا صناعيا متعلما ناهضا قوى الشكيمة منيع الحاشية ، يذود عنه جيش كامل العدة ، وافر العدد ، مرهوب الجانب، يرفرف عليه علم « مصر » القوية المنيعة المحصنة التى أصبحت تكفى نفسها بنفسها ، وتضارع أقوى الامم صناعة وحضارة وغنى واستقلالا

حياتنا الفنية

تنبؤات احمد بك راسم

العالم إذا سار على ما قدر يكون للناس سنة ٢٠٠٠ م نظام اجتماعى واقتصادى من شأنه توافر أسباب العيش بقليل من الجهد ، فيحس المرء حينذاك بقيمته ، فتدق احساساته وتسمو أساليب الحب عنده

كلنا نذكر كيف تأثرت الفنون اثر الحرب الماضية فرجعت بها القهقرى وطلعت علينا ببعض نظريات حديثة ، فحلت الموسيقى « الجديدة » محل الانغام المنسجمة التى كانت تهز الروح وتطرب الفؤاد . ونزع بعض المصريين الى التحلل من قيود المادة والخطط « الكلاسيكية » باحثين عن تسجيل صفات الروح بأساليب كانت محل إعجاب البعض وسخرية الكثيرين

ولما كان من المنتظر أن يعقب هذه الحرب تغييرات واسعة المدى تتناول جميع الانظمة الاجتماعية والاقتصادية المتعارف عليها ، فان الفنون ستتأثر بهذا التطور كما تأثرت عقب الحرب الماضية .. غير أن هذه الحالة سيعقبها حالة استقرار تدعو اليها الرغبة فى نشر السلام والحرص على تجنب ويلات مثل هذه الحروب التى من شأنها تعكير صفو العالم

فالعودة الى هذا الاستقرار الاجتماعى سيعود بالفنانين الى استقرار حالتهم، مما يساعدهم على رفع مستوى الفن الى جو سحرى تحس فيه الروح هدوءا وانسجاما

وسوف يتطور كل فن من الفنون الى ما يحقق مطالب الروح التى عانت من هذه الحرب رعبا واضطرابا ، فيقدم لها توازنا واستقرارا

ففى الادب مثلا سوف نرى الصحف خلوا من المقالات المطولة تورد أخبارها وتنشر

على الناس ثقافتها فى أسلوب سهل وتعبير قوى . . وفى المعمار تظهر الدور الصحية المقسمة تقسيما مريحا . . وفن الزخرفة يأتى بالالوان البسيطة الهادئة التى تمس الروح المضطربة فتوحى اليها الراحة والسكون . . وحتى فن الطهى تمشيا مع هذا التطور سيكون مبنيا قبل كل شيء على ما يفيد الجسم من الغذاء من وفرة الفيتامينات ، وتستبعد منه أغلب المركبات الحالية التى تؤذى الصحة

سيجد هذا التطور بعد الحرب بعدة بأشكال بدائية وطرق ارتجالية تدمج تدريجيا مع ما هو قائم الآن من نظريات . والعالم اذا سار على ما نقدر يكون للناس عام ٢٠٠٠ نظام اجتماعى واقتصادى من شأنه توافر أسباب العيش بقليل من الجهد ، فيحس المرء حينذاك بقيمته ويشعر انه لا يعيش ليكد كما هو الحال الآن ، وانما يعمل بعض الوقت ويجد متسعا ليتذوق الراحة ، وتتهيأ له الفرصة للعمل على تهذيب روحه، فتدق احساساته وتسمو أساليب الحب عنده ، وتزدهر برقى الحب سائر الفنون . . وربما يبلغ التطور بفن الحب أن يتسامى عن الغيرة ، ويكون الحب للحب ذاته . . أى أن المحب يكفيه أن يخضع لهوى الحبيب مستعذبا لذة الهوى دون مطالبته حتى بمبادلته حبا بحب ، فضلا عن الترفع عن احساسات الحب السلبية كالغيرة وما اليها . .

وستظهر فوق ما هو معروف الآن من شتى الفنون . فنون أخرى حديثة ، كفن التعامل ، فينصف الناس بعضهم بعضا اذ لا يجدون هناك من فائدة وراء المعاملات الملتوية . وفن جديد للسياسة ، ويبدو من الآن أنه سيقوم على الصراحة والاخلاص والرغبة فى اسعاد الجنس البشرى . . وكذلك سيخلق حتما فن جديد للتهرب ، يتخلص به مثلى من الاجابة عن سؤال رئيس التحرير فى موضوع متشعب كهذا يتناول كافة الفنون

جوامع الكلم

— الرجال فى جميع أنحاء العالم خمسة : الاول يخدم بلاده بالمال ، والثانى بالعمل ، والثالث بالقلم ، والرابع بحياته ، والخامس بالسكوت ، والجميع يخونون أوطانهم إذا أهملوا فيما يجب عليهم أن يعملوه نحو بلادهم «جنون»

— لولا انتقاد أعدائى ولومهم ، ما نجحت فى كثير من أعمالى . ولولا تحقيرهم إياى ما كنت من الفائزين «ريشليو»

ننشر فيما يلى بحث قيم فى « الوحدة العربية » للاستاذ عبد الرحمن عزام بك ، ويتلوه بحث آخر للاستاذ سامى الجريديني فى « مستقبل العالم العربى فى ميثاق الاطلنطى » . . ننشرهما عملا بخطة الهلال فى عرض آراء الكتاب دون التقيد بما جاء فيها

الوحدة العربية

بقلم الأستاذ عبد الرحمن بك عزام

الوحدة العربية كلمة محبوبة يعبر بها كل مستعرب عما يشعر به من رابطة الأخوة بينه وبين المستعربين فى الساحة الواسعة التى صارت وطناً مشتركا لهم بين الخليج الفارسى والمحيط الأطلسى . ولو سألتهم جميعاً عما يقصدون من عبارة الوحدة العربية ، لاتفقوا فى أنهم يريدون اعترافا من الناس بما بينهم من أخوة ، ويريدون تعاوناً لما بينهم من مصلحة ، ويريدون اتجاهاً الى هدف أسمى هو غايتهم المشتركة التى جعلت منهم على مر العصور أمة واحدة لها رسالة واضحة

ثم لو سألتهم بعد ذلك عن الكيفيات التى يحققون بها غرضهم أو الأشكال التى يصورون فيها وحدتهم ، لتعددت الأجوبة ، وابتدأت الحيرة

الوحدة قائمة

ذلك لأن الوحدة قائمة موجودة فعلا ، ورغم ذلك فان عوامل التفريق والتشتيت أقوى من أن تتغلب عليها الارادة الضعيفة التى لم تبلغ بعد المستوى اللائق بمقصد نبيل ، والتى لا تزال دون مرحلة الانفجار النفسانى الذى تهون عندها الصعاب وتكتسح العقبات .

الوحدة واقعة ، وليست من عمل رجل ولا رجال ، بل ولا جيل ولا أجيال ، وإنما هى أثر لآلاف السنين ، ونتيجة لتفاعل عشرات العوامل

فمن الناحية العنصرية نجد أن هذه الساحة الممتدة من شمال الجزيرة العربية إلى جبال طورس والهضبة الكردية الايرانية والتى يرمز لها بالهلال الخصيب ، قد تلقت موجات بشرية من الجنوب منذ انقراض السوماريين الى ظهور الاسلام . وكذلك نجد هذه الموجات البشرية تتراسل تباعاً حتى تصطدم بموجات البحر المتوسط فى سوريا وفلسطين ومصر وأفريقية الى قرطاجنة قبل الاسلام بعشرات القرون . ثم نراها تمتد بعد ذلك وتقوى بدافع الدعوة المحمدية ، فتمس شواطىء الأطلسى ، وتعبر الى الأندلس ، كما عبرت من قبل تحت راية قرطاجنة

ومن العجائب البشرية أن السهول الصحراوية الكبيرة كانت ولا تزال على مر العصور مصدراً لمثل هذه الموجات البشرية ، ففي سهول المغول كما في سهول الجزيرة العربية نرى الأقوام المغولية كما نرى الأقوام المستعربة ، تتدافع إلى ما وراءها من ساحات جيلا بعد جيل

مصر بلد عربي قبل المسيح

ولعلنا اذا دققنا النظر واستعنا بالبحث العلمي وما يكتشف من آثار ، نصل الى حقيقة استعراب بلد كمصر من الوجهة العنصرية قبل المسيح بآماد بعيدة ، فلقد كانت « فقط » في الصعيد بلداً عربيا أو مستعرباً قبل أن يستبشر الناس بظهور عيسى عليه السلام في هذه الدنيا

ولعل بين إخواننا الأقباط الذين احتفظوا بدمائهم القديمة من هو أصرح عروبة من سكان مكة نفسها اليوم أو مدينة الرسول

ثم من هم الأقوام الذين سكنوا الهلال الخصيب ومصر وأفريقية قبل عشرة آلاف سنة ؟ ذلك ما لاسبيل الآن الجواب عنه . أليس لنا أن نقول هم كذلك ثمر تفاعل مشابه كان جارياً على نفس السنن ، الذي نلحظه في العهد التاريخي أو منذ ظهور مدنيات مصر وبابل ؟

أما الخمسة الآلاف سنة الأخيرة ، فحوادثها على غموضها لا تخفي حقيقة اختلاط الأقوام النازلة في الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر وأفريقية اختلاطاً يجعل من المستحيل الفصل بينهم عنصرياً ، ففي القبيلة البدوية وسط الجزيرة نجد الجمجمة المستديرة والمستطيلة كما نجدها في قرى العراق أو الشام أو مصر أو افريقية ، وكل ما هناك هو الخلاف في النسب العددية بينها

ولو حكمنا علم الأجناس وقمنا بفحص الشعوب والقبائل النازلة في الساحة المستعربة التي هي اليوم الوطن العربي ، لتأكدنا من وحدة العنصرية كذلك بين هذه الشعوب والقبائل المستعربة

وربما أدهشنا أن نجد في مثل هذا التحقيق أقباط مصر ونصارى العراق أقوى شبهاً بالعناصر السامية العربية القديمة من بعض مسلمي العرب اليوم

هذه الحقيقة هي التي توحي للناس بعلم أو غير علم وحدة الأصل ووحدة النتاج ، فهم يحنون الى الاصل المشترك ، كما يسعدون بعزة الواقع التي جعلت منهم أمة كبيرة كثيفة العدد كثيرة الموارد ، لها وطن يتسع لأكثر من مائة مليون وتتنوع موارده وخيراته . هو وطن الحضارة الفرعونية والبابلية والفينيقية والقرطاجية والاسلامية

الوحدة والرسالة المحمدية

ومنذ أربعة عشر قرناً ولد في الجزيرة العربية سيد البشر من أبوين مستعربين ، فكان مولده نوراً وهدى للناس كافة ، كما كان بصفة خاصة بعثاً أقوى من كل بعث سابق للأقوام المستعربة ، فكانت رسالته بركة على الانسانية وبركات على الشعوب التي مزجتها الدعوة المحمدية وأخرجت

منها على مر الاجيال تلك الامة المستعربة التى أدت رسالة الاخاء والمساواة على أكمل وجه فى العصور الوسطى ، والتى يرجو المستعرون أن تكون المنقذ للبشرية فى الاجيال الآتية فترفع لواء الاخاء والمساواة مرة أخرى

هذه الحقيقة الأدبية والمعنوية التى كانت ثمرة الرسالة المحمدية وثمرة الهجرات المتتالية التى صحبتها أكثر من ألف سنة ، كالحقيقة العنصرية التى كانت نتيجة للموجات البشرية فى القرون الأولى للتاريخ . تجعل المستعربين فى ساحة الوطن العربى يعتزون بعزة واحدة يعبرون عنها بكلمة الوحدة العربية وهى التى تجعلهم فى كل مكان يفخرون بالأصل المشترك ، كما يفخرون بلغة وأدب وعرف مشترك . يفخرون بالأمة التى صهرتها الرسالة المحمدية ، فجعلتها أكبر عدداً وأحسن وطناً من أية أمة من أمم أوربا العظمى

فالوحدة العربية حقيقة واقعة لا يستطيع الجاحدون من المستعمرين إنكارها

الوحدة فى الشكل الدولى

والأمر هو كيف تبرز هذه الحقيقة فى شكل دولى يعبر عن الارادة المشتركة

ذلك هو موضوع القيل والقال فى هذا القرن . وعلى أنصار الوحدة وعلى القادة والمفكرين وعلى السياسيين على وجه الخصوص ، أن يعملوا لظهور وحدة هذه الأمة عن طريق إزالة العقبات الطارئة والمصطنعة

على القادة والمفكرين أن يجدوا لتحقيق الوحدة السياسية ، وألا يشغلوا الناس بغيرها ، وأن يقووا إرادتهم لاكتساح كل عقبة فى سبيل هذه الوحدة السياسية مهما كان قدرها أومصدرها

فالوحدة العربية التى أريدها هى فى نظرى موجودة قائمة ، الفضل فى إيجادها من قبل المسيح هو لهذا العامل الطبيعى الذى أشرت إليه والذى يرسل موجات الأقوام من مراكز تاريخية بل أبديه إلى ساحات معينة على طول العصور ، ويرجع ثانياً إلى ظهور الهادى الأعظم الرسول العربى الذى صقل هذه الأقوام وأقامها على نهج العروبة بلغة مشتركة وأدب موحد

وما نحن إلا دعاة تجديد لعهد قديم وحق ثابت ،فعلينا أن نزيل ملطراً ، ونمحى عوامل التفريق والتقسيم ، ولا يجوز للدعاة للحق أن يماروا فيه أو يداروا ، فما أصيبت دعوة إلا بالمراء والمصانعة

وفى الجانب الشمالى الشرقى من أفريقية أمة عربية سبقت المغرب والمشرق فى العلوم والمعارف والثراء والاستثمار ، سحرتها المظاهر الغربية ، فنسيت نفسها وجمحت وراء السراب

فعلى أهل المغرب والمشرق أن يستنهضوا همتها وألا يوالوا من لا يوالها ولا يظاهروا عدواً عليها ، فاذا تهيأت لها الأسباب ، وهى على وشك ذلك ، كانت دولة الوسط ، وكانت مكان القلب فى دولة المستقبل العربية العظيمة

وفى الشرق عراق ناهض لنا فيه أعظم الرجاء ، يجب أن يتقى دائماً فتنتين إذا اتقاهما سلم ، وكان عمود البيت لدولة فى الشرق . أما الفتنة الأولى فمذهبية مقضى عليها بالزمن وحسن الرأى ، تلك هى السنية والشيعية من بقايا الجهل، ومن آثار العجمة . ودواؤها هو تدريس الفقه والشريعة فى معهد واحد إن لم يكن فى العراق فليكن فى الأزهر

ويحسن أن يكون الازهر مركز العلوم الدينية للعرب كافة ، كما هو اليوم مفتوح للمسلمين كافة

لكن التعليم الدينى الذى يوصل الى مركز حكومى أو اجتماعى كبير فى معهد واحد. وليدرس كل طالب ما شاء من فقه مذهبه على شيخ من مذهبه ، ولكن ليشترك فيما عدا ذلك مع بقية الطلاب ، فذلك يوصلنا الى إضعاف النزعات المذهبية دون العدوان على مذهب ما ، بل يوصل الى الاستفادة فى التقنين والتشريع من جميع المذاهب ، ويدنينا من عهد الاجتهاد الذى ذلت هذه الأمة بقفل بابه

وقد عملت على تحقيق ذلك أثناء وجودى فى العراق ، وقابلت كبار المجتهدين فى النجف الأشرف ، وسررت بما رأيت فيهم من بصيرة وحمية . واستعداد للتفاهم ، واتخاذ الازهر معهداً للتربية الاسلامية المشتركة . ولم أجد فى سعيي بمصر عقبات تذكر فى سبيل تدريس الفقه الجعفرى أو غيره من المذاهب الاسلامية ، ولكن الحرب دهمتنا قبل الشروع بين يدى الحكومة المصرية

أما الامر الثانى الذى يجب أن تتقيه فى العراق ، فهو ما يخص اخواننا الاكراد . وهنا أشعر بدافع غريب يدفعنى الى الجهر بمحبة الاكراد محبة تزاحم محبتى للعرب ، حتى لا أستطيع أن أقول أى العاطفتين أقوى ، فالاكراد قوم مخلصون مصابون ، لا يمكن أن يأتى الأذى من جانبهم ، فلا يجوز أن يشعروا بأن الدعوة للوحدة العربية فى غير مصلحتهم . فهم المسلمون الذين صدوا عن الاسلام تيارات جارفة فى كل العصور ، وهم يعلمون أن الوحدة العربية يعتز بها الاسلام ، لأنها تضم أحسن أنصار هذا الدين وأهله فى إطار واحد . وآمال العراق أو مستقبله ليس فى التوسع على حساب الكرد . بل ان الأمة العربية تدع للكرد الخيار فى الاتحاد معها أو الاستقلال بشؤونهم متى شاءوا دون أى ضرر أو غضاضة . فلا يجوز أن تخلق فى العراق مسألة كردية . وقد كان الاكراد فى الدولة العربية قواداً وأسياداً فى كل العصور قبل صلاح الدين وبعده ، وكانوا دعاة التقوى وأنصار العربية . فليحذروا تأثير الاجانب ، وليحذر العراقيون المراء والجدل معهم وغيظ قلوبهم ، فالأمر هين وللاكراد فيه ما شاءوا اذا قوى العراق كان نواة لدولة هذه الأمة الشرقية

أما الشام فهى أقوى الشعوب العربية فكراً وأحسنها نشاطاً ، وأقدرها على الخير والشر لما فى أهلها من دهاء وقوة إرادة ، وهى كنز هذه الأمة الفياض بالمفكرين ورجال الاعمال والتجار

فيجب أن يكون تحريرها من النفوذ الصهيونى والفرنسى أو غيره هدف عرب الشرق والغرب

ومشكلة لبنان أسهل المشاكل متى اتفق العرب على جعل الخيار للبنان فى الشكل الذى يريده لادارة نفسه ، وليس للعرب قبل عرب لبنان المسيحيين إلا مطلب واحد ، أن يذكروا دائماً أنهم

فى الشرق وأن آباءهم كانوا أسياداً فيه ، وأن الغرب حادث عليهم وزائل من بينهم

وبقية الجزيرة العربية فى حالة من البداوة ، كان من حسن حظ العرب أن وجد علاجها بظهور الدولة السعودية ، فصيانتها وتأكيد ما بينها وبين اليمن من روابط ، وإمدادها بما ينقصها ، وتذليل الصعاب لها بتضامن مصر والشام والعراق ، يسهل على أنصار الوحدة تنشئة جيل فى الجزيرة يساير الحضارة الآتية ، وستبقى منبعاً فياضا لتغذية هذه الأمة بدماء فتية ، كما تريدها الطبيعة ، وكما يقول أهل العراق نجد أم والعراق داية . (قابلة)

هذه البداوة فى الجزيرة كنز للامة العربية يفيض عليها من حين لحين ، ويجدد ما بلى منها ، فالمهم فى أمرها أن يحتفظ فيها بنظام بدوى فى يد قوية قادرة على مسايرة الأمة كلها ، وعلى متابعة الرقى المطلوب . وقد ينتهى الأمر فى الشرق العربى بدولة واحدة فيه ، تكون الجناح الأيمن لهذه الأمة

هذه العمليات فى تطورها فى الغرب والوسط والشرق يجب أن تكون من صناعة أهلها ، لا من صناعة الأجانب . ويجب أن تتجه إلى وجهة واحدة هى وجهة التكتل والتجمع ، وعندئذ سنرى أن الاشكال لا قيمة لها ، وأن هذه الامة سواء أقامت على أسس من التحالف أو نظام من الاتحادات أو على دولة واحدة ، فان الشكل الذى سيستقر هو أفضل مظهر لهذه الوحدة ، وهو الشكل الذى يرشد اليه التطور الطبيعى وتدل عليه الحاجة والتجربة

فعلى دعاة الوحدة أن يعملوا لها ويشددوا فى المطالبة بها ، ويستبسلوا فى تحقيقها وينبذوا معاونة الاجانب فى سبيلها . عليهم أن يؤمنوا بأنفسهم ، وأن يدعوا الناس لأيمانهم . فلو أقام لهم الأجانب دولة لهدمها العرب إنكاراً لها ، ولو أقاموا هم وحدتهم وربطوها بأوهن الخيوط الدولية ، لكان من نفس مرونة هذه الخيوط ما يمنع قطعها ، وها هو نظام الدومنيون الانجليزى رغم وهن روابطه القانونية الدولية أقوى على الحوادث من أي نظام آخر

فليست الاشكال هى التى تشغل دعاة الوحدة ، ولكن الحقائق التي تقوم على جهاد مشترك فى سبيل التحرير وغاية مشتركة هى العزة والقدرة على حمل رسالة الحق والحضارة

وأخيراً لقد سألنى منذ عشر سنين صديق بريطانى عن الوحدة العربية

فلما أجبته بأنها آتية لا محالة ، وأن العرب أمة المستقبل ، استنكر قولى ، فكتبت له إنها ستصبح فى ظرف عشر سنين مسألة المسائل فى هذا الشرق الادنى ، والغرض الاول لمصر وكل الاقطار العربية . وكان قولى وقتئذ مبالغة فى التفاؤل ، وها هو صديق الانجليزى رجع الى مصر بعد تجربة طويلة فى العراق والشام ، يقر ما ظننته وقتئذ

وانى أعتقد أنه ما لم يقع ما ليس فى الحسبان فان السنين العشر الآتية سيتحقق فى أثنائها أعظم الخطوات لظهور أكبر اتحاد دولى فى البحر المتوسط ، ذلك هو الاتحاد العربى

عبد الرحمن عزام

مُستقبل العالم العربى

فى ظل ميثاق الاتلنتيكى

بقلم الأستاذ سامى الجريدينى

ميثاق الأطلسى صريح فى حرية الشعوب واختيار شكل حكوماتها . وهذا الاختيار متى جاء طلواً ونتيجة من الوحدة الاقتصادية والاتحاد الثقافى ، فانه يجىء مطابقاً لرغبات الذين يقترحونه ، لا وحياً من حاكم أو طمعاً فى مصلحة عاجلة . وأول شروطه هو إبعاد الروح القومية المحلية عن أن تسود

ما هو الميثاق الذى ارتبط به تشرشل وروزفلت وسمى ميثاق الأوقيانوس الأطلسى ؟

انه ميثاق قرر مبادىء ولم يضع خططاً وتفاصيل

أما المبادىء فتكاد تكون مشابهة لشروط ويلسن الأربعة عشر ، وأما التفاصيل فلا تعلم حتى توضع المبادىء موضع التنفيذ ، وعند ذلك قد ترى الفرق شاسعاً بين ألفاظ المبدأ وبين تطبيقه ، أو تجد المبدأ وقد نفذ بروحه وبلفظه

وها نحن أولاء نلخص هذه المبادىء التى انطوى عليها الميثاق وعددها ثمانية :

(١) لا يطمع الفريقان المتفقان ــ انجلترا والولايات المتحدة ــ بزيادة رقعة أملاكهما . فاذا فسر هذا المبدأ تفسيراً صحيحاً منطبقاً على السياسة العملية لوجب حتماً الغاء كل انتداب . فان الانتداب كان ستاراً أو اسماً مستعاراً للاستعمار . فمتى بطل هذا وجب أن يبطل ذاك

(٢) لا يحصل تغيير أو تبديل فى أرض ما لا يتفق مع مشيئة شعبها . ويجب التعبير عن هذه المشيئة بحرية تامة . وهذه جملة سهلة التحرير ، ولكنها صعبة التنفيذ . فكثير من سكان بلدان عديدة فى أوربا وفى الشرق العربى يسكنون بلداً واحداً ، ولكنهم مختلفون ديناً وعنصراً ومذهباً . فكيف توفق بين تعبيرهم عن آرائهم بحرية وبين حق إسكان كل أحد ببلده

هنا يجب الأخذ بمبدأ إزالة الضرر الأكبر بالضرر الأصغر وتطبيق فكرة تبادل السكان . فهى قد طبقت فى بعض أنحاء أوربا وطبقت فى البلقان وفى تركيا فنالت قسطاً غير قليل من النجاح

ولا يغرب عن الذهن ان فى الأمر ظلماً قد يقع على البعض ، ولكن الأخذ بما يخدم الكثير ويمنع الاضطراب خير من إبقاء حال ظالمة على ما هى

وينطوى هذا الباب على مبدأ الاستفتاء . وهو شوكة فى جنب الحكومات . كيف يكون الاستفتاء وهل يتم فى وسط حر وهل يؤخذ به اذا اصطدم باعتبارات أخرى يسمونها « مصلحة عليا » مرة ومصلحة « حربية فنية » مرة إلى آخر ما يعرف عن رجال السياسة عند ما يزلون على حكم التقاليد والنظام العتيق ضاربين بخدمة الشعب عرض الحائط

(٣) احترام حق الشعوب فى اختيار شكل حكومتهم ، وإرجاع الحقوق التى اغتصبت الى أربابها . وهذه خطوة تفضل ما جاء فى نقط ولسن بهذا الصدد

فانه حصل عقب الحرب الماضية أن كانت الحكومات مرتبطة بعضها مع البعض الآخر باتفاقات سرية كاتفاق لندن مع ايطاليا وكالاتفاق مع الملك حسين الهاشمى . وكان ما لا يزال عالقاً بالاذهان من خلاف ونفور بين المتعاقدين

فهذه الاتفاقات أصبحت باطلة وكل ما يشابهها أو ينسج على منوالها الآن لا يعمل به

(٤) حرية تبادل الاقتصاد والمواد الأولية سواء فى ذلك الدول الكبيرة أو الصغيرة . الغالبة أو المغلوبة وينطوى ما جاء فى البند (٥) على نفس هذا المبدأ

(٦) ضمان حرية الشعوب أن تعيش فى بلادها وضمن حدودها بسلام وأمان من الخوف ومن الحاجة . وهذا المبدأ يستدعى حتما إنشاء هيئة عليا تراقب وتسيطر على تنفيذه ويستدعي دخول أمريكا فى عالم الاستقرار

(٧) حرية البحار . وهذا وضع فى الميثاق بصفة مبهمة نظراً لصعوبة الحل والتفسير عند ما تضع الحرب أوزارها ويبدأ بوضعه موضع العمل

(٨) نزع سلاح الامم المعتدية والسعى فى تخفيف عبء التسلح عن الشعوب جمعاء

هذه هى المبادىء التى نص عليها ميثاق الأطلنطى والقارىء الذى تتبع السياسة العالمية يرى أنها لا تختلف كثيراً عن شروط ولسن الأربعة عشر وقد تفضلها فى بعض الوجوه . فاذا أخذنا من الميثاق روحه ومبادئه التى تهم البلاد العربية ، يسهل علينا أن نعرف توجيه خطواتنا فى ظله

***

وأول شىء يحسن لفت النظر اليه هو هذا الابهام الذى تحاط به المطالب التى ينسبونها الى العالم العربي . فهم يقولون « وحدة » وهم يقولون « اتحاد » وهم لا يحددون العالم العربى تحديداً جغرافياً

فهل يقصد من العالم العربى الى جمع كلمة الذين يتكلمون العربية من مراكش غرباً حتى أقصى العراق شرقاً وحتى أقصى الجزيرة العربية جنوباً وحتى جبال طوروس شمالا

ان كان هذا مطمعاً يرمى اليه فلا عجب أن يبرح الذهن أن اللغة وحدها لا تكفى لضم الناس

فى اتحاد ، فهناك العامل الجغرافى يسيطر على مقومات الشعوب وهناك العامل الاقتصادى يفرق الاخ عن أخيه دع عنك عامل الثقافة والتربية

ولا يخالجنا شك فى أن الذين يضعون هذه الغاية نصب أعينهم لا يريدون جمع « بابل » من الخلائق فى امبراطورية لا يمكن ضم شملها . فاذا تواضعنا وقصرنا المطالب على ما كان جزءاً عربياً من الدولة العثمانية قبل ١٩١٤ وهذا ما يخيل الينا أنه غرض القائمين بالحركة وجدنا أن الصعوبة أقل ، وان شيئاً من التمهيد للاتفاق يمكن حدوثه

ولكننا اذا أخذنا ميثاق الاطلسى ميزاناً ، واذا أخذنا ماضى هذه البلاد وتاريخها نبراساً يستضاء به ، أصبح لدينا شيء يصح أن يكون قاعدة اتفاق يمهد له

ولنعد الى « الوحدة » . . هذه كلمة لا يطمئن اليها كاتب هذه السطور ولا يحبها
ذلك أن فكرة الوحدة قد زالت أو كادت من القاموس السياسى فى هذا العصر
فالعالم يسعى الى تقرير مبدأ الحرية فى اختيار نوع الحكومة التى يريدها المحكومون
على هذا قامت الحرب العظمى الاولى ، وعلى هذا قامت الحرب الحالية
وتأييداً لهذه الفكرة تناضل الامم المتحدة الآن

وليس معنى حرية تقرير المصير أن يعم التفكك ويتغلغل هذا الحق فى كل قرية وفى كل مدينة . انما معناه إعطاء الحرية لأهل بلد ذى كيان ذاتى حتى يختاروا شكل حكومتهم

ونقول « الشكل » متعمدين فان الحكومة فى جوهرها يجب أن تكون ذات غرض واحد هو خدمة الاهلين . وانما جاء « الشكل » فى معظم الاحيان مخالفاً هذه الغاية ، فقد رأينا ملوكا تخلق وجمهوريات تنشأ تبعاً لهوى أو لغرض سياسي لا علاقة لأهل البلاد به . وهذا ما يجب النفور منه اذا أريد بالشعوب خيراً . فان ارهاق الافراد بالضرائب وتحميلهم ميزانية لا تتفق مع مقدرتهم الاقتصادية ارضاء لمطامع أجنبية لا يمكن أن تكون مع روح الميثاق الاطلسى فى صعيد واحد . كما ان وجود مطالب لأقلية أو لا كثرية لا يتفق مع روح الميثاق ، فضلا عن انه لم يتفق دهره مع روح العدل والانصاف

فاذا لم يفهم الناس أن الأقلية مهما ضؤلت يجب أن تتمتع بكل حقوق البلد مع الاكثرية — بالحقوق كلها ونعيد الكلمة ونكررها — وتتحمل جميع الأعباء ، اذا لم يفهم الناس هذا فكل تغن بحرية وبدستور وبمساواة قول هراء وباطل وقبض الريح

* * *

اذا وضعنا ما تقدم من النظريات الأدبية المجمع عليها موضع الاعتبار وعقدنا العزم على الأخذ بها ، هان علينا كثير مما نظنه صعب المنال

فالعالم الذى يتكلم العربية يختلف بعضه عن البعض الآخر فى معيار الثقافة وفى تفهم هذه

الثقافة وتوجيهها ثم هو لا تجمعه كله تقاليد واحدة أو عنصر واحد أو دين واحد

ولكن هذا الاختلاف لا يمنع الاتفاق والاتحاد اذا روعى الشيء الممكن واذا حسنت النيات وسادت روح التسامح كل روح أخرى

خذ لبنان مثلا

فهذا بلد ذو تقليد قديم وثقافة خاصة . وهو جزء مما اصطلحنا على تسميته بلاداً عربية

فاتباع ميول أهله واتجاه ثقافتهم والتمشى مع ماضيهم وعلاقتهم مع تركيا عندما كانوا يقرون بالسيادة العثمانية ومع الدول التى سبقت حكم الأتراك ـ كل هذه الأمور تجعل منه بلداً ذا نظام خاص

فاذا جاء ميثاق الأطلسى وثبت هذه الميول وشجعها فلا لوم على لبنان اذا أراد أن يحافظ على طابعه الخاص مع اعترافه بالشركة الطبيعية القائمة بينه وبين جيرانه

وهذا هو التوجيه الطبيعى السارى فى جميع أنحاء العالم الآن ـ فان سر بقاء الأمبراطورية البريطانية هو فى هذه الحرية تطلق على الأنحاء ، فيعيش أهل كل ناحية عيشة استقلال ذاتى لا يعارضهم فيه معارض ، ثم يشتركون بملء اختيارهم فى منافع الأمبراطورية وفى تحمل أعبائها ، فانه لو أراد أهل اسكتلندا الآن أن يستقلوا ببرلمان لحكم ذاتى داخلى لما لقوا معارضة من انجلترا ، فما بالك بالأنحاء البعيد عن مركز الأمبراطورية أو عاصمتها

ولم يكن هناك فى سجل التاريخ من سبب قضى على الأمبراطوريات القديمة منها والتى ظلت عائشة حتى البارحة ، إلا هذا التركيز وضم الناس فى صعيد واحد من السياسة والاقتصاد والثقافة

ولم يمنع الناعون على الدول الحديثة التى أنشأتها معاهدة فرساى إلا هــذا التسرع فى ضغط شعور الناس وهدم تقاليدهم والتعدى على ثقافتهم بغية إلباسهم لباساً واحداً

فمن المعروف أن من أسباب ضعف الدولة اليوغوسلافيــة هو استئثار الصربيين بالأمر ، ومحاولتهم « تصريب » الكرواتيين والسلوفانيين

وقس على هذا ما صنعه الرومانيون والمجريون والبولنديون كل فى بلاده

فان روح الاستبداد كان الغالب رغم انه كان استبداداً يقصد منه توحيد الشعوب

ولماذا التوحيد ، ولو شاء الله لخلق الناس كلهم على طراز واحد

وما هو السبب الذى تلجأ اليه الأكثرية فى جعل الأقلية مثلها أو بالعكس

ان التسامح وروح الأخذ والعطاء لأكبر ضمان على أن يتمكن الاخوة من التعايش فى بلد واحد

وانه إن لم يفهم القائمون بالحكومات فى العالم كله ان حرية الفرد مقدسة وان الأشياء ومنها الحب لا تكون بالقوة وان غاية كل حكومة هى السعى الى رفاهية الشعب لا الى السياسة القائمة على تقليد الماضى فلن تقوم لهم قائمة

فاذا وضعنا هذه المبادىء العريقة فى القدم والتى جاء ميثاق الأطلسى الآن يضعها موضع التنفيذ

نصب أعيننا أمنا الخطأ وضمنا الاستقرار فى العالم العربى وسهل علينا أن نضع مبادىء أولية تكون حجر الزاوية فى تكوين نوع من أنواع الاتحاد

(١) وأولى الخطوات فى هذا السبيل هى الخطوة الاقتصادية فلبنان وسوريا وفلسطين وشرق الأردن والعراق يجب أن تكون وحدة اقتصادية تزول من بينها الجمارك وماهو شر منها — هذه الجوازات التى اخترعوها بعد الحرب العظمى الأولى للذهاب والاياب والدخول والخروج

فالطبيعة جعلتها بحيث تكمل أجزاؤها بعضها بعضا فى الحياة الاقتصادية وليس كتبادل التجارة من شىء يقرب مابين الشعوب ولقد كانت السيئة العظمى فى سبيل كل تفاهم بين الأمم انهم قرنوا « القومية » بالاقتصاد فخالفوا النظام الطبيعى والغريزة البشرية . هذا فى أوربا

فما بالك بالبلاد التى نحن بصددها وليس لها من قومية إلا ما كان محليا صرفاً

وانا لا يخالجنا شك بأن عقبى هذه الحرب ستكون خيراً لأن الولايات المتحدة المشبعة بالروح الديموقراطى والقائمة على الحرية فى القول وفى التفكير وفى العقيدة ستكون فى عداد الديموقراطيات الأخرى التى تأبى ان تسخر الجمهور لخدمة الأفراد

(٢) ان نمو الاتحاد الاقتصادى يستدعى حتما الالتقاء الثقافى فى صعيد قد لا يكون واحداً ولكنه متشابه متقارب . وهذا سهل فى بلاد يتكلم أهلها لغة واحدة

فاللغة العربية ستكون عاملا أساسياً فى تكوين هذه الثقافة

ولن يكون الأمر ابن يومه . فالاقاليم التى ذكرناها تختلف تعليما وتثقيفاً بعضها عن البعض الآخر اختلافاً بيناً . وأول واجبات التثقيف هو تحبيب الثقافة الى الناس . ولا يكون هذا بالارغام أو باقحام نوع من التعليم على اقليم لم يألفه

انما يكون بتشجيع المدارس القائمة الآن على اتباع كل واحدة ، خطتها وبذل الاهتمام فى خلق غرض واحد لشتى السبل فان فرض نوع من التعليم أو لغة واحدة للتعليم على كل الاهلين لايتفق مع روح العصر ، ولا يتمشى مع الحضارة القائمة التى يجب علينا ان نماشيها ونفهمها ونأخذ منها ، فضلا عن أنه حد من حرية ألفها بعض البلدان فى أساليب تعليمهم ومناهجه

(٣) وآخر الخطوات هى الخطوة السياسية

هذه يجب ان تأتى بعد كل ما قدمنا من تأهب واستعداد قد يستغرق سنين وأجيالا . وهى يجب ان تأتى من الشعب الذى له دون سواه أن يختار نوع حكومته وشكلها . ان أقبح ما فى الحكومات القائمة فى معظم أنحاء العالم هو التحكم فى فرض شكل من اشكال الحكم على شعب من الشعوب

وميثاق الاطلنطي الذى أذاعه روزفلت وتشرشل وتبنته نحو ثلاثين دولة من دول العالم

صريح فى حرية الشعوب واختيار شكل حكوماتها . وهذا الاختيار متى جاء عفواً ونتيجة لما قدمنا من الوحدة الاقتصادية والاتجاه الثقافى فانه يجىء مطابقاً لرغبات الذين يقترحونه ، لا وحياً من حاكم أو طمعاً فى مصلحة عاجلة . وأول شروطه هو ابعاد الروح القومية المحلية عن أن تسود

ولن تسود اذا رأى الناس أنهم ذوو منفعة واحدة وتفاهم يكاد يكون واحداً ، فتسقط عند ذاك الاختراعات المزيفة التى تلبس كل بلد لباساً قومياً قائماً على مناوأة الجار ، وحسبانه عدواً يتقى شره على حين أنه أخ يرجى نفعه

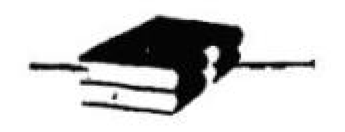
وقد يطرأ على النظام السياسى لكى ينتصر أن يلجأ القوم الى أمر أصبح مألوفاً بعد الحرب العظمى ، ألا وهو مبدأ تبادل السكان . فهذه تسوية أخذوا بها فى اوربا الوسطى وفى البلقان وفى تركيا ، فجاءت بنتيجة طيبة حقاً ، وان كانت على شىء من المرارة فى بدء العمل بها . على أن الطبيب لا يحجم عن توجيع العليل ساعة فى سبيل شفائه سنين

ولكننا لا يسعنا وقد ألممنا بمسائل كثيرة إلماماً وهى تحتاج الى شىء كثير من الشرح الا ان نشير الى قاعدة واحدة هى الاولى والاخيرة فى كل بناء سياسى او اجتماعى ونعنى روح التسامح

فان لم يكن التسامح قاعدة العمل فلا يرجى خير لهذا العمل وليس التسامح مما تفرضه الاديان والاخلاق فقط ولكنه مما تجعله المصلحة ضربة لازب

فبالتسامح ينال كل شىء وبالتسامح يعطى الناس ملكوت الارض والسماء

سامى الجريدينى



الحضارة والثقافة وعناصرهما

بقلم الأستاذ أنطون الجميل بك

الحضارة بمعناها الصحيح تقوم على ترقي الماديات والصناعيات والادبيات : رقي مادي، رقي صناعي ، رقي فكري ، هذه هي العناصر الثلاثة التي تتألف منها الحضارة ، بل هذه هي الدعائم الثلاث التي يقوم عليها التمدين الحقيقي

فالرقي المادي يدور على الغنى والثروة ، وعلى انتشار التجارة وامتداد السلطان ، وان هو الا نتيجة الرقي الصناعي أو الآلي الذي يرجع الى تقدم الصناعة وتحسين أساليب الزراعة لزيادة الانتاج ، ومن ثم لزيادة الثروة القومية . والرقي الادبي والفكري مرده الى سيادة الاخلاق النبيلة والمبادىء الشريفة ، والى تغليب معاني العدل والاخاء والتكافل الاجتماعي ، والى ازدهار العلوم والفنون وانتشار العرفان وهو ما نسميه « الثقافة » . أما الرقي فقد حددوه بأنه تقدم الانسان المتواصل في تغلبه على المادة وفي تغلبه على اهوائه

هذه هي ، عناصر المدنية والحضارة في جملتها . وكلما توفرت هذه العناصر أو هذه الشروط في أمة أو في بلاد ، كان التمدن فيها أكمل مظهرا ، وكانت الحضارة فيها أرفع مستوى . والعكس صحيح

ولا نرمي من وراء هذا القول الى استحالة ازدهار الحضارة في بعض البلدان ، فان التقدم الادبي — والفكري أيضا الى حد ما — ممكن ، لا بل واجب في كل أرض نزلها الانسان ، ذلك الحيوان الناطق . ولكن التقدم المادي والصناعي قد يكاد يكون متعسرا في بعض الاصقاع . أي فنون وأي زراعة وأي صناعة ، ومن ثم أي ثروة ترتجى في القطب الشمالي المكفن بالثلوج أو في الصحراء القاحلة المغطاة بالرمال المحرقة ؟ ليس من شك أن لخصب التربة وجودة معدنها ، ولصفاء الجو واعتدال هوائه ، تأثيرا عظيما في التقدمين الصناعي والمادي ، ولقد قالوا بحق ان الانسان وحضارته من صنع اقليمه

أما الثقافة التي اشتق اسمها من تثقيف الرمح ، بمعنى تسويته وتقويمه، فكثيرا ما تستعمل للدلالة على الرقي الفكري والادبي — والصناعي أيضا — للافراد والجماعات

يثبت من كل ما تقدم ان العلاقة بين هذه العناصر علاقة وثيقة ، وأن القرابة بين الحضارة والثقافة قرابة عريقة ، فهي جميا تتشابك وتتفاعل دائما أبدا في أسبابها ونتائجها وفي عللها ومعلولاتها ، وفي عناصرها ومقوماتها . فالتقدم الفكري ، أو الثقافة ، يساعد على الوصول من أقرب السبل الى التقدم المادي ، أي الى الثروة ، بفضل ما تبتدعه العقول

---

* ألقيت هذه المحاضرة في قاعة يورت بالجامعة الاميركية ، وقد اختص الهلال بنشرها

المثقفة من ضروب الاستكشاف والاختراع . ولكن هل من سبيل الى تعميم هذه الثقافة ونشرها بين طبقات الشعب الا بتوافر الثروة للدولة ؟ ويمكن أن نقيس على ما ذكرنا ما لم نذكر . على أن بعض علماء الاجتماع يحرصون على تحديد كل شيء ، وعلى تقسيم كل شيء ، وعلى اقامة حدود وفواصل وفوارق بين الاشياء المتشابهة . فالحضارة كما حددناها هي في نظرهم أعم ، والثقافة أخص . فالانسان المثقف متمدين بالمعنى الصحيح . ولكن المتمدين ، أو من اصطلحنا عرفا على وصفه بالتمدين لا يكون دائما مثقفا ، فقد جرى التقليد على حصر الحضارة أحيانا في بعض المظاهر المرعية والآداب العامة . فالرجل المثرى العارف بآداب السلوك في مأكله ومشربه وهندامه ، وفي أسلوب سيره وسلامه وكلامه ، قد يسمى متمدنا وان لم يكن مثقفا . وقد يجهل المثقف الشيء الكثير من هذه الآداب المرعية التي ذكرناها ، فلا يوصف بالتمدن ، وان كان في معارفه ونبوغه وسمو أخلاقه أرقى بكثير من ذلك المتمدن أو المتحضر الذي لا تعدى حضارته هذا الطلاء أو تلك القشرة الخارجية ، كما سنفصل ذلك

أما والحالة كما بسطنا ، فلا بدعة أن يكون للحضارة في مظاهرها ضروب وألوان تختلف باختلاف الزمان والمكان واختلاف العقيدة والنزعات النفسية ، وان كانت واحدة في جوهرها وعناصرها التي عددناها

وأنواع الحضارات التي تعاقبت في التاريخ ، والتي تنافست وتطاحنت حتى أبادت الواحدة الاخرى ، عملا بناموس بقاء الاصلح ، كثيرة تكاد لا يحصرها عد . فالحضارة كالنهر ، يحتفظ باسمه على طول مجراه ، ولكن أمواهه وشواطئه تتغير وتتبدل . فهناك حضارات منسوبة الى الشعوب والبلدان ، كالحضارة المصرية والحضارة الفينيقية والحضارة الهندية والصينية والاشورية والفارسية واليونانية والرومانية ، ومثلها الحضارة الشرقية والغربية ، والحضارة الأوربية والامريكية

وحضارات منسوبة الى الزمان ، كالحضارة القديمة والحضارة الحديثة

وحضارات منسوبة الى العقائد والاديان ، كالحضارة البوذية والحضارة المسيحية والحضارة الاسلامية

وهناك حضارات منسوبة الى مبادىء اجتماعية تقوم على سلطة الفرد واستئثاره بما يريد ويشتهي ، وهذا طابع الحضارات قبل الميلاد، أو تقوم على احترام الشخصية وتغليب العدل والحرية والشورى بين الناس ، وهذا طابع الحضارة التي جاءت بها المسيحية وجاء بها الاسلام : « احب قريبك كنفسك — لا تفعل بالغير ما لا تريد أن يفعله الغير بك » « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا — ان أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه »

وهل استطاع علماء الاجتماع أن يصوروا الحرية والاستبداد ، والديموقراطية والديكتاتورية بأحسن مما جاء في هذه الوصايا الانسانية وهذه المبادىء السامية

ونحن اليوم نشهد حركة رجعية الى القديم ، فى العراك الناشب بين حضارتين : الحضارة القائمة على الحرية وعلى حق الافراد فى تكوين الدولة ، والحضارة القائمة على الاثرة وحق الدولة فى تكوين الافراد

أما حضارتنا الحالية بوجه عام فكثيرا ما يصفونها بالمادية أو الميكانيكية أو الآلية ، لان الآلة دعامتها وقوامها . والآلة كانت من أقدم عصور التاريخ صديقة الانسان ومعوانا له فى رفع الاثقال وجرها ، وفى طحن الحبوب وقنص الحيوان ، وغير ذلك من شؤون الحياة . فقديما عرف الناس الفأس والعتلة والبكرة والساقية والشادوف وحجر الرحى . ولكن مقدرة هذه الآلات الاولية كانت محدودة ، وادارتها كانت متعبة شاقة تحتاج الى قوة العضل والمجهود المتواصل . ولبثت هذه الآلات عشرات القرون لا يطرأ عليها الا اليسير من التعديل والتحسين ، الى أن جاء عهد البخار وعهد الكهرباء ، فانقلبت علاقة الانسان بالآلات التى يستخدمها انقلابا غير وجه الاشياء بادخال المحركات الهائلة على الآلات ، فازدادت قوتها وسرعتها ألوفا من المرات ، ونقص مجهود الانسان البدنى الى حد أنه أصبح يكفيه الضغط بأصبع يده على زر صغير أو ادارة عجلة القيادة ليحرك أضخم الآلات ، أو ليسير قطارا يجر عشرات المركبات ، أو ليدفع سيارة بقوة خمسين حصانا بسرعة مائة من الكيلومترات ، وهى جميعا أطوع له من بنانه ، وهو جالس مطمئن. والآلة فوق ذلك تطهى له الطعام وتنسج له الملابس ، وتوفر له الدفء والاضاءة ، وتساعده على البناء والفلاحة والزراعة والحصاد ، بل صار لها أثر بين فى الفنون والادب ، فانها تسجل فكره وصوته وصورته وتنقلها فى طرفة عين من أقصى المعمور الى أقصاه . وهكذا أصبحت الآلة سيدة العالم والمسيطرة على كل حياة الانسان ، بعد أن بلغت خلال المائة السنة الاخيرة من الاتقان والكمال ما لم تبلغ بعضه فى ستة آلاف من السنين ، فزاد بذلك انتشار الحضارة وذيوع الثقافة حتى سهل ايصالها الى جميع طبقات الشعب

ولكن اذا كانت الآلة قد أصبحت سيدة العالم ، فان الانسان قد بات عبدا لها ، حتى أن تعطيلها أو توقفها عن العمل يعكر مزاجنا ، بل قد يشل حركتنا ويحرمنا من الضروريات . تصوروا ماذا تكون حالنا اذا توقف المصعد فى المبنى ، أو الترام فى الشارع ، أو أية وسيلة من وسائل النقل المشترك ، أو اذا تعطل فقط وابور الغاز الذى نستخدمه فى طهى طعامنا ؟ فهذه الحضارة الآلية تزيد اذن فى أنواع احتياجنا . ولكن يجب أن نسلم فى الوقت نفسه أنها توفر لنا وسائل تحقيقها ، كما أنها تساعد على نشر الرخاء بين طبقات من الامة ما كان الرخاء ليصل اليها لولا الآلة

رأيتم فيما عرضته سريعا من أنواع الحضارات التى سجلها التاريخ أنه كان لكل عصر مدنيته ، ولكل أمة حضارتها . واذا قالوا « كل فتاة بأبيها معجبة » فاننا نستطيع أن نقول « كل أمة بحضارتها معجبة ، وكل شعب مزهو بمظاهر تمدنه » . أما فى الواقع فلا يحق لاحد أن يدعى احتكار الحضارة ، فان ما يستقبح اليوم قد يستملح غدا ، وما يحب هنا

قد يستكره هناك . وكلمة الامام على حقيقة قائمة فى كل آن . فقد قال « ان معروف زماننا هذا منكر زمان مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت » ، كما أن كلمة لاوبروير صحيحة « ما يعد حقيقة أمام جبال البيرنه يعد خطأ وراءها »

دامت حضارة القرون الوسطى فى أوربا زهاء عشرة قرون ، وكان أهل ذلك الزمن معجبين بحضارتهم وبما قامت عليه من حب الفروسية والشجاعة والنجدة . ثم جاء أهل المدنية الحديثة فنعتوا تلك العصور بالعصور المظلمة

ونحن اليوم كذلك معجبون بمدنيتنا ، ونعتقد أننا أساطين الحضارة والثقافة ، وأننا قد بلغنا الاوج منها بما بلغنا اليه من العلوم والفنون وضروب العرفان والرقى والتأنق والرفاهية . ألا لا يأخذنا الغرور بما نحن فيه . فانى لاتخيل العالم بعد بضع مئات من السنين ، وقد كشف المنقبون فى « فردون » أو « ستالينجراد » أو « العلمين » عن أنبوبة فولاذية مستطيلة فنقلوها الى مجمع علمى من مجامع هذا الزمان الآتى ، حيث عكف خبراء الآثار وعلماء العاديات على بحثها وتحليل تركيبها . وأتخيل أحدهم ، وقد وفق لكشف السر عن هذه الأنبوبة ، يقف بين زملائه يشرح ويفسر قائلا : ان هذه الانبوبة الغريبة فى صنعها ، العجيبة فى تكوينها ، ليست مما كان يستعمل فى الفلاحة والزراعة أو فى أية حاجة من حاجات الانسان ، فهى ليست اذن من أدوات العمل والانتاج ، بل هى أداة كانت تسمى قديما « قنبلة » ، وكان الناس فى القرن العشرين ، عصر الهمجية والفظائع المنكرة ، يستعملونها للتقتيل والتخريب..

أتخيل هذا ، وأتخيل ذلك المجمع العلمى بعد بضع مئين من السنين يستمع عقب هذا البحث الى محاضرة يلقيها بالراديو عالم آخر فى أمريكا عن سفينة مصفحة بالفولاذ استخرجها المنقبون من قاع المحيط ، يسمعونه وهو يقول : ان هذا النوع من السفن كان يسمى فى القرن العشرين « مدرعة » ، وكان الناس فى عهد توحشهم يستخدمونها لا لاستيراد المنتجات والسلع ، ولا لنقل السياح والمسافرين ، بل لنقل أدوات التدمير وحمل المقاتلين

***

كما أن للحضارة أنواعا وتطورات ، كذلك للثقافة أنواعها وتطوراتها . فانها ، وان كانت واحدة فى جوهرها ، تتنوع وتتكيف مع ظروف الزمان والمكان ، وتتعدل وتتقلب بحسب النزعات الفكرية والاتجاهات المعنوية بين الامم

أما اختلاف اتجاهات الثقافة فلعل أصدق صورة لها فى حكاية « مباراة الفيل »

يروى أنه أقيمت منذ سنوات مباراة عامة بين كتاب العالم ، موضوعها « الفيل » ، فاختارت كل أمة كاتبا من فطاحل كتابها للاشتراك فى هذه المباراة وأخذ الكتاب المختارون يعدون الاهبة لاحراز السبق والفوز بالجائزة : فحزم الكاتب الانجليزى حقائبه وسافر الى الهند مزودا بعشرين كتاب توصية الى عشرين ناديا . وقضى فى تلك الاصقاع ثلاث سنوات هنية

وخية ، ثم عاد الى لندن ، وبعد بضعة اشهر نشر كتابا أنيق الطبع جميل التجليد ، برز على غلافه اسم المؤلف متبوعا بعدد من الحروف الهجائية الدالة على ألقابه . وعنوان الكتاب « كيف اصطدت الفيل فى الهند ما بين سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٢٨ »

أما الاديب الفرنسى فعمد الى طريقة أسهل وأقرب : قصد الى حديقة الحيوان بباريس حيث أمضى ساعة من الزمن فى مشاهدة الفيل ومراقبة حركاته وسكناته ، وعاد الى غرفته يكتب فصول مؤلفه . ولم يلبث أن نشر كتابا بسيطا فى مظهره ، ولكنه طريف الاسلوب ، لطيف النكتة ، جمع الى بديع الخيال دقة الشعور ، وعنوانه « الفيل والحب »

وفى غضون ذلك كان الكاتب الروسى مستغرقا فى التفكير والتبحر ، مسترسلا فى الاستقراء والاستقصاء ، مقارنا بين المذاهب الاجتماعية ، مرجحا اليقين حينا ، مغلبا الشك أحيانا ، ثم نشر كتابه بعنوان « الفيل ، وهل هو موجود ؟ »

أما الكاتب البولونى فظل مدة مع نفسه فى حوار ونقاش يناظرها ويجادلها ، وخرج من كل ذلك برسالة عنوانها « الفيل والمشكلة البولونية »

فى حين أن منافسه الايطالى كان يتقد حماسة ويتيه زهوا وعجبا باختياره لمباراة عالمية يرفع فيها رأس وطنه عاليا ، ويعيد مجد الامبراطورية الرومانية بفضل النظام الفاشستى ، ووضع رسالة عنوانها « تجديد مملكة الفيلة على أساس النقابات التعاونية »

وبينما كان هؤلاء المؤلفون ينشرون تواليفهم تباعا كان الكاتب الالمانى منصرفا الى تقصى الموضوع بكل ما يقتضيه من تفصيل، وظل معتكفا ست سنوات، بعيدا عن الحياة الاجتماعية يقضى بياض نهاره فى دور الكتب بين المراجع المخطوطة والمطبوعة ، القديمة والحديثة ، ويحيى سواد ليله فى غرفته بين التسويد والتبييض ، وهو فى كل سنة يغير رقم نظاراته لان درجة ابصاره كانت تزداد ضعفا . وأخيرا طلع على لجنة التحكيم بعشرة مجلدات ضخمة ، بحروف دقيقة ، عنوانها « مقدمات تمهيدية لدراسة حياة الفيل »

لم تصف لنا هذه الاقصوصة الا من ذكرت لكم من كتاب الامم ، ولكنى أتخيل كتابا آخرين يشتركون فى هذه المباراة ، وأتصور كيف كانوا يؤلفون فى هذا الموضوع :

أتصور اليابانى مثلا وقد حشا بندقيته وشحذ خنجره ، وكمن فى الغابة يترصد الفيل ليرديه عند وروده الماء ، فيخطئه ، ثم يعود فيضع رسالة يقوم ورثته بكتابة الفصل الاخير منها ويذكرون كيف أن المؤلف بقر بطنه ، فانتحر ، لانه لم يوفق فى أداء المهمة التى ألقاها « الميكادو » على عاتقه

وأتصور الامريكى وقد بدأ قبل تأليف كتابه بتأليف شركة مساهمة لتمهيد الطرق والمسالك بين الغابات والادغال وفرشها بالاسفلت ، ثم يضع تصميم سيارة خاصة مجهزة بالمؤونة والذخيرة يهديها اليه أحد المصانع الكبرى . ويعود من رحلته سالما غانما فيضع رسالة عنوانها « الاتجار بسن الفيل وجلده »

واذا فرضنا أن كاتبا عربيا قد اختير للاشتراك أيضا فى هذه المباراة الطريفة ، فماذا

يكون شأنه ؟ هل يخامركم شك فى أنه ستقام بادىء ذى بدء حفلة تكريم لمجرد اختياره ، يخطب فيها خمسة أو ستة من الخطباء يشيدون بعبقريته ، وينظم خمسة أو ستة من الشعراء يتغنون بمفاخر السلف . وينصرف الكاتب بعد ذلك الى التأليف مزودا بهذا التشجيع ، مدرعا بالصبر والجلد ، محتملا كل ضروب الشظف والحرمان ويخرج بمؤلف نفيس لكنه لا يجد بعد كل ذلك من ينفق على طبع كتابه !

تبسطت فى عرض هذه الحكاية التى راجت منذ سنوات فى أوربا ، وأضفت اليها ما تصورته عن كتاب الامم التى لم يرد ذكرها فى الاصل ، لان فى هذه الحكاية دلالة على أنواع الثقافة التى امتازت بها كل أمة من الامم وعلى عناصرها واتجاهاتها المنوعة

وقد حاول كثيرون أن يتخذوا من بعض عادات الشعوب والامم وطباعها مقياسا على مبلغ حضارتها وثقافتها . قال لى أحد أدباء الانجليز يوما ان الشعب الذى يحب الحيوانات والازهار لشعب راق متمدن . وهو يقصد أن حب الحيوانات دليل على شعور رقيق رحيم، وأن حب الازهار دليل على ذوق مهذب سليم . ولكن لا يصح الغلو فى هذه الاحكام التى تتناول فى الغالب المظاهر والقشور دون الحقيقة واللباب

لقد أشرت فيما تقدم من كلامى الى الآداب الاجتماعية المرعية فى الاكل والشرب ، وفى الزى والهندام . وهذه المظاهر الخارجية الاصطلاحية تعد فى بعض الهيئات بل فى المجتمعات عامة عنوان المدنية الراقية ، فى حين أن العلاقة تكاد تكون مقطوعة بينها وبين الحضارة والثقافة بمعناهما الصحيح . روى لى أحد الظرفاء حكاية شاب من شباننا الاغنياء العصريين وقد عرف بالاناقة و « الشياكة » ، يتختم بالماس والفيروز ، ويرتدى بدلة من آخر طراز ، تبرز الزهرة من عروتها العليا ، ويتدلى منديل الحرير من جيبها ، ضمه مجلس دار الحديث فيه على الأدب والأدباء وجاء ذكر « شوقى » ، شوقى أمير الشعراء ، فأبى شابنا المتمدين الا أن يشترك فى الحديث فقال : « شوقى ؟ أيوه ! صاحب العمارات بشارع جلال ؟ » وانتقل الحديث الى أبى العلاء المعرى وأراد صاحبنا أن يبهر الحاضرين بثقافته فقال : « ابو العلا ؟ صاحب الكوبرى المعروف باسمه ؟ » ألا رحم الله فيلسوف المعرة وأمير الشعراء ، ووقاهم شر الجهلاء . .

ألا بالله عليكم أى ثقافة فى عقل هذا الشاب الجاهل ، وأى حضارة فى قلبه المغلق ، مهما يتظرف ويتأنق ، ومهما يصطبغ مظهره بطلاء المدنية الكاذب . .

ان للحضارة والثقافة قواعد وأركانا تكاد تكون ثابتة . أما تلك الآداب المصطلح عليها ، أما تلك التقاليد والازياء ، فانها دائمة التبديل والتغيير تختلف باختلاف الزمان والمكان والاحوال ، حتى قال المثل اللاتينى « ان الاذواق والالوان لا يصح أن تكون موضوع مناقشة » ذلك لانها فى غالب الاحيان لا قاعدة لها ولا رابطة سوى شذوذ البعض وحب التشبه والمحاكاة عند البعض الآخر

ألا ترون أن الالوان الفاقعة فى ملابس الرجال والنساء قد أصبحت مألوفة الآن ،

بل صارت دليل التظرف والتأنق بعد أن كانت مستهجنة مستكرة تدل على قلة الذوق

يذكر كثيرون منا ـ والعهد ليس ببعيد ـ يوم لم تكن ياقة القميص (١) تلبس الا عالية منشاة ، كيف نظر الناس فى كثير من الاستغراب الى أول من ظهر فى المجتمعات بياقة لينة . لم يؤلف هذا الزى فى أول أمره الا بين لفيف من الشبان غواة الرياضة ، الى أن ارتضاه الفونس الثالث عشر ملك اسبانيا السابق ، فراجت الياقة اللينة ، وصار الناس يؤثرونها ويظهرون بها فى أرقى المجتمعات ـ ما عدا السهرات ـ ولو فعلوا قبل ذلك لعدوا غير متمدينين . ويقال مثل ذلك عن طرف البنطلون ، فقد كان الناس يعمدون الى طيهما فى الايام الممطرة اتقاء البلل ، ثم أصبح طى طرف البنطلون زيا مألوفا حتى فى أيام الصحو ، بعد أن روجه الملك الفونس نفسه

ولمناسبة ملابس السهرة وملابس النهار ، أذكر أنى فى سفرتى الاخيرة الى أوربا شاهدت على ظهر الباخرة ما يشاهده كل مسافر منكم :

فى الصباح الرجال شبه عراة يلبسون « الشورط القصير » يرتفع عن الساقين وعن جانب من الفخذين ، والقميص المفتوح بلا كمين يكشف عن الصدر وعن الذراعين

أما النساء فيرتدين الفساتين الطويلة تمتد من أعلى العنق الى القدمين ، بكمين يستران الذراعين حتى المعصمين

وفى المساء تنعكس الآية : النساء شبه عرايا ، بفساتين تكشف عن النحور ، الى ما تحت الصدور والظهور

أما الرجال فمزنقون بقميص صلب كالغل فى العنق ، والقيد فى اليدين ، وفوقه « السموكن » الاسود ينزل من أعلى المنكبين الى اخمص القدمين

بذا قضت عليهم التقاليد ! وكتب علينا أن نقلدهم ، لان هذه هى الحضارة ، وهذا هو التمدن

وما قلناه عن ياقة الرجال يقال عن جوارب النساء فان زى الجوارب الحريرية لم ينتشر الا بعد الحرب الماضية ، وقد ظل الجورب يتلون ويدق فى نسجه حتى صار رقيقا شفافا ينسج من خيوط أدق من خيوط العنكبوت ، ويمتزج لونه بلون اللحم فلا تعرف أعارية تلك الساق أم كاسية ، وكثيرا ما زاد فى الرقة حتى انقطع

وجاءت هذه الحرب واشتد الغلاء فقفز ثمن الزوج من الجوارب الى ما يساوى أجر العامل فى شهر كامل . ولكن الآنسة أو السيدة التى لا تكسو ساقيها بجوارب من ماركة « نيلون » تعد متأخرة غير متمدينة

وقد قرأت أخيرا أن هيدى لامار النجمة الساطعة فى فلك السينما قد ظهرت فى أحد أفلامها بجورب أسود ، فلا عجب أن تشيع غدا هذه الموضة

---

(١) ياقة فصيحها زيق ، وزيق القميص ما أحاط منه بالعنق

ولكن مالى أذهب بعيدا ، فها أنذا واقف أتحدث اليكم ، وطربوشى على رأسى كما تقضى بذلك تقاليدنا الشرقية ، ولو كان المحاضر الواقف أمامكم غربيا واحتفظ بقبعته على رأسه لقيل انه رجل يجهل قواعد المجتمعات

فى استطاعتى وفى استطاعة كل منكم أن يأتى بالامثلة الكثيرة فى هذا الصدد . ولكن فيما رويت ما يكفى للتدليل على أن جميع هذه المظاهر ليست من الحضارة والثقافة فى شيء . على أنى لا أنكر أنه ينبغى لنا أن نحافظ على كثير من هذه المظاهر المرعية ، فان الكثير منها لا غنى عنه لتنظيم العادات تفاديا من البلبلة والشذوذ ، غير أننا نضل سواء السبيل اذا حصرنا الثقافة والحضارة فى مثل هذه المظاهر الخارجية . فالحضارة الحقيقية هى حضارة القلب والعاطفة ، والثقافة الصحيحة هى ثقافة العقل والادب

***

ما سوف تكون الحضارة والثقافة بعد الحرب ؟ لن أذهب فى عالم التنبؤ والتخمين . ولكنى أعرب عن أمنية يطمح العالم بأسره الى تحقيقها ، فهو يرجو أن تكون حضارة قائمة على الترقى الادبى والخلقى كما كانت قائمة حتى الآن على الترقى المادى والصناعى ، فيتجه الانسان الى ثقافة ترهف مداركه وتوسع آفاقه وتقوم على حب العدل والحرية

ولعل ميثاق الاطلنطى ، اذا وضع موضع التنفيذ باخلاص ، يتوصل الى تحقيق هذه الامنية العزيزة الغالية . فانه قام على كفالة حريات أربع للبشر عامة وهى : حرية القول والرأى ، وحرية العبادة ، والتحرر من الظلم والاستبداد ، والتحرر من الفقر والعوز

والى جانب هذه الحريات الاربع للامم ، شرعت بعض الحكومات تعمل على كفالة حقوق أربعة للافراد ، وهى : الحق فى الطعام للجائع ، والحق فى الدواء للمريض ، والحق فى العمل للعاطل ، والحق فى التعلم للجاهل

ولكن لا بد اذا شئنا أن نتفادى الفوضى والاضطراب والثورة أن تقابل هذه الحقوق والحريات بواجبات من نوعها تكون شرطها وأساسها ، فليس من حق الا ويقابله واجب

فحرية الرأى وحق العاطل فى العمل يقابلهما واجب ، هو واجب الصدق والامانة

وحرية العبادة وحق الجاهل فى التعليم يقابلهما واجب ، هو واجب التسامح والارشاد

والتحرر من الظلم وحق الجائع فى الطعام يقابلهما واجب ، هو واجب العدل والقناعة

والتحرر من الفقر وحق المريض فى الدواء يقابلهما واجب ، هو واجب الجد والعناية بالصحة

ومهما يكن من الامر ، فان كل ما ذكرت محاولات شريفة ذات أهداف نبيلة . فليضمنوا لنا هذه الحريات الاربع وهذه الحقوق الاربعة ، وليقم الأفراد بهذه الواجبات المقابلة لها ، ونحن واثقون أن عالمنا يتبدل عالما آخر ، فتسير الانسانية بخطى سريعة واسعة الى المثل الاسمى من حضارة راقية وثقافة عالية

قصة « مى »

بقلم الشاعر الكبير الأستاذ محمد مصطفى الماحى

[بمناسبة مرور عامين على وفاتها في ١٩ أكتوبر سنة ١٩٤١]

شفا الموت ما أعيى الطبيب المداويا   وروح عن قلب تناه تساليا
فيا لك قلبا هام بالمجد والعلا   طوال الليالي بات في الرمس ثاويا
ويا لليالي كم بها من عجيبة   أثرن بها وجدا وأيقظن غافيا
ويا لصروف الدهر كم هجن كامنا   وأسكتن صوتا كان بالأمس عاليا
بنفسي التي كانت ضياء ورحمة   ترد ظلام العيش ضحيان حاليا
بنفسي التي لم يعمر الحقد قلبها   ولم تر فيه من أذى الناس واقيا
تراءت لها الدنيا كأبشع ما ترى   فلم تر غير الصبر في الخطب آسيا
فيا درة ما كان أصفى بهاءها   ويا كوكبا ما كان أعلى تساميا
تبارك ربي أي سحر تألقت   مباهجه حتى بهرن مجاليا
وأي بيان جودته قريحة   وأسمت الألفاظ فيه المعانيا
وأي جمال كان يرجى ويتقى   فتحسبه عند التداني تنائيا
وأي وفاء عز في الناس مثله   وحسبك أن تلقى من الناس وافيا
محاسن يعيي الشعر دون بيانها   ويقصر عن ايفائهن بيانيا
ألح عليها السقم والحزن فانطوت   صحائف كان الدهر عنهن راويا
أحبت أباها واستظلت بظله   وباتت به خلا وفيا وراعيا
فلما قضى اهتزت جوارحها أسى   وأرخصت الدمع الذي كان غاليا
وراضت على مكروهها النفس واتقت   تغالب وجدا في الجوانح ذاكيا
وآبت الى أم رأت في حنانها   وحكمتها كنزا على الدهر باقيا
فلما دعاها خطبها لقيت به   دواعي تخفى خلفهن دواهيا
وأرقها وجد أذاب فؤادها   وحول يأسا ما رجته أمانيا
وغالبها الهم الملح فخانها   من الصبر ما قد كان قبل مؤاتيا
وقيدت الى نزل هو السجن عينه   وان رفت الأزهار فيه نواديا
وقيل لها هذا مكانك فاخلعي   رداء شباب كان يا « مي » زاهيا
هنا العيش حتى يبلغ العمر حده   ويقضي لك المقدور ما كان قاضيا
فهل أخذوا عهدا على الدهر ناجزا ؟   وهل أمنوا ذاك الزمان المواليا
هم قيدوا جسما وشدوا وثاقه   ولكن روحا ظل في الأفق ساميا
وجمر ذكاء لم يزل متوقدا   وفيض نبوغ ظل كالسيل جاريا
فما هد ذاك السجن صرح نبوغها   وان عدمت فيه الولي المؤاسيا

وما خمدت من ذلك الذهن شعلة   ولا خف حلم يستخف الرواسيا
وعادت الى مصر تقلب ناظرا   وتحمل قلبا بات حران صاديا
وعاشت بمنأى عن ولى وحاقد   وقرت فلم تشمت بغيضا معاديا
طوت نفسها فى خدرها ونأت بها   كطيف خيال لاح فى الافق ساريا
يروعها الهمس المثات حولها   كأن به من جانب القبر داعيا
فكم أوردت من ظامىء متلهف   وما وجدت الا الصدى والتجافيا
والا دماء من شباب وصحة   يدافع جيشا من أذى الدهر غازيا
فضاقت بها الدنيا الرحية واقشعت   ترى الموت للعيش الكريه مساويا
وعافت لقاء الناس لا عن تبرم   ولكن حياء أن يرى الطرف داميا
وخالت بعاد الناس عنها تجنيا   وصمتهم عنها قلى وتغاضيا
فباتت تناجى النفس فى خلواتها   وتذكر أياما لها ولياليا
وتهتف من أعماق قلب معذب   فما يجد القلب المحطم واعيا
أجبت نداء الناس ما عن حادث   ولست أرى حرا يجيب نداائيا
فيا لصروف الدهر ما الذنب عندها   ويا لليالى ما لهن وما ليا
فهل وترت مى تجاهل غدرها   وعزما كوقع المشرفيات ماضيا
فيا « مى » والدنيا مطية عابر   كفتك المنايا أبؤسا ومآسيا
ذكرتك والدنيا حواليك جنة   نعمت بها حينا من الدهر خاليا
وصوتك فى شرق البلاد وغربها   مدو « يرد الحق أبلج شاكيا
وناديك معمور بكل مهذب   يروح ويغدو فى رحابك راضيا
فأطلعت من نبراس فضلك كوكبا   أنرت به جيلا من الدهر داجيا
وأعلنت فى طول البلاد وعرضها   مبادىء للانسان كن خوافيا
لئن كنت قد غنت آيانك التى   جنا الناس منهن القطوف الدوانيا
فقصتك الكبرى حياة ملأتها   عظات على مر الليالى بواقيا
ويا « مى » عذى غاية الحى فانعمى   بعهد تناسى ليس يا « مى » فانيا
وذكرى ترى الاجيال أنى تعاقبت   مثالا من العلياء فاق الدراريا
حننت الى مصر وأحببت أهلها   وشدت بمصر موطنا لك ثانيا
فهذا وفاء من بنى مصر خالص   وهذا ترى مصر يضمك حانيا
نعاك لنا الناعى فروع أنفسا   وهز قلوبا واستثار مآقيا
سمعنا به صوتا من النيل صائحا   يجاوب صوتا فى ذرى الارز باكيا
نعى علما فى الشرقين وكوكبا   سرى فى ظلام العيش للناس هاديا
نعى آية فى الطهر عز منالها   فما استطعت الا الحجى والمعاليا
فهل وسعت تلك الفضائل حفرة   وقد ضاقت الدنيا بهن مغانيا
ويا « مى » ان وفى الضريح ديونه   فهذا وفائى ماثل فى رثائيا
وكم سائل ما بال شعرك طيعا   كريما اذا ما كنت فى الشعر راثيا
ووالله ما شعرى الذى تسمونه   سوى القلب يزجيه الكم وفائيا
بسلام على « مى » وألف تحية   وقل « لمى » ان الجليل سلاميا

اسكندرية فى عهد الاحتلال الفرنسى

للامير عمر طوسون

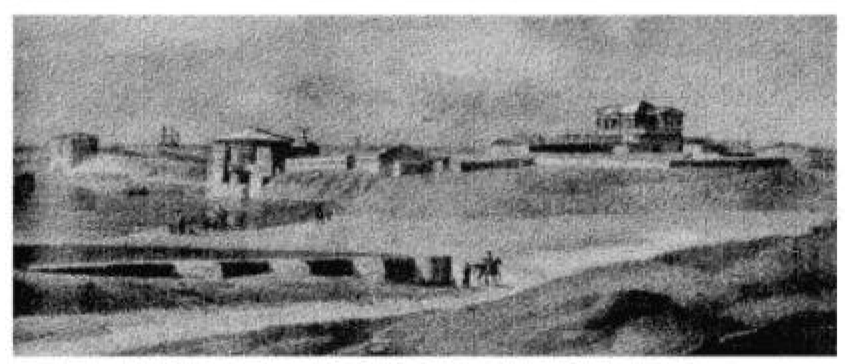
لحضرة صاحب السمو الامير عمر طوسون عناية دقيقة بالبحوث التاريخية ، فيهتم سموه بالكشف عن الحقائق التاريخية التى طواها التاريخ وأسدل عليها ستار النسيان ، وخاصة ما يتعلق منها بتاريخ مصر الحديث ، وما يتصل بجده العظيم محمد على باشا مؤسس الأسرة العلوية

ولسموه عدة مؤلفات تاريخية تعتبر مرجعاً قيما لحقبة من تاريخ مصر الحديث ، والبطولة العسكرية المصرية . .

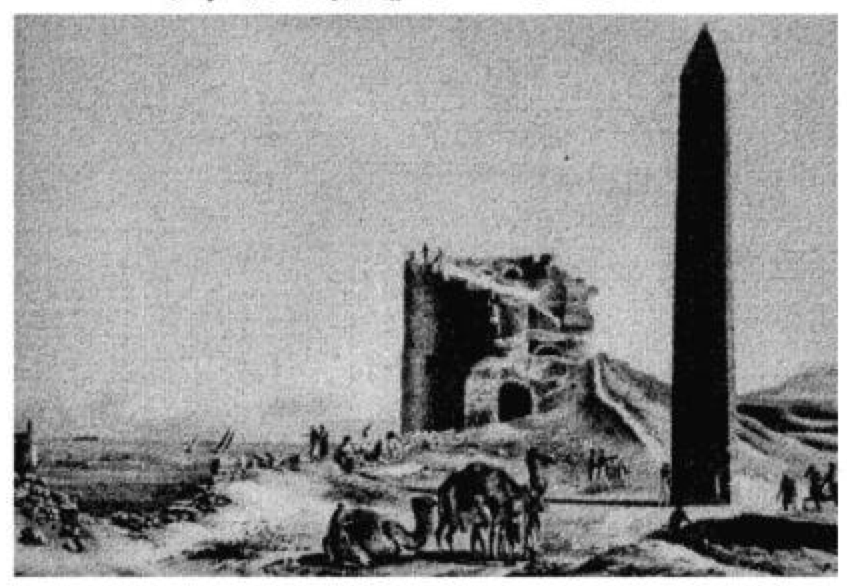
وقد تفضل سموه وخص « الهلال » بطائفة من الصور عن الاسكندرية فى عهد الاحتلال الفرنسى ، ننشرها على هذه الصفحات



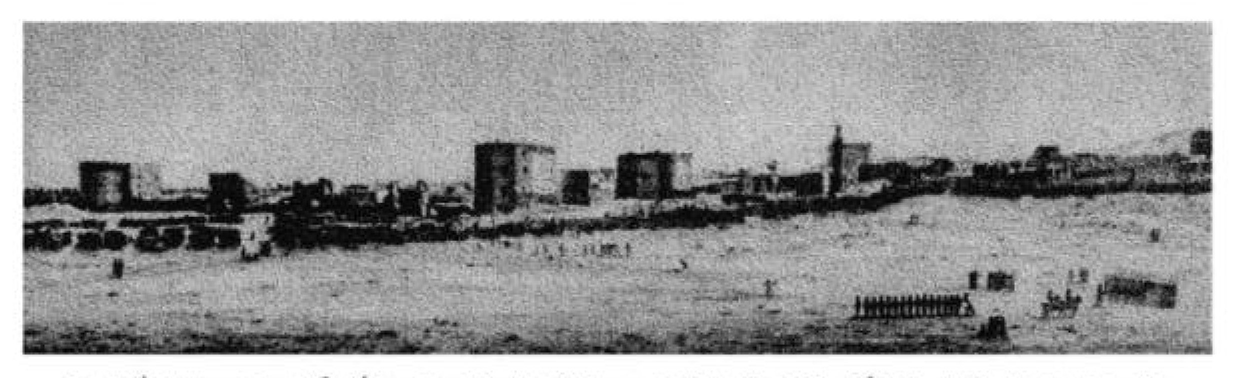
مسجد العطارين بالاسكندرية فى مدة الاحتلال الفرنسى لمصر من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٠١ م . نقلا عن كتاب (وصف مصر) لعلماء الحملة الفرنسية ويرى فى الصورة أمام هذا المسجد ثلاثة أعمدة من حجر الجرانيت وكان طوله ٦٢ متراً وعرضه ٥٤ متراً أى أن مساحته ٣٣٤٨ متراً مربعاً . وقد كان فى الماضى كنيسة بناها القديس اتناسيوس (اثناس) الرسولى البطريرك المعروف من بطاركة الاسكندرية (من سنة ٣٢٤ الى سنة ٣٩٠ م) . وعند ما فتح العرب مدينة الاسكندرية (سنة ٦٤١) جعلوا هذه الكنيسة مسجداً وسمى مسجد ذى القرنين أو الخضر وقيل إنه عند البخات بالقيسارية التى تباع فيها التواريث . ثم تهدم وجدده بدر الدين الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ (يوليه سنة ١٠٨٤ م) كما ثبت ذلك الكتابة الكوفية المنقوشة على الرخامة الأثرية التى بداخل هذا المسجد الآن . وقد أطلق الناس عليه منذ ذلك الحين اسم جامع العطارين لوجود حوانيت بيع العطارة فى حيه



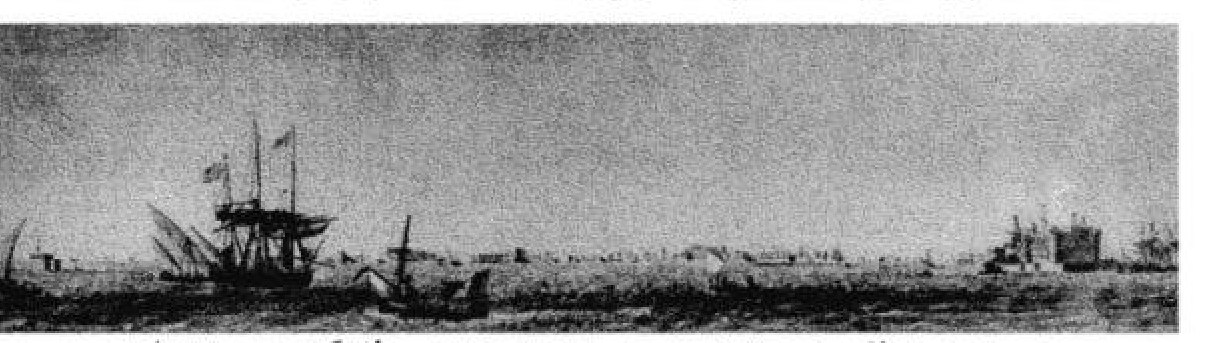
منظر يبين قصر رأس التين في عهد المغفور له محمد علي باشا سنة ١٢٣٥ هـ (١٨٢٠ م) . نقلا من أطلس كتاب تاريخ محمد علي باشا لمسيو منجان الذي كان قنصلا بمصر لفرنسا في ذلك الحين والمباني المرتفعة التي على اليمين هي قصر الحرم – وكان موقعها بأعلى نقطة شمال القصر الحالي من ساحل البحر والميناء – وقد حرق هذا القصر وقت ضرب الأسطول الانكليزي للاسكندرية سنة ١٨٨٢ م . وأما المباني التي على اليسار وساحل الميناء فهي سلاملك القصر القديم وهي باقية الى الآن في القصر الحالي



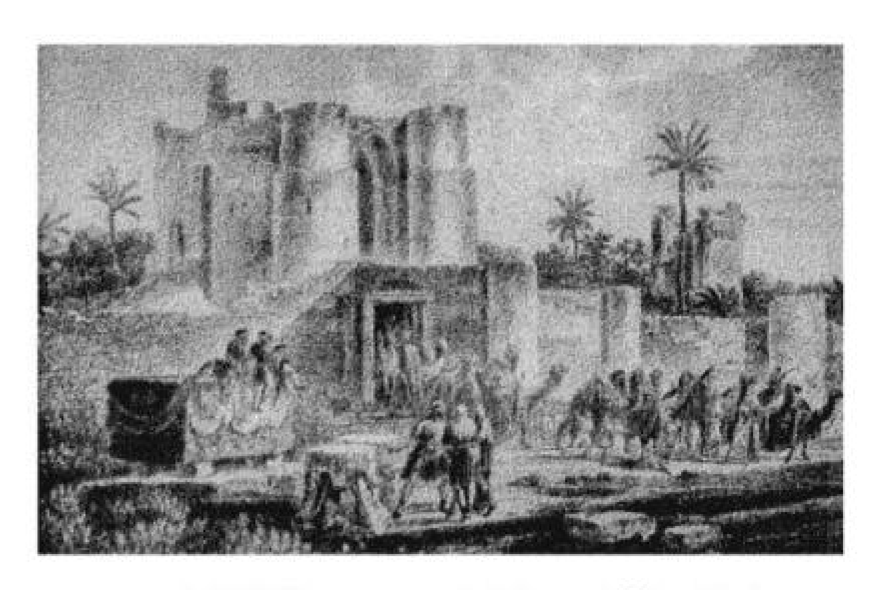
منظر يبين مسلة كليوپاترة وبرج الرومان بالأسكندرية ويرى بها موضع المستشفى الأميري الحالي ومسلة كليوپاترة وبرج الرومان والميناء الشرقية وطابية السلسلة في زمن الاحتلال الفرنسي من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٠١م عن أطلس كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية



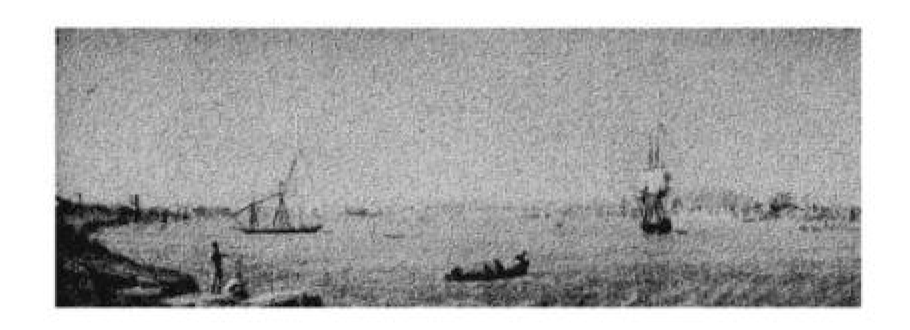
منظر يبين قسما من ساحل الميناء الشرقية بالإسكندرية في زمن الاحتلال الفرنسي من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٠١ م عن أطلس كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية



منظر يبين الميناء الشرقية بالأسكندرية في زمن الاحتلال الفرنسي من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٠١ م عن أطلس كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية



منظر بوابة باب شرق أو باب رشيد وطابيتها سنة ١٧٧٥ م . وموقعهما كان فى نهاية شارع فؤاد الأول الآن عند التقائه بشارع بلجيكا . عن كتاب السائح كاساس ، طبع باريس سنة ١٧٩٩ م



منظر يبين الميناء الغربية بالإسكندرية فى زمن الاحتلال الفرنسى من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٠١م ، عن أطلس كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية

السكوت

فلسفة، وعبادة، وجمال

بقلم الدكتور أمير بقطر

نحن فى عصر الكلام والدعاية بشق الطرق ـ بالخطب على المنابر والاذاعات باللاسلكى والمحاضرات فى الجامعات والأندية والثرثرة فى الصالونات والمآدب . ونحن فى عصر الضوضاء فى أبشع صورها من ضجيج السيارات وأزيز الطائرات ، وقصف المدافع ودوى القنابل . ولعل هذه الآونة فرصة سانحة للتحدث عن السكوت وفلسفته

من أبدع ما تركته الانظمة الجامعية والمدرسية فى أوربا وأميركا من الاثر فى النفس ، ما يسمونه فترات السكوت أو الساعات الصامتة . فى مستهل حياتى الجامعية فى اميركا ، بل فى اليوم الأول منها ، شاهدت فى احدى بنايات الجامعة قبيل العصر ، اعلانات مطبوعة بحروف كبيرة كتب عليها "Silent Hour" (الساعة الصامتة) ، فاذا بالغادى والرائح والصاعد والنازل والجالس والسائر لا يتحدث الا همسا ، ولا يسترسل فى القول الا اشارة بالاصابع

ثم شاهدت بعد ذلك فى مدرسة ثانوية يبلغ عدد طلابها اثنى عشر ألفا ظاهرة من ظاهرات السكوت أشد غرابة وأعجب ، فى ساعة من ساعات الصباح يختلف الطلاب الى قاعة الاحتفالات الكبرى ، جريا على المعتاد فى تلك البلاد . ولما كانت سعتها أربعة آلاف، فان المدرسة تعقد ثلاثة اجتماعات يتخللها عادة بضع دقائق من الخطب والاناشيد والالحان الموسيقية ، عدا يوم واحد فى الاسبوع يقصر الاجتماع فيه على السكوت فلا خطب ولا نصائح ولا محاضرات . سرعان ما تقرع الاجراس حتى يهرع الطلاب الى القاعة أفواجا من أبوابها المنتشرة حولها ، من أعلى ومن أسفل ، وما هى الا دقائق معدودات حتى تشغل جميع المقاعد ، ثم يعزف « الارغن » الكبير لحنا قويا كالرعد تهتز له جوانب القاعة . وفى طرفة عين تهدأ كل حركة ، ويخمد كل صوت ، ويسود السكوت نحو عشر دقائق ، قد يعزف فيها طالب أو طالبة ، معلم أو معلمة ، لحنا هادئا عاطفيا رقيقا خافتا ، يبعث فى النفوس الرهبة ، ويدفع بها الى السكوت ، وينزع بالحاضرين الى لون من ألوان الصمت المقدس . وقد لا يعزف أحد شيئا ، وفى كلتا الحالتين يطرق الطلاب صامتين خاشعين وكأن على رءوسهم الطير . وما تمر الدقائق المخصصة للسكوت حتى

يقرع « الارغن » لحنا آخر كالرعد ، فتنطلق الالسن من عقالها ، وتعود الحياة الى الحركة ، ويخرج الطلبة فى لمح البصر كل من الباب المخصص له مهرولين الى حجر الدراسة

وليس لدينا فى مصر للاسف ما يقرب من هذا النظام ، اللهم الا رياض الاطفال ، ففيها — أسوة برياض الاطفال فى الخارج — يهرع كل طفل نحو الساعة العاشرة صباحا الى سجادة صغيرة يفرشها على أرض الحجرة ، ويتمدد عليها ، ويلزم الصمت ، ثم يحاول النوم اذا أمكن . وفى هذه الفترة تعزف معلمة على الكمان أو البيانو لحنا هادئا يبعث الى السكوت أو يحبب السامع الى النوم

ومن الاشياء التى استرعت أنظارى فى نيويورك « يافطات » صغيرة مطبوعة بحروف سميكة تباع فى المكاتب ، وقد كتب عليها « المرجو عدم ازعاجى » . يعلقها صاحبها على باب غرفته ، سواء أكان طالبا فى جامعة ، أم نزيلا فى فندق ، أم أحد أفراد الاسرة فى منزله ، فيفهم أصدقاؤه — طالما كانت معلقة — انه لا يرغب فى مقابلة أحد ، ولا يريد أن يقرع أحد بابه ، اما لانه مشغول أو نائم أو فى فترة خاصة من فترات السكوت . وكم توفر هذه الوريقة من وقت ، وتهيىء من فرصة للهدوء والصمت والتأمل والعمل المنتج !

وكم راقنى ما شاهدت فى المدارس الشعبية فى دانيمركه من ساعات السكوت التى تقدر هناك باضعاف ساعات الكلام والمناقشة والضوضاء ! النظام فى هذه المدارس على نقيض ما قلناه عن المعاهد الاميركية . ففى اميركا تخصص ساعات للسكوت ، فى حين أن فى دانيمركه تخصص ساعات للكلام . توجد فى كل مدرسة من المدارس الشهيرة المعروفة باسم الشعبية قاعة يطلق عليها بحق اسم « القاعة الحمراء » اشارة الى لونها والغرض الذى وضعت لاجله . يختلف اليها الطلاب فى فترات معلومة للمناقشة الصاخبة والمساجلات وتبادل الآراء فيما تلقوه من الدروس أو لمجرد الحديث المطلق بغير قيد ولا شرط . أما فى بقية ساعات النهار ، فالسكوت يراعى بكل دقة فى حجر الدراسة ، وقاعات المطالعة ، وحجر النوم . فالمحاضر لا يقاطع ، ولا يوجه اليه أحد سؤالا ، ولا ينطق الطالب ببنت شفة ، اذ أن هذا كله يؤجل الى موعد « الغرفة الحمراء » . ولم نر فى كل ما شاهدناه من معاهد التعليم (١) فى أنحاء أوربا وأميركا ما يعلو الى مستوى هذه المدارس الشعبية هدوءا وصمتا ، ونظاما وراحة بال وأعصاب ، وملاءمة جو للتفكير والتأمل والعمل المنتج

ولعل أشد ما بلغته فلسفة السكوت من المبالغة والاسراف يتمثل فى تلك الاديرة السحيقة ، النائية عن البشرية ، وأعنى بها الاديرة الصامتة أو أديرة السكوت ، التى أقسم رهبانها الا يتحدثوا طول حياتهم الا همسا ، ولا يعبروا عما تكنه ضمائرهم الا كتابة واشارة . منذ سنوات قليلة أشار الدليل الى احدى هذه الاديرة فى فرنسا ، فاستوقفنا السيارة ورنونا بأبصارنا الى طود شامخ يتحدى الزمن ويسخر بالانسان ، وشاهدنا بضع راهبات يتسللن بين البواسق الى مكان تكدست فيه أخشاب الوقود ، وأخريات يصنعن

(١) المدارس الشعبية لطلاب تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٢٥ سنة

أكواما من الاوراق الذابلة المتساقطة من أشجار الغابة ، واقتربنا منهن خاشعين ، وقد هالنا ذلك الصمت الرهيب ، اذ لم نسمع فى خلال الساعة التى قضيناها هناك سوى همسات امتزجت بحفيف الاشجار ، واشارات اختلطت بتمايل الاغصان على الاغصان . وهنا ارتسمت بالاذهان طائفة من علائم الاستفهام . ترى ما الذى دفع بهذه الفئة من بنى الانسان ـ وبينهن غيد فى ريعان الصبا ـ الى هذا اللون من ألوان الحياة؟ أثورة على ضوضاء الآدميين وثرثرتهم ، أم يأس ، أم انتقام ، أم انتحار ، أم مغالاة فى الزهد ؟

ومن الاماكن التى تحس فيها برهبة السكوت وعظمته وجلاله وجماله ما يأتى :

(١) عرض البحر أو المحيط ، اذا ما هدأت الامواج ، ونام ركاب الباخرة ، حيث لا يسمع صوت فى ذلك المكان النائى عن كل شىء ، المعلق بين زرقة الماء وزرقة السماء سوى أزيز المحرك الذى يدفع الباخرة

(٢) جوف الصحراء اذا لم يكن ثمة ريح عاصفة ، هناك فى ظلام الليل الدامس حيث ترصع رقعة السماء بالنجوم المتلألئة ، ترى الهدوء ممثلا والسكوت بأروع معانيه مجسما

(٣) أعالى الجبال . يذكر كاتب هذه السطور الالب ، والتيرول ، والبرنات . يذكر ليالى قضاها فى منزل صغير أو خان على ارتفاع ألفين أو ثلاثة آلاف متر . هناك كنا نحس بذلك الصمت الرائع الذى لا يسمع فيه سوى خرير المياه يتخلل البساط السندسى الذى يكسو كل شبر من مرتفعات الارض ومنخفضاتها ، وانسياب ماء النهيرات ومساقط المياه المتدفقة من قمم الجبال الشاهقة الى بطون الوديان . واذا ما طلع النهار تخلل هذا السكوت العميق جلجلة الاجراس المدلاة من رقاب البقر ، بأنغامها الشجية المنوعة ، وهى ترعى بين الرياض والادغال ، وقد تخير الفلاحون لكل بقرة جرسا خاصا ذا نغمة خاصة لتعيين مواقعها ، فاذا ما انتشرت المئات منها فى تلك الارجاء المترامية الاطراف زادت أنغام الاجراس وأصداؤها السكوت رهبة ، وأحس السامع بمعنى اللانهاية

(٤) أماكن العبادة فى غير أوقات العبادة خصوصا فى الجبال . ارسم فى مخيلتك كنيسة بعيدة عن المدن والقرى بمئات الاميال ، فى منحدر من منحدرات الجبال الشامخة ، أو فوق صخرة فى قمة هذه الجبال ، ما تكاد قدمك تطأ داخلها حتى تحس بوحشة غريبة . شموع موقدة تبعث أضواء ضئيلة ، ومصابيح زيتية صغيرة تبعث فتائلها أنوارا خافتة ، وصور وتماثيل مقدسة ، ومقاعد مصفوفة خالية ، سوى مقعد واحد جثت أمامه منحنية على مقعد آخر امرأة فى الغالب ، تتحرك شفتاها ولا يسمع لها صوت أو همس والصلاة صامتة أبلغ منها ناطقة ، والانفرادية أبلغ منها جمعية ، وعمد دقيقة تصعد الى علو لا تكاد تراه العين وتتشابك أعاليها كما تتشابك أغصان البان فى غابة « فونتين بلو » . قف هناك ساعة أو أكثر أو اليوم كله اذا شئت ، تدرك معنى السكوت وروعة الصمت الذى لا يعكر صفوه شىء فى الوجود

(٥) مدائن الاموات . فى كل قرية من قرى أوربا تجد الصمت الابدى فى مدائن

الاموات . قلما تجد سوى الجنان يسقى الورود والازاهر ، أو سيدة ثكلى فى ثيابها السوداء ، ساجدة أمام القبر ، أو جالسة تضم زهورا بعضها الى بعض لصنع اكليل تضعه على قبر حبيب . واذا ما أردت الجمع بين السكوت الرهيب والجمال الرائع فعليك بمدينة الاموات فى جنوى (بإيطاليا)

(٦) أذان الفجر . كنت فى بدء حياتى المدرسية الثانوية وقد استيقظت مرة على غير عادتى ، واذا بصوت المؤذن الرخيم يشق عنان الفضاء ، ويخترق سكوت الليل العميق فشعرت برهبة السكوت ووحشة الليل . ومنذ ذلك الحين تنزع نفسى الى الاستمتاع بهذا السكوت الذى يجلله صوت المؤذن ، ويجمله لحنه العذب الذى يملأ الوجود ويشعر السامع باللانهاية التى يمثلها سكوت الليل

(٧) زورق شراعى بين شطى النيل فى ليلة غير مقمرة ، يملأ قلعه الهواء فيندفع فى خفة وهدوء مخترقا التيار . منه يرى الجالس القلاع البيضاء يداعبها النسيم كأجنحة الحمام، وأشجار النخيل ينعكس خيالها فى الماء وقلما تتحرك أوراقها — فتزيد هذه الجو سكوتا على سكوته وتكسب النيل رهبة تعيد للذاكرة عصور التاريخ من عهد مينا وقبل ذلك بعشرات الالوف من السنين . هذه تذكرها من قبيل التمثيل لا الحصر

« لست أدرى ، لعل أثقل الاشياء أجهرها صوتا وأعظمها جثة » و « اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » و « كلام الملوك ملوك الكلام » هذه وعشرات غيرها أمثال سائرة تداولتها الالسن منذ القدم ، وكلها أدلة ساطعة أولا على الارتباط بين الصمت أو قلة الكلام والهدوء ، وثانيا بين الصمت أو قلة الكلام والعمق والعظمة . فما كلام الملوك ملوك الكلام الا لقلته ، وما معنى نظرية « الملك لا يخطىء » الا تجنبه التبسط فى الحديث ، فاذا ما استدرجه محدثه الى ما لا يعلم أو ما لا يريد، حول دفة الحديث الى الطقس أو غيره من الموضوعات العامة . وعلماء سياسة الدول يفرقون بين السياسى والمهرج فيطلقون على الاول statesman وعلى الثانى politician والسواد الاعظم من السياسيين للاسف من الصنف الثانى . كذلك يفرقون بين الدبلوماسى والثرثار . ويفرق علماء التربية بين المعلم « البيداجوجى » والمربى educator . فالاول يحتكر الكلام فى قاعة الدرس أو المحاضرات ، والثانى يترك المسرح للطلاب ويشرف على « التمثيل » من وراء الستار . ومن أبلغ ما نشرناه مرة فى مجلتنا « التربية الحديثة » نقلا عن زميلة غربية هذه العبارة : « من نعم الاله على عباده الاطفال أن يصاب والدوهم ومعلموهم أحيانا بداء فى الحنجرة يمنعهم من الكلام ، فيترك الاطفال لذواتهم يلعبون ويمرحون دون أن تتدخل فى أمورهم أصوات هستيرية مقلقة من أب يكثر من الانتهار ، وأم لا تكف عن النصائح ، ومربية لا يقف فونوغرافها عن الدوران »

واذا ما أردت أن تقف على نصيب محدثك من العمق ، فليكن أحد مقاييسك مقدار الكلام الذى يخرج من فيه فى فترة معلومة ، اذ سرعان ما يضع الرجل السطحى كل

بضاعته تحت تصرفك . وكثير الكلام ، عدو السكوت ، لا يكتفي بلسانه ، وانما يستعين بيديه وقدميه وحاجبيه ورموش عينيه ، وبكل عضلة متحركة في جسمه . ومن أقاصيص السكوتيين عن اللاتين أن فرنسيا أتهم بجريمة قتل فكبل بالسلاسل رهن التحقيق وحكم عليه بالاعدام ، ولما حان موعد التنفيذ فكت أغلاله ، فانطلق لسانه فورا بما فند التهمة واتضحت براءته وأعيد الى التحقيق . فلما سأله القاضي عن سبب سكوته طيلة تلك المدة . أجاب وكيف كنت أستطيع الكلام وقدماي مكبلتان بالحديد ؟ وهذه قصة أخرى ولكنها واقعية قصها علي اميركي . قال محدثي انه كان مسافرا بقطار الصعيد وبجانبه انجليزيان لا يعرفهما وكانا زميلين كما اتضح من المجلات التي كانا يتبادلانها . وانه دهش كل الدهشة أن هذين الانجليزيين لم يفتح أحدهما فمه للكلام والتحدث مع الآخر بين القاهرة واسيوط الا مرة واحدة عند ما وقف القطار على محطة قبيل اسيوط ، اذ شاهدا كلبين يتشاجران على الرصيف شجارا عنيفا، فقال أحدهما لزميله a damn good fight, isn't it? تعليقا على الموقف

وتستطيع الحكم على ان الناس متمدينون أو أنصاف متمدينين أو دون ذلك من كميات الكلام ونوعه وشدة أصواتهم في مكان عام . فكم شاهدنا من رجال وسيدات على جانب عظيم من حسن الهندام وعلائم النعمة في الظاهر على الاقل يتحدثون في المكان المخصص للدرجة الأولى من الترام على صغره بصوت شديد الارتفاع في موضوعات خصوصية جدا « intimes » تفضح أسرار الزوجية والاسرة ، وتتعلق بالطلاق والخصام والحب والعمليات الجراحية في أجزاء تشريحية من الجسم لا يشير اليها المثقفون الا همسا ! في بعض فنادق أميركا اعلانات كتب عليها هذه العبارة « المرجو عدم التحدث في بهو الفندق عن آخر عملية أجريت لك » . ولا يشك أحد في أن تمدين المطعم أو الفندق أو المحال العامة يقاس بمقدار ما يسود في أجوائها من الهدوء وسكوت الوافدين اليها

لقد كان اختراع السينما الناطقة فتحا عظيما ، ولكنه ككل اختراع سواه له عيوبه . ولن أنسى المقالات ، شديدة اللهجة ، التي طعن فيها كتابها خصوصا في انجلترا هذا الاختراع ، وهجوا أصحابه لانه قطع عليهم فترات السكون والسكوت الجميلة التي كانوا يقضونها في تلك الدور ، أمام الصور المتحركة الصامتة على الشاشة البيضاء . وفي هذا الكثير من الحق ، فكم يتألم الكثيرون من تلك الاصوات المزعجة التي تتابع بعض المناظر الطبيعية والحوادث السياسية ، ولا تحتاج الى تفسير أو الى القليل منه !! وكم يتألم الكثيرون من تلك الالحان الموسيقية الصاخبة التي تملأ الفضاء بضجيجها في خلال العرض ، ويزيدها ازعاجا أحيانا ما يصحبها من أصوات أولئك المعلقين المقلقة للراحة ! وهل ندهش اذا سمعنا هذه العبارة التهكمية من أحد علماء الطبيعة ، اذ قال ان الطاقة energy التي تتولد من ثرثرة عدد من الناس في أحد الصالونات في خلال السهرة تكفي لغليان فنجان من الشاي؟

والاشياء كالناس تماما في هدوئها وصمتها أو في ضوضائها وضجيجها . فالازياء والاثاث

والالوان والاضواء ، قد تكون هادئة صامتة أو كثيرة الجلبة ، تعلو وتشتد أو تنخفض وتخفت . أليست الاضواء القوية مزعجة كالاصوات المرتفعة ؟ ألا تجد القهوات التى يختلف اليها العامة تسطع فيها أقوى المصابيح ، وتدهن بأزهى الالوان ؟ أوليست الفنادق والمطاعم والبيوت المتمدينة تخفف فيها أضواء المصابيح أو تظلل بظلال خفيفة هادئة ، فتكسو المكان بلباس الهدوء والسكون ، وتبعث فى أهلها الراحة ، والخيال أحيانا ؟ الا تفزع الابقار والجواميس فى القرى المصرية السحيقة من رؤية رجل أو امرأة فى زى أو لون بعيد عن الهدوء ؟ أليست الالوان الحمراء والصفراء والبرتقالية حارة صاخبة تدعو للتهيج وكأنها أصوات صارخة مزعجة ؟ أو ليست الالوان الزرقاء والخضراء فاترة هادئة تبعث فى النفس السكون والراحة ؟ أتتصور انسانا متمدينا ينام فى غرفة حمراء صيفا فى رداء نوم قرنفلى اللون وبجانبه مصباح قوته مائة شمعة ؟

***

يؤدى بنا التبسط فى هذا الحديث ، وما أسهبنا فيه من أمثلة وأوردنا فيه من أقوال ، الى مغزى السكوت والصمت ، وفلسفة الهدوء والسكون . اذا جاز لنا أن نقسم حياة الفرد اليومية الى جسدية وعقلية وروحية ، تبين لنا أن لهذه كلها حاجة ملحة الى ساعات معلومة يلزم تخصيصها للصمت والخلوة والبعد عن الغير والاخلاد الى السكينة فى جو يسود فيه الهدوء والراحة ، ويلزم أن تكون هذه الساعات دورية منظمة — مرة كل اسبوع أو يوم أو أيام معدودة ، كما يلزم أن يكون لكل فى منزله غرفة خاصة لا يشاركه فيها شريك — سواء أكان هذا الشريك زوجا أم ولدا أم شقيقا — اذا كان هذا مستطاعا فالكل فى حاجة الى ساعات يختلى فيها بنفسه ، فى مكتبه وبيته ومكان نزهته . وفى هذه الخلوة راحة لبدنه ، وفرصة سانحة لعقله يلجأ فيها الى التأمل العميق والتروى والتفكير وحل ما يعترضه فى الحياة من مشاكل مالية واجتماعية ، عامة وخاصة ، وقد تؤدى الى أسمى ما يبلغه العقل البشرى من انتاج ، سواء أكان هذا الانتاج فنا من الفنون الجميلة أم أدبا أم اختراعا أم اكتشافا . وفى هذه الخلوة فرصة روحية سانحة يحاسب فيها الفرد نفسه ، ويرجع فيها الى ذمته وضميره ، وينسى فيها عالم الماديات ، ويتجرد عن حاجاته اليومية الجسمانية ، ويفكر فيما يغذى الوجدان الاسمى وذلك العنصر المجهول الذى لا ندرك ماهيته ، فاطلقنا عليه ذلك الاسم الخيالى — الروح أو النفس

والناس فى هذه الدنيا فريقان ، فريق ينزع الى الاسراف فى الخلوة بالنفس وكراهية المجتمعات وبغض الحديث والهرب من الاصدقاء ، الا أخص الاخصاء منهم ، وحب الوحدة والهدوء والسكوت الى درجة تكاد تكون حزنا ووجوما وضربا من الجنون . ومن هذا الفريق العلماء والمخترعون والمكتشفون والانبياء . ففى هذا الاسراف وفى هذه الخلوة ،

(البقية على صفحة ٤٩٧)

الكتبُ والكتّابُ

بقلم الاستاذ علي أدهم

تروي كتب الادب أن معاوية بن ابي سفيان لما رأى بوادر الهزيمة يوم صفين ، عزم على الفرار فما رده وأثار نخوته ، وتجافى به عن ذلك المسلك الشائن سوى تذكره تلك الابيات التي مطلعها :

أبت لى همتى وأبى بلائى　　وأخذى الحمد بالثمن الربيح

وبعض الناس يتخذون لهم كتابا يديمون قراءته ، ويلتزمون صحبته ، ويستعينون به على كشف مكنونات الحياة ، وتوضيح أسرارها ، ويستوحونه فى حل مشكلاتهم ، وتفريج كربهم ، ويلتمسون فيه الغذاء الروحى ، والعزاء النفسى ، فاذا رابهم من الدهر الريب ، وعرض لهم ما يعرض للناس من نوبات الضعف ، وانثلام العزم ، وانهارت دعائم مقاومتهم وهموا بالفرار ، كما هم معاوية بالفرار ، سكب ذلك الكتاب فى نفوسهم الشجاعة والثبات ورد عليهم ايمانهم بأنفسهم وبالحياة كما ردت الابيات التى ذكرت مطلعها على معاوية شجاعته وثباته وإباءه ، ولكن المشكل هو معرفة المدى الذى تشكل فيه الكتب أخلاقنا ، وتهذبها وتصقلها وتؤثر فيها ، وتسمو بها ، فكثيرا ما نلتمس فى الكتب تأثيرات خاصة ، ولكن سرعان ما تنحسر تلك التأثيرات وتزول معالمها ، فقد نقرأ القصائد الحماسية فى غفوات الليل وبين الجدران الاربعة ، ويخيل الينا بعد القراءة أننا نستطيع مواجهة الاخطار ، والصبر على المكاره ، وأننا صرنا لا نخشى شيئا ولا نرهب انسانا مهما سما قدره ، وعظمت قوته ، فاذا أقبل الصباح وخرجنا الى ميدان الحياة ومجال العمل ، هبطنا من تلك الاعالى الشاهقة ، وسرنا فى الاودية والسهول المستوية ، وربما أفزعتنا خفقات النسيم ، أو أزعجنا انسان ضعيف الحول لا فى العير ولا فى النفير ، وكثيرا ما نقرأ كتبا تملأ نفوسنا بنبيل الافكار وسامى المشاعر ، ولكن سرعان ما يميل بنا الاغراء ، وتغلبنا الاهواء ، ولا تسعدنا الافكار النبيلة ، ولا تنجدنا المشاعر السامية ، ويبدو لنا أننا كنا نخدع أنفسنا ونموه عليها ، فليست ضالتنا التى نبغيها فى الكتب هى المحاولة الفاشلة وانما الحافز الصادق الوعد البالغ التأثير ، ومن ثم قد يساورنا الشك أحيانا فى قيمة الكتب ومدى تأثيرها ، ولكننا نعلم من ناحية أخرى أن الكثيرين من أفاضل الناس اعترفوا بأن بعض الكتب كان لها فى نفوسهم تأثير كبير ، وأنها وجهت حياتهم وحملتهم على الطريق السوى والنهج الواضح ، ولا يمكن أن نقدر مدى تأثير الكتب المقدسة أمثال القرآن والاناجيل والتوراة فى ارشاد الضالين ، وتهذيب النفوس ، وتقوية العزائم ، وان كنا لا نستطيع أن ننكر أن العكوف على تلك

الكتب قد يخلق من بعض الناس متعصبين متهوسين محدودى التفكير ، ضيقى الذهن ، ولكنها ما دامت تؤثر فى أكثر الناس تأثيرا حسنا وتتجه بهم الى الطريق القويم ، فان هذا يثبت صدق تأثير الكتب فى تهذيب الاخلاق ، وصقل النفوس

وكون الكتب تؤثر فى تفكيرنا من الامور التى لا سبيل الى انكارها ، ولكن الافكار لا تؤثر فى الاخلاق تأثيرا مباشرا ، والكتب التى توسع آفاق تفكيرنا وتحررنا من أسر الاوهام ، وسلطان التقاليد ، تؤثر فى أخلاقنا تأثيرا غير مباشر ، فهى قد تلقننا حب العدالة الاجتماعية ، والنفور من الظلم والاضطهاد ، وتزيدنا حبا للانسانية ، وايمانا بمستقبلها ، وقد لا تنهض بنا الكتب ، ولا تجعلنا نحلق فى السماوات ، وقد لا تخلق منا أبطالا أو قديسين أو فلاسفة أو شعراء ، ولكنها مع ذلك تؤثر فينا ، وربما تجنبنا الانحدار والتدهور ، والتردى فى العثرات ، والسقوط فى الهاويات ، وقد تكون الكتب مثل الدواء علاجا موقوتا ، وكما أنه ليس هناك دواء يحفظ علينا الصحة طوال الحياة ، فكذلك الكتب قد تنفعنا فى فترة من فترات حياتنا ، أو تخلصنا من أزمة من الازمات التى ما تنفك تنعقبنا

الكاتب قوة اجتماعية

واذا صح أن للكتب تأثيرا يتفاوت ضعفا وقوة وقلة وكثرة ، فانه يسوغ لنا اذن أن نعد الكاتب قوة اجتماعية عظيمة التأثير ، خطيرة الشأن ، وانه عنصر من عناصر الحضارة لا يجوز اغفاله واهمال أمره ، ومن الواضح أن أهم وسائل التربية المؤثرة فى العصر الحاضر هى الجرائد والمجلات والاذاعة والاشرطة السينمائية والمسرح والكتب ، وجميعها من انتاج عقل الكاتب وثمرات تفكيره وبنات وحيه ، وفى مستطاع الكاتب أن يلغى عمل المعلم ويبطل وظيفة استاذ الجامعة ويشل جهود الزعيم الروحى أو السياسى ، وينسخ تأثيره ، لان جمهور الكاتب أضخم ، وصوته أعلى وأذيع ، وهو يحكم فنه أعرف بطرائق التأثير ، وأساليب الاغراء ، وهو أخلب عبارة ، وأرشق معرضا ، وأوسع حيلة ، وليست البلاغة والبيان سوى فن غزو القلوب واجتياح العقول ، وهو الفن الذى يجيده الكاتب ويحرز فيه السبق ولا يباريه فيه انسان ، وقد ذكر الناقد الفرنسى الكبير تين Taine فى حديثه عن الكاتب البريطانى العظيم سويفت أنه استطاع بقوة قلمه وسحر بلاغته أن يقاوم مشروعا نافعا كان فى طليعة مروجيه والزائدين عنه ومفسرى غوامضه السير اسحق نيوتن العلامة الشهير ، وللكتاب أثر كبير فى صياغة الرأى العام وتكوينه ، فهم الى حد كبير مسئولون عن توجيهه وانارة السبيل أمامه ، والعالم اليوم فى مأزق ضنك وموقف فاصل ، فنقص المعرفة وجهل الواقع وفتور الاهتمام بتمييز الحق من الباطل والتقاعد عن نصرة العدالة والنفور من الطغيان وانطفاء جذوة الحماسة الاخلاقية وعدم الغضب للحق من الاعراض والاسباب التى أدت الى هذه الازمة ، وقد غزا هذا الافلاس الاخلاقى أكثر الامم ضعيفها وقويها وغنيها وفقيرها ، ومما أعان على ذلك أن الكتاب أهملوا رعاية

الجانب الاخلاقى فى النفوس وقصروا فى تعهده ، وشد أركانه ، وتثبيت جوانبه ، وتحصينه ووقايته ، وغمرت العالم موجة العناية بالماديات واهمال الجوانب الروحية ، والنواحى المعنوية الادبية ، ولم يجد الضمير الانسانى ما يهزه من جموده ، ويوقظه من سباته ، وأصبح هم الناس الحصول على ما يريدون من أية الطرق ، وبكافة الوسائل ، فكل وسيلة مباحة ما دامت تحقق الغرض ، وقل بين الكتاب من يؤثر الالم والعذاب على المساومة والرياء ، وخذلان المثل العليا ، أو من يقف موقف الامام احمد بن حنبل من الخليفة المأمون ، أو موقف العلامة ابن السكيت من الخليفة المتوكل

أثر التفكير العام

وطريقة تفكير الناس وأسلوب شعورهم فى الاوقات الحرجة الراهنة لهما تأثير كبير فى علاج الموقف وتفريج الازمة ، فهل يقيمون تفكيرهم على الحقائق الواقعة أو على الاوهام المتخيلة ؟ وهل يستعينون بالمشاعر السليمة الراقية أو بالمشاعر الملتوية الهادمة ؟ والمشاهد الآن أن أكثر الامم تحاول مرمة الخلل واصلاح الفساد الخارجى ، ولكنها تترك تفكير العقول التى سببت وجود هذه الاحوال نهبا للصدف ، وينجم عن ذلك فوضى التفكير ، والتفكير اذا لم يقم على أساس ولم يوجه توجيها صحيحا ، أصبح مصدر خطر وبابا من أبواب الشر ، وعند ما يقوم التفكير على ادراك الوقائع ويستند الى الحق وينشأ عن العواطف السليمة ، والميول الصحيحة غير المتكسة ، يصبح صالحا للبناء والتوجيه ، ومن ثم تبعة الكاتب فى هذه الفترة الدقيقة ، وكثير من المجلات فى العصر الحاضر لا تقبل من كتابها الا الاقاصيص التى تمالق أخس الغرائز وأدنى الشهوات ، وتعرضها فى صورة مكشوفة لا جمال فيها ولا حق ، وهذا الاسفاف بعقل الجمهور فى مجال الاقصوصة يهبط بمستواه فى الحياة الواقعية ، ويقدم له غذاء عقليا مسموما ، والكتاب الذين يقبلون على مثل هذا الانتاج السخيف المزرى لا بد أنهم قد فقدوا ايمانهم برسالة الكاتب ، وضعفت عقيدتهم فى قوة الفكر وقيمته والفن ومكانته

ويتحذلق بعض الناس ويقول ان هذا الصنف من الادب انما يعبر عن روح العصر دون أن يلقى باله الى أنه من الصعب هنا أن نوضح المدى الذى يصور به مثل هذا الادب روح العصر من المدى الذى يهبط بها اليه ، وكيف يصدها عن طريق النهوض والاقتراب من الكمال والمثل العليا ، ولعل السبب فى شيوع هذه الحالة المحزنة الجديرة بالنظر والعلاج أن الادب الرفيع كان فنا ، ولكنه أصبح فى ملابسات العصر الحديث صناعة يتعاطاها الكتاب لتدر عليهم الربح الوفير ، أى أنهم يتأثرون فى تناولها بدافع الربح والخسارة ، وعوامل المعيشة وأسباب النجاح ، فلا مفر لهم من توخى كتابة ما يمكن أن يباع فى السوق ، ويقبل عليه الجمهور ، والذين يتقدمون للشراء هم الذين فى يدهم مقاليد النفوذ والمال ، ومن ثم هم الذين يتحكمون فى اختيار موضوع الكاتب وسياسته وتوجيهه

وقد كثرت فى العصر الحديث طرائق تعليم الكتاب الناشئين أساليب الكتابة وكيفية تناول مختلف الموضوعات وشتى المسائل وتزويدهم بمعلومات قيمة وملحوظات طريفة مجدية ، تواتى حاجتهم وتمنعهم من التهافت والاضطراب ، ولكن موضوع الكتابة نفسه ومكانتها وسمو غايتها يتعمد اهماله والاعراض عن مواجهته ، والكاتب يتلقى الامر والتوجيه ، ويصدع بالامر فيعمل على صبه فى النفوس وادخاله فى العقول ، ويصوغ الرأى العام على النمط المطلوب ، ويوجهه الى الغاية المبتغاة

الكاتب أول رقيب على نفسه

ولكن الادب الحق يجب أن يسمو على الصنعة ، ومهما كان الدافع للكاتب على الكتابة وسواء كان هو الحرص على الكسب أو الرغبة فى التعبير عن النفس فان الكاتب الذى يحترم قارئه ، لا يقبل أن يقدم له قيما معكوسة ، أو تفسيرات زائفة ، أو نزعات منحرفة، ولست أقول بفرض رقابة أدبية على الكتاب ، فانه يحسن أن يكون الكاتب هو أول رقيب على نفسه ومن العبث مطالبته بان يقسم يمين الولاء لمهنته كما يصنع الاطباء اذا لم يكن ضميره الاجتماعى يقظا

وقد يبدو شىء من التناقض بين تقدير الكاتب للتبعة الادبية الملقاة على عاتقه وبين رغبته الصادقة فى التعبير عن نفسه تعبيرا تاما خاليا من التكلف والرياء ، والعلاقة بين الفن والاخلاق ليست من المعضلات الهينة ، فالى أى مدى يعبر الكاتب عن نفسه ويطلق له العنان بلا كابح ولا رقيب ؟

ربما يساعدنا على جلاء هذا المشكل معرفتنا أن كل فرد مكون من عناصر مختلفة متناقضة بعضها جيد وبعضها ردىء ، وأخلاقنا لها جوانب ايجابية سليمة وجوانب سلبية سقيمة ، وأكثر الكتاب لا يفكرون فى الجانب الذى يعبرون عنه ويعرضونه على الانظار ، وما أحسب الفرد ولا المجتمع يستفيدان من التعبير عن الجوانب السلبية ، وأحسب أن التعبير عن تلك الجوانب الدالة على سعة الروح وعظمة القلب وهى موجودة فى جميع الناس بنسب متفاوتة مما يسمو بالفرد والمجتمع على السواء ، واذا كان ذوق القراء فاسدا منحطا . فهل واجب الكاتب أن يترضى هذا الذوق الفاسد فيزيده فسادا وانحطاطا ، وأن يغذى سخفهم ويملى لهم فيه ؟ وهل خلق الكاتب ليكون عبدا مسخرا لدور النشر وآلة صماء فى أيدى أصحاب المجلات والصحف وهم فى دورهم عبيد للجمهور الارعن السخيف ؟ لقد كان للكتاب مكانة سامية أكسبتهم الاحترام وأسبغت عليهم القداسة ، وفى وسع الكتاب أن يرفعوا بنيانهم بسواعدهم كطائفة تسوغ وجودها فى خدمة المجتمع وتوطيد الحضارة ، وانما يكون ذلك برفض كبار الكتاب أن يؤجروا أقلامهم فى خدمة الاغراض الفاشلة ، والغايات المسفة ، والسياسات الضارة ، ولا نزاع فى أن ذلك مما يعرقل سير تلك الاغراض ويصرف عنها الناس ، واذا أكبر الكتاب فنهم عن تملق المشاعر الدنيئة ، وايقاظ الاهواء الوضيعة ،

كان لذلك أثره فى اجتثاث الفساد ، وتصفية الجو وابتعاث الهمم الى الاغراض المثلى

ان التفكير الأمين النزيه الواضح القائم على تقدير الحقائق ، وتحرى الوقائع ، ودراسة المشكلات الاجتماعية العظيمة ، التى تتحدى العالم هو الزم ما يلزم فى العصر الحاضر . والكاتب الحق هو من يزود قراءه بمعرفة اثرى وتفكير أصفى يدفع بهم الى الامام ويستنهض هممهم ، ويوقظ ضمائرهم ، واذا لم يقدم لهم الحلول المناسبة فلا أقل من أن يشعرهم بضخامة المشكلات التى تواجههم ، وخطورة الموقف ، فلماذا لا يحفل الكتاب الا بالمال والنجاح والشهرة والراحة الشخصية والترف ، فى حين أن عمل الناس فى المستقبل متوقف على تفكيرهم وارشاداتهم فى هذه اللحظة الدقيقة ، فى وسع الكتاب اذا شاءوا وصحت عزيمتهم أن يكونوا القادة الذين يسيرون بالناس ويتقدمونهم الى أرض الميعاد ، وينقلونهم الى عالم خير من هذا العالم الراهن

علي أدهم

السكوت

(بقية المنشور على صفحة ٤٩٢)

نحت المثال أجمل التماثيل ، ورسم المصور أروع الصور ، ونظم الشاعر أبدع القصائد ، وكتب الكاتب أنفس الكتب ، وأخرج المخترع للبشرية عجائب البخار والكهرباء والطيران واللاسلكى ، وابتدع العلماء أغرب النظريات الطبية والكيميائية والطبيعية والاحيائية والسيكولوجية ووضعوا أصولها التطبيقية وأدخلوها فى الحياة اليومية . وفى هذه الخلوة نزل الالهام والوحى والنبوة ، فنشأت الأديان والفلسفات والبحوث فيما وراء المادة والتغلغل فيما لا يدركه العقل وما لا تمسه الحواس

أما الفريق الثانى فينزع الى الاسراف فى حب الاجتماع ودوام الاتصال بالغير حديثا ولعبا ومزاحا وهرجا ومرجا ، وكثرة الكلام والثرثرة أحيانا ، والمرح والانشراح الى درجة تكاد تكون استهتارا أو هوسا أو ضربا من الجنون . وقل من ينتج من هؤلاء انتاجا يؤبه له ، وندر بينهم مخترع أو مكتشف أو فيلسوف أو نبى ، وقل من يكثر من القراءة أو يميل الى التأمل أو التفكير

وبين الفريقين فريق ثالث وسط بينهما . ومن هذا الفريق يتكون السواد الاعظم من الناس ، ومنهم نجد صغار المخترعين والكتاب والعلماء والمنتجين والعمال والسذج والذين لا يسمون الى طبقة الفريق الاول ، ولا يسفون الى حضيض الفريق الثانى

أمير بقطر

كيف ينظر أدباؤنا الى المرأة ؟

بقلم الآنسة ابنة الشاطىء

في أدبنا المعاصر ، فراغ واسع سوف يحاسبنا عليه التاريخ الأدبي وتأخذنا به الأجيال القادمة ، فأنت تفتقد فيه صورة (المرأة) التي طبعت هذا الجيل بطابعها المتميز ، وكانت حركتها أعنف حركة اجتماعية في تاريخنا الحديث ، وقد غفل أدباؤنا عن هذه المادة الغنية الزاخرة بالحياة ، وفاتهم أن يسجلوا صور المرأة ، وهي تواجه وتناضل ، وتبلو وتختبر ، وتتألم وتحتمل ، وتنتصر أو تستشهد

من الحق أن في التحدث عن نظرة أدبائنا الى المرأة شيئاً من التجوز ، لأننا لا ندري على التحقيق كيف ينظرون إليها ، وأكثر أدبنا المعاصر لم يظفر بعد بحظه من الصدق في الترجمة عن الشعور ، والتحرر من الرياء الشخصي والنفاق الاجتماعي ، ومن ثم فهو لا يقدم لنا صورة صادقة صحيحة للمرأة كما يراها أدباؤنا ، وكل ما نملكه الآن ، هو أن نتحدث عن المرأة كما يعرضها علينا (أدب) الادباء عندنا

والباحث عن صورة المرأة في أدبنا المعاصر ، يتعبه ألا يرى لها صورة واضحة السمات كاملة العناصر ظاهرة التقاسيم ، فقليل من أدبائنا من عرض رأيه في المرأة في عمل أدبي مستقل ، وإنما هي آراء شتى وأقوال مبعثرة في إنتاجهم الادبي ، وعلى الباحث — اذا شاء — أن يفتش في هذا الانتاج ، ويلتمس عناصر الصورة من بين تلك الاقوال : عنصراً من هنا وعنصراً من هناك ، حتى إذا اكتملت قدر المستطاع ، حاول أن يؤلف منها صورة واضحة . وهو هنا لا ينجو من الزلل ولا يخلو من الخطأ ، لأنه اذ يقوم (بتأليف الصورة) من عناصر أدب الاديب ، يشترك معه في العمل ، ويحمل الصورة بعض الظلال والالوان من شخصيته ولن يبرئه من ذلك (الاشتراك) الا أن يعرض الاديب نفسه صورة كاملة ، من غير أن يحوج الباحث الى التماس العناصر وتأليف صورة منها

* * *

في أدبنا المعاصر ، فراغ واسع سوف يحاسبنا عليه التاريخ الادبي وتأخذنا به الاجيال القادمة ، فأنت تفتقد فيه صورة « المرأة » التي طبعت هذا الجيل بطابعها المتميز ، وقامت بأعنف دور في تاريخنا الاجتماعي الحديث

وقد شهد أدباؤنا هذه المرأة ، تتعرض لثلاث حركات كبرى تهز أركانها وتزلزل كيانها ، شهدوها تواجه حركة (الخروج والسفور) ثم تندفع في حركة (التعليم) ثم تمضي إلى ميدان (العمل) مكافحة مناضلة .

شهدها أدباؤنا تتعرض — في جيل واحد — لهذه الحركات الكبرى ، ثم وقفوا جامدين صامتين ، لم يسجلوا صور هذه الفتاة تقف على باب بيتها وترى أضواء الطريق لأول مرة ، وتخرج الى الدنيا غريرة ساذجة . ولم يتتبعوا هذه الفتاة (الطفلة) وهي تندفع في الطريق زائغة البصر مبهورة الانفاس ، فما تزال في اندفاعها حتى تبلغ آخر الشوط ، ولم يلتفتوا الى هذه المخلوقة الجديدة التي خرجت الى الميدان تواجه أخطاء الانتقال والاختلاط ، وتحمل عبء العمل المشترك

شهدها الأدباء تتعرض لذلك كله ، وتنفعل به ، فلم يصوروا لنا الصراع الذي نشب بينها وبين الناس ، ولم يسجلوا صور النضال بين ميراثها الفطري القديم وبين ثروتها العقلية المستحدثة ، وهكذا مرت بهم هذه الحركات العنيفة لم يكادوا يلتفتون اليها ، وإن منهم من يتعب خياله في تصور دور تلعبه الأنثى في قصة ، واختراع حركة تمثلها على المسرح ، وهو غافل عما تحت سمعه وبصره من مادة غنية زاخرة بالحياة

• • •

إني أدير عيني فيما بين أيدينا من أدب نثري ، ألتمس فيه صورة المرأة كما رآها أدباؤنا أو كما تراها في أدبهم ، فتلوح لي هنا صورة « امرأة في يدها رجل تلعب به كما يلهو الطفل بلعبة اليويو » — وتلوح لي هناك صورة « امرأة تحمل الرجل صينية البطاطس وترى مثلها العالي في مباراة الطاهيات المحترفات » وتلوح لي هنالك ، صورة « امرأة عابثة راقصة ماجنة — هي ظل المرأة التي رآها أدباؤنا في ملاهي أوربا ومراقصها » ووراء هذا كله ، ألمح من بعيد صورة ناصلة الألوان باهتة الظلال تائهة المعالم ، لامرأة غريبة عنا في عواطفها وشخصيتها ، يزعم راسموها أنها (طبق الأصل) من المرأة ، ولا وجود لها إلا في خيال أصحابها وأوهامهم !

أفبهذا العبث يشغل أدباؤنا عن الفتاة المصرية التي مثلت أمامهم أعنف دور في الحركة المعاصرة ؟

أفبهذا الخيال الواهم ، يستغنون عن تلك الحقائق الواقعة ، في حياة حافلة بانفعالات حادة ، مضطربة بين تيارات اجتماعية عنيفة طارئة ؟

• • •

وإلى جانب هؤلاء ، نرى قصصاً أخرى لمؤلفين آخرين ، تحمل أسماء نساء ، فتحسبها تعرض صورة المرأة ، لكنك لا تكاد تتجاوز غلاف الكثير منها حتى تشهد صورة للمؤلف ، تمثله في (الأوضاع) التي يختارها ، أما المرأة فلا تعدو أن تكون ظلا من ظلال الصورة ، ونوعا من (الماكياج) للممثل ، وفرداً في حاشية البطل ، يستكمل بها زينته قبل أن يخرج الى الناس !

• • •

ومن المحزن حقاً أن هؤلاء العابثين ، والواهمين ، هم الكثرة المطلقة منا ، أما الأقلية الباقية ،

فقد اتسم حديثها عن المرأة بطابع الجد ، وامتاز بحظ من الصدق ، لكن التوفيق خان بعضهم فعجزوا عن إتمام صورة هذه الشخصية الغنية

ففي « ابراهيم الثاني » صورة قوية كادت تتم ، تمثل نوعاً من الفتيات المتعلمات العاملات ، يصبين مثال عزيز المنال ، ويصدمهن واقع ضئيل قريب ! لكن المؤلف حين أوشك على الفراغ من هذه الصورة الحية الرائعة ، أدخل عليها لوناً غريباً لا ينسجم مع ملامحها الأولى ، فأفسد الصورة وهو يظن أنه إنما ينزع فتاته من عالم المثل ، ويردها إلى دنيا الواقع !

واتنى المؤلف إلى صورة أخرى ، تمثل منظراً حياً من مناظر حياتنا الواقعة ، صورة « زوجة تواجه في بيتها بفتاة من هؤلاء العصريات المتعلمات » فأضاف المؤلف الى صورة الزوجة كثيراً من عواطف الأمومة حين يجب أن تغيب الأمومة ! وجعل الزوجة تفسح الدار لغريمتها وتهيء لها بنفسها سبل اللقاء بالزوج الحبيب ، وتعد لها برامج النزهة وطعامها ، ممثلة دور الأم والصديقة والطيبة ، في الموقف الواحد الذي يختفي فيه من الزوجة كل هؤلاء ، وتبقى زوجة فحسب !

وفي مقدمة مجموعة القصص « الرجال منافقون » ترى المؤلف قد أحس بموقف « الفتاة المصرية التي لبست الزي الأوربي ومارست حياة عصرية حديثة ، وفي أعماقها تكمن فطرة الشرقية المحجبة » ، وترقد شخصية الحريم » وهي لمحة دقيقة بارعة ، كنا نرجو أن (تخدم وتمثل وتجسم) لكن المؤلف التمس مثلها في دنيا المراقص والملاهي ، وهذا أفق محدود لم تقتحمه من الفتيات عندنا إلا فئة قليلة (خاصة) ـ لا تمثل الجنس بحال ما ، ولو أنه التمس المثال من صميم الحياة عندنا ، لظهرت فكرته أبرع وأروع ، وأغنى بالصحة والجمال

« وزينب » قد مثلت حياة ريفية في الجيل الماضي ، ولم تدرك هذه الأحداث الكبيرة المعاصرة

« والمنقذة » تعرض علينا صورة من فتيات القصور في عهد المماليك

بقيت صورة الفتاة التي عرضها الدكتور طه حسين بك في «دعاء الكروان» ولعلها الصورة الواحدة التي يقدمها إلينا النثر الفني المعاصر حين نسأله عن صورة « المرأة المصرية التي تحمل طابع العصر وسمات البيئة » بل لعلها الصورة الواحدة التي تعرض رسماً كامل العناصر ، لهذا النوع من الفتيات الريفيات اللائي تشهدهن مضطربات في المدينة يواجهن فيها الحياة الصاخبة المعقدة

إنها قصة نفس ، وحديث عاطفة ، وصراع أهواء ، ترويها فتاة تنفعل بعاطفة الأنوثة ، في اضطرابها وتناقضها ، في ثوراتها وهدوئها ، في عنفها ورقتها ، في جبروتها وضعفها ، في تمردها واستسلامها !

إنها صورة حية ، لفتاة منا كانت ساذجة ، أمية ، فقيرة ، ثم خرجت وتعلمت ، وواجهت ، واحتملت وثارت ، واستشهدت !

لقد هتفت لها يوم قرأتها ، ورجوت خيراً كثيراً من ظهور الدكتور طه فى هذا الميدان ، فقليل من الأدباء من أتيح له مثله أن يشهد الحركة النسائية فى أعنف مظاهرها ، وقليل منهم من وقف مثله الى جانب الفتاة وهى فى قاعات الدرس الجامعى ، تتعلم وتنافس وتتفوق ، وقد تتعرض لعبث العابثين ، وتسمع هذيان الهاذين

لقد شهد بنفسه ، ما احتملته « الفتاة » فى هذا الدور العنيف ، ورآها فى مهب العاصفة الطائلة الهوجاء ، تضطرب وتذود عن كيانها ، وسمعها وهى تئن من فداحة الثمن الذى فرضه عليها عهد الانتقال فدفعته من أعصابها وهناءتها

فلو أنه راح يرصد هذا كله بحسه الدقيق ، لأغنى الأدب المعاصر بثروة من الصور الحية لكنه لم يفعل . . . وما زلت أرجو أن يفعل ، فان توفيقه فى رسم الصورة الأولى ، يغرينا بالرجاء !

ونترك النثر الفني ، ونمضى الى شعر الشعراء وأغانى المغنين ، فنفتقد فيه ملامح المرأة الحديثة ، ولا نسمع حديثاً أو مقطعاً عن هذه الأحداث الكبرى التى أثرت فى حياة المرأة ، على حين استطاع الريف الأمى الساذج ، أن يعكس صدى العصر ، فيسمعنا فى أغنية مؤثرة ، صوت فتاة ريفية تخلى عنها فتاها ، حين عرضت له واحدة من بنات المدن ، فهى تئن قائلة فى خيبة ومرارة :

« وعـــدنى . . . وخـلا يــه . .
«لجل (لأجل) علية التمرجيـــــــة »

فانظر الى هاء السكت يختم بها المقطع فيكون لها رنين مؤثر حزين

وانظر الى هذا الاسم العصرى الذى فتن صاحبنا الفلاح ، والى هذه الوظيفة المستحدثة التى اشتركت مع الاسم فخلبت لبه وأنسته هوى صباه ! ثم اعجب لهذا المقطع الصغير يروى لك قصة القرية التى هجرها أبناؤها ، ونزحوا الى المدينة ففتنوا بأضوائها ونسوا الأهل والعشيرة والصحاب !

أين ترى مثل هذا « المنظر الحى » فى الشعر (الارستقراطي) وأغانى المدينة ؟ وأين تسمع فيها مثل هذا الصدى لما نواجه من أحداث الحياة ؟

أما القصة المسرحية ، فلها حديث طويل ، لا يتسع له المجال الآن

* * *

وبعد فقد يسأل سائل عن سر هذا النقص فى أدبنا المعاصر أهو من عجز المرأة عن أن تلهم ، أم هو من قصور الادباء واشتغالهم عنها بأدب الغرب الحديث والادب العربى القديم ؟

وهذا حديث يطول ، وليس هذا أوانه فلعلى أفرغ له فى غد قريب إن شاء الله

بنت الشاطىء

تناول الاستاذ محمد عبد الله عنان فى هذا المقال القيم قصة التنافس على سيادة البحر الابيض المتوسط بمناسبة استيلاء الحلفاء على صقلية وعلى بعض جزره وشواطئه وتسليم إيطاليا . وهي قصة سالم الشرق فى أحداثها بأعظم نصيب

قصة السيادة على البحر الأبيض المتوسط ونصيب الدول الاسلامية منها

بقلم الاستاذ محمد عبد الله عنان

أعاد افتتاح الحلفاء لصقلية ، بعد سيطرتهم على شواطىء افريقية الشمالية الى الاذهان ذكرى حقيقة جغرافية وتاريخية هامة ، هى أن البحر الابيض المتوسط كان وما يزال مدى العصور مسرحا للتنافس على السلطان والسيادة البحرية ، وأن السيادة على لجته ما زالت عنصرا من عناصر السيادة العالمية : ذلك لان موقعه المتوسط بين القارات الثلاث التي يتألف منها العالم القديم ، وهى افريقية وأوربا وآسيا ، يجعله مجمعا هاما للمواصلات الامبراطورية ، كما أن السيطرة على مياهه تمهد للسيطرة على الامم والاراضى الواقعة على شواطئه . ولم تفقد هذه الحقيقة قيمتها منذ العصر القديم ، ففى عصر الرومان كان البحر الابيض المتوسط مجازا لسيطرة رومه على الامم الواقعة على شواطئه من آسيا الصغرى الى المحيط الاطلنطى ، ولما سقطت رومه ، استطاعت بيزنطية (الدولة الشرقية) أن تحتفظ بهذه السيطرة مدى حين ، حتى قامت الامبراطورية الاسلامية فانتزعت منها هذه السيادة على مياه البحر الابيض المتوسط والامم الواقعة على شواطئه من الشام الى الاندلس

وقد بدأت هذه السيادة البحرية الاسلامية على مياه البحر الابيض المتوسط منذ أوائل القرن الثانى للهجرة (الثامن الميلادى) ونحن نعرف أن العرب فى بداية فتوحاتهم كانوا يخشون البحر وأهواله ، ويؤثرون الفتوحات البرية . ولكن سرعان ما غدا البحر كاليابسة مسرحا لغزواتهم . وخرج العرب منذ خلافة عثمان لغزو الجزر القريبة من الشواطىء الاسلامية مثل قبرص ورودس وغيرهما . وفى خلافة الوليد بن عبد الملك ، حينما تدفق سيل الغزو الاسلامى من شمالى افريقية الى شواطىء الاطلنطيق والاندلس غزا العرب جزائر اقريطش (كريت) وصقلية وسردانية وكورسيكا ، وافتتحوا جزر البليار (ميورقة ومنورقة) ، وكانت حملات قسطنطينية وما سيرته الخلافة لحصارها من الاساطيل الزاخرة من اعظم الحملات البحرية فى تلك العصور

ولم تأت أواخر القرن الثالث للهجرة (التاسع الميلادى) حتى بلغت سيادة المسلمين على مياه البحر الابيض المتوسط أوجها ، وغلبوا على سائر جنباته الشرقية والجنوبية والغربية والوسطى . أما جنباته الشمالية فكانت الغلبة فيها للبنادقة والبيزيين والفرنج . ومع أن الامبراطورية الاسلامية الكبرى كانت قد تفككت عراها يومئذ وانقسمت الى دول وامارات عدة ، تنتظم على شواطىء هذا البحر من الشام الى الاندلس ، فان هذه الدول المتفرقة كانت تسيطر كل منها على مياه المنطقة المتاخمة لشواطئها ، فكانت أساطيل الدولة العباسية تسيطر على الناحية الشرقية من مياه البحر الابيض المتوسط وكانت دولة الاغالبة تسيطر على المنطقة الوسطى ، وتسيطر اسبانيا المسلمة (الاندلس) على المناطق الغربية فيما بين شواطىء الاندلس وكورسيكا وسردانية

١ ـ افتتاح المسلمين لجزائر الكبرى

وقد فطن المسلمون منذ البداية الى أهمية الجزر العديدة المنتشرة هنا وهناك فى مياه البحر الابيض المتوسط ، والى ان السيادة البحرية المنشودة لا تتحقق الا بالاستيلاء عليها، وهكذا بدأت غزواتهم المتكررة لتلك الجزر ، ولم تسفر غزواتهم الاولى عن فتوحات مستقرة ، وكانت تنظم بالاخص لاحراز السبى والغنائم ، وفرض الجزية . فلما اشتد ساعد الاساطيل الاسلامية منـذ بداية القرن الثالث للهجرة (التاسع الميلادى) تطلع المسلمون الى افتتاح هذه الجزر الغنية الضخمة وامتلاكها . وكانت اقريطش (كريت) أولى الجزائر الكبرى التى افتتحوها ، وكان افتتاحها فى سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) على يد بحار جرىء هو ابو عمر حفص بن عيسى الاندلسى ، وهو زعيم جماعة اندلسية مغامرة ، أخرجت من الاندلس قبل ذلك بأعوام عقب ثورة قامت بها ، وجاءت الى الاسكندرية ونزلت بها مدى حين ، واشتركت فى الحرب الاهلية التى كانت تضطرم يومئذ بمصر ، فلما جاء عبد الله بن طاهر قائد المأمون الى مصر ، أرغم الاندلسيين على مغادرة الاسكندرية فأقلعوا منها فى سفنهم الى اقريطش، وكانت جماعة منهم قد أغارت عليها قبل ذلك واستولت على ناحية منها ، فلم يروا خيرا من اللحاق بهم وافتتاح تلك الجزيرة الكبيرة ، والاستقرار فيها ، وكانت اقريطش يومئذ من أملاك الدولة الشرقية (بيزنطية) ، ولكن الحامية البيزنطية لم تقو على مغالبة البحارة المسلمين ، وسقطت الجزيرة فى أيديهم دون مشقة واستقروا بها ، وأسسوا بها دولة مسلمة صغيرة استمرت زهاء قرن وثلث ، حتى استعاد الروم الجزيرة فى سنة ٩٦١ م (٣٥٠ هـ)

وافتتح المسلمون صقلية فى نفس الوقت ، وكانت الجزيرة الايطالية الكبيرة تجذب أنظارهم بضخامتها ، وموقعها الجغرافى الفذ ، وسيطرتها على المنطقة الوسطى من البحر الابيض المتوسط ، وكانت دولة الاغالبة يومئذ فى تونس تبسط سيادتها على الشواطىء المقابلة ، وتتطلع الى انتزاع الجزيرة من ايدى الروم (البيزنطيين) ، وسنحت هـذه

الفرصة حينما وقعت بالجزيرة حرب أهلية ، واستغاث أحد الزعماء الخوارج ، وهو شريف من أشراف صقلية يدعى يوفيموس (أوفيمى) بأمير تونس زيادة الله بن الاغلب ودعاه الى افتتاح الجزيرة ، فسير ابن الاغلب الى صقلية حملة بحرية بقيادة أسد بن الفرات قاضي القيروان فى سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) ، ونزل المسلمون فى طرف الجزيرة الشمالى الغربى ، ونشبت بينهم وبين الروم معارك طويلة الامد ، واستولوا تباعا على ثغورها وقواعدها ، واستعصم الروم مدى حين بركنها الجنوبى الشرقى ، حتى افتتح المسلمون ثغر سرقوسة آخر معاقلها فى سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) ، وبسط المسلمون سيادتهم على الجزيرة بأسرها ، وقامت فى صقلية دولة اسلامية تنضوى تحت حماية سادة تونس، الاغالبة، ثم الفاطميين من بعدهم ، وتعمل على توطيد سيادة المسلمين البحرية فى تلك المنطقة ، وغدت صقلية قاعدة لكثير من الحملات والبعوث البحرية التى تجوس خلال هذه المياه ، وتثخن فى الثغور والشواطىء الايطالية من قلورية (كلابريا) حتى جنوه ، وكادت رومة عاصمة النصرانية نفسها أن تسقط فى يد البحارة المسلمين ، اذ غزوها خلال القرن التاسع مرتين ، واضطروا البابا الى دفع الجزية . واستمرت دولة الاسلام فى صقلية زهاء قرنين صلة الوصل بين الشرق والغرب ، تنقل آثار الحضارة الاسلامية الى الجزيرة والى جنوبى ايطاليا ، حتى أدركها الاضمحلال والوهن وعادت الجزيرة الى سلطان الفرنج على يدى الدوق روجر النورمانى فى سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م)

وغزا المسلمون جزيرة كورسيكا لاول مرة على يد موسى بن نصير فاتح الاندلس فى سنة ٧١٣ م ثم غزاها البحارة المسلمون بعد ذلك غير مرة ، وفى سنة ٨٠٦ م استطاع المسلمون أن يستقروا فى بعض نواحيها ، واستطاعوا البقاء فيها أكثر من قرن بالرغم من الحملات الفرنجية المتوالية التى سيرت لاخراجهم منها . وكذلك غزا المسلمون جزيرة سردانية منذ فاتحة القرن الثامن الميلادى غير مرة، ولكنهم لم يظفروا فيها بفتوح مستقرة . وفى أيام الطوائف بالاندلس ، سير مجاهد العامرى أمير دانية حملة بحرية الى سردانية فى سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) فافتتحها ، ولكنها لم تلبث ان عادت الى قبضة النصارى . واما جزائر البليار الاسبانية أو الجزائر الشرقية فقد لبثت طوال الدولة الاندلسية قرونا فى يد المسلمين

٢ ـ سيادة الدول الاسلامية لمياهه

وهكذا بسط المسلمون سيادتهم على مياه البحر الابيض المتوسط من شرقه الى غربه ، وسيطروا على شواطئه الشرقية والجنوبية والغربية كما سيطروا على جزائره العديدة ، واستمرت هذه السيادة بضعة قرون ، ولم تكن تستأثر بها دولة واحدة ، ولكنها كانت موزعة بين الدول الاسلامية التى تشرف على شواطىء هذا البحر . فكانت مصر تبسط سيادتها على جنباته الشرقية ، وتبسط اسبانيا المسلمة (الاندلس) سيادتها على جنباته

الغربية ، وكانت الدول البربرية التى قامت فى شمالى افريقية منذ القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) تبسط سيادتها على مياهه الوسطى . ولما اضمحلت دولة الاسلام فى الاندلس فقد المسلمون تفوقهم فى غربى البحر الابيض المتوسط منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، ولكن مصر لبثت تحتفظ بتفوقها البحرى فى شرقيه زهاء ثلاثة قرون أخرى ، ومع أن البندقية كانت تنافس مصر بأساطيلها وجولاتها فى هذه المياه ، فان هذه المنافسة كانت مقصورة على المنطقة الشمالية ، وكانت الاسكندرية فى تلك العصور أعظم ثغور هذا البحر على الاطلاق . ولما أخذت دولة السلاطين المصرية فى الاضمحلال منذ أواخر القرن الخامس عشر أخذت مصر تفقد تفوقها البحرى ، ثم جاء اكتشاف طريق الهند الجديد من ناحية « الرأس » (الكاب) على يد فاسكو داجاما البرتغالى ، ضربة جديدة لمركز مصر البحرى والتجارى ، ولم تلبث مصر أن سقطت صرعى الغزو العثمانى بعد ذلك بقليل (١٥١٧ م) فطويت بذلك صفحة قوتها وعظمتها واستقلالها مدى ثلاثة قرون أخرى

واحتل الترك العثمانيون مركز مصر فى شرقى البحر الابيض المتوسط ، كما احتلوا من قبل مركز الدولة البيزنطية فى المياه اليونانية ، ولم يأت القرن السادس عشر حتى امتد تفوقهم البحرى الى أواسط البحر الابيض ، وسيطروا على ساحل الجزائر وتونس ، وكان البحارة المصريون يؤلفون فى الاساطيل العثمانية وحدات قوية ، وكانوا يحتفظون بكثير من مزايا أسلافهم السابقين ، حتى أنه لما هزمت الاساطيل العثمانية فى موقعة لبانتو الشهيرة فى خليج كورنت أمام الاساطيل النصرانية المتحدة (١٥٧١ م) ، كان البحارة السكندريون خير من ثبت فى تلك الموقعة وأبلوا أحسن البلاء

٣ ـ عصر المنافسة بين الدول الاوربية

ثم كان عصر المنافسة بين الدول الاستعمارية الاوربية على سيادة البحر الابيض المتوسط واضطرمت هذه المنافسة فى البداية بين اسبانيا وفرنسا وانكلترا ، ثم اقتصرت بعد ذلك على التنافس بين انكلترا وفرنسا ، وبدأت انكلترا تبسط سيادتها على هذا البحر بالاستيلاء على جبل طارق فى سنة ١٧٠٤ ، واستولت فرنسا على كورسيكا فى أواخر القرن الثامن عشر ، ثم حاول نابوليون أن ينتزع سيادة البحر الابيض لفرنسا ، فاستولى على مالطة وافتتح مصر ، ولكن نلسون حطم مشاريعه ، وقضى على أسطوله ، وسرعان ما أخرج الفرنسيون من مصر ، وقضى نلسون على الاساطيل الفرنسية والاسبانية المتحدة فى موقعة طرف الغار (١٨٠٥) ، واستولى الانكليز بعد ذلك على مالطة (١٨١٤) ، ثم على قبرص (١٨٧٨) ، وكانت السياسة الانكليزية منذ أنشئت قناة السويس بمصر ، وغدت مصر طريقا للهند وللامبراطورية تتوق الى احتلال مصر ، وقد حققت هذه الامنية غير بعيد ، وبذلك استطاعت انكلترا أن توطد سيادتها على البحر الابيض المتوسط من شرقه الى

غربه ، ولم يحل استيلاء فرنسا على تونس والجزائر دون استئثار انكلترا بهذه السيادة وقنعت فرنسا من ذلك الحين بأن تحتل فى هذا البحر المحل الثانى

ولكن ظهر منذ قيام الفاشستية فى ايطاليا عامل جديد فى سيادة البحر الابيض المتوسط، فقد حاولت ايطاليا الفاشستية أن تحيى النظرية الرومانية القديمة فى وجوب الاستئثار بسيادة هذا البحر ، وعكفت على انشاء أسطول ايطالى ضخم ، وحصنت جزيرة بنتلاريا الواقعة بين صقلية وشاطىء طرابلس ، وأنشأت المطارات القوية فى صقلية وسردانية ، ونادت بان البحر الابيض المتوسط ، انما هو بحر ايطالى (مارى نوسترا) . ولما نشبت الحرب الحاضرة ظهرت خطورة المحاولة الايطالية فى سيطرة ايطاليا على أواسط البحر الابيض ، وشطره الى شطرين ، ومهاجمتها لمالطة بشدة ، واضطرار انكلترا الى التخلى عن طريق البحر الابيض ، والاستعاضة عنه بطريق (الكاب) الطويل . ولكن انكلترا استطاعت بعد كفاح شاق أن تحطم قوى المحور فى شمال افريقية ، وأن تنقذ مالطة ، واستطاعت القوى المتحالفة أن تفتتح صقلية بعد ذلك ، وأن تطهر أواسط البحر الابيض المتوسط ، وعاد الاسطول الانكليزى يبسط سيادته المطلقة على هذا البحر من شرقه الى غربه ، ويقوم بدوره التاريخى فى حماية المواصلات الامبراطورية ، وانهارت المحاولة الفاشستية فى مهدها ، وانهارت دعاوى ايطاليا ، ونظرية « البحر الايطالى »

***

تلك قصة التنافس على سيادة البحر الابيض المتوسط منذ العصر القديم ، وهى قصة ساهم المشرق فى أحداثها بأعظم قسط ، فقد استطاعت الدول الاسلامية مدى عصور طويلة ، أن تحتفظ بسيادتها على جنبات هذا البحر التاريخى من الشام الى الاندلس ، وأن تجعله ميدانا لاساطيلها الزاخرة ، ومسرحا لبعوثها وحملاتها البحرية المتوالية تثخن فى معظم شواطئه وثغوره ، وتستولى على معظم جزائره الكبرى، وتقيم فيها امارات اسلامية صغيرة تسطع بفنونها وحضارتها فى ظلمات العصور الوسطى

وقد أثارت حوادث الحرب الافريقيـة ، وافتتاح صقلية التى كانت دهرا مقر دولة اسلامية زاهرة ، هذه الذكريات المتاثرة عن تلك السيادة وتلك الغزوات التى تملأ فراغا كبيرا فى صحف التاريخ الاسلامى

محمد عبد الله عنان

— الحلم غطاء ساتر ، والعقل حسام قاطع ، فاستر خلل خلقك بحلمك ، وقاتل هواك بعقلك

« على بن أبى طالب »

على أثر سقوط موسوليني

ليس الذكاء سبباً من الأسباب التي تجعل الافراد الموهوبين يقومون ببناء مجد بلاد أو تهيئة أسباب سعادتها . وليست حدة الذهن بعامل ذى قيمة فى تكوين « رجل الدولة » . إنما العبرة بالاخلاق ، وبها دون سواها . فالصبر وإنكار الذات والعمل على خدمة الغرض المفروض سواء أنال حظوة فى أعين الجماهير أو نال انتقادها ـ هذه هى الصفات التى تكون « رجل الدولة » . وهذه هى الصفات التى تتوفر بمن ينتدب نفسه لخدمة الغير

والتاريخ أكبر شاهد على ما نقول . فلم تقم الاديان والمبادىء الادبية ، ولم تبن الامبراطوريات إلا على أساس متين من هذه الاخلاق

وأما هذه الصفات الزيفة ـ استهواء الجماهير بالالفاظ وقيادتهم بكلم لا يحسن السكوت عليه أو سوقهم سوق الانعام بقدرة سحرية تنال نجاحاً ، فهذه أمور لا تلبث أن تنكشف على مر الايام طالت هذه الايام أم قصرت . وهذا شأن موسوليني

ولعله أصبح برهان يقيمه هذا العصر على نجاح المشعوذين ساعة وفشلهم أبد الدهر

فقد جمع الرجل كل ما يمكن أن يجتمع فى انسان من قحة ، ولسنا نسميها إقداماً أو جرأة . لان هذين يكونان فى مواقف الخطر والتعرض لنكبة فى النفس أو فى النفيس . وأما صاحبنا فقد كان بمأمن من كل هذا ، فلا نفيس عنده ، وأما النفس فقد كان يضن بها كلما بدا له خطر . هكذا فعل عندما جند فى الحرب الماضية . وهكذا فعل عندما مشت الفاشية السوداء الى روما تعاتب ملكا اشتعل رأسه شيباً ووهن عظمه

يحلم انه قيصر

يقول الذين عرفوا الرجل عن قرب معرفة لا يتسرب اليها الشك ـ ولا نقول الذين كتبوا عنه فان معظمهم تناوله إبان جبروته ـ إنه بدأ اشتراكياً متطرفاً يسعى الى قلب الانظمة التى كانت تحيط به . بل كان ثورياً يقاوم الجندية سواء فى بلاده أم فى غيرها حتى أنه لما همت الحكومة الايطالية فى سنة ١٩١٢ بغزو طرابلس الغرب ، أقام فى وجهها العراقيل ، وخرب السكة الحديدية فى البلد الذى كان فيه حتى يمنع نقل الجنود الى الشواطىء ودعا الحرب على طرابلس جناية ، واتهم مضرميها باللصوصية . فلما أدانته المحاكم هرب الى سويسرا ، ثم ما لبث أن عاد محرراً فى جريدة غارقة فى المبادىء الاشتراكية المتطرفة

وشبت نار الحرب العظمى الأولى فى سنة ١٩١٤ فكان أول أمره داعياً عليها بالويل وداعياً قومه الى الحياد . ثم انهال عليه سيل المال عن يد سفير فرنسا فى إيطاليا (مسيو باريير) وعن

يد الحزب الاشتراكي نفسه في باريس ، فما لبث أن انقلب داعية للحلفاء يهيب بقومه أن ينكروا توقيعهم الحلف الثلاثي وينضموا الى فرنسا . وكان ذلك وجند . وقيل إنه أصيب بجرح لم يكن نتيجة قتال أو محاولة هجوم الى أن وضعت الحرب أوزارها

فلما كان انعقاد مؤتمر فرساي ، وكانت الكلمة العليا للرئيس ولسن لم يجد المعاهدة السرية التي كان قد ارتبط بها الحلفاء ـ أي انجلترا وفرنسا ـ مع ايطاليا

ولم يشأ أن يحرم يوغوسلافيا من مطالب رآها حقة ولا تتفق مع المطالب الايطالية

فخرج ممثل ايطاليا من المؤتمر ـ وهذه غلطة تفوق الجريمة ولا يقدم عليها إلا صغار النفوس

فاضطربت الاحوال في ايطاليا ، وهي دولة فقيرة ، لم توفق الى رجال يحسنون سياستها ، أو الى جيش ذي قيمة حربية ، فكان جل رأسمالها ملكا من آلة الست عنده أن يحرك رأسه في حالة إعياء ودعاوى طويلة عريضة يصخب بها الرجال الذين احترفوا السياسة . فخلا الجو للشيوعيين ، وخاف أصحاب المصانع والمصارف والاطيان على كيانهم . فأين لهم رجل مثل موسوليني ، من عامة الشعب يفهم عقلية العامة . جريء على الحق أو بالحق كيفما يجيء . وما هي إلا عشية وضحاها حتى ترك الجريدة الاشتراكية أو تركته ، وأنشأ جريدة له من مال كبار الملاك المشار اليهم كما يقول القائلون بدخائل السياسة الايطالية ، فكانت الفاشية . وهي في أصلها خوف من الفوضى أو من الشيوعية . ودعوة الى النظام تأخذ به الدولة . فهي تستهوى الناس لصحة بعض مبادئها أولا ، ولمخاطبتها عقول القوم وعواطفهم وقد ابتلوا بالتقلقل في كل شيء وخافوا أن ينحدروا الى الهاوية . فلاقت الدعوة آذاناً مصغية من فريق كبير في الامة الايطالية ونجحت في أوائل أيامها لاخذها بأسباب القضاء على الفوضى وتثبيت دعائم الاستقرار في ايطاليا

ولكن موسوليني ـ وقد رأى سهولة امتلاكه ناصية الحكم باستسلام العرش استسلاما رخيصاً وخضوع العامة للحكومة مهما كان شكلها ـ ما لبث أن انتهزها فرصة سانحة ، فثبت أقدامه بتثبيت أقدام الانصار والأقارب وبإبعاد المنافسين والأعداء الأقوياء بشتى الوسائل الميكافيلية

فلما استتب له الأمر وأخضع الأمة لصبيان الفاشية في الطرق وفي المدارس بوسيلة معبدة الطريق منذ القدم ، وهي نفخ روح القومية وإعلاء ذكر روما القديم والتغني بأمجادها ، كأن ايطاليا تحوي رجلا واحداً من أصل روماني ، أو كأنها لم تفسد الأجيال المتعاقبة على سقوط روما من استبداد وتحكم أجنبي كل ما في هذا الدم من احرار تق

نقول لما استتب له الأمر أخذ يمهد لنفسه حتى يظل السيد المطاع أبداً . فبدأ ما دعاه دعاته إصلاحاً داخلياً . كفتح طرق واسعة وتجفيف مستنقعات وتحويلها إلى مزارع قمح ، وبثه روح النظام في السكك الحديدية وفي الفنادق ، فجعل كرامة الخدم في ألا يستعبدوا ، وكرامة السكك الحديدية في أن تصل في ميعادها . وهذه الأساليب الاصلاحية ليست في الواقع ونفس الأمر الا ذراً

الرماد في العيون. ذلك لانها تنصب على التافه من الامور وعلى مظاهرها الخلابة، وتترك الجوهر جانباً

هكذا فعل جميع الحكام بأمرهم العاجزين عن مواجهة الصعاب، فكانت حياتهم في آلة الدست التهويل والدعاوى. وصاحبنا موسوليني كان له من ماضيه كصحفي وكسياسي لونه لون الحرباء ومن عله بأخلاق الجماهير ما جعله نابغة هذا الفن ـ فن التدجيل ـ ولم يكن مقتدياً بنابليون العظيم كما زعم له المخدوعون في أمره، وأنى له هذا. انما كان مقلداً نابليون الثالث أحد صعاليك الحكام بأمرهم وغليوم الثاني وبعض أمبراطرة الرومان في عهد انحلالهم

فنابوليون الثالث الذي أخذ عرش فرنسا نهباً واختلاساً، بدأ يجمل باريز ويشق الطرق ويوسع فيها ويبني دور الموسيقى حتى ظن الذين يغرهم صوت الضفادع وانتفاخها، ان هذه العظمة في الأمور الفنية لا تضاهيها إلا العظمة السياسية والحربية. فقاده جهله وغروره الى حرب بالمكسيك وأخرى على النمسا ثم أخرى على المانيا جاءت بآخرته وآخرة الطلاء المزيف

وموسوليني هذا عند ما رأى نجاحه يمشي خطوة فوق خطوة ورأى قيادة الايطاليين من السهولة بمكان ورأى رجال السياسة في انجلترا وفرنسا والمانيا يحلونه محل الاجلال وذلك عن دهاء، أخذته العزة بالاثم فصار يحلم بأنه قيصر حقيق

وليس من شيء أدل على غفلته من أنه ـ وهذه ألف ياء السياسة الايطالية ـ سمح لألمانيا ان تجتاح النمسا مع علمه بأن مجرد وقوع الأمر يجعل ايطاليا دولة تحتلها المانيا. ولماذا؟

لأنهم حسنوا له فتح الحبشة وحسنوا له بناء الامبراطوريات فجاز الأمر عليه ولو تبصر لحظة لعلم ان الشعب الايطالي غير ناضج نضوجاً سياسياً بعد. وانه بعيد عن تخلقه بأخلاق المحاربين المجاهدين فكيف تبنى الامبراطوريات على أكتاف أمثال هؤلاء. ثم تحدى سلطان البحر على أنه عرضة لكل هجوم بحري. وكانت خاتمة سخافاته ان طعن فرنسا من خلفها، ظناً منه ان انجلترا شاخت وهرمت وان الصيد أصبح كثيراً فلا يدري ما يصيد

هذا على الرغم من ان شريكه هتلر لم يطلب منه مشاركة في حرب فقد كان يؤثر ايطاليا محايدة عنها محاربة لأسباب عديدة ولكن هذا المغرور ابن الحداد ظن ان حظه الذي سهل له أسباب النجاح على ظهور الايطاليين سيظل مواتياً وأنه سيكون في عداد الفاتحين الظافرين

وليس المقام الآن مقام تعداد ما أصاب ايطاليا بعد ذلك فقد ظلت تنتقل من نكبة الى أخرى ومن فضيحة الى مهزلة حتى انكشفت عن ناقة هزيلة عجوز لا تصلح للنحر ولا للدر

حكم التاريخ

ان أقسى حكم يصدره التاريخ سيكون على هذا الرجل موسوليني وزمرته دع عنك أحكام محاكم الحلفاء ان انعقدت. فقد كان في يده اجماع من قواد الجيش ومن أمراء البحر بأن تأهبهم لم يبلغ ذروته وأنهم تنقصهم الطائرات أيضاً.. وكان في علمه ان ايطاليا ينقصها الفحم والحديد.

فكيف يمكن ان تحارب أو تفوز فى حرب وهى كما قدمنا . ولكنه اتكل على فوز ألمانيا الحربى وعلى تهويله الكلامى . فنحر ايطاليا وأرجعها قروناً الى الوراء

فاذا قال قائل من دعاته إنه أصلح فى أمور ايطاليا الداخلية ما كان قد أفسده الاهمال الايطالى والحكم الايطالى السابق أجبنا أن الامر غير صحيح . لأن هذا الاصلاح الموهوم لم يكن ذا فائدة بل عاد على الشعب بغلاء العيشة وبكثير الضرائب وكل ذلك فى سبيل ما كان يظنه «مجداً» . فان زرع القمح فى أرض بور بعد استصلاح هذه الارض عاد بنفقات باهظة على الخزينة ثم ان هذا القمح الايطالى كان أغلى من القمح الكندي الذى كان يشتريه الايطاليون . فالعملية خطأ اقتصادى محض ولكن روح القومية اذا نفخ فيها الشعوذون تهب وتحرق الاخضر واليابس

وهى هى نفسها التى أثارها حتى يجعل من بلد زراعى جبلى بلداً صناعياً على حين ينقصه الحديد والفحم والمواد الاولية

وأما هذا النظام الوقت الذى فرضه على ادارة السكة الحديدية أو على ادارة السفن أو ادارة الفنادق فلم يكن ليساوي هذه الضرائب التى زادها وأحنى لها ظهور الايطاليين وكل هذا فى سبيل انفاق لا حد له ـ انفاق على مرتبات العائلة المالكة بكل أفرادها وعلى الموظفين الفاشيين وفساد فى الادارة الحكومية حل محل الفساد السابق باعطاء آلة الحكم للاقارب والاصهار والانصار

فما أجدى « الاصلاح » فى الفنادق وفى محطات السكة الحديدية من رجوع الايطاليين الى سابق عهدهم بالفوضى الاخلاقية . وما هو الغرض من كل هذه السياسة الموسولونية

هو غرض واحد . أن يجعل الوهم سيداً على عقول الايطاليين حكاماً ومحكومين فيحلمون بامبراطورية وبأمجاد روما القديمة وبالبحار يتسلطون عليها وبالهواء يمتطونه وبملايين الحراب يسددونها . وكل ذلك من فعل الدوتشى حتى اذا بدا كابوس الحقيقة وبدد الحلم أفاق هذا الشعب المسكين على بطون جائعة وأملاك ضائعة

هذا هو تاريخ موسولينى فى قومه . وهذا هو أثره فى الهدم والتخريب اللذين حلا بايطاليا وبقسم غير قليل من العالم . وسواء أكان مختلا أم أنقذه شريك له فى جرمه فالعاقبة واحدة . إنه سقط سقوطاً توقعه كل من لا تأخذه زخارف الباطل وشعوذة السياسة بدعاويها. وان الصحيح مهما غلب على أمره لا يلبث أن يصح ذلك أن البشرية فى سيرتها هذه القرون الطويلة كلها قد تواضعت على شىء اسمه « الاخلاق » بجملته مثلا أعلى ترنى اليه . لأنها رأت النفعة فى التمسك بهدى الاخلاق تفوق ما كانت عليه فى جاهلية الفوضى . فأصبحت تؤمن وتسر كلما فاز الخلق الرفيع على نجاح وضيع

وأصبح الرأي العام ـ مهما قيل فى تضويحه ـ يفرح لعمل ذى خلق متين ويستنكر اللصوصية

(البقية على صفحة ٥١٨)

الدكتاتوريون
وموقف المسرحية منهم

بقلم الاستاذ زكي طليمات

المدير الفني للفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى
ومفتش شؤون التمثيل بالمعارف

الدكتاتورية والدكتاتوريون من الألفاظ التي لها شأن في هذه الأيام، تلوكها الألسن وتلهج بها الصحف ، بل إنها شغل الناس منذ أكثر من عشرين عاماً ، أي منذ أن قامت « الفاشية » في إيطاليا . وعلى رأسها « موسوليني » ، والنازية في ألمانيا يحمل لواءها « هتلر » . وعلى الرغم من تصدع الفاشية بسقوط دكتاتورها فان أثرها ما زال بادياً في صفحة الحرب القائمة ، أما النازية فما زالت في جبروتها تزجي دكتاتورهم جيوش الظلام تحت أعلام الصليب المعكوف . فالموضوع الذي تزمع معالجته لم يتم فصولا إذا قصرناه على دكتاتوري هذا الزمن فحسب، لأن التاريخ لم يعط بعد كلمة الحقة فيهما ، باعتبار أنهما ما زالا في معترك العمل ، وقد دأب التاريخ على ألا يتكلم عن شخص أو نظام من الانظمة إلا بعد فوات حقبة طويلة من الزمن يتمكن الذهن أثناءها من مطالعة هذه الأنظمة من كل جانب وبحث ظروفها وملابساتها ونتائجها

والتاريخ ، كما هو معلوم ، يسبق المسرحية التي تعالج شخصياته ، وهو من هذا النوع من المسرحية مصدر الايحاء ، ومعين المخيلة ، ومقطع الحق فيما يقوله المؤلف . بيد أن الديكتاتورية ليست بالامر الجديد في تاريخ البشر ، فهي في جوهرها ومرماها قديمة قدم الانسانية ابتدعها الذهن البشري فيما ابتدعه من تنظيم شؤونه الاجتماعية وتدبير أحواله وعلاقاته . وما الدكتاتوريون الا نفر من الحكام الذين تركزت بين أيديهم السلطة المطلقة ، لعبوا أدوارهم في سياسة البشر على مسرح الحياة ، كما لعب غيرهم من مستبدي الاباطرة والملوك والسلاطين والولاة وعتاتهم ، ثم أسدل الستار عليهم فأصبحوا حديثا بعدهم ، وقد عالجت المسرحية حياة فئات من هؤلاء العتاة وتحدثت عنهم أعجب الاحاديث وأطرفها . فكان لزاما أن نتحدث أيضا عن الدكتاتوريين باعتبار أنهم نفر من الصف الاول في التاريخ ، ولأن « الدكتاتورية » كما سبق القول ، ليست من مولدات هذا العصر ، اذ أنها في صيغتها اللفظية ومراميها الشكلية من مخلفات الدولة الرومانية ومولدات « روما » القديمة ، روما الجمهورية ، نجمت في زمن أحاطت فيه أحداث خاصة بالحياة الرومانية بعد أن تمشى ملل من الحياة الديموقراطية الى الواعية الباطنة للمجتمع الروماني ، فكان

أن ابتدع هذا النظام من الحكم (١) ، الذى انتهى بمصرع الدكتاتور يوليوس قيصر

وقد يساورنا العجب ـ وقد اندثرت معالم هذه الدكتاتورية الرومانية ثم الامبراطورية ، ثم للملكية المستبدة عامة تحت ضربات معاول الثورة الفرنسية ، ثم قيام الحكم الديموقراطى بشعاره المعروف ـ كيف تأتي أن تكون رجعة الى الدكتاتورية بعد ذلك فى بعض ممالك أوروبا بعد انتهاء الحرب الماضية وأن تبقى قائمة الى الآن !! ولكنه عجب سرعان ما يتلاشى عند التأمل ، لأن الانسانية دأبت على أن تعبد ما تحرق ثم تعود فتحرق ما تعبد ، وهى فى مزاجها ملول متحولة ذات بدوات ، وهى مشدودة على الرغم منها بأعراق الى الحكم الاستبدادى المطلق الذى ألفته قرونا عدة ، ووواعيتها الباطنة تزخر بتيارات عنيفة متضاربة بين الماضى والحاضر ، وقد ينفلت واحد منها فتكون هذه النكسات والرجعات الى الاوتوقراطية الفاشمة

وبحورنا الآن نرجع الى صميم الموضوع بعد أن قدمنا له بما فيه الكفاية ، لنقول إن المسرح ، وهو من مرائى الحياة فى كل عصر ، وقف بمسرحيات تاريخية من الدكتاتوريين مواقف لا يصعب على المتقصى الالمام بها . ومن الملاحظ أن كتاب المسرحية التاريخية عامة ، مولعون ببعث جبابرة التاريخ ، وكأنهم مسوقون الى هذا بدافع لاشعورى مأتاه التشوف لارتياد المجهول ، وكشف الستر عن الغامض فى هذه الشخصيات التاريخية التى تثير حولها التطلع الدائم والفضول الذى لا ينتهى ، وهم فى ذلك يجاوبون رغبات الجمهور بعد اشباع رغباتهم ، وهم يصدرون فيما يكتبون اما عن نسخ التاريخ بواقعيته ، أو حسبما تنبض به حساسيتهم وتخوله تأثرهم بحوادثه وفعال أشخاصه . ولهم فيما يكتبون أغراض متباينة ، ووجهات نظر مختلفة ، ان اتفقت من حيث الحرص على تقويم الشخصية التاريخية ـ المراد تقديمها ـ التقويم الذى ينفخ فيها دفء الحياة وصدق الحقيقة ، فانها تختلف من حيث اتخاذ هذه الشخصية وسيلة للاستشهاد على ظاهرة اجتماعية عريقة فى حياة الشعوب ، أو اثبات حقيقة فلسفية ، أو التماس شاردة نفسية ، أو تعرية مستور مما تختلج به الواعية الباطنة للافراد والشعوب . . الى غير ذلك

وتقصى مواقف المسرحية من الدكتاتوريين فى مختلف الزمان والمكان ، أمر يضيق به هذا البحث المقيد بصفحات مرسومة . ونسوق لأقامة الحجة على ما نقول اننا إذا أزمعنا أن نتحدث عن كل مسرحية عالجت حياة « يوليوس قيصر » مثلا ، وهو واحد من الدكتاتوريين ، لأعوزنا الزمن فى التقصى ، ولضاق بالحديث كتاب بأسره يرصد لهذا الغرض

من أجل هذا سنختار من الدكتاتوريين فى التاريخ القديم « يوليوس قيصر » فهو أعلام

(١) من المحقق ، على اختلاف الظان ، أن النظام الدكتاتورى قام فى روما الجمهورية حوالي عام ٥٠١ قبل الميلاد وكان T. Larcius Rufus أول من حمل لقب دكتاتور ، وقد تركزت بين يديه جميع السلطات التشريعية والتنفيذية ليدفع عن روما غزو جيوش القاطعات المتاخمة لها .

شأناً وأبعدهم صيتاً ، وفى التاريخ الحديث تدير الكلام حول « كرامويل » باعتبار أنه أول دكتاتور فى هذا التاريخ ، لننتقل بعد ذلك الى جبابرة الثورة الفرنسية وعتاتها ، مقدمين من المسرحيات أنفسها قيمة فنية وأدبية ، ثم نذيل هنا بمسرحية كتبها الدكتاتور « بنتو موسوليني» عن الدكتاتور الامبراطور « نابليون بونابرت » الى غير ذلك

يوليوس قيصر ، وشكسبير

صاغ شكسبير هذه المسرحية حوالى عام ١٦٠١ ، أى فى عهد الملكة اليصابات ، عهد الملكية المطلقة فى انجلترا . وإننا نتجاوز عن ذكر مفاتن هذه المسرحية من ناحية أنها تعالج مأساة ذهنية عصفت برأس (بروتس) من أجل مثل عليا يريد تحقيقها ، ومن حيث أنها درس فى الأخلاق أبان أحسن ابانة عن أن الخير لا يأتى عن طريق الشر ، كما نعبر سراعا بما أورده المؤلف خاصا بانهيار الجمهورية فى روما وقيام القيصرية ، وكيف تفشل جهود الأحرار العاملين على ابقاء جمهورية صورية أمام رغبة الشعب وإرادة الزمان

نتجاوز عن كل هذا لنطالع وجهة نظر شكسبير فى الدكتاتور الفاتح العظيم ...

من العجيب أن نرى شكسبير ينظر الى (قيصر) نظرة لا تتفق فحسب وما أورده لسانه من خير وإعجاب بهذا الرجل فى رواياته الأخرى بل انها تختلف أيضا عما سجله التاريخ والأخبار عنه من سمات العظمة النفسية والنبوغ الحربى

لقد رسمه شكسبير من زاوية نظر جديدة تبين عن صغار (قيصر) لا عن عظمته ، وتكشف عن هنات الشخصية لا عن مميزاته الرفيعة ، وتبرز خيلاءه وغطرسته بل تألهه فى مخاطبة الناس . لقد حرص على أن يقدمه متجرداً من البساطة الفنية ومن العزمات المادثات النافذات ، ومن الشجاعة التى لا تعلن عن نفسها . هو مقسم بين الخوف والخيلاء ، خوف من أن يظن الناس فيه أنه يخاف ، فهو يبالغ فى إظهار شجاعته بالكلام ، وهو مؤمن بالخرافات ، وله أذن مشدودة الى سماع عبارات الاطراء والزلفى . بل ان شكسبير لم يتورع عن الاشارة الى مواطن الضعف والقصور الجسدى فى خلقة الدكتاتور البطل . وهكذا نرى قيصراً يبدو متعثراً فى (عقد نفسية) تجعل منه كائنا يتجلى فيه (مركب النقص) على أروع حال ! !

والآن نتساءل : لم أراد شكسبير أن يرسم قيصر على هذه الصورة ؟!

وهل تعمد اظهار هذا الجانب الضعيف من شخصية البطل العظيم حتى يستقيم الغرض من مسرحيته (١) ، أو انه أتى كل هذا ليرسم لنا قيصراً متعثراً فى ضعفه ، وهو ضعف منيت به الانسانية

(١) فى هنا يقول الناقد الكبير « هدسون » : « ان سياقة هذه المسرحية ، لكى تهدف الى غرضها ، تقضى بأن يصور قيصر على ما أراده شكسبير ، وهو تصوير قد يخالف التاريخ ولكنه إنسانى صميم ، منه

عامة ، ليقربه إلى أذهاننا على حقيقته العادية ، بعد أن جرده من كل مايصله بالعبقرية المتفردة التى قد تشارف الكمال الانسانى فى شخصية القائد والزعيم ؟؟

قد يكون هناك شىء من هذا وذاك ، ولكن مما لا شك فيه أن شكسبير قوم شخصية (قيصر) على النحو الذى أراده باعتبار أن قيصر هذا كائن انسانى له جانب التحول والضعف مهما سمت به مواهبه وأكبرته عظائمه . ومثل هذا الكائن مغلوب ولا شك على أمره . معها حباه الحظ بالسلطة المطلقة بين يديه ، معها أوتى الحكم بلا منازع ولا مراجع ، ومعها كانت عفته واصالة رأيه ، لأن السلطة الواسعة من شأنها أن تولد أسباب العداوات ، وتفتن صاحبها من حيث يريد ولا يريد ، وتورطه فى الخطأ بعد الخطأ ، وفى هذا سخرية ! !

أوليفر كرامويل وفيكتور هيجو

ونجد بين ما خلفه (هوجو) من المسرحيات[1] واحدة تعالج حياة وجه من وجوه التاريخ الانجليزى ، لعب دوراً خطيراً فى انجلترا ، إذ أطاح برأس مليكه بعد أن تزعم الثورة وحاز لقب (الحامى) Protector وأتاه السلطان من كل جانب وتربع على قمة كل سلطة مع وجود البرلمان ، وهو صاحب هذه القولة العجيبة « إن البرلمان فى حقيبتى والملك فى جيبى » ذلك هو أوليفر كرامويل[2]

وهوجو من مريدى شكسبير وتلامذته وحامل لوائه الأول فى الأدب الفرنسى ، نهج نهجه من حيث الصيغة الشكلية والخروج على وحدة الزمان والمكان ، والأخذ بمبدأ الانتقال بين السمو والوضاعة ، والجد والسخرية فى معالجة الموضوع وتصوير الشخصيات . فلم يكن عجيباً ، وهو المتبع لا المبتدع ، أن يستلهم أيضاً من أستاذه وجهة نظره فى معالجة بعض الشخصيات التاريخية

لهذا ، نلمح فى العين التى طالع بها هوجو شخصية كرامويل ، ومضات باهتة من نظرات عين العبقرى شكسبير ، بل تكاد زاويتا النظر تكونان من درجة واحدة مع الفارق البين فى العمق والنفاذ إلى بواطن السرائر ، والقدرة على التصوير والتحليل النفسى التى هى من مميزات شكسبير

لم يقدم لنا (كرامويل) كما أجمعت المصادر التاريخية على تصويره ، بل طلعنا بكائن انسانى فيه قليل من هذا وفيه كثير من غير هذا ، كائن معقد ، متعدد النواحى ، هو مجموعة أخلاط

الصورة التى تتراءى فى عيون المتآمرين عليه ، ويجب أن يراها القارىء كما تتراءى فى عيونهم

وهناك آراء أخرى لنفر من كبار النقاد تدور حول هذه الظاهرة العجيبة فى تقويم شخصية قيصر على هذا النحو ، نتجاوز عن ذكرها لضيق المقام

(١) أهمها « الملك يلهو » و « هرنانى » و « ماريون دى لورم » و « روى بلاس »

(٢) « أوليفر كرامول » . . (١٥٩٩ ــ ١٦٥٨) حامى النظام الدستورى فى انجلترا وزعيم الثورة التى أطاحت برأس الملك شارل الأول وقد أثارت حياته وأعماله الكثير من اهتمام المؤرخين فوقفوا مواقف حائرة من شخصيته التى جمعت من المتناقضات أغربها

متناقضة ، فهو المرائى ، وهو المؤمن بالخرافات ، وهو المتعصب ، وهو الذى يحاور ضميره ويخالطه ، وكأنما بالمؤلف يضرب على الأوتار الخفية لشخصية هذا الرجل فى حياته الداخلية

ان هوجو يعرى الدكتاتور الانجليزى من وشاحه الذهب وينزع عنه شارات البطولة ليرده رجلا عادياً ، وكأنى به يقول : « هذا هو كرامويل الذى يعيش مع نفسه » بل كأنى به يريد أن يصيح أن هؤلاء العتاه ، مع قيام السلطان بين أيديهم ، لا يستطيعون أن يقيموا على أنفسهم سلطاناً من الرجولة العفيفة الفاضلة التى قد يؤتاها شخص مغمور لا سلطان له ولا قدر بين أصحاب الجاه والمال . إنها لسخرية بعيدة وكفى ! ! !

نابليون وبرنارد شو

ويندفع (برنارد شو) الكاتب الأنجليزى اللاذع فى مضمار هذه السخرية ممتطياً ظهر الدكتاتور والامبراطور العظيم « نابليون بونابرت » فاذا هو يصوره لنا فى مسرحية (رجل القدر) شخصاً موزعاً بين الخرافات والتنبؤات ، يعصف به الخوف وتنتابه الهواجس

قد يكون هذا هو بونابرت الرجل فى أحد وجوه انسانيته ، ولكنه من غير شك هو غير بونابرت مقتحم جسر (أركولا) وبطل (أوسترلتز)

وقد نتساءل : كيف تأتى أن برنارد شو تعمد زاوية النظر هذه فى تصوير بونابرت ، ولماذا لم يجنح إلى غيرها ، ليصور العاهل الفرنسى فى وجه من وجوه عظمته وبطولته ؟

والجواب على ما نعتقد فى متناول القارىء . . إن فى هؤلاء الدكتاتوريين جانباً يغرى الكاتب الحر البعيد النظر بأن يستخرج منه فكاهة وسخرية ، وأن يقول : « ما كان أجدر بصاحب السلطان أن يصلح من أمر نفسه قبل أن يشرع سلطانه على المجتمع والتاريخ »

ويبدو لى أن فى وجهة النظر هذه ما يراود أكثر كتاب المسرحية على الأخذ بها ، والأمثلة كثيرة ، فها هو الكاتب المسرحى المعاصر (سان جورج ـ دى بوهليه) قد صاغ مسرحية من لويس الرابع عشر سماها (الملك الشمس) قدم فيها الملك الفرنسى صاحب الكلمة المأثورة (الدولة هى أنا) فى مدارج خور وضعف جسمانى ، إن صح للقارىء أن يستخرج منها نتفاً من مظاهر عظمة ، وذلك فى معالجة الأمور الصغيرة وفوضى البلاط وارتباكات العائلة ، فقد يطالع من ورائها دلائل ضعف وحيرة واضطراب قد تكون غير جديرة بملك عظيم يعتبر فخراً لفرنسا

وقف المؤلف الفرنسى من ملكه الفرنسى ، هذا الموقف الذى يتهم صاحبه بالمروق فى القومية ، لو لم يكن فرنسيا صاحب قدر فى المجتمع الفرنسى المعاصر

دكتاتوريو الثورة الفرنسية

وتذهب هذه السخرية إلى أبعد من هذا لدى الكاتب الفرنسى (رومان رولان) الذى يحاول

بمسرحياته أن يجعل من الثورة الفرنسية ملحمة انسانية صاخبة تؤرخ أكبر حادث فى التاريخ الحديث . فى مسرحياته (١٤ يوليو) و (دانتون) و (الذئاب) و (لهو الحب والموت) ترى شخصيات جبابرة الثورة وأصحاب السلطان المطلق فيها فى موكب تعلو راياته تطاول من السماء .

ترى كلا منهم يلعب دوره ثم يسقط تحت المقصلة التى نصبها لسابقه فى السلطة المطلقة ، فاذا هو لحظة فى ظل « الكبيتول » ينيه فى جبروته وفى عظمته ، ثم هو بعد لحظة أخرى فى قاع صخرة « ترابيا » جثة هامدة . أى مصرع قاس أليم لحياة قصيرة مفعمة بجلائل الأحداث ! ! وما هذه النار التى تلتهم موقديها ؟

يقرر « رومان رولان » أن الثورة تأكل رجالها وأن القوة الساحقة تمحق رجالها فى النهاية

وبدورنا نرى أن الثورة انما هى الا فورة من فورات الزمان يطلقها فى ساعة يحلو له فيها القطع والبتر وقلب الأوضاع وإرسال الأعاصير ، فهى والحالة هذه من الزمان أمر طارىء يزول سريعاً ، لتعقبه فترات طويلة من الهدوء والاستقرار والاعتدال والاتساق فى العناصر . ومن المعلوم أن كل ما هو طارىء وسريع وصاخب ومتطرف وخارج على شرعة الاتساق مقضى عليه ، وسرعان ما يزول ، ولا يبقى منه الا آثار ترسم التطاول والتعاظم والتبطل ، وهذه كلها عناصر للسخرية فى أكمل معانيها

الدكتاتور (Le Dictateur !)

وإلى القارىء مسرحية تعالج الدكتاتورية من جانب آخر ، لعلها من أطرف ما كتب عن موضوعنا حتى اليوم

فى عام ١٩٢٦ أصدر الكاتب المسرحى الفرنسى الكبير « جول رومان » مسرحية جعل اسم الدكتاتور عنواناً لها ، أثارت حولها ضجة كبيرة لأن مسرح الكوميدى فرنسيز بباريس — وهو المسرح الحكومى — اعتذر عن قبولها مع اعترافه بنفاستها الفنية والأدبية ، بدعوى أن فى المسرحية وعنوانها ما قد يثير لغطا فى الأحزاب السياسية الفرنسية المختلفة النزعات . فكان أن قدمها المخرج الكبير « لويس جوفيه » على مسرح « الشانزليزيه » بباريس بنجاح كبير ، وتقبلها النقاد والجمهور فى صمت وتأمل ، وذلك لأن موضوعها فى لبابه لم يعرض لحياة شخص من الدكتاتوريين ، قدامى أو محدثين ، ولم يسف إلى أن يكون قذفاً فى سياسة حزب من الأحزاب ، ديمقراطية كانت أو ذات نزعة فاشية . هى ليست بالمسرحية التاريخية ، وإنما قد تكون قصة للتاريخ نفسه ، إذ هو الوحى والملهم كتابتها

لم يحاول مؤلف هذه المسرحية أن يستخرج الفكاهة والسخرية بطريق معالجة نقص خلق فى شخصية دكتاتور ما ، ولكنه عرض فى خطوط إجمالية مركزة لما يزخر به المجتمع من آراء وعوامل وانفعالات ازاء النظم الحكومية القائمة قبيل هذه الحرب

بطل المسرحية رئيس حكومة ما ، وله رسوخ فى الاصلاح الاجتماعى يخالطه عرق ينبض بالثورة على كل وضع اجتماعى فاسد ، فهو متبرم بنظام الحكم الذى بين يديه ، يعمل على تبديل أوضاعه . ولكن يحدث ، بعد أن يتمرس بأزمات طارئة وأحداث وهو فى كرسي الرياسة ، أن ينقلب مدافعاً عن هذا النظام الحكومى القائم ، يذود عنه فى عزم شديد ، معلياً كلمته فوق كل صوت ، جازما فى الأمور بلا تردد ، ضارباً على أيدى المتراخين والمتشائمين من أصحابه وأعدائه

ويجرى هذا التطور على بطل المسرحية فى منطق سليم يؤازره عمق فى التحليل والتقويم النفسى ، وتظاهره قدرة على رد مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية الى حقائق فلسفية وسنن كونية . وسرعان ما يبدو غرض المسرحية واضحاً خلال مشاهدها التى تقدم صوراً من المأساة التى يكابدها رئيس حكومة خاضعة فى تكوينها للنظام الديموقراطى

والغرض الذى يرمى اليه المؤلف يتلخص فى أنه لا غنى لكل أمة عن أن يتولى شؤونها زعيم فى معناه الكامل ، يكون للزعامة الحكومية والفكرية والسياسية من غير قنوط أو تراخ ، يصرف أمورها فى حزم شديد وجزم ، دون أن يبالى بالاختلافات الحزبية والنزوات الشخصية

فكأننا بالمؤلف يلوح بأن فساد أى نظام من أنظمة الحكم انما يرجع الى ضعف القائمين به والمسيطرين عليه أكثر مما يرجع الى النظام نفسه ، واصلاح هذه الحال انما يكون أولا باختيار أصلح من يقوم على هذا النظام ويصرف أموره ، لا بتقويض النظام واستبداله بغيره ، بكون بأن يحس القائم عليه بأنه الرأس المحرك ، فيكون الزعيم أولا وأخيراً فى كل شىء ، من غير أن ينحرف عن طبيعة نظام الحكم نفسه ، أيا كان هذا النظام ، وعليه فلنحذر قلب الأوضاع القائمة قبل أن نراجع أنفسنا ومن يهيمن عليها

وبهذا يكون المؤلف قد نال من النزعة الفاشية التى كانت متغلغلة فى بعض الأحزاب الفرنسية قبيل الحرب الحاضرة ، وكانت تنادى بقيام حكومة أوطوقراطية على أنقاض الجمهورية الفرنسية ، بعد أن فسد نظامها الديموقراطى بفساد القائمين عليه . وبهذا يكون المؤلف أيضاً قد ناهض الحكم الدكتاتورى بسلاح أحد من سلاح التشهير بأبطاله

نابليون وموسولينى

وفى عام ١٩٣٥ أصدر الدكتاتور « موسولينى » مسرحية عن الدكتاتور والامبراطور (بونابرت) سماها (المائة يوم) قدم فيها حاكم فرنسا المطلق بعض ثورتها للحرية والمساواة والاخاء ، قدمه أثناء المائة يوم التى بدأت بأسره فى جزيرة « البا » وانتهت بهزيمته فى معركة (واترلو) ثم أسره الأخير

والرواية طريفة من حيث أن كاتبها فيه الكثير من طباع المكتوب عنه ، فهما يكادان يكونان — على الفارق فى النبوغ — من معدن واحد . وقد انتقد موسولينى فى مسرحيته هذه نظام الحكم

الديموقراطى وصورعيوبه ، وسجل احتقاره « بونابرت » له فى عبارات قاطعة أجراها على لسانه ، ولم يتورع عن أن ينتزع عن « بونابرت » رعويته الفرنسية وينسبها الى ايطاليا ، باعتبار أن كورسكا مسقط رأسه من أعمال الامبراطورية الرومانية التى كان يحلم موسولينى بتشييدها

وهذه المسرحية ، على ما بها من دقة فى التصور والتصوير ، لا يمكن أن تنزهها عن التشيع والدعاية ، وهاتان صفتان ينزعان عنها طابع الصدق والاعتدال ، والحكم الصائب

***

وما دمنا فى ذكر هذا النوع من المسرحيات المتهمة ، فانا نقول ان هنالك عشرات منها ظهرت فى السنوات الأخيرة ، بعضها يمالىء أنظمة قائمة أو يناهضها ، يدعو لها أو يخفض من شأنها ، ومثل هذه الروايات لا يؤبه لها فى عالم الادب والفن الخالص الذى يجب أن يتنزه عن النزعات الشخصية والمناحرات القومية

بعد هذا يتضح لنا موقف المسرحية من الديكتاتوريين صريحاً لا يقبل التأويل . وقد يقف الذهن مفكراً من هذا الموقف متسائلا عن أسبابه ، لاسيما وأن من بين هؤلاء الدكتاتوريين من هو جدير بالاعتبار والتعظيم ، على ما قد يكون به من نقص أو هنات قلما يتنزه عنها الانسان ! !

زكى طليمات

على أثر سقوط موسولينى

(بقية المنشور على صفحة ٥١٠)

الاجتماعية . فكان رجال السياسة مهما ساءت نيتهم يظهرون فى لباس من الاخلاق جميل ، حتى يرضوا هذه العاطفة الكامنة فى الشعوب . فما كان أحدهم يجسر أن يقول كذباً صراحة أو يلتوى وينافق بوقاحة وبلا عذر . حتى جاء مشعوذو هذه الايام من الحكام بأمرهم فصار الكذب مبدأ وطريقاً للسير . وصارت المجاهرة بقول فى ساحة علنية ، والعمل على خلافه فى غرفة ضيقة مظلمة قاعدة يفتخر بها . وصار الكذب أسلوباً لا يخجل منه . فهل تعيش مبادىء مثل هذه ؟ انها قد تغزو بعض العقول الضعيفة بعض الوقت . وقد يظن أنها فازت ونالت من خصومها فى بعض الاحايين . ثم تنظر فاذا بها وبأصحابها فى الحضيض

وانا لا نزال ننتظر اليوم الذى تقدر فيه البشرية الرئيس ولسن حق قدره

فقد ظلم الرجل وكان قومه أكبر ظالميه لأنه جاءهم قبل الاوان

وهكذا فعل الناس بالانبياء من قبل

« س ... ج »

العالم يتكلم لغة واحدة

للأستاذ نقولا حداد

وردت في ٢٨ يونيو سنة ١٩٤٣ برقية بأن الحلفاء يدرسون مشروعا لجعل اللغة الانكليزية لغة العالم ، ووسيلة الاتصال الدولي والتفاهم بين الشعوب

ذلك أن التفاهم بين جميع الامم يقتضي أن تجعل له لغة واحدة ، والا بقي تعدد لغاته معرقلا ومناقضا للمبادىء الاقتصادية

لماذا تعددت اللغات

لولا وقاحة قبائل نوح التي أقامت في أرض شنعار مدينة وبرجا رأسه في السماء لكي يصنعوا لانفسهم اسما ولكيلا يتبددوا على وجه الارض، لبقيت للجنس البشري لغة واحدة كما كان ، لان الرب لما علم بعزم قبائل نوح هذا قال : « هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم • وهذا ابتداؤهم بالعمل . والآن لا يمتنع عنهم كل ما ينوون أن يعملوا . هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض . فبددهم الرب من هناك عن كل وجه الارض . فكفوا عن بنيان المدينة لذلك دعى اسمها بابل » (انظر الاصحاح الحادي عشر من سفر التكوين في التوراة)

فبحسب هذه الاسطورة كانت جسارة بني نوح في أن يتطاولوا الى السماء ، ويطلعوا على أسرارها بواسطة برج رأسه في السماء ، سبب بلبلة ألسنة البشر وتشتتهم في الارض، كما أن أكل حواء وآدم من ثمرة معرفة الخير والشر في عدن ، هوى بالجنس البشري من الفردوس الى الارض

ومفاد هذه الاسطورة أن القبائل تشتتت لان لغتهم تنوعت . ولكن الحقيقة الاجتماعية والانتولوجية تناقض هذه الاسطورة ، فان اللغات تنوعت لان القبائل تشتتت ، ولم يكن الاتصال بينها سهلا كما هو الآن . ولو حدث هذا اليوم ، وجميع وسائل الاتصال موفورة متيسرة ، لبقيت لغتها واحدة على الرغم من تشتتها وتفرقها ، لان التباعد المكاني لم يبق سببا لانقطاع الصلات بين الشعوب كما كان في قديم الزمان ، ولان وسائل الاتصال لم تعد تعبأ بالمسافات ، فاللاسلكي والراديو والسينما والطباعة والطائرات جعلت جميع الشعوب كأنهم متجمعون في أرض شنعار كما اجتمع بنو نوح . فيجب اذن أن يكون لهم لسان واحد ، والا فلا انتفاع لهم من هذا التقارب • ولا داعي الآن للبحث في هل يجب أن

يكون للعالم الآن لغة واحدة أو لا ، فهذا الموضوع أصبح مفروغا منه ، وصار موضوع البحث « اية اللغات ينبغي أن تكون لغة العالم ؟ »

اللغات العالمية

ان الشعور بوجوب تعميم لغة واحدة لجميع الامم المتحضرة قديم منذ شرعت الامم القوية تنشيء امبراطوريات . والامر الطبيعي هو أن لغة الامة الفاتحة تتغلب على لغة الامة المفتوحة ، الا اذا كانت الفاتحة أحط حضارة من المفتوحة كما حدث حين غزت أمة القوط مملكة رومه

فمنذ زمن اسكندر الكبير كانت اللغة اليونانية منتشرة في البلاد المحيطة بشرقي البحر المتوسط الى حدود فارس والى مصر أيضا . ثم نافستها اللغة اللاتينية بقدر اتساع الامبراطورية الرومانية ، فكانت لغة العالم المتمدن في مدة حياة هذه الامبراطورية وبعد حياتها بزمن طويل . وبقيت لغة الكنيسة الكاثوليكية حتى اليوم

ثم فشت اللغة العربية مع الفتح الاسلامي ، فانتشرت في كل ما يحيط بالبحر المتوسط . وبقيت لغة العالم المتمدن الى أن شرع الغرب ينهض من كبوته في القرون الوسطى المظلمة

ولم تزل اللاتينية الى اليوم المورد العذب للغة العلم والسياسة والتشريع ، لانه كلما احتاج العلماء والساسة والمشترعون الى لفظ لمعنى مستجد رجعوا الى اللاتينية يشتقون منها اللفظ المراد ، ولا سيما لان لغات أوربا متفرعة منها ومن اليونانية أيضا

ولعل استعمالها في هذه الوجوه كان سبب طلاوتها ، أو أن طلاوتها كانت سبب استعمالها في هذه الوجوه . أو لعل كلا الامرين معا كانا بالتناوب سببا تارة ونتيجة أخرى ، أي أنهما تعاونا في انتشارها وطلاوتها

وكانت في عصرها أليق اللغات للتعميم والانتشار وخير وسط للعلم لما فيها من مزايا موموقة . فهي وجيزة العبارة أي أن التعبير بها عن المعنى وجيز يطابق للمعنى ويخلو من اللبس . واللفظ فيها صريح ، والنطق واضح والتهجئة مطابقة للفظ . ولم يكن فيها من عيب سوى أن قواعدها النحوية معقدة

وكانت لسان رجال الحرب والقضاء والمحامين والخطباء . وبالاجمال كانت أداة التعبير العملي . وقلما كانت لغة العواطف والشعر والادب ، حتى قيل انها لغة الذكور لا لغة الاناث . ثم ماتت على تمادي الزمان ، فلم تبق لغة الكلام ، ولكنها بقيت لغة القلم الى عهد غير بعيد ، وهي الى اليوم لغة الفاتيكان كما يقال

وخلفت اللاتينية اللغة الفرنسية ولا سيما في السياسة الدولية حتى غدت لغة السياسة الرسمية في القرن الماضي الى اليوم . وكانت للرسالات الدينية الكاثوليكية اليد الطولى في انتشارها في كل مكان يقوم فيه نفوذ فرنسا

ثم قامت الانكليزية تزاحمها في مضمار الشيوع حتى غلبتها اذ أصبح المتكلمون بها أكثر

عددا من متكلمي أية لغة أخرى ، وصارت في القرن الاخير لغة المعاملات التجارية ونحوها . ويمكنك أن تقول انه ما من بلد في الدنيا خلا من أفراد أو جماعات يتكلمونها . وربما كانت لهذا السبب أحق من غيرها بالتعميم

اللغة المنشودة

على أن انتشار اللغة وكثرة المتكلمين بها لا يحل مشكلة اختيار لغة واحدة للعالم . بل لا بد أن يكون للغة ، الى جانب مزية ذيوعها ، مزايا أخرى تجعلها صالحة للتعميم أو أصلح من سواها له ، كسهولة التعبير وسهولة الحفظ والمرونة والوضوح الى غير ذلك من الاعتبارات ناهيك عن رضى جميع الامم بها لغة عالمية . وهذا الاعتبار الاخير هو العقدة العسيرة الحل ، لان هناك لغات كثيرة ذات مزايا كمزايا الانكليزية جديرة مثلها بالتعميم كالفرنسية والالمانية والروسية والعربية حتى الصينية واليابانية اذا كانت المسألة مسألة عدد متكلمين . فكل واحدة من هذه اللغات تعرض صدرها وتتقدم لتتولى السيادة اللغوية على العالم

ولعل الحلفاء ــ وكلهم تقريبا أصحاب اللغة الانكليزية ــ يريدون أن يفرضوا لغتهم فرضا على الامم متى تم لهم النصر . فهذا الفرض الالزامي لا يضمن سيادتها الا بقدر ما تقتضيه مصالح الامم الاضطرارية . ولذلك لا بد أن تبقى لغات أخرى تزاحمها . وقد تفقد هذه السيادة بتطور الحوادث

وفي اللغة الانكليزية عيوب تقف في سبيل تعميمها بل تنفر منها . فمع أن نحوها بسيط قليل التعقيد الا أن عيبها الاكبر في قبول الذاكرة لمفرداتها . عليك أن تحفظ في حافظتك لكل كلمة معناها ونطقها وتهجئتها ، لانه ليس بين النطق والتهجئة تطابق ، وليس ثمة قاعدة لقراءتها ، فعلى القارىء أن يعود الى المعجم في قراءة كل لفظة لم يسمعها من قبل حتى ولو كان ابن اللغة نفسها . وهذه صعوبة عظيمة في حفظها يعرفها ذوو اللغة انفسهم . ولهذا لا تجد معجما للانكليزية خاليا من ضبط النطق لكل كلمة الى جنبها . ولضبط النطق شبه نماذج في أسفل كل صفحة . وكان تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة في العقد الاول من هذا القرن قد اقترح أن تهمل التهجئة الجارية ، وأن تقوم مقامها التهجئة الضابطة لها . فلم يعبأ الجمهور باقتراحه

في اختيار الانكليزية لغة عالمية منفعة لاهلها فقط ، اذ يعفيهم من تعلم لغات أخرى لقضاء المعاملات الاجنبية . ولكن أكثر سكان الكرة الارضية يضطر الى أن يتعلم الانكليزية الى جانب لغته الوطنية ، ومع ذلك لا يستطيع أن يتقنها قراءة وكتابة مهما عانى في دراستها واحتمل عناء صعوبتها

كل هذه الاسباب تقضي بأن تكون لغة العالم لغة جديدة ليست من لغاته الحالية ، فاولا لا يبقى وجه لتنافس اللغات في احراز هذه السيادة ، ولا داعي للغيرة والحسد بين

ذوى اللغات الاخرى . وثانيا لكى يمكن أن تكون اللغة الجديدة خالية من كل صعوبة فى التعبير والنطق والتهجئة . وثالثا يمكن أن تكون صريحة فى التعبير لا التباس فيها ولا ابهام . ورابعا أن تكون لائقة للتعبير عن كل معنى وفكر طرأ على العقل البشرى أو سيطرا عليه من غير صعوبة فى الفهم ، أى أن تكون مرنة مطاوعة لنحت الالفاظ الجديدة للمعانى الجديدة

وقد تصدى غير واحد لوضع لغة تستوفى هذه الشروط بحيث يكون لكل معنى لفظ خاص به ، ولكل لفظة معنى واحد خاص بها . أى أن تكون الالفاظ على قدر المعانى لا تزيد ولا تنقص ولا يكون ثمة ألفاظ غير لازمة ولا معان محرومة من ألفاظ ، وأن تكون الالفاظ سهلة النطق ، والتهجئة والنطق متطابقين ، فاذا عرف الشخص نطق كل حرف استطاع أن يقرأ ويلفظ صحيحا من تلقاء نفسه ، واستطاع أن يكتب ما يسمع من غير أن يخطىء فى التهجئة ، وأن تكون قواعد النحو أبسط ما يمكن أن تكون وخالية من الشواذ والاستثناء ونحو ذلك

الاسبرانتو : مزاياها وذيوعها

ويقال انه وضع نحو ٢٠٠ اسلوب للغة كهذه فلم يشتهر منها الا لغتان : لغة فولابوك Volapuk ولغة اسبيرنتو Esperanto

اخترع لغة فولابوك المطران النمساوى ف. شلير Rev. F. Schleyer سنة ١٨٨٠ . وقد انتقى نحو ٤٠ بالمائة من ألفاظها من اللغة الانكليزية والباقى من اللغات الاخرى . واما قواعد الصرف والاعراب التى اصطنعها لها أفسدت ألفاظها فابعدتها عن أصولها . ولكن نجحت هذه اللغة فى أول الامر الى أن بلغ متعلموها نحو مليون شخص ، حتى أنه كان لها فى ذلك الزمن أنصار وطلاب فى بيروت يدرسونها ويقرأونها . وقد عقد لها ثلاثة مؤتمرات لتنقيحها الى أن تغير اسمها أخيرا هكذا Idium Neutral

ثم ظهرت الاسبيرنتو سنة ١٨٨٧ فحازت الاسبقية ، وبقيت الى الآن على سنة تنازع البقاء وبقاء الانسب

اخترع الاسبيرنتو الدكتور ل. ل. زامنهوف L.L. Zamenhof واليك بعض ما قالته فيها دائرة المعارف البريطانية فى طبعة سنة ١٩٢٩ : « هى لغة محايدة ، أى أنها لا تنتمى الى شعب أو أمة . شعوبية فى عناصرها ، أى أنها مأخوذة من مختلف اللغات . منطقية فى نظامها وقواعد صرفها ونحوها وتركيب ألفاظها . رنانة اللفظ لطيفته . يمكن أن تحفظ نحوها فى نصف ساعة . لا شواذ فى قواعدها . والتهجئة مطابقة للفظ . وقاموسها صغير (مستوف) مع ذلك لها طبيعة الادب الجميل ، والضبط والدقة فى التعبير ، مرنة مطواعة، قابلة للنمو والتوسع حسب ما يستجد من التصورات والمعانى والاغراض والاشياء « الى سنة ١٩٢٩ (سنة صدور الدائرة) كان فيها ٤٠٠ مؤلف أو مترجم ومنها التوراة .

وانتشر الادب فيها بسرعة . الى ذلك الحين كانت مائة مجلة وجريدة تصدر فيها بانتظام « نشرت عصبة الامم مذكرة عنها مستخرجة من التقارير التي وردت اليها من جميع انحاء العالم عن انتشارها وتعليمها في المدارس . كانت غرفة باريس التجارية ومجلس كونتي اف لندن يعلمان الاسبرنتو في مدارسهما التجارية . وغرفة لندن التجارية كانت تمتحن الطلاب بالاسبرنتو

« في سنة ١٩٢٥ اعترف الاتحاد التلغرافي بالاسبرنتو كلغة رسمية واضحة Cleaning language أي كان يقبل رسائل تلغرافية بها . وفي سنة ١٩٢٧ أوصى اتحاد الراديو الدولي محطات الاذاعة أن تقبل الاذاعات بها . وفي ذلك العام كانت ٤٤ محطة تستعملها

« الى عام ١٩٢٩ عقد لها عشرون مؤتمرا سنويا كان يحضرها بين ألف وأربعة آلاف عضو

« في سنة ١٩٠٧ أصدر كوتورات وبوفررت تنقيحا للاسبرنتو دعواه الاسبرنتو المبسطة باسم ايدو Ido أي « المولود » بحيث صارت ذات بناء علمي ووضع طبيعي . فحذفا منها الحروف التي تختلف فيها نبرات الصوت واصلحا بعض النعوت والظروف وغير ذلك مما يلتبس بالاسماء . وتصدى آخرون لزيادة التنقيح فيها »

تصور لغة سهلة كهذه منتشرة في كل العالم بحيث انك حيثما ذهبت وجدت الناس يفهمونك وتفهمهم بغير عناء . ولست مضطرا الى أن تتعلم غير هذه اللغة الى جنب لغتك لكي تفهم العالم كله . تصور انك لست مضطرا الى أن تتعلم الانكليزية لكي تطوف في انكلترا واميركا ولا الفرنسية لكي تسوح في فرنسا ولا الالمانية لكي تجول في المانيا . تصور انك لست مضطرا أن تتعلم لغات اجنبية عديدة لكي تتلقف العلم من ينابيعه — تصور كم تكون حينئذ المعاملات ميسرة والحياة سهلة قليلة المشاق !

هذا التصور يحفزك الى تأييد هذا المشروع الجليل الذي أصبح لازما للعالم لزوم الهلم له . وقد يكون من جملة اسباب تثبيت قواعد السلام العام

نقولا حداد



بشائر العبقرية في الطفولة

العباقرة قلائل ، ولكن العبقرية كثيرة . ذلك أن كثيرا ممن أوتوا ملكات الذكاء والنبوغ ، لم تتح لهم الفرصة الملائمة لابداء مواهبهم وتنميتها واستثمارها . ومرجع الخطأ في هذا ، في غالب الامر ، الى الآباء والمربين الذين يعجزون عن تبين سمات العبقرية في أبنائهم وتلاميذهم ، فيهملون ملكاتهم تذبل وتذوى ، بدلا من أن يتعهدوها بما يذكيها وينميها

ولهذا كان من واجب الآباء والمربين والمدرسين أن يدرسوا العظماء والعباقرة في أدوار حياتهم الاولى ، ليتبينوا ما امتازت به من بشائر العبقرية وبوادرها . فاذا وجدوا ما يشبهها في أبنائهم وتلاميذهم عنوا بتوجيههم الى حيث تؤتى ملكاتهم ثمارها

والواقع أن العبقرية ، وان كانت غير محدودة ولا مفهومة ، الا أن لها بشائر تبدو في سن الطفولة . وأغلب من أنجب العالم من عظماء وعظيمات يتشابهون تشابها كبيرا في حياتهم الاولى من حيث الميول ، والنشاط ، والقراءة ، والثقافة ، والانتاج ، واختيار الاصدقاء والمعارف ، والحياة المدرسية

وقد رأت « كاترين موريس كوكس » في فصل من فصول كتابها عن العبقرية أن تعرض هذه السمات التي تبشر بالعبقرية في سن الطفولة كما تبدت في نفر من عظماء العالم رجالا ونساء

١ ــ اسحق نيوتون : مكتشف نظرية الجاذبية الذى تقدر قوته العقلية بمائة وسبعين درجة (بالقياس الى القوة العقلية المتوسطة وقدرها مائة درجة) ، كان يميل منذ سنيه الاولى الى دراسة المسائل الميكانيكية والى صنع بعض الآلات ، فصنع ساعة مائية، وطاحونة هوائية ، وعربة ذات محرك يسيرها . وكان صبيا هادئا ، ينصرف أكثر وقته الى القراءة والدراسة ، وكذلك كان يقرض الشعر . وقد نظم لاقرانه الصبيان بعض الالعاب التى ابتكرها . أما فى مدرسته فكان تلميذا عاديا ، بل كان فى بعض الاحيان متأخرا عن أقرانه، لانه كان منصرفا الى قراءاته وميوله الخاصة . ولكن نفورا وقع بينه وبين أحد زملائه دفعه الى أن يجد ليتفوق عليه ، وكانت النتيجة أن تفوق على جميع تلاميذ المدرسة بعد أن بذل فى ذلك مجهودا شاقا . وكان نيوتون يؤثر صداقة البنات على صداقة الصبيان ، وقد أحب وهو فى سن الرابعة عشرة صبية صغيرة ، وأراد أن يتزوجها حينذاك

٢ ــ جون ستوارت ميل : الفيلسوف الاقتصادى ، الذى بلغت قوته العقلية رقما قياسيا اذ قدرت بمائة وتسعين درجة . بدأ دراسة اللغة الاغريقية وهو فى سن الثالثة ، ثم راح يتعلم اللغة اللاتينية وما زال فى الثامنة . وكان يبدو أنضج وأعقل من أقرانه فى السن ، فلم يكن يصاحب الا من يكبرونه سنا . وكان يناقش أباه كل يوم ، وما زال فى الثانية

عشرة من عمره ، فى مسائل المنطق والفلسفة . وبعد ذلك بعام واحد درس مقررا كاملا فى مادة الاقتصاد السياسى . وأعجب من ذلك كله أن تاريخ روما الذى كتبه وله من العمر ست سنوات فحسب يعد من الكتب المعتمدة فى هذا الموضوع . بل انه استطاع قبل ذلك بسنة ، أى عند ما كان فى الخامسة ، أن يتحدث الى ليدى سبنسر زوج وزير البحرية حينذاك مقارنا بين مارلبرو وولنجتون فى منطق مرتب وتفكير بديع . ولكن أقوى ملكات الصبى بدت فى دراسة المنطق ، وفى مقدرته على نقد الأسس التى يقوم عليها علم الجبر

٣ ـ موزار الموسيقى : الذى بلغت قوته العقلية مائة وخمسا وخمسين درجة . طبعت أول أعماله الموسيقية قبل أن يجاوز سبعة أعوام . وعند ما كان فى العاشرة أنشأ قصة بديعة عن مملكة خيالية يتولى فيها منصب الملك . وقد أخرجت أولى أوبراته وهو فى سن الرابعة عشرة ونالت نجاحا باهرا . وبدأ فى هذه السن يطوف عواصم أوربا ويعزف فى دور الاوبرا الكبرى بها ، فيقر له أساتذة الموسيقى ونقادها بالتفوق والنبوغ . بل ان المجامع العلمية فى انجلترا شغلت بأمره منذ كان طفلا ، فقد ألف أربعا من أغانيه واحدى سيمفونياته وهو فى سن الثامنة

٤ ـ لونجفلو الشاعر : الذى يقال انه كان يتذوق الغناء والموسيقى وله من العمر ثمانية اشهر . وكان فى طفولته تلميذا نابها ، فكان فى سن السابعة يتفوق فى دروسه وتفكيره على من بلغوا من العمر خمسة عشر عاما . وكان يؤثر القراءة على الالعاب الرياضية ، وقد طبعت أولى قصائده وما زال فى الرابعة عشرة . وكان له جمع من الاصدقاء ولكنه كان يؤثر بمودته من يشاركونه الرغبة فى الانصراف الى القراءة والدراسة . وكان يكره السياسة كرها شديدا منذ صباه ، وكذلك أبدى فى فترة من الوقت كرهه للدين . وقد وجد مشقة فى أثناء دراسته الجامعية فى فهم المسائل الرياضية الدقيقة ، ولكن موهبته الفذة فى انشاء النثر والشعر كفلت له التفوق على أقرانه فى الجامعة

٥ ـ والتر سكوت : الكاتب القصصى العظيم . دخل الجامعة وهو فى الرابعة عشرة ، ولكنه كان متأخرا فى أعماله المدرسية نظرا لاعتلال صحته من ناحية ، ولانتجاه ميله الى الادب من ناحية أخرى . على أنه أصاب حظا كبيرا من الثقافة ، صقل ذهنه وذوقه ، قبل أن يدخل المدرسة ويبدأ التعليم المنظم . ذلك أنه تعلم القراءة وما زال فى الثالثة . وتعلم اللاتينية والاغريقية فى سن مبكرة ، وترجم منهما فقرات دقيقة قبل أن يبلغ عامه الثانى عشر . وكان يؤثر العزلة ويحب مناظر الطبيعة . وقد استمر فى التعليم حتى سن التاسعة عشرة ، فنال اجازة القانون ، واشتغل بالمحاماة . ولكن ما كان يعانيه من « عقد النقص » أفسد عليه عمله هذا ، ولم يستطع أن يكتشف مواهبه الحقيقية الا بعد أن زار اسكوتلنده حيث وجد فى جبالها ومراعيها المادة الخصبة التى استقى منها قصصه الرائعة ، وتقدر قوة سكوت العقلية بمائة وخمس وخمسين درجة ، فهو فى هذا قرين الموسيقى موزار

٦ – جيمس وات : كان هذا المخترع المشهور معروفا بين مدرسيه وأقرانه بالغباوة . والظاهر انه كان منصرفا عن دروسه الى اشباع رغبته فى دراسة الرياضيات وحدها . فقد قرأ فى صباه كثيرا من الكتب المهمة فى الرياضة ، ولم يبلغ الخامسة عشرة حتى قرأ كل كتاب فيها وصلت اليه يده . وكان خير الطبع منذ طفولته ، فتمنى أن يكون جراحا لينقذ الانسانية بمبضعه مما تعانيه من آلام المرض . وكان معروفا بين الناس بشدة تمسكه بالصدق ، ولا يبالى فى ذلك بأن يعادى أى انسان . وكان الى هذا شديد الميل الى دراسة العلم ، كثير الصبر على ما تتطلبه هذه الدراسة من جهد ، وكان يقضى الساعات المتتالية يراقب اناء الشاى على النار وقد غلى فيه الماء وأخذ بخاره المتصاعد يرفع غطاءه ويخفضه . ولم تكن قوته العقلية فذة ، بل كانت تقدر بمائة وخمس واربعين درجة

٧ – جورج صاند : الكاتبة الفرنسية المشهورة . كانت منذ طفولتها المبكرة تميل الى التجارب العقلية الغريبة ، فأخذت حينذاك تمارس بعض أعمال السحر والشعوذة الملائمة لسنها . وكانت تكرس جهدها ووقتها الى القراءة ، والى نظم الشعر ، والى التجول فيما جاور بيتها من التلال والهضاب . وقد تعلمت المشى وهى فى شهرها العاشر ، وتعلمت القراءة فى سنتها الخامسة ، وعرفت الهجاء وهى فى سن الثامنة . وكانت عواطفها متجهة منذ البداية اتجاها دينيا . ولما بلغت سبعة عشر عاما كانت قد أصابت من الثقافة ما جعلها مستقلة فى تفكيرها ، كما صارت حينذاك مستقلة فى حياتها . وقد تزوجت وهى فى الثامنة عشرة . ولم يكن الحب هو الدافع فى هذا الزواج . ولما بلغت سبعة وعشرين عاما ، وكان لها حينذاك طفلان ، هجرت زوجها لتفرغ للكتابة والتفكير ، وكانت فى قوتها العقلية قرينة والتر سكوت ، وموزار ، أى تبلغ مائة وخمسا وخمسين درجة

٨ – مدام دى ستايل : وهذه الكاتبة الفرنسية الذائعة الصيت تفوق على زميلتها جورج صاند فى القوة العقلية بخمس درجات . وقد بدأت تظهر براعتها ولباقتها فى الحديث وما زالت طفلة فى سن الثامنة . ولما بلغت العاشرة أصرت على أن تتزوج من المؤرخ الانجليزى المشهور ادوارد جيبون ، وفاتحت أباها فى هذا فنهرها . وقد أخذت قواها الذهنية والعاطفية تنمو وتزكو سريعا بفضل قراءاتها المتصلة وبسبب صلاتها بنفر من الاصدقاء النابهين . ومع أن الجمال الجسمى كان ينقصها الا أنها عاشت طول حياتها محفوفة بالمحبين والمعجبين . ولما بلغت سن التاسعة عشرة أعلنت ان رغبتها فى الحياة أن تحب ، وأن تكون موضع الحب . ومع ذلك فقد تزوجت لا بدافع الحب ، بل « زواجا يمكنها من أن تستمتع بالحرية التى ينكرها الناس على المرأة »

٩ – توماس جيفرسون : ثالث من تولوا رئاسة جمهورية الولايات المتحدة الامريكية . حفظ جزءا كبيرا من الكتاب المقدس ولما يتعد سن الخامسة . ثم اكب على مكتبة أبيه الكبيرة ، فطالع جميع ما فيها من مؤلفات قبل أن يبلغ خمسة عشر عاما . ومع أنه كان صبيا

خجولا الا انه كان يمارس الالعاب الرياضية وينازل اقرانه فيها . وقد بدأ يدرس القانون فى سن التاسعة عشرة ، وبعد ثلاث سنوات اشتغل بالمحاماة فنجح فيها نجاحا كبيرا . وتقدر قوته العقلية بمائة وخمسين درجة ، وكانت رغبته فى الاطلاع والتفكير شديدة ، ومع ذلك كان يقضى شطرا من وقته فى الصيد وركوب الخيل

١٠ ـ فولتير : الكاتب الفرنسى الاشهر . أنشد الشعر وما زال طفلا ، ففى سن الثالثة حفظ قصيدة طويلة من نظم روسو . وكتب تراجيديا شعرية وما زال فى عامه الثانى عشر ، ولكنها لم ترقه فأحرق مسودتها . وقد تجلت مواهبه الادبية وهو فى طور الدراسة ، حتى كان يتفوق على كثير ممن يدرسون له مادة الادب واللغة . ولما بلغ السابعة عشرة أخذ يدرس القانون فى باريس ، حيث كان يحيا حياة ابيقورية ، فيعاقر الخمر ويلعب الميسر ، وينشىء شعرا اباحيا ، وفولتير من حيث القوة العقلية هو ثانى رجال هذه القائمة من العظماء ، اذ تبلغ مائة وثمانين درجة ، ولا يتفوق عليه سوى جون ستوارت بعشر درجات

١١ ـ ابراهام لنكولن : الزعيم الامريكى الذى ألغى الرق . أمضى طفولته وصباه منصرفا الى القراءة ، وكان مما قرأه فى بدء حياته الانجيل . وعند ما كان يتعذر عليه الحصول على كتب جديدة يمضى وقته فى قراءتها ، كان ينكب على قاموس اللغة يستظهر مفرداته . وكان تلميذا نابها مجدا ، وقد كتب فصولا امتازت بجدها وعمقها وما زال فى الرابعة عشرة من عمره . وكان معروفا بين اقرانه الطلاب باستقامة الفكر والخلق ، فكانوا يختارونه حكما يفصل بينهم فيما يجد من الخلاف . وكان بارزا بين اخوانه ومدرسيه لما عرف عنه من ذكاء ولباقة ، ومن براعة فى الحديث والرواية . ومع أنه كان رجل كتب وتفكير ، الا أنه كان خبيرا بشؤون الزراعة خبرة من يمارسها بيده ، وكانت ثقافته العامة واسعة شاملة ، وتقدر قوته العقلية بمائة واربعين درجة

١٢ ـ دانيال ويبستر : السياسى الامريكى العظيم . نشأ فى حجر أب مفكر فى أمور السياسة ، فكان فى سن الثامنة يحضر مجلسه ويستمع الى أحاديثه السياسية . وقد دخل المدرسة وهو فى عامه الثالث ، ولم يكن يتذكر الوقت الذى كان لا يعرف فيه كيف يقرأ الانجيل ، فكأنما ولد يعرف القراءة ! وقد اشترى وهو فى سن الثامنة منديلا كتبت عليه نصوص الدستور الامريكى بحروف دقيقة ، فقرأه واستظهره كله . وقد حفظ عن ظهر قلب فى يوم واحد قصيدة الشاعر الانجليزى بوب « مقال فى الانسان » وهى قصيدة طويلة جدا ، وكان حينذاك فى العاشرة من عمره . وكذلك قرأ فى عامه الخامس عشر قصة دون كيشوت مترجمة فى خمسة أجزاء ، وذلك فى جلسة واحدة لم يغير فيها مقعده . وكان ممتازا طول حياته بقوته العقلية الفذة ، وكان يؤثر العزلة والانفراد ، واذا أراد ان يتريض ركب جواده ساعة من الزمن ، أو جلس الى النهر يصطاد السمك

من قصص الحرب والسياسة

عقد الجوهر

بقلم الأستاذ طاهر الطناحي

هذه قصة من التاريخ الاسلامى تصور جانباً من الصراع بين الأمويين والعباسيين كما تصور الرياء السياسى فى حياة قائد بين دولتين سقطت إحداهما وقامت الأخرى ، فخلع رداء الأولى ، وانتظم فى الثانية ، ولكنه فى النهاية راح ضحية السياسة

وخرج معن بن زائدة من باب حرب ببغداد متنكراً ، مخافة القبض عليه ، وقد خفف عارضيه ولحيته وأحفى شاربه ، وتعرض للشمس حتى لوحت وجهه ، وتزيا بزى أعراب البادية ، وامتطى جملا ذلولا ليضرب به فى الصحراء ، ويقيم فى مجاهلها بعيداً عن نقمة أبى جعفر المنصور ، وفراراً من عيونه الذين يترقبونه ، ويجدون فى طلبه

وإنه بين اليأس والأمل ، وبين الخوف والحذر ، وقد هجع الليل وهدأ القوم وأخذ يتسلل فى رفق ، إذ طلع عليه رجل أسود متقلداً سيفاً ، فأهوى إلى خطام الجمل ، وتعلق به ، ثم أوقفه وأناخه فى تثاقل وجرأة ، فنظر اليه معن فى توجس وإشفاق ، وقال :

— مالك يا هذا . . ؟ !

فلم يجب الأسود ، وأسرع معن ليتنضى سيفه ، فعاجله الأسود وأمسك بيده ، وقال :

— أتريد قتلى ؟ ! . . .

فقال معن :

— ولماذا تنيخ بعيرى ، وتقبض على يدى ؟

فسكت الأسود سكوتاً ثقيلا ، فقال معن :

— دعنى فى سبيلى يرحمك الله ، فما أعرف بينى وبينك شيئاً

فنظر اليه الأسود فى هدوء ، وقال فى تهكم :

— ألست الرجل الذى يطلبه أمير المؤمنين المنصور ؟ !

— ومن أنا حتى يطلبنى أمير المؤمنين المنصور . . . فما أنا بملك أو أمير أو وزير ، ولا أراه يطلب رجلا مثلى لا خطر له ، ولا مطمع فيه ، وإنى لأعرابى غريب عن هذه الدار . . . !

— أتنكر يا هذا ، أولست معن بن زائدة صاحب يزيد بن هبيرة عامل الأمويين ، وعدو أمير المؤمنين بواسط ؟ . . . (١)

— يا هذا اتق الله .. فأين أنا من معن بن زائدة ، وأين هو من بغداد ، بل أين هو من العراق ، وقد فر أصحاب ابن هبيرة الى مصر والشام واليمن

— دع هذا عنك يا معن ، والله إنى لأعرف بك منك ...

وسكت معن بن زائدة ، وقد أيقن أن الرجل جد فى قوله . وأنه وقع فى يده ، ورأى أن لا حيلة له من الخلاص إلا إذا افتدى نفسه بأعز ما عنده ، فعمد الى رحله ، فانتزع منه عقداً من الجوهر النفيس ، وقال له :

— اليك هذا العقد ، فقد حملته معي وهو أعز شيء عندى ، ويفي بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاء بى اليه ، فخذه هدية منى ، ولا تسفك دمى يرحمك الله

فتناوله الأسود ، ونظر اليه ، وقلبه ملياً ، ثم قال :

— صدقت فى قيمته ، إنه لعقد نفيس ، لكنى لا أقبله حتى أسألك عن شيء ، فان صدقتنى أطلقتك

— سل ما تريد

— إن الناس قد وصفوك يا معن بالجود ، وامتدحوك بالعطاء الجزيل ، وضربوا الأمثال بشهامتك ، وأكبروا معروفك ونجدتك ، فأخبرنى : هل جدت بمالك كله ؟

فقال معن : « لا » . قال : « فبنصفه » فقال : « لا » قال : فبثلثه » فقال : « لا » قال : « فبربعه » فقال : « لا » حتى بلغ العشر ، فاستحيا معن ، وقال :

— أظن أنى فعلت ذلك ! . . .

فقال الأسود :

— ما أراك فعلته ، ولا أعلم أنك فعلته ، وما ذاك إن كنت فعلته بعظيم . . إنى والله لرجل فقير ولى عيال صغار ، ورزقى من أبى جعفر عشرون درهماً ، وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانير ، وهو الآن فى يدى ، وقد وهبته لك ، ووهبتك لنفسك ، لتعلم أن فى الدنيا من هو أكرم منك يداً ، وأسخى منك نفساً ، وأجمل منك معروفاً

ثم رمى بالعقد اليه ، وخلى سبيله ، وانصرف . . فناداه معن بن زائدة :

— يا هذا .. يا هذا .. أجبنى يرحمك الله .. من أنت يا أخى .. قد والله فضحتنى ، ولسفك دمى أهون عندى مما فعلت ، فخذ ما دفعته اليك ، فانى غنى عنه ، وأنت أحق به لنفسك وعيالك

فالتفت اليه الرجل ، وضحك فى استهزاء وقال :

---

(١) واسط مدينة بين دجلة والفرات

— أردت أن تكذبني فى مقالى هذا .. والله لا أقبله ، ولا آخذ ثمناً لمعروف أبداً
ومضى فى سبيله ..

***

كان معن بن زائدة من قواد الدولة الأموية ، وكان معروفاً بالشجاعة والكرم مشهوراً بالمروءة والنجدة وعلو الهمة ، وكان فى عهد مروان بن محمد متنقلا فى الولايات ثم اختص بصحبة يزيد بن هبيرة عامل الأمويين ، وأميرهم بالعراقين[1] ، وأبلى فى محاربة العباسيين بلاء حسناً . وكان أبو العباس السفاح قد وجه أخاه أبا جعفر الى مدينة واسط فى جيش لمحاربة ابن هبيرة ، فتحصن بها ، وجمع الجموع ، ونصب الجسور ، فلما كان يوم المعركة اختلف اليمانية والقيسية فى جيشه على القتال ، فقالت اليمانية :

— والله لا نقاتل على دعوة بنى أمية لسوء رأيهم فينا ، وبغضهم لنا ...

وقالت القيسية :

— والله لا نقاتل حتى يقاتل اليمانية ..!

وكفت القبيلتان عن القتال مع ابن هبيرة ، ولم يقاتل معه إلا صعاليك القوم وأهل العطاء ، فانهزم وفر كثير من أصحابه . فبعث الى أبى جعفر بالصلح ، فأجابه ، وأمنه ، واستدعاه لمقابلته ، فسار اليه فى ألف وثلثمائة رجل ، وكان يطوف بدار أبى جعفر عشرة آلاف رجل من أهل خراسان مشتملين بالسلاح ، وعيونهم تزهو من تحت المغافر

فلما دخل على أبى جعفر قال له :

— مرحباً بك أبا خالد ، انزل راشداً

ثم أجلسه على وسادة وضعت له وأكرمه وجعل يحدثه طويلا ، ثم نهض ابن هبيرة وركب ، وأتبعه أبو جعفر ببصره حتى انصرف

***

لم تكن هزيمة ابن هبيرة سنة ١٣٢ هـ بكافية للقضاء على سلطانه ، ولم تكن مصادرة أمواله وإعطائه الأمان بدافعة عنه المصير الذى كان يخفيه له أبو جعفر ، ويلح فيه أبو العباس السفاح ، ويغرى به أبو مسلم الخراسانى ، فقد كان أبو مسلم كثيراً ما كتب الى أبى العباس يقول :

« والله لا يصلح طريق سهل فيه حجارة إلا ضر ذلك بأهله . ولا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة وأصحابه »

وبعث أبو العباس إلى أبى جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة ، فماطله وأضجره ، فكتب اليه يقول :

— والله لتقتلنه ، أو لأبعثن اليك من يخرجه من عندك ، ويتولى ذلك عنك

(١) العراق يطلق على شاطىء النهر ، وسميت البلاد التى بين دجلة والفرات بالعراقين لأنها بين شاطئيهما

فرد عليه أبو جعفر « إنى لفاعل إن شاء الله » وأخذ يأمر بابن هبيرة فى مدينة واسط ، وكان ابن هبيرة إذا ركب اليه صحبه ثلثمائة فارس ، وخمسمائة راجل ، فدخل يزيد بن حاتم على أبى جعفر وقال له :

— أصلح الله الأمير ما ذهب من سلطان ابن هبيرة شىء !... يأتينا فى ركبه ، فيضعضع به العسكر

فنادى أبو جعفر أحد رجاله ، وقال له :

— قل لابن هبيرة لا يركب فى مثل هذه الجماعة إذا حضر إلى ، وليأت فى حاشيته

فذهب الرسول ، وقال له :

— ما هذه الجماعة التى تقبل معك ، كأنك تأتى إلى الأمير مباهياً ، أو كأنك تأتى مهدداً ..

فقال ابن هبيرة :

— ان أحببتم أن نمشى وحدنا فعلنا ، وإن شئتم أن نأتى على أقدامنا أتينا ، فنحن فى أمركم ، ولكن أن تفعلوا بنا ما تشاءون

فأجاب الرسول :

— ما نريد بك استخفافاً أبا خالد ، ولكن أهل العسكر إذا رأوا هذه الجماعة غمهم ذلك ، فأراد الأمير ألا يغضب القوم

فتوجس ابن هبيرة شراً ، وأخذ يحتال للخلاص من أسره والفرار من مصيره ، واجتمع رأى القوم على الغدر به وقتله ، وكان قواد أبى جعفر يدخلون عليه ويستعجلونه ، ويقولون ماذا ننتظر بهذا الأموى عدو أمير المؤمنين ؟.. هلا بعث اليه من يرحنا منه

فأرسل أبو جعفر الى الحسين بن قحطبة ، وخاطبه فى شأنه ، وطلب اليه ان يأتى برأسه ، فاعتذر الحسين ، وقال :

— ليس الرأى أن أتولى أنا ذلك ، ولكن ابعث اليه رجلا مضرياً من قومه ليقتله ، فتفرق كلمتهم ...

فقال أبو جعفر :

— صدقت .. وأصبت ، فمن الخير لنا أن تفتنهم بأنفسهم ، لا أن تفتنهم بنا .. !

ودعا ابو جعفر مائة رجل من المضرية ، وعلى رأسهم حازم بن خزيمة ، وبعث بهم الى ابن هبيرة ، وكان وقتئذ جالساً فى رحبة قصره ، وعليه قميص مصرى ، ومعه أبناؤه ومواليه ، وفى حجره طفل منهم صغير . ففاجأهم القوم فى المساء ، وهم يسمرون ويتضاحكون

فقالوا لابن هبيرة :

— إننا نريد حمل ما بقى عندك من الخزائن ...

— وهل أبقى أبو جعفر عندى فائضاً من المال تحملونه اليه ؟

— لقد علم الأمير أنك تدخر كثيراً ، فبعث بنا لنأتى بكل ما تدخر ..

— إنى لم أدخر شيئاً فوق ما أحتاج لنفسى وأبنائى ، فادخلوا وخذوا لأميركم ما تريدون ..

ودخل حازم وصحبه ، فطافوا فى حجر القصر وغرفه ساعة حملوا فيها ما حملوا ، وبعد ما توثقوا من كل شىء توجهوا نحو ابن هبيرة ، فنظر اليهم ، وقال :

— والله ان فى وجوه القوم لشراً ...

وانبرى اليهم حاجبه أبو عثمان فقال لهم :

— ما وراءكم أيها القوم بعد ما أخذتم ما أخذتم ، وحملتم ما حملتم ، أتريدون الغدر بمن أمنه أميركم ، وأقسم له الايمان ؟

فقالوا :

— تنح يا هذا فما كان لنا أن نغدر الا بمن غدر بنا . ولقد بلغ أبو جعفر أن صاحبك يتربص به ، ويعمل الفرار من وجهه بعد ما أمنه ، وأكرمه ..

وتقدم بعض القوم ، فاعترضهم أبو عثمان ، فنصحه أحدهم بسيفه ، فصرعه ، فقام داود ابنه فقاتلهم ، فتفرقوا عليه ، وقتلوه هو ومواليه ، ثم مضوا الى ابن هبيرة وقد شهروا سيوفهم ، فقال :

— ويحكم نحوا عنى هذا الصبى حتى لا يرى مصرعى ..

فنحوه عنه ، وخر ساجداً ، فقتلوه ... وأخذوا رأسه الى أبى جعفر ، فأمر برفعها على خشبة فى المدينة ، ومعه رؤوس غيره من عمال الأمويين

• • •

قتل ابن هبيرة ، وتفرق أصحابه فى البلاد ، وفر معن بن زائدة فيمن فر منهم ، وأخذ يتنقل بين البدو والحضر ، ضارباً فى الفلاة تارة ، متنكراً فى المدن تارة أخرى ، وظل كذلك حتى توفى أبو العباس وتولى الخلافة بعده أبو جعفر المنصور ، فجد فى طلبه لمكانته وخطره ، ووعد بعطاء جزيل لمن يأتى به أو برأسه ، إذ كان من سياسة العباسيين أن يقضوا على صناديد بنى أمية ، ورجال دولتهم أينما كانوا . وأيقن معن بمصيره المشئوم ، فتخفى وجد فى التخفى ، واحتال لذلك ما وسعته الحيلة

وكان قد نزل بغداد ، وأقام بها متنكراً ، فلما ضيقت عليه عيون أبى جعفر خرج فى جنح الليل من باب حرب ، وقد خفف عارضيه ولحيته ، وأحفى شاربه ، وتعرض للشمس حتى لوحت وجهه ، وتزيا بزي أعراب البادية ، وامتطى جملا ذلولا ، فلقيه رجل أسود من رجال أبى جعفر فأمسك به ، وأناخ بعيره ، فقدم له عقداً من الجوهر ليطلقه ، فرده اليه ، وأطلقه وقد وهبه لنفسه ولجوده ..

بقي معن ابن زائدة مختبئاً ، فاراً متخفياً ، ينتقل من مضرب الى مضرب ومن مذهب الى مذهب ، ويقيم في بلد حذراً متردداً ثم لا يلبث أن يرحل عنها خائفاً مترقباً ، حتى كان يوم الهاشية[1] من سنة ١٣٧ هـ فانتهز فرصة للخلاص من نقمة أبي جعفر ، والفوز برضاه وأمانه .

وكان الراوندية[2] في ذلك اليوم قد ثاروا في المدينة وصاروا يطوفون بقصر أبي جعفر ، ويقولون « هذا قصر ربنا » ، فحبس منهم المنصور مائتين ، فغضبوا ، وأتوا بنعش وحملوه وليس به أحد ، وطافوا بالمدينة حتى جاءوا الى باب السجن ، فرموا بالنعش ، وشدوا على الحراس ، فقتلوهم ، وأخرجوا منه أصحابهم ، فتنادى الناس بالمدينة ، وضجوا بها ، وتداعت الأصوات ، واستورى زناد الفتنة ، وحمي وطيس القتال

ونزل المنصور من قصره ، وركب دابة ، وقد اختلط القوم ، واشتبكت الجنود بالثائرين ، وهم بعض الراوندية بقتل المنصور ، فانبرى لهم رجل ملثم . وقاتلهم دونه قتالا شديداً . وصرع منهم كثيرين ، وانكشف القوم ، وهدأت المدينة ، فاستدعاه المنصور ، وقال له :

— من أنت لله أبوك ؟ . .

— أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة . . .

— أنت معن ؟ . .

— نعم يا أمير المؤمنين . ولقد ادخرت نفسي لمثل هذا اليوم ، ولو شاء أمير المؤمنين كنت في خدمته

— مثلك يدخر ويصطنع ، وقد أمنتك على نفسك ومالك

ثم اصطحبه معه أبو جعفر ، وخلع عليه وأكرمه . . .

وبعد أيام دعاه لمقابلته ، فحضر معن ، فقال له :

— يا معن ، إني سأعهد اليك في أمر ، فكيف تكون فيه ؟

— أكون كما يحب أمير المؤمنين ، وكما يكره أعداؤه ...

— إني قد وليتك اليمن ، فابسط السيف فيهم ما شئت حتى تنفض حلف ربيعة واليمن وتشتت شمل أعدائي ، وأعداء بني العباس

— أبلغ من ذلك ما يريد أمير المؤمنين

وذهب الى اليمن ، وتولى أمره ، وقتل وأسرف . . . !

***

(١) الهاشمية مدينة بالعراق بناها ابو العباس السفاح لتكون عاصمة للخلافة بدل الأنبار والكوفة

(٢) الراوندية قوم من غلاة الدعوة العباسية قالو بتناسخ الارواح ، وزعموا ان أبا جعفر ربهم ، وان الهيثم بن معاوية جبرائيل

وكان لمعن بن زائدة شاعر قد اختص بمدحه ، وأغدق عليه العطايا ، هو مروان بن أبي حفصة ، فلما تولى اليمن نظم قصيدة نونية تحدث فيها عن نجدته وشهامته وشجاعته وكرمه ، فبلغ المنصور أمر هذه القصيدة ، فلما وفد معن على أبي جعفر بعدها ، قال له :

— قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء لولا مكانك عنده ، ورأيه فيك لغضب عليك

— وماذا يا أمير المؤمنين ، فوالله ما تعرضت لنقمتك ، ولا اقترفت مخالفتك ، وما أظن أنني أتيت أمراً يغضبك

— بل سمعت أنك أعطيت مروان بن أبي حفصة ألف دينار لقوله :

معن بن زائدة الذى زيدت به شرفاً على شرف بنو شيبان
إن عد أيام الفعال فانما يوماه يوم ندى ويوم طعان

فقال معن :

— والله يا أمير المؤمنين ما أعطيته ما بلغك لهذا الشعر ، بل أعطيته لقوله :

ما زلت يوم الهاشية معلناً بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهند وسنان

فابتسم المنصور ، وقال :

— لله درك يا ابن زائدة ، انما أعطيته لهذا القول ؟! . . .

— نعم يا أمير المؤمنين . ولولا مخافة النقمة عندك ، لأمكنته من مفاتيح بيوت المال ، وأبحته إياها

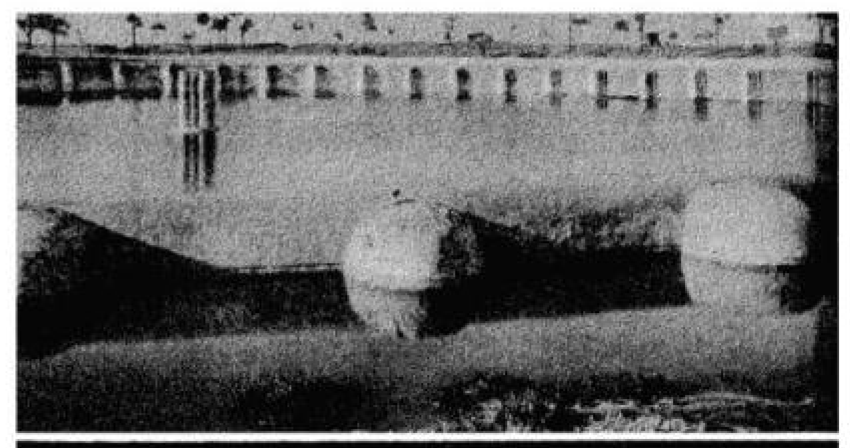
— ما أهون عليك يا معن ما يعز على الرجال

— ذلك من فضل أمير المؤمنين ..!

***

ظل معن بن زائدة فى طاعة العباسيين وخدمتهم ، وقد وثقوا به ، وتنقل فى الولايات ، وكان فى أواخر أمره والياً لسجستان ، وكان الخوارج يبغضونه لخذلانه لهم ، فبينما كان فى أحد أيام سنة ١٥٢ هـ دعا بعض الصناع ليعملوا له عملا فى داره فاندس بينهم بعض الخوارج ، ففاجأوه وهو يحتجم وقتلوه

طاهر الطناحى



فسقية الأغالبة بالقيروان ، وهى عبارة عن صهريج كبير تتجمع فيه المياه العذبة ليشرب منها أهل القيروان

الفن الإسلامي في تونس

بقلم الاستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

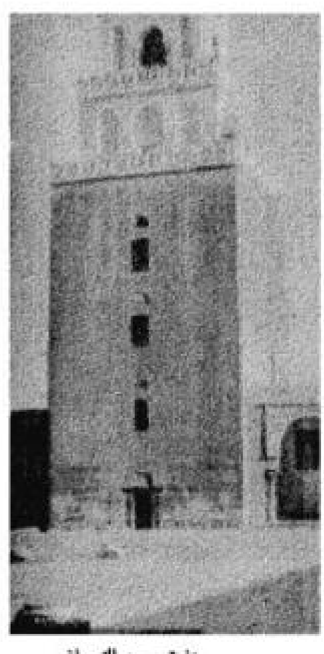
الأمين المساعد بدار الآثار العربية

لعل من حسنات هذه الحرب — وللحرب حسنات — أنها تجرى على أسماعنا وألسنتنا أسماء بلاد قلما تخطر لنا على بال فتذكرنا بها ، وتدفعنا الى التفكير فيها والاهتمام بجغرافيتها وتاريخها . وبلاد تونس من تلك البلاد التي حملتنا الحرب على أن نعنى بأمرها اليوم على الرغم من وجود الاسباب المختلفة التي كانت تحملنا على هذه العناية من قبل . فإن ما بيننا وبينها من روابط اللغة والدين والعادات ، فان أوجه التشابه بيننا وبينهم كثيرة ، فكلانا له ماض مجيد قبل الاسلام ، وكلانا له شأن عظيم في الاسلام ، وكلانا خضع للحكم التركي فترة من الزمان ، وكلانا قاسى من مساوىء الاحتلال أشكالا وألوانا

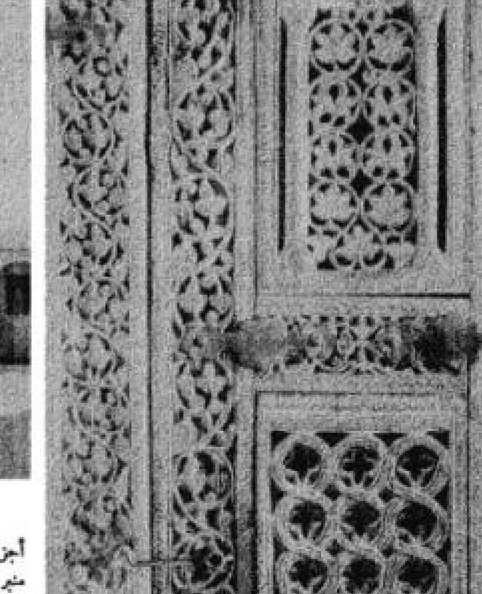
ولقد تقلب الفن الاسلامي في تونس في أدوار مختلفة سنلخصها فيما يلي ، تأثر فيها بمؤثرات شتى ، وخرج منها وله شخصية واضحة لا يخطئها مؤرخو الفن

الدور الاول (٢٧ — ١٨٤ هـ)

كانت تونس ولاية رومانية فتحها المسلمون سنة سبع وعشرين بعد الهجرة بأمر الخليفة عثمان بن عفان ، ثم أعادوا فتحها أيام الخليفة الاموى معاوية بن أبي سفيان على يدى عقبة بن نافع الذى خطط مدينة القيروان أقدم العواصم الاسلامية في ذلك القطر ، وأقام في وسطها مسجده الشهير



مئذنة مسجد القيروان

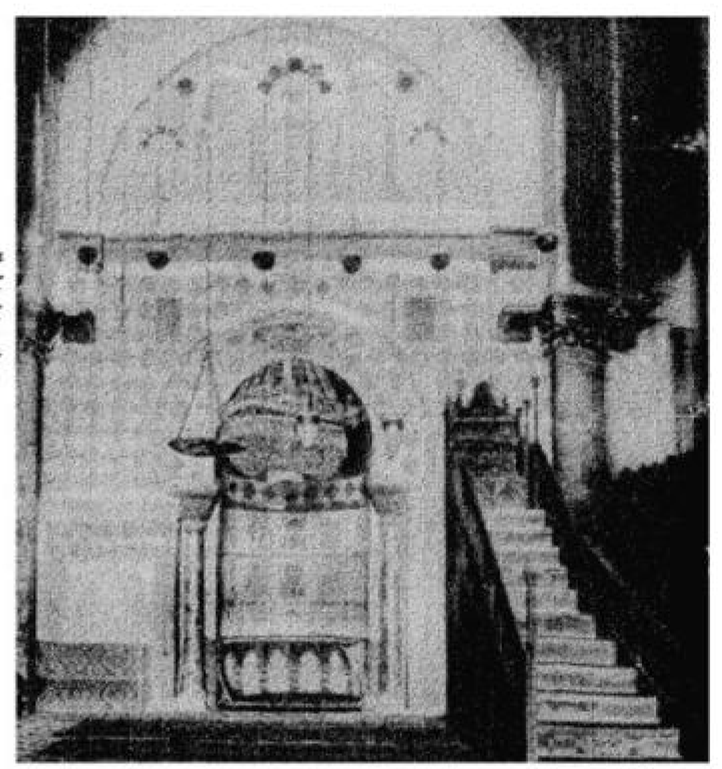


أجزاء من زخرفة
منبر مسجد القيروان

الذى لم يكن عند تشييده أكثر من بناء غاية فى السذاجة ، يتفق مع ما كان عليه المسلمون فى ذلك الحين من البساطة

وخرجت تونس من جديد من يد المسلمين ، ثم استرجعوها أيام عبد الملك بن مروان بواسطة قائده حسان بن النعمان الغسانى الذى قضى على شوكة البربر ــ سكان البلاد الاصليين ــ والروم ، ودمر مدينة قرطاجنة عاصمة البلاد ، وأقام بالقرب منها قرية صغيرة بها قاعدة بحرية يحتمى فيها المسلمون من مباغتة الروم لهم ، وشيدوا بها دار الصناعة لبناء السفن ، مستعينا فى ذلك بألف من مهرة الصناع الاقباط الذين جلبوا من مصر لهذا الغرض . ومنذ ذلك الوقت بدأ نجم هذه المدينة الصغيرة فى الصعود ، وعرفت باسم تونس ، وخطط فيها ابن الحبحاب ــ أحد عمال بنى أمية ــ مسجد الزيتونة سنة ١١٤ هـ

واذا كان مسجد عقبة بالقيروان قد اكتسب نوعا من التقديس لدى مسلمى المغرب جميعا بسبب بناء عقبة بن نافع أحد صحابة الرسول صلوات الله وسلامه عليه له ، والذى كان كما يقول «البلاذرى» رجلا صالحا مستجاب الدعوة ، فان مسجد الزيتونة قد اكتسب صفة أخرى لازمته ولا تزال تلازمه حتى اليوم ، هى صفة الجامعة ، فأصبح كالجامع الازهر عندنا



محراب مسجد القيروان ، تحفة منقطعة النظير من تحف الفن الاسلامى ، يتجلى الجمال الفنى بأروع صوره فى تجويفه وواجهته

الدور الثانى (١٨٤ ـ ٢٩٦ هـ)

حكم البلاد فى هذا الدور أمراء بنى الاغلب ، فسطروا فى تاريخها صفحات ذهبية تشع من بين سطورها آيات المجد والعظمة ، وارتقوا بها درجة عالية من التقدم الذى تنطق بها تلك الآثار التى خلفوها وراءهم ، والتى تكشف عن مدى ما بلغوه من الخبرة الواسعة بطرق البناء والتصميم ، وتشهد بسمو الذوق الفنى عندهم ، ويكفى أن نذكر أن أجمل ما فى تونس اليوم من الآثار الاسلامية اما ردوا اليه الحياة فى أجمل صورها، واما أنشأوه وتفننوا فى انشائه ما شاء لهم خيالهم الفنى الخصب، فمسجد عقبة بالقيروان قد خرج من سذاجته القديمة ولبس على أيديهم حلة رائعة من الجمال ، وهو فى تخطيطه يتكون من صحن مكشوف يحيط به من جوانبه الاربعة مجنبات مسقوفة أكبرها ما كان جهة القبلة ، وأهم ما يسترعى النظر فيه أمور ثلاثة مئذنته ومحرابه ومنبره . أما المئذنة فهى أقدم ما فى المسجد ، وأقدم ما وصل الينا من المآذن ، شكلها مربع ويتجلى فيها أثر العمارة الاموية واضحا ، ولا عجب فقد أنشئت بأمر الخليفة الاموى هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ هـ ، واتخذت مثالا يحتذى فى بناء الصوامع فى مساجد بلاد المغرب والاندلس . وأما المحراب فتحفة منقطعة النظير من تحف

الفن الاسلامى . يتجلى الجمال الفنى بأروع صوره فى تجويفه وواجهته ، فيزدان التجويف بحشوات من الرخام يخالها الانسان قطعا من النسيج تفنن ناسجها فى صنعها فزينها بالتخريم بأشكال شتى تنم عن البراعة ، وقد أوجد من خلفها فراغ حتى تظهر نقوشها المخرمة ، ولسنا بسبيل هنا للدخول فى النقاش القائم حول تأريخ هذا المحراب هل هو من أيام عقبة بن نافع وأضيفت اليه تلك الحشوات الرخامية فيما بعد أم هو بتجويفه وحشواته من عهد الاغالبة ؟ ويزين واجهته تربيعات من الخزف ذى البريق المعدنى عليها زخارف هندسية ونباتية مختلفة ، وتبدو للناظر كأنها قلقة فى موضعها يعوزها الانسجام مع ما يحيط بها ، والواقع كذلك فقد صنعت فى بغداد لكى تزين جدران أحد قصور الاغالبة فى تونس ، ولكنها وجدت طريقها الى محراب المسجد الجامع ، فاستقرت على جدار محرابه . ويعد منبر هذا الجامع من أجمل ما أخرجه رجال الفن من المسلمين

وأسبغ الاغالبة على مسجد الزيتونة بتونس أثواب الجمال الفنى بعد أن جددوه ، وهو فى تصميمه يشبه بصفة عامة مسجد القيروان ولكنه أصغر منه حجما . ولصلاة الجمعة فيه مظاهر لم أشاهدها فى أى بلد اسلامى آخر : ذلك أنها تؤدى على مرتين مرة عند الظهر فى مثل الوقت الذى تؤدى فيه عندنا ، ومرة قبل صلاة العصر بنحو ساعة ، ومنبره يختلف عن المنابر الاخرى اذ به عجلات صغيرة تجرى على قضيبين من حديد ينتهيان الى غرفة صغيرة مجاورة للمحراب حيث يحفظ المنبر ولا يخرج الا يوم الجمعة . وقبيل الصلاة يخرج الامام من غرفته فى موكب صغير يسير أمامه فيه خدم المسجد فى نظام وتؤدة حتى ينتهى الى مكانه فى المحراب ، فاذا حان وقت الصلاة انتقل الى المنبر فى نفس النظام السابق ، فاذا انتهى من الخطبة نزل الى المحراب ليؤم الناس فى الصلاة ، وتخلف عن موكبه خادمان يدفعان بالمنبر المتحرك الى غرفته لتلتئم صفوف المصلين

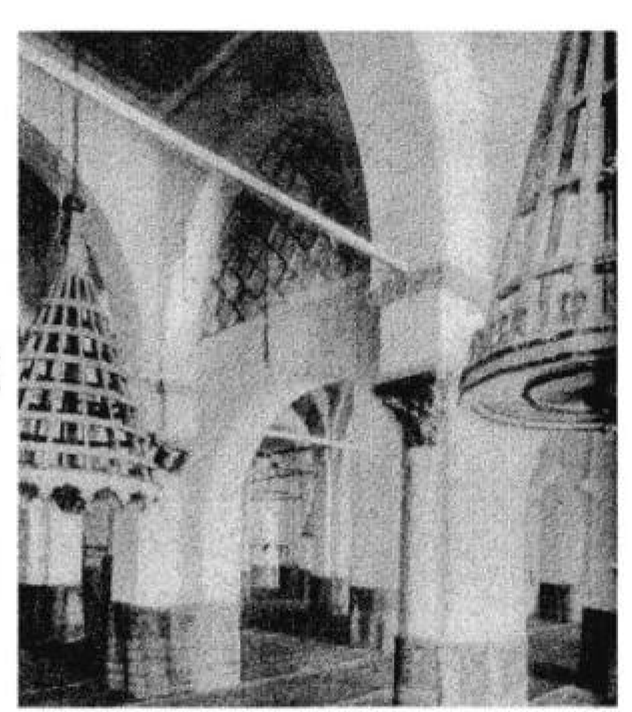
ولم تقف عناية الاغالبة عند حد تجديد هذين المسجدين العظيمين ، ولكنها تعدتهما الى منشآت أخرى كثيرة ، من أهمها المسجد الجامع بسوسه ومسجد ابى فتاته ، وأسوار المدن الساحلية التى لا تزال بقاياها فى مدينتى سوسه وسفاقس ، ثم رباط سوسه أو قصر الرباط كما يسمى هناك ، الذى يعد من أحسن أمثلة الاربطة فى العمارة الاسلامية . والرباط من ابتداع المسلمين ، أوجدوه لكى يكون مسكنا لاولئك الذين وقفوا أنفسهم على الدفاع عن بلادهم والجهاد فى سبيل الله ضد أعداء الاسلام ، أو ليكون مقرا لمن تفرغوا للعبادة ، فيدفعون بدعائهم البلاء عن البلاد

ولعل خير ما نختم به هذا الدور هو ذلك الماجل العظيم الذى أنشأه الاغالبة بالقيروان ، والذى يعرف بـ (فسقية الاغالبة) وهو صهريج كبير مستدير الشكل ، قطره ١٥٠ مترا ، تتجمع فيه المياه العذبة ليشرب منها أهل القيروان

الدور الثالث (٢٩٧ ـ ٣٦٢هـ)

شهدت تونس فى هذا الدور قيام الدولة الفاطمية التى اعتمدت فى تكوينها على البربر سكان البلاد الاصليين ، ولم تكن تونس فى الحقيقة فى نظر الفواطم الا همزة الوصل للاستيلاء على مصر ، تلك البلاد التى كانوا يمدون أبصارهم اليها من أول الامر ، ويتوقون الى الانتفاع بخيراتها وبموقعها الجغرافى فى نشر مذهبهم الدينى ، وخير ما يذكرنا بعهد الفاطميين فى تونس هو مدينة المهدية التى يدل تأسيسها على ما كان لاسلافنا المسلمين من بعد النظر فى اختيار مواضع المدن ، فهذا أبو عبيد الله الملقب بالمهدى مؤسس الدولة الفاطمية ما كاد يستقر به المقام فى افريقية حتى رغب فى تأسيس مدينة منيعة يتحصن فيها من أعدائه ، فخرج يرتاد ساحل البحر ، فوجد ـ على حد وصف ابن الاثير ـ

المسجد الجامع بسوسة من الداخل تحت القبة الأولى



جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند فبنى فيها مدينته ، وخلع عليها اسمه ، وجعلها دارا لملكه ، واتخذ من ساحلها ميناء بحريا كأحسن وأمنع ما تكون الموانىء ، حفره في الصخر بعرض سبعة وخمسين مترا وطول ستة وعشرين ومائة متر ، وجعله بحيث يكفي لإيواء ثلاثين سفينة . وبعد أن انتهى من تخطيط مدينته ، أنشأ مسجدها الجامع الذي كانت واجهته مبعث الوحي للمهندس الذي أشرف على انشاء مسجد الحاكم بأمر الله في القاهرة

الدور الرابع (٣٦٢ – ٩٨١ هـ)

وغادر المعز لدين الله الخليفة الفاطمي الرابع تونس الى مصر ، وعهد بحكمها الى أسرة بني زيري من قبيلة صنهاجة البربرية ، ومن أشهر رجالها المعز بن باديس الذي وصلت البلاد في عهده الى درجة عظيمة في الحضارة المادية ، فتقدمت الزراعة وارتقت الصناعة ، واشتهرت تونس بمنسوجاتها الحريرية والصوفية وأوانيها الزجاجية وسلعها الخزفية وطنافسها الجميلة ومصنوعاتها المعدنية والخشبية . ولم يصل الينا من هذه الأشياء الا القليل النادر . نذكر منها التنور النحاسي المعلق بمسجد القيروان والذي يحمل اسم المعز بن باديس ، ثم باب مكتبة ذلك المسجد ، ومقصورته وهي جميعا تنطق ببراعة تونسيي ذلك العصر

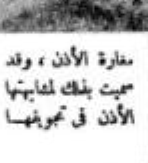
وخلع المعز بن باديس طاعة الفاطميين ، وتوجه بولائه الى الخلفاء العباسيين في بغداد ، وانتقم

(البقية على صفحة ٥٩٠)



جزيرة البساتين ، والبراكين والآثار

بقلم الأستاذ راشد رستم



مغارة الأذن ، وقد سميت بذلك لمشابهتها الأذن فى تجويفها

هذا المسجد ما يزال قائماً فى بالرمو

اذا لم تنزل الى (صقلية) قادما من أفريقيا كما قدم منها الخلفاء ، فقد تنزل اليها بالقطار يحملك من روما الى نهاية الشط الايطالى حيث تجد زورقا بخاريا كبيرا يدخل اليه القطار بعرباته وركابه ، يعبر بهم جميعا البوغاز الضيق عند (مسينا) فى نصف ساعة ، حتى اذا وصل الى شط الجزيرة خرج منها ثانية الى البر بالراكبين الى حيث يشاءون من انحاء الجزيرة الواسعة العجيبة

أما جنوب ايطاليا (كالابريا) فهى بلاد قاحلة ، تربتها ناصعة البياض ، أهلها فقراء ، أغلبهم حفاة ، على أنهم برغم ذلك مضيافون كرماء ـ يتلقون الوفود فى قراهم بالموسيقى والطبل والاحتشاد وأغصان الزيتون ، ثم بخطب الترحيب ثم بتقديم الشاى أو الشربات ـ وكل ذلك فى حال تشعرك ، لولا السحنة واللغة والهندام ، بأنك فى بعض ريف مصر حيث السماحة والراحة والبحبحة ...

وقد جئنا الى هذه المناطق ثلاثة زملاء فى وفد رسمى مصرى ينعقد فى روما للزيت والزيتون يرأسه مدير قسم البساتين (المرحوم محمود سليمان اباظه) ينضم اليه ممثل من السلك الخارجى فى روما (حسن بك مختار رسمى وكيل المالية الآن) ينضم اليهما ممثل

زراع الزيتون بمصر . وقضينا نحن الثلاثة أيام المؤتمر الثلاثة فى روما العظيمة وهى بلدة لا تزار الا للآثار . ثم قام المؤتمر برحلة رسمية عملية زار فيها أعضاؤه جميعا مناطق زراعة الزيتون فى الجنوب

أما المؤتمر فقد كان عجبا ، فمع أن مادته هى الزيت والزيتون ، أى السهولة والسلام ، فقد كان مؤتمرا صاخبا فى جلساته وفى جولاته ــ خطب حماسية واشارات وصياح وتصفيق والموضوع هو هو الزيت والزيتون . وهكذا تسمع جعجعة ولا ترى زيتا . .

ولاول مرة فى المؤتمرات كانت للوفود الحرية فى استعمال لغاتها . ومن يريد أن يفهم من الاعضاء الآخرين أن يسأل من المترجمين الرسميين فيما يشاء . . واذا كنت فى روما فافعل مثل ما يفعل أهل روما . هكذا قيل قديما . ولكن ما هو القول حديثا ؟ . .

***

فاذا صرت فى جزيرة صقلية رأيت خرافات كنت قد تركتها وراءك فى الشط الايطالى ، ولكنها تبسط هناء ثم تزداد تمكينا ويقينا ، وترى وسط شظف العيش مباهج للحياة تزداد كذلك بين القوم ظهورا وتنظيما ، حتى اذا عاشرتهم قليلا تبينت فقرا وقناعة وهدوءا

وأهم مدن الجزيرة يقع على سواحلها. وهى مدن قديمة بآثارها الرومانية ولكنها حديثة بتنظيماتها السياحية . وهذه (توارمينا) الجميلة ، حيث كان مركز قيادة المحور ، ذات مناظر بحرية ساحلية بديعة ، وذات آثار كثيرة ، يطل عليها من بعد بركان (اتنا) العظيم ــ تراه رابضا فى سكون ورهبة ، يخرج من جوفه لهيب وردى خفيف يصعد دائما باستمرار ، هو بالليل أوضح منه بالنهار ، وكأنه الدليل القائم على وجود البركان ، يحيط الثلج قوهته طول العام من كل الجهات ، فيزيد بياضه البللورى من لهيبه الوردى هيبة وجلالا

وجيران البركان من فقراء السكان يصنعون من حممه المسنون تماثيل ذات اتقان وابداع ورحم الله حافظ ابراهيم حين يثور البركان ويحدث الزلزال سنة ١٩٠٨ ويهلك السكان ، فيثور الشاعر بدوره على البركان وللسكان ويقول :

فاكتبوا فى سماء (ردجو) و (مسيـ ـنا) و (كلابريا) بكل لسان
ها هنا مصرع الصناعة والتصو ير والحذق والحجا والاغانى
خسفت ، ثم أغرقت ، ثم بادت قضى الامر كله فى ثوان

***

فاذا كنت فى (بالرمو) عاصمة الجزيرة رأيت ثغرا آهلا عامرا ، هو فى عيشة راضية ، ورأيت المدينة قد أبقت للعرب بعض آثارهم ــ فهذا مسجد لا يزال قائما ، تجاوره كنيسة وصومعة ، تراه بمئذنته المربعة وقبابه الحمراء الجميلة ، تقرأ على جدرانه الداخلية بعض الخطوط العربية على الرغم مما ملأ صحنه من رمال الاهمال

أما (قطانية) فهى بلدة فسيحة الرحبات ، ذات سوق وحركة ، غنية بحدائقها وجناتها جميلة بنات حواتها ، وكأنهن لا عمل لهن ، فتراهن يخطرن كثيرا فى الطرقات بهندام قومى بهيج الاوضاع والالوان .. ولعل ابن حديس لم يخطىء حين قال :

ذكرت صقلية والهوى يهيج فى النفس تذكارها
فان كنت أخرجت من جنة فانى أحدث أخبارها

وفى السهول المحيطة بقطانية مشاتل البساتين ذات الشهرة العالية فى دنيا الزهر والنبات حيث يعمل رجال فنيون ماهرون لاستنبات أجود بذور الازهار وفسائل مختلف الاشجار للفاكهة أو للزينة أو للاستثمار ، يستحضرونها من مختلف مناطق البحر الابيض المتوسط يساعدهم فى ذلك توسطهم بين المناطق ، كما أنهم يستعينون بالفن وطرق الانبات واصطناع الاجواء ، وللقطر المصرى اتصال وثيق بهذه المشاتل على الدوام ، تظهر آثار ذلك فى الحدائق العامة والخاصة وفى المشاتل التجارية والفردية

أما (سيراقوسه) ففيها مغارة الاذن . سميت بذلك لمشابهتها الاذن فى تجويفها . يكبر فيها صدى الصوت آلاف المرات . فأى حركة بسيطة ترن فيها رنينا عاليا ، فلا يصلح فيها الهمس اذ ينقلب ضجيجا . حتى قيل انها كانت معتقلا لمن يراد معرفة أسرارهم من الاشرار أو رجال المؤامرات . فقد يتركون فيها ليهمسوا بما يريدون واذا بالحرس الخفى عن أنظارهم ، القائم عند صمامة « الاذن » يسمع همسهم وهم لا يشعرون

كذلك فى سيراقوسه مغارة تسكنها عائلة عدة قرون ، يتوارثها أفرادها ، كما يتوارثون صناعة يدوية هى صنع الحبال الرفيعة والغليظة التى تستعمل فى المراكب وشباك الصيد فى البحار وهى حبال فى غاية الدقة والمتانة

ويقال ان سيراقوسه هى مسقط رأس جوهر الصقلى قائد المعز الفاطمى الذى فتح مصر وأسس القاهرة

***

وبالقرب من سيراقوسه مستنقع واسع كبير ينمو فيه نبات البردى المصرى نموا عظيما فى النوع وفى الشكل ، وهم يصنعون منه أجود أنواع الورق المتين الذى يستعمل عادة فى تدوين المعاهدات والصكوك والعقود . وكانت وزارة الخارجية المصرية الى عهد قريب تستورد منه ما تحتاج اليه فى ذلك

على أن من خرافات القوم هناك أن احدى بنات الجن تسكن هذا المستنقع العظيم ، وانها توقع بمن يزوره من الزائرات والزائرين . ولذلك لا يذهب اليه الا من آمن بالجن أو أمن من الجن .. والواقع أن بالمستنقع الواسع العظيم جرثومة الملاريا فى كثرة ، بحيث لا ينجو منها زائر ، ولعلها هى بنت الجن التى عنها يتحدثون ..

راشد رستم

كلمات وتراكيب دخيلة

من مذكرات دولة حق بك العظم

أسمع بعض الناس من وقت إلى آخر يرطنون بكلمات أو تراكيب دخيلة عامية معتقدين انها عربية وهي ليست من العربية بشيء . فرأيت أن أذكر في مجالي هذه البعض منها مع ارجاعها إلى أصولها الأجنبية التي أخذت منها

جزمة بفتح الجيم . كلمة تركية الأصل ، وهي بالجيم الفارسية المكسورة ذات النقط الثلاث التي تلفظ Ch بالانكليزية . وتستعمل في اللسان التركي لحذاء عسكري طويل الساق مصنوع من الجلد يصل حتى الركبة ويتجاوزها في بعض الاحيان ، ولا سيما عند الفرسان ورجال الدفعية في الجيش . أما في مصر فتطلق على جميع أنواع الأحذية . ويقولون « جزمجي » لصانع الأحذية . و «جي» هي من حروف النسبة التركية تأتي دائماً في آخر الكلمة وتبين مهنة الرجل . أما صانع الاحذية بالتركية فهو « قوندرجي »

والجزمة بفتح الجيم في العربية تعني « أكلة واحدة » أي وجبة فيقال مثلا « تناول جزمة من الطعام » أي أكل مرة واحدة . أما الجزمة بكسر الجيم فانها قطعة من الغنم

أجزاخانة تركيب تركي مؤلف من كلمتين : « أجزاء » وهي جمع « الجزء » العربيــة . وقد استعملها الترك كمفرد بعد حذف الهمزة منها . وتعني هذه الكلمة عندهم « الدواء » أضافوا اليها « خانة » الفارسية ومعناها الدار فصار معنى الجملة المركبة من الكلمتين « دار الادوية » أي الصيدلية . ومثلها « رصدخانة » دار الرصد أو المرصد الفلكي و « شفاخانة » دار الاستشفاء . وكانت هذه اللفظة الأخيرة مستعملة في المدارس التابعة لوزارة المعارف بمصر . وهو مكان كان يأوي اليه التلميذ المريض للاستجمام والراحة والاستشفاء مؤقتاً . وأخيراً أصبحت الشفاخانة خاصة بمكان استشفاء الحيوانات الداجنة .

أجزجي أضيف حرف « جي » الى كلة « أجزا » المار ذكرها . ومعناها الصيدلي أي صاحب دار الأدوية

تازة كلة تركية تطلق على كل طعام مطبوخ حديثاً أو جبن حديث الصنع أو فاكهة مقطوفة في يوم أكلها . وكثيراً ما يطلق الترك كلة « تازه » على المرأة الصغيرة في العمر الحديثة في عهد الشباب . ويستعملها بعض الناس من المصريين بحرف الطاء فيقولون « طازه » . ويبدل بعضهم الهاء من الجيم فيقولون « زبدة طازجة » مثلا أو « مسلى طازج » . وحبذا لو عممت كلة « صابح » ، و « صابحة » أي مجتناة صباحاً . وهي عربية ليس عليها شيء من غبار العجمة

كما ان كثيراً من الباعة الذين يسرحون فى شوارع القاهرة وأحيانها يستعملونها عندما ينادون على بضائعهم فيقولون « زبده صابغ » و « بيض صابغ »

خشاف محرف تركيب تركى مؤلف من كلمتين فارسيتين « خوش » أى لذيذ أو طيب و « آب » الماء . يقابلها فى العربية نقيع (وفى الشام يستعملون كلمة نقوع وهو خاص بمجفف الشمس) فيقال « نقيع المشمش » أو « نقيع البرتقال » أو « نقيع الزبيب » مجفف العنب

دوادار ويقول الناس فى مصر « دويدار » . وهى جملة مؤلفة من كلمتين « دواة » وهى وعاء يوضع فيه حبر الكتابة وقد حذفت تاؤها . و«دار» الفارسية ومعناها القابض . وتشتق من مصدر « داشتن » الفارسية . وتعريب الجملة هو « القابض على الدواة » ويعنى ذلك « الكاتب » يقابلها « مدير رسائل » فى حكومة الشام و « رئيس الديوان » فى مصر . وفى بعض الأحياء القديمة بالقاهرة عدة أزقة وشوارع تعرف باسم « دويدار » حتى يومنا هذا

خازندار مثل « دوادار » . وأصلها « خزنه دار » . وهو تركيب تركى مؤلف من كلمتين : « خزنة » محرفة من خزانة ويعنى الصندوق و « دار » وقد مر ذكرها . ومعنى الجملة « القابض على الخزانة » . يقابلها فى حكومة الشام فيما مضى « أمين الصندوق » وفى يومنا « مدير الخزانة » ويطلق فى مصر « صراف » على صاحب هذا العمل

وكلمة « خزنه دار » كانت تطلق فى قصور سلاطين بنى عثمان على سيدة تحمل مفاتيح جانب من القصر تحفظ فيه مقتنيات السلطان وزوجاته وأولاده من نقود وأحجار كريمة أو مصوغات وغيرها . وكان لهذه السيدة الامينة مكانة كبيرة ونفوذ عظيم فى القصر السلطانى .

كذلك كان الحال بمصر فى قصور الاسر الكبيرة المنحدرة من أصل تركى ومنازلها حيث تضطلع سيدات بالعمل نفسه وبالاسم عينه . وكان يطلق عليهن «خزنه دار قالفة» أو «خزنه دار اوسته»

ومثلها « سلحدار » . ومعناها القابض أو الحافظ على السلاح . كذلك « دفتردار » أى القابض على الدفتر . وكان فيما مضى يطلق هذا الاسم على وزير المالية . وكان المرحوم محمد بك لازوغلو (١) دفتردارا أى وزيراً للمالية فى عهد المغفور له محمد على الكبير رأس الاسرة المالكة المصرية المعظمة . وقد ظلت كلمة « دفتردار » تطلق على رئيس حسابات كل ولاية فى الدولة العثمانية حتى أيامها الاخيرة

ومثلها « زميندار » المركبة من كلمتى « زمين » الفارسية وهى الأرض و « دار » ومعناها « القابض على الأرض » والواضع يده عليها

(١) لاز أوغلو . وليس بالظاء كما يلفظ فى مصر . ومعناها « ابن اللاز » . واللاز عنصر أصله من القوقاز . يسكن سواحل البحر الأسود الجنوبية الى الشرق من الأناضول ، ويتكلم لغة خاصة به . واسم هذا القطر « لازستان » . وكان يؤلف منه فى العهد العثمانى « لواء » أى مديرية حسب الأوضاع الأدارية المصرية » يتبع ولاية طرابزون . وحاضرته ميناء اسمه « ريزة » . وأصل محمد بك لازوغلو من هذه البلاد

كيف نقر السلام ؟

للفيلسوف السياسى الانجليزى « برتراند رسل »

كلنا نرجو أن نهتدى ، غداة أن تضع الحرب الدائرة أثقالها ، الى طريق يجنب العالم قيام حرب هائلة أخرى مدى حين طويل . ومن الواضح أننا اذا كنا نرغب فى بقاء الحضارة ونمائها ، فانا لا نستطيع أن نحيا فى عالم تشب فى أرجائه جميعا نيران الحرب مرة فى كل خمس وعشرين سنة . وفى الوقت ذاته فانا نعرف أن ثمة سيئات وشرورا أمر وأدهى من الحرب ذاتها على ما فى الحرب من فواجع ونكبات . فقد آثرنا أن نحمل عبء الحرب على أن نخضع أنفسنا لهتلر ، لان الذلة والخضوع أثقل على المرء وأقسى من سفح الدم

اذن فالمشكلة التى تواجهنا هى أن نجد الطريق الذى يقر سلام العالم ويجنبنا أذى الحرب ، دون أن يؤدى بنا هذا الطريق الى تضحية أمر من تلك الامور التى يرى العقلاء أن الحفاظ عليها يقتضيهم الكفاح والقتال

سلطة دولية مسلحة

ان الحرية أمر مفضل مأثور ، ولكنها لا تصلح على اطلاقها كمبدأ من مبادىء السياسة الدولية . فيجب أن تقيد الحرية الممنوحة للدولة ، فيباح لها الحرية فى أداء بعض الامور، ويفرض عليها القيد الذى يمنعها من اداء أمور أخرى . وأولى ما يجب أن يحرم على الدولة من الحريات ، حرية اثارة حروب الفتح والعدوان . ولا سبيل الى هذا الا باقامة سلطة دولية تفوق سلطات الدول المنفردة، وتؤيدها قوة مسلحة يخشى بأسها ويعتد بأمرها، والى جانبها هيئة قضائية تفصل فيما اذا كانت الحرب المثارة حرب عدوان أم حرب دفاع . ويقتضى هذا أن تجمع الدول الكبرى كلمتها على مناهضة العدوان ، وعلى انزال العقاب بمن يتخذ طريق العدوان ، ولو كان الامر لا يتعلق بهذه الدول مباشرة

ولكن هذه القوة المسلحة وهذه الهيئة القضائية لا يكفيان لاقرار السلم فى عالم تقوم فى جميع نظمه وفى شتى ارجائه اسباب التنازع ودواعى التقاتل . واذن فلا بد من اجراء تغييرات كثيرة نجملها فيما يلى :

اولا — توضع مناطق الاستعمار التى لم تصل بعد الى ما يؤهلها الى الاستقلال بنفسها تحت نظام دولى ، ويطبق هذا على الاخص على مناطق الاستعمار فى القارة الافريقية

ولكن لا يصح أن تظل هذه الاقاليم مناطق استعمارية الى أبد الآبدين ، بل يجب أن يكون هدفها العاجل المباشر أن تستقل بأمرها وتحكم نفسها . ويجب أن يبذل كل ما يمكن من الجهد لتصل هذه الاقاليم الى هدفها فى أوجز وقت ومن أقصر طريق . ويبدو أن

الطريق الممهدة لهذه الغاية هي اشتراك الشعوب المتمدينة في ادارة هذه المستعمرات ادارة عشرية بروح العدالة والاصلاح

ثانيا - يجب أن تباح لكل دولة الحرية الكاملة في الحصول على ما تشاء من المواد الخام المهمة . وهذا ميسور اذا أنشأنا نظام المستعمرات الدولية وقررنا فيها عدم تفضيل دولة على أخرى في الحصول على ما يلزمها من المادة الخام ، وكذلك في استثمار أموالها في أراضيها ومرافقها البكر

ثالثا - ويجب أن تتولى سلطة دولية حراسة المواقع الاستراتيجية المهمة ، مثل قناة السويس وقناة بنما ، وجبل طارق ، وسنغافورة ، وتكون هذه المواقع تابعة لهذه السلطة الدولية بطريق مباشر

من يشرف على العالم ؟

ممن تتألف هذه السلطة الدولية ؟ تتألف بادىء ذى بدء من الحليفات الاربع الكبرى: من الولايات المتحدة ، ومن مجموعة الامم البريطانية (بريطانيا وممتلكاتها المستقلة) ومن اتحاد الجمهوريات السوفيتية ومن الصين . فتؤلف هذه الدول اتحادا مبدئيا يدعو اليه الدول الاخرى لمشاركته في عمله ومسئوليته . ولكن يشترط في الدولة التي تنضم الى هذا الاتحاد اما أن تكون دولة ديموقراطية واما أن تكون ذات دستور تقبله أغلبية الشعب في انتخاب حر يجرى تحت اشراف هذا الاتحاد الدولى . ويضاف الى هذا الشرط شرط آخر ، هو ألا تشتمل أرض هذه الدولة على أقلية من السكان تريد الانفصال عنها ، لان سيطرة الدولة على أقلية من الناس برغم أنوفهم ، دليل على أن هذه الدولة لا تأخذ بمبدأ الديموقراطية ولا تريد مؤازرة قضية الحرية

فاذا توافرت هذه الشروط دعيت الدولة للانضمام الى الاتحاد الدولى الذى يشرف على مناطق الاستعمار والمواضع الاستراتيجية في العالم . ولا يصح تغيير دستور الدولة المنضمة بالقوة ، بل يجب ألا يتم هذا التغيير الا عن طريق انتخاب حر يجرى بناء على طلب أغلبية الشعب ، أو في فترات محددة ، أى كلما انقضى خمسة وعشرون عاما مثلا

ويهيىء هذا الاتحاد الدولى للدول المنضوية تحت لوائه مزايا جمة . فمنها حمايتها من الهجوم والعدوان ، فان العدوان على فرد من افراد الاتحاد ، يعتبر ويقابل كما لو انه اعتداء على الاتحاد جملة واحدة . ومنها أن مناطق الاستعمار ستكون مباحة المرافق لدول الاتحاد وحدها ، تنال من موادها الخام وتستثمر فيها أموالها ، دون أن تشاركها أو تزاحمها الدول الاخرى . ومنها تخفيض المكوس الجمركية على السلع المنقولة بين دول الاتحاد لتكون أدنى من المكوس المقررة على السلع المستوردة من دول غير منضمة الى الاتحاد . وكذلك تفضل هذه الدول عند عقد القروض وما الى ذلك من المزايا التى ترغب سائر الدول في أن تؤهل نفسها لعضوية الاتحاد الدولى

ولا شك أن هذا التحالف ، بما يتحقق له من القوة على اثر النصر فى هذه الحرب ، وبما يقوم بين أعضائه من عوامل التعاون والتساند ، سيتمكن من اقرار السلام فى ربوع العالم حينا طويلا ، يستطيع فى خلاله أن يؤلف حوله من الدول ما يتوافر فيه الشروط التى تدعم الحرية والعدالة ، وتقصى عن العالم شبح الخوف والظلم والحرب

العزلة والكبرياء

ولكن ثمة عقبتين تعترضان الطريق المؤدية الى اقامة هذا الاتحاد الدولى : أولاهما عقبة « العزلة » وثانيتهما « الكبرياء »

أما « العزلة » فأعنى بها عدم الرغبة فى احتمال أى عبء يفرضه التدخل فى المشاكل السياسية ما لم تكن هذه المشاكل تمس المصالح القومية مسا مباشرا . ولكن الحقائق التى سوف تعلمها الامم فى بطء وتدرج تلك الحقيقة التى ذكرها ليتفينوف فى كلمته : « ان السلم كل لا يتجزأ » . فلن تتوفق الى اقامة الحكومة الدولية المنشودة حتى تقتنع جميع الحكومات القومية ، ويقتنع معها شطر كبير من سكان البلاد الديموقراطية الكبرى ، بأن الطريق الوحيد الذى يجنب الدولة خطر الحرب وويلها هو أن تساهم مع سائر الدول فى اقامة « الجيش الدولى » الذى يخمد فتنة الحرب أينما شبت

وأما « الكبرياء » فعقبة أضخم وأقوى . فمن العسير أن تتصور امريكا أو بريطانيا أو روسيا تخوض غمار الحرب وتصلى نار القتال ، استجابة وخضوعا لقرار تصدره أغلبية مجلس دولى ، ما لم يؤيد هذا القرار شعور قومى مشرب بروح العزم والاخلاص . ولا يمكن أن تقوم سلطة دولية الا بالحد من السلطات المحلية ، ولهذا فانى أرى أن خير طريق لاقامة هذه السلطة الدولية هو الاستمرار بعد الحرب فى « التحالف » الراهن بين الامم المتحدة

دور « آسيا » فى العالم المقبل

ان النصر فى الحرب القائمة ليس نصرا انجليزيا امريكيا فحسب ، ولن تساهم روسيا وحدها فى هذا النصر ، بل ستساهم فيه ، من وراء روسيا ، قارة آسيا بأسرها . ولكن ادخال آسيا فى نطاق العمل الدولى ليس أمرا هينا ، بل يقتضى كثيرا من التغيير فى أوضاعها السياسية والاجتماعية

واذا أضفنا الى نتائج الحرب هزيمة اليابان ، تبينا أن النصر لن يكون غربيا فحسب ، بل سيساهم فيه الشرق ممثلا فى الصين التى قاومت اليابان مدى سنين طوال ، معتمدة على نفسها وحدها

ولا شك فى أن آسيا المنتصرة ستطالب بأن يتحقق لها كثير من جوانب المساواة مع أوربا . فان أقاليم هذه القارة المترامية تشكو كثيرا من السيئات التى يقتضى علاجها الحيلة

والاخلاص والتحرر من ربقة العقائد والتقاليد القديمة ، تفاديا لنشوب أكبر نزاع وأخطر حرب فى التاريخ ، بين آسيا من جانب وأوربا وامريكا من جانب

فالهند والصين واليابان تشكو ازدحامها وتكدسها بالسكان ، كما تشكو فقر أهلها وانخفاض مستوى حياتهم . وهى فى الوقت ذاته محرومة من التفريج عن نفسها بالهجرة الى استراليا أو امريكا . واذ لم يكن من المحتمل أن تعدل استراليا أو امريكا عن سياستها فى أمر الهجرة اليها ، فان من واجب هذه الاقاليم الاسيوية أن تبحث عن علاج آخر لمشاكلها الاجتماعية هذه . وخير علاج هو أن تعنى بنشر الصناعة فيها ، وتحويل حياتها الاقتصادية من الزراعة الى الصناعة . ولكن قيام الصناعة فى هذه البلاد التى تتوافر فيها الايدى العاملة الرخيصة سيكون مصدر الخطر الاكبر على الحياة الاقتصادية فى بلاد أوربا وامريكا حيث تقل اليد العاملة ويكثر أجرها . واذن فانى أرغب أن نحور — نحن الغربيين — من أنفسنا ومن نظامنا لمواجهة هذا الموقف الجديد ، لنتفادى النتائج . وهذا فى رأيى هو أفدح خطر يهدد سلم العالم فى نصف القرن التالى . فضلا عن كونه أكبر عقبة تعترض انشاء السلطة الدولية التى سينظر اليها فى الهند والصين على أنها مجرد وسيلة لاطالة أمد سيطرة الجنس الابيض وتوسيع أفقها

الدول المهزومة

هناك قوتان متناقضتان تؤديان الى قيام الحروب الكبرى : قوة « الجشع » من جانب الاقوياء الظافرين ، وقوة « الضيق » من جانب الضعفاء المحرومين . ولن يخرج من هذه الحرب قوى ظافر واحد ، بل ستكون القوة والظفر من نصيب أربع من الدول الكبرى . وهذا من شأنه أن يقلل من خطر الاستعمار ويخضد من شوكته . نعم ان التسوية العاجلة ستكون صعبة ، ولكنها على أى حال لن تترك دولة واحدة تنفرد بالسطوة والنفوذ على ربوع العالم جميعها

هذا ما يتعلق بالظافر ، أما ما يتعلق بضيق الضعيف المحروم ، فنبدأ بالكلام عن الامم المهزومة . ان العالم لن يكون عالما آمنا متسامحا حتى تظفر ألمانيا واليابان ببعض المطالب التى تهدىء ثائرتها وتطفىء غلتها ، دون أن يتيح لها ذلك من القوة ما تهدد به الآخرين وتصليهم به نيران الحروب . وكذلك تحتاج هاتان الامتان الى جيل جديد يتربى تربية مشربة بروح الحرية والتسامح ، ليكون أقدر على مواجهة العالم الجديد من الجيل الراهن الذى تربى على كراهة الشعوب الاخرى ، والاثرة المفرطة الخطرة ، وتمجيد الحرب وعدها ضرورة من ضرورات الحياة . .

ولكن ثمة مشكلة عاجلة أخرى ، وهى مشكلة الشعوب التى قهرتها ألمانيا وأذلتها . فبولندة — وأمرها أقسى من أمر سائر الامم المهزومة — قد عانت شتى صنوف النكال والعذاب تحت النير الالمانى ، حتى امتلأت صدورها بالحقد العنيف والكره الاسود

للشعب الالمانى . ولكن مهما يكن من عطفنا على مأساة الشعب البولندى ، فليس من الحكمة والتبصر أن نسمح لعواطفنا أن تتحكم فى الموقف ، فنطلق لها عنان الثأر والانتقام . فان كثيرا من البولنديين يقولون بضرورة ضم بروسيا الشرقية الى بولندة ، ولكن أية نتيجة لهذا الا أن تقوم مشكلة دانزيج ــ التى كانت شرارة الحرب كلها ــ على نطاق أوسع وبصورة أدعى للنقمة وأحفز على الثأر ؟

أما الدول الصغيرة ، فلا بد لها من قيود . وأول هذه القيود أن تقبل التسويات الاقليمية التى يقررها ساسة الدول الكبرى مجتمعين فى مؤتمر الصلح القادم ، حيث ستسود روح تناقض الروح التى سادت ما سبقه من المؤتمرات . ويجب عليها أن تجبر على أن تؤلف مع جيرانها اتحادا تلغى فيه المكوس الجمركية ويعاون على تحقيق الرخاء فى اجزائه المختلفة . وأهم من ذلك وأعسر ، أن يطلب الى هذه الدول الصغيرة أن تقبل وضع نفسها تحت حماية « حامية عسكرية أجنبية » مؤلفة من جيوش عـدة دول مختلفة ، اذا قررت « السلطة الدولية » المشرفة على العالم أن وجود هذه الحامية لازم للمحافظة على السلام . وبذلك نتفادى ما وقع فى هذه الحرب ، من تحطم الدول الصغيرة واحدة اثر واحدة ، بينما اكرهت الدول الكبرى التى أرادت انقاذها على أن تقف موقف المشاهد الذى لا يملك من الامر شيئا

وعلى أى حال فانه اذا لم يكن ثمة أمل كبير فى عقد صلح بعد هذه الحرب يعالج مشكلة الحروب المستقبلة علاجا حاسما يقضى على بذرتها قضاء مبرما ، فان هناك أملا قويا فى أن يتوفق ساسة العالم فى عقد صلح يجنب العالم هول الحرب ردحا طويلا . وذلك بحل مشاكل الامبراطوريات الخاصة ، والشعوب الصغيرة المستقلة ، وباقامة العدالة الاجتماعية فى أقطار آسيا ، وازالة ما تعانيه شعوبها من قيود السيادة الاجنبية الا ما تقرر « السلطة الدولية » ضرورة فرضه من هذه القيود

(خلاصة مقال لبرتراند رسل فى صحيفة « العالم الحر » الامريكية)

كلمات لأفلاطون

ــ لا تكون كاملا حتى يأمنك عدوك ، فكيف بك اذا لم يأمنك صديقك ؟

ــ من مدحك بما ليس فيك من الجميل وهو راض عنك ، ذمك بما ليس فيك من القبيح وهو ساخط عليك . .

ايطاليا بين العرب والألمان

بقلم الاستاذ محمد أمين حسونة

ايطاليا الآن بين الحلفاء والالمان ، وقد كانت فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين بين العرب والالمان ، فقد فتح المسلمون صقلية ، ثم وثبوا منها الى ايطاليا كما يفعل الحلفاء الآن . وقد وقعت ايطاليا فى أيديهم ، ونشبت معارك بينهم وبين الجرمان فيها

لم تنقطع الغزوات الاسلامية البحرية عن ممتلكات الروم فى البحر الابيض المتوسط وسواحل القسطنطينية منذ فجر القرن الثامن الميلادى ، فاستطاع الأسطول العربى الافريقى الاستيلاء على جزر اقريطش « كريت » ورودس ومالطة ، وكان قد استولى قبل ذلك بمدة قرون على قبرص . وعند ما أخذت قوة الاسلام البحرية تتضاعف وتنبسط فى حوض البحر المتوسط لحماية ثغور الاندلس وتونس ، صارت جزر شرق الاندلس « البليار » وقورسقة وسردانية وقوصرة « باتلاريا » عرضة لغزوات المسلمين ، فكانت سفنهم لا تفتأ تجوس خلال مياه هذه الجزر يستخدمونها قواعد بحرية ، يغيرون منها على بلاد الفرنجة ، ويجد فيها القرصان مرافىء أمينة يسهل اللجوء اليها والحصول على الزاد والذخيرة

والواقع أن المسلمين بعد أن فتحوا أفريقا واستولوا على هذه الجزر ، شغفوا بركوب البحر ، وأكثروا من بناء الاساطيل الضخمة ، واستخدموا الجوارى المنشآت ، ودربوا رجالهم على شؤون الملاحة وفنون القتال فى البحر ، وعزوا الى الرسول الكريم أنه قال : « الجهاد فى البحر فيه عشرة أمثال الجهاد فى البر »

وكانت دور الصناعة البحرية فى المرية وقرطجنة واشبيلية وغيرها من ثغور افريقا تهيىء طوائف من السفن التى تصلح للمساجلات البحرية ، مستعينة بنحو ثلاثة آلاف نجار قبطى استقدموا من مصر ، وكانت هذه الدور تحت اشراف قائد بحرى يطلق عليه عادة لقب « أمير الماء »

فتح صقلية

لم تكن تخفى على المسلمين بعد أن انتزعوا معظم ممتلكات الروم فى البحر المتوسط قيمة صقلية الجغرافية وخصب أراضيها وما تمتاز به من قاعدة بحرية فريدة تهدد شواطىء الافرنج شرقا وغربا

وكان العرب قد أغاروا على هذه الجزيرة منذ عام ٣٢ هـ . وكروا عليها عدة كرات دون أن يوفقوا الى امتلاكها . وكانت صقلية اذ ذاك واقعة تحت حكم الروم ، وقد زادت حالة أهلها بؤسا عقب ظهور الاسلام وفتح العرب سوريا ومصر وانتزاع أراضيهما الخصبة

من الامبراطورية البيزنطية . فلم يجد الروم بدا من الاسراف فى استغلال الجزيرة واستنزاف مواردها ، ليعوضوا عما فقدوه من دخل سوريا ومصر . وكان أهل صقلية يلقون صنوفا من الجور والعسف ويتمنون الخلاص من ربقة الروم . ومما زاد الطين بلة أنه عند ما تقدمت الجيوش الاسلامية الظافرة الى قلب أفريقا وشواطئها الشمالية ، انتقل قيصر القسطنطينية ببلاطه الى صقلية متخذا مدينة سرقوسه « سيراكوزا » عاصمة ملكه ، بيد أن هذا النظام لم يدم طويلا ، اذ عاد بعدها مقر العرش الى القسطنطينية

وعند ما تولى عبد الرحمن الغافقى امارة الاندلس عقب ذلك ، راح يفكر فى تجهيز حملة عسكرية يقودها ضد فرنسا ، ويدوخ بها هذه المملكة ، ويأخذ بالثأر للمسلمين عن الغزوات التى سحقت فيها قواتهم فى أرض الافرنج ، ثم يجتاز فرنسا الى ايطالية فيستولى عليها ، ويعدوها الى ألمانيا والقسطنطينية ، ويدخل جميع هذه الامم فى حكم الاسلام

وكانت الحماسة الدينية فى ابان فورتها ، والاندلس وفرنسا الجنوبية بخصب أراضيهما واعتدال مناخهما قد أصبحتا مقصدا للعرب والبربر الذين يهبطون عليها من جبال أطلس

على أن حروب الغافقى مع شارل مارتل الملقب عند العرب «بقارله» ثم انكسار جيوش المسلمين فى واقعة « بلاط الشهداء » شغلت جهوده ، فلم تمكنه من تنفيذ ما انتواه من بسط السيادة الاسلامية على ربوع الافرنج

وفى عام ٧٤١ م جهز الامير حبيب بن أبى عبيدة الفهرى أسطولا قويا تولى قيادته بنفسه ونزل بشواطىء صقلية ، وكاد فتح الجزيرة يتم على يده لو لم تحدث ثورة البربر ضد حكم المسلمين فى تونس . وكان هؤلاء البربر سلالة أمة نازلت القرطاجنيين وقاتلت الرومانيين ، واشتهرت بصعوبة المراس وطلب الكفاح وتنشق الحرية والاستقلال، فاضطر الفهرى الى العودة وشيكا الى تونس لقمع هذه الفتنة قبل أن تستفحل ويعظم خطرها

وأخيرا أتاحت الفرصة أن يتم فتح صقلية على يد أسد بن الفرات ، وأن تظل هذه الجزيرة تحت ظلال السيوف الاسلامية زهاء قرنين ونصف قرن . فانه فى عام ٨٢٧ م . ثار أهل الجزيرة على الحكومة البيزنطية وعلى قيصر الروم ميخائيل الثانى ، وقيل ان الذى ثار هو حاكم الجزيرة المولى من قبل القيصر وخرج عن طاعته . وعلى كل حال فان الرسل أسرعت الى القيروان ، واستغاثوا بأميرها زيادة الله بن الاغلب ، ودعوه الى نصرتهم واعدين فى مقابل ذلك بتوليته عليهم. فشاور الامير أعوانه ، وكان مترددا فى تلبية الدعوة، يوجس خيفة من مكر الروم ودهائهم ، فأشار عليه قاضى القيروان أسد بن الفرات بانتهاز هذه الفرصة الفذة لادخال الجزيرة فى حكم المسلمين . وكان ابن الفرات هذا عالما فذا وجنديا باسلا وبحارا مغامرا ، فقبل الامير مشورته ، وجهز أسطولا ضخما مؤلفا من سبعين مركبا وعشرة آلاف محارب وتسعمائة فارس غير النواتية ، وأسند قيادة الحملة الى ابن الفرات

وخرج الاسطول العربى الى عرض البحر فى شهر ربيع الاول عام ٢١٢ هـ. (٨٢٧ م)

متجها صوب صقلية ، ورست السرايا المجاهدة فى ثغر مازرة (مازارا) على الطرف الشمالى الغربى للجزيرة ، فأنزل العرب جيوشهم بها ، ثم ولوا وجوههم شطر الشرق ، وسرعان ما وجد ابن الفرات أمامه جيشا جرارا يعادل عشرة أضعاف جيشه عددا ، فتلا سورة « يس » ثم كبر ، وهجم على العدو وشتت شمله وغنم غنائم نفيسة . واتجهت طلائع الجيش الفاتح الى سرقوصة « سيراكوزا » ، فاستخدت له قلعتها بعد حصار عنيف ، وتفشت الاوبئة بين رجال الجيش ، وأدركت الامام ابن الفرات الشهادة ، فتولى القيادة صاحب أسطول الاندلس القائد أصبغ

وهنا بعث قيصر القسطنطينية بالمدد تلو المدد ، ووقعت بين الطرفين معارك طاحنة هلك فيها ألوف المحاربين ، وفتك الطاعون بجند المسلمين ، لكنهم استطاعوا برغم هذه الاهوال الجسام أن يثبتوا أقدامهم فى الجزيرة الى أن أمدهم ابن الاغلب بجيش جرار يهتز شوقا الى القتال ، وبأسطول من السرايا المجاهدة ، فأعاد المسلمون الكرة ، وسقطت عاصمة الجزيرة بلرم « باليرمو » فى أيديهم ، ثم ساروا الى قصريانة « كسترو جيوفانى » وقطانية ومسينى « مسينا » فاحتلوها ، وصارت بقية المدن والثغور تتساقط فى أيديهم

وما أتت سنة ٨٧٨ م. حتى كانت الجزيرة برمتها فى قبضتهم ، وأصبحت جزءا من دار الاسلام ، واستطاعوا أن يجعلوا منها أعظم قاعدة بحرية تهدد الشواطىء الايطالية

دخول ايطاليا

لما رسخت أقدام المسلمين فى صقلية ، لم يبق أمامهم سوى مضيق مسينى للدخول الى « الارض الكبيرة » وكانوا يعنون بها المقاطعات الايطالية نفسها ، فتمكن الأسطول الافريقى من عبور المضيق ، واستطاع الجيش الفاتح أن يقتطع امارة قلورية « كالابريا » ، واقامة حاكم من قبل الخليفة الفاطمى عليها . ثم استولوا على طارنط « تارنتو » ورابطت جنودهم فى بارة « بارى » ، وسيروا حملة بحرية أثخنت الشواطىء الغربية من نابل « نابولى » الى مصب نهر طفرى « التبر » ثم صعدت الى ضواحى رومية وعاث رجالها فسادا فى المدينة فنهبوا كنائس القديسين بطرس وبولس ، وألزموا البابا يوحنا الثامن بأن يؤدى الجزية للمسلمين ، وأخيرا نفذوا الى جنوة وعطلوا سدود نهرها ، وتوغلت جماعة منهم فى المقاطعات الشمالية حتى وصلوا الى جبال الالب واحتلوا معابرها ، وقطعوا المواصلات بين فرنسا وايطالية ، وصاروا يجبون المكوس على البضائع ويضطرون المسافرين الى دفع ضريبة اجتياز المعابر

ومما شجع المسلمين على دخول ايطالية وتوطيد أقدامهم فى أراضيها ، أن أمراء المقاطعات كثيرا ما كانوا يتنازعون فيما بينهم ويثيرون الفتن والشحناء ، وكان البعض منهم يستنجد بحاكم صقلية ليخذل خصمه ، فلما دخل المسلمون هذه المقاطعات وجدوا أمورها فى فوضى ، لا تجمع حكامها رابطة قومية ، ولا تضمهم وشيجة من الوطنية الصارخة ،

فصاروا يحاربونهم ويجلونهم عن ممتلكاتهم حتى دخلت مقاطعات برمتها فى حوزتهم
فى ذلك الحين ارتاعت بيزنطة من هول الاحداث التى لحقت بممتلكاتها ، فقد فقدت كريت ، وفقدت صقلية ، وضاعت منها مقاطعات برمتها فى أرض ايطالية ، ولم يبق أمام الاسطول العربى سوى تهديد شواطىء بحر ايجه ، وانتزاع كيليكية وأطراف سوريا

وكان الاسطول الرومى حتى القرن الثامن من القوة بحيث رد المسلمين مرتين عن القسطنطينية ، وحمى كريت وجزر البحر المتوسط من غارات الاساطيل والجيوش الاسلامية . لكن القياصرة الايزوريين أصبحوا يهابون قوة هذا الاسطول البيزنطى لتدخل قواده فى السياسة ، فقد خلعوا القيصر ليونس عام ٦٩٨ م. وأقاموا مكانه أمير البحار ابشيمار ، ثم خلعوا فيما بعد القيصر يوستنيانوس الثانى عام ٧١١ م. لذلك اتفقت كلمة الاسرة المالكة على الغاء امارة البحر وانقاص الحاميات وعدد سفن الاسطول وحراقاته

على أن ظهور قوة الاسلام البحرية جعلت قيصر الروم يعيد التفكير فى بعث أسطوله واحياء مجده السالف ، وتجديد حامياته وتعزيزه بقطع بحرية جديدة . وما تم ذلك حتى سيرت بيزنطه حملتين بحريتين الاولى عام ٩٠٢ م. والثانية عام ٩٤٩ م. لاسترداد كريت وصقلية ، لكنهما باءتا بالفشل . فجهزت حملة ثالثة عام ٩٦١ م. على رأسها نيسيفور المعروف عند مؤرخى العرب باسم « نقفور بن الفقاس الدمستق » فاستطاع أن يسترد اقريطش من أيدى العرب

وكان الروم قبل ذلك قد اضطروا الى عقد محالفة مع أعدائهم العرب تقضى بأن يؤدوا للخليفة الفاطمى جزية سنوية ، فى مقابل أن يؤمن الخليفة شواطئهم وما بقى فى حوزتهم من ممتلكات وكثيرا ما كان الروم يتوانون عن تسديد الجزية فى مواعيدها ، فيعود الاسطول العربى ويثخن الشواطىء والممتلكات البيزنطية ، ويستصرخ أهل هذه الممتلكات طالبين الى القيصر أن ينفس عنهم ببذل المال للغزاة . فلما تبوأ عرش القسطنطينية نقفور الثانى ، وكانت بداية حكمه سلسلة من الفتوحات والانتصارات التى توجها باسترداد كريت ، عاهد شعبه كما عاهد سلفه روماس على أن يعيد اليه صقلية وسوريا والاراضى المقدسة . فامتنع أولا عن دفع الجزية وخرق حرمة المعاهدة التى عقدها أسلافه مع الخليفة ، وتأهب لمحاربة المسلمين حربا لا هوادة فيها ، وسير حملة عسكرية بقيادة الخصى نسيتاس ، سارت الى شواطىء صقلية فى شهر سبتمبر عام ٩٦٤ م

تقدم نسيتاس بأسطوله صوب صقلية فى الوقت الذى يهاجم فيه مولاه اقطاعات سيف الدولة فى سوريا الشمالية

وشهدت أرض صقلية مواقع حاسمة بين الروم والمسلمين ، واستطاع الاسطول العربى الافريقى فى بادىء الامر أن يضيق الخناق على الاسطول البيزنطى ، وجرت بينهما موقعة بحرية هلكت فيها ألوف الارواح . وكان الاسطول العربى بقيادة حاكم صقلية احمد بن الحسن بن على ، وسقطت قلعة رمطة الحصينة « روميتى » بعد أن لبث الروم معتصمين

بها زهاء واحد وعشرين شهرا . وأسر قائد سلاح الفرسان فوكاس وأركان حربه ، وكانوا قد اجتازوا مضيق مسينى وصعدوا الى اليابسة لانقاذ مواطنيهم وفك اسارهم من الحصار الذى ضربه المسلمون عليهم ، أما فلول الجيش الرومى فوقعت فى الاسر ، اذ أطبق العرب عليهم من كل صوب واستماتوا فى قتالهم حتى فنوا على بكرة أبيهم ، وغصت بلرم بالاسرى والغنائم والعتاد الحربى ، وكان من بينهم ألف رجل من عظماء الروم ومائة بطريق أخذوا بصفة رهائن . ويطلق مؤرخو العرب على هذه الموقعة التاريخية « وقعة المجاز » . أشار اليها ابن خلدون فى تاريخه ، وقال عنها ابن الأثير : ان حاكم صقلية ضيق الخناق على مدينة مسينى وكمن للروم فى بعض المواقع فوقعوا فى الكمين ، ولم ينج منهم الا القليل ، ثم بث السرايا فغنموا غنائم كثيرة ، ثم استأمن أهل نابل « نابولى » وأقام المسلمون بمدينة طارنط « تارنتو » من أرض انكبوده « كالابرا » وسكنوها

ويضيف المستشرق الايطالى ميشيل أمارى الاستاذ بجامعة بالرمو فى كتابه « حكم المسلمين فى صقلية » الى ذلك قوله : « وفيما كان الاسطول البيزنطى يقفل متقهقرا من هذه الموقعة ، اذ أرسل العرب عددا وافرا من السفن لمطاردته ، فانسحب الروم الى الوراء ، فتعقبهم العرب . وكان الروم يملكون نفاطات حارقة تسمى « النار الاغريقية » وكانت ميزتها أنها تحرق المراكب بمجرد أن تصيبها . فما ان اشتبك الاسطولان فى هذه الموقعة الفاصلة حتى خفت بقايا السفن البيزنطية الى الاسطول العربى الافريقى ، وأحرقت منه مراكب كثيرة ، وأصيب المسلمون اصابة لا تعوض »

العرب والالمان وعدوهما لمشترك

كان لانكسار الروم فى هذه الموقعة صدى عميق فى القسطنطينية ، فسادها الوجل ، وخيم اليأس على النفوس ولبس البلاط ثوب الحداد ، وصار من العسير على نقفور أن يعيد الكرة لانشغاله بحروبه مع سيف الدولة فى سوريا الشمالية . وعقد مجلس التاج فاقترح طلب الصلح من الفاطميين ، ومما زاد سبيل التفاهم بين الامتين المتعاديتين ظهور خصم قوى جبار فى سماء أوربا ، أخذ يضيق الخناق على الروم والمسلمين معا ، ويقتطع ممتلكاتهما الواحدة تلو الاخرى ، فعقدت مهادنة بين نقفور وبين المعز عام ٩٦٧ م . ونسى العاهلان ما بينهما من الشحناء والضغائن فى سبيل دفع ذلك العدو المشترك

ولم يكن ذلك الخصم القوى الشكيمة سوى أوتون الاول ملك جرمانية الذى عرف فيما بعد بالامبراطور الكبير . فانه ما كاد يتوج ملكا على جرمانية حتى جرى على سنة أسلافه من اتباع سياسة الغزو وسلب جيرانه أقواتهم والتنكيل بهم . وقد اختط لنفسه طريق التوسع فى الفتح ، فقهر المجر وملك لمبارديا وهبط الولايات الايطالية فاستولى على الاطراف الشمالية منها ، ثم بويع فى بافيا فصار يلقب بامبراطور ألمانيا وملك ايطالية . ولكى يصرف أبصار المسلمين عن حقيقة نواياه ، دخل فى علاقات مع خليفة قرطبة

عبد الرحمن الناصر ، وبعث اليه بسفارة مؤلفة من راهب يحذق العربية وموظفين رسميين لكنه كان يعمل فى الواقع على أن يقلص ظل المسلمين من أوربا . فانحدر بجيشه الى أواسط ايطالية وحاصر مدينة رومية ، وأجبر البابا على تتويجه بتاج الامبراطورية ، فلما رفض البابا يوحنا الثانى عشر طلبه وبعث يستغيث بجيرانه المسلمين شلحه ، وأقام مكانه لاوون الثامن ، ثم مات هذا الاخير ، فأقام يوحنا الثالث عشر . وظل أوتون يرتكب الفظائع والحوادث الجسام فى الاراضى الايطالية حتى ضج منه الاهلون ، وتوسلوا الى أعدائهم العرب أن يدفعوا عنهم بغى وعدوان المغيرين الهمجيين

ووقع الروم بين نارين ، وتولت القسطنطينية الذعر ، فارسلت وفدا يعرض الصلح على الفاتح الالمانى ، فاشترط لكى يضمن سلامة المقاطعات البيزنطية أن يتزوج ولى عهد ألمانيا الاميرة تيوفانو ابنة قيصر الروم ، وأن يدخل روما حاملا لقب الامبراطور . وكان من الطبيعى أن يرفض طلب المصاهرة هذا ، لان معناه أن تزف ابنة القياصرة الى أمير ليس من جنسها ولا من دم أجدادها ، وأن يحمل هذا الامير لقبا يعتدى به على حقوق بيزنطه

فلما رجع الوفد من القسطنطينية يحمل الرفض ، لم يجد أوتون مناصا من استئناف الحرب ، فتهيأ لخوض غمار القتال ، وعلم نقفور ان الحرب واقعة لا محالة ، فاستمال بخصمه المعز الفاطمى طالبا اليه عقد محالفة عسكرية ، وتأهب الجيشان للدفاع الصارم . وكان الشعب الايطالى قد تيقظ من غفلته ، ورأى أن مصلحته تقضى بالتعاون مع العرب على دفع المغير الالمانى ، فلما شرع أوتون زحفه نحو الجنوب ، أدهشه أن يجد الجيوش الاسلامية والرومية متحدة على قتاله فى البر ، وألفى الاسطولين العربى والبيزنطى يؤلفان أسطولا واحدا ، فامتزجت دماء العرب بدماء أعدائهم الروم ، وتصافق الشعبان على أخوة السلاح . واندفع الجيش الاسلامى منطلقا من كلابريا اندلاق السيول من الجبال لا تقف فى وجهه عقبة ولا يفل شىء من عزيمة رجاله ، فاكتسح الجيش الالمانى ، وامتلأت أيدى المسلمين بالغنائم ، واستطاع جيش المسلمين أن يخضد شوكة أعدائه ، وأن يجلوه عن أماكنه ، فارتد الالمان عن جنوب ايطالية ، ولكن بنية الرجوع اليها عند سنوح الفرصة

ومات أوتون الاول عام ٩٦٨ م. قبل أن يستأصل شأفة المسلمين ويحقق الوعد الذى قطعه لامته ، فخلفه على العرش أوتون الثانى ، وكان شابا مغامرا أراد أن ينهج على سياسة سلفه ويترسم خطاه ، فبدأ بتقوية أواصر الصداقة مع الامبراطورية البيزنطية ، وأسرع بعقد معاهدة معها بغية أن يفرق بينها وبين حليفتها الدولة الفاطمية ليتفرغ هو لمحاربة المسلمين ، وأفلح فى الاقتران بالاميرة تيوفانو كريمة القيصر ليقوى وشيجة التحالف بينه وبين الروم . وفى عام ٩٨٢ م. نشب الصراع بينه وبين المسلمين ، وكان قد جعل طارنط قاعدة يثب منها على قلورية ويدير منها دفة الحرب . ولم تكن تخفى على ابى القاسم قائد الجيوش الاسلامية ما انتواه خصمه اللدود فأعد العدة ، وتلاقى الجمعان عند مدينة روسانو

واختلط صليل السلاح بين الكتائب الالمانية المؤلفة من فتيان شقر يرتدون الزرد من قمة الرأس الى أخمص القدم وبين فرسان العرب الذين يتجلببون بالبرانس البيضاء . وظل القتال دائرا النهار الاول بأكمله وتوجس أبو القاسم خيفة أن يكسر عدوه جناحه فتفتر عزائم جنوده وتوهن نفوسهم ، فلما أرخى الليل سدوله انسحبت جيوش المسلمين الى حيث وارتهم التلال الجنوبية ، فقطع أوتون الثانى الجبال يتعقبهم دون أن يفطن الى أن انكفاء المسلمين الى الوراء لم يكن سوى خدعة ومكيدة يقصدون بها صرف نظره عن وجهتهم الحقيقية وهى استدراج عدوهم الى داخل الجبال . وفى الوقت ذاته أمر أبو القاسم السرايا المجاهدة بضرب حصار على الشواطىء وحماية جناحه الايمن ريثما يعيد تنظيم جحافله وجنوده ، فأخذت السرايا ترتاد الشواطىء وتجوس خلال المياه وتحول دون أى مدد يحتمل أن يتلقاه العدو من البحر . ولم يكن أوتون الثانى يملك أسطولا يستطيع أن ينازل به الاسطول العربى أو أن ينتزع منه السيادة فى البحر المتوسط ، فارسل يستنجد بحميه قيصر القسطنطينية ليمده ببعض السفن والحراقات

وبدأت الموقعة الفاصلة فى اليوم الثالث عشر من شهر مايو عام ٩٨٢ م . فتدفقت الجحافل الجرمانية عند ساحل ستيلو عند الموقع المعروف بالعمود ، وكانت تضم عشرات من أشراف الالمان ، بينهم دوق كونراد نجل أمير مقاطعة متز فى اللورين الذى وهب جميع أملاكه لينفق منها الامبراطور على هذه الحرب . واستطاعت كتيبة ألمانية أن تشق طريقها بين جيش المسلمين حتى بلغت مخيم ابى القاسم وقتل هو فى المعركة ، فهلل الالمان ، وحسبوا أن النصر مواتيهم بعد أن قتل القائد الباسل وسط جنوده . بيد أن موت القائد ذكى فى نفوس هؤلاء الشبان الذين تفور صدورهم بالحماسة الدينية المقرونة بعوامل المجد والشرف والجهاد فى سبيل الله ، شعلة الانتقام ، فاندفعوا بين الصفوف ، غير مكترثين للموت الذى كان يحصدهم حصدا ، على حين صعدت كتائب منهم صياصى الجبال ، فما أن ارتد الالمان الى الوراء قليلا حتى تساقطوا من القنن والهضاب وحملوا عليهم حملة شعواء

ويبدو أن الجرمان كانوا لا يفقهون شيئا من أساليب القتال عند العرب ، فتولاهم الذعر وركنوا الى الفرار صوب الشاطىء ورموا بأنفسهم فى البحر ، فمنهم من طوتهم لجة الماء ومنهم من تلقاهم رجال الاسطول العربى وأخذوا أسرى

وكان بين الذين أدركهم الموت فى هذه المعركة الدامية من الامراء : كونراد وارنولد وارمفريد ولاندولف أمير مقاطعة كابو والدوق ريتالدو ، ومن الاشراف والنبلاء : دوق ريشارد حامل سلاح الامبراطور والكونت أوتو زعيم المحاربين والمركيز برتولد

أما الاسرى فسيقوا الى بلرم ومنها أرسلوا الى المهدية ، واضطر الامبراطور الى دفع فدية لفك اسار بعض الاشراف، ولبست ألمانيا بأسرها لباس الحداد شهورا على هذه المعركة التى هلكت فيها ألوف الارواح من زهرة شبابها

محمد امين حسونة

من ذكرياتى عن الشيخ محمد عبده

بقلم الأستاذ احمد حافظ عوض بك

هذه كلمة موجزة عن سبب نشر هذه الرسالة عن المرحوم الامام الشيخ محمد عبده . كنت من زمن طويل أفكر فى وضع كتاب يجمع بين دفتيه ذكرياتى فى حياتى الصحفية والسياسية والأدبية . وكان اشتغالى باصدار الصحف معطلا لى عن تنفيذ هذه النية التى تشغل بالى وتعتلج فى صدرى ، فلما تغيرت الأحوال وقضت الظروف ألا أصدر ولا أحرر جريدة ما ، عاد إلى ذلك الخاطر فأخذت أجمع وأرتب أوراقى فعثرت على نسخة « يتيمة »(1) من كتاب تاريخى وضعته ، عن رحلة سمو الخديو السابق فى الوجه البحرى سنة ١٩١٤ ، فأودعتها دار الكتب وكتبت لها مقدمة طويلة بخط يدى وجعلتها جزءاً من ذكرياتى التى اخترت لها عنوان (آثار أقدام فى رمال الزمان) Foot Prints in the Sands of Time لا أتقيد فيها كما يتقيد كتاب المذكرات بالأيام والأعوام بل أدوس فيها على رمال الزمان ، وأكتب ما أريد أن أكتب عن الأشخاص والحوادث التى كان لى فيها اشتراك أو اتصال . فذاع خبر هذه النسخة اليتيمة التى أودعتها دار الكتب ، وظن الناس أنى وضعت كتاباً كاملا . فاضطررت أن أشرح ذلك للقراء وأن أشتغل بانجاز هذه الذكريات ونشرها حين يتيسر لى ذلك . فهذه الرسالة التى ينشرها «الهلال» عن المرحوم الشيخ محمد عبده إنما هى قطعة اخترتها بناء على رغبة الفاضل المحترم رئيس تحرير « الهلال » أميل زيدان بك ، وإنى أسأل الله سبحانه وتعالى أن يمد لى من العمر ويمتعنى بالصحة حتى أستطيع أن أتم ما بدأت ، وأنجز ما به وعدت

شرحت فى هذه المذكرات ، أو الذكريات ، كيف تركت مدرسة المعلمين العليا واندمجت فى تحرير جريدة المؤيد فى شهر مايو سنة ١٨٩٨ ، وكيف كان ذلك الانتقال نقطة الدوران أو التحول فى حياتى التى أدت الى ما أدت اليه

وحدث حادث اطلاق الأمير سيف الدين الرصاص على الأمير أحمد فؤاد (صاحب العظمة والجلالة سلطان مصر وملكها) . وبدىء فى محاكمة الأمير سيف الدين وكان المرحوم الشيخ محمد عبده قاضياً فى محكمة الجنايات ، مع المرحوم أحمد فتحى زغلول شقيق المرحوم سعد زغلول ، وقد صار فيا بعد وكيلا لوزارة الحقانية فى العهد الكرومرى الأخير

---

(1) استولت السلطة العسكرية الانجليزية سنة ١٩١٤ بعد عزل الخديو عباس على نسخ هذه الرحلة لأنها كانت مطبوعة فى مطبعة الخاصة الخديوية ولم تكن قد جمعت ملازمها للتغليف والتجليد

وانعقدت الجلسة فى السراى التى صارت بعد ذلك ادارة لجريدة « الأخبار » يحررها المرحوم أمين الرافعى بشارع الخديو اسماعيل .وقد بنيت اليوم مدرسة يونانية ، فانتدبنى المرحوم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد لحضور تلك الجلسة لتلخيص ما يدور فيها من المرافعات والملاحظات فوقع نظرى لأول مرة على الشيخ محمد عبده ، وهوالقاضى الأهلى الوحيد الذى كان يلبس العمامة . وكان ذلك قبل أن يتولى وظيفة الافتاء

أما موضوع هذه القضية وما دار فيها من المرافعات وما كان فيها من نكات من الهلباوى فما لا يدخل فى هذه الذكريات

مضى على تلك الرؤية الأولى للشيخ محمد عبده نحو عام ، ثم نقل الأستاذ الامام الى وظيفة الافتاء ، وكان يلقى دروس التفسير فى الرواق العباسى الجديد ، وأنا ما زلت محرراً فى جريدة المؤيد أكتب المقالات بامضائى ــ ا . حافظ عوض ــ كما عرف الناس

وصادف أن كنت أقيم فى منزل صغير بجهة عابدين مع المرحومة والدتى وهى من بلدة «لقانة» فى مركز شبراخيت . وكان والدى قد توفى فى بلدنا دمنهور سنة ١٨٩٦ ، فلما تركت المدرسة كما فصلت فى هذه الذكريات ، ووظفت محرراً فى المؤيد ، واستأجرت منزلا فى عابدين جئت بوالدتى للاقامة معى فى القاهرة . ولقانة هذه قرية مجاورة لمحلة نصر ، مسقط رأس الشيخ محمد عبده . وكان لوالدتى ابن عم اسمه الشيخ عبد الهادى زيد وهو من زملاء الشيخ محمد عبده فى أثناء طلبهما العلم بالأزهر ، وكانت بينهما مصاهرة إذ كان شقيق الشيخ عبده زوجاً لأخت الشيخ عبد الهادى زيد ابن عم والدتى وأخاطبه بلقب الخال

وقيل لى إنه لما جاء جمال الدين الأفغانى لمصر وألقى دروسه بالأزهر ، كان الشيخ عبد الهادى من الشيوخ القدماء الذين أساءوا الظن بجمال الدين لاعتقادهم بحرية فكره أو بزندقته،فترك لذلك الأزهر وعاد الى بلده لقانة

ودارت دورة الفلك ، وحصلت الثورة العرابية ، ونفى الشيخ محمد عبده وسافر الى باريس ولندن مع جمال الدين وعاد لسوريا ، ثم لمصر ، ثم صار قاضياً ومفتياً وسكن الشيخ محمد عبده فى عين شمس . فكان خالى المرحوم الشيخ عبد الهادى زيد حين، يحضر للقاهرة لحاجاته وزياراته، ينزل ضيفاً على الشيخ عبده الذى كان يكرمه ويحبه كثيراً لقرابتهما وزمالتهما وذكرياتهما

فلما جاءت والدتى معى فى القاهرة جاء الشيخ عبد الهادى واتخذ منزلنا محطاً لرحاله ، وفى اليوم التالى لقدومه ذهب الى الرواق العباسى للسلام على الشيخ المفتى ، فلما أبصره الشيخ سأله : « أين أنت يا شيخ عبد الهادى ؟ وهل ذهبت الى عين شمس ؟ » فأجاب : « أنا هنا منذ يومين وقد ذهبت الى منزل ابن أختى » ــ وفى الأرياف تلقب بنت العم بالأخت ــ وذكر اسمى . فاهتم الشيخ الامام ، وقال : وهل حافظ عوض الذى يكتب المقالات فى المؤيد ابن أختك ..؟ ده صحيح

الولد لخاله . . اذهب فأتنى به الليلة فى عين شمس فانى أحب أن أراه ، وإما تبيت عندنا أو تذهب مع ابن أختك . . »

فى ذلك اليوم عدت الى منزلى قبيل المغرب فوجدت الشيخ عبد الهادى منتظراً لنذهب معاً الى الشيخ الامام ، فقلت غداً نذهب . قال بل الليلة لأن الشيخ فى انتظارنا وقد وعدته بمجيئك

وذهبنا الى عين شمس وقابلت الشيخ محمد عبده فكان فتحاً جديداً فى حياتى ، واتساعاً فى أفق تصويرى وتهذيبى ، وعاملا من عوامل التاريخ والحظوظ فى هذه الحياة التى دارت دورتها ، ومثلت روايتها

أحبنى الشيخ وأحببته ، وقربنى اليه بعد هذه الزيارة سنوات طويلة ، وعرفنى بالمستر بلنت فكان لهذا وغيره أثر فى حياتى وحركاتى السياسية ، وعلاقاتى بالكثيرين من الأجانب العلماء والزعماء ، الذين كانوا متى حضروا ، لمصر لا يعتبرون أن زيارتهم لها تم دون أن يقابلوا الشيخ محمد عبده مفتى الديار ، الذى ملأ ذكره الاذهان والأمصار ، شرقية وغربية

ومن هنا تبتدىء ذكرياتى الحقيقية عن علاقة المرحوم الشيخ محمد عبده بالمستر بلنت المعروف الذى كان يقيم فى منزل ذى حديقة كبيرة بعزبة النخل على مقربة من منزل الشيخ محمد عبده ، وتاريخ العلاقات بينهما طويل ، حتى لقد خصص المستر بلنت فى كتابه « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر » ، ثم فى مذكراته الاخيرة ، جزءاً كبيراً من كتابيه هذين عن المرحوم الشيخ محمد عبده

وعندى أن علاقة الشيخ الامام بالمستر بلنت، ومقابلته لزعماء الأرلنديين، سواء للقيمين منهم فى بريطانيا أو فى أمريكا ، والذين كانوا يذهبون لمقابلة بلنت فى عزبة النخل فيبعث بهم الى الشيخ عبده فى دار الافتاء أو فى الازهر ، كانت من الوسائل التى مهدت للشيخ محمد عبده الاتصال الوثيق باللورد كرومر ، ذلك الاتصال الذى كان له ما كان من الاثر فى تاريخ مصر السياسى

كان المرحوم الشيخ محمد عبده يتكلم الفرنسية أو العربية مع المستر بلنت ، فلما كان بلنت يبعث لزيارته بالارلنديين أو الانجليز ، وهؤلاء لا يتكلمون غير الانجليزية ، ولما وثقت علاقاتى واتصلت مودتى بالشيخ محمد عبده ، كنت واسطة الحديث بالترجمة بينه وبين زائريه الذين أشرت اليهم ، ويرى القارىء صورة لخطاب بخط المرحوم الشيخ الامام ، نشرته لقيمته الأثرية من خط الشيخ ولما ورد فيه من دعوتى للترجمة بينه وبين كبار الارلنديين والانجليز

وخشية أن تصعب قراءته من الصورة أنشر نصه :

« ولدنا العزيز

كتب اليك المستر بلنت يقدم اليك صديقه للمستر ديلون من رؤساء الحزب الارلندى ورغبه

الى فى أن أعرفه فوعدته أن أراه يوم الثلاثاء الآتى الساعة أربعة بعد الظهر فأرجو أن تذهب اليه فى اللوكاندة التى يقيم فيها وتصحبه الى الازهر وأكون شاكراً

الأحد ٢٢ مارس سنة ١٩٠٣ محمد عبده

وعادت على من هذه الترجمة ، بين الشيخ والزعماء والعلماء والنواب الانجليز ، فوائد كثيرة فعرفتهم وعرفونى وفيهم المستر ديلون ، وكان من زعماء الارلنديين فى مجلس العموم البريطانى ، استفدت منها كثيراً فيما قمت به للحركة الوطنية والدستورية من الدعاية فى انجلترا حين ذهبت الى لندن فى صيف ١٩٠٧ كما سأشرحه فى الجزء الخاص بهذه الفترة فى مكان آخر من هذه الذكريات

* * *

والآن أرجع الى تصوراتى الشخصية أو الى نظراتى الخاصة فى الشيخ محمد عبده ، وما أدعى الحكمة وإصابة الحق فيما ذهبت اليه ، وانما أقرر هنا انى انما أريد أن أشرح ناحية من هذه التصورات فأقول :

ان الكلام عن الشيخ الامام والمصلح الاسلامى العظيم ، المرحوم الشيخ محمد عبده ، والمهمة التى قام بها فى مصر فى عهده ، والخدمة التى أداها للوطن والاسلام ، ليست مما أطمع اليه أو أؤمل أن أوفيه حقه منها ، وانما أريد أن يكون حكمى فى هذه الذكريات حكماً نزيهاً مقصوراً على بعض التقديرات الشخصية ، وعلى ما أعتقد أن يكون أثراً نافعاً لأبنائنا وأحفادنا من بعدنا ، وبعبارة أخرى أريد أن أكتب وأن أضع الأمور والحقائق فى نصابها اللائق بها

كانت ملامح وجه الشيخ محمد عبده وتصوره وتفكيره وخلقه وعبقريته وأنفته وكبرياؤه مما يؤيد نظرية أن الشيخ محمد عبده كان من عنصر قوى الفصيلة أى أنه لم يكن من عنصر مصرى بحت ، بل كان من عنصر تركمانى كردى ، كما روى هو نفسه فيما كتبه ، أو فيما كان يريد أن يكتبه من تاريخ حياته ولم يتمه ، فقال :

« كنت أسمع الزارعين من أهل بلدتنا يلقبون بيتنا ببيت « التركمان » فسألت والدى عن ذلك فأخبرنى أن نسبنا ينتهى الى جد تركمانى جاء من بلاد التركمان فى جماعة من أهله وسكنوا فى الخيام بمديرية البحيرة مدة من الزمن » وقال أيضاً « وقد أخبرنى المرحوم على باشا مبارك أنه اطلع على رحلة لعبد اللطيف البغدادى الشهير ، تعرف بالرحلة الكبرى ، ورأى اسم محلتى نصر ومرزوق ، وانه نزل ضيفاً فى بيت خير الدين التركمانى . وقال ان البيوت الكبيرة فى البلدة كانت ثلاثة : بيت الشيخ وبيت خير الله وبيت الفرنوانى » اه

فمن هذه الرواية تأيد عندى ما ذهبت اليه من التصور فى أن أصل الشيخ محمد عبده من عنصر غير مصرى ، تركمانى أو كردى أو غير ذلك . وكان ذلك ظاهراً فى ملامح وجهه واتساع جبهته وفى نظراته ، وفى تصوراته ونفسيته وشجاعته وجرأته ، لأنه لو كان مجرد طالب أزهرى

فلاح ، ما وجدت فيه تلك الأخلاق فى مجموعها ، ولا نشأ على الشدة والصلابة والشجاعة والعناد فيما يتصوره ويعتقد أنه فيه على حق

كان مرة يتكلم معى عن الصحافة وعن جريدة المؤيد وصاحبها فقال مما أذكره « أنا أحب أن أقول لك كلمة خاصة لأنك من الشبان الذين أحببتهم ووثقت بهم ولأنك تمت الينا بقرابة مصاهرة مع أخوالك ، وإن كنت أحب أن لاتنقل هذا الكلام عنى الآن .. انى لا أحب الاتراك ، أو من جاء من فصائلهم القدونية وغيرها ، من الحكام والمماليك ، أو من تناسل منهم ، وذلك لما عاملوا به السلمين المصريين ، وغير المصريين من الظلم والاستبداد فيما مضى وفيما هو حاضر .. وأنا أميل لصاحب المؤيد ولكنى لا أحب فيه ماأراه من التذلل والخضوع لمايصدر عن السراى ، أو عن « عباس » ... وبهذا اللفظ كان دائماً يذكر الخديو

كان هذا التصريح منه بعد أن اختلف مع الخديو واشتدت أسباب الخلاف بين الرجلين ، الا أنه يجب أن يقال إنه فى أوائل تولية الشيخ وظيفة الافتاء كان الخديو عباس فى ذلك الوقت يحبه ويلجأ اليه ، ويستعين به فى حل بعض المشاكل . ثم حصل بعد ذلك ما حصل من وقوفه موقف المعارضة والمقاومة لأغراض الخديو فى الأوقاف والأزهر ، ودس بينهم من دس من خصوم الشيخ ، فوصلت الحال بينهما الى الكراهية الشديدة والحقد والرغبة من جانب الخديو ، بنوع خاص ، فى القضاء على الشيخ الامام واخراجه من الافتاء والازهر . فلم يكن فى وسع الشيخ احتفاظاً بما يعمل له من ترقية الازهر والاصلاح الاسلامى ، وما يقوم به فيما يلزم لوطنه ، الا أن يعتمد على من يكون فى مقدوره صد اعتداء الخديو ونفوذ مشيئته فى الشيخ محمد عبده . ومن ذا الذى كان فى مصر يستطيع هذا الا اللورد كرومر ؟ وبذلك توطدت دعائم مودة، وتقدير متبادل بين الرجلين ، وصار فى استطاعة الشيخ أن يؤثر على ممثل الدولة البريطانية ويدفعه الى مساعدته فيما يراه حقا ، وفيما يعتقده الشيخ من أبواب الاصلاح . وكثيراً ما كان الشيخ يعارض اللورد كرومر ، ويعمل بلباقة ولياقة على استغلال مركزه الاسلامى فيغير اللورد فكره وينفذ أغراض الشيخ

وأنا أعتقد شخصياً انه قد كان للشيخ محمد عبده سلطة كبيرة أو غريبة على اللورد كرومر آتية من طريق الثقة التى كان اللورد قد وضعها فيه ، ولما آمن به من اعتقاده فى إخلاص الامام ونزاهته وبعد نظره وحسن تقديره ، ولما كان يراه فى الشيخ من الاخلاص والكفاءة والرجولة والترفع عن الغايات والامور الصغيرة . وتلك الصفات التى يحبها الانجليز فى كل الأمور ، ولو لم يظهروا هذا التقدير إذا كانت لهم مآرب سياسية خطيرة

***

وأعود فأقول خدمة للحقيقة والتاريخ إن الخديو كان فى أول أمره شديد الميل الى الشيخ

محمد عبده . والذى يدلنا على ذلك انه طلب بنفسه أن يضع الشيخ محمد عبده تاريخاً للثورة العرابية ، مع أن الشيخ كان متهماً بضلعه فيها وعداوة توفيق باشا والد عباس ، حتى لا تضيع الحقائق عن تلك الثورة لما كان للشيخ من معرفة بأصولها وفروعها . وقد بدأ الشيخ بكتابة جزء ابتدائى لثورة العرابية

ووضع فى أول ما كتب صورة خطاب ، لا أدرى ان كان قد بعث به للخديو أو أعده ليكون فى مقدمة الكتاب الذى وجده الشيخ رشيد فى أوراق الشيخ بعد وفاته ، فنشره بنصه فى تاريخ حياته

وأنا أكتفى هنا بنقل عبارات موجزة تبين نفسية الشيخ وميوله الصادقة نحو الخديو عباس فى تلك الفترة . قال :

«مولاى . هذا مقام الشاكر لنعمتك ، العارف بقدر منتك .. طوقتنى احساناً لم أكن أتأمله ، إذ أمرتنى أمراً لم أكن أتخيله .. أمرت أن أكتب ما شهدت وما سمعت وما علمت وما اعتقدت . فى الحوادث العرابية فى عهد نشأتها الى نهايتها مع بيان أسبابها ، وإسناد الأعمال الى أربابها .. بعد أن نسجت عليها العناكب حتى أنكرها من شهدها ، وخبط فيها من سمع خبرها ، ولم يقف على سرها ، ولم يميز خلها من خمرها ، فأى إحسان أجل وأوفى من رغبة مليك فى كشف الغطاء عن حادثة ألمت بعرش الدولة ، واضطربت لها أركان الحكومة . . »

واستمر الشيخ بعد ذلك يقول ، فى خطابه هذا الطويل :

« أرفع الى سدتك السنية ما وقفت عليه بنفسى ، غير ناظر فى كتاب ولا راجع الى مقال سبقنى به غيري ، اللهم الا فى بعض الاوامر الرسمية ، أو شيئاً من المخابرات السياسية . . أرفع الى كرم مولانا العظيم ما استطعت أن أعرضه على مقامه الفخيم ، امتثالا لامره الكريم .. » الخ الخ

ومن الاسف المؤلم أن هذا الكتاب عن الثورة العرابية الذى بدأ فيه الشيخ وتوجد منه بضع ملازم تبلغ الخمسين صحيفة فى تاريخ صاحب المنار — لان كتاباً كهذا ، ولو كان مختصراً أومقصوراً على معلومات الامام وحده ، يعتبر حجة من شاهد عيان عن الحوادث العظيمة لدى المؤرخين المحققين . والمرحوم الشيخ رشيد رضا يأسف كما أسفنا عند ذكره وصف الاسباب ، التى دعت الى تعطيل إتمام ذلك الكتاب . قال ما ملخصه :

« ومن سوء حظ مصر والمصريين ، بل الشرق الادنى والشرقيين ، وعلى حقائق التاريخ أجمعين ، ان الاستاذ الامام لم يتم تأليف هذا الكتاب . ولكن لم يكد يتم القسم الاول من الكتاب ، وهو ما تقدم عهد الثورة من المقدمات والاسباب ، فتح لها الطاقة والباب ، حتى نجمت نواجم التدسس بين الامير والاستاذ ، وانتهت الى المغاضبة الشديدة المعروفة . وكان مفسدو ذات البين قد ألقوا الى الامير ان الاستاذ الامام عدو لبيت محمد على . لهذا كان تأليف الكتاب

مشكلا لان الاستاذ الامام كان يلقى تبعة الثورة على الخديو توفيق مباشرة ، ويجعل لما كان من إسراف الخديو اسماعيل وسوء إدارته للبلاد أسباباً ممهدة لها »

اشتد النفور والعداء بين الخديو والمفتى ، فكان له ما كان من الأثر الخطير فى تاريخ مصر فى الماضى والحاضر

ولا شك أنه سيستمر أثره الى عهد غير قريب فى المستقبل المحجوب

الكلام فى هذا الموضوع يفتح أبوابا بقيت على ظواهرها مغلقة مفككة غير مقررة ، وليس فى استطاعتى ، وقد عرفت ، أن اتصلت بأثر هذا الاضطراب بين رجلين كانا هما وحدهما فى ذلك العهد الممثلين للأمة المصرية . الاول الخديو بما له من السيادة الشرعية وخلافاته ومنازعاته مع الانجليز المحتلين ، والثانى صاحب السيادة العقلية أو العلمية أو النفسية على الطبقة الناشئة من المتعلمين والمثقفين وعند أعيان البلاد وكبرائها ممن كانت لهم اتصالات وارتباطات بالشيخ محمد عبده فى وظيفتى الافتاء والتدريس فى الازهر ، وما كان لصاحب هذه السيادة الفكرية من التأثير على الجو السياسى ، لاتصاله بالانجليز وثقتهم به وثقته بهم ، بل وحاجته ــ كما ذكرت ــ اليهم . .

وقد سبق أن شرحت أن عداء الخديو للشيخ عبده كان مصدره من الدساسين والوشاة ، وكان من أسبابه أيضا غيرة الخديو من ازدياد عظمة الشيخ وكبر مركزه وثقة الناس به . فلو أن عباسا أراد الله به خيراً ، وأراد لمصر تركيزاً وسيراً فى طريق غير التى سارت فيها فى الحرب السابقة وبعدها ، لكان من الممكن والمعقول أن يكون الشيخ محمد عبده مرشد الخديو وناصحه ومؤيده ، وكان فى استطاعته أن يجتذب الانجليز الى الثقة بالخديو والسير معا فى طريق هدوء دون أن تحصل تلك العاصفة ، عاصفة عزل الخديو واعلان الحماية ، وما كان لهذا وذاك من الأثر

ولولا ذلك الخلاف بين الخديو والمفتى ماوجد الفريق الذى تألف منه حزب الأمة ، ولا كانت العداوة المريرة التى اشتدت بين الانجليز والخديو ، وفتك اللورد كتشنر لما تولى وزارة الحربية وزعامة الحرب الأوربية بالخديو وعزله ، وما تبع ذلك من الأعاصير ..!! كأن روح الشيخ محمد عبده ، بعد وفاته ، بقيت فعالة فى آثارها ، أى فيا أصاب الخديو من مخاصمته له

ولقد كان الشيخ محمد عبده كثيراً ما يتمثل بالكلمة المشهورة التى وضعها المرحوم الشيخ عبد الرحمن الكواكبي الحلبى فى مقدمة رسالته عن الاستبداد وطبائعه فقال :

« هذه كلمة حق ، وصرخة فى واد . إن ذهبت اليوم مع الريح ، فقد تذهب غداً بالأوتاد »

وكأن الشيخ الامام ، وهو يحمل على عباس ، كان ينظر بعين الغيب الى ما أصاب الخديو من خسرانه عرشه وملكه وما جرى عليه بعد ذلك . .

***

وهنا كلمة موجزة عن رجل عالم فاضل عظيم وأعنى به المستر ادوارد براون المستشرق الشهير الذى كان يجيد اللغات العربية والفارسية والتركية وله قصة طويلة عن قدومه لمصر وزيارته الشيخ محمد عبده . ورأيت أن أنشر ترجمة الخطاب ، بعد أن أذكر أن ذلك العالم الفاضل الذي يصف الشيخ محمد عبده وزيارته له فى جامعة كامبردج هو المستر ادوارد براون مؤلف تاريخ الآداب الفارسية ، وناشر كتب البهائية بصور مخطوطة ، والذى بدأ فكرة تعليم اللغة العربية فى جامعات انجلترا وحضر لمصر واختار المرحوم حسن افندي توفيق (شقيق على جمال الدين باشا أحد الوزراء السابقين) . . . وكان هذا العمل منه مقدمة لانتخاب المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش مدرساً للغة العربية فى جامعة اكسفورد ، قبل أن يعود ويشتغل بالسياسة وتحرير اللواء بعد وفاة المرحوم مصطفى باشا كامل . وكان ما كان من الحكم عليه وسفره الى الاستانة واشتغاله فيها ، وما كان من علاقته بالاتحاديين والشاب الذى أطلق الرصاص على الخديو عباس . . ذلك الرصاص الذى قضى على الخديو بالبقاء فى الاستانة وكان تأخيره من أسباب عزله وفقدان عرشه .. !! وكأنما كانت يد الاقدار أيضاً قد لعبت دورها من روح الشيخ الامام .. !! وهذا تعريب نص ذلك الخطاب

صديق العزيز

أكتب لك هذه الكلمات على هذه الصورة وأضع معها قطعة من جريدة المورننج بوست ١٤ أغسطس سنة ١٩٠٣ عن زيارة المفتى لانجلترا ومنها زيارته لكمبردج

وما أنا فى حاجة لأن أشرح لك كيف كان فى وجوده هنا شرف لى ، إذ كان من حظى أن أحتفل برجل عاقل حكيم لم يلقه أحد هنا إلا وبلغ منه الاعجاب به والسرور بزيارته مبلغاً عظيما ، وكنت أرجو أن تطول مدة إقامته هنا لأننى واثق بأن هذه الزيارة ستعود بفوائد عظيمة

ومع تحياتى أرجوك أن تذكرنى عند أصدقائى ومن بينهم الشيخ على يوسف ومحمد مسعود

صديقك المخلص

ادوارد ج . براون

* * *

وفى مذكراتى هذه فصل طويل ذو قيمة تاريخية عن هذا العالم المحقق العظيم

والى هنا نقف بالقلم ، راجين أن نوفى هذه الذكريات حقها من العناية والاتقان والتحقيق ، والله ولى التوفيق

احمد حافظ عوض بك

الموعد الأول والأخير

للكاتب النمساوي الكبير أرثر شنتزلر

قصة ملخصة

هذه قصة يرسم فيها المؤلف حالة نفسية طريفة تتمثل فى شخص امرأة فاضلة تولاها ضعف طارئ فاستهواها الحب المحرم فتغلبت عليه ، ومع ذلك فقد أبى القدر الا أن يعاقبها على مجرد نيتها الأثيمة عقابا أنقذها وبيتها من هلاك محتوم

كيف يمكن أن يحدث هذا لمادلين وهى المرأة العاقلة الرشيدة التى لم ترتكب هفوة قط ، والتى أخضعت عواطفها لسلطان عقلها، فكانت مثال الام والزوجة الوفية المخلصة الكاملة ؟

انها الآن نهب عاطفة طارئة تتحكم فيها وتستبد بها، وتكاد تختم على أبصارها وتضلها سواء السبيل

الواقع انها لم تحس أبدا ، هذا الاحساس القوى الجارف ، الذى تغلغل فى أطواء نفسها منذ أيام ، وأحالها شبه هيكل مروع لمختلف عوامل الخوف والحذر والقلق والحيرة والعذاب

لقد كانت امرأة متزنة العقل ، صافية الغرائز ، هادئة الاعصاب ، تحب زوجها ، وتحب ابنها ، وتؤمن بالسعادة فى دائرة الاسرة ، وبالهناء فى ظل الفضيلة ، فما بالها اليوم تنسى عقلها وتنسى فضيلتها وتتنكر لماضيها وتتطلع فجأة الى عالم غامض مبهم يشيع فى نفسها منذ الآن شتى الهواجس والآلام ؟

أجل . ان غريزة الشر الكامنة فى كل انسان ، استفاقت فيها بغتة ، واستحوذت عليها ، وتمكنت منها ، وشردتها فى حجرات بيتها ، وابتلتها بضرب من الهوس والخبال

ومع ذلك فهى لم تفقد بعد سلطانها على نفسها ، وعنصر الخير لم يزل أصيلا فيها ، وفى وسعها أن تقاوم وتكافح وتنتصر وتفوز . بيد أن العاطفة الجامحة كانت تعصف بها ، وتطوح بعقلها ، وتلهب خيالها ، وتمثل أمامها نعيم الحب المحرم الأثيم فى صور جميلة وأشكال فاتنة ، تملك عليها مشاعرها وتستأثر بقلبها وتدفعها من حيث لا تشعر الى حافة الهاوية

ومضت تفكر فى فرانز ، فى الشاب الذى أحبته بالرغم منها ، والذى أرسلت اليه بالامس خطابا تضرب له فيه موعد غرام

كيف فعلت هذا ؟ .. كيف اجترأت على مثل هذا ؟ .. كيف أقدمت على كتابة ذلك الخطاب ؟ .. انها لترتعد لمجرد التفكير فى تلك الهفوة . ترتعد خوفا وقلقا وندما ، وترتعد فى نفس الوقت ، رغبة وأملا وفرحا ، وتود أن تنهض وترتدى ثيابها ، وتتجمل وتتبرج وتذهب الى الموعد المضروب

ولكن لا .. لن تذهب .. لن تنزل عن كبريائها ، ولن تهتك ، ولن تغدر ولن تنافق ولن تخون

ستخنق حبها فى صدرها ، ولا تفرط أبدا فى عرضها ، وتظل وفية لقرينها ، وفية لابنها ، خليقة بحياة الشرف والاستقامة التى استحقت عليها تقدير جميع الناس

ولكن ما العمل وفرانز لا ينفك يلاحقها ويطاردها ويضيق عليها المسالك ويأبى الا أن يظفر بها ؟ .. انه مدير الشركة التى يعمل فيها زوجها . انه ولى نعمته

انه صديقه ، وصديق العائلة ، والرجل الساحر الفاتن الجميل الذى تبصره كل يوم ، وتتحدث اليه كل يوم ، وتشعر بحبه واغرائه وتأثيره فى كل يوم ..

لو عدلت عن الذهاب الى الموعد الذى ضربته له ، فسيسرع بنفسه اليها ، ويقتحم كعادته بيتها ، وما يزال بها حتى يطوعها ويخضعها ان لم يكن اليوم فغدا

ثم هو فوق ذلك كله يحمل خطابا منها .. رسالة غرام .. أول رسالة غرامية كتبتها الى رجل غير زوجها ..

آه من تلك اللحظة المشئومة التى خطت فيها أصابعها المرتعشة تلك العبارات الحارة الفاضحة !

كلا .. يجب أن تذهب .. يجب أن تراه .. ولكن لا لتبادله الحب ، بل لتسترد منه خطابها ، وتحرم عليه دخول البيت فى غيبة زوجها ، وتقطع كل صلة عاطفية تربطها به

نعم . لم يعد فى مقدورها احتمال هذه الحياة القلقة المضطربة المظلمة ذات الجو الخانق العاصف الثقيل

ستكافح حتى تفوز ، وستناضل حتى تتحرر ، وتعيش كما كانت مطمئنة النفس ، مرتاحة الضمير ، ناعمة البال

وانطلقت من فورها صوب مكتب زوجها ، ثم فتحت درجا صغيرا وأخرجت منه مسدسا دسته فى حقيبتها ، ثم اتجهت نحو مخدعها ، ولكنها لم تحدق الى وجهها فى المرآة ، ولم تتجمل ، بل ارتدت أحد أثوابها العادية ، وأرخت على محياها قناعا أسود كثيفا ، وخرجت وقلبها يخفق ونفسها تحدثها بشر مستطير

وفيما كانت تجتاز شوارع مدينة فينا ، والابصار تتخطفها ، وأضواء المساء تبهر عينيها ، ودعوات بعض الشباب الماجن تثير أعصابها وتستفز سخطها ، كان خيالها المتقد يصور لها هفوتها بصورة مروعة ، وكانت تذكر الخطاب ، وتذكر فرانز ، وتشعر فى صميم نفسها شعورا عميقا بأنها وان لم تكن عشيقة فرانز ، الا انها ستعاقب عقابا هائلا فظيعا ، لانها أرادت فى لحظة من اللحظات أن تكون عشيقته ، واجترأت فى لحظة من اللحظات على الكتابة اليه ، وأقدمت فى لحظة من اللحظات على التفكير فى العبث بواجبها وخيانة زوجها الذى أحبها الحب كله ، وأخلص لها الاخلاص كله ، ولم يعرف طوال حياته الزوجية امرأة غيرها !

« ستعاقب مادلين لا على الخيانة بل على نية الخيانة !. . » . هذا هو الصوت الذى كان يهتف بها ويصم أذنيها ويزعزع كيانها ، وهى سائرة تصطدم بالمارة ، وتجتاز الشوارع الرحبة ، وتضرب فى الطرقات البعيدة ، وتتجه صوب الضواحى الهادئة الساكنة المنبسطة أمامها كنهر طويل تحفه الاشجار

وكان البرد قارصا ، والجو مكفهرا ، والسماء ملبدة بالغيوم ، والريح تصفر صفيرا حادا مزعجا يصم الآذان . فشعرت مادلين أن رطوبة الليل تسرى فى عظامها . وبدأت أسنانها تصطك وأوصالها ترتعد ، فلم تستطع مواصلة السير ، فاستقلت أول سيارة صادفتها ، وأمرت السائق أن يتجه بها الى الضاحية القصية حيث ينتظرها فرانز

ولما أشرفت عليها أوقفت السائق ونزلت من السيارة ونقدته أجرته . ثم جمدت فى مكانها وجعلت تتطلع الى الفضاء الصامت تبحث عن فرانز ، وعيناها المختلجتان تدوران فى محجريهما وتنبشان الظلام الحالك المحيط بها

وانها لتجاهد لتستشف ما حولها ، واذا بها تلمح عن بعد شبه نور أحمر خفيف ، وتستبين هيكل سيارة أخرى قابعة هناك فى زاوية الطريق . فتقدمت حابسة أنفاسها ، ضامة يديها على قلبها المتخلع ، تجر قدميها جرا ، وتود بعد فوات الوقت أن تعود من حيث أتت . .

وعندئذ لاح لها فى جوف السيارة محيا فرانز ، ينعكس عليه الضوء الاحمر المتراقص ، ويبرز جبهته العالية ، وشعره المموج ، وعينيه الزرقاوين الواسعتين ، وفمه الصغير الدقيق ترفرف عليه ابتسامة غريبة خفيفة يتألق فيها الفرح مشوبا بلذة النصر

وما ان رآها فرانز مقبلة عليه حتى أسرع ففتح باب السيارة ودعاها للجلوس بجواره ، فاضطربت وتولاها الخوف ، وأعربت عن رغبتها فى أن يقوما بهذه النزهة على الاقدام ، فتجهم وجه الرجل ، وتقبضت تقاطيعه ، وكبر عليه أن تسىء الظن به ، وأقسم لها بشرفه أنه لن يمسها بسوء ، فاطمأنت للهجته ، وصعدت وجلست بالقرب منه وهى تذكره بقسمه وتستجمع قواها لمصارحته بما اعتزمت عليه

والحق أن البرد كان شديدا ، وكان من المتعذر عليهما السير على الاقدام فى مثل هذا الجو العاصف المنذر بالمطر . فجلس كل منهما بجوار الآخر ، وساد بينهما فترة صمت عميق ثقيل

وكانت مادلين تعلم حق العلم أن فرانز رجل مهذب لا يمكن أن يقسر امرأة على غير ما تريد ، ولا يمكن أن يغدر بامرأة أمنها على نفسها وأقسم على حمايتها واحترامها

وراعه منها اضطرابها وصمتها ، واستغرب مظهرها المتحفظ القلق ، فتحول اليها ، وقال وهو يرمقها بعينيه الفاحصتين :

ــ ما بك يا مادلين ؟ . . أحدث فى البيت شىء ؟ . . أيكون ابنك مريضا ؟ . . ما معنى هذا الخوف وزوجك لن يعود الى البيت الا بعد منتصف الليل ؟ . . تعلمين أنى كلفته فى

الشركة بعمل اضافى وانه يشتغل الآن ولا يفكر الا فى عمله .. فاهدئى ، أرجوك ، واطردى عنك وساوسك .. ولنتعم بهذه اللحظة التى حبانا بها القدر ، اذ من يدرى ، فقد نموت اليوم بل الساعة ..

فارتعشت مادلين وانطوت على نفسها ، وانكمشت فى زاوية المقعد ، وقالت بصوت غائر أجش :

ـ فرانز ، ان ضميرى يؤنبنى ..

واختلجت فجأة وترقرقت من عينيها الدموع ، وأردفت :

ـ يجب أن ينتهى بيننا كل شيء !

فصاح الرجل :

ـ ماذا تقولين ؟ .. لا أفهمك ..

فأجابت وقد استعاد صوتها اتزانه وعزمه وقوته :

ـ لم يعد فى وسعى احتمال هذه الحياة ! .. ليس فى مقدورى أن أكذب وأنافق وأكون لزوجى ، ثم أكون لولدى ، ثم أكون لك أنت أيضا ! .. الهواجس تمزقنى . المخاوف تحيط بى . المستقبل يتوعدنى . لا . ما ألفت قط هذا . وما اعتدت الخيانة والنفاق ، وأنت تعرفنى . أنا امرأة كانت على وشك السقوط ، ولكنها فى اللحظة الأخيرة ، ثابت الى رشدها ، وعرفت واجبها ، وآثرت تضحية قلبها على تضحية أعز الناس عليها ! .. لا تنظر الى هذه النظرة الحاقدة يا فرانز .. لقد أحببتك . لقد أحسست أن عواطفى تنصرف بجمعها اليك . ولكنى وان كنت غير مسئولة عن عواطفى ، الا أنى ولا ريب مسئولة عن أعمالى .. وهذه المسئولية العظيمة تجلت اليوم أمامى ، فأيقظت ضميرى وأحيتنى وردتنى الى سواء السبيل . فارحم يا فرانز ضعفى ، وليقدر نبلك استمساكى بواجبى ، ولنظل كما كنا أصدقاء ، ولكن على مرأى ومسمع من زوجى !

وصمتت وهى تلهث ، فقطب فرانز جبينه ، واستفزته عوامل الاستنكار والسخط ، وقال :

ـ ولماذا أحببتنى اذن ، ومنيتنى بالسعادة ، وكتبت لى ذلك الخطاب ، وضربت لى هذا الموعد ؟ ..

فغمغمت :

ـ تلك هفوتى . هفوتى التى أرتعد لمجرد تصورها ، والتى ندمت اليوم عليها ، والتى أناشدك نبلك أن تغفرها وتتناساها حرصا على راحتى . ألست تحبنى . اذن فانكر ذاتك من أجلى . وكما قبلت التضحية أنا فاقبلها أنت ، وكن الرجل النبيل العظيم الذى يعرف كيف يخلص وكيف يصمت وكيف يضحى وكيف يحب !

ـ ورشقته بنظرة جانية ، فألفته يعض شفتيه حنقا وكمدا ، فاستطردت بصوت لين المخارج عذب رخيم :

ــ أعرف أنك ستتألم . ولكنى أعرف أيضا أنك ستنسى . فكن كريما وابتعد عنى وتجنب زيارتنا فى غيبة زوجى ، ورد الى الخطاب الذى أرسلته اليك . .

فانتفض فرانز وحلق فيها مبهوتا وتمتم : « تريدين الخطاب ؟ . . »

فأرسلت أنة قصيرة ممزقة ، وأجابت :

ــ لو تعلم كم بكتنى ضميرى بعد أن كتبته وبعثت به اليك ! . . لقد تصورت زوجى المخلص المحب الوفى ، منبوذا مخدوعا مسلوب الشرف والعرض ، فريسة الوحدة والنفاق والغدر ، فتقطع قلبى شفقة عليه ، وأحسست أنه من المستحيل على أن أجحد فضله وأطعنه هذه الطعنة التى قد تقضى عليه فى يوم من الايام

فصرخ فرانز وقد جحظت عيناه ونهشت الغيرة صدره :

ــ اذن فأنت تحبين زوجك ! . . أجل تؤثرين زوجك على وعلى ولدك وعلى كل انسان . هذه هى الحقيقة . هذه هى حقيقة نفسك التى كنت تجهلينها فكشف لك عنها حبى ! . . يا للسخرية ! . . انك يوم أحببتنى ، شعرت بمقدار حبك العظيم لزوجك فنبذتنى وتعلقت به ! . .

وكف عن الكلام لحظة وهو يهدر ، ثم أردف بصوت خشن جاف غليظ لم تألفه منه مادلين ، وملأ قلبها رعبا :

ــ اصغى الى . . لو أنك منذ اللحظة الاولى أعرضت عنى وألزمتنى حدى ، لما أحببتك وتعلقت بك . ولكنك يا مادلين أجبتنى الى عواطفى ، وشجعتنى عليها ، وأردت أن أحبك فاحببتك . فكيف تطلبين الى الآن أن أخنق العاطفة التى ألهبتها أنت نفسك فى صدرى ، وكيف تطلبين الى أن أصفح وأنسى وأنا أشعر أبلغ الشعور وأعمقه انك أصبحت تحبين غيرى ؟ . . أجل . ما كنت الا الحافز النفسى الذى دفعك لحب زوجك . . أنت أصبحت تحبين زوجك وأنا . . أنا أرضى بأن أصفح عنك أنت . . أغفر لك أنت . . أتخلى عنك أنت . لكنى لن أتخلى عن غريمى ، لن أصفح عن خصمى . . لن أدعه ينعم ويسعد ويهنأ بينا أتردى أنا فى هوة اليأس والشقاء !

فتشبثت به مادلين وندت عنها صرخة : « ماذا تنوى أن تفعل ؟ . . »

فحدق اليها تحديقا هائلا وأجاب :

ــ لقد أقسمت الا أمسك بسوء ، وسأبر بقسمى . ولكنى سأعاقبك فيه هو ! . . سأثأر منك فى شخصه هو ! . . سأفصله عن عمله فى الشركة وألقى به فى ظلمات الفاقة والبؤس . ويقينى أنه مهما حاول فلن يظفر أبدا بمثل المنصب الكبير الذى يشغله عندى ، والذى لم يصل اليه بكفاءته بل بارادتى . . ارادة الحب الذى كنت أحملها لك أنت ! . . فاذهبى ووطنى النفس على النزول عن كل أسباب الترف التى أغدقتها عليك ، واقضى الحياة كما تقضيها نساء الشعب التاعسات فى ظلمات الفاقة والبؤس والعمل اليومى المنهك الشاق . اليك رسائلك . .

وأخرج الرسالة من جيبه ، ودفع بها اليها ، فتناولتها وهى ترتعش ، وقد هالها ما بدا لها منه ، وما انكشف لها من حقيقة أخلاقه

وفجأة استثار خيالها ، وتبدد ذهولها ، وتمثل أمامها المستقبل الفظيع الذى ينتظرها ، فامسكت بيده ورفعتها الى شفتيها وطفقت تقبلها وتردد :

ــ لا تفعل هذا يا فرانز !.. لا تفعل هذا !.. ارحمنى !.. أشفق على ولدى !.. كن نبيلا !..

ولكنه لم يحفل بها ، وجذب يده ، وصاح بالسائق :

ــ عد بنا الى المدينة وأسرع !

وانطلقت السيارة . وساد فى جوفها الصمت . وكانت مادلين تحدق الى فرانز من خلال نقابها ، ويدها المرتجفة تتحسس حقيبتها ، وسخطها يوسوس لها أن تنتزع المسدس وتطلقه عليه وتنقذ من شره زوجها وابنها ونفسها

وتملكتها هذه الفكرة ، واستحوذت عليها ، وهمت بتنفيذها . ولكن فى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة التى لن تنساها مادلين أبدا ، وقع شىء لم يكن فى الحسبان

هبت العاصفة فجأة . ولمع البرق ، وقصف الرعد ، وهطل المطر ، وتساقط البرد ، وتكاثف الظلام ، فكانت السيارة تهتز وتتمايل وكأنها تشق بحرا عبابا ، وكان السائق يصيح ويصخب ، وكان فرانز يترنح كالشارب الثمل ، وكانت مادلين وقد استولى عليها خوف مبهم ، تهيب بالسائق أن يسرع ما استطاع ، وملء نفسها الامل بأن تصل الى البيت قبل قدوم زوجها

وصدع السائق بالامر ، وأطلق السيارة فى عنف ، وعندئذ خيل الى مادلين أن الارض تموج بها ، وأحست فى مثل لمح الطرف أن السيارة تدور على نفسها ثم تصطدم بكتلة صلبة هائلة ثم تتحطم عليها فى دوى مفزع رهيب ، فصرخت بأعلى صوتها وحققت النظر فيما يحيط بها ، فأبصرت فرانز منطرحا أمامها ورأسه مدلى خارج باب السيارة ، يشخص اليها بعينين خامدتين ، والدم ينزف من رأسه وصدغيه وفمه

وترجلت ونادت السائق وهى مذعورة ملتاعة ، فرأته واقفا بالقرب منها يندب حظه ويلعن هذه الليلة الليلاء ، ويبكى سيارته الثمينة التى لا يملك غيرها والتى هى قوام حياته وحياة امرأته وأطفاله المساكين

صاحت به أن يعاونها فى اسعاف فرانز ، فتقدم وحمل الرجل ومدده على الارض ، ولما أبصر دماءه تسيل وأعضاءه تنتفض ، وأحس وقد الحمى يتمشى فى أطرافه ، تلفت حوله كالمخبول ، وتلعثم وارتبك وجد ولم يعد يدرى ماذا يجب عليه أن يفعل . فامسكت به مادلين وجعلت تهزه هزا عنيفا وتتوسل اليه أن يسرع فيجوب الضاحية بحثا عن طبيب

ومضى السائق يتخبط فى الظلام الدامس ، وبقيت مادلين بمفردها بجوار فرانز

وكانت الريح تعصف ، والمطر ينهمر ، والبرد يتساقط ويتجمع أكواما حول الجريح

الذى كان يتقلب ويتلوى ويئن أنينا حادا يرن فى ظلمة الليل ويملأ الضاحية الصامتة رهبة وذعرا

وانقضت بضع دقائق ، ثم انقضت لحظات ، ثم تعاقب الزمن فى بطء مروع ، ومادلين تنتظر ، والسائق يأبى أن يعود . .

وبغتة حولت بصرها الى فرانز ، وانحنت عليه ، فخيل اليها والرعب يكاد يخنق أنفاسها ، أن رأسه قد مال الى كتفه ، وأن عينيه قد أغمضتا ، وأن تقاطيعه قد استدقت وبرزت ، وأن فمه قد التوى ، وأن صفرة مشوبة بالاخضرار ، قد طغت على وجهه ونكرت محياه وأشاعت فيه برودة الموت وجهامته

لم تصدق بصرها وارتمت عليه وجعلت تتحسسه ، وتخاطبه وتتوسل اليه . ولكن لم يجبها غير صفير الريح ، ولمع البرق ، وانهمار المطر ، وتساقط البرد يلطم السيارة ، ويتكسر عليها ، ويحدث شبه زفيف تنخلع له القلوب

وتصورت مادلين أنها فى هذه الضاحية المظلمة القصية ، وفى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ، تقف بجوار ميت ، وتسهر على ميت ، فجن جنونها واستهولت هذا الختام الفاجع ، وراحت تتخيل ما سوف يحدث لها من كوارث وأهوال . .

أجل . سيفد السائق الآن مصحوبا بالطبيب ، وسيفد أيضا رجال الشرطة ، ويبدأ التحقيق ، وتساق مادلين الى المخفر ، ويفتضح أمرها ، ويبلغ النبأ زوجها ، ويؤكد الجميع أن فرانز كان عشيقها !

هذا ما سوف يحدث ولا ريب . . سيقتلها زوجها أو يطلقها فتحرم من ابنها ، وتقضى البقية الباقية من حياتها شقية منبوذة موصومة الى الابد بوصمة الخزى والعار

آه . لماذا فكرت فى خيانة زوجها ، ولماذا تركت الحب الاثيم ينفذ الى قلبها ، ولماذا تورطت فكتبت تلك الرسالة المشئومة التى كانت وبالا عليها ؟ . .

نعم . . انها لم تكن عشيقة فرانز . لم ترتكب الجريمة بالفعل . ولكنها قد ارتكبتها بالنية والله يعاقبها الساعة على هذه النية الاثيمة المنكرة ! . .

ومع ذلك فالامر لا يتعلق بها وحدها ، بل يتعلق أيضا بشرف زوجها ، وشرف بيتها ، وسمعة ابنها ومستقبله . . لا . يجب أن تهرب . يجب أن تفر . يجب أن تختفى قبل عودة السائق . يجب أن تدع الميت يدفن بين الامطار والثلوج وتسرع ما استطاعت الى البيت . .

وفجأة سرت فى أعضائها قوة غريبة ، وتنشطت أعصابها المسترخية نشاطا خارقا ، فألقت على محيا فرانز نظرة أخيرة ، وعضت على منديلها بأسنانها ، وانطلقت تعدو وتضرب فى بطن الظلام والريح تصدمها ، والمطر ينسكب عليها ، والبرد المنهمر يكاد يعمى أبصارها

واجتازت نصف الطريق وهى تلهث

وفيما هى تقطع النصف الآخر ، عاد الخوف فتمكن منها وارتعدت فرائصها لمجرد فكرة طرأت عليها

خطر لها أن فرانز ربما كان قد أغمى عليه فقط .. ربما كان لم يمت .. ربما كان فى غفوة عارضة لن يلبث حتى يستفيق منها فيجهر أمام البوليس بكل شيء ، ويعترف بكل شيء ، ويصارح بكل شيء ..

أجل . قد ينقذه الطبيب فيعود الى التفكير فى الانتقام . وقد لا ينتقم منها فى شخص زوجها فقط ، بل قد تدفعه غيرته الى الجنون فينتقم منها هى أيضا ويفضحها ويشهر بها غير مكترث لزوجها ، ولما يمكن أن ينشب بينهما من صراع ..

وتضاربت الافكار واختلطت فى ذهن مادلين ، فكانت تتمثل الفضيحة والعار تارة ، وشقاء زوجها بعد فصله عن العمل تارة أخرى . ثم تتصور فرانز صحيحا سليما يصب عليها جام غضبه ونقمته ، فترتجف وتزفر وتحث الخطى وهى تتمنى لو استطاعت أن تهب عشر سنوات من عمرها لتتأكد على الاقل ما اذا كان فرانز قد مات ، أم أن المقادير عبثت بها وأنه لم يزل على قيد الحياة ..

وأرهقتها هذه الحيرة وسامتها مر العذاب ، ولما بلغت باب بيتها ، وصعدت الدرج ، واجتازت الغرف المظلمة ، وأيقنت أن زوجها لم يعد بعد ، اندفعت كالملتوهة الى حجرة ولدها النائم ، وجثت عند سريره وطفقت تبتهل الى الله وتتضرع وتصلى ، مقسمة على توبتها ، مستغفرة عن ذنبها ، ملتمسة انقاذ نفسها وانقاذ بيتها وانقاذ طفلها

وأشاعت الصلاة فى صدرها بعض الهدوء ، فمضت الى مخدعها ، وأوصدت بابه عليها ، وعندئذ عاودتها الهواجس ، وانتابتها الريب ، وألهبتها الشكوك . فلم تخرج لاستقبال زوجها ، ولم تهيىء له الطعام كعادتها ، واستلقت على فراشها وتظاهرت بالنوم العميق

تظاهرت بالنوم فقط . أما فكرها فكان يسبح فى أرجاء الضاحية المظلمة ، وخيالها كان يتمثل الزوابع والبروق والامطار ، وعينها كانت تحدق الى الدم ينزف من جراح فرانز ، ولا تستطيع أن تتبين ما اذا كان حقا قد ابترد وجمد ومات ..

وظلت هكذا مؤرقة معذبة حتى الصباح

ولما نهضت ملبدة الذهن ، مصدوعة الرأس ، متثاقلة الخطى ، ومضت تأمر الخادمة باعداد طعام الافطار ، دق جرس التليفون فجأة ، فاختلجت اختلاجا عنيفا ، وأسرعت فى صحبة ابنها الى البهو الكبير وأنصتت ، فطرق مسمعها صوت زوجها يرسل صرخة ممزقة ويردد : « مات فرانز !.. مات فرانز !.. »

عندئذ تداعت أعصاب مادلين ، وسحقها الفرح ، فضمت ابنها الى صدرها فى عنف ، وقبلته قبلات تائهة مجنونة ، وغمغمت لنفسها وهى تجهش بالبكاء :

ــ الله عافنى ، ثم رأى ندمى ، فأشفق على !

وعلى دهش منها أحست كأن شفتيها تنفرجان عن ابتسامة خفيفة ، وكان وجهها يزهر ويضيء ، فهدأت ثورتها ، واطمأن فؤادها ، ولاح لها المستقبل السعيد ، ونسيت بغتة كل شقائها ، وكل عذابها ، وكل ما حدث بالامس فى ذلك الموعد الغرامى الاول والاخير !..



جنود الجيش الثامن يهتفون لقائدهم الجنرال مونتجومري بعد أن خطب فيهم مهنئاً إياهم بالفوز في معركة صقلية، حاثاً لهم في التنكيل بالعدو في المرحلة التالية . . وذلك قبيل الزحف على ايطاليا

الهجوم على قلعة هتلر الأوربية

كيف عجزت «قارة» بأسرها، فسيحة الارجاء حاشدة السكان، موفورة القوى معبأة الجيوش، عن غزو «جزيرة» كانت — الى ضيق مساحتها وقلة سكانها — ناقصة الاهبة من الجند والسلاح والذخيرة والقلاع؟.. ثم كيف استطاعت هذه «الجزيرة» الضئيلة بعد سنتين اثنتين أن تسير جنودها تغزو بهم تلك القارة الهائلة، فتنزلهم كتائب وجحافل على سواحلها، ثم يتغلغلون الى أرجائها، ثم يسيطرون على آفاقها، بينما تقف «القارة» — وما تزال ذات جيوش عاتية أكتمل لها السلاح وتوافرت الذخيرة — موقف المدافع الذي لا يكاد يصمد قليلا حتى يرتد مقهوراً؟

هذه ظاهرة من ظواهر الحرب القائمة، ومن ظواهر كل حرب قامت فيما مضى، فمن حق الناس أن يتدبروها طويلا.. فقد عجزت قارة أوربا — وهي في عنفوان قوتها وأهبتها — عن غزو الجزيرة البريطانية التي لم تكن قد عبأت جيوشها وأعدت أسلحتها، ثم لم تمض سنتان، حتى كانت هذه الجزيرة لا تقنع بغزو القارة في جبهة واحدة، بل تريد ان تفتح فيها ثغرات وجبهات شتى تلقى فيها بجنودها الغزاة

ان تفسير هذه الظاهرة يسير على من تتبع تاريخ ما نشب بين الامم من الحروب قديما وحديثا، فأدرك صحة تلك الكلمة الوجيزة التي تقول: ان سيد الماء سيد اليابسة. فالامة التي تمخر بسفنها بحار العالم وتبسط فوقها ألويتها المرفوعة، والتي تتهيأ لها في أرجاء الدنيا جزر وموانىء صغيرة تتخذها السفن قاعدة لتموينها أو للاحتماء بها، يتيسر لها أن تبسط سيادتها على آفاق اليابسة

وهذه هي القاعدة التي يمكن أن نفسر عليها سير الحرب الدائرة. منذ عام مضى وقفت كتائب المحور على أبواب الاسكندرية تريد أن تجتاح مصر وما يليها من الاقطار شرقا وجنوبا. ووجفت حينذاك بعض القلوب خشية أن تنبسط على أعناقهم قبضة المحور، وهي قبضة عاتية قاسية

وشاء الله أن يرتد جيش المحور قبل أن تطأ أقدامه أرض مصر، وارتد اثر هزيمة منكرة

وقد قصم ظهر العدو فعلا في يوم ٢٣ اكتوبر سنة ١٩٤٢ حين شن الجيش البريطاني الثامن

هجومه الخالد على قوات المحور فى العلمين ، هذا الهجوم الذى لم يقف حتى لم يبق فى شمال افريقية كلها مكان تأوى اليه فلول الالمانيين والايطاليين . وفى الوقت ذاته كانت امريكا ــ شريكة بريطانيا فى السيادة على بحار العالم ــ قد سيرت فى البحر ألفى سفينة حاشدة بالرجال والسلاح ، قاصدة بهم الى شمال افريقية فنزلوها عقب ابتداء معركة العلمين باسبوعين اثنين . وهكذا تعاونت الدولتان المسيطرتان على البحر ، على حرب قوات المحور الهائمة فى صحارى افريقية محصورة سجينة ، لا يأتيها الا مدد ضئيل فى قوارب يغرق أكثرها ، أو من طائرات قل ما يهبط منها سالما

وانسحب ما بقى من قوات المحور من افريقية ، وزالت الامبراطورية الايطالية التى ظلت سنين طويلة تملأ العالم بدعاويها ومشروعاتها ، وانتقلت ساحة الحرب من افريقية الى أوربا التى اعتصم بها هتلر وزعمها القلعة المنيعة التى لا منفذ اليها ولا سبيل . ولكن الحلفاء ، أو قوة الحلفاء البحرية على وجه أصح ، خيبت ظنه وخطأت رأيه ، فلم تكد جيوشهم تستجم من عناء الحرب الافريقية قليلا ، حتى حملتهم سفنهم وألقت بهم على جزر ايطاليا الجنوبية ، فاحتلوا بانتلاريا ولمبيدوزا فى يسر وسهولة ، وكانت ايطاليا تزعمهما قلعتين منيعتين تقفان فى وسط المحور كما تقف مالطة الباسلة أو جبل طارق العتيد

ثم انتقلت الحرب الى جزيرة صقلية ، فنزلتها قوات الحلفاء فى اليوم العاشر من شهر يوليو الماضى . وتلك جزيرة خصها التاريخ بكثير من معاركه ووقائعه الفاصلة ، وبكثير من قواده وابطاله الخالدين . ففى رقعتها الضيقة تصارع الفينيقيون والاغريق ، ثم الفينيقيون والرومان ، ثم العرب والرومان . واقترن اسمها باسماء نفر من أعظم القواد ، اسماء هانيبال وشيبيو الافريقى وأسد بن الفرات .. وها هى اليوم مجال الصراع بين الحلفاء والمحور ، وقد تأهب كل بالجيش اللجب والسلاح الرهيب . ولكن بدا فى الموقف أمر جديد ، بدا أن الايطاليين قد سئموا الحرب ونقموا على الفاشستية ، وانهم يريدون الخلاص من ربقة موسولينى على أيدى قوات الحلفاء . فاذا بأهل صقلية يقابلون جيوش الحلفاء أهلا وسهلا ، واذا بالحلفاء يجدون أمامهم الطريق ــ الا أقله ــ ميسرا ممهدا . فلم تطل المعركة اكثر من ثمانية وثلاثين يوما ، أسر فيها الحلفاء زهاء مائة وخمسة وعشرين ألف أسير !



الملك عمانويل

ملك ايطاليا الذى أفلح أخيراً فى إقصاء الفاشستية ، ولكنه اضطر مع حكومته الى الانتقال الى صقلية



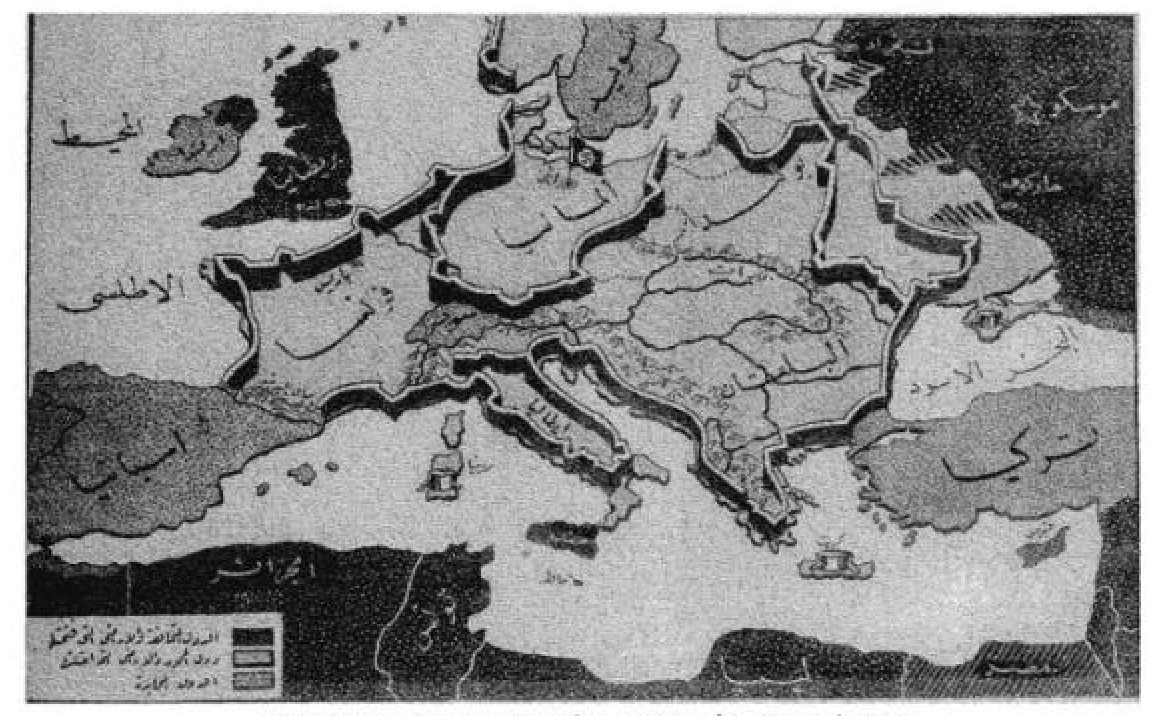
المارشال بادوليو

وقد تولى زمام الحكم فى ايطاليا بعد إقصاء موسولينى وقبل التسليم بلا شرط ولا قيد



موسولينى

أضاع نفسه وشعبه بتماديه وركوب رأسه ودخل هذه الحرب ، وقد استطاع الألمان أن ينقذوه من الأسر



تبين هذه الخريطة قلعة هتلر الأوروبية التي كان يزعم أنها لن تنال ، وقد بينا عليها خطوط الدفاع التي أقامها الألمان، والتي أحدث الحلفاء ثغرة فيها في إيطاليا ويتهيأون لإحداث ثغرات أخرى في عدة جهات منها



سيل النجدات الذى لا ينقطع لقوات الحلفاء فى إيطاليا لمواصلة التقدم وقهر الألمان . . . وقد التقطت هذه الصورة إبان معركة ساليرنو ، التى استطاع بها الحلفاء تثبيت أقدامهم ضد أعنف هجوم قام به الألمان

وانسحب ما بقى من قوات المحور عبر مضيق مسينا ، والحلفاء فى إثرهم يتعقبونها ويطاردونها ، حتى نزلوا وراءها أرض إيطاليا . وكان اخفاق الفاشستية فى توجيه سياسة إيطاليا منذ بدأت الحرب ، دافعا للشعب الإيطالى على التألب والثورة عليها ، ساعيا الى القاء زمامه الى رجل يستطيع انقاذه مما جرته عليه من فواجع ونكبات . واتقدت الثورة قليلا ، فتولى الامر بادوليو ، وهو جندى قديم ناهض الفاشستية وعاداها طويلا ، فاعتقل موسولينى ونفر من أعوانه ، وطوردت الفاشستية وألغيت منشآتها ومناصبها . وبدأ بادوليو يتصل بالحلفاء ليهادنهم . وكانت قواهم حينذاك تتقدم فى ارض الوطن قدما ، ولا قبل للجيش الإيطالى بل ولا رغبة له فى حربهم ومقاومتهم ، فقبل بادوليو التسليم بلا شرط ولا قيد كما أراد الحلفاء

وأسرع الالمان واحتلوا شمال إيطاليا ثم هبطوا الى جنوبها ، وأطلقوا سراح موسولينى ليتخذوه اداة لهم ينفذ مآربهم فى بقاء عمود المحور متصلا بين برلين وروما . فانتقل ملك إيطاليا ، الممثل الحقيقى للشعب الإيطالى ، وبادوليو ، القائد الاول للجيش الإيطالى ، الى أرض صقلية ، وأقيمت الحكومة التى تسعى الى انقاذ الوطن من براثن هتلر وجيوشه . وهكذا غدت أرض إيطاليا مسرحا لحرب تصلاها من ناحيتين : فثمة الحرب الاهلية بين فلول الفاشستية والجيش الإيطالى يؤيده الرأى العام ، وثمة الحرب الدائرة بين جيوش الحلفاء وجيوش ألمانيا

على أن قلعة هتلر لا تتعرض للهجوم عليها من هذه الجبهة وحدها ، فثم جبهة أو جبهات أخرى تتأهب قوات الحلفاء لفتحها والنفاذ منها ، وانه ليوم قريب جدا هذا اليوم الذى تزحف فيه قوات الحرية قادمة من شواطىء أوربا الجنوبية والغربية لتتلاقى فى قلب ألمانيا ، فى برلين ذاتها ، مع قوات الحرية القادمة من سهول روسيا ، حيث ترتد جيوش المحور فى كل يوم حاملة وزر الحرب وخزى الهزيمة معا

وهكذا تغدو أوربا التى زعمها هتلر حصنا لا سبيل الى اقتحامه ، سجنا لا سبيل الى الفرار منه ! وهكذا يثبت التاريخ مرة أخرى ان سيد الله سيد اليابسة !

العلم والعالم

أثر الحرب في الطعام

أدت الحروب الماضية الى تغيير كبير في «الطعام» ، فابتكرت ألوانا جديدة منه ، وهدت العلماء الى طرق جديدة في اعداده وتهيئته

فالحروب النابليونية علمت الناس « حفظ الاطعمة » في أوعية من الصفيح تفرغ من الهواء ليبقى فيها الطعام سليما من التعفن أمدا طويلا . وفي الحرب العالمية الماضية ابتكر العلماء « اللبن المتبخر » الذي يحول بعملية التصعيد الى سائل يشرب

أما الحرب العالمية الحالية فسيكون أكبر آثارها في الطعام تجفيفه من الماء - فان انتشار الجيوش المقاتلة في قارات الارض ، وتخصيص أكثر السفن لنقل الجنود وما يلزمهم من السلاح والذخيرة ، أوجبت ضرورة تجفيف الاطعمة التي ترسل الى هؤلاء الجنود من الماء ، ليخف حملها ويتيسر نقل أكبر كمية منها في أضيق مساحة من السفن

وقد كتب مستر كلود ويكارد سكرتير وزارة الزراعة الامريكية بحثا في أثر هذا الكشف العامي قال فيه :

« ان تجفيف الطعام سيخلق أمام هتلر مشكلة كبرى . وسيكون له أثر كبير في توجيه مجرى الحرب القائمة . فان كل طن من الماء ينزع من اللبن أو اللحم أو الفاكهة أو الخضروات، يعادل تماما طنا من القنابل يلقى على مدن المحور ، وكل طن من الماء نعجز عن تجفيفه قد يؤدي الى اجاعة فريق كبير من جنودنا ومن حلفائنا . ذلك أن الشعوب المتحدة تساهم في حرب تشمل الارض كلها ، وتنقل رجالها وعتادها الى كل ركن من اركان الارض . وليس لديهم من السفن ما يكفي لنقل كل ما يجب عبر البحار . فلا بد من تركيز ما ينقل في أضيق مساحة من هذه السفن - وهذا يقتضى تجفيف الطعام من الماء

« والماء يكون الجزء الاكبر من الطعام . فثلاثة أرباع البيضة الطازجة ماء . وثلثا اللحم ماء . وتسعة أعشار أكثر الفواكه والخضروات واللبن ماء . فلماذا تكلف السفن أن تأتي من أقاصي الارض محملة بالماء مع انه موجود في كل مكان في الارض ، حتى صحراء افريقيا ، حيث يكون ماء النيل أيسر منالا من ماء أمريكا . والواقع ان السفينة تستطيع ان تحمل ثلاثة أو أربعة أمثال ما تحمل من الطعام اذا أمكن تجفيفه»

وقد نجحت التجارب التي أجراها العلماء لتجفيف أكثر ألوان الطعام من الماء ، وختم مستر ويكارد بحثه بجدول عن الكميات التي ينتظر ارسالها في بحر العام القادم الى شتى الاقطار ، ومنها يتبين ان كمية أخرى تقدر بعشرات الملايين من الارطال من البيض واللبن واللحم والفاكهة والخضر ، سيتيسر نقلها من امريكا الى أرجاء العالم على نفس السفن المخصصة الآن لنقل الطعام

الأمهات والسجائر

من العادات المرذولة التي شاعت في المجتمع الحديث ، وعمته بجميع طبقاته العليا والوسطى والدنيا ، عادة اقبال النساء على التدخين . واذا كان تدخين الرجل سيئة ، فان تدخين المرأة سيئتان . لان الضرر لا يقتصر على ما يصيب

جسمها وجيبها فحسب ، بل يتعداها الى أولادها

فقد أدلى الدكتور هاريس ريلمان الاستاذ بجامعة فيلادلفيا الامريكية أمام « الجمعية الطبية الامريكية » ببحث أثبت فيه ان اطفال الامهات اللاتى يدخن السجائر يولدون وبهم استعداد جسمانى للتدخين ، ذلك ان دمهم يمتص — وما زالوا أجنة فى بطون أمهاتهم، ثم وهم رضع يرشفون ألبانهن — بعض النيكوتين الذى يسرى فى دم الامهات

وأجرى هذا العالم بحثه على خمس وخمسين سيدة ، بعضهن يدخن بين سيجارة واربع فى اليوم ، وبعضهم ما بين خمس وعشر سجائر ، وبعضهم ما بين احدى عشرة وعشرين سيجارة أو أكثر فى اليوم ، فثبت له ان الاطفال الذين حملوا أو رضعوا فى فترة التدخين ، خرجوا الى الحياة وفى دمهم كمية من النيكوتين ، تجعلهم متى شبوا فى حاجة الى التدخين لتموين دمهم بهذه المادة التى امتصها وما زال جنينا أو رضيعا

فلعل فى هذا البحث ما يصرف السيدات عن هذه العادة المرذولة . واذا كان قد قيل ان الخمر أم الكبائر ، فانه يمكن أن يقال ان الدخان كثيرا ما يكون تمهيدا لبعض الكبائر . والواقع أن كثيرا من الشبان المنحرفين عن جادة الخلق القويم ، بدأوا انحرافهم بعادة التدخين

غدة الذكاء

عرف « فورنوف » ببحوثه فى الغدد وعلاقتها باطالة العمر وتجديد الشباب ومع ان هذه البحوث لم يجمع العلماء على صحتها، بل ماتزال موضع الريبة منهم ، الا أنها أحدثت فى عالم الطب حركة كبيرة ، وفتحت أمام العلماء أفقا واسعا للبحث والكشف فى علاقة الغدد بالحالة الجسمانية ، والحالة الخلقية كذلك

وقد كشف فورنوف عن غدة لها صلة بذكاء الشخص وغباوته . وموضع هذه الغدة فى مقدمة العنق أسفل « تفاحة آدم » . وقال فيها : «يمكن أن يقال بدون مبالغة واسراف أن الذكاء يوجد أو ينعدم نتيجة هذه الغدة وحدها » . فاسراف هذه الغدة فى الافراز يؤدى الى الجنون المصحوب بالذكاء ، وخمولها فى الافراز يؤدى الى الغباوة والبلادة ، مصحوبتين بأعراض جسمانية منها سقوط الشعر وتشوه بعض سمات الوجه أو اليد »

ولكن مهمة هذه الغدة تقتصر على سن الطفولة والصبا والشباب الى منتصف العمر ، أما بعد ذلك فلا يكون لافرازها أثر مهم . وعلى كل فمن المعروف ان الذكاء يقف نموه فى سن مبكرة ، تتراوح بين الخامسة عشرة والعشرين وأما ما ينمو بعد ذلك فمظاهر الذكاء المكتسب من الخبرة والتجربة ومن الدراسة والثقافة ومن التمرن على التفكير

قيمة الحشائش الغذائية

فى الاساطير القديمة ان ملك فارس «نبوخذ نصر » كان يزحف على ساقيه وقدميه ليسعى فى الارض يأكل حشائشها التى كان يسيغها ويؤثرها على سائر ألوان الطعام . وقد اثبتت بعض البحوث العلمية الحديثة ان ملك هذه الاسطورة لم يكن مخبولا ، فان فى حشائش الارض التى تأنف من تناولها من القيمة الغذائية ما يفوق مثلها فى كثير من ألوان الخضر والفاكهة التى تطعمها

وأهم هذه الحشائش من هذه الوجهة هو البرسيم . فقد وجد انه يحتوى على جميع انواع الفيتامين . بل ان ما فيه من الفيتامين يوازى ما فى الفواكه والخضر المجففة ثمانى وعشرين مرة ، وما فى الجزر ثلاثا وعشرين مرة ، وفيه من فيتامين ب ٢ مثل ما فى الخيار اثنين وعشرين مرة ، ومن فيتامين ج مثل ما فى الطماطم اربع عشرة مرة

ولا تقتصر فائدة البرسيم على هذا ، بل انه خير غذاء يقدم للجرحى من الجنود وغيرهم

لاحتوائه على فيتامين الذى يلزم لمن استنزف بعض دمهم ، ولا شك ان لهذا النبات الذى لا يأكله الآن سوى البهائم الفضل فى انقاذ حياة عشرات الآلاف من الجنود الجرحى الذين يتناولونه بعد تجفيفه وسحقه

وينبت فى الولايات المتحدة الامريكية وفى كندا نوع معين من البرسيم يجفف ويسحق ، ويؤخذ غذاء ودواء . ورطل واحد من هذا المسحوق يحتوى على كمية كبيرة من فيتامين « ا » تكفى جسم الانسان العادى مدة خمسة اسابيع . وقد انشىء فى مدينة اونتريو مصنع خاص لتحضير هذا المسحوق الذى شاع استعماله فى صيدليات امريكا ومستشفياتها . ويقدر ما يصدر منه الى خارج امريكا فى كل عام بألفين وخمسمائة طن . ولا تزال ابحاث العلماء جارية فى استنباط ما يحتويه هذا النبات من القيمة الغذائية الكبيرة

تأثير المناخ فى الحضارة

طرق هـذا الموضوع كثير من كتاب علم الجغرافيا وعلم الاجناس ، ولكن بحوثهم لم تتعد بيان ما للمناخ من اثر فى نشاط الجسم وخموله . فقالوا ان الحضارة الانسانية نشأت فى المنطقة المعتدلة ، اما المنطقة الحارة والمنطقة الباردة فلم تنشأ فيهما اية حضارة كبرى ، وذلك لما ينجم عن الجو الحار من خمول فى الجسم ، وعن الجو البارد من انصراف الى تلبية مطالب الجسم وجمعها من قوت وكساء ، بينما يهيىء الجو المعتدل للانسان ان يعمل ويجد دون أن يركز كل جهده فى امر الطعام واللباس ، بل يبقى منه مايصرفه لانشاء مرافق الحضارة الاخرى

ولكن الاستاذ « كلارنس ميلز » يعرض للموضوع من وجهة أخرى . فهو يتناول أثر المناخ فى نباتات الارض وثمارها مما يتناوله الانسان طعاما له . فيرى ان نباتات المنطقة الحارة ينقصها كثير من انواع الفيتامين اللازمة لبناء اجسام قوية متينة تقاوم المرض وتقوى على العمل . والصحة والنشاط هما العنصران اللازمان للانسان الذى يريد ان ينشىء حضارة حقيقية ، وما يلقيه عليه هذا الانشاء من أعباء العمل الثقيلة . وكذلك الامر فى نباتات المنطقة الباردة ، فهى فضلا عن قلتها لا تحتوى على الفيتامينات التى تمد الجسم بما يلزمه من الغذاء . وذلك على عكس نباتات المنطقة المقبولة التى تؤتى الانسان أصلح الثمار لتغذيته وتنميته

وثمة نقطة أخرى فى اثر المناخ وهى ماينشأ عن بعض الأجواء من امراض متوطنة أو من اوبئة فتاكة . فانحطاط مستوى الشعب الهندى يرجع اولا وقبل كل شىء الى مرض الملاريا المتوطن هناك ، والذى يجتاح ملايين من الهنود فى كل عام . وكذلك الامر فى الصين التى ثبت ان كل جندى يقتل منها فى حربها مع اليابان يقابله عشرة اشخاص يموتون من مرض الملاريا ومرض الدوسنطاريا

فاذا أضفت الى مرض الملاريا فى الهند ما يعانيه ملايين من الهنود من نقص الغذاء ، بسبب الفقر من ناحية ، وبسبب نقص الوان الفيتامين فى غذائهم ، امكن ان تعلل انحطاط المستوى الاجتماعى فى هذه البلاد ، التى يقدر ان فيها مائة مليون نسمة يعيشون ويموتون دون ان يصيبوا فى يوم واحد من ايام حياتهم القوت اللازم لبناء جسم صحيح قوى

ويقول هذا الاستاذ انه كلما كان جو الاقليم جوا عاصفا كان أهله اكثر نشاطا وأوفر انتاجا . وهو الجو الذى ينجب بناة العمائر الشاهقة وناطحات السحاب ، والسفن الضخمة والمصانع الحافلة ، والسدود والخزانات ، والجيوش الجرارة والاساطيل الهائلة . وذلك لان أهل هذا الاقليم أهل نشاط وحركة وسرعة ، فلهم من حيويتهم وجهدهم ما يمكنهم اولا من تولية مطالب اجسامهم ، ثم من انشاء مرافق الحضارة المتشعبة

الحركة الفكرية

تاريخ التعليم الأمريكي

كيف صار الشعب الامريكي شعبا حرا ؟ يؤثر الحرية في حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية على كل ما عداها ، ولو أدت هذه الحرية الى كثير من المساوىء والاخطاء ؟

هذا هو السؤال الذي طرحته الآنسة اجنس بنديكت في مقدمة كتابها عن « تاريخ التعليم الامريكي » ، وأجابت عنه بأن مرجع هذه الحرية الى الارتقاء العظيم الذي شهدته مدارس امريكا وجامعاتها خلال القرون الثلاثة الاخيرة

فمنذ ثلاثمائة عام لم تكن امريكا تعرف من نظم التعليم سوى هذه المدارس الصغيرة التي تشبه « الكتاتيب » المصرية . كانت هذه المدارس ملحقة بالكنائس ، يقوم بالتعليم فيها رجال الكنيسة ومن اليهم ، مثل القسيس ومرتل الاناشيد وعامل الجرس وحفار القبور . وكان الغرض من هذا التعليم تنشئة الناس على طاعة الكنيسة واجلال رجالها ، فكان يعمل بطبيعة الامر لقتل روح الطفل وحيويته ، حتى لاتخرج به عن نطاق ما يلقى اليه من الاوامر والتعاليم

وظل الامر هكذا ردحا طويلا حتى قام نبي التعليم في امريكا ، بنيامين فرانكلين ، وأعلن في سنة ١٧٤٩ منهاجه التعليمي الجديد — هذا المنهاج الذي لا يقل أثرا وخطورة عن « اعلان الاستقلال الامريكي » ذاته . فاذا كان هذا الاعلان قد قرر حرية امريكا السياسية ، فان هذا المنهاج هو الذي أقر حريتها الاجتماعية ، وهو الذي دعم حرياتها المختلفة بأقوى الدعائم

لم يكن فرانكلين مدينا بثقافته الفذة الى المدارس والمدرسين . ولهذا كان شديد الانكار لاهمية المدرسة ولعمل المدرس . وكان يعتقد ان المدرسة الحقيقية هي الدنيا التي نعيش فيها ، وان المدرس الحقيقي هو الكتاب المفيد الممتع . وقد أعلن فرانكلين ان الغرض من التعليم ليس حشو الرأس بالعلم ، كلا ، وانما هو اضافة اكبر كمية ممكنة الى ثروة الحياة ومتعتها ، وهو خلق افراد اكثر ذكاء ، واصح تفكيرا ، واجدى نفعا مما كانوا من قبل . وكذلك قرر ان المدرسة أو الجامعة ليست نهاية مرحلة التعليم ، بل هي بدايتها ، لانها لا تفعل أكثر من ان تشوقنا الى المعرفة ، وتروضنا على التثقف والاطلاع

وتجيء بعد فرانكلين مرحلة أخرى من مراحل التعليم ، تقوم على أساس المبادىء التي وضعها المربي السويسري المشهور بستالوزي الذي طبق الآراء التي رآها جان جاك روسو في كتابه « اميل » . انشأ روسو تلميذه « اميل » في الدنيا لا في المدرسة ، فكانت كتبه هي الاحجار والاشجار والشمس والنجوم والحيوان والطيور .
وقام بستالوزي فربى جمعا من التلاميذ على هذا الاساس ، وفتح بذلك فتحا جديدا في نظم التربية . وقد نقل « هوراس مان » هذه الطريقة الى امريكا ، وانشأ فيها مدارس على هذا الغرار كانت لها أعظم النتائج . وقد لقيت هذه المدارس معونة سخية من حكومات الولايات ، واعلن أحد رؤسائها ان التعليم يجب ان يصل « الى أفقر طفل لافقر والد في افقر كوخ » . واقبل الناس عليها اقبالا شديدا اذ كان الغرض منها ان « يقضي فيها الطفل وقتا شائقا سعيدا من يومه ، يعمل ويلعب فيه مع اقرانه » . وهكذا خرجت المدرسة الامريكية في صورتها المشرقة ، التي

تجتذب اليها التلميذ اجتذابا ، بينما اقرانه في البلاد الاخرى لا يذهبون الى المدارس الا مكرهين

وتتدرج المؤلفة في بسط مراحل التعليم الامريكي حتى تصل الى المرحلة الاخيرة التي يتزعمها « جون ديوي » فيلسوف امريكا المعاصر فقد أعلن هذا الرجل في أواخر القرن الماضي ان الغاية من الفلسفة هي التعليم ، وان التعليم عملية اجتماعية ، « لان التعليم ضرورة من ضرورات الحياة ، لانه الوسيلة التي يجدد بها المجتمع نفسه ، ويحميها من خطر الموت والفناء » واذا كان العالم يشهد الآن رسوخ المبادىء الديموقراطية في امريكا ، ومدى آثارها الخطيرة في حياة هذا الشعب وسياسته — فان من حق جون ديوي ان يذكر الكتاب انه هو الذي دعم هذه الديموقراطية واذاعها بين تلاميذ المدارس وطلاب الجامعات ، بما وضع من مبادىء في التربية والتعليم تقوم على أساس ديموقراطي صرف ، أي على اساس التعاون التام بين التلميذ والمدرس ، في مجتمعهما الحر الصغير ، أي في المدرسة أو في الجامعة

سارة برنار

مشاهد من حياتها الخالدة

ما زال في حياة الممثلة الخالدة سارة برنار متسع لاقلام الكتاب ، اذ كانت حياتها الحافلة بألوان المجد والشهرة والنعيم والآلام اشبه بالاسطورة الخيالية منها بالحقيقة الواقعة

وأحدث كتاب وضع عن سارة برنار الكتاب الذي أصدره الكاتب الفرنسي « لويس فيرني » الذي مثلت سارة في اخريات حياتها بعض مسرحياته ، والذي تزوج فيما بعد من حفيدتها فله اذن من الصلة الوثيقة بسارة ما اهله لان يكتب اصح وأوفى ترجمة لحياتها

فهذه الممثلة التي طبقت شهرتها الآفاق ، والذي ما برح صوتها يرن في الآذان ، والتي ظفرت من التمجيد بما لم تظفر به احدى بنات الفن — كيف ولدت ، وكيف نشأت ، وكيف ظهرت على مرسح الحياة ، ثم كيف اصابت كل هذا المجد والتكريم ؟ لقد كانت في بدء حياتها صبية مكدودة مغمورة ، أهملتها امها وهجرتها لتفرغ لشؤون عشاقها ، واضطرت الصبية لان تكسب حياتها بعرق يديها فاشتغلت بائعة ملابس في بعض الدكاكين ، فلما لمست في نفسها موهبة التمثيل التحقت « بالكونسرفتوار » بعد ان توسط لها عشيق أمها الدوق دي مورني . ثم دخلت الكوميدي فرانسيز حيث بدأت تمثل بعض الادوار الثانوية التافهة

وفي سن العشرين حضرت حفلة أقامها نابليون الثالث في قصره ، ونهضت في هذه الحفلة فألقت قصيدة من شعر فيكتور هوجو . وكان هوجو ألد أعداء الامبراطور ، وقد ترك وطنه فرارا من عسفه ، وآلى على نفسه الا يعود الى فرنسا الا ان يسقط عرش نابليون . فلما بدأت الفتاة سارة في القاء هذه القصيدة ، قام نابليون — وكان رجلا سريع الغضب — حانقا مزمجرا ، واصطحب زوجه يوجيني ومن ورائهما المدعوون والحاشية ، تاركا بهو الحفلة صفرا الا من الفتاة وفرقة الموسيقى ! وتقدم اليها منظم الحفلة ، وقد اشفق على نفسه من أذى الامبراطور يعنف سارة ويدفعها خارج البهو ، ولم يصمد عنها الا الامير دي لين ، الذي نشأت بينه وبين سارة منذ ذلك صلة وثيقة من الود والحب ، فأراد ان يتزوجها ، ولكنها أبت حتى لا يفسد هذا الزواج ما بينه وبين أسرته ، وان ظلت العلاقة بينهما قائمة مدى العمر يوثقها ابنهما

وانصرفت سارة الى المسرح حيث بقيت سبعة أعوام مجهولة مغمورة ، الى ان اتيح لها في سنة ١٨٧٤ ان تمثل دور « فيدر » في رواية راسين الخالدة ، فاذا بها تحدث في فن التمثيل حدثا رائعا جعلها محور كلام الباريسيين ردحا طويلا . وبدأت منذ ذلك الحين تشق طريقها

الى المجد بما مثلته من مآسى ومهازل ، قامت فيها بأدوار النساء والرجال ، دون ان تهبط عن الذروة العليا فى أى دور منها

وذاعت شهرتها فى ارجاء العالم ، فدعتها دور الاوبرا الكبرى فى اوربا وامريكا ،فطوفت فى عواصم القارتين حيث كانت تستقبل كما يستقبل الملوك والفاتحون ، وجمعت من ذلك ثروة طائلة قدرت بمليونين من الجنيهات ، وان كانت قد ماتت غارقة فى الديون

ولما عادت من رحلتها الطويلة الى فرنسا وجدت قلوب أهل باريس منصرفة عنها ، فهل انتهى امرها ؟ كلا ، ففى يوم ١٤ يوليو سنة ١٨٧١ دعيت الممثلة الفرنسية مدام آجار لالقاء نشيد المارسلييز فى الحفلة الكبرى التى اقامها رئيس الجمهورية فى دار الاوبرا ، وكان لهذه الممثلة عشيق من الضباط يقيم فى بلد ناء عن باريس ، فدبرت سارة أمرا ليخلو لها الجو ، اذ ارسلت الى الممثلة قبيل الحفلة تنبئها بمرض عشيقها مرضا خطيرا ورغبته فى ان يراها قبل ان يموت ، واسرعت الممثلة الى بلد عشيقها ، ولم يجد منظم الحفلة من حل سوى ان يستدعى سارة لالقاء النشيد ، ونهضت سارة ، ورن صوتها فى ارجاء الحفلة ، حتى اذا بلغت قولها : الى السلاح ايها المواطنون ، بكى كل من فى الحفل رجالا ونساء ، ولما انتهت من نشيدها وهى رافعة يدها الى أعلى ، جاثية امام العلم الفرنسى المثلث الالوان ، هتف كل من فى الحفلة ومعهم رئيس الجمهورية ، باسمها هتافا عاليا مدويا ، وهكذا استعادت اسمها ومجدها

ولم تخلص ممثلة لفنها مثلما أخلصت سارة. فلما حوصرت باريس فى سنة ١٨٧٠ وهجرتها حكومتها واكثر أهلها ، ابت سارة ان تفارقها، بل اقامت مسرحها فى احد مستشفياتها وكان من الجنود الجرحى حينذاك جندى بسيط اسمه فوش ، وهو الذى صار فيما بعد قائد جيوش الحلفاء فى الحرب الكبرى الماضية ، والذى رد جميل سارة بأن زارها بعد ذلك بأربعين سنة فى مستشفى بوردو حيث بترت ساقها ، وبرغم هذه العاهة التى اصابت الممثلة الكبرى لم تترك فن التمثيل حتى قضت نحبها وقد بلغت من المجد — كما يقول الكاتب الفرنسى الكبير جول ليمتر — مثلما بلغ الغزاة والقياصرة »

آراء غاندى

بقلم أحد أصدقائه الهنود

ما من زعيم من زعماء العصر الحديث حير خاصة المفكرين ، كما حير عامة الجماهير ، مثلما فعل المهاتما غاندى . ومرجع هذا الى ان الصوفية الهندية التى هى لباب سياسة غاندى ومبادئه تكاد تكون مجهولة لعامة المثقفين فى العالم . ثم ان اكثر من كتبوا عن غاندى لاتربطهم بغاندى أية صلة وثيقة ، بل منهم من لم ير من غاندى سوى صورته المنشورة فى الصحف . فكانت كتاباتهم بطبيعة الحال غامضة ، ناقصة ، لا تنفذ الى الصميم من قلب الرجل

والواقع ان فى العالم اليوم زعيمين غامضين: هتلر وغاندى . اما غموض هتلر فيرجع الى هذا الجو الغريب الذى احيطت به حياته واعماله عن قصد وعمد ، ليبدو امام الشعب الالمانى من ناحية ، وامام العالم جميعه من ناحية أخرى ، فى صورة رائعة مروعة ، هى — كما يقول دعاة الالمان — صورة يد القدر التى ستفصل فى أمر العالم ومستقبله فصلا حاسما . اما غموض غاندى فلا يرجع الى شيء من هذا . فليست من حوله وزارة دعاية توهم الناس بأمور لا حقيقة لها ، ولا من طبع الرجل ان يظهر فى هذه المشاهد المسرحية التى ألفها هتلر واجادها — كلا ، وانما مرجع الغموض فيه الى النقص فيما كتب عنه ، لا يستثنى من ذلك ما كتب عنه قدحا وتسفيها ، وما كتب ثناء وتمجيدا

ونحن الآن فى صدد كتاب عن غاندى من

نوع جديد . كتبه صحفى هندى اسمه « رامان » تربطه بغاندى صلة وثيقة من الصداقة والمودة ولهذا يؤثر غاندى صحيفته الذائعة فى ارجاء الهند بكثير من مقالاته التى يشرح فيها سياسته ويبشر فيها بفلسفته . وهذا الصحفى يدين بآراء غاندى الوطنية ، ويريد ان يشرح هذه المبادىء للعالم عامة ، وللشعوب الانجليزية خاصة ليوضح حقيقة الامر الذى افسدته الدعاية السياسية من ناحية ، وافسدته اعمال بعض الوطنيين الهنود من ناحية أخرى

ومؤلف الكتاب لا يريد ان يشرح آراء غاندى او يدافع عنها ، بل هو يقنع بأن يعرض مجرد أقواله فى شؤون الهند وسياسة العالم ، تاركا القارىء يحكم لها او عليها كما يشاء. ولكنه يريد من حين الى حين ان يوضح وجوه الشبه بين فلسفة غاندى وبعض المذاهب الدينية التى ابتكرها المفكرون الانجليز . وهو يقارن هنا بالذات بين أقوال « جورج فوكس » واقوال غاندى ، فنرى ما يسميه غاندى بسياسة عدم العنف ، هو ما سماه فوكس بالمقاومة السلبية. وما يسميه غاندى بقوة الروح ، هو ذات ما عبر عنه فوكس بالضوء الداخل . وهذا وجه جديد من وجوه المقارنة بين غاندى وغيره من الفلاسفة لا نعرف أحدا سبقه اليه ، فقد كانت اكثر المقارنات تعقد بين غاندى وتولستوى ، أو بين غاندى والكاتب الامريكى هنرى ثورو مبتكر سياسة العصيان المدنى

ويبين الكاتب أثر غاندى فى سياسة الهند ، وكيف انه هو الذى يكسر من حدة رجال المؤتمر الوطنى ، سواء من كان منهم معتدلا مثل نهرو ، او متطرفا مثل بوزا ، وذلك انه لا يريد — كما يريدون — ان يكون للسلاح عمل ما فى سياسة الهند . بل هو يريد حين تظفر الهند باستقلالها ان تتخلص من قوتها المسلحة ، وتبتعد كل الابتعاد عن سياسة الحرب والمقاومة العنيفة. ويدفع الكاتب التهمة الموجهة الى غاندى من انه يؤثر اليابان على الانجليز ، او انه يريد ان يفسد على الانجليز خطتهم فى حماية الهند من الغزو الياباني ، وذلك كله بما يورده من اقوال غاندى وكتاباته

من حكمة الصين

كان معلم الصين الاكبر كونفوشيوس يتروض ذات يوم فى احدى المناطق الجبلية ومعه جمع من تلاميذه ومريديه يستمعون قوله ويتلقون عنه الحكمة . فمروا بامرأة جالسة أمام قبر بنى حديثا وهى تبكى بكاء شديدا . فأرسل كونفوشيوس أحد تلاميذه يسأل المرأة ما خطبها. فأمسكت المرأة عن البكاء وأخذت تقص على التلميذ قصتها . فقالت : « انى أعيش الآن منفردة فى هذا المكان القفر وراء هذا الجبل النائى . ذلك أن نمرا افترس منذ سنين أبى ، ثم عاد فافترس زوجى ، ثم انقض على ابنى منذ أيام فافترسه ، فتركنى بجبة ، أرملة ، ثكلى » ثم عادت تبكى وتنتحب مما أصابها

فسألها الحكيم : ولم تؤثرون العيش فى هذا المكان الموحش ، بجوار هذا النمر الضارى ؟

فقالت المرأة : لان هذا المكان القفر خلو من الموظفين الاشرار الذين يسيئون معاملة الناس ويرهقونهم بالضرائب والمكوس

فلما سمع الحكيم هذه الكلمات التفت الى تلاميذه قائلا : « اصغوا يا أبنائى الى قول هذه المرأة ، فان الموظف الشرير لاقسى وأضرى من الوحش الكاسر »

الكتب الجديدة

العبقريات الثلاث : للأستاذ عباس العقاد

نقد وتحليل بقلم الاستاذ نقولا حداد

لم تقم في نيويورك بناية امبير ستايت ، ذات المائة طبقة والطبقتين ، والتي تسع ٢٥ ألف نسمة في مكاتبهم وادارات أعمالهم ، لو لم يكن تحتها أساس عظيم قوي راسخ

ولم تثبت العقيدة الروحية التي استوعبت نحو ٤٠٠ مليون نفس والتي طوت ١٣ قرنا لو لم تكن قائمة على أركان أرسخ من الجبال

قامت الاسلامية على ثلاثة أركان لا تقوم عقيدة روحية أو اجتماعية أو سياسية الا بمثلها وهي:

١ — الروحانية النقية
٢ — الفضيلة النفسية
٣ — القوة الحقانية

محمد . وأبو بكر . وعمر

هذه هي العبقريات الثلاث التي حللها الاستاذ عباس محمود العقاد تحليلا فلسفيا

اذا درست سير هؤلاء العظماء الثلاثة وكنت حاد البصيرة ، فقد تتخيل هذه الاركان أشباحا متغلغلة في غابات التاريخ الغضة

ولكن العقاد أراكها أركانا باسقة باذخة في غابات التاريخ يقوم عليها البناء العظيم الضخم الشامخ الشاهق

يريك في حياة محمد صلى الله عليه وسلم روح النبوة الصادقة التي بزغت فيها شمس وحدانية الله في آخر ليل الوثنية الأليل المتخبط بالجهل وطموس التعقل حيث توارت رموز الحق في ترهات الباطل

ويريك في حياة أبي بكر شعلة الفضيلة التي ترسل أشعة الايمان الساطعة الى الآفاق الاربعة

ويريك في حياة عمر قوة الحق التي جذبت الشخصيات الصافية العنصر الى مركز دائرة الحقيقة

***

وكان عمر أول من بايع ابا بكر وقال له : أنت أفضل مني . فقال ابو بكر : أنت أقوى مني . فعاد عمر يقول : وان قوتي لك مع فضلك

فاعجب بشخصيتين تتنازعان الاعتراف الواحدة بأفضلية الاخرى

وهكذا اجتمع الحق والفضيلة والقوة في مركز واحد تموجت منه أشعة الايمان الى جميع الاقطار

***

العجيب أنه في ذلك الجو الوثني الذي طمست فيه الخرافات والتقاليد السخيفة المتحجرة عقول الاعراب وغيرهم من الامم المحيطة بهم ، تبرز ذاتية ممتازة في ادراك الحق وفي فمها شعلة الحقيقة الروحانية — وحدانية الله — ثم تظهر الى جانبيها ذاتيتان أخريان ممتازتان في قبول الحق فتقبسان من الشعلة مشعالين لانارة ذلك العالم الغريق في بحر من الجهل

حقا انه لغريب أن يبرز النور من صميم الظلماء . وغريب أن تولد تلك الجهالة الطامسة تلك العقليات النيرة — أيمكن أن تبزغ الشمس من كهف وأن تصدر الحكمة من سخف ؟

كلا . ما ذلك الا الهام . حقا انه لالهام

وهكذا تجلت الالوهية مرة أخرى للبشر لتخرجهم من مجاهل الضلال

***

ليس في دعوة محمد (صلعم) الى عقيدة شاذة عن عقائد عصره وآله ما يستهوى الشهوات الجسدية لجر مغنم أو دفع مغرم . ليس فيها شيء من هذا حتى يجنح اليه اثنان يكادان يكونان نبيين . وانما في دعوته الحقة ما يستهوى النفس الصالحة لاعتناق الحق

أما أبو بكر فقد سحرته أخلاق سامية شهدها في النبي (صلعم) لم يشهد ما يدانيها في أحد من الناس : جاء محمد الى المسجد للدعوة العامة فاتصل خبرها بأبي بكر فجاءه يسأله :

— يا ابا القاسم . ما بلغني عنك ؟

فسأله النبي : ما بلغك عني يا أبا بكر ؟

قال : بلغني انك تدعو الى توحيد الله وتزعم أنك رسول الله .

قال : نعم يا ابا بكر . ان ربي جعلني بشيرا ونذيرا وجعلني دعوة ابرهيم وأرسلني الى الناس

فما أبطأ أبو بكر أن قال : والله ما جربت عليك كذبا . وانك لخليق بالرسالة لعظيم أمانتك ، وصلتك لرحمك ، وحسن فعالك . مد يدك فاني مبايعك

كانت تلك الكلمات المعدودات التي سمعها أبو بكر من النبي أمرا ملهما من الله فآمن

وكان عمر يقاوم دعوة النبي بشدة . فلما قرأ الآيات التي شج رأس أخته لانها كانت تقرأها ، ندم على ما فعل وادعوى وأسرع الى محمد يؤمن عليه اسلامه

وهذا أيضا سحرته كلمة الله

كلا الصاحبين أسلما لا لهوى شهواني ، بل لالهام رباني واقتناع نفساني

***

امتاز كل من هؤلاء العباقرة الثلاثة بين أقوام العرب بثلاث خصال :

١ — ادراك الحق بمذاهبه واعلائه بأنواره فلا يرده عنه حب ذات أو هوى نفساني أو خوف عدوان أو غرور أو اغترار أو زهو أو اعتداد باقتدار

٢ — رفعه قسطاس العدل بين النفس والناس ثم بين المحتكمين ، ثم بين المحكومين ، بلا تشيع ولا تحيز ولى حكمته قوة تحفظ القسطاس متوازيا

٣ — طيبة القلب . فهو الى الرحمة في موضعها أميل والى عمل المعروف في محله أشوق والى المروءة أسرع ، وبالتضحية أجود متى كان وراءها خير عام

هذه رئيسيات أخلاق هؤلاء العباقرة كما يستخلصها القارئ مستبحرا ومستخرجا من معادنها فلسفة العقل وفلسفة الاخلاق . وفلسفة السياسة

في الأدب المصرى

تأليف الاستاذ أمين الخولى

من العسير علينا أن نلخص هذا الكتاب ، أو نقدمه الى القراء في أسطر قليلة ، لان كل كلمة منه قد وزنت ، وقدرت ، ثم وضعت في مكانها بحيث لا تستطيع أن تستغنى عنها أو تبدلها بكلمة سواها

أما صاحب الكتاب ، فهو الاستاذ الكبير أمين الخولى الذى يرى أن يكون شعار العلماء قول الشافعي : « وددت أن ينتفع الناس بهذا العلم دون أن ينسب الى منه شيء » ورأيه في نشر الكتب وبيعها ، رأى مثالى نرجو أن تتهيأ له الحياة العلمية في مصر ، لذلك لم يطبع من آثار الاستاذ الا ما نشرته الدوائر العلمية ، أو ينشره تلاميذه . وهذا الكتاب الجديد قد نشره الاستاذ عبد الحميد يونس أحد تلاميذ الاستاذ ، وعضو ترجمة دائرة المعارف الاسلامية

وأما الكتاب فهو فكرة ومنهج ، وأصل الفكرة أن تدرس مصر نفسها في كل شيء وقبل

كل شيء ، اذ تقضي بذلك اعتبارات كثيرة ، أهمها الاعتبار الفني الادبي ، الذي صحح به الاستاذ خطأ ماديا شائعا ، مضى معه مؤرخو الآداب ، يدرسونها قطعة واحدة ، غافلين عن أثر البيئة التي يقرره العلم قويا فعالا عنيفا ، كأن من السهل على العقل أن يسلم بهذه الوحدة المدعاة لآداب اللغة العربية ، وقد عاشت في أقطار مترامية البعد ، وبين أمزجة متباينة الخصائص ، وأجناس مختلفة الالوان ، وحضارات متفاوتة الاعمار !

وعلى هذا الاساس العلمي ، نهض الاستاذ يدعو الى « الاقليمية في الادب » وينادي بدراسة الادب المصري دراسة مفردة متميزة مستقلة تصحيحا للمنهج ، وايمانا بالشخصية المصرية

***

وأما حديثه عن المنهج ، فعنده أن خطوات الدراسة الادبية يجب أن تكون ثلاثا : ما حول الادب ، والادب ، ثم تاريخ الادب . وقد مضى الاستاذ يفصل كل مرحلة منها ، ويبين ما يجب أن نعد لها ، مما لم توجه العناية اليه ، مع دعوى النهضة الادبية الشاملة

***

وما بنا الآن أن نبسط هذا المنهج ، فان كل كلمة فيه تستحق أن تقرأ ، وحسبه أنه قد بريء من الاستهواء الخطابي والفتنة الصناعية ، فكان له من قوة الحجة ، ودقة التفكير ، وتصوع البيان ، ما يستهوي العقل الكبير والنفس الشاعرة

مطالعات علمية

تأليف الدكتور على مصطفى مشرفة

يصدر هذا الكتاب في وقت اشتدت حاجتنا فيه الى غذاء من الثقافة العلمية ، يعين على تكوين العقلية الحديثة ، ويؤيد نهضتنا الثقافية المرجوة ويساعد شبابنا المثقف على مواجهة الحياة الجديدة العاملة

والاستاذ الجليل « الدكتور على مصطفى مشرفة » عميد كلية العلوم بجامعة فؤاد الاول هو أحد علمائنا البارزين ، الذين أدركوا ما يعوزنا من هذه الثقافة ، فجدوا في سبيل تزويدنا بها . وكتابه الجديد « مطالعات علمية » هو مجموعة من الرسالات والاحاديث العلمية ، تحدث فيها عما يجب للمثقف معرفته عن الارض والكون والطبيعة ، والاثير ، والمادة ، والاشعاع ، ثم عالج الدكتور بعد ذلك طائفة من المسائل العلمية التي تتصل بنا اتصالا مباشرا ، كالبحث في صلة العلم والعمران ، واللغة العربية كأداة علمية ، والحياة العلمية في مصر ، وختم كتابه ببيان الوسائل لتوجيه العلم والعلماء ، الى تحقيق تعاون عالي

وأسلوب الكتاب علمي مبسط ، يجمع بين دقة البحث ، وسلامة المنهج ، وسهولة التعبير ، وفيه مجموعة من اللوحات والصور

وهو مطبوع طبعا متقنا في نحو ١٦٠ صفحة كبيرة وثمن النسخة منه خمسون قرشا

روابط الفكر والروح

بين العرب والفرنجة

تأليف الاستاذ الياس أبو شبكه

أهدت الينا « دار المكشوف » في بيروت ، نسخة من كتابها الحديث « روابط الفكر والروح — بين العرب والفرنجة » للاديب المعروف ، الاستاذ الياس أبو شبكة

وهذا الكتاب ، بحث أدبي نقدي ، يؤرخ حركة الاتصال الفكري بين العرب والفرنجة ، ويرصد التيارات الادبية والروحية بين الشرق والغرب ، ويكشف عن الاحداث الفكرية التي مهدت السبل للاتصال الثقافي بينهما ، مع ترجمة دقيقة موجزة ، لاعلام الكتاب والشعراء الذين كانوا رسل الثقافة بيننا وبين العالم الغربي ، وبخاصة فرنسا وأمريكا

وكتاب الاستاذ أبو شبكة يدل على خبرة نقدية واسعة ، وقدرة فنية مواتية ، مع التنبه الدقيق اليقظ ، للاحداث الفكرية والتيارات الثقافية

قصة الأدب فى العالم

تأليف الاستاذ أحمد أمين بك وزكى نجيب

يروى هذه القصة حضرتا الاستاذين الفاضلين أحمد أمين بك وزكى نجيب محمود ، ولهما شهرة معروفة فى هذا النوع من القصص والتأليف فقد عرضنا من قبل « قصة الفلسفة اليونانية » ثم « قصة الفلسفة الحديثة »

وقصة اليوم ، يقول عنها حضرة الاستاذ أحمد أمين بك فى المقدمة : « اننا عرضنا للآداب العالمية ، قديمها وحديثها ، شرقيها وغربيها ، فى أسلوب أقرب ما يكون الى القصص ،وعرفنا بأشهر رجالها ، ولخصنا اشهر نتاجهم ، وقدمنا بعض نماذج من آدابهم »

وفى عزم المؤلفين الفاضلين ، أن ينشرا هذه القصة الطويلة فى ثلاثة أجزاء تعرض الادب فى عصوره المختلفة : (قديمه ووسيطه وحديثه)

والجزء الذى نقدمه اليوم الى القراء ، فيه حديث عن الادب القديم فى مصر ، والصين ، والهند ، وفارس واليونان ، والرومان . يتلوه حديث عن الادب فى العصور الوسطى ، مع عرض نماذج من هذه الآداب المختلفة ، بعضها بلغته الاصلية ، مع الترجمة العربية ، وبعض آخر ، مترجم الى العربية

***

ويقع هذا الجزء من قصة الادب فى مجلد ضخم جاوزت صفحاته خمسمائة » وهذا جهد كبير من المؤلفين الفاضلين ، اذ راحا يتتبعان الآداب فى شتى البلاد ، من أقدم العصور الى يومنا الحاضر ، ثم حاولا أن يقصا هذه الرحلة الطويلة فى قصة واحدة ، ويجمعا آثارها بين دفتى كتاب

وما شك فى أن رجال العلم والادب سوف يقدرون هذا المجهود حق قدره ، ويضعونه فى المكان الجدير به ، بين انتاج عصرنا الحديث .

الخطايا السبع

تأليف الاستاذ على أدهم

وهذا كتاب جديد للاديب الكبير الاستاذ على أدهم ، وقراء الهلال يعرفونه بكتاباته الشائقة فى هذه المجلة ، وهو يمتاز بالدقة والاتزان ومتانة التفكير وقوة التعبير ، وقد اختار من الآداب الاوربية المختلفة طائفة من القصص لاشهر الادباء والروائيين الغربيين ، وتحرى فى اختياره ان تكون هذه القصص جامعة للفكرة وأدب المتعة فى آن واحد بحيث تمتزج فيها الفكرة بالصورة امتزاج الروح بالجسد . وقد سمى هذا الكتاب بأول القصص وهى « الخطايا السبع » للروائية السويدية ، سلمى لاجيرليف واتبعها بقصة « حارس المنارة » للكاتب البولونى سنيكركز . ثم « الفار » للكاتب الالمانى استيفان زفايج ، و « أسرحدون ملك آشور » للكاتب الروسى الكبير تولستوى ، و « لحن الشيطان » للروائى النساوى فيليكس دورمان ، و «أزمة الاثراء » للكاتب المجرى كوزستولانى . و «قصة بلا عنوان » للروائى الروسى انطون تشيكوف ، و « فى الصومعة » للكاتب الفرنسى اناتول فرانس ، و « الفلام الابكم » للروائى الاسبانى سيدالدودى لافنت

وهكذا من كل أدب قصة أو بعض القصص مما ملأ مائتى صفحة بأسلوب رائع ، وعرض ممتع ، والاختيار يتفق وما عرف به المؤلف من اقتدار أدبى ، وذوق فنى ، ونقد صيرفى ، واصابة لاهداف التفكير الناضج والادب الصحيح وقد طبع الكتاب بمطبعة المعارف على ورق جيد، وازدان بالصور والرسوم

بين الهلال وقرائه

قصة اضطهاد اليهود

(الخرطوم ــ السودان) ا٠ ع٠ توفيق

لماذا يضطهد اليهود ؟ وما تاريخ ما لحقهم من الاضطهاد ؟

(الهلال) قصة اضطهاد اليهود قصة قديمة جدا ٠ فمنذ اربعة وثلاثين قرنا خرجوا من مصر وراء موسى فرارا من اضطهاد الفراعنة الذين كانوا يسبون نساءهم ويقتلون اطفالهم ويصادرون أموالهم

ومرجع هذا الاضطهاد الى ان اليهود لا وطن لهم ، فهم مضطرون الى ان يتشتتوا فى أقطار العالم ، يعيشون فيها كما تعيش الاقليات ، يتحملون كثيرا من الاذى والاضطهاد ٠ ويزيد فى أذاهم هذا ان اليهودى لا يستطيع ان يندمج فى الشعوب التى يعيش بينها ، بل يظل محتفظا بعادات دينية وقومية تفرق بينهم وبين الناس ، ولهذا يزداد اضطهادهم كلما كان تمسكهم بهذه العادات شديدا ، كما هو شأنهم فى روسيا وشرق أوربا ، ويخف كلما خف احتفاظهم بتقاليدهم هذه ، كما هو شأنهم فى انجلترا وفرنسا ، فاذا اندمجوا فى بقية الشعب اندماجا تاما كما فعلوا فى امريكا زال عنهم الاضطهاد تماما ، وصاروا كسائر الشعب فى حقوقه

ثم هم يلجأون فى كسب رزقهم الى مرافق تدر عليهم كثيرا من الربح والمال ، فأكثرهم يحترف التجارة ولا سيما تجارة المال ، وقل فيهم من يزاول الزراعة وهى من أقل الاعمال ربحا ، كما انهم متكبون على الاعمال الفنية والذهنية كالصحافة والتمثيل والموسيقى والطب والمحاماة والتأليف ٠ وهم لهذا موضع الغيرة من الشعوب الاخرى اذ يجدون فيهم منافسا خطيرا فى مناحى العمل التى تدر أكثر الربح ، والتى لها الشأن الاول فى حياة المجتمع

وقد فقد اليهود وطنهم قبل الميلاد بعدة قرون ٠ فقد كانوا يعيشون فى فلسطين التى كانت تنقسم الى دولتين ، احداهما فى الشمال وتسكنها قبائل اسرائيل ، والاخرى فى الجنوب وتسكنها قبائل يهوذ ٠ فأغار الاشوريون على قبائل الشمال ، ونزعوا منهم ارضهم ، وشتتوهم فى الآفاق ٠ ولم يبق فى فلسطين نفر قليل لا يزيد عن الالفين من نسل اسرائيل ، وهم المعروفون بالسامريين نسبة الى سامر عاصمة اسرائيل ٠ ثم أغار الفرس على قبائل الجنوب وهم اليهود ، وخربوا بيت المقدس ، وأسروا كبارهم ونفوهم الى بابل ٠ ومنذ ذلك الحين لم يعد لليهود وطن يلجأون اليه ، الى ان تجدد مطلبهم فى أواخر القرن الماضى بانشاء وطن قومى لهم فى فلسطين أو فى الارجنتين ٠ وقصة هذا الوطن ، وما جرى بشأنها ، معروفة ٠ على ان اليهود لم يخسروا كثيرا بفقد وطنهم ، فكثير من الامم القوية ذات الاوطان الكبيرة بادت ، مثل الفرس والرومان واليونان ، اما اليهود فما زالوا الى الآن يسيطرون على كثير من مرافق المال والعلم والنشاط الانسانى

الجنس الآرى

(القاهرة ــ مصر) ع٠ م٠

ما هو الجنس الآرى ؟ وهل اثبت العلماء تفوقه على الاجناس الاخرى ؟

(الهلال) « آرى » كلمة سنسكريتية معناها « السيد » ، كانت تطلق منذ أقدم العصور على بعض القبائل التى تعيش فى شمال الهند ، والتى عرفت بالاقدام على الحرب والبراعة فى

قديمها . ولكن هذه الكلمة لم تعرف فى أوربا الا منذ قرن من الزمان ، وكانت لا تستعمل الا فى علم اللغات « الفيلولوجى » ، فكانت تطلق على مجموعة من اللغات تتدرج من الهندوستانية الى الانجليزية

أما أول من استعملها بالمعنى الجنسى المعروف الآن فهو العالم الالمانى فريدرك ماكس موللر المتوفى فى سنة ١٩٠٠ ، فقد أطلقها على تلك الاجناس التى يقال انها هبطت فى الازمان الغابرة من جبال البامير وانتشرت فى شمال الهند وايران ، ثم عبرت سهول آسيا الغربية وتسللت الى قارة أوربا ، حيث انشأوا جميع الحضارات القديمة

وقد تناول هذه النظرية كثير من الكتاب بالتأييد والتفنيد . وكان فى مقدمة من نادى بها الكاتب الفرنسى جوزيف دى جوبينو فى رسالته عن «عدم المساواة بين الاجناس البشرية» وكذلك الكاتب الالمانى كريستيان لاش فى منتصف القرن الماضى ، وأكد تفوق الاجناس الآرية على الاجناس السامية عقلا وجسما . ومن قالوا بها المؤرخ الفرنسى رينان الذى كان من أشد أعداء الجنس السامى . وتبسط فى شرح النظرية الكاتب الانجليزى هوستن تشمبرلن الذى زعم ان كل عظماء العالم من الجنس الآرى، ومنهم المسيح عيسى عليه السلام!

ولكن اكثر هؤلاء الكتاب كانوا مدفوعين فى تأييد النظرية بدوافع التعصب الجنسى التى تغفل الحقائق العلمية . أما العلماء المخلصون لعلمهم فلا يقرون أبدا تفوق جنس على جنس . وشواهد التاريخ تؤيدهم فى ذلك . فحضارة مصر وفينيقية وبابل والصين والعرب من أعظم الحضارات التى شهدها التاريخ مع انه لا علاقة لشعوب هذه البلاد بالجنس الآرى . وبلاد السويد والنرويج التى يعد أهلها المثل الاعلى لهذا الجنس لم ينشئوا حضارة ما . والحضارة الحديثة ذاتها قامت دعائمها فى ايطاليا واسبانيا وفرنسا ، وشعوبها ليسوا من هذا الجنس الآرى

وقد دخلت هذه النظرية فى ميدان السياسة، فصارت دعامة من دعائم الفلسفة النازية . واكثر كتاب « كفاحى » يدور حول تأييد هذه النظرية والدعاية لها ، ويقتبس هتلر فى هذا أقوال هوستن تشمبرلن دون تحفظ أو تردد . بل هو ينسب هذه الاقوال لنفسه بغير مبالاة بما فيها من خطأ ظاهر . وقد اتخذت النظرية الآرية سلاحا لمحاربة اليهود الساميين ، وتسفيه حضارتهم ووصفها بأنها « حضارة هدامة »

أما البحث العلمى النزيه فلا يعترف بالفوارق الجنسية ، ولا يفوق جنسا على غيره من الاجناس وينكر ان الحضارة التى انشأها ما يسمى بالشعوب السامية كانت أقل ــ بل يؤكد انها كانت أعظم اثرا واطول أمدا ــ من الحضارة التى انشأها ما يسمى بالاجناس الآرية

وراثة الأمراض والعاهات

(مصر ــ القاهرة) قارىء

لاحظت أن بعض العائلات تنتشر فيها عاهات الصمم ، والعمى ، والبكم ، ومرض السل ، وغيره من الامراض . فهل هذه العاهات والامراض وراثية ؟

(الهلال) أكثر الامراض والعاهات لايورث ولكن بعضها ينتقل بطريق الوراثة . فهناك العمى الوراثى الذى لا يصيب البصر وصاحبه جنين أو وليد ، وانما يصيب الطفل فى عامه الثانى أو الثالث . ذلك أنه يولد حاملا جراثيم هذا المرض التى تذهب ببصره بعد ذلك . ويعرف هذا المرض فى الطب باسم « نيوراتوريم » . ويقترح بعض الاطباء تعقيم المصابين به لمنعهم من التناسل ، ورحمة لخلفهم من عاهة العمى

أما الصمم فيصيب الابن غالبا اذا كان أبواه أصمين . اما اذا كان أحدهما سليما فالغالب أن

يأتى الابن سليما من هذه العاهة . وهذا ما يثبت نظرية « تعزيز الصفات » التى تقول بأنه اذا كانت صفات الزوجين متشابهة ، سواء كانت طيبة أو سيئة، ظهرت فى نسلهما معززة مؤكدة. ويحذر الاطباء من الزواج بين الرجل الاصم والمرأة الصماء ، اذ يأتى نسلهما عادة مصابا بالصمم

أما مرض السل فغير وراثى على خلاف ما هو شائع بين الناس . ولكنه سريع العدوى . واذ كان قليل من الناس من يستطيع أن يعزل الوليد عن أمه ، فان الام المسلولة تعدى وليدها غالبا

الاوليجارشية

(بغداد ــ العراق) رمزى النسام

ما معنى حكومة الاوليجارشية ؟ وهل توجد الآن حكومة من هذا الطراز ؟

(الهلال) حكومة الاوليجارشية هى حكومة الاقلية .وهى مشتقة من الكلمة الاغريقية Oligos ومعناها عدد قليل . وفى هذه الحكومة تتركز السلطة فى أيدى فئة قليلة من الناس . أو فى أيدى بعض العائلات ، أو فى أيدى طبقة معينة من الطبقات ، على افتراض ان هؤلاء هم أفضل الناس وأحقهم بالحب والسيطرة

وكان أرسطو يقسم الحكومات من حيث عدد الاشخاص القابضين على زمام الحكم الى ملكية وهى التى يديرها فرد واحد ، وارستوقراطية وهى التى يديرها جماعة قليلة ، وجمهورية ويديرها جمهور أو عدد كبير من الامة . هذا اذا كانت الحكومة صالحة ترعى مصالح الامة . فاذا تطرق اليها الفساد وأصبح هم الحاكم تحقيق مصالحه الشخصية ، تحولت الملكية الى استبدادية والارستوقراطية الى اوليجارشية ، والجمهورية الى ديموقراطية

ونلاحظ أن أرسطو استعمل كلمة الديموقراطية فى غير ما نستعمله الآن ، فنحن نعبر بها عن حكومة الاغلبية ، أما ارسطو فيعبر بها عن حكومة السوقة والغوغاء

ولا توجد الآن حكومة اوليجارشية بالمعنى الحرفى . ولكن اذا عرفنا ان الحكومات الفاشستية كألمانيا واليابان وايطاليا تحصر مراكز الحكم والسلطة فى رجال الحزب الوحيد فيها استطعنا أن نقول انها حكومات اوليجارشية من نوع جديد

الفن الاسلامى فى تونس

(بقية المنشور على صفحة ٥٣٩)

الخليفة الفاطمى فى مصر ــ المستنصر بالله ــ لذلك شر انتقام بأن أطلق على تونس جماعات كثيرة من أعراب بنى هلال الذين كانوا ينزلون فى الصعيد شرقى النيل، فعاثوا فى البلاد فسادا واستباحوا القيروان ، ونشروا الفوضى فى كل مكان ، وطمع فيها الاجانب ، وسرعان ما أصبحت تونس نهبا مقسما بين النورمان فى المدن الساحلية والاعراب فى الجهات الداخلية ، ولم تلبث أن وقعت بعد ذلك فى يد دولة الموحدين بالمغرب الاقصى عند ما استنجد بها آخر أمراء بنى صنهاجة ، وانتقلت العاصمة الى مدينة تونس حيث لا تزال الى اليوم ، ونشأ لهذه الدولة فرع فى تونس عرف بالدولة الحفصية التى استقلت عن الدولة الموحدية وحكمت البلاد مدة طويلة نشطت فيها حركة البناء نشاطا عظيما ، فحسن بنو حفص مسجدى القيروان والزيتونة ، وأضافوا الى هذا الاخير تلك السقيفة التى تحيط به من الخارج ، كما أنشأوا كثيرا من المساجد والمدارس والزوايا والاسواق ، وخزائن

الكتب والسقايات ، وتعوزنا المعلومات الوافية عن هذه الآثار التى ضاع معظمها ولم يبق الا اسمها فى كتب التاريخ ، ويعتبر مسجد القصبة من أشهر منشآت الحفصيين ، وهو يمتاز بصومعته المربعة التى يتجلى فى زخرفتها وتصميمها أثر فن الموحدين ، وبها لوحة تأسيسية تشير الى أنها أنشئت عام ثلاثين وستمائة بعد الهجرة

الدور الخامس (٩٨١ ـ ١٢٩٨ هـ)

وضعفت الدولة الحفصية ، وطمع الاسبان ثم الاتراك فى امتلاك تونس ، وتنازعت الدولتان عليها حتى كتب النصر للاتراك ، ووضعوا لحكمها نظاما يشبه النظام الذى وضعوه لحكم مصر ، فعينوا على رأس البلاد واليا هو (الباشا) وعهدوا بحراستها الى الانكشارية وجعلوا كل مائة من هؤلاء تحت امرة ضابط يسمى (الداى) ، ووكلوا جباية الاموال بموظف يدعى (الباى) . وزاد نفوذ الداى حتى صار هو الحاكم الفعلى للبلاد ، ثم قوى (الباى) وانتصب السلطة من (الداى) وأصبح هو المدبر لشؤون البلاد ، ولما ضعف (البايات) اضطر أحدهم تحت ضغط الظروف الى الاعتراف بحماية فرنسا للبلاد فى سنة ١٢٩٨ ، ولا تزال هذه الحماية حتى الآن . وأهم الحوادث فى هذا الدور من وجهة نظر مؤرخ الفن ثلاثة : صيرورة البلاد جزءا من الامبراطورية العثمانية ، وهجرة كثير من الاندلسيين اليها فرارا من ظلم الاسبان ، وقد رحب بهم التونسيون حكومة وشعبا ، فاقطعوهم الاراضى ويسروا لهم سبل العيش ، وأخيرا اتصال أوربا بتونس عن طريق الحرب والتجارة والهجرة . وقد تركت كل من هذه الحوادث آثارا واضحة فى الفن التونسى ، فالتأثيرات التركية نراها ظاهرة فى صوامع مساجد هذا العصر ، ومسجد (سيدى محرز) يذكرنا بقبابه وجدرانه المزدانة بالقاشانى بمسجد السلطان احمد فى القسطنطينية ، كما أنه يشبه فى تصميمه مسجد محمد على بالقلعة . وأثر الاندلسيين تجده ماثلا فى كثير من المبانى والمصنوعات حتى تلك التى لا تزال تصنع الى اليوم ، ولا عجب فقد رد الاندلسيون جميل التونسيين بنشر أسرار صناعاتهم وفنونهم فى البلاد . ومسجد (يوسف صاحب الطابع) ، وأعمدة مسجد (حموده باى) يبدو فيها التأثير الايطالى ، وفى المتحف العلوى الموجود بقصر باردو (من ضواحى تونس) تحف تونسية اسلامية تتجلى فيها هذه التأثيرات المختلفة

* * *

هذه كلمة موجزة استعرضنا فيها تطورات الفن الاسلامى فى تونس منذ غزاها العرب حتى بسط الفرنسيون عليها حمايتهم ، ولقد ورثت تونس عن الماضى تقاليد فنية مختلفة ، كما تأثرت منذ الفتح العربى بطرز فنية اسلامية شتى : بالطراز الاموى والطراز العباسى والطراز الفاطمى والطراز الموحدى والطراز الاندلسى ، ولكنها لم تقف من هذه التقاليد الفنية وتلك الطرز المتباينة موقف المقلد ، بل مزجتها جميعا فى بوتقتها ، وسلطت عليها أشعة عبقريتها ، فخرجت من بين يديها فنا جديدا له طابعه الخاص ، هو الفن التونسى الاسلامى

محمد عبد العزيز مرزوق

فهرس الهلال

الجزء الرابع من المجلد الحادى والخمسين

التعاون العربي

آراء الأساتذة :
خليل مطران بك
أحمد أمين بك
محمد فريد وجدي

ما هي المشاكل التي تواجه العرب في العمل لتعاونهم الثقافي ، وما هي الأسس التي يقوم عليها هذا التعاون ، وما هو السبيل اليه — ذلك ما يتناوله كتابنا الثلاثة في هذا المقال

رأى الأستاذ خليل مطران بك

التعاون العربي كان وما زال واجبا في كل حين وسيكون غدا أوجب

الامة العربية جمعاء على اختلاف أقطارها ترى ضرورة هذا التعاون ، ولكنها رأته الى اليوم بعيني قلبها ، ويؤلمني المصارحة بأنها لم تره الى اليوم بعيني رأسها

الفطرة ، البيئة ، اللغة ، دين الكثرة الكبرى وأثره في القلة وان اختلفت دينا ، كل أولئك يدعو الى تحقق الوحدة العربية والى التعاون فيما بين أجزائها

نعم اننا أجمعنا على هذه الامنية وعلى نشدان تحققها ، وقد آن فيما أعتقد ، ويعتقده كل مخلص الولاء لقوميته ، أن نهيىء الاسباب ونمهد السبل لادراك تلك الغاية

ما من عربي لا يرى في الصميم من قلبه صور المجاهدين المعاصرين — من بقي منهم ومن استشهد — في سبيل الوحدة العربية ، وما من عربي الا وهو اليوم ممتلىء القلب فخرا وسرورا بما تفضل به حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المفدى من عالى التأييد لهذه الحركة المباركة ، وتنطق كل جوانحه بالشكر لحضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء الحكومة المصرية الذى وجه هذه الحركة بحكمته وصدق ايمانه توجيها لا بد أن يؤتى ثمراته

أما ما يكون من أمر التعاون العربي بعد الحرب ، فجوابي عنه بقدر ما تسمح به حالتي من الضعف هو ما يلي :

ليس من السهل على الباحث المحقق وهو يفكر في موضوع الوحدة العربية أن يقرر وجهة نظره فيما يختص بكيفية التعاون بين الاقطار العربية بعد أن تضع الحرب أوزارها .
فان الامر يتوقف على ما يقرر في مؤتمر الصلح ، فاذا جاءت شروطه ملائمة كما هو مأمول لاستقلال الامم العربية في معنى الاستقلال الصحيح ، ففي هذه الحالة يتوقف شأن الوحدة العربية على ما تكون صورة الحكم عند كل حكومة من الحكومات العربية ، وعلى ما يتيسر تأليفه من تلك الصور في شكل حلف سياسي أو قومي أو اندماج بين بعضها والآخر

على أن هناك وسائل يمكن التفاهم عليها من الآن بين الحكومات العربية ليبنى عليها صرح التعاون المقبل ، وهى تتلخص فى وسيلتين كبيرتين :

احداهما أقرب الى التنفيذ على تشعب فروعها وهى الخاصة بالتعاون الاقتصادى ، ولتحقيق هذا التعاون الاقتصادى لم يدرس بتفصيله الى الآن فى بلد واحد من بلدان العرب دراسة مستوفاة يبدو منها بالتدقيق ما يملكه من موارد داخلية وما يحتاج الى جلبه من جيرانه ، واذا وضعت هذه الدراسة فى كل بلد عربى بالعناية والدقة وعلى الاوضاع العلمية الشائقة عند أمم الغرب ، تيسر الاتجاه فى مسألة التعاون بالتفضيل والايثار الى أى بلد عربى يمكن الاصدار اليه والاستيراد منه . وعندئذ تعقد المجتمعات والمؤتمرات المتبادلة للتفاهم فى هذه النقاط . ولعل الحريات التى تكون الحكومات قد كسبتها عقب أن تضع الحرب أوزارها وتحققت فعلا ، تساعد على أن هذه الشعوب العربية المختلفة يتسنى لها الاتجاه الذى تنشده فى أمورها الاقتصادية أكثر مما كان يتسنى لها من قبل

أما الوسيلة الثانية التى ينهض عليها صرح التعاون العربى ، فأعنى بها المسألة الثقافية . فقد بدأت الحكومة المصرية لبضع سنوات خلت تعنى بها عناية جديرة بما يحمله هذا الاسم من تجلة واحترام . وفى هذا العهد منحتها وزارة المعارف العناية الواسعة النطاق التى هى قمينة به ، وذلك على أثر ما بدا من التحول فى أمر الحكومات التى تتولى أزمة هذه الشعوب

وقد كان من حسن التوفيق ويمن الطالع أن بدئت فى سبيل هذا التعاون الثقافى دراسات وعقدت اجتماعات ووضعت أوليات لمبادىء معلومة بين مصر وبين بعض البلاد العربية ، ومثل هذه الدراسات والاجتماعات والمؤتمرات العلمية ستتوالى حسبما يبدو من النيات التى أعربت عنها جهات متعددة من الاقطار الشقيقة

وعند ما يتم التفاهم على الصور النهائية الشاملة لهذا التعاون الثقافى ، لا أدرى أننا سنحرز منه على الفور نتائج ذات بال ، ولكن من اليقين أن التوافق فى الرأى والاتجاه وتسيير برامج التعليم فى مدارس هذه الأقطار ومعاهدها العلمية المختلفة ، سيكون له من الاثر فى وقت غير بعيد ، ما يمكن حكومات البلدان العربية من مواجهة أى حل عام شامل تتجه اليه عواطف الامم العربية ، وتؤيدها عند ذلك بصائرها ومعارفها وثقافة أبنائها على نحو خاص

والخلاصة أننى فى دخلة نفسى أرى أن العرب أمة واحدة من حيث الفطرة والعاطفة والنزعة الى التآلف فيما بينها ، ولكن دون اجتماعها فى جسم واحد عقبات شاقة لا بد من تذليلها واجتيازها بادىء ذى بدء ، وذلك فى مدى قد يطول . أما الذى أراه ممكنا فهو تحالف ممالكها ودولها بعد الحرب على شكل يؤمنها من الخارج ، ويضمن سلامتها وحرياتها فى الداخل ، وهذا ما ستساعد على تحقيقه رغبات الشعوب بأكثر مما ستساعد عليه طوايا الحكومات ، ولا بد له فى النهاية من النجاح

خليل مطران

رأى الأستاذ احمد أمين بك

أمام الامم العربية الآن مشاكل ثقافية معقدة قد لا يواجه مثلها غيرهم من الامم ، فالامم الغربية تواجه مشاكل ، ولكن ليست من جنس مشاكلنا ، وان كانت تتصل بها . لقد حددت الامم الاوربية مسلكها فى التعليم وأوضحت غايتها الى حد ما ، ولكنها فى طريقها المرسوم تجد بعض المشاكل كالرغبة فى تعميم التعليم غير الاولى ونشر الثقافة وتعديل المناهج واصلاح بعض الخطط

أما الامم العربية فمشاكلها أعقد من ذلك لانها الى الآن لم ترسم خططها واضحة ، ولم تضع التعريف للتربية الذى يتفق وأغراضها وآمالها ، ولذلك مزقت أساليب التربية المختلفة وحدتها ، هـذا تعليم دينى بحت ، وهـذا تعليم مدنى بحت ، وهـذا تعليم لخدمة فرنسا ، وهذا تعليم لخدمة انجلترا ، وهذا تعليم لخدمة امريكا ، وهذا تعليم لخدمة التبشير ونحو ذلك . وكل هذا لا يقيد بقيود قومية مما ليس له نظير فى أية أمة حية ترعى مصالحها ولا تسمح بتمزيق وحدتها ، ونشأ عن ذلك اختلاف النزعات الاساسية بين الامة العربية الواحدة ، فكيف بالامم العربية مجتمعة ، ونشأ عن هذا أيضا اختلاف المنطق واختلاف التفكير ، هذا فى منتهى الرجعية ، وهذا فى منتهى الحرية ، وهذا فى منتهى العصبية الدينية ، وهذا فى منتهى العصبية اللادينية ، وهذا فى منتهى العصبية لامة أوربية ، وهذا فى منتهى العصبية ضدّ كل نزعة أوربية ، حتى لكأننا فى برج بابل

قد تجد شيئا من هذه النزعات المختلفة فى الامم الاوربية ، ولكنك لا تجدها بهذه الحدة وبهذا التناقض كما تجدها فى الامم العربية بل فى الامة الواحدة العربية ، وشبه الخلاف بيننا وبينهم الخلاف بيننا فى الملابس والخلاف بينهم فى الملابس ، فكلهم يلبسون على نمط أساسى واحد ، وان اختلفوا ففى قيمة ما يلبسون لا فى شكل ما يلبسون ، أما نحن فنختلف فى الاساس وفى الاشكال اختلافا لا حد له

اذن ، نحن فى أشد الحاجة الى الاجابة عن هذين السؤالين :

(١) كيف نوحد أسس التعليم ولا نسمح بهذه النزعات المتباينة الضارة ولا نجيز الاختلاف الا فى العرض لا فى الجوهر ؟

(٢) ما تعريف التربية الذى يجب أن ينشده العرب ، ما الجملة التى تركز فيها كل أغراض الامم العربية فى التربية والتى يجعلها رجال التربية نصب أعينهم لا ينحرفون عنها يمنة ولا يسرة ؟

هذه احدى المشاكل التى تواجه العرب

والمشكلة الثانية — ان العرب يختلفون عن أوربا فى شىء جوهرى ، وهى أن الامم الاوربية والامريكية حددت نوع مدنيتها وثقافتها ، عمدت الى الثقافة اليونانية والرومانية وغيرهما فغربلتها ، واتخذت خيرها ، وامتصت عصارتها ، وبنت عليها حضارتها وثقافتها ، وخلصت من ذلك كله ، ورسمت لمدنيتها منهجا تسير عليه فى كل شأن من شؤون الحياة ومنها الثقافة

أما العرب فلهم موقف آخر ، هم بين ثروة قديمة من الثقافة العربية ، فيها الخير والشر والغث والسمين وحبات الدر وحبات الحصا ، وثقافة غربية فيها الضار والنافع كذلك ولا غنى لنا عنهـا ، تحكمنا بطبيعتها وكيمياها وما تنتج من آلات وصناعات ، فان كان على الاوربيين عبء واحد ، فعلى الامم العربية عبئان

ماذا نأخذ من تراثنا القديم وماذا ندع ؟ ماذا نأخذ من الغرب وماذا ندع ؟ ان لنا دينا ولنا لغة ولنا أدبا لا بد أن نستمده من وحى آبائنا ، وان للغرب علوما وفنونا وصناعات لا بد أن نستمد منها لنجارى الزمن

كيف نوفق بين المدنيتين ونمزج بين الحضارتين ، ونكون لنا شخصية ممتازة لا هى كل الشرق القديم ولا هى كل الغرب الحديث ؟ كيف تنقى قديمنا ونأخذ زبدته ونفرغ منه ، وكيف نحدد ما ينفعنا من الجديد ونرسم خريطته ، وننتهى من ذلك ولا يكون علينا الا ملء الخانات الفارغة منه ؟

ثم مشكلة ثالثة

قد خلقت لنا المدنية الحديثة علوما لا عهد لنا بها ، وفى هذه العلوم مصطلحات فرعية لا تحصى فى الطبيعة والكيمياء والفلك والاجتماع والنفس والعمارة والصيدلية ، وخلقت لنا ألوفا وألوف الالوف من الادوات والصناعات والعقاقير ومركباتها ونحو ذلك ، ولا غنى للعرب عن استعمالها ، فكيف نتفق على تعريبها وتوحيد مصطلحاتها والاتفاق على الالفاظ الصالحة لها ، فليس يليق أن تنفرد كل أمة عربية بوضع مصطلحاتها ما دامت اللغة العربية ملكا لجميع الأمم العربية وقدرا مشتركا للتفاهم بينهم ؟ ما وسائل التعريب ؟ ما قواعد التعريب ؟ كيف ينظم التعريب ؟ كيف يبذل الجهد للفراغ من كل المصطلحات الاوربية حتى نقف مع الاوربيين على قدم المساواة ، وننتهى من الماضى ، ولا نواجه فى الحاضر الا ما اخترع حديثا واكتشف حديثا

ثم مشكلة رابعة

لكل أمة من الامم الحية دائرة معارفها ، بل دوائر معارفها ، تكتب بلغتها وتساير العلم فى مراحله ويعاد طبعها بين حين وآخر ويزاد فى الطبعة الجديدة ما وصل اليه العلم الحديث بين الطبعتين ، وكل أمة تعنى فى دائرة معارفها بنوعين ، القدر المشترك بين جميع الامم ،

والعناية الخاصة بموضوعاتها الخاصة من جغرافيتها وتاريخها وأعلامها، هذا ما عملته انجلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا وغيرها

فماذا فعلت الامم العربية فى هذا السبيل ؟ دائرة معارف للبستانى لم تكمل وأكل عليها الدهر وشرب وتقدم العلم عليها حتى أصبحت فى عداد التاريخ ، ثم لم تجد من يكملها ويقدمها مع الزمن ، ويطبعها طبعة جديدة تتفق والنهضة العربية يكون فيها خير التراث العربى وخير التراث الغربى ؟

ومشكلة خاصة

اذا وحدت الأمم العربية تعريف تربيتها ورسمت خطتها فى التعليم ، فلا بد من الفصل بين مسألتين ، قدر أساسى مشترك تتساوى فيه الامم العربية من حيث المناهج والخطط والغرض ، وقدر خاص غير مشترك تحافظ فيه كل أمة عربية على شخصيتها فتتوسع فى جغرافية بلادها وتاريخ رجالها ، وتسير كل أمة فى المستوى الذى يناسب استعدادها ومقدرتها المالية

فما هو هذا القدر المشترك ، وما هو هذا القدر الخاص وكيف يحدد وكيف يرسم ؟

***

هذه فى نظرى أهم المشاكل التى تواجه العرب من الناحية الثقافية ، وهذه هى الاسئلة التى يجب أن تطرح ويجاب عليها

فكيف يكون ذلك ؟

لهذا جملة وسائل :

(١) أن يكون هناك مكتب للتعاون الثقافى تختار كل حكومة عربية من يمثلها فيه ، وهؤلاء يتبادلون الرأى فى هذه المشاكل وأمثالها ، ويضعون الاسس اللازمة للسير عليها ، وهذا هو ما بدىء به فعلا حسبما أعلم ، ولا ينقصه الا التعميم واشتراك الامم العربية كلها فيه ، والنشاط فى عمله

ولكن هذا وحده – فى نظرى – لا يكفى فالممثلون الرسميون عادة – يضطرون الى تقدير اعتبارات سياسية قد تحد من نشاطهم وتلون بحوثهم وتفكيرهم

ومن أجل هذا ينبغى أن تكون بجانب هذه الهيئة الرسمية هيئة أخرى غير رسمية ، فيؤلفون جمعية تعاونية تبحث الموضوعات بحثا حرا طليقا مجردا عن الاعتبارات السياسية ، وهذه – فضلا – عن خدمتها للفكرة تفيد فائدة كبرى الهيئة الرسمية ، وهذه الجمعية يختار أعضاؤها ممن عرفوا بالاخلاص والجد وعدم الاستهواء السياسى والغيرة على مصلحة

الامم العربية الثقافية ، وتعاون هذه الجمعية فى غرضها ، وتعمل فى وضح النهار، ولايكون لها غرض الا خدمة الثقافة ومعالجة المشاكل التى أسلفنا الاشارة آليها

وهذه الجمعية تعقد مؤتمرا كل سنة على مثال المؤتمر الطبى ، كل سنة فى قطر من الاقطار العربية ، سنة فى القاهرة وسنة فى دمشق وسنة فى بغداد وسنة فى مكة وهكذا

ويكون للجمعية سكرتيريتها تحدد أغراض الاجتماع وموضوعات البحث ، ويتعاون أولو الخير والبر على امدادها بالمال اللازم لها ، ويكون لهذه الجمعية مجلة بل مجلات ، فمجلة لنشر أعمال المؤتمر وأخباره . واختيار لجانه الفرعية ومبلغ نشاط الاعضاء واللجان فى نواحيها الثقافية المختلفة ، ومجلة تكون على نمط « المختار من ريدرز ديجست » تعنى بخلاصة خير المقالات التى تنشر فى الصحف والمجلات العربية بل والاسلامية من غير العربية ، فمثل هذه المجلة تقرب من أفكار الشرق ، وتؤلف بين ثقافته وترقى تفكيره ، وفى هذا خدمة للوحدة العربية الثقافية وهكذا

ثم بجانب هذا وذاك ضروب أخرى من التعاون الثقافى لا بد منها ، مثال ذلك ، تبادل كبار الأساتذة والعلماء والادباء فى الأقطار العربية المختلفة ، فأساتذة الشام فى مصر والعراق وأساتذة العراق فى مصر والشام وأساتذة مصر فى الشام والعراق وهكذا فى الاجازات المدرسية وفى المساحات الصيفية ، فهذا يخلق جوا علميا بديعا وتعاونا ثقافيا جليلا

ثم انتهاز الفرص العلمية والادبية لذلك ، فمهرجان لذكرى أبى العلاء فى الشام تلقى فيه البحوث الادبية من أساتذة الأقطار العربية ، ومهرجان للامام الشافعى فى مصر تلقى فيه البحوث التشريعية والقانونية، ومهرجان للخليل بن احمد فى العراق تبحث فيه البحوث اللغوية ، ولعمر بن الخطاب فى المدينة ، ولابى الطيب المتنبى فى حلب ، وللامام الاوزاعى فى بيروت ، وهكذا لا ينفض مهرجان حتى يعد مهرجان آخر، وفى هذه المهرجانات تتلاقى الافكار وتتوالد الآراء ، وسيكون من نتيجة ذلك حتما التفكير فى الاصلاح من جميع نواحيه اللغوى والادبى والنحوى والتشريعى ونحو ذلك

اذا تم ذلك كله ــ وهو ما أرجو أن يكون بعد الحرب مباشرة ــ فنحن أمام نهضة عربية وثابة واصلاح عربى شامل ووضع أسس لبناء العرب فى هيكل الثقافة ، وبذلك يساهمون فى بناء صرح الثقافة العالمية مع البانين ، ويشيدون مع المشيدين

والله ولى التوفيق

احمد امين

رأى الاستاذ محمد فريد وجدى

الوحدة العربية حقيقة اجتماعية موجودة بين جميع الشعوب التى تتكلم بالعربية ، وانما هى بالخطوة المزمع اتخاذها لتقريرها رسميا ، تتطور الى شكل دولى لا بد منه فى دور الانقلابات الاجتماعية التى يتوقع أن تلى الحرب الحاضرة. والظواهر الاجتماعية كالظواهر الطبيعية تحدث عند ما تصلح العوامل المحيطة بالجماعات لاحداثها ، ولا تستطيع أية قوة معارضة أن تمنع حدوثها

لم يكن العالم فى يوم من الايام على مثل ما هو عليه اليوم من النزاع والتناحر ، حتى ليخيل للرائى أنه ارتكس الى عهد الجاهلية الاولى ، لولا ان الرؤوس المفكرة لم تفقد رشادها ، فأعلنت ان ليس القصد من هذا النزاع العدوان على المبادىء الانسانية العليا التى وصل اليها الاجتماع بعد تقلبه فى أدوار شتى ، ولكن القصد تثبيتها ، والوصول بها الى أرقى مدلولاتها ، فكان هذا حافزا للامم والجماعات التى تربطها روابط قوية ، على أن تثبت وجودها قبل أن يحين وقت التسويات الاجتماعية المنتظرة . فتحفز الشعوب العربية اليوم الى طبع الوحدة الموجودة بينها بالفعل ، بطابع تعاقد دولى ، هو من الفطنة السياسية بمكان عظيم

بقى علينا أن نبحث فى المزايا التى يستفيدها بعض هذه الشعوب من بعض من وراء قيام هذه الوحدة

فأما من الناحيتين الثقافية والاقتصادية ، فقد كان التعاون فيهما بين الشعوب العربية جاريا فى مجراه الطبيعى قبل حدوث الحلف المتوقع حدوثه بينها ، ولا مشاحة فى أنهما بعده يبلغان أقصى ما يمكن أن يبلغاه من التوسع فيه

ولكن الاثر العظيم لهذه الوحدة سيظهر فى الناحية السياسية ، والشعوب العربية أحوج ما تكون اليها فى حالتيها الراهنة والمستقبلة . فقد حدثت أحداث كانت على جانب عظيم من الخطورة فى اليمن وسورية وغيرهما ، قضت عليها فيها الاوضاع السياسية أن تكون منفردة أمام قوى لا قبل لها بها، فلو كانت الوحدة المراد تحقيقها موجودة اذ ذاك، كانت تلك الشعوب لا تشعر بالانفراد أمام تلك القوى ، وكان لتدخل سائر الشعوب العربية فى شد أزرها ، مبرر سياسى لا يمكن تجاهله ، فكانت تلك الشعوب المتهضمة تستفيد من هذه النجدة فوائد قيمة

هذا ويتوقع من وراء هذه الوحدة ما هو أدق من هذا وأدخل فى حياة تلك الشعوب. ذلك ان منها من هو فى حاجة ماسة الى نظم أقوم مما هى عليه ، وتوجيهات لا بد منها

لجعل حياتها الاجتماعية أصلح لانتاج ثمراتها الطيبة ، فيكون لبعضها حق فى اسداء النصح لها فيما يتعلق بما ذكرنا

نعم ان اسداء النصح ليس بمتعذر بينها على كل حال حتى ولو كانت الوحدة بينها غير مطبوعة بطابع رسمى ، ذلك بسبب التعاطف التقليدى الموجود بين تلك الشعوب ، ولكن بين اسدائى اياك النصح وأنا شريكك فى الربح والخسارة ، وبين اسدائك ونحن غير مترابطين سياسيا ، بون بعيد

هذه أظهر النواحى وأجلها خطرا ، ولكن هناك نواحى بسيكولوجية خفية لا يجوز لباحث اجتماعى أن يغفلها من حسابه :

منها ما تحدثه هذه الوحدة من بعث روح النهوض فى تلك الشعوب،فان أثر شعورها بالنصراء والمؤيدين،يكون وهى تقطع أشواط الحياة الاجتماعية،وتجتاز حوائلها وعقباتها، غير أثر شعورها بانفرادها بذلك ، فانها فى الحالة الاولى تندفع غير هيابة ولا وجلة ، فتسرع فى خطواتها لبلوغ أغراضها ، وفى الثانية تتئد وتكثر من الاحتياط ، وترتد لاول صدمة

ومنها ما تحدثه هذه الوحدة من روح التغاير المحمود بين أعضائها ، فتهتم بازالة أسباب التفاضل بينها وبين أخواتها،وتتوثب الى التكمل لتصل الى المستوى الذى لاتحتاج معه لمعونة غيرها . هذا شعور غريزى شديد الفعل فى النفسية الانسانية ، ولا يصح الاستخفاف به لدى الباحثين فى عوامل نهوض الامم

ومنها شعور تلك الشعوب بأن هنالك رقابة أدبية على أعمالها ، واهتماما شديدا من حلفائها باستقامة طريقتها.هذا الشعور وحده يحدث فى ثنايا الصدور وسويداوات القلوب من آثار التقويم والتعديل،وان لم يؤبه له،ما لا تحدثه الرقابة التأديبية للحكومات القوية

الخلاصة ان ما الشعوب العربية بسبيله اليوم من اعلان الوحدة بينها دوليا ، له من الآثار الادبية والمادية عليها ، ما هى فى أشد الحاجة اليه فى حالتها الراهنة والمستقبلة

محمد فريد وجدى



الخلق الرعاعي إبان الحرب والسلم

بقلم الدكتور امير بقطر

الخلق الرعاعي نتيجة لازمة لعقلية الرعاع ، والرعاع فى هذا البحث يتناول أوسع معاني الكلمة ، اذ يقصد به الجماهير والجماعات مهما سمت منزلتها الاجتماعية والثقافية . وهذا التوسع فى معنى الكلمة وان شذ عن الاستعمال المألوف ، يعزى الى الاصطلاح السيكولوجي ، الذى يعتبر الافراد بوجه عام أرقى خلقا من الجماعات ، اذ أنهم أكثر استئناسا بالمنطق والعقل فى حياتهم اليومية ، فى حين أن الجماعات اكثر اتجاه الى الميل والغريزة والعاطفة . وبينما نرى الافراد يبذلون أقصى الجهد أو بعضه فى ضبط النفس والمحافظة على العادات والتقاليد والشرائع والقوانين والآداب العامة ، وان كانوا من عامة الناس ، فانا نرى الجماعات تجمح نفوسهم وتندفع ميولهم فتدوس هذه التقاليد ، وتكسر أبسط قواعد الاداب الخلقية ، وان كانت هذه الجماعات من أرقى البيوتات ومن حملة الاجازات العلمية من اكسفورد وكمبردج وهارفرد

والخلق الرعاعي لا يقتصر وجوده على زمن الحرب ، اذ أنه هناك فى كل زمان ومكان . ومن الخطأ الزعم بأن تفشى الخلق الرعاعي بين الجنود ابان الحرب واستهتارهم بالتقاليد والآداب ، يرجع الى توقع الموت ورغبتهم فى تذوق أطايب الحياة ولذاتها ، قبل أن يقضى عليهم فى ساحات القتال . ان أشد الجنود تعرضا لمخالب الموت وان كانوا من الفدائيين (كومندو) ، يعللون أنفسهم بالحياة ، وقلما تخبو فى نفوسهم نار الامل . وشأنهم فى ذلك شأن سائر الناس . فالرجل السليم العقل يرى فى شوارع القاهرة يوميا عشرات من النعوش محمولة على الاعناق ، ومع ذلك لا يسمح لنفسه أن تفكر أنه سيكون أحد هؤلاء يوما ما ، بلغ من العمر ما بلغ ، وبلغ من الوهن والضعف والمرض والشيخوخة ما بلغ

ولهذه الظاهرة تعليل نفساني ، وذلك أن الموت عقدة أو مركب (complex) كسائر العقد والمركبات النفسية . ومن خصائص المركب أن يكون مكبوتا دفينا فى العقل الباطن . ومعنى هذا أن فكرة الموت كلما طرأت على بال انسان سليم العقل ، تناساها وكبتها ولم يسمح لها بالبقاء طويلا فى العقل الواعي ، فتهبط الى أسفل فى العقل الباطن ويحمل صاحبها نفسه على الاعتقاد بأن هؤلاء الموتى الذين يراهم محمولين على الاعناق يوميا ، هم غيره من الناس ، ولن يكون هو أحدهم يوما ما . ومن هذا يتبين أن الامل بالحياة لا تخبو ناره بين المتحاربين كما لا تخبو ناره بين المدنيين حتى فى أشد الاوقات خطورة وحرجا والفرق الوحيد بين المدنى والمحارب أن الثانى أقرب الى العقل الرعاعي والخلق الرعاعي

الذى يرجع به الى الفطرة ، أو كما يقول العلماء « يرتد » أو « يتقهقر » (regression) كالحيوان فلا يهمه فى الحياة فى كثير من الاحوال سوى بطنه ورغبته الجنسية . وسبب ذلك واضح وهو شعوره بالانتماء الى هذه الجماعة الكبيرة المكونة من ملايين « الرعاع » . والزى الموحد (يونيفورم) من اكبر العوامل التى تقوى هذا الشعور المشترك

والمدنيون مولعون بتقليد الجنود ومحاكاتهم . ويأتى هذا الولع عن طريق الايحاء والاستهواء ، وسببه ميل فطرى الى « الارتداد » و « التحلل » بالخلق الرعاعى والانتماء الى الجماعة . وتبدو هذه الظاهرة واضحة فى نزوع الافراد الى تقليد الازياء الحربية ، والاستهتار بالاخلاق ، وسعى الفتيات الى الجنود ، وتناسى الآداب المرعية فى شتى النواحى . فلا عجب اذا علت الشكوى من تدهور الاخلاق ابان الحرب ، وما هذا التدهور فى الواقع سوى نتيجة لازمة للخلق الرعاعى الذى يسطع نجمه وتشتد وطأته باشتداد الحروب وطول أزمانها

ومهما قيل من أن بعض الدول تنتهك حرمة القوانين الدولية فيما يتعلق بمعاملة الاسرى والمدنيين والصليب الاحمر وغيرها ، فان الرعاع ابان الحرب فىالدولة الواحدة أشد انتهاكا لحرمة الآداب العامة من هذه الدول . فنظرة واحدة الى المجلات والكتب التى ترد من البلدان المحاربة ترسم لنا صورة جلية لمبلغ ما وصل اليه الخلق الرعاعى من التدهور . فبينما نقرأ عن سرقات وجرائم جنسية ترتكب من غلمان وفتيات بين الحادية عشرة والخامسة عشرة من أعمارهم ، اذا بنا نقرأ عن أطفال دون الرابعة عشرة من أعمارهم من الجنسين يقبض عليهم ثملى فيستيقظون واذا هم فى مراكز البوليس ، وبينما نقرأ عن نشوء طبقة جديدة تتألف من ألوف الفتيات المصريات اللاتى انتحلن لانفسهن لقب « الارتيست » اذا بنا نرى فىالبلدان المتحاربة والمحايدة وكل بلد يكثر فيه الجنود والبحارة ألوفا من النساء والفتيات يخرجن من كل صوب كما تخرج الحشرات من جحورها سعيا نحو هؤلاء الجنود والبحارة ، خروجا عن كل ما عرف عن أهلهن من التقاليد المرعية والآداب العامة ، اذا بنا نسمع عن اختفاء جيش جرار من فتيات فى الحادية عشرة والثانية عشرة فى البلدان المتحاربة فى الفنادق والحانات فى صحبة الجنود جريا وراء التيار وتطبعا بالخلق الرعاعى

ولا تتسع صفحات هذا المقال الى الكلام عن الخلق الرعاعى ابان الحرب فيما يتعلق بالجشع المالى والغش والسرقة فى السوق الاسود وتفكك الأسرة ومآسى الاطفال الذين تهملهم أمهاتهم لاشتغالهن بالحرب ، فيعمدون الى الهرب من مدارسهم والعمل فيما يعود عليهم بالربح المالى برغم القوانين التى تحرم ذلك ، فضلا عن الاتجار بأعراضهم رغم صغرهم ، اندفاعا وراء التيار ، وتلبية للايحاء الرعاعى الذى يكتسح كالريح الزعزع كل شىء أمامه

***

وشأن الخلق الرعاعى ابان السلم شأنه ابان الحرب ، وان كان أقل ظهورا . ويبدو فى كل جماعة متجانسة ، تضعها مقتضيات الاحوال فى مواضع شبيهة بما تقتضيه الحرب من اندفاع جماعات منظمة وراء تيارات خاصة . والامثلة على هـذا كثيرة . وتذكر مؤلفا لاحد كبار الانجليز عنوانه « غربيون فى أخلاق شرقية » (ولا نذكر اسم مؤلفه) ، بسط فيه كاتبه أغرب ما قرأنا فى هذه الناحية ، وان كنا لا نقره على ما اتخذه عنوانا لكتابه . وقد خصص نصف الكتاب على كبر حجمه وصفا لابناء اللوردات والاسر الكريمة الانجليزية ، الذين يبعثون الى الهند لاشغال مراكز حكومية واقتصادية ، اثر تخرجهم فى أكبر الجامعات ، وكيف أنهم يرحلون الى تلك البلدان الشرقية ، ورؤسهم ملأى بأرقى العلوم والمبادىء المنطقية ، وقلوبهم مفعمة بأسمى ما تلقنوه فى بيوتاتهم العريقة وأسرهم الراقية وجامعاتهم الكبرى من المثل العليا ، ثم لا يلبثون فى تلك البلاد طويلا حتى تطغى عليهم موجة من الخلق الرعاعى من بنى جنسهم هناك لا من الوطنيين ، فيتخذ ذلك الشاب الغض البالغ حد الثقافة والرقى وسمو الخلق عددا من الخليلات يقمن على خدمته والترفيه عنه ، ويحذو زملاؤه حذوه ، وما هى الا سنوات معدودات ، حتى تمتلىء الدار بذرية جديدة من المولدين ، فيحمل أفرادها الى مستعمرة خاصة فى الريف لتربيتهم والعناية بهم ، حتى اذا كبرت الفتيات منهم وترعرعن ، عدن الى المدن لخدمة طائفة أخرى من أفراد هذه الفئات الراقية ، وهكذا دواليك

أما النصف الآخر من الكتاب فقد خصصه المؤلف لفئة أخرى من الشبية الراقية تبعث من ولايات اميركا المتحدة الى جزائر الفلبين لمثل ما بعثت له الفئة الانجليزية الى بلاد الهند ، وهناك يتمثل الدور بعينه . وهناك وصف قوى مؤثر ليوم الوداع الذى يصور لنا الكاتب البواخر على رصيف الموانىء قبيل رحيلها تقل أولئك الشبان المنقولين الى بلادهم وتعلق أولئك الفتيات بخلانهن وبكاءهن ساعة الفراق بكاء يمزق القلوب

وان نسى كاتب هذه السطور لن ينسى سنوات وذكريات جميلة قضاها فى معهد كبير فى الصعيد ، كان أساتذته الاجانب والمصريون من أرقى الاساتذة خلقا وعلما وأشدهم تمسكا بالمثل العليا ، وكان الطلبة بوجه عام من أشد الطلبة تعلقا بمبادىء أساتذتهم ومثل ذلك المعهد العليا . غير أن هناك ما كان يدفع بهم الى الخلق الرعاعى فى مناسبات خاصة . وذلك أن ٩٥ ./. من التلاميذ كانوا داخليين مؤلفين من مجموعات كبيرة من قرى معلومة ، تتألف كل مجموعة منها من أكثر من مئة أو مئة وعشرين طالبا . وكان من الطبيعى أن يتنافس الجيش الذى يؤلف مجموعة واحدة وجيش آخر يؤلف مجموعة أخرى ، وقد يكون مصدر هذا التنافس علميا أو رياضيا أو سببا آخر تافها . فاذا ما تصادم الفريقان هرع أفرادهما الى شجر النخيل المنتشر فى حديقة المعهد الواسعة الاطراف ، فيجردونه من اغصانه ، وتنشب بينهما حرب طاحنة تقف الادارة أمامها مكتوفة اليدين حتى تضع أوزارها

وكان من الطبيعى أن تخرج هذه الجماعات فى شم النسيم بعد منتصف الليل ، كل بعصيها الغليظة تخترق الشوارع المعدة للنزهة ، وكان من الطبيعى أن تلتقى واحدة أو أكثر من هذه المجموعات بطائفة كبيرة من « الاوباش » المعروفين فى تلك الناحية من الصعيد ، ثم لا تلبث أن يصطدم الاوباش الاجلاف بالطلبة المثقفين ، وتدور معركة قلما استطاعت « أورطة » من رجال الشرطة هناك التدخل فيها

ومثال آخر على الظروف التى تمهد للخلق الرعاعى ، تتخذه من أرقى بلدان العالم وأكثرها مدنية وثقافة ، وأسماها خلقا ، ونقصد بها اسوج . قضت ظروف تلك البلاد أن يكون ٢٥ ./. من نسائها فى سن الاربعين غير متزوجات ، ونتج عن هذا تقليد ، هو فى الحقيقة خلق رعاعى ، أغمض عيون الامة عن مساوىء كثيرة ، منها أن الرأى العام وان كان لا يرحب بالفتيات اللاتى يحملن سفاحا ، فانه لا يزجر فتاة عازبة تريد أن تكون أما ، وقلما يؤنب رجل بنته «البكر» اذا ما عادت يوما من مستشفى تحمل بين يديها مولودها . وقد بلغ عدد الاطفال غير الشرعيين هناك واحدا فى كل سبعة مواليد ، ولولا وسائل منع الحمل ، لكان هذا العدد أضعاف ما هو عليه الآن

والحروب كما ذكرنا تقوى الخلق الرعاعى وتنشر ألويته ، فقد زاد عدد النساء على الرجال فى نهاية الحرب العالمية الكبرى الاولى فى البلدان المتحاربة بمقدار ٣٨ ./. ، وبلغ عدد الذين تزوجوا سرا فى فرنسا فوق زوجاتهم الشرعيات واحدا فى كل عشرة . وما هذا الاستهتار بالتقاليد سوى موجة أو ريح عاصفة تدفع جماعة متجانسة من الناس الى ذلك الخلق الرعاعى

واذا راجعنا الصفات التى تتمثل فى الخلق الرعاعى ، فى الحرب والسلم على السواء ، لوجدنا أنها تتلخص فيما يتعلق بأمرين : المال والمرأة ، أو المحافظة على النفس وحفظ النسل . ومن الغريب أن ذوى الشأن ، وان حاربوا الخلق الرعاعى فيما يختص بالمال ، فانهم قلما يحاربونه فيما يختص بالمرأة ، ففى ابان الحرب مثلا يشنون الغارة على رجال السوق السوداء ، ولكنهم يتشنون المواخير للجنود ويراقبونها ، ويغمضون عيونهم عما يجرى فى الظلام فى الطرقات العامة . كذلك الحال فى زمن السلم يكاد يعترف المجتمع بالخلق الرعاعى فى البحارة الذين يتخذون زوجة فى كل ميناء . ولعل أبرز الاخلاق الرعاعية الميل الجنسى ، خصوصا فى زمن الحرب . والسبب واضح وهو أن الجندى لا هم له بالمال ، فلم يبق لديه الا المرأة يلهو بها . وفى الحرب الحاضرة ظاهرة لم يكن لها وجود فى الحروب السالفة تقريبا وهو العنصر النسائى فى الجيش . وقد أصبح الجندى اذا ما رأى شبحا من بعيد اختلط عليه الامر ، فقد يكون ذلك الشبح ضابطا أو جنديا من الجنس اللطيف ، ولذا يتساءل فى هذه الحالة اذا كان عليه أن يضرب سلاما ، أو يصفر على رأى أحد الظرفاء

امير بقطر

« . . . لقد كنا جديرين بأن نزيد حياتنا المعنوية غنى وقوة وجمالا ، لو جعلنا مادة الفن عندنا من صميم الحياة ، فصيرنا لحظات من سحر الأدب العربي القديم ، وفتنة الأدب الغربي الحديث ، لكي نئوب إلى نفوسنا ونعيش في دنيانا فنرقب هذه المخلوقات الأدبية الرقيقة ، وهي تخرج من (مقصورات الحريم) غريرة ساذجة ، وتواجه الأضواء والأنواء والأعاصير . . . »

صوت المرأة في أدبنا

بقلم الآنسة ابنة الشاطىء

تحدثت في العدد الماضي من الهلال الاغر ، عن الفراغ الواسع العريض في أدبنا المعاصر ، اذ نفتقد فيه صورة (المرأة) التي طبعت هذا الجيل بطابعها المتميز ، وكانت حركتها أعنف حركة اجتماعية في تاريخنا الحديث

وقد سألت عن سر هذا النقص : أهو من عجز المرأة عن أن تلهم ؟ أم هو من قصور الأدباء ؟ فكان الجواب الذي سمعته من بعض شيوخ الادب عندنا : « ان الاديب يكتب ما يلقى اليه ، وقد عجزت المرأة عن الهامه في هذا الدور من حياتها ، ولم تستطع أن تثير انتباهه الى تلك الأحداث العنيفة التي أشرت اليها »

وما يعنيني أن أدفع عن المرأة هذا الاتهام،بقدر ما يعنيني أن أنبه الى وجه الخطأ فيه . فالذين يزعمون أن المرأة لا تلهم ، ينسون أن من عظماء رجال الفن ، من اتخذ مادة فنه من الحجر الاصم ، فخلق منه روائع فنية بهرت الدنيا وعصيت على الموت والفناء ، أفلا تبلغ المرأة ما تبلغ الحجارة الخرساء ؟ وهل يعجز أدباؤنا أن يخلقوا شيئاً من هذه المادة الفنية الزاخرة بالحياة ؟

ولست أنكر أن المرأة الحديثة قد شغلت بالاحداث الكبرى الطارئة على حياتها ، فلم يعنها أن تلهم أو تثير ، ولكن الاديب الموهوب ، قادر على أن يرصد حركاتها ويسجل مظاهر انفعالها وان شغلت عنه ولم تلتفت اليه ، وكلما دقت حاسته الفنية ، زادت قدرته على التنبه لكل دقيق وخافت وخفى ، لا يعوزه في ذلك أن تعنى المرأة نفسها بالهامه أو تتجه الى اثارة انتباهه . وهل يعوز الشاعر أن تهتم به الطبيعة لكي ينفعل بمظاهر روعتها ويتغنى بها في فجرها الوليد ، وصبحها المشرق ، ومسائها الحالم ، وليلها الساجي ؟ هل يعوزه أن تتجه الطبيعة الى اثارة انتباهه ، ليشهد موكبها وينقل صورها الرائعات ، في البر والبحر ، في الريف والحضر ، في السهل والجبل ، في الارض والسماء ؟!

اللهم لا ، فما تحس الطبيعة به وما يعنيها من أمره كثير ولا قليل،وهي مع ذلك ملهمة أبدا وان لم تعن بالهام ، مثيرة أبدا وان لم تعمد الى اثارة ، موحية أبدا وان لم تتجه الى ايحاء ، حية أبدا وان ظن بها الجمود والموت ، ناطقة أبدا وان لفها الصمت ، واستغرقها النوم ، وسكتت من جهد واعياء . . .

* * *

ولست أتهم الحاسة الفنية لادبائنا وأرميها بالعجز والقصور،لكنى أرى الكثرة المطلقة منهم قد شغلوا عن أحداث حياتنا ، لانهم لم يبرأوا من فتنة قديمة وأخرى حديثة طارئة . فأما الفتنة القديمة فهي الادب العربي القديم يعيش بعضنا فيه وينسى نفسه فى ظل قداسة القدم ، وأما الفتنة الاخرى الطارئة ، فهي الادب الغربي الحديث ، يستهتر به الكثيرون منا ويعيشون فى ظله ويولمون بما حوله من أضواء

وما أبرىء نفسى من الولع بالادب العربي ، والاعجاب بالادب الغربي الحديث ، ولا أدرى كيف تغدو حياتنا لو خلت من هذا المتاع العقلي،لكنى أكره ــ مع ذلك ــ أن نفنى فيهما ونشغل بهما عن حياتنا الخاصة ودنيانا التى نعيش فيها،فما يجوز لكائن حى ، يؤمن بشخصيته ويشعر بحياته ، أن يجعل هدفه الاول ، أن يعيش فى غير زمانه ومكانه . وانما ندرس هذا الادب أو ذاك ، لنخدم بهما حياتنا الخاصة ، ونزداد فهما لها

* * *

ويبدو لى أحيانا ، أن الشاعر البدوى الساذج ، كان أكثر منا تقديرا لمعانى الحياة وانفعالا بها ، فان منهم من كان يلتفت الى أعمق المعانى الانسانية ويتنبه الى أدق مشاعر الطبيعة البشرية

لقد كنا نسمع أدباءنا المعلمين ، يعيبون على الشاعر العربي فى الجاهلية ، أنه لم يهتم بغير الظاهر المادى للمرأة ، فهو يصفها كما يصف فرسه وناقته : يتحدث عن شعرها وعينيها وقوامها ، لا يكاد يتجاوز ذلك الى ما وراءه من معنى وروح ،

وكانوا يقولون لنا ان افتتاح القصيدة العربية بالغزل ، لم يكن سوى صناعة شكلية بحتة ، يعمد اليها الشاعر لانها تقليد فرض عليه لا لانه يهتم بالمرأة . وربما لم يجد فيمن يعرف ، امرأة يتغنى بها ، فيخترع له اسم امرأة لا وجود لها ، يستهل بها قصيدته لتتم له صناعة النظم

وكانت هذه الاوهام ، تلقى الينا فى قاعات الدرس ، على أنها حقائق مقررة ، هدى اليها البحث الصحيح ، وأيدها الاستقراء الدقيق . ثم نظرنا فى الامر فاذا هذا التقليد الفنى ــ الذى سموه صناعة شكلية ــ ينبىء عن اهتمام صادق بالمرأة وعناية خاصة بها ، واحساس قوى بقدرتها على الهام الشاعر واثارة انتباه السامع . ثم رأينا تدفق الاماء فى الجزيرة العربية ــ اثر حركة الفتوح ــ يثير شعورا قويا بالعنصر المعنوى فى المرأة الحرة،

ويدفع الى صادق التقدير لها ، على ما بها من سذاجة الفطرة ، وخشونة البداوة .

وما بى الآن أن أسوق الشواهد على ما أقول ، فانه من الوضوح والصدق بحيث لا يعوزه بيان ، وحسبى اليوم أن أعرض صورة للمرأة ، وجدتها فى تراثنا الادبى الذى انحدر الينا من صميم البادية :

حدثوا « أن توبة الخفاجى مر ببنى عذرة ، فرأته بثينة فجعلت تنظر اليه ، فشق ذلك على جميل ــ ولم يكن بعد قد أظهر حبه لها ــ فتعرض لتوبة وقال له : هل لك فى الصراع ؟ قال : ذلك لك . فجزعت بثينة ، ورمت الى جميل ملحفة فاتزر بها ، ثم تصارعا فصرعه جميل . على أنه عاد يقول لتوبة : هل لك فى النضال ؟ قال نعم . ففعلا ، فنضله جميل . ثم قال له : هل لك فى السباق ؟ قال نعم . فتسابقا ، فسبق جميل

« هنالك نظر توبة الى بثينة ، ثم الى جميل ، وقال له : يا هذا ! انك انما تفعل ذلك بريح هذه الجالسة الى جانبك ، ولكن اهبط بنا الى الوادى ! وعاد الصراع والسباق والنضال ، فصرعه توبة ، ونضله ، وسبقه ! »

فهذا البدوى الساذج ، قد اهتدى منذ ثلاثة عشر قرنا الى هذا العنصر المعنوى فى المرأة ، وفطن الى قوتها الروحية القاهرة ، فهل فى مثل هؤلاء يقال : « انهم وقفوا عند الظاهر المادى للمرأة ، ووصفوها كما يصفون الفرس والناقة » ؟

انا اليوم على قمة القرن العشرين ، وفى صميم الحياة المتحضرة ، نفتقد مثل هذه الصورة فى أدبنا ، وقد زاد حظنا من الثقافة والعرفان ، وأضيفت الى ثروتنا ، ثمرات الجهاد الانسانى المتصل فى ذلك العمر الطويل ...

* * *

أخشى أن يكون انصرافنا الى رسم صور الحياة القديمة فى بلاد العرب ، ونقل صور الحياة الحديثة فى بلاد الغرب ، قد أضعف قدرتنا على فهم حياتنا وتذوقنا لها وتقديرنا اياها ، فلم نعد تنفعل بها أو نهتز لما يمر بها من أحداث كبار . وقد كنا جديرين بأن نزيد حياتنا غنى وقوة وجمالا ، لو جعلنا مادة الفن عندنا من صميم هذه الحياة،وتحررنا لحظات من سحر الماضى ، وفتنة البعيد ، كى نثوب الى نفوسنا ونعيش فى دنيانا . فنرقب هذه المخلوقات الآدمية الرقيقة وهى تخرج من (مقصورات الحريم) غريرة جاهلة،وتواجه الاضواء والانواء والاعاصير ...

ابنة الشاطىء

الريف المصرى

بقلم الشاعر الكبير الأستاذ احمد محرم

هذه القصيدة من عيون الشعر العربى ، وقد فازت بالجائزة الأولى فى المسابقة التى أقامها مجمع فؤاد الأول للغة العربية للشعر . وكانت حضرة السيدة الجليلة هدى شعراوى قد بعثت إليه بمبلغ مائة جنيه لتوزيعها على الفائزين الأول والثانى فى هذه المسابقة ، وفى مسابقة أخرى للقصة

قم للصلاة على هدى وصلاح ... واسجد لربك فالق الاصباح
سبحانه أعطاك ميراث الألى ... شهدوا زمان (رع) وعصر (فتاح)
وأراك من نور الحقائق ما رأى ... (موسى كليم الله) فى (الالواح)
(النيل) بين يديك تملك أمره ... وتريه كيف يدين (للفلاح)
والأرض أرضك أنت . . . أنت وليها ... ما دمت فوق أديمها يا صاح
أوما رأيت الكون أشرق وجهه ... وبدت عليه بشاشة المرتاح ؟ ؟
قم فاسق زرعك، وارع ضرعك، وارتقب ... خيراً ، فسعيك مؤذن بنجاح
واحشد بناتك والبنين وأمهم ... فهم جنودك عند كل كفاح
(القطن) وهو سلاح (مصر) مدجج ... من عزمك الماضى بخير سلاح
لولا نضالك دونه لرأيتها ... فى غمرة الهيجاء ذات جراح
كم من غنى واف ، ورزق واسع ... لبنى البلاد على يديك متاح
الرزق باب لو عييت به لما ... ألقى إليك الله بالمفتاح

* * *

(الريف) يشرع للحياة سبيلها ... ويريك نور جمالها الوضاح
دنيا بدائع حسنها مجلوة ... فى منظر بهج وجو صاح
هى إن كشفت عن العيون غطاءها ... شغف القلوب ، وفتنة الأرواح
تلك (الطبيعة) ما لمن يقضى لها ... حق الهوى من لائم أو لاح
طلعت على عشاقها فى موكب ... يصل الزمان غدوه برواح
عالى الجلال ، يهز أعطاف النهى ... ويهيج شوق العاشق الطماح
جفت المآتم فى الحواضر كلها ... ومضت تقيم معالم الأفراح
سكنت على الوادى البلاد ، وهذه ... فى ضجة ما تنقضى وصياح

فيم الضجيج ؟ أطائف من جنة ؟ ... أم راجف متتابع الالحاح ؟

***

هذا (الجمال الأخضر) انتظم القرى ... وأظلها من جاهه بجناح
بجناح (جبريل) يظل مرفرفاً ... فى جوه المتقاذف الفياح
تلك الحياة لمن يريد لنفسه ... ما تشتهى من متعة ومراح
ما العمر تقطعه بعيش ضاحك ... كالعمر يذهب فى أسى ونواح
لا يخدعنك ما ترى من زخرف ... سمج ، وحسن فى القصور وقاح
العيش عيش النازلين من القرى ... بمنازل غر السمات سماح
قرأوا (كتاب الكائنات) ونحن فى ... (أمية) أعيت على النصاح
وارحمتا للخرس ، فى أفواههم ... لغط الفصاح ، وما هم بفصاح
نعم الكتاب ، توارثوه : فما لهم ... أبداً سواه ، وما له من ماح
سلهم عن المعنى الدقيق ، فانهم ... خير الثقات ، وأفضل الشراح
صحت من القوم العقول ، ولا أرى ... مثل العقول ، تكون غير صحاح
ألفوا حياة الجد فى أوطانهم ... والناس ناس مجانة ومزاح
عمل بلا ملل ، وكدح دائم ... والفضل فضل العامل الكداح
منعوا حمى الأخلاق ، فاستعصى على ... بأس المغير ، وقوة المجتاح
ولقد يباح دم الفتى فى قومه ... ضناً بعرض منه غير مباح
كم نظرة هوجاء من متوسم ... عصفت بأحلام هناك رجاح
دلف الشيوخ الى الشيوخ حمية ... وتدافعت أبطالهم بالراح
وتوثب الفتيان ، لو قدروا مضوا ... بصوارم مسنونة ورماح

***

أرأيت يا ذات القناع سواده ... يلقى على وجه النهار الضاحى ؟
أكذاك أنت اذا تسرع ناظر ... فأصاب جانب وجهك اللماح ؟
ها إن قومك كاد يهلك جمعهم ... لولا الموادة من ذوى الاصلاح
ما أنت من (بكر) ولا من (تغلب) ... لكنه الشرف المنيع الساح
ما كان خطبك فى ذويك برائع ... لو كنت ذات غلالة ووشاح

احمد محرم

[البقية على صفحة ٦٢٠]

التفكير في شئون السلم أثناء الحرب

بقلم الأستاذ محمد عوض محمد

من الدروس القاسية التي تعلمتها الشعوب في هذه الحرب ، ودفعت ثمن هذا العلم من أرواحها وأموالها وطمأنينتها ، أن التفكير البعيد ، والاستعداد الطويل خير وسيلة لاتقاء الكوارث ، أو لتخفيف من وقعها اذا نزلت . وحينما بدأت هذه الحرب كان أحد المعسكرين مستعدا لها استعدادا طويلا دقيقا ، فأعد الرجال والعتاد ، ورسم خطة الغزو بجميع تدبيراتها وتفاصيلها ، وأرسل أمام الجيوش العيون من أبنائه ، والخونة من أبناء البلاد المراد غزوها ، لكي يمهدوا للغزو ويساعدوه ، حتى اذا اذنت الساعة ، أخذ يكتسح الاقطار قطرا بعد قطر ، لا يعترض سيره سوى عقبات كان يعرفها ، وقد حسب لها حسابها ، وأعد العدة لازالتها . ولهذا أحرز نصرا سريعا خاطفا ، أوشك أن يكون كاملا، لولا أن المقادير وقفته عند حده ، وألزمته أن يتعلم الدفاع بعد الهجوم والفر بعد الكر

وأكثر الناس يسلم بأن استعداد ألمانيا الطويل هو سر فوز جيوشها في أول الحرب ، بل يذهب الكثير الى أبعد من هذا ، فيؤكدون أن المعسكر الآخر كان قادرا على منع هذه الحرب ، ووقف كل عدوان ، لو أنه حسب للخطر الالماني حسابه ، وأعد العدة اللازمة لمكافحته . ولقد كان أمام الحلفاء احدى خطتين : اما أن يمنعوا ألمانيا من التسلح ، فيخمدوا النار قبل أن يستفحل شرها ، ويشتد أذاها ، أو أن يعدوا الشر لمكافحة الشر ، والنار لدفع النار . ولكنهم لم يختاروا واحدة من الخطتين . فأهملوا الاستعداد وتركوا المعسكر الآخر يعد عدته الكاملة ، ويحرز انتصاراته السريعة

ولكن أكثر الناس — اذا سلم بضرورة الاستعداد الطويل للحرب ، اذا لم يكن بد من الحرب — فانه لايكاد يدرك ضرورة الاستعداد للسلم — مع أن السلم آت لا ريب فيه — وكان هؤلاء الناس يظنون أن من المعقول الاستعداد لحرب قد تحدث أو لا تحدث ، أما الاستعداد للسلم بعد الحرب ، فلا يرون أن لا داعي للاستعجال بالنظر في أمره . ولهذا فهم يعجبون من أن الدول المحاربة تنفق شطرا غير قليل من مجهود ، وتكرس نشاط عدد كبير من أبنائها لدراسة شؤون السلم ، مع أن الواجب في نظرهم أن ينصرف الجميع الى أمر واحد ، وهو احراز النصر

غير أن قليلا من التأمل سيرينا من غير شك أن التفكير في شؤون السلم لا يقل خطرا — أثناء الحرب — عن التفكير في شؤون الحرب . وحسبنا أن نذكر أن الدول الغربية في

الحرب الماضية قد كسبت الحرب ، وخسرت السلم ، فجرها هذا الى حرب أخرى أشد هولا وعذابا ، وأهوالها أوسع انتشارا فوق سطح الارض . كان انتصار الحلفاء فى الحرب الماضية ، انتصارا كاملا شاملا . ولم يكن من الممكن أن يتمنى الحلفاء انتصارا أكمل منه وأتم . ومع ذلك انقضت بعد هذا النصر أشهر طويلة ، قضاها رجال السياسة العظماء فى حوار وجدال ، وأخذ ورد ، وخطب ومذكرات ، ودار بين قادة الدول الصغيرة ــ مثل بولنده وتشيكوسلوفاكيا ــ جدال حاد كاد يفضى الى حرب بين دولتين حليفتين ــ ولقد مرت هذه الاشهر الطوال والعالم متشوق متلهف للسلم وللحياة فى ظل السلم ــ ولكن لم يكن بد من مضى هذه الاشهر لكى يتمكن قادة الحلفاء من وضع شروط الصلح مع ألمانيا ، وهى الشروط التى أطلق عليها بعد ذلك اسم معاهدة فرساى . ذلك أن الحلفاء فى تلك الحرب ، قد جاءهم النصر فجأة ، كما جاءتهم الحرب نفسها فجأة ، ولم يكونوا قد أعدوا للحرب كل عدتهم . أما الصلح الذى أتى بعد النصر فلم يعدوا له شيئا جديا ــ اذا صرفنا النظر عن بعض المعاهدات السرية التى أريد بها سد حاجة عاجلة ــ اللهم الا شروط ولسن الاربعة عشر ، التى كانت لا تخلو من الابهام ، وكانت قابلة للتأويل والمط والتحوير ، ولم تكن نتيجة مداولات جدية بين حكومات الامم المتحالفة . لذلك لانستطيع أن نقول ان شروط الرئيس ولسن الاربعة عشر ، كانت بمثابة العدة اللازمة لتثبيت قواعد السلم ، ولو أنها كانت كذلك ، لما كان هنالك داع الى كل هذا الاخذ والرد ، والجدال الطويل العنيف ، عدة أشهر ، قبل أن توضع معاهدة فرساى

ان المرء اذا تذكر صلح باريس والظروف التى أحاطت به ، وحوادث السنين التى جاءت بعده ، يخيل اليه ان فرح الحلفاء بالنصر كان عظيما جسيما ، الى درجة انه صرفهم عن الانتفاع بالنصر على الوجه اللازم . بل لعل هذا الفرح الشديد قد أنساهم تماما ذكرى الكوارث التى انتابت الشعوب فى تلك الحرب ، فألهاهم عن اتخاذ العدة لمنع تكرار تلك الكوارث . مع علمهم أن الحرب العالمية الثانية ستكون أفظع هولا وأعم ويلا من الاولى . لهذا كان السلم الذى جاء بعد الحرب العالمية الاولى سلما عجيبا ، خرج منه الغالب وهو لا يمتاز على المغلوب فى الثروة والجاه ، والقوة والعدة الحربية . بل لم يلبث المغلوب أن أصبح يتصرف فى أكبر عدة حربية عرفها تاريخ الانسان

ان النصر ليس بالشىء الذى يبعث الفرح لنفسه ، بل لما يمهد له من عهد سعادة وسلم ورخاء . والنصر مهما يكن باهرا ، فانه لا قيمة له الا كوسيلة الى غاية ، وهذه الغاية يجب أن يكون أهم عنصر فيها أن يزال من العالم كل سبب يدعو الى الحرب . واذا لم يحقق النصر هذه الغاية فانه ضرب من العبث ، بل هو أقبح من العبث ، لانه لا يعدو أن يكون تمهيدا لحروب أخرى تغمر هذا الكوكب جيلا بعد جيل ، وتزداد هولا وويلا على مدى الزمان

ومن حسن الحظ أننا نشهد فى هذه الحرب استعدادات للسلم تشغل أذهان قادة

الشعوب ، ولا تشتمل على مجرد شروط مبهمة تكتب فى صفحة واحدة ، بل تشمل خططا واسعة النطاق ، بعيدة المدى ، تتناول جميع التفاصيل، وتستغرق جهود الآلاف من المفكرين

النظام الجديد

وكلا المعسكرين قد أعد لعهود ما بعد الحرب العدة التى رآها وارتضاها ، فأما العصبة الألمانية فقد وضعت ما سمته « النظام الجديد » ، وهو نظام لا نعرف عنه فى جملته وتفاصيله الشيء الكثير ، ولا نستطيع أن نحكم عليه الا بما نعرفه عن الدولة صاحبة الرأى الأعلى فيه وهى دولة الريخ الثالث ، التى ينادى قادتها بتمييز الجنس الجرمانى ، ورفعوا أصواتهم بالنعرة الجنسية فى القرن العشرين ، ثم شنوا هذه الحرب الشعواء متذرعين بحجة ضرورة الاستيلاء على مدينة دنزج الحرة ، فضرجوا هذا الكوكب بالدم وأشاعوا فيه الويل والثبور، بدعوى تحرير مدينة حرة ، أهلها خليقون بأن يعيشوا فى نعيم ورخاء لو تركوا وشأنهم. ثم مضوا فى هذه الحرب ، يوسعون رقعتها ، ويضخمون ميادينها ، فلم يكتفوا بأن تكون الحرب بينهم من جهة وبين بريطانيا وفرنسا من جهة أخرى ، بل رأى قادتهم ضرورة عجيبة فى أن يكتسحوا الدانمارقة ونروج وهولندة وبلجيكا ولكسمبورج ، تمهيدا لحربهم مع فرنسا وبريطانيا ، وأن يسطوا على دول البلقان ، تمهيدا لحربهم مع روسيا . ان هذه الاعمال وأمثالها ـ وان زعم أصحابها ، وهم يدافعون عنها ، أنها من ضرورات الحرب ـ قد نفرت الناس من « النظام الجديد » المذكور ، وجعلتهم يوجسون خيفة منه ، ويشفقون من أن يقدر للعالم أن يعيش تحت ظله ، اذا كان له ظل

اننا لم نعد نسمع كثيرا عن « النظام الجديد » . وانقضى الوقت الذى كان لا يمضى فيه أسبوع دون أن تحمل لنا الانباء شيئا عنه ، وعما يعده للناس من عهد ومن حظ ، فان ألمانيا اليوم قد اضطرت الى الدفاع بعد الهجوم ، وقد فقدت حليفتها الكبرى فى أوربا ، وليس هذا أوان التحدث عن النظام الجديد

أما الامم المتحدة التى بيننا وبينها عهود ومواثيق ، والتى رضينا ، منذ أول هذه الحرب، برغم حيادنا ، أن نبذل ما فى وسعنا لمساعدتهم وتأييدهم ، فان هنالك أدلة واضحة على أنها تبذل اليوم جهودا لتدبير شؤون السلم ، مدركة أن هذه الشؤون لا تقل خطرا عن المجهود الحربى نفسه ، وان انتصار الدول المتحدة لن يكون نهاية المجهود الكبير الذى يبذل من أجله فحسب ، بل بداية مجهود أكبر لتنظيم شؤون السلم ، ووضعها على أسس متينة ، ودعائم قوية . وقد أدركت الامم المتحدة أن من الضرورى الا يفاجئهم النصر ولم يعدوا له العدة بعد . ولذلك فهم قد أخذوا يستعدون لعهد السلم منذ زمن بعيد . وكأنما شعارهم : « اعمل للحرب فانها تدوم أبدا ، واعمل للسلم كأنه آت غدا » . وهذه الظاهرة شيء جديد ، لم يكن له وجود أثناء الحرب الماضية

وقد تناول هذا الاستعداد للسلم كل ناحية من النواحى ، لا يريد أن يترك صغيرة ولا كبيرة ، على أن يكون الهدف المنشود انشاء عالم تسوده الحرية والعدل والرخاء . وغاية العاملين فى هذا الميدان أنه لا يكاد النصر يأتى ، حتى يكونوا قد أعدوا شروط الصلح التى سبق الاتفاق عليها ، وهى جامعة شاملة لكل التفاصيل ، فلا يترك العالم فترة من الزمن يتخبط بين الصلح والحرب . واذا كان المراد انشاء نظام عالمى مثل عصبة الامم ولكن من طراز أرقى وأجدى ، فان هذا النظام يجب أن يبت فيه من الآن . وهنالك ما يزيد على الاربعين دولة من الامم المتحدة والمتضامنة معها، وفيها الكفاية التامة لان تكون نواة لهذا النظام العالمى ، الذى يجب ألا ينتظر حتى تنتهى الحرب ، وتمضى بعدها الشهور الطوال ، قبل أن توضع قواعد ذلك النظام ، بل الامر المعقول أن يبت فى هذا النظام منذ الآن ، وترسم جميع خططه وقواعده ، وان يكمل انشاؤه بمجرد الفراغ من وضع أسسه . ولو تم هذا اثناء الحرب لما كان هنالك ضير ، بل لعل فى هذا الخير كل الخير ، اذ تكون لدينا فى بدء عهد السلم الأداة العالمية اللازمة للمحافظة على السلم

ميثاق الاطلنطى ومجهود الدول المتحدة

لقد أصدرت الامم المتحدة وثيقة تتضمن دستور السلم ، وهى الميثاق الاطلنطى ، الذى صدر فى شهر اغسطس عام ١٩٤١ . ولا شك أن هذا يذكرنا بدستور الصلح الذى سنه الرئيس ولسن بشروطه الاربعة عشر . ولكن هنالك فروق جوهرية بين الوثيقتين : أولها أن الميثاق الجديد قد وافقت عليه جميع الامم المتحدة . والامر الثانى ، أن أمريكا اليوم تعمل بالاشتراك مع جميع الحلفاء كواحدة من الامم المتحدة . أما فى الحرب الماضية فانها كانت لا ترضى أن تعد احدى دول الحلفاء . والامر الثالث والاخير أننا فى هذه المرة لا نشهد دستورا يسن فقط ، بل نرى الى جانبه اجراءات جدية لتنظيم شؤون السلم منذ الآن على أساس ذلك الدستور . وهذا أكبر فرق بين الحالة فى الحرب الماضية ، وبين الحالة اليوم

ويجوز لنا أن نتساءل : الى أى حد وصل المجهود المشترك للدول المتحدة فى تنظيم شؤون السلم ؟ وهل قطعت تلك الجهود مرحلة عظيمة حتى اليوم ؟

ان المسرح الاكبر لهذه الجهود اليوم هو عواصم الولايات المتحدة وبريطانيا ، ولكن يجب علينا ألا ننسى أن فى كلا البلدين عددا عظيما من أبناء الامم المتحدة ، يستطيعون أن يدلوا بآرائهم ، وأن يبذلوا ما يستطيعونه من معاونة . والتفكير فى شؤون السلم أمر يتطلب بطبعه الروية والتؤدة ، لهذا لم يكن بد من أن تتقدم المشاريع المختلفة ، التى تعالج نواحى عديدة من شؤون السلم فى شىء من البطء . ولكن الراجح أن الامور تسير اليوم بسرعة أعظم ، وذلك خوفا ـ اذا صح هذا التعبير ـ من أن يأتى الصلح فجأة ، والامم المتحدة لم تعد له كل عدته

وفي بلد ديمقراطي مثل الولايات المتحدة لم يكن بد من أن يشترك الرأى العام في الادلاء بفكره في شؤون السلم . ولا شك أن الحكومة ترحب بهذا ، ولعلها تشجعه ، ومن الامثلة على هذا ما دار من الجدال ، بين كثير من أعلام الكتاب هناك ، حول موضوع ألمانيا ، وكيف تعامل بعد الحرب ، فان من البديهي أن مجرد هزيمة ألمانيا ليس بالأمر الذي يرتضيه الحلفاء المنتصرون ، بل لا بد من بذل مجهود آخر للقضاء على العقلية الحربية ، والروح العدوانية . واتخاذ كل ما يمكن من اجراء لتأمين الشعوب على كيانها ، والقضاء على الحرب كوسيلة لمعالجة المشاكل التي تنشأ بين الدول

وقد انقسم الكتاب في أمريكا فرقتين على النحو الذي حدث بعد الحرب العالمية الاولى ، ففريق يرى أن لا بد من معاقبة الشعب الالماني على الجرائم التي اقترفها ، وأن يكون العقاب معادلا للكوارث التي أنزلت بشعوب كانت آمنة مطمئنة . ويقول أصحاب هذا الرأى ان من العبث أن يقال ان المجرمين الوحيدين في هذه الحرب هم قادة ألمانيا ، فاذا سقط الحكم النازى ، فلا داعى الى أى اجراء آخر . بل من اللازم أن يشعر الشعب الالماني انه قد ارتكب أمرا يستحق عليه العقاب الصارم

وهنالك الفريق المعتدل ، الى درجة الاسراف ، يريد أن يترفق الحلفاء بألمانيا ، وأن يتخذوا منها درعا ونصيرا ، وعونا في التعمير بعد الحرب ، وسورا منيعا يحول دون نفوذ البلشفية الى غرب أوربا

هذه الآراء وغيرها قد نادى بها كثير من الكتاب في الدول الحرة . وعلى الاخص في أمريكا . ومن حسن الحظ أن يدور هذا الجدال ، قبل عقد الصلح بزمن ، لكى تستطيع الحكومات أن تسترشد باتجاهات الرأى العام فيما قد ترسم من خطة للبت في مصير ألمانيا ، وقد استطاعت الدول الكبرى من بين الامم المتحدة أن تجتمع فعلا في عاصمة روسيا ، وأن تضع الاسس لكثير من شؤون الصلح والسلم ، بما في ذلك موضوع ألمانيا ومصيرها . وأن تنشىء منذ الآن لجنة دائمة في لندن لدراسة التفاصيل والبت في أى مشكلة تعرض بمجرد ظهورها

الأمم الصغيرة ومشروعات السلم

ونحن — أبناء الامم التي تدعى « الدول الصغيرة » — يهمنا بوجه خاص ما يرسمه قادة الشعوب من مشاريع للسلم ، تنطوى على العدل والانصاف ، ورفع الظلم عن الشعوب والقضاء على ذلك الاستغلال ، الذى استحلته بعض الدول ، وكادت تتوهمه حقا شرعيا . وايجاد نظام عالمي يجعل من العالم كله أسرة واحدة ، لا فرق بين جنس وجنس أو لون ولون

لقد كان بين دول أوربا من قبل فريق يرى أن من الجائز أدبيا أن يكال للامم بكيلين

مختلفين ، فبكيال لشعوب أوربا بمكيال خاص ، وللامم غير الاوربية بمكيال آخر . تلك هى العقلية الاستعمارية القديمة ، التى كانت تظن أن من الممكن أن يتمسك المرء بالصدق فى أوربا ، ولا يأنف من الكذب فى آسيا أو افريقية ، وينهج منهج العدل فى الشعوب الاوربية ، ولا يجد بأسا فى ظلم غيرهم من الشعوب

واليوم أدرك قادة الشعوب الحرة — بعد لأى — أن المرء لا يمكن أن يكون صادقا فى أوربا وكاذبا فى آسيا ، عادلا فى الغرب ، وظالما فى الشرق . مستمسكا بالفضيلة عند طائفة من الشعوب ، ومرتكبا للخنا جهارا عند طائفة أخرى . أدرك قادة الشعوب هذا ، ولئن كان هنالك فريق من الطراز القديم لا يزال قويا نافذ الكلمة ، فان الذى نرجوه أن الرأى العام سيضطره الى الكف من غلوائه ، والى مجاراة التيارات الحديثة . ولقد كان حادث لبنان نذيرا لكثير من الناس ، ولقادة الامم الغربية أنفسهم ، بأن يدركوا ان السنن الجديدة التى يريدون أن يسنوها فى العالم ، القائمة على الحريات الاربع ، لن تكون الطريق أمامها سهلة معبدة . وأن للسنن القديمة البالية ، القائمة على القهر والاستغلال ، أنصارا تدفعهم المآرب الشخصية والشهوات الفردية الى التفانى فى المدافعة عنها ، والى محاربة هذا النظام العالمى الكريم القائم على حرية الشعوب ورخاء الجميع ، الذى يراد انشاؤه اليوم ، والذى لا بد من انشائه ، اذا أريد للنوع البشرى أن يعيش وأن يبقى

لقد أثار حادث لبنان سخطا صريحا ، صادرا عن ايمان ويقين ، من الرأى العام فى كل قطر من الاقطار . فأدرك أنصار القديم أن الشعوب جادة لا هازلة . وأن القادة اذا قصروا فان الامم لن تتوانى عن تذكيرهم بواجبهم

كذلك أتاح لبنان للذين يفكرون اليوم فى شؤون السلم ويعدون له عدته . أن الطريق له ليست سهلة ميسورة ، وأنه ليس عليهم أن يحاربوا النازيين وحدهم ، بل ان هنالك عدوا أقوى مراسا ، وهو الرجعيون الذين يعيشون وسط الامم المتحدة نفسها

محمد عوض محمد



الشباب المصرى بعد الحرب

بقلم مارين غالى بك

ساهم الشباب بلا شك ولا يزال يساهم فى نهضتنا المباركة ، فكان من بينه الابطال والشهداء وجنود الوطن المخلصون ، وأثمر جهاده تحت راية القادة والزعماء الثمار الطيبة ، واذا ما ذكرنا استقلالنا السياسى ونظمنا النيابية فانا لا محالة ذاكرون ما كان للشباب من يد فى تكوين هذا كله . على أن الشباب فى نشاطه الزائد لم يقنع بتلك النواحى السياسية وأبى الا أن يساهم فى نهضاتنا الاجتماعية والاقتصادية ، فدعا دون تردد الى انشاء بنك مصر وحمل على عاتقه كثيرا من المشروعات الاقتصادية والوطنية ، ونظم جولات متتابعة ورحلات متعددة فى سبيل بث فضيلة أو محاربة رذيلة وتعميم دواء أو التخلص من داء

كل تلك جهود يلذ لى أن أسجلها باسم الماضى والحاضر قبل أن أقول كلمة عن المستقبل . بيد أن مصر التى خطت ما خطت فى سبيل النهوض السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، لا يزال الطريق أمامها طويلا والمجال فسيحا ، ولا بد لها أن تتابع الخطى لكى تصل الى المستوى اللائق بها . فهى فى حاجة ماسة الى أن تدعم استقلالها السياسى وتؤيد نظامها النيابى ، وأمامها فوق كل هذا واجب هام وخطير فى الناحية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية

فما أحوجنا الى جهود جبارة لا يصرفنا عنها صارف ولا يشغلنا عنها شاغل ، جهود ترمى الى رفع مستوى المعيشة وتحقيق مرافق الحياة لعامة الشعب ، فان مستواه الحالى أدنى من مستوى بعض البلاد الشرقية مثل سوريا ولبنان وفلسطين ، ولا يتفق مطلقا مع ما وصلنا اليه من تقدم فى مظاهر الحياة القومية الاخرى . وعلينا أن نزود الامة بالثقافة الصحيحة التى تمكنها من تمييز الحق والباطل ، والنافع والضار ، لان سلامة الدولة فى يقظة الشعب أولا وقبل كل شىء . ولا بد لنا من تربية اجتماعية ووطنية تعزز فى كل مصرى حب مصر ممثلة فى أرضها وشعبها ، وتجعله يشعر بأن مصلحته الخاصة لاتتعارض مع المصلحة القومية ، وأن فى رخاء الجميع خير ضمان لسعادته الشخصية ، فيعترف الثرى بحقوق الفقير على الدولة وعليه ، ويؤاخى الحاكم المحكوم ولا يستهين بأمره ، ولا يضن صاحب الارض أو المصنع على الفلاح والعامل بثمرة عمله ومستلزمات معيشة كريمة

وهذه معان نفتقر الى انتشارها بيننا ، وان أدركناها وفهمناها فانا فى الغالب لا نؤمن بها الايمان الكافى ولا نعمل بمقتضاها فى حياتنا العامة والخاصة . وقد شغلتنا فى الماضى

القضية الخارجية الى حد أنا نسينا أحيانا أو أرجأنا النظر فى القضية الداخلية وما تتطلبه من تضحية وعمل وعناية . ولا شك فى أن هذا الجهاد ـ الذى أسميه جهادنا الوطنى الثانى ـ يتطلب منا جهودا وتضحية لا تقل عما بذلناه فى الجهاد الاول ، بل ربما كان أشق وأصعب لانه يعتمد على المثابرة والتواصل فى العمل والتفكير ، والدقة والعناية يوما بعد يوم بمظاهر الحياة المادية والادبية على اختلافها . وقد تنقصه فى نظر البعض روعة الكفاح والنضال فى سبيل الاستقلال والحرية ، الا أنه الآن هو النضال الذى يعنينا والكفاح الذى يأخذ بيدنا

ذلك لان الاستقلال السياسى مظهر أجوف ان لم يعتمد على شعب يقظ مثقف ، أخذ برسالة التربية القومية والتعاون الاجتماعى وآمن بها ، والانظمة والقوانين بل والحرية نفسها ليست الا مظاهر لا تقوى على البقاء والنماء ما لم ترتكن على العدالة الاجتماعية وتحقيق حاجات المعيشة للجميع . هذا الى أن التغيير فى النظام الاجتماعى حاصل لا محال فهل لم يكن من الحكمة أن نجعله تطورا محكما بدل أن ندعه سيلا طاغيا لا نقوى على توجيهه الى ما فيه خير الوطن ؟

وفى هذه المشاكل التى تواجهنا وهذا الكفاح الجديد الذى ينتظرنا انما تعول مصر على شبابها ، لانه بطبيعته يدرك التطور الاجتماعى الحديث ومستلزمات العالم الجديد أكثر ممن سبقوه فى مضمار الحياة وطبعوا على نظام وتركيب للاسرة الاجتماعية لم يعد يناسب العالم بعد هذه الحرب ، والشباب فوق هذا يتحمس للافكار الجديدة ويضحى فى سبيلها بما لا يضحيه أحيانا من ذاقوا من الحياة قسطا أطول . واذا كان بين الشيوخ رجال تحرروا من قيود التفكير القديم والنظم العتيقة ورفعوا صوتهم لمناصرة الحرية الحقة والاعتراف بالحقوق الاجتماعية ـ فاستحقوا بذلك أن يقودوا النهضة الجديدة بما لهم من تجارب سابقة وعزم قوى ـ فعلى من يعتمدون ان لم يكن على الشباب والنشأة الجديدة ؟ ومع من يشتركون ويتعاونون ان لم يكن شبان مصر فى جيلنا هذا الذين نأمل أن تذكرهم الاجيال القادمة كأبطال النهضة المصرية ؟

ولكى يقوم الشباب بالدور المنتظر منه ويؤدى الخدمة المفروضة عليه لا بد له من سلاح ودرع . فالسلاح فى أن يتهيأ لعمله ويستعد له ، يستعد بالتعليم أولا كى يتسع أفقه ويكسب المعارف الثقافية والفنية اللازمة ، وبهذه المناسبة نرجو ألا نسمع أبدا فى المستقبل عن ذلك الرجاء المخجل وتلك المطالب المخزية لتسهيل الحصول على الشهادات الدراسية ، فلا نرى وفودا من الطلبة يتقدمون مرة أخرى الى ولاة الامور بطلب تسهيل الامتحانات وانقاص حد الدرجات اللازم للنجاح ، فتلك روح خبيثة لا ندرى كيف تسربت يوما ما الى قلوب الشباب ، ولا ندرى كيف غاب عن عقولهم أن لا نجاح فى الحياة بغير دراسة متقنة وجهد وعمل متواصل ، ولا كرامة للانسان ما لم يشعر بأنه نال شهادته وأتم دراسته فى مستوى لا يقل عن مستوى بلاد أخرى

ويتهيأ ثانيا بأن يقف على حالة البلاد الصحيحة ، دون أن تصرفه غيرته الوطنية عن فهم الاحوال كما هي ، ودون أن يغمض عيونه عن حقيقة مهما كانت مرة . ويتهيأ أخيرا بروح المساواة والأخوة الصادقة ، والعزم القوى على النهوض بهذه الامة الجديرة حقا بأن يعمل لها دون حساب للمشقة والتضحية

وأما الدرع ، فهى ألا يسلم نفسه للتيارات المفسدة والتأثيرات المثبطة التى تنتزعه ، وألا يسمح لحب الوصول أن يصرفه عن العمل الصابر ، وألا يتأثر بتيار الجشع والطمع الذى انزلق فيه الناس أثناء هذه الحرب ، ففقدوا كثيرا من حكمهم السليم وتناسوا الاقيسة الصحيحة والقيم الوطنية التى لا تزول

كل هذه شروط ضرورية ومستلزمات أساسية ان شئنا أن نعلق على المستقبل أملا ، ونوطد على ما تخبئه لنا الاعوام المقبلة رجاء . الا أن هناك شرطا آخر أهم وأقوى ، ألا وهو الايمان بمصر ومستقبل مصر ، ايمان لا يقتصر على فرد ولا يتوقف على طائفة ، بل لا بد أن يشمل البلاد بأسرها ويملأ القلوب على اختلافها حتى تسير سير قدم واحدة وتتحرك حركة رجل واحد . والشباب هو المبعث الاول لهذا الايمان الراسخ والنور الفياض الذى لا تحتجب أمامه ظلمة ولا توقف صعوبة ، وفى مقدوره أن يحارب كل تواكل ويقضى على كل تراجع لانه يعمل بقلبه ويملأ الجو بمضاء عزيمته

ماريت بطرس غالى

الريف المصرى

[بقية المنشور على صفحة ٦١١]

يا مورداً تلب المنيــة دونه … ماذا صنعت ببهجة الملتــاح ؟

أنت الشحيح ، تلوذ إن خفت الأذى … عداقعين عن الممار شحاح

قوم إذا غمزوا فريصة جامح … ألقى القيادة بعد طول جمـاح

ثم استقام على الطريقــة وارعوى … فنجا ، وفاز بنعمــة وفلاح

قل (للمدائن) هل سمت ؟ وهل هفت … (للريف) فيك جوانح النزاح ؟

هجروا الديار ، فأى إثم قارفوا … بفراق أهليهم ، وأى جنــاح ؟

سلهم : أما حان الاياب ؟ وقل لهم : … أوليس فيكم مؤذن ببراح ؟

وسل الخمائل : هل طربت ؟ وهل دعى … واديك حق (البلبل الصداح ؟)

أرأيتها نشوى ، وما شربت سوى … خمرى ، ولا عرفت سوى أقداحى ؟

للعبقرية فى فمى من نشوة … ما ليس يوجد فى كؤوس الراح

فتح من الله الكريم ونعمــة … سبحانه من منعم فتــاح

احمد محرم

أمريكا ميدان الرجل أم جنة المرأة ؟

من القضايا المسلم بصحتها أن أكثر الامور وضوحا وأخطرها شأنا هى أكثرها تعرضا للتجاهل والاهمال

فعند ما تعقد المقارنة بين امريكا وبريطانيا من الوجهة السياسية ، يقال ان احداهما جمهورية ذات رئيس والاخرى ملكية عليها ملك ، وان فى هذه رئيس وزارة مسئولا أمام البرلمان ، أما تلك فرئيس جمهوريتها لا يقف امام البرلمان ولا يسأل أمام مشرعيه . وهذه أمور لها أهميتها عند المقارنة بين البلدين ، ولها تأثيرها فى الاتجاه السياسى الذى يخطه كل منهما . ولكنها ليست كل شىء ، بل ولا أول شىء ، يجب أن يذكر فى المقابلة السياسية بينهما . فثمة عوامل أخرى أخطر شأنا وأقوى أثرا ، وان قل فى الناس من يعيرها التفاتا ويوفيها تقديرا . فمن هذه العوامل التى تجعل الحياة السياسية فى امريكا مختلفة عن شبيهتها فى بريطانيا ، ما للمرأة من الشأن العظيم فى شتى مناحى الحياة الامريكية

فأكثر من نصف ثروة الولايات المتحدة الامريكية فى أيدى النساء ، بينما نصيبهن من ثروة بريطانيا لا يذكر الى جانب نصيب الرجال . ذلك أن التقاليد الانجليزية تقضى بأن تنتقل الثروة من الاب الى الابن ، وغالبا الى الابن البكر وحده ، بينما تجرى التقاليد الامريكية على أن يترك الرجل بعد وفاته ثروته بأكملها لارملته . اذ المفروض فى الابن « أن يشق بنفسه طريقه فى الحياة ، وأن يجمع منها مثلما جمع أبوه من قبل » . وعند ما تقسم الثروة بين الابناء تقسم بالتساوى بين الاولاد والبنات ، بل كثيرا ما يكون قسم هؤلاء منها أكبر وأجزل ، لانهن عادة أقل من اخوتهن قدرة وحيلة على متاعب العيش

وتقر القوانين وتعزز هذه التقاليد التى درج عليها الناس . فمقر المرأة فى انجلترا يتبع دائما مقر زوجها ، أى حيث يعيش الزوج تعتبر الزوجة عائشة كذلك . وقد ترتب على ذلك أن قرر مجلس اللوردات انه اذا اختفى الزوج فلا تستطيع زوجته أن تطلب الطلاق منه ، لانها لا تعرف مقره ، فلا تعرف بالتالى المحكمة التى يجب أن تقاضيه فيها . .

وكذلك تسرى قوانين ضريبة الدخل فى بريطانيا على الزوج والزوجة سريانها على شخص واحد ، لان ثروتيهما مندمجتان احداهما فى الاخرى ، لا فاصل بينهما ولا فارق

أما فى امريكا فللمرأة مقرها الخاص بها دون ارتباط بمقر زوجها . والضريبة تسرى على دخلها منفصلا عن دخل زوجها انفصاله عن دخل أى شخص سواه

ويتجلى نفوذ المرأة الامريكية وتحررها اذا نظرنا الى مسألة الطلاق . فقد حدث فى سنة ١٩٤٠ فى بريطانيا ٧٣٨٢ طلاقا ، يقابلها فى الولايات المتحدة ١٦٠٫٣٣٨ طلاقا . فاذا قدرنا أن سكان الولايات المتحدة ثلاثة أمثال سكان بريطانيا ، فانا نجد حوادث الطلاق فى امريكا سبعة أو ثمانية أمثالها فى بريطانيا . والمشاهد والمعقول أنه كلما قوى نفوذ المرأة كثر

الطلاق ، لان قدرة المرأة على الاستقلال بنفسها ، استقلالا أدبيا وماديا ، يهون عليها أمر الفراق من زوجها

وثمة ظاهرة أخرى فى مسألة الطلاق تدل على مدى ما للمرأة الامريكية من نفوذ وسيطرة ، فان من حالات الطلاق التى ذكرنا عددها ١١٧٫٣٧٥ حالة ، أى أكثر من ٧٠ ٪ من مجموع الحالات ، وقعت بناء على طلب الزوجات لا الأزواج . وهذا يدل على ضعف شخصية الرجل الامريكى قدر ما يدل على نبله وشهامته ، اذ يترك للزوجة حق مفارقته اذا تعذرت عليهما الحياة الموفقة الهانئة

وهناك ميادين شتى تبدى فيها مكانة المرأة الامريكية وتفوقها على سائر النساء فى الحياة الاجتماعية . من ذلك ميدان الملابس والازياء . فالمرأة الامريكية آنق نساء العالم فى زيها . والفتاة العاملة الفقيرة تلبس جوربا ثمينا من الحرير ، وتأبى أن ترى فى جورب من القطن . وعندها عادة معطف ذو فراء ، ومجموعة من الاثواب الانيقة تتخيرها من تلك النماذج التى تخرج منها مصانع الازياء الامريكية فى كل موسم المئات والآلاف . وهذا على نقيض الرجل الامريكى الذى يقل عن الرجل الانجليزى فى اناقته الى حد بعيد . والقاضى الامريكى يجلس على المنصة فى عباءة سوداء بسيطة خالية من الذيول والحواشى ، وفى قبعة عادية لا ريش فيها ولا زخارف . ورجل الاعمال فى امريكا يربح فى العام عشرة آلاف جنيه ومع ذلك يرتدى بذلة ساذجة بسيطة

أعود الى الحديث عن مكانة المرأة فى الحياة العامة فى امريكا ، فأقرر أن هذه المكانة تكون أعلى ما تكون فى ميدان السياسة . وقد قال أحد شيوخ امريكا فى سنة ١٩٤٠ فى لهجة حازمة حاسمة : « ان الامهات فى امريكا لن يدعن أولادهن يذهبون الى حرب أوربية ، والامهات هن اللاتى يحكمن أمريكا » . ولعل هذا الشيخ قد غالى فى الامر قليلا ، ولكنه مع ذلك صدق وأصاب كثيرا . فذوو النفوذ من الرجال الامريكيين منصرفون الى أعمالهم ومشاريعهم ومضارباتهم فى دور الصناعة واسواق التجارة ومصارف المال ، الى درجة لايستطيعون معها أن يأخذوا بنصيب وافر فى الشؤون العامة ، مما يسر لزوجاتهم (وقد أغنتهن الاجهزة الكهربائية المختلفة التى تقوم بأكثر أعمال المنزل بأيسر جهد وفى أقصر وقت من كثير من المهام الملقاة على عاتق سائر الزوجات فى البلاد الاخرى) سبيل الاهتمام بشؤون السياسة ، وشهود اجتماعاتها ، والمساهمة فى مؤتمراتها ، والمشاركة فى توجيه سفينتها . وأقرب شىء الى يد المرأة الامريكية القلم تكتب به رسالة أو برقية الى هذا أو ذاك من الوزراء والشيوخ ورجال الاحزاب ، تؤيده وتناصره ، أو تعارضه وتنكر عليه سياسته . وهكذا تكاد تكون السياسة فى امريكا من هم النساء لا من عمل الرجال .. ولعل هذا ما يجعل السياسة الامريكية نافرة دائما من الحرب ، مؤثرة دائما للسلم ، فليس أحب الى قلب الام والزوجة من الحياة الهادئة الهانئة ، ولا أقسى عليهما من الحرب وكوارثها الفاجعة

(عن كتاب « من هم الامريكيون ؟ » بقلم وليم دويت هويتنى)

مدام كوري على فراش الموت

للدكتور مصطفى الديواني

[مقتبسة من كتاب مدام كوري تأليف ايف كوري]

شعرت ماري كوري ـ مكتشفة الراديوم ـ بدنو أجلها ، وكانت تتحدث عن النهاية المحتومة بلهجة هادئة . فأحيانا تقول : « من البديهي ان العمر لن يطول بي غير سنوات قلائل » . وتارة تقول : « ان ما يشغل بالي هو مصير معهد الراديوم بعد موتي » . ولكنها كانت تتجاهل بقدر استطاعتها نهايتها المتوقعة ، فتحدت الاقدار وعملت كأنها تعيش أبدا وأحاطت نفسها بسياج هائل من المشروعات والمحاولات الجديدة ، آملة أن تتكسر سهام القدر عند جدران هـذا الحائط المنيع ، فتمهلها الايام من العمر طولا جديدا تنفذ فيـه برنامجها . ولكن القدر لا يرحم ! اذ أخذ ضعفها يتزايد . وتفاقمت الاعراض التي كثيرا ما أزعجتها ، وهي ضعف البصر والآلام الروماتزمية ، وانحطاط القوى . فتأكدت أن الشفاعة لا تجدي أمام قسوة المصير المحتوم ، وأخذت تنجز ما بقي من أعمالها في سرعة غير عابئة بأخطار التعرض للراديوم كعادتها ، اذ كان المعروف عنها أنها لم تكن تبالي باتخاذ الاحتياطات التي طالما شددت على تلاميذها باتباعها أثناء العمل كالامساك بأنابيب الراديوم بكلابة خاصة أو بعد لبس قفازات مصنوعة من الرصاص ، تقي اليـدين من اشعاعات هذا المعدن القاتل الشاق. وكانت ترفض دائما أن يجرى على دمها بعض التحاليل اللازمة لمعرفة مقدار تأثر الجسم بهذه الاشعاعات فما كان ليهمها أن تصاب بحروق في اليدين لا تلبث أن تجف أو تتقيح وما كانت لتبالي بهبوط في كرويات دمها ! فما قيمة هذه الحوادث التافهة ازاء الاهوال التي لاقتهـا خلال خمسة وثلاثين عاما قضتها في جهاد مستمر،أمام جهازها المشيد تستنشق ماينبعث منه من بخارعدوها الصديق وهو الراديوم. وسيدرك القارئ، فيما بعد كيف غدر هذا المعدن النفيس بصاحبته ، ولماذا سميته القاتل الشاق والعدو الصديق

في ديسمبر ١٩٣٣ انتابت ماري آلام جديدة استدعت فحصها بأشعة اكس ، فأثبت الفحص وجود حصوة كبيرة في حويصلة المرارة ، فزاد ذلك من قلقها على حياتها ، لان والدها مات بنفس المرض ، ورفضت فكرة اجراء عملية جراحية لازالتها ، وفضلت أن تتبع نظاما قاسيا في مأكلها ومعيشتها وبدأت لاول مرة في العناية برفاهيتها،فدرست بالتفصيل مشروع بناء منزل جديد في قرية (صو) ، حيث يرقد زوجها تمهيدا للانتقال نهائيا من

باريس الصاخبة ، ولما شعرت ببعض الخمول فى قواها العامة جربت أن تمارس الانزلاق على الثلج ، فشعرت بانتعاش عجيب وجرى الدم حارا فى عروقها من جديد

ولما حلت اجازة عيد الفصح ، انتهزت فرصة مجيء أختها الكبرى (برونيا) من وارسو لقضاء العيد معها ، وقامت برحلة بالسيارة فى جنوب فرنسا . وقد انهكتها مشاق السفر فأصيبت ببرد مصحوب بحرارة اضطرها أن تلزم الفراش، وهى فى أشد حالات الضعف، وكانت تبكى بين ذراعى شقيقتها فى عجز الطفل الصغير، وتعرب عن خوفها من أن تقضى النزلة الشعبية التى أصابتها على حياتها قبل أن تنتهى من كتابها الذى يعز عليها أن تموت قبل انجازه . وأخيرا تمكنت البقية الباقية من مقاومتها من التغلب على المرض ، فعادت الى باريس . وبعد انتهاء الاجازة اضطرت (برونيا) الى العودة الى بولندة وفى محطة القطار الميمم شطر وارسو تبادلت الشقيقتان قبلات الوداع للمرة الاخيرة

أخذ المرض الغامض يسيطر فى سرعة قاسية على مارى ، فاشتدت نوبات الحمى والقشعريرة التى كانت تسبب لها عذابا كبيرا ، وحاولت كريمتها (ايف) جهدها أن تحصل على موافقتها لاستدعاء طبيب لزيارتها، فكانت تستبعد الفكرة بعناد قائلة أحيانا: « ان الاطباء يبعثون السأم والملل الى نفسى » وأحيانا أخرى : « لاداعى لازعاجهم فهم يرفضون تقاضى أى أتعاب منى » والغريب ان هذه العالمة الكبيرة كانت تنفر من الاطباء كأى فلاحة ريفية ساذجة ، ولما جاء الاستاذ ريجو ـ وهو يدها اليمنى فى المعمل ـ لزيارتها اقترح استدعاء الاستاذ بولان لفحصها ، ولما أتم هذا فحصه وراعه فقر الدم الشديد البادى على وجهها قال فى حزم وتأكيد « يجب أن تلزمى الفراش ، وأن تمتنعى بتاتا عن الحركة » فهزت مارى كتفيها فى استخفاف اذ أنها سمعت نفس الكلمات من عشرات الاطباء قبله، ولم تبالى بانذارهم لها ، فاستمرت على نظامها اليومى . وكانت تذهب الى المعمل يوميا وهى فى أشد حالات الضعف . حتى حل أحد الايام المشمسة الساطعة من شهر مايو ١٩٣٤ فذهبت كعادتها وبقيت هناك حتى منتصف الساعة الرابعة تتنقل بين الأجهزة والانابيب تلمسها فى حنان وضعف وكأنها تودعها الوداع الاخير ، وأخيرا تمتمت فى صوت خافت للذين حولها « ان الحمى تقعدنى عن العمل ويجب أن أعود الآن الى المنزل »

وقبل خروجها جالت فى أنحاء الحديقة وتفقدت أزهارها واحدة بواحدة واستلفتت نظرها شجرة ورد ذابلة ، فوقفت عندها ونادت على مساعدها قائلة له : « يجب العناية بهذه الشجيرة يا جورج . يجب العناية بها حالا . حالا » وطلب اليها أحد تلاميذها أن ترجع الى منزلها لان البقاء طويلا فى العراء قد يضر صحتها فأطاعت فى استسلام ومشت فى خطى متثاقلة نحو سيارتها وقبل أن تصعد اليها التفتت الى مساعدها مرة ثانية وقالت « لا تنس يا جورج .. شجرة الورد »

وهكذا ألقت نظرتها الاخيرة على معملها المحبوب

لازمت مارى الفراش تكافح مرضها الغامض الذى حار فيه أطباؤها بالرغم من الابحاث

التى أجريت لها ولما أظهرت صورة الاشعة وجود اصابة درنية قديمة بالرئتين عالجها الاطباء على هذا الاساس ، ولما لم تتحسن حالتها اقترحوا نقلها الى مصحة . فترددت ابنتها (ايف) فى عرض الفكرة عليها فى أول الامر ولكن ماكان أشد دهشتها عندما وجدت أمها ترحب فى طاعة عمياء بفكرة الاطباء فقد خيل لها ان الهواء النقى والبعد عن ضوضاء المدينة وغبارها كفيلان بالتعجيل فى شفائها . وقبل نقلها الى المصحة فكرت ايف فى استشارة اربعة من كبار أساتذة كلية الطب فى باريس - فاجتمعوا حول فراش المريضة المنهكة وأخذوا يفحصونها بدقة مدة نصف ساعة ووصلوا الى قرار أخير وهو أن المرض مسبب عن الاصابة الرئوية القديمة ، وان هواء الجبال يفيدها كثيرا .. وتقول ايف كورى فى كتابها بلهجة الابنة التى رزئت فى والدتها - وهو شعور يقاسى منه الاطباء كثيرا : « يؤسفنى أن أقول ان قرارهم كان خاطئا .. وأفضل الا أذكر أسماء هؤلاء القطاحل البرزين فى فنهم ، والا رمانى الناس بالميل الى التشهير بالغير ونكران الجميل .. »

وحتى يتم الاستعداد للرحيل حرم الاطباء على مارى أن تقابل أى زائر فى غرفتها ولكنها مع ذلك كانت تستدعى سرا زميلتها فى العمل مدام كوتيلو وتقول لها : « يجب أن تحتفظى (بالمعدن) حتى عودتى وانى أعتمد عليك الاعتماد كله لحين عودتى حيث نستأنف العمل سويا ...

وبالرغم من أن حالتها أخذت تسوء بسرعة فان الاطباء صمموا على ترحيلها الى الجبال وتمت الرحلة ، وكانت قاسية على المريضة . اذ أغمى عليها بين ذراعى ابنتها ايف وممرضتها عند ما وصل القطار الى بلدة (سان جرفى) وأخيرا وصلوا الى مصحة (سانلموز) حيث رقدت فى أفخر غرفة وفحصت بالاشعة فى دقة زائدة ولما انتهى أطباء المصحة من دراساتهم قرروا أن الرئتين سليمتان ، وأن الرحلة المضنية المرهقة عبث وضياع وقت !

ارتفعت درجة حرارة المريضة الى الاربعين درجة مئوية . وكانت مارى تنزعج لارتفاعها فكانت تصمم على أن ترى مقياس الحرارة . ولم تكن مارى تقوى على الكلام فى ذلك الوقت فكانت عيناها الزائغتان فى وجهها المصفر تعبران عن انزعاجها عندما يصل زئبق مقياس الحرارة الى هذا المستوى المخيف ..

ولما سمع الاستاذ روك بجامعة جنيف بوجودها جاء على عجل وفحص دمها بدقة ، وأحصى عدد كرويات دمها الحمراء والبيضاء فوجدها فى هبوط مستمر وشخص للمرة الاولى مرضها على حقيقته وهو « أنيميا خبيثة نتيجة التعرض للراديوم » . وكانت مارى فى ذلك الوقت لا تزال تخيفها فكرة عملية حصوة المرارة فأكد لها الاستاذ روك أن لا عملية هناك وطمأنها بقدر ما سمح له الموقف ..

وجلست (ايف) بجوار فراش أمها تنتظر فى صبر وأناة النتيجة المحتومة . وأدهشها أن أمها كانت تفكر فى كل شىء الا الموت . وهذا من فضل الله على المريض المحتضر ، فان الشعور بالامان حتى اللحظة الاخيرة هو الذى يسهل عليه ألم مفارقة الروح للجسد

وكانت المصحة بأطبائها ومساعديها وحجاراتها يخيم عليها سكون رهيب واحترام عميق وهي تنتظر اللحظة التي تنتقل فيها المريضة العظيمة الى دار الابدية. وكان الاطباء يتناوبون العناية بها ويخففون من آلامها الاخيرة بأعطائها في سخاء الجرعات المسكنة والحقنات التي تجلب النوم

وفي صباح اليوم الثالث من شهر يوليو سنة ١٩٣٤ تمكنت ماري كوري للمرة الاخيرة أن تمسك بيديها المرتعشتين مقياس الحرارة ولما رأت أن درجة حرارتها قربت من المستوى الطبيعي – وهو الهبوط الذي يسبقه الموت عادة – ابتسمت بفرح ظاهر ولم تشأ ايف الا ان تشجعها وتطمئنها قائلة : ان هذا علامة الشفاء وبدء التحسن . فحولت ماري نظرها الى الشباك المفتوح وأخذت تتأمل في الشمس المشرقة والجبال العالية وتمتمت في ضعف : « ليس الدواء هو الذي أدى الى هذا التحسن .. الشكر للهواء النقي والآفاق العالية .. »

وأخذت ماري تهذي وهي في سكرة الموت بأفكار غريبة . وسمعت وهي تقول « رباه لقد نسيت كل شيء . انني لا أقدر على التعبير عما يخالجني .. » ولوحظ أنها لم تذكر أسماء حتى المقربين اليها .. ويظهر أنها نسيتها جميعا حتى اسم شقيقتها الكبرى (برونيا) وابنتها ايف. وفكرت هنيهة في كتابها الاخير فقالت : يجب أن تنسق جميع فصول الكتاب على منوال واحد .. ان هذا الامر يشغل بالي كثيرا . »

وظلت هكذا تهذي في هدوء حتى دخل الطبيب غرفتها ولما حقنها بالمسكن انطلقت من جسمها الذاوي صرخة احتجاج خائفة وأعقبتها بقولها : « لماذا لا تتركوني وحدي اياكم أن تعودوا الى .... »

وكانت ساعاتها الاخيرة أكبر دليل على شدة مقاومة هذا الجسم الذي بدا ضعيفا ذابلا ابان حياتها . وأمسكت ابنتها ايف بأحدى يديها والدكتور لويز باليد الاخرى مدة ست عشرة ساعة ظل قلبها ينبض أثناءها بقوة حتى اذا ما بزغ الفجر وظهرت أشعة الشمس من وراء الافق وانتشر في أرجاء الغرفة نور الصباح المبكر وقف القلب فجأة وفارقت الروح الجسد

اذن لقد ماتت ماري كوري . وبيد من ؟ بيد ربيبها الذي أخرجته من عالم الظلمات الى النور ، وتعهدته طفلا ونما وترعرع في كنفها ، وبينما كان يصل الى القمة كانت هي تهوى بقواها وصحتها الى الحضيض .. كتب مدير المصحة تقريرا عن وفاتها يقول فيه : « توفيت مدام بيير كوري بمصحة سانز سلمور في ٤ يوليو ١٩٣٤ وكانت الوفاة نتيجة اصابتها بفقر دم خبيث سببه تعرضها لاشعاعات الراديوم »

مصطفى الدرواني

قضية لبنان

انتهت الأزمة اللبنانيــة التى نشــأت من اعتقــال رئيس الجمهورية والوزراء ، بما أبداه الجنرال كاترو من لباقة وكياسة فى معالجة الموقف . وعاد رئيس الجمهورية والوزراء والنواب الى مباشرة أعمالهم ، فعادت الحياة الى مجراها الطبيعى

وقد ابتهج العالم العربى أجمع بانتهاء الأزمة اللبنانية ، وقد عبر رفعــة النحاس باشا رئيس الحكومة المصرية عن ذلك فى رسالته الى الجنرال كاترو حيث قال :

« يسرنى أن يسترد لبنان بفضــل تدخلكم العادل حقوقه الدستورية ، وبذلك ينتهى سوء تفاهم خطير فى جو من النزاهة والمنطق المعقول . . . »

والمأمول أن يظــل حسن التفاهم سائداً جو المفاوضات التى ستدور بين لبنان ولجنة التحرير الفرنسية ، لتحقيقه الموقف



دولة رياض الصلح بك
رئيس الوزارة اللبنانية

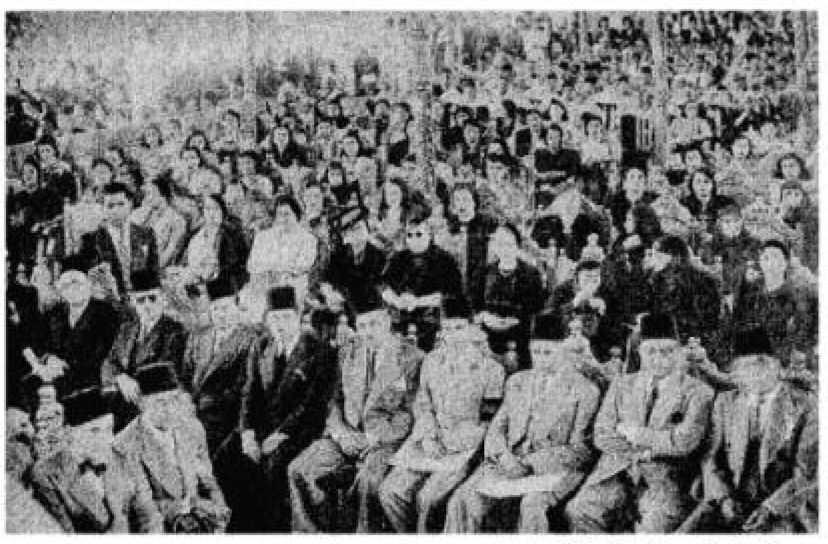
فخامة الشيخ بشارة الخورى
رئيس الجمهورية اللبنانية

العيد الفضى للوفد المصرى

احتفل الوفد المصرى فى منتصف نوفمبر الماضى بانقضاء خمس وعشرين سنة على إنشائه ، فشهد احتفاله آلاف من أنصاره ومؤيديه أموا القاهرة من شتى أنحاء البلاد ، ليسمعوا خطباءه ـ وقد كانوا خمسة وثلاثين خطيباً بعضهم من الوزراء وكلهم من الشيوخ والنواب، يعرضون تاريخ الوفد وما حفل به من جهاد فى سبيل القضية الوطنية والحياة الدستورية ، ويبينون ما قامت به حكومات الوفد من ضروب الاصلاح

وكان خطاب صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد المصرى فى افتتاح هذا العيد الفضى ، عرضاً وافياً للحركة الوطنية منذ قام بها رئيس الوفد الأول الزعيم الخالد سعد زغلول باشا وإلى جانبه نفر من قادة الرأى وأعيان الأمة ، ومن ورائه شعب متحد الكلمة مكتمل الارادة ناضج الرأى فى مطالبه وحقوقه . ثم كان هذا الخطاب بسيطاً دقيقاً لما مر بقضية مصر من أدوار وأطوار ، وتعثرت فيها ببعض الصعاب أحياناً وتقدمت فيها إلى الأمام دائماً ، حتى استقرت علاقاتها مع بريطانيا العظمى على أساس معاهدة الصداقة والتحالف التى تكفل لمصر حقوقها وحرياتها ، وتفتح أمامها باب التوسع فى تدعيم سيادتها وحقوقها . وقد جاء فى خطاب رفعة رئيس الوفد أن فى ظروف الحرب القائمة وما نشأ فيها من اتجاهات سياسية جديدة ، ما يحتم على مصر أن تعيد النظر فى وضعها السياسى ، فان « حوادث الحرب غيرت الموقف تغييراً كبيراً ، حتى أصبح تعديل المعاهدة ضرورة لا بد منها » كما أعلن عزم الحكومة على أن تسعى إلى ضم مصر لميثاق « الأطلنطى »

وكان ما أتى فى هـــذا المؤتمر الوطنى الكبير من دراسات وبحوث فى شؤون مصر الاقتصادية والثقافية والاجتماعية توجيهاً متبعاً لما يجب أن تأخذ به البلاد من ضروب الاصلاح ووسائل التعمير عنـد ما تضع هذه الحرب أوزارها وينتشر فوق العالم لواء السلم والعدل ، فتستأنف مصر خطاها فى سبيل نهضتها وارتقائها



منظر عام لجانب من السرادق الكبير الذى احتشدت فيه الجماهير من أنحاء القطر ليشهدوا المؤتمر الوفدى العام



صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس
باشا أثناء إلقائه خطابه الجامع الشامل
في المؤتمر الوفدي العام



الرئيس روزفلت



الرفيق ستالين ومستر تشرشل

الخطوة الباقية

سارت الحرب خلال العام الماضى فى طريق مضاد للطريق الذى سارت فيه منذ بدأت . فانتصار المحور المطرد انقلب الى ركود واجم ، ثم الى تراجع مستمر فى أكثر الميادين . وقوة الأمم المتحدة التى اكتملت واجتمعت أخذت تسترد من المحور ما وقع فى يده من أسلاب فى افريقيا وروسيا وايطاليا . وأصيب المحور فضلا عن هزائمه العسكرية بهزائم سياسية شديدة الوطء ، حين انهارت الفاشستية وتصدع صرح موسولينى وظهر الشعب الايطالى تائقاً الى من يجره الى الحرب رغماً . وكانت هذه التطورات الكثيرة دليلا على أن الحرب دخلت فى مرحلتها الأخيرة ، وإن كان من المحتمل أن تطول هذه المرحلة كثيراً . وكان لا بد للشعوب المتحدة من أن تجمع كلمتها على أمرين : أولهما أن تقصر أمد الحرب وتعجل يوم النصر ، وثانيهما أن تضع الخطط التى يجب أن تأخذ بها وتسير عليها فى تعاونها على توجيه شؤون السياسة والاقتصاد بعد الحرب . وكانت الخطوة فى هذا السبيل مؤتمر موسكو حيث اجتمع مستر إيدن ومستر كوردل هل والرفيق مولوتوف ، وحيث تقرر تعاون هذه الدول فيما بقى من فترة الحرب وفيما بعدها من سنين . وستكون الخطوة التالية كما نأمل اجتماع رؤساء الدول المتحدة الثلاث : روزفلت وتشرشل وستالين ، ليقرروا ما يجب لتعجيل بهزيمة المحور فى أوربا وآسيا ، والتعجيل بيوم الانتقام ممن أثاروا الحرب وحلوا جرائمها ، والتعجيل بيوم السلام الذى تتكاتف فيه الدول المتحدة وما ناصرها من الدول فى توجيه سياسة العالم وجهة الحرية والعدالة.

ظاهرة اجتماعية غريبة

موقف الرجل من المرأة فى فن التمثيل

للأستاذ زكى طليمات

المدير الفنى للفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى
ومفتش شؤون التمثيل بالمعارف

يذهب بعض الاجتماعيين الى أن المرأة فى مجال نشاطها الحديث تنحرف تدريجا عن مهمتها الاساسية فى الحياة المنزلية الى الاشتغال بمهام لم تكن لها فى سابق الازمان . فهى تزاحم الرجل فى ميادين الاعمال المدنية المختلفة ، بل انها تتجاوزها الى ساحات القتال ، وهم يرون فى هذا تطرفا قد تنقلب معه أوضاع الحياة العائلية كما يرى فريق آخر انه استعداء صريح على مهام الرجل وتنافس له ما بعده من اضطراب الاحوال . لهم ما يذهبون اليه فلسنا هنا للمناقشة فى هذا ولكننا نقرر ، ما داموا يذكرون استعداء المرأة على الرجل ، أنه جاء حين من الدهر أبعده منذ ثلاثة قرون فى انجلترا وأقربه منذ نصف قرن فى مصر ، كان الرجل فيه يستعدى على المرأة استعداء غريبا مضحكا اذ كان يسلبها حقا صريحا من حقوقها فى تولى العمل فى ناحية هى للمرأة .. ومن المرأة !

هو استعداء عجيب فى نوعه يثير ضحكنا اليوم ، وكان ميدانه مسرح التمثيل ، فقد نحى الرجل المرأة عن اعتلاء المسرح تمثل فوقه أدوار جنسها ليقوم هو مكانها بتمثيل هذه الادوار فى مختلف المسرحيات بعد أن يتزيا بزيها وينتحل صوتها ويقلد حركاتها مخططا وجهه بالمساحيق والاصباغ ، مغطيا رأسه بجدائل الشعر المستعار !

الرجل فوق المسرح يمثل دور المرأة أمام جماهير من الناس يصفقون له ويعجبون به ! أى استعداء من جانب الرجل وأى استكانة من جانب المرأة وخضوع ، وأى مزاج كان الجمهور عليه ؟

ظاهرة اجتماعية تبدو لنا اليوم على غرابة لا تنتهى لمخالفتها المألوف ومجافاتها المزاج السائد ، فانا اليوم مهما قلبنا هذه الظاهرة على وجوهها المختلفة فلن نجد فيها موضعا للاستساغة والقبول ، بل ان مجتمعنا المصرى ليشمئز ويتبرم اذ يرى رجلا ، كانت ما كانت سنه ووسامته وموهبته ، يتلوى فوق المسرح متكلفا أنوثة المرأة بعد أن يتقمص شخصيتها ويرتدى لباسها مؤديا دورها فى احدى المسرحيات . بيد أن هذه الظاهرة كانت تبدو

للرجل الانجليزى حتى أواسط القرن السابع عشر وليس فيها موضع للتأمل ولا مثار للدهشة ، بل كان يعبر بها من غير أن يعيرها التفاتا . لهذا فان أول ما تثيره فينا هذه الظاهرة من تأملات : كيف تأتى ان أصبحنا اليوم ننكر ما كان يقره الاقدمون ولا نجد مذاقا لما كانوا يستسيغونه ؟ ولكن سرعان ما نجد الجواب باعتبار أن المزاج العام للمجتمع لا يقيم على حال ، وأن البشرية فطرت على التحول والتقلب تغير من نظرتها الى الاشياء بتغير الازمان

ثم ترى تأملات أخرى يحلق الخيال ببعضها الى آفاق الفكاهة والسخرية ، فنحاول أن نتمثل كيف كانت « جوليت » مثلا تطارح « روميو » الغرام الملتهب وتبادله العناق الرقيق — وذلك فى مأساة شكسبير الخالدة وفى زمنه — وجوليت هذه يؤدى دورها رجل سلط الموسى على لحيته وشاربه ، يتكلف أنوثة ليست فى طبعه ورقة ينكرها جنسه ، ويتعمل صوتا لين المكاسر ليس فيه شىء من النبر النسوى الدافىء ، وقد نبتسم وقد نضحك اذا تخيلنا ماذا يكون حاله لو سقطت من فوق رأسه جدائل الشعر المستعار ؟

بيد أن أمرا واحدا يظل يراود خاطرنا وقد يستبد به ، مأتاه التشوق الى المعرفة ، أين الاصول فى هذه الظاهرة ؟! وكيف نشأ هذا التقليد العجيب فى ان يقوم الرجال بأدوار النساء فوق المسرح ؟!

المرأة فى المسرح الاغريقى والمسرح الفرعونى

الاغريق ، أو قدماء اليونان ، هم بناة المسرح ، وهم أول من رفع العرض التمثيلى المرتجل الى مرتبة الفن الكامل ، ومن مسرحهم خرجت أول أوضاع الفن المسرحى وتقاليده ، وهى أوضاع وتقاليد ما زال بعضها مخلفا طابعه على مسرحنا حتى اليوم

لدى هؤلاء الاغريق الاساتذة الفنانين نجد الاصل لتلك الظاهرة الغريبة ، قيام الرجال بأدوار النساء فوق المسرح ، كما نجدها أيضا فى المسرح الفرعونى الذى سبق المسرح الاغريقى فى معالجة شؤون أرباب العقيدة المصرية القديمة

وقد نعجب كيف تأتى أن الاغريق تورطوا فى هذا وقلبوا رأسا على عقب وضعا طبيعيا منحرفين كل الانحراف عن شرعة انزال الامور منازلها الصحيحة ، وهم أهل فن عريق مجيد ، وبناة مدنية زاهرة ، يمتاز فنهم بالمنطق والمعقول والوضوح والاعتدال والاتساق ، وينزع نزعة مثالية نحو الجمال ؟!

فى الحق انهم تورطوا فى هذا على الرغم مما ذكرنا من سمات فنهم الرفيع فى النحت والزخرفة والبناء ، ومرجع هذا أن فن التمثيل فى نشأته ومرحلته الاولى كان موقوفا لديهم على شؤون الآلهة ومناسك الدين ، يقوم بأعبائه الكهان دون سواهم من طبقات الشعب ، فكان أمرا واجبا ألا تدخل النساء فى شؤون هذه الناحية من المراسم الدينية الرفيعة ، لا سيما وأن الحوار فى تلك المشاهد التمثيلية كان خاليا من أدوار النساء

ونجد نفس الحال فى المسرح الفرعونى الذى كان لشؤون الآلهة فحسب فى هذين المسرحين اللذين يعتبر كل منهما مظهرا من مظاهر مدنية عظيمة نجحت هذه الظاهرة الغريبة ، ولم يجرؤ أحد على انتقادها ومناهضتها نظرا لاتصالها بشؤون الدين بيد أن المسرح الاغريقى ترك معالجة أحوال الآلهة الى شؤون الدنيا والناس ، ووضع الشعراء أدوارا للمرأة فى مسرحياتهم ، ومات المسرح الفرعونى بين جدران الهياكل ولما يخرج الى العالم الارضى ، ولكن هذه الظاهرة لم تمت

أجل أصبح المسرح الاغريقى منقل ألوان الحياة ومرآة صورها ، ومن المعلوم أننا لا نرى الرجل فى الحياة الواقعية يتشكل بشكل المرأة ويقوم بدور لها يستمد معينه مما ركب فيها من أنوثة ورقة ودلال . كذلك تخلى رجال الدين عن أداء الأدوار التمثيلية وتركوا هذا لعامة الناس ، وفى هذا كله الكفاء لان تختفى هذه الظاهرة من المسرح ، ولكن على الرغم من هذا لم تفارقه بل بقيت لاصقة به !

والسبب فى هذا أن هذه الظاهرة أصبحت تقليدا امتدت جذوره مع الايام فى تربة المزاج الاغريقى ، كما أنه يبدو لى أن الاغريق - وقد سمت نظراتهم الى فن التمثيل وعظم اعتبارهم للقائمين به باعتبار أنه فن له قداسته ، اذ أنه منحدر من الهيكل ومناسك الدين - كانوا ينفسون به على النساء اذ يرون فيهن عنصرا متحولا طائشا لا يتكافأ مع الرجل فى الجد والرصانة والتقوى ، ولا شك فى أن المرأة كانت ترمق من المجتمع بنظرة ظنينة تبالغ فى تجسيم ما منيت به من ضعف ، فكان على الرجل أن يصونها عن مزالق الهواية ويبعدها عن مواطن الاستثارة مهما سمت أغراضها ، فلم ينحها عن الظهور فوق المسرح فحسب ، بل سلبها حق المتعة فى غشيان المسارح مع الجمهور المتفرج

وهناك سبب آخر منشأه ضرورات فنية تتصل ببناء المسرح ومكان النظارة فيه ، لا شك فى انها صرفتهم عن مراجعة هذا التقليد الخاص بابعاد المرأة عن الظهور فوق المسرح كان الممثلون لا يبدون على المسرح بوجوههم الطبيعية، بل كانوا يلبسون أقنعة (masques) كبيرة من الكتان المشدود أو الورق السميك المضغوط تغطى الرأس والوجه والعنق ، وقد ركزت فى بعضها - وذلك بالقطع والتخطيط والتصوير - ملامح وجه الرجل فى أهم مراحل الحياة ، وفى بعضها الآخر سمات وجه المرأة فى أبرز أدوار العمر ، بقصد أن تزيد هذه الاقنعة فى قامة الممثل وفى حجم رأسه ووجهه حتى تتيسر رؤيته للنظارة بحال يعظم التأثر باجتلائه (١)

(١) مكان النظارة فى المسرح الاغريقى مدرج كبير مترامى الاطراف بحيث يسع ما لا يقل عن خمسة آلاف شخص ، فكان الممثل ، بحكم هذا الاتساع بعيدا عن النظارة . ولهذا عمد ممثلو الاغريق الى الاقنعة كما عمدوا الى الاحذية ذات النعال المرتفعة السميكة (cothurne) التى كان يبلغ ارتفاع بعضها ٤٠ سنتيمترا ، واتخذوا الثياب الفضفاضة الطويلة . كل هذا ليزيد فى حجم الممثل . أضف الى ما تقدم أن حفلات التمثيل كانت تجرى فى وضح النهار من غير استعانة بالاضواء الصناعية.

ولا شك فى أن وجود هذه الاقنعة قد أغرى الرجل الممثل بأن يبقى ممثلا دور المرأة، اذ ما كان أيسر عليه أن يقوم بدورها ما دام الامر لا يتطلب منه غير التخفى بقناع يحمل فى رسمه ملامح وجهها وزى يشاكل زيها

المسرح الرومانى

أما الرومان فكان حالهم من فن التمثيل غير حال الاغريق ، وان تعرفوا الى فنهم فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ثم أخذوا عنهم الكثير من أوضاعه وتقاليده

لم يتصل المسرح لدى الرومان بشؤون الآلهة ولم يعالج مناسك الدين كما كان الحال لدى الاغريق . ولهذا لم تكن لديهم نحوه قداسة واجلال . كذلك كان الرومان يغلب عليهم ميل الى المجون والرقص والموسيقى . وقد طغى حبهم لالعاب الفروسية والمصارعة والمبارزة على كل شيء سواه . كان الملعب أحب اليهم من المسرح ، ولهذا كانت نظرتهم الى التمثيل والممثلين يجافيها الاحترام والتقدير ، بدليل أن ممثلى مسارحهم كانوا كلهم من الرقيق والمعتوقين والاوشاب الذين لا مؤونة لهم من التثقيف والخلق الطيب المتين ، وقد تألفوا فرقا ثابتة يتولى أمر كل منها رئيس ليس حظه من الاصل والخلق بأرفع من مرءوسيه ، هذا فى حين أن الممثلين لدى الاغريق كانوا موضع التجلة والاحترام ، فقد كان الشاعر مؤلف المسرحية يشكل فرقته بنفسه كلما دعت الحاجة من صفوة المتأدبين ، وقد يقوم بتمثيل أحد أدوار المسرحية

أول ظهور المرأة فوق المسرح

بيد أنه على الرغم من هذه الحال فقد عمل المسرح الرومانى مدة طويلة بالتقليد الاغريقى الخاص بابعاد النساء عن التمثيل فوق المسرح ، ولا سيما فى المآسى الرفيعة والفكاهيات الاخلاقية للشاعرين « سينيك » و « تيرانس » ونهجوا نهج أساتذتهم الاغريق فى استعمال الاقنعة

غير أن الرومان كان يسعرهم طبع الى الرقص والموسيقى كما أشرنا ، فابتدعوا رقص « الجماعة » ورفعوه الى مرتبة العرض المسرحى ، فى حين أنه يجمع بين الايماء والاشارة الساذجة ... وبين الحركات الايقاعية المثيرة للحس[1]

فى هذا المجال يسجل التاريخ أول ظهور للمرأة فوق المسرح ، وهو ظهور لا يشرفها ويا لقسوة الرجل . فقد حجزها باسم التقليد عن العمل بالمسرح ممثلة تؤدى رسالة خلقية سامية ، ثم أطلقها فوق المسرح راقصة عريدة الجسد تغرى وتغوى وتلهب الحواس

(١) كان فى روما وحدها ثلاثة آلاف امرأة يعملن فى هذا الرقص . وفى الوقت الذى كان يطرد فيه العلماء والجهيون من العاصمة ويعانى السكان آلام المجاعات ، كانت هاتيك الراقصات يستمتعن بالبقاء والعيش الهنيء . وفى هذا اكبر دليل على مبلغ شغف روما براقصاتها

وهذه بادرة لا شعورية من جانب الرجل فى تلك العصور تنم ولا شك عما يستهويه أن تكون المرأة عليه وأن تؤديه من وظيفة فى الحياة ، سواء أكانت تحت سقف البيت أم فى ظل المسرح . وهى بادرة جديرة بالتسجيل فى تاريخ موقف الرجل من المرأة

المرأة فوق المسرح

ومن ذلك الوقت امتدت قدم للمرأة الى المسرح ، فكانت تارة تستقر وتارة أخرى تقتلع ، وهى فى الحالتين تتطوح بين التقليد القديم الذى حرمها العمل بالمسرح قرونا عدة ، وبين الحق الذى اكتسبته بظهورها فى العرض الرومانى الراقص ، وأخيرا رسخت قدمها فى عصر النهضة Renaissance وهو وان كان عصر رجعة الى حياة الذهن والعلم والادب بعد عصور الظلام فى القرون الوسطى حيث سلط رجال الكنيسة سلطانهم على المجتمع فخلعوا عليه مسحة التقشف وأقنعة الوقار والزهد ، فانه أيضا عصر فرح بالحياة وعهد اطلاق للحواس التى كانت تكابد مرارة الكبت ، وعصر حرية نسبية للوجدان فكان أن أخذت المرأة حقها المشروع فى اعتلاء المسرح ، ولا سيما فى أوربا اللاتينية . بيد ان مجالها فى فن التمثيل لم يتجاوز نطاق فن الاداء التمثيلى فقط واختفت « الاقنعة » من عالم المسرح

المسرح الانجليزى والتقليد القديم

وتفرد المسرح الانجليزى بالمحافظة على التقليد القديم فى ابعاد المرأة عن القيام بدورها فوق المسرح . وهو موقف يثير العجب حقا ، فان هذا المسرح الزاهر الذى سبق مسارح أوربا كلها الى الخروج على أعرق تقاليد الاغريق فى صياغة المسرحية محطما قيود وحدتى الزمان والمكان [١] على يد العبقرى « وليم شكسبير » كما خالف شعراؤه المسرحيون الكتاب القدامى من الاغريق والرومان ومن تلى تلوهما بأن كتبوا المسرحية «بالشعر المرسل» Blank Verse بدلا من الشعر المقفى ، هذا المسرح المجدد فى أخطر دعائم المسرحية وفى أهم أسس العرض التمثيلى ، مما يضيق المقام بسرده ، وقف جامدا أمام ما خلفه الاغريق من تقليد شاذ فى جعل الرجل يمثل دور المرأة حتى منتصف القرن السابع عشر

وأسماء الممثلين « وليم أوستلر » و « روبرت جوش » و « جون أندروده » و « اسكندر كوك » يأتون فى رأس قائمة طويلة بأسماء رجال ممثلين كانوا يقومون بتمثيل الادوار النسوية فى روايات « وليم شكسبير » وغيره . والى الممثل الاخير يعزى فخر تأدية دورى « كليوباترة وجوليت » على المسرح الانجليزى للمرة الاولى

(١) وحدة الزمان فى صياغة المسرحية الاغريقية تقضى بأن تجرى حوادث الرواية فى يوم واحد، ووحدة المكان أن تقع هذه الحوادث فى مكان واحد لا يتغير

وأعجب من هذا أن أدباء المسرح الانجليزى فى ذلك الوقت كانوا يزهون بهذا الوضع ويفاخرون به رجال المسرح الفرنسى ، ففى رسالة نشرها الناقد الانكليزى « ناش » عام ١٥٩٢ مفاخرا بالمسرح الانجليزى ، جاء فيها : « ان ممثلى المسرح الانجليزى ليسوا كممثلى المسرح الفرنسى جماعة من القوادين يستأجرون البغايا وأنصاف الحرائر ليقوموا بأدوار النساء على المسرح » !

بأى نظرة يرمق بها هؤلاء الانجليز المرأة الممثلة وبأى مقياس يصدرون عنه فى تقدير العفة والشرف لدى المشتغلين بالمسرح فى غير بلادهم ؟

لا شك فى أن النزعة الطهرية Puritanisme كانت المعين الاول لهذه النظرة القاسية ، فان الطهريين بمغالاتهم فى أن يلقحوا العرف السائد ومناسك الحياة الواقعية بالجد والصلابة الخلقية قد انحرفوا الى المناداة بتقشف الصادف عن محاسن الدنيا وزهد المتبرم بمفاتنها ، فطبعوا المجتمع الانجليزى بطابع من الصرامة والعبوس كان له أكبر الاثر فى تخلف المسرح الانجليزى عن مجاراة المسارح الاوربية الاخرى فى القضاء على ذلك العرف الشاذ ، كما نحى المرأة الانجليزية عن مجالاة النشاط الذهنى والعملى التى كانت تضرب فيها المرأة الاوربية . وفوق هذا فان فى طبيعة الانجليز عنادا موروثا فى تمسكهم بأذيال التقاليد ، ولا سيما من الناحية الشكلية . وقد نرجع تمسك الانجليز بتنحية المرأة عن المسرح ومجاراة الاغريق فى هذا الى أنهم ، وقد أسرفوا فى القضاء على اكثر التقاليد الاغريقية الخاصة بصياغة المسرحية وحرفية المسرح ، أخذتهم أخيرا نكسة الى الماضى مأتاها رد الفعل الذى يعقب كل انطلاق وتطرف ، فتعلقوا بذيل هذا التقليد التافه

نضال عجيب !!

وتاريخ اعتلاء المرأة الانجليزية أرض المسرح تؤدى عليه أدوار جنسها حادث مثالى للنضال الذى يستعر بين تقليد قديم متأصل يقتحمه تقليد جديد ناشىء ، سجلت عنه أعجب النوادر . ففى سنة ١٦٢٩ هبطت مدينة لندن فرقة فرنسية قدمت بعض مسرحياتها فثار المحافظون وكتب « برين Prynne » رسالة نعت فيها الممثلات الفرنسيات بأنهن « عاهرات فواجر ذوات حذق فى تصيد الرجال» فغضب الملك والملكة وأثيرت هذه المسألة فى البرلمان وحكم على الناقد بالسجن وحرق كل ما طبع من رسالته !

وجاءت فرقة فرنسية أخرى بعد ست سنوات ، ثم تلتها فرق أخرى لم تلق القبول والتشجيع الا من الملكة ، بيد أن الجمهور الانجليزى أخذ يروقه الامر ، ولكنه لم يسمح للمرأة الانجليزية بأن تعتلى المسرح . وأخيرا فى سنة ١٦٥٤ ظهرت على المسرح أول امرأة انجليزية واسمها « مدام كولمن » فى مسرحية « حصار رودس » وكان دورها تافها وكانت تتعثر فى تمثيله خجلا !

وفى عام ١٦٦٣ رأى الجمهور الانجليزى ممثلة انجليزية تمثل دور « ديدامونة » فى

مسرحية « عطيل » وقد مهد لظهورها بقصيدة صاغها أديب شاعر وقف يلقيها على المسرح قبل رفع الستار يستأذن فيها الجمهور بلسان الممثلة ويستجدى عطفه ويلتمس رحمته ، جاء فى نهايتها : « أتسميه جريمة ما يعدونه شرفا فى فرنسا ؟ ان الازواج فى كل الممالك الاخرى لا يحسون ما يخدش الادب اذ يرون امرأة فوق المسرح ، صدقونى ليس فى الامر ما يعيب وانما العيب يرجع الى العادة فحسب »

ولكن هذا الشاعر تناسى ولا شك أن العادة أقوى من المنطق والمعقول !

أجل العادة وسيطرتها فانه على الرغم مما تقدم ، عاودت المسرح الانجليزى نكسة الى التقليد القديم ، واستمر هذا النضال حتى انتهى بفوز المرأة ، فرسخت قدمها على المسرح نهائيا ، وأخرج المسرح الانجليزى أشهر الممثلات وأقدرهن بعد أن كان المعقل الاخير فى أوربا لهذا التقليد العجيب

فى المسرح المصرى

وليس عجيبا ، بعد ما تقدم ذكره عن موقف المرأة من المسرح فى بلاد هى مهد للمسرح ومدارج لنشأته وازدهاره أن نرى المسرح المصرى يجتاز نفس الطريق . أجل كانت أدوار النساء نهبا للرجال يمثلونها ولكن من غير استعانة بأقنعة الاغريق يغطون بها وجوههم وما زال يعاصرنا ممثلان (١) ممن كانوا يقومون بأدوار النساء فى مختلف المسرحيات ، اذ لا يخفى أن تاريخ المسرح باللسان العربى لم يتجاوز سبعين عاما

ولا شك فى أن الاخذ بهذا التقليد لم يكن لتأصله فى المسرح المصرى الحديث لاننا محدثين فيه باللسان العربى ، لا تقاليد لنا ولا وراثة ، وانما يرجع الى شؤون الدين ، والى الحجاب ، والى مركز المرأة عامة فى الشرق من حياة العمل خارج بيتها . وقد وجد أصحاب الفرق السبيل الى تركه اذ استقدموا من سوريا ولبنان سيدات من غير الدين الاسلامى احترفن التمثيل وقمن بالادوار النسوية فى مختلف الروايات

ويسجل مسرحنا الناشىء اسم « هانم كوكب » كأول مصرية مسلمة احترفت التمثيل فى وقت أحجمت فيه الفتيات المسلمات عن الاشتغال فيه وكان ذلك منذ نصف قرن تقريبا

ولا شك فى أن العرف القومى قبل قيام « قاسم أمين » بدعوته الى تحرير المرأة من الحجاب ومن الجهل ومن الركود ، لم يكن يقبل بأى حال أن تعمل المصرية فى المسرح . وقد كان للحرب العظمى الماضية أثر ملموس فى تطرية هذا العرف ، كما أن تعليم البنات وقد أخذ دورا جديا ، ساعد على أن تقتحم المرأة المصرية ميادين العمل الى جانب الرجل، وأصبح المسرح المصرى اليوم مجال عمل للمرأة المصرية مسلمة كانت أو مسيحية . فهى فيه ممثلة وناقدة وصاحبة فرقة يعمل بأمرها رجال ورجال !

زكى طليمات

(١) هما الاستاذان عمر وصفى الممثل الكبير وعبدالعزيز الجاهل الذى يعمل الآن فى الفرقة المصرية

الوحدة الأوربية

للكونت كودنهوف كالبرجي

منشىء حركة « توحيد أوربا »

أوربا اليوم أصغر من بريطانيا منذ قرن . لا أعنى أنها أضيق مساحة وأقل حجما ، وانما أعنى أن أطرافها النائية غدا بعضها أقرب الى بعض مما كانت فيما مضى . فالوقت الذى ينتقل فيه المرء من لندن الى روما الآن ، أقصر مما كان يكفى للسفر من لندن الى جلاسجو القريبة منها

وهكذا أدى التقدم العلمى فى العصر الحديث الى تغير الظروف التى وجهت سياسة العالم فيما مضى ، والتى ما تزال تتحكم قسرا فى هذه السياسة الى يومنا هذا

بل ان أوربا غدت فعلا وواقعا أصغر مما كانت منذ ربع قرن فحسب ، وذلك منذ قامت فى روسيا — التى تشغل نصف القارة تقريبا — دولة شيوعية لها من النظم والاوضاع الاقتصادية والسياسية والثقافية ما يباعد بينها وبين سائر أوربا ، فلم تعد كلمتا « أوربا » و « أوربى » تطلقان الا على ما يلى حدود روسيا الى الغرب . أما فيما مضى فكانت روسيا احدى دول أوربا ، وكانت سيبريا مستعمرة لها فى قارة آسيا ، فصارتا اليوم وحدتين فى « الاتحاد السوفيتى » الذى يصح ، بل يجب ، أن يعتبر قارة قائمة بين آسيا وأوربا : وكيف لا ومساحة هذا الاتحاد قدر مساحة جارته أوربا أربع مرات ؟

ثم اننا اذ نلقى أبصارنا عبر المحيط الاطلنطى على شواطىء امريكا ، نرى ثمة حركة قوية ناشطة تعمل لجمع القارتين الامريكيتين فى وحدة واحدة تضم جميع ما فيهما من جمهوريات تحت زعامة الولايات المتحدة التى تزيد مساحتها وحدها عن مساحة أوربا بأسرها

وظاهرة أخرى يجب أن نذكرها ونقدرها فى بحثنا هذا ، وهى تلك الجهود التى تبذلها اليابان لتوحد « الاقوام الصفراء » جميعا فيما تسميه « اتحاد الشرق الأقصى » الذى يضم ستمائة مليون نسمة من سكان الصين واليابان . ولو قدر لهذه الجهود أن تؤتى نتائجها لقامت هناك كتلة صفراء تستطيع فى مدى جيلين اثنين أن تكون أعظم وأضخم قوات العالم طرا من الوجهتين الصناعية والحربية

والى جانب هذه الوحدات الكبرى التى تبذل الجهود فى سبيل انشائها ، نجد وحدات اقتصادية وسياسية ضخمة قامت فعلا خارج أوربا . وأهمها وأكبرها هو تلك الوحدة التى تسمى الامبراطورية البريطانية ، مشتملة على كندا التى تكبر أوربا فى مساحتها ، وعلى استراليا التى تضاهى رقعتها رقعة أوربا ، وعلى الهند وهى قدر أوربا فى مساحة أرضها وفى عدد سكانها أيضا

وبين هذه الوحدات الكبرى تقف قارة أوربا مقسمة ، بل ممزقة ، الى اثنتين وثلاثين دولة سياسية ، والى عدد كبير من الوحدات الاقتصادية التى لا يربطها بعضا ببعض أى رباط أو نظام . وهكذا يبقى هذا الجزء من العالم عائشا فى فوضى مطلقة ، فكل دولة من دوله تسعى الى أن تحطم وتخرب ما يجاورها ، وكلها جميعا تتسلح وتتأهب للتقاتل والاضراب ، وكلها تندفع طوال عهود السلام القصير ، الى الدخول فى حروب كبيرة تنتهى بالوبال عليها جميعا

ومن المحقق أن هذه الحروب الاوربية لن تقف رحاها أبدا ما بقيت أوربا مقسمة ممزقة، عاجزة عن توحيد أجزائها جميعا فى اتحاد قوى يضع حدا لما بينها من فوارق وخلافات فى السياسة والاقتصاد والثقافة

وقد أرادت عصبة الامم أن تقيم شيئا من التآلف والانتظام بين دول العالم جميعا . فأخفقت ، وكان اخفاقها محتوما ، لانها لم تسر وفق قانون التطور ومنطق الامر الواقع . اذ أرادت أن توحد العالم قبل أن تبدأ بتوحيد أوربا . وهكذا رسمت المثل الاعلى للمستقبل وأخذت تسعى اليه ، وكان عليها أن تبدأ بادراك مشكلة الحاضر وتعمل حلها

ان عصبة الامم « العالمية » التى تضم أمم العالم جميعا يجب أن تبقى مثلا وهدفا تسعى اليه فى مستقبل الايام . أما الآن فيجب أن نتعلم من الاخفاق درسا بليغا ، خلاصته أننا لا نستطيع أن ننظم العالم الا بعد أن ننجح فى تنظيم تلك المناطق التى ما تزال تسير وفق شريعة الغاب وقانون الادغال : وفى مقدمتها جميعا قارة أوربا

وهكذا تكون فكرة توحيد أوربا جزءا لا ينفصل من فكرة توحيد العالم كله . وما هى الا الخطوة الاولى التى يجب أن نخطوها فى ذلك السبيل الطويل ، وما هى الا الخطوة الاولى التى يجب أن نثبت عليها أقدامنا ان أردنا أن نجتاز ما يليها من الدرجات ، سعيا الى هدفنا الاقصى

مهمة بريطانيا فى الوحدة الأوربية

كيف السبيل الى هذه الوحدة الاوربية المنشودة ؟

اذا أطلقت يد ألمانيا فى أوربا دون أن تنبها قوة بريطانيا ، ففى وسع هذه القوة الحربية الهائلة أن تجعل من القارة الاوربية كتلة واحدة خاضعة للسيادة النازية ، دون أن تقوى أية دولة أوربية على أن تحول بينها وبين أن تقوم فى أوربا فى عهد هتلر ، بالدور الذى قامت به بروسيا فى ألمانيا فى عهد بسمارك ، فكما نشأ الاتحاد الالمانى تحت امرة بروسيا فيما مضى ، ينشأ الاتحاد الاوربى تحت سيطرة ألمانيا غدا

والقوة الوحيدة التى تستطيع أن تحول دون فرض ديكتاتورية ألمانيا على القارة الاوربية ، والتى تستطيع أن تقيم اتحادا أوربيا على أساس المساواة بين شعوب أوربا كبيرها وصغيرها ، هى قوة بريطانيا العظمى

واذا قررت بريطانيا أن تأخذ على عاتقها زعامة أوربا الادبية ، فان ثلاثة أرباع هذه القارة سينقاد لها عن طيب خاطر ، بل سينقاد لها مخلصا متحمسا . بل انى على يقين من أن الربع الباقي من أوربا سينضم فى القريب العاجل الى هذا الاتحاد الاوربى العظيم ، وسيطرح عن نفسه كل هذه القوات والعناصر الرجعية التى تقاوم هذا المشروع السياسى الاقتصادى الهائل

ولا غرابة فى هذا ، فان مثل هذا الاتحاد الاوربى يتيح لشعوب أوربا من المزايا ، ويجنبها من الاخطار ، ما يكفل اقبالها على انشائه ، واخلاصها فى تدعيمه . فسيحقق فى أرجائها سلما دائما ، وسيخفف عن كاهلها أعباء التسلح الثقال . وليس هذا فحسب ، بل انه سيحقق لشعوب أوربا مستوى عاليا من الحياة ، تنعم فيه الطبقات العاملة بكثير من عناصر الرخاء ، بأن يجعل من أوربا بأسرها سوقا فسيحة رائجة

انظر ماذا يحدث اليوم فى حياة أوربا الاقتصادية ، تر صناعات دولها المختلفة تتنافس بل تتحارب ، معا فى عنف وهوس . فتضطر جميع هذه الدول الى أن تبحث لمصنوعاتها عن اسواق تبيعها فيها بأرخص مما يبيع جيرانها ومنافسوها . فتطرقت بها هذه المنافسة الى تخفيض أجور عمالها والهبوط بمستوى حياتها ، وارهاق طبقاتها العاملة بما لا قبل لهم من ضروب الحرمان . وهكذا ينشأ التناقض والتضارب بين السياسة الاجتماعية والسياسة الاقتصادية فى أوربا ، وهكذا تثور فيها روح القلق والتمرد والعصيان ظاهرة حينا وخفية فى أكثر الاحيان ، ولكنها على كل حال روح ينذر بكثير من الوبال

وستظل هذه الحال السيئة قائمة ما بقيت أوربا مقسمة الى تلك الوحدات التى تفصل بينها أسوار ضخمة شاهقة تسمى الحواجز الجمركية . ولن يستطيع أى اصلاح اجتماعى فى داخل هذه الوحدات أن يرفع من مستوى الحياة فيها . وانما الطريق الوحيد الى رفع هذا المستوى هو تنظيم أوربا الى وحدة اقتصادية ونقدية متعاونة الاجزاء ، فلا تضطر الى أن تعيش على خطة تصدير منتجاتها ، بل تستطيع ان تبيع كل ما تنتج أرضها ومصانعها مضافا الى ما يأتيها من مستعمراتها فى آسيا وأفريقيا ، فى السوق الاوربية الكبرى . وبذلك تتلافى سيئات المنافسة بين أجزائها ، وبذلك توفر لاوربا سائر مطالبها الاقتصادية

وحالما يتيسر انشاء هذا الاتحاد الاوربى، تغدو السياسة الاقتصادية والسياسة الاجتماعية متفقتين غير متضاربتين : بمعنى أنه كلما ارتفع مستوى الحياة التى تحياها الطبقات العاملة، تيسر لها أن تزيد من قوتها الشرائية التى تستهلك منتجات أوربا الصناعية والزراعية

واذن فان كل سياسة اجتماعية اصلاحية فى أوربا يجب أن تطالب أول ما تطالب بتحقيق فكرة الاتحاد الاوربى ، هذا الاتحاد الذى يجب أن يتهيأ له من القوة والغنى ما يمكنه من الوقوف جنبا الى جنب مع الاتحادات الكبرى فى أمريكا ، وفى الشرق الاقصى، وفى روسيا

تاريخ حركة « توحيد أوربا »

بدأت هذه الحركة منذ عشرين سنة تقريبا . فعند ما قررت الولايات المتحدة الامريكية أن تنسحب من عصبة الامم ، بدأت هذه الحركة تبذل جهودها . واتخذت مدينة فينا مركزا لادارتها ، وفيها عقدت أول مؤتمر لها فى سنة ١٩٢٦ . ولما ظفرت بتأييد نفر كبير من القادة والساسة فى جميع بيئات أوربا الديموقراطية ، دعت السياسى الفرنسى الكبير اراستيد بريان فى سنة ١٩٢٧ الى رياستها . وقبل بريان هذه الدعوة ، وظل حتى وفاته فى سنة ١٩٣٢ عاملا لتحقيق فكرتها ساعيا الى تعزيز مكانتها

وقد دعا بريان فى سنة ١٩٢٩ جميع حكومات أوربا الى بحث مسألة «الاتحاد الاوربى» والى التفكير فى أيسر السبل الى انشاء هذا الاتحاد

ثم طبع فى مايو سنة ١٩٣٠ « مذكرته » المشهورة التى ضمنها رأيه فى توحيد أوربا ، وخطته فى تحقيق هذا الاتحاد . وفى اليوم الذى نشرت فيه هذه المذكرة على ملأ الاوربيين عقدت الحركة مؤتمرها الثانى فى برلين

على أن جهود بريان أخفقت ، لان التربة التى ألقيت فيها هذه البذور لم تكن أعدت بعد لانباتها. فلم تكن سماء أوربا غامت بعد بسحائب الأزمات الاقتصادية والسياسية التى انتشرت وتراكمت فيها بعد ذلك بقليل ، والتى لم تلبث أن أثبتت للناس جميعا ضرورة تحقيق الوحدة الاوربية عاجلا . وهكذا مات بريان ، هذا السياسى الانسانى العظيم ، قبل أن يرى فكرته تتجاوز أذهان المفكرين والمصلحين الى عقول الساسة ودور الحكم

وتابعت حركة « توحيد أوربا » جهدها بعد موت بريان . تابعته دون أن تظفر بتأييد أحد من دول أوربا الكبرى ، فقصرت جهدها هذا على الميادين الاوربية والاقتصادية وحدها. وعقدت مؤتمرها الثالث فى بال سنة ١٩٣٢،ومؤتمرها الرابع فى فينا فى سنة ١٩٣٥

وأخذت آفاق أوربا تظلم شيئا فشيئا، وأخذت مشاكل أوربا تتفاقم يوما فيوما ، فبدت فى أذهان المفكرين الحاجة الى الوحدة الاوربية أمس وألزم مما كانت فى أى يوم مضى. نعم ، ضعفت الحركة من الوجهة العملية ، ولكن تأثيرها المعنوى ازداد قوة وعمقا . وانى على ثقة بأنه لو أجرى حينذاك تصويت حر بين شعوب القارة الاوربية لصوتت بأغلبية ساحقة تأييدا لفكرة « الولايات المتحدة الاوربية » التى تضمن لكل دولة استقلالها القومى ، وتضمن للدول جميعا اتحادها فى سياستها الخارجية ، وسياستها الحربية، وسياستها الاقتصادية

ولكن مفتاح المشكلة الاوربية ليس فى يد أية دولة من دول القارة ، بل فى يد دولة يفصلها عن القارة بحر عريض : فى يد بريطانيا ، فلو رضيت بريطانيا بأن تتولى الزعامة الادبية لهذا الاتحاد الاوربى لسارت القارة وراءها ، واثقة من أن هذا هو السبيل الى حريتها ، والى أمنها ، والى رخائها

هناك عقبة كبيرة تبدو حائلة بين بريطانيا وبين قيامها بهذه المهمة . تلك هي حيرة بريطانيا بين العناية بشؤون امبراطوريتها وبين تدعيم مكانتها فى القارة الاوربية ، فكثير من السياسيين البريطانيين يخشون أن يؤدى توثيق الصلة بين بريطانيا وأوربا الى اضعاف الصلة بينها وبين امبراطوريتها . ولكنى أراهم مخطئين فيما يرون . فبريطانيا فى حاجة الى أن يكون الى جانبها قارة آمنة هادئة ، ورخية رائجة ، لتأمين ما وراء ظهرها حين تريد الانصراف الى شؤون امبراطوريتها المترامية فى أرجاء العالم . انها فى حاجة الى جوار آمن مسالم لا يضطرها الى ابقاء قواها الحربية معبأة فى جزيرتها ، لتستطيع أن توجه أساطيلها البحرية والجوية الى حيث تشاء من أرجاء العالم

أما ان ظلت أوربا فيما هى فيه من الفوضى ، فستضطر بريطانيا الى تركيز اسطولها وطائراتها الى جانب أوربا ، وبذلك تفقد فى يوم ما بعض مناطق قارتها المهمة . واذا انسحبت بريطانيا من القارة الاوربية تركت ألمانيا قادرة على أن تسودها يوما ما قد لا يكون بعيداً . وانسحاب بريطانيا من شؤون أوربا بعد هذه الحرب لن يمنع ألمانيا من النهوض مرة أخرى واستئناف عدوانها بعد عشرين عاما .. وبذلك يأتى اليوم الذى تخشاه بريطانيا ، يوم تقع أوربا فى قبضة احدى دولها ، تنفرد بها وتجعل منها خطرا رهيبا على بريطانيا ، وهو اليوم الذى كاد أن يأتى يوم أشرف هتلر على تحقيق غايته فى جعل أوربا دولة واحدة ينبسط عليها جميعا لواء الصليب المعقوف . واخفاق هتلر اليوم ، لا يحول دون نجاح سواه غدا ، ان آثرت بريطانيا بعد الحرب أن تنصرف الى أملاكها فيما وراء البحار ، تاركة فكرة « توحيد أوربا » تتولاها احدى دول القارة الطامحة الى بسط لوائها أو اذاعة نظامها

(ملخص مقال فى مجلة لايور الانجليزية)

ماذا قالوا عن الضحك

نبكى مما يناقض رغائبنا اذا كان الامر جدا خطيرا ، ونضحك مما يخيب ظننا اذا كان الامر هزلا يسيرا

« وليم هازلت فى ١٨١٨ »

ينبعث الضحك من فيض ما فينا من طاقة ونشاط

« هربرت سبنسر فى ١٨٦٣ »

سر الضحك من العودة الى الطبيعة : ذلك ان الضحك تعبير عن العاطفة المكبوتة عند انطلاقها فجاءة ، كما كانت تنطلق حرة جريئة قبل قيام الحضارة

« سيلفيا بليس فى ١٩١٥ »

الضحك علامة المرح كما أن الدموع علامة الالم . وكل من يسرف فى هذا أو ذاك غافل يحمل نفسه أكثر مما تطيق

« فولتير فى ١٧٦٤ »

الضحك دليل على أن المرء تجرد من طهارته . فان أبسط ضحكة لا يمكن ان تنطلق الا بعد أن يغدو المرء مجردا من كل براءة وطهارة ... ذلك ان الضحك دليل على شعور المرء بتفوقه على سواه وسيادته على الآخرين

« شارل بودلير فى ١٨٦٩ »

أغنى أسرة فى العـــالم

أسرة دى بونت هى أعلى الاسرات الامريكية شأنا ، وهى أوفر أسرة فى العالم ثراء . فثروتها تفوق ثروة أسرة روكفلر ذاتها ، فان شركتين اثنتين من الشركات العديدة التى تملكها تاتى بدخل سنوى قدره مائة وخمسون مليون دولار . ويرجع الفضل فى تضخم ثروتها وتكدسها الى انها أسرة متماسكة بعضها ببعض ، يتزوج ابناؤها من بناتها ، فتظل ثروتها فيها لا تتسرب منها الى الاسر الاخرى

نشأت هذه الاسرة من بارود المدافع التى كانت تحارب بها أمريكا دفعا عن حريتها حين كانت مستعمرة خاضعة لبريطانيا . فظلت أدوات الحرب وذخائرها أهم صناعات الاسرة وتجاراتها ، فهى تملك اليوم عددا من أعظم المصانع الامريكية التى تنتج أسلحة الحرب ومفرقعاتها ، الى جانب المصانع الضخمة التى تنتج السيارات ، والاصباغ ، والحرير الصناعى ، ثم هى تكاد تمد يدها الى كل عمل صناعى فى امريكا ، بما لها من نفوذ عظيم فى سوق الصناعة وسوق المال على السواء

وتتصدر أسرة دى بونت الجبهة التى سماها روزفلت « أعدائى ذوو الدم الازرق » . أى أعداؤه ذوو الثروات والاملاك الضخمة الذين ألقى عليهم تبعة ما أصاب أمريكا فى السنوات الاخيرة من أزمات اقتصادية عنيفة « كادت تقوض هيكل الحضارة » . وقد انفقت الاسرة خمسمائة ألف دولار فى جهود ودعايات شتى أرادت بها اسقاط روزفلت فى انتخابه الثانى لرئاسة الجمهورية ، لان مشروعه المعروف بنظام التعامل الجديد New Deal كان ضربة قاسية للجبهة الرأسمالية العاتية التى تتزعمها أسرة دى بونت . ولكن هذه الخصومة الحادة لم تحل دون التصاهر بين أسرة دى بونت وأسرة روزفلت ، فتزوج الابن الثالث للرئيس بالآنسة « ايثل » كريمة يوجين دى بونت الذى يعد أحد أفراد « المركز الرئيسى » فى مجلس العائلة

وقد أحدث هذا الزواج دهشة وضجة فى الاوساط الامريكية . أولا لما بين الاسرتين من خلاف وخصومة ، وثانيا لما عهد فى أسرة دى بونت من الرغبة فى ابقاء بناتها ازواجا لابنائها . ولكن الذين يعرفون منشأ الاسرة وتاريخها لم يعجبوا من هذا الزواج الذى نم على ما فى طوايا الاسرة من اسباب الفرقة فى المسائل الخاصة . فمنذ مائتى سنة خلت هربت الفتاة « أنا دى مونتشانن » من قصر أبويهـا اللذين كانا من ثراة الطبقة الارستوقراطية فى باريس ، لتتزوج من شاب فقير يعمل فى صناعة الساعات اسمه « دى

بونت » . وكان هذا الزواج هو مبعث تلك الاسرة التى تفوق أية أسرة فى العالم غنى وثراء

ذلك أن تلك الفتاة أصرت على أن تجعل من ابنها شيئا مذكورا . وكان هذا الابن فتى نشيطا ذكيا ، وقد جهدت أمه كثيرا لتمكنه من أن ينزل الى الحياة مؤهلا بنصيب كبير من التعليم والثقافة ، وضحت فى سبيل ذلك بأشياء لا قبل بها لاكثر الامهات . ولكن آمالها فى هذا الولد صدمت صدمة عنيفة ، حين أصيب بمرض الجدرى اصابة بالغة ، ظل يقاسيها عدة أيام حتى قرر أطباؤه أنه فارق الحياة .. وبينما هم فى شغل بالطقوس التى تقام قبل دفن الميت ، اذا بالام الكسيرة القلب تقول من حولها انى أظن أن ابنى ما زال حيا .. وما هى الا دقائق حتى دبت فى ذلك الجسد رعشة الحياة . وعاش ذلك الفتى ، وعاشت أمه طويلا ، فلم تمت الا بعد ان رأت ابنها شابا مزدهر المستقبل ، فكان لها من الراحة فى ختام حياتها ما عوض عليها ما لقيت من الشدة والعنت فى بدايتها

ولم يجد هذا الفتى ، وكان اسمه بيير صمويل ، فرصته ولا راحته فى وطنه فرنسا ، فهجره الى امريكا ومعه ابناه فيكتور وايرينى فوجد فى وطنه الجديد مرادا فسيحا ينشىء فيه تلك الاسرة

وحدث أن خرج ايرينى فى رحلة للصيد فنفد ما كان معه من بارود البندقية ، فاشترى بعض البارود الذى يصنع فى امريكا ، فوجده أغلى ثمنا وأقل جودة من البارود المستورد من انجلترا .. فسرعان ما وجد الشاب فى هذا فرصته الذهبية ، وسرعان ما انشأ أعظم مصنع فى امريكا لانتاج البارود . ومن ذلك الحين يتزعم اسم « دى بونت » صناعة المفرقعات فى العالم الجديد

ووجد ايرينى كثيرا من التأييد والتشجيع عند ما عاد الى وطنه فرنسا ساعيا الى تدعيم مصنعه الكبير بالاجهزة والخبراء . ووجدت الحكومة الفرنسية أن لا سبيل لها الى منافسة تجارة البارود الانجليزية فى امريكا ، فعملت لتمكين دى بونت من مزاحمتها بانتاج مصنعه فى السوق الامريكية ، فأمدته بما يلزمه من الآلات والاجهزة بأسعار انتاجها ، وأطلعته على ما فى مصانعها من أسرار قيمة تمكنه من انتاج أجود أصناف البارود ، وقدمت له كل ما لها من خبرة ونصيحة

ونجح مصنع دى بونت نجاحا عظيما مطردا ، ففى سنواته الست الاولى كانت أرباحه ٢٠ ./. من مبيعاته ، فنما رأس ماله نموا عظيما . وكان تزايد سكان امريكا واتساع آفاقها يوما فيوما مدعاة للاقبال والتهافت على منتجات مصنع دى بونت حتى فى أوقات السلم . ثم جاءت الحرب الاهلية الامريكية فقفز المصنع الى الامام قفزة نشيطة فسيحة ، وانشئت على عجل الى جانبه مصانع أخرى ، لتسد حاجة الجيوش المتحاربة الى العتاد والذخيرة . فتكدست الارباح فى خزائن دى بونت تكدسا هائلا ، شهدت مثله مرة أخرى عند ما قامت الحرب الكبرى الماضية

وتولت أسرة دى بونت ادارة مصانعها ومنشآتها المختلفة بنفسها ، ولم تعهد الى أجنبى عنها بالمراكز الرئيسية فى هذه الادارة . ودلت على أنها انجبت فى كل جيل من بين الاخوة وأبناء الاعمام فردا أو عدة أفراد لهم من الكفاية والقدرة ما يمكنهم من ادارة هذه الاعمال الضخمة ادارة ناجحة موفقة تطرد بها الى الامام

وكان من أبرز أسماء هذه الاسرة « هنرى دى بونت » الذى تولى أمرها أربعين سنة انتهت فى سنة ١٨٨٩ . وتعد هذه الفترة العصر الذهبى فى تاريخ الاسرة ، ففيها أنشئت أضخم مصانعها ، وفيها دعمت أكبر منشآتها

وكان هنرى هذا رجلا غريب الاطوار . فكتب كل ما كتب من الرسائل بريشة قديمة منتزعة من جناح طائر ، وأبى أن يتخذ فى كتابته الاقلام الحديثة . بل أبى أن يركب القطار ، وأصر على أن يسافر فى عربته أو على ظهر جواده . بل كان يسخر من المفرقعات الجديدة مثل الديناميت ، ويراها عديمة الجدوى . ومع أن الناس جميعا تبينوا أن هذه المفرقعات ستقضى قضاء تاما على مادة البارود القديمة ، فان هنرى رفض أن يغير رأيه ويحور مصانعه وفق الظروف الجديدة . الا أنه كان بعيد النظر واسع الحيلة ، فأنشأ اتحادا من جميع المصانع التى تنتج الذخائر والمفرقعات ، وكان مصنعه بطبيعة الحال هو رأس هذا الاتحاد ، وبذلك أمن المنافسين الخطيرين ، بل عمل لاضعاف نفوذهم وتضييق سوق البيع عليهم

***

ولم تخل أسرة دى بونت من الفضائح العائلية . ففى بداية هذا القرن وقعت فى الاسرة أزمة عائلية كادت تنسفها كما ينسف البارود الذى تنتجه كل ما يصادفه عند القذافه

كان يتولى أمر الاسرة حينذاك ثلاثة من أبناء الاعمام ، هم الفرد وبيير وكوليمان . ولم يوفق الفرد فى زواجه ولم يسكن الى زوجته ، وتعلق بحب فتاة من قريباته . واجتمع مجلس العائلة وبحث فى المشكلة ، وقرر بعد مناقشات ومجادلات ، أن تزوج هذه الفتاة واسمها اليسيا ، من أحد موظفى الاسرة ، وأن يتم هذا الزواج على عجل

ولكن الامر لم يقف عند هذا ، وذاعت الاقاويل هنا وهناك . فرأى الفرد أن يحسم الامر ويتحمل المسئولية . فطلق زوجته ، وطلقت اليسيا زوجها ولم يمض على قرانهما بضعة أيام ، وبعد اسبوعين اثنين تم زواج الحبيبين

وقاطعت الاسرة بأسرها هذين الزوجين ، وحرم الآباء على أولادهم وبناتهم زيارتهما وظلت الاقاويل تساق وتذاع عن علاقتهما السابقة . ولكنهما لم يأبها لهذا العداء الذى أعلنته الاسرة جميعها . بل أقاما على بعض أقاربهما دعاوى قضائية بشأن ما يذيعه عنهما من أقاويل مفتراة

وأقام الزوجان قصرا باذخا يضمهما سعيدين بحبهما الذى زادته مكائد الاقارب

ووشايتهم قوة ووثوقا . وعملت معارض الفنانين فى ارجاء أوربا لتزويد هذا القصر بأبدع التحف واغلاها

وكاد الامر يؤدى الى انقسام فى صفوف العائلة ، وينفذ منها الى مؤسساتها ومشروعاتها. ولم يحسم الامر الا استقالة الفريد من ادارة العمل فى سنة ١٩٢٦ حيث التأمت الاسرة مرة أخرى

وبلغت أرباح أسرة دى بونت رقما فلكيا فى أثناء الحرب الكبرى الماضية . فامكنها ان تشترى شركة « جنرال موتورز » وهى أقوى منافس لمصانع هنرى فورد ، وأن تشترى كذلك بضع عشرات من المصانع الامريكية الكبيرة

ويتولى أمر هذه المشروعات الضخمة بيير دى بونت ، على أن من ورائه جيلا من الشبان يستطيع كل واحد منهم أن يتولى ما يوكل اليه من الاعمال عند ما يأتى دوره . وقد تزوج أكثر هؤلاء الشبان من قريباتهم اللاتى يمتزن غالبا بما امتازت به جدتهم الاولى « آنا دى مونتشانن » من الجرأة والحيلة والبراعة

(عن مجلة ذى نيو كرنت دايجست)

الآرى واليهودى

من الفكاهات التى تروى عن المانيا النازية أن شاخت وجورنج أخذا يتجادلان ذات مرة فى أيهما أذكى : الآرى أم اليهودى ، فراح جورنج يسوق الآراء النازية المعروفة عن تفوق الجنس الآرى على سائر الاجناس ، ولكن شاخت أحب أن يوافقه على رأيه قائلا : ان جولة قصيرة فى السوق كفيلة بأن تريك خطأ هذا الرأى ، فنزلا معا الى السوق وقصدا الى متجر يديره رجل المانى ، فسألاه : أعندك أقداح للقهوة يمكن للشارب أن يتناولها بيده اليسرى بدلا من يده اليمنى . فقال التاجر معتذرا ان ليس فى متجره مثل هذه الاقداح

فذهبا الى ثان وثالث ورابع من المتاجر الالمانية يسألان أصحابها عن هذه الاقداح ، فيعتذر أصحابها اليهما ويقولون انهم لم يروا أقداحا من هذا القبيل

فقال شاخت لزميله : اذن هيا بنا الى تاجر يهودى، فلما سألاه عن هذه الاقداح هش وبش وقال: انكما أيها السيدان ، سعيدان حقا ، فقد كان عندى مئات من هذه الاقداح التى تمسك باليد اليسرى فتهافت عليها المشترون فلم يبق منها سوى القليل . ومع شدة رواجها فى السوق فقد أبيت أن أرفع سعرها ، بل أبقيته كما كان مكتفيا بربح زهيد

فالتفت شاخت الى جورنج وقال : والآن ما رأيك ؟

فأجاب جورنج : وأى شىء فى هذا يدل على ذكاء اليهودى وغباوة الالمانى ؟ ألا يمكن أن يكون التاجر الالمانى ذكيا الا اذا تاجر فى أقداح تمسك باليد اليسرى بدلا من اليد اليمنى ؟

منظر من التاريخ

الأمير بدر الدين بيليك

بقلم الأستاذ محمد فريد أبو حديد

هو منظر من مناظر التاريخ المصرى ، يعرضه الاستاذ الكبير محمد فريد ابو حديد عرضا فنيا جميلا ، ويصور فيه حادث وفاة السلطان بيبرس ، وعودة جيشه الظافر بعد دفنه فى دمشق ، وكيف أخفى نائب السلطنة الامير بدر الدين وفاته حتى وصل الموكب الى مصر ، وتودى بولى عهده محمد بركة بيبرس سلطانا على مصر خلفا لابيه

سار الموكب العظيم عائدا من بلاد الشام وقد بلغت أولاه حدود سيناء ، وكانت أخراه لا تزال فى غزة حيث كان فرسان المؤخرة يسوقون الاثقال من غنائم أرمينية وأذربيجان وآسيا الصغرى والقوقاز . ولكن السلطان العظيم بيبرس الذى عاد يتلك الغنائم من حروبه الموفقة ، لم يكن على رأس الجيش فى صدر الموكب ، فهناك كانت المحفة البديعة المزركشة بالابنوس والعاج والصدف تسير مشدودة فوق أعناق الابل القوية ، مشدودة بأربطتها الغليظة الى جوانب الرحال . وكان الفرسان يرفعون نحوها أعينهم فى خشوع ، ويتمثلون قائدهم العظيم مستلقيا وراء ستورها وقد صرعه المرض وأضعفه ، وحجبه عن الظهور لهم والطلوع عليهم بطلعته المهيبة المحبوبة . وكان الامير بدر الدين بيليك نائب السلطنة يسير مطرقا على ظهر جواده الابيض ، يكاد يلمس بعمامته أستار المحفة ، ويرفع رأسه بين حين وآخر ، فيرمقها بحزن ، ثم يسرع فيتلفت حوله نحو فرسان الحلقة المحيطين بالمحفة ، ويكسو وجهه بالجد والصرامة خوف أن يلمح أحدهم شيئا مما بدا عليه من الحزن والوجوم

كان الصمت يلف الصحراء الا وقع أخفاف الابل على الرمال الناعمة ، وأصداء قعقعة الدروع والسلاح وحوافر الخيل . وكانت الالوية الملونة تخفق فوق الرماح فى الهواء الهادىء كأنها تنادى وحدها بالبشر وسط لجة من الوجوم . فما كان لاعلام بيبرس الا أن تخفق بالبشر بعد الانتصار الرائع الذى صحب جيوشه ، وان كان السلطان العظيم لا يسير كعادته فى صدر جيشه المظفر

واشتد حر الظهيرة ، وبدا الكلال على الخيل فى اطراقها بأعناقها ، فقد بدأت السير منذ

السحر قبل أن يطلع الفجر . فأمر بدر الدين بدق الكؤوس ، ووقف الموكب للراحة ، وأنزلت المحفة فى رفق ، فوضعت فوق الرمل على قوائمها ، وأشار نائب السلطنة الى الفرسان المحيطين بها أن يذهبوا ليهيئوا لانفسهم طعاماه وليذوقوا من الماء ويؤدوا الفريضة جماعة ، ثم وقف لحظة وهو واجم ينظر فى أعقابهم ، حتى اذا ما بعدوا عنه رفع الستار عن المحفة ، وبقى لحظة يطل من ورائها الى داخلها الخالى الذى لم يكن به شىء . ثم عاد الى مكانه مطرقا ، واتخذ مقعده على أريكة ألقيت له على الارض على بضع خطوات من المحفة . ولم يطل به الجلوس حتى أتى اليه صديقه الامير قلاوون صهر السلطان ومعه الطبيب ، فقام نحوهما ولا يزال واجما ، ثم سار معهما الى المحفة ، فرفع جانب الستر عنها ، وأشار الى الطبيب أن يتقدم ، فأقبل الطبيب وأدخل رأسه من فرجة الستار الى المحفة الجوفاء ، وبعد حين رجع الى الوراء ، فقبل الارض منحنيا بالتحية ، وأرخى بدر الدين الستار ، وتراجع الى الوراء مع صديقه قلاوون ، فقبلا الارض بالتحية ، ثم ساروا جميعا الى حيث يراهم العسكر ، وتكلفوا جميعا أن يظهروا البشر . وأمر بدر الدين أحد فرسانه أن يسرع لكى يعلن فى الجيش أن السلطان العظيم يتماثل للشفاء

وسار الموكب يوما بعد يوم ، والمحفة الخالية محمولة فى وسطه كأنها المحمل فى وسط ركب الحج ، وكان بدر الدين يرفع عنها الستار فى كل يوم مرتين ، ويدعو الطبيب الى زيارتها ، ثم يذيع فى الجيش البشرى أن الملك الظاهر يتنسم فى هذا السفر نسيم العافية حتى بلغ الموكب أرباض القاهرة ، وخرج الناس اليه ألوفا ليستقبلوا بطلهم بيبرس الحبيب ، وان كان لا يزال محجوبا عنهم فى تلك المحفة المزركشة

***

كان الامير محمد بركة بن بيبرس جالسا فى الايوان الكبير فى قلعة صلاح الدين ينتظر موكب والده السلطان العظيم ، واجتمع حوله أمراء الدولة على رسمهم وعادتهم ، وكانت الشمس تطل فى الايوان فاترة من خلال النوافذ التى يغطيها الزجاج الملون ، فشاع الضوء الرفيق فى جنباته يكسو أرضه الرخامية بألوان متناسقة مختلفة بين الاحمر والازرق والاخضر والبرتقالى . وكان الامير محمد ولى العهد جالسا فوق كرسى عال من الابنوس المطعم بالعاج والصدف ، موضوع الى جانب كرسى الملكة الرخامى القائم فى صدر الايوان على هيئة المنبر

وجلس الى يمينه ويساره أهل الدولة فى ترتيبهم المرسوم ، فجلس عن يمينه قضاة مصر الاربعة ، أولهم الشافعى ثم المالكى ثم الحنفى فالحنبلى ، ومن بعدهم وكيل بيت المال ووالى الحسبة فى القاهرة ، وجلس عن يساره الوزير وكاتب السر منحرفين فى قوس ينحنى الى الامام ، ووقف من ورائه كبار الامراء أصحاب المشورة ، وتفرق الحجاب والمماليك فى جوانب الايوان الفسيح فى ملابسهم المختلفة الالوان وأقبيتهم الصفراء الحريرية

وبعد حين دقت كؤوس الموسيقى تحت نوافذ الايوان مؤذنة باقتراب طلائع الموكب ، ثم سمعت ضجة الموكب ، فتحرك من فى المجلس ، وتطاولوا بأعناقهم ليروا نائب السلطنة الامير بدر الدين بيليك الذى جاء عند ذلك مع الركب وحده . فقد شاع نبأ تخلف السلطان العظيم فى خارج القاهرة ليستريح فى محفته هناك تلك الليلة قبل عودته الى القصر

ودخل نائب السلطنة مطرقا يسير فى بطء ، ووجهه الشاحب يختلج بين حين وحين ، حتى اذا ماصار على بضع خطوات من الامير انحنى بالتحية،فقبل الأرض بأن لمس بأطراف أصابعه بساط الايوان ثم رفع يده الى فمه فقبلها ووضعها على رأسه،وتقدم خطوة أخرى وانحنى بالتحية ، فقبل الارض مرة أخرى ، وتقدم خطوة ثالثة وأعاد تحيته ، ووقف متجها الى الامير خاشعا ، فساد الصمت ، وفتح الحاضرون أعينهم من الدهشة ، اذ رأوا نائب السلطنة يحيى ولى العهد مثل تحية السلطان العظيم ، وثارت فى نفوسهم شكوك ومخاوف ، ولكن ولى العهد كان هادىء العين ينظر الى الامير الكبير فى شىء من التحدى ، ولمح بعينه لمحة سريعة نحو الاميرين الشابين كوندك ولاجين اللذين كانا واقفين وراء نائب السلطنة

ورفع بدر الدين يديه بعد حين ، وبدأ الحديث بالدعاء للامير ، وبالغ فى دعائه ثم قال :

« والآن يا مولاى أقدم عزائى وعزاء مصر والاسلام فى مولانا العظيم ! »

ووقف مطرقا وساد الصمت لحظة ثم ضج المجلس بالبكاء . وشاعت الانباء سريعة فى القاهرة أن السلطان الفاتح قد دفن فى دمشق ، وأن الموكب الرائع الذى أقبل الى مصر انما كان يحيط بمحفة خالية ، وأن ذلك كله كان من تدبير نائب السلطنة الوفى واسع الحيلة ، الذى لولاه لاضطربت الامور للسلطان الصغير

***

اعتكف الامير بدر الدين بعد ذلك فى داره لكى يذوق الراحة بعد أن أجهدته مشقة الجسم ، وكد القلب فى تلك الرحلة الطويلة ، فلم يذهب الى دار النيابة ، ولم يبكر الى خدمة السلطان الجديد ، ولم يذهب لعزاء السيدة الوالدة فى زوجها العظيم ، ولم يشعر بالراحة الا بعد أيام ، فاستطاع أن ينزل من دار الحريم ليجلس فى البهو الفسيح من دار الرجال ، وكان ذلك المكان آية من آيات الفن تحليه النقوش الدقيقة بألوان متداخلة يمازجها الذهبى والقرمزى ، وكان حول الجدران من أعلاها اطار ذهبى كتبت فيه آيات من القرآن بأقلام نوابغ فن الخط الذين أبرزهم عصر بيبرس ، ووزعت حول البهو تحف مختلفة لا ترابط بينها ولا يتصل بعضها ببعض بسبب من شبه،فانها لم تكن سوى ذكريات من أحداث شتى مرت بصاحب الدار فى حياته المضطربة . وقد علق بعضها فوق الجدران مشدودا بمسامير غليظة من الفضة أو النحاس ، ووضع بعضها على قوائم من الخشب المخروط . وكان أثاث البهو يغطى كل جوانبه وأركانه ، حتى لم يكن فيه موضع

تظهر منه أرضه الرخامية التى كانت تحليها نقوش من الفسيفساء والأحجار الملونة . وكان فى وسط البهو « فسقية » من الرخام الابيض رسمت فى قاعها أنواع من الاسماك فاذا ما امتلأت بالماء فى فصل الصيف خيل الى من ينظر اليها أن الرسوم أحياء تتلاعب فى مسرحها . وقد صفت حولها مقاعد وطيئة يستطيع من يجلس عليها أن يترد فى الماء برجليه اذا اشتد حر النهار . وقد غطيت تلك المقاعد بوسائد لينة محشوة بريش النعام أو القطن اللين المنقوش ، وكسيت بأثواب من الحرير المزركش بخيوط الذهب

جلس الامير بدر الدين فى هذا البهو على مقعد فى الصدر ، وجعل يجيل بصره فى التحف التى تحيط به ، وكان بين حين وآخر يقف بنظره عند احداها ، وتتمثل له ذكرى قديمة علقت بقلبه ، ولكن شواغل الحياة أنسته اياها، فلما رآها عند ذلك عادت اليه الذكرى كأنها مرت به فى الامس القريب . فهناك ستارة من الحرير المذهب كانت بعض نصيبه من غنائم انطاكية بعد أن فتحها مع سيده العظيم ، والى جانبها جوشن أهداه اليه السلطان اعترافا ببسالته فى حرب التتار عند حلب ، وذاك سيف يعيد اليه ذكرى قاسية اذ كان يحارب الارمن فى (سيس) على نهر الفرات ، فوقف له « ليفون » الشاب ابن ملك الارمن ، وجاوله ساعة ، ثم وجد الشاب منه فرصة فأهوى اليه بسيفه الثقيل ، فكاد يقضى عليه لولا أن عثر الجواد بالفتى فأوقعه على الارض وأخطأ السيف فلم يصب سوى مؤخر الجواد الذى كان هو يركبه ، فقده قدا كما يقطع المنجل عودا دقيقا من حشيش الارض . فوقف حينا أمام الفتى الصريع مترددا ، أينتهز الفرصة فيقضى عليه بضربة من سيفه ، أم يكظم حفيظته ويتعفف عن النصر الخسيس . ولم يطل به التردد وأبى أن يمس خصمه الصريع بسوء ، واكتفى بأسره ، ثم أكرمه وأنزله بداره ، واستهداه سيفه الذى كاد يقضى عليه لكى يجعله تذكارا لتصرف الاقدار العجيبة . وهناك الى جانب السيف الثقيل كانت أثواب حمراء زاهية اللون مزركشة بالذهب علقت الى جانبها منطقة من الذهب الخالص ، وهى من هدايا السلطان الكثيرة فى أيام المواكب ومباريات القبق ولعب الكرة بالصولجان

جلس الامير بدر الدين يستعيد أحداث ذلك الماضى الملىء ، ثم تنفس نفسا طويلا عميقا كأنه عاد من رحلة طويلة ، وتحرك فى مكانه فى شىء من الاضطراب ، ثم قام يستعد للذهاب الى مولاه الملك السعيد الذى طالت غيبته عن حضرته . وخطرت له خطرة من انقباض وهو قائم ، اذ تذكر أن السلطان لم يرسل فى طلبه ، ولم يبعث اليه رسولا فى هذه الايام التى قضاها فى داره يستريح . ولكنه لم يقف طويلا عند هذه الوساوس ، اذ كانت الشمس قد علت فى السماء واقترب الوقت الذى يبدأ فيه الموكب العظيم . اذ كان ذلك اليوم ميعادا لاول موكب يركب فيه السلطان الجديد و (يشق) فى عاصمة ملكه

***

استعدت القاهرة للقاء الملك السعيد فى موكبه الاول على عادة الملوك القدماء ، اذ يسيرون

فى الطريق الاعظم من المدينة ليتلقوا تحيات الشعب ، ويشعروا عاصمة الملك أن العرش لا يزال حاليا ببطل جديد بعد موت البطل الذاهب

ونشر التجار الاعلام فوق الحوانيت ، وغطوا الجدران بالطنافس الثمينة الايرانية ، واستعد بعضهم بأثواب الحرير لكى يبسطوها تحت حوافر الجواد الكريم الذى يمتطيه السلطان اذا مامر أمام متاجرهم،وازدحم الناس على جانبى الطريق،بعضهم يقف على الارض، وبعضهم يتطاول فوق منصات ضيقة أقيمت وراء الصف الاول ، وبعضهم يتسلق الجدران أو يتعلق بالاشجار أو يطل من نوافذ المساجد والمنازل ، أو يشرف من أعالى المنازل المطلة على الطريق . ووقفوا جميعا فى مواضعهم منذ أول الصباح ، وقد امتلأت قلوبهم حماسة للملك السعيد ، ونائب سلطنته البطل بدر الدين بيليك الذى كان مدار حديث الجمع الزاخر لما أداه لمولاه وصديقه السلطان العظيم بيبرس بعد موته ، فحفظ عرشه على ولده بسعة حيلته وصدق ولائه . ولكن الشمس علت فى كبد السماء ولما يطلع الموكب . ثم ترامت الانباء أن الملك السعيد أمر على حين فجأة أن يسير موكبه من القلعة الى الجبل الاحمر من خارج المدينة عن طريق الصحراء بغير أن يمر فى الطريق الاعظم من القاهرة كما جرت العادة فى مواكب السلاطين. فاضطرب الناس وتفرقوا خائبين ، وأسرع القليل منهم الى خارج المدينة ليدركوا نظرة من الموكب عن بعد ، وطوى التجار طنافسهم وأعلامهم ، وأعادوا أثواب الحرير الى رفوفها وهم يدمدمون فى حنق

وعاد الموكب الى القلعة ، وسار بدر الدين يحمل فوق رأس السلطان المظلة الصفراء التى كانت منذ قرون شعار السلطنة ، وكانت صورة الطير الفضى فى أعلاها تبرق فى ضوء شمس الظهيرة ، وكان الملك السعيد يلبس الحلة التى أهداها الخليفة العباسى الى أبيه عند ما انتقلت الخلافة من بغداد الى القاهرة ، وهى الجبة البنفسجية والطوق الذهبى والسيف البدوى المقوس والعمامة السوداء . فلما اقترب الموكب من سلم القصر ، ترجل السلطان ، ونزل الأمير بيليك وراءه ، وناول المظلة الى بعض فرسانه ليطووها ، واتجه الى الملك السعيد لكى يؤدى له التحية ، فانحنى يقبل الارض على ما جرت به العادة من عصور ، ولكن السلطان لم يلتفت اليه ، وأسرع داخلا الى قصره ، وسار وراءه الأميران الشابان كوندك الساقى ولاجين فى خفة يكادان يثبان فوق درجات السلم الرخامى وثبا .

فلما رفع الأمير بيليك رأسه ، ورأى السلطان داخلا بغير أن يلتفت اليه ، نظر حوله مرتبكا ، ولم يدر فى ارتباكه ماذا ينبغى له أن يصنع ، وشعر بقلبه يغوص فى صدره ، ثم جال ببصره فيما حوله فرأى بعض الامراء والفرسان عن بعد يتظاهرون بأنهم فى شغل عن رؤية ما كان ، فدار رأسه وكاد يقع على الارض متهالكا ، ثم تماسك واتجه الى جواده فركبه وعاد الى بيته وهو لا يكاد يرى أين يسير

***

بعد اسبوعين من ذلك اليوم خرج الامير بدر الدين الى حديقة قصره يتمشى فى مسالكها الضيقة المتعرجة بين أحواض الورد الاصفر والاحمر وخمائل البان والعنبر والنمام وبين الاشجار النادرة التى نقلها من بلاد الشام من مشمش وبرتقال وتفاح،وكانت رجلاه تضطربان تحته من اثر المرض الذى اعتراه منذ يوم الموكب ، وكان هواء الاصيل يهب باردا على غير عادة تلك الايام من شهر اغسطس ، فبعث فيه برد الهواء نشاطا أزال عنه كثيرا مما خيم على نفسه من الانقباض والغم

ومال فى ركن من الحديقة الى أريكة تظللها فروع غزيرة من الياسمين ، فاضطجع يستريح ويتمتع بالهواء الوديع ، فغلبه السلام الذى كان يشمل ذلك الركن الظليل ، فأغفت عينه اغفاءة خفيفة لم تلبث أن نقلته الى عالم الحلم ، فرأى نفسه فى موكب عظيم والاعلام مرفوعة فوق رأسه ومن خلفه ومن أمامه ، والناس مصطفون عن يمين وشمال يرفعون أكفهم له بالدعاء ، وهو يلقى عليهم السلام ، ويبسم لهم اذ يسمع منهم الثناء عليه لما كان منه من أداء واجبه نحو مولاه . ثم تبدل الحلم فجأة ، فاذا مولاه السلطان يأتى لاستقباله ويفتح له ذراعيه ويبكى بين يديه معتذرا ، ثم يدخل به الى القصر وقد اجتمع فيه الامراء جميعا لكى يستقبلوه بالتحية ، فقاموا عند ما أقبل عليهم فقبلوا الارض بين يديه وجاء الامير كوندك الساقى نحوه يحمل كوبا من الشراب المثلج وهو ينحنى ويتأدب فى حضرته . ثم اصطف الجميع وقدموه لكى يصلى بهم جماعة ، وأذن للصلاة ، فأفاق من اغفاءته على صوت المؤذن فى أقصى بيته ينادى لصلاة المغرب فى دار الرجال . فقام عن الاريكة فاترا ولا يزال فى دهشة النوم ، وأحس الانقباض يزداد فى صدره . فاتجه الى دار الرجال ليؤدى الصلاة ويلتمس فيها السلام . وما كاد ينتهى من صلاته حتى أتاه خادمه مسرعا ينبئه بزيارة الامير الشاب كوندك الساقى، فكانت تلك مفاجأة من مفاجآت الاحلام

***

حاول الامير بيليك فى اليوم التالى أن يملأ نفسه استبشارا ويزيل عنها الغم الذى ملأها وجعل يراجعها ويقنعها بأن جفوة مولاه السلطان يوم الموكب لم تكن سوى نبوة غير مقصودة فى أول يوم ركب فيه الامير فى شعار السلطنة مع ما كان يحيط بالموكب العظيم من قيود ورسوم ومع حداثة عهده بمصابه فى فقد أبيه . وكاد انقباضه يزول من أثر هذه المراجعة ، لولا خطرات كانت تعود اليه وتومض فى خياله كلما تذكر اللمعة التى كانت تبرق فى عينى الامير كوندك الساقى وهو يحدثه بالامس ويبلغه تحية السلطان ويدعوه باسمه الى العودة الى مكانه فى دار النيابة على عادته فى أيام بيبرس . لقد كانت تلك اللمعة تبدو فى عينى الامير كوندك كلما وقعت عيناه فى عينيه ، وكان بريقها مثل بريق السيف حتى كان يضطر الى تحويل عينيه عنها ، وتداخله منها رعدة تشبه قشعريرة الخوف . ولكنه تمكن مع طول المراجعة أن يستشعر الصفاء والبشر ، وذهب الى القلعة

فى الصباح ، فقضى صدر النهار فى دار النيابة يصرف أمور الدولة والجيش ، وتقرأ عليه قصص الشكوى ويأمر فيها بما يرى ، ثم مد السماط المعتاد لأكل الامراء والقواد ومن كان عنده من الاعيان . وبعد صلاة العصر ذهب الى القصر ، فلقى فيه ترحابا ، واستقبله الملك السعيد باسما وبالغ فى اكرامه حتى ثارت الدموع فى عينيه وجاهد نفسه فى كبتها . ولما انصرف من حضرة مولاه ، رأى أن يقصد قصر السيدة الوالدة ليعزيها فى وفاة زوجها العظيم ، فأبى الاميران كوندك ولاجين الا أن يكونا فى خدمته . حتى اذا بلغ موضع الستارة من القصر ، جاءت اليه السيدة العظيمة فرحبت به من ورائها ، وشكرته على ما كان من ولائه وحسن بلائه . وتقدم نحوه الامير كوندك يحمل صحفة ذهبية رائعة الحسن فى نقوشها ورسمها وصفاء لونها وعليها كأس ذهبية جميلة رشيقة فيها شراب مثلج ، وقالت السيدة من وراء الستار :

« هذا شراب صنعته بيدى أيها الامير العظيم يحمله اليك ولدك الامير كوندك ايفاء بحقك وآية منى على شكرك »

فدعا الامير بيليك لها ، وقبل الارض فى موضعه من الستار ، ثم شرب الكأس

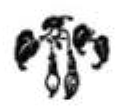
***

بعد أيام قلائل ارتجت القاهرة رجة عنيفة عند ما ذاع فيها أن الامير بدر الدين قد مات ، بعد أن قضى أياما من العذاب فى آلام كانت تمزق أحشاءه تمزيقا ، ولم يجد فى دائه طب الاطباء لان الآلام كانت لا تزداد على الادوية الا تبريحا

وكان حزن مصر عليه لا يقل عن حزنها على سيده وصديقه بيبرس ، فأغلقت المتاجر وعطلت الدراسة فى المساجد ، وخرج الألوف من فرسان وتجار وعلماء ليشيعوا بطل انطاكية وحلب وسيس الذى أوفى بالعهد ، وكان مثلا فى الولاء

وكان فى طليعة الموكب الاميران الشابان كوندك ولاجين يسيران مطرقين ساهمين يكاد الحزن يقطر من عرفيهما . ولم يعودا من المشهد حتى نزلا الى القبر ، وحملا على أيديهما البطل العظيم الى مقره الاخير

محمد فريد ابو حديد



٣ عوامل

تغلبت على الأمية في الولايات المتحدة

بقلم الدكتور كليلاند

مدير قسم الخدمة الاجتماعية بالجامعة الامريكية

اهتمت وزارة الشؤون الاجتماعية أخيرا بمكافحة الأمية فى مصر ، فشكلت لجنة خاصة لبحث الموضوع ودراسة الوسائل العملية للقضاء على الأمية. وقد رأينا لهذه المناسبة أن نطلب من الدكتور كليلاند، مدير قسم الخدمة الاجتماعية بالجامعة الامريكية بالقاهرة، أن يحدثنا عن الطرق التى اتبعتها الولايات المتحدة الامريكية فى مكافحة الأمية ومحوها، فكتب يقول:

نشأت عدة عوامل اجتماعية فى الولايات المتحدة أدت الى القضاء على الامية فيها :

١ ـ الدين

اذ كان أغلب المهاجرين الاولين الى الولايات المتحدة من غلاة البروتستانت ووجدوا أن أضمن الوسائل للمحافظة على عقيدتهم هى تعليم أبنائهم حتى يتيسر لهم قراءة الكتاب المقدس وفهمه . ودفعتهم هذه الرغبة الى انشاء المدارس فى كل مكان ينزلون فيه . ولم يكتفوا بالكتاب المقدس وحده بل اعتمدوا على كثير من الكتب والمطبوعات والمجلات الاخرى لصيانة عقيدتهم الدينية من جهة ولمقاومة الدعاية التى كان يروجها منافسوهم من جهة أخرى . ولقد امتد اثر هذه الدوافع الدينية الطيبة الى السكان الاصليين من الهنود لتعليمهم القراءة والكتابة

٢ ـ الديمقراطية

تشكلت حكومة الولايات المتحدة على قواعد ديمقراطية جمهورية . ولوحظ أن هذا النظام يستقيم أمره على وجه أحسن لو أن اعضاء الانتخاب كانوا غير أميين . فظهرت المدارس بين كافة المجتمع ، وأصبحت كل جماعة مسئولة عن انشاء المدارس فى محيطها . ففى كل مدينة ينتخب الاهالى مجلسا يسمى «مجلس المدارس» ومهمة هذه المجالس مراقبة شؤون التربية وفرض الضرائب اللازمة لنشر التعليم ، ومن اختصاصها وضع البرامج وتحديد مستواها العلمى وتعيين المدرسين والموظفين وبناء دور التعليم . والدولة فى الواقع

هى التى تحدد مباشرة وبصفة رسمية الاهداف العامة للتربية ، فى حين أن الهيئات الكثيرة كالجامعات واتحادات الاساتذة وغيرها هى التى كانت توجهها بطريق غير مباشر . ودب التنافس بين الهيئات كل تريد أن تصل بمستوى مدارسها الى أرقى حد ممكن

ولكل ولاية أن تقرر الحد الادنى من الزمن المخصص للتعليم وحضور هذا القدر من الحصص اجبارى على كل تلميذ . كما أن أغلب الولايات تفرض على أعضاء الانتخاب امتحانا فى القراءة والكتابة . وتوجد بجوار المدارس العامة مدارس أهلية خاصة يسمح للتلاميذ بالانتساب اليها اذا شاءوا . هذا والدولة تكفل التعليم بالمجان فى مرحلتيه الابتدائية والثانوية

وقضت الاوضاع السياسية أن يكون هناك لغة واحدة للتعليم ، فكانت الانجليزية لغة للتخاطب والكتابة معا وشملت هذه اللغة العامة عناصر مختلفة فى الجنس واللغة والدين ، ومع هذا فقد أمكن التفاهم بسهولة بين هذه العناصر لان اللغة العامة كانت واحدة فى التخاطب الدارج وفى الكتابة والتأليف . وجدير بالذكر هنا أن أقول ان اللغة فى أمريكا تعتبر اداة اجتماعية سهلة الاستعمال وقابلة للتطور ، ولا ينظر اليهـا بعين التقديس ولا يعتريها التغيير أو التبديل . بل غرضها الاول والاساسى أن تكون لمصلحة الرجل العامى

٣ ـ الثقافة والاقتصاد

وبجوار هذه الدوافع الدينية والسياسية وجد انه من مصلحة الحياة الاقتصادية بل من مصلحة الهيئة الاجتماعية نفسها العمل على اثارة الرغبة فى نفس الجمهور ، الى القراءة والاطلاع . فتضاعف انتشار المكتبات العامة ، ورتبت على نسق صالح لاثارة الرغبة فى الاطلاع ، وكثرت الصحف والمجلات لمختلف الطبقات والمناسبة لكل سن . ولوحظ فى وضع الكتب والمجلات أن تكون ذات أهمية خاصة للاطفال بحيث تحببهم دائما فى القراءة داخل المدرسة وخارجها

وقد ثارت دهشة الامريكيين عند ما وجدوا أن الجيوش الامريكية التى اشتركت فى حرب سنة ١٩١٧ كانت نسبة الامية بين جنودها ٢٥ ٪ . ولهذا بذلت المساعى الكثيرة لملافاة هذه الحالة

وكان من مصلحة الحياة الاقتصادية أن يكون هناك رأى عام يعرف القراءة . فأصبحت صناعة الكتب والجرائد ونشرها واصدارها من أهم الصناعات فى امريكا . واعتمد كثير من أرباب الصناعات فى ترويج منتجاتهم على طبع الملايين من النشرات والكتب لتوزع على المستهلكين ، توخيا للرقى بالصناعة وزيادة الانتاج وتسهيل التوزيع

وفى الولايات المتحدة ـ كما فى غيرها من الدول ـ تدور رحى معركة هائلة للقضاء على الامية ، ويجب أن تظل هذه المعركة دائرة لا تقف رحاها ، لانه منذ قرن والولايات

[البقية على صفحة ٦٦٠]

التنجيم

ينفق آلاف الآلاف من سذج الرجال والنساء جزءا كبيرا من أموالهم فى أضحوكة بلهاء : تلك هى أضحوكة التنجيم

ولا يكاد يصدق المرء ان هذه الخرافة التى انحدرت الينا من أيام الظلام حين كان العقل الانسانى طفلا غريرا ما تزال الى عصرنا هذا ، عصر العلم ، تلقى آلافا مؤلفة من البسطاء تخدعهم فيؤمنون بها أصدق الايمان . ففى كل مدينة مهما كان حظ أهلها من العلم والرقى ، جمع من المنجمين يدعون أن فى وسعهم أن ينبئوا عن المستقبل ، وأن يقرأوا ذات الصدور، وأن يفسروا أخلاق الناس ويستطلعوا سرائرهم، بمجرد دراستهم مواقع الكواكب والنجوم فى أبراجها وأفلاكها .. وفى كل مدينة ، ولكن مدينة نيويورك ذاتها حيث ينبغى أن يكون مستوى التفكير أرفع منه فى سواها،آلاف من الناس يستشيرون هؤلاء المنجمين ويستنصحونهم فى كل ما يقومون به من أعمال وفى كل ما يعرض لهم من مشاكل وأزمات ..

ولكن ما هو أغرب من هذا وأدهى أن كثيرا من هؤلاء المنجمين يزاولون هذه الخرافة وهذا الاحتيال داخل نطاق القانون ، الذى يرخص لهم أن يغرروا بالناس ، ويبيح لهم أن يرتزقوا أو أن يثروا عن طريق النصب والاحتيال . بل ان الامر لا يقتصر على هذا ، فثمة مؤسسات لها مكانتها وسمعتها تيسر لهؤلاء المنجمين وسائل الشهرة وسبل الدعاية ، فتشاطرهم وزر ما يقارفون من الخداع والابتزاز . ففى الولايات المتحدة الامريكية ما لا يقل عن مائتين وخمسين جريدة ، منها ثلاث تصدر فى نيويورك نفسها ، تنشر فى كل يوم بعض نبوءات هؤلاء المنجمين . وفيها بضع عشرة مجلة مخصصة لاذاعة هذه الخرافات وترويجها ، ويبلغ مجموع ما توزعه أكثر من خمسمائة ألف نسخة ، يقرؤها أكثر من مليون نسمة من الرجال والنساء . وساهمت محطات الاذاعة اللاسلكية فى ترويج هذه الخرافة ، فدعت المنجمين الى التحدث الى مستمعيها . وتصدر فى أمريكا نشرات عن التنجيم تباع بأثمان زهيدة ، فتقبل عليها الجماهير أيما اقبال ، حتى أن مؤلفا لاحد مشاهير المنجمين تولت طبعه احدى دور النشر الكبرى ، وكان من أروج ما ظهر فى السوق الامريكية من المؤلفات !

يحدث هذا كله بينما لم يظهر فى خلال العصر الحديث عالم واحد ، فى أية بقعة من

الارض ، يعترف بأن ثمة أية صلة بين مواقع النجوم وحياة الانسان . وفى حين ظهر علماء يعترفون بالقوى الروحية وعلماء آخرون لا يجزمون بأنكارها ، لم يظهر منهم من يتحدث عن التنجيم الا بحديث واحد : هو حديث التعجب من أن يظل الى اليوم أناس يؤمنون بهذه الخرافة السخيفة

بدأت هذه الخرافة فى أقدم العصور : بدأها منجمو بابل وآشور،ثم انتقلت الى خلفائهم فى بلاد العرب وفى مصر وفى بلاد اليونان والرومان . وكانوا يطلقون على النجوم أسماء أوثانهم التى يعبدونها ، فآمن الناس شيئا فشيئا بأن لهذه النجوم من الصفات والقوى مثل ما للآلهة التى تشاركها فى الاسم . فآمنوا بأن للكوكب الذى يحمل اسم عطارد ما لسميه من القوة والبأس ، ولذلك الذى يحمل اسم ڤينوس ما لها من صفات الجمال والحب . أما اليوم فان أكثر هؤلاء المتجمين جهلا يعلم أنه لم تكن ثمة آلهة تسمى عطارد وڤينوس والمريخ الا فى أساطير الغابرين ، ومع ذلك فما زالوا يريدوننا على أن نؤمن بأن تلك الكتل الضخمة من المواد الصخرية أو من المواد الغازية ، التى تسبح فى أفلاك تبعد عنا ملايين الاميال ، تؤثر فى حياتنا وتوجه خطانا وتكيف أخلاقنا ، لا لشىء الا لانها تحمل أسماء لم ترد الا فى تلك القصص الخرافية التى نقرؤها — أكثر ما نقرؤها — للترويح عن النفس وقطع وقت الفراغ ! ولو صح هذا لكان أصح منه أن تسمية سيارتك باسم « سيارة الحب » كفيل بتوفيقك فى الحب،وتسمية الكتلة التى يسكنها الجند « بكتلة عطارد » ضمان لها بالانتصار فى الحرب !

يقول الاستاذ « بارت بوك » عالم الفلك فى مرصد هارفارد : « لو أن لنا ان نؤمن بأن الكتل الضخمة من الصخور تؤثر فى حياتنا وأخلاقنا ومصائرنا ، لكان من المؤكد أن تأثير مبنى « الامبير » على سكان نيويورك ، وتأثير الاهرام على سكان القاهرة « أعظم من تأثير كوكب يبعد عن هاتين المدينتين ملايين الاميال »

وناقش الاستاذ « جون ستيوارت » ، من علماء قسم الفلك بجامعة برنستون الامريكية، خرافة التنجيم فقال : « من العسير أن تناقش المنجمين علميا ، فليس لهؤلاء القوم صلة بالعلم ، ولا هم يستندون الى رأى علمى يفحص ويناقش . فحسبنا ان تناقشهم من الوجهة النظرية . انهم يقولون ان أخلاق كل فرد وحظوظه متأثرة بكوكب من الكواكب،يعينونه حسب الساعة التى ولد فيها هذا الفرد . فكيف يكون هذا وآلاف من الناس يولدون فى كل يوم وفى ساعة واحدة ، ومع ذلك فليس فيهم اثنان متشابهان كل التشابه فى أخلاقهم ومقدراتهم ، ولا متساويان فيما يصيبان فى الحياة من نجاح واخفاق . بل ان التوأمين : وقد ولدا فى حجر واحد فى لحظة واحدة،ليختلفان غالبا فى كثير من أمورهما:فى مقدرتهما العقلية واتجاههما الخلقى وفى نصيبهما من الحياة . فأين الكوكب الذى كان متألقا ساعة ولادتهما؟ ولو كان الامر كذلك لكان فى وسع الطبيب أن يبدل الانسان انسانا آخر ، فى خلقه وعقله

وحظه ، اذ هو عجل بتوليد الام بضع ساعات أو بضعة أيام ، كما يحدث فى كثير من حالات الولادة اراحة للام مما تعانيه من آلام .. ! »

وأكثر الناس لا يعلم الساعة التى ولد فيها على وجه الدقة ، فيستغل المنجمون هذا النقص فيما يقدم اليهم من معلومات حين يثبت عليهم ان نبوءاتهم كانت باطلا وهراء .

ولكن حدث ذات مرة ان أرسل أحد المنجمين الى الاستاذ فرانك شليسنجر، مدير مرصد جامعة يل ، وكان قد أعلن حربا على التنجيم والمنجمين ، يطلب اليه ان يختبر مقدرته وكفاءته بأن يعين له اليوم والساعة والدقيقة التى ولد فيها أى شخص ، فيبين له بالتفصيل تاريخ حياته وما جرى فيها ، وكان الاستاذ يعلم الثانية ، لا الدقيقة فحسب ، التى صاح فيها ابنه صيحته الاولى عند ولادته ، فأرسل ذلك المنجم ما أراد من معلومات . . بل أرسل اليه فضلا عن ذلك بيانا بمواقع النجوم والكواكب فى تلك اللحظة فى نيويورك وغيرها من مدن العالم، فماذا كانت النتيجة ؟ يقول الأستاذ : « ما من كلمة واحدة من الاقوال الطويلة التى ذكرها ذلك المنجم عن ابنى كانت صحيحة » !

وفى تاريخ الفلك حادثان يثبتان لاكثر العقول بساطة وسذاجة خرافة التنجيم ودجل المنجمين . فبينما كان علماء الفلك يظنون أنهم عرفوا جميع الكواكب والافلاك، والابراج ، وأن المجموعة الشمسية التى كشفوها كاملة الاجزاء متسقة الاوضاع ، اذ بالفلكى الكبير « هيرشل » يكتشف عن « أورانوس » . وتلا ذلك الكشف عن « بنتون » فى سنة ١٨٤٦ وكان هذان الكوكبان يطوفان فى الفضاء منذ آلاف السنين دون أن يكون لاحد منهما أى تأثير فى شؤون الناس ، مع أن الواحد منهما أكبر حجما من المريخ وعطارد وفينوس مجتمعة معا ! ولكن ما كاد يكتشف الفلكيون عنهما ، حتى أسرع المنجمون يبحثون عن أعمال ووظائف لهما ، وكان من الطبيعى ان تكون هذه الوظائف مناسبة لهما ملتئمة مع العصر الذى كشفا فيه ! فقالت مسز « ايفنجلين آدمز » تلك السيدة التى أثرت من حرفة التنجيم ، فى كتاب لها أن أورانوس يؤثر فى السكك الحديدية، ونبتون يؤثر فى الطائرات . فالانتقال بهذه الوسائل يكون مجدودا أو منحوسا حسب الاوضاع التى يكون فيها هذان الكوكبان .. !

أرأيت الى المهارة فى التدجيل كيف تكون ؟

ثم انظر الى ذلك السخف الذى تنشره بعض الصحف فى أعمدتها اليومية المخصصة للتنجيم ، تجد فيها ما يدعو المرء الى العجب والدهشة من عقول أولئك الناس الذى يحملون الامر على محمل الجد والاهتمام .. فهذا منجم يقول : « ان يومنا هذا يوم ملائم لانشاء علاقات وثيقة مع أقاربك وأصحابك » . وذلك منجم آخر يقول : « فى هذا اليوم يجب أن يستفيد الانسان من تجاربه الماضية فيما يزمع القيام به من أعمال مستقبلة » . وهل فى ذلك شك ؟ ولكن لماذا يحض على توثيق العلاقات مع الاهل والاصحاب ، ولماذا يحض على الافادة والاتعاظ بالتجارب الماضية، فى هذا اليوم دون سواه من الايام ؟ أتصبح

العلاقة بالاقارب والاصدقاء وبالا ، أتصبح الافادة بتجارب الماضى خطأ ، ان كانت فى يوم الاثنين بدلا من يوم الاربعاء ؟

وهكذا الشأن فى كل ما يذيعه المتنجمون من باطل وخداع ، لا يملون اعادته وتكراره ، حتى يقع السذج فى شباكهم ، وحتى تقع أموالهم فى أيديهم

وقد قام الاستاذ «شليسنجر» منذ سنوات بحملة قوية على الصحف التى تفتح صفحاتها للمنجمين . فكان يكتب اليها متسائلا : كيف تقول هذه الصحف انها تقوم بأداء رسالة الحقيقة واداء مهمة التثقيف ، فى حين أنها تعاون على نشر الدجل والخرافة . فكانت أكثر هذه الصحف ترد عليه قائلة ان ما تنشره يعجب الجهلة والعامة ، ويغريهم بشراء الجريدة وقراءتها ، وفى الوقت ذاته لا يؤدى الى ضرر ما ... ولكن الواقع ان هذا يؤدى الى اضرار خلقية وعقلية فادحة : انها تعمل للابقاء على خرافة يجمع منها الدجالون ثروات ضخمة ، ثم انها تحجب وجه الحقيقة عن عامة الناس وأوساطهم ، وتحول بين عقولهم وبين التفكير الرشيد الذى يهديهم سواء السبيل

وقد زادت محطات الاذاعة اللاسلكية الامر ضغثا على ابالة ، وفاقت الجرائد والمجلات فى ترويج هذه الخرافة واذاعة حديث أولئك المنجمين. فعند ما بدأت مسز ايفنجلين آدمز اذاعاتها فى التنجيم فى سنة ١٩٣٠ ورد اليها فى الشهور الثلاثة الاولى مائة وخمسون ألف رسالة يطلب فيها كاتبوها معرفة « طوالعهم » وبعد سنة من ذلك كان متوسط ما يرد اليها من الرسائل فى كل يوم أربعة آلاف رسالة ! ولم تقف اذاعات هذه المنجمة الا بعد احتجاجات شديدة قدمتها « الجمعية الفلكية الامريكية » ، وكذلك « الجمعية الامريكية للسحرة » ! .. أما الاولى فاحتجت باسم العلم ، وأما الثانية فقالت فى احتجاجها : انه عند ما يراد خداع الناس يجب أن يقال لهم ذلك ، كما يفعل السحرة الشرفاء !

وفى أمريكا الآن ما لا يقل عن خمسين محطة من محطات الأذاعة اللاسلكية تلقى فى آذان مستمعيها أقاويل المتنجمين وترهات المنجمات . وقد استغل بعض المنشآت التجارية والصناعية سذاجة الجماهير واقبالها على استماع محاضرات المنجمين فاستأجرت بعضا منهم ليذيعوا فيما يذيعونه اعلانات عنها. ومنذ عهد حديث كانت امرأة امريكية تعلن عن نفسها بأنها « أعظم منجمة فى العصر الحديث » تذيع لحساب احدى المؤسسات التجارية الكبرى خمس مرات فى الاسبوع ، وكانت ترسل اذاعاتها على الموجة القصيرة ليسمعها الناس فى شتى أرجاء العالم . ولم تقف هذه الاذاعات الا بعد احتجاجات قوية وجهها الى المحطة نفر كبير من المستمعين. والواقع أن لاسبيل الى مقاومة هذا التيار ـ تيار مساهمة الصحافة والاذاعة فى ترويج خرافة التنجيم ـ الا بقيام عقلاء الناس فى كل بلد باستنكار هذا المورد الذى تلجأ اليه بعض الصحف وبعض محطات الاذاعة فى كسب المال

ولكن يجب أن نذكر أنه مهما يكن من موقف العلم والعلماء تجاه التنجيم والمتنجمين ، ومهما يكن من رأى العقل المتزن فى هذه الخرافة السخيفة ، فسيظل فى الناس من يصدق

ويؤمن بأن ثمة صلة بين حياته وبين ما في الكون من نجوم .. فقد أثبت أطباء الامراض العصبية ان تصديق الخرافات لا يرجع الى الجهل قدر ما يرجع الى ضعف الاعصاب ، ولهذا وجدوا بعضا من الناس الذين أصابوا من العلم والثقافة حظا عظيما يؤمن بهذا النوع أو ذاك من الخرافات ، بينما من هم دونهم علما وثقافة ينكرونها ويزدرونها ، ذلك ان لهؤلاء من قوة الاعصاب ما حرم منه أولئك ، فلم تنتهم رؤوسهم وما حفلت به عما فقدوه حين وهنت أعصابهم

وثمة نفر آخر يؤمن بخرافة التنجيم : أولئك هم المصابون بمرض « خداع الكبرياء » ، فان غرورهم بأنفسهم يخيل اليهم ان كواكب الكون وأفلاكه لا بد معنية بأمره ، لا بد متدخلة في شأنه ، لا بد مهتمة بتقرير مصيره! والفكرة السطحية في أمر هؤلاء المتكبرين المغرورين تحملنا على أن نظن أنهم أرفع شأنا من أن يهتموا بهذه الخرافات التي لا تؤثر الا في عقول البسطاء والدهماء . ولكن الواقع أنهم أكثر الناس ايمانا وانخداعا بها ، لان كبرياءهم وغرورهم يدفعانهم الى الظن بأنهم وان كانوا يمشون على سطح الارض بين ملايين الخلائق ، الا ان الافلاك والابراج توليهم من العناية والاهتمام ما يحسبون أنهم جديرون به !

والكسل مدعاة الى الايمان بخرافة التنجيم .. فالرجل الخامل الكسول يريد أن يوفر على نفسه ما تقتضيه الحياة من جهاد وكفاح ، وما يقتضيه بناء المستقبل من مشقة وعناء ، فيذهب الى المنجم ليرسم له طريق المستقبل ، ويبين له ما استكن في خفاياه ، وعندئذ يوفر على نفسه ما كان مفروضا عليه أداؤه ، وعندئذ يتنكب طريق السعي التي كان عليه ان يشقها ويجتازها

(خلاصة مقال في صحيفة ذي كونتيتر بقلم فريد كيل)

---

٣ عوامل

[بقية المنشور على صفحة ٦٥٥]

المتحدة تسمح بالهجرة لملايين من المهاجرين من آسيا وأوربا وأكثرهم من طبقة المزارعين تغلب عليهم الامية . وبالرغم من هذا فقد بلغت نسبة الامية في سنة ١٩٣٠ بين من يزيد عمرهم عن عشر سنوات ٤٫٥ ٪ ، ولا يخفى أن المخترعات الحديثة ليست كلها دائما تعمل لمصلحة هذه الحركة . فالراديو مثلا مكن الناس من الحصول على ما يحتاجون اليه من المعلومات عن طريق الاستماع لا عن طريق القراءة ، وعليه يقع اعتماد فريق كبير من الناس . وكذلك السينما الناطقة أغنت الناس عن قراءة الشروح التي تظهر على الافلام . وأصبح الناس رجالا ونساء واطفالا يشدون لذتهم في الاطلاع عن طريق الاستماع لا عن طريق القراءة ، ومع كل هذا فما زالت القراءة من أهم عوامل التربية التي بدونها لا تستطيع أمة أن تعيش

مصر ملتقى الشرق والغرب

بقلم الأستاذ محمد رشدى بك
المدير العام لمصلحة الطيران المدنى

تتمتع بلادنا بمركز جغرافى ممتاز ، لموقعها المتوسط بين الشرق والغرب . وإذا كانت بلاد الشرق الأوسط الأخرى التى تحيط بنا ، تتمتع بنفس المركز تقريباً ، إلا أن مصر تمتاز عنها جميعاً بما ضربته من سهم وافر فى الحضارة والعمران . وقد تنبهت جاراتنا الى أهمية مركزها الجغرافى فتسابقت فى انشاء المطارات الكبيرة وتزويدها بكافة المعدات الحديثة التى تيسر هبوط الطائرات فيها أو صعودها منها ، كما توفر وسائل الراحة للقادمين والسافرين من ركاب الطائرات

ففى فلسطين ، أنشأوا مطار اللد الذى تكلف انشاؤه أكثر من مليون جنيه ، والذى يعتبر الآن أكبر مطارات الشرق الأوسط . والعراق أنشأت مطاراً عظيما فى البصرة ، كما أنشىء فى لبنان وسوريا مطار الرياق وغيره من مهابط الطائرات الحديثة العظيمة ، التى ينافس كل منها الآخر

وقد تنبهنا أخيراً الى الوضع الجديد الذى غدونا فيه ، والى ما سيعقب هذه الحرب من انتشار الخطوط الجوية ومرورها بالشرق عامة وبمصر خاصة ، فبدأنا نوسع مطاراتنا ونهتم بأمرها ، فعملنا على انشاء مطار الاسكندرية العظيم للطائرات البرية والبحرية ، كما بدأنا نوسع مطار ألماظة باضافة مساحة كبيرة من الأرض اليه ، ستجعله بعد اتمام تمهيدها ، أكبر مطارات الشرق مساحة

وما زالت تنقصنا فى مصر أشياء كثيرة يجب أن نهتم بها لتيسير الطيران عندنا . فنحن فى حاجة الى زيادة محطات الارصاد الجوية الحالية وتوسيعها ونشرها فى كل مكان من البلاد . واذاعة أنبائها فى فترات متقاربة جداً حتى يسهل على الطيارين معرفة تقلبات الجو ومتابعتها باستمرار . كما تزداد حاجتنا الى التوسع فى الاتصال اللاسلكى بالطائرات وهى فى الجو ، لمساعدتها على الهبوط وتحديد موقعها بالضبط اذا ما ضلت طريقها أو حادث عنه

وهناك أمور أخرى لها قيمتها فى هذا السبيل ، كتسهيل الاجراءات الجركية فى المطارات وغيرها من الاجراءات الخاصة بجوازات السفر والكورنتينا واستبدال النقود والبريد والتليفون

ويجب علينا أيضاً أن نعمل على رفع جميع القيود الخاصة بالطيران فى جو بلادنا ، أو على الأقل التخفيف من هذه القيود قدر المستطاع ترغيباً للطيارين ولشركات الطيران فى المرور بمصر ،

وحتى لا تعطل حركة الملاحة الجوية بسبب كثرة القيود كما كان الحال فى تركيا مما أثر تأثيراً كبيراً عليها كمركز من مراكز الملاحة الجوية العالمية

كل هـذه أمور يجب أن نتنبه لها منذ الآن ، وأن نعمل جادين لكى تحتفظ لمصر بمكانتها السامية التى كانت لها منذ القدم ، كمركز رئيسى لخطوط المواصلات والتجارة فى العالم

ويجب أن نعمل بأقصى ما نستطيع من سرعة لنواجه التطور العاجل العظيم فى دنيا الطيران ، وسنفاجأ به بعد الحرب مباشرة . وينحصر هذا التطور والتحسين المستمر فى النقط التالية :

أولا : زيادة سرعة الطائرات ، فعلماء الطيران ومهندسوه يبذلون عصارة أفكارهم فى سبيل مضاعفة سرعة الطائرات . وقد قطعوا فى ذلك شوطاً بعيداً حتى الآن

ثانياً : زيادة حمولة الطائرات ، فبعد أن كانت الطائرات الاولى لا تستطيع أن تنقل غير قائدها ، أصبحت هناك الآن طائرات تنقل ١٥٠ شخصاً لكل منهم مكانه الخاص الذى يرتاح فيه ، عدا ما يحمله من متاع ! كما أن هناك طائرات خاصة بنقل البضائع

ثالثاً : رخص الأسعار . وقد أصبح سعر الطائرات الصغيرة الآن لا يزيد على سعر السيارات ، كما أصبح ثمن تذكرة السفر بالطائرة معادلا لثمن تذكرة السفر بالدرجة الاولى بالقطار . وكلما تقدم الطيران ، انخفضت أسعاره ، لأن سرعة الطائرة فى الانتقال من مكان لآخر ، توفر على المسافر ما يدفعه لشركة النقل مقابل طعامه ونومه عدة أيام

رابعاً : الارتفاع الرأسى للطائرات ، وهو من أهم التطورات الحديثة فى الطيران . وتطرد التحسينات فى هذا السبيل ، حتى أن « الهليكوبتر » أدخل عليه من التحسينات أخيراً ما جعله يصعد ويهبط عمودياً بل يستطيع أن يقف ثابتاً فى الهواء ! وسيوفر هذا النوع من الطائرات ، مشقة انشاء المطارات خصوصاً فى الجهات المزدحمة بالعمران ، أو المناطق الجبلية أو غيرها . ولن يحتاج الامر فى المستقبل الى مئات الافدنة لانشاء المطارات بعيداً عن المدن ، بل ستكفى لذلك مساحات صغيرة جداً فى قلب هذه المدن

خامساً : بعد مدى الطيران ، وهذه مسألة أخرى من المسائل الجوهرية فى تطور الطيران ، وقد أصبحت هناك فى الوقت الحالى طائرات ضخمة تستطيع أن تقطع ٧٠٠٠ ميل بلا توقف . وهى مزودة بما يكفيها من الوقود لقطع هذه المسافة الشاسعة ، وكل ما قد يحتاج اليه الركاب أثناء الرحلة الكبيرة . ولا أشك فى أن الشخص الذى يرغب فى الانتقال بين أبعد نقطتين فى العالم ، سيتمكن من ذلك طائراً دون أن يضطر الى الهبوط الى الارض أثناء الرحلة

كل هذه وغيرها ، تطورات منتظرة فى عالم الطيران ، بل إن بعضها أصبح الآن حقيقة واقعة فعلا . ويقينى أن مصر ستنال نصيباً عظيماً فى عالم الطيران ، لموقعها الجغرافى العظيم

محمد رشدى

على هامش التاريخ العسكرى

أسلحة وخطط غيرت مجرى التاريخ

بقلم الأستاذ

محمد محمد توفيق

فى تاريخ معارك الشعوب معارك حاسمة كان النصر فيها للفريق المبتكر فى الأسلحة والخطط الحربية . وبعض هذه المبتكرات من البساطة بمكان . ولكن عنصر المفاجأة بالشيء الجديد عند اشتداد المعركة هو الذى أفضى غالباً الى النصر . وفى المقال التالى عرض لبعض هذه المبتكرات

لفت نظرى فى مجلة « الهلال » منذ بضعة أعداد مقال ممتع مترجم عن الانجليزية عن جنكيز خان وأساليبه المبتكرة وخططه الطريفة فى الحرب ، وكيف أنه كان الى حد كبير مبتكراً للاساليب الحربية الحديثة ، كفكرة الحرب الشاملة والحرب الخاطفة وحرب الدعاية والطابور الخامس وما اليه مما جال بالاذهان أنه محدث ومستولد من الحرب العالمية الثانية

وهذا المقال المدروس علمياً وتاريخياً ذكرنى ببعض الدراسات التى قمت بها منذ حين على أساس محاولة استنباط أسباب الانتصارات والانكسارات البارزة فى التاريخ . وهى دراسات حرصت على أن أفرد لها بطاقات خاصة فهى من المسائل التفصيلية التى اذا لم يبادر المرء الى تدوينها تعذر عليه الوصول اليها عند الحاجة فى صفحات متباعدة من كتب متعددة فى نواح مختلفة من التاريخ

أسباب الانتصارات بصفة عامة

المعروف عن الحروب أنها بصفة عامة تنسبب عن مشاحنات أو مطامع دولية يكون للموقع الجغرافى وطبيعة الارض ونظم الحكم السائدة والاديان والمعتقدات والظروف السياسية والاقتصادية دخل معين فيها . وقد اصطلح المؤرخون الى أوائل هذا القرن على أن يجعلوا للكثرة أو لوفرة التسلح المقام الاول فى أسباب الانتصارات . مع أن الاغريق – أو أهل اسبرطة على وجه التدقيق – هزموا الفرس على كثرة عددهم . والعرب دحروا الفرس والرومان برغم وفرة أسلحتهم ، فالعبرة إذن ليست دائماً بالقوة العددية ولا بوفرة العتاد . وإلا فكيف تعلل زوال أمبراطوريات كبيرة لم تكن قط مفتقرة الى هذين العنصرين اللذين ذكرناهما ، وكيف يعلل ظهور دول لم يكن حظها منهما كبيراً فى أول أمرها ومستهل نشاطها الحربى ؟

أبرز أسباب الانتصارات الكبرى فى العصر القديم

والعصور القديمة ـ على بعدها وندرة المعلومات الدقيقة عنها ـ تظهرنا على ابتكارات فذة فى الفن العسكرى . وسنحاول جعل هذا المقال منصباً على الابتكارات التى أحدثت انقلابات مفاجئة فى التاريخ وفى معترك الشعوب . أما المخترعات والتنظيمات الهادئة التى استغرق إعدادها ووضعها موضع التنفيذ أزماناً طويلة ، فلا شأن لنا بها بل إن للمؤرخين كثيراً ما يعجزون عن التفطن اليها لعدم تواترها فى النصوص التاريخية المختلفة . فالمعروف أن الشىء البارز هو الذى تورده النصوص أما الشىء المألوف فلا تكترث به إلا نادراً

ولكى نضرب المثل على ذلك ، نذكر أن النظام الحربى لمصر الفرعونية قبل الغزو الهكسوسى لم يكن فيه شىء بارز بالمعنى الذى نقصده . وإنما هى أمبراطورية قوية ، غنية ، فتية ، لعلها استخدمت الأسلحة المعدنية أو صنعتها صناعة ممتازة أفضت بها إلى النصر فى معظم المعارك التى دخلتها فى منطقة الشرق الأوسط . إنما الشىء البارز ، والسلاح الجديد الذى يفاجىء هذه الامبراطورية فيقضى عليها ، هو استخدام الهكسوس للخيل والعربات الحربية فى ميدان القتال

وبديهى أن هجوم الخيل خاطف وصاعق . وهجوم العربات الحربية كان كهجوم الدبابات فى الحرب الحديثة لا يكاد يقف أمامه شىء مما اصطلح الفن العسكرى على وضعه على هيئة خطوط الدفاع . ولا شك أن مشاة الجيش المصرى القديم الذى فوجىء وهو فى ميدان القتال بهجوم خاطف من العربات الحربية والفرسان لم يطق الوقوف أمام العدو إلاريثما يبادر الى التقهقر والفرار ومن ثم غزيت مصر وخضعت للهكسوس زمناً طويلا . ولم تقدر على طردهم الا بعد استخدام الخيل والعربات الحربية على ما تحدثنا بعض كتب التاريخ المصري القديم

ومنذ ظهور الاسكندر المقدونى كانت الامبراطورية الفارسية قوية ومتسلطة على الشرق الاوسط وقسم من الشرق الاقصى ، ولا شك فى أن قوتها الحربية كانت كبيرة جداً ، وأسلحتها كانت وفيرة . فكيف تأتى للاسكندر وهو على رأس جيش مقدونى اغريقى لا يزيد كثيراً على الثلاثين ألف مقاتل أن يقهر جحافل ملك الفرس التى كانت تعد بمئات الألوف !

ان الامر لم يكن مجرد خطط حربية محكمة . فتنظيم الجيوش على هيئة القلب والجناحين ، وتركيز الخيالة فى الطليعة، ووضع الرماة بالسهام وراء الجيش ، وما أشبه ذلك من أوجه التنظيم . ثم البدء بالهجوم على هيئة خاصة أو بقسم معين من الجيش وتعقيبه بأقسام أخرى . . كل هذا مما يعرفه القواد ويتقنونه . فماذا صنع الاسكندر غير ذلك ليقضى على قوة خصمه العسكرية ؟

إنه لم يصنع شيئاً أكثر مما توحى به البيئة الاغريقية والرياضة اليونانية . فالاسكندر وجيشه كانوا قوماً رياضيين خفاف الاجساد فى مرونة ورشاقة وخفة ، ضمراً على متون الخيل ، يعالجون

الطعن بالرماح كما علمتهم رياضة قذف الحراب في الالعاب الاولمبية ، ومثل هذا الجيش الرياضي يعول على رشاقة الرياضة وخفتها في الحركات أكثر مما يعول على تركيز القوات وحشد الصفوف وتكثير الآلات الحربية . مثله كمثل الرجل الضامر الفتى اللولبي الحركة اذ تعارك مع رجل بدين أشحم ثقيل في حركاته . فهذه « الخطة الرياضية » ان صح هذا التعبير ، هي التي أدت الى انتصار الاسكندر المقدوني وانهزام ملك الفرس برغم حشوده وعتاده الكثير . وهي خطة ما تزال صالحة في بعض المعارك الى الآن . وقد استخدمها الالمان والبريطانيون في بعض الجهات معولين على طائفة من ذوي الاجسام الرشيقة كجنود الباراشوت والكوماندو وغيرهم . ونجاح هذه الخطة يقوم على المرونة المتناهية التي لا تحطم الجيش الذي أمامها ، وانما تراوغه وتنفذ من خلاله أو تلتف حوله ، والعبرة فيها دائماً بالخفة والرشاقة المتناهيتين

فلما ظهر الرومان على مسرح الحرب في العالم القديم، كانت طريقتهم المبتكرة الفذة تركيز القوة المعدنية كالسيوف والرماح والتروس والدروع الجند والخيل تركيزاً مبالغاً فيه ، لدرجة تشعر العدو أنه أمام قوة معدنية مصفحة خارقة للعادة . وقد اشتهروا بأن جحافلهم كانت تلتمع أسلحتها المعدنية من بعيد فتلقي الرعب في القلوب . واستعمال الاسلحة المعدنية في حد ذاته أمر مألوف . انما الشيء الفريد هو المبالغة المتناهية في استخدامها بحيث تلفت الانظار وتخيف الاعداء . كما صنع الالمان في مستهل هذه الحرب . فالدبابة أمرها معروف . والحلفاء كان لديهم الكثير منها . انما مبالغة الالمان في أحجام الدبابات ، ثم حشدها في المعارك بالمئات والآلاف بشكل مفاجيء سريع حاسم ، هو الذي أذهل البولنديين والفرنسيين ، وهو الذي حطم خط ماجينو والخطوط الروسية في أوائل الحملة الروسية . وهذا ما صنعه الرومان في العصر القديم . وبه سادوا حوض البحر الأبيض وعصفوا قرطاجنة وظفروا بالشرق الاوسط بعد ذلك

في القرون الوسطى

فلما آذنت شمس الرومان بالزوال وتسلط عليهم البرابرة الذين نزحوا من أواسط آسيا وشرق أوربا كالهون والوندال ومن اليهم، كان الرومان ما يزالون محتفظين بالكثير من قوتهم العسكرية . ولو أن البرابرة قاتلوهم بنفس أساليبهم الحربية لما ظفروا بهم اذ ذاك على ما نعتقد . وأذكر أن أحد أساتذتي في تاريخ القرون الوسطى ــ وهو الاستاذ كوبلاند الذي كان يدرس هذه المادة في جامعة ليفربول ــ كان مهتماً بهذه الناحية من التاريخ الروماني اهتماما خاصاً . وقد أدلى الينا معاشر تلاميذه برأي له طريف . فقال انه قرأ فقرة في بعض النصوص اللاتينية القديمة جعلته يوجه دراساته في أسباب انهيار الامبراطورية الرومانية وجهة خاصة . وهذه الفقرة تنص على أن البرابرة الذين غزوا روما أتوا معهم بطريقة استعمال الركاب وهم على متون الخيل . وصحيح أن بعض الصور

المنقوشة على الآثار والتي تسجل بعض المشاهد الحربية القديمة ، تجد فيها الفارس ممتطياً جواده وليس في قدمه ركاب . فكأن فرسان الجيش الرومانى كانوا يركبون الخيل على السروج فقط . وأرجلهم في هذه الحالة كانت مدلاة على جنبي الفرس دون أن تتكىء على شيء ثابت . والذين يتقنون فنون الفروسية يقولون ان ركوب الفرس بدون ركاب يجعل الجالس على ظهره غير مستقر في موضعه تماما . ثم انه يجعله حال القتال عرضة للجذب والسقوط اذا ضربه خصمه بهراوة أو مال عليه أو وجه الى درعه ضربة قوية برمحه . أما الفارس الذى يتكىء بقدميه على الركاب فانه يكون ثابتاً على السرج لا يتقلقل ، ولا يميل ولا يسقط الا نادراً . ثم انه اذا هم بالضرب بسيفه أو الطعن برمحه يستطيع أن يميل الى الامام ضاغطاً على الركاب بقدميه ، كما أنه يستطيع الوقوف على الركاب عند اشتداد القتال ، وتكون قوة ضربته أو طعنته ضعف قوة غريمه على أقل تقدير

فهذه الآلة البسيطة التى لا تكاد تكلف شيئاً — الركاب — كانت من أبرز أسلحة البرابرة الذين قضوا على الامبراطورية الرومانية على حد قول الاستاذ كوبلاند . اذ فوجىء فرسان الرومان الاقوياء بفرسان لا يتزعزعون ولا ينكفئون ولا يسقطون من ظهور أفراسهم . وفوجئوا أيضاً بضربات من السيوف وطعنات بالرماح ، فيها قوى خارقة للعادة نتيجة تركيز القوة العضلية عند الوقوف على الركاب . وهل الحرب الا طاقة جسمانية تقهر طاقة أقل منها ؟ ثم هناك عنصر المفاجأة الذى يجسم كل أمر تافه فترجحه يخيل الى الجندى معها أن عدوه جبار لا يقهر . وكل هذه عناصر انتصار أحسن البرابرة استخدامها ، فقضوا على امبراطورية كان يصح أن تظل باقية عشرات أخرى من السنين ، برغم ما كان ينتابها اذ ذاك من ضعف وانحلال تدريجى

في العصر الحديث

فاذا انتقلنا الى العصر الحديث ، وأبرز حادث في مستهله كما نعلم هو فتح القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ على يدى السلطان محمد الفاتح ، نجد في هذا الحادث بالذات استخداما معيناً لسلاح فتاك كان جديداً اذ ذاك — وهو المدفع

والغريب أن المدفع كان معروفا لدى بيزنطة ولدى بعض الشعوب المتيقظة في هذا الزمان ، انما استعماله كان مقصوراً على بعض العمليات الحربية الارهابية . وأول استخدام له في حصار المدن — على حد علمنا — كان في حصار القسطنطينية . اذ كثر السلطان محمد الفاتح من المدافع ونصبها على أبعاد قريبة من أسوار العاصمة البيزنطية العتيدة . وكان لتركيزها ودقة قنابلها الحجرية — فقد كانت القنابل من أحجار صلبة تتقذف بانفجار البارود — أثرها البالغ في دك الاسوار وتوهين القوة المعنوية لدى جيش امبراطور بيزنطة

وكأنما احتكر الترك العثمانيون كل تجديد حربى بعد ذلك لبضعة قرون . فتلا استخدام المدافع

بهذا الشكل المركز فى حصار المدن تعميم الاسلحة النارية على جميع جنود الجيش العثمانى بعد أن كان استعمالها فى أوروبا فى أواخر القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث مقصوراً على النبلاء والقواد وأمراء المائة والعشرة من الضباط . وقد أجمعت مراجع التاريخ العسكرى على أن الامبراطورية العثمانية بلغت ما بلغته من قوة وسلطان بفضل هذا التعميم للسلاح النارى ، حتى غدا جيشهم يلقى الرعب فى أقوى الجيوش الاوربية مجتمعة معاً

والى ما بعد فتح القسطنطينية بأكثر من نصف قرن من الزمان - فى سنة ١٥١٧ م - كانت الدول القوية ما تزال غافلة - أو عاجزة - عن مسايرة السلطنة العثمانية فى مبتكراتها الحربية . وأبرز مثال لهذه الغفلة أو ذاك العجز ما وقع فى مصر المملوكية على عهد آخر سلاطين المماليك الجراكسة . فقد التقى الجيش المملوكى بالجيش العثمانى فى معركة مرج دابق المعروفة . وانعقد إجماع المؤرخين على أن قوة المدفعية العثمانية كانت السبب الاكبر فى ظفر السلطان سليم العثمانى . وقد كان لى حظ الاهتمام بهذه المعركة بصفة خاصة لما لها من الاهمية التاريخية الفريدة ، ولما تلاها من ضياع السلطنة المملوكية وسيادة العثمانيين على الشرق الادنى . فلاحظت أن المصادر المعاصرة لم تكد تذكر شيئاً عن المدفعية المملوكية إلا الدفاع عن الحصون الساحلية . فكأن استخدام المدافع فى المعارك لم يكن قد فطن المماليك إلى أهميته القصوى برغم براعتهم المشهودة ويقظتهم لمستحدثات الفن العسكرى . وهذه غفلة عجيبة يصعب تعليلها إلا بما يصيب الشعوب عادة من انحلال وشيخوخة

أضف الى ذلك أن العثمانيين استخدموا فى هذه المعركة أسلحة جديدة مبتكرة كان لها تأثيرها المفاجىء فى سير القتال . فابن اياس - وهو مؤرخ معاصر - ينص على أنهم استعملوا رماحاً طويلة لها « كلاليب » فى أطرافها ، بحيث يرميها الفارس على غريمه فيطوقه بها ويجذبه جذبة تقتلعه من سرجه وتطرحه أرضاً . وفكرة « الكلاليب » فى حد ذاتها كفكرة الركاب بسيطة جداً . واتقاؤها أبسط . إنما المعول فيها على عنصر المفاجأة . اذ ينذهل الفرسان المماليك عند ما يرون فريقاً منهم يقتلعون اقتلاعاً من سروجهم برماح عادية وأساليب قتال عادية . ويظنون أن الامر أخطر مما هو فى الواقع . وليس أدعى الى الهزيمة من مفاجآت ميدان القتال

والابرز من ذلك أن الترك ابتدعوا آلة حرب لعلها كانت الى حد ما نواة استخدام الدبابات أو السيارات المصفحة فى الحروب . فابن اياس يحدثنا كذلك أن جيش السلطان سليم كان يحتوى على عربات خشبية طويلة تجرها الثيران وتحمل كل عربة منها عدداً من الجنود المسلحين بالبنادق . وإن هذه العربات كانت تهرع الى جيش المماليك حتى اذا ما توسطت برز منها الجنود وأصلوا من حولهم ناراً حامية من بنادقهم . وهذه الفكرة أيضاً بسيطة . انما الخطورة فيها أن هذه العربات استخدمت كوقاء للجنود ريثما يتوسطون ميدان القتال ، ثم يبرزون فجأة فيكون لبروزهم وطلقاتهم

أثرها البالغ فى نتيجة المعركة . وقد فوجىء جيش السلطان الغورى بهذين السلاحين الجديدين — علاوة على تركيز الدفعية فى الجناحين العثمانيين — فكانت النتيجة ما سجل التاريخ من نصر حاسم سريع جداً للجيش العثمانى . وكان تهويل الفلول المرتدة من المماليك فى أثر هذه الأسلحة الفتاكة ، مما خذل مماليك طومانباى فى معركة الريدانية وجعلهم يدخلون المعركة وهم شبه مؤمنين بانهزامهم . ولولا هذه المبتكرات لما انتصر سليم الاول ، أو لكان نصره عزيزاً شاقاً لقوة المماليك وبراعتهم فى المألوف إذ ذاك من أساليب القتال والكر والفر وإجادة استعمال السيوف والرماح

فلما تراخى الزمن بالسلطنة العثمانية ودب فيها دبيب الانحلال ، فقدت ميزة الابتكار والاختراع فى الأسلحة ، فضاع ملكها ولاية ولاية . وانتقلت ملكة الابتكار الى الدول الغربية

ولا نود أن نختم هذا المقال قبل أن نشير الى الخطة المبتكرة التى هزم بها نابليون جيش المماليك . وهى خطة تنظيم المشاة فى هيئة مربعات بحيث تفتح كرات العدو ثغرة فى ضلعها الامامية ، حتى اذا ما توسطت المربع انبطح الجنود وفتكوا بها بالرصاص . ولولا هذه الخطة المبتكرة لانهزم نابليون يقيناً أمام الجيش المملوكى المصرى ، فجيشه كما تعلم كان من المشاة وكانت الفرسان فيه قلة . والجيش المملوكى كان كله تقريباً من الفرسان . والمماليك فى الهجوم الخاطف لم يكن يباريهم أحد من المعاصرين . وقد فطن نابليون الى ذلك ودبر خطته قبل سفره الى مصر . وفوجىء المماليك بهيئة المربعات فى جيشه وأثرها الفتاك فى حملاتهم المتوالية على جيشه مما كان له عميق الاثر فى تبلبل أفكارهم ووهن قواهم المعنوية . فلما فطنوا الى تدبيره كان ملكهم قد زال عملياً ، وبقيت منهم فى أطراف البلاد فلول أبدت منتهى الجدارة فى مناوشاتها وجهاً لوجه للقوات الصغيرة التى كان نابليون يوفدها الى هنا والى هناك . ودهش الفرنسيون أنفسهم من صدق حملات فرسان المماليك وحدة سيوفهم وبراعتهم فى فنون المباراة ، وأطنب أطباء الجيش الفرنسى بصفة خاصة فى تمجيد الضربات المملوكية التى تفصل العضو عن الجسد بحدة بالغة فى السيوف وخفة عجيبة فى البتر . بيد أن ذلك كله ضاع سدى أمام فكرة بسيطة استنبطها بونابرت المجدد المبتكر

***

وغير هذا الذى ذكرت من الاسلحة أو الخطط كثير . وهو كله كما رأينا يقوم على عنصر المفاجأة التي لا يتوقعها العدو . ويمكننا أن نقول ان الشعب الذى يعجز عن متابعة الابتكارات فى سلاحه وخططه لا يلبث أن ينهار عسكرياً . كما نستطيع أن نقول إن الشرق كان مصدراً لمعظم الابتكارات والخطط التى غيرت مجرى التاريخ . فالأمبراطورية المصرية القديمة ، والأمبراطورية الفارسية ، والدولة القرطاجية ، وملك البرابرة ، والأمبراطوريات التترية والمملوكية والعثمانية ،

[البقية على صفحة ٦٧٦]

مسرحية ملخصة

العارية

للكاتب المسرحي بيراندللو

الحائز جائزة نوبل فى الأدب

لويجى بيراندللو من ألمع الشخصيات فى الادب الحديث ، ومن أقدر كتاب المسرح فى هذا العصر ، ومن الادباء القلائل الذين تأثروا الى مدى بعيد بنظريات العلامة النفسانى سيجموند فرويد ، وقد استطاع ان يجسم هذه النظريات ويفسرها فى مسرحياته التى تدور حول رسم وتصوير العواطف الخفية التى تسبح فى العقل الباطن ، وتطفو الآونة بعد الاخرى فوق سطح العقل الواعى فتصطدم بالتقاليد الاجتماعية والنواميس الطبيعية

أما فنه فيدور حول الشعور بالحياة ، ويؤدى الى فكرة مبهمة عامة ، أساسها ما يتعلق بالدين والاخلاق والقوانين . وهو يقسم الشخصية فى فنه الى عشرة ومائة وأكثر ، فأنا مثلا لست سوى الشخص الذى يراه معارفى ويراه سواهم ، ويراه أقاربى ولكنهم جميعا لا يدركون حقيقة نفسى ، وقد يدعى واحد من هؤلاء أن الحق فى جانبه ، ولكن أين برهانه ؟ فأنا نفسى لا أعرف من أنا ، وكيف أكون ، ولكنى أعرف عن نفسى بعض تصورات لا أكثر ولا أقل ، ومن يدرينى أنى على حق فيما تصورته ؟

ولبيراندللو مسرحية عنوانها « ستر العرايا » وهى ليست أقوى رواياته ، وانما تعد أجمل فرائده ، وقد كتبها مدفوعا بذكريات خاصة وانفعالات وقعت فى محيط أسرته

والمسرحية فى حد ذاتها مؤلمة ومخيفة ، مؤلمة لانها تمثل لنا فاجعة فتاة متقفة ، فيها جمال وسحر يجذبان كل مخلوق اليها ، بيد أنها تسيء الظن دائما بالحياة ، فهى لا تؤمن بوجود شىء اسمه الامل أو السعادة أو الحظ ، وهى مصابة بنوع من التهافت العصبى يجعلها متشائمة كل التشاؤم ، مسرفة فى الشك الى أبعد مداه ، الى حد أنها شرعت فى الانتحار ولكنها أنقذت فى آخر لحظة بأعجوبة ، وقد تألب على هذه الفتاة العشاق والاصدقاء ، فهناك مخدومها الثرى الذى يرغمها على أن تظل عشيقته،ثم خطيبها الضابط البحرى الذى يبغى الاقتران بها ولكنه لا يهواها أو يخيل اليه أحيانا أنه يهواها ، وهناك أيضا الصحفى الذى يتخذ من حادث انتحارها مادة يسود بها صفحات جريدته، والكاتب القصصى الذى يأويها الى داره لانه وجد فى مأساة حياتها موضوع رواية طريفة يزجيها الى الجمهور ، وهى مخيفة أيضا لان الكاتب أراد ان يصور لنا ما تلقاه الفتاة العصرية من ضروب الاثم

والجور ومن شقاء دون الرجل حيث يستأثر لنفسه بكل الملذات والطيبات على حين يتخذها أداة لنفعه وسبيلا يصل به الى ارواء ظمئه الروحى والجسدى

الانسانية فى حاجة الى الكذب لتحيا ، أو لتعيش عيشا رغدا ـ هذه هى الحكمة التى يجريهـا بيراندللو على لسان بطلته ـ فالبعض منا يشعر فى بعض ظروف الحيـاة بحاجة ماسة الى الكذب ، والآخر مجرد من كل شىء كالعرايا ، فيحاول التستر بذلك الجلباب الفضفاض ـ أى الكذب ـ ليتجمل به ويظهر بمظهر يسمو به على حقيقته

وهذه البطلة، حاولت ان تقلد الآخرين،وان تستر عريها بثوب فيه شىء من الحشمة، لكنها ما ظفرت يوما بثوب أنيق ، يجلوها فى مظهر حسن ، الا وأمعنت الكلاب البشرية تمزيقا فيه ، ولم يتركوا لها رداء الا لطخوه بأقذر المعايب وأحطها ، فهى ليست الا ظلا للشقاء الذى تتخبط فيه المرأة العصرية ، وصورة من البؤس الانسانى الذى تلقاه فتاة وحيدة فى العالم ، لا أسرة تأويها ولا قلب أم حنون يعطف عليها

* * *

ارزيليا دارى فتاة فى العشرين ربيعا، حادة المزاج، مضطربة الفكر، محطمة الاعصاب، بادية الشحوب ، متشائمة كل التشاؤم ، حاولت الانتحار بسبب أن ربة الأسرة ضبطتها فى حالة مريبة مع زوجها ، حيث كانت تعمل مدرسة لطفلته ، وفى أثناء ضبطها هوت الطفلة التى عهد اليها بتربيتها من الشرفة وقضت نحبها

وقد نشرت الصحف نبأ حادث انتحار ارزيليا ، وكان فى جملة الذين طالعوه الكاتب القصصى لودفيكو نوتا ، وهو رجل جاوز الحلقـة الخامسة من عمره ، رزين ، مفكر ، جميل المنظر،على الرغم من أن الطبيعة لم تهبه أية مسحة تثير المحبة والشفقة فى النفوس. وقد وجد فى حادث الانتحار مادة طريفة لقصة يزجيها لقرائه أو موضوع مسرحية عنيفة يقدمهـا للجمهور . فمضى الى المستشفى وقد دفعـه فضول الفنان الى أن يتعرف ببطلة الحادث،وبعد أيام استطاع أن يقنعها بالانتقال الى داره يستضيفها ويقف منها على معلومات أدق وأجدى

واستهل لودفيكو حديثه معها بأن خاطبها فى رزانة قائلا :

ـ ذكرت لك أن عاطفة جائحة تولت كيـانى وسيطرت على مشاعرى حين قرأت فى الصحف نبأ فاجعتك ، لـكننى ما شعرت بتلك العاطفـة لاكتبها بل لاحيـاها . فالقصة يا صغيرتى تقوم على أحد أمرين : اما أن يكتبها المرء أو يحيـاها . ومع كل فانه بمجرد اطلاعى على حكايتك فى الصحف كنت قد تخيلتها بنفسى من البداية الى النهاية

فدهشت الفتاة وسألته على الفور : « تخيلتها كيف ذلك ؟ »

ـ بأسرع من لمح البصر ، فى أدق تفاصيلها ووقائعها العجيبة ، يا له من موضوع قصة طريفة، فهناك فى مدينة أزمير ، فى ذلك القصر المشرف على شاطىء البحر، قصر القنصل

جروتى ، حيث كنت تعملين فيه معلمة للطفلة ميميتا ، ثم فى الشرفة التى هوت منها هذه الطفلة على صخور الشاطىء وقضت نحبها ، ثم فى طردك من القصر ، وسفرك الى روما. ثم اكتشافك خيانة خطيبك الضابط البحرى فرانكو لاسيجا ، وتأهبه للاقتران بأخرى — فى كل هذا اكتشاف مروع. لقد تخيلت كل شىء بنفسى قبل أن أراك ، وقبل أن أعرفك كنت قد أعددت بناء قصتك بأكملها

فابتسمت أرزيليا ابتسامة صفراء من هذه المفاجأة غير المنتظرة ، ثم سألتـه : فى أية صورة كان يتخيلها ، فأخذ يراوغها ويجيب :

— ولماذا تريدين معرفة ذلك ؟ اننى أفضلك الآن ألف مرة كما أنت على تلك المرأة التى تخيلتها بطلة لقصتى

فعادت الى سؤاله : اذن هذه القصة ليست قصتى وانما هى قصة امرأة أخرى

— بالطبع ، انها قصة المرأة التى تخيلتها !

— وهل هى تختلف عنى كثيرا ؟

— ان المرأة التى تخيلتها بطلة للقصة ، تمر بمخيلتى وقد عصفت بها مرارة اليأس من فرط ما تعانى وهول ما تلقى من ضيق وبؤس . فتتجه بنظرها ذات ليلة نحو المرآة التى تزين غرفتها فى الفندق ، وهى متهافتة الاعصاب ، وعندئذ تومض فى رأسها فكرة هوجاء تدفعها الى الانتحار ، فقد عضتها الفاقة بنابها الازرق ، وهى لم تعد تملك من حطام الدنيا سوى دراهم معدودات بينا صاحب الفندق يلح فى دفع متأخر الحساب ، فقد أضحت حياتها سلسلة اخفاق ، وأخيرا استولى اليأس عليها وشرعت فعلا فى الانتحار

فذعرت أرزيليا وصاحت :

— ولكن هذه النقطة لم تذكر فى سياق النبأ الذى نشرته الصحيفة عن حادث انتحارى

— لقد تخيلت ذلك ! ألم يكن ما تخيلته قد وقع حقا ؟

ثم التفت اليها واستطرد :

— اصغى الى ! لقد تعاهدنا على العيش معا . على تأليف قصة طريفـة هى الآن حلمنا الجميل . أتصورين اذا أنا انطلقت الى الشارع بعد لحظة ثم داستنى سيارة بطريق المصادفة يكون الشارع قد حقق ذلك الحلم فى مخيلتك ؟ ومع كل فقد سبق أن ألفيت حياتك تتبدل وتنقلب رأسا على عقب بتأثير مصادفة طارئة ، وأعنى بها سقوط الطفلة من الشرفة

فنفست أرزيليا عن صدرها بأن قالت :

— ما أقسى أن يخدم المرء وأن يطيع ، وألا يكون بين الناس شيئا مذكورا ، بل ثوبا خلق للعمل ، يعلق كل مساء الى مسمار فى الحائط

ولكن الكاتب القصصى راح يصحح لها خطأها بأن ذكر لها أنها لم تصبح بعد ذلك نكرة بل أضحت تلك المخلوقة التى تستدر الشفقـة والرثاء والتى هزت أوتار القلوب ، قلوب ألوف القراء الذين طالعوا حادث انتحارها منشورا فى الصحف

ولم يكد لودفيكو يفرغ من حديثه حتى استأذن الصحفى الفريدو كاتنفالى فى الدخول، فهو قد جاء ليتعرف الى بطلة الحادث التى نشر عنها ثلاثة أنهر من صحيفته ، وليفضى اليها بأن القنصل جروتى قدم من أزمير وانه زار ادارة الصحيفة عشيـة الامس وهو يطالب بتكذيب لزج اسمه فيه والا اضطر الى رفع الدعوى على الصحيفة بتهمة القذف والتشهير، وعلاوة على ذلك فان خطيبة الضابط البحرى الجديدة بعد اطلاعها على شناعة الحادث تملكها الاشمئزاز من خيانته فصرحت بعزمها على فسخ الخطبة

* * *

ويبدو أن نشر الحادث فى الصحيفة حرك فى نفس الضابط عوامل توبيخ الضمير ، فقدم لمقابلة أرزيليا بغية أن يكفر عن خطئه الشنيع ونكثه بالعهد الذى سبق أن قطعه لها. لكن أرزيليا رفضت أن تراه وأصرت فى كبرياء على الرفض . فقد أضحت تمقت ذلك الخطيب الغادر شر المقت بسبب خيانته . ولكن فرانكو راح يوضح للكاتب القصصى موقفه وأخذ يصرح له بأن قرينة القنصل مضت الى دار خطيبته الجديدة وأفضت الى أسرتها بأن أرزيليا لم تكن سوى محظية للقنصل وأنها اكتشفت خيانتهما فى نفس اللحظة التى هوت فيها الطفلة من الشرفة،فطردت أرزيليا من خدمتها ولم تمنحها حتى أجر السفر الى روما. وهى الآن - أى المنتحرة - تتظاهر بمظهر العذراء الشهيدة كى تستدر عطفنا وشفقتنا عليها ، على أن الشىء الوحيد الذى قدم من أجله الساعة هو أن يقف عما اذا كانت أرزيليا قد أصبحت عشيقة القنصل قبل أن يطلبها للزواج أو بعد ذلك

أصغى القصصى لودفيكو الى هذا الحديث، ثم احتج على اللهجة التى بدرت من فرانكو، وأجابه بأن أرزيليا لم تشرع فى الانتحار الا من أجله ، فلا حق له اذن فى اتهامها بأنهـا كانت فى يوم ما محظية للقنصل جروتى . وراح فرانكو يتخبط فى الرد عليه بأن أجابه

- ان أرزيليا قد غرها أن يستضيفها كاتب عظيم مثله ينقل الى عالم الفن تلك القصـة الخيالية ، قصة انتحارها فى سبيل الحب ، فهى تتشـدق بالاكاذيب وهو الذى يسجلهـا ويكتبها للناس

فقال لودفيكو :

- ليس هناك من باعث يدفع تلك الفتاة الى الـكذب فى لحظة كانت فيهـا مشرفة على الموت . فالكذب قد يفيد فى الحياة ، أما بعد الموت فما الفائدة التى تجنيها منـه . ومع كل فلتكن القصة حقيقة أو مختلقة ، ماذا يهم ؟ قد تسوء القصة بالنسبة اليها بيد أنها جذابة فيما يختص بقلمى . على أن هذه القصة كما هى فى اضطراب وقائعهـا واختلاف تحاليلهـا النفسانية زادت فى عينى جمالا ، وأرانى أشد ما أكون فرحا بوضوح كل شىء فى خاتمتها ، فان فى مكنة أى كاتب ملهم أن يتخيل لقصته ختاما حتى لو خلت هـذه القصة فى الحيـاة من ختام

بيد ان فرانكو ذعر وراح يستوضحه فى لهفة عما اذا كان يزمع أن يحشره هو أيضا فى زمرة أبطال قصته

فسخر منه لودفيكو وأجابه: بالطبع وأرجو أن تطمئن أيضا من هذه الناحية فان طائفة النقاد سوف يتكفلون بالدفاع عنك ويدعون بأن كل ما سردته ورسمته زائف

ودلفت أرزيليا الى حيث كان الرجلان يتناقشان فى حمية وحماسة ، واتجهت من فورها الى لودفيكو تشكو اليه وتتألم باكية :

ـ ماذا ترى فى لو كنت اختلفت عن المرأة التى تصورتها بطلة لمسرحيتك ؟ لكم تمنيت أن أكون امرأة خيالك وأحلامك ، أو أكون تلك الضحية التى تحيا بعد موتها فى قصة من قصصك ، بيد أن هذا الحلم أصبح الآن بعيد التحقيق ، فالحياة لا تريد مفارقتى والجميع هنا فى أعقابى يطاردون الفريسة

وعندما وقع نظرها على فرانكو قابعا فى زاوية من زوايا الغرفة استفاق فى نفسها شعور خفى غامض فوقفت أمامه لتعترف له فى لجة من تريد ان تعذبه :

ـ مادمت تجهل تفصيلات نبأ انتحارى فسأحلك الآن على الالمام بكل شىء ومصارحتك بكل ما تشوق للوصول اليه . فانه حدث قبيل خروجى من الفندق بروما، فى ذلك اليوم المشئوم ، يوم اقدامى على الانتحار ، ان خلوت الى نفسى لحظة ، ووازنت بين الاشمئزاز الذى نالنى ليلة سقوطى ساعة أن هبطت الى الشارع ووهبت جسدى لاول عابر سبيل وبين حياتى الراهنة . ولكن هل كان ثمة فائدة أجنيها من معاودة الكرة فأنزل الى الشارع ؟ لم تسعفنى ذاكرتى بالجواب ، بل نهضت الى المرآة وبعثرت على وجهى شيئا من البودرة ودسست داخل حقيبتى أنبوبة زجاجية تحوى نوعا من السم . وأخيرا هبطت الى الشارع الصاخب وجعلت أسير على غير هدى وأنا محمومة حيرى ، الى ان صادفت مقعدا حجريا فى أحد الميادين فتهالكت عليه ، والى تلك الساعة ، لم يكن فكرى المضطرب قد استقر على رأى ما . فقد كان فى وسعى أن أعاود المحاولة فأبيع جسدى وأقبض ثمن ذلك. ولو أن المصادفات ساقت الى عابر سبيل فى تلك الآونة فرقت فى عينيه أو راق هو لى، فما أدرى هل كنت أمضى معه أو أرفض له طلبا. وكما سبق أن ذكرت كنت قد جلت وجهى بقليل من البودرة وغمت شفتى بالخضاب ، وارتديت ثوبا أزرق سماويا ، وفى النهاية لحقنى تأنيب الضمير فقهرت اشمئزازى من العار وآثرت الموت

فقاطعها فرانكو وقد صعق من هول هذا الاعتراف الذى لم يكن ينتظره وجعل يسألها :

ـ اذا كنت ترومين الاعتراف بأنك كنت ضحية قسوة الآخرين ، فلماذا تأبين على أحد هؤلاء القساة وقد أضناه تقريع الضمير أن يكفر عن قسوته نحوك ؟

فكررت أرزيليا القول أمامه بأنها لم تحاول الانتحار من أجله،فكل ماذكرته للصحف كان محض اختلاق ، وانما هى شرعت فى الانتحار بسبب قسوة الحياة عليها

وكان القنصل جروتى الذى قدم خصيصا من أزمير ، قد انطلق الى المستشفى يزور ضحيته ، بيد أنهم قالوا له ان أرزيليا قد نقلت الى مسكن الكاتب القصصى لودفيكو نوتا. وهو لا يكاد يلتقى بها ويخلو اليها بعض الوقت ، حتى راح يلومها على تزويدها الصحف بهذه الانباء التى تلوث سمعته كرجل من رجال السلك الديبلوماسى وتضر بمركز أسرته، لا سيما بزوجته . وأخيرا استوضحها حقيقة الباعث لها على الانتحار ، وهل كان لوخز الضمير دخل فى ذلك

فتشجعت أرزيليا وأخذت تطمئنه من هذه الناحية فقالت :

ــ ان من كان على طرازك ، ففى وسعه ألا يتحمل وزر ضميره لان لديه من المال ما يعينه على احتقار ذلك ، أما أنا فقد ألفيت نفسى ذات يوم فى الشارع ، مطرودة من الفندق الذى أسكنه بسبب عجزى عن دفع متأخر الحساب ، ووجدت نفسى عارية ، لا أملك درهما واحدا ، تظللنى سحابة من اليأس والكمد ، وفى هذه اللحظة راودتنى ذكرى الطفلة التى راحت ضحيةغرامنا الآثم فاستيقظ ضميرى،ودفعنى الى فكرة الانتحار

ولكن جروتى جعل يستدرجها فى الحديث،ويصارحها بأنها اذا كانت تهواه فيما مضى وتستثير ما كمن من عواطفه ، فلماذا تنفر منه الساعة وتزور عنه . فاحتجت أرزيليا بشدة على ذلك التصريح المشين ، وصرخت تدافع عن نفسها :

ــ كنت أبغضك بقدر ما كنت تغمرنى بالقبل . لكم تمنيت لو مزقت جسدى . انك لم تفز بقلبى فى يوم ما ، اذ أن هذا القلب كان يدمى كلما أقبل على اللذة معك. فجسدى هو الذى كان يستسلم اليك دائما ، أما قلبى فكان ولا يزال ملكى وحدى

وراح جروتى يناجيها مناجاة حارة،وركع عند قدميها مخاطبا اياها فى لهجة تشف عما يعانيه من وجد وصبابة :

ــ أنا فى حاجة اليك . نحن شقيان حطمتهما الحياة،فلتفن نفسينا غراما،ولندفن حظينا العاثرين معا . تعالى الى صدرى فانى لا زلت أشتهيك

بيد أن أرزيليا أعرضت عنه وقد بلغت أزمتهـا النفسية أقصى مداها ، فهى تروم أن تختفى وتتوارى عن عيون الذين يلاحقونها ويرهقونها بما ليس فى وسعها أن تتحمله .

وكان الضابط البحرى فرانكو لا يزال بدوره يتردد عليها بغية أن يعيد اليها صوابها ، فقد سبق أن خانها ونكث بعهد خطبته لها،ولكنه أصبح ينشد أن تصفح عن زلته وتتناسى الماضى . لقد هجر البحر، البحر الخضم المترامى الاطراف ليغوص فى مستنقع حياة تافهة انه ضحى بحلمه وارتضى الواقع . هجر الطهارة والسعادة والحب ، بيد أنه يريد أن يسترد قبسا من ذلك الضياء ، فيمضى بعيدا بأرزيليا الى شاطىء البحر . هناك فى أزمير ، حيث كانت تعيش فى هناءة وسعادة ، ترتقب أوبتــه ، وهى واثقة بأخلاصـــه رافلة فى نعمة حبها

أما القصصى لودفيكو فقد بات حائرا مشدوها ، فهو لم يهتم بهذه القصة الا لما تصوره

من شبه بينها وبين موضوع القصة الخيالية التى نسجتها مخيلته أى من حيث شخوصها ووقائعها . ولكنه مضطرب ، مزعزع ، فقد أفسدت عليه هذه التعقيدات والنتائج غير المنتظرة جميع ما كان يتخيله

وتسلل أرزيليا بخفة الى غرفتها بعد أن عادت من الفندق حيث كانت قد مضت لتسترد حقيبتها ، ويلمحها فرانكو فيهرع اليها ويناجيها بأعذب الالفاظ ، سائلا اياها الصفح والغفران ، لكنها تنهره بشدة وتنكر عليه حقه فى أن يلمسها،فيجيبها فى صوت خفيض :

ـ اننى على استعداد لان أقبلك من عثرتك ، وأنظف من ثوبك وحل آثامك

ـ هل أنت فرانكو الذى عرفته فيما مضى ؟ كلا ! فليس الصوت صوتك ولا العينان عينيك

ـ انك تبعدينى عنك ، تحملينتى على الشك فى نفسى وفيك أيضا

ـ ذلك لانك لا تستطيع أن تفهمنى حق الفهم . فان هذه الحياة التى عادت الى عقب انقاذى أضحت فى نظرى كذكرى لم تنبثق من أعماق نفسى بل هى فرضت على فرضا . انى أكاد أنكر وجود الماضى وأشعر بأننى تبدلت كل التبدل . أحاول أن أتخيل نفسى أعيش على هامش الذكرى ، فلا أرانى الا مخفقة ، مع يقينى بأن هذه الذكرى ان هى الا مرآة حياتى المنصرمة

ـ ولكننى لم أتغير ولم أتبدل . اننى لا أزال ذات العاشق الذى كنته فيما مضى . وساكون بقربك وأتبعك كظلك الى الابد !

ـ ليس فى وسعك أن تفعل ذلك . عند ما وقع نظرى عليك شعرت بعذاب ووحشة خاسرة ، برغم وثوقى من أنك لم تعد بعد ذلك العاشق الذى كنته فيما مضى . وداعا !

ولم تكد أرزيليا تفرغ من عبارتها الاخيرة حتى ترنحت فى وقفتها وهوت فوق عتبة الغرفة وأنفاسها تتلاحق ، اذن فقد شرعت فى الانتحار للمرة الثانية وتناولت أقراصا من السم ، بعد أن أخفقت فى أن تستعيد مكانتها السابقة كعذراء شريفة ، نقية كل النقاء . وعندما رآها فرانكو على هذه الصورة خانه الجلد وصاح مولولا،وأقبل لودفيكو وجروتى فى أثره وقد ذعروا جميعا من هول الحادث ، وبدت أرزيليا فى شحوب الموتى ، فصرخ جروتى بها : ماذا فعلت بنفسك ؟ ومال لودفيكو محاولا انقاذها بشتى السبل صارخا : انقلوها الى المستشفى . أما فرانكو فقد عقدت الدهشة لسانه فالتوى عليه القصد ولزم جانب الصمت

وحركت أرزيليا رأسها وتطلعت اليهم كأنما هى تنهرهم،ثم وضعت أصبعها على شفتيها، وأخيرا نطقت فى صوت مكلوم :

ـ هذه المرة . أرجو منكم الصمت . كفى تظاهرا بالشفقة على والرحمة بى . لم تعد هناك فائدة ترجى . فقد استفحل الداء وعز الدواء

ثم تريثت برهة وأردفت :

ــ لو لم أعاود الانتحار لما صدقنى أحدكم . كان يجب أن تصدقوا فى بادىء الامر أننى لم أكذب لاحيا . ولكن هل تدرى يا فرانكو لم كذبت عند ما تحدثت الى البارحة عما يطوف بقلبك من عواطف جياشة وكيف هرعت الى هنا فى سبيل أن تكفر عن خيانتك نحوى ؟ وهل تعلم يا جروتى لم كذبت وبادرت بتكذيب نبأ علاقتنا الاثيمة على صفحات الصحف ؟ ذلك ان الانسانية قاطبة تحاول ان تتجمل وأن تبدو فى مظهر يسمو بها على حقيقتها ، وبقدر ما تكون النفوس منحطة والسريرة قذرة ، قدر ما تحاول ان تتسنم ذروات النبل والشرف والجمال ... أجل ! اننا جميعا عرايا ، نحاول أن نستر عرينا بثوب فيه شىء من الحشمة ، فنكذب . ولم أكن أملك مثل هذا الثوب لابدو طاهرة نقية، فاصطنعت تلك الاكذوبة ، أكذوبة الفتاة التى تنتحر بسبب خيانة خطيبها . لقد أردت أن أحول فى ساعة موتى ثوبا يكون جميلا بعض الشىء ، ثوب خطيبة، لكن هذا الثوب أمعنت الكلاب تمزيقا فيه ، وحرمونى ، حتى هذه التعزية البسيطة . ثوب أحلامى الجميل انتزع منى ، ثوب خطيئتى قد مزق ولطخ ، وأضافوا اليه وحلا على وحل

وقبل ان تسلم الروح لفظت شفتاها هذه الكلمات متقطعة :

ــ دعونى أمت مجردة فى سكون وسلام . من حقى الآن ألا أرى وألا أسمع . اذهبا فقل أنت لخطيبتك وأنت لقرينتك ، ان التى انتحرت . ماتت عارية

محمد أمين حسونة

أسلحة وخطط غيرت مجرى التاريخ

[بقية المنشور على صفحة ٦٦٨]

كلها شرقية . واذا جمعنا تراث هذه الامبراطوريات العسكرى لم نكد نجد فى الفن العسكرى شيئاً مستحدثاً ذا بال ــ سوى الطائرة

فالحرب الشاملة وحرب الاعصاب والطابور الخامس وما الى ذلك من مبتكرات جنكيز خان كما ذكر كاتب المقال الذى أشرت اليه أولا . والخيل والفروسة من آثار الهكسوس والبرابرة والعرب وسكان أواسط آسيا . وابتكار البارود أثر لعبقرية الشعوب الصينية . واتقان استخدامه فى المدفعية والاسلحة النارية من أعمال الترك . وخطوط الدفاع على هيئة السور العظيم ذى الحصون المقامة على أبعاد متساوية ــ كخط ماجينو مثلا ــ نجد لها مثلا بارزاً فى سور الصين العظيم بل لقد عثرت فى بعض كتب التاريخ التركية على نصوص تثبت استخدام الفرسان التتار والمماليك المشاعل القوية اللهب فى حملات صادقة تسبق الحملة الكثيفة للجيش الرئيسى بفكرة تشويش خط دفاع العدو وتخويفه بالنار . ولعل هذا كان أصل فكرة الدبابات قاذفات اللهب التى استخدمها الألمان فى حروبهم الأخيرة

محمد محمد توفيق

طنافس تركيا

بقلم الأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق
الأمين المساعد بدار الآثار العربية

إن صح للغربيين أن يباهوا بتلك اللوحات الفنية الرائعة التى خلفها لهم أسلافهم من أعلام المصورين ، فان لنا معشر الشرقيين أن نفاخرهم بتلك الطنافس الشرقية التى ابتدعها أسلافنا ، وإذا كانت اللوحة الفنية تتحدث بألوانها إلى عيوننا ، وبتصميمها وفكرتها إلى عقولنا فان طنافس الشرق لتضيف إلى متعة النظر والعقل متعة اللمس كذلك ، فهى تحفة فنية بكل ما يحمله هذا التعبير من معنى : فيها الفكرة الكامنة ، وفيها التوازن والانسجام ، وفيها التنوع بين الألوان ، وفيها يد الصناع الماهرة

ولم تكن الطنافس ـ أى الأبسطة ذات الخمل ـ معروفة فى العصور القديمة ، وأغلب الظن أن قبائل التركمان فى أواسط آسيا قد اهتدوا إلى صنعها فى القرن الأول الميلادى ، ولا تزال هذه القبائل حتى اليوم تنسج الطنافس وتحتفظ بتقاليدها القديمة فى الرسم والتلوين

ودخلت هذه الصناعة إلى آسيا الصغرى على يد الأتراك السلاجقة فى القرن السادس الهجرى ، وكان فى طبيعة البلاد هناك ما عاون على نضوجها وتقدمها ، فمراعى الأغنام والماعز المنتشرة على سفوح مرتفعات الأناضول قريباً من ساحل البحر الأبيض المتوسط قد أمدت السكان بكميات وفيرة من أحسن أنواع الصوف ، وسهلت عليهم ـ لا سيما النساء والفتيات ـ مزاولة هذه الصناعة فى منازلهم . ولقد زار الرحالة الشهير (ماركو بولو) هذه البلاد فى القرن السابع الهجرى (١٣ م) وذكر فى رحلته أن أرق وأجمل طنافس العالم هى ما تخرجه مناسج تركيا ، وفى متحف الأوقاف باسطنبول ثلاث قطع من طنافس قديمة ترجع إلى ذلك العصر ، كانت فى الأصل مفروشة بمسجد علاء الدين بقونية ، وهى تمتاز بزخارفها الهندسية وإطارها الذى يتضمن ما يشبه الخط الكوفى ، وتعتبر هذه أقدم الطنافس الاسلامية اذا استثنينا القطع الصغيرة التى عثر عليها فى الفسطاط والتى يظن أنها من القرن الرابع الهجرى

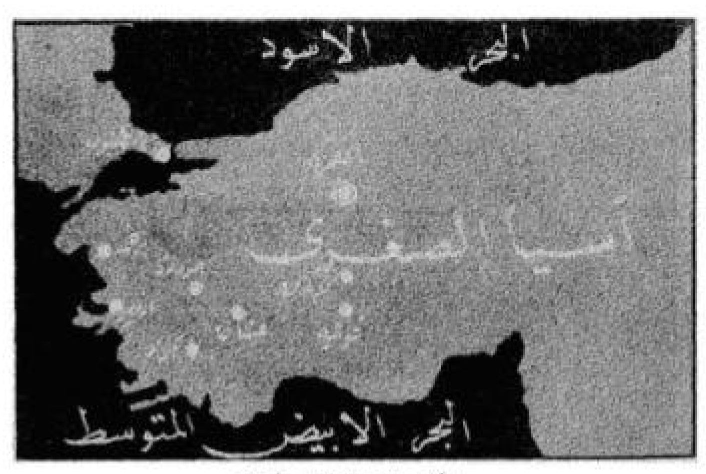
وفى القرن الثامن الهجرى (١٤ م) زالت دولة الأتراك السلاجقة من آسيا الصغرى ، وحل محلهم الاتراك العثمانيون ، وشغل هؤلاء فى أول حكمهم بتثبيت قواعد ملكهم الجديد ، وقنعوا

بما وجدوه بين يديهم من الطنافس السلجوقية التي تغلب عليها الزخارف الهندسية أو المتشابكة Arabesque وتبدو في حواشيها تلك الزخارف الكوفية . ولقد كانت هذه الطنافس محببة الى الغربيين فأقبلوا على شرائها كما أقبل فنانوهم على تصويرها في لوحاتهم ، ولعل أشهر هؤلاء هو المصور الالماني هلبين Holbein الذى كان يعيش فى النصف الاول من القرن العاشر الهجرى (١٦ م) ، ولشدة عنايته برسم هذه الطنافس ، وشغفه بنقلها فى لوحاته نقلا صحيحاً أطلق علماء الآثار اسمه عليها ، ومن أخص مميزاتها صغر مساحتها واشتمال رقعتها على جامات كبيرة أوصغيرة ، وشيوع اللون الاحمر فيها

وما كاد يستولى الاتراك على القسطنطينية فى القرن التاسع الهجرى (١٥ م) ، ويطمئنون على ملكهم الجديد ، حتى بدأوا يفكرون فى الفنون الجميلة ، فأنشأوا فى قصورهم مناسج لعمل الطنافس ، جلبوا لها العمال من مصر وايران ، وفرضوا عليهم من الزخارف ما كان محبباً الى نفوسهم ، فأبدعوا ذلك النوع المسمى « طنافس البلاط التركى » ، وأخص ما يمتاز به غلبة الاشكال النباتية على عناصره الزخرفية ، ورسم هذه العناصر كما هى فى الطبيعة : فأزهار الزنبق والسوسن ، والنرجس والقرنفل تراها ممثلة أحسن تمثيل فى هذه الطنافس كما تراها على الخزف التركي المنسوب الى رودس . ولقد كان من الطبيعى أن تلحظ فى هذا النوع تأثيرات الفن المصرى المملوكى والفن الايرانى الصفوى ، على أن أثر هذا الفن الأخير تراه أوضح فى « طنافس عشاق » تلك المدينة التى تعد أهم مركز لنسج الطنافس فى تركيا ، وتمتاز هذه الطنافس بكبر مساحتها ، وبما يتوسطها عادة من جامات كبيرة مملوءة بزخارف جميلة ، وبما يزين جوانب رقعتها وزواياها بأنصاف أو أرباع جامات صغيرة تشبه الجامة الكبيرة فى كل شىء . أما الألوان الغالبة فى هذا النوع فهى الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر . ولقد وفق معالى الدكتور على ابراهيم باشا الى اقتناء سجادة صلاة من هذا النوع ترجع الى أوائل القرن العاشر الهجرى (١٦ م) وليس فى العالم كله نظير لها إلا واحدة موجودة بالقسم الاسلامى بمتحف برلين تماثلها تماماً

وينسب الى هذه المدينة نوع من الطنافس أرضيته بيضاء مخططة كأنها جلد النمر ، وفيها كرات صغيرة كل ثلاث منها مرسومة على شكل مثلث . وهذه الكرات — كما فسرها العالم الأثرى مارتن — يعبر بها عند التتار عن الحظ الحسن ، وقد كانت تمثل شعار تيمورلنك ، ولعلها وصلت الى تركيا على يديه عند ما غزا تلك البلاد وهزم الاتراك عند أنقرة عام ٨٠٤ هـ (١٤٠٢ م) ثم ذهب الزمن بأصلها وأصبحت مجرد عنصر زخرفى . ويتصل بهذا النوع أيضاً الطنافس البيضاء التى تزدان بما يشبه الطيور

ولقد وجد فى كنائس ترنسلفانيا عدد كبير من الطنافس الشرقية لها مميزات تجمع بينها ، وتجعل من اليسير على الخبير معرفتها ، ولعل أوضح ميزة فيها هى أنها إذا ما قورنت بباقى طنافس تركيا ،



مراكز صناعة الطنافس في تركيا



سجادة صلاة من صناعة « كولا » من القرن الحادي عشر الهجري



سجادة صلاة من صناعة « عشاق » من مجموعة الدكتور على ابراهيم باشا

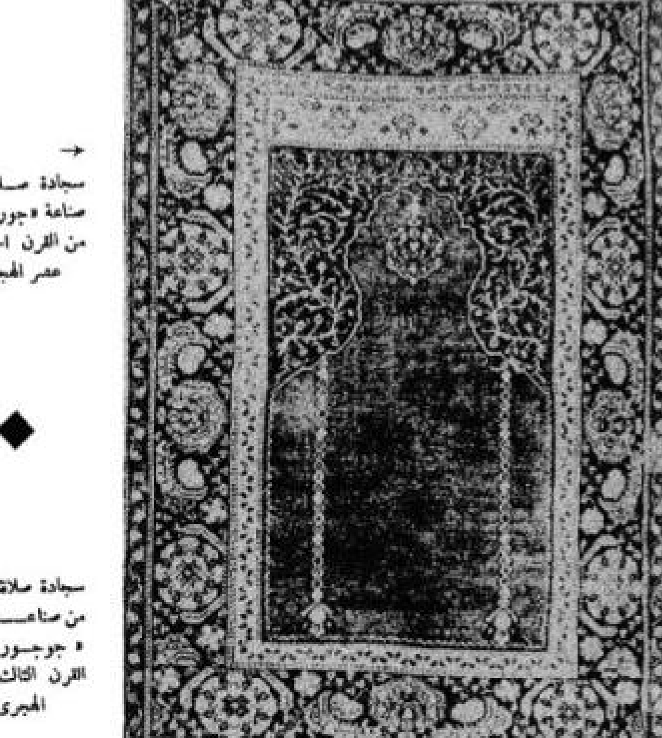


لوحة تمثل التاجر جورج جيزرى ترى فيها صورة طنفسة تركية فوق المائدة من تصوير المصور الألمانى هلبين

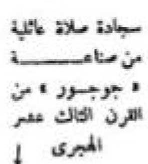
وجدت أقرب ما تكون إلى المربع منها إلى المستطيل ، ثم إن إطارها يتضمن عادة جامات متعددة الأضلاع بعضها مستطيل وبعضها نجمى الشكل، وكلها مملوءة بزخارف نباتية منسقة . وقد عرفت هذه الطنافس باسم « طنافس بشلقانيا » مع أنها تركية الأصل ، منسوجة فى مدينة برغمة Bergamo . ولا تزال هذه المدينة تنتج حتى اليوم طنافس تحمل اسمها ، وتمت بصلة وثيقة فى زخارفها إلى « طنافس هلبين » سالفة الذكر .

•••

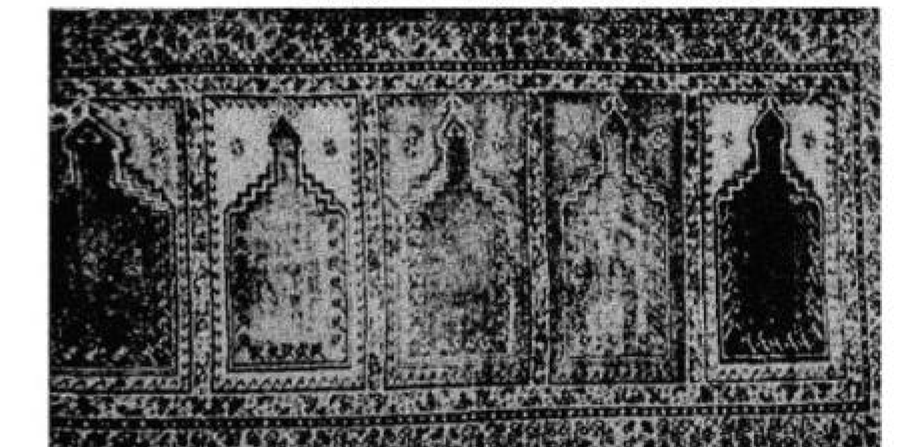
ومنذ النصف الثانى من القرن الثانى عشر الهجرى (١٨ م) بدأ الانحطاط يتسرب إلى صناعة الطنافس فى تركيا ، وظهرت فى الأسواق أنواع كثيرة يبلغ عددها نحو خمسة عشر صنفاً يطلق عليها التجار أسماء شتى مستمدة من أسماء المراكز التى تنتجها ، ومعظمها من سجاجيد الصلاة ، ولا يتسع المجال للكلام على كل صنف منها على حدة إنما يكفى أن نقول إن أكثرها من حيث النسج والزخرفة والتلوين أقل فى الجودة والاتقان من الطنافس التركية التى أشرنا إليها من قبل. على أن لسجاجيد الصلاة التركية شهرة عظيمة ولعل أحسنها وأجملها ما كان منسوجاً منها فى جوردز وكولا ولاذق . ولقد وصلت إلينا أمثلة من سجاجيد هذه المدن التى ترجع الى القرن



→
سجادة صلاة من صناعة «جوردز» ، من القرن الحادى عشر الهجرى



سجادة صلاة عائلية من صناعة «جوجور» من القرن الثالث عشر الهجرى
↓





مثال من طنافس بتلقايا ، آخر القرن العاشر الهجرى

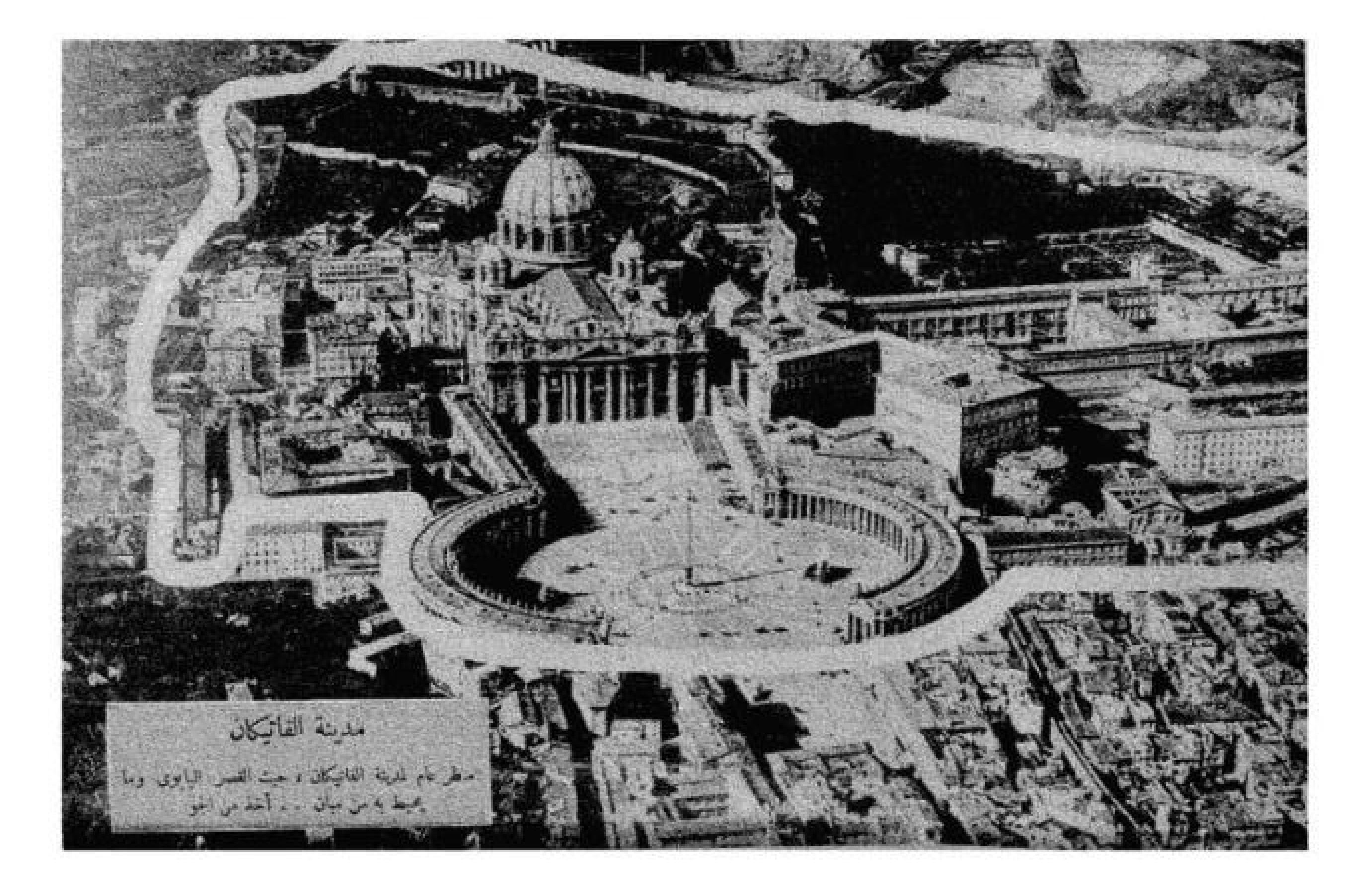
الحادى عشر الهجرى (١٧ م) فاذا هى آية فى الروعة والرونق

أما سجاجيد جوردز (Ghiordes) فتذكرنا زخارفها بطنافس البلاط التركى القديمة التى كانت تنسج فى القرن العاشر الهجرى (١٦ م) . وخير ما يميزها هو المحراب المرسوم فى رقعتها ، العاطل من الزخرف ، ثم العقد المتعدد الاشكال الذى يتدلى من رأسه مايشبه الثريا أو المشكاة . ويمتد فوق المحراب وأسفله شريط مستعرض به زخارف نباتية مختلفة

وتختلف السجاجيد التى تنسج فى كولا (Kula) عن السجاجيد السابقة فى أن محرابها يزدان برسوم نباتية جميلة ، وترى فى أعلى المحراب شريطاً مستعرضاً يتضمن أشكالا شتى

وأخص مايميز سجاجيد الصلاة المنسوجة فى مدينة لاذق (Ladik) ــ تلك المدينة التى وصفها ابن بطوطة فى رحلته وصفاً ممتعاً ــ هو تلك الأعمدة المتعددة التى ترى على سطحها ثم ما تزدان به رقعتها من سيقان الزنبق وعيدان السوسن

محمد عبد العزيز مرزوق



مدينة الفاتيكان

منظر عام لمدينة الفاتيكان ، حيث القصر البابوي وما يحيط به من مبان .. أخذ من الجو

مدينة الفاتيكان
صروحها ونظامها الدولي

بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

في الوقت الذي تقترب فيه رحى الحرب من رومة ، تخالجنا ضروب من الاشفاق والجزع على مصير مدينة القياصرة والبابوات ، ففي رومة وفي صروحها الاثرية تمثل أحقاب عديدة من تاريخ العالم القديم وتاريخ المدنية ، وفيها يثوى أعظم قسط من التراث الفني للعصور الماضية ، ولا سيما عصر « الاحياء » الزاهر

وليس في رومة من آثار القياصرة سوى بعض الهياكل القليلة الدارسة التي تدل مع ذلك على عظمة رومة في تلك العصور ، ولكن أعظم الآثار والذخائر الفنية تمثل في صروح مدينة الفاتيكان أو مدينة البابوات ، وهي تكون وحدها في قلب رومة مدينة خاصة ، ودولة مستقلة ذات سيادة

وقد قضت تطورات الحرب الحاضرة أن تقع رومة ومدينة الفاتيكان تحت رحمة الغزاة الالمان ، حلفاء الشعب الايطالي بالأمس ، ونحن نكتب هذه السطور وهم يحتلون رومة ، ويحاصرون مدينة الفاتيكان الصغيرة . وفي أثناء ذلك يساور العالم المتمدين ما يساور من قلق على مصير رومة ومصير صروحها وذخائرها الفنية ، خصوصا بعد الذي ارتكبه الالمان من التدمير المروع في ثغر نابل

ويخشى البعض أن يصب الالمان جام نقمتهم على مدينة القياصرة . ولو تحقق مثل هذا الظن لكانت أعظم جناية يرتكبها جيش منهزم ، وأعظم كارثة تصيب تراث المدنيـة الاوربية ، وتراث عصر الاحياء . ولكنا نرجو أن يتحقق ما جاء في الانباء الاخيرة من أن الالمان سوف يعتبرون رومة مدينة مفتوحة ، وبذلك تنجو من ويلات التدمير . وعلى أي حال ، فما زلنا نؤمل أن تفرض رومة بجلال تاريخها ، وروعة تراثها ، وقدس آثارها ، احترامها على الغزاة الالمان متى أرغموا على الجلاء عنها

مدينة الفاتيكان

وقد قلنا ان أنفس ما في رومة من صروح وذخائر يجتمع في مدينة الفاتيكان ، وهي مدينة البابوات تمثل في مدينة القياصرة ، بل هي فوق ذلك تعتبر من الناحية الدولية دولة مستقلة ذات سيادة ، وهي بذلك أصغر دول العالم المستقلة

والواقع ان مدينة الفاتيكان ليست مدينة بالمعنى المعروف ذات أحياء وشوارع فسيحة ، ولكنها مدينة رمزية فقط ، تتألف من عدة صروح تاريخية لا يجمعها موقع واحد ، فمنها

ما هو داخل رومة ومنها ما هو خارجها ، ويطلق عليها معا اسم «مدينة الفاتيكان» ، وتتمتع جميا بحقوق الصون والسيادة التى يسبغها الاستقلال على اراضى دولة مستقلة فلا تدخلها الجنود الايطالية ، أو البوليس الايطالى بأية صفة رسمية ، ولا يدخلها دون اذن سوى العلماء والزوار الذين يأتون للدرس أو المشاهدة من سائر الاقطار

وأهم صروح مدينة الفاتيكان هو قصر الفاتيكان نفسه ، وهو قصر البابوات المنيف ، وقد ارتبط اسم القصر العظيم الى الابد باسم البابوية والكنيسة الرومانية حتى غدا لهما علما يطلق عليهما فى اللغة الدولية . فالفاتيكان هو البابوية ، وهو الكنيسة الرومانية ، وهو مثوى عظمة الكرسى الرسولى الذاهبة وبذخه القديم . والفاتيكان أعظم قصور العالم بلا ريب سواء بضخامته أو بما أودع فيه وأسبغ عليه من كنوز الفن الرائع ، وهو عبارة عن عدة قصور كبيرة تجتمع فى بناء واحد . ويقع القصر العظيم فى شمال غربى رومة على مقربة من الضفة اليمنى لنهر التيبر ، ويشرف مع كنيسة القديس بطرس التى تقوم الى جانبه من الجنوب والتى هى ثانية الصروح الهامة فى مدينة الفاتيكان ، على ميدان شاسع هو ميدان القديس بطرس ، وهو من توابع المدينة البابوية ، ويحدها من الشرق ، ويحيط بهذا الميدان الضخم صفان من العمد الهائلة ، تنتهى من ناحية بباب القصر ، وتمتد من الناحية الاخرى الى غرب الكنيسة ، ويحجب القصر والكنيسة عن الاعين لاول وهلة طائفة من الشوارع والازقة الضيقة ، ويشرف السائح منها فجأة على الميدان ، فتبهره روعة المنظر الذى يواجهه فجأة ، ولا تبدو من القصر المنيف سوى زاوية صغيرة لأن الكنيسة تحجبه عن الاعين ، ولا يكاد الناظر يتصور أن هذه اللمحة الصغيرة التى تبدو من الفاتيكان تنبىء عن مدينة بأسرها من القصور الباذخة

وكان الفاتيكان منذ خاتمة العصور الوسطى مقر الكرسى الرسولى ومقر البابا ولا يزاله كذلك الى يومنا . وكان مقر الكرسى الرسولى قبل ذلك فى قصر لاتران ، ولكن البابوات عدلوا عن سكنى « لاتران » منذ أواخر القرن الرابع عشر ، واتخذوا مثواهم الى جانب « القديس بطرس » فى قصر متواضع هو « الفاتيكان » . وفى منتصف القرن الخامس عشر اعتزم البابا نيقولا الخامس أن ينشىء قصرا عظيما يضم البطانة البابوية كلها فانجز منه قبل وفاته قسما كبيرا ، ومضى فى العمل فيه بعد وفاته خلفه سكستوس الرابع ، وأنشأ به المصلى الشهير المعروف باسمه « المصلى السكستية » (كابلا سستنا) ، وهى التى خلف ميكال آنجلو فوق جدرانها من ريشته آثار خالدة من الجمال والروعة ، ثم جاء من بعده البابا اسكندر السادس (بورجيا) ، فأنشأ الجناح الشاسع المعروف بجناح آل بورجيا وأفاض عليه أبدع ما تمخض عنه عصر « الاحياء » من بذخ وبهاء ، وأنشأ خلفه جوليوس الثانى جناحه المشهور (لوجى) وهو الذى زينه رافائيل بآيات خالدات من ريشته . ولبث البابوات خلال القرن السادس عشر يزيدون فى أبنية الفاتيكان وفى زخرفته حتى غدا مجموعة شاسعة من القصور الباذخة . ويبلغ طول القصر العظيم نحو اربعمائة متر

وعرضه نحو مائتين وخمسين ويضم نحو أربعة آلاف غرفة ، وعشرين ساحة كبيرة وصغيرة وعشرات من الابهاء والاروقة النادرة

وان القلم ليعجز عن أن يقدم للقارىء صورة واضحة من روعة الفن الخالد الذى يتجلى فى معظم أروقة الفاتيكان وأبهائه ، ويكفى أن نقول انه أعظم مستودع لعبقرية عصر الاحياء كله ، وفيه تمثل طائفة من أبدع ما خلف اقطاب الفن من الآثار والرسوم والتحف ، امثال ميكال آنجلو ، ورافائيل ، وجرلاندايو ، وبوتشللى ، وبيروجينو ، وتسيانو وغيرهم

ويوجد بالطابق الاول من الفاتيكان عدة متاحف زاخرة منها المتحف الرومانى واليونانى ، وهو يضم أعظم وأجل مجموعة من التماثيل الرومانية واليونانية ، ومتحف الصور القديمة ، ويضم مجموعات عديدة من الصور الدينية تمثل أساطير القديسين ، ثم متحف الصور ، وفيه أروع كنوز عصر الاحياء ، ويضم عدة من المجموعات والصور النادرة التى لا توجد فى غيره ، وقد خصصت فيه لصور رافائيل بهو شاسع ، تتألق على جدرانه آثار المصور الشهير كأنها لآلىء منيرة تخطف الابصار بروعتها

وكذلك يضم الفاتيكان مكتبة عظيمة تحتوى على ذخائر نادرة من العلوم والآداب وبها مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية ، ولكنها ما تزال محجوبة فى أقبية القصر القديم لانها لم تنظم بعد ، ولم تعرض ذخائرها للباحثين والقارئين

وتأتى بعد القصر المنيف كنيسة القديس بطرس ، التى سبقت الاشارة اليها ، وهما يكونان معا مع ما يجاورهما من الميادين والساحات والحدائق مدينة الفاتيكان الاصلية ، وتقع الكنيسة بجوار القصر من الجنوب ، وتعتبر اعظم كنائس النصرانية على الاطلاق ، وقد بنيت خلال القرن السادس عشر ، واشترك فى تصميمها وفى زخرفتها أعظم مهندسى العصر وفنانيه ، وقد أقيمت على هيئة صليب ضخم طوله ١٨٧ مترا ، وعرضه ١٣٥ مترا ، وارتفاع قبتها العظمى ١٣٥ مترا . وتحت القبة العظمى يقع الهيكل الاعظم الذى يتولى البابا دون سواه القاء القداس منه ، ويقال ان قبر القديس بطرس يقع تحت هذا الهيكل

وتشمل مدينة الفاتيكان عدا هذين الصرحين العظيمين الابنية الآتية :

(١) كنيسة القديس بولس ، وهى تقع فى ضاحية رومة فى طريق أوستيا ، وهى كالقديس بطرس ، من أعظم آثار النصرانية وافخمها ، بنيت لاول مرة فى القرن السادس ولكن النار التهمتها فى سنة ١٨٢٣ ، فأعيد بناؤها على نفس طرازها القديم فى منتصف القرن الماضى ، فجاءت آية من ابدع آيات الفن

(٢) كنيسة القديس لورنزو ، وهى تقع فى شرقى رومة على مقربة من محطتها الرئيسية

(٣) كنيسة وقصر القديس يوحنا (جوفانى) دى لتران الواقعين جنوب شرقى رومة

(٤) قصر كاستل جندلفو ، الواقع فى ضاحية رومة ، فى جنوب شرقيها بالقرب من بحيرة البانو ، وهو مصيف البابا

تلك هي الصروح التي تتألف منها مدينة الفاتيكان ، التي تعتبر من الناحية الدولية دولة مستقلة ذات سيادة

دولة الفاتيكان

ولقيام الدولة البابوية في عصرنا قصة طريفة ، فنحن نعرف أن البابوية كانت منذ العصور الوسطى الى العصر الاخير تتخذ رومة عاصمة لها ، وتبسط سلطانها الزمني على الولايات المجاورة لها ، وتعرف بالولايات البابوية ، فلما تمت وحدة ايطاليا ودخلت الجنود الايطالية رومة في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٠ ، اتخذ الملك فكتور امانويل الثاني ملك ايطاليا المتحدة ، من مدينة القياصرة والبابوات عاصمة لمملكته ، وبذلك انتهت الدولة البابوية وانتهى سلطانها الزمني . وأرادت ايطاليا الجديدة ان تطمئن العالم الكاثوليكي على مصير الكرسي الرسولي ، فأصدرت قانون الضمانات البابوية في مايو سنة ١٨٧١ ، وخلاصته أن يحتفظ البابا بألقابه وامتيازاته الملوكية ، ويمنح كل ضروب الاعفاء السياسي ، ويحتفظ بتنظيم البعثات السياسية ، ويعتمد الوزراء المفوضين لديه وغير ذلك . ولكن البابا بيوس التاسع ، وهو خليفة الكرسي الرسولي يومئذ ، رفض قانون الضمانات ، وقدم احتجاجا رسميا على ما وقع من اغتصاب أملاك الكنيسة وسلطانها ، وهو احتجاج كان يجدده خلفاؤه كلما ارتقى أحدهم كرسي البابوية ، وهم على التوالي حتى عصرنا : ليون الثالث عشر ، بيوس العاشر ، بنوا الخامس عشر ، وبيوس الحادي عشر

ولبثت البابوية محتفظة بموقفها ، والتزم البابا قصر الفاتيكان لا يغادره قط مبالغة في الاحتجاج على اغتصاب سلطانه ، ولم تنتظم العلائق الرسمية خلال ذلك بين حكومة رومة وبين الفاتيكان ، وان كانت العلائق العملية قائمة بينهما ، وبذلت السياسة الايطالية جهودا عديدة لارضاء البابا ، وحل المسألة الرومانية ولكنها لم توفق الى تحقيق غايتها

فلما ارتقى بيوس الحادي عشر كرسي البابوية ، بذلت السياسة الايطالية في ذلك جهدا جديدا ، وأبدى السنيور موسوليني رئيس الحكومة الفاشستية يومئذ استعدادا طيبا لحل المسألة الرومانية على قواعد سخية مرضية ، وانتهت المفاوضات بين حكومة رومة وبين الكرسي الرسولي الى النتيجة المنشودة ، وعقدت بذلك معاهدة « لاتران » الشهيرة في يناير سنة ١٩٢٩

وتنص معاهدة « لاتران » على الاعتراف بالملكية المطلقة والسلطة الكاملة والقضاء الاعلى للكرسي الرسولي على قصر الفاتيكان ، وتعترف بانشاء « مدينة الفاتيكان » Cité du Vatican (وهي التي تقدم وصفها) مصرحة بأنه لا يسوغ للحكومة الايطالية أن تقوم بأي تدخل في هذه المدينة ، ولا يعترف فيها بأية سلطة غير سلطة الكرسي الرسولي، أما ميدان القديس بطرس ، فمع انه من أراضي مدينة الفاتيكان ، فانه يسمح بافتتاحه للجمهور ، والسلطات الايطالية

ولمدينة الفاتيكان وفقا لنصوص المعاهدة ، خط حديدى خاص يصلها بالدول الاخرى، ومحطة تلغرافية وتليفونية ولاسلكية خاصة ، ومركز خاص للبريد ، ولها أن تصدر عملة خاصة يسمح بتداولها

وتتعهد الحكومة الأيطالية بأن تسمح بمرور وسائل النقل والمواصلات الخاصة بمدينة الفاتيكان فى أراضيها ، وتلتزم بضروب مختلفة من الاعفاء نحو الاراضى الكنسية ونحو رعايا الكرسى الرسولى وموظفيه المقيمين خارج مدينة الفاتيكان

ويتبادل الطرفان تعيين الممثلين المعتمدين ، وقد نص من جهة أخرى على ان يحتفظ الكرسى الرسولى بحيدته بعيدا عن كل المنافسات الزمنية والمؤثرات الدولية ، واعتبار مدينة الفاتيكان دائما وفى جميع الاحوال منطقة محايدة لا يجوز انتهاكها

ويصرح الكرسى الرسولى من جانبه بأنه يعتبر أن المسألة الرومانية قد سويت بصورة نهائية ، ويعترف بقيام الملوكية الأيطالية ، وبأن رومة هى عاصمة ايطاليا

وأخيرا تنص المعاهدة على حق الكرسى الرسولى فى الاشتراك فى وضع برامج التعليم الدينى للمدارس المتوسطة ، كما تتعهد الحكومة الايطالية بأن تؤدى للبابا تعويضا قدره سبعمائة وخمسون مليون ليرة ايطالية مقابل مخصصاته التى رفض أن يتناولها منذ سنة ١٨٧٠

وهكذا حلت المسألة الرومانية وفقا لنصوص معاهدة « لاتران » واسترد الكرسى الرسولى سلطته الزمنية التى فقدها منذ سنة ١٨٧٠ ، وهى سلطة رمزية لا تتعدى الصروح البابوية ذاتها ، ولكنها كافية لان تسبغ صفة الاستقلال والسيادة على الدولة البابوية الجديدة ، وعلى اثر عقد المعاهدة غادر البابا قصر الفاتيكان لاول مرة منذ سنة ١٨٧٠ وخرج فى موكبه الحافل ليتولى القداس فى كنيسة القديس بطرس ، فكان يوما مشهودا

وتوفى البابا بيوس الحادى عشر فى سنة ١٩٣٨ ، فخلفه أمينه وسكرتيره السابق الكردينال باتشيلى فى فبراير سنة ١٩٣٩ ، باسم البابا بيوس الثانى عشر . وقداسة البابا الجديد كسلفه حبر متوقد الذهن واسع الثقافة ، خبير بتيارات السياسة الدولية ، وقد لمسنا فيه هذه الخلال الرفيعة عن كثب يوم أنسنا بلقائه فى قصر الفاتيكان قبل ارتقائه عرش البابوية ببضعة أعوام

ونحن نكتب اليوم هذه السطور ، وما زالت مناظر القصر المنيف ، وذخائره وتحفه ، تمثل أمام أعيننا بكل بهائها وروعتها ، وهى مناظر لا يمكن أن يمحوها كر الاعوام

فهل تنجو مدينة القياصرة والبابوات مما يحيق بها اليوم من أخطار الحرب والدمار ، وهل ينجو تراثها الفنى الزاخر ، ميراث عصور وعصور من المدنية الزاهرة ؟ هذا مانرجو

محمد عبد الله عنان

مناقشة سياسية

هل يجب عقاب الشعب الألماني

هل يمكن أن نرسم خطا فاصلا بين النازى والالمان ؟ هل الشعب الالمانى مسئول عن الجرائم التى قارفتها أيدى زعمائه؟ أم هل هناك ألمانيا أخرى يمكنها ان تتخذ مكانها فى أوربا الآتية القادمة ؟ ان الاجابة عن هذه الاسئلة احدى المشاكل الكبرى التى تشغل أذهان الساسة والمفكرين الذين يريدون أن يجعلوا الحرب القائمة خاتمة الحروب ، فيديروا الامر للقضاء على البذرة التى تنبت منها شجرة السوء والشرارة التى تندلع منها الحرب . ولكنهم ينقسمون فريقين متناقضين، فريقا يرى انزال العقاب بالشعب الالمانى على اعتبار أنه مسئول عن الحرب وما فيها من جرائم وأوزار ، وفريقا يرى أن جمهرة الشعب الالمانى تنكر الحرب وتأبى جرائمها ، وأنها لا تسأل عن أوزار هتلر وأنصاره . فلنسمع حجة الفريقين يدلى بها اثنان من كبار المشتغلين بالامور العامة فى بريطانيا

نعم : رأى اللورد فنسيتارت

المستشار الدبلوماسى لوزارة الخارجية البريطانية سابقاً

طلب الى أن أجيب فى المؤتمر السنوى لحزب العمال البريطانى عن هذا السؤال : هل يجب أن نعد الشعب الالمانى بأسره مسئولا عن الحرب ، فننزل به جميعا العقاب الاوفق عن جريمة الحرب وما تنطوى عليه من جرائم أخرى ؟

اذا كان المقصود بكلمة « الشعب الالمانى بأسره » كل فرد ألمانى بلا استثناء ، فالجواب الواضح عن هذا السؤال هو : لا. ولكن هذا تلاعب بالالفاظ ، والواقع أن المقصود بهذه الكلمة هو « الاغلبية الساحقة من الشعب الالمانى » . وجوابى حينئذ هو : نعم

ان هذه الاغلبية الساحقة كانت تستطيع أن تمنع « الحروب الالمانية العالمية » بدلا من أن تلقى بنفسها فى غمارها لتوقد نارها وتؤجج سعيرها . ولكنها أبت فى الحرب الدائرة والحرب السابقة أن تبذل شيئا من الجهد يحول دون نشوب القتال . فاضطرت الحضارة الانسانية أن تنفق فى المرة الاولى أربع سنوات فى اخماد جذوة الشر المنبعث من ألمانيا ، وستضطر فى هذه المرة الى أن تنفق أكثر من هذه السنين حتى تجتث شجرة الشر من جذورها . لماذا ؟ لان الشعب الالمانى أكثر اتحادا وتصميما على الحرب فى هذه المرة منه

فى المرة الاولى ، ولان هتلر يمثل الشعب الالمانى أصدق مماكان يمثله ذلك القيصر المغرور . وأن الجيش الامبراطورى السابق كان خليقا بالتمرد والعصيان لو انه تعرض لمثل ما تعرض له الجيش الهتلرى الحالى من الانحدار فى شتاء روسيا ، وكذلك كان الشعب الالمانى فى عهد قيصر خليقا بالثورة والتحطم لو انه استهدف لمثل ما استهدف له فى عهد هتلر من الغارات الجوية الرهيبة . وهكذا تثبت الحوادث أن الشعب الالمانى يزداد على الايام صلابة وعنادا ، وتعصبا واسرافا ، ورغبة جشعة فى سيادة العالم واذلال شعوبه

مبدأ الفنسيتارية

يقوم مبدأ الفنسيتارية على دعامتين لا تقبلان الشك والجدال : (١) ان جميع الشعوب تقدمت تقدما أخلاقيا وسياسيا فيما عدا الشعب الالمانى (٢) ان مرجع تقهقر الشعب الالمانى فى أخلاقه وسياسته الى انه أسيء تعليمه وأسيئت تربيته فى خلال المائة والخمسين سنة الماضية

ان المشرفين على تعليم الشعب الالمانى وتربيته هم المسئولون عن سيئاته وأوزاره وجرائمه . لقد قيل فى سنة ١٨٦٦ ان معركة سادوا قد كسبها المدرس البروسى ، وهذا حق ، فان المدرس البروسى هو الذى خلق فى الشعب الالمانى روح التعصب والعناد والاثرة وتوهم نفسه سيدا يسخر الشعوب الاخرى تسخير العبيد . وان ٣٥ ./. من النازيين البارزين كانوا من مدرسى المدارس الاولية . فمن كان تلاميذهم ؟ كان الشعب الالمانى الذى صاغ هؤلاء المدرسون النازيون تفكيره وشعوره . وهكذا تأخر الشعب الالمانى فى خلقه وسياسته بينما تقدمت الشعوب الاخرى

وتدل حوادث الحرب الجارية على أن ملايين الجنود الذين يؤلفون الجيش النازى قد اقترفوا من الآثام المنكرة أكثر مما اقترف جنود الجيش الامبراطورى . ومع هذا لم يرتفع أصبع واحد من الكنائس الالمانية باستنكار هذه الجرائم

ويتفق الالمان جميعا ، سواء من كان متطرفا من أهل اليسار أو معتدلا من أهل اليمين ، على أن الجيش الالمانى والشعب الالمانى شيء واحد . وأنا أوافق الالمان على هذا الرأى كل الموافقة ، فان الروح العسكرية التى تملأ قلب الالمانى هى ــ لا النازية التى لا تعدو أن تكون زبدا طافيا ــ العدو الحقيقى الذى يثير الحروب ويهدد بنى الانسان

ان الروح الالمانى قد صبغ بالصبغة العسكرية المسرفة . وليس أدل على ذلك من أن اعادة التجنيد الاجبارى عقب قيام هتلر بالأمر قوبل من الاغلبية الساحقة من الامهات الالمانيات بكل ترحاب وتأييد . انهن يرغبن فى أن ينشئن أطفالهن جنودا ، جنودا مهمتهم خوض الحرب وامتشاق السلاح . وهذا الاستغراق فى الروح العسكرية هو ما يتطرق بالمانيا يوما فى اثر يوم من سيء الى أسوأ ، فى حياتها الخلقية وفى اتجاهها السياسى

أما « ألمانيا الاخرى » التى تستنكر الحرب وتناوىء دعاتها ، فلا وجود لها الا فى أذهان

المخدوعين . فما يمكن اثارة حرب فى بلد ما ، ولو كان هذا البلد ألمانيا ذاتها ، لو أن أغلبية الشعب تأبى الحرب وتناهض مثيريها . فكيف تكون ثمة « ألمانيا أخرى » مسالمة متسامحة ، وهذه الحروب تثار من جانب ألمانيا جيلا تلو جيل ؟

ان خصوم « مبدأ الفنسيتارية » ينعتونه بالمبدأ الرجعى ، لانه يأبى أن يترفق ويستلين فيما يشير به من دواء وعلاج لالمانيا المريضة . ولكنى لست أرى أكثر رجعية من الرجل الذى يرجع بعقرب الساعة الى الوراء ، بتمكينه ألمانيا من الفرصة التى تثير فيها الحرب فتؤجل سير الحضارة ، مرة أخرى

ولست أعرف أحدا من انصار سياسة التهادن والتهدئة مع ألمانيا ، سواء من ظهر منهم فى ابان الحرب الماضية ، ومن يقوم منهم فى أثناء الحرب الدائرة ، ومن عرفناه فيما بين الحربين من سنى الغفوة والاستنامة — لست أعرف أحدا من هؤلاء يعرف حقيقة أمر ألمانيا معرفة كاملة . وهذا هو ما أدى بنا الى اصطلاء نار الحرب الالمانية المروعة مرتين فى خلال ربع قرن من الزمان . ويرجع جهلنا أو خطأنا فى فهم السياسة الالمانية الى أن نفرا كبيرا من رجالنا ينظرون الى الامر من خلال منظار الحزبية . فيقول المنضوون تحت لواء حزب العمال مثلا ان الطبقة العاملة فى ألمانيا بريئة من جريمة الحرب . ولكن ليس ثمة أدعى الى الضلال من أن تتخذ الحزبية طريقا الى فهم السياسة الدولية ، هذه السياسة التى تقتضى التنزه عن التحيز والانحراف ، والتى لا تعرف الا واجبا واحدا هو أن تكون صائبة سديدة ، ولا تعرف سوى جريمة واحدة هى أن تكون مخطئة مخفقة

ولو كان ولاة الامر فينا يعرفون ألمانيا على حقيقتها معرفة دقيقة ، لما استهدفنا لكل ما استهدفنا له من نكبات وأخطار . فعند ما تولى هتلر زمام الحكم فى ألمانيا ، قلت ان «الحرب العالمية الثانية » صارت لا مفر منها ولا محيص . بل تنبأت فى تلك السنة ، سنة ١٩٣٣ ، بالسنة التى سيبدأ فيها الشعب الالمانى يسلم قياده لمن يريدون القيام بمغامرة الحرب مرة أخرى . وقد استطعت أن أكون دقيقا فى نبوءتى هذه ، لا لانى أعرف « النازى » ففى وسع كل امرىء أن يعرف النازى ، بل لانى أعرف « الشعب الالمانى » الذى أزعم أن أكثر ساستنا يجهلون أمره ، ويتخبطون فى تناول سياسته

الاشتراكيون الألمان

دعونا ننظر الى الحقائق مرة ثانية : فلننفض النظر عن « الجبهة اليمنى » فى ألمانيا ، فالرأى مجمع على أن هؤلاء الغلاة المسرفين لا يمكن أن يمثلوا الشعب الالمانى ، كما أن الكل متفق على أن هذا الفريق يجب أن يمحى من السياسة الالمانية محوا

ولكن ما القول فى « الجبهة اليسرى » ، فى أولئك الاشتراكيين والديموقراطيين الالمان ؟ هاكم بعض ما قيل فيهم :

قال « برونو » مندوب الشيوعية الدولية فى ألمانيا سنة ١٨٨٥ « ان الاشتراكيين الالمان

هم طلائع الفرق العسكرية فى ألمانيا » وقال كابريفى فى سنة ١٨٩٢ « انك لتجد فى دوائر الاشتراكيين الديموقراطيين الرجل المشرب بروح الجندية التائق الى ساحة الحرب بارزا مرموقا » . وأكد بيبل زعيم اليسار الالمانى هذا الرأى بقوله : « ان الاشتراكية الديموقراطية القائمة اليوم فى ألمانيا ليست الا مدرسة اعدادية للعسكرية الالمانية » . وأعاد الفيلسوف شبنجلر هذا القول مؤيدا مفصلا

وهذا ما أدى الى أن يذهب الاشتراكيون الديموقراطيون الى ساحة الحرب فى سنة ١٩١٤ رجالا ونساء ، وكأنهم رجل واحد وكانوا يسمون « اشتراكيو القيصر » !

ولما انتهت الحرب بهزيمة ألمانيا كانت مهمة « الاشتراكيين الديموقراطيين » التستر على ما قارفت العسكرية الالمانية من الجرائم ، ثم تمهيد الطريق أمام العدوان الالمانى المندحر مرة أخرى . فخدعوا روسيا وأوهموها أن ألمانيا تريد منها « سلما لا ينطوى على دفع غرامات ولا على اقتطاع أراض منها » ، فجروها بذلك الى الاحبولة التى نصبوها فى معاهدة بريست ليتوفسك التى انتزعت من روسيا خمسة وستين مليون نسمة من أهلها يقطنون أغنى مناطق روسيا بالقمح والحديد . وكذلك كان الامر فى معاهدة بوخارست التى ازدردت رومانيا بأسرها . وهكذا كانت سياسة الاشتراكيين الديموقراطيين سياسة استعمار واستغلال ، ترضى بها جشع الشعب الالمانى ، الشعب السيد الذى يريد ان يحيا على ما يمتص من دماء الشعوب المستذلة المقهورة

ومن ذا الذى اخترع تلك الاسطورة التى تزعم أن الجيش الالمانى لا يقهر أبدا ، وهى الاسطورة التى تعتبر أول مسئول عن الحرب القائمة؟ انه الرئيس الاشتراكى ايبرت!

ومن ذا الذى مكن لالمانيا من أن تستأنف تسلحها وتعبئة قوتها الحربية ، قبل ان يجف المداد الذى كتبت به هدنة الحرب الماضية ؟ انهم زعماء ألمانيا الاشتراكيون ، وعلى رأسهم ايبرت ، الذين ادعوا انهم يريدون بذلك تهدئة النفوس تفاديا للثورة . .

أما نقابات العمال فأبت ان تختط خطة النقابات فى سائر الدول ، فتنشد السلم وتستنكر الحرب ، وتؤيد دعاة السلام وتناهض مثيرى الفتنة ، بل أيدت هتلر ونازيته كل التأييد ، فاشتركت فى مظاهرات النازى التى أقيمت فى أول مايو سنة ١٩٣٣ ، وفى اليوم السابع عشر من ذلك الشهر صوتت فى الاقتراع العام تأييدا لسياسة هتلر الخارجية ، القائمة على حطم معاهدة فرساى ، وتسليح ألمانيا تأهبا لاثارة حرب أخرى ، يخرج منها الشعب الالمانى سيدا على سائر الشعوب

هذا هو موقف « الجبهة اليسرى » فى ألمانيا ، وهو دليل بين على أن ألمانيا ليست الا كتلة واحدة ، يتساوى اليمين واليسار فى أمرها القائم على كراهة الشعوب الاخرى ، والتفريج عن هذه الكراهة فى ساحة القتال

أين كان الشعب الألماني ؟

الى الذين يدافعون عن الشعب الالماني توجه هذه الاسئلة : أين كان هذا الشعب حينما قفز عدد ممثلي النازي في الريشتاغ من ١٢ عضوا في سنة ١٩٢٨ ، الى ١٠٧ أعضاء في سنة ١٩٣٠ الى ٢٣٠ عضوا في سنة ١٩٣٢ ؟ أين كان هذا الشعب ، وأين كانت طبقته العاملة على الاخص ، حينما نظمت المصانع الالمانية في الخفاء بقصد تخصيصها للانتاج الحربي تأهبا للحرب التي كانت شباكها تحاك سرا ؟

يقول الأستاذ جيسوب : « ان الشعب الالماني لم يتعلم من الدروس ما يمكنه من أن يتحول الى شعب أوربي طيب . وهذا هو مثار مأساة ألمانيا ومأساة أوربا بأسرها ، وهذا هو التفسير السيكلوجي لهذه الحرب التي اثبتت عجز الالمان في مجال البصيرة الخلقية وفي ميدان التفكير السياسي على السواء »

ان أنصار سياسة التهدئة والمسالمة يزعمون أن انشاء جمهورية اشتراكية في ألمانيا ، من شأنه أن يبدل الامر فيها تبديلا ، فلا يخشى بعدئذ شرها ، ولكن هذه خديعة آثمة ، أو جهالة بريئة ، يذيعها أولئك الذين يتحدثون عن « الاعمال السرية في ألمانيـا » ، و « الحلفاء المستترون وسط الشعب الالماني » وما الى ذلك من الترهات التي ان صحت ــ وما أظنها تصح ــ فما تعدل شيئا مما قارف الالمان ، جيشا وشعبا ، من آثام وأوزار . وسأكرس جهدي لأري الناس حقيقة الامر في هذه الخديعة أو في تلك الجهالة ، ولابين لهم أن القيصر أو الزعيم الالماني ما هو الا معبر صادق عن رغائب الشعب الالماني ونزواته التي تطوح به ، وبالعالم كله ، الى أتون الحرب حينا بعد حين

لا : رأى أورين بيفان

عضو بمجلس العموم عن حزب العمال

قالوا لنا ان النازي يمثلون الالمان حق التمثيل ، وأن سيرة النازي في خلال السنين العشر التي قبضوا فيها على زمام الامر في ألمانيا ، كانت ملائمة لروح الشعب الالماني جارية في مجرى تاريخه . ويرتبون على هذه المقدمة نتيجة منطقية هي أن جمهرة الشعب الالماني يجب أن تتحمل من أوزار جريمة الحرب ما تتحمل عصابة النازي سواء بسواء . ويقولون ان أية محاولة لقسمة الالمان قسمين ، يضم أحدهما الاخيار ويؤوي ثانيهما الاشرار ، لن تجعل في الجانب الاول الا أقلية ضئيلة لا يعتد بها . واذن فان سياسة الحلفاء المقبلة تجاه ألمانيا يجب أن توجه وفق ما تقرره هذه الحقائق . ومن هنا نشأ المبدأ الذي سماه صاحبه، أو سماه الناس مبدأ « الفنسيتارية »

ومن الغريب أن يقع في مثل هذا الخطأ المبتذل رجل واسع الثقافة ، جم التجارب ،

ناصع الشخصية كاللورد فنسيتارت . ولكن من الواضح أن الثقافة الفنية قلما تقى الانسان وتجنبه مثل هذه الاخطاء . واذكر على سبيل المثال ان الأسقف « انج » ، وهو من يعلم الناس مدى علمه وتفكيره ، قال لى منذ بضع سنين أن ليس بين الشعب اليونانى الحديث وأسلافه القدامى أية مشابهة ، واستنتج من ذلك أنه لا يرتجى من هذا الشعب أى عمل يدل على القوة والبطولة . ولكن لم تنقض على ذلك سنون حتى أبدى هذا الشعب من البأس والفتوة والبطولة ما أعاد الى كل ذهن حديث المجد الاغريقى القديم

والواقع أن عادة التفكير على أساس من التعميم المطلق دلالة على أنه تفكير محصور الأفق ضحل القرار . ومن ذا الذى يستطيع أن ينسى تلك الاقوال التى كانت تلقى مطلقة مؤكدة جازمة بأن الروس ليسوا الا شعبا من الشعراء والروائيين والحالمين الذين لا يمكن أن يتعلموا ادارة الآلات واتخاذ الصناعات الحديثة ؟ . وهل ضحى هتلر بنفسه وشعبه ، الا لانه آمن بفكرة معممة مطلقة عن تفوق الجنس الالمانى على سائر الاجناس ، ولم يفطن للحقيقة القاسية الا عند ما وقف جنوده على أبواب ستالينجراد يصطلون نيرانها المؤصدة

وتردد القول منذ سنوات قلائل بأن اليابانيين لا يمكن أن يجيدوا فن الطيران الحربى ، لان ثمة نقصا جسمانيا فى مراكزهم العصبية ، يجعلهم عاجزين عما يقتضيه هذا العمل من جرأة ومهارة ومجازفة . ولم تنجل هذه الفكرة عن الاذهان الا بعد أن دفعنا ثمنا غاليا : ميناء بيرل وجزءا كبيرا من الاسطول الامريكى

وهكذا شأن كل فكرة معممة شاملة ، فان جانب الخطأ فيها يرجح جانب الصواب ، ولكن ما العمل وثمة أناس يؤثرون هذا الطراز من التفكير ، ويحبون أن يجعلوا من القبة الكبيرة حبة صغيرة !

من هم أنصار الفنسيتارية ؟

لو قبلنا هذا المنطق الذى ينطوى عليه مبدأ الفنسيتارية ، لبدت لنا الدنيا خالية من الامل مجردة من المعنى لا يرجى كمال نقصها أو صلاح فاسدها . اذ معناه أن النازية ، وما ترمى اليه من عدوان على الأفراد والشعوب ، هى خصيصة من خصائص الشعب الالمانى ، تجرى فى كيانه مجرى الدم ، وأن الفاشستية ، وما تقوم عليه من انتهاك حرمات الامم وحريات الأفراد ، لا تفسر الا بأنها احدى طباع الشعب الايطالى . وهكذا تقوم نظرية خصائص الشعوب وطبائعها حائلا منيعا دون أى اصلاح فى حياة هذه الشعوب السياسية والاجتماعية . وماذا يكون الامر لو اعتقدنا أن هذه الحرب لم تنشأ بسبب ما يعانيه العالم من المساوىء الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بل ثارت نتيجة الخصائص القومية فى بعض الشعوب مما لا سبيل الى تغييره وتبديله ؟ لن يكون الامر الا ترك العالم غارقا فى سيئاته واخطائه ، مستهدفا للحرب مرة فى كل جيل أو جيلين ، ما دامت الحرب تنبت من فطرة بعض الامم وجبلتها الاولى ..

هتلر يشهد لى

أريد فى هذه القضية الكبرى أن استشهد برجل واحد يؤيد رأيى فى أن الشعب الالمانى لم يعاون النازى معاونة صادقة متحمسة فيما اتخذه من وسائل القسوة وأعمال العدوان فى خلال السنوات العشر الماضية . هذا الشاهد هو هتلر ذاته . وما من أحد يستطيع أن ينكر أن هتلر أول من يعرف نفسية الشعب الالمانى كل المعرفة ، واذا أثبت عليه التاريخ انه فشل فى كل أمر ، فسيثبت له أنه نجح فى هذا الأمر وحده !

لما أخذ هتلر يعد العدة لفرض ارادته على العالم بأسره ، ماذا كان أول قرار اتخذه ؟ قرر أن يمنع الشعب الالمانى من مقاومته ، فحرم عليه كل حرية تتطرق به الى تسفيه رأيه أو مناهضة مشروعه . ذلك أنه يعلم أن هذا الشعب لا بد ناكص على عقبيه متخلف عن متابعته يوما ما ، ان هو أطلق له حرية الاختيار فى تأييد مشروعه أو انكاره . وما كان هتلر بحاجة الى تحريم الحرية على شعبه ، لو كان هذا الشعب كما يزعم اللورد فنسيتارت شريرا ، معتديا ، مؤثرا للحرب على السلم ، ساعيا الى فرض سيادته على الشعوب جميعا

ولكن هتلر يعرف الالمان . يعرف أنه يوم ينحسر عن وجهه لثام الخداع ، وتبدو للملأ مشاريعه الآثمة ونزواته الطائشة ، يوم تتنكر له أغلبية الشعب الالمانى وتنقلب عليه مناوئة مناهضة . وقد كان على حق فى ذلك ، فعند ما بدت للناس بعض ألاعيبه ومخازيه قبيل توليه الحكم ، بدأ فريق منهم ينصرف عنه ويولى وجهه شطر الاحزاب الاخرى ، فعجز فى الانتخاب الذى سبق حريق الريشستاغ مباشرة عن أن يظفر بأغلبية مطلقة ، تدل على أن الشعب كله فى قبضة يده . وهكذا تبين هتلر منذ البداية أن هذا الشعب لا يعتمد عليه ان هو ترك حرا ، وأن ليس من المستبعد عليه أن يتخلف عنه وهو فى وسط الطريق فيتركه فى التيه ضالا حائرا ، فقرر أن يسلب هذا الشعب كل حرية واختيار . فحل جميع نقابات العمال وصادر أموالها . وحل جميع الاحزاب المعارضة ، وأعمل فى رجالها القتل والسجن والنفى . وحرق جميع الكتب التى وضعها رجال أحرار سواء فى ذلك اليهود والمسيحيون . وفرض الأغلال على الصحافة فغدت نشرات للدعاية . وحرم الاستماع الى الاذاعات الاجنبية ، وقرن ذلك كله بهذه الدعاية الشيطانية الخبيثة التى بثها الدكتور جوبلز فى آذان الشعب . فاذا قيل لى : ولكن الالمان لم يقاوموا أى عمل من هذه الاعمال التى سلبتهم الحرية والكرامة ، قلت : ان ليس فى وسعك أن تقاوم رجلا متأهبا بالحديد والنار اذا كنت خالى اليدين من كل سلاح

ان سيرة النازى فى الحكم خير شاهد على ان الأغلبية الساحقة من الشعب الالمانى لم تؤيد هتلر تأييدا صادقا ، وانه لو ترك لها الامر لتألبت عليه وأقصته عنها بعيدا ، وانها لم تركن الى السكوت الا رهبة واشفاقا .. فكيف نأخذ هذا الشعب بجريرة عصابة من المغامرين ؟

(خلاصة مقالين فى صحيفة بيكتشر بوست الانجليزية)

قصة معهد باستير

خمسون سنة فى كفاح المرض

ألفان من رجال البحث العلمى ونسائه عملوا وجاهدوا فى جنبات معهد باستير فى باريس منذ انشائه . ففيه كشف «متشنيكوف» عن تلك الغريات أو الخليات الاكالة للميكروبات (١) وتلك الحرب الدائرة أبدا بين الميكروبات وكرات الدم البيضاء . وفيه صنع العالمان «رو» و «كالميت» هذا اللقاح الثمين B.C.G. الذى يمكن أن يطعم به الاطفال وقاية من مرض السل ، وفيه أخرج «مارتن» مصله المضاد لحمى الديفتريا . وفيه قهر «فرنو» البذور السبحية التى تسبب الالتهاب السحائى أو الحمى الشوكية . وفيه عالج «وينبرج» حالة الغنغرينا ، وعالج «لاكاساني» و «بيرون» مشكلة السرطان كما هاجم «بومتز» وباء الطاعون . وفى الحجرة التى مات فيها باستير كشف رامون عن ذلك الترياق الذى يحمى جسم الانسان من حمى الديفتريا ومن مرض التيتنوس الذى يقبض العضلات

***

كانت احدى سيدات الطبقة الثرية فى باريس منفردة ذات مساء فى حجرة الاستقبال بقصرها الباذخ تروح عن نفسها بمداعبة ابرتها فى حياكة بعض الملابس ، فدخل عليها خادمها يقول :

ـ ان بالباب يا سيدتى رجلا اسمه «مسيو باستير» يريد مقابلتك

فأجابته السيدة العجوز :

ـ لا أعرف رجلا اسمه باستير .. ولكن لعله ذلك الرجل الذى يعالج مرض الكلب؟

فذهب الخادم وعاد يقول : «انه هو يا سيدتى»

ودخل باستير الى حجرة تلك السيدة المثرية التى أنشأت أكبر متاجر باريس ، متجر البون مارشيه . ووقف الرجل والسيدة وجها لوجه وفى عيونهما كثير من التهيب والاحجام . فقد أبت الحكومة أن تمد يدها الى باستير بما يريد من المال لانشاء معهد للبحوث العلمية ، فأهاب ببنى وطنه أن يكتتبوا ويتبرعوا للعلم وللانسانية بهذا المال . وها هو قادم الى مدام «بوسيكو» لعلها تجود بهبة تضاف الى تلك الآلاف من الهبات الصغيرة التى جادت بها جموع من الرجال والنساء

وذهبت السيدة الى مكتبها وأمضت شيكا قدمته الى باستير ، فتناوله دون أن ينظر فيه . ثم

---

(١) رجعنا فى ترجمة الكلمات والمصطلحات الطبية الواردة فى المقال الى القاموس الطبى الذى وضعه الدكتور محمد شرف

ودعها شاكرا . وبعد دقائق عاد اليها مغرورق العينين حبيس اللسان . . فقد سطرت فى هذه الورقة تلك الكلمات : « ادفعوا لمسيو لويس باستير مبلغ مليون فرنك ـ مرجريت بوسيكو »

***

يعرف عامة الناس أن باستير هو الرجل الذى قهر داء الكلب . ففى أثناء بحوثه الكيماوية هدته احدى الصدف العلمية المجردة الى دراسة تخمر المواد . فانتهى من هذه الدراسة الطويلة الى أن كلا من التخمر والمرض ينشأ من أحياء ضئيلة لا ترى بالعين هى الميكروبات التى تفرز من السموم مايعطل أو يقتل الجسم البشرى

واستطرد باستير من هذا الى البحث فى مرض الكلب ، ولم يستطع بادىء ذى بدء أن يعزل ميكروب هذا الداء ، لانه يمر خلال الشعيرات الدموية الدقيقة . ولكنه وجد أنه اذا لقحت الحيوانات السليمة بالنخاع الشوكى المستخرج من كلب كلب فانها تصاب بهذا الداء وتغدو حيوانات مسعورة . أما اذا عرض هذا النخاع للهواء فترة من الوقت ، فانه يفقد ما فيه من خبث وسمومة فلا يصيب الحيوان الذى يطعم به بداء الكلب ، بل يصبح هذا الحيوان « مطعما » ضد الداء

سنوات خالدة

فى تاريخ معهد باستير

١٨٥٤ ـ كشف باستير عن الميكروبات فى خمائر البيرة والنبيذ

١٨٦٠ ـ عزل الميكروبات

١٨٨١ ـ أثبت ان الامراض المعدية تنشأ من الميكروبات

١٨٨٥ ـ صنع أول مصل يقتل الميكروبات

١٨٩٤ ـ صنع العالم رو مصل الديفتريا

١٩٢٣ ـ كشف رامون عن اللقاح الواقى من الديفتريا وطعم نفسه به ليثبت أن لا خطر منه

١٩٣٨ ـ كشف رامون عن اللقاح « المتعدد » الذى يحصن الجسم من عدة أمراض مرة واحدة . فيلقح به الشبان عند التحاقهم بالخدمة العسكرية ليجعلهم بمأمن من الديفتريا والتيفوئيد والباراتيفوئيد والتيفوس معا

ولكن تجارب باستير الاولى ظلت مقصورة على الحيوان ، وظل لا يجرؤ على الانتقال بها الى دائرة الانسان . فكتب فى سنة ١٨٨٤ فى رسالة الى امبراطور البرازيل يقول : « ان يدى ترتجف وترتعش حين يأتى اليوم الذى يصير فيه من الضرورى أن أجرى تجاربى على الجنس البشرى » . وقد جاء هذا اليوم ، وكان ذلك فى شهر يوليو سنة ١٨٨٥ ، حين جاءت احدى السيدات الى المعمل الصغير الذى يقيم فيه باستير فى احدى جوانب باريس ومعها طفلها جوزيف مايستر مصابا فى جسمه بعدة عضات من كلب مكلوب

وأمضى باستير يوما كاملا فى أزمة ، بل فى محنة نفسية قاسية ، يتردد بين واجبه العلمى وواجبه الانسانى ، وبين ما يترقبه من عواقب ان مات هذا الطفل من جراء تجربته العلمية . ثم انه لم يكن واثقا من أن الطفل أصيب بداء الكلب ، وليس فى الوسع تبين الحقيقة الا

بعد مدة طويلة تتم فيها حضانة ميكروب المرض ، وحينئذ يغدو علاج المريض مستحيلا . وأخيرا تغلب واجبه وتغلب ضميره على كل نازع سواهما ، وحقن الطفل بالمصل الذى صنعه من نخاع الكلاب الكلبة .. وكلنا يعرف ماذا كانت النتيجة ، فقد شفى الطفل مايستر الذى ما زال الى اليوم يعمل حارسا فى معهد باستير !

وذاعت أنباء نجاح باستير فى شفاء أول انسان من مرض الكلب ، فوفدت عليه وفود المرضى من سائر أرجاء العالم ، وأرسل اليه قيصر روسيا تسعة من أبناء سمولنسك عضتهم الذئاب المسعورة ، وأرسلت اليه جريدة « نيويورك ديلى هيرالد » أربعة اطفال مرضى ليعالجوا على نفقتها .. وأخذ العالم يقرأ أنباء هذه التجربة العلمية الخطيرة مندهشا مأخوذا

***

سألت فى معهد باستير عن الطريقة التى صنع بها اللقاح المشهور B.C.S. الذى يتخذ فى مقاومة مرض السل ، فقيل لى :

— أترى هذه القطعة الطويلة من « البسكوت » ؟ انها شريحة من البطاطس غمست وشبعت فى حساء من الصفراء المرة التى يفرزها الكبد . وهذه هى التربة الخصبة التى تزرع فيها هذا الميكروب القيم الذى يقاوم المرض الخطير

وقد لاحظ الدكتور مارفان ان الاطفال والشبان الذين أصيبوا بمرض العقد الدرنية المعروفة بالعقد الخنزيرية ، وهو نوع من السل يصيب العنق بأذاه ، قلما يصابون فيما بعد بمرض السل . ذلك أن الاصابة الخفيفة بهذا المرض تعطى الجسم مناعة من الاصابة الشديدة به فيما بعد . وهذا هو الشأن فى كثير من الامراض ، مثل السعال الديكى والحصبة والتيفود فان الاصابة الاولى بها تحصن الجسم من هجماتها التالية

ومن هنا جاءت الفكرة بتلقيح الأطفال ضد السل باعطائهم ميكروبات هذا المرض عن طريق الفم . ولكنه وجد أن هذه الطريقة تنطوى على أخطار جمة قاسية ، فجد معهد باستير فى البحث حتى توفق الى انقاص ما فى هذه الميكروبات من خبث وسمومة الى حد بعيد ، وبذلك يحصل الجسم منها على ما يلزمه من مناعة ومقاومة دون أن يتعرض لما تحمله معها من أخطار . وبدىء فى توزيع هذا « الباشلس » الجديد فى أنابيب مقفلة منذ سنة ١٩٢٤ ، فماذا كانت النتيجة ؟ دلت الاحصاءات الدقيقة على أنه من بين ملايين الاصابات بمرض السل نقص عدد الموتى من الاطفال المطعمين بهذا اللقاح وهم فيما بين الشهر الاول والسنة الثامنة من أعمارهم الى نصف ما كان عليه من قبل . هذا الى سهولة تناول هذا اللقاح ، فهو يعطى للطفل فى الايام العشرة الاولى من حياته ، بمعدل ثلاث ملاعق صغيرة فى كل ثمان وأربعين ساعة ، على شريطة التأكد من أن جسم الطفل خال من كل ميكروب خطر آخر ، وأن هذا اللقاح هو الميكروب الوحيد الذى يشتمل عليه الجسم . وتتكرر هذه العملية عند ما يكون سن الطفل سنة ، فثلاث سنوات ، فسبع

سنوات ، فخمس عشرة سنة . وبذلك تتولد فى الجسم مناعة قوية تؤمنه الى حد بعيد من الاصابة بهذا المرض الخبيث

وقال لى الاستاذ وينبرج ان « الغنغرينا » أحدثت رقما مخيفا من عدد الوفيات الناجمة عن الجروح فى بداية الحرب الماضية . وكان باستير قد أثبت أن جميع أنواع الغنغرينا المختلفة تنشأ من الميكروبات الانيروبية ، وهى تلك التى تستطيع أن تحيا بدون اوكسيجين الهواء . فلما جاءت الحرب وحدثت معارك الخنادق ، وجدنا أن الجنود الذين يصابون بجروح من جراء ما يصيبهم من شظايا القنابل والمقذوفات ، والذين تتصل جراحهم بما فى هذه الخنادق من تراب وغبار ، لا يلبثون أن يصابوا بضروب عنيفة من البكتريا المتعفنة ، والاوزيما الخبيثة ، وحالات التقيح الاليمة . فقررت أن أصل الى طريقة تقضى على جميع أنواع الميكروبات بما فيها تلك الانواع التى يمكنها أن تحيا دون هواء ودون اوكسيجين . فصنعت هذا المصل « المتعدد » القاتل لخمسة من الميكروبات التى تسبب الغنغرينا

وسألت أخيرا الاستاذ ميتليكوف عن بحثه فى تحقيق مناعة الجسم بواسطة جهازه العصبى ، فتناول هذا العالم اناء زجاجيا أرانى فى داخله دودة كبيرة من دود الشجر مربوطة من وسطها بخيط حريرى دقيق . وقال :

« ان هذه الدودة منقسمة بواسطة هذا الخيط قسمين ، باستثناء سلسلتها العصبية التى يقابلها فى جسم الانسان عموده الفقرى ، فهى متصلة لا يمسها الخيط الحريرى . والآن ، فانى اذا أحدثت المناعة فى الجزء الاعلى من جسم هذه الدودة ، فان الجزء الادنى منه يكتسب هذه المناعة تماما . واذا كسرت سلسلتها العصبية بواسطة ابرة محماة فى النار فانه يقف انتقال المناعة من جزء الى جزء . ومعنى ذلك أن المناعة تنتقل من خلال الاعصاب وحدها . وهذه حقيقة قاطعة ، ذلك أن الاعصاب تؤثر فى كرات الدم البيضاء ، هذه الكرات التى أثبت متشنيكوف فى معهدنا هذا أنها تقاتل وتقتل ما ينفذ الى الجسم من الميكروبات

« ولا شك فى أن الاعصاب تؤدى دورا هاما فى كياننا وفى صحتنا . وأن الرجل الهادىء المكتمل الاعصاب أقدر على مقاومة الامراض المعدية من الرجل العصبى المضطرب

***

قال باستير ذات مرة : « ما من أحد يسأل الرجل المريض : من أى بلد أتيت ؟ وبأى دين تدين ؟ بل كل ما يقال له : أنت تتألم وتعانى ، وهذا حسبى منك ، وقد جئت الى ، وسأعمل لاعينك واشفيك »

وتلك هى القاعدة الذهبية ، القاعدة العظيمة التى تقام عليها الاخوة الانسانية ، فأى مكان نرى فيه هذه القاعدة تتخذ كما تتخذ فى ذلك المكان المقدس الذى يسمى « معهد باستير » ؟

(خلاصة مقال بقلم بيير ديفو فى صحيفة ورلد دايجست)

تصفية اللغة العربية

بقلم الأستاذ نقولا الحداد

يعني الحلفاء بجعل اللغة الانجليزية لغة العالم ، وتألفت لجنة لتبسيط هذه اللغة حتى تسهل على الأمم المتحدة . وقد كتب الأستاذ نقولا الحداد يقول بتصفية اللغة العربية أيضاً على هذا النحو . ونحن ننشر لحضرته هذا المقال ولأن لم نكن موافقين على بعض ما جاء فيه

علم القراء من الانباء الاخيرة أن الحلفاء أعلنوا أنه تقرر جعل اللغة الانكليزية لغة العالم ، وذكروا من أسباب اختيارها لهذا الغرض أن المتكلمين بها أكثر عددا من متكلمي أية لغة . وقد بسطت فى مقال فى العدد الاخير من «الهلال» الصعوبات العظيمة القائمة فى سبيل نشر هذه اللغة . والظاهر أن كثيرين من متكلميها لم يغفلوا عن هذه الصعوبات ، فألف القائمون بالامر لجنة خاصة لازالة تلك العقبات ، وجعل اللغة أبسط ما يمكن أن تبسط ، بحيث لا تفقد شيئا من قوة التعبير وسلامته من الغموض . وسموا بسيطها The Basic English أى « الانكليزية الاساسية » . وقيل انهم صفوها من جميع الالفاظ الزائدة والحوشية والمستغنى عنها بما يرادفها ، وصفا منها نحو ٨٥٠ لفظة كافية فى رأيهم لتعبير التام . وبالطبع لا تدخل فى هذه الصفوة الالفاظ العلمية البحتة ، والالفاظ الفنية ، كقولك : فيتامين كافيين ، فولط ، أمبير ، دفتيريا ، ستربتوكوك ، ألكترون ، الى غير ذلك من ألوف الالفاظ التى تعتبر من لغة العلم الشائعة فى جميع لغات العالم المتمدن بحروفها ونطقها تقريبا . هذه ألفاظ لا تحسب من الالفاظ الاساسية العامة المشار اليها آنفا . وليس على أحد من غير المختصين بالعلوم والفنون أن يستعملها ، ولا ترد الا فى الكتب والمجلات المختصة بها ولها قواميس خاصة بها . اما لغة التفاهم العام فى الكلام والجرائد والمجلات والمراسلات السياسية والتجارية ونحو ذلك ، فتكفيها صفوة الكلمات التى أشرنا اليها

وبالطبع تلك الصفوة تشتمل على الالفاظ المعبرة عن جميع المعانى المتداولة . وان كان ثمة معنى ليست له لفظة خاصة ، فيمكن أن تؤلف له من تلك الالفاظ جملة تعبر عنه . وكذلك تقتصر كل لفظة على معنى واحد اشتهرت به تفاديا للالتباس . هذا ما نعلمه فى تصفية اللغة

وقد يرى المحققون أن ال ٨٥٠ لفظة غير كافية ، فلا حرج فى أن يضيفوا اليها ما يلزم للبيان . ومهما أضافوا من اللوازم فلا تزيد الالفاظ على الالفين . وبذلك يطرحون عن عاتق أذهان الكاتبين والقارئين عشرات الالوف من الالفاظ المستغنى عنها ، فضلا عن الالفاظ النافرة والحوشية

ولا ريب أن اللجنة حسبت حساب صعوبة التهجئة والنطق باللغة الانكليزية لعدم

التطابق بينهما . فلا بد اذن ان تصفى التهجئة أيضا بحيث لا يبقى من أحرف الكلمة الا ما يكفي لنطقها ، أي أن ينقحوها لكي تنطق كما تكتب . وبذلك تزول عقبة عظيمة لدى هذه اللغة الشائعة ، ويسهل تعلمها واستعمالها

بقى أن يعنى مصفوها برد جميع الالفاظ الشاذة عن القواعد الصرفية الى قواعدها العامة لكيلا يتضجر متعلموها حتى أهلها من شواذها العديدة ويعتمدوا على القياس فى تصريفها . فماذا يمنع أن تستعمل Comed بدل Came و Childs بدل Children مثلا . والغريب أن شواذ هذه اللغة هي من ضمن ألفاظها الشائعة ، وهى أيضا جانب كبير منها

أما نحوها فلا غبار عليه ، فلعله أبسط من نحو أية لغة . ويضاف الى هذه البساطة أن كثيرا من الاسماء تصاغ أفعالا أيضا ، مثل يد ورأس وقدم وقارورة وجليد أو ثلج وهواء وماء وكثير غيرها مما لا يحصى

فاذا نقحت اللغة الانكليزية على هذا النحو ، أشبهت لغة الاسبيرانتو وأغنت عن استعمالها ، وان كانت هذه لا تزال ذات مزايا تمتاز بها على منقح الانكليزية ، وانما يبقى للانكليزية مزية شيوعها فى هذا الجيل . وبعد هذا الجيل تصبح والاسبيرانتو سواء ، لان أطفال الجيل القادم لا فرق عندهم فى تلقن هذه أو تلك من حيث السهولة والحذق

ما الذى حدا أصحاب الانكليزية ان يصفوها وينقحوها وينبذوا منها المهجور ، ويفرضوا على ألفاظها أن تخضع للقواعد الصرفية على الاطلاق ، لا ريب أن ما يحدوهم الى هذا هو الاقتصاد فى الوقت والاقتصاد فى المجهود العقلى اللذين يبذلهما طلاب اللغات المختلفة ، ومنها اللغة الانكليزية نفسها ، وهم غرباء عنها ، والجهاد فى تنازع البقاء فى هذا الزمن يقتضى هذا الاقتصاد كما لا يخفى

لا يعد حفظ اللغات المختلفة تاجا علميا ، لان اللغة ليست الا الاناء الذى تتناول به المعارف . وهو معلوم أن المعارف قد تفاقمت والعلوم اتسع نطاقها اتساعا عظيما ، والتفاهم الأممى تشعب جدا لاشتباك الامم بعضها ببعض . فبدل ان ينفق الفرد مجهوده ووقته فى تعلم اللغات المتعددة ، ينفقه فى تعلم لغة واحدة بسيطة لكى يحول سائر مجهوده الى حذق المعلومات والحقائق والعلوم الأخرى العديدة

تصفية اللغة العربية

بناء على هذا ، كم هو جدير بلغتنا العربية أن تصفى وتنقح وتهذب لكى يسهل على أحداثنا تعلمها وفهمها ، وعلى كتابنا حسن التعبير بها وفصاحته ، وعلى قرائنا فهمها بلا اعنات ذهن

ولعل بعض الناس ينبرون لمناهضة هذا الاصلاح بقولهم ان اللغة العربية هى لغة القرآن الشريف ، فلا يجوز أن تمس بتنقيح أو تصفية البتة

فنرد عليهم بأنه لا مانع أن تبقى للقرآن لغته ، وان حفاظه يحفظونه بلغته . ولا بأس

أن تبقى اللغة كما هي للشعر وسائر الكتب المقدسة أيضا كما هي للقرآن . ولا بدع في هذا التخصيص ففي اللغة الانكليزية أسلوب من التعبير خاص بالشعر والكتب المقدسة حتى الوثائق الرسمية القديمة ، وانما نحن ننشد لغة عربية بسيطة سهلة الحفظ والتعبير ، لكي تكون في متناول الاقلام والافهام

واذا أصررنا على أن نجعل لغتنا مستمدة من لغة القرآن ، فعلينا أن نسقط من معجمنا كل لفظة ليست في القرآن. فاذا كان ما يبقى منها كافيا للتعبير في المعاملات والعلوم والتفاهم فانعم به تنقيحا للغة ، والا فضرورة الاقتصاد في المجهود والوقت وسهولة التفاهم والتفهيم والتفهم تقضيان علينا بأن نصفى لغتنا تصفية اقتصادية وتنقح قواعدها . والا أضعنا أوقات الطلبة ومجهوداتهم فيما لا فائدة عظيمة منه أو لا طائل تحته ، وأبقينا عثرات وعقبات أمام الأفهام قد يتعثر بها المتفاهمون ويسوء تفاهمهم

ومن منا لا يعلم أن الطلبة يكرهون اللغة العربية بين سائر العلوم للصعوبات الجمة في دراستها وحذقها ، فضلا عن أنها تستنفد من وقتهم وجهدهم ما هم أحوج اليه لدرس العلوم الأخرى التي ازدحمت بها مناهج التعليم بمقتضى هذا العصر

ربما عدت اللغة العربية أغنى لغات العالم بالالفاظ ، ومعظمها مترادفات ، لانها مجموعة لغات قبائل عديدة مختلفة . على أن ما هو لازم من ألفاظها للتعبير ليس الا القدر القليل منها . واما القدر الاكبر فمهجور أو حوشي وبعضه نافر ، ولكن الكتاب ولا سيما كتاب هذا العصر لا يقتصرون على استعمال الفصيح الشائع منها واللازم للتعبير السليم ، بل هم يوغلون متحذلقين ومتظرفين في استعمال أي لفظ عثروا عليه في قراءات المصنفات القديمة وأشعار الجاهلية ، من غير أن يعيروا أي اعتبار لفصاحة اللفظ وتجافي غرابته وهجنته أو نفوره ، على الرغم من أن أدباء العرب الذين سبقوهم بعد الاسلام حذروا طلاب البيان والبلاغة من الالفاظ الحوشية والوحشية والنافرة . وفي يقين بعض كتابنا أنه كلما كثرت هذه الالفاظ الغريبة في كتاباتهم عدت كتاباتهم بليغة وكانت أدبا رائعا ، ولا يهمهم أن يفهم القراء كتاباتهم أو كيف يفهمونها ، أو ماذا يفهمون منها . اذن فلمن يكتبون ؟ ألا'نفسهم ؟ كأنهم وحدهم يقرأون ؟!

وأغرب ما روى من هذا القبيل أن بعضهم قبل أن يشرع في كتابة مقاله ، يبسط أمامه بعض كتب اللغة ومعجماتها ، وينتقى الالفاظ التي يظنها تلائم موضوعه ، ويدونها أمامه . ثم يشرع يكتب وينزل تلك الالفاظ في عباراته تنزيل قطع العاج أو الاصداف في الفسيفساء سواء اقتضاها سياق الموضوع أو لم يقتضها . ولا يتورع عن أن يضحى بالمعنى اعجابا بفسيفساء عبارته . فكأنه يبتغي أن يطرز ديباجته باسلاك من ذهب ، وما هي الا أسلاك من نحاس أو رصاص تصدأ قبل أن تعرض للنظر ، أو هي نقوش تتنافر حين تقرأ ، ويسقط بناء البيان من تحتها فلا يبقى للقارىء الا معان متلاحقة غير متناسقة أو سخافات مبهمة

وكثيرا ما تضلل الالفاظ الغريبة القارىء عن المعنى المقصود ، اذ ليس القاموس فى يده ليتحقق معنى اللفظ الغريب ، فيعتمد على القرينة فى تفهم المعنى المراد . ولكن لا يندر أن تخونه القرينة فترسم فى مخيلته معنى آخر غير معنى العبادة . وقد يغويه التكيس فى الكتابة أو الكلام ان يحذو حذو ذاك الكاتب فيستعمل تلك الالفاظ فى كلامه أو كتابته ، فيعز عليه بيان ما يعنى ، أو يفهم السامعون غير ما يعنى . وقد يتواتر هذا الضلال بين القراء والكتاب بسبب فهم الالفاظ واستعمالها لغير معناها

مثال ذلك قولهم : « هذه مومس تعيش بمال السحت » ففهم بعضهم السحت الدعارة ، لاعتقاده أن مال المومس ثمن فحشها . وأخذها عنه بهذا المعنى واستعملها بهذا المعنى فضلل بها قراء آخرين كما أضلهم القائل الاول ، لان معنى السحت المال الحرام كمال اللص ومال المحتال ونحوهما

وكذلك قولهم : « أذله الاملاق » فظنه بعضهم يعنى التملق لان اللفظين مشتقان من مادة واحدة ، فى حين أن الاملاق هو الاسراف حتى الفقر . فهل يا ترى قولهم « أذله الاملاق » أبلغ وأفصح من قولهم « أذله الفقر »

وقولهم : « خدعنا بيلمعيته » فظن بعضهم أنهم يريدون : « خدعنا بألمعيته » أى بذكائه لما بين اللفظين من التقارب . على أن اليلمعى هو من يخلط الصدق بالكذب . فهل ذلك القول أفصح من قولهم خدعنا بخليط الصدق والكذب

وهل يا ترى قولنا : « ان أعداءنا لا يتركون فرصة لقص أطراف البلاد الا احتبلوها » أفصح من قولنا : « الا اغتنموها » . وهل قولنا : « لا يزال سادرا فى لذاته » أفصح وأبلغ من قولنا : « ممعنا فى لذاته أو متماديا بها » . وهل اذا قلنا : « أسغبت أتينا » كان أفصح من قولنا حلت مجاعة بأتينا . أليس الجوع أفصح وأبلغ من الطوى والسغب . وهل « تفيهق فى حديثه » أفصح من « توسع فى حديثه » . أو « تفيهق فى مشيته » أفصح من تبختر . وهل الضرغام والضيغم أفصح من الاسد والسبع ؟ وهل القرضاب أفصح من السيف أو الحسام ، وقس على ذلك كثيرا من الالفاظ التى يتهافت اليها الكتاب وهى اذا لم تفسر فى الحاشية فقد يفهمها القراء خلاف معناها . فلماذا يتهافتون الى هذه الالفاظ النافرة والغريبة ويندون عن الالفاظ المأنوسة ؟ لعلهم يحسبون البلاغة هى فى تنسيق الالفاظ الغريبة والمهجورة والنافرة . فلا بدع اذن أن يقوم فى ظن السذج من القراء أن الكتابة كلما كانت غامضة بسبب غرابة ألفاظها كانت أبلغ

رأيت يوما شخصا يقرأ بصوت مسموع مقالا فى مجلة تسوق المقالات التى من ذلك الطراز من الانشاء المنقوش بالالفاظ المقعرة . فقلت له : « ماذا فهمت يا صاحبى من هذا المقال؟ » فنظر الى شزرا وقال : «هل تنتظر ممن هو مثلى أن يفهم هذا الكلام البليغ؟»

قلت : « اذا كنت لا تفهم ما تقرأ فلماذا تقرأ ؟ »

قال : « لكى أتلذذ بهذا الكلام العظيم »

قلت : « وماذا تستفيد منه اذا كنت لا تفهمه »

قال : « هل يجب أن أستفيد ؟ »

قلت : « طبعا . ان الغرض من الكتابة منح القارىء فائدة والا فعبثا يكتب الكتاب ويقرأ القراء »

ففكر هنيهة ثم قال : « حقيقة . ماذا أستفيد من كتابة لا أفهمها . ولكنى أحب يا صاحبى أن أقرأ كتابات بليغة كهذه »

قلت : « لو كنت تقرأ كتابا ككتاب كليلة ودمنة مثلا أو مقالا من طراز لفته لحصلت على البليغ المفهوم »

فتأمل ماذا يفهم القراء مما يكتبه بعض الكتاب . ألا تأسف على مطبوع الورق المضاع فى هذا العبث ؟

لو كان كتابنا يتحون عن اعنات قرائهم فى تلك البلاغة السيفة ، واجهاد أذهان قرائهم فى تفهمها ، لاصابوا كبد البلاغة الحقيقية التى من أول شروطها فصاحة اللفظ المأنوس وسلامته من الغرابة والنفور

واذا شئنا أن نصفى لغتنا لنحصل على صفوة الالفاظ الفصيحة المأنوسة المألوفة ، وجدنا هذه الصفوة لا تزيد على الالفى لفظة ، وانها تكفى للتعبير عن كل معنى يلوح فى الذهن (ما عدا المعانى الفنية البحتة) . وأما ما يبقى بعدها من الالفاظ غير اللازمة فنتركه فى المعجمات كمتحف الآثار اللغوية القديمة فنعود اليها فى تفسير تراثنا الادبى عند اللزوم . ثم نقدم لطلاب اللغة معجم الصفوة الصغير لتحديد ما ينبغى استعماله فى الكتب والمكاتبات والمخاطبات العمومية . وهكذا نجعل لغتنا سهلة صالحة للتفاهم التام ، ونرفع عن عاتق طلابها معظم أثقالها

تنقيح قواعد اللغة

بقيت عقبة أخرى فى أداة تفاهمنا صعبة المرتقى ناحية الهم وهى قواعد لغتنا الصرفية والنحوية . وجميع المثقفين عندنا يعلمون جيدا أن قواعد لغتنا أعقد قواعد لغات الامم المتمدنة وأصعبها وأكثرها تفرعا وأحوالها شواذ بحيث يقضى دارسوها السنين الطوال فى درسها من غير أن يزكنوها كلها بتفاصيلها . وسبب ذلك أنها مجموعة أساليب لقبائل قديمة مختلفة فى التعبير . وكلنا يلاحظ أن الجانب الاكبر منها لا لزوم له فى التبيان ، بل بعضه يؤدى الى اللبس ، والاقتصاد عنه أصلح للافصاح والايضاح

ولا أدرى لماذا نحن مرغمون على أن نخضع لدستور نطق به عفوا وبلا ترو سائق الظعان أو راعى بعران أو غازى جيران الخ . ولماذا لا نهذب هذا الدستور بحيث يتمشى مع حضارتنا من غير تعثر ويجرى فيها من غير جران

فى النحو علامة النصب الفتحة وعلامة الخفض الكسرة . ولكن يستثنى جمع المؤنث

السالم فينصب بالكسرة والممنوع من الصرف فيخفض بالفتحة . فلماذا هذا الاستثناء ؟ ألكي تزيد القواعد تعقيدا والبيان تقييدا ؟ اذا أطلقت القاعدة على هذين الامرين فهل يطمس المعنى ؟ اذا قلت رأيت السيدات ومررت بابرهيم وبأفضل منه فهل يغلق المعنى على القارىء

ولماذا المنع من الصرف ؟ يقال ان سببه ثقل الممنوع اذا صرف . فهل زينب أثقل لفظا من سرادق ؟ وتلك ممنوعة وهذه مصروفة بحكم القاعدة

ولماذا نونا التوكيد المشددة والمخففة ؟ وأحكامهما مختلفة مع الافعال الخمسة ولا سيما في الافعال الناقصة (المعتلة الآخر) . ولا أظن أحدا من حافظي قواعد اللغة يستطيع أن يذكر تلك الاحكام من غير أن يعود الى الكتاب مهما اجتهد في حفظها . بل لماذا التوكيد بالنون وعندنا له ان واللام وواو القسم . بل ما لزوم التوكيد اذا كان القائل معروفا بالصدق ؟ وما فائدته اذا كان هذا موصوفا بالكذب؟ والملاحظ جيدا ان الكتاب لا يستعملون نون التوكيد بتاتا . فلماذا يرهق طلاب اللغة بحفظ أحكامها وهي معقدة صعبة وهم لن يستعملوها

ولماذا يختلف العدد والمعدود في التذكير والتأنيث بشروط ؟

ولماذا لا تلحق ياء النسبة جميع الاسماء كما هي ـ المفرد والجمع . فنقول الدولى للمفرد والدولى للجمع كما نقول الحقوقي . واذا رددنا الجمع للمفرد ونسبنا له ، فكيف نميز النسبة لكليهما ؟ لماذا لا تطرد النسبة لصيغة فعيلة كما هي لسائر الصيغ فيقال فعيلي لكل فعيلة ؟ أم نريد أن نزيد العبء على الطالب عبثا لا طائل تحته ؟

ولماذا يستوى المذكر والمؤنث في صيغتي فعول بمعنى الفاعل وفعيل بمعنى المفعول مع ذكر الموصوف ؟ فهل يغمض المعنى اذا قلت جاءتني امرأة جهولة وجريحة ؟ وقد بلغ من حرص بعضهم على هذه القاعدة أن أطلقوها على كل لفظ على وزن فعول حتى ولو كان اسم مفعول من الاجوف فقالوا « السيدة المصون » . هذه جناية من جنايات بعض القواعد الفضولية في اللغة

ولا يتسع المجال لسرد جميع قواعد اللغة التي لا لزوم لها في التعبير ، ولا يثلم المعنى اذا عدل عنها ، بل بالاحرى يخف عبء اللغة ويفتر الحنق عليها ويقل كره الاحداث لها بسبب هذه الصعوبات المكتنفة لها ، ويتوفر كثير من وقتهم وجهدهم لتحصيل العلوم الاخرى التي هي أهم وأفيد

فاذا فوض الى لجنة حرة أن تشذب قواعد اللغة من غير أن تمس جوهرها وتردها الى أبسط ما يمكن بحيث تبقى صالحة تمام الصلاح للتعبير من غير وقوع التباس أو غموض يسهل تعلمها والتعبير فيها بكل وضوح ، وكانت خير أداة للتفاهم بين جميع الامم العربية ، وعادت محبوبة عند طلابها من أهلها ومن الاجانب أيضا

نقولا الحداد

مستقبل اللغة الانجليزية
فى تفاهم الشعوب

يقول المفكر الانجليزى الكبير « هربرت جورج ويلز » ان من العوامل القوية التى تكفل تحقيق السلام بين شعوب العالم ، انشاء لغة عالمية تقرب بين أذهان الناس وأفكارهم ، وتيسر سبل التعارف والتقارب بينهم جميعا . واذ كانت المحاولة فى جعل « الاسبرانتو » لغة عالمية تأخذ مكان اللغات القائمة قد أخفقت برغم ما بذل لها من جهود ، فلعل المحاولة التى يريد الحلفاء أن يقوموا بها فيما يقومون به من مشروعات ما بعد الحرب، اقرارا للسلام وتدعيما لاركانه ، وهى محاولة جعل اللغة الانجليزية لغة عالمية لكافة الشعوب ، تكون أدنى الى النجاح والتوفيق ، لما تمتاز به هذه اللغة على سائر اللغات من مزايا شتى أوضحها كاتب هذا المقال

« اللغة الانجليزية ضيقة النطاق قليلة الانتشار ، لا تتجاوز شواطىء هذه الجزيرة التى تسكنها ، ولا يرجى أن تذيع فيما وراءها يوما ما »

كتبت هذه الكلمة فى سنة ١٥٨٢ ، وكاتبها هو « ريتشارد مولكاستر » أحد النحويين الانجليز الاوائل . ففى ذلك العهد كان لا يتكلم الانجليزية أكثر من أربعة أو خمسة ملايين من الالسن ، وكان ترتيبها بين اللغات الاوربية فى المرتبة الخامسة ، وتسبقها الفرنسية فالالمانية فالايطالية فالاسبانية على الترتيب . ولكن لم ينتصف القرن التاسع عشر حتى شقت الانجليزية طريقها الى المرتبة الاولى ، وغدت اليوم أعظم اللغات الاوربية انتشارا ، اذ يبلغ عدد المتكلمين بها قدر عدد من يتكلمون اللغتين الاوربيتين الكبريين ، الروسية والالمانية ، مجتمعتين

وليست الانجليزية اللغة الاولى ــ وفى غالب الامر اللغة الوحيدة ــ لاعظم امبراطوريتين فى العالم فحسب ، بل هى الى ذلك اللغة الثانية فى أقاليم أخرى فسيحة الارجاء حاشدة بالسكان خارج حدود الامبراطوريتين البريطانية والامريكية . وتكتب بالانجليزية ثلاثة أرباع البريد فى العالم ، ويطبع بها أكثر من نصف جرائد العالم ، وهى اللغة التى تذيعها ثلاثة أخماس ما فى العالم من محطات الاذاعة اللاسلكية . وما يستطيع قائد سفينة أن يعبر بها محيطات العالم الا بعد أن يلم بكثير أو قليل من الانجليزية

وسائر اللغات التى ما تزال تشق طريقها وتأخذ مكانها خارج موطنها ــ كالاسبانية فى أمريكا اللاتينية ، والايطالية فى حوض البحر الابيض المتوسط ، واليابانية فى أرجاء الشرق الاقصى ــ لم تستطع أن تصمد أمام تيار اللغة الانجليزية ، الا بعد أن طمعت نفسها بكثير ،

وكثير جدا ، من المفردات والتراكيب الانجليزية . فجميع هذه اللغات قد أدخلت فى متنها من الكلمات والعبارات الانجليزية ما دعا – كما هو الشأن فى اليابانية – الى انشاء قواميس بأكملها تشتمل على ما أضفته الانجليزية على هذه اللغات

وقد أخذت الانجليزية ، فى العهد الاخير ، تفرض نفسها على الفرنسية فى لغة العلاقات الدبلوماسية ، وعلى الالمانية فى لغة البحوث العلمية

ومن الواضح أن ليس ثمة لغة أخرى يتكلمها من الناس قدر من يتكلم اللغة الانجليزية . فالروسية لا يتكلمها من أبناء الاتحاد السوفيتى ، ويبلغ عددهم مائة وثمانين مليون نسمة ، سوى ثمانين مليون نسمة فحسب ، أما الباقون فيتكلمون لغاتهم المحلية التى تعد بالعشرات . أما فى خارج روسيا فلا يكاد يذكر عدد من يتكلم الروسية ، لان جميع وحدات الاتحاد السوفيتى واقعة فى اقليم واحد متصل الأجزاء

وتلى الالمانية الروسية فى مدى ذيوعها . فيتكلمها خمسة وستون مليون لسان فى ألمانيا ، يضاف اليهم سبعة ملايين فى النمسا ، وثلاثة ملايين فى سويسرا الالمانية ، وخمسة ملايين من ألسن الاقليات الالمانية الموزعة هنا وهناك ، وخمسة ملايين أخرى فى بعض مناطق روسيا والبلقان والبلطيق وأمريكا الجنوبية . أى أن مجموع من يتكلمون الالمانية لايتجاوز خمسة وثمانين مليونا من الانفس

وتأتى الفرنسية والأسبانية بعد هذا ، ولا يتجاوز عدد من يتكلم كلا منهما خمسة وخمسين مليونا من الالسن

وليس ثمة ما ينافس الانجليزية فى آسيا ، فمع ان اللغة الصينية هى لغة ثلاثمائة مليون نسمة ، الا أنها تنقسم الى عدد من اللهجات المتباعدة فى نطقها ، ونحوها ، وكثير من مفرداتها ، حتى لا يصح أن تعتبر لغة واحدة ، بل مجموعة من اللغات المتقاربة

وهكذا نرى الانجليزية فى المرتبة الاولى التى لا ترقى اليها لغة أخرى تنافسها . ثم هناك من الشواهد ما يدل على أن أفق ذيوعها يتسع على مر الايام ، فليس ثمة لغة أخرى يتكاثر عدد الناطقين بها فى سرعة عاجلة ، وفى مناطق نائية . فقد مر وقت كانت فيه الفرنسية اللغة المقررة للعالم المسيحى كله ، كما كانت اللاتينية من قبل طوال العصور الوسطى ، فكان كل متعلم ومثقف فى سائر أرجاء العالم المسيحى يتكلم الفرنسية الى جانب لغته الاصلية ، وما زال الى اليوم عدد من يتكلمون الفرنسية بالتعلم أكثر ممن يتكلمونها بالوراثة . ولكن الامر تغير فى العهد الحديث ، فروسيا – التى تقوم سياستها فى كل شأن على أسس من الواقع الذى لا يرتبط بشىء من العرف والتقليد – قد فوقت الانجليزية والالمانية فى مدارسها ومعاهدها على سائر اللغات الأجنبية . ومدارس ألمانيا واسكندناوة واليابان تعنى بالانجليزية دون سواها من اللغات . بل ان الفرنسيين أنفسهم بدأوا يتعلمون الانجليزية ، وكثر بينهم فى العصر الحديث عدد من يجيدها قراءة وحديثا

وليس من اليسير أن نعرف عدد من يتخذون الانجليزية لغة ثانية الى جانب لغتهم

الاصلية ، ولكن هناك بعض حقائق تعيننا على ادراك مدى انتشارها فى ربوع العالم جميعا. فيقول أحد رجال السلك السياسى فى يوكوهاما : انه لا غنى للاجانب فى اليابان عن معرفة الانجليزية ، وهم ليسوا فى حاجة الى اليابانية قدر حاجتهم الى الانجليزية التى لايستطيعون أن يتفاهموا بدونها فيما بين بعضهم بعضا . والنالبية الكبرى من المتعلمين فى الصين يعرفون الانجليزية ، لان الصلة الادبية ـ فضلا عن الصلة المادية ـ بين الصين وامريكا كفيلة بأن تنشر الانجليزية ، لغتها وثقافتها ، بين الطبقات الصينية المتعلمة . ومع أن عدد من يستطيع أن يقرأ الانجليزية ويكتبها فى الهند لا يتجاوز مليونين ونصف مليون ، الا أنها هى اللغة الوحيدة فى ميدان الاعمال والتجارة ودوائر الحكومة والسياسة . وعلى أى حال فانه يمكن أن تقدر عدد من يتخذون الانجليزية لغة ثانية لهم بعشرين مليون نسمة ، ومع أن أغلبهم لا يجيدون القراءة والحديث بها ، الا أنهم يستطيعون على الاقل أن يتفاهموا بها

***

ما مرجع تفوق اللغة الانجليزية وذيوعها ؟

مرجع هذا الى أن الشعوب التى تتكلمها قد انتشرت فى أرجاء العالم ، تغزوها بالرحلة والتجارة والسياسة والحروب . فهذه الشعوب أنجبت أعظم من عرف العصر الحديث من الرحالة والمكتشفين ، ومن البحارة والتجار المغامرين ، ومن المستعمرين المجاهدين المثابرين . ومرجع هذا الى أن هذه الشعوب ضعيفة فى تعلم اللغات الاجنبية ، لا تصبر على دراستها ولا تجيد النطق بها ، فاضطرت الى أن تحمل معها لغتها الى حيث تسافر وتستقر وتستعمر ، والى أن تفرضها على الشعوب التى تبسط عليها سلطانها أو تقيم بين أهلها ، على نقيض كثير من الشعوب الاخرى ، وعلى الاخص شعوب البحر الابيض المتوسط ، التى يسهل عليها تعلم اللغات الاجنبية ، فلا تكاد تستقر فى بلد جديد حتى تتعلم لغته وتغدو فى غير حاجة ماسة الى لغتها الاولى.

ولكن ثمة ما هو أبعد أثرا من ذلك فى اذاعة اللغة الانجليزية وتوسيع آفاقها . ان هذه اللغة قد نفذت الى أقصى ربوع العالم ، مجابهة لغات منافسة قوية النفوذ راسخة الدعامة ، لا عن طريق القوة والفرض ، بل بفضل ما لها من مزايا معينة اختصت بها دون سائر اللغات . فقد قال « يعقوب جريم » منذ قرن مضى : « ما من لغة من اللغات الحية يمكنها أن تبارى اللغة الانجليزية فى ثروتها ، وفى حكمتها ، وفى اقتصادها المحكم الدقيق » . وأضاف الى هذا « اوتو جيسبرشن » منذ قريب : « أنها تبدو لى لغة مذكرة . انها لغة الرجل المكتمل النماء ، الذى لم يبق فيه الا أثر ضئيل من الطفولة أو الانوثة » . ثم يفصل هذا العالم اللغوى كلامه فيقول : ان الانجليزية لغة سهلة يسيرة ، واضحة الجرس بينة الصوت ، منطقية فى ترتيبها وتنسيقها ، خالية من مظاهر الحذلقة الزائفة . ثم أية ميزة كبرى تلك التى اتصفت بها هذه اللغة حين خلا نحوها من اسم الجنس ،

فليس بين المذكر والمؤنث فيها فوارق تجهد من يطلب تعلمها . لقد أمضيت سنوات أحاول أن أتذكر فيها ما اذا كانت كلمة يد « Hund » أوهر « Katze » الالمانية مذكرة أو مؤنثة ، وما يستتبع ذلك من أداة تعريف خاصة ، ومن تصريف خاص لما يتبعها من صفات ، وما زلت الى اليوم لا أدرى وجه الصحة فى هاتين الكلمتين وفى مئات أمثالها

عند ما يتناقش رجال التربية فى أمر اللغة الانجليزية ، يبدأون بما يلاقيه المتعلمون الاجانب من المشقة فى حفظ مفرداتها التى تبلغ على الأقل ضعف ما فى أية لغة أخرى من مفردات . ولكن واقع الامر أن طالب اللغة لا ينظر الى عدد مفرداتها ، اذ ليس المهم فى معرفة لغة ما استيعاب ما فيها من ألفاظ ومصطلحات وتراكيب ، وانما ينظر الى أصول مفرداتها والى قواعد نحوها . فاذا عرفت معنى « الاصل » فى كلمة انجليزية ، أمكنك أن تعرف معنى عدد كبير من الكلمات المشتقة من هذا الاصل ، بما يضاف الى صدرها أو الى عجزها من حروف أخرى . هذا الى أن الانجليز اختصروا كثيرا من الكلمات اللاتينية الطويلة ، وحولوها الى كلمات قصيرة يسيرة ، يسهل نطقها ويسهل حفظها . وليس ثمة لغة أوربية أخرى تشتمل على كلمات ثلاثية الاحرف أو رباعيتها قدر ما تشتمل عليه اللغة الانجليزية . وليس ثمة لغة أوربية أخرى تعبر فيها عن المعنى بعبارة موجزة مقتصدة كما تعبر عنه باللغة الانجليزية . والدليل على ذلك تلك التجربة التى قام بها اللغوى الامريكى « والتر كيركونيل » ، فقد أخذ يحصى عدد الكلمات التى تلزم لترجمة « انجيل مارك » الى أربعين من اللغات الهندية الاوربية ، متدرجة من الفارسية والهندوستانية الى الانجليزية والفرنسية . فماذا وجد ؟ وجد أن اللغة الانجليزية أكثرها توفيرا واقتصادا ، اذ أن ترجمة هذا الانجيل لم تستغرق منها أكثر من ٢٩٫٠٠٠ لفظة ، فى حين أن ترجمته الى اللغات التيوتونية احتاجت الى ٣٢٫٦٥٠ كلمة ، والى المجموعة السلافية الى ٣٦٫٠٠٠ كلمة ، والى المجموعة اللاتينية الى ٤٢٫٠٠٠ كلمة ، والى المجموعة الهندية الايرانية ، مثل البنغالية والفارسية والسنسكريتية الى ٤٣٫١٠٠ كلمة ، ومن الشائع أن اللغة الفرنسية لغة موجزة مركزة ، وهذا صحيح اذا قورنت بابنتي عمومتها الايطالية والاسبانية ولكنها اذا قورنت بالانجليزية كانت لغة مسرفة مبذرة ، تنفق ستا وثلاثين ألف كلمة فيما لا تنفق فيه الانجليزية سوى تسع وعشرين ألفا فحسب !

يخيل الى أكثر الاجانب فى بداية تعلمهم الانجليزية أنها لغة سهلة يسيرة كلغة الأطفال . فاذا انتقلوا من دور تعلم الكلام بها الى دور تعلم قراءتها وكتابتها ، صدمتهم بكثرة مفرداتها وبصعوبة تهجيتها . ولكنهم اذا ساروا فى تعلمهم شوطا طويلا ، مرنوا على فهم ما يغمض من ألفاظها ، وعلى ادراك ما يبهم فى النطق من حروفها ، فلا يلبثون أن يجدوها لغة مريحة يسيرة ، الى جانب ما فيها من ميزة الدقة والاقتصاد

(خلاصة مقال بقلم هـ . ل . منكين فى مجلة باريد)

أسطورة أغريقيـــــة

بقـــــلم ستالين

تروى الاساطير الاغريقية أن اله البحار « بوسايدون » والهة الارض « جويا » أنجبا بطلا عظيما اسمه « انتيوس » . وكان هذا البطل دائم الصـلة ، متين العلاقة بأمه التى أنجبته ، وأرضعته ، وأنشأته

وقد استطاع هذا البطل « انتيوس » أن يقهر كل بطل نازله وحاربه ، حتى غـدوا يعدونه البطل الذى لا سبيل الى قهره وغلبه ، مهما كان خصمه قويا جبارا

ولكن من أين أتته هذه القوة البالغة ؟ وكيف أمكنه هذا البأس الشديد ؟

ان فى الامر سرا : فقد كان هذا البطل اذا اشتد به بأس عدوه ، وتمكنت منه يد غريمه ، يسرع فيلمس الارض بكفه ـ هذه الارض التى أنجبته ، وأرضعته ، وأنشأته ، ومدته بجميع أسباب القوة والحياة

وهكذا تبين أعداؤه أن ثمة نقطة ضعف فى أمر البطل انتيوس ، فلو انهم استطاعوا أن يفصلوا بينه وبين أمه الارض بأية وسيلة ، لامكنهم أن يتغلبوا عليه

فأخذ أعداؤه يتربصون به الدوائر ، ويحيكون له المكائد ، ليفصلوا بينه وبين الارض . وقد أمكنهم ذلك ذات يوم حين قام أحدهم يريد حرب انتيوس وهزيمته . وهذا هو البطل « هركليوس » الذى أخذ انتيوس بين يديه ، ورفعه من فوق الارض ، وتركه معلقا فى الهواء ، وحال بينه وبين لمس أمه ، واستمداد عونها وتأييدها .. وبذلك استطاع أن يغلب غريمه شر غلبة

وانى أعتقد أن البلاشفة يذكروننا بهذا البطل الذى تتحدث عنه الاسطورة الاغريقية . فهم ـ كالبطل انتيوس ـ أقوياء ما ظلوا على صلتهم الوثيقة بأمهم ـ وما أمهم الا جماهير العمال والفلاحين الذين أنجبوهم ، وأرضعوهم ، وأنشأوهم ، وهيأوا لهم اسباب القوة والتأييد

فما بقوا على صلة وثيقة بهذه الام ـ بهذه الجماهير ـ ظلوا أقوياء لا يقهرون ولا يغلبون

وهذا هو سر قوة البلاشفة ـ هـذه القوة التى صمدت لأخطر الكوارث وقهرتها ، وسوف تصمد لافدح الاحداث وتقهرها ..

الانجليزى الذى اخترع النازية

ليست النازية مجرد حركة سياسية ، بل هى فلسفة سياسية كذلك

فأما عن الحركة النازية فقد بدأها هتلر وقام عليها منذ نشأتها الى الآن . وأما الفلسفة النازية فلم يكن لهتلر من فضل فيها سوى انه قرأ أفكار نفر من الكتاب والفلاسفة ، ثم أذاع ما قرأ فى جماهير الشعب الالمانى ، بما وهب من مقدرة فذة فى الخطابة ، وبراعة مدهشة فى الدعاية ، وكفاية مشهودة فى التنظيم والتوجيه

فمن هم أولئك الذين نقل عنهم هتلر مبادىء النازية ؟ يمكن أن نذكر الفيلسوف « فيخته » الذى أله الدولة ورآها جماع الحق والخير . ويمكن أن نذكر الفيلسوف « نيتشه » الذى مجد القوة وأشاد بالعنف . وقد نذكر كذلك الموسيقى « واجنر » وقد مثل فى سيمفونياته حياة الفرسان التيوتون الهائمين فى الفيافى محاربين مظفرين

ولكن هؤلاء لم يمسوا فلسفة النازية الا من بعيد . أما المفكر الذى وضع مبادئها وأصولها مفصلة مسهبة فلم يكن فيلسوفا أو شاعرا أو موسيقيا ألمانيا ، وانما كان رجلا انجليزيا : ذلك هو هوستن ستيوارت تشمبرلن ، الذى يدل اسمه على أنه ينتمى الى أسرة من أعرق الاسر الانجليزية

كان هذا الرجل يقول عن نفسه فى صدر حياته : « ان أبى انجليزى ، وأمى اسكوتلندية ، واحدى جداتى من ويلز ، فأنا ابن صميم لبريطانيا العظمى »

ثم ذهب الى ألمانيا حيث درس علم النبات والطب فى جامعة غنت ، ثم قرأ جوته ودرس كانت وسمع موسيقى واجنر . فأحب كل شىء ألمانى حبا مسرفا جنونيا ، فما عاد يعجب بشىء سوى ما كان ألمانيا ، سواء كان أدبا أو موسيقى أو علما او فلسفة ، او سياسة او حربا . .

وأجاد اللغة الالمانية وآثرها فى حديثه وكتابته على لغته الانجليزية ، فلم يكتب بعدئذ الى أن مات فى سنة ١٩٢٧ كلمة واحدة بغير اللغة الالمانية

ثم قادته بحوثه الى أن يضع تاريخا ضخما للجنس البشرى . فكتب كتابه المشهور « أسس القرن التاسع » وفيه حاول أن يثبت أن الدور الذى أداه « الجنس » فى تقدم الحضارة أهم الادوار جميعا، وان جميع ما أصاب الحضارة من ارتقاء أو انحطاط يرجع أولا وقبل كل شىء الى « الجنس »

ثم قرر تشمبرلن فى كتابه هذا أن كل ما حدث فى أوربا الغربية من تقدم وارتقاء ، كان بفضل جنس آرى معين جاء من شمال الهند وانحدرت منه الشعوب التيوتونية الحالية . وكذلك قرر أن الحضارة الغربية لا يمكن انقاذها والحفاظ على قوتها ونموها ، الا اذا ساد أوربا هذا الجنس الالمانى « النقى » القاسى »

وقد راج هذا الكتاب فى ألمانيا رواجا عظيما ، واشترى منه قيصر ألمانيا السابق غليوم الثانى ألفى نسخة وزعها هدايا فى جميع انحاء العالم . واتخذ من تشمبرلن وليا حميما . ثم وقع هذا الكتاب منذ ثلاثين عاما فى يد شاب عاطل بائس من سكان مدينة فينا ، يدعى ادولف هتلر ، فوجد فيه « البشارة » التى يبحث عنها ويسعى اليها . فقد أوضح له هذا الكتاب ـ كما قال ـ أسباب ما يعانيه العالم من خزى وانحلال ، ووسائل انهاض الانسانية من الهوة التى تتردى فيها ، ما بقيت محرومة من سيادة الجنس الالمانى !

العظماء في سن الخمسين

عند ما يبلغ المرء سن الخمسين ينظر فيرى وراءه الشوط الاطول من حياته تولى وانقضى، ولايرى أمامه الا مرحلة قصيرة يجتازها قريبا. تلك ان هذه هى السن — على حد قول أحد الادباء الفرنسيين — التى يبدأ فيها المرء يكثر من استعمال « الفعل الماضى » ويقلل من استعمال « الفعل المستقبل » ولكن دراسة حياة العظماء ترينا أن ثمة نفرا كبيرا منهم بلغوا تلك السن ولما يظفروا بقسمهم من الشهرة والصيت ، وأنهم أمضوا هذه العقود الخمسة وما زالوا يجاهدون سعيا الى هدفهم المنشود ، وان كان ثمة نفر آخر بلغوا قبل تلك السن غايتهم القصوى ، أو قطعوا فى سبيلها المرحلة الكبرى . فلعل الذين لم تسعفهم الحياة بنصيبهم منها ، وقد انقضى شبابهم ورجولتهم ، يجدون فى هذا المثال أنه ما زال فى كهولتهم وشيخوختهم متسع يثابرون فيه على السعى والكفاح ، ويأملون فيه تحقيق أمانيهم واصابة أهدافهم

هؤلاء كانوا فى سن الخمسين مغمورين

كريستوفر كولمبوس

جاءت عليه سن الخمسين وما زال فى عسر وضيق من أمره ، لا يجد له نصيرا على تحقيق أمنيته الكبرى . فما من أحد آمن برؤيته أن الى الغرب فى عرض البحر طريقا الى الهند . ومع أن فرديناند وايزابلا ملكى اسبانيا رضيا بتمويل رحلته الاولى فى سنة ١٤٩٢ ، الا أنه لم يوفق الى كشف امريكا الا بعد ذلك بست سنوات ، أى عند ما بلغ السنة الاولى بعد الخمسين من عمره . ولكنه لم يعرف لا هو ولا أحد من معاصريه أنه رسا على أرض قارة جديدة ، أغنى من أية قارة من القارات القديمة جميعا . ومات كولمبوس فى سنة ١٥٠٦ ، أى فى سن التاسعة والخمسين ، دون أن يظفر بشىء من المجد أو النفع الذى كان حقيقا بصاحب أكبر كشف جغرافى عرفه التاريخ

لويس باستير

كان فى سن الخمسين مدرسا فى احدى المدارس ، ولكنه كان قد ظفر حينذاك بعضوية مجمع العلوم الفرنسى ، الا أنه لم يكن قد أظهر للعالم كشوفه الطبية الخطيرة ، مثل المصل الذى صنعه شفاء من مرض الكلب

وكان فى سن الخمسين ما يزال يعانى خصومة جمهرة العلماء فى فرنسا وأوربا، ومعارضة الهيئات العلمية والحكومية ، وما يزال عاكفا فى معمله بين تلاميذه يجاهد جهاد الابطال فى سبيل الرسالة العلمية التى آمن بها ، ونذر نفسه لتبليغها

المارشال فوش في سن الخمسين ، أي في سنة ١٩٠١ ، كان ضابطا صغيرا مغمورا . وقد بدأ حياته العسكرية في الجيش الفرنسي في الحرب الفرنسية البروسية التي نشبت في سنة ١٨٧٠ ، ولكنه لم يوفق حينذاك لان يقوم بدور هام يبرز اسمه أو يظهر كفاءته

وظل هكذا مجردا من أية شهرة خاصة حتى نشبت الحرب الكبرى الماضية .. فلما كانت سنة ١٩١٤ ، ولما كان هو في سن الثالثة والستين ، كان اسمه يدوى في سائر أرجاء العالم ، رمزا للعبقرية العسكرية ، وكانت في قبضة يده مصائر عدة ملايين من جنود الحلفاء ، بل مصائر الديموقراطيتين الكبيرتين حينذاك : ديموقراطيتى فرنسا وبريطانيا

نفيل تشمبرلن كان قد أمضى عاما واحدا من حياته البرلمانية عند ما بلغ سن الخمسين . ولم يرق منصب الوزارة لاول مرة في حياته الا بعد أن جاوز عقوده الخمسة الاولى بثلاث سنوات

أما دوره في سياسة بريطانيا وسياسة العالم ، أما جهاده في سبيل تفادى الحرب واقرار السلم ، أما يومه الاكبر في الحياة ، يوم أعلن أن بريطانيا في حالة حرب مع ألمانيا ، فقد حدث كل هذا وهو في سن الشيخوخة وعلى شرف من أيامه الاخيرة

هؤلاء كانوا في منتصف الطريق الى الشهرة

يوليوس قيصر كان في سن الخمسين قائدا معروفا من قواد الرومان ، فقد فتح بلاد الغال ، وعين حاكما على اسبانيا ، قبل ذلك بسنوات . ولكنه لم يكن حينذاك قد أرسل انذاره النهائى لمجلس شيوخ روما ، ولا عبر النهر زاحفا الى عاصمة الامبراطورية الرومانية

ولم يكن حينذاك قد خلع بطليموس من عرش مصر ، وأجلس عليه كليوباتره . ولا سير جيوشه الى مصر فقهرت المدافعين عنها وغزت أراضيها

ولم يكن حينذاك قد أعلن نفسه ديكتاتورا مطلقا ، يتصرف بأمره في الامبراطورية الكبرى

اوليفر كرومويل بلغ سن الخمسين وهو أول ديكتاتور عرفه التاريخ الحديث . وكان حينئذ قد انتصر على الملك تشارلز الاول ، وأخذه أسيرا ، لينفذ فيه حكم الاعدام بعد ذلك بقليل

ولكنه لم يكن بعد قد غدا « حامى انجلترا » ولم يكن بعد قد حل البرلمان الانجليزى ، ولم يكن بعد قد انتصر على جيوش اسكوتلنده وايرلنده وهولنده . ومات كرومويل في سنة ١٦٥٨ وهو في التاسعة والخمسين ، فكانت سنوه التسع الاواخر أحفل سنى حياته بالعمل والمجد وذيوع الصيت

جورج واشنطون تولى القيادة العليا للجيش الامريكى فى حرب الاستقلال وهو فى سن الخمسين . وكان الى هذه السن يعيش عيشة سراة الريف فى مزرعته النائية ، لا يلقى بالا الى شؤون السياسة وشاكلها . فلما نشب النزاع بين انجلترا ومستعمراتها الامريكية ، وثب الى الصف الاول وتولى تنظيم جيوش الاستقلال وقيادتها ، وهو فى سن الكهولة

ولم ينتخب لرئاسة جمهورية الولايات المتحدة الا بعد أن جاوز الخمسين بسنوات

بنيامين دزرائيلى كان فى سن الخمسين عضوا مبرزا فى مجلس العموم ، ورئيسا لحزب المحافظين ، ووزيرا للمالية . ولكنه لم يرق منصب رئاسة الوزارة الا بعد الخمسين . كما أن أجل أعماله ، وهو شراء نصيب مصر فى اسهم قناة السويس لبريطانيا ، وتمكين يد بلاده من هذا الشريان الحيوى العظيم ، لم يتم الا بعد أن حنكته سنوات الشيخوخة وتجاريبها

هؤلاء كانوا قد بلغوا القمة قبل الخمسين

شرلمان كان فى ذروة قوته وأوج مجده ولما يبلغ من العمر خمسين عاما . كان ملكا على الفرنجة وسيدا على أوربا وما زال فى سن التاسعة والثلاثين . وشن فى عامه الثانى بعد الاربعين أعظم حملاته الحربية الموفقة التى وسعت آفاق ملكه ودعمت أركان حكمه . وحقق حينذاك غايته الكبرى ، وهى توحيد شعوب أوربا جميعا تحت لوائه

وكل ما تم بعد ذلك هو تتويج البابا اياه ملكا على الغرب ، ثم انشاء الامبراطورية الرومانية المقدسة ، خلفا للامبراطورية الرومانية القديمة

وليم الفاتح جاءت عليه الخمسون وهو يحارب فيليب الاول ملك فرنسا الذى ادعى حقه فى ملك نورمانديا . وكان ابنا غير شرعى لروبرت ملك نورمانديا من أم قروية تزوجها من احدى قرى فرنسا

وكان وليم قد فتح انجلترا فى سنة ١٠٦٦ وما زال فى عامه التاسع والثلاثين . وانتصر حينذاك نصرا حاسما على ملك انجلترا هارولد فى معركة هاستنجس الفاصلة ، وغدا فى اثرها حاكما على بلاد الانجليز

لويس الرابع عشر كان فى سن الخمسين مشتبكا فى حروب ضروس مع الامبراطورية الرومانية المقدسة ومع اسبانيا ومع هولندة ومع انجلترا . وقد تولى عرش فرنسا وما زال فى سن الخامسة ، فلما بلغ عامه التاسع والعشرين بدأ حملاته العسكرية ، فغزا أرض الفلاندر واستولى على جميع مدنها وأرجائها

ولم يكن حتى سن الخمسين قد بدأ حرب الوراثة الاسبانية ، ولا تنازل عن نيوفوندلاند لبريطانيا

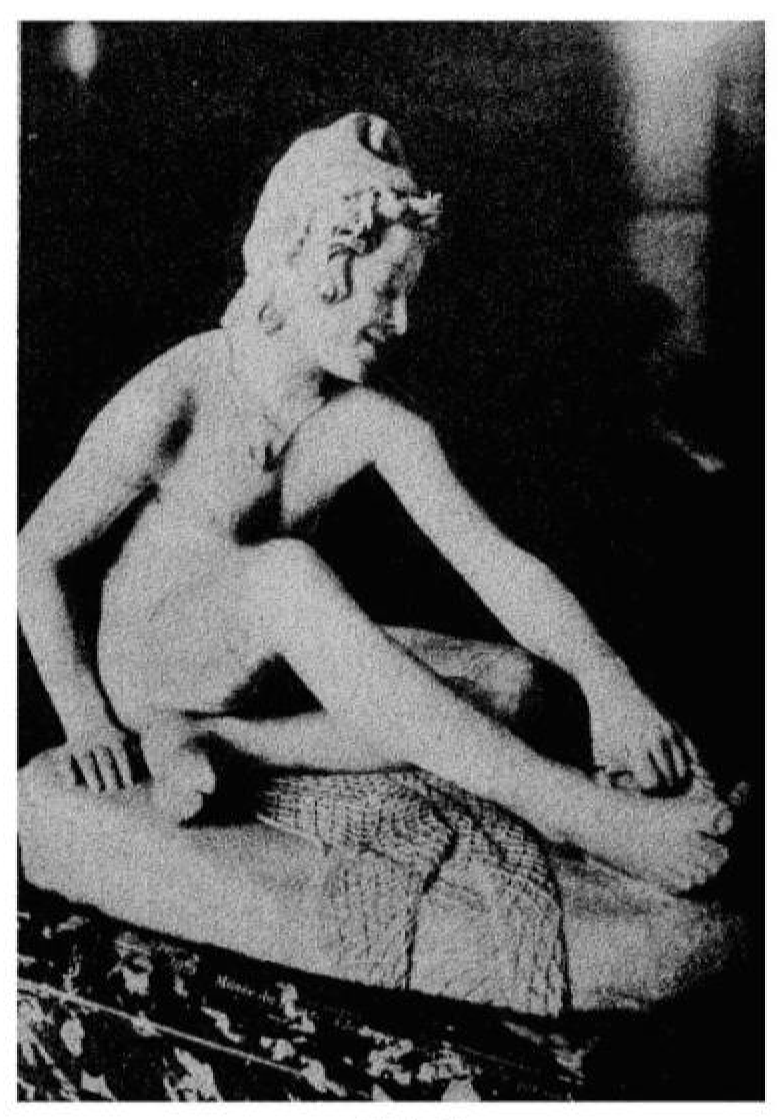
فردريك الاكبر وضع وهو فى الخمسين من عمره حجر الاساس فى بناء بروسيا الجديدة، بعد أن استولى على سيليزيا وقهر جيوش فرنسا . ولكنه لم يكن قد أضاف الى ملكه أكثر من ثلث ما أضافه فيما بعد الخمسين . لم يكن بعد مزق بولندة وضم أكثرها الى ملكه ، ولم يكن بعد استولى على بوميرانيا بأسرها . وكانت هاتان الحملتان الأخيرتان ، حملته على بولندة وحملته على بوميرانيا ، هما اللتان كونتا الجيش البروسى الذى غدا منذ ذلك الحين أقوى جيوش أوربا البرية . ومات فردريك فى الرابعة والسبعين

نابليون كان فى سن الخمسين يتجرع مرارة الهزيمة والانكسار فى سانت هيلانة . فقد كان فى السادسة والاربعين عند ما تلاقى مع ولنجتون ـ الذى كان فى مثل سنه ـ فى معركة واترلو التى ختمت انتصاراته بهزيمة حاسمة . وقد كانت تلك السنون القلائل التى أمضاها فى منفاه قد أحالته كهلا فانيا ، حتى ليشق على من يراه حينذاك أن يظن أنه هو ذلك الذى صار ضابطا فى الجيش الفرنسى وما زال فى السادسة عشرة ، والذى أرغم الانجليز على فك حصار طولون وما زال فى السادسة والعشرين . أو هو ذلك الذى ضم وهو فى الثامنة والعشرين بلجيكا الى فرنسا ووسع رقعة وطنه الى حدود الرين . أو هو ذلك الذى غزا مصر وفتحها ، وقهر بألفين من جنوده جيشا من المماليك والاتراك تعداده عشرون ألف جندى . أو هو ذلك الذى غدا فى السادسة والثلاثين من عمره امبراطورا على فرنسا ، والذى انتصر فى العام التالى فى معركة من أعظم معارك التاريخ ، معركة اوسترلتز ، ثم احتل برلين ، واغتصب بروسيا ، وانشأ مملكة وستفاليا !

توماس اديسون بهر العالم وهو فى الخمسين بعشرات من مخترعاته العجيبة ، منها التليفون والجراموفون والمصباح الكهربائى . وقد باع وهو فى عامه الرابع والثلاثين ، وفى سنة واحدة فحسب ، حقوق اختراعه لمائة واربعة من المخترعات

نيكولاى لينين بلغ سن الخمسين فى سنة ١٩٢٠ ، أى عند ما كان رئيسا لروسيا الشيوعية . وكان لينين ابن موظف صغير ، واعدم أخوه لتآمره على حياة القيصر ، ونفى هو فى سن الشباب الى سيبريا حيث قضى فى كهوفها الثلجية ثلاث سنوات ، ثم فر إلى أوربا ، حيث أخذ يبث الدعوة ويدبر المؤامرة فى عواصمها المختلفة متنقلا بين جنيف وباريس وبروسيا . الى أن أتيح له أن يعود الى روسيا فى سنة ١٩١٧ ، حين توالت الهزائم على الجيش الروسى ، فعاد ليوقد نار الثورة الشيوعية التى طوحت بالقيصرية وأعوانها . ثم استأنف ثورته على حكومة كيرنسكى الديموقراطية المعتدلة، حتى اسقطها وأقام مكانها الحكومة الشيوعية التى وضعت أرض روسيا وغاباتها ومناجمها ، وكل ما فى روسيا من منشآت صناعية ومالية وتجارية ووسائل انتاج فى ملكية الدولة العامة ، وأقامت بذلك النظام الشيوعى لأول مرة فى التاريخ . . كل ذلك ولما يبلغ لينين سن الخمسين!

(عن مجلة ورلد دايجست)



الصياد الصغير

تمثال رائع لصياد من أهالي نابولي ، من عمل المثال رود بمتحف اللوفر بباريس

مئذنة الموصل المائلة

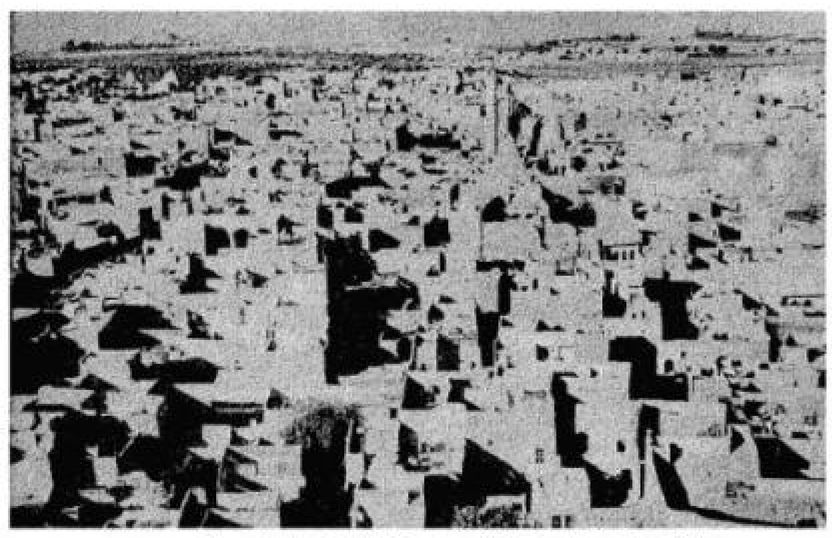
لو أن المؤرخ الاغريقي « فيلون » عاش في القرن الثالث عشر ، لعد في الدنيا ثماني عجائب لا سبعاً فحسب . فعندما قال إن أعظم وأروع ما في العالم من عمائر وآثار هي الهرم الاكبر ، ومنارة الأسكندرية ، وحدائق بابل المعلقة ، ومعبد ديانا ، وتمثال جوبيتر ، وضريح أرتيناس ، وتمثال رودس — لم تكن مئذنة الموصل « المائلة » قد قامت بعد ، تبهر الأنظار بارتفاعها الشاهق الغريب

ترتفع هـذه المئذنة فوق المسجد العظيم المعروف بمسجد « النوري » الذي أقامه في القرن الثالث عشر الميلادي السلطان محمود محمد نور الدين زنكي ابن عماد الدين الأتابكي

ويبلغ ارتفاع هذه المئذنة تسعين قدماً ، في كل قدم منها درجتان ، فهي تشتمل على مائة واثنين وثمانين درجة . وهي ترتفع على قاعدة حجرية ضخمة وتنتهي بقبة دقيقة مدببة ، ولهـذا سماها الناس « المئذنة الحدباء » . وكانت قاعدتها هذه مشتملة على صخور زاهية الألوان ، بعضها أحمر قاني، وبعضها أزرق داكن . وكان بها تسعة أبواب ضخمة يدخل منها الداخل الى درج المئذنة . ولكن بعض هذا البناء تقوض وتهدم على مر القرون السبعة التي انقضت منذ أقيم ذلك المسجد

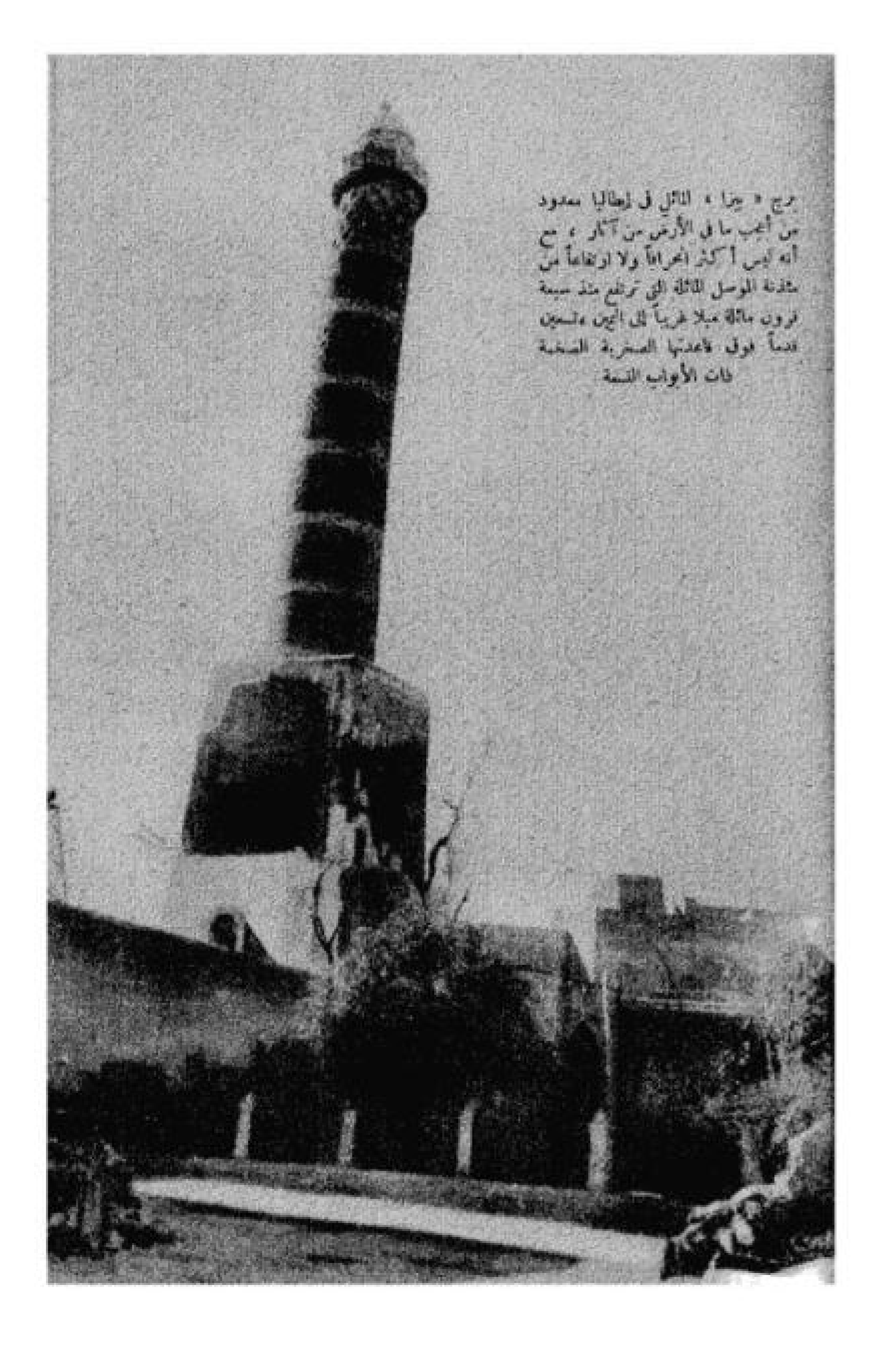
ويرى من يرقى هذه المئذنة سفوح تلال كردستان الغبراء ، ويرى أطلال مدينة نينوى العريقة ، ويشهد الى جانب المسجد قبراً يقول الناس إنه قبر النبي يونس عليه السلام . .

ومن أجل ما في المسجد نبع يفيض بالماء الدافق اليه من نهر الدجلة ، وقد أقيم حوله بناء جميل النقش والزخرفة ذو ستة جوانب ، ومن مائه يتوضأ من يؤمون المسجد لاقامة الصلاة



مدينة الموصل يتوسطها مسجد « النوري » حيث ترتفع مئذنته الحدباء ، مطلة على أنحاء المدينة ومشارفها ، وعلى ما يكتنفها من تلال كردستان الداكنة

[صور هذا المقال من تصوير جيدال — بلاك]



برج « بيزا » المائل في إيطاليا معدود
من أعجب ما في الأرض من آثار ، مع
أنه ليس أكثر انحرافاً ولا ارتفاعاً من
مئذنة الموصل المائلة التي ترتفع منذ سبعة
قرون مائلة ميلا غريباً إلى اليمين وتسعين
قدماً فوق قاعدتها الصخرية الضخمة
ذات الأبواب المتسعة



أحد المشاهد الجميلة في مسجد «النور» ، حيث تبدو روعة الفن الاسلامي بزخارفه ، وأبوابه ، وأقواسه ، بل حيث يبدو ذلك الروح الديني الصوفي الذي يسري في كل بيت من بيوت الله

أقيم هذا البناء المسدس حول نبع يفيض بماء نهر دجلة الذي أقيم المسجد على ضفته ، ومن هذا الماء الصافي يتوضأ من يؤمون المسجد ، لاقامة فريضة الصلاة

العلم والعالم

الأرمن : كيف وجدوا وطناً قومياً

يشبه تاريخ الارمن تاريخ اليهود من عدة وجوه ؛ فكل من الشعبين تعرض لكثير من ضروب الاضطهاد التى انقصت عدد ابنائه وأضعفت قوته الحربية ، وكل منهما اضطر الى أن يتشتت فى كثير من البلاد فرارا من ظلم الحكام والتماسا لسبل الحياة

ولكن الارمن وفقوا أخيرا الى حل مشكلتهم القومية حلا لم يوفق اليه اليهود بعد — أو لعلهم لا يريدون التوفيق الى مثله !

فان النكبات التى حلت بالارمن فى تركيا ، وعلى الاخص فى عهد السنوات الاخيرة من السلطنة التركية فيما بين سنتى ١٩١٥و ١٩٢٠ اضطرتهم الى أن يضربوا فى الارض يلتمسون فى أقطارها مواطن يقيمون ويرتزقون فيها . فقامت جاليات كبيرة منهم فى ايران ، والعراق والشام، ومصر، وقبرص، واليونان، وبلغاريا، ورومانيا ، وفرنسا ، وكذلك فى الولايات المتحدة الامريكية وبعض جمهوريات امريكا الجنوبية مثل البرازيل واورجواى والارجنتين

ولكن هذا التشتت لم يحل دون قيام وطن قومى لهم . وقد وجدوا هذا الوطن فى روسيا حيث يقيم منهم زهاء مليون ونصف مليون نسمة فى « الجمهورية الارمنية السوفيتية » وهى احدى الجمهوريات التى يتألف منها الاتحاد السوفيتى، وهذا العدد هو نصف عدد سكان الارمن جميعا، اذ لا يتجاوز عددهم ثلاثة ملايين من الانفس . وهذا هو الحل الموفق الذى أقام للارمن وطنا قوميا دون أن يكون فى هذا الوطن خطر على غيرهم من الشعوب . ذلك أنهم لم يتخذوا هذا الوطن فى اقليم ضيق أو فى شعب صغير كما هو الامر فى فلسطين ، بل اتخذوه وسط روسيا التى تعد فى مساحتها وفى عدد سكانها قارة كاملة تبلغ أربعة أمثال أوربا فى مساحتها ، فلا يضيرها أن يكون للارمن فيها وطن مساحته عشرة آلاف من الاميال المربعة ، أو شعب نسبة عدده الى الشعب الروسى أقل من نسبة الواحد الى المائة الكاملة !

وهكذا لم يكن الوطن القومى للارمن عبئا على روسيا ، بل كان جزءا منها لا يثقل عليها ولا يخشى منه أن يستغلها . ولهذا وجدت « الجمهورية الارمنيـة » من الاتحاد السوفيتى ضروبا كريمة من المساعدة على انهاضها وتقدمها، عوضت على الارمن ما قاسوه فى تاريخهم الماضى من المحن والشدائد.

لقد عنيت موسكو بنشر التعليم بين الارمن فى روسيا ، فكان ٢٥ ٪ منهم فى سنة ١٩٣٨ تلاميذ فى المدارس وطلابا فى المعاهد . وكان فيها حينذاك ثلاثمائة من الكليات والمعاهد الفنية ، فصار عددها بعد ذلك بثلاث سنوات ٨٦٧ تضم زهاء تسعين ألفا من الطلاب والطالبات. وفيها خمسون معهدا علميا، واربعمائة وخمسون مكتبة عامة . وتصدر فيها ثمانون من الجرائد والمجلات توزع فى العام خمسين مليون نسخة . ويصدر فى هذه الجمهورية الصغيرة فى العام الواحد خمسة ملايين نسخة من كتب تحمل ستمائة عنوان . وتتناول هذه النهضة العلمية جميع نواحى الحياة الصناعية والزراعية فى جمهورية الارمن الروسية

ولو أن الارمن حاولوا أن يتخذوا موطنهم فى بلد صغير ، يثقلون عليه بعددهم أو بنشاطهم أو بمالهم ، لما وفقوا الى ما وفقوا اليه حين

اتخذوا موطنهم فى روسيا الفسيحة التى ترى فيهم عضوا من أعضائها ، لا منافسا يزاحمها ويستغلها

المخدرات

سلاح اليابان السرى

عند ما قامت اليابان بحملتها على منشوريا فى سنة ١٩٣١ تبين قواد الجيش اليابانى ظاهرتين مهمتين : أولاهما ، أن جنود جيش منشوريا الذين يدمنون تدخين الافيون هم أسرع الجنود الى التسليم أو الفرار ، وأن المدمنين من السكان المدنيين هم أقل الناس تمردا وأكثرهم استكانة . فوجدت اليابان فى الافيون السلاح الفتاك تقضى به على قوة الجيش وقوة الشعب فى المناطق التى شرعت فى احتلالها أو ازمعت السيطرة عليها .

وسرعان ما ألغت اليابان القوانين التى تحرم زراعة الافيون وتنزل العقاب بمدخنيه . ولما قامت الطبقة المثقفة فى الصين تندد بهذا العمل وتناشد القوم أن يمتنعوا عن زراعة الافيون ، سنت اليابان قانونا غريبا : هو ان يدفع المزارع الضريبة المفروضة على أرضه كمية معينة من الافيون عن كل فدان ، فلم يعد أمام المزارع الا أن يزرع الافيون أو يهجر أرضه الى من يزرعها افيونا

ولم تكتف اليابان بذلك اذ وجدت ان الافيون بطىء التأثير فيمن يدخنونه ، فأنشأت مصانع لاستخراج مشتقات الافيون ، كالمورفين والهيروين ، فهما أشد فتكا واخطر بلاء . وراحت تشجع التجارة فى هذه المواد القاتلة فى سائر المناطق التى احتلتها فى آسيا ، حتى غدا عدد الدكاكين التى تتاجر فى المخدرات ثلاثة امثال تلك التى تتاجر فى الارز ، مع ان الارز هو قوت الشعب الاساسى . وكانت اليابان تنظر الى ما تجره المخدرات على مدمنيها من وخيم العواقب اكثر مما تنظر الى ما تجنيه من تجارتها من طائل الارباح ، فلم تحجم عن تحمل بعض الخسائر المادية فى سبيل اذاعة المخدرات وترويجها ، حتى انها صنعت سجائر أرخص ثمنا من السجائر الصينية ، وحشت هذه السجائر بمادة الهيروين . وبذلك أخذت المخدرات تتفشى بين طبقات الشعب الصينى تفشى الوباء الفتاك

فقد كان عدد المرضى من مدمنى المخدرات فى مقاطعات الصين الشمالية الاربع فى سنة ١٩٣٦ حوالى نصف مليون ، فاذا به يبلغ فى سنة ١٩٣٩ ثلاثة عشر مليونا من المرضى !

ويقوم فى مدينة تينتسين من اعمال الصين المحتلة مائتا مصنع لانتاج الهيروين ، ينتج كل منها فى اليوم ما يتراوح بين خمسة وعشرين رطلا ومائة رطل من هذا السم الزعاف ، ويعمل فى هذه الصناعة خمسة آلاف نسمة من عمال اليابان وكوريا . وفى مقاطعة نانكنج التى كانت الحكومة الصينية المستقلة قد طهرتها تطهيرا تاما من تجارة المخدرات ، كان يقوم بعد الاحتلال اليابانى بقليل ، أى فى سنة ١٩٤٠ ، اثنان وثلاثون مصنعا لانتاج مشتقات الافيون ، و ٣٤٠ بؤرة يؤمها المدمنون ، و ١٢٠ متجرا مصرحا له ببيع المخدرات

وهذه هى احدى النكبات الكبرى التى يجرها الاستعمار على الشعوب المستذلة التى تقع فى قبضة الدول المستعمرة والقائمين بالامر فيها من رجال الاموال وأرباب الصناعات وكبار العسكريين ومحترفى السياسة

فقد جاهدت الصين فى عهد استقلالها الحديث جهادا كريما حتى ضيقت نطاق تجارة المخدرات التى كانت تقوم بها بعض الطوائف الاوربية التى نزحت الى الصين طلبا للرزق حلالا كان أم حراما . وفرضت أقسى العقوبات على من يساهمون فى جريمتى تجارته وتناوله ، وكانت هذه العقوبات تبلغ حد الاعدام . وكافحت الطبقة المثقفة كفاحا طويلا لتبين للشعب الصينى ما يستهدف له من أخطار بسبب ذيوع المخدرات .

ولكن كل هذه الجهود ذهبت هباء حينما حلت بالصين نكبة الاستعمار اليابانى ، الذى لم يتحرج من اتخاذ أوضع الوسائل فى تحطيم قوى الشعب الصينى البدنية والمعنوية على السواء

وقد دمغت عصبة الامم اليابان بهذه الوصمة فى اجتماع عقد فى يونيو سنة ١٩٣٨ وشهده ممثلو سبع وعشرين دولة تألفت منهم « لجنة الافيون وغيره من المخدرات الخطرة » ، فقد اسفرت بحوث هذه اللجنة عن اتهام اليابان بأنها « العقل المدبر لاكبر تجارة دولية فى المواد المخدرة ، واليه التى تجمع أكبر الارباح الحرام من وراء هذه التجارة الآثمة » . والواقع ان اكثر ما فى العالم من مشتقات الافيون : الهيروين والمورفين ، يأتى من تلك المصانع التى انشأتها اليابان ، ومولها كبار الرأسماليين اليابانيين اما افسادا لروح الشعوب التى تريد السيطرة عليها ، واما جنيا للارباح الطائلة من وراء تسميم العقول والابدان

بحث علمى فى أسباب الحرب

تقوم به جامعة شيكاغو

ألفت جامعة شيكاغو الامريكية فى سنة ١٩٢٦ ، فى تلك الايام التى أشرقت فيها آمال السلم الدائم فى ظل ميثاق لوكارنو ، لجنة علمية لدراسة أسباب الحرب . وكان أعضاء اللجنة لفيفا كبيرا من طلبة الدراسات العليا فى الجامعة ، ورئيسها الاستاذ كوينس رايت . وانتشر أعضاء اللجنة فى دور الكتب ، ومعامل البحث ، ودوائر السياسة ، وأخذوا الى جانب هذا يستطلعون آراء كبار المفكرين والباحثين فى العالم . وتناولت هذه الدراسة جميع فروع البحث العلمى ، فطلاب علم الاحياء وطلاب علم الانسان بحثوا أسباب النزاع والصراع بين أنواع الحيوان ، وفى بيئات الانسان البدائى . وطلاب علم النفس وعلم الاجتماع بحثوا الاسباب النفسانية والعمرانية التى تؤدى الى تصارع الافراد وتحارب الشعوب . وكان أكثر العبء فى هذه الدراسة ملقى — بطبيعة الحال — على طلاب القانون وطلاب الاقتصاد ليبحثوا المشاكل السياسية والازمات الاقتصادية التى أدت الى ادارة رحى الحرب فى جميع مراحل التاريخ بلا استثناء

وكانت نتيجة هذه الدراسة ستة وستين بحثا مفصلا فى أسباب الحروب ، ولكن الجامعة نشرت من هذه البحوث عشرين بحثا فحسب ، وما زال الباقى منها محفوظا فى مكتبة الجامعة لم يطلع على جمهور القراء . وقد لخص الاستاذ رايت هذه البحوث فى سفر ضخم مؤلف من مجلدين يزيد عدد صفحاتهما عن ألف وخمسمائة صفحة . ويمكن تلخيص هذه الدراسة المفصلة فيما يلى :

يبين التاريخ أن الحرب كانت ظاهرة مطردة فى جميع عصوره وأدواره ، ولكنها مع هذا ليست بالامر الذى لا بد ولا خلاص منه . وقد اختلفت « كثافة » الحرب باختلاف الحضارات التاريخية ، فكلما تقدمت الحضارة وتشعبت صار قيام الحرب أكثر « كثافة » أى أشد خطرا وهولا واعظم تخريبا وتدميرا : ولكن يلاحظ أن الحروب فى الحضارة الحديثة أقل عددا منها فى الحضارات القديمة ، فقد كانت تنشب قبل العصر الحديث فى فترات متقاربة ، وكانت تنشب عدة حروب فى العالم فى وقت واحد ، أما الآن فقد تباعدت فترات قيامها ولكنها كثيرا ما تشمل أكثر بقاع الارض وشعوبها مرة واحدة

وكذلك أثبتت هذه الدراسة أن الحرب قد تخرب وقد تهدم حضارة بأسرها . وأن سياسة توازن القوى — هذه الاداة العتيقة التى كانت مبدأ مقررا فى السياسات القديمة — لا تجدى نفعا فى منع الحرب واقرار السلم . فكثيرا ما نشبت الحروب وهذه السياسة القائمة ، بل كثيرا ما شبت نارها بسبب هذه السياسة ذاتها . واذن — وهذه هى خلاصة البحث — فلا سبيل الى منع الحرب الا باقامة سلطة عالية ، ولتكن عصبة أمم

جديدة ، لها من القوة ما يكفي لمنع أية دولة من اثارة الحرب أو الاحتكام الى السلاح فيما يقوم بينها وبين غيرها من ضروب النزاع . ولكن يشترط في هذه السلطة العالية شرطان : أولهما ألا تتدخل في شؤون الشعوب الداخلية وحرياتها الخاصة في توجيه حياتها كيف تشاء ، وثانيهما تمكينها بكل الوسائل التي تصل بها لترقية مستوى الشعوب من الوجهة الاجتماعية الى الدرجة التي تأنف منها من امتشاق السلاح عدوانا على جيرانها أو استخلاصا لحقها بطريق العنف والعدوان

ثم يجب أن يكون الى جانب هذا اصلاح اقتصادى عالمي يقضى على ما تعانيه بعض الشعوب من عسر وضيق ، بينما الى جوارها شعوب أخرى تعاني ما هي فيه من تخمة واكتظاظ بمواردها الاقتصادية

ولا شك أن كل الذين يعنيهم أمر المستقبل غداة أن تضع هذه الحرب أوزارها ، ولنذكر منهم طبقة السياسيين والكتاب والصحفيين والمدرسين ، خليقون بأن يقرأوا هذه الدراسة ليتبينوا تلك العوامل المعقدة المتشابكة التي تؤدى الى قيام الحروب ، تلك الحروب التي تنسبها خطأ الى نزوات بعض الزعماء أو أطماع بعض العسكريين بينما هي تنبعث ، عند التحليل العلمي ، من أسباب أعمق من ذلك قرارا وأخطر أمرا

متفرقات علمية

• أعلن نيكولا تيلسلا أحد مشاهير المخترعين أنه كشف عن أشعة يمكن تجسيمها في صورة ستار من الغبار لا تستطيع الطائرات اختراقه ، وان هذا الستار يمكن اقامته في هيئة سور ضخم مرتفع يحيط بالمدن الكبيرة فلا تستطيع الطائرات المغيرة أن تنفذ اليها . وتتكون هذه الاشعة من ذرات غبارية دقيقة تطير بقوة خمسين مليون فولت ، فاذا اصطدمت احدى الطائرات بالسور المؤلف منها تحطمت في أقل من لمح البصر

• « اضطراب الاعصاب الهوائى » اسم مرض جديد ظهر في هذه الايام . وهو يصيب الطيارين الذين يقومون برحلات جوية طويلة منتظمة . وقد قرر معمل الابحاث السيكلوجية التابع للسلاح الجوى البريطاني أن ٥٠ ٠/٠ من الطيارين الذين جاوزوا سن الثلاثين معرضون لهذا الاضطراب العصبي . وعاقبته هي الاسراع بمرضاه الى حالة الشيخوخة وما زالوا في سن مبكرة ، وهى شيخوخة تصيب قواهم البدنية وقواهم العصبية على السواء

• كلما صغر الجسم كانت نبضات القلب أكثر عددا وأسرع حدوثا . فالحيوانات الصغيرة تفوق الحيوانات الكبيرة في عدد نبضاتها زيادة عظيمة . مثال ذلك عصفور « الكنارى » فان قلبه ينبض ألف مرة في الدقيقة ، بينما لا ينبض قلب الفيل في الدقيقة سوى خمس وعشرين نبضة . ويبلغ عدد نبضات قلب الوليد من مائة وثلاثين الى مائة واربعين نبضة ، اما الرجل المكتمل فتتراوح نبضات قلبه بين ستين وخمس وسبعين نبضة في الدقيقة

• صنع الطبيب المصرى هيروفيلس من أطباء الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد ساعة مائية يقيس بها نبض القلب ، حين تبين العلاقة بين حالة النبض وصحة الجسم

• استطاع الدكتور اليكس كاريل العالم الفرنسي الكبير أن يبقى قلب كتكوت نابضا مدى أربع وعشرين سنة ، بواسطة بعض المواد الكيماوية الخاصة . وقد عاش هذا القلب مدة توازى المدة التي عاشتها خمسة أجيال متعاقبة من الدجاج . ويقول هذا العالم أن ليس هناك مانع علمي يحول دون بقاء القلب نابضا الى الابد اذا مون بكمية كافية من تلك المواد الكيماوية

• يبلغ عدد من يتخذون نظارات في بريطانيا خمسة عشر مليونا ، وفى ألمانيا ثمانية عشر مليونا ، وفى اليابان عشرين مليوناً ، وفى الولايات المتحدة خمسة واربعين مليونا

الحركة الفكرية

دع الناس يعرفون

للمفكر الانجليزى نورمان انجل

ثلاثون سنة أمضاها المفكر السياسى الكبير نورمان انجل ، مبشرا بسياسة « السلامة الاجماعية » فيما ألف من كتب وما ألقى من محاضرات وما أنفق من جهود . فهو مؤمن ايمانا مطلقا بأن الحروب لا تنشأ بسبب الازمات الاقتصادية أو الحركات القومية أو مساوىء الاستعمار أو ما الى ذلك من الاسباب والدواعى التى يقول بها مفسرو التاريخ ، وانما تنشأ من سبب واحد : وهو ان الانسانية لم تأخذ بعد فى ميدان السياسة الدولية ، بما أخذت به فى ميدان المسائل الفردية ، من خطة « السلامة الاجماعية » ، أى قيام المجتمع الدولى برد عدوان القوى على الضعيف ، واعتبار العدوان على أية دولة ، عدوانا على دول العالم جميعا

ولهذا كان نورمان انجل أكبر أنصار عصبة الامم،وأكبر الداعين الى تدعيمها بالقوة المسلحة . وقد أحلته جهوده فى هذا السبيل مكانا ممتازا بين دعاة السلام ، فنال جائزة « نوبل » للسلام تقديرا لجهوده

ولا شك ان اخفاق عصبة الامم فى أداء رسالتها ، وتشوب الحرب مرة ثانية فى أثناء حياة جيل واحد ، كانا صدمة قوية لجهود هذا الرجل وآماله ، ولكنهما كانا الى هذا حافزا له للمثابرة على التبشير بدعوته وابلاغها ، لا الى آذان الساسة والحكام فحسب ، بل الى آذان الجماهير والشعوب فى شتى أرجاء العالم . فأمضى فى امريكا عدة شهور يحاضر الناس ويتحدث اليهم فى دور الجماعات وأندية الجمعيات ، ثم ضم هذه المحاضرات والآراء فى كتابه الحديث الذى سماه « دع الناس يعرفون »

يقول فى هذا الكتاب : « حربان فرضتا علينا فى خلال جيل واحد لاننا نسينا الحقيقة الاولية التى تقرر أن حق الفرد فى الحياة لا يمكن الدفاع عنه الا « اجماعيا » أى بواسطة المجتمع الذى نعيش فيه ، والا فلا سبيل الى الدفاع عنه اطلاقا . فاما اذا لم نجمع رأينا وقوتنا على الدفاع عن حقوق الآخرين تجاه ما يقع عليها من عدوان ، فانا سنعجز حتما فى النهاية عن ان ندافع عن حقوق انفسنا ، وسنكون فى يوم قريب أو بعيد ضحايا هذا العدوان ذاته . وما بقينا فى ميدان السياسة الدولية غير عابئين بما يقع على هذا الشعب او ذاك من اطماع المعتدين ، فستبقى جميع الشعوب — مهما تكن قوة بطشها — هدفا ميسرا للقوى الغاصب »

ويزيد انجل هذه النظرية ايضاحا بالمقارنة بين ما يحدث الآن فى ميدان السياسة الدولية من اهتمام كل دولة بسلامتها الخاصة وعدم اكتراثها بالسلامة الاجماعية ، وبين ما يحدث فى المسائل الفردية حيث يعد العدوان على فرد واحد عدوانا على المجتمع كله ، فيقول : « افرض ان شخصا قتل ، فيقوم المجتمع كله قائلا : ان هذا العمل لا يخصنا فى شىء ما ، انه مسألة بين القاتل والقتيل وحدهما ، فلندعهما يسويان المسألة حسبما يريان . وليس من الحق ان ندفع الضرائب لتدفع منها مرتبات رجال الامن وقضاة المحاكم ، فلنكف عن دفع هذه الضرائب ولنوفرها على أنفسنا لننفقها على شؤوننا الخاصة . فماذا يحدث بعد هذا ؟ لا شك ان كل فرد فى هذا المجتمع يغدو بين عشية وضحاها عرضة

للقتل كما قتل زميل له من قبل . ولا شك ان مثل هذا المجتمع يغدو مجتمعا خلوا من السلام، والنظام ، والحق ، والقانون ، والعدالة ، وكل هذه العناصر التي تتألف منها المدنية »

ونورمان أنجل اشتراكي التفكير ، وقد كان مستشارا لرمزى مكدونالد في رئاسته لوزارة العمال الاولى. ولكنه مع ذلك لا يسرف اسراف الاشتراكيين الذين يرون ان سبب قيام الحروب هو سوء النظام الاقتصادى الراهن القائم على أساس الرأسمالية . بل يرى أن في وسع العالم جميعه ، سواء دوله الرأسمالية ودولته الشيوعية « روسيا » ، وما بينهما من دول تأخذ بالاتجاه الاشتراكى ، يستطيع أن يعيش متعاونا بعضه مع بعض اذا طبق نظام السلامة الاجماعية التى يراها الطريق الوحيد الى تفادى الحرب واقرار السلام

دولة من الطباعة يحطمها النازى

هى دولة ولا شك، رعاياها من القراء يعدون بالملايين، وموظفوها من الكتاب يعدون بالآلاف

هذه هى دولة أولشتين « الصحفية » فى ألمانيا التى قامت فى سنة ١٨٧٧ ودالت فى سنة ١٩٣٤ والتى يعد تاريخها تاريخا لالمانيا منذ عهد بسمارك الى عهد هتلر ، وما حفل به هذا التاريخ من أدوار الحرية والطغيان ، ومن فترات التقدم الى الامام وفترات النكسة الى الوراء

أرخ هذه الدولة أحد رجالها ، هيرمان اولشتين ، فى كتاب صدر حديثا عنوانه : «قيام دار أولشتين وسقوطها» ، وهذا ملخص تاريخها

بدأت هذه الدار الصحفية الكبيرة عقب انتهاء الحروب الثلاث التى أثارها بسمارك وخرج منها ظافرا بانشاء الامبراطورية الالمانية الموحدة تحت امرة بروسيا . فقد كانت ألمانيا حينذاك أقوى دول القارة الاوربية ، وكانت برلين ملتقى أنظار العالم السياسى ، فكان لا بد من ان يتبع هذه النهضة السياسية نهضة صحفية يجد فيها الرأى العام مجالا يبدى فيه نفسه ويعبر فيه عن رغائبه واتجاهاته . فقام أحد تجار الورق فى ألمانيا ، وهو ليوبولد أولشتين ، بشراء صحيفة متواضعة اسمها « برلينر زايتونج » ، وجعلها لسانا للطبقة المستنيرة التى أخذت تنشد الحياة الدستورية الحرة . ثم أتبع ذلك بشراء جريدة أخرى هى « برلينر ابند بوست » ، فصارت جريدتاه أكبر جرائد برلين وأوسعها انتشارا

وانتقل من ذلك الى سوق المجلات ، فاشترى مجلة « برلينر اليستريت زيتنج »، وجعلها أكبر مجلة مصورة فى أوربا ، وأرسل مندوبيها الى شتى الاقطار يوافونها بالانباء والمقالات المصورة. فلم تلبث هذه المجلة ان غدت منجما فياضا بالذهب اذ كان يوزع منها مليونا نسخة ، وهو اذ ذاك رقم قياسى فى سوق المجلات

ومات الرجل وهو يصدر هذه المجلة وثلاث جرائد يومية ، فتولى العمل من بعده أبناؤه الخمسة الذين أنشأهم مدربين على العمل الصحفى. وكان هرمان ، مؤلف الكتاب الذى نتحدث عنه أبرعهم وأكفأهم فى هذا العمل ، فحول تلك الجرائد من جرائد تعنى بنشر المقالات الطويلة الجافة الى جرائد تمتع قراءها بالاخبار المثيرة والنبذ الطريفة والصور والرسوم الجذابة . فلم تلبث صحف اولشتين ان احتكرت سوق القراءة الصحفية فى ألمانيا . وأنشأت الدار عددا كبيرا من الصحف والمجلات التى تلائم جميع الطبقات والاذواق . فهذه مجلة شهرية للطبقة المثقفة ، وهذه مجلة شهرية أخرى للطبقة الوسطى من عامة القراء ، وهذه ثالثة لسيدات المجتمع ، وهذه رابعة للاطفال ، وهذه مجلة ذائعة فى الريف لمن يعنون بشؤون الزراعة والبساتين

وكذلك بسطت دار أولشتين يدها الى سوق الكتب ، فأخذت تصدر المؤلفات القيمة والشعبية على السواء بكميات هائلة ، وتغرق بها السوق بأثمان متواضعة . فلم تكن تجد ألمانيا يذهب فى رحلة الا وفى يده كتاب من كتب أولشتين

يقطع الرحلة فى قراءته ، هذا الى أن كبار الكتاب وجدوا فى هذه الدار سبيلهم الى اذاعة كتبهم فى أوسع نطاق

وظل الامر كذلك حتى جاء النازى ، فرأت أسرة أولشتين ان تصانع هتلر وتهادنه ، عسى ان تنجو من عاصفته المدمرة . ولكن لم يكد يقبض على زمام الحكم حتى أمر جوبلز بمصادرة تلك الدار الصحفية الضخمة وتوزيع مطابعها ومكاتبها على الصحف الناصرة للنازية ، وهكذا قضى على تلك الدولة الصحفية التى كانت تضم عشرة آلاف نسمة من الكتاب والمحررين والموظفين

وخرج آل أولشتين من ألمانيا خاويي الوفاض وان ظل الناس يذكرونهم ، ويذكرون انهم كانوا من رواد الصحافة الاوربية الحديثة

الحضارة الصينية

يقول تنيسون الشاعر الانجليزى الكبير ان « خمسين سنة فى أوربا خير من ألف عام فى الصين » . يعنى ان ما يحدث فى أوربا فى نصف قرن من عظائم الحروب والاحداث والازمات والمكتشفات لا يحدث مثله فى الصين فى خلال عشرة قرون طوال . ولعل هذه هى الفكرة الشائعة عن الصين بين الناس جميعا فى مختلف الشعوب . فالصين فى نظرهم بلد « راكد » تتعاقب عليه الاجيال والاحقاب وهو كما هو لا يتغير فيه نظام ، ولا تقوم فيه ثورة ، ولا ينقلب فيه وضع من الاوضاع

ولكن الكاتب الصينى « تسوى تشى » فى كتابه الحديث « تاريخ الحضارة الصينية » يخطىء هذا الرأى اذ يقول : « ان الصين احتملت فى كل فترة من فترات تاريخها ما لا يحتمله قطر من الاقطار من الانقلابات والحروب والنكبات وسوء الحكم وقسوة الحكام وانتشار الرشى واستهدافها للغزو والعدوان »

يعرض المؤلف تاريخ هذه الحضارة منذ البداية فيقول : « تروى الاساطير الصينية انه فى مستهل تاريخ العالم كانت هناك فوضى عظيمة . كانت الدنيا تشبه البيضة النية ، وكانت السماء والارض كمح (صفار) البيضة وآحها (بياضها). عندئذ ولد الرجل الاول ، بان كو ، فصاغ السماء والارض فى شكليهما الراهنين . ثم حدث ما آلم هذا الرجل فبكى ، فكانت دموعه الجارية هى الانهار التى تتدفق الآن فى أرض الصين »

ويتبع عصر الاساطير هذا عصر يمتزج فيه التاريخ بالاسطورة . وهو عصر الاباطرة الذين حكموا الصين ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح . ومرجع المؤرخين فى تاريخ هذا العصر الى ما ترك أهله من كتابات أكثرها محفور على عظام السلاحف ، وهى تصور شعبا مستقرا متمدينا يجيد الكتابة والتصوير بالفرشاة

وظل هذا حال الصين تتعاقب عليها أسرة وراء أسرة حتى كانت سنة ٥٥١ ق . م . فولد حكيم الصين الاكبر كونفوشيوس التى ما تزال أسرته قائمة الى اليوم ، وما تزال فلسفته غذاء العقل الصينى والروح الصينى معا . وليست الكونفوشية دينا بالمعنى الذى يفهم من الاديان الاخرى ، بل هى مجموعة من القواعد التى يجب ان يسير عليها الانسان فى علاقاته بالناس والتى يجب ان يتخذها المجتمع فى اقامة اوضاعه ومعاملاته . وهذا هو الدين الذى يلائم الصينى ، فان العقلية الصينية ليست بالعقلية المتصوفة كما هو شأن العقلية الهندية ، بل هى عقلية عملية تفكر دائما فى الواقع ، وتجعل همها فى تدبير هذا الواقع بدلا من التهرب منه الى عالم آخر نرجو أن يكون أفضل واجمل من عالمنا الذى لا نملك فيه حيلة ولا حولا

ويأتى بعد ذلك دور الاسر المحاربة التى ما يزال العالم يذكر رجالها فيمن يذكرهم من أعلام الحروب ، مثل جنكيز خان وكوبلاى خان . وقد زالت هذه الاسر جميعها ، ولكن كلا منها خلف تراثا عظيما من الفن الصينى بعضه باق

فى أرض الصين وأكثره موزع بين متاحف العالم الكبرى

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى العصر الحديث ، الى القرن التاسع عشر ، حين تقف الصين تتلقى وفود المهاجرين والتجار الاوربيين الذين جاءوا يغزونها بعلمهم ومالهم وحيلهم . ولا شك ان قصة الاتجار بالافيون فى الصين ، واستغلال الشعب الصينى بمثل هذه الوسيلة الخسيسة ، وصمة مشينة فى تاريخ الاستعمار الاوربى، كما ان كفاح هذه التجارة صفحة انسانية مجيدة فى تاريخ الانجليز ، وهى صفحة حقيقة بأن توثق ما بين الشعبين الصينى والانجليزى من علائق زادتها الآلام والاحداث الاخيرة توثقا

أعظم الأدباء المعاصرين : اندرية جيد

يمكن أن تعتبر أسرة « مان » الالمانية أسرة الادب الالمانى المعاصر . فمن أفرادها توماس مان عميد الادب الالمانى الحديث غير منازع ، بل ان له من فنه الروائى وفلسفته الصوفية ما يجعله أحد الادباء المحدثين القلائل الذين كتب لهم الخلود فى ثبت الادباء الاعلام . ومنهم هنريك مان أحد المبرزين فى فن القصة وفن المقال . ومنهم كلاوس ، ابن توماس مان ، الذى يرجى أن يكون من أبيه مثلما كان دوماس الصغير من أبيه دوماس الكبير

نسوق هذه الكلمة تقدمة للحديث عن كتاب أصدره كلاوس مان عن الاديب الفرنسى العظيم « اندرية جيد » وموقفه من «أزمة الفكر الحديث»

يقول المؤلف فى صدر كتابه : « أذكر أننى أثرت ذات مرة فى الدوائر الادبية عاصفة صغيرة حين أعلنت أن اندرية جيد هو أعظم وأهم مؤلف معاصر . فلقد كان الناس جميعا يتوقعون أن أقول ان أبرز الادباء المعاصرين هو أبى توماس مان » . على أن نقاد الادب المتمدين يقررون ان اندرية جيد وتوماس مان هما الاديبان الوحيدان اللذان يجب أن يقدما على سائر الادباء المعاصرين ، لانهما وحدهما أنشآ من الآثار الادبية ما لا يغنى بفناء هذا الجيل أو ما يليه من الاجيال

وقد كتب كلاوس هذا الكتاب باللغة الانجليزية التى اتخذها بدلا من اللغة الالمانية . على نقيض أبيه الذى لا يكتب سوى الالمانية التى يعد أسلوبه فيها نموذجا يحتذى . وتوماس مان شديد الحرص على لغته الالمانية رغم ما لقيه فى السنين الاخيرة منذ قيام النازى من اضطهاد وتشريد . وعند ما أخرج من ألمانيا استقر ردحا فى سويسرا الالمانية لانه أراد — على حد قوله — من أن يستمع أبناؤه الى اللغة الالمانية الحبيبة الى سمعه وقلبه . على أن كلاوس أحسن فى اختيار « اندرية جيد » موضوعا لكتابه هذا الذى أصدره بالانجليزية ، فان جيد يعد أقرب الادباء الفرنسيين الى الانجليز فى اتجاهه الفكرى ، رغم ان بعض بحوثه الفكرية — ولا سيما بحثه فى بعض مظاهر الشذوذ الجنسى — تنافى ما يعهد فى التفكير الانجليزى بوجه عام من حرص على الآداب العامة وتجافى عن كل مبتذل يخدش وقار الرجال المفكرين

ويلاحظ أن جيد بروتستانتى المذهب، ولاشك أن هذا المذهب كان ذا أثر قوى فى اتجاهه الخلقى الذى ينافى الاتجاه الشائع بين عامة الادباء الفرنسيين الذين لا يتحرجون من زخرفة أدبهم بنوازع جنسية طائشة أو بأخيلة غرامية مسرفة . وهذه هى الصفة البارزة التى تميز الادب الفرنسى عن الادب الانجليزى الذى تجد الروح الدينية ، بل روح التطهر والتزمت ، سارية واضحة فيه . وهذا ما يجعل أدب جيد أقرب الى الادب الانجليزى منه الى الادب الفرنسى، فان هذا الرجل — كما وصفه كلاوس — يعد « رجلا من رجال الاخلاق وهب عبقرية فنية »

ثم يتكلم المؤلف عن موقف جيد من الشيوعية التى آمن بها فى صدر حياته ودافع عنها فى مستهل أمرها ، فلما زار روسيا شعر « أن الشيوعية تشل الفنان وتجعل انشاء الفن متعذرا»

ولعل مرجع ذلك الى أن الفنان كالفيلسوف يجب ألا ينحصر فكره فى مذهب معين أو عقيدة خاصة ، بل يجب ان تتسع رحاب فكره لقبول شتى الافكار والمذاهب ، وتبين ما فى كل منها من جوانب الخير والشر معا . وهذا هو الفارق بين المفكر والسياسى : هذا يؤمن بأن مبدأ ما غير كل الخير وما سواه شر كل الشر ، وذلك يرى فى كل مبدأ جوانبه البيضاء وجوانبه السوداء ، ويجد من تفتح ذهنه وسعته ما يحول دون تحيزه ذات اليمين أو ذات اليسار

ويختم المؤلف كتابه بصفحات قاتمة عن تلك الحياة ألتى كان يحياها جيد منذ دخل الالمان فرنسا ، حيث عبثوا بكل شىء فيها ، حتى بتلك الدرة التى كانت تتألق فى جبين فرنسا

الاقليات الامريكية

« أخوة تحت الجلد » . هذا هو الاسم الطريف الذى اتخذه المؤلف الامريكى كارى ماك ويليامز عنوانا لكتابه عن الاقليات الامريكية الملونة

والاقوام الملونة فى امريكا مشكلة كبيرة من مشاكلها الاجتماعية التى يتنافى قيامها مع الروح الديموقراطية التى تسود الحياة الامريكية، والتى تساهم امريكا فى هذه الحرب دفاعا عنها واذاعة لها بين الشعوب . ولكنها فى الوقت ذاته تلقى من العقبات الاقتصادية والبواعث النفسية مايجعل حلها غير يسير رغم ما تجره على المجتمع الامريكى من المتاعب بل من الاخطار

والاقليات الملونة فى امريكا تتألف من ثلاثة عشر مليونا من الزنوج ، وثلاثة ملايين ونصف مليون من المكسيكيين ، و ٣٦١٫٠٠٠ من الهنود الحمر ، و ١٢٧٫٠٠٠ من اليابانيين، و ٧٧٫٠٠٠ من الصينيين، و ٤٥٫٠٠٠ من أهل جزر الفلبين، وبضعة آلاف أخرى من الهندوس ومن الكوريين

وأعقد مشكلة تقيمها هذه الاقليات هى المشكلة التى أقامها الزنوج ، نظرا لكثرة عددهم فى امريكا التى تعد أكبر موطن للزنوج . فان عددهم فى امريكا يربو على عددهم فى سائر أرجاء العالم ، أى أن عدد من استوردتهم امريكا من الزنوج أكثر من عدد من بقى منهم فى موطنهم الاصلى افريقيا . ذلك أنهم وجدوا فى امريكا — رغم ما يعانون من ضروب الاضطهاد — رخاء اقتصاديا مكنهم من أن يتكاثروا على عكس اخوانهم الذين بقوا فى فيافى افريقيا وغاباتها يعانون ألوانا شتى من قسوة الطبيعة واستغلال المستعمرين

أما الهنود الحمر فهم أصحاب امريكا الذين أخذوا ينقرضون منذ هبط البيض أرضهم . وهذا يبين ما ينجم عن الاستعمار من ضرر خطير اذا وقع على أقوام بدائيين لا يستطيعون مقاومة المستعمر وفى الوقت ذاته لا يستطيعون الافادة مما يجلبه معه من وسائل الحضارة ومظاهرها

أما اليابانيون والصينيون فقد شجعتهم امريكا على الهجرة اليها ، عند ما كانت تعانى نقصا فى الايدى العاملة الرخيصة ، فوجد فيهم أصحاب المصانع الحديثة مجالا طيبا للاستغلال . ولكن لم تلبث مزاحمتهم للعامل الامريكى ان ايقظته ودفعته للمطالبة بايصاد باب الهجرة فى وجوههم وتضييق ساحة العمل عليهم ، فسنت القوانين التى تحرم عليهم الهجرة والتى تؤثر عليهم الايدى العاملة الامريكية

ويرى المؤلف ان علاج هذه المشكلة هو فى الرجوع الى العبقرية الامريكية ، عبقرية الاتحاد والاندماج ، فالشعب الامريكى الذى ينحدر من سائر ما فى العالم من شعوب وأجناس ، مختلفة الدين واللغة والتاريخ والثقافة ، لا يعجزه أن يكمل وحدته ويدعمها بادماج هذه الاقوام الملونة فى كيانه ، متغلبا على نوازعه النفسية ، واثقا من ان الخطر الاقتصادى الذى يتوجسه فى هذه الاقوام أقل شأنا من الخطر الذى يستهدف له من بقائها منفصلة

الكتب الجديدة

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة

لابى الحسن على بن بسام الشنتريني

نشرته كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول

قام قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الاول ، وهو قسم حافل بنخبة من الاساتذة والباحثين الاجلاء فى أدب العرب وتاريخ الاسلام ، بنشر طائفة من ذخائر الكتب العربية ليكمل بهذا واجبه فى احياء الثقافة العربية

ومن هذه الكتب كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، وهو من أمهات المراجع الحافلة بكثير من أدب الاندلس وتاريخه . وقد أخرجت الكلية من هذا الكتاب مجلدين قيمين بعد مراجعتهما ومقابلة نسخهما المختلفة ، وتصحيحهما وتهيئة نصوصهما . وبين أيدينا المجلد الثانى ، وهو القسم الذى يتحدث — كما قال المؤلف — عن « أهل حضرة قرطبة وما يصاقبها من بلاد متوسطة الاندلس » . وهم كما عدهم المؤلف أربعة وثلاثون من الرؤساء وأعيان الكتاب والشعراء

والادب الاندلسى درة فى جبين الادب العربى ، فقد وجد أدباؤه وشعراؤه فى مشاهدها ومغانيها وترف أهليها ، ما أنطقهم أجمل الوصف وأرق الغزل واشهى الشعر ، ثم وجد كتابها وأدباؤها فيما قام فيها من فتن ودسائس مرادا يرددون فيه الغزل فى بث الشكوى وذم الزمان ، والتحسر على أمجاد الاسلام . وفن الرسائل فى الادب الاندلسى من أبدع فنون النثر العربى ، فقد تناول شؤونا شتى لا تظفر بكثير منها فى أدب المشارقة . وكتاب الذخيرة هذا حافل بكثير من آثار الشعر والنثر الاندلسى تلذ قراءتها وتفيد دراستها

معجم الالفاظ الزراعية

للامير مصطفى الشهابى

مطبعة الحكومة السورية

قال المرحوم الدكتور أمين المعلوف عن لغة العالم الجليل الامير مصطفى الشهابى فى مؤلفاته الزراعية : « ما كتبت الزراعة بأصلح منها منذ صدر الاسلام »

فقد لبث الامير الشهابى نحو عشرين سنة يمحص الالفاظ العلمية الفرنسية المتعلقة بالعلوم الزراعية . ويراجع المعاجم العربية وكتب الزراعة والحيوان والنبات القديمة لوضع اصلح الكلمات العربية المقابلة لهذه الكلمات الاجنبية .

وهذا المعجم هو نتيجة الدراسة الطويلة والجهد العظيم . فهو يشتمل على أكثر من تسعة آلاف لفظ فرنسى أو علمى وضع المؤلف أمامها اصلح الكلمات العربية . ومن هذه الكلمات ثلاثة آلاف على الاقل من وضع المؤلف أو تحقيقه ، وقد عرف معظمها تعريفا علميا موجزا . واشتق هذه الاسماء بعد الرجوع الى أصول اسمائها العلمية باليونانية او اللاتينية

وقد جاء متن المعجم فى ستمائة وخمسين صفحة على عمودين ، وفى آخره فهرس مرتب على حروف المعجم ومؤلف من تسعين صفحة على ثلاثة أعمدة ، وهو يشتمل على أهم الالفاظ العربية الواردة فيه . وهكذا يستطيع من لا يعرف الا اللفظ العربى ان يجد ما يقابله بالفرنسية أو ما يقابله فى الاصطلاح العلمى

ولا شك أن الامير مصطفى الشهابى ملأ بمعجمه هذا فراغا عظيما فى حياتنا العلمية ، وأن هذا المعجم صدر فى انسب الاوقات اذ تتجه

الهيئات العلمية والجامعية فى مصر والبلاد العربية كلها الى تعريب المصطلحات العلمية والى تدريس العلوم الحديثة باللغة العربية . ولو وجد فى كل فرع من فروع العلوم والفنون ما يقوم بما قام به المؤلف الجليل لصار فى ميسور مدارسنا ومعاهدنا أن تثبت قوميتنا العلمية وان تدرس لطلابها باللغة العربية التى كانت فى يوم من الايام لغة العلم فى العالم المتمدين كله

على هامش السيرة ـ الجزء الثالث

للدكتور طه حسين بك

مطبعة المعارف فى ٢٤٠ صفحة

« على هامش السيرة » من أحب آثار الادب العربى الحديث الى النفوس . فموضوعه السيرة الكريمة بما تمثل فيها من كمال الانسان وجهاد البطل وجلال رسول الله ، الخالدة بما جاءت به من دين أظهره على الدين كله ، وتركته فى آفاق الارض ، باقيا ما بقى الدهر ، راسخ الدعائم مشرق الاضواء

وهذه السيرة التى يحب كل عقل ذكى وكل قلب رشيد أن يطالع صحائفها ، فيستبين ملكاتها ويستهدى مناقبها ، ويستوحيها صور الحق والكمال وسبل الرشد والتوفيق ـ تكون أروع ما تكون حين يرويها قلم اجتمعت له موهبة الفن وصدق الايمان معا ، فيرى المرء فيها حينئذ ما حفلت به من المثل العليا للخلق الانسانية : يريه فيها الايمان بالله كيف يصفى القلب من شائبة الضعف والزيغ فلا تقوى عليه المحن والشدائد ، ويريه الجهاد فى سبيل العقيدة كيف يملك على المرء أمره فلا تهوله تضحية ولا يتعاظمه فداء ، ويريه النصر فى الله كيف لا يردى القلب خالا وغرورا بل يملؤه عفوا وعرفا واعراضا عن الجاهلين . .

وهذا مرجع الابداع فيما كتبه الدكتور طه حسين من صحائف هذه السيرة ، أو على هامشها كما يريد أن يقول . وهذا الجزء الثالث من كتابه يتناول الفترة الاولى من الرسالة ، وهى الفترة الحافلة بالصراع بين رسول الله ومن والاه من الصديقين والانصار وبين من عادوه جهلا وحمقا ، أو حسدا وكيدا ، أو حرصا على ما كان لهم من ثراء وسيادة وقد جاء محمد يسوى بين الناس جميعا فى أمر الدنيا ، ولا يفضل أحدا على أحد يوم الجزاء والعقاب الا بالتقوى

فنجد فى الفصل الاول من فصول الكتاب صورة رائعة مروعة لذلك الرجل الذى صرعه الحسد ، أبى جهل ، وقد كان له من مكانته وقوته ما كان خليقا بأن يحله مكانا محمودا الى جوار ابطال الاسلام الخالدين ، لو أن الله أراد له الخير والهدى فلم يقتله الحسد الاعمى الذى ختم على قلبه وسمعه وبصره فأضله سواء السبيل

ونجد صورا تأخذ بمجامع الفؤاد أخذا لهؤلاء الصديقين الشهداء الذين ناصروا رسول الله وما زال يشكو الى ربه ضعف قوته وقلة حيلته وهوانه على الناس ، وأبلوا فى نصره أحسن البلاء ، فعذبوا ، وشردوا ، وهاجروا فى الارض فرارا بعقيدتهم ونصرة لنبيهم . حتى اذا أذن الله لهم بالفوز عادوا يحارب من بقى منهم فى غزوات الرسول ، ولم يضعوا سيف الجهاد الا وقد لاقوا ربهم شهداء ابرارا

وكم يود كل قارىء لهذه السيرة أن يزيده الدكتور طه من صحائفها ، ليجلو له نفوس هذا النفر من الصحابة والصديقين ، وما انطوت عليه قلوبهم من ألوان الايمان والبطولة، فما احوجنا فى هذه الفترة من حياتنا الى أن نرجع الى ذلك العصر العظيم ننهل من ينابيع ايمانه ونتلقى من دروس بطولته

أنات حائرة

للاستاذ عزيز اباظة بك

مطبعة المعارف فى ١١٢ صفحة

«أصبحت ذات يوم فألفيت نفسى ذائع الصيت» هذه الكلمة التى قالها الشاعر الانجليزى لورد

يرون خليق بأن يقولها الشاعر المصرى عزيز أباظة . فالى اليوم الذى صدر فيه ديوانه « أنات حائرة » لم يكن يعرف أنه شاعر غنى العاطفة صادق الشعور ، جزل العبارة عربى الاسلوب ، الا نفر قليل من صحبه وأهله ، وممن قرأوا صحيفة « النشأة الاباظية » التى كان ينشر فيها بعض قصائده . ثم ألم بهذا الرجل خطب فادح اذ فقد زوجه فى ستى فضلها وورق صباها ، فلم يكن خطبا عقيما يدفع الى الجدب ، بل كان خطبا خصبا يجد فيه الناس — على أله وأذاه — النفع والغذاء

أخذ الرجل يصور حزنه وأله فى هذا الشعر السمح الجزل الذى يبلغ القلوب فى غير مشقة ، ويهزها فى غير جهد ، ويدميها فى غير عناء ، كما يقول الدكتور طه حسين بك فى المقدمة الجميلة لهذا الديوان

ومن أروع ما فى الديوان من شعر ذلك الذى أنشده فى بقاع الحجاز ، حين ارتحل اليها ينشد السلوى والعزاء ، فحج البيت الحرام ، ووقف فى عرفات ، وألم بقبر أم المؤمنين ، ثم بقبر النبى الكريم — وهو فى اثناء هذا كله ترافقه هذه الزوج الحبيبة اليه الكريمة عليه ، فلا يملك نفسه من أن يتغنى حزنها ويشكو بثها فى هذا الشعر الرقيق الرصين

وهكذا يكون الحب الخالص الطاهر نعمة خالدة : تضفى السعادة فى الحياة ، وتفجر العاطفة بعد الوفاة ، فيكون منها هذان الاثران الخالدان فى الشعر العربى الحديث : ديوان « أنات حائرة » ومسرحية « قيس ولبنى »

العرض والطلب

للاستاذ هـ . و . هندرسون

مكتبة الانجلو المصرية فى ١٧٨ صفحة

هذا الكتاب من أهم المراجع الاولية لطلاب الاقتصاد فى الجامعات البريطانية ، ولهذا ملأت ترجمته فراغا فى المكتبة الاقتصادية العربية ، لانه يساعد طلاب علم الاقتصاد ومن تعنيهم المسائل الاقتصادية على الالمام بالعوامل المختلفة التى تتعاون بعضها مع بعض فى تحديد قيم الاشياء فيما لو سادت المنافسة المطلقة الحرة

وقد قام بهذه الترجمة اثنان من الشبان المثقفين المجتهدين ، هما الاستاذان صليب بطرس وعلى فهمى عبد القادر ، وهما من خريجى الجامعة فى علم الاقتصاد ، ولهذا خلت ترجمتهما من الاخطاء الفنية الى جانب امانتهما فى الترجمة بفضل فهمهما الصحيح لجميع المسائل التى تناولها المؤلف ، والعلم الكامل بكل ما أدلى وأوحى به

من أمالى الوحدة

للاستاذ على الزين

مطبعة العرفان بصيدا فى ٢٤٤ صفحة

مؤلف هذا الكتاب أديب شاب من أبناء العراق الناهضين ، فتجد فيه كثيرا من تفكير الشاب الطامح الى بلوغ ما يراه مثلا أعلى ، الطامح الى الارتقاء بالمجتمع الذى يعيش فيه ، فيتحدث فى جزء كبير من كتابه عن النهضة الادبية فى « النجف الاشرف » وكيف بدأت تتخلص من اغلال التقليد الزائف وتنطلق متحررة تلتمس آفاق التفكير الحر والخيال الفسيح . وهو فى حديثه هذا يعالج ضروبا شتى من مشاكل المجتمع ومساوئه ، يعالجها بروح الشاب المتلمس الناهض ، وبتفكير الرجل المثقف الذى يريد أن يكون لبيئته من ثقافته نصيب كبير

وفى الكتاب آثار بديعة مما كتب المؤلف نثرا ومما أنشأ شعرا ، وهى جديرة بكثير من التقدير والاعجاب ، اذ تدل على قلم يبشر خيرا ما تعهده صاحبه بالقراءة المتصلة ، وتعهده قراؤه بالموالاة والتشجيع . ولا يفوتنا ان نثنى على كثير مما فى الكتاب من آراء قيمة فى النقد الادبى ، تدل على ذوق ناضج وثقافة أدبية طيبة

بين الهلال وقرائه

أسهم مصر فى قناة السويس

(القاهرة — مصر) ع . ف .

ذكرتم فى العدد الماضى أن من أعظم أعمال دزرائيلى شراء نصيب مصر فى أسهم قناة السويس . فما قيمة هذه الأسهم المالية وكيف باعتها مصر ؟

(الهلال) كان لمصر حوالى نصف أسهم قناة السويس . اذ اشترط فى عقد الامتياز بانشاء القناة أن تتعهد مصر بشراء كل ما لا يباع من أسهم الشركة التى أسسها دليسبس لانشاء القناة . فلما وقعت مصر فى أزمتها المالية المعروفة فى عهد الخديو اسماعيل ، رأى الخديو ، أو رأى مستشاره اسماعيل باشا صديق ، بيع هذه الاسهم وكان عددها ١٧٦٫٦٠٢ ، وكانت النية متجهة الى بيعها لفرنسا ، فلما علم دزرائيلى بذلك أسرع وعرض شراءها . فبيعت لانجلترا بمبلغ ٣٫٩٧٦٫٥٨٢ جنيها انجليزيا . وكان البرلمان الانجليزى حينذاك غير منعقد ، ولم يكن فى مقدور الحكومة فتح اعتماد بالمبلغ دون موافقة المجلس ، فاتفق دزرائيلى مع البارون روتشيلد على دفع ثمن شرائها مقابل عمولة قدرها ٢٫٥ ٪ من الثمن وفائدة قدرها ٥ ٪ سنويا الى أن يتسلم المبلغ من الحكومة البريطانية

وقد كان لهذه الصفقة دوى كبير فى الدوائر السياسية الدولية ، فقوبلت فى فرنسا بالألم واعتبرت هزيمة للسياسة الفرنسية ، وقابلتها ألمانيا بالسرور لانها رأت فيها سببا لفتور العلاقات الودية بين فرنسا وانجلترا ، واستاءت روسيا اذ رأت فيها خطوة جريئة من السياسة الانجليزية لتحقيق أطماعها فى المسألة المصرية

وقد أضاعت مصر بهذه الصفقة الخاسرة رأس مال عظيم القيمة فى شركة القناة ، وجعلت استقلالها هدفا للاخطار ثم ان هذا الثمن الذى لم يبلغ أربعة ملايين جنيه ، صار ٣٢ مليون جنيه سنة ١٩٠٥ ثم صعد الى ٧٢ مليون جنيه سنة ١٩٢٩

وهكذا كانت هذه الصفقة عملا عظيما من أعمال السياسى الانجليزى الكبير دزرائيلى . وفى كتاب « الحركة القومية » للاستاذ عبد الرحمن الرافعى بحث شرح مفصل لهذه المسألة ونتائجها

امريكو مكتشف امريكا

(القاهرة — مصر) عزيز قام .

أذكر أنى قرأت ان امريكا سميت هكذا نسبة الى الرحالة الذى كشفها . فأرجو ان تذكروا اسم هذا الرحالة الذى نسبته ، ومتى كانت رحلته ؟

(الهلال) اسم هذا الرحالة الذى نسب اليه العالم الجديد « امريكو فسبوتشى » وهو ملاح ايطالى أرسله ملك البرتغال سنة ١٥٠١ الى العالم الجديد فرسا على شاطىء البرازيل . والسبب فى تسمية العالم الجديد باسمه لا باسم كولمبوس الذى كان أول من رسا على شاطئه ، فى سنة ١٤٩٣ ، أن كولمبوس كان يعتقد انه لم يكتشف أرضا جديدة بل وصل الى آسيا عن طريق الغرب . ولهذا سمى ما كشفه « جزر الهند الغربية » ، وظلت هذه التسمية قائمة الى الآن مع انه لا علاقة لها بالهند مطلقا . ومات كولمبوس دون أن يدرى أنه كشف عالما جديدا ، الى أن قام « امريكو » برحلته فتبين ان هذه الارض ليست من آسيا ولكنها قارة قائمة بين أوربا وآسيا ، فاشتق اسمها من اسمه . ولكن هذا لم يجعل صيته أكثر ذيوعا من صيت كولمبوس

الذي سيظل أكثر المكتشفين شهرة وأخلدهم اسما وان كان لم يجن من كشفه شيئا، فقد مات فقيرا بعد ان قاسى السجن في سنواته الاخيرة

هل كان بلنت مسلماً ؟

(اسيوط — مصر) ق. م

هل اعتنق السياسي الانجليزي «ويلفرد بلنت» صديق عرابي باشا الدين الاسلامي ، وهل كان مخلصا في صداقته لعرابي وللمصريين ؟

(الهلال) أمضى ويلفرد بلنت فترة من حياته في القاهرة يتزيا بالزي المصري ولا يتكلم الا العربية . ولكنا لا نعرف انه دان بالاسلام أو غير اسمه الانجليزي

وكان بلنت وثيق الصلة بزعماء الحركة الوطنية في بلاد الشرق ، وخاصة بجمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده وعرابي باشا . وكان منذ بداية أمره معنيا بالشعوب المضطهدة، وبالدفاع عن حقوقها . وكان أكثر اهتمامه بمصر والهند وايرلندة . وقد زار جميع بلاد الشرق العربي واتصل برجال الحركة الوطنية فيها . وألف عدة كتب دافع فيها عن القضية المصرية وعن عرابي باشا دفاعا مجيدا ، وأبان فيها الخفايا التي أحاطت بالاحتلال البريطاني والتدخل الاجنبي في شؤون مصر

وليس من الجائز اتهام الرجل في اخلاصه ، وقد كان كل ما كتب وكل ما قال دفاعا عن مصر وزعمائها . وأية فائدة تجنيها مصر من القاء تهمة النفاق على من يتطوعون من الاجانب لخدمتها وتأييد قضيتها ؟

لحم الخيل

(دمشق — سوريا) ف. خليل

هل من ضرر في أكل لحوم الخيل ؟ واذا لم تكن مضرة ، فلماذا لا يأكلها الناس ولاسيما في البلاد التي تعنى بتربية الخيول ؟

(الهلال) كانت بعض الشعوب القديمة تأكل من لحم الخيل اكثر مما تأكل من لحوم الحيوانات الاخرى . وهذه هي الشعوب المحاربة التي كان الجواد أهم أدواتها الحربية ، مثل قبائل المغول والتتار والهون . وكان هذا طبيعيا اذ كانت حياتهم في الحرب والغزو وفتح البلاد تقتضي الاكثار من تربية الخيول يتخذونها في حروبهم، والاقلال من الانعام الاخرى التي لا تصلح الا للشعوب الزراعية المستقرة

ولكن كمية الغذاء في لحم الخيل أقل منها في لحوم البقر والاغنام . ولهذا فلا يتناوله الآن في البلاد المتمدنة الا بعض المرضى أو في أوقات المجاعات . وفي كثير من العواصم الاوربية دكاكين تبيع لحم الخيل ، وقد كان في القاهرة بعض هذه الدكاكين في اثناء الحرب الماضية

على أن المرء كثيرا ما يعاف اشياء مغذية . وقد ذكرنا في العدد الماضي ان بعض الحشائش وعلى الاخص البرسيم ، يحتوي على كمية من الفيتامين دونها ما في أكثر الخضر والفواكه . ولكن للانسان ذوقا يمنعه من تناول الحشائش كما يمنعه من تناول كثير من اللحوم التي قد تكون مفيدة . ولحم الانسان مغذ جدا ، وهو أخف اللحوم على المعدة ، ولكن ليس منا من لا يفضل الجوع الى درجة الموت على أكل لحم أخيه الانسان

تسنين الطفل

(الاسكندرية — مصر) السيدة ن.

ما هي السن الطبيعية التي تظهر فيها أسنان الاطفال ؟ وهل في تأخر ظهورها ضرر على الطفل ؟

(الهلال) تبدأ أسنان الاطفال في الظهور وهم في شهرهم السادس . على أنه في بعض حالات غير طبيعية يبدأ تسنين الطفل منذ الشهر الثالث . بل قد يولد الطفل وفي لثته السفلى سنتان . أما اذا تأخر ظهور الاسنان الى أن يكمل الطفل سنته الاولى فيرجع ذلك الى ضعف

صحته نتيجة المرض، وعلى الاخص مرض الكساح. وقد يرجع الى ضعف الغدة الدرقية وعدم نشاطها فى الافراز

وعلى كل حال يجب استشارة الطبيب الاخصائى فى حالة تأخر ظهور الاسنان ، وان كان تأخرها لا يدل حتما على ضعف صحة الطفل أو خمول غدته الدرقية . ولكن الاحتياط خير من الاهمال

البرلمان الروسى

(مصر ــ الاسكندرية) سعد الدين الزيات

هل فى روسيا نظام برلمانى ؟

(الهلال) نعم ، فى روسيا برلمان يسمى « المجلس الاعلى » . وهو يتألف من مجلسين: مجلس الاتحاد ومجلس القوميات . وينتخب اعضاء المجلس الاول (وعددهم الآن زهاء ستمائة نسمة) بالاقتراع العام بمعدل نائب عن كل ثلاثمائة ألف نسمة . ويضم مجلس القوميات نوابا عن جمهوريات الاتحاد السوفيتى وعددها احدى عشرة جمهورية ، ويبلغ عدد أعضاء هذا المجلس مائة وخمسين عضوا . ومدة النيابة فى المجلس الاعلى اربع سنوات . والانتخاب فى روسيا حق مباح للرجال والنساء على السواء وكذلك حق النيابة ، وفى المجلس كثير من النساء البارزات

ولكن يجب أن نلاحظ أن حرية الانتخاب غير مطلقة ، كما هو الشأن فى البلاد الديموقراطية ويرجع ذلك الى انه لا يوجد فى روسيا سوى حزب واحد ، هو الحزب الشيوعى . والحرية الانتخابية لا تتحقق الا اذا تعددت الاحزاب ، وأبيح لكل منها ان يدعو لنفسه وبرنامجه كيف شاء، بالصحافة والاذاعة والاجتماعات والاعلانات

ولهذا يمكن ان يقال ان روسيا دولة ديموقراطية من ناحية ، ودولة دكتاتورية من ناحية أخرى ، تنحصر السلطة فيها فى يد حزب واحد ، ثم فى يد فرد واحد ، يسيطر على أمر الدولة كلها

من المسئول عن هزيمة فرنسا ؟

(القاهرة ــ مصر) س. م.

من المسئول عن هزيمة فرنسا : قوادها وزعماؤها ، أم كتابها وأدباؤها ، أم عامة الشعب ؟

(الهلال) لا يمكن ارجاع هذه الهزيمة الكبيرة الى عدة اسباب تعاونت بعضها مع بعض على تحطيم قوى الشعب الفرنسى المادية والمعنوية

فرجالها العسكريون لم ينتبهوا الى ان الحرب الحالية تختلف عن الحرب الماضية : فهذه حرب « جامدة » ، حرب خنادق وحصون ، وتلك حرب « متحركة » تقوم على الدبابات والسيارات ويعمل فيها السلاح الجوى عملا خطيرا

ورجالها السياسيون فضلوا المناورات الحزبية والمكائد السياسية والألاعيب البرلمانية والتشريعية على الوحدة القومية التى لا بد منها فى ساعات الحرج والشدة

ورجال المال والصناعات فيها كانوا أحرص على أموالهم ومصانعهم منهم على وطنهم ، فكانوا يمالئون « النازية » ويؤيدونها ، لانها أكبر حاجز يقوم بينهم وبين الشيوعية

وكتاب فرنسا وأدباؤها لم يرعوا الجانب الاخلاقى فيما كتبوا وأنشأوا، والصحافة الفرنسية بوجه عام صحافة مهاترة أو مبتذلة فيما كانت تعرض له من شؤون السياسة والاجتماع ، والادب الفرنسى الحديث أدب نوازع طائشة ونزوات جنسية جامحة ، على نقيض الادب الانجليزى

والمجتمع الفرنسى بوجه عام مسئول عن هذه الهزيمة : لحرص الرجال على أموالهم وبيوتهم ومدخراتهم لفرقهم من الحرب وكوارثها . وحرص النساء على جمالهن وصحتهن وفراغهن للحياة المتعة البهيجة كرهعن فى مسئوليات الاسرة والاولاد ، فقللن من النسل قلة أعوزت الجيش الى الجنود ، وأعوزت المصانع الى العمال

فهرس الهلال

الجزء الخامس من المجلد الحادى والخمسين